منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة

تأليف

الدكتور عبد الله بن رشيد الحوشاني
مدير عام معهد الأئمة والخطباء

الجزء الأول

مركز الدراسات والإعلام
دار اشبيليا

منهج
شيخ الإسلام ابن تيمية
في الدعوة إلى الله تعالى

— الطبعة الأولى —

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

ح دار اشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحوشاني ، عبد الله بن رشيد

منهج شيخ الاسلام ابن تيميه في الدعوة الى الله تعالى — الرياض

...ص : .. سم

ردمك ٥ — ٧ — ٩١٠٠ — ٩٩٦٠

١ — الدعوة الاسلامية ٢ — ابن تيميه احمد بن عبد الحليم ، ت٧٢٨هـ

١ — العنوان

ديوي ٢١٣ ١٦/٣٥٩٣

رقم الايداع : ١٦/٣٥٩٣

ردمك : ٥ — ٧ — ٩١٠٠ — ٩٩٦٠

مركز الدراسات والإعلام / دار إشبيليا

ت / فاكس : ٤٧٧٣٩٥٩ - ص.ب. : ٣٢٤٦٠ - الرياض : ١١٤٢٨

تطلب جميع منشوراتنا خارج المملكة من :

دار أولي النهى - بيروت - هاتف : ٦٣١٥٥٢ - فاكس : ٦٣١٥٥٣

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية

في الدعوة إلى الله تعالى

تأليف
الدكتور عبد الله بن رشيد بن محمد الحوشاني
مدير عام معهد الأئمة والخطباء

الجزء الأول

مركز الدراسات والإعلام
دار إشبيليا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الدعاة وقدوتهم ، تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

وبعـد :

فإن الدعوة الإسلامية في عصرنا الحاضر ، قد انتشرت في العالم انتشار أشعة الشمس لتبدد ظلمة ليل الجهل والبدع ، ولتهدي من لم يضل إليه نور الإسلام ، وهي بحاجة إلى منهج يستند في قواعده ومقرراته على الكتاب والسنة ثم المأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم .

وإن الباحثين في مسيرة الدعوة المعاصرة ليؤكدون أن كثيراً من الأخطاء الحاصلة لدى الدعوة والدعاة ، إنما سببها غياب المنهجية المستنيرة بنور القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وما هذا التخبط العقدي ، والتفرق إلى أحزاب وجماعات متنافرة متناحرة إلاّ دليل على ذلك ، حتى إن بعض الجماعات يغيب عنها أبسط قواعد التعامل مع الآخرين والحكم عليهم ، فأطلقت العبارات الجارحة على بعض المخالفين في الوسائل والأساليب .

وكان من الواجب على طلبة العلم والباحثين ألا يقتصروا على النقد أو قراءته دون أن يسهموا في تقديم علاج ينهي هذا الواقع المؤلم أو على الأقل يخفف منه .

ولقد أحببت أن أسهم في هذا المجال فرأيت أنّ أعظم مساهمة أستطيعها هي: تقديم منهج أو تجربة للدعوة من أحد علماء الإسلام الأفذاذ . وعلماء السلف الصالح كان لهم منهج في العلم والتعليم يربطهم بالمصادر الحقيقية السليمة المعصومة ، فكانوا ينكبون على الكتاب والسنة حفظاً وفهماً وعملاً ودعوة ، ولا يتصدون لذلك إلا بعد تأهيل قوي يشهد به الشيوخ الأجلاء ، ويأذنون للطالب أن يعلّم ويفتي .

وقد برز من السلف من كان درة في جبين تاريخ الأمة ، ومصدر هداية وإرشاد من خلال الثروة العلمية والفكرية والعملية التي تركها للأجيال من بعده ، سواء منها

ما كان مسطوراً في الكتب أو محفوظاً في العقول بواسطة التلاميذ الذين هم امتداد لشيوخهم.

ويوم تقرب الأمة من المنابع الأصلية الأصيلة فإنها تأمن الكدر وتضمن الصفو بإذن الله تعالى . ومن هذه المنابع الأصيلة علماء السلف الأجلاء الذين ذاع صيتهم وظهر أمرهم وأصبحوا منارات يهتدي بها الضالون والحيارى المتخبطون .

وكم كنت اتمنى وأنا في المرحلة الثانوية أن يتصدى العلماء والمفكرون لكتب السلف ويغوصوا في أعماقها ليلتقطوا لنا الدرر منها ويقدموا منها للصحوة المباركة الزاد العلمي والفكري والمنهج الدعوي المؤصل .

فهذه الفكرة كانت تراودني وأنا في أوائل سن الشباب ، فلما أكرمني الله بنيل شهادة الماجستير من كلية الدعوة والإعلام ، تجدد لي عزمٌ أن أبدأ بما تمنيته على الآخرين، فقررت اختيار عالم من علماء السلف الأبرار ، الذين عرف عنهم الغزارة في العلم ، وتنوع المجالات العملية الإصلاحية الجهادية ، وهم كثير في سلفنا الصالح .

ولكني حرصت أن يكون الزمن الذي عاش فيه حياته العلمية والعملية له تقارب مع ظروف واقعنا الذي نعيشه .

وإضافة إلى ذلك يكون له تراث علمي يمكن اللجوء إليه أثناء الدراسة لفكره ومنهجه ، ويمكن تقديمه للدعاة والمدعوين ليكون وسيلة إمداد علمي وفكري سليم .

وفي نهاية التأمل والتتبع انطبقت هذه المواصفات على علم الأعلام وإمام الأئمة ناصر السنة وقامع البدعة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

وكانت الأسباب التي جعلتني أختار هذا البحث هي :

١ - أهمية الدعوة إلى الله تعالى في كل عصر وفي عصرنا الحاضر أشد والدعوة تتجدد بها ، اتجاهات عقدية وفكرية ، وتهجم عليها مؤثرات سياسية واجتماعية ، وتعرقلها وتشوش عليها مؤامرات اليهودية ، والنصرانية ، والقوى الرأسمالية والعلمانية ، وغيرها ،وهي تحتاج منا أن نكون على عمق علمي ونضوج تام ، وبصر بتجارب السابقين ، وأن نحرص على التزام منهجية واضحة شاملة .

وليس هناك أسلم وأفضل من منهجية السلف الصالح ، خصوصاً الذين تصدوا للتيارات والمؤثرات الوافدة إلى مجتمع الأمة ، وابن تيمية واحد من هؤلاء .

٢ - العصر الذي عاش فيه ابن تيمية رحمه الله يتماثل في كثير من الجوانب مع عصرنا الذي نعيش فيه .

فأعداء الأمة من النصارى ، والتتار أقوياء متحدون متسلطون على المسلمين .

والدولة الإسلامية ممزقة ، والحكام بعض منهم لا يهمه إلا بقاء ملكه وتوسعه ، والقضاء على خصومه من إخوانه المسلمين .

والشعوب الإسلامية انهكتها الخلافات المذهبية والأهواء والنحل والتعصبات للطوائف والجماعات ، وفي المجتمع المسلم بعض الطوائف المنحرفة تتعاون مع أعداء المسلمين وتكاتبهم وتطلعهم على أسرارهم ، وكثيراً ما كانت تفسد بنفسها وتقطع الطريق وتغير على القوافل والقرى المجاورة ، وتدبر الاغتيالات للشخصيات المهمة المؤثرة .

وهذه الصور أغلبها إن لم يكن كلها في المجتمع الإسلامي اليوم في بلاد المسلمين ، وواقعهم .

وبناء على هذا فإن دعوة ابن تيمية التي نشأت في هذا العصر المشابه لعصرنا ستكون من أقرب الدعوات وألصقها بنا ، وسوف تعالج كثيراً من الأدواء التي في مجتمعنا باعتبار التشابه ، إضافة إلى ما عرف عن ابن تيمية من حبه للتأصيل المنهجي ، والعلمي على ضوء عقيدة السلف وفكرهم وفهمهم للقرآن والسنة .

٣ - شخصية ابن تيمية لها مكانة كبيرة ومنزلة عظيمة في العالم الإسلامي وأيضاً غيرالإسلامي، وهو من العلماء الموسوعيين ، ومن العاملين المصلحين الذين قضوا حياتهم في جهاد للعودة بالأمة عودة فكرية للكتاب والسنة والتلقي عنهما وبذل الجهود في أن تكون الهيمنة لهما .

وعودة عملية حيث الالتزام الكامل بالإسلام في كل مظاهر الحياة ، ومحاربة كل ما يخالف ذلك من البدع والانحرافات .

ويكاد يكون شخصية أجمع عليها كل العلماء والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية، إما من كل جوانب هذه الشخصية أو بعضها ، وسترى في الباب الرابع أن العصر الذي عاش فيه ما يمكن أن نسميهم بقادة الثورة الفكرية أمثال الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وأبي الأعلى المودودي ، وحسن البنا ومن قبل هؤلاء محمد بن

عبدالوهاب رحمة الله على الجميع ،كل هؤلاء اتصلوا بابن تيمية من كل جوانبه كمحمد ابن عبدالوهاب ، ورشيد رضا ، أو بعضها كالآخرين .

وما زلنا إلى اليوم ونحن نسمع ونرى اتصالاً عالمياً بفكر ابن تيمية وحياته، فالجامعات، ومراكز العلم ، والعلماء ، ودور النشر بين آونة وأخرى تتحفنا بإنتاج جديد له علاقة بابن تيمية ، أكثرها إيجابي والبعض منها سلبي .

٤ – جانب الدعوة لدى ابن تيمية مغفل لدى الباحثين ، خصوصاً منهجه في ذلك، فلا يوجد بين يدي الأمة كتاب يجمع ذلك ويتحدث عنه ، ويقدم تجربة رائد من رواد الدعوة الإسلامية السلفية تفيد منها الأمة عموماً والحركات الإصلاحية الإسلامية خصوصاً .

والذي يجعل الكتابة في هذا المجال مهمة ما عرف به ابن تيمية من التكامل العلمي والفكري ، والتكامل العملي الميداني ، إضافة إلى الحسم الفكري والعلمي لكثير من المسائل والقضايا التي عانت الأمة من التردد والحيرة والاضطراب فيها ، مع أن هذا الحسم قد ألحق به عداوة كثير ممن عادوه ، لكنها إرادة الله عز وجل في أن يظهر للأمة من يجلو لها طريقها حتى يصبح ليله كنهاره لا يزيغ عنه إلاّ هالك كما تركه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وهذه المسائل والقضايا كثير منها موجود في عصرنا ، والمجددون والمصلحون يعانون من ذلك ، ومن أبرز هذه القضايا افتقاد المنهج السلفي في الدعوة ، فكل يدعي الاتصال بالسلف وأنه على منهجهم مع وجود التباين في مسالك هؤلاء الفكرية والعملية .

فالساحة الآن بحاجة إلى منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله باعتباره داعية ومجدداً ومصلحاً من أبرز علماء السلف في هذا الجانب وغيره .

هذه أبرز الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع والكتابة فيه ، والله أسأل أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

وأما طريقة سيري في البحث وتقسيمه فهي كالآتي :

ينقسم البحث إلى أربعة أبواب ومقدمة وخاتمة وفهارس :

المقدمة : تضمنت أسباب اختيار الموضوع ، وترجمة لحياة ابن تيمية راعيت فيها الاختصار ما أمكن .

الباب الأول : خصائص منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى وتحته خمسة فصول:

الأول : الاحتجاج باللغة العربية .

الثاني : الجمع بين النقل والعقل .

الثالث : الشمول والوضوح .

الرابع : الموضوعية - التجرد والإنصاف .

الخامس : معرفته لثقافة عصره .

الباب الثاني : أصول منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى .

وتحته ثلاثة فصول :

الأول : أصل العقيدة .

الثاني : أصل العبادة .

الثالث : أصل الأخلاق .

الباب الثالث : أساليب ووسائل ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى .

وتحته فصلان :

الأول : الأساليب .

الثاني : الوسائل.

الباب الرابع : آثار منهج ابن تيمية .

وتحته فصلان :

الأول : آثاره على التلاميذ .

الثاني : آثاره على الحركات الإصلاحية الإسلامية .

ثم الخاتمة وقد حوت أبرز ما توصلت إليه هذه الرسالة وبعض الاقتراحات ، ثم كان الختام بالفهرس .

وقد كانت طريقتي في الحصول على منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى هي :

أولاً : قرأت عدداً من كتب ابن تيمية ومؤلفاته ، وعدداً ممن كتب عنه حتى تتكون لدي خلفية جيدة تؤهلني لوضع خطة للبحث وافية ومطابقة للواقع .

ثانياً : بدأت بالقراءة في كتب ابن تيمية قراءة متأنية وأخذت أجمع النصوص على ضوء ما وضعته من خطة البحث ، وما كان داخلاً في الموضوع وليس له مكان في الخطة فإني أدخله في أقرب العناوين إليه أو أستحدث له مبحثاً .

ثالثا : بعد أن انتهيت من مرحلة تجميع النصوص ، أخذت في دراستها دراسة متأملة متأنية ، وقد تكوّن لدي بعد المعايشة الطويلة لفكر ابن تيمية وأحداث حياته تصور شمولي لمقاصده ، وطريقة تعبيره ، وغير ذلك من مضامين الكلام .

وكان نتيجة هذه الدراسة التحليلية استنتاج واستنباط منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى ، والذي أقدمه بين يدي القارىء في هذه الرسالة المتواضعه . نفع الله بها الإسلام والمسلمين .

وقد حرصت أن يكون هذا الجهد واضحاً سهل التناول بعيداً عن التكلف والعبارات الغامضة والغريبة ، وانتقاء النصوص التيمية كان خاضعاً لهذا الهدف ، فاخترت النصوص التي تجمع العمق في التعبير عن المراد ، والوضوح في العبارة ، ولعلي أكون وفقت في هذا الهدف ليكون هذا الجهد العلمي زاداً لكل الدعاة في كل مستوياتهم الثقافية ، وقدراتهم العقلية ، وإن كان هذا مرتقى صعب ، إلا أن نسب التحقيق للأهداف تختلف مقاديرها .

وحرصت أيضاً أن يكون ابن تيمية رحمه الله هو المتحدث عن منهجه والمبرز له بأقواله وألفاظه، وهذا هو التفسير لكثرة النصوص التيمية في هذه الرسالة وطولها بعض الأحيان . وهذا منهج في البحث تختلف فيه الآراء ، وكان رأيي مستقراً على أن هذا البحث يجب أن أحشد فيه الكثير من الشواهد والأدلة على صدق ما أستنتجه من المنهجية الدعوية لدى ابن تيمية .

فما أظن أني تركت فرصة لأي تساؤل يقول : من أين لك هذا ؟ فما يثور هذا التساؤل إلا ويجد الإجابة الكاشفة من كلام شيخ الإسلام تصدق صحة الاستنتاج وأنه من سويداء التراث التيمي.

ومنذ أن اتصلت بالأبحاث العلمية وأنا أحب هذا المنهج ، وكان يزعجني بعض المؤلفين الذين يكتبون عن الآخرين ولا نجد لهم أقوالاً فيما كتب عنهم .

ولا يعدو أن يكون المكتوب « ويرى ، وكان ينهج ، ويتصور » ولا نرى شواهد لما ذكر . وإن كان يوجد إحالات إلى مؤلفاته ولكن قد لا يكون لديك الكتاب ، وقد يكون تصور الكاتب وترجمته لأفكار من يكتب عنه غير صحيح ، فوجود النص يعطي للقارىء فرصة المشاركة للكاتب في دقة استنتاجه ، ومن ثم الاطمئنان المتكامل لما دوّن .

ولقد حاولت أن أستطلع آراء المهتمين بمثل هذه المباحث ، فكان ارتياحهم للمنهج الذي اخترته يصل إلى حد المطالبة الملزمة بالاستمرار . والكثير قالوا : إننا بشوق لنقرأ كلام ابن تيمية في جوانب الدعوة ومنهجها ، فكان هذا من أسباب الثبات على هذا الاتجاه ، وأسأل الله أن يكون فيه النفع وبراءة الذمة ، والوفاء بحق هذا العلامة المجاهد رضي الله عنه وأرضاه .

ولقد استفدت من الاتصال بكثير من العلماء إما شخصياً وإما عن طريق مؤلفاتهم عن ابن تيمية في سيرته الذاتية ، أو جوانب من فكره ، ودعوته .

ولقد أفدت كثيراً من هذه اللقاءات فأنا أشكر كل هؤلاء داعياً الله أن يجعلنا وإياهم من أنصار دينه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وإن من الإنصاف الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم ، وهذا يجعلنا من أهل الفضل، لأنه لا يعرف الفضل لذوي الفضل إلا ذوو الفضل .

وكثير أولئك الذين يجب عليّ شكرهم والوفاء بحقهم لما لهم عليّ من الفضل إما برأي ، أو ملاحظة ، أو دلالة على بحث علمي أو مرجع أو نحو ذلك ، لهؤلاء كلهم وافر الشكر وصادق الدعاء وعظيم الثناء .

وختاماً فإني أشكر مولاي جل جلاله على ما أنعم به عليّ من إتمام هذا الجهد العلمي سائله أن يجعله مباركاً ، نافعاً لي ولعموم المسلمين ، وأتمنى أن يكون مفيداً للصحوة الإسلامية المباركة في بلادنا وسائر الأقطار الإسلامية ، وإني لأهيب بكل من قرأ هذه الرسالة ووجد فيها عيباً أن يهديني إياه ، ورحم الله من أهدى إلي عيوبي ، وليس عيباً في المرء أن يخطىء من غير قصد ، لأن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، ولكن العيب ألا يقبل النصح في خطأه فتلك مكابرة وكبر مذمومان شرعاً وعقلاً وعرفاً .

التمهيد

حياة ابن تيمية

حياته :

أ ـ اسمه .

ب ـ أسرته .

ج ـ طلبه العلم .

د ـ عبادته .

هـ ـ بعض صفاته الخَلْقيّة والخُلُقية .

و ـ امتحانه وابتلاؤه في مصر .

ز ـ امتحانه وابتلاؤه في دمشق .

ح ـ وفاته .

حيـــاة ابـــن تيميـــة

سنقدم بين يدي هذا الكتاب ترجمة صاحبه ، أعجوبة الزمان فريد عصره ، ووحيد دهره « طنت بذكره الأمصار ، وضنت بمثله الأعصار » [1] . قال عنه ابن سيد الناس اليعمري : « ولم تر عين من رآه مثلَه ، ولا رأت عينه مثل نفسه » [2] .

وقال عنه ابن دقيق العيد : « ما كنت أظنُ أنَّ الله تعالى : بقي يخلق مثلك » [3] .

وقال عنه ابن الوردي في مرثيته :

تقي الدين ذو ورع وعلـم ... خروقُ المعضلات بـه تُخَـاطُ
قضى نحباً وليس له قريـن ... ولا لنظيـره لُـفَّ القمـاطُ
فتىً في علمِهِ أضحى فريـداً ... وحَلُّ المشكلات بـه يُنـاطُ [4]

وقال عنه أبو حيان النَّحوي في مجلس ضمهما معاً في مصر :

قام ابنُ تيمية فـي نصـر شرعتنـا ... مقـام سَيِّـد تيـم إذ عصت مُضَـرُ
فأظهر الحـقَّ إذْ آثـاره دُرسَـتْ ... وأخْمَدَ الشرَّ إذ طارتْ لـه الشَّـرَرُ
كُنَّا نُحدَّث ـ عن حَبرْ يجـيء ـ فها ... أنتَ ـ الإمام الذي قد كان يُنْتَظَـرُ [5]

وقال عنه ابن القيم حين ترجم له : « شيخ الإسلام والمسلمين ، القائم ببيان الحق ، ونصرة الدين ، الداعي إلى الله ورسوله ، المجاهد في سبيله ، الذي أضحك الله به من الدين ما كان عابساً ، وأحيى من السنة ما كان دارساً ، والنور الذي أطلعه الله في ليل الشبهات ، فكشف به غياهب الظلمات .. » [6] .

وقال الذهبي: « ... وأحيى به الشام بل والإسلام ، بعد أن كاد ينثلم » [7] .

وقال عنه ابن الزَّملكاني كما نقل ابن رجب في طبقاته : « ولم يُرَ من خمسمائة

---

(١) العقود الدرية لابن عبدالهادي /٧ تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
(٢) العقود الدرية /٥٣ ، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية /٢٧ تحقيق وتعليق نجم خلف، ط الثانية عام ١٤٠٥هـ ، دار الفرقان ، ومؤسسة الرسالة .
(٣) العقود الدرية /١٠ ، والشهادة الزكية /٢٩ .
(٤) العقود الدرية /٥٠٧ – ٥٠٨ ، والشهادة الزكية /٣٠ .
(٥) ديوان أبي حيان /٤٤٧ تحقيق د. أحمد مطلوب ، والدكتورة خديجة الحديثي .
(٦) الشهادة الزكية /٣٤ .
(٧) الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٣٩٠ ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت .

سنة... أحفظ منه » (١) ، وقال :« سيِّد العلماء ، قدوة الأئمة الفضلاء ، ناصر السنَّة ، وقامع البدعة ، حجة الله على العباد » (٢) ، وقال أيضاً : « إمام الأئمة ، قدوة الأمة ، وارث الأنبياء ، بركة الإسلام ... محيي السنة ومن عَظُمت به لله علينا المِنَّة » (٣) .

وقال عنه الذهبي : «وهو أكبر من أن يُنَبه مثلي على نعوته ، فلو حُلِّفت بين الركن والمقام لحلفت: أني ما رأيت بعيني مثلَه، ولا رأى هو مثلَ نفسه في العلم » (٤).

وقال في رثائه :

يا موتُ خُذ من أردتَ أو فَدَع — محوتَ رسمَ العُلوم والورع
أخذَت شيخَ الإسلام وانْفصَمَت — عُرى التُّقى ، واشتفى أولو البدع
غَيَّبتَ بحراً مفسراً جبلاً — حَبْراً تقياً مُجانِبَ الشَّبع (٥)

وقال أيضاً : « كان رباني الأمة ، وفريد الزمان ، وحامل لواء الشريعة ، وصاحب معضلات المسلمين » (٦) .

وقال عماد الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي :« ثم إن الله تعالى قد رحم هذه الأمة بإقامة رجل قوي الهمة ، ضعيف التركيب ، قد فرق نفسه وهمه في مصالح العالم وإصلاح فسادهم ، والقيام بمهماتهم ، وحوائجهم ، ضمن ما هو قائم بصدد البدع والضلالات وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم ويردهم إلى الدين الأول العتيق جهد إمكانه » (٧) .

وأبو عبدالله محمد بن قوام يحكي عنه أنه كان يقول : « ما أسلمتْ معارفنا إلاْ على يد ابن تيمية » (٨) .

أ – اسمه :

ولعلنا جعلناك أخي القارئ في شوق إلى أن تتعرف على هذا العلم الذي قيلت فيه هذه الشهادات ،إنه : تقي الدين أبو العباس : أحمد بن شهاب الدين أبو المحاسن

(١) الشهادة الزكية /٣٦ . (٢) العقود الدرية /٨ ، والشهادة الزكية /٣٧ .
(٣) العقود الدرية /٩ ، والشهادة الزكية /٣٧ .
(٤) الشهادة الزكية /٤٢ ، وأيضاً الرد الوافر /٣٥ ، لابن ناصر الدمشقي ، تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي بيروت عام ١٣٩٣هـ ، والدرر الكامنه ١/١٦٨ – ١٦٩ لابن حجر العسقلاني – مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٣٧٨هـ .
(٥) الشهادة الزكية /٤٣ ، والرد الوافر /٣٥ – ٣٦ .
(٦) العقود الدرية /٢٤ ، والشهادة الزكية /٤٣ تحقيق نجم الدين خلف . (٧) العقود الدرية /٣١٩ .
(٨) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/٣٩٣ ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان .

عبدالحليم ابن شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات : عبدالسلام بن أبي محمد عبدالله بن أبي القاسم الخضر، بن محمد بن الخضر ، بن علي ، بن عبدالله ابن تيمية الحراني نزيل دمشق .

ولد بحران يوم الاثنين عاشر – وقيل ثاني عشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ ، وسافروا من حران إلى دمشق لما علموا بتوجه التتار إلى ديارهم ، وفي هذه الرحلة ابن تيمية وأخواه ووالده وأمه ، وعجلة محملة بالكتب العلمية ، وكان عمر شيخنا ابن تيمية ست سنوات ووصلوا إلى دمشق سنة ٦٦٧هـ (١) .

ب – أسرته :

وأسرة «آل تيمية» أسرة علم ، وذكاء ، وجد ، وطموح ، ولا أدل على حبها للعلم من أن يأخذوا معهم في حال هربهم وخوفهم عربة كتب يجرونها هم لعدم الدواب ، والعدو قريب ، وتتعطل العربة فلا يتركونها ، وتؤخرهم ، فلجأوا إلى الله يستغيثونه فأغاثهم فنجوا .

وَجَدُّ ابن تيمية ووالده من العلماء الكبار المعدودين وهم من شيوخ الحنابلة (٢) .

ج – طلبه العلم :

على يدي والده وجده طلب العلم وتفقه فيه ، وحفظ القرآن مبكراً ، ومن عجائب طفولته أن والده أراد تشجيعه على حفظ القرآن ، فاتفق مع معلمه بدون علمه على أن يعطيه أربعين درهماً في كل شهر إذا لم ينقطع عن تعلم القرآن ، فلما أعطاه معلم القرآن الأربعين درهماً قال ابن تيمية :« يا سيدي إني عاهدت الله تعالى ألا آخذ على القرآن أجراً، ولم يأخذها ، قال معلمه : فرأيت أن هذا لا يقع من صبي إلا لما لله فيه من العناية» (٣) .

ولقد كان منذ صباه جاداً لا يحب اللهو وإضاعة الوقت بما لا يفيد ، والجد مع الذكاء والفطنة والتوفيق الإلهي لابد أن يثمر ثماراً يانعة مباركة ، وهذا هو ما حصل وشهد به المعاصرون له ، ونذكر بعض هذه الشهادات :

قال الشيخ البزار رحمه الله:«ولم يزل منذ أيام صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد ، وختم القرآن صغيراً ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى

---

(١) العقود الدرية /٢ . (٢) العقود الدرية لابن عبدالهادي /٢ .

(٣) الأعلام العلية /٤٤ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

برع في ذلك، مع ملازمته مجالس الذكر ، وسماع الأحاديث والآثار ، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية ، أما دواوين الإسلام الكبار كمسند أحمد ، وصحيح البخاري ، ومسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارقطني ، فإنه سمع كل واحد منها مرّات عدة » (١) .

« وتعلم الخط والحساب .. وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى حاز فيه قصب السبق ، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك ، هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة ، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه وقوة حافظته ، وسرعة إدراكه » (٢) .

« وقلّ كتاب من فنون العلم إلاّ وقف عليه كأن الله قد خصه بسرعة الحفظ ، وإبطاء النسيان . لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالباً إلاّ ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه » (٣) .

وقال أيضاً مشيداً بتنوع علومه وسعة معارفه : « ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته الأولى بمصر لما أُخذ وسُجن وحيل بينه وبين كتبه ، صنف عدّة كتب صغاراً وكباراً ، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث ، والآثار ، وأقوال العلماء ، وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم ، وعزا كل شيء من ذلك إلى قائليه بأسمائهم ، وذكر أسماء الكتب التي ذلك فيها ، وفي أي موضع هو فيها ، كل ذلك بديهة من حفظه ، لأنه لم يكن عنده كتاب يطالعه ، ونُفيت – أي نُقِدَت – واعتبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلل ولا تغير . ومن جملتها كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول» (٤) .

ولقد اهتم ابن تيمية بالكتاب والسنة علماً وعملاً وأثنى عليه العلماء في هذا الجانب ثناءً منقطع النظير ، ونورد بعض شهاداتهم وثنائهم : الحافظ المزي قال : « وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولا أتبع لهما منه » (٥) .

وقال البرزالي في معجم شيوخه : « ومهر في علمي التفسير والحديث ، وكان إماماً لا يلحق غباره في كل شيء ... وكان إذا ذاكر في التفسير بهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده ، وإعطائه كل قول ما يستحق من الترجيح والتضعيف والإبطال» (٦) .

---

(١) السابق /٢١ ، ٢٢ .

(٢) العقود الدرية /٣ بتصرف .

(٣) الأعلام العلية / ٢٢ .

(٤) الأعلام العلية /٢٤ ، ٢٥ ، العقود الدرية /٧ .

(٥) العقود الدرية /٧ .

(٦) العقود الدرية /١٢ ، ١٣ .

وقال الذهبي : « قلت : وله خبرة تامة بالرجال ، وجرحهم ، وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ، ولا يقاربه ، وهو عجب في استحضاره و استخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، وأما التفسير : فمسلم إليه وله في استحضار الآيات القرآنية – وقت إقامة الدليل بها على المسألة – قوة عجيبة ... ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه يبيّن خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويوهي أقوالاً عديدة ، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث » (١) .

وكان يطالع في تفسير الآية أكثر من مائة تفسير ويبتهل إلى الله أن يفهمه ويدعو: « يا معلم آدم وإبراهيم علمني ، ؟ وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب ، وأسأل الله تعالى ، وأقول : يا معلم إبراهيم فهمني » (٢) .

والمنهج الذي سار عليه هو السير مع الكتاب والسنة ، فإذا ثبت الحق ببراهين منهما فإنه لا يحيد عنه قيد شعرة مهما كلفه ذلك من ثمن ، وشهد له بذلك الحافظ البزار فقال : «قد اشتهر أمره وظهر، فإنه ـ رضي الله عنه ـ ليس له مصنف ولا نص في مسألة ولا إفتاء إلا وقد اختار فيه ما رجحه الدليل النقلي والعقلي على غيره ، وتحرى قول الحق المحض ، فبرهن عليه بالبراهين القاطعة الواضحة الظاهرة ، بحيث إذا سمع ذلك ذو الفطرة السليمة يثلج قلبه بها ويجزم بأنها الحق المبين ، وتراه في جميع مؤلفاته إذا صح الحديث عنده يأخذ به ويعمل بمقتضاه ، ويقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد .

وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسنة لا يُميله عنهما قول أحد، كائناً من كان ، ولا يُرائي في الأخذ بعلومهما أحداً ، ولا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ، ولا سوطاً ولا سيفاً، ولا يرجع عنهما لقول أحد. وهو متمسك بالعروة الوثقى، واليد الطولى ، وعامل بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾(٣) ، وما سمعت أنه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل ما اشتهر عنه من كثرة متابعته للكتاب والسنة، والإمعان في تتبع معانيهما ، والعمل بمقتضاها » (٤) .

ولما كثرت كتب الفلسفة والمنطق ، وأخذ كثير من المتكلمين بالطرق المنطقية ،

(١) العقود الدرية / ٢٤ ، ٢٥ . (٢) العقود الدرية /٢٦ . (٣) سورة النساء آية (٥٩) .
(٤) الأعلام العلية للبزار / ٦٩ ، ٧٠ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، وانظر العقود الدرية /١٢ ، ١٣.

انتشرت ألفاظ ومصطلحات لم تكن معروفة لدى السلف الصالح ، وكثير منها في العقائد ، والتبس أمرها على العلماء أو كثير منهم ، وهابوا الكلام فيها ، وأحجموا عن الإقدام عليها ، لقلة البصر بها ، وخوف نقد الآخرين وخشية التناقض ، فأقبل عليها ابن تيمية بعلمه الغزير ، وعقله المنير ، وبيّن ما فيها من الحق المقبول والباطل المرذول ، قال الذهبي عنه :« وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون ، وهابوا، وجسر عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه وبدّعوه وناظروه ، وكاتبوه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي ، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده وحدّة ذهنه ، وسعة دائرته في السنن والأقوال » (١) .

وابن تيمية وإن كان ابتدأ حنبلياً إلا أنه ظل سنينَ من عمره إلى أن توفي وهو لا يلتزم بمذهب معين ، ضالته الحق الذي يدل عليه الدليل من الكتاب والسنة ، فكان لا يفتي بمذهب معين ، وهذا المنهج الذي اتبعه جعله يسلم من التصنيف المذهبي من قبل الآخرين ، والذي بدوره يقف حاجزاً نفسياً أمام أتباع المذاهب الأخرى للأخذ منه والتعلم على يديه ، وأيضاً يلصق به أخطاء أتباع المذهب الذي ينتمي إليه أو الجماعة التي يرتبط بها ، ولكنه جعل انتماءه لما هو مقبول لدى الجميع بلا خلاف ، وهو الكتاب والسنة ، وانتسابه إلى معترف به وهم السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وهذا الذهبي يقرر هذه الحقيقة فيقول :« وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين ، بل بما قام الدليل عليه عنده ، ولقد نصر السنة المحضة ، والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ، ومقدمات، وأمور لم يُسبق إليها » (٢) .

ولم يكن ابن تيمية محدوداً في علومه ومعارفه في الكتاب والسنة فقط ، بل كان موسوعة علمية تضم كل العلوم والمعارف ، وهذا ما شهد به فحول العلماء في زمانه ، قال العلامة ابن دقيق العيد رحمه الله :« لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد» (٣) . وقال الشيخ ابن الزملكاني: «وقد ألان الله له العلوم، كما ألان الحديد لداود،كان إذا سُئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع : أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ،ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع ، أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنتسبين إليه » (٤) وأترك الإطالة في هذا لأنه سيأتي الحديث عن كثير من هذه الجوانب في الفصل الخامس من الباب الأول.

(١) الشهادة الزكية /٤١ ، تحقيق نجم خلف . (٢) الشهادة الزكية /٤١ . (٣) السابق /٢٩ .
(٤) السابق /٣٦ ، ٣٧ ، ذيل طبقات الحنابلة ٣٩٢/٢ ، والرد الوافر /٥٨ تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت عام ١٣٩٣هـ .

د – عبادته :

لم يعرف معاصروه مثله في العبادة والزهد ، وتكامله في العبادة قوليّها وفعليّها خاصها وعامها ، فرائضها ونوافلها ، يحدثنا تلميذه البزار عن هذا الجانب فيقول : « أما تعبده رضي الله عنه فإنه قلّ أن سمع بمثله ، لأنه كان قد قطع جُلَّ وقته وزمانه فيه ، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى ما يرادُ له من أهل ولا من مال ، وكان في ليله متفرداً عن الناس كلهم خالياً بربه عز وجل ، ضارعاً ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية ، وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم ، وكان إذا أحرم بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميد يمنةً ويسرة» (١) . « وصليت خلفه التراويح في رمضان فرأيت على قراءته خشوعاً ورأيت على صلاته رقة حاشيةٍ تأخذُ بمجامع القلوب » (٢) .

وكان يجلس بعد صلاة الفجر من كل يوم حتى زوال وقت النهي يمضي الوقت بالذكر ويعتبر هذا قوت يومه ، وزاده الروحي ، وأنه لو تركه لما استطاع أن يعيش ، وقد عرفت هذه العادة منه فكان « لا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر ، فلا يزال في الذكر يسمع نفسه ، وربما يُسَمِعُ ذكره من الروحانية ، مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقلب بصره نحو السماء ، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة » (٣) .

وكان لا يرى منكراً في طريقه إلاّ أزاله بقول أو فعل ، وكان يحرص على الصلاة على الجنائز، فإذا سمع بجنازة سارع إلى الصلاة عليها ، أو تأسف على فواتها ، وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث فصلى عليه ثم يعود إلى مسجده ، فلا يزال تارة في إفتاء الناس ، وتارة في قضاء حوائجهم حتى يصلي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه » (٤) .

وكان الذكر والدعاء والتسبيح لا يفارق لسانه ليلاً ونهاراً ، وكان غالب دعائه: «اللهم انصرنا ولا تنصر علينا ، وامكر لنا ولا تمكر علينا ، واهدنا ويَسِّر الهدى لنا ،

---

(١) الأعلام العلية /٣٧ تحقيق د. المنجد .

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين /١٨ ، نقلاً عن ابن الوردي في التاريخ .

(٣) الأعلام العلية /٣٨ .

(٤) السابق /٣٩ .

اللهم اجعلنا لك شاكرين ، لك ذاكرين ، إليك راغبين ، لك مخبتين ، إليك راهبين ، لك مطاويع، ربنا تقبل توباتنا، واغسل حوباتنا، وثبت حججنا، واهد قلوبنا ، واسلل سخيمة صدورنا » يفتتحه ويختتمه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (١) .

وإذا أشكل عليه أمر أو أغلق فهم ، أو اضطره أمر لجأ إلى ربه ومولاه يدعوه ويتضرع إليه ، ويسأله الإعانة ، قال رحمة الله تعالى عليه: « إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء ، أو الحالة التي تشكل علي ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل . قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي» (٢) .

هـ - بعض صفاته الخَلقية والخُلقية :

جمع الله لابن تيمية البسطة في العلم والجسم ، وصفاته الأخلاقية كثيرة ، فقد كان متخلقاً بأخلاق النبوة وآدابها ، وأخلاقه الفاضلة أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ، قال الشيخ جمال الدين ابن الزملكاني : « ماذا يقول الواصفون له وصفاته جلت عن الحصر» (٣) ، ووصف الإمام الذهبي ابن تيمية فقال : « كان أبيض ، أسود الرأس واللحية قليل الشيب ، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت فصيح اللسان ، سريع القراءة ، تعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح » (٤) .

وقد برز من صفاته :

١ - الذكاء والفطنة ، وسرعة البديهة وحضور الحجة في المواقف المحرجة ، وبرهان ذلك المواقف الآتية :

دخل على ابن تيمية رجل تاجر طلب منه أن يشفع له عند قطلوبك الذي منع حقه فذهب معه ، فلما رآه قطلوبك قال : إذا رأيت الأمير بباب الفقير ... وإذا رأيت الفقير بباب الأمير فبئس الأمير وبئس الفقير . وقيل إنه : لما دخل إليه وتكلم معه في ذلك قال له قطلوبك : أنا الذي أريد أجيء إليك لأنك رجل زاهد، يعرض بقولهم إذا كان

---

(١) الأعلام العلية /٣٨ وانظر: /٣٩ . (٢) العقود الدرية /٥ ، ٦ تحقيق محمد حامد الفقي .
(٣) انظر: السابق /٣٧٣ تحقيق محمد حامد الفقي . (٤) الدرر الكامنه ١/ ١٥١، مطبعة دار الجبل بيروت .

الأمير بباب الفقير- الزاهد أو العالم - فنعم الأمير ونعم الفقير، فقال له ابن تيمية: قطلوبك ! لا تعمل علي دركواناتك ؟، موسى كان خيراً مني، وفرعون كان شراً منك، وكان موسى كلّ يوم يجيء إلى باب فرعون مرّات في كل يوم ، ويعرض عليه الإيمان ، وأنا آمرك أن تدفع لهذا حقه ، فلم يسعه إلا امتثال أمره (١) .

وقال الحافظ الذهبي : «حكى لي عنه الشيخ شمس الدين ابن قيمّ الجوزية قال : كان صغيراً عند بني المنجا ، فبحث معهم ، فادّعوا شيئاً أنكره ، فأحضروا النقل، فلما وقف عليه ألقى المجلد من يديه غيظاً ، فقالوا له :ما أنت إلا جريء ترمي المجلد من يدك ، وهو كتاب علم ، فقال سريعاً : أيما خير أنا أو موسى ؟ فقالوا: موسى ، فقال : أيما خير هذا الكتاب أو ألواح الجوهر التي كان فيها العشر كلمات ؟ قالوا : الألواح ، فقال : إنّ موسى لما غضب ألقى الألواح من يده ، أو كما قال .

وحُكي لي عنه أيضاً قال : سأله فلانٌ - أُنسيته - فقال : أنت تزعم أن أفعالك كلها من السنة ، فهذا الذي تفعله بالناس من عَرْك آذانهم من أين جاء هذا في السنة ؟ فقال : حديث ابن عبّاس في الصحيحين قال : صلّيتُ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً ، فكنت إذا أغفيتُ أخذ بآذاني ، أو كما قال» (٢) .

٢ - الجد والحزم مع النفس :

إن الثمار التيمية اليانعة العلمية والعملية يقف وراءها روح وثابة ونفس طموحة ، وهمة عالية ، وإرادة لا تعرف السأم ولا الملل ، قد هانت عليها لذات الدنيا ومتعها ، والعجب الذي لا ينقضي أن تكون هذه المعاني في غلام لم يبلغ مبلغ الرجال بعد ، وهذا يحتم أن يكون وراء ذلك كله إرادة ربانية وحكمة إلهية ليتحقق به خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعوده لأمة الإسلام في تجديد الدين على رؤوس المئين (٣) .

---

(١) الدرر الكامنه ٣/٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين /٢٨ الدكتور صلاح الدين المنجد ، ط الأولى عام ١٩٧٦م ، دار الكتاب الجديد - بيروت ، نقلاً من الوافي بالوفيات للصفدي .

(٣) نص الحديث :« عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» قال أبو داود :رواه عبدالرحمن بن شريح الإسكندراني لم يَجُزْ به شراحيل . وعلق الشيخ عبدالحميد على قول أبي داود بقوله : عبدالرحمن بن شريح الاسكندراني ثقة ، اتفق البخاري ومسلم على الاحتجاج بحديثه وقد عضل الحديث ، قاله المنذري ، والحديث المعضل : هو الذي سقط منه راويان فأكثر في مكان واحد ، ومعنى قوله =

وكان رحمه الله يدرك أن التغيير ليس عملية سهلة ، وإنما هو رحلة طويلة لا بد فيها من استصحاب تلك الصفات الدافعة للأمام المقتضية لتحمل الصعاب ، يقول رحمه الله : «لا بد للسالك إلى الله من همة تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه» ، ويقول: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين » (١) .

وثناء العلماء وشهاداتهم له في هذه الصفة كثيرة ،منها : ما قاله البزار رحمه الله: « لم يزل منذ صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد » ، وقال بعض قدماء أصحابه : « لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة ولا تمل من الاشتغال، ولا تكل من البحث » (٢).

وقال الصفدي : « وكان من صغره حريصاً على الطلب ، مجداً على التحصيل والدأب ، لا يؤثر على الاشتغال لذة ، ولا يؤثر أن يضيع منه لحظة في البطالة فذة ... ويغيب في لذة العلم عن حسه ... وقيل إنَّ أباه وأخاه وجماعة من أهله وآخرون ممن يلوذون بظله سألوه أن يروح معهم يوم سَبْت ليتفرج ، فهرب منهم ولا ألْوى عليهم ولا تفرج ، فلما عادوا آخر النهار ولاموه على تخلفه ، وتركه لاتباعهم ، وما في انفراده من تكلفه . فقال : أنتم ما تزيّد لكم شيء ولا تجدد ، وأنا حفظت في غيبتكم هذا المجلد ، وكان ذلك الكتاب « جَنَّة المَنَاظر وجُنَّة المُنَاظر » وهو مجلد صغير وأمره شهير ، لا جرم أنه كان في أرض العلوم حارثاً وهو همام » (٣) .

وقال الصفدي أيضاً : « وكانت همته عليّة إلى الغاية لأنه كان كثيراً ما ينشد :

تمـوت النفـوس بأوصابها ... ولـم تشـكُ عوّادَهـا ما بهـا
ومـا أنصفتْ مهجـةٌ تشتكـي ... هواهـا إلـى غيـر أحبابهـا

وينشد أيضاً :

= عضل الحديث أنه أسقط منه أبا علقمة وأبا هريرة ، وهذا معنى قول أبي داود (لم يجز به شراحيل) انظر: سنن أبي داود : أول كتاب الملاحم (٣١) باب ما يذكر في قرن المائه (١) رقم الحديث (٤٢٩١) ٤/٤٨٠ .

(١) الشهادة الزكية /٣٥ .
(٢) العقود الدرية /٥ .
(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين للدكتور صلاح الدين المنجد /٥١ ، عن كتاب أعيان العصر للصفدي مخطوطة أمانة خزينة رقم ١٢١٤ .

من لم يَقُدْ ويُدَسَّ في خيشومه رَهَجُ الخميس فلن يقودَ خميسا (١)

٣ - البذل مع قلة ذات اليد :

كان رضي الله عنه وأرضاه مع صدوده عن الدنيا واقتصاره على ضروراتها جواداً كريماً معطاءً ، يؤثر على نفسه حتى ولو كان بقوت يومه أو بعضه ، فإذا جاءه سائل ولم يكن لديه شيء نزع له بعض ثيابه ، حتى أنه يوماً من الأيام لم يجد شيئاً فنزع عمامته قسمها قمسين وأعطى الفقير أحدهما واعتم بالآخر (٢) .

وكان يتعمد أن يبقي من قوته وهو قليل يؤثر على نفسه الفقراء والمحتاجين ، وربما أخذ بعض الأرغفة في كمه فإذا مرَّ بمحتاج دفعها إليه خفية من دون علم أصحابه الذين معه (٣) .

وهذا الكرم في ابن تيمية لم يكن يتطبعه أو يتصنعه بل كان له سجية وجبلة ، كان هذا الكرم والجود شاملاً لأنواع المنافع من المأكول والملبوس ، ومن المال ، والجاه ، والكتب « فكان لا يردُ من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير ، ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك ... ولا يدع من سأله يذهب بلا شيء ... وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله .

وكان من عادة الشيخ أنه لا يرد أحداً يسأله شيئاً من كتبه بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما شاء منها - قال البزار عمن يثق به - :«وأخبرني أنه جاءه إنسان فسأله كتاباً ينتفع به ، فأمره أن يأخذ كتاباً يختاره ، فرأى ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفاً قد اشتري بدراهم كثيرة ، فأخذه ومضى، فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك ، فقال : لا يحسن بي أن أمنعه بعدما سأله ، دعه فلينتفع به ». وكان الشيخ ينكر إنكاراً شديداً على من يُسأل شيئاً من كتب العلم التي يملكها ويمنعها من السائل ويقول : ما ينبغي أن يُمنع العلم ممن يطلبه » ،ثم ختم كلامه عن كرم ابن تيمية بقوله : « وهذا القدر من كرمه يُغني المقتدي » (٤) ، فالمقصود إذن من هذا البيان هو الاقتداء بالصالحين أهل العلم والعمل ومن أجل ذلك ذكر الله عز وجل قصص أنبيائه ورسله وأحوال أممهم معهم في التصديق والتكذيب حتى نعتبر ونتعظ ، ومن ذلك الاقتداء بالصالح المفيد وترك السيء الضار .

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/١٤٩ - ١٥٠ ، دار الجيل - بيروت .
(٢) انظر : الأعلام العلية /٥٩ . (٣) انظر : السابق /٤٧ . (٤) الأعلام العلية /٦١ ، ٦٢ .

والكرم في عرف ابن تيمية أن تجود بما معك لحاجة أخيك إليه وأنت لا ضرورة لك به ، فكان رحمه الله يبذل ما في يده ، ولهذا تعجب الإمام الذهبي من كرمه وأخبر أنه لم يشاهد مثله قط .

وكان من كرم نفسه وسخائها وأصالة معدنه لا ينتظر أن يأتيه أصحاب الحاجات ، بل كان يبحث عنهم ، ويساعدهم ولا يعلمون إلاّ وهو قد قضى حاجتهم ، أو قدم لهم ما يريدون ، دفعه لهذا حب إخوانه المسلمين ويقينه أن هذا الحب لابد أن يترجم إلى واقع عملي يكون برهاناً لهذه المحبة ، وأنّ النفوس لا تستجيب إلاّ لمن وضع يده على جراحها فضمدها وسكن داءها ، أما أولئك أصحاب النظريات فقط والخطب الرنانة فقط فهي لا تستطيع أن تلوي أو تميل أعناق القلوب إليها، وما هي إلاّ سحائب صيف قد أفرحت الناس ببرقها ورعدها ثم ولت عنهم ولم تبل أرضهم بقطرة ماء ، لذا عرف عنه: « تفقد المحتاجين ، والغرباء ، ورقيقي الحال من الفقهاء، والقراء ، واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ، ومساعدته لهم ، بل لكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه ، وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ، ووجهه وجاهه » (١) .

٤ - التواضع وعدم الكبر :

ومن الأخلاق الفاضلة التي اشتهر بها شيخ الإسلام ابن تيمية التواضع ، وعدم الكبر والتعالي على الآخرين خصوصاً الفقراء ، والمحتاجين ، بل كان شديد الحرص على هؤلاء وتطييب قلوبهم وإدخال السرور عليهم ، فكان يعطف عليهم ويشعرهم بالحب والمودة ويكرمهم ويدنيهم منه ويحادثهم بلطف واهتمام وكأنهم من علية القوم أو خاصة الأصحاب ، ويقبل عليهم أثناء ذلك بكليته لا يتشاغل عنهم ولا يتبرم منهم ، حتى يخدم بعضهم بنفسه ، ويساعده في حمل بعض حاجاته ، وكان رحمه الله يتعامل مع الناس على مستوى إدراكهم ومعرفتهم فيتنازل وينزل معهم في المعاملة والخطاب ، يصفح عن جفائهم ، أو عدم مراعاتهم لانشغاله ، وهذا البزار رحمه الله أحد العارفين بابن تيمية يصف لنا هذه المعاني الأخلاقية العظيمة قائلاً : « وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعتُ بأحدٍ من أهل عصره مثله في ذلك ، كان يتواضع للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والغني الصالح والفقير . وكان يدني الفقير الصالح ويُكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلي زيادة على مثله من الأغنياء حتى إنه ربما خدمه بنفسه ، وأعانه بتحمل حاجته ، جبراً لقلبه ، وتقرباً بذلك إلى ربه .

---

(١) السابق /٤٨ .

وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله ، بل يُقبل عليه ببشارة وجه ولين عريكة ، ويقفُ معه حتى يكون هو الذي يُفارقه ، كبيراً كان أو صغيراً ، رجلاً أو امرأة ، حراً أو عبداً ، عالماً أو عامياً ، حاضراً أو بادياً ، ولا يجبهه ، ولا يحرجه ولا ينفره بكلام يوحشه ، بل يُجيبه ويفهمه ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط .

وكان يلزم التواضع في حضوره مع الناس ومغيبه عنهم ، في قيامه وقعوده ، ومشيه ومجلسه ومجلس غيره » (١) .

٥ - الورع والزهد في الدنيا :

كان رضي الله عنه في الغاية التي ينتهى إليها في الورع ، لأن الله تعالى أجراه مدة عمره كلها عليه ، فإنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ، ولا تجارة ، ولا مشاركة ولا زراعة ، ولا عمارة ، ولا كان ناظراً مباشراً لمال وقف ، ولم يكن يقبل جراية ولا حلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ، ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعاً ولا طعاماً ، وإنما كانت بضاعته مدة حياته ، وميراثه بعد وفاته ـــ رضي الله عنه ـ العلم اقتداء بسيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبة أجمعين ، فإنه قال : (إن العلماء ، ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر) (٢) » (٣) .

« ولقد اتفق كل من رآه ، خصوصاً من أطال ملازمته ، أنه ما رأى مثله في زهده في الدنيا ، حتى لقد صار ذلك مشهوراً بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها . بل لو سُئل عامي من أهل بلدٍ بعيد من الشيخ : من كان أزهد أهل هذا العصر ، وأكملهم في رفض فضول الدنيا ، وأحرصهم على طلب الآخرة ؟ لقال : ما سمعت بمثل ابن تيمية . وما اشتهر له ذلك إلاّ لمبالغته فيه ، مع تصحيح النية [ثم ذكر تعففه عن كثير من مباحات الدنيا من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح ، والدور والعقار ، والخدم] ثم قال : « ولا زاحم في طلب الرياسات ، ولا راءى ساعياً في تحصيل المباحات . مع أن الملوك والأمراء ، والتجار والكبار كانوا طوع أمره ، خاضعين لقوله وفعله ، وادين أن يتقربوا إلى قلبه

---

(١) الأعلام العلية /٤٩ .

(٢) رواه البخاري بلفظ « ... وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، ورثوا العلم ، من أخذه أخذ بحظ وافر ... » كتاب العلم ٣ ، باب العلم قبل القول والعمل (١٠) ، فتح الباري ١٥٩/١ - ١٦٠ .

(٣) الأعلام العلية /٤١ .

مهمـا أمكنهم ، مظهرين لإجلاله ، أو أن يؤهل كلاً منهم في بـذل ماله » [١] ، وقال البزار أيضاً : « وأخبرني غير واحد أنه ما رآه ولا سمع أنه طلب طعاماً قط ولا غداءً ولا عشاءً ، ولو بـقي مهما بقي لشدة اشتغالـه بما هو فيه من العلم والعمل ، بـل كان يؤتى بالطعام وربما يترك عنده زماناً حتى يلتفت إليه ، وإذا أكل شيئاً يسيراً .

قال : وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنـيا ونعيمها ، ولا كان يخوض في شيء من حديثهـا ، ولا يَسأل عن شيء من معيشتها ، بل جُـلُّ همته وحديثه فـي طلب الآخرة ، وما يقرب إلى الله تعالى»[٢] .

وكان في لباسه وهـيئته الظاهرة يلتزم الـوسط الذي عليه غالب الناس لـيكون حاله بينـهم كحالهـم ، فلا يتميز عنهم بـفاخر ولا غليـظ ، ولا خلق « بل كـان لباسه وهيـئته كغالب الناس ومـتوسطتهم ولم يكن يلـزم نوعاً واحداً من اللباس فلا يلـبس غيره ، كان يلـبس ما اتفـق وحصل ويأكـل ما حضر ، وكـانت بذاذة الإيمان عـليه ظاهـرة ، لا يُرى متصنعاً في عمامة ولا لباس ولا مشية ولا قيام ولا جلوس، ولا يتهيأ لأحدٍ يلقاه ، ولا لمن يرد عليه من بلد » [٣] .

قال فيه محمود بن علي بن محمود الدقوقي [٤] من ضمن قصيدة رثاه فيها :

حمى نفسه الدنيا ، وعفَّ تكرما	ولـمـا يُصَعِّـر للدنيَّـات خَـــدَّه
ولم يجتمع زوجان من شهواتها	لديه ، وبين الناس قد صحَّ زهـده
ويؤثـر عـن فقــر ، وفيــه قناعـة	ويعجبه مـن كل شـيء أشـدُّه [٥]

٦ - الشجاعة والقوة في الحق :

ابن تيـمية من علـماء السلـف القلائل الذيـن يضرب بهم المثل في الجرأة بـالصدع بكلمة الحق والجـرأة في إنكار المنكر في أي مكان وزمـان ومن أي إنسان صدر وكان : لا يخاف فـي الحق لومة لائم ، لا يهـاب أحداً من الخلق لأن هيـبة الخالق قد ملأت قـلبه ولم تـدع مكاناً لـذلك . يسطـو على المنـكرات ويغيـرها بيده إذا أمـكن ذلك مع أمــن ثـوران الفـتنـة أو تولـد منكـر أنكــر منه ، وكانه يـجابه الأمراء والسلاطـين في الحق ،

(١) السابق /٤٤ ، ٤٥ . (٢) السابق /٥٢ . (٣) السابق /٥١ .

(٤) توفي يوم الاثنـين العشرين من المحرم سنـة ٧٣٣هـ ودفن يوم الثلاثاء بمقبرة الإمام أحمـد رحمـه الله ، العقود الدرية /٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٥) العقود الدرية /٤٠٩ .

ويصدع به أمامهم ، وينكر عليهم في مجالسهم أمام حاشيتهم .

وكان يجابه العلماء ولا يخاف نفوذهم لدى السلطان ، ولا تمكنهم من العامة ، ولا كثرة أتباعهم ومقلديهم فيناظرهم وهم مئات وقلوبهم تغلي عليه كغلي الحميم ، غير وجل ولا هياب ، قصده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله ، وأن يظهر الحق بدليله من الكتاب والسنة .

وكم رموه بقوس واحدة وما هدفهم إلاّ الإجهاز عليه ، ولكن سهامهم رجعت إليهم خاسئة ذليلة ، وعادت إليهم باستحياء تشكو إلى مولاها ظلم من رمى بها .

ونذكر بعض النماذج لتكون شاهد صدق على ما قلناه :

مقابلته لغازان سلطان التتار : السلطان التتري غازان ظهر لقوته العسكرية وضعف المسلمين على دمشق فاستطاع التغلب عليها ، فرآها ملك الكُرْج النصراني فرصة للفتك بالمسلمين في دمشق وإبادتهم ، فبذل أموالاً كثيرة لغازان على أن يمكنه من ذلك، وعلم الشيخ فبادر مع بعض أعيان دمشق إلى مقابلة غازان « الجبار السفاك » ليمنعه من تمكين ملك الكرج من مراده ، ويأخذ الأمان لأهل دمشق ، وكان رحمه الله قد احتاط للمسلمين ، حيث حثهم على الجهاد وشجعهم على الشهادة ورغبهم فيها، ووعدهم على قيامهم بالجهاد النصر والظفر والأمن وزوال الخوف ، حتى لو مانع غازان ورد طلبهم فإذا هم على أهبة الاستعداد .

خرج بعض الأعيان مع ابن تيمية لمقابلة غازان « فلما رآهم قال : من هؤلاء ؟ فقيل: هم رؤساء دمشق . فأذن لهم . فحضروا بين يديه ، فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولاً ، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة رضي الله عنه ، حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه [بأن يمتنع من تسليط ملك الكرج على أهل دمشق] ، وضمن له أموالاً وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكره ووعظه فأجابه إلى ذلك طائعاً وحقنت بسببه دماء المسلمين وحميت ذراريهم ، وصين حريمهم .

وحدثني من أثق به عن الشيخ كمال الدين ابن المنجا (١) ، قدس روحه قال : كنت حاضراً مع الشيخ حينئذ ، فجعل ـ يعني الشيخ ـ يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع

(١) كان هذا الشيخ من الحاضرين وكذلك الشيخ وجيه الدين ابن المنجا .

ذلك مقبلٌ عليه بكليته ، مصغ لما يقول ، شاخصٌ إليه لا يعرض عنه ، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته : مَنْ هذا الشيخ؟ وقال ما معناه : إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه . فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ... فخرج من بين يديه مكرماً معزّزاً (١) .

وكان من ثمرات هذا اللقاء تخليص « غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم . وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش » (٢) .

وحينما دبر له خصومه تهمة تجميع الناس من حوله من أجل قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة ، فأحضره السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقال : « إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس ، وأن في نفسك أخذ الملك . فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوتٍ عال سمعه كثيرٌ ممن حضر : أنا أفعلُ ذلك ؟ والله إنَّ ملكك وملك المُغْل لا يُساوي عندي فلسين . فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك والله لصادق وإن الذي وشى بك إليَّ كاذب . واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يُلقى إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان ، ممن ظاهر حاله للطغام العدالة ، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة » (٣) .

وقال الذهبي عن ابن تيمية : « وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوزالوصف، ويفوق النعت ، وهو أحد الأجواد والأسخياء ، الذين يضرب بهم المثل » (٤) .

وقال أيضاً في شجاعته :« فيها تضرب الأمثال ، وببعضها يَتَشبّهُ أكابر الأبطال ، فلقد أقامه الله في نوبة غازان ، والتقى أعباء الأمر بنفسه ، وقام وقعد وطلع وخرج ، واجتمع بالملك مرتين . و « بخطلو شاه » و « ببولاي » وكان « قبجق » يتعجب من إقدامه وجرأته على المغول ، وله حدة تعتريه في البحث ، حتى كأنه ليث حرب . وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته » (٥) .

---

(١) الأعلام العلية / ٦٤ / ٦٥ . (٢) السابق / ٦٥ . (٣) الأعلام العلية /٦٥ ، ٦٦ المنجد .

(٤) الشهادة الزكية /٣٩ ت نجم خلق ، والرد الوافر /٣٣ ، والعقود الدرية /٣٩ ، وانظر : الدرر الكامنة ١٥٠/١ .

(٥) الشهادة الزكية /٤٢ ، وانظر : الرد الوافر /٣٥ ، والدرر الكامنة ١٦٨/١ - ١٦٩ .

وقال ابن فضل الله العمري :« وكان ابن تيمية لا تأخذه – في الحق – لومة لائم وليس عنده مداهنة وكان مادحه وذامه – في الحق – عنده سواء » (١) .

وقال ابن القيم رحمه الله : « وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الأرض أتيناه ، فما هو إلاّ أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب عنا ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة » (٢) .

وابن تيمية يرى أن الشجاعة لها ارتباط بالاعتقاد ؛ لأن الشجاعة موقعها القلب ، والقلب محل الاعتقادات فإذا قويت العقيدة ، قويت الشجاعة والإقدام ، وزالت هيبة المخلوق ، ورخصت النفس في ذات الحق ودينه (٣) ،« ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه ، كما ذكروا أن رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال : لو صححت لم تخف أحداً ، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك ولهذا أوجب الله على عباده ألا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافون غيره تعالى» (٤) .

وبهذا نعلم سرّ ذلك الإقدام والجرأة والقوة لدى ابن تيمية إلى حد يبهر النفوس ويحير العقول ، ولعل في بعض المواقف التي ذكرناها في هذه الترجمة وما سيأتي بالرسالة برهاناً على ذلك .

ويتبين لنا سبب تركيز ابن تيمية على تصحيح عقيدة الأمة وفكرها ؛ لأنه يرى أن هذا مفتاح التغيير بل هو أساسه ومبناه ، فالأمة التي ارتبطت قلوبها بتقديس البشر أو الشجر أو الحجر ، أمة هشة التكوين ، لا تصمد أمام العدو الخارجي ، بعد أن ضعفت أمام العدو الداخلي ، الشيطان والهوى .

والقارىء لكتب ابن تيمية يجد فيها التركيز كثيراً على أمرين : تصحيح العقيدة ، وتصحيح العبادة ، وينطلق في ذلك من قوله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ⑤ ﴾ ، ويرى أن الدين كله يرجع إلى هذه الآية ، ويرى أن القرآن جمعه الله في الفاتحة وجمع الفاتحة في هذه الآية .

وكان هو خير مثال وأنموذج لما يدعو إليه ويقرره فكان في عبادته متبعاً ، وفي استعانته مخلصاً موحداً لا يعول على مخلوق إطلاقاً .

---

(١) الشهادة الزكية /٣٣ .
(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين /١٤٥ نقلاً من ذيل طبقات الحنابلة .
(٣) انظر : الفتاوى ١٨/١٥٨ . (٤) العقود الدرية /١٥٢ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

و- امتحانه وابتلاؤه في مصر :

في ربيع الأول سنة ٦٩٨هـ قام ضده جماعة من الشافعية الأشاعرة وأنكروا عليه كلامه في الصفات ، وأخذوا الفتوى الحموية وردوا عليه فيها ، وعقد له مجلس للمناظرة والحكم عليه فدافع الأفرم عنه .

ونودي بدمشق بإبطال العقيدة الحموية ، وانتصر له جاغان المشد ، وقد منع من الكلام في التعليم ، وجلس على عادته يوم الجمعة وتكلم بدرسه .

واجتمعوا به عند قاضي القضاة إمام الدين وبحثوا معه وطال الأمر بينهم . ثم رجع القاضي إمام الدين وأخوه جلال الدين وقال : من قال عن الشيخ تقي الدين شيئاً عزرناه (١) .

ثم طُلِبَ إلى مصر هو والقاضي جلال الدين ابن صصري . فتوجهوا إلى مصر سنة ٧٠٥هـ في شهر رمضان ووصلوا في الثاني والعشرين منه ، وفي ثاني يوم من وصوله وهو يوم جمعة بعد الصلاة جمع القضاة ، وأكابر الدولة بالقلعة لمحفل . وأراد الشيخ أن يتكلم فلم يمكن من البحث ، وانْتُدِبَ له الشمس ابن عدلان خصماً ، احتساباً ، وادعى عليه القاضي ابن مخلوف المالكي أنه يقول : إن الله فوق العرش حقيقة ، وإن الله يتكلم بحرف وصوت ، وطلب منه الإجابة ، فأخذ في حمد الله والثناء عليه. فقيل له: أجب ما جئنا بك لتخطب. فقال: ومن الحاكم فيَّ؟ فقيل له: القاضي المالكي. قال: كيف يحكم فيَّ وهو خصمي . وغضب غضباً شديداً، وانزعج ، فرسم عليه وحبس في برج أياماً ثم نقل منه ليلة عيد الفطر إلى الحبس المعروف بالجبِّ هو وأخواه شرف الدين عبد الله ، وزين الدين عبد الرحمن (٢) .

وبعد أكثر من سنة وذلك ليلة عيد الفطر عام ٧٠٦هـ أحضر نائب السلطنة - سيف الدين سلارا - القضاة الثلاثه : الشافعي ، والمالكي ، والحنفي ، ومن الفقهاء : الباجي ، والجَزَري ، والنمراوي . وتكلم في إخراج الشيخ من الحبس . فاتفقوا على أنه يشترط عليه أمور ، ويلزم بالرجوع عن بعض العقيدة . فأرسلوا إليه من يحضره ليتكلموا معه في ذلك ، فلم يجب إلى الحضور ، وتكرر الرسول إليه في ذلك مرات .

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين /٣٤ ، ٣٥ نقلاً عن الوافي بالوفيات للصفدي .

(٢) العقود الدرية لابن عبد الهادي /٢٤٩ - ٢٥٠ بتصرف .

وصمم على عدم الحضور فطال عليهم المجلس وانصرفوا عن غير شيء (١) .

وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ دخل الأمير حسام الدين بن مهنا بن عيسى ملك العرب إلى مصر ، وحضر بنفسه إلى الجب ، فأخرج ابن تيمية بعد أن استأذن في ذلك ، فخرج يوم الجمعة ٢٣ من الشهر إلى دار نائب السلطنة بالقلعة وحضر بعض الفقهاء وحصل بينهم بحث وفرقت صلاة الجمعة بينهم ، ثم اجتمعوا إلى المغرب ، ولم ينفصل الأمر .

ثم اجتمعوا يوم الأحد بعد يومين بمرسوم من السلطان مجموع النهار وحضر جماعة أكثر من الأولين ... ولم يحضر القضاة ، وطلبوا فاعتذر بعضهم بالمرض ، وبعضهم بغيره . وقَبل عذرهم نائب السلطان ... وانفصل المجلس على خير.

وبات الشيخ عند نائب السلطنة بدار ابن شقير بالقاهرة (٢) .

وفي يوم الخميس ١٦ من شهر ربيع الآخر سنة ٧٠٧هـ عقد للشيخ مجلس آخر بالمدرسة الصالحية بالقاهرة . واجتمع فيه القضاة وغيرهم ، ومما قيل للشيخ في هذا المجلس : تب إلى الله عز وجل من كذا وكذا وذُكر له كلام ، فقال : إن كنت قلت كلاماً يستوجب التوبة فأنا تائب منه .. وقع بهذا كلام يطول ذكره ، وبعث ابن تيمية برسالة إلى دمشق يخبرهم فيها عن هذا المجلس وأنه حصل فيه خير ، وأن في إقامته مصالح وفوائد (٣) .

ولما أكثر الصوفية الشكاية على ابن تيمية عند السلاطين رسم بتسفيره إلى الشام فخرج للسفر ليلة الخميس ثاني عشر من شهر شوال سنة ٧٠٧هـ ثم رُدَّ في يوم الخميس المذكور ، وحبس بسجن الحاكم في ليلة الجمعة تاسع عشر من شهر شوال .

وكثر دخول الناس عليه في السجن حتى كان السجن يمتليء منهم ، فساء ذلك أعداءه فسألوا نقله إلى الإسكندرية . فأرسل إليها في ليلة الجمعة نهاية شهر صفر سنة ٧٠٧هـ .

وفي شهر شوال من سنة ٧٠٧هـ شكا بعض شيوخ الصوفية ابن تيمية إلى السلطان وأنه يتكلم في ابن عربي وغيره .

فردَّ الأمر في ذلك إلى القاضي الشافعي ، وعقد له مجلس لم يثبت عليه فيما

---

(١) العقود الدرية /٢٥٠ - ٢٥١ بتصرف .

(٢) العقود الدرية /٢٥٢ - ٢٥٣ بتصرف .

(٣) العقود الدرية /٢٥٦ بتصرف .

ادعوه شيء وانتهى الأمر بأن خيرته الدولة بين أشياء : الإقامة بدمشق ، أو الإسكندرية بشروط ، أو الحبس ، فاختار الحبس وأُقنع الشيخ من قبل بعض أصحابه أن يقبل السفر إلى دمشق ملتزماً ما شرطوا فوافق فأركبوا خيل البريد ليلة الثامن عشر من شوال .

ثم أرسل خلفه من الغد بريداً آخر فردّه بأمر من أحد القضاة وحضر عند قاضي القضاة بحضور جماعة من الفقهاء ، وتحير القضاة في الحكم عليه فقال الشيخ : أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة وكل ما جرى من هذه الأحداث في مصر كان بإشارة من الشيخ نصر المنبجي ووجاهته في الدولة لدى الجاشنكير الذي كان يعظم نصراً ويعتقد فيه (١) .

واستمر الشيخ في الحبس يُستفتى ويقصده الناس ويزورونه وتأتيه الفتاوى المشكلة من الأمراء والأعيان .

قال : وفي الليلة الأخيرة من شهر صفر سنة ٧٠٩هـ ليلة الجمعة توجه الشيخ من القاهرة إلى الإسكندرية مع أمير مقدم ولم يمكن أحد من جماعته من السفر معه ، ودخل الإسكندرية يوم الأحد من باب الخوخة إلى دار السلطان ، ونقل إلى برج في شرقي البلد ، ثم وصلته الأخبار : أن جماعة من أصحابه توجهوا إليه بعد ذلك ، وصار الناس يدخلون إليه ويقرأون عليه ، ويتحدثون معه . وكان الموضع الذي هو فيه فسيحاً متسعاً (٢) .

بقي ابن تيمية بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر مقيماً ببرج مليح نظيف .. يدخل إليه من شاء ، ويتردد إليه الأكابر والأعيان ، والفقهاء يقرأون عليه ويبحثون معه ويستفيدون منه (٣) ، ولما رجع السلطان الناصر محمد قلاوون إلى مصر ليسترد سلطته ، وكان قدومه يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩هـ أمر بإحضار الشيخ من سجن الإسكندرية إلى القاهرة وذلك في الثامن من شوال .

وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية منها متوجهاً إلى مصر ، ومعه خلق من أهلها يودعونه ، ويسألون الله أن يردّه إليهم ، وكان وقتاً مشهوداً .

ووصل الشيخ إلى القاهرة يوم السبت في اليوم الثامن عشر من شوال واجتمع بالسلطان في يوم الجمعة الرابع والعشرين منه . وأكرمه وتلقاه في مجلس حَفَل فيه قضاة

---

(١) العقود الدرية /٢٧٠ ، ٢٧١ .
(٢) العقود الدرية /٢٧٢ بتصرف .
(٣) السابق /١٧٧ بتصرف .

المصريين والشاميين والفقهاء، وأصلح بينه وبينهم (١).

ولقد بالغ السلطان ــ أكرمه الله ــ في إكرام الشيخ واستقباله والثناء عليه أمام الحاضرين وكثير منهم يسوؤه ما يرى ويسمع لعداوته للشيخ، والسلطان يقصد ذلك، فسبحان الله جعل من بعد العسر يسراً، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ورجع ابن تيمية إلى دمشق وكان وصوله إليها في أول يوم من ذي القعدة سنة ٧١٢هـ ومعه أخواه وجماعة من أصحابه وخرج خلق كثير لتلقيه، وسرّوا سروراً عظيماً بمقدمه وسلامته. وكان مجموع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع (٢).

وطوال هذه الفترة من ١٨ شوال عام ٧٠٩هـ إلى أن خرج من مصر متوجهاً إلى دمشق في عام ٧١٢هـ من شهر شوال، وهو مجتهد في الدعوة ومحاربة المنكرات، وحدث له حوادث وصلت إلى حد ضربه وإساءة الأدب عليه من قبل الغوغاء المدفوعين من الشيوخ المتعصبين على الباطل، ومن ذلك أنه: في اليوم الرابع من شهر رجب سنة ٧١١هـ جاء جماعة إلى الشيخ بجامع مصر وتعصبوا عليه، وتفردوا به، وضربوه. فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فجاء خلق كثير من الحسينية وغيرها رجالاً وفرساناً واجتمع خلق كثير إلى الشيخ وقال له بعضهم: يا سيدي، قد جاء خلق من الحسينية، ولو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا، ولكن الشيخ هدأهم وأقنعهم بأن الحق له وقد عفا عنه (٣).

وفي العشر الأوسط من رجب من سنة ٧١١هـ، ظفر به بعض المبغضين له في مكان خال، وأساء عليه الأدب، وحضر جماعة كثيرة من الجند وغيرهم إلى الشيخ بعد ذلك لأجل الانتصار له، فلم يجب إلى ذلك.

وقيل: إن الذي فعل هذا فقيه بمصر يعرف بالمبدي، ثم بعد ذلك طلب وتودَّد وشفع فيه جماعة، والشيخ ما تكلم ولا اشتكى، ولو حصل منه شكوى أهين ذلك غاية الإهانة، لكن قال: أنا ما أنتصر لنفسي (٤).

رحمك الله يابن تيمية ما أعظم ما جبلت عليه من الأخلاق الكريمة.

ز – امتحانه وابتلاؤه في دمشق:

وفي دمشق أفتى الشيخ رحمه الله في مسألة الحلف بالطلاق خلاف ما يفتي به

---

(١) السابق /٢٧٨ بتصرف.
(٢) العقود الدرية /٢٩٠ بتصرف.
(٣) السابق /٢٨٥ بتصرف.
(٤) السابق /٢٨٩ بتصرف.

العلماء في دمشق ومصر فأثار غضبهم ، فرفع أمره إلى السلطان في مصر ، فلما كان يوم السبت ، مستهل جمادى الأول سنة ٧١٨هـ منع بأمر من السلطان من هذه الفتوى – وكان ابن تيمية صنف فيها مصنفاً – وعقد له مجلس في ذلك يوم الاثنين ثالث شهر جمادى الأول وانفصل الأمر على ما أمر به السلطان ، ونودي بذلك في البلد يوم الثلاثاء رابع الشهر المذكور .

ولكن الشيخ شعر بالتأثم في عدم الفتوى وقال : لا يسعني كتمان العلم فصار يفتي، فلما كان يوم الثلاثاء ٢٩ رمضان سنة ٧١٩هـ (١) ، جمع القضاة والفقهاء عند نائب السلطنة بدار السعادة ، وأحضر ابن تيمية وعوتب على فتياه بعد المنع ، وأكد عليه في المنع من الفتوى .

وفي الثاني والعشرين من رجب سنة ٧٢٠هـ عاوده القضاة والمفتون بحضرة نائب السلطنة ، وعاتبوه في استمراره بالفتوى ، وحبسوه بالقلعة ، فأمضى فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ثم ورد مرسوم السلطان بإخراجه ، وتوجه إلى داره يوم الاثنين عاشوراء سنة ٧٢١هـ (٢) .

وفي سنة ٧٢٦هـ وقع كلام في مسألة شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين ، وظفروا للشيخ بجواب على سؤال في ذلك ، كان قد كتبه من سنين كثيرة ... وكثر الكلام بسبب هذا الجواب وعظم التشنيع على الشيخ وحُرِّف عليه ونُقل عنه ما لم يقله، وحصل فتنة طار شررها في الآفاق ، وخيف على الشيخ من كيد القائمين في هذه الفتنة بمصر والشام ، وكثر الدعاء والابتهال إلى الله تعالى ، وضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة وجبن منهم من كانت له همه ، وأما الشيخ – رحمه الله – فكان ثابت الجأش ، قوي القلب (٣) .

واجتمع جماعة بمصر ، وقاموا في هذه القضية قياماً عظيماً ، واجتمعوا بالسلطان وأجمعوا أمرهم على قتل الشيخ ، فلم يوافقهم السلطان على ذلك .

وفي يوم الاثنين السادس من شعبان سنة ٧٢٦هـ ، رسم السلطان بحبسه في القلعة بدمشق ، فأظهر الشيخ السرور بذلك ، وقال : أنا كنت منتظراً ذلك وهذا فيه خير عظيم، وأخليت له قاعة حسنة ، وأجري إليها الماء ، ورسم له بالإقامة فيها ، وأقام معه

(١) العقود الدرية /٣٢٥ بتصرف . (٢) السابق /٣٢٦ بتصرف .
(٣) العقود الدرية /٣٢٧ – ٣٢٨ بتصرف .

أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان ، ورسم له ما يقوم بكفايته (١) .

ح - وفـاتــه :

بعد أن منع من الفتوى بسبب إفتائه بالتكفير « كفارة يمين » لمن حلف بالطلاق ، ثم صار يفتي ، فعقد له مجلس ومنع من الفتـوى مطلقاً وحبس ، فامتنع عن الفتوى مدة ثم صار يفتي بلسانه ويقول : لا يسعني كتم العلم .

وفي آخـر الأمر دبروا عليه حيلة فـي مسألـة المنـع من السفر إلـى قبـور الأنبـياء والصالحين ، وألـزموه من ذلك التنـقص بالأنبياء ، وذلك كـفر ، وأفتى بذلك طـائفة من أهل الأهواء ، وهم ثمانيـة عشر نفساً ، رأسهم القاضي الأخنائي المـالكي . وأفتى قضاة مصر الأربعة بحبسه ، فحبس بقلعـة دمشق وذلك يوم الاثنين عصراً السادس من شعبان سنة ٧٢٦هـ .

فلما دخل الـقلعة ، وصار داخل سورها نـظر إليه وقال : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢) .

وقال مرة : المحبـوس من حُبس قلبـه عن ربه ، والمأسور من أسـره هواه ، وكان في حبسه في القلعة يقول : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة - أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا فيه من الخير - ونحو هذا .

وروى الذهـبي عن شيـخه أبي عبـد الله ابن الـقيم قولـه : « سمعت شـيخنا شـيخ الإسلام ابـن تيميـة قدس اللـه روحه ، ونور ضريـحه يقـول : إن في الدنـيا جنة مـن لم يدخلـها لم يدخل جـنة الآخرة . قال : وقال لـي مرة : ما يصنـع أعدائي بي ؟ أنا جـنتي وبستاني في صدري، اين رُحْتُ فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة، وإخراجي مـن بلدي سياحة. وقـال أبو عبدالله أيـضاً : وعلم الله مـا رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف ، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً . وأشـرحهم صـدراً ، وأقواهـم قلبـاً ، وأسرهـم نفـساً تلـوح نضـرة النعـيم عـلى وجهه... » (٣). مرض الشيخ رحمه الله بـضعة وعشرين يوماً (٤) وهـو في سجن القلعة بدمشق وبعدها توفي ، وكانت وفاته في يوم الاثنين عشرين ذي القعـدة سنة ٧٢٨هـ .

---

(١) العقود الدرية /٣٢٩ بتصرف .
(٢) سورة الحديد آية (١٣) .
(٣) شيخ الإسلام ابن تيميـة سيرته وأخباره عند المؤرخين /١٤٤ ، ١٤٥ نقلاً عن الإمام الـذهبي في تاريخه بتصرف .
(٤) انظر : العقود الدرية لابن عبدالهادي /٣٦٨ .

ولما علم الناس بموته أصابهم حزن عظيم على فراقه .

وهذا الشاعر الشيخ علاء الدين ابن غانم يعبر عن هذا بقصيدة منها :

أي حبر مضى وأيُّ إمام ... فُجِعَتْ فيه مِلَّةُ الإسلام

ابن تيمية التقيُّ وحيد الدهـ ... ـر من كان شامةً في الشام

إلى أن قال :

كُلٌّ في دمشق ناح عليه ... ببكاء من شدة الآلام

فُجعَ الناسُ في الشرق والغرب ... وأضْحَوا بالحزن كالأيتام

لو يُفيد الفِداءُ بالروح كنا ... قد فديناه من هجوم الحِمام

أو حَدٌّ فيه قد أُصيب البرايا ... فَيعُزّى فيه جميعُ الأنام (١)

وجاء أهل دمشق وما حولها كلهم ممن استطاع المجيء حتى قيل إنه لم يتخلف إلا ثلاثة هم المعادون له منعهم الخوف من الناس على أنفسهم حيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس فأهلكوهم (٢) .

وفي عدد من صلى عليه أقوال عدة ، وأكثر ما ذكر أنهم خمسمائة ألف ، وأقل ما ذكر خمسون ألف ، والنساء قيل عدد من صلى عليه منهن وحضر جنازته خمسة عشر ألف امرأة (٣) .

« ولم يسمع في جنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه » .. ولم ير لجنازة أحد مارئي لجنارته من الوقار ، والهيبة والعظمة والجلالة ، وتعظيم الناس لها ، وتوقيرهم إياها ، وتفخيمهم أمر صاحبها ، وثنائهم عليه بما كان عليه من العلم والعمل ، والزهادة والعبادة والإعراض عن الدنيا ، والاشتغال بالآخرة ... والإيثار، والكرم والمروءة والصبر ... والشجاعة والفروسية ، والإقدام ، والصدع بالحق ، والإغلاظ على أعداء الله ورسوله ، والمنحرفين عن دينه ، والنصر لله ولرسوله ولدينه ولأهله ، والتواضع لأولياء الله والتذلل لهم ، والإكرام والإعزاز لجنابهم» (٤) .

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عن المؤرخين /٤٧ نقلاً عن الصفدي : الوافي بالوفيات .

(٢) انظر : الأعلام العلية للبزار /٧٣ .

(٣) انظر :العقود الدرية لابن عبدالهادي /٣٧١ .

(٤) الأعلام العلية للبزار /٧٤ ، ٧٥ .

وقد صلي على ابن تيمية رحمه الله في عدد من المدن والبلدان « وما وصل خبر موته إلى بلدٍ فيما نعلم إلا وصلي عليه في جميع جوامعه ومجامعه خصوصاً أرض مصر والشام والعراق وتبريز والبصرة وقراها وغيرها » (١) .

« وصلي عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام ، القريبة والبعيدة ، حتى في بلاد اليمن والصين وأخبر المسافرون أنه : نودي بأقصى الصين – للصلاة عليه يوم الجمعة – : الصلاة على ترجمان القرآن » (٢) .

ما قبل ختام التمهيد :

هكذا توفي شيخ الإسلام الذي حرم نفسه ليعطي الناس ، وسجن نفسه ليقدم للناس الحرية الفكرية حينما ينقذهم من ظلمة العقائد المنحرفة والأفكار المضللة ، توفي وهو في غياهب السجون ، وكأنه سيف في غمد وأسد في قفص :

قال الإمام الشافعيّ – رحمه الله – :

تموت الأسد في الغابات جوعاً   ولحم الضأن يرمى للكلاب
وذو جهل ينام على حرير   وذو علم ينام على التراب

وأود أن أوجه كلمة إلى العامة وأخرى إلى الخاصة فأقول : التاريخ يعلمنا منذ نوح عليه السلام إلى يومنا هذا أن الواقع المر الذي يعيشه أي مجتمع في الدنيا لا يغيره إلا أصحاب العزائم والهمم العالية ، أصحاب الصبر واليقين الذين ربطوا أنفسهم بمعالي الأمور وأخذوا على عواتقهم عهداً أن يكونوا لأمتهم فراشاً وغطاءً ، يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع ، حالهم كما قال الشاعر وليد الأعظمي :

أعاهد الله في سر وفي علن   ألا أميل إلى يأس ولا سأم
عقلي وقلبي وإخلاصي وتضحيتي   لله عندي في أمل وفي ألم

وابن تيمية كان يدرك أن الذين يميلون بقلوبهم إلى ملذات الدنيا ويتعلقون بمتعها لا يمكن أن يعقد عليهم الأمل ويناط بهم الرجاء ، ولهذا يوصي تلميذه النجيب ابن القيم حينما رآه مرة يميل إلى التوسع في مباحات الدنيا ، وهذا يخالف نهج أولي العزم من

---

(١) المرجع السابق / ٧٥ .

(٢) طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/٤٠٧ تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٥٢م.

الدعاة قال : « هذا ينافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة ، أو نحو هذا من الكلام » (١) .

وأدرك التلميذ النابه درس شيخه فقال معلقاً عليه : « فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً على صيانته ، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام » (٢) .

وإنه لمن الواجب على كل مسلم أن يقدر لهؤلاء قدرهم ويعترف بفضلهم ، ويمحضهم النصح، ويعظم الثقة فيهم ويكون لهم ردءاً وسنداً في كل أحوالهم الفاضلة، وينصرهم في كل موطن يحتاجون فيه إلى النصرة ، ولا يسلمهم لعدو أو ظالم .

وإلى الخاصة أقول :

لتنظروا لابن تيمية الذي أحيى الله به الإسلام ، وأضحك منه ماكان كان عابسا ، وأحيى منه ما كان دارسا ، كيف عاش حياة الظلم بقرارات الحكام الذين لم يتبينوا ، أولم يخافوا الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين .

إن ما حدث لابن تيمية حدث لعلماء قبله وعلماء بعده ، سجنوا وجلدوا بفتاوى أئمة من علماء خالفوا منهج السلف ، وبعض منهم حسداً من عند أنفسهم ، مع أنهم يعرفون الحق وأنه بخلاف ما فعلوا كما يعرفون أبناءهم ، فلا نحب أن يعيد التاريخ نفسه مرة أخرى وتتجدد المعارك مع العلماء المصلحين الذين يقودون سفينة الأمة إلى شاطيء الأمان .

وليحذر أصحاب القرار في عالمنا الإسلامي من المتعالمين ، أو من العلماء أصحاب الأهواء ،الذين ظاهرهم للأمة وحكامها إرادة الحق ، وباطنهم إرادة المحق .

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطب

يتقربون لكل أحد بما يهوى ويحب ، ولو كان فيه الداء والعطب ، يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع ، يختلون الدنيا بالدين ، جلودهم جلود الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب .

وإن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ، حينما أقرأ دخول ابن تيمية السجن ، وبقرار سياسي من السلطة العليا ، وبدون ذنب سوى التعصب والحمية ، والانتقام لابن عربي ، وابن سبعين والحلاج شيوخ الضلالة الذين ثبت أنما قالوه كفر ظاهراً وباطناً .

إن الزمن الذي تجرأ فيه نصر المنبجي ، وابن مخلوف القاضي المالكي أن يطلق كلمة الكفر على ابن تيمية ، ولو وافقته السلطة على قتله لقتله ، هو خير من هذا الزمن

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/٢٦ . (٢) المرجع السابق .

الذي يعيشه المسلمون في هذه الدول التي كثير منها علمانية .

فكم من مخلوف وغير مخلوف في زماننا لديهم الاستعداد لأن يفتوا ضد «كم» هائل من قادة الإصلاح في عالمنا الإسلامي ، كما أفتى أولئك ضد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

ولا يعفي أصحاب السلطة القدرية غلط وخطأ أصحاب السلطة العلمية . فإن أصحاب العلم إذا اختلفوا لا يؤخذ قول بعضهم في بعض ، ولا يسقط أحدهم عدالة خصمه .

والحكم في هذه الحال الكتاب والسنة على ضوء فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم . وعلى كل ولي أمر لهذه الأمة المحمدية أن يبحث ويتحرى عن العلماء الصالحين الصادقين ، ويكون معهم ، حتى يفوز فوزاً عظيماً .

الختـــــام :

هذه لمحة موجزة عن ابن تيمية أقدمها بين يدي منهجه الدعوي وكل همي منذ البداية ، وكل مرادي أن يكون جهداً صادق التعبير عن عالم من علماء سلفنا الأجلاء ، يعطي الحقيقة من غير تزيد أو تحيز .

وأيضاً أن يكون جهداً مفيداً للدعوة الإسلامية يشارك في ترشيد الصحوة المباركة في أقطار الدنيا ورجاء أن يكون هذا الإنتاج العلمي – الذي أمضيت عليه فترة من عمري المحدود ـ امتداداً لي بعد أن أكون في عالم آخر فيكون صدقة جارية .

وبعد أن تقرأ وتطلع على جهود شيخ الإسلام الإصلاحية التجديدية ، ومواقفه البطولية ، فيملكك العجب ، فتقول :سبحانك ما هذا بشراً عادياً ، وإنما هو صنعة إلهية صنعت خصيصاً لتقوم بانقاذ الأمة من الضلالات التي أصبحت في عالم الناس ديانات ، وليعيد للأمة الثقة بنفسها وفكرها بعد أن انهارت المعنويات إلى أن أصبح يذاع ويشاع مقولات الانهزام كقولهم :« من قال لك ان التتار يغلب فلا تصدقه » .

بعد أن تكون في هذا الوضع من الإجلال والإكبار والحب والتقدير أقول لك ما قال الشاعر :

إذا أعجبتك خصـــال امـــرئ ... فكنه يكن [1] ما يعجبـــــك

فليس لـدى المجـد والمكرمـا ... ت إذا جئتها حاجب يحجبك [2]

(١) بهامش الأصل: لعله « منه » أو « فيه » أو ما يقاربه . (٢) العقود الدرية لابن عبدالهادي /٢٧٦ .

الباب الأول

خصائص منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله

الفصل الأول : الاحتجاج باللغة العربية .

الفصل الثاني : الجمع بين الأدلة النقلية والعقلية .

الفصل الثالث : الشمول والوضوح .

الفصل الرابع : الموضوعية والتجرد والإنصاف .

الفصل الخامس : معرفته لثقافة عصره .

الفصل الأول

الاحتجاج باللغة العربية

وتحته مباحث :

الأول : الاستدلال باللغة في بعض المسائل الخلافية.

الثاني : العناية بالمصطلحات.

الثالث : منهج ابن تيمية في المصطلحات.

تمهيد
اهتمام ابن تيمية بالمنهج

لم يكن المنهج في فكر ابن تيمية من القضايا الفرعية أو الهامشية ، وإنما كان من قضايا الأصول في اهتماماته وتفكيره .

وينصب اهتمامه على تحديد إطار المنهج ، وعلى مصادره ومنابعه سواء فيما يخص أهل السنة والجماعة ، أم من خرج عن منحى تفكيرهم في الأصول .

وكان يحرص على كشف عوار تلك المناهج الخارجة في أصولها عن أصول السلف ، مع أخذها بأصول غيرهم من أهل الضلالة ، ويوضح الفوارق بين هذه المناهج والمنهج الإسلامي الشرعي .

وهذا نموذج من كلامه رحمه الله في إيضاح الفوارق بين المنهج الرحماني والمنهج الشيطاني ، يقول رضي الله عنه : « والذي اكتبه هنا : بيان الفرق بين المنهاج النبوي الإيماني العلمي الصلاحي ، والمنهاج الصابيء الفلسفي ، وما تشعب عنه من المنهاج الكلامي والعبادي ، المخالف لسبيل الأنبياء وسننهم » (١) .

ثم أخذ في بيان هذه الفروق ، وبعدها وجه دعوة عامة إلى التدبر من أجل الوصول إلى منهجية سليمة منبثقة من الهداية النبوية قائلاً : « فتدبر طرق العلم ، والعمل، ليتميز لك طريق أهل السنة والإيمان ، من طريق أهل البدعة والنفاق ، وطريق العلم والعرفان ، من طريق الجهل والنكران » (٢) .

ولا بد لنا قبل البدء في بيان منهج ابن تيمية في الدعوة أن نُعَرِّف بالمنهج في اللغة والاصطلاح ، حتى نستعين بذلك على تحديد دلالة هذا المصطلح .

أولاً : تعريف المنهج :

أ - التعريف اللغوي :

مَنْهَجَ الطريق : وَضّحه . والمنهاج الطريق الواضح .

والمنهاج : كالمنهج ، وفي التنزيل :﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٣) .

---

(١) الفتاوى ٢/١٥ .
(٢) الفتاوى ٢/٢٤ .
(٣) سورة المائدة آية (٤٨) .

وأَنْهَجَ الطريق : وَضَحَ واستبان وصار منهجاً واضحاً بيناً (١) .

ب – التعريف الاصطلاحي :

عرف العلماء والمفكرون المنهج بعدد من التعريفات تتقارب في كثير من معانيها ولا تبتعد عن الدلالة اللغوية ، وأقَدّم بعض هـذه التعريفات ثم أقَدّم التعريف الذي أراه يؤدي الصورة المتكاملة .

١ – المنهـج : الخطـة المرسومـة ، ومنـه منهاج الدراسة ، ومنهاج التعليم ونحوهما (٢) .

٢ – المنهج : الخطة أو التخطيط اللازم لشيء ما – منهج البحث خطته ، ومنهاج الدعوة : خططها أو تخطيطها (٣) .

٣ – المنهج : التدابير التي يتبعها المسلمون لنشر الدعوة وتبليغ الدين (٤) .

٤ – وابن تيمية يعرفه بقوله : « والمنهاج : الطريق والسبيل » (٥) ، وقال في موضع آخر : « والمنهاج هو : الطريق الذي سلك فيه » (٦) للغاية المقصودة ، وهي حقيقة الدين الإسلامي(٧) .

ومنهج الدعوة يمكن أن نعرفه بأنه : الخطط العملية ، والأصول والقواعد النظرية ، الشرعية والعقلية ، والمسالك الخُلُقِيّة ، المستعملة في نشر الدعوة الإسلامية .

ثانياً : أ – تعريف الدعوة عند ابن تيمية :

جاء تعريف الدعوة عند ابن تيمية مربوطاً بما يدعو إليه ، فكان ما يدعو إليه هو الإسلام الذي هو الدعوة النبوية الشاملة الكاملة ، وتعريفه لها انتظم أركان الدعوة النبوية الربانية الثلاثة والتي هي : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . بل إن الدعوة

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣٨٣/٢ ، ط دار صادر – بيروت . وانظر : مختار الصحاح للرازي /٦٨١ ، ط دار الفكر . وانظر :المعجم الوسيط ٩٥٧/٢ ، ط الثانية ، دار إحياء التراث العربي .

(٢) انظر : المعجم الوسيط ٩٥٧/٢ لمجوعة من الأساتذة ، دار إحياء التراث ، ط الثانية .

(٣) مناهج الدعوة وأساليبها /١٦ للدكتور علي جريشه ، ط الأولى .

(٤) انظر :كتاب « منهج الدعوة إلى الله /٧ لأمين أحسن إصلاحي ، تعريب : سعيد الأعظمي الندوي ، نور عالم الندوي .

(٥) الفتاوى ١١٣/١٩ .

(٦) الفتاوى ٢١٩/١١ .

(٧) انظر : الفتاوى ٢١٩/١١ .

دعوة إلى كل ما نزل من عند الله على رسله الكرام ، يقول رحمه الله : « الدعوة إلى الله ، هي الدعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله ، بتصديقهم فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا ، وذلك يتضمن الدعوة إلى : الشهادتين وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت . والدعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره ، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه » (١) .

فهي إذن دعوة شاملة لكل الدين في جوانب المأمورات والمنهيات والواجبات والمستحبات ، لا تترك شيئاً من دين الله إلا انتظمته ، فكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب ، من باطن وظاهر ، فمن الدعوة إلى الله الأمر به. وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر ، فمن الدعوة إلى الله النهي عنه. لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ، ويترك ما أبغضه الله ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة ، ومما يبيّن شمول تعريف الدعوة عنده قوله : «فالدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به ، والنهي عن كل ما نهى الله عنه ، وهذا هو الأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر . والرسول صلى الله عليه وسلم قام بهذه الدعوة ، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه ، أمر بكل معروف ، ونهى عن كل منكر » (٢).

ب - حكم الدّعوة :

يرى رحمه الله أن الدعوة حكمها بشكل عام فرض كفاية، وقد ورد عنه عدد من النصوص في ذلك تؤكد هذا الحكم منها قوله رحمه الله : « والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين ، فهذا واجب على الكفاية منهم » (٣) .

وقوله : « حفظ الكتاب والسنة صورة ومعنى من مهمة العلماء ، كما أنه واجب الأمة عموماً على الكفاية منهم » (٤) .

(١) الفتاوى ١٥/١٥٧ - ١٥٨ ، التفسير الكبير ٥/١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) الفتاوى ١٥/١٦١ ، ٥/١٠٤ .
(٣) الدرء ١/٥١ .
(٤) الفتاوى ٢٨/١٨٦ .

وقوله : « فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه ، وهم أمته يدعون إلى الله كما دعا إلى الله » (١) .

وقوله : « وقد تبين بهذا أن الدعوة الى الله تجب على كل مسلم ، لكنها فرض على الكفاية ، وانما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره – وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة وعلاقة كل واحد منها بالآخر ثم قال : « وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين ، وجوب فرض الكفاية ، لا وجوب فرض الأعيان، كالصلوات الخمس، بل كوجوب الجهاد » (٢) .

وأعمال الإنسان المتعلقة بدينه شطران : الأول في خاصة نفسه . والثاني مع غيره في نقل هذا الدين الى الآخرين وأمرهم به ونهيهم عن ضده . فتكون الدعوة نصف أعمال الدين ، قال رحمه الله : « ... أعمال المرء المتعلقة بدينه قسمان : أحدهما أن يعمل ويترك ، والثانى أن يأمر غيره بالفعل والترك » (٣) .

والالتزام بالإسلام والدعوة إليه هو الهدى التام ، أما إذا ترك الدعوة إلى الإسلام والأمر به فإن اهتداءه ناقص يُحْرم بسببه كثيراً من الخير ، يقول ابن تيمية عن الاهتداء الى الصراط المستقيم بأنه « يتضمن الرزق والنصر ، لأنه إذا هُدِيَ ثم أمر وهدى غيره بقوله وفعله ورؤيته فالهدى التام أعظم ما يحصل به الرزق والنصر » (٤) .

ج – العلاقة بين الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الدعوة إلى الله تعالى تشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا عائد إلى شمول الدعوة الإسلامية لكل الدين أصوله وفروعه العلمية والعملية .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الدين التي يلزم الدعوة إليها ، يقول رحمه الله :« وقد يتبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، فإن الداعي طالب مستدع مقتضى لما دعا إليه ، وذلك هو الأمر به ، إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به ، واستدعاء له ودعاء إليه ، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله ، فهو أمر بسبيله ، وسبيله تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر » (٥) .

وهما في الحكم سواء وغالباً ما يربط بينهما في الذكر لذا نجده لما تكلم عن

---

(١) الفتاوى ١٥/١٦٥ ، التفسير الكبير ٥/١٠٧ .
(٢) الفتاوى ١٥/١٦٧ .
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم/١٩ .
(٤) التفسير الكبير ٢/٣٣٧ .
(٥) الفتاوى ١٥ / ١٦٦ – ١٦٧ .

حكم الدعوة قال :« وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... » ثم قال عنهما: « وقد تبيّن أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين وجوب فرض الكفاية لا وجوب فرض الأعيان .. » [1] .

ثالثاً : تعريف الخصائص :

أ - تعريفها لغة :

تدل قواميس اللغة العربية على أن معناها الاختصاص بالشيء والانفراد به عن الغير ، والاصطفاء والاختيار ، ومما ورد في كتب القواميس ما يلي :

« خَصَّه بالشيء خصوصاً ، وخَصُوصيَّة ، والفتح أفصح . وقولهم : إنما يفعل هذا خُصَّان من الناس ، أي خَوَاصٌّ منهم واختَصَّهُ بكذا أي خَصَّه به وأفرده به دون غيره .

ويقال فلانٌ مُخِص بفلان أي خاص به وله به خِصية واختص الشيء : اصطفاه واختاره ، وتخصص : انفرد وصار خاصاً .

واستخصه : عدَّه خاصاً واصطفاه واختاره » [2] .

وقال الجرجاني : « الخصوص أحدية كل شيء عن كل شيء بتعيينه ، فلكل شيء وحدة تخصه ، والخاص : عبارة عن التفرد ، يقال فلان خص بكذا أي أفرد به ولا شركة للغير فيه » [3] .

ب : تعريفها اصطلاحاً :

من التعريفات اللغوية والدلالات اللفظية يتحدد المدلول الاصطلاحي بما يلي :

ما ينفرد به المرء متميزاً به عن غيره من أمثاله بحيث يكون مختاراً له ، وله به اختصاص .

---

(١) التفسير الكبير ٥/١٠٩ .

(٢) انظر : الصحاح للجوهري ٣/١٠٣٧ (خصص) تحقيق أحمد عبدالغفور عطّار ، دار العلم للملايين بيروت، ط الثانية - بيروت ، ١٣٩٩هـ ، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ٢/٣١٢ ، باب الصاد ، فصل الخاء ، دار الجيل، بيروت ، ولسان العرب لابن منظور ٧/٢٤ ، دار صادر ، والمعجم الوسيط ١/٢٣٨ لمجموعة من الأساتذة دار الفكر .

(٣) كتاب التعريفات /٣٣ ، عالم الكتب، ط الأولى عام ١٤٠٧هـ، تحقيق وتعليق د. عبدالرحمن عميرة .

تمهيد
مكانة اللغة العربية من الدين وأهميتها

معرفتنا بمكانة اللغة العربية من دين الإسلام يعلمنا بأهميتها والحاجة إليها ، ولم يأل ابن تيمية جهداً في بيان ذلك في عدد من كتبه .

وكثيراً ما يعزو سبب ضلال من ضل من الأمة إلى الجهل بدلالة ألفاظ القرآن والسنة نتيجة لعدم علمهم بلغة القرآن والرسول وسلف الأمة .

ودائماً يواجه المخالفين ويحاجهم بأنهم لم يلتزموا مدلول اللغة العربية بل خالفوه، يقول : « فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدّعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك » (١) .

وقد نتج عن هذا وغيره تفرق الأمة ، واختلافها وظهور الشبهات التي مازالت الأمة تجني ثمارها المرة .

وابن تيمية ينظر إلى اللغة العربية أنها من الدين ، وأنها وسيلة لفهم القرآن والسنة ، وهذا واجب والوسيلة إلى الواجب واجبة، وأن منها ما هو واجب على الأعيان ومنها ما هو واجب على الكفاية (٢) ، وهي شعار أمة الإسلام (٣) « فصار حفظ شعارهم من تمام حفظ الإسلام » (٤).

ونجده يؤكد على عدد من القضايا يراها لازمة :

١ - تعلم اللغة العربية وتعليمها فرض كفاية (٥) :

ويقدم لنا نظرية جديرة بالإجلال مضمونها أن أفضل طريق لتعلم اللغة هو : التلقي في مرحلة الطفولة ، حيث اللغة تكون منطوقة في البيت والمدرسة والشارع فيتكلمها الصغار محاكاة للكبار فتنشأ ألسنتهم فصيحة لا تعرف اللحن (٦) .

ويدعم هذه النظرية بأخرى تؤكد مضمونها وتدفع إلى سرعة التطبيق حيث يقرر

---

(١) الفتاوى ١١٦/٧ . (٢) انظر :اقتضاء الصراط المستقيم /٢٠٤ .

(٣) انظر :الفتاوى ١١٦/٧ ، وانظر: الرد على المنطقيين ١٧٨ ، وانظر الإيمان /١١١ - ١١٢ - ١٦١ .

(٤) الفتاوى ٢٥٥/٣٢ .

(٥) انظر : الرد على المنطقيين /١٧٨ ، وانظر الفتاوى ١٧١/٩ ، وانظر الفتاوى ٢٥٢/٣٢ .

(٦) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم /٢٠٤ .

أن من تعلم لغة صعب عليه الانتقال إلى غيرها وإتقانها ، فإذا سمحنا لأبنائنا أن يتكلموا غير العربية ابتداءً صعب نقلهم إلى العربية (١) .

« فالأمة مأمورة أمر إيجاب أو أمر استحباب أن تحفظ القانون العربي وتصلح الألسن المائلة عنه فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة .

فصارت معرفة اللسان العربي من الدين ، لأن معرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني »(٢) .

٢ - محاربة أي طريق يفسد علينا لغتنا العربية أو يدخل عليها ما ليس منها :

ومن أخطر الأشياء المفسدة للغة « اللحن » فيلزم محاربته والوقاية منه ، ولهذا كان السلف الصالح يحاربونه فكانوا « يؤدبون أولادهم على اللحن ... فلو ترك الناس على لحنهم كان نقصاً وعيباً » (٣) .

وكذلك محاربة الأوزان الفاسدة والتركيبات اللفظية المخالفة للغة العربية لأنها تؤول إلى إفساد اللسان العربي وتنقله إلى العجمة المنكرة (٤) .

واشتد نكير ابن تيمية على أمثال أولئك القوم الذين جاءوا « إلى الألسنة العربية المستقيمة ، والأوزان القويمة فأفسدوها بمفردات وأوزان ناقلة عن العربية العرباء إلى أنواع الهذيان الذي لا يهتدي به إلا الأقوام من الأعاجم الطماطم (٥) الصميان ... » (٦) .

٣ - عدم الكلام بغير العربية أو إدخال كلمات أعجمية معها :حتى في المعاملات إلاّ لحاجة لأن اللغة العربية من شعائر الإسلام وإظهارها في النطق في كل شيء إظهار

---

(١) انظر :اقتضاء الصراط المستقيم /٢٠٤ .

(٢) الفتاوى ١١٦/٧ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢٠٤ .

(٣) الفتاوى ٢٥٢/٣٢ .

(٤) انظر السابق ٢٥٢/٣٢ ، ٢٥٤ .

(٥) معنى الطماطم : الأعجم ، ويقال : طمطم في كلامه : إذا لم يفصح ، والطمطمانية : العجمة .. المعجم الوسيط ٥٧١/٢ .

(٦) الفتاوى ٢٥٢/٣٢ .

لشعائرالإسلام، يقول – رحمه الله: « كره الشافعي (١) لمن يعرف العربية أن يسمي بغيرها وأن يتكلم بها خالطاً لها بالعجمية » ، وهذا الذي ذكره قاله الأئمة مأثور عن الصحابة والتابعين (٢) .

ويبين لنا سر الاهتمام باللغة العربية والمنع من غيرها فيقول : « إن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدّين تأثيراً قوياً بيناً ...» (٣) .« ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق » (٤) .

وذكر الذين يغيرون العقول والأديان أنّهم ضادوا الرسول إذ بعث بإصلاحها بل همْ ضادوا الله في حكمه ثم قال : « والذين يبدّلون اللسان العربي ويفسدونه لهم من هذا الذم والعقاب بقدر ما يفتحونه ، فإن إصلاح العقل واللسان مما يؤمر به الإنسان ويُعين ذلك على تمام الإيمان وضد ذلك يوجب الشقاق والضلال والخسران » (٥) .

« واللسان تقارنه أمور أخرى من العلوم والأخلاق » (٦) فتعلّم اللغة الأعجمية له أضرار على اللسان وعلى الدّين ، والثقافة ، والخلق ، لأن من تعلّم لغة أكثر من الكلام فيها وقراءة كتب ونتاجِ أهلها الفكري ، والعلمي ، وأصبح يسهل عليه الاتصال الفكري بهم ، وكذلك يُصبحُ ميالاً إلى الاجتماع بهم ومحادثتهم والسفر إلى بلادهم إلى غير ذلك مما يكون له آثار فكرية ونفسيّة ، ولهذا ورد أن محمّد بن سعد بن أبي وقاص (٧) سمع قوماً يتكلمون بالفارسية فقال : « ما بال المجوسية (٨) بعد

---

(١) هو : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان القرشي المطلبي أحد أئمة المذاهب الأربعة ، ولد سنة ١٥٠هـ ومات في رجب سنة ٢٠٤هـ . انظر : تاريخ بغداد ٥٦/٢ رقم ٤٥٤ ، وتهذيب الأسماء واللغات ٤٤/١ رقم ٢ ، وسير أعلام النبلاء ٥/١٠ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٠٥ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٠٥ .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم /١٦٢ .

(٥) الفتاوى ٢٥٥/٣٢ .

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم /١٦٢ .

(٧) هو : محمد بن سعد بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زُهْرة ، تابعي إمام ثقة ، روى له الشيخان وغيرهما ، قام على الحجاج مع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، وشهد دير الجماجم ، ثم أتي به إلى الحجاج فقتله سنة ٨٢هـ . انظر: طبقات ابن سعد ١٦٧/٥ ، وسير اعلام النبلاء ٣٤٨/٤ .

(٨) المجوسية : هم الذين يعبدون النار ، لأنهم يعتقدون أنها أعظم شيء في الدنيا ويسجدون للشمس إذا طلعت وينكرون نبوة آدم عليه السلام ونوح عليه السلام ، وقالوا : لم يرسل الله عز وجل إلا رسولاً واحداً، لا ندري من هو ويقولون بإثبات أصلين : النور والظلمة . وفي باب الشريعة يستحلون نكاح الأمهات والبنات والأخوات وسائر المحرمات ، ويتطهرون بأبوال البقر تديناً ولذا قيل : إن أصل الكلمة =

الحنيفية » (١) .

وقال الإمام مالك رحمه الله : « من تكلم في مسجدنا بغير العربية أخرج منه ، مع أن سائر الألسن يجوز النطق بها لأصحابها ولكن سوغوها للحاجة وكرهوها لغير الحاجة ولحفظ شعائر الإسلام » (٢) .

٤ – **أننا لسنا بحاجة إلى غير لغتنا العربية لا في أمور ديننا ولا دنيانا** : لأن العربية هي أشرف وأوسع اللغات جامعة لأكمل مراتب البيان المبينة لما تتصوّره الأذهان بأوجز لفظ وأكمل تعريف (٣) ، ومع ذلك يرى ضرورة معرفة أهل العلم لاصطلاح كل قوم من أجل فهم مرادهم وتفهيمهم مرادنا ، وعلاج ما لديهم من انحرافات وأغلاط وتحذير الأمة من أفكارهم وبيان زيفها .

وكعادته – رحمه الله – في دقته واحترازه فإنه لم ينس أن يتصور البعض أن هذا من باب التعصب للعرب والعربية ولذلك قرر أن اللغة لم تكتسب المكانة والشرف والأهمية إلا عندما ارتبطت بالوحي والموحى إليه وأصبحت بذلك لغة الرسالة الخاتمة ، فإذا انفصلت اللغة عن هذا فإنه لا قيمة لها ، وإذا عُظمت وأهلها لغير هذ فإنه تعصب جاهلي لا قيمة له في ميزان الله وكان أهلها بدون الدين « بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار » (٤) .

= النجوس وقد نشأت المجوسية في بلاد الفرس . انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين /١٣٤ . المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين /١٣٤ ، الملل والنحل /٧٣ . الصواعق المرسلة ٣٤٩/١ ت د. علي الدخيل الله .

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /١٦٢ .

(٢) الفتاوى ٢٥٥/٣٢ .

(٣) انظر : الدرء ١١٧/٤ .

(٤) التفسير الكبير ٦/٢ ، ٧ ، وانظر الفتاوى ٢٠٧/١٣ .

المبحث الأول

الاستدلال باللغة العربيّة في بعض المسائل الخلافية

يعطي ابن تيمية للقرآن الكريم والسنة المطهرة اهتماماً كبيراً ويسعى جاهداً لربط الأمة بهما ، ومما يستعان به على فهمها اللغة العربية ، فهي طريق من طرق تفسير القرآن[1] خصوصاً لغة قريش . يقول رحمه الله: « والقرآن نزل بلغة قريش الموجودة في القرآن ، فإنها تفسر بلغته المعروفة فيه إذا وجدت ، ولا يعدل عن لغته المعروفة مع وجودها ، وإنّما يحتاج إلى غير لغته في لفظ لم يوجد له نظير في القرآن ... » [2] .

وإذا لم نجد معنى آية من القرآن أو كلمة منه فيما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته فإننا نلجأ لمعرفة المعنى إلى اللغة العربية يقول رحمه الله : « ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ... » [3] ، ومفهوم هذا أنه إذا لم يعرف يكون هناك حاجة .

وابن تيمية في ردوده على الخصوم يضع اللغة العربية من أدلته التي يحتج بها عليهم. وكثيراً ما يحرجهم في استدلالاته أو اعتراضاته بها عليهم ، ومما يعترض به على الخصوم أنهم خالفوا مدلول اللغة العربية ، منكراً ما يذكرونه من معنى باطل افتروه على اللغة العربية ، ويدافع عنها مبيناً وجه الصواب الذي تقره اللغة وتحتمله ألفاظها .

ونجد في كلامه كثيراً من العبارات تدل على أنه يردّ هذا القول بموجب ردّ اللغة له ، وذلك كقوله: « وكلام العرب على هذا المعنى » [4] وقوله : « وهذا القول أو المعنى لا تجيزه اللغة العربية » [5] وقوله: « وهذا لم يخطر ببال أهل اللغة » [6] وقوله « وهذا لا يعرف في لغة العرب ،أن الأفول بمعنى التحرك والانتقال ، ولا بمعنى

(١) انظر التفسير الكبير ٢٣٩/٢ ، وانظر أصول الدين د/ مصطفى حلمي /٢٣٢ .
(٢) التفسير الكبير ٣١/٥ ، وانظر الدرء ١١٦/١ .
(٣) التفسير الكبير ١١٩/١ ، وانظر الفتاوى ٢٧/١٣ ، ٢٨ ، ٢٨٦/٧ - ٢٨٩ ، ١١٥/٥ ، ١١٦ .
(٤) التفسير الكبير ١٥٦/٥ . (٥) التفسير الكبير ٤٠٧/٧ (٦) التفسير الكبير ٤٠٧/٧ .

التغيـر الـذي هـو استحالـة مـن صفـة إلى صفــة » (١) . وقولـه للذيـن يقـولـون : استـوى عـلـى العـرش غمــد إلى فعله: « لـو كــان هـذا يعـرف في اللـغة : أن استوى على كذا عمد إلى فعله ، وهذا لا يعـرف قط في اللـغة لا حقـيقة ولا مـجازاً » (٢) ، واختـلف مع المتـكلمين فـي مسمـى الجسم ، ففـي اللغـة هو البدن ، وعـندهم ما يمـكن الإشـارة إليه « فالهواء والماء والنار ونحو ذلك ليس هو جسماً في لغة العرب ، وهو فـي اصطلاحكـم جسم ....» (٣) .

ويقول عن نـفاة الصفات:« إنه لا دلـيل لديهم علـى النفي، لذلك احـتاجوا إلى أن يفـتروا على اللغة بـعـد أن افـتـروا على العقـل ، فصـاروا مفتريــن على الشرع والعقـل واللغة » (٤) .

ويقول: « ومن أعـجب الأشـياء احتـجاجهـم بقـصة إبراهـيم الخليل ، وهـم مع افترائهم فيها على التفسير واللغة إنما هي حجة عليهم لا لهم » (٥) .

ويقـول : « ثم استـعمال لفـظ الأفول في الـممكن الـذي يقبل الـوجود والعـدم من أعظم الكذب على اللغة والتفسير » (٦) .

ويقول : « ومـن المعلوم بـالضرورة من لغـة العرب : أنّهم لا يـسمون كل مـخلوق موجود آفـلا ، ولا كل موجود بغيـره آفلاً .... بل هذا أعظم افـتراءٍ على القرآن والـلغة من تسمية كل متحرك آفلاً » (٧) .

ويقول في المعية :« ولـيس معنى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ... ﴿٤﴾ ﴾ (٨) أنه مختلط بالخلق ، فــإن هــذا لا توجبـه اللغـة ، وهـو خـلاف مـا أجمـع عليه سلف الأمة » (٩) .

واعتمد على العربـية في بيان خطأ من يجعل معنى « يكذّبـك » أي يجعلك مكذباً فإن هذا مخالــف للعربيـة، بـل أن معنـى «كذّبـه » نسبـه إلـى الكـذب .... وكذلــك خطـأ مــن يجعـــل « يكذّبك » أي يجعلـك كاذباً على أن المخاطب الإنـسان فإن هذا

---

(١) الدرء ٤/٧٧ .
(٢) الفتاوى ٥/٥٢١ .
(٣) الدرء ٧/١١٢ وانظر الفتاوى ٥/٤٢٢ .
(٤) انظر الدرء ٧/١١٠ .
(٥) الدرء ٤/٧٥ .
(٦) الدرء ٤/٧٦ ، وانظر: الفتاوى ٥/٤٧ .
(٧) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١/٢٣٥ .
(٨) سورة الحديد آية (٤) .
(٩) مجموعة الرسائل الكبرى ١/٤٢٠ .

فاسد من جهة العربية والمعنى فإن الكافر كذب غيره ... الخ (١) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ... ﴾ (٢) ، ذكر أن بعض المتأخرين ظنّ أن قوله « فمن نفسك » أفمن نفسك ؟ استفهام على سبيل الإنكار ، ومعنى كلامه أن الحسنات والسيئات كلها من اللّه لا من نفسك .

ويرد ابن تيمية هذا الرأي لمباينته معنى الآية ولأنه لا يجوز في اللغة العربية ... الخ واستشهد بقول ابن الأنباري : (٣) (٤) .

ونجده في مواضع يبرر قبوله للرأي بموافقته للغة العربية ، وأن اللغة تجيز هذا المعنى، وألفاظها تحتمله ، ويجعلها دليلاً من الأدلة لإثبات صحة دعواه ، ووجهاً من وجوه الترجيح (٥) ، ويسوق بعض الأمثلة التي تبين ذلك ، ويردد في بحوثه كلمات وجملا تثبت مدى اعتماده على اللغة كدليل من الأدلة المرجحة وذلك كقوله : « وهذا سائغ في اللغة » (٦) .

وكقوله : « وهذا لا يدل على مقصودهم في اللغة التي نزل بها القرآن.»(٧) ، وكقوله : « لأنه أصح في اللغة والمعنى » (٨) ،وكقوله : « وإذا كانت العرب تقول هذا فهي تؤيّد ما نقول ونحو ذلك » (٩) ،وكقوله : « وهذا معنى صحيح موافق للغة العرب وموافق لما دلّ عليه الكتاب والسنة » (١٠) ،ولما تكلم عن معنى «ربيّونَ» وأن الراجح أنهم العلماء من وجوه ذكرها قال : «الوجه الثالث : أن استعمال لفظ الرّباني في هذا ليس معروفاً في اللغة .

الرابع : أن استعمال لفظ « الربيّ » في هذا ليس معروفاً في اللغة بل المعروف فيها هو الأول ،والذين قالوا : هو نسبة للرّبّ بلا نون والقراءة المشهورة « ربيّ » بالكسر ،

---

(١) ابن تيمية ومنهجه في التفسير ٧٢٦/٢ - ٧٢٧ .
(٢) سورة النساء آية (٧٩) .
(٣) هو : الإمام الحافظ المقرئ النحوي أبو بكر محمد بن القاسم ابن بشّار ، كان رحمه الله صاحب سنة وفضل . ولد سنة (٢٧٢هـ) ومات سنة (٣٠٤هـ) . سير أعلام النبلاء ٢٧٤/١٥ .
(٤) انظر : الفتاوى ٤٢١/١٤ - ٤٢٢ - ٤٢٣ ، وانظر ٤٤١ - ٤٤٢ ، وانظر: دقائق التفسير ٣٣٠/٢ .
(٥) انظر :التفسير الكبير ٤١٩/٦ - ٤٢٠ .
(٦) الفتاوى ٣٨/١٨ .
(٧) الدرء ١١٠/٧ ، وانظر :موافقة صحيح المنقول ٢٣٦/١ .
(٨) التفسير الكبير ٤٧١/٣ - ٤٧٢ .
(٩) التفسير الكبير ١٥٧/٥ .
(١٠) التفسير الكبير ٤٢٠/٦ .

وما قالوه إنما يتوجه على من قرأه بنصب الراء وقد قُرِئ بالضم ، فعلم أنها لغات» [1] .

وفي كلامه عن يدي الرب جل جلاله يرد على حجة المعارضين لإثباتها بمجيئها مجموعة مستعملاً اللغة العربية دليلاً يرد به عليهم فيقول : والفرق بين قوله تعالى :﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا .. ﴾ [3] من وجهين :

أحدهما : أنه أضاف الفعل إليه وبين أنه خلقه بيديه وهناك أضاف الفعل إلى الأيدي .

الثاني : أن من لغة العرب أنهم يضعون اسم الجمع موضع التثنية إذا أُمن اللبس : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [4] أي يديهما ، وقوله : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. ﴾ [5] أي قلباكما فكذلك قوله : ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ [6] .

واستدل باللغة العربية على : أن الأفلاك مستديرة فقال : ولفظ « الفلك » في لغة العرب يدل على الاستدارة ، قال الجوهري [7] : « فلكة المغزل » سميت بذلك لاستدارتها .... الخ [8] .

وفي مسألة الجسم يقول عن العرب : « وهم إذا قالوا هذا أجسم من هذا أرادوا أنه أغلظ وأعظم منه ، أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الأجزاء فهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر ببال أهل اللغة » [9] .ويرد على الذين استدلوا بقصة إبراهيم لطريقهم (الحدوث والإمكان) في إثبات الصانع قال : « فقد علم باتفاق أهل اللغة والمفسّرين أن الأفول ليس هو الحركة ... ولا هو التغير فلا يسمى في اللغة كل متحرك أو متغير آفلاً ... لا يقال للشمس إذا اصفرت أنها أفلت وإنما يقال « أفلت » إذا غابت واحتجبت ،وهذا من المتواتر المعلوم بالاضطرار من لغة

---

(١) الفتاوى ٦١/١ . (٢) سورة ص آية (٧٥) .
(٣) سورة يس آية (٧١) . (٤) سورة المائدة آية (٣٨) . (٥) سورة التحريم آية (٤) .
(٦) الرسالة المدنية ص ٦١ ، وانظر :الفتوى الحموية الكبرى /١٢٩ .
(٧) هو : إسماعيل بن حمّطاد التركي ، المعروف بالجوهري ، إمام اللغة وصاحب كتاب (الصحاح) ، مات سنة ٣٩٣هـ سير أعلام النبلاء ٨٠/١٧ ، والأعلام ٣١٣/١ .
(٨) الرد على المنطقين /٢٦٣ ، وانظر : الصحاح للجوهري ١٦٤/٤ .
(٩) التفسير الكبير ٤٠٧/٧ .

العـــرب أن آفلاً بمعنى غائباً ... » [1] .

ويرد عـلى الغـزالي [2] والقرامـطـة الباطـنية [3] ، حـيـنـما قـالوا : إن الـكواكـب والشمس والقمر هي : النفس والعقل الفعّال والعقل الأول ونحو ذلك، فيقـول : « ومن المعـلوم بـالاضطـرار مـن لـغة الـعرب : أن هذه المعانـي ليـست هي المـفهـوم من لـفظ الكوكب والقمر والشمس » [4] .

ويذكر فـي المسألة آراء النحـاة المتقدمين ويستشهد بأقوالـهم ويرضى حكمـهم في المسألة ويرجع إلى أقوال علـماء اللغة في مصادرها مستفيداً من علـمهم ودرايتهم فيذكر رأي العالم باسمه فيقول: قال الفراء، [5] وقال ابن كيسان [6] ،وقال ابن الأنباري [7] .

ونجده يردّ تـقسيم الـكلام إلى « الحقـيقة والمجاز » لأنـه لم يرد في الـكتاب والسـنة واللغة العربية ولا كلام أحد من علمائها [8] .

ويقـــول عن البيـــت الذي اسـتدل القائلـون بـأن اســتوى بمعنى استولى: « ولم يثبت نقـــل صحيـح أنـــه شـعـــر عـــربي ، وكـان غيـــر واحـد مـــن أئمـــة اللغـة

(١) الدرء ١/١٠٩ .

(٢) هو : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي : قال الذهبي في وصفه: «الشيخ الإمام البحر ، حجة الإسلام أعجوبة الزمان ، زيـن الدين أبوحامد » صاحب التصانيف والذكاء المفرط » ولد سنـة ٤٥٠هـ وقيل سنة ٤٥١هـ ، وتوفـي يـوم الإثنيـن «٤» جمـاد الآخـر سنة ٥٠٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢ ، وفيات الأعيان ٤/٢١٦ رقم ٥٨٨ .

(٣) الباطنيـة : سمو ابذلك ، لأنهم يقولـون إن للنصوص ظاهراً وباطـناً ولكل تنزيل تأويلاً ،وهـم فرق كثيرة منهـا القرامطة والخرمية والإسماعيـلية والمزدكيـة ، والتعليـمية ، والبابـكية ، والسبعية والملحدة ،ومـنهم النصيرية والدروز ، واتفقوا عـلى إنكار القيامة . والمنقول عنهم الإباحة المطلـقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات وإنكار الشرائع ،وهـم ينكرون ذلك إذا نـسب إليهـم . الملل والنحـل للشهرستاني ٢/٢٩ ، ٣٢، اعتقادات فـرق المسلمين والمشـركين /١١٩ ، مذاهب الإسلاميـين ٦/٩ ، فضائح الباطـنية /١١ ، ٤٠ ، ٤٦، الصواعق المرسلة ١/٣٠٣ .

(٤) الموافقة ١/٢٣٦ .

(٥) هو : يحـيى بن زياد بن عبـدالله بن منظـور الأسدي ، الكوفي ، النـحوي ، صاحب الكسـائي ، وعرف بالـفراء لأنه كـان يفري الـكلام .. ولد بـالكوفـه سنـة ١٤٤هـ وانتـقل إلى بـغداد وكان يـقال له : أمير المؤمـنين في النـحو .. توفى بـطريق الحج سـنة ٢٠٧هـ . انـظر :سير أعـلام النبلاء ١٠/١١٨ ، وفـيات الأعيان ٦/٩٧٦ . الأعلام ٨/١٤٥ .

(٦) هو : الحسن بن محمد بن أحمد بن كيسان الحربي ، المعمر الثقة النحوي ، وقيل اسمه أبوالحسن محمد بن أحـمد بن إبراهيـم . من أهـل بغداد ، أخـذ عن المبـرد وثعلـب .. توفـى سنة ٢٩٩هـ ، وقيل سـنة ٣٥٨هـ. انظر :سير أعلام النبلاء ١٦/١٣٦ ، الأعلام ٥/٣٠٨ .

(٧) انظر :ابن تيمية ومنهجه في التفسير ٢/٦٩٧ .

(٨) انظر: الفتاوى ٧/٨٨ .

أنكـروه وأبوالمظفـر(١) فـي كتابـه « الإفصاح » قال :سئل الخليل هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى فقال: هذا مالا تعرفه العرب، ولا هو جائز في لغتها. وهو إمام في اللغة على ما عرف من حاله، فحينئذ حمله على ما لا يعرف حمل باطل .. الخ. (٢) .

ويقول :« وأما عموم أهـل اللغة فيطلقون لفظ الحـركـة علـى جنـس الفـعـل فكـل مـن فعـل فعلاً فقد تحرك عندهم ، ويسمون أحوال النفس حركة .. قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ ﴾ (٣) ،فوصف الـغضب بالسـكوت .... قال المفسرون: سـكت الغضب أي سكن ، وكـذلك قال أهل اللغـة كالزجاج (٤) وغيره ، قال الجوهري (٥) : سكت الغضب مثـل سكن ... (٦) . وأحياناً يلزم الخـصوم بأن يأتوا بدليل من اللغة يؤيد ما يذهبون إليه ، فمثلاً :

لما تـكلم عـلى قـوله تعـالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ (٧) ، ناقـش الذين يـجعـلون الإدراك والرؤيـة مترادفان ،وطـالبهـم أن يبينـوا ذلك من لـغة العـرب ، ثم قرر أنهـم لن يجدوا في لغة العرب ما يدل على أن من « رأى شيئاً يقال في لغتهم أنه أدركه » (٨) .

وقال في كلامه عـن التأويل اشتقاق الكلـمة وتصريفها :« ومن النـاس من يقـول : فوعـل ، ويقول : أوله ، إلا أن هذا يحتاج إلـى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل .. » (٩) .

---

(١) هو : السمعـاني : هو الإمام العلامة مفتـي خراسان شيخ الشافعيـة . منصور بن محمد بن عـبدالجبار بن أحمد التميمي السمعاني المروزي ، ولد سنة ٤٢٦هـ ، توفي يوم الجمعة ٢٣ من ربيع الأول سنة ٤٨٩هـ. انظر :سير أعلام النبلاء ١١٤/١٩ ، ١١٩ .

(٢) الفتاوى ١٤٦/٥ .

(٣) سورة الأعراف آية (١٥٤) .

(٤) هو : إبراهيم بـن محمد بن السري بن سهل ، الـزجاج ، إمام النحو في زمانه مـات سنة « ٣١١ » وقيل غير ذلك .انظر : وفيات الأعيان ٤٩/١ رقم ١٣ ، وسير أعلام النبلاء ٣٦٠/١٤ .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٦٢) .

(٦) الفتاوى ٥٦٨/٥ .

(٧) سورة الأنعام آية (١٠٣) .

(٨) التفسير الكبير ٢٤٢/٤ .

(٩) الفتاوى ٢٩٢/١٣ .

العنايــــة بالمصطلحـــات

لابن تيمية عناية فائقة بضبط دلالة الألفاظ والمصطلحات ، وبيان ما يتعلق بذلك من سوء الاستعمال بأهداف محمودة أو مذمومة .

ولم يكن هذا الاهتمام منه من باب الترف الفكري والعلمي أو إثبات التفوق اللغوي والبلاغي ، وإنما كان دفاعاً عن الإسلام وصداً للافتراء على ألفاظ القرآن والسنة، وذلك حينما قالوا : « إن كلام الله وكلام رسوله أدلة لفظية لا تفيد علماً ولا يحصل منها يقين » (1) ،وقد سماه ابن القيم الطاغوت الأول عندما ذكر « الطواغيت الأربع التي هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين ، وانتهكوا بها حرمة القرآن ومحوا بها رسوم الإيمان » (2) .

ونقل عن الرازي (3) قوله (4) : « مسألة الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة .. » ثم ذكرها .

وينتهون إلى أن دلالة العقل هي اليقينية ، وهي مقدمة على النقل عند التعارض ، افتتح ابن القيم (5) جوابه على هذا الطاغوت بكلام شيخه ابن تيمية فقال : « قال شيخ الإسلام : والجواب عن هذا من وجوه .

هذا هو **الطريق الأول** أحدها: (6) ذكر فيه أنا لا نسلم أن إفادته اليقين موقوف

---

(1) كتاب الصواعق المرسلة ٢/٦٣٢ . (2) السابق .

(3) هو : محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري المعروف بالفخر الرازي ، الأصولي المفسر ، ولد سنة ٥٤٤ هـ هو توفي سنة ٦٠٦هـ . سير أعلام النبلاء ٢١/٥٠٠ ، والبداية والنهاية ١٣/٥٣ وفيات الأعيان ٤/٢٤٨ رقم ٦٠٠ .

(4) انظر :محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين /١٥ ، والأربعين في أصول الدين /٤٢٤ .

(5) هو : أبوعبدالله شمس الدين . محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي ، الزرعي ، ثم الدمشقي الحنبلي اشتهر بابن قيم الجوزية . ولد في اليوم السابع من شهر صفر سنة ٦٩١هـ . وكان ذا عبادة وزهد وورع وعلم وخلق توفي رحمه الله في اليوم الثالث عشر من رجب سنة ٧٥١هـ . وترك مؤلفات كثيرة : انظر : الأعلام العلية ٦/٥٦ .

(6) قال محقق الصواعق : لم أجد هذا النص فيما اطلعت عليه من كتب ابن تيميه المطبوعة والأرجح أنه في كتاب شرح أول المحصل ، وهو مجلد واحد وهو من كتب ابن تيمية المفقودة . ص ٦٣٤ ، د. علي الدخيل الله .

على الأمور العشرة ولا حتى على ما به يعرف مراد المتكلم .

وبيّن أنهم لا يريدون بهذه المقولة معرفة هل مراده مطابق للحق أم لا ، إنما يريدون بها « أنه لا يعلم بها مراد المتكلم » [1] ،ثم ضرب أمثلة على أن « معرفة مراد المتكلم تحصل بالنقل المتواتر كما حصل العلم بأنه قال ذلك اللفظ بالنقل المتواتر » [2] ، ثم ذكر أن الأدلة السمعية اللفظية قد تكون مبنية على مقدمتين يقينيتين – معلومة بالاضطرار – إحداهما : أن الناقلين إلينا فهموا مراد المتكلم . والثانية : أنهم نقلوا إلينا ذلك المراد كما نقلوا اللفظ الدال عليه ». [3]

فالأمة وصل إليها اللفظ ومدلوله .

وأنّ إرادة المخاطَب أن يَفْهم كلام مخاطبيه والمخاطب أن يُفْهِمَه أمر فطري قائم في النفوس ،فمع وجود الدافع والقدرة من الطرفين ، وشدة الحاجة ،لا بد أن يتحقق المراد لانتفاء الموانع .

الطريق الثاني : ذكر فيه أن دلالة الأدلة اللفظية « لا تختص بالقرآن والسنة، بل جميع بني آدم يدل بعضهم بعضاً بالأدلة اللفظية ، والإنسان حيوان ناطق ، فالنطق ذاتي له ، وهو مدني بالطبع بل لا يمكنه أن يعيش إلا مع بني جنسه ، فلا بد أن يعرف بعضهم مراد بعض ليحصل التعاون ، فعلّمهم الحكيم العليم تعريف بعضهم بعضاً مراده بالألفاظ كما قال تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)** ﴾ [4] ، وقال تعالى : ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [5] ، وقال : ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [6] ، فكانت حكمة ذلك التعليم ، تعريف مراد المتكلم ، فلو لم يحصل له المعرفة كان في ذلك إبطال لحكمة الله ، وإفساد لمصالح بني آدم ، وسلب الإنسان خاصيته التي ميزه بها على سائر الحيوان، وهذه الطريق يستدل بها من وجوه [7] منها :

(١) كتاب الصواعق المرسلة ٢/٦٣٤ . (٢) السابق /٦٣٥ .
(٣) السابق /٦٣٧ . (٤) سورة الرحمن الآيات (١ – ٤) .
(٥) سورة البقرة آية (٣١) . (٦) سورة العلق آية (٥) . (٧) كتاب الصواعق المرسلة ٢/٦٤١ .

الوجه الأول : لو لم تفد الأدلة اللفظية العلم بمراد المتكلم لم يعش بنو آدم .

الوجه الثاني : أن جميع الأمم يعرف بعضهم مراد بعض بلفظه وبتيقينه فقوله : الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين ، قدح في العلوم الضرورية .

الوجه الثالث : الناس يعرفون مراد المتكلم من لفظه أعظم من معرفتهم للقوانين العقلية التي وضعوها .

الوجه الرابع : الطفل أول ما يميز يعرف مراد مربيه من لفظه ، قبل أن يعرف شيئاً من العلوم الضرورية ، فأسبق شيء لديه تيقنه من مراد مخاطبه بلفظه ، فمن جعل العقليات تفيد اليقين ، والسمعيات لا تفيد معرفة مراد المتكلم ، فقد قلب الحقائق وناقض الفطرة وعكس الواقع [1] .

السادس : التعريف بالأدلة اللفظية أصل للتعريف بالأدلة العقلية .

السابع : الإنسان في فهمه وإفهامه للدليل العقلي محتاج إلى معرفة مراد المخبر به لمن يخاطبه [2] .

التاسع : البهائم والطيور يعرف بعضها مراد بعض بالأصوات فكيف لا يعلم الآدميون مراد بعضهم من بعض وخطابهم بألفاظ وألا يجزمون به ؟واذا كانت هذه الحيوانات والطيور تتفاهم فما الظن بالإنسان ؟ وما الظن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم صاحب العقل والبيان الأتمان الأكملان، وصحابته أكمل الأمم عقولاً وفهماً وفصاحة ، وحرصاً على فهم مراد نبيهم فكيف لا يكونون قد تيقنوا مراده من ألفاظه» [3] .

الوجه الثالث عشر : نحن فهمنا مراد شيوخنا من ألفاظهم يقيناً، ونحن كذلك فيمن نُعلّمه، وهم أشرف منا، ومن قبلهم كذلك إلى أول هذه الأمة، ومن تدبر هذا أو تصوره تبين له أن قولهم:الأدلة اللفظية لا تفيد علماً ولا يقيناً من أعظم أنواع السفسطة [4]،

---

(١) السابق ٢/٦٤٢ بتصرف . (٢) السابق ٢/٦٤٣ بتصرف.

(٣) الصواعق المرسلة ٢/٦٣٣ - ٧٩٤ بتصرف .

(٤) السفسطة : هي نفي الحقائق الثابتة مع العلم بها تمويهاً وخداعاً نسبة إلى السفسطائيين ،وهم قوم ينكرون المحسوس. فالسفسطة هي التمويه والخداع والمغالطة في الكلام وهي لفظ معرب مركب في اليونانية من «سوفيا » وهي الحكمة ومن « اسطس » وهو المموه فمعناه حكمة مموّهة . التعريفات للجرجاني /٨٠ .

وأكثر أسباب الزندقة [١] ،وإن هؤلاء شر من اللاأدرية [٢] وشر من الباطنية [٣] .

وقد ذكر رحمه الله ثلاثة وسبعين وجهاً في إثبات خطأ مقولة الرازي وأصحابه ، وبيان أن الألفاظ القرآنية والنبوية تفيد اليقين ، وكان ذلك في الصفحات من ص ٦٣٣ - ٧٩٤ .

وعناية ابن تيمية بالألفاظ والمصطلحات عائد إلى أنه لاحظ من خلال رحلاته العلمية والفكرية لما بعد الصحابة والتابعين ، وحتى في العصور السابقة للإسلام ، حدوث الاختلاف بين العقلاء في دلالات الألفاظ والمصطلحات ،وهذا الاختلاف كما يوجد بين الطوائف يوجد في الطائفة الواحدة ، يقول في ذلك :

« وأما أهل الكلام فالجسم عندهم أعمّ من هذا ، وهم مختلفون في معناه اختلافاً كثيراً عقلياً واختلافاً لفظياً اصطلاحياً [٤] ،ويقول عن الفلاسفة [٥] :« قلت المقصود هنا أن نبين اختلاف اصطلاحهم في مسمى الممكن » [٦] .

ويرجع كثيراً من الاختلافات العلمية والعملية والتفرق والتحزب الناشيء في الأمة إلى سوء التعامل مع الألفاظ والمصطلحات لأنهم خالفوا فيها اللغة والشرع والعقل . والأمّة لا يكون لها عودة إلى وحدتها وتآلفها وانسجامها الفكري والنّفسي إلاّ من خلال وحدة المفاهيم التي تتم من خلال توحد الإدراك لدلالة الألفاظ والمصطلحات التي هي أوعية المعاني ، يقول رحمه الله :« والأئمة الكبار كانوا يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة المشتبهة لما فيها من لبس الحق بالباطل ، مع ما توقعه من الأشتباه

---

(١) الزندقة : الزنادقة جمع زنديق . ومصدره زندقة ، فارسي معرب ، وهو الذي لا يؤمن بالآخرة ، ووحدانية الخالق ويقول بدوام بقاء الدهر . كما يُطلَق على كل متهتك مستهتر يتكلم في الدين بما هو كفر صراح دون نظر أو استدلال . انظر : لسان العرب ١٨٧١/٣ ، وفتح الباري ٢٧٠/١٢ ، والصواعق ٦٤٦/٢ .

(٢) اللاأدريه : سموا بذلك إلى قولهم :لا أدري ،وهم ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة وهم يقولون لا ندري معاني هذه النصوص ولا ما أريد بها وهم أصحاب بيرون إمام الشك . انظر: المعجم الفلسفي / ١٥٨. و الصواعق المرسلة ٦٤٧/٢ .

(٣) تقدم التعريف بها في صفحة (٦٣) .

(٤) التفسير الكبير ٤٠٠/٧ .

(٥) الفلاسفة : كلمة فلسفة تتكون من مقطعين هما فيلو ، وسوفيا ومعنى (فيلو) في اليونانية محب ، وسوفيا : الحكمة فالفيلسوف هو محب الحكمة ، ومذهبهم : أن العالم قديم وعلته مؤثرة بالإيجاب ، وليست فاعلة بالاختيار ، وأكثرهم ينكرون علم الله تعالى وينكرون حشر الأجساد . وهم أتباع أرسطو. انظر :اعتقادات فرق المسلمين والمشركين /١٤٥ - ١٤٦ ،و الفصل في الملل والنحل ٩٤/١ ، والملل والنحل للشهرستاني ١٥٥/٢ .

(٦) الدرء ١٩٨/٨ وانظر ١٨٧ .

والاختلاف والفتنة ، بخلاف الألفاظ المأثورة والألفاظ التي تثبت معانيها فإن ما كان مأثوراً حصلت به الألفة وما كان معروفاً حصلت به المعرفة ، فإذا لم يكن اللفظ منقولاً ولا معناه معقولاً ظهر الجفاء والأهواء » (١) .

إذن فلا بد من منهج للوصول إلى معاني الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة حيث اللفظ المنقول والمعنى المعقول ،ويحدّد المنهج ويثبت هو نجاحه من خلال سيرته العلمية والعملية حيث سلم من التخبط في استدلاله بالنصوص الشرعية وما ورد عن سلف الأمة ، وكذلك فيما يكتبه عن الآخرين من أهل المنطق والفسلفة ، وأهل الكلام والفقه والتصوف (٢) ونحوهم ، يذكر ما يعتقدونه من تصورات ومفاهيم، ويعرف مقدار شططهم عن منهج السلف ،بينما وقع آخرون إما في الغلو في الدفاع عن أقوام ونهج أثرهم ، وإما في الغلو في النيل منهم والحط من قدرهم .

والذي جعل ابن تيمية في هذا المستوى الناضج هو اهتداؤه إلى كيفية يفهم بها مراد المتكلم من خلال ألفاظه وكلماته . ويظهر انزعاجه الشديد من هذا التناقض والتعارض في مفهوم الألفاظ والمصطلحات خصوصاً إذا تعارضوا في ألفاظ القرآن والسنة وأقوال السلف؛ لأن هذه الثلاثة (٣) يتعلق بها أمر الدين من حيث التصور وبناء الأحكام العلمية والعملية . ولهذا بذل جهداً في لفت نظر العلماء والأمة إلى ضرورة العلم بالمصطلحات والألفاظ القرآنية والنبوية وما ورد عن سلف الأمة وعلمائها، وكذلك مصطلحات كل قوم في كل عصر ومصر . ويعلل ذلك بأن معرفتها من الدين في كل لفظ من ألفاظ اللّه عزّ وجل ،وألفاظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، « ثم قد يكون معرفتها فرض عين وقد يكون فرض كفاية ، ولهذا ذم اللّه تعالى من لم يعرف هذه الحدود بقوله :﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا ... ﴾ (٤) » (٥) .

---

(١) الدرء ٢٧١/١ .

(٢) الصوفية : سموا بذلك نسبة إلى اللبسة الظاهرة وهي الصوف غالباً . ولقد مر التصوف بعدة مراحل ، فقد كان في أوله زهداً في الدنيا وانقطاعاً لعبادة الله عز وجل ، ثم صار حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة ، ثم صار إلحاداً وخروجاً عن دين الله فقالوا بالحلول ووحدة الوجود وإباحة المحرمات وترك الواجبات وعلم الباطن . انظر : إعتقادات فرق المسلمين والمشركين /٨٧ ، ١١٥ ، والمرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين/١٣٠، ١١٢ .

(٣) انظر :اقتضاء الصراط المستقيم /٣٤٤ . (٤) سورة التوبة آية (٩٧) . (٥) الفتاوى ٩٤/٩ ، ٩٥ .

وفيما يتعلق بألفاظ ومصطلحات غير الكتاب والسنة وسلف الأمة يقول : « ونحن نحتاج إلى معرفة اصطلاحهم وهذا جائز بلْ حسن ، بل قد يجب أحياناً ...» (١) .

ويقول : « ومعرفتنا بلغات الناس واصطلاحاتهم نافعة في معرفتنا مقاصدهم ثم نحكم فيها كتاب الله تعالى فكل من شرح كلام غيره وفسره وبين تأويله فلا بدّ له من معرفة حدود الأسماء التي فيه » (٢) .

ويقرر أن فائدة الحدود معرفة مراد المتكلم وبيانه فكل حدّ للاسم بمنزلة الترجمة والبيان فيلزم معرفة الألفاظ ومعرفة مراد أصحابها بها ،وهذا لازم في كل علم وفن . «فإن من قرأ كتب النحو أو الطب أو غيرهما لا بد أن يعرف مراد أصحابها بتلك الأسماء ، ويعرف مرادهم بالكلام المؤلف ، وكذلك من قرأ كتب الفقه ، والكلام ، والفلسفة وغير ذلك . والمعاني الشرعية العقلية لا يجوز التعبير عنها بألفاظ مبتدعة موهمة أو ذات دلالة منحرفه» (٣) .

وأما ما دلّ عليه العقل مجرداً عن السمع فهذا لا ارتباط له بالألفاظ ،فلو عبّر عن معنى عقلي بعبارة موهمة باشتراك أو إجمال استفصلنا فقبلنا المعنى الحق ولو كانت العبارة باطلة لا يصح إطلاقه (٤) « ويبقى الكلام في المعاني العقلية لا في المنازعات اللفظية فقد قيل : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، ومن كان متكلماً بالمعقول الصرف لم يتقيد بلفظ ، بل يجرد المعنى بأي عبارة دلت عليه ، واختلاف العبارات مع اتحاد المعنى لا يغير حقيقة المعنى» (٥) .

« والمعاني الشرعية تؤخذ من ألفاظ التنزيل ، ويلتزم مدلول اللفظ ، ونؤمن باللفظ سواء عرفنا معناه أو لم نعرفه لأن ذلك عبادة وضده معصية» (٦) .

ويقرر أن الكتاب والسنة بيّنا معنى كل لفظ من الألفاظ الشرعية ولا يوجد فيها معنى أو لفظ يهم الناس في دينهم إلا وقد جاء بيانه بأوجز وأوضح عبارة .

---

(١) بغية المرتاد /٢٣٤ . (٢) الفتاوى ٦٦/٩ ، ٦٧ .

(٣) انظر : التفسير الكبير ٤٠٣/٧ ، ٤٠٤ ، وانظر الفتاوى ٢٥/١١ .

(٤) الدرء ٢٨٢/١ ، وانظر ٢٤٤/٢٤٣ .

(٥) الدرء ٢٣٣/١ ، ٢٩٩ ، وانظر الرد على المنطقيين/١٦٦ .

(٦) انظر الدرء ٢٤٤/١ - ٢٩٦، وانظر الفتاوى ٢٩٨/٥ ، ٢٩٩ ، وانظر التفسير الكبير ٤٠٧/٧ ، وانظر الفتاوى ٩٤/٩ ، ٩٥ ، ٢٥ ، و انظر الدرء ٢٤٠/١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٤٤ .

ويرد بذلك على من يدعي أن الشريعة لم تبين بعض الألفاظ والمصطلحات ، وأن الشرع سكت عنها ، كما يقوله ابن رشد (١) عن النفس والجسم :« وإنما سكت الشرع عن هذه الصفة لأنه لا يعترف بموجود في الغائب أنه ليس بجسم إلا من أدرك برهانا أن في الشاهد موجوداً بهذه الصفة ، وهي النفس ... ومعرفة هذا مما لا يمكن الجمهور... فلما حجبوا عن معرفة النفس علمنا أنهم حجبوا عن معرفة هذا المعنى من الباري تعالى » (٢) .

وقال ابن تيمية في تعليقه على هذا :« وأما ما ذكره من سكوت الشريعة عن النفس فيقال له : الكتاب والسنة مملوء بإثبات صفات النفس الدالة على أنه يشار إليها ، وأنها بحكم اصطلاحهم جسم ... الخ » (٣) .

وذكر ابن رشد أن الشرع بالنسبة لإثبات الجسم لله :« لم يصرح فيه بأنه ليس بجسم لا في الكتاب ولا في السنة » (٤) ،مع أن السؤال عن ذلك موجود في الفطر بالطبع ، ولكن الصحابة لم يجترئوا على الشرع فيسألوا ، أما حين دعي إلى الإسلام من سائر الأمم ممن اعتاد النظر سألوا ، ولا بد أن يجيب المسلمون فأجابوا ، فبعضهم أثبت ، وبعضهم نفى فاختلفوا « فوقع الشك والحيرة وكفر بعضهم بعضاً » ورد ابن تيمية على ذلك من وجهين :

«**الوجه الأول** :أنه في زمن الصحابة والتابعين دعي إلى الإسلام من أصناف الأمم مالا يوجد بعدهم مثلهم في الحذق والنظر والفضائل ، وكل من دعي بعدهم فإنهم دونهم في ذلك ، وفلسفة اليونان والهند ونحوهم كانت موجودة في وقتهم أكثر من وجودها اليوم وأكثر ، إذ اليونان موجودون قبل مبعث المسيح بنحو ثلاثمائة سنة .

والنصارى أكمل منهم في الإلهيات وأفضل وأعلم وأعقل ، وحذق أولئك في غير الإلهيات كالطب والحساب والهيئة » (٥).

يتضح من هذا أن « .. دعوى المدّعي أن الناس احتاجوا فيمن يدعونه إلى الإسلام إلى تغيير الأصول الشرعية التي لم يحتج الصحابة إلى تغييرها – دعوى باطلة » (٦) .

---

(١) وهو : فيلسوف الوقت ، محمد بن أبي القاسم بن شيخ المالكية مولده سنة (٥٢٠هـ) برع في الفقه ، والطب وعلوم الأوائل ، ولي قضاء قرطبة فحمدت سيرته ، مات محبوساً بداره بمراكش في أواخر سنة (٥٩٥هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء ٣٠٧/٢١ .

(٢) الدرء ٢٨٩/١٠ ، ٢٩٠ نقلاً عن « مناهج الأدلة ص ١٧٦ » .

(٣) الدرء ٢٩٢/١٠ .

(٤) حاشية الدرء ٢٩٨/١٠ .

(٥) انظر الدرء ٣٠٠/١٠ – ٣٠١ .

(٦) الدرء ٣٠١/١٠ .

الوجه الثاني : أن يقال : القرآن فيه بيان الجواب عن هذا السؤال وسائر ما يسأل عنه لكن يريد الذي يجيب بما في القرآن والسنة أن يعرف معاني القرآن والسنة ، ويعرف معاني كلام السائل ، فإن الناس لهم عبارات يعبّرون بها عن معانيهم غير العبارات التي في الكتاب والسنة ، كما أن لكل أمة لساناً غير لسان العرب .

فالمجيب بما جاء به الرسول يحتاج إلى أن يعرف معنى العبارتين :

العبارة التي خاطب بها الرسول ، والعبارة التي وقع بها السؤال ، ثم هذه العبارات قد تكون غريبة غُيرٌ معناها ، وقد لا يكون معناها مغيراً ، وقد لا تكون غريبة، فلفظ «الهيولي » ونحوها من كلام الفلاسفة ليس غريباً في لغتهم ، معناه ، مثل معنى المحل والموضع ونحو ذلك .

ولفظ « العقل » و « المادة » ونحوهما في كلامهم غُيِّر معناه عن معناه في لغة العرب فإنهم يعنون بالعقل جوهراً قائماً بنفسه . والعقل في لغة العرب عرض ، هو علم أو عمل بالعلم ، وغريزة تقتضي ذلك ، والمادة من جنس الهيولي عندهم .

والسائل إذا سأل عن الأمور الدينية بألفاظ ليست مأثورة عن الرسول في ذلك مثل ... الجسم ... نظرنا إلى معنى لفظه ، فأثبتنا المعنى الذي أثبته الله ونفينا المعنى الذي نفاه الله .

ثم إن كان التعبير عن ذلك بعبارته سائغاً في الشرع ، وإلا عُبر بعبارة تسوغ في الشرع ، وإذا كانت عبارته تحتمل حقاً وباطلاً ، منع من إطلاقها نفياً وإثباتاً » (١) .

ولفظ « الجسم » و « الجوهر » ونحوها من هذا الباب ،فإذا قال السائل :هل لله جسم أم ليس بجسم ؟ لم نقل : إن جواب هذا السؤال ليس في الكتاب والسنة ، مع قول القائل : إن هذا السؤال موجود في فطر الناس بالطبع والله تعالى يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ (٢) ، وقال : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥) ﴾ (٦) .

---

(١) الدرء ١٠/٣٠١ ، ٣٠٢ . (٢) سورة المائدة آية (٣) . (٣) سورة التوبة آية (١١٥) .
(٤) سورة النحل آية (٨٩) . (٥) سورة يوسف آية (١١١) . (٦) الدرء ١٠/٣٠٣ .

وقال أبو ذر [١] : (لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما) [٢] ، ومثل هذا كثير فكيف يكون هذا – مع هذا البيان والهدى – ليس فيما جاء به جواب عن هذه المسألة ولا بيان الحق فيها من الباطل ، والهدى من الضلال ؟ ! بل كيف يمكن أن يسكت عن بيان الأمر ، ولم يسأله الناس ؟ [٣] .

وانما يقول إن جواب هذا السؤال وأمثاله ليس في الكتاب والسنة ، الذين يُعرضون عن طلب الهدى من الكتاب والسنة ، ثم يتكلم كل منهم برأيه ما يخالف الكتاب والسنة فيتفرقون ويختلفون ، ولو اعتصموا بالكتاب والسنة لاتفقوا ، كما اتفق أهل السنة والحديث ، فإن أئمتهم لم يختلفوا في شيء من أصول الدين ، ولهذا لم يقل أحد منهم : إن الله جسم ولا قال : إن الله ليس بجسم [٤] .

ثم أخذ في إثبات وبيان اشتمال الشريعة على الجواب في مسألة الجسمية [٥] .

ويضعنا ابن تيمية أمام حقائق تشعرنا أنه على حق فيما ينادي به في مجال ضبط المصطلحات وأنه أمر واجب ، وأن عدم اتباع منهج دقيق أدى إلى الانحراف ، وضياع الحق ، وما تفرق الأمة وتمزقها ، وخروج الكم الهائل من البدع العقدية وغيرها ، وبقاء ذلك واستمراره في الأمة ،إلا بسبب فقدان المنهجية السليمة في التعامل مع ألفاظ التنزيل، وألفاظ سلف الأمة وعلمائها ، وكذلك ألفاظ سائر البشر .

لهذا فإن ابن تيمية وضع منهجاً علمياً عملياً لتلقي المعاني من الألفاظ أياً كانت هذه الألفاظ .

وقبل ذكر هذا المنهج أقدم بين يديه عدداً من الأفكار لها علاقة كبيرة به :

أولاً : اصطلاحات أهل الفنون :

إن كل فن من الفنون لأهله مصطلحات يتفقون عليها أو أكثرها ، تكون وسيلة لفهم مراد بعضهم البعض ولغة تخاطب بينهم ، وهذه المصطلحات معانيها ودلالتها

---

(١) هو : جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار . أحد السابقين الأولين ، من نجباء أصحاب محمد ﷺ . كان خامس خمسة في الإسلام ، هاجر مع النبي ﷺ وجاهد معه ، شهد فتح بيت المقدس مع عمر . انظر :سير أعلام النبلاء ٤٦/٢، وطبقات ابن سعد ٢١٩/٤ – ٢٣٧ .

(٢) ورد هذا الأثر في موضعين من مسند أحمد (ط . الحلبي) ١٥٣/٥ وفيه : « لقد تركنا محمد صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علما » ، ١٦٢/٥، وفيه « لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يتقلب في السماء طائر إلا ذكرنا منه علما » .

(٣) الدرء ٣٠٤/١٠ – ٣٠٥ . (٤) انظر الدرء ٣٠٦/١٠ . (٥) الدرء ٣٠٧/١٠ – ٣١٥ .

عرفية فيما بينهم تعارفوا عليها عرفاً خاصاً بهم ، وهذه الدلالة غير مفهومة من اللغة العربية سواء كانت حقاً أو باطلاً ، هم تماماً كأهل الصناعات العملية (لهم) ألفاظ يعبرون بها عن صناعاتهم ... ومرادهم بها غير المفهوم منها في أصل اللغة ... [1] » [2] .

ثانياً :التغيرات التي طرأت على المصطلحات :

المصطلحات وقع في دلالاتها تغير وتحريف وإضافات ، والمصطلحات : ألفاظ تحمل معاني بموجب الوضع اللغوي ، أو الاستعمال الشرعي أو العرفي ، ويرى ابن تيمية أن ألفاظ اللغة توقيفية ، وأن الشارع استعمل هذه الألفاظ كما استعملتها اللغة العربية ، وكان دور الشرع أن أعطى بعض هذه المصطلحات معنى شرعياً جديداً لم يكن معروفاً عند العرب ، فيكون نقلها من المسمى اللغوي ،مثل : الصلاة ، والزكاة ، والتيمم ، لأن النقل يحتاج إليه إذا أحدث الشارع معاني لم تكن العرب تعرفها وإلا فالأصل عدم النقل ، وأحياناً يضع الشرع بعض الشروط في استعمال اللفظ استعمالاً شرعياً كالبيع والنكاح ونحوها ، فإنه اشترط لحلهما وصحتهما شروطاً مع بقاء المسمى اللغوي .

والتغير الذي طرأ على المصطلحات نذكر بعضاً منه : -

١ - استعمال ألفاظ ومعان محدثة لا توجد في الكتاب والسنة ولغة العرب ، بحيث يكون المصطلح ودلالته محدثين، فجعلوا لفظاً مبتدعاً وجعلوا له معنى مبتدعاً لا يدل عليه اللفظ ولا العقل ، والمدلول الحقيقي للفظ سواء اللغوي أو الشرعي نفوه ، ومثال هذه الألفاظ المستحدثة التي غيروا معانيها المفهومة منها إلى معان أخرى: الجسم والجوهر والعرض والتحيز والانقسام والتركيب ،فهذه معانيها في اصطلاح بعض المتكلمين غير معانيها في لغة العرب ، وهذا سبب لجوء أهل البدع إلى النفي والتعطيل [3] .

ومن أراد استعمال لفظ معين في معنى من المعاني أو وضع هذا المعنى لهذا اللفظ فإن هذه المسألة : لا تخلو من ثلاث حالات [4] :

---

(١) الدرء ٢٢٢/١ ، وانظر بغية المرتاد /٢٣٤ .

(٢) يقول ابن الجوزي رحمه الله :« فاعلم أن لأرباب كل صناعة ألفاظاً يتداولونها بينهم في مجاراتهم ، قد وضعوها بإزاء مسميات يحتاجون إليها في محاوراتهم ، فلا يقف غيرهم على موضوعها إلاّ بتوقيف منهم» .انظر الإيضاح لقوانين الاصطلاح لابن الجوزي ت د .فهد السدحان /١٣ .

(٣) انظر: التفسير الكبير ١٢٧/٢ ، وانظر الدرء ٢٣٣/١ - ٢٤٢ . والدرء ٣٠٢/١٠ ، وانظر الرد على المنطقيين / ٢٢٤ ، والتدمرية /٦٥ - ٦٦ .

(٤) الدرء ٧٣/١ .

أ – أن يكون المعنى صحيحاً موافقاً للكتاب والسنة واللفظ يدل عليه فلا مانع من ذلك ، لأن هذه مسألة اصطلاحية ولا مشاحة في الاصطلاح (١) .

وكان الإمام أحمد (٢) – رحمه الله – « .. لا يكره – إذا عرف معاني الكتاب والسنة – ان يُعبَّر عنها بعبارات أخرى إذا احتيج إلى ذلك ، بل هو قد فعل ذلك » (٣) .

ب – أن يكون المعنى باطلاً مخالفاً للكتاب والسنة واللفظ لا يدل عليه ففي هذه الحالة لا يصح إضافته ولا استعمال المصطلح له .

من أمثلة ذلك: « لفظ العقل » و « المادة » ونحوها في كلامهم غُير معناها عن معناها في لغة العرب (٤) ،وكذلك « لفظ » « أصول الدين » ، حيث أدْخَل كل قوم من المسائل والدلائل ما ظنوه هم من أصول دينهم وإن لم يكن من أصول الدين الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه (٥) .

وكذلك بعض الألفاظ المستعملة في الأمور الإلهية حيث استعملها أهل الكلام والفلسفة في معاني أخرى لا تدل عليها هذه الألفاظ مثل لفظ : التوحيد ، والإيمان ، والسنة ، الشريعة ونحو ذلك (٦) .

ويقول : « المعتزلة ومن وافقهم تسمي نفي القدر عدلاً ... ومثل هذه البدع كثير جداً ، يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراده الله ورسوله بتلك الألفاظ» (٧) ،وأيضاً لفظ « الذات » العرب لم ينقل عنها « إطلاق لفظ ذات » بإزاء نفسه، وإنما الذات عندهم تأنيث « ذو » فلا تستعمل إلا مضافة . وابن « برهان » (٨)

---

(١) انظر الاستقامه ٤١/٢ ، ٢٢ .

(٢) هو : أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي ، ثم البغدادي أبو عبدالله ، الإمام حقاً وشيخ الإسلام صدقاً وهو إمام المذهب الحنبلي . ولد في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ، ومات رحمه الله يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين .انظر سير أعلام النبلاء ١٧٧/١١ ، والبداية والنهاية ٣٦٨/١٠ .

(٣) الدرء ٥٥/٧ .	(٤) انظر الدرء ٣٠٢/١٠ .	(٥) الدرء ٧٣/١ .

(٦) انظر الدرء ٣٠٢/١٠ ، وانظر التفسير الكبير ١٢٧/٢ .	(٧) التفسير الكبير ٤٢٩/٧ .

(٨) هو : أبو القاسم عبدالواحد بن علي بن برهان العكيري ، قال ابن ماكولا: ذهب بموته علم العربية من بغداد وكان أحد من يعرف الأنساب ، وكان حنفياً تفقه وأخذ الكلام عن أبي الحسين البصري وتقدم فيه فصار له اختيار في الفقه ، كان يميل إلى مذهب مرجئة المعتزلة ويعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار، مات في جمادى الآخر سنة ٤٥٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٢٤/١٨ .

وغيره أنكر على المتكلمين إطـلاق لفظ « ذات الله » (١) .

وإذا كان الأمر كذلك فمن أطلق لـفظ « الذات » علـى الله فـإنه استـعمله بمـا لم تستعمله العرب في لغتها من غير أن يكون هناك إذن من الشرع (٢) .

جـ - وقد يكون المعنى صحيحاً ولكن اللـفظ مبتدع لا يدل عليه وفيه تلبيس ، لأن المعنى الذي أراده ليس هو معنى المصطلح فـي اللغة ، بل هو اصطلاح له ولطائفته ؛ولأن هذه الألفـاظ فيها إجمـال واشتباه وتحـتمل حقاً وباطـلاً صار من نفاهـا مخطئاً لأنـه نفى الحق الذي فيها ، ومن اثبتها صار أيضاً مخطئاً لأنه أثبت الباطل الذي فيها (٣) .

ويبرر مسـألة الإذن في الإضافة علـى المصطلح الشـرعي بأن أهل اللغـة لا يمكن أن يحيطوا بما وجد أو أمكن وجوده في المستقبـل ويدخلوه في تعبيرهـم أو اصطلاحهم « إذ ليس كل ما وجد أو أمكن وجوده يجب أن يتصـوره أهل اللغة ويكون داخلاً فيما عبروا عنه من لغتهم » (٤) .

٣ - التوسـع في استعمـال المصطلحـات فصارت عند بـعض الطوائف أعـم مما هي عند العرب في استعمالها .. وصارت عند بعض الطوائف أعمّ من بعض .

فـإن لفـظ « الجوهـر » و « الجـسم » قـد صار فـي اصـطلاحـكم جـمـيعـاً أعمّ ممـا استعملـت فيه العرب ... فلستـم متوقفين في الاستعـمال لا على حدّ اللغة الـعربية ، ولا على إذن الشارع لا في النفي ولا في الإثبات (٥) .

وقال الأصمعي : (٦) الجسـم والجسمـان : الجسـد ،ومعلـوم أن أهـل الاصطـلاح نقلـوا لـفـظ « الجسم » من هذا المعنى الخـاص إلى ما هو أعم منه فسموا الـهواء ، ولهيب النار، وغير ذلك جسماً وهذا لا تسميه العرب جسماً كما لا تسميه جسداً ولا بدناً»(٧). ويقـول عن أهل الـفلسفـة والمنطـق :« وأخذوا لفـظ التركـيب الذي وافقـهم بعـض أهل

---

(١) انظر الدرء ٤ / ١٤٠ .	(٢) الدرء ٤ / ١٤٠ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٤٢٥/٧ ، ١٢٧/٢. وانظر الدرء ٢٨٣/١

(٤) الدرء ٢٩/١.

(٥) انظر الدرء ١٤١/٤ ، ١١٢/٧ ، وانظر التفسير الكبير ٣٣٩/٧ - ٤٠٠ - ٤٢٢ .

(٦) هو : عبدالملك بن قُريب بن عبدالملك ابن علي ابن أصمع ، الإمام العلامة الحافظ ، حجة الأدب لسان العرب ، قال ابن حجر : صدوق سني ، ولد سنة بضع وعشرين ومائة ، ومات سنة ٢١٥هـ وقيل غير ذلك . انظر : سير أعلام النبلاء ١٧٥/١٠ .

(٧) الدرء ١١٦/١ ، وانظر التفسير الكبير ٤٠٧/٧ ، والدرء ١٢٥/١ .

الكلام على نفي معناه ، وتوسعوا فيه حتى جعلوه أعم مما وافقهم عليه أولئك المتكلمون ونفوه وصاروا كالجهمية (١) المحضة ... » (٢) .

وأحياناً يدخل المصطلح في عدد من التطورات يكتسب فيها دلالة جديدة تعرف منه في كل فترة زمنية ،ومما يدل على ذلك قوله :

« وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » فيدخل فيهم العلماء والنساك، ثم أحدث بعد ذلك اسم « الصوفية والفقراء » واسم « الصوفية » هو نسبة إلى لباس الصوف ، هذا هو الصحيح وصار أيضاً اسم « الفقراء » يعنى به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث ، ولفظ الفقر في الشرع يراد به الفقر من المال ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه » (٣) .

وأيضاً مصطلح « ... الحدود في لفظ الكتاب والسنة يراد بها الفصل بين الحلال والحرام مثل : آخر الحلال وأول الحرام فيقال في الأول : ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا** ﴾ (٤) .

ويقال في الثاني : ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا** ﴾ (٥) . وأما تسمية العقوبة المقدرة حداً فهو عرف حادث » (٦) .

وأحياناً لا يفرقون بين دلالة المصطلح في الكتاب والسنة ، وبين الإطلاق العرفي مثال ذلك : مصطلح « الشريعة » يتكلم به كثير من الناس ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة ... وبين الشرع الذي هو حكم الحاكم ، فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطيء هذا إذا كان عالماً عادلاً .. فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه ... وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالماً وقد يكون عادلاً وقد يكون صواباً ، وقد يكون خطأ ، وقد يراد بالشرع قول أئمة الفقه فهؤلاء أقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة .. (٧).

---

(١) الجهمية : هم أتباع الجهم بن صفوان ، ومن أشهر بدعه : نفي الصفات ، وقوله بالإرجاء « الإيمان هو المعرفة فقط» وبالجبر ، وبفناء الجنة والنار ، انظر :مقالات الإسلاميين ١/٢١٤ ، والفرق بين الفرق /١١٩ ، ٢٠٠، والملل والنحل ١/١٠٩ ، ١١٢ . والتدمرية /١٤ .

(٢) الرد على المنطقيين /٢٢٤ ، ٢٢٥ وانظر الفتاوى ١١/٢٧ .

(٣) انظر الفتاوى ١١/١٩٥ ، ١٩٦ وانظر ٢٧ .

(٤) سورة البقرة آية (٢٢٩) .

(٥) سورة البقرة آية (١٨٧) .

(٦) الفتاوى ٢٨/٣٤٨ .

(٧) انظر الفتاوى ١٩/٣٠٦ ، ٣١٠ .

فلا بد أن تعرف ماذا يريد المتكلم بلفظ الشريعة هل هو ما في الكتاب والسنة أو حكم الحكام أو آراء الفقهاء واجتهاداتهم ومذاهبهم .

٤ - مقابلة المصطلح الشرعي بمصطلح حادث يدل عندهم دلالة تأخذ موقع ومنزلة دلالة المصطلح الشرعي، فمثلاً :

مصطلح الشرعيات عند أهل السنة والجماعة :

قابله المتكلمون بالعقليات أو الكلاميات .

قابله المتصوفة بالذوقيات والحقائق .

وقابله الفلاسفة بالفلسفة .

وقابله الملوك بالسياسة ، والفقهاء والعامة يخرجون الشريعة إلى بعض هذه الأمور أو يجعلون بإزائها العادة ، أو المذهب أو الرأي ، ومن العلماء والعامة من يرى أن مصطلح « الشريعة » و « الشرع » لا يطلق إلا على الأعمال التي يسمى علمها علم الفقه (١) .

وما يعتبر عند الفقهاء « قياساً » تسميه الصوفية « إشارة » (٢) و « الآيات والبراهين » الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم يسميها بعض النظار «المعجزات»، وتسمى أيضاً « دلائل النبوة » و « أعلام النبوة » وهذه الأخيرة أدل على المقصود من لفظ المعجزات وهو لفظ غير موجود في الكتاب والسنة (٣) .

٥ - ومن أبرز القضايا وأهم الأمور في موضوع الألفاظ والمصطلحات اختلاف الخلف في معاني ودلالة المصطلحات عن السلف . وهذا الاختلاف أوقع التباساً عظيماً على كثير من الناس ،ونتج عنه ضلال طوائف من الأمة حيث إن هذا اللفظ هو لفظ القرآن ، ولفظ الرسول ، ولفظ الصحابة ومن نهج منهجهم من سلف الأمة الصالحين .

ولكن كثيراً من المحْدَثين من الفلاسفة والمتكلمين وبعض الفقهاء يفهمونه ويتلقونه على ما اصطلحوا عليه هم في زمانهم وعلى حسب ما تعارفوا عليه من معنى بين قومهم في عصرهم ،فمن أخذها عنهم ظن أن هذا هو مراد الصحابة والسلف الصالح ،وما علم أن المعنى مختلف عن مراد الصحابة . ونظراً لأنه دخل على المصطلحات التغير والتطور والتوسع في الدلالة - كما تقدم - فإن من الواجب إذا أردنا أن نعرف مراد قوم أو

---

(١) انظر الفتاوى ٣٠٦/١٩ - ٣١٠ . (٢) انظر التفسير الكبير ٥٥/٢ .

(٣) انظر التفسير الكبير ١٤٤/٢ ، والرد على المنطقيين ٧٦٩ - ١٧٠ .

مفهومهم لأمر من الأمور أن نبحث عن ألفاظهم التي نطقوا بها ، ونبحث كيف كانوا يستعملون هذه الألفاظ في زمانهم إذا أرادو أن يعبروا ، بمعنى أن نفهم لغتهم حتى نستطيع أن نعرف تعبيرهم عن مراداتهم كما أرادوا هم وقصدوا .

وهذا يتأكد في ألفاظ الصحابة والسلف الصالح يقول رحمه الله :« ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ، ويخاطبهم بها النبي صلى الله عليه وسلم وعادتهم في الكلام وإلا حرف الكلام عن مواضعه .

وإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريد بذلك أهل عادته واصطلاحه ، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك .

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامة وغيرهم» (١) .

وفي الصواعق المرسلة يبين أن الذي جعل المتكلمين ونحوهم لا يستفيدون علماً يقينياً من القرآن والسنة تغير معاني المصطلحات القرآنية والنبوية حيث « .... صار لها معان اصطلح عليها النظار والمتكلمون وغيرهم ، وألفَ ذلك الاصطلاح ، وجرى عليه النشء ، وصار هو المقصود بالتخاطب وإليه التحاكم ، فصار كثير من الناس لا يعرف سواه ، فلما أرادوا أن يطابقوا بين معاني ألفاظ القرآن وبين تلك المعاني التي اصطلحوا عليها أعجزهم ذلك ...

... مثال ذلك لفظ : الجسم في القرآن هو البدن كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ (٢) ،وهم اصطلحوا على تسمية كل قائم بنفسه جسماً مرئياً كان أو غير مرئي وسموا الموصوف بالصفات جسماً ، وسموا من له وجه ويدان جسماً ثم نفوا الجسم عن الصانع ، وأوهموا أنهم ينفون معناه لغة ، وقصدهم نفي معناه اصطلاحاً فسموه بخلاف اسمه في اللغة ونفوا به ما أثبته الرب لنفسه من صفات الكمال » (٣) .

مثال آخر : « وكذلك سموا صفاته أعراضاً ، ثم نفوا عنه الأعراض بالمعنى الذي اصطلحوا عليه لا بالمعنى الذي وضعت له ألفاظ الأعراض في اللغة» (٤) .

---

(١) الفتاوى ٢٤٣/١ .
(٢) سورة المنافقون آية (٤) .
(٣) كتاب الصواعق المرسلة ٦٧٢/٢ - ٦٧٣ .
(٤) كتاب الصواعق المرسلة ٦٧٣/٢ .

مثال آخر : « وكـذلك سموا أفعاله حوادث ثم نفوها عنه بالمعنى الذي اصطلحوا عليه لا بمعناه في اللغة » (١) .

والنبي صلى الله عليه وسلم لعن من أحدث أو آوى محدثا ، قال :(إياكم والحدث في الإسلام) (٢) . والمحدث لا تقبل صلاته حتى يتوضأ (٣) .

فإذا قالوا : لا تحله الحوادث أوهموا الناس هذه الحوادث ، ومرادهم أنه لا يتكلم ، ولا يكلم ، ولا يرى ، ولا يسمع ، ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستوياً ... الخ » (٤) .وكذلك لفظ الاستواء حدث له معنى الاستيلاء (٥)، وكذلك لفظ المحلل والمحلل له (٦) ، وكذلك لفظ الخمر (٧) ، وكذلك لفظ الجار (٨) ، وكذلك لفظ التركيب (٩) ، وكذلك : اللوح المحفوظ ، والقلم ، والملكوت، والجبروت (١٠) ، ومن ذلك أيضاً لفظ التأويل (١١) .

ثالثاً : التستر وراء المصطلحات :

الزنادقة والمغرضون استغلوا الاختلاف بين السلف والخلف في معاني المصطلحات للخداع والتضليل حيث عمدوا إلى ألفاظ الرسل والأنبياء وألفاظ القرآن الكريم وألفاظ سلف الأمة وعلمائها واستعملوها ولكن بمعان ودلالات مخالفة لما هي له في الأصل (١٢) .

وقصدهم في استعمال هذه الألفاظ إيهام المستمع والقارىء أنهم على طريقة ونهج

(١) السابق ٦٧٣/٢ .
(٢) رواه الترمذي من طريق عبدالله بن مفضل في أبواب الصلاة ، باب ما جاء في ترك الجهر بسم الله الرحمن الرحيم ،حديث رقم ٢٤٤ ، وقال عنه :حديث حسن والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورواه ابن ماجه بنحوه في باب افتتاح القراءة ، سنن ابن ماجة ١٤٦/١ طبعة الأعظمي ، قال الزيلعي : « وهو وإن لم يكن من أقسام الصحيح فلا ينزل عن درجة الحسن، وقد حسنه الترمذي ، والحديث الحسن يحتج به لا سيما إذا تعددت شواهده وكثرت متابعاته... » نصب الراية ٣٣٣/١ ط الثانية المجلس العلمي .
(٣) انظر كتاب الصواعق المرسلة ٦٧٣/٢ .
(٤) كتاب الصواعق المرسلة ٦٧٤/٢، وانظر الدرء ١٢٥/١.
(٥) انظر كتاب الصواعق المرسلة ٦٧٤/٢ ، ٦٧٥ .
(٦) انظر السابق ٦٧٥/٢ .
(٧) انظر السابق ٦٧٥/٢ ، ٦٧٦ .
(٨) انظر السابق ٦٧٥/٢ ، ٦٧٦ .
(٩) انظر السابق ٦٧٦/٢ .
(١٠) انظر الفتاوى ١٤٥/١ ، وبغية المرتاد/١٨٤ ، والدرء ٢٠٦/١ .
(١١) انظر الدرء ٤٣٥/٧ - ٤٨٢، والتفسير الكبير ١٠٥/٢ ، والتدمرية /٩٠ ، ٩١، والرسالة المدنية/٢٧ .
(١٢) انظر بغية المرتاد /١٨٣ - ١٨٤ ، وانظر الفتاوى ٣٥١/١٧، وانظر التفسير الكبير ٤٢٩/٧ .

السلف ولهذا صار من يطالع كلامهم يعتقد أنهم على صواب وأن عقيدتهم سليمة لأن ألفاظهم هي ألفاظ الرسل وألفاظ سلف الأمة (١) .

ومنهم من يتعمد استعمال ألفاظ الأنبياء لمعان يريدونها غير المعاني التي استعملها الأنبياء وأتباعهم ، ثم يتكلم بها هؤلاء مظهرين للناس أنهم موافقون للأنبياء لأنهم استعملوا الفاظهم ، وهذا كثير في كلام الملاحدة (٢) من الفلاسفة والإسماعيلية (٣) ومن ماثلهم من أهل الكلام والتصوف (٤) .

وكذلك المسمون بفلاسفة الإسلام الذين آمنوا بآراء أرسطو (٥) وكلامه وجعلوه مقدماً على الإسلام ،فحاولوا أن يخرجوا بفكر مكون من الاثنين فحاولوا ما يسمى بالتوفيق بين الإسلام والفلسفة حتى يسلموا من غضبة المسلمين ، وخلطوا نصوص الأنبياء وكلام الفلاسفة ليجعلوه في نسق واحد متآلف صالح للاستشهاد ، وتأولوا النصوص الشرعية لكي تتوافق مع مدلولات ألفاظ الفلاسفة .

وصاحب هذا السبق هو الفيلسوف الكندي (٦) ثم إخوان

---

(١) انظر التفسير الكبير ٤٢٩/٧ .

(٢) الملاحدة : جمع ملحد ، والإلحاد في اللغة الميل والعدول ، والإلحاد مذهب من ينكر وجود الله ، وقد يطلق على المتشكك الذي يتظاهر بالاقتناع دون عقيدة . انظر المعجم الفلسفي /٢٠ ، ١٧٤ ، ١٩٢، ولسان العرب ٤٠٠٥/٥ .

(٣) الإسماعيلية : سموا بذلك نسبة إلى محمد بن إسماعيل وليسوا على دينه وقالوا : إنه الذي كتم السر الباطن عندهم الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بكتمه عن الناس إلا علي بن أبي طالب واستكتمه أن لا يخرج منه ذلك إلا إلى من يخلفه من الأئمة المعصومين من ذريته حتى أنتهى ذلك إلى محمد بن إسماعيل وأنكروا حقائق اليوم الآخر والجنة والنار وحملوا ذلك على تأويلات اصطلحوا عليها فقالوا : القيامة حدوث الشر ، والميزان ميزان الحكمة ، إلى غير ذلك .انظر : البرهان في عقائد أهل الأديان /٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠،و اعتقادات فرق المسلمين والمشركين /٨١ ، ٨٢ ، الملل والنحل ٢٧/٢ ، ٢٨ ، ومذاهب الإسلاميين ٨٧/٢ ، ٤٢٦ ،و الصواعق المرسله ٤٤٢/٢

(٤) انظر الفتاوى ٤٣/١ ، وانظر منهاج السنة ٢٠١/١ ، ٢٠٣ .

(٥) أرسطو طاليس بن نيقو ماخوس ، وهو من متأخرى حكماء اليونان ، وهو المعلم الأول ، والحكيم المطلق عندهم، والمؤدب له أفلاطون ، وكان وزيرا للإسكندر المقدوني اليوناني ، فحصل لليونانيين عز وسطوة بسبب دهاء الوزير وحكمته ، وكان وجود أرسطو قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة وثلاث سنين . انظر : تاريخ الطبري ٥٧٢/١ - ٥٧٩ ، والكامل لابن الأثير ١٦٩/١ وما بعدها ، والملل والنحل للشهرستاني ١١٩/٢ .

(٦) الفيلسوف الكندي هو : يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران ، الكندي فيلسوف العرب ، يكنى أبا يوسف، وكان متهما في دينه ، وله مصنفات كثيرة في المنطق والنجوم ، والفلسفة ، وله معرفة بالأدب . مات سنة٢٦٠هـ . انظر :لسان الميزان ٣٠٥/٦ رقم ١٠٩١ ، والأعلام ٢٥٥/٩ والفهرست /٣٥٧ .

الصفا [1] واعتقدوا أن دمج الشريعة مع الفلسفة كمال منشود . ثم من بعدهم الفارابي[2] ثم تلميذه ابن سينا [3] حيث استعمل المصطلحات الشرعية للمعاني الفلسفية، وهدفه من ذلك إعلاء شأن الفلسفة ، والتشويه للإسلام لأنه مرتبط وأسرته بالباطنية الإسماعيلية [4] .

ثم جاء ابن رشد [5] وكان متعصباً للفلسفة ،وبذل محاولة لإظهار ارتباط الفلسفة بالإسلام فألف كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » [6] .

« ولا ريب أن القوم أخذوا العبارات الإسلامية القرآنية والسنية فجعلوا يضعون لها معاني توافق معتقدهم ثم يخاطبون بها الناس ويجعلون مراد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من جنس ما أرادوا فحصل بهذا من التلبيس على كثير من أهل الملة ومن تحريف الكلم عن مواضعه ، ومن الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته ما الله به عليم ، ولهذا قد يوافقون المسلمين في الظاهر ولكنهم في الباطن زنادقة منافقون .. »، ثم ذكر عدداً من الأمثلة وبين غرضهم في استعمالها [7] ،ويذكر أنهم جاءوا بمعاني باطلة «وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجة لهم وعمدة لهم ، ليظهر بذلك أنهم

---

(١) إخوان الصفا : جماعة ألفوا رسائل عرفت برسائل إخوان الصفا وهم مجهولون وقد زعم بعض رؤوسهم أنها من كلام « جعفر الصادق » رضي الله عنه ، وهي إنما صنفت بعد المائة الثالثة لما بُنيت القاهرة في سنة ٣٦٠هـ ، وصنفها جماعة من الفلاسفة ، وقد ذكروا فيها من حوادث الإسلام التي حدثت بعد المائة الثالثة مثل دخول النصارى بلاد الإسلام ونحو ذلك ما يبين أنها صنفت بعد جعفر بنحو مائتي سنة ، وجعفر بن محمد رضي الله عنه توفي سنة ١٤٨هـ ، وما يقوله أصحاب هذه الرسائل مخالف للملل الثلاث ، وهم مكذبون للرسل مبدلون للشرائع . انظر الفتاوى ١٣٥/٣٥ ، ١٣٦ ، وانظر الدرء ٢٦/٥ ، ٢٧ .

(٢) هو : محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، التركي يكنى أبانصر ، له تصانيف ، قال الذهبي : « من ابتغى الهدى منها ضلّ وحار » ،وقال ابن كثير : « وكان يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني للأرواح العالمة لا الجاهلة ، مات في رجب ٣٣٩ هـ (وعمره ٨٠ سنه) . انظر : سير أعلام النبلاء ٤١٦/١٥، ووفيات الأعيان ١٥٣/٥ الرقم ٧٠٦ .

(٣) هو : الحسين بن عبدالله ابن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري العلامة والشهير بالفيلسوف صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق ، ضلله بعض العلماء وبعضهم كفره ، وقيل إنه تاب قبل موته ، فالله أعلم ، ولد في صفر سنة ٣٧٠هـ ومات سنة ٤٢٨ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء ٥٣١/١٧، ولسان الميزان ٢٩١/٢ رقم ١٢١٨

(٤) انظر الصفدية ٢٣٧/١ تحقيق محمد سالم ، وبغية المرتاد /١٤٣ ، ٧٤/٦٦ ، ١٨٣ .

(٥) سبق ترجمته في صفحة (٧١) .

(٦) انظر بغية المرتاد /٧٦ ، ٧٧ .

(٧) انظر بغية المرتاد /٢٣٥ - ٢٣٦ ، والفتاوى ٢٣١/١١ .

متابعون للرسول صلى الله عليه وسلم لا مخالفون » (١) .

ويقول عن المتكلمين : « وهم يعبرون بالعبارات المعروفة عند المسلمين عن المعاني التي تلقوها عن الفلاسفة وضعاً وضعوه ، ثم يريدون أن ينزلوا كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على ما وضعوه من اللغة والاصطلاح] وكل منهم يعبر عن المعاني الفلسفية بعبارات إسلامية ، ومنهم من لا يبين لأكثر الناس أن مراده ذلك (٢) وقال ابن تيمية :« وما أحسن ما قال شيخ الإسلام الهروي (٣) فيمن هو أحسن حالاً من هؤلاء من أهل الكلام قال :« أخذوا مخ الفلسفة فلبسوه لحاء السنة »، (٤) وبسبب هذا ضل طوائف ممن لم ينكشف لهم حقيقة مقاصد الناس فلا يفهمون ما يقصده الأنبياء والرسل، ولا ما يقصده هؤلاء حتى يقابلوا بين هذه المعاني وتلك ، فيعلمون هل هي متفقة متشابهة أم مختلفة ؟ بل متضادة ، بل قد يحرفون كلام أئمتهم إذا ظهر (٥) المسلمون فيصرفونه إلى ما يقبله المسلمون .

وهذا كثيراً ما وجدنا مصداقه في كتب القرامطة من أنهم وضعوا لأنفسهم أصطلاحات وروجوها على المسلمين ، ومقصودهم بها مقصود الفلاسفة الصابئين (٦) والمجوس والثنوية (٧) والغرض هنا بيان ما يعلم به كلامهم من متابعتهم للمتفلسفة الصابئين والتعبير عن تلك المعاني بألفاظ الأنبياء والمرسلين ... » (٨) .

---

(١) انظر :التفسير الكبير ٤١٥/٧ - ٤٢٩. الفتاوى ٥٤٠/٥، ٣٥١/٧،٢٣١/١١. الدرء ٢٢٢/١ - ٢٢٦ .

(٢) انظر : بغية المرتاد /٢١٨ - ٢١٩ .

(٣) هو : أبوعبيد القاسم بن سلام بن عبدالله ، الإمام الحافظ المجتهد ،كان أبوه سلام مملوكاً رومياً لرجل هروي ، ولد أبوعبيد سنة ١٥٧هـ ، وتوفى سنة ٢٢٠ هـ . انظر : تاريخ بغداد ٤٠٣/١٢ . وسير أعلام النبلاء ٤٩٠/١٠ ، وتذكرة الحفاظ ٤١٧/٢ رقم ٤٢٣ .

(٤) بغية المرتاد /٢١٩ .

(٥) ظهور القوة والغلبة والسيطرة .

(٦) الصابيء : هو التارك ـ لدينه الذي شرع له ـ إلى دين غيره ، ولهذا كان المشركون يسمون النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام بهذا الاسم لأنهم خالفوا دين الآباء والأجداد ، والصابئون : سموا بذلك لأنهم فارقوا دين التوحيد وعبدوا النجوم وعظموها . وهم يقولون : إن مدبر العالم وخالقه هذه الكواكب السبعة والنجوم ، وهم أقدم من عباد الأصنام لأنهم كانوا يعبدون النجوم عند ظهورها . انظر:اعتقاد فرق المسلمين والمشركين /١٤٣ ، والملل والنحل ٩٥/٢ ، والبرهان في عقائد أهل الأديان ٩٥/٢ والصواعق المرسلة ١٦٢/١ .

(٧) الثنوية : سموا بذلك ، لأنهم قالوا بإثبات اثنين أزليين هما النور إله الخير ، والظلمة إله الشر ، وهم أربع فرق المانوية أتباع ماني ، والديصانية أتباع ديصان ، والمرقونية أتباع مرقون ، والمزدكية أتباع مزدك . انظر : الملل والنحل ٨٠/٢ ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين /١٣٨ ، ١٤٢ ، و الصواعق المرسلة ٣٥٠/١ .

(٨) بغية المرتاد /١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٩ .

رابعاً : تأثير الإفراد والاقتران والتركيب والاشتراك والإجمال [1] وغلبة الاستعمال في دلالة المصطلح :

فاللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتحديد ما لا يدخل فيه عند الاقتران، وكذلك الأسماء قد يكون عمومها [2] وخصوصها [3] بحسب الإفراد والتركيب ، فاللفظ الواحد قد يطلق على شيئين بطريق التواطؤ [4] وبطريق الاشتراك [5].

مثال ذلك لفظ « النفاق » .

يطلق على إبطان الكفر وعلى إبطان المعصية تارة بطريق الاشتراك وتارة بطريق التواطؤ .

وكذا لفظ « الوجود » يطلق على « الواجب » وعلى « الممكن » عند قوم باعتبار الاشتراك ، وعند آخرين باعتبار التواطؤ ... الخ .

ثم إنَّ مثل هذه الألفاظ يكون موضوعاً للقدر المشترك ثم يغلب عرف الاستعمال على استعماله في أحد المعنيين في زمن معين ،وقد يغلب في زمن آخر استعماله في المعنى الآخر فيبقى دالاً بعرف الاستعمال عل ما به الاشتراك والامتياز ، وقد يكون قرينة تحدد امتيازه بأحد المعنين مثل لام التعريف [6] أو الإضافة .

والمعنى الشرعي لـلفظ « النفاق » أخص من الدلالة اللغوية فإنها أعم من المعنى الشرعي الذي هو إظهار الدين وإبطان ما يخالفه .

---

(١) الإجمال : المجمل : ما لا يفهم منه مراد المتكلم به وله انقسامان :أحدهما : غرابة اللفظ الثاني تقابل الاحتمالات ومنهم من عرفه بقوله « إنه اللفظ الذي لا يفهم منه شيء عند الإطلاق » (أ) .

(٢) العموم : هو اللفظ الدال على شيئين فصاعدا مطلقاً ، ومنه ما هو عام لا أعم منه ، كالشيء لتناوله القديم والحادث ،ومنه ما هو عام بالنسبة كالحيوان بالنسبة إلى الإنسان (ب) .

(٣) الخصوص : الخاص هو الدال على الواحد عيناً كقولك : زيد وعمر ، وقد يكون اللفظ خاصاً بالنسبة عاماً بالنسبة ، كالنامي ، فإنه خاص بالنسبة إلى الجسم ، عام بالنسبة إلى الحيوان . (ج) . (أ ، ب ، ج) الإيضاح لقوانين الاصطلاح لأبي محمد يوسف بن الجوزي الحنبلي /١٧ - ٢١ .

(٤) التواطؤ : المتواطئ : اللفظ المفرد الدال على مسميات المفهوم منها لا يختلف كلفظ الحيوان الواقع على الإنسان والطائر وغيرها من الأنواع . الإيضاح لقوانين الاصطلاح /١٥ .

(٥) الاشتراك : هو اللفظ المفرد الدال على مسميات المفهوم منها يختلف اختلافاً لا تشابه فيه كلفظ « العين» الواقع على منبع الماء ، والعضو الباصر، وغيرها من مسميات لفظ العين ، الإيضاح لقوانين الاصطلاح / ١٤ .

(٦) انظر الفتاوى ١١/١٤١ .

ثم ما يبطنه : إما أن يكون كفراً وإما أن يكون فسقاً وتحديد النوعين متوقف على مخصص يخصصه بأحدهما إما قرينة لفظية مثل : لام العهد أو الإضافة ، وهذا لا يخرجه من كونه متواطئاً ، وإما أن يكون المخصص غلبة الاستعمال عليه ، فيكون مشتركاً بين اللفظ العام والمعنى الخاص (١) .

« فإطلاق لفظ « النفاق » على الكافر وعلى الفاسق إن أطلقته باعتبار ما يمتاز به عن الفاسق كان إطلاقه عليه وعلى الفاسق باعتبار الاشتراك وكذلك يجوز أن يراد به الكافر خاصة ويكون متواطئاً إذا كان الدال على الخصوصية غير لفظ « منافق » بل لام التعريف، وهذا البحث جار في كل لفظ عام استعمل في بعض أنواعه إما لغلبة الاستعمال ، أو لدلالة لفظية خصته بذلك النوع ، مثل تعريف الإضافة أو تعريف اللام فإن كان لغلبة الاستعمال صح أن يقال : إن اللفظ مشترك وإن كان لدلالة لفظية كان اللفظ باقياً على مواطأته » (٢) .

واللفظ يختلف معناه بالإطلاق (٣) والتقييد (٤) ... وما يقترن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعة هي من تمام الكلام ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين ولا يجوز نفي مفهومها (٥) ، فمثلاً لفظ الاستواء : « معانيه تتنوع بتنوع ما يتصل به من الصلات كحرف الاستعلاء ، والغاية ، وواو الجمع أو ترك تلك الصلات » (٦) .

ويكون للفظ معنى في أصل الوضع ،فبالاستعمال يصير له معنى آخر مثل الاستثناء فإنه « وإن كان في الأصل للإخراج فإنه صارحقيقة عرفية في مناقضة المستثنى منه فالاستثناء من النفي إثبات ، ومن الإثبات نفي . واللفظ يصير بالاستعمال له معنى غير ما كان يقتضيه أصل الوضع ، وكذلك يكون في الأسماء المفردة ويكون في تركيب الكلام أخرى ، ويكون في المنقولة كالأمثال السائرة جملةً ، فيتغير الاسم المفرد بعرف الاستعمال عما كان عليه في الأصل إما بالتعميم ، وإما بالتخصيص وإما بالتحويل . ويتغير التركيب بالاستعمال عما كان يقتضيه نظائره كما في زيادة حرف النفي في الجمل السلبية ، وزيادة النفي في كاد ينقل الجملة من معناها الأصلي إلى غيره كالجمل المتمثل بها ... » (٧) . « وهناك بعض المسميات تطلق بحسب اللغة والاستعمال كتسمية

---

(١) انظر الفتاوى ١١/١٤٣ - ١٤٤ . (٢) الفتاوى ١١/١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) المطلق : ما دل على شيء غير معين باعتبار حقيقة شاملة لجنسه . وهو الفكرة في سياق الإثبات في معرض الأمر . أو المصدر ، كقولك : « اعتق رقبة » وكقوله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ سورة المجادله آية (٣) الإيضاح لقوانين الاصطلاح /١٩ .

(٤) المقيد : ما دل على ذات معين ، أو مطلق مع تقيد الحقيقة بقيد زائد كقوله تعالى : ﴿ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ سورة النساء آية (٩٢)، الإيضاح لقوانين الاصطلاح /١٩ .

(٥) التفسير الكبير ٤/٣٦٢ . (٦) الدرء ١/٢٧٩ . (٧) التفسير الكبير ٣/٤٦٠ .

العمل على الأمصار خلافة .. » [1] .

وبعض المسميات بحسب ما تضاف إليه « فالقوة في كل ولاية بحسبها » [2] . كل هذا يقتضي مراعاة اللفظ وما يقترن به وما يضاف إليه ، وأصل استعماله اللغوي واستعماله الاصطلاحي . فمن لم يفرق بين المصطلحات يجعل بينها تناقضاً وهي ليست كذلك .

ولمّا ذكر ابن تيمية الخلاف في العلم والمعرفة هل تكون بنظر أو ضرورة قال : «وللناس في هذا الباب اصطلاحات متعددة من لم يعرفها يجعل بينهم نزاعاً معنوياً وليس كذلك . ولما كان في لفظ « النظر » إجمال ، كثر اضطراب الناس في هذا المقام وتناقض من تناقض منهم ، فيوجبون النظر لأنه يتضمن العلم ثم يقولون النظر يضاد العلم ، فكيف يكون ما يتضمن العلم مضاداً له لا يجتمعان ، فمن فرق بين النظر في الدليل وبين النظر الذي هو طلب الدليل تبين له الفرق » ويقول نقلاً عن الإمام أحمد [3] رحمه الله: «إن لفظ التأويل يراد به التفسير .. ويراد بالتأويل الحقيقة التي استأثر الله بعلمها ، ومن لم يعرف هذا اضطربت أقواله ، مثل طائفة يقولون إن التأويل باطل وأنه يجب إجراء اللفظ على ظاهره ويحتجون بقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [4] ، ويحتجون بهذه الآية على إبطال التأويل ، وهذا تناقض منهم لأن هذه الآية تقتضي أن هناك تأويلاً لا يعلمه إلا الله ، وهم ينفون التأويل مطلقاً »[5] .

خامساً : التقارب والاختلاف في المصطلحات الشرعية :

قد يتفق بعضها في اللفظ أو يتقارب مع مصطلح شرعي آخر لكنه يختلف في المعنى والدلالة ، ويحدث الغلط والخطأ حينما يجعل معناهما واحداً ، حيث جعل أحدهما نظيراً للآخر وليس كذلك ، مثال هذا قوله تعالى : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [6] . تصور البعض أنه مثل قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً** ﴾ [7] ،وقطعاً هذا المصطلح ليس مثل الأول مع تقارب اللفظين [8].

هذه هي بعض الأفكار التي عنيت بتقديمها قبل التعرض لمنهج ابن تيمية في المصطلحات ، وحان الأوان لنتعرف على المنهج التيمي العريق في المصطلحات ... !!

---

(١) منهاج السنة غير المحقق ٢/٢٢٦ .
(٢) منهاج السنة غير المحقق ٢/١٥ ، ١٦ .
(٣) تقدمت ترجمته في صفحه (٧٥) .
(٤) سورة آل عمران آية (٧) .
(٥) الرسالة التدمرية تحقيق محمد السعوي /١١٢ -١١٣ .
(٦) سورة ص آية (٧٥) .
(٧) سورة يس آية (٧١) .
(٨) انظر التدمرية /٧٣ . وانظر المبحث الثاني من هذا الكتاب فيه بيان معنى المصطلحين .

منهج ابن تيمية في المصطلحات

من أبرز سمات المنهج التيمي في مجال الألفاظ والمصطلحات سواء المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أم المنسوبة إلى السلف أو المنسوبة إلى الخصوم ما يلي :

أولاً : صحة نسبة المصطلح ومعناه :

عني ابن تيمية بالبحث في صحة النسبة ثم معنى هذا اللفظ على حسب مراد صاحبه ، وذلك لأن « ... المنقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه ، ومعرفة دلالته كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله . » (١) . والقاعدة العامة في ذلك أن « العلم يحتاج إلى نقل مصدق ، ونظر محقق » (٢) .وسيأتي تفصيل ذلك في الباب الثالث موضوع « الدقة في النقل والأمانة في نسبة الأقوال إلى أصحابها » .

وابن تيمية يرجح أن أغلب الألفاظ في اللغة توقيفية وأن الشارع استعمل مصطلحات اللغة العربية كما استعملها العرب ،وأن الأصل عدم النقل ،وأن نقل المصطلح عن دلالته عند العرب إلى دلالة جديدة أو الإضافة إلى دلالته القديمة دلالة جديدة لا يكون إلا لحاجة إذا جاء الشرع بأمر لم يكن العرب يعرفونه ويعهدونه في دلالات مصطلحاتهم فالسلف إذن يتقيدون بدلالات ألفاظ اللغة ولا يأتون بمعنى يخالف اللغة إلاّ بإذن من الشرع ،ولهذا اعترض على بعض المتكلمين أنه أطلق لفظ « الذات » على ما لم تطلقه العرب بغير إذن الشرع (٣) ،وقال مثل ذلك في الجسم جعله « في اصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ في اللغة .. » (٤) ، ويتحدث عن الألفاظ المترجمة عن غير العربية فعربت كما هو الحال في أرباب المقالات حيث أخذوا عن فلاسفة اليونان والفرس والهند ألفاظاً أعجمية عربوها .

« وقد يكون المترجم عنهم صحيح الترجمة وقد لا يكون صحيح الترجمة ومنها ما هو عربي .. ونحن إنما نخاطب الأمم بلغتنا العربية فإذا نقلوا عن أسلافهم ... بين ما تحتمل هذه الألفاظ من المعاني » في لغتنا العربية (٥) .

---

(١) الفتاوى ٢٤٦/١ . (٢) الفتاوى ٢٤٦/١ ، وانظر ٣٢٩/١٣ .
(٣) انظر الدرء ١٤١/٤ . (٤) التفسير الكبير ٤٠٧/٧ . (٥) الدرء ٢٩٩/١ .

والألفاظ التي وقع فيها النزاع بين أصحاب الطوائف مع بعضهم وبينهم وبين السلف على نوعين : -

١ - نوع مذكور في الكتاب والسنة وكلام أهل الإجماع فهذا يجب اعتبار معناه وتعليق الحكم به ... لأن كلام اللّه حق ، وكلام رسوله حق ، وكلام أهل الإجماع حق، وهذا هو اللفظ الشرعي : وهو اللفظ الذي استعمل في المعنى الذي استعمله الشرع فيه .

٢ - نوع من الألفاظ ليس لها أصل في الشرع ،فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها إلا أن يبيّن أنه يوافق الشرع ،والألفاظ التي تعارض بها النصوص هي من هذا الضرب (١) .

وهذه هي الألفاظ الاصطلاحية ،وهي التي نقلت إلى معاني لم يستعملها الشرع فيها .

وأكثر المصطلحات التي ليست في الكتاب والسنة : من الألفاظ المجملة والمشتركة والمشتبهة ، تطلق وتحتمل حقاً وباطلاً ، فإذا نفيت نفي ما فيها من الحق، وإذا أثبتت أثبت ما فيها من الباطل (٢) . « فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل ، إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئاً ،وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء وفي ذلك من فساد العقل والدين ما لا يعمله إلاّ الله»(٣)، « فقلّ من تكلم بها نفياً أو إثباتاً إلاّ وأدخل فيها باطلاً وإن أراد بها حقاً » (٤) . ولكن ابن تيمية يضع في هذا المجال قاعدة يمكن أن نسميها قاعدة : [الاستفسار والاستفصال وستأتي بعد قليل] .

ثانياً : اتباع المنقول من المصطلحات :

التزم ابن تيمية بما في الكتاب ، والسنة ، والمأثور عن السلف الصالح من الألفاظ والمصطلحات ؛لأن الأصل في المصطلحات الشرعية هو الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة الصالحين ،فإنه لا يدخل في الأدلة السمعية كل قول لم يرد لفظه ولا معناه فيها ولا

---

(١) انظر الدرء ١/٢٤١ - ٢٤٢ ، والفتاوى ١٧/٣٥٥ ، التفسير الكبير ٧/٣٩١ ، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١/١٨٤ ، ١٨٥ ، والفتاوى ١١/١١٨ .

(٢) انظر الدرء ١/٧٦ .

(٣) موافقة صحيح المنقول ١/١٧٩ .

(٤) التفسير الكبير ٧/٣٩١ ، ٣٩٢ .

يعلق بهذه الألفاظ مدح ولا ذم ، والسنة موافقة الأدلة الشرعية والبدعة مخالفتها [1] .

ومن تبين له معنى من جهة العقل أنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله فلازم الحق حق، لكن ذلك المعنى لا بدّ أن يدل الشرع عليه فيثبته بالألفاظ الشرعية وليس له أن يبتدع في دين الله لفظاً مجملاً مشتبهاً لأن المعنى المعلوم بالشرع يمكن إظهاره بعبارات لا إجمال فيها ولا تلبيس ، وإن قدر أن الشرع لم يدل ، لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده ، وحينئذ فليس لأحدٍ أن يدعو الناس إليه ، وإن قدر أنه في نفسه حق [2] . فلا بد إذن من اعتبارين : —

الأول : أن يكون اللفظ من الألفاظ المأثورة المنقولة عن الكتاب والسنة وسلف الأمة ،ويترك كل لفظ مبتدع يفهم منه معنى باطل .

الثاني : إذا كان اللفظ محدثاً أو منقولاً عن غير السلف فلا بد أن يكون معناه صحيحاً موافقاً للمأثور عن سلف الأمة ، ويحرص ابن تيمية على الألفاظ المأثورة المنقولة عن الشرع والصحابة ،ويذكر أن هذا هو منهج السلف والأئمة ،وأنهم يراعون الألفاظ الشرعية فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، ومن تكلم بما فيه معنى باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه [3] .ويبين أن استعمال مصطلحات غير السلف من قبل بعض علماء الإسلام فتح المجال للمغرضين والضالين ،فمثلاً « الغزالي » [4] لما استعمل مصطلحات الفلاسفة شجع ابن عربي [5] الملحد وفتح المجال له لتدعيم نظرية وحدة الوجود [6] .

ثالثاً : الاستفسار والاستفصال :

بهذه القاعدة يتبين الهدى من الضلال في أقوال وألفاظ المعارضين للنصوص النبوية

---

(١) انظر الدرء ٢٤٤/١ . (٢) انظر التفسير الكبير ٤٠٤/٧ - ٤٠٥ .

(٣) انظر الدرء ٢٥٤/١ ، وانظر ص ٢٧١ ، وانظر الفتاوى ٥٦/٤ - ٥٧ .

(٤) سبق ترجمته في صفحة (٦٣) .

(٥) هو : محمد بن علي بن محمد بن أحمد ، الطائي الحاتمي المُرسي محي الدين أبوبكر بن عربي ، له تواليف كثيرة من أردئها كتاب « الفصوص » ،قال الذهبي عن كتاب الفصوص: « فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر » ،وقال عز الدين بن عبدالسلام عن ابن عربي : « شيخ سوء كذاب ، يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجا » ويصفه ابن تيمية بالملحد . انظر: سير أعلام النبلاء ٤٨/٢٣ ، ميزان الاعتدال ٦٥٩/٣ رقم ٧٩٨٤ ، ولسان الميزان ٣١١/٥ رقم ١٠٣٨ .

(٦) شرح العقيده الأصفهانية /١١٠ نقلاً عن ابن تيمية والتصوف /٢٨٩ .

فلا يلزم أن يوافق أحد على إثبات لفظ أو نفيه حتى يعرف مراده (١) ،ومعرفة مراد هؤلاء يتم من خلال أمرين لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهما :

الأول : معرفة معاني الكتاب والسنة .

الثاني : معرفة معاني الألفاظ التي ينطق بها هؤلاء المتخلفون (٢) .

وتتم المعرفة من خلال هذه القاعدة ،وبعد ذلك « يطبق بين معاني التنزيل ومعاني أهل الخوض في أصول الدين فيحنئذ يتبيّن له أن الكتاب حاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» (٣) .

ومنهج سلف الأمة وأئمتها أن كلام الله ورسوله هو الإمام والفرقان الذي يلزم نهجه فيثبت ما أثبتاه وينفى ما نفياه . وأما العبارات المحدثة المجملة المتشابهة فيمنعون من إطلاقها نفياً وإثباتاً إلاّ بعد الاستفسار والتفصيل ،فيثبت ما فيه من حق وينفى ما فيه من باطل (٤) ومنهج أهل البدع المخالفون للكتاب المختلفون فيه المفارقون له كل طائفة منهم تجعل ما أصلته من أصول دينها المبتدع هو الحاكم الذي يجب اتباعه ونهجه ، وما خالفه من الكتاب والسنة مجملات متشابهات لا يصح اتباعها ويجب حملها على ما يوافق أصلهم المبتدع أو تركها والإعراض عنها (٥) . « وهذه الطريقة يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار فهي طريق الجهمية والمعتزلة ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية والملاحدة » (٦) .

ويبرر نفع هذه القاعدة من جهة الشرع والعقل :« أما الشرع فإن علينا أن نؤمن بما قاله الله ورسوله ، فكل ما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله فعلينا أن نصدق به وإن لم نفهم معناه .

وما تنازع فيه الأمة من الألفاظ المجملة كلفظ التحيز والجهة والجسم ... وأمثال ذلك مما لم يتبين معناه بمجرد إطلاقه ،فإن كان أراد معنى صحيحاً موافقاً لقول المعصوم كان ما أراده حقاً ،وإن كان أراد به معنى مخالفاً لقول المعصوم كان باطلاً (٧) .

« أما نفع الاستفسار في العقل : فمن تكلم بلفظ يحتمل معاني لم يقبل قوله ولم

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣٩١/٧ . (٢) الدرء ٧٥/١ ، وانظر الفتاوى ٣٥١/١٧ .

(٣) الدرء ٧٥/١ .

(٤) انظر الدرء ١٢٠/١، وانظر :التفسير الكبير ٣٩٣/٧ ، ٣٩٤ ، وانظر موافقة صحيح المنقول ١٢٧/١ ، ١٧٢ .

(٥) انظر : الدرء ٧٦/١ ، ٧٧، وانظر الفتاوى ٣٥٥/١٧ .

(٦) نظر الفتاوى ٣٥٥/١٧ - ٣٥٦ . (٧) انظر التدمرية ٦٥ - ٦٨ .

يرد حتى نستفسره ونستفصله حتى يتبين المعنى المراد ، ويبقى الكلام في المعاني العقلية لا في المنازعات اللفظية » [1] .

وعلة كراهية ابن تيمية وسلف الأمة للألفاظ المجملة المحدثة اشتمالها على الكذب والباطل ، والقول على الله بلا علم . ولم تكن الكراهية لمجرد أنها اصطلاح حادث ، لأن الدليل الصحيح لا يكره وإنما يكرهون ما خالف الكتاب والسنة، ولا يخالفهما إلا باطل لا يصح عقلاً ونقلاً . ويضرب مثالاً لذلك فيقول :« ولهذا لما سئل أبو العباس بن سريج [2] عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال : وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر والأعراض ، وإنما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم بإنكار ذلك ، ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين ، فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه ، وإنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة » [3] .

رابعاً : فهم المصطلحات :

دراسة أي مصطلح يتم من خلال مفهوم ومراد المتكلم به في عصره وزمنه الذي أصبح المصطلح متداولاً فيه ، فإذا جئنا لألفاظ ومصطلحات السلف فإننا ندرسها من خلال هذين الاعتبارين : دلالة المصطلح عندهم ، وماذا يعنون به [4] في زمنهم وعصرهم الذي عاشوا فيه ؛وذلك لأن الألفاظ والمصطلحات وبعض ألفاظ اللغة تغيرت دلالتها بين السلف والخلف ، ولأن بعض المصطلحات توجد بألفاظها عند طوائف ولكن معانيها تختلف ،فقد حمّلتها بعض الطوائف معان ليست في القرآن ولا السنة والإجماع ولا حتى اللغة العربية [5] .

وكذلك ألفاظ القرآن نفهمها من خلال لغة القرآن ومراد الله بها وكذلك السنة من خلال لغة الرسول ومراده ، يقول يرحمه الله موضحاً هذه القضية :« لأن دلالة الخطاب إنما تكون بلغة المتكلم ، وعادته المعروفة في خطابه ،لا بلغة وعادة واصطلاح أحدثه قوم آخرون بعد انقراض عصره ، وعصر الذين خاطبهم بلغته وعادته كما

---

(١) الدرء ٢٩٩/١ وانظر التفسير الكبير ٣٩٨/٧ ، ٤٠٢ والرد على المنطقيين /١٦٦ .

(٢) هو : أحمد بن عمر بن سريج البغدادي الشافعي ، ناشر مذهب الشافعي ومبسطه ، ولد سنة ٢٢٩هـ وتوفي سنة ٣٠٦هـ . انظر تاريخ بغداد ٢٨٧/٤ ، وفيات الأعيان ٦٦/١/ ٦٧ .

(٣) التفسير الكبير ٣٩٢/٧ ، وانظر موافقة صحيح المنقول ٢٤/١ .

(٤) انظر الفتاوى ٩٤/٩ ، ٩٥ ، ٦٦ .

(٥) انظر الدرء ٣١٩/٣ ، ٤٠٣ ، ١٢٢/٧ ، والفتاوى ٣١٣/١٧ .

قــال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . . ﴾ (١)، (٢) .

ويبين الضرر الذي ينتـج من إهمال هذه المنهجية المهمة بأن « كثـيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ ، ثـم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحـابة فيظن أن مراد الـله أورسوله أو الصـحابة بتلـك الألفاظ ما يريده بـذلك أهل عادته واصطلاحه ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك » (٣) .

ويحسـن بنا أن نذكـر مثالاً يبين اخـتلاف الناس فـي المصطلح الـواحد مما يشـعرنا بضرورة فهـم مراد كل قوم بهذا المصـطلح ،وإن كان من المصطـلحات القرآنية والـنبوية حتى نطمئن أن مرادهم باستعماله حق .

يقول رحـمه الله : « وسبب غـلطهم أن لفـظ « العقل » في لـغة المسلمين لـيس هو لفظ العقـل في لغة هؤلاء اليونان، فـإن العقل في لغة المسـلمين مصدر عقل يعـقل عقلاً ، كمـا في الـقرآن [ثـم ساق الآيـات] ويراد بالـعقل الغريـزة التي جعلـها الله تعـالى في الإنسان يعقل بها .

وأما أولئك فـ « العقل » عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل ، وليس هذا مطابقاً للغة الرسل » (٤) .

و لفظ « الـتوحيد والتنـزيه ، والتشبيـه ، والتجسيـم » ألفاظ قد دخلهـا الاشتراك ، بسبب اختـلاف اصطلاحات المتكلمين وغيـرهم ، وكل طائفة تعني بـهذه الأسماء ما لا يعنيـه غيرهم ، فالجهـمية من المعتـزلة وغيرهم يريـدون « بالتوحيد والـتنزيه » نفي جـميع الصفات ،« وبالتجسيم والتشبيـه » إثبات شيء منها ، حتى أن من قال « أن الله يرى » أو «إن له علماً» فهو عندهـم مشبه مجسم ،وكثير من المتكلمين الصفاتية يريدون « بالتوحيد والتنـزيه » نفي الصـفات الخبرية أو بعـضها ، وبالتـجسيم والتـشبيه إثباتـهـا أو بعضـهـا، والفلاسفـة تعنـي بالتوحيد : ما تعنيه المعتزلة وزيادة حتى يقولون : ليس له إلا صفة سلبية أو إضافية أو مركبـة منـها ، والاتحادية تعني بالتـوحيد : أنـه هـو الوجـود المطلــق ولغيـر هـؤلاء فيـه اصطلاحـات أخرى » (٥) .

(١) سورة إبراهيم آية (٤) (٢) الدرء ١٢٣/٧ .

(٣) الفتاوى ٢٤٣/١ ، وانظر أيضاً الفتاوى ٣٥١/١٧ .

(٤) منطق ابن تيمية /٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٥) الفتاوى ١٥٠/٤ وانظر نقض المنطق /١٢٣ ، ١٢٤ وابن تـيمية والتصوف /٤٥٨ ، والتدمرية /١٧٩ ، ١٨٨ .

وأهل السنة والجماعة « التوحيد » عندهم : لا يتضمن شيئاً من هذه الاصطلاحات، وإنما يتضمن إفراد الله بالعبادة ، فلا يكون لغيره نصيب مما يختص به منها وما يتبعها ، هذا من حيث العمل . أما من حيث القول : فالتوحيد هو الإيمان بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم (١) .

ويقول عن لفظ التوسل والوسيلة : « فيه إجمال واشتباه يجب أن نعرف معانيه ويعطى كل ذي حق حقه فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة في ذلك ومعناه وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك ، ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه .

فإن كثيراً من اضطراب الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك في الألفاظ ومعانيها حتى نجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب» (٢) .

ويقول في بعض المواضع :« وللناس في هذا الباب اصطلاحات متعددة من لم يعرفها يجعل بينهم نزاعاً معنوياً وليس كذلك » (٣) .ويقول : إن لفظ النظر والاستدلال والكلام وأصول الدين مشتركاً يطلق على معنى حق تارة وعلى معنى باطل تارة أخرى(٤) .

خامساً : مفهوم عموم الناس :

ومن الحقائق الثابتة أن الشرع جاء لعموم الناس في خطابه وليس هو لطبقة أو طائفة معينةٍ أو فئة من الناس بل ،هو رسالة عامة للعالمين ،وهو بلغة العرب التي يفهمها كل عربي ، ودينٌ هذا شأنه لا يمكن أن تكون ألفاظه يستقل بفهمها خاصة من الناس توافقهم هم ، وتعارض الكل وتصادم مفهومهم وهو عربي أصيل ، فهذا شيء محال؛ وذلك لأن « دلالة اللفظ العربي الشائع يمتنع أن تكون لمعنى لا يدركه إلاّ القليل من الناس ويثبتونه بطرق خفية طويلة » (٥) .

---

(١) انظر الفتاوى ١٥٠/٤ ، ١٥١، وانظر الدرء ٢٢٤/١ – ٢٢٥ ، ١٢٢/٧ ، واقتضاء الصراط المستقيم/٤٥٩ ١٨٠ والتدمرية /١٨٠ ، ١٨٤ ، ومنطق ابن تيمية /٢٧٩ .

(٢) الفتاوى ١٩٩/١ وانظر التفسير الكبير ٤٣٠/٧ .

(٣) الدرء ٤٢٩/٧ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم /٤٥٩ .

(٤) انظر الفتاوى ٥٦/٤ .

(٥) انظر التفسير الكبير ٤٠٧/٧ .

ويبرهن على أن عموم الناس لا يفهمون من النصوص إلا ما أراد الشارع من المعنى الظاهر بقوله : « والناس إذا قيل لهم : التغير على الله ممتنع فهموا من ذلك الاستحالة والفساد مثل : انقلاب صفات الكمال إلى نقص أو تفرق الذات ، ونحو ذلك مما يجب تنزيه الله عنه . وأما كونه سبحانه يتصرف بقدرته فيخلق ويستوي ويفعل ما يشاء بنفسه فهذا لا يسمونه تغيراً ... » (١) .

ويقول مبيناً أن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة لا يتكلمون بكلام وهم يريدون خلاف ظاهره ولا معنى خفي به :« إلا وقد نصب دليلاً يمنع من حمله على ظاهره ، ولا يجوز أن يحيلهم على معنى دليل خفي لا يستنبطه إلا أفراد الناس سواء كان سمعياً أو عقلياً لأنه إذا تكلم بالكلام الذي يفهم منه معنى وأعاده مراراً كثيرة وخاطب به الخلق كلهم ... وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ويعقلوه ، ثم أوجب عليهم ألا يعتقدوا بهذا الخطاب شيئاً لأن هناك دليلاً خفياً يستنبطه أفراد الناس ، يدل على أنه لم يرد ظاهره كان هذا تدليساً وتلبيساً ، وكان نقيض البيان وضد الهدى ، وهو بالألغاز والأحاجي أشبه منه بالهدى والبيان » (٢) .

---

(١) الدرء ٤ / ٧٥ .

(٢) الرسالة المدنية / ٤٢ ـ ٤٣ تحقيق الوليد عبد الرحمن الفريان .

الفصل الثاني

الجمع بين الأدلة النقلية والعقلية

وتحته مباحث :

الأول : المعرفة وطرقها عند ابن تيمية.

الثاني : منهج ابن تيمية في التعامل مع الأدلة الشرعية عند الاستدلال.

الثالث : عدم تعارض النقل مع العقل.

الرابع : منهجه في الجمع بين الأدلة النقلية والعقلية.

الخامس : المسائل التي يدعي المتكلمون تعارضها مع العقل.

المبحث الأول

نظرية المعرفة وطرقها عند ابن تيمية

تَمهيد :

لا بد لنا من الحديث عن المعرفة عند ابن تيمية كيف تتم ؟ وما المعرفة وطرقها؟ لأن النقل مصدر من مصادر المعرفة ، والعقل أداة الإدراك ومصدر من مصادر المعرفة حيث الفطرة التي فطر الله عباده عليها ،مع أنَّ من تعريفات العقل أنه مجموعة من المعارف والمعلومات الفطرية .

والسلف الذين ينهج ابن تيمية نهجهم لهم أصول وطرق للمعرفة يختلفون فيها عمن خالفهم من الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة والمتصوفة إما اختلافاً كلياً أو جزئياً .

ولقد أتى ابن تيمية على أصول المعرفة عند هؤلاء وطرقها وبيّن خطأها مع اعترافه بما هو حق منها والتسليم به والإفادة منه ، ثم بعد ذلك قرر أصول المعرفة ومصادرها كما يراها مقتدياً ومهتدياً بالكتاب والسنة وما عليه السلف الصالح من القرون المفضلة وأئمة الإسلام .

وهذا منهج لابن تيمية « الهدم ثم البناء » « أو التخلية ثم التحلية » .

وقبل أن نشرع في نظرية المعرفة وطرقها عند ابن تيمية وهي جانب البناء ، نتعرض لنقضه أصول المعرفة وطرقها عند غيره من الفلاسفة وأهل الكلام ، وهذا هو جانب الهدم .. وهو المطلب الأول من هذا المبحث .

المطلب الأول : المعرفة عند ابن تيمية:

قبل أن نقرر كيف تحصل المعرفة وبأي شيء تكون ، لا بد أن ننظر إلى الإنسان من حيث التكوين لأن ذلك له علاقة بتكون المعرفة ، فابن تيمية يرى أن « النفس لها قوتان: قوة علمية نظرية ، وقوة إرادية عملية فلا بد لها من كمال القوتين بمعرفة الله وعبادته » (١) .

والفلاسفة والمتكلمون من جانب ، والصوفية والفقهاء من جانب آخر وقعوا في خلاف بينهم سببه تجزئة الإنسان في هاتين القدرتين ، وهذا التصور غير الصحيح نتج عنه الخطأ في حصول المعرفة وتكونها لدى الإنسان .

« فقوم يزعمون أن مجرد الزهد وتصفية القلب ورياضة النفس توجب حصول العلم بلا سبب آخر ، وقوم يقولون لا أثر لذلك بل الموجب للعلم ، العلم بالأدلة الشرعية أو العقلية ، وأما الوسط فهو أن ذلك من أعظم الأسباب معاونة على نيل العلم ، بل هو شرط في حصول كثير من العلم ، وليس هو وحده كافياً ،لا بد من أمر آخر ، إما العلم بالدليل فيما لا يعلم إلا به ، وإما التصور الصحيح لطرفي القضية في العلوم الضرورية » (٢) .

والنفس إذا سلمت من التحريف والتغيير وبقيت على فطرتها فهي تعرف الحق وتنقاد له وتعرف الباطل وتنفر منه، يقول صلى الله عليه وسلم :(كل مولود يولد على الفطرة ...) (٣) ويقول: (أصدق الأسماء حارث وهمام) (٤) ،ويقول عن النفس السليمة :« إنها جبلت على الصحة في الإدراك وفي الحركة » (٥) .

ولأن النفس فيها هاتين القوتين لا تكفي المعرفة وحدها لأنها تتصل بقوة واحدة

---

(١) انظر الرد على المنطقيين /١٤٤ مناهج البحث / ٢٣٤٠ ، الفتاوى ٩٧/٢ ، الدرء ٢٧٣/٣ .
(٢) انظر التفسير الكبير ٦٠/٢ - ٦١ ، الرد على المنطقيين /٥١١ ، الدرء ٢٧٣/٣ .
(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، فتح الباري ٢١٩/٣ . مسلم كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، صحيح مسلم ٢٠٤٧/٤ .
(٤) أخرجه أبو داود من حديث أبي وهب الجُشَمي ولفظه :« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام ..) كتاب الأدب ٣٥ باب في تغيير الأسماء ٦٩ رقم الحديث ٤٩٥٠ ، سنن أبي داود ٢٣٧/٥ إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط ١، ١٣٩٤هـ ، دار الحديث حمص سوريا .
(٥) انظر منهاج السنة غير المحقق ٨٢/١ ، وانظر الفتاوى ٧٢/٦ - ٧٣ ، ١٠٨/١٤ - ١١٤ .

وهي « القوة النظرية » وتبقى القوة « الإرادية العملية » معطلة ، وهذا خطأ ارتكبته الجهمية ومن تابعهم حيث فصلوا بين علم النفس وإرادتها » (١) ، فقالوا : الإيمان مجرد المعرفة ، فجعلوا العلم وحده كافياً من دون عمل ففصلوا بين القوتين معطلين أحدهما «وجعلوا الكمال في نفس العلم ، وإن لم يُصدّقه قولٌ ولا عمل ، ولا اقترن به من الخشية والمحبة والتعظيم وغير ذلك مما هو من أصول الإيمان ولوازمه » (٢) .

من أجل ذلك وغيره يقرر ابن تيمية أن الجهمية هم أصل البلاء ومنبع الداء ، وأنهم يتحملون مسئولية انحرافات الأمة فيقول « فهؤلاء الجهمية من أعظم مبتدعة المسلمين ... » (٣) .

ونجد جماعة « .. يرون أنه إذا حصل لهم ذاك العلم سقطت عنهم واجبات الشرع، وأبيحت لهم محرماته ، وهذه طريقة الباطنية من الإسماعيلية وغيرهم ... الخ (٤) »،من أجل ذلك يرى ابن تيمية أن الكمال والسعادة لا يحصلان إلا بجمع القوتين مع بعضهما ،فيكون مع المعرفة عمل ومع العلم عبادة . يقول :« فكمال النفس ليس في مجرد العلم بل لا بد مع العلم بالله من محبته وعبادته والإنابة إليه فهذا عمل النفس وإراداتها ودال علمها ومعرفتها » (٥) .

والمعرفة أمر ضروري فطري ، وقد أوجد الله في النفوس القدرة الذاتية على تحصيل بعض المعارف من غير أن يكون نظر . وأعظم المعارف معرفته سبحانه وتعالى (٦) .

وطرق المعرفة لا تنحصر بعدد معين بل هي كثيرة متنوعة ،فكل طريقة صحيحة عقلاً يمكن أن تفيد ، وفائدة الناس تختلف على حسب حالهم وزمانهم ومعارفهم ، والمعرفة وإن كانت ضرورية عند أهل الفطر السليمة فلا يعني هذا عدم نفع النظر فيها، فكثير من الناس يحتاج فيها إلى النظر ، والإنسان قد يستغني عنه في حال ويحتاج إليه في حال .

---

(١) انظر مناهج البحث /٢٣٥ .
(٢) انظر الرد على المنطقيين /١٤٦ ، مناهج البحث /٢٣٥ ، أصول الدين د. مصطفى حلمي /٢٤٤ - ٢٤٧ .
(٣) انظر الرد على المنطقيين /١٤٥ - ١٤٦ .
(٤) انظر الفتاوى ٢/٩٥ ، وانظر الرد على المنطقيين /١٤٥ .
(٥) الفتاوى ٢/٩٥ وانظر ٩٦ ، وانظر الرد على المنطقيين /١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ .
(٦) انظر التفسير الكبير ٢/٣١٩ ، ودقائق التفسير ٢ - ٢/٨٥ .

وينتقد من يجعل للمعرفة طريقاً معينة يراها هو ثم يلغي الطرق الأخرى ، زاعماً أن المعرفة لا تحصل بغير طريقه [1]، « وطرق معرفة الله والإقرار به كثيرة متنوعة» [2] ، والتنوع في الطرق ليس في معرفة الله وحدها بل « العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة حسية ، عقلية ، كشفية ، وسمعية ضرورية ، ونظرية وغير ذلك ... » [3] .

والتنازع بين بني آدم كثير في طرق العلم والظن وما يتوصل به إليهما [4]، فالطريقة العقلية ، والكشفية ، والخبرية ، والنظرية ، وطريقة أهل الحديث وأهل الكلام ، وأهل التصوف ، ... فمن الناس من ينكر فيها ما لا يعرفه ، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه فيرفعه فوق قدره وينفي ما سواه [5] ،وهذا غلط محض وهو قول بلا علم [6] .

فإنه من أين للإنسان أنه لا يمكن المعرفة إلا بهذا الطريق ؟ فإن هذا نفي عام لا يعلم إلاّ بالضرورة ، فلا بد من دليل يدل عليه ، وليس مع النافي دليل يدل على هذا النفي بل الموجود يدل على أن للمعرفة طرقاً أخرى ... » [7] .

ويبين كيف يكون التنوع وأنه « تارة بتنوع أصل الدليل ، وتارة بزيادة مقدمات فيه يستغني عنها آخرون ثم ذكر جوانب هذا التنوع » [8].

ولا يعني تعدد الطرق وتنوعها أن كل طريقة تكون صالحة لتوصلنا إلى المعرفة السليمة خصوصاً في مجال الغيبيات ، ويذكر طريقة من الطرق الخاطئة ،حيث استدل البعض بـ « حدوث ما قام به الحوادث ، ويقولون : كل ما قامت به الحوادث فهو محدث وليس كل ما قامت به الصفات محدثاً » ، والفلاسفة لم يسلكوا هذه الطرق، وكذلك كثير من أهل الكلام كالهاشمية والكرامية وغيرهم ، بل ولا سلف الأمة وأئمتها ولا متأخرو أهل الكلام الذين ركبوا طريقاً منقول الفلاسفة وقول أسلافهم المتكلمين ... بل سلكوا طريقة ابن سينا التي ذكرها في إثبات واجب الوجود [9] .

وليس كل من انتمى إلى الطرق التي قرر أنها من طرق المعرفة يكون صحيحاً سليماً « فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية وكثير منها فاسد متناقض ... وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجّون فيها بأحاديث موضوعة ، وحكايات مصنوعة ،

---

(1) انظر الدرء ٣٠٣/٣ .
(2) الدرء ٣٣٣/٣ ، وانظر التفسير الكبير ٤٢٥/٦ .
(3) الفتاوى ٣٣٥/١١ .
(4) انظر الفتاوى ٣٣٨/١١ .
(5) انظر الفتاوى ٣٣٨/١١ ، وانظر الدرء ٣٠٣/٣ - ٣٣٣ .
(6)،(7)،(8) الدرء ٣٣٣/٣ .
(9) انظر الدرء ٣٣٤/٣ .

يعلـــم أنـها كذب، وقد يـحتجـون بالضعيـف في مقـابلة الـقوي، وكثيـر من المتصـوفة والفقـراء يبني عـلى منامـات وأذواق وخيالات يعـتقدهـــا كشفـــاً وهي خيـالات غير مطابقـــة وأوهام غــــير صادقـــة : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (١) » (٢) .

والمعرفة العقلية عند ابن تـيمية تعتمد على « الحس » (٣) أو التجربة ، وأصح القضايا ما نتج عن تجربة ، وهذه التجربة تعتمد على قضايا جزئية .

ويرى أنه لا حقائق إلاّ تلك الجزئيات المعينة المحسوسة (٤) .

ويرى أن ما ينتـج عن طريق الحس علم يقيـني ، ويكون دليلاً مقنعـاً ، لأن التجربة والعادة تكسب المرء علماً بالأشياء عن طريـق الحس ،ويعني بالحس : المعاينة ، والملاحظة المباشرة للأشياء والموجودات ، والخروج بعد ذلك بنتيجة .

ومن المحسوسـات الوجديات الباطـنية ، وهي إدراك الإنسان لحـالته الباطنـية ،وهي طريق يقيني للمعرفة (٥) .

المطلب الثاني : طرق المعرفة عند ابن تيمية :

وبعد هذه المقدمة التي من ضمن فوائدها العلم بتنوع طرق المعرفة وتعددها ، يحق لنا أن نتساءل عن طرق المعرفة عند ابن تيمية ما هي ؟ وإجابة على ذلك نقدم ما تيسير لنا علمه منها فهي :

أولاً : التجربة : أو المجربات والمحسوسات :

يرى ابن تـيمية أن التجـربة يحصل بهـا العلم ،بل طـريق من أقوى طرقه ،ويُـجْمِعُ عددٌ مـن الباحثـين أن ابن تيـمية لم يـكن أحد مـثله في عـلماء الإسـلام في وضع المنـهج التجريبي حتى قال الدكتور النشار :« وليس هناك في الحقيقة من تكلم فيما قبل العصور الحديثة بما تكـلم به ابن تيمية لقد وصل حـقاً إلى أوج الدّرج في فلسفة المنهـج التجريبي بنقـده للمنطق الـيوناني القـياسي ويدعو إلـى المنطق الإسلامي الـتجريبي وعـبر عن روح الحضارة الإسلامية الحقة في عصر الانهيار الحضاري الإسلامي الذي عاش فيه » (٦) .

---

(١) سورة النجم آية (٢٨) . (٢) الفتاوى ١١/٣٣٨ - ٣٣٩ ، وانظر ص٣٤٦ .
(٣) انظر الدرء ١/١٧٨ ، التفسير الكبير ١/١٧٩ ، الاستقامة ١/٢٩ .
(٤) انظر الرد على المنطقيين /١١٥ ، مناهج البحث /٢٣٦ .
(٥) انظر منطق ابن تيمية /١٢٢ . (٦) مناهج البحث /٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ .

ويقول صاحب منطق ابن تيمية عنه أنه « أعطى التجربة الحسية من الأهمية أكثر مما أعطى العلل الطبيعية ، فهو وإن كان يعترف بالعلل الطبيعية ، فإنه في منهجه كان يعمد إلى إثبات العلل عن طريق التجربة التي هي عنده الدوران والتقسيم ، فإذا ثبتت لديه بالتجربة كانت علّة صحيحة ، وإن لم تثبت تخطاها وأنكر صحة الفرض الذي فرضه » [(١)].

«وهذا الموقف التجريبي هو الذي ميز ابن تيمية عن سابقيه من أصحاب المذاهب العقلية ، الذين يشكون بصحة التجربة النّاتجة عن الحواس » [(٢)] .

ويقول أحد خصوم ابن تيمية المعاصرين بعد أن ذكر كلامه :« لا يسعنا أمام هذه الروح العلمية والتجريبية التي اتسمت بها فلسفة ابن تيمية إلاّ أن نقرر أنّه لو قرر لهذه الفلسفة أن توضع في قالب منهجي لعدّ ابن تيمية – بحق – على رأس الفلاسفة التجريبيين ، وحسبه أنه أوضح هذه الأفكار في وقت كانت فيه أوربا ترسف في أغلال الجهل وتعاني من جمود الفكر النظري ، طوال العصور الوسطى » [(٣)] .

والذي جعله يأخذ هذا المنهج معرفته بأن :

العلم نوعان :

الأول : علم الشريعة أو علم الدين ، ومصدره التلقّي من الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثاني : علم الدنيا فهذه علوم عقلية كالفلاحة ، والتجارة ، والصناعة ، والطّبّ والحساب ونحوها ، فهذه تتلقى من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن غيره مسلماً كان أو كافراً [(٤)] ،والعلوم العقلية عند ابن تيمية تجريبية ، وأداة التجربة الحواس [(٥)] ،وإذا سلمت من المؤثرات التي تمنعها من القيام بوظيفتها فإن ثمرة تجربتها علم يقيني.

ولهذا يقرر نفي مالا تحسه الحواس من الماديات فيقول :« فإنا لا نشكّ مع سلامة البصر وارتفاع الموانع في عدم بحرٍ من زئبقٍ وجبلٍ من ذهبٍ بين أيدينا ونحن لا نشاهده» [(٦)] ،فإذاً لامكانة للأوهام والخرافات، فكل شيء لا بدّ له من دليل وبرهان، والتجربة وحدها لا تؤدي إلى حقائق علمية بل لا بد معها من الحس والعقل ، ولا تتم

(١) انظر منطق ابن تيمية /١٧٢ – ١٧٣ . (٢) انظر منطق ابن تيمية /١٧٣ .
(٣) المدرسة السلفية /٤٤٩ مؤلفه محمد عبدالستار أحمد نصار .
(٤) انظر التفسير الكبير ١/٢٤٥ ، وانظر الفتاوى ٤/٢١٠ .
(٥) انظر الرد على المنطقيين/٩٥ – ٩٧ . (٦) انظر الرد على المنطقيين/٢١٠ .

المعرفة للشيء المحسوس إلاّ بوجود تصور سابق عنه من خلال تجربة أو خبر سابقين ، وإن لم يوجد هذا فإنه لا يستطيع أن يعرف هذا المحسوس معرفة كاملة إنما يعرف بعض أوصافه وخصائصه تماماً مثل دلالة الاسم على المسمى . ولإيجاد حكم عام أو قضية كلية لا بد من الأمور الآتية :

١ – التجربة في الجزئيات .

٢ – تكرير هذه التجربة [1] .

٣ – مراقبتها بالحس إذا كانتْ محسوسة .

٤ – الحكم عليها بالعقل الذي يتابع هذه العملية بعد قيام الحس بدوره » [2] .

٥ – استعمال قياس التمثيل إذ : « التجربة لا بد فيها من قياس ، والقياس أصله التجربة [3] ولصحة قياس الثاني على الأوّل لا بدّ من أن تكون العلة مشتركة بينهما فيكون حكمها واحدا ، ويفيدنا أيضاً قياس التمثيل بمعرفة الحال الباطنة للآخرين بمراقبة الظواهر الطبيعية لهم والآثار الانعكاسية للمعاناة الباطنة فبما نعلمه من حالنا الباطنة، وفيما علمناه من باطن غيرنا سابقاً نعلم بواسطة قياس التمثيل ما في باطن هذا وذاك [4] .

والاستفادة من التجربة الحسية الفردية تكون : بنقلها إلى الآخرين بواسطة الخبر لاستحالة نقل الحسّ المباشر إلى الآخرين [5] ،ويذكر ابن تيمية أن أهل المنطق كأرسطو ومن تابعه من الفلاسفة والأطباء يقولون إن الحسيّات وحدها هي التي تكون برهاناً وحجةً للشخص يحتج بها لنفسه وعلى غيره .

أما المجربات والحدسيات والمتواترات فهي لا تكون كذلك [6] .

والفلاسفة في الإسلام ـ كابن سينا ـ يقولون ما علمه الأنبياء ليس وحياً خبرياً ، وإنما هو عقلي لكمال قوة الحدس ،ومؤدى قولهم في عدم صلاحية المجربات أن تكون برهاناً يحتج به على الغير هو إلغاء كل ما ورد عن الأنبياء ونقلوه عن ربّهم ،وهذا هو

---

(١) انظر الرد على المنطقيين/٩٥ . (٢) انظر الرد على المنطقيين /٩٢ – ٩٥ – ١٨٦ – ٣٨٦ .

(٣) انظر التفسير الكبير ١٧٩/١ ، وانظر الرد على المنطقيين /٣٧٨ – ٣٨١، وانظر التفسير الكبير ٣٩٦/٣ .

(٤) انظر الرد على المنطقيين /١٨٩ ومناهج البحث ٢٣٦ .

(٥) الرد على المنطقيين /٣٨٥ ومنطق ابن تيمية /١٧٩ . (٦) انظر الرد على المنطقيين /٩٢ .

أصل الإلحاد والكفر (١) ، فما تواتر عن أنبياء الله ورسله حق لا شكّ فيه ، ومن قال لم يتواتر عندي ، فيقال : اسمع كما سمع غيرك والحجة قائمة عليهم به تواتر عندهم أم لم يتواتر فعدم العلم ليس علماً بالعدم(٢) ، والحجة تقوم بالتمكن من العلم ، فليس من شرط حجة الله – سبحانه وتعالى – علم المدعوين بها (٣) .

والحسيات الظاهرة والباطنة فيها خاص : كالوجدانيات الباطنية (٤) كألمه وجوعه ، وفيها عام يشترك الناس فيه : كالقمر والشمس ، وهناك رؤية أخص لأهل البلد الواحد كرؤية جبل أو جامع أو نهرٍ في بلدهم ، فإذا أُثبِت العموم والخصوص في الحسيات وهو دليل مشترك عندهم فكذلك القضايا المعلومة بالتجارب والتواتر (٥) .

ونحن نصدق بعدد من المحسوسات الموجودة ونحن لم نرها ولم نحسها بأنفسنا * وقد حصل هذا بالنقل المتواتر عمن أحسها وعاينها وقد يكون الراؤون لها أقل من المخبرين(٦) .

فالمتواترات والمجربات هي من جنس المحسوسات لا يلزم لتصديقها أن يتم اشتراك كل الناس بها ، فإذا قام زيد بتجربة ما وحصل على نتيجةٍ فلا يلزم أن نشاركه فيها لنعلم صدقه ، ولو كان ذلك لأصبح الحصول على العلم متعذراً شاقاً إن لم يكن مستحيلاً « فلا يلزمنا أن نقيم دليلاً لكل شخص على حدة حتى يصدق » (٧) .

تبين لنا أن القضايا « الحسية » و « المتواترة » و « المجربة » قد تكون مشتركة وقد تكون مختصة ، فلا معنى للفرق بأن هذه يُحتج بها على المنازع دون هذه (٨) .

والتجربة – عنده – مفهومها واسع جداً ، فهي تكون من تجربة الإنسان نفسه ومن تجربة غيره حتى ولو كان ليس له قدرة على فعل الغير .

---

(١) انظر الدرء ١/١٧٩ .
(٢) انظر الرد على المنطقيين /١٠٠ ، ومناهج البحث /٢٢٠ .
(٣) انظر الرد على المنطقيين /٩٩ .
(٤) انظر الفتاوى ٩/٢١٩ .
(٥) انظر الردعلى المنطقيين /٩٨ .
(*) مثل المعرفة بوجود مكة ، ووجود البحر والأنبياء ودلائل نبوتهم وكأنواع من الحيوانات والأشجار والطيور كل هذه معروفة بالرؤية والحس ، صدقنا بها وصارت عندنا معرفة يقينية ، وأيضاً نتائج تجارب الآخرين ومعارفهم في أنواع الحِرف والمهن كالطب والصناعة والزراعة والتجارة نصدق بها بالنقل الخبري المتواتر ونحن لم نجربها .
(٦) انظر الرد على المنطقيين /٩٨ .
(٧) الرد على المنطقيين /٩٢ – ٩٩ .
(٨) انظر الرد على المنطقيين /٩٨ .

وكذلك ما لا يقدر عليه المجرب نفسه كالسنن الكونية والربانية كنصره سبحانه لأنبيائه والمؤمنين وهلاك أعدائه الكافرين (١) .

والتجربة تحصل – عنده – بالنظر والاعتبار والتدبّر ، فينظر إلى أثر معين أحدث تأثيراً معيناً ،ويرى الأثر متكرراً ويحدث معه تأثيره فيعلم من خلال هذا النظر حدوث هذا الأثر إذا حصل هذا المؤثر لا سيما إذا شعر بالسبب المناسب (٢).

وكذلك التجارب العقلية الفكرية الناتجة عن التأمل العقلي وتكريره فما ينتج عن تلك التجربة العقلية بعد تكرارها وسلامة نتيجتها ، يعد نوعاً من المعرفة وذلك الاعتبار بتجارب الآخرين حيث نعلم أن من فعل مثل فعلهم كان له مثل ما كان لهم ، ولا بد من تدخل قياس التمثيل ولكن بعد استعمال « السبر والتقسيم » لإبعاد العناصر الغريبة من التجربة وإبقاء الأوصاف الأصلية اللازمة « لأنه متى حصل الأثر مقروناً بأمرين لم تكن إضافته إلى أحدهما دون الآخر بأولى من العكس ومن إضافته إلى كليْهما » (٣) .

ويقول – رحمه الله – : السبب المقتضي للعلم بالمجريات هو تكرار اقتران أحد الأمرين بالآخر إما مطلقاً وإما مع الشعور بالمناسبة ، وهذا القدر يشترك فيه ما تكرر بفعله وما تكرر بغير فعله ، فكونه بفعله وصف عديم التأثير في اقتضاء العلم ، فلا يحتاج أن يجعل هذا نوعاً غير النوع الآخر مع تساويهما في السبب المقتضي للعلم ، إلا لبيان شمول « المجربات لهذين الصنفين » (٤) .

والاستفادة من تجارب الآخرين : تعتمد على الاستقراء ،ولا بد من معرفة العلة ، ومعرفة أطوارها ، فالخمر حُرم لعلة الإسكار ، فكل مسكر حرام خمراً أو غير خمر ، والعلة الواحدة ، إذا وجدت ظروف واحدة أنتجت معلولاً متماثلاً ، والعلّة دائماً تسبق المعلول (٥) .

ويعني هذا وجود التلازم بين الحكم والعلة وجوداً وعدما ،فكلما وجدت العلة وجد الحكم وإذَ اعُدمتْ عُدمَ (٦) ،وقياس العاديات لا تعرف فيه العلة والمناسبة ،

(١) انظر الرد على المنطقيين /٩٥ ، ومناهج البحث /٢١٨ . (٢) انظر الرد على المنطقيين /٩٣ .
(٣) الرد على المنطقيين /٩٣ ، وانظر /٢٠٩ ، ومناهج البحث /٢١٦ .
(٤) الرد على المنطقيين /٩٥ .
(٥) انظر الرد على المنطقيين /٣٧٨ – ٣٨١ ، وانظر التفسير الكبير ١/١٧٩.
(٦) انظر الرد على المنطقيين /٩٥ .

وذلك كقضايا الطب فهو يعتمد على تجربات وقياسات ، وأهله منهم من يغلب عليه التجربة ومنهم من يغلب عليه القياس (١) .

وإذا كان هناك ارتباط بين الحسّ والعقل ، فلا بد للعقل من حسيات يعتبر بها ، وصاحب الحس لا بد أن يكون معه عقل يشارك الحسّ ، وإلا فقد يغلط في نتائجه (٢) .

ويحدث الغلط في التجربة الحسّية حينما « ... الحس يرى أمراً معيناً فيظن صاحبه فيه شيئاً آخر فيؤتى من ظنه فلا بُدّ له من العقل » (٣) .

والمجربات والمحسوسات والخبريات داخلة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (٤) و ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾ (٥) و ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ (٦) . فإنه رحمه الله سئل عنها فقيل له :ما معنى كل مقام منها ؟ وأي مقام أعلى؟ فقال للناس : في هذه الأسماء مقالات معروفة .

منها : أن يقال : « علم اليقين » ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر مثل : من أُخبر أن هناك عسلاً ، وصدق المخبر أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده .

و « عين اليقين » ما شاهده وعاينه بالبصر مثل : من رأى العسل وشاهده وعاينه ، وهذا أعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :(ليس المخبر كالمعاين) (٧) .

و « حق اليقين » ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار مثل : من ذاق العسل ، ووجد طعمه وحلاوته ، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله ، ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ...)(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم :(ذاق طعم الإيمان ...) (٩) .

فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه ثلاث درجات :

---

(١) التفسير الكبير ١/١٧٩ .
(٢) انظر التفسير الكبير ١/١٧٩ .
(٣) التفسير الكبير ١/١٧٩ .
(٤) سورة الواقعة آية (٩٥) .
(٥) سورة التكاثر آية (٧) .
(٦) سورة التكاثر آية (٥) .
(٧) الفتاوى ٦٤٥/١٠ بتصرف .
(٨) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه ، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، فتح الباري ٦٠/١ . ومسلم كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، صحيح مسلم ٦٦/١ .
(٩) أخرجه مسلم من حديث العباس بن عبدالمطلب كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً فهو مؤمن رقم الحديث ٥٦ .

الأول : من علم ذلك بخبر صدوق أو ما يجد من آثار أحوالهم ما يدل عليه .

الثانية : من شاهد ذلك وعاينه ، أي يعاين من أحوالهم ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم ، وإن كان حقيقة لم يشاهدها ، لكن شاهد ما دل عليه ، فهذا أبلغ من المخبر والمستدل بآثارهم [١] .

الثالثة : أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه ، كما قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب . وقال آخر : إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طرباً ، وقال آخر : لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم [٢] .

ثم أخبر عما وعد به الناس من أمر الآخرة وأنه على ثلاث درجات أعلاها :

الثالثة : إذ باشروا ذلك فدخل أهل الجنة الجنة ، وذاقوا ما كانوا يوعدون ، ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون ، فالناس فيما يوجد في القلوب ، وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث [٣] .ثم تحدث عن أمور الدنيا وأنها كذلك، وأنها داخلة في إطار الخبريات والمحسوسات بالرؤية ونحوها ، والمجربات في الذوق المباشر بفعل من الأفعال .

وذلك لأن الإخبار والتنظير إنما يفيد التقريب وبيان المثيل ، وأما معرفة حقيقة الشيء فلا تحصل بالخبر وإنما بالتجربة بأي نوع من أنواعها ، ويمثل : بأن أهل العبادة والزهد الشرعيين يُسَمَّوْن أهل المعرفة لحصولهم على حقيقتها بالتجربة والذوق فهم أعلى ممن عرفها بالخبر والنظر .

فمباشرة المرء للشيء وتجريبه له يعطيه معرفة لا يمكن أن يتطرق إليها شك في نفسه، ولا يمكن أن يعادلها قوة في التأثير عليه ، وتلك المعرفة حاصلة بما جرب من الأمور القلبية مما هو من المعنويات ، حتى وصل بهذه التجربة « حق اليقين » وكذلك في المحسوسات من الأمور الدنيوية .

وبهذا يُدَعَّم بالنصوص الشرعية أن ما حصل بالتجربة من أقوى المعارف .

والإمام الرازي [٤] عَرَفَ بعدد من التجارب المريرة التي خاضها في بحار الفلسفة

---

(١) انظر الفتاوى ٦٤٦/١٠ .

(٢) الفتاوى ٦٤٦/١٠ - ٦٤٧ .

(٣) السابق /٦٤٧ .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (٦٥) .

ومتاهاتها أنه لا نفع فيها ، وأن المنهج القرآني والنبوي هو الشافي الكافي المحقق للسعادة والمعرفة ومن كلامه في ذلك قوله : « فمن جرب تجربتي عرف معرفتي » (١) .

ثانياً : الأدلة الشرعية :

ما هو الدليل الشرعي عنده ؟ هل هو ما يفهمه المتكلمون من أنه ما يعلم بالسمع من خبر النبوة فقط ، جاعلين أصول الدين السمعيات والعقليات ، مقررين أن الكتاب والسنة ليس فيهما أدلة عقلية ، والعقل مقدم عندهم على السمع ، وهذه الفكرة أقلقت ابن تيمية ؛ ولهذا شنع على المعتزلة ونحوهم سوء ظنهم بأن الشرع لا يدل إلاّ بمجرد خبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالوا بطريق الإلزام « فيلزم أن يكون وجود الصانع تعالى – يكفي فيه مجرد خبر الرسول صلى الله عليه وسلم بوجوده . وكان هذا من تقصيرهم في معرفة الشرع فإن الشرع يتضمن بيان الدلائل العقلية التي يحتاج إليها وينتفع بها في هذا الباب » (٢) .

ويقرر حقيقة لا تقبل عنده التردد ،أن الدليل الشرعي قد يكون سمعياً وقد يكون عقلياً ، والدليل الشرعي عنده لا يقابله « العقلي » ، وإنما يقابله « البدعي » (٣) .

وإذا أريد بالدليل الشرعي ما أثبته الشرع ، فإما أن يكون معلوماً بالعقل أيضاً ولكن الشرع نبه عليه ودلّ عليه فيكون شرعياً عقلياً ، وهذا كالأدلة التي نبه الله تعالى عليها في كتابه العزيز من الأمثال المضروبة وغيرها ، فهي أدلة عقلية يعلم صحتها بالعقل ، وهي براهين ومقاييس عقلية ، وهي مع ذلك شرعية ، وإما أن يكون الدليل الشرعي لا يعلم إلاّ بمجرد خبر الصادق ، فإنه إذا أخبر بما لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعياً سمعياً ... وأما إذا أريد بالشرعي ما أباحه الشرع وأذن فيه فيدخل في ذلك ما أخبر به الصادق، وما دل عليه القرآن وما دلت عليه وشهدت به الموجودات (٤) .

والدليل إن لم يستلزم المدلول لم يكن دليلاً ،والعلم بالاستلزام موقوف على العلم بالملزوم واللازم ، فلا يعلم أنه دليل على المدلول المعين ، حتى يعلم ثبوت المدلول

---

(١) الدرء ١٦٠/١ . (٢) الدرء ٣٥١/٧ .
(٣) انظر موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١١٦/١ .
(٤) انظر الدرء ١٩٨/١ – ٢٠٠ ، ٣٥١/٧ – ٣٥٢ والموافقة ١١٧/١ وما بعدها .

المعين ويعلم أنه ملزوم به (١) .

والأدلة الشرعية متعددة منها :

أ - دليل الفطرة :

أمة التكليف ميزها الله بالعقل الذي فيه الإحساس والشعور والإرادة ،مما يجعلها قادرة على معرفة الخير من الشر ، والنافع من الضار، وجبلت النفوس على حب ما ينفعها وبغض ما يضرها ، وذلك لأن « الله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به ومعرفة الباطل والتكذيب به ، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة ، فما كان حقاً موجوداً صدّقت به الفطرة ، وما كان حقاً نافعاً عرفته الفطرة أحبته واطمأنت إليه ، وذلك هو المعروف ، وما كان باطلاً معدوماً كذبت به الفطرة وأبغضته ، وأنكرته » (٢) .

ومعرفة الله ومعرفة صدق رسوله صلى الله عليه وسلم فطري (٣) لا يتوقف على النظر ، وهي تحدث ضرورة للخلق ، والتفاصيل لها تتم بالتلقي من الرسل (٤) . دليل ذلك أن الرسل خاطبوا أقواماً مقرين بالخالق ، لكن كانوا مشركين يعبدون غيره كالذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا لم يدعوهم إلى توحيد الربوبية ابتداءً إنما دعوهم إلى توحيد الألوهية والعبادة (٥) .ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع ، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك ،والرسل مبعوثون لتذكير وضع الفطرة وتطهيرها من تسويلات الشياطين فإنهم الباقون على أصل الفطرة ، وما كان له عليهم من سلطان : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ (٦) (٧).

والفطرة من الفطر وهو الابتداء .. فأول ما في الإنسان من المعارف هي المعارف

---

(١) الفتاوى ٢/٧٠ .

(٢) نقض المنطق /٢٦ .

(٣) يقول ابن القيم :« فالفطرة قابلة ، والعقل مزك ، والشرع مبصر مفصل لما هو مركوز في الفطرة مشهود أصله دون تفاصيله بالعقل ... » الصواعق المرسلة ٤/١٢٧٧ - ١٢٧٨ .

(٤) انظر دقائق التفسير ١ ، ٢ /١٨٥ .

(٥) انظر الدرء ٧/٣٤٩ - ٣٥٠ ، والفتاوى ٢/٦٩ - ٧٠ ، وانظر الدرء ٦/٣٢٧ - ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٦) سورة الأعلى الآيات (٩ - ١٠) .

(٧) انظر نهاية الإقدام للشهرستاني /١٢٤ - ٢٦ نقلاً عن الدرء ٧/٣٩٧ - ٤٠٠ .

التي فطره الله عليها كما قال صلى الله عليه وسلم :(كل مولود يولد على الفطرة) (١) ، وعلى هذا فإنه يحصل لها العلوم الضرورية الفطرية ذاتياً من غير سبب خارجي منفصل عنها من المخلوقين قام بتعليمها ودعوتها ؛ لأننا لو قلنا بوجود هذا العلم الداعي للزم التسلسل في الفاعلين وهو ممتنع (٢) .

وهي الركيزة الأولى للاهتداء وقبول الرسالات ، ويأتي الامتناع عن الرسالات غير الجحود والعناد على قدر تغير هذه الفطرة وانحرافها .

ولهذا قيل في حد « العقل » : إنه علوم ضرورية ، وهي التي لا يخلو منها عاقل، وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق » (٣) .

والناس يتخاطبون في أمور مسلمة عندهم بموجب العلم الفطري ، كما أنهم كذلك بموجب العلم من قبل الشريعة ، وإن كانت لبعضهم أقوال أخرى تنافي الفطرة والشرعة وتستلزم بطلان ما يقوله بمقتضى الفطرة والشرعة .

والإنسان يدرك بالفطرة ويعرف بعض الحقائق والفروق بين الأشياء كإدراكه «تفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه سواء كان خبراً أم إنشاءً »(٤) ،وكمعرفة الفطر أن المحْدَثَ لا بد له من مُحْدِث (٥) « وأنه لا بد لكل مصنوع من صانع » (٦) .

ب – الخبر :

يقول : « وطرق العلم ثلاثة : الحس ، والعقل ، والمركب منهما كالخبر ، وفي مكان آخر يذكر من طرق المعرفة « المتواترات » ،فأخبار الأنبياء وما تواتر عنهم مصدر أصيل للمعرفة « وقد قامت الأدلة اليقينية على نبوات الأنبياء وأنهم قد يعلمون بالخبر ما لا يعلم إلا بالخبر ، وكذلك يعلمون غيرهم بخبرهم ، ونفس النبوة تتضمن الخبر، فإن النبوة مشتقة من الإنباء وهو

---

(١) سبق تخريجه في صفحة (٩٨) .
(٢) انظر الدرء ٤٥٩/٨ - ٤٦٠ .
(٣) التفسير الكبير ٣٢٧/٦ - ٣٣٢ - ٣٣٤ .
(٤) التفسير الكبير ١٦٣/٧ .
(٥) انظر التفسير الكبير ٢٥٩/١ .
(٦) انظر التفسير الكبير ٣١٩/٢ ، وانظر الصواعق المرسلة ١٢٧٧/٤ - ١٢٧٩ ، والتدمرية /٢١٤ - ٢١٥ .

الإخبار بالغيب » (١) .

والقرآن الكريم والسنة عند ابن تيمية مصدران من مصادر المعرفة الحقة اليقينية، وهما لازمان لأمة الرّسالة، وقد تضمنا أصول المعارف لما فيهما من الإخبار عن الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله ، والطرق التي يعلم بها ثبوت ذلك وما يهدي القلوب ويدل العقول على معرفة ذلك (٢) .

فالخير كل الخير فيما تضمناه من العلوم والمعارف لمن أخذ بهما واعتصم (٣) ،فيه العلّو في الدرجات لمن وافقه علماً وعملاً ،ومن خرج من علوم الشريعة والدين عن الكتاب والسنة « فليس معه علم لا عقلي ولا سمعي» (٤) .

والخبر الثابت نقله الثابت صدقُه يُقبل حتى ولو كان من الكفار كالأخبار المتواترة عن حوادث الأمم وأيامها وعن وقائع الأزمنة والدهور المجمع عليها من غير تواطؤ .

ويقبل ابن تيمية خبر الواحد ويحتج به ويرد على من لا يجعله دليلاً ،ولو ترك الأخذ بهذا القول لتُرك أحاديث وأقوال عظيمة ثابتة عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

ج - دليل الآيات :

الاستدلال بالآيات المخلوقة على الرب الخالق وما له من كمال هو طريق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم (٥) ، وهو أيضاً طريق القرآن الكريم (٦) ،وهو أيضاً طريق يعرف به نبوة الأنبياء عليهم السلام (٧) . ويذكر الفرق بين الآيات والقياس فيقول : « إن الآية هي العلامة وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول ، لا يكون مدلوله أمراً كلياً مشتركاً بين المطلوب وغيره .

آية النهار قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (٨) نفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار. ويقول عن آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : « نفس العلم بها يوجب العلم بنبوته بعينه لا يوجب أمراً كلياً مشتركاً بينه وبين غيره .

---

(١) انظر الدرء ١/١٧٨ - ١٧٩ . (٢) انظر الدرء ٧/٣٥٢ .
(٣) انظر الفتاوى ١٨/٢٤٥ . (٤) التفسير الكبير ١/٢٧٦
(٥) انظر الرد على المنطقيين /١٥٠ . (٦) انظر الرد على المنطقيين /١٥١ ، وانظر الفتاوى ٩/٢٣٤ .
(٧) انظر الرد على المنطقيين/١٥١ ، وانظر الفتاوى ٩/٢٣٥ . (٨) سورة الإسراء آية (١٢) .

وكذلك آيات الرب،نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى ، لا يوجب علماً كلياً مشتركاً بينه وبين غيره .

فكل ما سوى الربّ مستلزم لنفسه المقدسة بعينها ، يمتنع وجود شيء سواه بدون وجود نفسه المقدسة ، وكل دليل عليه آية له .

وكما أن الموجودات الخارجية آيات له مستلزمة لوجود عينه، فكذلك أيضاً الصور الذهنية من آياته المستلزمة لوجود عينه ، لأنه هو المعلم لهذا التصور الهَادي إليه ، ففي ذلك دليل على هدايته وتعليمه كما قال سبحانه : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ ﴾ (١) ، وقال على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (٢) .

ويرى أن إثبات وجود الله يكون بالآيات وليس بالقياس البرهاني ؛لأننا إذا أردنا الاستدلال بهذا القياس فإننا لا نصل إلا إلى الأمر الكلي المطلق الذهني .

وبهذا نتوصل إلى أن إثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجب وإن كانت الطريقة القياسية صحيحة لكن فائدتها ناقصة .

ويستدل بقول ابن عباس : من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس اعرفه بما عَرَّف به نفسه (٣) .

ويبين كيف يتم العلم بأن الآيات دليل على الخالق سبحانه : حيث إن هناك معرفة سابقة بالله موجودة في الفطرة ، فلما رأت وعلمت الآيات علمت أن هذه الآية له ودليل عليه ، يقارن ذلك بدلالة الاسم على المسمى، فهذا الاسم لا يدل على المسمى المعين إلاّ إذا كان عنده علم بالمسمى وتصور له (٤) ،يقول :« فكذلك كون هذا دليلاً على هذا يقتضي تصور المدلول عليه وتصور أن ذلك الدليل مستلزم له ، فلا بد في ذلك أن يعلم أنه مستلزم للمدلول ، فلو لم يكن المدلول متصوراً لم يعلم أنه دليل عليه ... والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق فلا بد أن يكونوا يعرفونه حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له .

---

(١) سورة الأعلى الآيات (١ - ٣) . (٢) سورة طه آية (٥٠) .
(٣) انظر الفتاوى ٤٨/١ ، ٣/٢ - ١٨ ، ٨/٣ - ٩ ، ٣٥٦/٥ - ٣٥٩ ، ١٤١/٩ - ١٤٣ ، ١٥١/١٣ ، ٣٩٩/١٦ - ٣٤٠ - ٥٩٧ ، ٢٣٦/١٨ - ٢٣٧ . (٤) انظر الفتاوى ٤٨/١ .

والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية ، هي التي جاء بها القرآن واتفق العقل والشرع ، وتلازم الرأي والسمع . » [1] .

وإذا كانت « الآيات » تدلنا على خالقنا وتعرفنا به معتمدة على رصيد الفطرة ،فإنه كلما عظمت المعرفة والاطلاع على أسرار هذه المخلوقات وأحجامها كلما كانت محققة للعلم والمعرفة بالله وعظمته ، فالإنسان والكون العلوي المخلوق والأراضي وما فيهما كله آيات مخلوقة موجودة تدلنا على وجود خالقها وعظيم صفاته ، والعلوم الحديثة المعاصرة والأجهزة المطورة التي بها نستطيع ونكتشف أموراً باهرة تحار منها العقول هي من الوسائل المشروعة التي لا مانع من الأخذ بها إن لم يصل إلى الوجوب أحياناً .

د – قياس الأولى :

هذا القياس من الأدلة القرآنية والنبوية ، وقد احتفى به ابن تيمية كثيراً واستعمله – كغيره من السلف – في إثبات ما لله من الأسماء والصفات وإثبات المعاد ،ولا يجوز استعمال غيره من الأقيسة ، والقرآن والأنبياء إذا استعملوا في الإلهيات القياس استعملوا قياس الأولى ،وكذلك السلف والأئمة [2] .

يقول – رحمه الله – « العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوى فيه الأصل والفرع ، ولا بقياس شمولي يستوي فيه أفراده فإن ذلك شرك [3] فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، فلا يجوز أن يمثل بغيره ، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها .

ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى اليقين ، بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها [4] ،لكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أوشمولاً كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ [5] ، مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت [6] للمخلوق أو المحدث لا نقص فيه بوجه من الوجوه غير مستلزم للعدم « فالله أولى به » [7] .

---

(1) الفتاوى ٤٨/١ .
(2) انظر الفتاوى ٤٨/١ – ٢٩٧ ، ١٤١/٩ – ١٤٧ .
(3) التفسير الكبير ٢٧٤/١ .
(4) انظر الدرء ٢٩/١ ، موافقة صحيح المنقول ١٤/١ – ١٥ .
(5) سورة النحل آية (٦٠) .
(6) انظر الدرء ٢٩/١ .
(7) التفسير الكبير ٢٧٤/١ .

وهذا الكمال الذي في المخلوق إنما استفاده من خالقه فهو أحق به منه ، فكل نقص وعيب وسلب وجب نفيه عن شيء من المخلوقات والمحدثات ، فإنه يجب نفيه عن الله بطريق الأولى، وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود (١) .والعقل يدرك التفاضل بين مخلوق ومخلوق، فإدراكه للتفاضل بين الرب وبين المخلوق أعظم فكان « قياس الأولى » يفيده أمراً يختص به الرب مع علمه بجنس ذلك الأمر (٢) .

ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ، وَمَنْ قبله وَمَنْ بعده من أئمة الإسلام ، وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين في مسائل التوحيد والصفات والمعاد ونحو ذلك .

وفائدة الطريقة القياسية في المطالب الإلهية ، وإن كانت صحيحة فإنها ناقصة ، والقرآن إذا استعمل العلة في الآيات والإلهيات استعمل قياس الأولى لا القياس الذي يدل على المشترك .

« والإنسان يعلم الإمكان الخارجي ، تارة بعلمه بوجود الشيء ، وتارة بوجود نظيره ، وتارة بعلمه بوجود ما الشيء أولى بالوجود منه ، فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى من الإمكان فيه ... وقوله : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ (٣) فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلقه أمثال بني آدم ، والقدرة عليه أبلغ وأن هذا أيسر وأولى بالإمكان والقدرة من ذلك » (٤) .

وكذلك « فالقادر على أن يخلق من الشجر الأخضر ناراً أولى بالقدرة أن يخلق من التراب حيواناً » (٥) .

هـ - دلالة الميزان :

يرجع ابن تيمية إلى تعريف السلف للميزان ، وأن بعضهم يفسره بالعدل، ويفسره آخرون بما يوزن به، ويقرر أن كلا الأمرين متلازمان،فما يوزن به يوصل إلى العدل (٦).

---

(١) انظر الدرء ١/٢٩ - ٣٠ ، وانظر ص ٣١ - ٣٥ ، وانظر منطق ابن تيمية /٢٥٤ ومناهج البحث / ٢١٨ .

(٢) انظر الرد على المنطقيين /١٥٤ - ١٥٥ ، انظر الدرء ١/ ٣٠ ، وموافقة صحيح المنقول ١/ ١٥ ، انظر الفتاوى ١/ ٤٨ . (٣) سورة غافر آية (٥٧) . (٤) موافقة صحيح المنقول ١/ ٤٧ .

(٥) موافقة صحيح المنقول ١/ ٤٨ . (٦) انظر الرد على المنطقيين /٣٧١ .

والميزان : أنـزله الله مع الرسـل : « كما أنزل معـهم الكتاب لـيقوم الناس بالـقسط كما قال تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ (١) وقـال : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٢) .

وقد جعـل الله في فطر عـباده وعقولهـم معرفة التـماثل والاختلاف ، فتـسوي بين المتماثـلين وتفرق بين المختـلفين (٣) ، إذن فالميزان العـقلـي الذي أنزلـه الله هـو « الأقيـسة الصـحيحة المتضمنـة التسويـة بين المتمـاثلين والفـرق بين المختلـفيـن ،سـواء صيـغ ذلك بصيغـة « قيـاس الشمول » أم بصيغة « قيـاس التمثيل »، وصيغ التمـثيل هي الأصل وهي أكمل :

والميزان : القـدر المشترك ، وهو الجامـع ، وهو الحد الأوسط » (٤) .ويقرر أن لكل شيء مـيزانا يـناسبه ، فميـزان المكيـلات هو المكيال (٥) ،وميـزان الموزونـات هو الآلـة المعروفـة بذات الكفـتين واللسـان ، ومعرفة الأبنـية وتساويـها بالموازيـن التى يقـدر بها ، والأوقات يكون بالظلال ، والذراع ميزان الأطوال للعلم بتساويها (٦) .

وميزان قياس الفروع على الأصول فى الشرعيـات والعقليات هـو الوصـف الجامـع المشتـرك « الحد الأوسـط» الذى هو العلة (٧) ،فمثلاً : خمر العنـب حرمه الله لأنه يصد عن ذكر الله والصـلاة ويوقـع العـداوة والبغضـاء بين المؤمـنين ، فـإذا وجـدنا مـا يماثلـه فـى المعنـى المشترك الـذي به التحريم حكمـنا بحرمته ، كما لو وجدنا نـبيذ الحبوب من الحنطة والشـعيـر والأرز يصـد عن ذكـر اللـه والصلاة ... ، فهذا القـدر المشـتـرك الـذي هـو الـعلـة هـو الميـزان الـذي أنـزله اللــه فـي قلوبنـا لنزن به هذا ونجعله مـثل هذا ، فلا نفرق بين المتماثلين، وهذا هو القياس الصحيح العادل الذي أمر الله به وأنزله (٨) .

فإذاً الميـزان مقياس عقـلي يقيس المعينات لمعرفة التمـاثل والاختلاف ، واللـه فطر الناس على ذلك وأنزل هذا الميزان في قلوبهم فلا يمكن أن يتعارض ما خلقه مع ما أنزله ، فلا تتعارض الأقيسة الصحيحة عقلية كانت أو شرعية مع النصوص المنزلة (٩) .

وإذا وُجد تعـارض بين نص شرعيّ وبـين الميزان سواء كان شرعـياً أم عقليـاً فإنه لا

---

(١) سورة الشورى آية (١٧) .
(٢) سورة الحديد آية (٢٥) .
(٣) انظر الرد على المنطقيين /٣٨٢ .
(٤) انظر الرد على المنطقيين /٣٨٣ .
(٥) انظر الرد على المنطقين /٣٧١ ، ٣٧٣ .
(٦)،(٧) انظر الرد على المنطقين /٣٧١ ، ٣٧٣ .
(٨) انظر الرد على المنطقين /٣٧١، ٣٧٣ .
(٩) انظر الرد على المنطقيين /٣٧٣ .

يخلو الحال من أحد أمرين : -

أ - إما فساد دلالة ما احتج به من النص أو عدم ثبوت النص .

ب - أو فساد دلالة ما احتج به من القياس لفساد مقدماته أو بعضها لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتبهة .

وناقش قول المناطقة أن قياس التمثيل لا يفيد إلاّ الظن ، وقياس الشمول يفيد اليقين والقطع ، وقال: هذا التفريق خاطئ وسببه أن هؤلاء جعلوا يظهرون ظنية أحدهما في مواد معينة لا تفيد إلاّ الظن في « قياس التمثيل » ،ولو استعملت أيضاً نفس هذه المواد في « قياس الشمول » لم تفد إلاّ الظن ، ولو أنهم استعملوا مواد تفيد اليقين في قياس الشمول ، ثم استعملوها في قياس التمثيل لأفادت اليقين أيضاً ، بل كان اليقين به أظهر وأتم (١) .

وبعد نقاش طويل مع أهل المنطق في هذا الموضوع قال : « والمقصود أن نبين أنه لا فرق بين القياس الشمولي والتمثيل إذا أعطي كل منهما حقه ، وأن ما أمكن إثباته بقياس الشمول كان إثباته بقياس التمثيل أظهر (٢) .

ويطرح سؤالاً مفاده : إذا كان الميزان العقلي يُدْرَك بالعقل فكيف جعله الله سبحانه مما جاءت به الرسل ؟ . والإجابة: « فإن الرّسل دلت الناس وأرشدتهم إلى ما به يعرفون العدل ، ويعرفون الأقيسة العقلية الصحيحة التي يستدل بها على المطالب الدينية ، فليس العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر ... بل الرسل صلوات الله عليهم بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علماً وعملاً ، وضربت الأمثال فكملت الفطرة بما نبهتها عليه وأرشدتها مما كانت الفطرة معرضة عنه أو كانت الفطرة قد قدت بما حصل لها من الآراء والأهواء الفاسدة فأزالت ذلك الفساد وبيّنت ما كانت الفطرة معرضة عنه حتى صار عند الفطرة معرفة الميزان التي أنزلها الله وبينتها رسله .

والقرآن والحديث مملوء من هذا ،يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة ، ويبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين ، وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله : ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ (٣) .

أي هذا حكم جائر لا عادل فإن فيه تسوية بين المختلفين ... ، ومن التسوية بين

(١) انظر الرد على المنطقيين /٣١٣ ، وانظر ص٢١٧ .
(٢) انظر الرد على المنطقيين /٢١٧ .
(٣) سورة القلم الآيات (٣٥ - ٣٦) .

المتماثلين قوله :﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (١) ... والقرآن مملوء من ذلك لكن ليس هذا موضعه وإنما المقصود التنبيه على جنس الميزان العقلي وأنها حق كما ذكر الله في كتابه» (٢) .

ولتوضيح مسألة إنزال الله الميزان مع الرسل مع أنه مما يعرف بالعقل ، يبين أنّه كإنزال الله الإيمان ــ وهو الأمانة – مع الرسل مع كونه فطرياً كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) (٤) .

وكذلك أنزل الله سبحانه – الميزان في القلوب لما بينت الرسل العدل وما يوزن به عرفت القلوب ذلك ، فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف .

فلما علمت القلوب العدل عمدت إلى تحقيقه في أمور حياتها فوضعت الآلات الحسية لتحقيق العدل في أمور المعاش، فوضعوا الموازين النقدية وموازين الحبوب، والأطوال، والأوقات ونحو ذلك ، وهذا من وضعه تعالى الميزان قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (٥) (٦) .

و – الاستدلال بالكتاب والسنة :

نظر ابن تيمية إلى واقع الأمة من خلال مسيرتها من بعد انقطاع خبر السماء بموت المصطفى صلى الله عليه وسلم فوجد الحقيقة التي أثبتتها النصوص أثبتها الواقع كتجربة من تجارب الأمم التي لا يختلف قانونها ، وهذه الحقيقة هي ارتباط الأمّة بمصدرها المنصوص : القرآن والسنة ، وأنها كلّما قربت منه والتزمته فهماً وعملاً كلّما تدرجت في مراتب القوة والسعادة والسيادة والأمن والرخاء .

ويجدّد لنا حقيقة بينها القرآن والسنة والصحابة – رضوان الله عليهم – من حيث استغناء الأمة في أمر دينها بالقرآن الكريم وسنة محمد صلى الله عليه وسلم ،وأنهما شاملان لشؤون الدين وشؤون الدنيا ، وليست الأمة محتاجة إلى رأي عقلي ولا إلى

---

(١) سورة القمر آية (٤٣) . (٢) الرد المنطقيين /٣٨٣ . (٣) سورة الشورى آية (٥٢) .
(٤) انظر الرد على المنطقيين ٣٨٣ -٣٨٤ . (٥) سورة الرحمن الآيات (٧ – ٩) .
(٦) انظر الرد على المنطقيين /٣٨٢ – ٣٨٤ .

كشفٍ وإلهامٍ صوفي، ولا إلى تأويلات باطنية منحرفة ،ولا إلى من يدّعى له العصمة من سائر البشر كما تقوله الرافضة (١) .

والشريعة شاملة للأصول والفروع وذلك من خلال القواعد العامة والقضايا الكلية « كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (بُعثت بجوامع الكلم) (٢) ، والكلمة الجامعة هي القضية الكلية ، والقاعدة العامة التي بُعث بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فمن فهم كلمة الجوامع ، علم اشتمالها لعامة الفروع وانضباطها بها والله أعلم » (٣) .

ويقول : « فإن الشارع نصوصه كلمات جوامع ، وقضايا كلية وقواعد عامة ، يمتنع أن ينص على كل فرد من جزئيات العالم إلى يوم القيامة ، فلا بدّ من الاجتهاد في المعينات ، هل تدخل في كلماته الجامعة أو لا ، وهذا الاجتهاد يسمى « تحقيق المناط » وهو مما اتفق عليه الناس كلهم ؛ نفاة القياس ومثبتته » (٤) .

ونظرة ابن تيمية لواقع الأمّة نظرة الطبيب الخبير والعالم المتفرس ، جعلته يدرك أسباب ضعف الأمة وتفرقها وانتشار الأمراض العقدية والفكرية فيها ، وعلم أن أبرزها هو اعتماد مصادر بشرية لا تقبل النقاش عندهم ولا تقبل الاعتراض عليها ولا النقد لها، حتى عظموها أكثر من تعظيمهم للسنة ، فحلت أقوال الأئمة والعلماء محل كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله ، وعُمِل بالبدع وتركت السنن نتيجة للتقليد والتبعية العمياء لأن « الشرائع أغذية القلوب فمتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث » (٥) .

لذا فإن ابن تيمية رأى أن أول العلاج يبدأ بدعوة الأمة للعودة إلى كتاب ربها وسنة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم . دعوة يوجهها بصوت قوي صادق ، دعوة يوجهها حارة ملتهبة كلهيب حرارة قلبه ألماً على أمراض الأمة الفتاكة الناتجة عن ابتعادها الكبير عنهما .

ترتكز هذه الدعوة على جملة من القضايا والمبررات نذكر بعضها بإيجاز :

الأول : شمول الكتاب والسنة لكل الأصول والفروع من الدين ، لأن التشريع

(١) انظر الفتاوى ٥/٩٩ .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (بعثت بجوامع الكلم) ، فتح الباري ١٣/٢٤٧ .

(٣) الاستقامة ١/١١ – ١٢ . (٤) منهاج السنة ٦/١٣٩ . (٥) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٨١ .

وضع قواعد عامة وقضايا كلية تندرج تحتها أحكام للناس في أمور دينهم ودنياهم ، وهذا الشمول جعل علماء الأمة ليسوا بحاجة إلى مصادر أخرى للتلقي منها ، يعبر شيخ الإسلام عن ذلك بقوله :

« والعلماء إذا أقاموا كتاب الله ، وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله ، وما فيه من الهدى .. لوجدوا فيه أنواع العلوم النافعة ... ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل ... ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة ... » [1] .

وليس للعالمين شرعة ولا منهاج ولا شريعة ولا طريقة أكمل من الشريعة التي بعث بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما كان يقول في خطبته: (خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم) [2] [3] .

ويقول :« ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الإلهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها ، لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن ، ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر ، فضلاً عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه عن غيره ، سواء كان من علم المحدثين والملهمين أو من أرباب النظر والقياس الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء » [4] .

ولقد اعتنى ابن تيمية في سائر كتبه وفي ردوده ومناقشاته مع سائر الطوائف بتوضيح شمول الكتاب والسنة وكفايتهما وتضمنهما الأدلة النقلية والعقلية وأنهما يشملان جميع معارف الدين ، فلسنا بحاجة إلى شيء مخالف لهما [5] .

يقول رحمه الله : « طريق القرآن جاءت في أصول الدين وفروعه في الدلائل والمسائل بأكمل المناهج » [6] .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٨١ .
(٢) أخرجه مسلم عن جابر مرفوعاً ٥٩٢/٢ رقم ٨٦٧ كتاب الجمعة باب ١٣ ، وأخرجه البخاري موقوفاً على عبدالله بن مسعود ١٣٩/٨ كتاب الاعتصام باب ٢ .
(٣) الفتاوى ٥٩٨/١١ .
(٤) جواب أهل العلم والإيمان لابن تيمية /٤٤ - ٤٥ .
(٥) انظر أصول الدين د/ مصطفى حلمي /٢١٨ .
(٦) الفتاوى ٧/٢ - ١٤ .

الثاني : أن كل قول يخالف هذين المصدرين فهو قول مردود على صاحبه مهما كانت منزلته وعلا شأنه « وكل من أمر بأمر كائناً من كان عُرِضَ على الكتاب والسنة فإن وافق ذلك قُبل وإلاّ رُد كما جاء في الصحيحين عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) (١) أي مردود » (٢) .

الثالث : أن مصدر التشريع في المعاملات والعبادات وأمور التحليل والتحريم هو الكتاب والسنة « والأصل في هذا أنه لا يحرم على الناس في المعاملات التي يحتاجون إليها إلاّ ما دل الكتاب والسنة على تحريمه ، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلاّ ما دل الكتاب والسنة على شرعه ، إذ الدّين ما شرعه الله ، والحرام ما حرّمه الله » (٣) . ويقول :« ... من خرج عن الكتاب والسنة فليس معه علم لا عقلي ولا سمعي لا سيما في هذا المطلوب الأعظم ... » (٤) .

وتفضيل الأفعال بعضها على بعض ميزانُه الكتاب والسنة ونهج السابقين الأولين «وإنما يثبت استحباب الأفعال واتخاذها ديناً بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه السابقون الأولون ، وما سوى ذلك من الأمور المحدثة فلا يستحب وإن اشتملت أحياناً على فوائد لأنا نعلم أن مفاسدها راجحة على فوائدها » (٥) .

ويحدد إطار الأدلة وما الذي يطلق عليه أنه دليل سمعي يصلح الاعتماد عليه في الأحكام « وكل قول لم يرد لفظه ولا معناه في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة فإنه لا يدخل في الأدلة السمعية ولا تعلق للسنة والبدعة بموافقته ومخالفته .... وإنما السنة موافقة الأدلة الشرعية والبدعة مخالفتها » (٦) .

وأما الذي لا يُدري هل يوافق الأدلة أو يخالفها فرأيه أنه يسمى مبتدعاً وإن ثبت له فيما بعد أنه مشروع وكذلك من قرر شيئاً أنه من الدين ولو كان قولاً وليس معه دليل شرعي فإنه تذرع إلى البدعة وإن ثبت له بعد ذلك أنه موافق للسنة « إذ الأصل أنه ما لم يعلم أنه من الشرع فلا يتخذ شريعة وديناً ، فمن عمل عملا يعلم أنه مشروع فقد

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة ، أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب إذا اجتهد العالم ، فتح الباري ٣١٧/١٣ . ومسلم كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، صحيح مسلم ١٣٤٤/٣ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٤/٢٨ - ٢٥ .

(٣) الدرء ٥١/١ .

(٤) انظر التفسير الكبير ٢٧٦/١ .

(٥)،(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ٣٥٢/ .

تـذرع إلـى البدعـة ، وإن كـان ذلـك العمـل تبيـن لـه فيمـا بعـد أنـه مشـروع ... » (١) الخ .

ويقول : « والواجب على الخلق : اتباع الكتاب والسنة » (٢) ،فهو إذن ليس عملية اختيارية أو مسألة أفضلية إنما هو أمر واجب وحتم لازم ، فما أُنزل القرآن إلاّ ليكون منهاجاً ،وما أرسل الرسول إلا ليتبع ،وخلاف ذلك هو الضلال المبين « فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر » (٣) .

الرابع : أن السعادة والعلو والسلطان هو بالاعتصام بالكتاب والسنة ولزوم هديهما، وأن الحياة الكريمة بكل معانيها لا تكون إلاّ بذلك « فأسعد الخلق وأعظمهم نعيماً وأعلاهم درجة ، وأعظمهم اتباعاً له وموافقة علماً وعملاً » (٤) .

ويقول : « فالسعيد من اعتصم بكتاب الله واتبع الرسول في سنته وشريعته والمهتدي بمناره المقتفي لآثاره هو أفضل الخلق في دنياه وآخرته » (٥) .

والقرآن سلطان وحجة قوية ظاهرة، ومن كان معه سلطان القرآن فهو ظاهر غالب، يقول : « وقد تبين في غير موضع أن السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل كما قال تعالى : ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٦)» (٧).

ويقول : مبيناً نتيجة اجتماع السلطانين سلطان الحجة والعلم وسلطان القوة والحكم : « فإذا كان السلطان منزل من الله يتبع هذا المؤمن كان ذلك مما يوجب قوته وتسلطه علماً وعملاً ... » (٨) .

ويقول : « وكل عاقلٍ يترك كتاب الله مريداً للعلو في الأرض والفساد فإنه يقصمه » (٩) .

والنجاة في الدنيا والآخرة لمن جعل الشريعة مسلكه فهي سفينة النجاة لمن لاذ بها، كما نجا نوح وقومه حينما ركبوها وتحصنوا بها ، والذين لم يركبوها غرقوا وأهلكوا ، وكذالك من ترك الشريعة فإنه يغرق في الضلالات والانحرافات والأمراض الاجتماعية

---

(١) الدرء ١/٢٤٤ .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٨٣ .
(٣) الفتاوى ١١/٢٦٢ ، وانظر ص٢٦٣ .
(٤) انظر الفتاوى ١٨/٦٢ .
(٥) انظر الفتاوى ١٨/٢٤٥ .
(٦) سورة الروم آية (٣٥) .
(٧) الاستقامه ١/٢١ ، وانظر التفسير الكبير ٥/١٣ .
(٨) التفسير الكبير ٥/١٣ - ١٤ .
(٩) الاستقامة ١/١٢ .

والنفسية والبدنية [1] .

الخامس : النزاع والخلاف بين الناس لا يفصله ولا ينهيه سوى كتاب منزل، فالتحاكم إلى المنزل تحاكم إلى ما هو أعلى من عقول البشر فهي تسلم له وترضى ،وأما التحاكم إلى آراء البشر وعقولهم فإن العقول تتفاوت في مداركها وقدراتها ومقدرتها على الاهتداء لعلاج حاسم في تلك القضية ،وليس هناك عقل جامع يمكن تحاكم العقول إليه، يقول :« ... الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء ، وإذا ردّوا إلى عقولهم فلكل واحدٍ منهم عقل وهؤلاء المختلفون يدعي أحدهم : أن العقل أداه إلى علم ضروري ينازعه فيه الآخر ، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلاّ الكتاب والسنة وبهذا ناظر الإمام أحمد الجهمية [2] لما دعوه إلى المحنة وصار يطالبهم بدلالة الكتاب والسنة على قولهم » [3] .

السادس : المتمسكون بالنصوص والذين يقدمونها على أي استدلال آخر هم دائماً أقدرُ من غيرهم على الفتوى ،وهم أنفع للناس من الذين يقدمون آراءهم ومعقولاتهم ، حتّى وإن قلت إمكانات أهل النصوص المادية وسلطتهم ، وقلت مجالات نفوذهم الميدانية ، وتجد نفعهم للمسلمين أكثر من نفع هؤلاء مع توافر هذه الإمكانات وغيرها في أيديهم ،ومع انضمام جانب السلطة إليهم وإفساح الميادين لهم ، ولا شكّ أن هذا من التوفيق الإلهي ومن بركة التزام الكتاب والسنة يقول في نص جميل :« .. أهل النصوص دائماً أقدر على الإفتاء وأنفع للمسلمين في ذلك من أهل الرأي المحدث فإن الذي رأيناه دائماً أن أهل الرأي في الكوفة من أقل الناس علماً بالفتيا وأقلّهم منفعة للمسلمين ، مع كثرة عددهم ، وما لهم من سلطان وكثرة بما يتناولونه من الأموال الوقفية والسلطانية وغير ذلك ، ثم إنهم في الفتوى من أقل الناس منفعة ، قل أن يجيبوا فيها ، وإن أجابوا فقل أن يجيبوا بجواب وأما كونهم يجيبون بحجةٍ فهم من أبعد الناس عن ذلك » [4] .

ثم يبين سبب ذلك مع توافر الإمكانات وإتاحة الفرص التي لم تكن لغيرهم «وسبب هذا أن الأعمال الواقعة يحتاج المسلمون فيها إلى معرفة بالنصوص ثم إن لهم أصولاً كثيرة تخالف النصوص ، والذي عندهم من الفروع التي لا توجد عند غيرهم ، فهي مع ما فيها من المخالفة للنصوص التي لم يخالفها أحدٌ من الفقهاء أكثر منهم، عامتها:

(١) انظر الدرء ٢٣٤/١ ، وانظر الفتاوى ٩٥/١٠ - ٩٦ - ١٣٤ - ١٤٨ .
(٢) الإمام أحمد بن حنبل ، والجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان ...
(٣) الموافقة ١٧٧/١ ، وانظر الدرء ١٤٧/١ .
(٤) الاستقامة ١ / ١٢ .

إما فروع مقدرة غير واقعة ، وإما فروع متقررة على أصولٍ فاسدةٍ ، فإذا أرادوا أن يجيبوا بمقتضاها رأوا ما في ذلك من الفساد وإنكار قلوب المؤمنين عليهم فأمسكوا » (١) .

السابع : ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حق في نفسه ولا يختلف باختلاف أهواء الناس وآرائهم ومعتقداتهم ،فهو حق لا يقبل النقض ولا يكون دليلاً على باطلٍ، وكل ما عارضه فهو باطل مطلقاً ، فمن بنى أمره على ما جاء به الرسول ، فإنه بناه على حق لا يتغير ولا يتبدل ،فيسلم من التعارض والتناقض والتخبط والتخليط ، لأن الحق هو الحق في كل زمانٍ ومكانٍ ومع كل إنسانٍ « ومن هنا يتبين لك أن الذين بنوا أمورهم على مقدمات - إما ضرورية أو نظرية أو قطعية أو ظنية ، بنوها على أمور تقبل التغير والاستحالة - فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، وأما ما جاء به الرسول فهو حق لا يقبل النقيض بحالٍ ، فهو صلى الله عليه وسلم يخبر بالحقّ ، كما قال أهل الجنة لما دخلوها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ (٢) (٣) .« ومن خالفهم فإنه لا يسلم من الشرك والإفك » (٤) .

والذي يبني آراءه وأفكاره وأحكامه ومعتقداته على غير النصوص الشرعية فإنه يبنيها على آراء العقول وهي ليس لها قاعدة تضبطها ولا حدّ يحدّها ، وأما ما يبنى على الشريعة المحمدية المنصوصة فإن له قاعدة تضبطه مهما تفرع وتنوع، وقاعدته جوامع الكلم التي بُعث بها النبي صلى الله عليه وسلم من القضايا الكلية والقواعد العامة (٥) . وبهذا يظهر لنا سبب تناقض وحيرة واضطراب أهل الكلام والفلسفة والرأي في كثير من أصولهم وفروعهم حتى أن الواحد ينقض اليوم ما قاله بالأمس ، ويعارض في موضع ما قرره في موضع آخر (٦) ، وكذلك ما يراه هؤلاء صواباً يراه آخرون خطأً ، وما يستدل به أقوام يرده آخرون لسبب من الأسباب وجيهاً في اعتبارهم .

وقد احتج أحدهم ببعض النصوص على باطله الذي يرد به باطل غيره ، أو حقهم، ونبه ابن تيمية على هذا مقرراً أن النصوص الشرعية الثابتة لا تكون دليلاً عل باطلٍ ،وأن من كان له حجة سمعية من أهل الباطل فإما أن تكون كذباً على الرسول صلى الله عليه وسلم أو تكون غير دالّة على ما احتج به (٧) .

---

(١) الاستقامة ١٣/١ . (٢) سورة الأعراف آية (٤٣) . (٣) الدرء ٣٠٣/٣ .
(٤) انظر الدرء ١٨٢/٤ . (٥) انظر الاستقامة ١٢/١ ، وانظر ص١١ .
(٦) انظر الدرء ٢٧٣/١ وانظر الباب الثالث مبحث الجدل والمناظرة .
(٧) انظر الدرء ١٤٧/١ ، ١٥٠ ، ١٦٨ .

منهج ابن تيمية في التعامل مع الأدلة الشرعية عند الاستدلال

اعتنى ابن تيمية بقضية الاستدلال بالأدلة النقلية والعقلية ، ومن أعظم مميّزات ابن تيمية عودته إلى النص وقدرته على الاستنباط ، وقد استطاع أن يثبت للعلماء وغيرهم من خلال التجربة والواقع أن النصوص قادرة على استيعاب الحوادث والنوازل ، وأنه ليس من إجماع أو قياسٍ إلاّ ويعتمد على نصّ شرعي ، فجاءت دعوته للأمة في العودة الجادة إلى الكتاب والسنة – تحمل برهانها في نتاجه الفكري والعملي ، حيث تعرض لعددٍ من المسائل كان المظنون ثبوتها بإجماع أو قياس ، وأثبت أن لها نصوصاً شرعية جاءت بها لبيان حكمها ، وتصدى للقضايا القديمة والحادثة المشكلة على أكابر العلماء وقال فيها رأيه مستدلاً بالنصوص الشرعية وأقوال الصحابة والتابعين وسلف الأمة .

وقد اعتنى ابن تيمية بتأصيل مسار الأمة في البناء العقدي والفكري والعلمي ، وذلك برسم منهج واضح المعالم ثابت الأسس تسير عليه الأمة للوصول إلى هذا البناء ليتم الاغتراف السليم من منابع العلم الربّاني .

وأذكر بعض ما توصلت إليه من ذلك :

أولاً : تقديم النصوص على غيرها :

ا عتنى ابن تيمية بإبراز منهج السلف وطريقتهم لأنه هو طريق السلامة حيث الناس ما زالوا يسمعون الكلام رطباً ندياً طرياً من فم النبي صلى الله عليه وسلم ،وحيث لم تظهر الأهواء والأدواء في الأمة ، وحيث هو نهج الفئة الراضية المرضية المرتضاة التي حفها الثناء من المرسَل جل جلاله والمرسَل صلى الله عليه وسلم .ومما يميز السلف أنهم نصيّون ولا يتقدمون بين يدي الله ورسوله بشيء من آرائهم وعقلياتهم واجتهاداتهم بل يجعلونهما إماماً يأتمون بهما (١) . والسلف يقدمون الكتاب والسنة ثم الإجماع ، وينتقد من يخالف ذلك من المتأخرين مقدماً الإجماع أو الاجتهاد ويشنع عليه فيقول : « ولكن طائفة من المتأخرين قالوا : يبدأ المجتهد بأن ينظر أولاً في الإجماع فإن وجده لم يلتفت إلى غيره ، وإن وجد نصاً خالفه اعتقده منسوخاً بنص لم يبلغه ، وقال بعضهم : الإجماع نسخه .

---

(١) انظر التفسير الكبير ١/١٦٣ ، ٦/٤٤٨ - ٤٥٠ .

والصواب طريقة السلف ، وذلك لأن الإجماع إذا خالفه نص فلا بد أن يكون مع الإجماع نصّ معروف به أن ذلك منسوخ ، فأمّا أن يكون النّص المحكم قد ضيعته الأمة وحفظت النّص المنسوخ فهذا لا يوجد قط ... الخ (١) .وكل ما أجمع عليه المؤمنون « فلا بد أن يكون فيه نص عن الرسول، فكل مسألة يقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فإنها مما بين الله فيه الهدى » (٢) .

ثم يذكر ما هو أعظم من ذلك طريقة أهل البدع حيث يقدمون ما ابتدعوه من الألفاظ والمعاني وما يخالفه من الكتاب والسنة يتأولونه وإلاّ عدوه من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا يدرى ما أريد بها فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً وما جاء به الرسول فرعاً له ومشكلاً إذا لم يوافقه (٣) .

ويقرر المنهج الصحيح بقوله : « فالواجب أن يجعل ما أنزل الله من الكتاب والحكمة أصلاً في جميع هذه الأمور : ثم يرد ما تكلم فيه الناس إلى ذلك ، ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتقبل ، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فتردّ» (٤) .

فإن ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعارض بقول غيره وهو لا يقول إلا الحق (٥) .

ثانياً : التثبت من صحة نص الحديث أو المنقول عن السلف رضوان الله عليهم :

يقرر ابن تيمية في عدد من كتبه أن الله حفظ هذا الدين، ومن أسباب حفظه تهيئة رجالٍ يبذلون كل شيء في مقدورهم لضبط النصوص الشرعية ، وما علماء الحديث الأفذاذ كالبخاري(٦) ومسلم (٧) وأصحاب السنن والمسانيد وشيوخ هؤلاء

---

(١) انظر الفتاوى ١٩/٢٠٠ ـ ٢٠١ وانظر أصول الفقه وابن تيمية ١/١٩٤ .

(٢) كتاب « الإيمان » ص ٣٥ .

(٣) انظر ٧ / ٣٩٣ ، وانظر التفسير الكبير ٢/٣٣ ـ ٣٥ .

(٤) التفسير الكبير ٧/٣٩٣ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٣٤٤ ، وانظر : الاستقامة ٢٧٠ ، وأيضا التفسير الكبير ٢ / ٧٥ .

(٥) انظر التفسير الكبير ٧ / ٥٦٤ ، وانظر الاستقامة ١ / ٢٢ .

(٦) هو : محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن بردزبه البخاري ، حبر الإسلام وصاحب الجامع الصحيح ، ولد في بخارى سنة ١٩٤هـ ، وسمع من نحو ألف شيخ وأكثر ، وتوفي سنة ٢٥٦هـ في ليلة عيد الفطر بَخَرْنتك وقد كان البخاري شيخاً نحيفاً متوسطاً لا بالقصير ولا بالطويل . انظر سير أعلام النبلاء ١٢/٣٩١ ، وفيات الأعيان ٤/١٨٨ ، تهذيب التهذيب ٥/٣٣ ، الأعلام ٦/٣٤ .

(٧) هو : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، ولد سنة ٢٠٤هـ بنيسابور ، توفي سنة ٢٦١ هـ بظاهر نيسابور . انظر تهذيب التهذيب ٥/٤٢٦ ، تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٨ .

من نجوم العلم وأمناء علوم الشريعة الشريفة ، إلاّ منحة ربانية لهذه الأمة يحفظون لها دينها ، ومن قبل هؤلاء سلسلة الحفاظ للقرآن والحديث من فم النبوة ، ثم بلغوه منطوقاً ومكتوباً حتى توافق نقل الرأس ونقل القرطاس ، وصدق الله العظيم :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

فهنا حقيقة وهي أن السنة المطهرة لا تشتبه بالكذب ولا تكون دليلاً على باطل مطلقاً لأن العلماء قاموا بفرز كامل للنصوص ، ودونت الكتب في بيان الأحاديث الصحيحة والضعيفة والمكذوبة .

وقد أدرك ابن تيمية كغيره من علماء السلف أن من أسباب انحراف بعض الطوائف هو اعتمادها على أحاديث مكذوبة لم يعرفوا كذبها ، فحتي يكون مسار الأمة العقدى والعلمي سليماً لا بد من معرفة الأدلة الشرعية إسناداً ومتناً ،والقرآن محفوظ الألفاظ ، فالتركيز فيه على معرفة معانيه ودلالة ألفاظه ، وأما السنة النبوية فلا بد من بذل الجهد في معرفة الصحيح من المكذوب (٢) لأنه لا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة (٣) .

ويعطينا صورة لما أدى إليه التساهل في صناعة الحديث من أضرار على الأمة حيث جهلت سنة نبيها فأدخلت عليها ما ليس فيها من غير قصد منها أحياناً ، وحيناً عن قصد فوقعت في البدع والتكفير والتناقض وما هو أعظم من ذلك ما ردوه من الدين بسبب « أحاديث تروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي كذب عليه باتفاق أهل المعرفة (٤)، يقول :« فإن طائفة ممن انتسب إلى السنة وعظم السنة والشرع وظنوا أنهم اعتصموا في هذا الباب بالكتاب والسنة ، جمعوا أحاديث وردت في الصفات منها ما هو كذب معلوم أنه كذب ، ومنها ما هو إلى الكذب أقرب ، ومنها ما هو إلى الصحة أقرب ، ومنها متردد ، وجعلوا تلك الأحاديث عقائد ، وصنفوا مصنفات، ومنهم من يكفّر من يخالف ما دلت عليه تلك الأحاديث » (٥) .

وقد اعتنى ابن تيمية في بيان الأخطاء المترتبة على إهمال « التثبت من صحة الأحاديث ودلالتها على المراد » واعتنى بذكر نماذج من كتب الكاتبين الذين غلطوا في

---

(١) سورة الحجر آية (٩) . (٢) انظر التفسير الكبير ٦/٤١٤ - ٤١٧ .
(٣) انظر الفتاوى ١/٢٥٠ . (٤) انظر مجموعة الرسائل الكبرى ١/٢٨٥ ، وانظر ٢٨٦ وما بعدها .
(٥) انظر التفسير الكبير ٦/٤١٥ - ٤١٦ .

جمع أحاديث ضعيفة وموضوعة وغلطوا غيرهم معهم (١) .

فإذاً الأمر خطير جداً لأن القول في الأحكام وأمور الإسلام بأدلة لا تعلم صحتها قول على الله بلا علم ، والقول بلا علم حرام بالنص والإجماع . ويذكر أن البعد الزمني فيما بين عصره وعصر النبوة له تأثير لأنه قد روي فيما روي عنه وعن غيره كذب كثير ، فالواجب إذن على « كل من احتج بشيء منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم فعليه أن يعلم صحته قبل أن يعتقد موجبه ويستدل به ، وإذا احتج به على غيره فعليه بيان صحته ، وإلا كان قائلاً بلا علم ، مستدلاً بلا علم ... ويذكر أن الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم حاصل بخبر النبوة فـ « قد روي عنه أنه قال : سيكذب علي (٢) ... وإن كان كذلك لم يجز لأحدٍ أن يحتج في مسألة فرعية بحديث حتى يبين ما به يثبت فكيف يحتج في مسائلِ الأصول ... » (٣) .

قال ابن الملقن في تخريج البيضاوي هذا الحديث لم أره كذلك . نعم في أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (سيكون في آخر الزمان دجالون كذابون) .

ولهذا نجده دائماً يطالب خصومه من المخالفين للصواب بإثبات صحة ما يستدلون به فيقول : « إن المستدل عليه بيان صحة الحديث »، ويقول :« ونحن لا نقنع في هذا الباب الا بأن يروى الحديث بإسنادٍ معروف » (٤) ، ويقول : « ونحن في هذا المقام ليس علينا أن نبين أن هذا كذب بل يكفينا المطالبة بصحة النقل فإن الله لم يوجب على الخلق أن يصدقوا بما لم يدلل على صدقه ، بل هذا ممتنع بالاتفاق » (٥) .

ثم يذكر لنا أن المنقول يقبل من ناقله بأحد شيئين :

١ - إسناد ما ينقله إلى ما يحتج به أهل العلم (٦) .

٢ - وإما قول رجل من أهل الحديث الذين يعتمد تصحيحهم ... فأما إذا لم يعلم إسناده ولم يثبته أئمة النقل فمن أين يُعلم ؟ (٧) .

ويشير بهذا وغيره إلى أهمية الاختصاص والرجوع إلى أهله في كل فن من الفنون

(١) انظر الفتاوى ٢٣٤/١ .
(٢) قال الملا علي القارى في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة رقم ٥٢٢ .
(٣) منهاج السنة ٦٠/٧ - ٦١ ، وانظر منهاج السنة القديم غير المحقق ٢٢٨/٢ .
(٤) منهاج السنة غير المحقق ٢٢٨/٢ .
(٥) منهاج السنة ٨٧/٧ .
(٦) منهاج السنة ٣٦/٧ .
(٧) منهاج السنة ٣٠٢/٧ .

في الحديث إلى علماء الحديث وفي التفسير إلى علماء التفسير وفي الفقه إلى علماء الفقه وفي الطب إلى علماء الطّبّ .

وجانب آخر أيضاً هو منهجي في تلقي العلوم : أخذ رأي كل عالم من قوله سماعاً أو مما كتبه وأملاه ، وأخذ رأي كل طائفة أو نحلة أو مذهب من مراجعه ومصادره المعتمدة عندهم من رجال وكتب ، ويرى أن من الأخطاء الكبيرة التي وقع بها بعض العلماء وكبار الطوائف أنهم تلقوا الأحاديث من رجال غير مؤهلين ، ومن كتب غير موثوقة ، وتركوا كتب الصحاح والسنن والمسانيد المعتبرة .

ومن الأخطاء أيضاً من يأخذ آراء العلماء والفقهاء من كتب مخالفيهم الذين ينقلون كلامهم للنقاش والردّ عليه ونحو ذلك . ولا يخفى ما في هذا من الضرر العظيم مثل ما يحدث في تقويل كلام لم يقله المنسوب إليه أو تحريف ما قاله (١) .

ثالثاً : التأكد من دلالة النصوص على المراد حين الإستدلال بها :

لم تقتصر عناية ابن تيمية على إثبات نص صحيح من السنة، بل تعدت ذلك إلى أمر مهم أيضاً وفي درجة صحة النص وهو بيان كيفية الاستدلال بالنصوص ، فأكثر المخالفين للسلف فهموا النصوص الشرعية وكلام السلف فهماً خاطئاً وتأولوها على غير تأويلها، والقرآن الكريم نصوصه ثابتة ، فكان خطؤهم من حيث الفهم ، وأما السنة فقد أخطأوا فيها من وجهين :

١ - أغلب ما يذكرونه أحاديث موضوعة .

٢ - والصحيح منها أخطأوا في فهم معناه « فالقرآن معلوم بثبوت ألفاظه فينبغي أن يعرف وجوه دلالته ، والسنة ينبغي معرفة ما ثبت منها ، وما علم أنه كذب ... » (٢) .

ونذكر عدداً من الأمثلة تصدى فيها لأقوام فهموا النصوص أو منها مفاهيم لا تدل عليها ،من ذلك : « وأما قوله : إن الخبر يدل على أنهم يرونه لا في جهة وقوله : « لا تضامون » معناه لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته فإنه لا في جهة ، فهذا تفسير للحديث بما لا يدل عليه ، ولا قاله أحد أئمة العلم ، بل هو تفسير منكر عقلاً وشرعاً ولغةً » (٣) .

---

(١) انظر مجموعة الرسائل الكبرى ١/٣٥٤ ، منهاج السنة ٦/٣٠٠ - ٣٠٣ .

(٢) انظر الاستقامة ١/٢٨٩ - ٢٩٥ ، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى ١/١٨٥ وما بعدها ، وانظر التفسير الكبير ٦/٤١٤ - ٤١٥ .

(٣) التفسير الكبير ٦/٤١٤ - ٤١٥ .

وفي الصحيح عن سهل بن سعد [١] (أن رجلاً اطلع في حجرة باب النبي صلى الله عليه وسلم ومع النبي صلى الله عليه وسلم مدرى يحك به رأسه ، فقال : لو أعلم أنك تنظر إليّ لطعنت في عينيك إنما جعل الاستئذان من أجل البصر) [٢] .

وقد ظن طائفة من العلماء أن هذا من باب دفع الصائل ، لأن الناظر معتد بنظره فيدفع كما يدفع سائر البغاة ، ولو كان الأمر كما قالوا لدفع بالأسهل فالأسهل ولم يجز قلع عينيه ابتداءاً إذا لم يذهب إلاّ بذلك ، والنصوص تخالف ذلك فإنه أباح أن تحذفه حتى تفقأ عينه قبل أمره بالانصراف ، وكذلك قوله : (لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك) فجعل نفس النظر مبيحاً للطعن في العين ، ولم يذكر الأمر له بالانصراف ، وهذا يدل على أنه من باب المعاقبة له على ذلك حيث جنى هذه الجناية على حرمة صاحب البيت فله أن يفقأ عينه » [٣] .

ومن ذلك الحديث القدسي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يقول الله تعالى : عبدي مرضت فلم تعدني ، فيقول : ربي كيف أعودك وأنت رب العالمين ... » [٤] ، فإنه لا يجوز لعاقل أن يقول : إن دلالة هذا الحديث مخالفة للعقل والسمع إلاّ يظن أنه قد دلّ على جواز المرض والجوع على الخالق سبحانه وتعالى ومن قال هذا :(فقد كذب) على الحديث (ومن قال إن هذا ظاهر الحديث) أو مدلوله أو مفهومه فقد كذب ... » [٥] .

وقد تصدى لجميع الفرق والطوائف والملل والأديان وناقش أهلها وما يستدلون به وقرر بعد نقاشات طويلة أن كل دليل يستدلون به وهو صحيح فهو دليل عليهم لا لهم وإن لم يكن صحيحاً فلا اعتبار له ، وصنف المصنفات الكاملة في ذلك [٦] .

---

(١) هو : سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن خالد بن ثعلبة ، أبوالعباس ، الخزرجي الأنصاري ، الصحابي الجليل ، آخر من مات من الصحابة في المدينة مات سنة إحدى وتسعين ، وقيل ثمان وثمانين ، قال الواقدي : عاش مائة سنة ، انظر الإصابة ٢٧٥/٤ رقم ٣٥٢٦ ، وسير أعلام النبلاء ٤٢٢/٣ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة حديث صحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أخرجه مسلم في كتاب الآداب ، باب تحريم النظر في بيت غيره ١٦٩٩/٣ .

(٣) التفسير الكبير ٣٥٥/٥ - ٣٥٦ .

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة كتاب البر والصلاة ، باب فضل عيادة المريض ، صحيح مسلم ١٩٩٠/٤ .

(٥) الدرء ١٥٠/١ ، ومثال آخر انظر الفتاوى٢٧٩/١ ، وانظر أيضاً الدرء ٣٨٤/٣، وانظر أيضاً الفتاوى ٢٥٨/١١ .

(٦) وللاستزادة انظر الفتاوى ٣٠٣/١٨ - ٣٠٥ ، ٢١٧/١ ، ١٢٢/١١ - ١٣٢ .

وقد تتبع منافذ وأبواب يلج منها المغرضون أو الغالطون والمخطئون بالتفسيرات والمعاني الباطلة المخالفة لمراد الله ورسوله وسلف الأمة فقام بإغلاقها باباً باباً ، وبيّن منابع صنعها وما جنته على أصحابها والأمة من الأضرار .

ومن المناسب أن نذكر بعض هذه الأبواب التي ولج منها على الأمة أضرار كبيرة ، أو هي أصبحت متنفساً لأهل الضلال والأهواء حينما يحشرون بقوة الحجج القرآنية النبوية من خلال النصوص فمنها :

أ : القول بالمجاز « أو تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز » :

ردّ هذا الكلام بأنه كلام حادث لم يكن معروفاً في القرون الثلاثة المفضلة ، والأئمة لا يعرفون هذا التقسيم ولا أهل اللغة ، والغالب أنه من وضع المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، وأول من عرف أنّه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه(١)، ولكن لم يقصد به ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى به ما يعبر به عن الآية (٢) ، ولم يوجد لفظ المجاز في كلام أحدٍ من علماء السلف المعتبرين إلاّ في كلام أحمد بن حنبل – رحمه الله – فقد قال في قوله تعالى : (إنا . ونحن) ونحو ذلك في القرآن : هذا من مجاز اللغة . ولكن ابن تيمية يجيب عن ذلك بقوله :« إن معنى قول أحمد: من مجاز اللغة أى : مما يجوز في اللغة أن يقول الواحد العظيم الذي له أعوان نحن فعلنا كذا ونفعل كذا ، ولم يرد أحمد بذلك أن اللفظ استعمل في غير ما وضع له» (٣) .

ويقرر أنه لا مجاز لا في اللغة العربية ولا القرآن ونفيه عن القرآن أشدّ وأقوى(٤) . ويقول إن معنى هذا التقسيم للكلام « أن يكون اللفظ قد وضع أولاً لمعنى ، ثم بعد ذلك قد يستعمل في موضعه وقد يستعمل في غير موضعه .... » (٥) .

وهذا على رأي من يجعل اللغات اصطلاحية فيدّعي أن قوماً من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على تسمية هذا بكذا وهذا بكذا ويكون هذا عاماً في كل اللغات .

ويرد هذا الرأي بقوله : « فإن ادعى مدع أنه يعلم وضعاً تقدم ذلك فهو مبطل فإن هذا لم ينقله أحد من الناس (٦) .

---

(١) مجاز القرآن .
(٢) انظر الفتاوى ٨٨/٧ وانظرالفتاوى ٤٥٢/٢ ، وكتاب الإيمان/٩٢ .
(٣) الفتاوى ٨٨/٧ – ٨٩ ، وانظر التفسير الكبير ٣٦٢/٤ ، الفتوى الحموية الكبرى /١٢٥ .
(٤) انظر الإيمان /٨٥ – ١٠٩ . (٥) انظر الفتاوى ٤٠٥/٧ . (٦) انظر كتاب الإيمان /٨٦ .

وألفاظ اللغة عنده نوعان :

الأول : نوع لا يستعمل إلاّ مقيداً بقيودٍ تميزه عن غيره كقول الصديق (١) – رضي الله عنه – « لاها الله إذ لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله يعطيك سلبه » (٢) ،قوله : « يعمد إلى أسد من أسود الله .... » وصف له بالقوة والجهاد في سبيله وقد عينه تعييناً أزال اللبس ، فلا يمكن أن يحمل بحالٍ من الأحوال على البهيمة فهو نصّ في دلالته على المعنى المراد حقيقة فيه ، والقرائن الحالية مثلها في ذلك مثل القرائن اللّفظية .

الثاني : ما يستعمل مضافاً كلفظ الرأس والظهر والكبد ، ونحو ذلك فإن هذا يختلف معناه بحسب الإضافة ، وهو حقيقة فيما أضيف إليه كما إذا قيل رأس الإنسان ، ورأس الطريق ، ورأس الشهر ، ورأس الحول ، وما إلى ذلك فإنّه حقيقة في كل ما تقدّم، ولا يقال :إنّه حقيقة في رأس الإنسان مجاز في غيره بحجة أنّه إذا أطلق وجرد عن الإضافة ينصرف إلى رأس الإنسان دون غيره فإن هذا اللفظ وما شابهه لا يستعمل مجرداً بل لا بدّ فيه من الإضافة التي تبيّن مقصود المتكلم (٣) .

وناقش أدلة القائلين بالمجاز ورد على استدلالهم ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ والمراد أهلها مجاز بالحذف أصله واسأل أهل القرية ويجيب قائلاً :« لفظ القرية ، والمدينة ، والنهر ، والميزان وأمثال هذه الأمور التى فيها الحال والمحل وكلاهما داخل في الاسم ، ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان ، وكذلك النهر ، يقال حفرت النهر ، وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ، وكذلك القرية تارة يراد بها السكان كما في الآية وكما في قوله تعالى :﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (٤)،وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ

---

(١) هو : أبوبكر عبدالله بن ابن عامر بن عمير بن كعب بن سعد ، القرشي ، أجمعت الأمة على تسميته صديقاً وهو الخليفة الأول ، ومن العشرة المبشرين بالجنة . ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر ، ومات في جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة . الإصابة ١٥٥/٦ رقم ٤٨٠٨ .

(٢) سنن أبو داود من حديث أبي قتادة ، وطرفه (خرجنا ...) كتاب الجهاد باب في السلب يعطى القاتل ١٥٩/٣ رقم الحديث ٢٧١٧ . انظر سنن أبي داود ، ط الأولى مطبعة دارالحديث حمص سورية سنة ١٣٩١هـ .

(٣) انظر كتاب الإيمان /٩٤ وما بعدها ، وانظر التفسير الكبير ٣٦٢/٤ ، وانظر ابن تيمية ومنهجه في التفسير ٧٣٥/٢ ، وانظر أيضاً ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل /٣٦٩ .

(٤) سورة الأعراف الآيات (٣ – ٤) .

الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (١) ، القرية يراد بها السكان ، وتارة يراد بها المكان كما في قوله : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾، فهذا المكان لا السكان ، فقوله :﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ مثل : قوله :(قرية كانت آمنة مطمئنة) فاللفظ هنا يراد به السكان من غير إضمار ولا حذف ، فهذا بتقدير أن يكون في اللغة مجاز فلا مجاز في القرآن (٢) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (٣) قالوا والذّلّ لا جناح له فهو مجاز بالاستعارة ....

وردّ عليهم مقرراً أن الجناح يختلف معناه بحسب الإضافة فهي التي تبين الجناح ومعناه ، والكلام ليس فيه مجاز ، فإن الجناح لا يختص بالطائر حتى يكون مخصوصاً به فـ « جناح الإنسان جانبه كما أن جناح الطير جانبه ، والولد مأمور بأن يخفض جناحه لأبويه ويكون ذلك على وجه الذلّ لهما لا على وجه الخفض الذي لا ذلّ له ، وقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ،ولم يقل جناح الذّل ، فالولد خفضه بذل والنبي صلى الله عليه وسلم بلا ذّل فاقتران ألفاظ القرآن تدل على اقتران معانيه ، وإعطاء كلّ معنى حقه» (٥) .

ولذلك إذا قلنا جناح السفر ، أو الذّل ، أو ما أشبه ذلك لا يمكن أن يفهم جناح الطائر، ولا يقال حقيقة في هذا مجاز في ذاك وإن كان يسبق إلى الفهم عند الإطلاق جناح الطائر فهذا لكثرة الاستعمال لا لأنه حقيقة فيه وغيره مجاز ، فإن ذلك يحتاج إلى تحديد الوضع اللغوي وهو متعذر .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (٦) ، ردُ على استدلالهم فيه (٧) . وقد يتصور البعض أن هذا الخلاف لفظيٌ ولا يبنى عليه أي خطورة بالنسبة للإسلام ولا شك أن هذا التصور خاطئ ، فإن القائلين بالمجاز لا بدّ لهم من تخريج

---

(١) سورة محمد آية (١٣) . (٢) كتاب الإيمان /١٠٩ ، وانظر ابن تيمية ومنهجه في التفسير ٢/٧٣٧ .
(٣) سورة الإسراء آية (٢٤) . (٤) سورة الشعراء آية (٢١٥) .
(٥) الفتاوى ٢/٤٦٥ ، وانظر ابن تيمية ومنهجه في التفسير ٢/٧٣٩ .
(٦) سورة مريم آية (٤) . (٧) انظر الفتاوى ٢/٤٦٤ وما بعدها .

النصوص الشرعية إلى المجاز الذي يرونه أو قد عرف القول بالمجاز من قبل نفاة الصفات من المعتزلة فلا يعرف من قال به قبل أبي هاشم الجبائي (١) تلميذ أبي علي الجبائي (٢) شيخ المعتزلة (٣) .

فالمعتزلة ينفون الصفات عن الله سبحانه يؤولونها ، فكثير من القائلين بالمجاز ينفي عن الله ما وصف به نفسه ويلحد في أسمائه وآياته فهذا سبب وجيه لابن تيمية في العناية بهذا المبحث والتشدد في ردّ المجاز .

إذن الخلاف ليس خلافاً لفظياً ،ونسوق بعض الأمثلة الموضحة، قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ.. ﴾ (٤) ، قالوا : مجاز بالحذف : أي جاء أمره ، ويرد هذا بأنه مجيء حقيقيّ يليق بذاته .

وأيضاً لفظ « اليد » في قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٥)، وقوله ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٧)، فهم قالوا إنها حقيقة في اليد الجارحة للإنسان والحيوان مجاز في النعمة والقدرة وهي في هذه الآيات محمولة على المعنى المجازي ، ويرد عليهم بأن لله يداً حقيقية تليق بذاته (٨) .

فالخلاف متصل بالعقيدة وهي من أصول الإسلام . ويورد ابن تيمية بعضاً من أقوالهم في مجال الصفات فيقول : « وإن كان المخاطب من الغلاة نفاة الأسماء والصفات » ، وقال : « لا أقول هو موجود ولا حيّ ولا عليم ولا قدير بل هذه الأسماء لمخلوقاته أو هي مجاز » (٩) ، ويقول : « وينازع في محبته ورضاه وغضبه وكراهيته فيجعل ذلك مجازاً ويفسره إما بالإرادة ، وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات ... » (١٠) .

---

(١) هو : عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب بن سلام بن خالد ابن حمران بن أبان ، مولى عثمان بن عفان، سكن بغداد إلى حين وفاته ، وهو من شيوخ المعتزلة ومن كبار الأذكياء ، ومصنف الكتب على مذهبهم ، ولد سنة (٢٧٧هـ) ، وتوفي في رجب سنة (٣٢١هـ) . انظر: وفيات الأعيان ١٨٣/٣ رقم ٣٨٣ ، وسير أعلام النبلاء ٦٣/١٥ .

(٢) هو : محمد بن عبدالوهاب والد أبي هاشم الجبائي السابق الترجمة ، وأبو علي يعد رأسا في المعتزلة ، وكان متوسعاً في العلم سيال الذهن وله مصنفات في علم الكلام والتفسير وغيرهما . ولد سنة (٢٣٥هـ) ، وتوفى في شعبان سنة (٣٠٣هـ) . انظر : وفيات الأعيان ٢٦٧/٤ رقم ٦٠٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٨٣/٤ .

(٣) انظر كتاب الإيمان /٨٦ . (٤) سورة الفجر آية (٢٢) . (٥) سورة ص آية (٧٥) .

(٦) سورة المائدة آية (٦٤) . (٧) سورة الفتح آية (١٠) .

(٨) انظر الرسالة المدنية تحقيق الوليد الفريان / ٤٩ ـ ٥٢ . (٩) التدمرية / ٣٦ . (١٠) التدمرية / ٣٠ .

وإذا كان لا بدّ من القول بالمجاز فلا بد من الشروط لكي يتم الانتقال من الحقيقة إلى المجاز المنافي لها أو إلى الانتقال الباطن المخالف للظاهر ، وهي أربعة:

أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل في المعنى المجازي فلا بدّ أن يكون المعنى المجازي يراد به اللفظ وإلاّ فيمكن تفسيره تفسيراً باطلاً وإن لم يكن له أصل في اللغة .

الثاني : أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه .

الثالث : أنه لا بدّ أن يسلم ذلك الدّليل الصارف عن معارض .

الرابع : أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلامٍ وأراد خلاف ظاهره وضدّ حقيقته وأنه أراد بجوازه سواء عينه أو لم يعينه (١) .

ب : التأويل والمتشابه :

بيّن ابن تيمية اشتقاق الكلمة ليعلم دلالتها الأصلية فيقول : « التأويل : مصدر أوّله يؤوله تأويلاً مثل حوّل تحويلاً وعوّل تعويلاً ، وقولهم : آل يؤول أي : عاد إلى كذا ورجع إليه ، ومنه المآل وهو ما يؤول إليه الشيء .... فتأويل الكلام : ما أوله إليه المتكلم ، أو ما يؤول إليه الكلام أو ما تأوله المتكلم ... والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول إلى حقيقته التي هي عين المقصود به كما قال بعض السلف في قوله : ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (٢) ، قال حقيقته ، فإنه إن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع . ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول ..» (٣) .

والتأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم : «صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به » . والمتأول عليه وظيفتان : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر (٤) .

وللتأويل عند السلف معنيان :

أحدهما : تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً ، أو مترادفاً ،وهذا – والله أعلم – هو الذي عناه مجاهد (٥)

---

(١) انظر الرسالة المدنية بتحقيق الوليد /٤٠ – ٤١ .
(٢) سورة الأنعام آية (٦٧) .
(٣) التفسير الكبير ١١٢/٢ – ١١٤ .
(٤) التفسير الكبير ١٠٨/٢ .
(٥) هو : مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي ، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ، وقيل غير ذلك، تابعي كان شيخ القراء والمفسرين في عصره ، وكان أسود . أخذ التفسير عن ابن عباس ، قرأه عليه ثلاث مرات .. ولد بمكه سنة ٢١هـ ،توفى سنة ١٠٣هـ وقيل ١٠٤هـ بمكه وكان ساجداً . انظر تذكرة الحفاظ ٩٢/١ ، سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٤.

أن العلماء يعلمون تأويله .

والثاني : في لفظ السلف – وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً – هو نفس المراد بالكلام فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به ... وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها، وضرب الأمثلة مما ورد في القرآن من لفظ التأويل [1] كقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي .. ﴾ [4] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [5] .

وقال سبحانه : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .. ﴾ [6] .

كما عند قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [7] .

وسبب الاختلاف في لفظ التأويل في القرآن راجع إلى « أن لفظ التأويل فيه اشتراك بين ما عناه الله في القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف ، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين ، فبسبب الاشتراك في لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن » [8] .

---

(١) انظر التدمرية /٩٠ – ٩١ والرسالة المدنية /٢٧ وما بعدها .
(٢) تمامها ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة يوسف آية (٦) .
(٣) بدايتها ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ... ﴾ سورة يوسف آية (٣٦) .
(٤) تمامها ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ سورة يوسف آية (٣٧) .
(٥) سورة يوسف آية (٤٤ – ٤٥) . (٦) سورة يوسف آية (١٠٠) .
(٧) سورة النساء آية (٥٩) . (٨) التفسير الكبير ١٠٥/٢ ، وانظر ١٠٨ – ١١٢ ، وانظر ٤٣٩/٧ .

وليس في كتاب الله عز وجل متشابه لا يعلم معناه وتأويله بمعنى تفسيره ، والتشابه أمر نسبي فما كان متشابهاً عند شخص لا يكون كذلك عند آخر .

وقرر أن الاختلاف بين الصحابة والتابعين في معاني القرآن قليل جداً وأكثر الاختلاف هو اختلاف تنوع لا تضاد (١) .

والسلف يذمون التأويل الذي هو صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر بغير قرينة (٢) .أما التأويل الذي هو معرفة معاني ألفاظ القرآن ومنه الصّفات ، فهم يقرون به ، وآيات الأسماء والصّفات ليست من المتاشبه (٣) .والإمام أحمد في كتابه «الردّ على الزنادقة والجهميّة » بيّن أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله ،وتكلّم على ذلك المتشابه وبيّن معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية كما سار عليه سلف الأمة قبله (٤) .

و « نفي التأويل ليس نفياً لعلم المعنى » (٥) ،وذم السّلف للذين يتبعون المتشابه إنما ينصب على الذين مرادهم الفتنة كحال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن كحال صبيغ ونحوه (٦) ،وليس الاسترشاد والاستفهام ... (٧) .

يقول – رحمه الله – :« وأما من سأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبهة وهو عالم بالمحكم يتبع له ... فهذا لم يذمه الله » (٨) .

وقرر في عددٍ من المواضع أن لفظ التأويل من الألفاظ المشتركة المجملة وأن له عدة معاني ، فلا الذين نفوه مطلقاً ، ولا الذين أثبتوه مطلقاً مصيبون ولا بد من الاستفسار (٩) .

وابن تيمية – رحمه الله – أكثر من الكلام في هذه الألفاظ والمصطلحات وأبدى قلقه الشديد نحو مفاهيم التصقت بها فجرد كل قواه لتقرير الحق وبيانه وإبعاد ما اكتنفها

---

(١) انظر الفتاوى ٣٣٢/١٣ – ٣٣٣ .
(٢) انظر التفسير الكبير ١١٧/٢ ، وانظر ٤٧٣/٧ .
(٣) انظر التفسير الكبير ١١٥/٢ .
(٤) انظر التفسير الكبير ٩٤/٢ – ١٠٤ – ١١٦، وانظر ٢٥٢/١ ، وانظر التدمرية/١٢ ، وانظر التفسير الكبير ٤٨٥/٧ .
(٥) التفسير الكبير ١٢٩/٢ .
(٦) انظر التفسير الكبير ٤٦٧/٧ ، ١٣٥/٢ .
(٧) انظر التفسير الكبير ٩٤/٢ – ١٣٥ .
(٨) التفسير الكبير ٤٦٧/٧ .
(٩) انظر التفسير الكبير ١٠٥/٢ ، والتدمرية/ ٩٠ – ٩١ ، وانظر التفسير الكبير ٣٩٥/٦ .

من المعاني الباطلة ،ولمزيد من الإيضاح نـذكر السبب وراء كل هذا الاهتمام : فقد وجد أن التأويـل ملجـأ لكل أحـد يتستر بـه من اللوازم التي تلزمــه نتيجة لمخالفتـه للنصوص الشرعية .

يقـول – رحمه اللـه – : « إنا وجدنـا هؤلاء كلهـم لايحتج عـليهـم بنص يخـالف قولهم لا في مسألةٍ أصلية ، ولا فرعية إلاّ تأولوا ذلـك النص بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه » (١) .

ويقـول : « ولهـذا صار كل مـن أعرض عـن آيات لا يؤمـن بمعـناهـا يجعـلهـا من المتشابه بمجرد دعواه » (٢) ، وهذا المنهـج في التأويل ذمّه السلف ولم يقل به أحـد منهم مطلقاً وكذلك أهل كـل عصرٍ بعدهم ، ولم ينقل هذا التأويل إلاّ عـن مبتدعٍ أو منسوبٍ إلى بـدعةٍ (٣) وليـس في القـرآن شيء لا يعـلم معنـاه وتفسـيره ،و القـول بضد ذلـك له خطورته.

ولكـنه يشيـر إلى مسألـة قد تكون مـوضع إشكـالٍ حيث يذكـر أنه قد يكـون في القرآن آيات لا يعلمها كثير من العلمـاء ... بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا وذلك : تارة لغرابة اللـفظ ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره ، وتارة لشبهة في نفس الإنـسان تمنعه من معرفة الحق » (٤) .

أما عموم القرآن لأكثر الـعلماء فهو معلوم المعاني لأن « النبي صلـى الله عليه وسلم بيّن لأصحـابه معاني القـرآن كما بيّن لهم ألـفاظه فقوله تـعالـى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٥) يتناول هذا وهذا ... ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك » (٦) .

ويقـرر – رحمه اللـه تعالى – أن الـذين قالوا بـالتأويل الـباطل احتـاجوا إليه لأنـهم أخطأوا فـي التأويل علـى النصوص حيث لم يعطـوهـا حقهـا مـن الـدلالـة فاحتـاجـت عنـدهـم إلـــى التأويــل ، فيقول في ردّه عـلى الذين يجـعلون ظاهـر النصوص يقـتضي التمـثيل : « يخـلطـون مــن وجهين : تـارة يجعلـون المعنى الـفاسد ظاهـر اللفظ حتى يجعلوه محتاجاً إلى تأويلٍ يخالف الظاهر ولا يكون كذلك .

---

(١) التفسير الكبير ٧/٤٨٣ – ٤٨٥ – ٥٠١ – ٥١١ ، وانظرالفتاوى ١٩/٧٢ – ١٥٦ .
(٢) التفسير الكبير ٧/٤٧٠ .
(٣) انظر كتاب ذم التأويل لموفق الدين ابن قدامة المقدسي /٤٠ .
(٤) التفسير الكبير ٧/٤٧٢ . (٥) سورة النحل آية (٤٤) . (٦) الفتاوى ١٣/٣٣١ – ٣٣٢ .

وتارة يردون المعنى الحق الذى هو ظاهر اللفظ لاعتقادهم أنه باطل [ثم ذكر حديث : (عبدي جعت فلم تطعمني ....) [١] ،والأثر (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) [٢] وحديث :(قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن) [٣]] فقالوا : قد علم أن ليس في قلوبنا أصابع الحق .

فيقال لهم : لو أعطيتم النصوص حقها من الدلالة لعلمتم أنها لا تدل إلاّ على حق] ثم أخذ في بيان ذلك] [٤] .

وقال الإمام أحمد : أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس ، فالتأويل في الأدلة السمعية ، والقياس في الأدلة العقلية وهو كما قال » [٥] .

ونختم حديثنا في هذه المسألة بالمنهج الذي وضعه ابن تيمية لـلتخلص من التأويلات الخاطئة والوصول إلى معرفة معنى ما يظن أنه متشابه فيقول : « ... الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ويتدبر معناه ويعقل ، ويعرف برهانه ودليله ، إما العقلي وإما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، وتجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ يحتمل كذا وكذا فإن أرادوا بها مايوافق خبر الرسول قُبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رُدّ» [٦].

والقرآن والسنة ، إذا أردنا التلقي منهما فلا بد من اعتبار لغة القرآن ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم ولغة الصحابة الذين نزل فيهم والنبي بينهم ، وكذلك مراعاة مقاصد السلف في استعمال المصطلحات الشرعية التي نريد تلقيها عنهم ... [٧] .

رابعاً : النظرة الشمولية للنصوص عند الاستدلال :

من أعظم أسباب تفرق الأمة في عقائدها وتصوراتها وبناء أحكامها هو : عدم الجمع بين النصوص في المسألة الواحدة ،ففي النصوص : وعد ووعيد ، وحبّ وبغض ورضى وغضب ، وخوف ورجاء ،وإسلام وإيمان، وكفر ونفاق، وأمر ونهي ،ووصف

---

(١) صحيح مسلم ١٩٩٠/٤ رقم ٢٥٦٩ كتاب البر والصلة والأدب باب ١٣ .

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه ٣٢٨/٦ ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير ١١٠/٣ .

(٣) أخرجه مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، كتاب القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء. صحيح مسلم ٢٠٤٥/٤ .

(٤) التدمرية /٦٩ . (٥) التدمرية /١٠٧ .

(٦) التفسير الكبير ٢٥٥/١ .

(٧) انظر الفتاوى ٤٣/١ - ٤٤ - ٦٧ ، وكتاب الإيمان /١١٠ ، وانظر الفتاوى ٣٥١/١٧ .

بصفات ومنع من صفات وتنزيه الخالق عنها ، ومن لم يجمع بين هذه النصوص فقد ضرب بعضها ببعض وعارض بعضها ببعض ،ومن هنا نشأ الغلط فعارضوا من خالفهم بالنصوص وعارضهم من خالفهم بالنصوص أيضاً ، وأصبح كل من المتعارضين يعارض صاحبه بأدلة صحيحة ، فظهرت المرجئة ، والوعيدية ، والقدرية ، وظهرت الأشاعرة والمعتزلة ، وظهر أهل الحلول والاتحاد ، وكلهم ركب شططاً وسلك مسلكاً غلطاً « وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما في مسائل الأحكام مثل ذلك ما تقدم في الأصول الخمسة ...

وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ومن سلك مسلكهم كأبي الحسن الأشعري [1] ، وأصحابه فإنهم ناقضوهم في الأصول الخمسة ، وكان عندهم علم ليس عند أولئك ، وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء ،وكل من الطائفتين لم تحط علماً بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور بل علموا بعضاً وجهلوا بعضاً » [2] .

وأهل الرحمة هم من يأخذ بما جاء به الرسول كله غير مؤمن ببعض وكافر ببعض .

يقول – رحمه الله – :« فكلا الطائفتين معها حق وباطل ولم يستوعب الحقّ إلا من اتبع المهاجرين والأنصار وآمن بما جا به الرسول كله على وجهه، لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهؤلاء هم أهل الرحمة بخلاف أولئك المختلفين ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [3] [4] .

ومن الواجب على المتنازعين ألا يرد أحد منهم دليل الآخر إذا كان صحيحاً سنداً ومعنى لأنه إذا فعل ذلك ردّ الحق المنزل « فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج به صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وهذا حال أهل الأهواء هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب ، وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الأقوال » [5] .

---

(١) هو : علي بن إسماعيل بن إسحاق أبوإسحاق ،من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة سنة ٢٦٠هـ ، وكان معتزلياً ثم تحول عن الاعتزال بالمسجد الجامع بالبصرة.. توفي سنة ٣٢٦هـ وقيل ٣٣٠هـ بالبصرة . انظر وفيات الأعيان ٢٨٤/٣ ، سير أعلام النبلاء ٨٥/١٥ ، الأعلام ٢٦٣/٤ .

(٢) التفسير الكبير ٢٣٢/١ .

(٣) سورة هود آية (١١٨) .

(٤) التفسير الكبير ٢٣٦/١ – ٢٣٧ .

(٥) التفسير الكبير ٣١/٢ .

ولهذا يفسر اختلاف بعض الناس إلى طوائف في أمرٍ من أمور الإسلام، فمثلاً انقسام الناس بين الاستعانة والعبادة إلى أربعة أقسام :

قسم يغلب عليه قصد التأله ولا يعرف قضاءه وقدره ويكون منقوصاً من جانب الاستعانة والتوكل .

وقسم يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتوكل ولكنه منقوض من جانب العبادة والإخلاص ، وقسم معرض عن الوجهين (١) .

ويذكر في عددٍ من المواضع المنهج في هذه المسألة فيقول : « لكن التحقيق الجمع بين نصوص الوعد والوعيد ، وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها ، كما يجمع بين نصوص الأمر والنهي من غير تبديل شيء منها » (٢) ، ويقول :« والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعيد « والحرورية والمعتزلة » أرادوا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد ، وكلاهما أخطأ ،والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد » (٣) .

ويعلل سبب وقوع هذا الاختلاف بقوله :« وأكثر ما يكون ذلك : لوقوع المنازعة في الشيء قبل إحكامه ، وجمع حواشيه وأطرافه، ولهذا قال (٤) : ما عرفتم منه فاعملوا به وماجهلتم منه فردوه إلى عالمه » (٥) .

ونموذج لهذا المنهج ذكره في مسألة التفضيل بين « الفقير الصابر والغني الشاكر »، فقال من ضمن الإجابة : « ونصوص النبي صلى الله عليه وسلم معتدلة » ،ثمّ أورد النصوص التي فيها تفضيل للأغنياء والنصوص التي فيها تفضيل للفقراء وما يتعلّق بهذا وهذا في أمور الدنيا والآخرة ويجمع بينها ويخرج النتائج (٦) .

وكذلك تكلم عن النصوص التي وردت في ذم الملك والنصوص التي وردت بلزوم الولاة ، فذكر أن الواجب الجمع بين النصوص وتخليص المحمود من ذلك

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣٠٤/٢ - ٣٠٦ ، وانظر ١٣٨/٥ .

(٢) التفسير الكبير ٢٤٩/٤ الفتاوى ٤٩٦/١٤ . (٣) الفتاوى ٢٧٠/٨ .

(٤) أي الرسول صلى الله عليه وسلم والحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمذكور هنا طرف من الحديث وهو أطول مما هنا انظر المسند ١٨١/٢ .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم /٤٣ .

(٦) انظر الفتاوى ١٢٢/١١ - ١٣٢ .

والمذموم[1] . وكذلك النصوص التي تأمر بالسمع والطاعة للولاة وعدم الخروج عليهم والنصوص التي تأمر بالنصيحة لهم فإنها من الدين ، وأن من قتلوه من أجل ذلك فهو من سادة الشهداء . إضافة إلى نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذه النظرة الشمولية والجمع للأقوال لا تقتصر في نظر شيخنا على أقوال الله وأقوال رسوله، بل يلتزم أيضاً الجمع بين أقوال السلف في تفسير القرآن وغيره « وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً ، فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين »[2] .

ويورد – رحمه الله – حكاية تصلح لأن تكون نموذجاً تطبيقياً لبعض ما ذكره قال : « حكاية عن بعض أهل السنة أنه كان في مجلس فيه عمرو بن عبيد[3] شيخ المعتزلة فقال عمرو : يؤتى بي يوم القيامة فيقال لي : يا عمرو من أين قلت : إني لا أغفر لقاتل ؟ فأقول أنت يارب قلت : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا ﴾[4] قال : فقلت له : فإن قال لك : فإني قلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[5] فمن أين علمت أني لا أشاء أن أغفر لهذا ؟ فسكت عمرو بن عبيد »[6] .

وللوصول إلى هذا المنهج الراشد لا بد من التخلي عن الأهواء والإقبال على النصوص بفكر خالٍ من المقررات السابقة والأحكام الجاهزة ، وتلقي ذلك ابتداءً من النصوص بعد إحكامها وجمع حواشيها وأطرافها . وهذا هو منهج السلف الصالح فكانوا وسطاً بين طوائف الأمة[7] .

واعتنى – رحمه الله – بالنصوص التي يظنّ أنها متعارضة فجمع بينها وأزال ما توهمه الناس من التعارض لأنه يقرّر أن الأدلة الصحيحة لا تتعارض سواء كانت الأدلة الشرعية مع بعضها أو العقلية مع بعضها ، أو هذه مع هذه وإن وجد فيها شيء من

---

(١) انظر الفتاوى ١٨/٣٥ – ٢٤ . (٢) التفسير الكبير ٢/٢٠٧ .

(٣) هو : عمرو بن عبيد بن باب – المتكلم المشهور أبوعثمان جده باب من سبي كابل من جبال السند وعمرو بن عبيد من تابعي التابعين ، وهو تلميذ لواصل بن عطاء مؤسس مذهب المعتزلة ، كان داعية إلى بدعته جماعة مع أنه كان عابداً ، ولد سنة (٨٠هـ) ، وتوفي سنة (١٤٤هـ) وقيل قبلها . انظر وفيات الأعيان ٣/٤٦٠ رقم ٥٠٣ ، وسير أعلام النبلاء ٦/١٠٤ .

(٤) سورة النساء آية (٩٣) . (٥) سورة النساء آية (٤٨) .

(٦) الفتاوى ٣٤/١٣٧ . (٧) انظر التفسير الكبير ١/١٦٠ – ١٦٤ .

التعارض مع صحتها من غير نسخ فالتعارض في أذهان وعقول من ادعاه .

ومن الأمثلة على ذلك قوله في التوبة وأنها لازمة لكل أحد قال: « ويثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لن يدخل الجنة أحد بعمل ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ) (١). وهذا لا ينافي قوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (٢) ، فإن الرسول نفى باء المقابلة والمساءلة والقرآن أثبت باء السبب ...(٣) .

خامساً : الاستدلال بما نقل عن السلف الصالح :

القرون المفضلة الثلاثة كما في نصّ الحديث (٤) هي غرة جبين الأمة ودرتها، وفي مقدمة القرن الأول الخلفاء الراشدون الأربعه وهم الذين تربّوا على عين نبي هذه الأمّة يرعاهم صباحاً ومساءً ويعلمه ربّه بما خفي عليه من أحوالهم لأنهم هم القاعدة الصلبة والأساس المتين لتكوين هذه الأمة حتى وصلوا إلى مرحلة – رضى الله عنهم بها ورضوا عنه ، وابن تيمية لزم منهجهم في كل شيء لأنه يرى « أن معرفة مراد الرسول صلى الله عليه وسلم – ومراد الصحابة هو أصل العلم وينبوع الهدى » (٥) .

وكان ابن تيمية قمة في العلم والهدى بسبب ذلك حيث قال عنه ، صاحب العقود الدرية :« قال الذهبي (٦) .. وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين (٧) .

ولأنه لا يرى طريقاً أفضل من طريقهم ومن قال بغير ذلك فهو مخطئ ضال مبتدع (٨) .

ويرى أن علماء الإسلام يتبعون أصولاً ثلاثة في إثبات الأحكام الشرعية لا يجوز إثبات حكمٍ شرعي بدونها واحد منها سبيل السابقين الأولين ، والأخرى كتاب الله – عز وجل – وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (٩) .

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لم يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله تعالي . صحيح مسلم ٢١٦٩/٤ .

(٢) سورة الحاقة آية (٢٤) .

(٣) الفتاوى ٢٥٦/١١ ، وانظر أيضاً للاستزادة١٢٢/١١ – ١٣٢ .

(٤) انظر التفسير الكبير ١١٣/١ .

(٥) ٤١٣/٥ .

(٦) انظر ترجمته في الباب الرابع .

(٧) العقود الدرية /١١٦ .

(٨) الصوفية والفقراء /٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٩) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٣٤٤ – ٣٧٢ .

وقال : « ولهذا قال الأئمة – كأحمد بن حنبل وغيره – أصول السنة هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. » (1) .

ويقول :« وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين كما أن لهم معرفة بأمور السنة وأحوال الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله مما يستدلون به على مراده ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك وطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس » (2) .

وقال : الصحابة أعلم الأمة وأفقهها وأدينها ولهذا أحسن الشافعي – رحمه الله – في قوله : « هم فوقنا في كل علمٍ وفقهٍ ودينٍ وهدى ، وفي كل سبب ينال به علم وهدى ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا » « أو كلاماً هذا معناه » (3) .

ويقول : « فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم ، وهم خير الناس بعد الأنبياء فإن أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – خير أمة أخرجت للناس ، وأولئك خير أمة محمد كما ثبت في الصحاح من غير وجهٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يليه ، ثم الذين يليه) (4) ،ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين ، وأعمالهم كالتفسير وأصول الدين وفروعه ،والزّهد ، والعبادة ، والأخلاق ،والجهاد ، وغير ذلك ،فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة ، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يُذْكر من إجماع غيرهم ونزاعهم ... » (5) .

ويقول : « والكذب كان قليلاً في السلف أما الصحابة فلم يعرف فيهم – والحمد لله – من تعمد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما لم يعرف فيهم من كان

---

(1) التفسير الكبير ٥/٩٥ ، منهاج السنة ٦/٨١ .

(2) الفتاوى ١٩/٢٠٠ ، وانظر منهاج السنة ٦/٨٠ ، وانظر دقائق التفسير ٦/٤٢٦ .

(3) منهاج السنة ٦/٨١ .

(4) متفق عليه عن عمران بن حصين رضي الله عنه أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . فتح الباري ٧/٣ . ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة صحيح مسلم ٤/١٩٦٤

(5) التفسير الكبير ١/١١٣ – ١١٤.

من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج (١) والرافضة (٢) والقدرية (٣) والمرجئة (٤) ، فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق ، ولا كان فيهم من قال إنه أتاه الخضر .. وكان الصحابة أعلم من أن يروج عليهم هذا التلبيس ... وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس ، بل في الصحابة من قد يغلط أحياناً وفيمن بعدهم (٥) .

ويقول : « ولكن أهل السنة متفقون على عدالة الصحابة » (٦) .

---

(١) الخوارج : سموا بهذا الاسم لخروجهم على الإمام علي رضي الله عنه ، ونزلوا بأرض يقال لها حروراء فسموا بالحرورية وهم الذين يكفرون أصحاب الكبائر ويقولون بأنهم مخلدون في النار ، كما يقولون بالخروج على أئمة الجور ، وأن الإمامة جائزة في غير قريش وهم يكفرون عثمان وعلياً وطلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم ويعظمون أبابكر وعمر رضى الله عنهما ، انظر : الفصل في الملل والنحل ١١٣/٢ ، والملل والنحل للشهرستاني ١٥٤/١ .

(٢) الرافضة : سموا بذلك لرفضهم زيد بن علي حينما توجه لقتال هشام بن عبدالملك فقال أصحابه : تبرأ من الشيخين حتى نكون معك ، فقال : لا بل أتولاهما وأتبرأ ممن تبرأ منهما. فقالوا : إذا رفضناك ، فسميت بالرافضة ، وهم يثبتون الإمامة عقلاً وأن امامة علي وتقديمه ثابت نصاً ، وأن الأئمة معصومون وقالوا بتفضيل علي على سائر الصحابة وتبرأوا من أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة ، ويقولون برجعة الأموات وأن الأمة ارتدت بتركها إمامة على رضى الله عنه ، انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين /٧٧ - ٧٨ ، رسالة في الرد على الرافضة /٦٥ - ٦٧ .

(٣) القدرية : سموا بذلك لقولهم في القدر ، يقولون العبد يخلق فعله استقلالاً فأثبتوا خالقاً مع الله ولهذا أسماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة « لأن المجوس قالوا بإثبات خالقين : النور والظلمة» وهم يزعمون أن الله لا يقدر على مقدورات غيره وهذا هو مذهب المعتزلة في القدر ، انظر : الملل والنحل للشهرستاني ٥٤/١ . البرهان في عقائد أهل الأديان /٢٦ - ٢٧ .

(٤) المرجئة : ثلاثة أصناف : الأول : الذين يقولون : الإيمان مجرد ما في القلب . الثاني : من يقول : هو مجرد قول اللسان . وهذا قول الكرامية . الثالث : من يقول : هو تصديق القلب وقول اللسان . وهم يقولون : لا يضر مع الإيمان ذنب . فهم يؤخرون العمل عَنْ الإيمان ، أي أنهم يجعلون مدار الإيمان على المعرفة بالله والمحبة له والإقرار بوحدانيته ، ولا يجعلون هذا الإيمان مرتبطاً بالعمل ، وأكثر المرجئة يرون أن الإيمان لا يتبعض ولا يزيد ولا ينقص وبعضهم يقول : إن أهل القبلة لن يدخلوا النار مهما فعلوا من المعاصي . انظر الملل والنحل ٢٥٧/١ - ٢٧٦ الفرق بين الفرق لابن طاهر البغدادي / ١٢٢- ١٢٥ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد طبعة صبيح ، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٢٠٤/٤ - ٢٠٥ المطبعة الأدبية القاهرة سنة ١٣٥٣هـ ، التدمرية /١٨٩.

(٥) الفتاوى ٢٤٩/١ - ٢٥٠ .

(٦) الفتاوى ٥٤/٣٥ .

ويقـول : « وأما التـابعون : فـلم يعـرف تعمد الـكذب في الـتابعـين من أهل مـكة والمدينة والشـام والبـصرة ، بخـلاف الشيـعة فـإن الكذب مـعروف فيـهم ، وقـد عرف الكذب بعد هؤلاء في طوائف » [1] .

ويقـول : « ... إذ السابـقـون الأولـون والتـابعـون لـهـم بإحسـان أفضـل مـن المتأخـرين في كل شيء ... ولكـن يفعـل المسلم من ذلـك مـا يقـدر عـليـه كمـا قـال تعالـى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [2] ،وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا أمرتكـم بأمرٍ فأتـوا منـه مـا استطعتم) [3] » [4] .

ومن ترك سبيل الصحـابة والتابعين وعدل عن مذهبهم « وتفسـيرهم إلى ما يخالف ذلك كـان مخطئاً في ذلـك بل مبـتدعاً ، وإن كان مـجتهـداً مغفـوراً له خـطأه » [5] . وقـال: « ومـن خالف قولهم وفسـر الـقرآن بخـلاف تفسيرهم فـقـد أخطأ في الـدليـل والمدلـول جميعاً» [6] .

ويقرر أن أقوال السلف يـلزم ذكرها وإن كان فيها قول ضعيف فالحـجة تبين ضعفه ولا نترك قولهم لأنه وافق قول طائفة من المبتدعـة ، ويجعل قول السلف ميزاناً فما خالفه فهو من الأقوال المحدثة [7] لأنه لم يعرف عنهم [8].

والقرب من أقوالهـم وهديهم علامة فضلية « فـكل ما كان إلى هداهم أقرب فهو المفضل ، وكل ما خالـف ذلك فهو المخالف ... » [9] .ويقول :« فكلمـا كان الرجل إلى السّلف والأئمة أقرب كـان قوله أعلى وأفضل [10] . وقال تعالى :﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [11] .

فرضي عمن اتبع السّابقين إلى يوم القيـامة ، فدل على أن متابعهم عـامل بما يرضي الله ، والـله لا يرضى إلا بـالحق لا بالبـاطل » [12] ، لذا نـراه مثلاً : يرد عـلى من خـالف

---

(1) الفتاوى ٢٤٩/١ . (2) سورة التغابن آية (١٦) .
(3) أخرجه البخاري فتح الباري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومسلم ٩٧٥/٢ ، كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر .
(4) الاستقامة ٣٣١/١ . (5) التفسير الكبير ٢٢٨/٢ .
(6) التفسير الكبير ٢٢٩/٢ . (7) انظر التفسير الكبير ١٢/٣ .
(8) انظر التفسير الكبير ١٦١/٥ . (9) اقتضاء الصراط المستقيم/ ١٦٨ .
(10) التدمرية/ ١٩٢ . (11) سورة التوبة آية (١٠٠) . (12) الفتاوى ١٧٨/١٩ .

السلف في عدم إثبات تفاضل الصفات بقوله : « وكل قولٍ سوى قول السلف والأئمة في هذا الباب فهو خطأ متناقض .... » [1] .

ثم إنه رأى من واجبه أن يسعى لتنقية مذهب السلف مما ينسب إليه كذباً وافتراءً أو ينسب ظناً أنهم قالوه ولم يكن الأمر كذلك ، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتبه من ذلك ونذكر بعض النماذج لهذا :

يقول : « والله يعلم أني بعد البحث التّام ، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ما رأيت كلام أحد منهم يدل – لا نصاً ولا ظاهراً ولا بالقرائن – على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر » [2] .

وذكر طائفة من العلماء يوافقون ابن كلاب [3] على قوله في كلام الله والقرآن ظانّين أنه قول السلف فقال : « ولكن الذين ظنوا أن قول ابن كلاب وأتباعه هو مذهب السلف ... ولم يعلموا أن السلف لم يقل أحد منهم بهذا بل أنكروا على ابن كلاب هذا الأصل ... » [4] .

وخَطَّأ من نقل الإجماع عن أهل السنة بعدم تفاضل القرآن بعضه على بعض وقال : « وهذا النقل للإجماع هو بحسب ما ظنه لازماً لأهل السنة ... وإلا فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه أنكر فضل كلام الله بعضه على بعض » [5] ، وقال مثل ذلك في تفاضل الصفات [6].

وحول مسألة ذات أهمية بالغةٍ وهي أننا نجد أقوالاً تنسب إلى أهل السّنة من سلف الأمّة الصالحين والتابعين لهم بإحسان وهم لا يقولونها فلماذا يحدث هذا ؟ يجيب ابن تيمية على هذا بقوله : « ... إذا اشتهر القول عند طائفة لم يعلموا غيره عن أهل السنة

---

(١) التفسير الكبير ٧/٢٤٢ .

(٢) الفتاوى ٥/١٠٩ ، وانظر الدرء ٤/٢٤ .

(٣) هو : عبدالله بن سعيد بن كلاب القطان البصري صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة ، وكان يلقب كُلاّباً لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته ، وأصحابه هم الكلابية ، وكان رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه ، وقيل سمي كلاباً لأنه كان يجتذب الناس إلى معتقده إذا ناظر عليه كما تجتذب الكلاب الشيء .. توفي سنة ٢٤٥هـ بالبصرة . انظر سير أعلام النبلاء ١١/١٧٤ ، الأعلام ٤/٩٠ .

(٤) التفسير الكبير ٧/١٦٠ . (٥) التفسير الكبير ٧/١٧٤٦ .

(٦) انظر التفسير الكبير ٧/١٧٩ .

ظنوا أنه قول أهل السنة ، ولما كان المشهور عند المسلمين أن أهل السنة لا يقولون القرآن مخلوق، صار كل من رأى طائفة تنكر قول من يقول القرآن مخلوق يظنّ أن كل ما قالته في هذا الباب هو قول السلف وأئمة السنة ،ولما ظهرت محنة الجهمية (ونصر السنة الإمام أحمد) صار شعار أهل السنة أن القرآن منزل غير مخلوق فكل من أنكر ذلك فهو من أهل البدعة في اللسان العام ، فكثر حينئذ من يوافق أهل السنة والحديث على ذلك وإن كان لا يعرف حقيقة قولهم ،بل معه أصول من أصول أهل البدع الجهمية يريد أن يجمع بينها وبين قول أهل السنة ... » الخ (١) .

ويقول عنه صاحب العقود الدرية :« ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها ... » (٢) .

وفي حماسة شديدة وهجوم عنيف يقرر باستفهام إنكاري : « كيف يكون هؤلاء (المتكلمون المخالفون للسلف) المحجوبون ... الحيارى المتهوكون : أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين والمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى.... الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما بروزا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم ، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة » (٣) .

وابن تيمية – رحمه الله – وهو في أوج حماسته للأخذ بالمنهج السلفي وتلقّي أقوالهم بالقبول فإنه لا ينسى أن يذكر ضوابط وقواعد في التلقّي فيقول :« ومن قال من العلماء « إن قول الصحابي حجة » فإنما قاله إذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نصّ يخالفه ، ثم اشتهر ولم ينكروه كان إقراراً على القول فقد قال : « هذا إجماع إقراري » إذا عرف أنهم أقرّوه ولم ينكر أحد منهم وهم لا يقرون على باطلٍ .

وأما إذا لم يشتهر فهذا إن عُرف أن غيره لم يخالفْه فقد يقال : « هو حجة » أما إذا عُرف أنه خالفه فليس بحجةٍ بالاتفاق ، وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه لم يجزم بأحدهما ، ومتى كانت السّنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا فيما يخالفها بلا ريب عند أهل العلم » (٤) .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦٢/٧ – ٢٦٣ .   (٢) ص١١٧ .

(٣) الفتاوى ١١/٥ .

(٤) الفتاوى ٢٨٣/١ .

ويفرق ابن تيمية بين ما نقله الصحابة وبين ما قالوه، فما نقلوه من القرآن والحديث يجب قبوله لا سيما المتواتر كالقرآن وكثير من السنة .

وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه فإجماعهم معصوم ، وما تنازعوا فيه ردّ إلى الله والرسول (ثم ذكر مسائل تنازعوا فيها ثم قال) : فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم [1] .

ويقول عما تنازعوا فيه :« وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم ، فيمكن طلب الحق بعض أقاويلهم ولا يحكم بخطأ قولٍ من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه » [2] .

وذكر أنه لا يجوز إحداث قولٍ ثالثٍ عن قولَيهم ، وما نقل عن التابعين ينقل فيه قول « شعبة بن الحجاج [3] وغيره : أقوال التابعين في الفروع ليست حجة في التفسير ، يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممّن خالفَهم ،وهذا صحيح أمّا إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم » [4] .

---

(١) التفسير الكبير ١/٢١١ .

(٢) التفسير الكبير ١/١١٤ .

(٣) هو : شعبة بن الحجاج بن الوَرْد العتكي ، مولاهم ، أبو بسطام الواسطي ثم البصري ، ثقة حافظ متقن . كان سفيان الثوري يقول : هو أمير المؤمنين في الحديث ، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة وكان عابداً . ولد سنة (٨٠هـ) وقيل (٨٢هـ) ومات سنة (١٦٠هـ) . انظر : طبقات ابن سعد ٧/٢٨٠ ، سير أعلام النبلاء ٧/٢٠٢ .

(٤) التفسير الكبير ٢/٢٣٨ .

المبحث الثالث

عدم تعارض النقل مع العقل

بعد أن تحدثنا عن المنقول عن السلف الصالح من الأدلة نتحدث عن الأدلة العقلية بادئين ذلك ببيان :

المطلب الأول : نظرة ابن تيمية للعقل :

يقول : – العقل مصدر عقل يعقل عقلاً ، وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرّد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم ، بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به صاحبه (١) ، وليس العقل في لغتهم جوهراً قائماً بنفسه (٢) . والعقل في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابه والتابعين وسائر المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل سواء سُمي عرضاً أو صفة ، ليس هو عيناً قائمة بنفسها سواء سُمي جوهراً أو جسماً أو غير ذلك (٣) .

والعقل المشروط في التكليف لا بدّ أن يكون علوماً يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره ، فالمجنون الذي لا يميز بين الأشياء ليس بعاقل (٤) .

ثم تطرق إلى بعض التعريفات للعقل فقال : « ثم من الناس من يقول : العقل هو علوم ضرورية ، و منهم من يقول : العقل هو العمل بموجب تلك العلوم ، ثم قال : والصحيح : أن اسم العقل يتناول هذا وهذا . وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار » (٥) .

وَذَكَرَ الأصول الثلاثة الموقوف عليها السعادة والفلاح ومدار الخلق عليها وقرّر أن هذه الأصول معرفتها من جهة الرسل ، والعقل لا يهتدي إلى تفصيلها وحقائقها ، والذي يدركه العقل منها الضرورة إليها من حيث الجملة وهذه الأصول هي :

١ – إثبات الصفات والتوحيد والقدر .

٢ – تفصيل الشرائع .

---

(١) الفتاوى ٩/٢٨٦ .
(٢) ٨/٣٣٨ .
(٣) الفتاوى ٩/٢٧١ .
(٤) الفتاوى ٩/٢٨٦ .
(٥) الفتاوى ٩/٢٨٦ .

٣ – إثبات اليوم الآخر والجنة والنّار [١] .

والعقل إذا كان سليماً من الشوائب فإنه ميزان يزن به المرء الواردات فيفرق بين ما هو حق وما هو باطل [٢] .

ومن أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف فإذا رأى الشيئين المتماثلين علم أن هذا مثل هذا فجعل حكمهما واحداً ... [٣] .

ونور العقل لا يهتدي إلاّ بنورٍ آخر معه هو نور الرسالة كنور العين لا يرى إلا مع ظهور نور حسي قدامه .... » [٤] .

فإذاً هو لا يستقل بمعرفة الحقائق الشرعية وأمور العقائد وإن كان عنده المعرفة المجملة لذلك ، وهو مفطور على الإيمان بالخالق سبحانه وإدراك أن كل ذات لا بد لها من صفات .... الخ ، والرسل جاءت لتكميل الفطرة وحمايتها ، وبكل ما تقدم ردّ على الذين جعلوا العقل حاكماً على الشريعة وأنّهم يدركون به ما لم تأت به الرّسل وما تجهله الرّسل . والرّسل إنما بعثت إلى ذوي العقل ، ولم يقع التكليف إلاّ مع وجوده فكيف يقال إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرّسل الكرام عن الله تعالى هذا باطل مطلقاً» [٥] .

إذاً ابن تيمية لم يغل في العقل فيجعله مصدر المعارف والحاكم على النصوص الشّرعية وما قبله العقل فهو المقبول وما رده فمصيره إما التأويل أو يكون من المجملات المشكلات .

ولم يلغ العقل ويجعله مُصَادراً من عالم المعرفة والإدراك ، بل وضعه في موضعه الذي أراده الله وجبله عليه ، فكان وسطاً في موقفه الذي هو موقف أهل السنة والجماعة .

المطلب الثاني : مصادر الدليل العقلي :

المتكلمون – المخالفون للسلف – ومن نهج نهجهم وسلك طريقهم يرَون أن العقل يستقل بإدراك الحقائق بل هو الحاكم على كل دليل ، ومصدر المعرفة ، فما قبله فهو

---

(١) انظر الفتاوى ٩٦/١٩ . (٢) انظر الأعلام العلية /٣٣ – ٣٥ .

(٣) انظر الرد على المنطقيين /٣٧ .

(٤) انظر توحيد الربوبية نقلاً عن ابن تيمية والتصوف /٣٦٦ .

(٥) الأعلام العلية /٣٥ .

المقبول وما ردّه فهو مؤول أو مرفوض الدلالة ، بل هم اضطروا أن يجعلو العلوم العقلية أصلاً (١) .

فالقرآن الكريم والسنة والسلف في رأي كثير منهم ليس فيها أدلة عقلية صالحة لأن تكون دليلاً في المطالب الإلهية ، لذا هم يجعلون أصول الدّين نوعين : العقليات والسمعيات ، ويجعلون القسم الأول مما لا يعلم بالكتاب والسنة وهذا غلط منهم ، والمتكلمون وإن كانوا يقرّون بأن القرآن والسنة فيهما أدلة عقلية لكنهم يسلكون غيرها كطريق الأعراض ويظنون أنها طريقة إبراهيم الخليل بل القرآن دلّ عل الأدلة العقلية وبيّنها ونبه عليها (٢) .

والقرآن في بداية أمره خاطب أقواماً غير مقرين بالرّسول وما جاء به ، وهو إلى يوم القيامة يخاطب فيمن يخاطب أقواماً كثير منهم لا يسلمون بدلالة النقل ولا يقرون بالنبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من مخاطبتهم بأدلة عقلية تجعلهم يقرون بالرسالة والرسول ثم يؤمنون بما جاء به من أدلة القرآن والسنة (٣) .

ويقول في أثناء حديثه عن سورة العلق وهي أول سورة نزلت عند جماهير العلماء: « ذكر في الآية الأولى الخلق مطلقاً ، وفي الثانية خصّ خلق الإنسان أنه خلقه من علق ، وهذا أمر معلوم لجميع الناس ... الإنسان هو اسم جنس يتناول جميع الناس ، ولم يدخل فيه آدم الذي خلق من طين لأن هذا لا يعلم إلاّ بالخبر عن الأنبياء أو بدلائل أخر ، ولهذا ينكره طائفة من الكفار الذين لا يقرون بالنبوات ، وحينما ذكر خلقه في غير هذه السورة فإنه يذكر الخلق من تراب لأنه يذكره لمن يثبت النبوة .

أما هذه السورة فهي أوّل ما نزل وبها ثبتت النبوة فلم يذكر فيها ما علم بالخبر بل ذكر فيها الدّليل المعلوم بالعقل والمشاهدة ، والاستدلال إنما يكون بمقدمات يعلمها المستدل ويسلم بها وهم كلهم يعلمون أن الناس يخلقون من العلق وأن مبدأ الخلق الإنسان ... والمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى ابتداءً ، وهذا الدليل وهو خلق الإنسان من علق – يشترك فيه جميع الناس هم المستدلون وهم أنفسهم الدليل والبرهان والآية وهو دليل يعلمه من نفسه ... وفيمن يراه من بني جنسه فيستدل به على المبدأ والمعاد وكل ما يعلم حدوثه داخل في قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٤) ، فهو دليل على الخالق .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٤٤٦/٦ ، ٢٥١/١ – ٢٥٢ .

(٢) انظر الفتاوى ١٥٩/١٩ – ١٦٣ ، وانظر التفسير الكبير ٢٤٦/١ – ٢٤٨ .

(٣) انظر الدرء ١٩٩/١ .

(٤) سورة العلق آية (١) .

وذكر بعد الخلق التعليم . التعليم بالقلم وتعليم الإنسان ما لم يعلم فخصّ هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة ، لأن النبوة نوع من التعليم ، وليس جعل الإنسان نبياً بأعظم من جعله العَلَقَةَ إنساناً حياً عالماً » (١) .

فإذاً الأدلة العقلية على إثبات الصانع وإثبات قدرته واثبات النبوة والمَعَاد أمر لازم لأن الدعوة لا بد أن تواجهُ في كل عصر أقواماً لا يؤمنون بالنبوة وما جاء عن طريقها ، فلا بدّ من إيصالهم لذلك عن طريق الأدلة العقلية ؛لذا قال ابن تيمية – رحمه الله –: «فصل في بيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوّل ما أنزل عليه بيان أصول الدين وهي الأدلة العقلية الدالة على إثبات الصانع ، وتوحيده ، وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المعاد إمكاناً ووقوعاً ، وقد ذكرنا فيما تقدم هذا الأصل غيره مرّة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس إلى دينهم ، وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وأن الذين ابتدعوا أصولاً تخالف بعض ما جاء به هي أصول دينهم لا أصول دينه، وهي باطلة عقلاً وسمعاً »(٢). وبيّن أن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدين قاصرون أو مقصرون في معرفة ما جاء به من الدّلائل السمعية والعقلية وهم أقسام :

١ – طائفة ابتدعت أصولاً تخالف ما جاء به من هذا وهذا .

٢ – وطائفة رأت أن ذلك بدعة فأعرضت عنه وانتسبوا للسنة ولكنّهم لم يتبعوها على وجهها ولا قاموا بما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية فكان واقعهم معها :

أ – الإيمان بلفظ ما أخبر به من الأدلة السمعية عن ربه واليوم الآخر من غير تصور لمعناه وقد يقولون إنه – أي النبي – لم يكن يعلم معناه .

ب – ما بينه من الأدلة العقلية قد لا يتصورون أنه جاء بالأصول العقلية الدالة على ما يخبر به ... بل قد يظن أن ما يستدل به هو كالاستدلال بخلق الإنسان على حدوث جواهره – هو دليل الرسول .

جـ – وكثير منهم يعتقدون أن في ذلك ما لا يجوز أن يعلم بالعقل : كالمعاد ، وحسن التوحيد والعدل ، والصدق ، وقبح الشرك ، والظلم ، والكذب .

والقرآن (الكريم) بيّن الألة العقلية الدالة على ذلك ، وينكر على من لا يستدل بها،

---

(١) التفسير الكبير ٢٦٦/٦ .

(٢) انظر الفتاوي ٢٥١/١٦ – ٢٦٠ – ٢٦٦ – ٢٦٢ .

وبين أنه بالعقل يعرف المعاد وحسن عبادته وحده وحسن شكره ، وقبح الشرك وكفر النعمة (١) .

ويرد على الذين قالوا إن الرسول والصحابة لم يُبينوا أصول الدين بقوله : « وبيّنا أن أصول الدين الحقّ الذي أنزل الله به كتابه وأرسل به رسوله وهي الأدلة والبراهين والآيات الدالة على ذلك : قد بينها الرسول أحسن بيانٍ وأنه دل الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التي بها يعلمون المطالب الإلهية ، وبها يعلمون إثبات ربوبية الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله والمعاد ، وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته بالأدلة العقلية ، بل وما يمكن بيانه بالأدلة العقلية وإن كان لا يحتاج إليها ، فإن كثيراً من الأمور تعرف بالخبر الصادق ، ومع هذا فالرسول بيّن الأدلة العقلية الدالة عليها فجمع بين الطريقين : السمعي ، والعقلي ، وبيّن أن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم ، بل الكتاب والسنة دلاّ الخلقَ وهَدَيَاهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين .

والطرق التي جاء بها القرآن هي الطرق البرهانية التي تحصل العلمُ في المطالب الإلهية .. وذلك أن الله تعالى في كتابه ذكر من دلائل المعاد وبراهينه ما لا يقدر أحد على أن يأتي بقريب منه وذكر فيه من أصناف الحجج ما ينتفع به عامة الخلق . » (٢) .

وفي بيانه سبحانه لقضية عقدية ينكرها المشركون وهي قضية البعث بعد الموت دلل على قدرته على إحياء الموتى بطريقين :

١ - بطريق الوجود والعيان .

٢ - وبطريق الاعتبار والبرهان .

والأول أعظم الطريقين فلا شيء أدلّ على إمكان الشيء من وجوده معايناً ومشاهداً لعدد كبير من الخلق ،والله ذكر في كتابه أنه أحيا الموتى في عددٍ من المواضع فما دام أنهم ماتوا ثم أحياهم وأعاد إليهم أرواحهم فالقدرة في الكل كالقدرة في البعض لا يعجزه شيء قال تعالى :﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ (٣) ،وعن إبراهيم إذ قال :

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٦٠/٦ - ٢٦١ ، وانظر التفسير الكبير ٢٤٦/١ .

(٢) الفتاوى ٤٦/٢ - ٤٩ ، ٨١/١٢ - ٨٢ ، ١٦٣/١٩ - ١٧٣ . (٣) سورة البقرة آية (٥٦) .

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ (١) القصة ، وصاحب القرية ، وأصحاب الكهف وغير ذلك .

وأما الصنف الثاني وهو إثبات إمكان إحياء الموتى وبعثهم وقدرته سبحانه على ذلك بطريق الاعتبار والقياس بطريق الأولى فتنوعت الأدلة والأمثلة المضروبة ، فتارة يستدل بخلق النبات حينما ينزل المطر على الأرض فتصبح مخضرة بأعدادٍ هائلة لا يعدّ قدرها إلاّ الله في آن واحدٍ ،فهذا دليل قدرةٍ على إحياء الكثرة في وقتٍ واحدٍ بعد فناءٍ . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (٢) إلى قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ (٣) .

وتارة يستدل على ذلك بالأصعب من الأمرين على الأسهل ،فالإعادة أسهل من البدء فيجعل الدليل على إمكان الحياة بعد الموت « خلق الحيوان نفسه وأن قدرته على الإعادة كقدرته على الابتداء وأولى » ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(٤) .

وتارة يستدل على ذلك بخلق الأكبر والأعظم فمن خَلَقَ السموات والأرض ؟ وخَلْقُها أعظم من خلق الإنسان فهو قادر على إعادته بعد موته ، قال تعالى :﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ (٥) » (٦).

ويذكر – رحمه الله – أن الأدلة العقلية ما يعلم بالعيان ولوازمه كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٧) .

فما شهدت به الموجودات ودلت عليه فهو من الأدلة الشرعية التي أمر بها الشرع (٨) ، فالأدلة العقلية نوعان : أدلة عقلية من الكتاب والسنة ، وأدلة عقلية محضة (٩) .

---

(١) سورة البقرة آية (٢٦٠) . (٢) سورة الأعراف آية (٥٧) . (٣) سورة الأعراف آية (٥٧) .
(٤) سورة الروم آية (٢٧) . (٥) سورة الأحقاف آية (٣٣) .
(٦) انظر الدرء ٣٦٢/٧ – ٣٧٨ ، وانظر الفتاوى ٢٢٤/٩ – ٢٢٥ . (٧) سورة فصلت آية (٥٣) .
(٨) انظر الدرء ١٩٩/١ ، والفتاوى ٢٤٢/٩ . (٩) انظر الدرء ٢٣/١ .

فالرسول أمر بالأدلة البرهانية ، وحث عليها ، والأقيسة العقلية وهي : الأمثال المضروبة ، مما جاء به الشرع واحتج به قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ (١) .

فالله سبحانه يجيب عن معارضات الكفار العقليه بمثلها ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (٢) » (٣) .

« فهذه المطالب هي شرعية من جهتين :

من جهة أن الشارع أخبر بها ، ومن جهة أنه بيّن الأدلة العقلية التي يستدل بها عليها ... وهي أيضاً عقلية من جهة أنها تعلم بالعقل أيضاً وكثير من أهل الكلام يُسمي هذه (الأصول العقلية) لاعتقاده أنها لا تعلم إلاّ بالعقل فقط ... بل القرآن بيّن من الدلائل العقلية التي تعلم بها المطالب الدينية ما لا يوجد مثلهُ في كلام أئمة النظر فتكون هذه المطالب شرعية عقلية ... » (٤) .

المطلب الثالث : عدم تعارض النقل مع العقل :

الأدلة في نظر ابن تيمية نوعان :« شرعية وعقلية » (٥) ،فالأدلة العقلية هى أدلة شرعية بمعنى أن الشريعة جاءت بها وهى لا تقابل الشرعية إنما يقابلها (البدعية) .

وبناء على ذلك فإنه يلزم اتفاقها وعدم تعارضها ، ومن رأى أن الأدلة التي تقام لبيان صدق الرسل يمكن أن تعارضها الأدلة العقلية القاطعة ، فإنه لا ينتفع والحالة هذه بالأدلة ويصير « بمنزلة المريض الذي به أخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء ، فإن الغذاء لاينفعه مع وجود الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء » (٦) ، وكذلك القلب الذي تصور أن الأدلة السمعية تعارضها الأدلة العقلية لا ينتفع أبداً بهذه الأدلة حتى يبيّن له فساد المعارض . ولذا رأينا من أهل الكلام والفلسفة من ضل في باب أصول الدين لاعتقاده «أن الاستدلال بالسمعيات في المسائل الأصولية لا يمكن بحال لأن الاستدلال بها موقوف على مقدمات ظنية ، وعلى دفع المعارض العقلي ،وأن العلم بانتفاء المعارض العقلي لا يمكن إذ يجوز أن يكون في نفس الأمر دليل عقلي يناقض ما دل عليه القرآن ، ولم يخطر ببال المستمع » (٧) .وبهذا يتبين لنا سر اهتمام ابن تيمية في بإيضاح أن الأدلة

---

(١) سورة الإسراء آية (٨٩) . (٢) سورة الفرقان آية (٣٣) . (٣) انظر الدرء ٣/٣٠٥ – ٣٠٦ – ٣٠٨ .
(٤) التدمرية ١٤٦ – ١٤٨ ، وانظر الرد على المنطقيين /٣٢٤ ، وانظر الدرء ٣/٣٠٨ .
(٥) الدرء ١/١٩ . (٦) الدرء ١ / ٢٠ .
(٧) الدرء ١/٢٠ ـ ٢١ نقلاً عن الرازي في أول كتابه « نهاية العقول » .

العقلية هي أدلة شرعية ولا تعارض بينها وبين الأدلة السمعية ،وله كتابان في هذا الموضوع من أعمق وأقوى كتبه وهما : « درء تعارض العقل مع النقل » و « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » ،وفي هذين الكتابين أثبت أن الأدلة لإثبات أصول الدين أدلة سمعية وعقلية وكلها شرعية ، وأنها لا تتعارض ، فإذا ظهر تعارض مع صحتها وسلامتها فإنما هو في رؤوس وعقول القائلين بذلك ، أو هم قالوه تقليداً لغيرهم من دون تحقق وتحقيق [1] .

وقد ناقش هؤلاء وبيّن فساد اعتقادهم في دعوى التعارض، وتركز نقاشه معهم في خمسة أصول :

الأول : أن العقل الصريح لا يناقض الدليل السمعي الصحيح الصريح .

الثاني : أن الدليل العقلي الصريح يوافق الدليل السمعي الصحيح .

الثالث : أن ما يدعونه من أدلة عقلية تعارض الأدلة السمعية غير صحيحة .

الرابع : أن ما ذكروه من الأدلة العقلية المعارضة للأدلة السمعية هي أدلة معارضة للمعقول الصريح .

الخامس : ما أثبتوا به الأصول من الأدلة العقلية لا يثبتها بل يناقض إثباتها [2] ،وإذا كان الله برسالاته لا يخاطب إلا ذوي العقول ولا يوجب التكليف إلا بوجودها ورشدها. فكيف يقال إن العقل يخالف بعض ما جاءت به الرسل ؟ وكل عقل سليم يشهد ببطلان ذلك :﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [3] [4] .

وهذه الحقيقة أثبتها ابن تيمية بعد اطلاع واسع على أقوال طوائف الفلاسفة والمتكلمين وما زعموه من أوجه استدلال عقلي يقول – رحمه الله – :« وهذا ولله الحمد قد اعتبرته فيما ذكره عامة الطوائف ، فوجدت كل طائفة من طوائف النظار أهل العقليات لا يذكر أحد منهم في مسألة « ما » دليلاً صحيحاً يخالف ما أخبرت به الرسل بل يوافقه ،وكذلك سائر النظار من أهل النفي والإثبات لا يذكرون دليلاً عقلياً في مسألة إلا والصحيح منه موافق لا مخالف (و) .. من خالف الأنبياء فليس لهم عقل ولا سمع كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

---

(١) انظر الفتاوي ٤٩٠/١١ ، وانظر ١٩ / ١٦٣ .
(٢) انظر الأعلام العلية للبزار /٣٥ ، وانظر الدرء ٢٥٨/٥ .
(٣) سورة النور آية (٤٠) .
(٤) انظر الدرء ٢٥٨/٥ .

كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١) (٢) .

ويجيب ابن تيمية على ما يبدو من وجود أدلة سمعية يظهر منها أنها تعارض العقل فيقول : « ... بل السمع الذي يقال إنه يخالفه : إما حديث موضوع أو أدلة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضته العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول ؟ ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته » (٣) .

ويجزم جزماً قاطعاً بنفي أن يوجد دليل سمعي يخالف العقل الصحيح أو السمع الصحيح ،وإذا وجد فإنه لا يمكن أن يكون سالماً من العلة والقدح إما في ثبوته أو في دلالته يقول : « فلا يعلم حديث واحد يخالف العقل أو السمع الصحيح إلا وهو عند أهل العلم ضعيف ، بل موضوع ، بل لا يعلم حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر والنهي أجمع المسلمون على تركه إلا أن يكون له حديث صحيح يدل على أنه منسوخ ، ولا يعلم عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث صحيح أجمع المسلمون على نقيضه فضلاً عن أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البيّن لعامة العقلاء ... » (٤) .

ويقرر بعد مناقشات عديدة أن ما يدعونه من المعقولات المخالفة للشرع يوجد أضعافها من المعقولات التي يعلم بها فساد هذه المعقولات التي يدعون مخالفتها للنصوص الشرعية ، إذن فالعقل علم به فساد ما يدعون به معارضة الشرع من المعقولات (٥) .

والطوائف التي تدعي التعارض بين الأدلة السمعية والأدلة العقلية تعارضت فيما بينها في معقولاتها فكل طائفة تدعي سلامة ما عندها وبطلان أدلة من عارضها وذلك أن المعقولات ليس لها ضابط يضبطها ولا حد يحدها فكل أمة لها معقولاتها وكل طائفة تأتي بمعقولات غير معقولات الطائفة الأخرى ، بل المتأخرون يخالفون شيوخهم في المعقولات فيأتون بمعقولات لم تكن معروفة عند شيوخهم، وبهذا يحدث التنازع في المعقولات . وإذا حدث التنازع في المعقولات بين الطوائف لم يكن معقول كل طائفة

---

(١) سورة الملك آية (٨ - ١١) . (٢) الدرء ١٣٣/١ . (٣) الدرء ١٤٧/١ .
(٤) الدرء ١٥٠/١ - ١٥١ . (٥) انظر الدرء ١٦٨/١ - ١٩٤ ، ٢٥٨/٥ .

لها مذهب حجة على الأخرى ، وإنما الحجة معقول أصحاب الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد فاسد ولا هوى ، لأن معقولها لا يخالف الحق ، فلا يُعارضُ الكتاب بالأقوال التي يسمونها معقولات» [١] .وبيّن لنا ابن تيمية حال هؤلاء الذين عارضوا أقوال الرسول سالكين مسلك من يدعي تعارض الأدلة النقلية مع العقلية بأن ذلك « لجهلهم بحقيقة الأمر ، وفزعاً باطناً وظاهراً كالذي يفزع من الآلهة المعبودة من دون الله أن تضره ، ويفزع من عدو الإسلام لما عنده من ضعف الإيمان » [٢] .

فتلخصت الأسباب في :

١ – ضعف الإيمان .

٢ – والجهل بحقيقة هذه المعقولات .

٣ – والفزع من هالتها وإنما هي « من باب القعقعة بالسنان لمن يفزعه ذلك من الصبيان ومن هو شبيه الصبيان » [٣] .

٤ – الخوف عند المعارضة أن يقال بأنه ليس على مستوى فهمها وإدراكها ومعارضته لها من عدم مقدرة لدركها .

٥ – عدم « متابعة الكتاب المنزل والنبي المرسل » [٤] .

يضاف إلى ذلك :

أن دعوى التعارض هذه دعوى مبتدعة لم تكن معروفة عند السلف ، وكان ظهورها مع الجهمية والمعتزلة ونحوهم ،ولم يكن عندهم بذلك سلطان فهم ممن جادل في آيات الله بغير برهان [٥] . والقول بالتعارض بين الأدلة النقلية والأدلة العقلية قول لم يظهر حتى عند من كان به نوع من البدعة من أهل السنة « بل كل من تكلم بذلك كان عند الأمة من أهل البدع المضلة ، فضلاً عن أن يقال : إن ما به يعلم صدق الرّسول من المعقول مناقض لمدلول الكتاب والسنة ، إذ هذا الكلام يفتح على صاحبه من الزندقة والإلحاد ما يخرجه عن طرد قوله إلى غاية الجهل والضلال والكفر والإلحاد وإن لم يطرد قوله ظهر منه من التناقض والفساد ما لا يوافق عليه لأهل التوحيد والحق والإيمان ولا طائفة من طوائف العباد » [٦] .

---

(١) الدرء ١٦٨/١ ، وانظر الدرء ٢٤٣/٥ – ٢٥٢ . (٢) الدرء ١٨١/٤ .
(٣) الدرء ١٨١/٤ .(٤) الدرء ٢٣٦/٤ . (٥) انظر الاستقامة ٢٢/١ – ٢٣ . (٦) الدرء ٩٨/٧ .

والمصادر التي يتلقى منها المسلمون دينهم هي : الكتاب ، والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، وكل هذه يمتنع أن يوجد فيها ما يخالف العقل الصريح لأن ما خالف العقل الصريح فهو باطل وهي لا باطل فيها، وكل ما في الأمر أن هذه المصادر الثلاثة فيها ألفاظ مجملة لا يحسن بعض الناس فهمها أو يفهمون منها خلاف ما تدل عليه من الحق، فالآفة جاءت من قبلهم لا من هذه المعارف (١) ،وقد أعطوا علوماً ولم يعطوا فهوماً وأعطوا ذكاءً ولم يعطوا زكاءً .

والله الذي شرع الشرع وأنزل به كتبه وأرسل به رسله هو الذي خلق العقل فلا يمكن أن يتعارض ما أنزله مع ما خلقه ،بل الواقع يثبت أن ما قرر الشرع فساده فالعقل آكد تقريراً لذلك « والقول كلما كان أفسد في الشرع كان أفسد في العقل ، فإن الحق لا يتناقض ، والرسل إنما أخبرت بحق والله فطر عباده على معرفة الحق ، والرسل إنما بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة » (٢) ، فكل عقل صريح صحيح خالص من الشبهات فإنه يطابق النقل الصحيح الصريح (٣) ، ولا تضاد ولا تعارض بل كل واحد منهما يهدي إلى الآخر ويدل عليه ويقود إليه « ولما كان الطريق إلى الحق هو العقل وهما متلازمان كان من سلك الطريق العقلي دله على الطريق السمعي وهو صدق الرسول ومن سلك الطريق السمعي بيّن له الأدلة العقلية ، كما بيّن ذلك القرآن، وكان الشقي المعذب من لم يسلك لا هذا ولا هذا ... » (٤) .

والحاصل أن من ادعى أن من المعقول ما يعارض الكتاب والسنة فإنه لا يجزم بأنه من المعقولات الصحيحة .

١ - « إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة .

٢ - وإما بظهور تناقضهم ظهوراً لا ارتياب فيه .

٣ - وإما بمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم .

٤ - وإما بتدبر هذه العقليات التي يعارضون بها الشرع فيعلم بالعقل بطلانها » (٥) .

---

(١) انظر الفتاوى ٤٩٠/١١ .

(٢) منهاج السنة غير المحقق نقلاً عن ابن تيمية السلفي/٥٦ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٤٠/١٨ .

(٤) الدرء ٣٩٤/٧ .

(٥) الدرء ١٦٨/١ .

منهجه في الجمع بين الأدلة النقلية والعقلية

تميز ابن تيمية بالقدرة الفائقة على استحضار الأدلة النقلية منها والعقلية وإيرادها معاً في الاستدلال إذا كان الأمر يحتاج لذلك ، وأحياناً يجادل ويحاجج ويبرهن بالأدلة النقلية فقط ، وأحياناً بالعقلية فقط .

فيقول – رحمه الله – مبيّنا قاعدته في ذلك: « ونحن نبيّن فساد طريق هؤلاء (أي الفلاسفة) بالطرق الإيمانية والقرآنية تارةً ، وبالأدلة التي يمكن أن يعقلها من لا يستدل بالقرآن والإيمان ؛وذلك لأنا في مقام المخاطبة لمن يقر بأن من أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم حقّ ولكن قد يعارض ما جاء عنه عقليات يجب تقديمها عليه ... » (١) .

وابن تيمية يرى أنّ استعمال الأدلة العقلية مع النقلية لبيان الحق منهج قرآني نبوي سلفي يقول :« فعليه أن يعتصم بالكتاب والسنة ويدعو إلى ذلك وله أن يتكلم مع ذلك ويبيّن الحقّ الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بالأقيسة العقلية والأمثال المضروبة، فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة ... » (٢) . والرسول صلى الله عليه وسلم يبيّن الأدلة النقلية مما يحتاج إلى معرفته بها ويُورد من الأدلة العقلية ما يفيد في البيان والإيضاح وإن كان مما يعلم بالخبر الصادق ، فجمع عليه الصلاة والسلام بين الطريقين السمعي والعقلي (٣) .

وهو أيضاً منهج إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، يقول ابن تيمية – رحمه الله :« وأحمد – رضي الله عنه – قد ردّ على الجهمية وغيرهم بالأدلة السمعية والعقلية وذكر من كلامهم وحججهم ما لم يذكره غيره ، بل استوفى حكاية مذهبهم وحججهم أتم استيفاء ثم أبطل ذلك بالشرع والعقل » (٤) .

و« قال أبوالبقاء العكبري (٥) ... فإن أحمد لم ينه عن نظر في دليل عقلي صحيح يفضي إلى المطلوب ، والموجود في كلامه من الاحتجاج بالأدلة العقلية على ما يوافق

---

(١) الدرء ٢٥٨/٥ . (٢) الموافقة ١٨١/١ .

(٣) انظر الفتاوى ١٦٠/١٩ . (٤) الدرء ١٤٩/٧ .

(٥) أبو البقاء العكبري هو : عبدالله بن الحسين بن عبدالله بن الحسين العكبري الأصل ، البغدادي المولد والدار ، الفقيه الحنبلي ، الحاسب الفرضي النحوي ، ولد سنة (٥٣٨هـ) ، ومات في ربيع الآخر سنة (٦١٦هـ) . انظر : وفيات الأعيان ١٠٠/٣ رقم ٣٤٩ ، وسير أعلام النبلاء ٩١/٢٢ .

السنة لم يوجد مثله في كلام سائر الأئمة ... والمقصود أن أحمد يستدلّ بالأدلة العقلية على المطالب الإلهية إذا كانت صحيحة » (١) .

ويبيّن ابن تيمية أن الناس في موقفهم من الأدلة العقلية واستعمالها أحزاب :

حزب : يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم ويوجبون النظر ويتكلمون بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل ، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام ، وهو مبتدع شرعاً وعقلاً .

والحزب الثاني : عرفوا خطأ هؤلاء وصنفوا كتباً ذكروا فيها ما يدل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة ، وذكروا أشياء صحيحةً ولكنهم يخلطون الآثار صحيحها بضعيفها ، وقد يستدلون بما لا يدلّ على المطلوب واستدلالهم بالقرآن من جهة أخباره ويتركون أدلته العقلية ويرون أن الإيمان بالرسول مستقر فلا حاجة للأدلة العقلية لإثباته وتضارب الحزبان الأول ينسب هؤلاء إلى الجهل لأنهم لم يذكروا الأصول الدالة على صدق الرسول ، وهؤلاء ينسبون أولئك إلى البدعة والكفر ، لأنهم أصلوا أصولاً تخالف ما قاله الرسول .

وكلا الحزبين تلحقه الملامة لإعراضهما عما جاء في الكتاب والسنة من الأصول وأدلتها ، والعداوة وقعت بينهم بسبب هذا الإعراض قال تعالى : ﴿ **فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ (٢) .

وحزب ثالث : قد عرف تفريط هؤلاء وتعدي أولئك وبدعتهم فذمهم وذمّ طالب العلم الذكي الذي اشتاقت نفسه إلى معرفة الأدلة وقال :

إن طريقهم ضارة ، وإن السلف لم يسلكوها ، ونحو ذلك مما يقتضي ذمّها ، وهو كلام صحيح لكنّه إنما يدلّ على أمرٍ مجملٍ لا تتبين دلالته على المطلوب « فقد يفهم منه ذم من يورد الأدلة العقلية مطلقاً حتى ولو كانت صحيحةً » ومع ذمهم هذا لا يفتحون أبواب الأدلة التي ذكرها الله في القرآن » (٣) .

وابن تيمة يسلك هذا المنهج في استعمال الأدلة العقلية مع النقلية لأنه يرى أن الأدلة العقلية لا تعارض النقلية بل تؤيدها وتثبتها ما دام أن كليهما صحيح فالحق لا يتعارض ،ومن أجل ذلك يقول: إن العقل والنقل متظافران ، ويقول : إنهما متلازمان

---

(١) الدرء ٧/١٥٣ - ٥٥ . (٢) سورة المائدة آية (١٤) .
(٣) انظر الفتاوى ١٩/١٦٠ - ١٦٣، وانظر التفسير الكبير ٦/٢٦٠ - ٢٦١ .

وأحدهما يدل على الآخر « ويمتنع أن يتناقض دليلان قطعيان : سواء كانا عقليين أو سمعيين أو كان أحدهما عقلياً والآخر سمعياً ...» [1] .فإذا كانا لا يتعارضان فهما يتعاضدان وهذه قناعة لدى ابن تيمية راسية كرسوّ الجبال واضحة كوضوح الشمس ، ومن هنا نراه في تقريره لحقائق الإسلام في مناظراته يورد الأدلة العقلية والنقلية معاً ، فمثلاً بعد أن ذكر الأدلة من القرآن على نفي التمثيل والتشبيه عن الله قال: « وأيضاً فنفي ذلك معروف بالدلائل العقلية التي لا تقبل النقيض ... » [2] . ويقول : « ونحن ولله الحمد قد تبين لنا بياناً لا يحتمل النقيض فساد الحجج المعروفة ، والسلف يرد عنهم عبارات قد يفهم منها البعض ما يخالف مرادهم من الاستدلال بالأدلة العقلية مع النقلية في أصول الدين وغيرها ، مثل قولهم .... « وإن مثل هذا لا مجال للعقل فيه ، أو يرد نهيهم عن إدخال العقل في بعض المسائل والمباحث ، ونحو ذلك ..» [3] .

وابن تيمية الذي أحاط بأقوال السلف ومناهجهم وأدرك دقها وجلها لم ينس هذه المسألة بل أجاب عليها فقال :

« وأما ما قد يقولون من أن العقل لا مجال له في ذلك ، أو ينهون عن الكلام ، أو عن ما سمي معقولات نظراً ونحو ذلك ، فهذا له وجوه صحيحة ثابتة بالكتاب والسنة بل وبالعقل أيضاً ، وبعضهم قد لا يفرق بين ما يدخل في ذلك من حق وباطل وبعضهم قد يقصر عن الحقّ الذي يدل عليه الكتاب والسنة ويقصر أكثر المنتسبين إلى الكتاب والسنة في معرفة دلالتهما ولوازم ذلك ، وذكر الوجوه الصحيحة في الرد على هذه المقولات :

منها أنّ ما جاء به الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف لا يعارضه أحد لا بمعقولٍ ولا غيره والواجب على كل أحدٍ أن يعلم علماً كلياً عاماً أن ما عارض هذا فهو باطل ، والعلم التفصيلي بذلك يجب على بعض الناس دون بعض .

ومنها : أن موارد النزاع لا تفصل بين المؤمنين إلاّ بالكتاب والسنة ، وإن كان أحدُ المتنازعين يعرف ما يقوله بعقله لأن قوى العقول تختلف وكثيراً ما يشتبه المجهول بالمعقول ولهذا يوجد من خرج عن الاعتصام بالكتاب والسنة من الطوائف فإنهم يفترقون ويختلفون .

---

(١) الفتاوى ٢٤٤/١١ . (٢) الدرء ١٤٥/٤ - ١٤٦ .

(٣) الصارم المسلول ٢٤٩/ - ٢٥٠ - نقض أساس التقديس ٢٤٧/١ - ٢٤٨ نقلاً من « موقف ابن تيمية من الأشاعرة » ٢٨٤/١ - ٢٨٥ .

ومنها : أن معرفة الله سبحانه وصفاته على وجه التفصيل لا تعلم إلاّ من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم إما بخبره وإما بخبره وتنبيهه ودلالته على الأدلة العقلية [1] .

ولا يجوز لأحد أن يتكلم بذلك بعقله المجرد لأن صفات الله والأمور الغيبية كأخبار السابقين وأحوال الساعة واليوم الآخر توقيفية ، ممّا لا يعلمها العقل المجرد إلا بخبر المعصوم والإجماع على ذلك قائم .

ومعرفة الله وما له من أسماءٍ وصفاتٍ ومعرفة دينه وشريعته يكون بواسطة المرسلين [2] ، « ولا تحسبن أن العقول لو تركت وعلومها التي تستفيدها بمجرد النظر عرفت الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه على وجه اليقين ، فإن عامة من يتكلم في هذا الباب بالعقل فإنما تكلم بعد أن بلغه ما جاءت به الرسل واستصغى لذلك واستأنس به .... والقدر الذي يمكن العقل إدراكه بنظره فإن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم – نبهوا الناس عليه وذكروهم به ، ودعوهم إلى النظر فيه حتى فتحوا أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً،والقدر الذي يعجز العقل عن إدراكه علموهم إياه وأنبؤوهم به » [3].

ويذكر في مسألة علو الله على خلقه ومباينته لهم أنه معلوم بالفطرة والأدلة العقلية القياسية [4] ، وتنزه الله جل جلاله عن النقائص والعيوب معلوم بالعقل والسمع لا كما تقوله طائفة من المتكلمين أنه معلوم بالسمع فقط [5] .

ويستدل بالدليل النقلي والعقلي حينما ردّ على قول : « إن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عقبه لا معه في الزمان ولا متراخياً عنه ،(فيقول رحمه الله): وأما هذا القول فعليه يدل السمع والعقل قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [6] .

والعقلاء يقولون : قطعتُه فانقطع وكسرته فانكسر طلق المرأة فطُلقت وأعتق العبد فعتق » فالعتق والطلاق يقعان عقب الإعتاق والتطليق – لا يتراخى الأثر ، ولا يقارن، وكذلك الانكسار والانقطاع مع القطع والكسر ... الخ » [7] .

---

(١) انظر نقض أساس التقديس المطبوع ١/٢٤٧ – ٢٤٨ . نقلاً من « موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/٢٨٤ – ٢٨٥ .

(٢) انظر الصارم المسلول /٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٣) الصارم المسلول ص٢٤٩ – ٢٥٠ ، وانظر « موقف ابن تيمية من الأشاعرة » ١/٢٨٤ – ٢٨٥ .

(٤) انظر الفتاوى ج٥/٥٥٧ ، وانظر ص١٥٢ .

(٥) انظر التفسير الكبير ٦/٣٥٦ .

(٦) سورة يس آية (٨٢) .

(٧) التفسير الكبير ٦/٣٧٢ .

وفي مسألة استواء الله على عرشه وأنه حقيقي يليق بذاته – ذكر الأدلة النقلية من القرآن والسنة وأقوال السلف واللغة العربية ،ثم ذكر جوانب من الاستدلال العقلي في النظر في الهيئة وهي : (الإحاطة والكروية) ،وأثبت أنه ليس لنا جهة بينة إلاّ جهتان العلو والسفل ،وإنما تختلف الجهات باختلاف الإنسان ، ويثبت أن الأفلاك مستديرة ويثبت أن العرش مقبب ،إلى أن قال في نهاية هذا المبحث : « فقد تبين بهذه الأحاديث أنه أعلا المخلوقات وسقفها وأنه مقبب وأن له قوائم وعلى كل تقدير فهو فوق سواء كان محيطاً بالأفلاك أو غير ذلك ... الخ » (١) .

وابن تيمية – رحمه الله – وهو يضع في منهجه الاستدلالي الأدلة العقلية ، فإنه يرفض رفضاً قاطعاً ما يقوله المتكلمون من تقديم العقل على الشرع لأن العقل مأموم والشرع هو الإمام ، والعقل تابع والشرع متبوع ، يقول في هذا : « فلو قيل بتقديم العقل على الشرع وليست العقول شيئاً واحداً بيناً بنفسه ولا عليه دليل معلوم للناس بل فيها هذا الاختلاف والاضطراب ، لوجب أن يحال الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته ولا اتفاق للناس عليه ، وأما الشرع فهو في نفسه قول الصادق، وهذه صفة لازمة له لا تختلف باختلاف أحوال الناس ، والعلم بذلك ممكن ، وردّ الناس إليه ممكن ، ولهذا جاء التنزيل يردّ الناس عند التنازع إلى الكتاب والسنة [واستشهد بعدد من الأدلة ثم قال :] وهذا يوجب تقديم السمع وهذا هو الواجب» (٢) .

---

(١) الفتاوى ٥/١٤٩ – ١٥٢.

(٢) الدرء ١/١٤٥ – ١٤٧ ، وانظر/ ١٥٦ – ١٩٣ .

المبحث الخامس

المسائل التي يدّعي المتكلمون تعارضها مع العقل

المتكلمون ومن تابعهم قدموا العقل على النقل وحكموه فيه ، ويقولون : إذا تعارض العقل مع النقل قدم العقل لأن به يعرف النقل ، ولهذا وقع الاختلاف والتناقض بينهم وغلبت عليهم الحيرة والاضطراب ونجد كل طائفةٍ تعارض معقول الطائفة الأخرى ، وما أجازته طائفة تحيله أخرى ، وسبب هذا أن العقول ليست شيئاً واحداً بيناً بنفسه ولا عليه دليل معلوم للناس ، بل فيها اختلاف وتفاوت واضطراب ، ولو كانت إحالة الناس إلى العقول في أمر الشرع والدين لكان إحالتهم على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته ولا اتفاق للناس عليه ، فمعقولات الناس تختلف باختلاف عقولهم وقدرهم وعقائدهم، وأما الشرع فلا يوجد فيه ذلك ، لأنه قول الصادق ، وهذه صفة لازمة له لا تختلف باختلاف أحوال الناس ، والعلم به وردّ الناسِ إليه ممكن (١) .

يقول ـ رحمه الله – عما تعارض فيه العقل والنقل عند المتكلمين :« والمسائل التي يقال إنه قد تعارض فيها العقل والشرع جميعها مما اضطرب فيها العقلاء ولم يتفقوا فيها على أن موجب العقل كذا ، بل كلٌّ من العقلاء يقول : إن العقل أثبت أو أوجب أو سوغ ما يقول الآخر : إنّ العقل نفاه ، أو أحاله ، أو منع منه ، بل قد آل الأمر بينهم إلى التنازع فيما يقولون إن من العلوم الضرورية ، فيقول هذا : نحن نعلم بالضرورة العقلية ما يقول الآخر : إنه غير معلوم بالضرورة العقلية ... » (٢).

وأهل الكلام والفلسفة الخائضين المتنازعين فيما يسمونه عقليات كل منهم يقول : إنه يعلم بضرورة العقل أو بنظره ما يدّعي الآخر أن المعلوم بضرورة العقل أو بنظره ينقضه ، وهذا من حيث الجملة معلوم ، فالمعتزلة ومن اتبعهم من الشيعة يقولون : إن أصلهم المتضمن نفي الصفات والتكذيب بالقدر – الذي يسمونه التوحيد والعدل – معلوم بالأدلة العقلية القطعية ، ومخالفوهم من أهل الإثبات يقولون : إن نقيض ذلك معلوم بالأدلة القطعية العقلية ، بل الطائفتان ومن ضاهاهما يقولون : إن علم الكلام المحض هو ما أمكن علمه بالعقل المجرد بدون السمع ، كمسألة الرؤية والكلام وخلق الأفعال ، وهذا هو الذي يجعلونه قطعياً ويؤثمون المخالف فيه .

---

(١) انظر الدرء ١/١٤٥ – ١٤٦ .

(٢) الدرء ١/١٤٤ – ١٤٥ .

وكل من طائفتي النفي والإثبات فيهم من الذكاء والعقل والمعرفة ما هم متميزون به على كثير من الناس ، وهذا يقول : إن العقل الصّريح دلّ على النّفي ، والآخر يقول : العقل الصّريح دل على الإثبات .

وهم متنازعون في المسائل التي دلت عليها النصوص ، كمسائل الصفات والقدر ، وأما المسائل المولدة كمسألة الجوهر الفرد وتماثل الأجسام وبقاء الأعراض وغير ذلك ففيها من النزاع بينهم ما يطول استقصاؤه ، وكل منهم يدّعي فيها القطع العقلي ، ثم كلّ من كان عن السنة أبعد كان التنازع والاختلاف بينهم في معقولاتهم أعظم . »(١) .

ويقول في موضع آخر : « .. المقدمة التي يدّعي طائفة من النظار صحتها تقول الأخرى : هي باطلة .

ويقول : « والمقصود هنا التنبيه على جوامع قدح كل طائفةٍ في طريق الطائفة الأخرى من نفاة العلو وغيره من الصفات » (٢) .

ولا ينسى ابن تيمية أن يبين لنا سبب هذا التعارض والتناقض والاختلاف في المسائل التي يقولون إنه تعارض فيها الدليلان السمعي والعقلي ، وأن السبب : أن هذه المسائل ليست من المسائل البينة المعروفة بصريح العقل كمسائل الحساب والهندسة ... ولكن عامة موارد التعارض هي من الأمور الخفية المشتبهة التي يحار فيها كثير من العقلاء كمسائل أسماء الله وصفاته وأفعاله وما بعد الموت من الثواب والعقاب والجنّة والنّار والعرش والكرسي ، وعامة ذلك من أنباء الغيب التي تقصر عقول أكثر العقلاء عن تحقيق معرفتها بمجرد رأيهم ، ولهذا كان عامة الخائضين فيها بمجرد رأيهم إما متنازعين مختلفين، وإما حيارى متهوكين وغالبهم يرى أن إمامه أحذق في ذلك منه ... » (٣) .

ونشأ غلطهم أيضاً تناقضهم بسبب أنهم جاءوا بأدلةٍ برأيهم ظنوها عقلية وهي جهلية ، فغلطوا في الدلائل السّمعيّة والعقليّة وظنوا التعارض مع أنه لا تعارض إلا بين عقلياتهم هم والنصوص (٤) .

ويصل إلى تقرير النتيجة بعد ذكر هذا التناقض والاختلاف فيقول : « المعرفة بالله ليست موقوفة على أصولهم بل موقوفة على العلم بفساد أصولهم» (٥) .

---

(١) الموافقة ١٢٧/١ ، والدرء ١٥٦/١ ، وانظر/ ١٩٣ .

(٢) الدرء ٢٧٩/٤ .

(٣) الدرء ١٤٨/١ .

(٤) انظر الفتاوى ١٦٣/١٩ .

(٥) التفسير الكبير ٣٤١/٦ .

وخلاصة القول - أن ابن تيمية يرى أن الأمة لا بد أن ترتبط بالكتاب والسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين وما أجمع عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - أصحاب القرون المفضلة ، وأن البُعد عن ذلك لا يزيد الأمة إلا اختلافاً وتناقضاً وفرقة ولا يغنيها عن هذه المصادر شيء أبداً ، فالخير كل الخير في أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمدٍ صلى الله عليه وسلم ولزوم وصيته : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمكسوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ... » [1] .

والرسول صلى الله عليه وسلم تركهم على المحجة البيضاء ، فلا خير إلا دل الأمة عليه وأمرها به ، ولا شر إلا عرّفها به وحذّرها منه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم .

وكلما بعد الناس عن هدْي الكتاب والسنة وبعد زمنهم عنهما كلما كثرتْ الفتنة وكثر الاختلاف بينهم ، وإذا تحاكموا إلى غيرهما تحاكموا إلى طاغوت لا يزيدهم إلاّ طغياناً ونفوراً .

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/١٤٩ - ١٥٠ رقم ٢٨١٦ كتاب العلم باب ١٦ ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، وأبو داود ٥/١٣ - ١٤ رقم ٤٦٠٧ كتاب السنة باب ٥ .

الفصل الثالث

الشمول والوضوح

وتحته مباحث :

الأول : الشمول الفكري أو العلمي في منهج الدعوة عند ابن تيمية .

الثاني : الشمول الميداني في الدعوة عند ابن تيمية.

الثالث : الوضوح في منهج الدعوة عند ابن تيمية.

المبحث الأول

الشمول الفكري أو العلمي في منهج الدعوة عند ابن تيمية

الإسلام قول وعمل وحدة واحدة لا يتم إلا بوجودهما معاً ،وابن تيمية يؤسس دعوته على هذا فلا يرى أن الهداية والاستقامة والإيمان يحصل بالجانب التصوري الفكري من الإسلام بمعزل عن العمل ، ولا يحصل بمجرد العمل دون العلم ، ومن فصل بينهما فهو ضال مخالف للصواب .

فالدعوة عنده ـ كما هي عند عامة أئمة السلف ـــ دعوة تشمل العلم والفكر والعمل والزهد ، يقول رحمه الله :« فمن ظن أن الهدى والإيمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به ، أو بمجرد العمل والزهد بدون العلم فقط ضل » [ويشير إلى نماذج في المسيرة الإسلامية من الذين وقعوا في هذا الضلال أو جوانب منه فيقول] : وأضل منهما من سلك في العلم والمعرفة طريق أهل الفلسفة والكلام بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ، ولا يعمل بموجب العلم، أو سلك في العمل والزهد طريق أهل الفلسفة والتصوف بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا اعتبار العمل بالعلم ، فأعرض هؤلاء عن العلم والشرع وأعرض أولئك عن العمل والشرع ، فضلّ كل منهما من هذين الوجهين ، وتباينوا تبايناً عظمياً ، حتى أشبه هؤلاء اليهود المغضوب عليهم ، وأشبه هؤلاء النصارى الضالين ، بل صار منهما من هو شر من اليهود والنصارى كالقرامطة ، والاتحادية وأمثالهم من الملاحدة والفلاسفة » (١) .

وشمول الدعوة عند ابن تيمية ينتظم من حيث التأسيس والاهتمام : الإرادة والعلم، والدين والسياسة ، ولا يجوز فصل أحدهما عن الآخر . ويذكر الشيخ طائفتين كل واحدة تركت هذا الشمول وفصلت هذه الجوانب بعضها عن بعض ، فالصوفية : بنوا أمرهم على الإرادة ، والمتكلمون : بنوا أمرهم على النظر، قال رحمه الله :« ومن طلب علماً بلا إرادة أو إرادة بلا علم فهو ضال ، ومن طلب هذا وهذا بدون اتباع الرسول فيهما فهو ضال . بل كما قال من قال من السلف : الدين والإيمان قول وعمل واتباع السنة » (٢) .

ويقول رحمه الله فيمن فرق بين العلم والعمل أو سلك فيهما طريقاً غير مشروع: « فمن دعا الى العلم دون العمل المأمور به كان مضلاً ، ومن دعا إلى العمل دون العلم

---

(١) التفسير الكبير ٦٣/٢ . (٢) الفتاوى ١٧٢/١٩ .

كان مضلاً ، وأضل منهما من سلك في طريق العلم أهل البدع ، وكذلك من سلك في العبادة طريق أهل البدع ... فهذا ، وهذا كثير في المنحرف المنتسب إلى فقه أو فقر يجتمع فيه أنه يدعو إلى العلم دون العمل ، والعمل دون العلم ، ويكون ما يدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة ، وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل ويكون كلاهما موافقاً للشريعة» (١) .

وابن تيمية رحمه الله اعتنى بالأمرين « العلم والعمل » إيضاحاً وبياناً ،فلم يدع مجالاً من مجالاتهما إلا وله فيه قول ، ورأي ، ومنهج .

١- الشمول للعقيدة :

وأكثر ما تحدث عنه وأولاه جل اهتمامه من الجوانب العلمية هو : « العقيدة »، وسبب هذا الاهتمام أنه أدرك أن الضعف في الأمة والخلاف والفرقة وغير ذلك سببه خلل حدث في عقائد المسلمين . وله في تناول الجانب العقدي مسلكان :

الأول : مسلك التأصيل والتقرير ، وبيان عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، ومنهجه في هذا المسلك أنه يغلب عليه ذكر المعتقد السليم الصافي ، ولا يخلط معه شيئاً من الشبهات ، والردود على أهل البدع .

الثاني : مسلك رد الشبهات والبدع العقدية ، وتبيين ما اشتملت عليه الطوائف المنحرفة عن منهج السلف من ضلال وأخطاء .

وله في ذلك كتب ورسائل وفتاوى عديدة من أبرزها :

١ - العقيدة الواسطية
٢ - الفتوى الحموية .
٣ - والتدمرية .
٤ - وكتاب الإيمان .
٥ - والجواب الباهر في زوار المقابر .
٦ - والنبوات .
٧ - كتاب الرد على تأسيس التقديس .
٨ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

وفي الفتاوى من المجلد الأول إلى المجلد الثامن وكلها مباحث في العقيدة .

ويولي ابن تيمية أمر العقيدة كل اهتمامه ، لأنها هي الأساس ، وصمام الأمان ، بخللها يحدث كل خلل ، وبضعفها يحصل كل ضعف ، وبمرضها يمرض كل الكيان ،

(١) الفتاوى ٢٧/١١ ، وانظر الدرء ٢٧٣/٣ .

وبسقوطها يسقط كل بناء هذا الدين في نفوس الناس .

وسيأتي الحديث عن العقيدة كأصل من أصول منهجه في الدعوة إلى الله تعالى .

٢ - الشمول لأنواع العلوم والمعارف :

اعتنى ابن تيمية بالعلم والعلماء ، والعلم عنده ما قام عليه الدليل ، وأنفع العلوم والمعارف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولا يقتصر العلم على ما جاء به الرسول فقط ، فقد يكون علم عن طريق غير الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن ذلك لا يكون في أمر من أمور الدين وإنما في أمور الدنيا الخالصة (١) « مثل الطب والحساب ، والفلاحة والتجارة » (٢) .

ومن العلوم التي تحدث عنها باستفاضة كاملة وتوسع تام علم اللغة العربية ، وعلوم الشريعة المحمدية ، وتحدث عن النصرانية بكلام موسع مفيد ، وله في ذلك كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح في أربعة أجزاء .

وتكلم عن المنطق اليوناني وعن الفلسفة وأصحابها ، وعن الكلام والمتكلمين ، وأشار إلى العلوم العقلية وقرر أنه لا مانع من تعلمها والإفادة منها إذا لم يكن ما يخالف الشرع ،وقال قاعدته المشهورة : « ليس كل علم بعد النبي صلى الله عليه وسلم يرد » فالعلوم المستجدة بعد عصر النبوة والخلفاء الراشدين لا ترد بحجة أنها علوم مبتدعة فهذه لا علاقة لها بالبدعة لأنها علوم عقلية دنيوية وليست شرعية دينية حتى يكون فيها مبتدع وبدعة .

فكل ما توصل إليه العقل والتجربة في مجال : الطب والصناعة والتجارة والزراعة والفلك ، والحساب وغير ذلك فهو مقبول ما دام يحقق مصلحة دنيوية للناس . وقد قال في أثناء حديثه عن الزاد والراحلة في الحج : « وليس كل دابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا تركب » فالسيارات ، والبواخر ، والطائرات ، والقطارات ونحوها كلها رواحل بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، يجوز ركوبها لعمل عبادة هي ركن من أركان الإسلام ، وغيرها من باب أولى ، وهكذا .

فإن ابن تيمية جعل العلم نوعين :

- علم محدود المصدر والتلقي فلا يجوز أن تتعدد مصادره ، وهذا علم الشريعة ، فمصدره ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم والسنة المطهرة .

---

(١) انظر التفسير الكبير ١/٢٤٥ . (٢) المرجع السابق ١/٢٤٥ .

- وعلم مفتوح غير محدد مصدره ولا من يتلقى عنه ، يؤخذ من الرسول ومن غيره ، مؤمناً أو كافراً ، وهو العلوم العقلية القائمة على التأمل والملاحظة والتجربة .

وهذا أعطى ابن تيمية وفكره الدعويّ من الرحابة والتجدد والمرونة ما جعله فريداً مميزاً على غيره من العلماء ، بل وجعله أيضاً مفيداً أكثر من غيره ، حيث فتح المجال للأمة أن تأخذ بأنواع العلوم العقلية ، مستفيدة من تجارب الآخرين وخبراتهم ، وأن تبدأ من حيث انتهى الآخرون في علومهم العقلية ، فالتجربة لا يلزم من التصديق بها تكرارها .

ويجدر بنا أن ننبه على توازن ابن تيمية في الاهتمام بالعلوم ، وكلما كان العلم لازماً في تكوين الأمة الفكري والعملي كان عنده في مكان الأهمية ومحط العناية .

والعلم الذي يعلو ولا يُعلىَ عليه وكل علم خادم له هو : القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

والعلوم الأخرى - غير علم الكتاب والسنة - كلما قدم عليها الزمن كلما كان - في الغالب - المتأخرون أحذق فيها من المتقدمين ، وأكثر دراية وإتقاناً ، لأنهم ضموا إلى معرفتهم وخبراتهم ما لدى المتقدمين ، فالتقادم الزمني عامل من عوامل قوة هذا العلم وسلامته واتساعه ، فهو إذن صفة إيجابية في هذا النوع من العلوم .

أما علم الكتاب والسنة فإنه كلما قرب الزمن إلى النبي صلى الله عليه وسلم كان أصفى وأنقى ، لأنه يعتمد على النص الذي يفهم باللغة العربية الفصيحة ، والصحابة أعلم وأحكم بكل ذلك ممن بعدهم ، وهكذا فالتقادم الزمني لم يزد الأمة فيهما إلا غموضاً وتشتتاً فهو صفة سلبية في هذا العلم .

ودراسة ابن تيمية لهذه العلوم تتميز بالاهتمام بجوانب التقعيد والتأصيل لها ، والدراسة النقدية التي تعتمد على طريقة الهدم ثم البناء ، ساعده على ذلك علم غزير وفهم ثاقب ، حتى قال العلامة كمال الدين بن الزملكاني (١) في ابن تيمية : «كان إذا سئل عن فن ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه - ولا تكلم في علم من العلوم ، سواء كان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه ... » (٢) .

---

(١) هو : محمد بن علي بن عبدالواحد الأنصاري ، كمال الدين ، المعروف بابن الزملكاني ، ولد سنة ٦٦٧هـ ، انتهت إليه رئاسة الشافعية في عصره ، وولي القضاء في حلب ، وتوفي ببلبيس سنة ٧٢٧هـ ودفن بالقاهرة . انظر الأعلام العلية ٦/٢٨٤ .

(٢) العقود الدرية /٧ تحقيق محمد حامد الفقي ، ط دار الكتب العلمية .

وهذا المنهج الشمولي في تناول العلوم طبع دعوة ابن تيمية بطابع الواقعية ، وسعة الأفق في التعامل مع الواقع وأحداثه ومستجداته ،وجعل تلاميذه يتميزون بالوعي الشامل، والمرونة في مواجهة الخصوم والحكم عليهم ، وإعطائهم العمق الفكري والعلمي ، حتى أصبحت الدعوة عند ابن تيمية أشبه بجامعة تحوي جميع أنواع العلوم والتخصصات ،فكل تخصص له قيمة واعتبار ، وكل متخصص له منزل واهتمام ودور واحتفاء .

وتميز ابن تيمية في جانب الشمول لأنواع العلوم بترك الخوض في العلوم التي لا فائدة منها ، أو العلوم الضارة ، حتى العلوم التي تناولها بالدراسة والنقد لم يفعل ذلك إلا لحاجة كشف ما فيها من باطل لتحذير الأمة منه، ولدعوة أصحابه إلى الصراط المستقيم ومنهج السلف الصالحين .

فإن الشرع جاء بالعلوم النافعة في الدين والدنيا « ولكن من العلم ما لا يؤمر به الشخص نوعاً أو عيناً ، إما لأنه لا منفعة فيه له أو لأنه يمنعه عما ينفعه ، وقد ينهى عنه إذا كان فيه مضرة له ، وذلك أن من العلم ما لا يحمله عقل الإنسان فيضره .

ومن الكلام ما يسمى علماً وهو جهل ، مثل كثير من علوم الفلاسفة وأهل الكلام، والأحاديث الموضوعة ، والتقليد الفاسد ، وأحكام النجوم ولهذا روي : إن من العلم جهلاً ، ومن القول عِيّا ، ومن البيان سحرا .

ومن العلم ما يضر بعض النفوس لاستعانتها به على أغراضها الفاسدة فيكون بمنزلة السلاح للمحارب ، والمال للفاجر ، ومنه ما لا منفعة فيه لعموم الخلق مثل : معرفة دقائق الفلك وثوابته وتوابعه وحركة كل كوكب ، فإنه بمنزلة حركات التغير عندنا ، ومنه ما يصد عما يحتاج إليه ، فإن الإنسان محتاج إلى بعض العلوم وإلى أعمال واجبة ، فإذا اشتغل بما لا يحتاج إليه عمّا يحتاج إليه كان مذموما .

فبمثل هذه الوجوه يُذم العلم : بكونه ليس علماً في الحقيقة وإن سماه أصحابه وغيرهم علماً . وهذا كثير جداً ، أو يكون الإنسان يعجز عن حمله ، أويدعوه ويعينه على ما يضره أو يمنعه عما ينفعه ، وقد يكون في حق الإنسان لا محموداً ولا مذموماً ، هذا كله في جنس العلم » (١) .

٣ - الشمول للعبادات :

اهتم ابن تيمية بالعبادات الشرعية، وأن تكون وفق مراد الله ، ودعا الناس إلى العلم

---

(١) الاستقامة ١٥٩/٢ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

بما شرع الله ، وإخلاص العمل له تعالى . والعبادات منها الفرائض ومنها النوافل .

فما فرضه الله واجب شرعي لا يتم دين العبد إلا بالقيام به، وأما النوافل فمتممات لذلك ، وهي أيضاً ضرورة وحاجة فردية واجتماعية للوصول إلى أعلى المراتب وهي : محبة الله وتوليه ، كما جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ....) [1] الحديث .

والدعوة إلى العبادات في منهج ابن تيمية اتخذت ثلاثة جوانب :

أولاً : تقرير أحكامها ، وتوضيح اهتمام الإسلام فيها ، والترغيب في فعلها ، وثمرات ذلك .

ثانياً : بيان ما دخل على الأمة من بدع العبادات ، وأسباب ذلك ، وأنه ما ظهرت بدعة إلا بإماتة سنة .

ثالثاً : الدعوة إلى أن تكون العبادة خالصة لله تعالى بعيدة عن الشرك ، وأضرار ترك العبادة والشرك على الفرد والمجتمع والأمة .

أما الجانب الأول فإن ابن تيمية له عدد من المؤلفات والرسائل اهتمت بالعبادات ، فله كتاب « العبودية » ذكر فيه أن مسألة العبادة أمر فطري في الإنسان فهو لا بد أن يعبد، فإن عبد الله كان موحداً ، وإن عبد غيره كان مشركاً . وكل إنسان فيه جانب من الذل والخضوع . وله مباحث في الفقه شملت مسائل متعددة تحدث فيها عن الطهارة والعبادات بأنواعها ، وضح فيها الأحكام وبيّن الحاجة إلى هذه العبادات ، وتعرض إلى مسائل خلافية أشكلت على كثير من العلماء رجح فيها بالأدلة ما يراه صواباً ورفقاً بالمسلمين .

وفي فتاويه أبدى اهتماماً بالغاً في أمر العبادات أحكامها ، وما يناقضها ، فمثلاً في الفتاوى المجلد رقم [٢١] ابتدأ من الطهارة وتحدث عن أغلب العبادات ، والأحكام

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ، كتاب الرقاق ، باب التواضع ٣٨ رقم الحديث ٦٥٠٢ ، فتح الباري ١١/٣٤٠ ، ٣٤١ .

الشرعية ، وتعرض للمسائل المشكلة والخلافية بين علماء الإسلام ، ورجح بالأدلة النقلية والعقلية ما بان له رجحانه.

وتعرض لما أحدثه الناس واستجد ، وبيّن حكمه مستدلاً بالأدلة النقلية والعقلية ، حتى وصل إلى المجلد رقم [٢٨] ختمه بالجهاد ومسائله وأحكامه وتعرض لمسائل هامة وقضايا نادرة .

وأكثر ما يلفت الانتباه في هذه المباحث وغيرها اهتمام ابن تيمية بطرق الاستنباط، واستخراج الأحكام وقواعد ذلك .

وكما اهتم بالجانب العقدي تأصيلاً وبياناً لما أُدخل على المسلمين من العقائد المنحرفة ، وكشف زيفها ، فهو أيضاً اهتم بالجانب العملي حيث يكون العبد مرتبطاً بربه في تحويل هذا المعتقد إلى سلوك حي وعمل خالص لله .

وحيث يكون المسلم متفاعلاً في المجتمع مشاركاً في إصلاحه والمحافظة على إيجابياته ، ساعياً دوماً في تحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها .

٤ - شمولية الاهتمام والمعايشة لأحداث المجتمع :

من منهج ابن تيمية أن الدعوة الإسلامية لا تعرف الفصل بين الأقوال والأعمال ، ولا بين العلم والعمل ، ولا بين العلم والإرادة ، ولا بين الدين والسياسة ، ولا بين السلوك والعقيدة والمرء ،كما قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

فكل أعمال الإنسان من حياته إلى مماته المفروض فيها أن تكون عبادة لربه تقربه إليه زلفى ، وسبق الحديث عن ضرورة الجمع بين العلم والعمل ، والعلم والإرادة ، ونتحدث هنا عن رأي ابن تيمية في ضرورة الجمع بين الدين والسياسة ،وأنه لا بد من اقترانهما على أن تكون الدنيا تخدم الدين .

ولا يكتفي ابن تيمية بالدعوة للجمع بين الدين والسياسة ، والدين والدنيا ، بل يقرر أن انفصال أحدهما عن الآخر شر عظيم يحصل به فساد أحوال الناس ، بل يعد « أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين ولا الدنيا إلا بها ، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس » (٢) .

---

(١) سورة الأنعام الآيات (١٦٢ ، ١٦٣) .

(٢) الفتاوى ٢٨/٣٩٠ .

وكلما كان هذا الرأس من أهل الخير والعلم والاستقامة كان خيراً للدين والدنيا ، لذا يجب « اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القُربات » (١) .

ويتصدى رحمه الله لشبهات الناس في هذا المجال ، ويبين أسبابها وخطأها، فالبعض مثلاً: رأى أن الإمارة تنافي الإيمان وكمال الدين فأعرض عنها وذمها ، آخذاً الدين بدونها ، فصار الدين عنده في محل الرحمة والذل لا في محل العلو والعز ، وبعض آخر : رأى حاجته إلى الإمارة فأخذها معرضاً عن الدين لاعتقاده أنه مناف للإمارة .

ويعطي رأيه في هؤلاء فيقول : « وهاتان السبيلان الفاسدتان سبيل من انتسب إلى الدين ولم يكمله بما يحتاج إليه من : السلطان ، والجهاد ، والمال . وسبيل من أقبل على السلطان ، والمال ، والحرب ، ولم يقصد بذلك إقامة الدين ، هما سبيل المغضوب عليهم والضالين ، الأولى للضالين النصارى ، والثانية للمغضوب عليهم اليهود » (٢) .

ويرى أنه لا يجوز أن يترك أهل الصلاح الولايات لأن « تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار » (٣) ، والعلم بالسياسة كرامة يكرم الله بها عبده فيرفع درجاته بهذا العلم - كما أكرم بها نبيه « يوسف » عليه السلام ، يقول رحمه الله : « ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء في قصة مناظرة إبراهيم وفي قصة احتيال يوسف ، ولهذا قال السلف: - بالعلم فإن سياق الآيات يدل عليه فقصة إبراهيم في العلم بالحجة والمناظرة لرفع ضرر الخصم عن الدين ، وقصة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير لتحصيل منفعة المطلوب» (٤) .ثم يذكر ما هو علم السياسة فيقول : « ... علم بما يجلب المنافع .. علم بما يرفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها، أو هي : علم الأفعال النافعة عند الحاجة ، فالحاجة جلب المنفعة ودفع المضرة قد تكون إلى القول وقد تكون [إلى الفعل] (٥) ولهذا كان المقصرون عن علم الحجج والدلالات ، وعلم السياسة والإمارات مقهورين مع هذين الصنفين ... ، ولهذا قيل : (صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء) ، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما ، فإن البدع والظلم لا تكون إلا فيهما: أهل الرياسة العلمية ، وأهل الرياسة القُدرية ... » (٦) .

(١) الفتاوى ٢٨/٣٩٠ - ٣٩١ .
(٢) الفتاوي ٢٨ /٢٩٦ ، وانظر / ٣٩١ .
(٣، ٤) الفتاوى ١٤/٤٩٣-٤٩٤ .
(٥) إضافة من الباحث لأن الأصل مخروم والسياق يدل عليه .
(٦) الفتاوى ١٤ / ٤٩٤ ، وانظر ٢٨ / ٢٨٨ .

ويتناول هذا الموضوع بواقعية منسجمة مع العلم بقدرات الناس وإمكاناتهم وطبيعة الإنسان ، والذي يلزم المسلم بخصوص الولايات « أن يجتهد في ذلك بحسب وسعه » ، ويسعى لكمال المقدور المأمور فما أدركه فهو مأجور فيه وما قصر عنه فهو معذور فيه « فمن ولي ولاية يقصد بها طاعة الله ، وإقامة ما يمكنه من دينه ، ومصالح المسلمين ، وإقامة ما يمكنه من الواجبات ، واجتناب ما يمكنه من المحرمات لم يؤخذ بما يعجز عنه ، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار ، ومن كان عاجزاً عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ففعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه ، والدعاء للأمة ، ومحبة الخير ، وفعل ما يقدر عليه من الخير ، لم يكلف ما يعجز عنه ، فإن قوام الدين بالكتاب الهادي ، والحديد الناصر .

[ثم يوجه دعوة إلى جميع المسلمين بالجمع بين الدين والسياسة ، وأن يكون مراداً به ما عند الله] فعلى كل أحدِ الاجتهاد في اتفاق القرآن والحديد لله تعالى ولطلب ما عنده مستعيناً بالله في ذلك ، ثم الدنيا تخدم الدين (١) ،وانطلاقاً من هذه النظرة الشمولية للدين الذي يجمع بين العلم والعمل ، وبين الدين والدنيا ، والدين والسياسة رأى أن من واجبه الاهتمام بشئون الناس لأن من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم (٢). فلم يكن ابن تيمية كبعض العلماء منكباً على العلم في بطون الكتب ويُدَرِّسُه ويُدَرِّسُه ، ويعلق الحواشي على المتون ، وينتقد قول فلان ويصحح قول آخر ، لم يكن هذا صنيعه - بل هو من صنعه - وكل اهتمامه تغيير النفوس ، وبعث همة الجهاد فيها ، وتحقيق الأخوة الإيمانية بين الأمة لرأب تصدعها وجمعها على ولاة أمرها ليكون الدين كله لله .

فكان منذ الصبا يعد نفسه علمياً ليتحمل واجب الرجولة عملياً في قيادة الأمة إلى واقع التصحيح الفكري والعملي ، الديني والسياسي ، وقد علم من البداية أن الحمل ثقيل ، والمهمة شاقة محفوفة بالمخاطر والتحديات .

وكان منذ صغره يحمل هم الأمة لأنه نشأ وهو يرى جراحها تنزف ، وكرامتها تداس، وعزها يحطم ، وشرفها يدنس ، وكيانها يمزق على أيدى أعدائها التتار ، والنصارى ، وغيرهم من المتآمرين معهم ، ونشأ وهو ينظر إلى هلع الأمة وخوفها من

---

(١) انظر في كل ما تقدم الفتاوى ٣٩٤/٢٨ - ٣٩٦ .

(٢) يروى حديث ، وهو ضعيف . انظر إحياء علوم الدين مع تخريج العراقي ٢٠٨/٢ ، ولكن معناه صحيح. ورد بلفظ من أصبح وهمه غير الله فليس من الله ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم . ضعيف الجامع الصغير للألباني رقم الحديث ٥٤٢٩ .

أعدائها الكفـار والموالين لهـم ممن ينتسب إلـى الإسلام ، بينما الذي قرأه وتعلـمه عن أمته شيء آخر غير ما يراه فـي الواقع الذي يعيشه وتعيشه بلاد الإسلام ،وكـما مرّ معنا في حياته – رحمه الله – في علو همته وجده في تكوين نفسه ، لأنه رأى ضخامة الواجب وعظم المسئولية ، ولهذا نجده لا يصرف وقته إلا في بناء نفسه ، فلا غرابة إذن أن نرى ابن تيمية ملجأ الأمـراء والقـادة فضـلاً عـن العامـة بعـد الله في أوقـات الأزمات والشدائد ، لذا استحق من الإمام الذهبي (١) أن يصفه بقوله إنـه « .. صاحب معضلات المسلمين » (٢) ، وهو شيخ العامة لا تصـدر إلا عـن رأيـه ولا تثـق إلا به ، يقول الإمام الذهبي رحـمـه اللـه : «وسـائر العامـــة تحبه ، لأنه منـتصب لنفعـهم ليلاً ونهاراً بـلسانه وقلمه » (٣) .

وكان رحمه الله على مستوى الأمل والثقة ، ضحى بكل شـيء من أجل مصلحة دينه وأمـته ، وقد أحس ابن تـيمية بعـظم مسئولـيته حيـنما جعلـه الناس في هذه المـنزلة ، ووضع الله له المـهابة والحب ، ورزقه القوة والتصمـيم ، فتصدى لكل باغ معـتد ومنافق ومتآمر .

ومن أعـظم القـضايا الـتي تـصدى لهـا وأعطاهـا كل جهـده قضيـة التـتار ، قابـل قائدهـم وكبيرهم غازان مرتين ، ووزراءه وأعوانـه ، حتى قال عنه الإمام الذهبي :« فلقد أقامه الـله في نوبـة غازان والتقى أعـباء الأمر بنـفسه وقام وقعـد وطلع وخرج ، واجـتمع بالملك مرتين وبقطلو شاه ، وببولاي » (٤) .

وفيمـا يتعلق بمواقـفه في شأن التتـار لا يكفي الحديـث عنه في مثل هـذا الموضوع، ولكن يكـفينا مدى اهتـمامه ومكانتـه في هذا الأمر أن جعلـه أهل دمشق سفيـراً لهم إلى مصر مرتين لإقناع السلطان في إرسال جيش لمساعدة جيش الشام (٥) ، والاستعجال في ذلك . وكان بطلاً من أبطال وقعة شقحب التي هزم الله فيها التتار(٦) .

ومن الأحداث التي برز فيها دور ابن تيمية كرائد من رواد الأمة تخليص الناس من عصـابات الإجرام من الـباطنـية والرافضـة وغيرهـم ، الـذين يتـآمرون مع كل عـدو ضد المسلمين ويقـطعون الطريق ، وينهبون الناس لـيلاً ونهاراً ويقتلـون . وقـد بـنـوا القـلاع، فقـد تولـى أمـر القضاء عليهـم بنفسـه بمـساعـدة أمـراء الشـام وأهـل الغيـرة مـن أتباعـه

---

(١) انظر ترجمته في الباب الرابع . (٢) العقود الدرية /٢٤ .
(٣) العقود الدرية /١١٨ . (٤) العقود الدرية /١١٨ ، وانظر البداية والنهاية ١٤/٧ ، ٨ ، ٩ .
(٥) البداية والنهاية ١٤/١٤ ، ١٥ ، ٢٣ . (٦) العقود الدرية /١٧٥ – ١٧٨ والبداية والنهاية ١٤/ ١٤ .

وتلاميذه ، وما قر قراره حتى هدم حصونهم وخرب ديارهم وأنزلهم على حكم الله ورسوله وتوبهم وأخذ منهم العهود والمواثيق (١) .

وابن تيمية رحمه الله كان يؤلمه ويحزنه أسرى المسلمين الذين عند النصارى ، أو المسلمين الذين تحت حكمهم ، وتواصلت الأنباء إلى شيخنا قلب الأمة النابض بما يلاقيه المسلمون من معاملة سيئة على يد الملك النصراني ، فأرسل له رسالة مطولة فيها من الترهيب والترغيب والحنكة والسياسة ما ينبيء عن الوعي السياسي والخبرة في مخاطبة النفوس كل بحسبه (٢) .

وذات مرة تجرأ أحد النصارى اسمه عساف من أهل السويداء وشتم الرسول صلى الله عليه وسلم على مسمع من بعض الناس ، فثار الناس العامة والخاصة وبلغ ابن تيمية الخبر فتصدى لهذا الحدث المؤثر المؤلم لكل مسلم وتحرك في كل اتجاه لتأديب هذا الكافر ومجازاته ، وقد أحضر نائب السلطنة ابن تيمية وجلده بين يديه ،وانتهت هذه الحادثة بإسلام النصراني ثم اعتذر نائب السلطنة من الشيخ ، وقد ألف الشيخ في هذه الحادثة كتاباً قيماً بعنوان :« الصارم المسلول على شاتم الرسول » (٣) .

فأما ما يقوم به من الوقوف بجانب المظلومين خصوصاً أهل العلم والغيرة إذا قالوا كلمة الحق ونالهم أذى بحبس ونحوه فأمر عظيم ، حتى بلغ به الأمر أن فتح باب السجن وأخرج أحد العلماء من سجنه (٤) .

وما يقوم به في أوقات النوازل والشدائد والمخاوف من تثبيت للعامة والخاصة وإبداء الرأي والمشورة فشيء يجل عن الوصف والبيان، قال ابن القيم (٥) رحمه الله : « وكنا إذا اشتد الخوف وساءت الظنون ، وضاقت بنا الأرض بما رحبت ، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب عنّا ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة » (٦) .

ويكفينا أن نعرف موقفه من الناس لمّا قيل لهم بتوجه التتار إلى دمشق سنة (٧٠٠هـ) ، فأصابهم الرعب والخوف والهلع حتى كادت دمشق أن تخلو من أهلها لكثرة من ارتحل حتى ارتفع أثمان الدواب أضعافاً مضاعفة ،سوقد هلك بعض الناس وصرفوا مبالغ في هروبهم من دمشق لم تكن بالحسبان ، فما زال بالناس في هذا الموقف

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣١/١٤ ، والعقود الدرية /١٧٩ - ١٨٢ .

(٢) انظر الرسالة القبرصية التي أرسلها ابن تيمية لسرجواس .

(٣) انظر البداية والنهاية ٣١٨/١٣ .

(٤) العالم هو الشيخ جمال الدين المزي . انظر العقود الدرية/٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٥) انظر ترجمته في صفحة (٧٦٥) .

(٦) العقود الدرية /١٢ .

وموقف بعده حتى هدأوا واطمأنوا وعاد كثير ممن خرج وتراجع كثير ممن كان عازماً على الذهاب (١) .

وأما ما يحدث من الفسقة والمجرمين من المجاهرين بالمنكرات والبدع فإن ابن تيمية كان يقوم بالاحتساب عليهم ، ومعاقبتهم أمام الناس في الأسواق ، ويستتيبهم ويعاهدونه . وكان يغلق حوانيت الخمر ويريقها ويجلد شاربها ، حتى هابه وخافه العصاة ، وكان يزيل أماكن الشرك (٢) .

في ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ تقابل جيش المسلمين والتتار فانكسر المسلمون وهرب السلطان وهرب الأعيان من دمشق وفرغت البلد من أي حاكم سوى نائب القلعة ، فاختل الأمن في البلد وكثر النهب والسلب وخرج من بعض السجون أكثر من ٢٠٠ رجل بعد أن كسروا باب السجن .

وفي ١٠ ربيع الآخر قدم سيف الدين قبجق المنصوري من جهة التتار وله السلطة والولاية ، وأرسل إلى نائب القلعة ليسلمها إلى التتار فامتنع أرجواش من تسليمها أشد الامتناع . وكان ابن تيمية قد حرضه على ذلك وأرسل له رسولاً يقول له : لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان في هذا الرأي مصلحة عظيمة ، وقد سَلِمت القلعة بسبب هذا الرأي الحميد (٣) .

وفي ٦٩٩/٧/١٠هـ بعد أن ذهب التتار علم أهل الشام أن الجيش المصري قد خرج متوجهاً إلى الشام ، فاستعد أمير الشام سيف الدين قبجق المنصوري لمقابلة الجيش وخرج ومعه الجند والأعيان فأصبحت البلد فارغة ، ونادى أرجواش في حفظ أسوار البلد وأمرهم أن يبيتوا على الأسوار ومن بات في داره شنق . فاجتمع الناس على الأسوار ومعهم السلاح لحفظها ، وكان هذا التدبير من ابن تيمية مع أرجواش ، وتولى ابن تيمية مهمة تفقد التنفيذ وبث الحماس والصبر في نفوس الناس ، فكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويعظهم تالياً عليهم الآيات والأحاديث في فضل الجهاد والرباط في سبيل الله ، فحفظ الله المدينة من كيد الفجار وشر الأشرار بتدبير وجهود الصالحين الأخيار (٤) .

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/١٤ .
(٢) انظر البداية والنهاية ١١/١٤ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ١٠٣ .
(٣) انظر البداية والنهاية ٨/١٤ .
(٤) انظر البداية والنهاية ١٠/١٤ .

وفي سنة ٧١٢هـ رأى في دمشق عملاً مخالفاً للشرع والعدل والمصلحة العامة حيث إن بعض المتقدمين يدفع رشوة من أجل أن يرشح لولاية من الولايات في البلاد، فأخبر ابن تيمية السلطان بمصر وشرح له الوضع وخطورة ذلك وأنه يقدم غير الكفء من أجل ماله، فأصدر السلطان مرسوماً بمنع ذلك (١).

ولاحظ ابن تيمية أنه إذا حدث جريمة قتل فإن أهل المقتول يتتبعون القاتل فيقتلونه، وقد تستمر هذه المسألة مما يشكل خطورة على أرواح الناس وفساد في البلاد، فكتب للسلطان بذلك وأطلعه على خطورة الأمر وطلب أن يكف الناس عن ذلك، والدولة هي تتولى القبض على المجرم والحكم عليه بما يستحق حكماً شرعياً (٢).

فابن تيمية بحق رجل المواقف الصعبة ورجل الشدائد والمهمات والملمات وإنه بحق قمة في الرخاء والشدة.

وبهذه المواقف وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره يعطينا ابن تيمية نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه الدعاة في هذه الأمة، ومبيناً بالواقع العملي أن الأمة عامتها وخاصتها لا تسلم قيادها ولا تمنح حبها وعاطفتها إلا لمن كان معها في الميدان في حال الآمال والآلام، ويقرن القول بالعمل فيدعوهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعمل ذلك، يدعوهم للجهاد ويكون في مقدمة الصفوف، يدعوهم للصبر والتحمل ويكون كذلك، يدعوهم للبذل والعطاء والكرم فيكون هو كذلك.

لم يسكن ابن تيمية قلوب الناس ولم يتملك زمام عواطفهم بالخطب الرنانة فقط، ولا بالكتابات العاطفية فقط، وإنما مع هذا الاهتمام بهم والسهر على راحتهم ومشاركتهم فيما يدعوهم إليه، وهذا سر من أسرار نجاح الداعية العظيم في تحقيق هذه المكانة لدى الخاصة والعامة.

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٥٧.

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/٥٧.

الشمول الميداني في منهج الدعوة عند ابن تيمية

في المجتمع جهات كثيرة وفئات متنوعة كلها تحتاج إلى دعوة وتجديد إيمان وتذكير ونصيحة ، وبعضها تحتاج إلى جهاد ومجاهدة .

وابن تيمية حباه الله قدرة كبيرة فاستطاع أن يوصل دعوته إلى كل الميادين والمجالات، فإذا رأينا جهده مع الأفراد المسلمين قلنا إن دعوته اقتصرت على الاتصال الفردي بالمسلمين ، وإذا رأينا دعوته للأفراد غير المسلمين حكمنا أن دعوته مقتصرة على هؤلاء ،سواء كانوا محكومين أو حاكمين أو أعياناً مشهورين ،وإذا تتبعنا جهوده مع طوائف الصوفية قلنا تخصص في دعوة هؤلاء ، وإذا قرأنا عن مساعيه في الرد على المنطقيين وكشف حقيقة منطقهم وواقعه قلنا لم يتفرغ لغير هذا .

ومثل ذلك : الفلاسفة ، والمتكلمون ، الرافضة ، والباطنية ، والخوارج (١) . خاطبهم بأنواع الخطاب واتصل بهم بأنواع الاتصال ومارس معهم أنواع الدعوة ومسالكها من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، استعمل ما يستطيع استعماله من الأساليب والوسائل كل بما يناسبه ، وما يكون أرجى في قبوله للحق وإذعانه له ، حتى أنه مارس إلزام المعاندين والمكابرين بالحق بطريق القوة ، واستعان بأمراء الشام في القضاء على أهل الشوكة المتحصنين في ديارهم وقلاعهم حتى أذلهم وقضى على شوكتهم وفرقهم وألزمهم طريق الصواب ، وأقام فيهم الدعوة ، والتعليم .

فابن تيمية أسس دعوته لتكون عامة لكل أحد ، بحسب طاقته وجهده ، دعوة مفتوحه يصل خيرها لكل من يستطاع إيصاله إليه ، قال في رده على من قال للحنابلة : «إن مثل هؤلاء لا يحدثون » فيقال له : قد بعث الله الرسل إلى جميع الخلق ليدعوهم إلى الله فمن الذي أسقط الله مخاطبته من الناس .. » (٢).

وسنتناول دعوته لمن ذكرنا من الأفراد في موضوع الاتصال الفردي في (الباب الثالث : الأساليب والوسائل)، وهنا نتحدث عن دعوة ابن تيمية للطوائف والفرق والجماعات .

---

(١) انظر مقدمة مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية /٣ .

(٢) الفتاوى ١٨٧/٤ .

دعوة ابن تيمية للطوائف والفرق والجماعات :

سلّ ابن تيمية سيف الحق أمام كل الفرق والطوائف، ونقد كل خطأ في كل طائفة وفرقة ، وما خاف أحداً منهم في الله ، بل خاف الله فيهم ... وبدأ نضاله الإصلاحي الفكري في عدد من الجبهات ، مما جعل دائرة الصراع أمامه واسعة .

ولم يكن هذا الاتساع سلبية من السلبيات ؛ لأن لديه من القدرة والطاقة والتحمل ما يستوعب ذلك وأكثر ، وقد رُمي من قبل خصومه بقوس واحدة ، وأجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، واستعملوا كل ما في جعبتهم وقاموسهم من الحيل والمكر والدسائس ، فما وهن ولا داهن ولا لان ، وما زاده ذلك إلا قوة وإصراراً وتصميماً على المضي إلى الغاية ، فكان كما قيل : الداعية كالمسمار على الخشبة كلما يشتد عليه الطرق يثبت .

ومن المشاهد المعبرة عن قوة بأسه وتحمله في مواجهة خصومه ما ذكره الشيخ ابن عبدالهادي : « في شهر ربيع الأول من سنة سبع وسبعمائة دخل الأمير حسام الدين مهنا ابن عيسى [1] ملك العرب إلى مصر ، وحضر بنفسه إلى الجب فأخرج الشيخ تقي الدين بعد أن استأذن في ذلك – واستقر بمصر – .... ولم يزل بمصر يعلم الناس ، ويفتيهم ، ويذكّر بالله ويدعو إليه ويتكلم في الجوامع على المنابر ... إلى أن ضاق منه وانحصر ، واجتمع خلق كثير من أهل الخوانق والربّط والزوايا ، واتفقوا على أن يشكوا الشيخ إلى السلطان ... فكانت لهم ضجة شديدة حتى قال السلطان : ما لهؤلاء ؟ فقيل له : هؤلاء كلهم قد جاءوا من أجل الشيخ تقي الدين بن تيمية يشكون منه ... وكان بعض الناس يأتون إلى الشيخ فيقولون له : إن الناس قد جمعوا لك جمعاً كثيراً فيقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وأمر [2] من يعقد له مجلساً بدار العدل .

فعقد له مجلس يوم الثلاثاء في العشر الأول من شوال من ٧٠٧هـ ، وظهر في ذلك المجلس من علم الشيخ وشجاعته ، وقوة قلبه وصدق توكله وبيان حجته ، ما يتجاوز الوصف . وكان وقتاً مشهوداً ، ومجلساً عظيماً ... وذكر بعض من حضر ذلك المجلس ... قال : فجاء وجئت معه إلى موضع – ذكره – في دار العدل . قال :

---

(١) هو : مهنا (الثاني) بن عيسى بن مهنا بن مانع الطائي حسام الدين ، يلقب سلطان العرب ، أمير بادية الشام، قبض عليه الأشرف بن قلاوون ، وأرسله إلى مصر سنة ٦٩٢هـ فحبس بها ، وعزل سنة ٧١٢هـ بأمر الناصر .. مات سنة ٧٣٥هـ بالقرب من سلمية . انظر الأعلام ٣١٦/٧ .

(٢) اي السلطان .

فلما جلسنا استلقى الشيخ على ظهره وكان هناك حجر لأجل تثقيل الحصير ، فأخذه ووضعه تحت رأسه ، فاضطجع قليلاً . ثم جلس وقال له إنسان : يا سيدي قد أكثر الناس عليك . فقال: إن هم إلا كالذباب ، ورفع كفه إلى فيه ونفخ فيه . قال : وقام ، وقمنا معه ، حتى خرجنا ، فأتي بحصان ، فركبه ويختل بذؤابته ، فلم أر أحداً أقوى قلباً ولا أشد بأساً منه ... » (١) .

واعتمد ابن تيمية في دعوة هؤلاء منهج الهدم ثم البناء ، حيث توجه إلى نقد أصولهم وفروعهم ومناهجهم واستدلالاتهم وبيّن ما جرته عليهم من الخروج عن الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح ،ومن ثم التناقض والحيرة والشك وضياع العمر في قيل وقال ونصب في البدع والضلالات ، وما أقاموا حقاً ولا هدموا باطلاً « فلا الإسلام نصروا ولا الفلاسفة كسروا » .

ثم بيّن لهم منهج الكتاب والسنة وطريقة السلف في التلقي منهما ،وأوضح لهم الحق الذي تركوه بعد أن بيّن لهم الباطل الذي أخذوه ، ودعاهم إلى العودة إلى هذا الحق والنزول على حكم الكتاب والسنة والسير على ما سار عليه سلف الأمة الأبرار من صحابة نبيه الأخيار والتابعين لهم المذكورين بتتبع الآثار ، وهو بهذا المنهج يختلف عن الإمام الغزالي حيث اعتمد الغزالي في نقده للفلاسفة « الهدم فقط لا البناء كما أنه كان لا يرى مانعاً من إلزام الفلاسفة بأي مذهب من المذاهب المنتمية إلى الإسلام مهما كانت باطلة في نظره بحجة أن خطرها على العقيدة أقل من خطر الفلسفة » (٢) .

يقول في كتابه التهافت: « ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان وجوه تهافتهم ، فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً به الزامات مختلفة ، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة وأخرى مذهب الكرامية وطوراً مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص ،بل أجعل جميع الفرق إلباً واحداً عليهم ، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين فلنتظاهر عليهم فعند الشدائد تذهب الأحقاد » (٣) .والهدم عند ابن تيمية ليس مقصوداً لذاته أو لغرض آخر غير البناء ، فكان ينقد من أجل الوصول إلى الحق ، ليكون الدين كله لله ، وهذا يعني سلامته من الأغراض الشخصية أو المذهبية أو

---

(١) العقود الدرية /٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٧ - ٢٦٨ . (٢) ابن تيمية السلفي د . محمد خليل هراس /٦١ .
(٣) تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي تحقيق وتقديم د . سليمان دنيا / ٨٢ ـ ٨٣ .

الطائفية ونحو ذلك ، ومن براهين ذلك إبرازه للنواحي الإيجابية لدى الذين توجه لنقدهم .

وهذا الهدم والنقد لم يتوجه لفئة معينة أو طائفة أو جماعة معينة ،إنما توجه لكل من رأى عنده انحرافاً عن منهج السلف بأي نوع من أنواع الانحراف سواء علمياً أو عملياً، تليداً أو طريفاً ، لأنه داعية إصلاح ورجل ملة لا رجل دولة ، فحربه مع الأفكار والاتجاهات ليست حرب عناوين ولافتات وشعارات مادية تتوجه بحسب المكاسب والمصالح الشخصية . وكان رحمه الله مدركًا لأهم أسباب نشوء الفرق والطوائف في الأمة وهي :

١ – الجهل بالكتاب والسنة [عدم معرفة النصوص أو عدم معرفة الصحيح منها](١).

٢ – الغلط في الفهم مع حسن النية والقصد كالخوارج والقدرية (٢) .

٣ – التقليد لأصحاب الآراء والنحل (٣) .

٤ – تحكيم العقل وتقديمه على النص ، وتأويل النصوص المخالفة وتحريفها كالمعتزلة والأشاعرة .

٥ – تعمد الكذب والإخلال والتحريف كالرافضة والجهمية ، فإن الذين أسسوها زنادقة ، ومن بعدهم لا يعرفون أصولهم فضلوا بهم (٤) .

وجهوده في مقارعة خصومه وإصلاح ما لديهم من انحرافات وأخطاء تركز على الأسس والمنطلقات التي ينطلقون منها، فمما ركز عليه في كل طائفة من الطوائف ما يلي :

١ – نشأتهم وأسبابها ودوافعها وأهداف النشأة في كل طائفة من الطوائف .

٢ – مصادر التلقي لديهم من كتب وأشخاص .

٣ – قوانينهم وأدلتهم التي جعلوها حقائق مسلمة وقواعد عامة ، « وأنا أذكر جوامع أصول الباطل التي ابتدعها طوائف ممن ينتسب إلى السنة وقد مرق منها » (٥) .

٤ – مشابهتهم لمن بان ضلاله وخطؤه وعرف بين الأمة قبحه ، مع مخالفتهم لأهل السنة والجماعة والسلف الصالح لهذه الأمة .

---

(١) التفسير الكبير ٤١٨/٧ ، ٥١١ .

(٢) التفسير الكبير ٥١٢/٧ .

(٣) التفسير الكبير ٥١١/٧ – ٢٩٨ .

(٤) انظر التفسير الكبير ٥١٠/٧ وما بعدها .

(٥) الفتاوى ٣٨٤/٣ – ٣٨٥ .

٥ - تناقضهم وحيرتهم واضطرابهم ورجوع كثير من شيوخهم إلى مذهب السلف .

٦ - اختلاف المتأخرين عن المتقدمين في كل طائفة وفرقة .

٧ - رصد أخطائهم وكشفها وبيان بطلانها بأدلة من الكتاب والسنة .

٨ - ومن ثم دعاهم للعودة إلى الكتاب والسنة ، وسنة الخلفاء الراشدين .

٩ - تحذير الأمة من طرقهم ومناهجهم بعد أن بيّن بطلانها وضررها .

١٠ - الاعتذار عن كثير منهم بحسن المقصد وإرادة نصرة الحق وأنهم مجتهدون مخطئون .

وسوف أقتصر في الحديث عن بعض هذه الجوانب في بعض الطوائف والجماعات التي تناولها ابن تيمية ، لأننا لا نقدر أن نتحدث عن كل فرقة وطائفة تناولتها دعوة الشيخ ونقده وإصلاحه؛ نظراً لكثرتها وتشعب الحديث فيها وطوله، ولكنني أكتفي بالحديث عن أبرزها وأكثرها شهرة .

أولاً : الفرق الصوفية :

التصوف مرَّ بمراحل وأطوار متعددة والكلام بذمه مطلقاً خطأ لأنه يدخل في الذم من لا يستوجب الذم لسلامته . والكلام بمدحه مطلقاً خطأ أيضاً لأنه يدخل في المدح من لا يستوجبه . وفيه من يذم من وجه ويمدح من وجه آخر (١) .

وابن تيمية سار على هذا المنهج ،فهو لا يذم ولا يمدح بشكل عام، ويركز في نقده على المعتقدات والأفكار، فتجده مثلاً في كتابه «الاستقامة » الذي ناقش فيه الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري (٢) ، يذكر أن القشيري نقل متفرقات من كلام شيوخ التصوف يستدل به على أنهم كانوا يوافقون في اعتقادهم اعتقاد المتكلمين الأشاعرة،

---

(١) انظر مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية /١٢ قدم لها وعلق عليها عبدالرحمن دمشقية .

(٢) هو : عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة النيسابوري القشيري زين الإسلام ، شيخ خراسان في عصره .. ولد سنة ٣٧٦هـ ،كان صوفياً زاهداً عالماً بالدين ، توفي سنة ٤٦٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٢٢٧/١٨ ، وفيات الأعيان ٢٠٥/٣ .

والقشيري نفسه يعتقد هذا الاعتقاد ، وقد تلقاه عن ابن فورك (١) والإسفراييني (٢) (٣) ، ثم يتوجه ابن تيمية لنقد نقل القشيري وتقصيره وأن له هوى ينصر مذهب الكلابية ، ويدعم نقده بذكر معتقد شيوخ وأئمة التصوف وأنه يوافق ما عليه السلف وليس كما ينقل القشيري عنهم .

يقول رحمه الله :« والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف ، وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر، فإن في الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل : الفضيل ابن عياض (٤) ،وأبي سليمان الداراني (٥) ، ويوسف بن أسباط (٦) ، وحذيفة المرعشي (٧) ، ومعروف الكرخي (٨) ، إلى الجنيد بن محمد (٩) ،

---

(١) هو : أبوبكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني ، الأديب ، النحوي ، الواعظ ، شيخ المتكلمين ، كان شديد الرد على ابن كرام ، وجرت له مناظرات بنيسابور .. وعند عودته من نيسابور ، سُمّ في الطريق ، فمات بقرب بُسْت ، ونقل إلى نيسابور وكان ذلك سنة ٤٠٦هـ . انظر وفيات الأعيان ٢٧٢/٤ ، سير أعلام النبلاء ٢١٤/١٧ .

(٢) هو : إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مِصْرَان أبو اسحاق الأصولي الشافعي ، الملقب ركن الدين ، أحد المجتهدين في عصره ،له مصنفات في الجدل والمناظرة ، وأصول الدين وغيرها . مات سنة ٤١٨هـ . انظر : تبيين كذب المفترى ص٢٤٣ ، ووفيات الأعيان ٤٨/١ رقم ٤ ، وسير أعلام النبلاء ٣٥٣/١٧ .

(٣) انظر الاستقامة ٨١/١ - ٨٢ .

(٤) هو : الفضيل بن عياض بن مسعود بن بِشْر التميمي أبوعلي الإمام الزاهد المشهور ، ثقة عابد روى عنه البخاري ومسلم وغيرهما . مات سنة ١٨٧هـ ، وقيل قبلها ، انظر : وفيات الأعيان ٤٧/٤ رقم ٥٣١ ، وسير أعلام النبلاء ٤٢١/٨ ، وحلية الأولياء ٨٤/٨ رقم ٣٩٧ ، والتقريب /٤٤٨ رقم ٥٤٣١ .

(٥) هو : عبدالرحمن بن أحمد بن عطية ، العنسي ، إمام صالح عابد زاهد ، ولد في حدود ١٤٠هـ وتوفي سنة ٢١٥ هـ ، وقيل ٢٠٥هـ . انظر : تاريخ بغداد ٢٤٨/١٠ رقم ٥٣٦٧ ، انظر : وفيات الأعيان ١٣١/٣ رقم ٣٦٣ ، وحلية الأولياء ٢٥٤/٩ رقم ٤٤٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٨٦/١٠ .

(٦) هو : يوسف بن إسباط الشيباني . كان زاهداً ، ومن سادات المشايخ ، له مواعظ ، وحكم ، قال عنه البخاري : دفن كتبه ، فكان حديثه لا يجيء كما ينبغي ، توفى سنة ١٩٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٦٩/٩ ، تهذيب التهذيب ٢٥٧/٦ ، لسان الميزان ٣١٨/٦ .

(٧) هو : حذيفه بن قتادة المرعشي ، أحد الصالحين العباد ، الزهاد ، صحب سفيان الثوري وروى عنه . انظر :حلية الأولياء ٢٦٧/٨ رقم ٤٠٤ ، وسير أعلام النبلاء ٢٨٣/٩ .

(٨) هو : معروف بن الفيرزان ، أبومحفوظ العابد . المعروف بالكرخي - كان أحد المشتهرين بالزهد والعزوف عن الدنيا، وكان يوصف بأنه مجاب الدعوة ، ويحكى عنه كرامات . مات سنة ٢٠٠هـ ، وقيل غير ذلك . انظر : تاريخ بغداد ١٩٩/١٣ رقم ٧١٧٧ ، وفيات الأعيان ٢٣١/٥ رقم ٧٢٩ ، وحلية الأولياء ٣٦٠/٨ رقم ٤٣٦ ، وسير أعلام النبلاء ٣٣٩/٩

(٩) هو : الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري - الزاهد المشهور هو شيخ الصوفيهة وصحب السرقسطي ، والحارث المحاسبي . ولد سنة ٢٢٠هـ وتوفي سنة ٢٩٧هـ . انظر : تاريخ بغداد ٢٤١/٧ رقم ٣٧٣٩ . وفيات الأعيان ٣٧٣/١ رقم ١٤٤ ، وحلية الأولياء ٢٥٥/١٠ رقم ٥٧١ ، وسير أعلام النبلاء ٦٦/١٤ .

سهل بن عبدالله التستري (١) ،وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ (٢) » (٣) .

ويزيل ابن تيمية أمراً محيراً ناشئاً من هـذا التناقض بين ما عليه الشيوخ الأوائل وبين ما عليه المتأخرون ،ويقرر أن ذلك نشأ بسبب النقل عن الشيوخ الأوائل ، فقد كان غير أمين، ومثال ذلك « ما ذكره أبوالقاسم (٤) في رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة ، ولكن فيه نقصاً عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين ، وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم ، ولم يذكر في كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة » (٥) ، فأبوالقاسم أخطأ خطأين :

الأول : أنه نقص عن طريقة الأولياء الكاملين فلم ينقل الصورة كاملة (٦) .

الثاني: أنه لم يذكر أئمة شيوخ التصوف .... من القرون الثلاثة المفضلة الذين هم القدوة، وجاء بنقول عمن لا يقتدى بهم في ذلك (٧) .

ومن الأسباب أيضاً : الكلام المجمل الذي يستدل به المحق والمبطل (٨) .

وأيضاً : اعتماد المنقولات الضعيفة والاحتجاج بها وبناء منهج علمي وعملي عليها .

وأيضاً : حمل كلام الآخرين من السلف والعلماء والشيوخ على معنى لا يقصده صاحبه ولا يريده .

وأيضاً : الاكتفاء في نقل بعض كلام أهل العلم مما لا يكفي ولا يفي بالغرض في الموضوع المراد مع أن لهم كلاماً صحيحاً صريحاً كثيراً مما هو شفاء للمقتدي بهم الطالب لمعرفة أصولهم (٩) .

---

(١) هو : سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسى بن عبدالله التستري أبومحمد - الصوفي - الصالح الزاهد المشهور . ولد سنة ٢٠٠هـ وقيل ٢٠١هـ . وتوفى ٢٨٣هـ ، انظر :حلية الأولياء ١٠/١٨٩ رقم ٥٤٦، ووفيات الأعيان ٢/٤٢٩ رقم ٢٨١ وسير أعلام النبلاء ١٣/٣٣٠ .

(٢) انظر الاستقامة ١/٨٢ - ١١١ تجد أمثلة تبيّن أن شيوخ التصوف كانوا على مذهب السلف .

(٣) الاستقامة ١/٨٢ .

(٤) عبدالكريم بن هوازم بن عبدالملك بن طلحة النيسابوري القشيري ولد سنة ٣٧٦هـ ، توفى سنة ٤٦٥هـ وله مؤلفات منها : الرسالة القشيرية ، التيسير في التفسير . انظر وفيات الأعيان ٢/٢٠٥ - ٢٠٨ . شذرات الذهب ٢/٣١٩ - ٣٢٢ .

(٥) الاستقامة ١/٨٩ . (٦) انظر الاستقامة ١/٨٩ .

(٧) انظر السابق /٩٠ (٨) انظر مثال هذا في الاستقامة ١/٩١ ، ٩٢ .

(٩) انظر الاستقامة ١/٩٠ ، وانظر ١١٥ - ١١٦ .

وأيضاً : وهو الأساس وإليه يرجع كل الالتباس ، أنهم اتخذوا مصادر لبناء الأحكام الشرعية والمناهج العلمية من غير الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين ، وما أجمعوا عليه ، فاعتمدوا كلام شيوخهم وما يسمونهم أولياء ، ومنهم ضالون مضلون ، ومنهم كفرة منافقون كابن عربي ، والتلمساني ، وابن سبعين [1] ، وأمثالهم من دعاة الحلول والاتحاد ، ومنهم مكذوب عليهم ، واعتمدوا ما يسمونه إلهاماً ، أو وجداناً وخيالاً ومكاشفة ، وأكثره كشف وإلهام وخيال شيطاني لا رحماني .

وتكلم ابن تيمية عن بعض ما يدّعونه من الخوارق والكرامات والكشف والمكاشفة والمخاطبة والإلهام والخيال ،ووضع لذلك الأسس والضوابط بما يتميز به الحق من الباطل .

وبعد هذا البيان في نقد ابن تيمية لمنهج وأصول الصوفية نعرض إلى نماذج عملية من مساعي ابن تيمية الحميدة في دعوة هؤلاء إلى الحق ومنهجه في ذلك .

تصدى ابن تيمية لطائفة الرفاعية ، وابتدأ معهم في بيان ما هم عليه من ضلال ومخالفة للسنة وبيان ما عندهم من حق [2].

ونهج في دعوتهم نهجاً حكيماً حيث صار يبيّن لهم بالتي هي أحسن فيما بينه وبينهم ، ويدلهم على ما فيهم من مخالفة للحق ، يفعل ذلك معهم أفراداً مع كبارهم وجماعات منهم إذا جاءوا عنده في بعض البساتين [3] ونحو ذلك ، وقد أدت هذه الطريقة إلى نتائج جيدة يقول عنها : « وتاب منهم جماعة وأدب منهم جماعة من شيوخهم » [4] ،ولما ذكر بعض مخاريقهم وحيلهم قال : « وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك فلما رأوا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا عليّ أن أسترهم فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة ، حتى قال لي شيخ منهم في مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأني أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يذهب الحيلة ، ومن احترق كان مغلوباً فلما رأوا الصدق أمسكوا » [5] .

---

(١) هو : عبدالحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ابن سبعين الإسبيلي المرسي الرقوطي قطب الدين ، كان من زهاد الفلاسفة ، ومن القائلين بوحدة الوجود ، كفره كثير من الناس ، وله مريدون وأتباع .. ولد سنة ٦١٣هـ ، مات بمكة نزفاً بعد أن فصد وترك الدم يجري سنة ٦٦٩هـ . انظر لسان الميزان ، ٣٩٢/٣ ، الأعلام ٢٨٠/٣ .

(٢) مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية /١٢ .

(٣) مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية /١٣ ، ١٤ تقديم وتعليق عبدالرحمن دمشقية .

(٤) المرجع السابق /١٢ .

(٥) المرجع السابق /١٢ ، ١٣ .

وهذه النتائج الجزئية الإيجابية لم توقفهم عند حدهم ولم يتركوا بدعهم التي يوهمون بها الناس أنهم من السالكين للطريق الإلهي ، فاضطر لنقاشهم في دائرة من يحتكون بهم ويختلطون معهم أو يشاهدونهم بشكل مباشر .

ويذكر أنه بعد أن نهاهم عن بدعهم أظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك فترة ، لكن الناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع ومخالفة الشرع ويحرضون الشيخ عليهم للإيقاع بهم ، ولكن الشيخ ما زال يترفق بهم ويتأنى معهم لعلهم يرجعون إلى الحق ويفيئون إلى الرشد والهدى .

واستعمل في دعوتهم المكاتبات ، فحين أرسل شيخ من شيوخهم إلى ابن تيمية كتاباً بعد كتاب وفيه أدلة مكذوبة وإسرائيليات ، رد عليه ابن تيمية بكتاب ، يقول عن ذلك :« فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب ، فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذاك » (١) .

وحاول ابن تيمية جهده أن يكون الأمر بينه وبينهم ولا يخرج إلى الساحة العامة، وأرسل إليهم مراراً يدعوهم إلى المناظرة والمجادلة من أجل الاتفاق على الحق وإقامة الحجة والمعذرة ، كل ذلك رجاء المنفعة والتذكرة – ولكن كما قال « فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب بالأحوال التي يعدونها للغلاب ، فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ونتفق على اتباع سبيله – فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة ، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم ، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو – على ما ذكر لي – وهم من الصياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العجاب ، فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعذرة وطلباً للبيان والتبصرة .... فعمدوا إلى القصر مرة ثانية » (٢) .

بهذا النص يتبين مدى إصرارهم على نقل القضية إلى ميدان أكبر وجماهير أكثر، حتى أنهم شكوا إلى الأمير معارضة ابن تيمية وتعرضه لهم ، وأرادوا استمالة الأمير إليهم لنصرتهم ، ولكن الأمير يريد فضح باطلهم فلم يرض إلا المقابلة بينهم وبين ابن تيمية ليظهر المحق من المبطل ، والتقى الجمعان ، جمع ابن تيمية وهو أمة وحده وجمع

---

(١) المرجع السابق /١٧ .

(٢) مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية /١٧ قدم لها وعلق عليها عبدالرحمن دمشقية . ط الأولى عام ١٤٠٨هـ . دار طيبة للنشر والتوزيع .

هؤلاء البطائحية الذين ملأوا الساحات وهم بأحوال عجيبة، ودارت المناظرة بينهم بحضور بعض الأمراء والمشايخ والأعيان إلى أن فند ابن تيمية باطلهم حتى أعلن أمام الملأ أنه يدخل النار التي يدخلونها بعد غسل أجسامهم بالماء الحار والخل ومن احترق فهو مغلوب، أو قال فعليه لعنة الله .

وأكثر مشايخهم يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح ، وانتهت هذه المناظرة بانكسار المبتدعة ونزولهم على حكم الكتاب والسنة والتزام هديهما وتعهدوا بذلك (١) .

ثانيًا : طوائف أهل الكلام :

يقرر ابن تيمية أن أهل الكلام الذين خالفوا الكتاب والسنة ،« والذين ذمهم السلف والأئمة لا قاموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد ، بل أخذوا يناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع ، الذين هم أبعد عن السنة منهم ، بطريق لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول ، وهي لا تقطع أولئك الكفار بالمعقول ، فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد ، وأخذوا يقولون إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات ، وأن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكذيباً أو تأويلاً أو تفويضاً – لأنها أصل السمعيات » (٢) ثم يرد عليهم .

وسلوك طريقهم أو الذهاب إلى شيء من مذاهبهم وإن كان عن تأويل ، هو في نظر ابن تيمية نقص وانحطاط عن درجة أولياء الله الكاملين » (٣) .

ونعرض بإيجاز جوانب من حديثه عن بعض طوائف المتكلمين مركزين على أمهات هذه الطوائف وهي :

أ – الجهمية :

أول من أظهر التعطيل وعُرف منه ذلك في الإسلام ، وادعى أن ما يوصف الله به مجاز ، وأقام شبهاً حول ذلك هو الجعد بن درهم (٤) ، فأفتى التابعون بقتله في أوائل

---

(١) انظر مناظرة ابن تيمية للرفاعية /٣٠ ، ٣١ .

(٢) الدرء ٣٧٣/١ . (٣) الاستقامة ٨٩/١ .

(٤) هو: شيخ الجهم بن صفوان ، ومؤدب مروان الحمار ، قال بخلق القرآن وزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولا كلم موسى تكليماً ، قتله خالد بن عبدالله القسري . انظر ٣٩٩/١ ، سير أعلام النبلاء ٤٣٢/٥ ، البداية والنهاية ٣٩٤/٩ – ٣٩٥ .

المائة الثانية ، وكان الجعد زنديقاً ، ومن شؤمه وبلائه أنه كان سبباً في سقوط دولة الأمويين (1) .

ثم أخذ هذه الأفكار والشبهات الجهم بن صفوان (2) ، فأظهر مذهب الجعد ، وجادل وناظر ودافع من أجله في المشرق في أواخر دولة بني أمية ، وقد حكم العلماء بكفره ، فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان ، والجهمية تنسب إليه (3) . وأظهر بدعتين عظيمتين :

الأولى : نفي صفات الله جل جلاله وأسمائه .

الثانية : الغلو في القدر والإرجاء (4) .

وأصول الجهمية نابعة من اليهود ، وضلاّل الصابئين (5) ، فاليهود يصفون الله بالنقائص والعيوب ، والفلاسفة لا يصفون الله بصفة ثبوتية ، وإنما يصفونه بالسلب والإضافة (6) .

ومن تضليل الجهمية أنهم جعلوا نفي الصفات في مسمى التوحيد ، وأنكروا بعض حقيقة الرسالة التي هي كلام الله ، وأنكروا بعض ما في الرسالة من صفات الله (7) . وهم يثبتون لفظ القرآن لكنهم ينفون معناه وحقيقته (8) ، فواقع مذهبهم معارضة القرآن والإعراض عنه ، ويلزم منه تكفير المسلمين (9) .

وهم من أعظم المبتدعة ، وفي نظر كثير من العلماء خارجين عن الاثنتين والسبعين

---

(1) انظر الفتاوى ٣/٣٥٣ ، ٥/٢٠ - ٢٥ ، ٨/٢٢٨ ، ١٠/٦٦ ، ١٢/١١٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ١٣/١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

(2) هو : جهم بن صفوان السمرقنديّ من موالي ابن راسب رأس الجهمية ، قال عنه الذهبي : الضال المبتدع، هلك في زمان صغار التابعين وزرع شراً عظيماً ، قتل سنة ١٢٨هـ ، وسببه أنه كان يقضي في عسكر الحارس بن شريج ، الخارج على أمراء خراسان ، فقبض عليه نصر بن سيار فطلب جهم استبقاءه ، فقال نصر : لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت .. وأمر بقتله فقتل . انظر لسان الميزان ٢/١٤٢ .

(3) انظر الفتاوى ٥/٢٠ - ٢٥ ، ٨/٢٢٩ ، ٤٦٠ ، ١٠/٦٧ ، ١٣/١٨٢ - ١٨٤ .

(4) انظر الفتاوى ٣/١٠٢ ، ٨/٢٢٧ - ٢٣٤ ، ١٢/٣١١ ، ٣١٢ .

(5) انظر الفتاوى ٥/٢٠ - ٢٥ ، ١٢/٣٥١ .

(6) انظر الفتاوى ٥/٢١ - ٢٢ ، ١١/١٤٦ - ١٥٠ .

(7) انظر الفتاوى ١٢/٣٥ .

(8) انظر الفتاوى ١٢/٥٥٢ .

(9) انظر الفتاوى ١٣/٣١ .

فرقة ، والجهمية يقولون : « الإيمان مجرد معرفة الله بالقلب ، وهذا يكون إيماناً يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر ، والعلماء كوكيع بن الجراح [1] ، وأحمد بن حنبل كفروا من قال بهذا القول » [2] .

والجهمية والمعتزلة لم يعرفوا حقيقة ما بعث الله به رسوله ، ولم يحتجوا لما نصروه بحجج صحيحة في المعقول ، فقصروا في معرفة السمع والعقل [3] ؛ ولهذا تسلط عليهم الفلاسفة فأدخلوا في الإسلام - بسبب أهل الكلام - أموراً باطلة .... فصارت البدع باب الإلحاد » [4] . ويقول عن أصلهم المبتدع :« ترجيح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح » ،وظنوا أنهم بهذا الأصل ينصرون الإسلام ، فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا » [5] .

وكثير من الجهمية وافقوا الفلاسفة في نظرتهم لما جاء به الرسول من التوحيد في أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يمكنه أن يبوح بالحق في باب التوحيد فخاطب الجمهور بما يخيل لهم [6]. وقد أجمع السلف والأئمة على ذم الجهمية ، وقد صنفت مصنفات متعددة فيها أقوالهم في ذمهم [7] ، والأئمة كأحمد بن حنبل كانوا يصفون الجهمية والقرامطة والإسماعيلية في مؤلفاتهم بالزندقة ، لأنهم كانوا يعرفون مقصدهم [8] .

والمحفوظ عن أحمد تكفير الجهمية والمشبهة ، ولم يكفر أعيانهم ، بل صلى خلفهم ودعا لهم وأنكر باطلهم [9] .

« والقول قد يكون كفرا ، كمقالات الجهمية ولكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر » [10] .

---

(١) هو : وكيع بن الجراح بن مليح ، الحافظ الثبت ، محدث العراق الرواسي الكوفي أحد الأئمة الأعلام ، ولد سنة ١٢٩هـ ،امتنع عن القضاء أيام الرشيد ، وقيل إنه كان أعور ، توفي بفيد راجعاً من الحج سنة ١٩٧هـ يوم عاشوراء . انظر تذكرة الحفاظ ٣٠٦/١ .

(٢) انظر الفتاوى ١٣٧/٩ ، التفسير الكبير ٥١٣/٧ ، دقائق التفسير ٢٤٣/١ .

(٣) انظر الفتاوى ٤٧٨/٩ ، التفسير الكبير ٥١١/٧ .

(٤) التفسير الكبير ٤١٨/٧ .

(٥) انظر الفتاوى ٣٣/١٣ ، ١٥٧ ، ٧٤٤ - ٥٤٧ ، ٥٥١ .

(٦) انظر الفتاوى ٣٥٦/١٧ .

(٧) انظر التفسير الكبير ٢٠٤/١ ، ٢٩٥ ، وانظر الفتاوى ١٣٧/٩ ، التفسير الكبير ٥١٣/٧ ، دقائق التفسير ٢٤٣/١ .

(٨) انظر الفتاوى ٣٥٢/١٣ ، ٣٥٥ .

(٩) انظر الفتاوى ٥٠٧/٧ ، ٥٠٨ ، ٤٨٩/١٢ ، ٤٨٥ - ٤٨٩ ، ٢٢/٥ ، ٣٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١١٠ .

(١٠) الفتاوى ٦١٩/٧ ، ٤٩٧/١٢ ، ٤٩٨ .

ب – المعتزلة :

بيّن ابن تيمية أوجه الشبه بين الطوائف المنحرفة عن الإسلام وبين اليهود والنصارى، يقول عن المعتزلة : « ... وهم إلى اليهود أقرب ... ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ، ولا أخلاق كريمة ، فهم مغضوب عليهم ، فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم وطريقه وهو الدليل والسلوك وفي طريقه وهو النظر ... ، ولم يلتزموا النظر الشرعي » [(١)] . وهم تلقوا مذهبهم في الصفات من الجهمية فنفوها كما نفاها الجهمية ،إلا أنهم يثبتون الأسماء ، وقد بدأ أمرهم في الظهور وإعلان أفكارهم والمحاجة لهم في أثناء خلافة المأمون [(٢)] ، واستطاعوا إقناعه بكثير من أفكارهم ، خصوصاً القول بخلق القرآن، وقد تصدى لهم أئمة الإسلام ومن أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل ،حيث ناظرهم وأبطل حججهم [(٣)] .ويرى أن المعتزلة نوع من الجهمية ،ومناظرة السلف لم تكن مباشرة مع المعتزلة وإنما مع الجهمية الذين أخذ المعتزلة أفكارهم [(٤)] .

والمعتزلة وأتباعهم ينفون الصفات وثبتون أحكامها ويرجعونها إلى العلم والقدرة [(٤)] ، وهم يضيفون إلى نفي صفات الله أفعاله ويسمونها أعراضاً حوادث .

والجهمية والمعتزلة يسمون كل من أثبت شيئاً من الصفات مشبها بناء على هذا الرأي الفاسد في الصفات [(٧)] .

ثم هم سلكوا مسلك الجهمية في الصفات ، ومسلك الوعيدية في باب الأسماء والأحكام ، ومسلك القدرية في باب القدر .

وناقش ابن تيمية أصول المعتزلة الخمسة وذكر أن توحيدهم ليس توحيداً وإنما هو تلحيداً .

وهم في تعاملهم مع نصوص الشريعة أقرب إلى مسلك اليهود . ومن زورهم

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٣/١ – ٢٠٤ ، وانظر التفسير الكبير ٢٤٨/٦ .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (١٣٥) .

(٣) انظر الفتاوى ٢٠/١ – ٢٥ ، ٥٥٣ ، ٦٧/١٠ ، ٢٣/١٢ ، ٣١١، ٣١٢ ، ٣٣٣ – ٣٣٥ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ١٨٢/١٣ – ١٨٤ ، ٣٤٨/١٤ – ٣٥٣ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٢٩/٨ .

(٥) انظر الفتاوى ٣٥٥/٥ ، ٢٤٨/١١ .

(٦) انظر ٢٢٠/٦ ، ٢٢١ ، ١٤٩/١٨ – ١٥١ .

(٧) انظر ١١٠/٥ – ٢١٢ .

وتضليلهم أنهم سموا أنفسهم « الموحدين » ومذهبهم «التوحيد » ولكن توحيدهم لم يسلم لهم ، فقد وقعوا في تناقض وحيرة اعترف بها أساطينهم ورجعوا يلتمسون التوحيد عند علماء السلف (١) .

ونظراً للأخطاء والتناقضات الشنيعة التي وقع فيها المتكلمون من الجهمية والمعتزلة ومن نهج منهجهم واتبع سبيلهم في نفس صفات الباري وأفعاله وقدرته وكلامه ، تسلط الفلاسفة عليهم ودخلوا عليهم من أبوابهم التي فتحوها على غير هدى من الله « فإن الفلاسفة طمعت في طوائف أهل القبلة بما ابتدعه كل فريق فأخذت بدعة أصحابها واحتجت بها عليهم » (٢) ، ووجد الفلاسفة في عدم قدرة هؤلاء على الرد مطاعن يطعنون بها الإسلام وشبهات يشككون بها المسلمين(٣) .

وقد أطلق بعض العلماء على المعتزلة بأنهم مخانيث (٤) الفلاسفة (٥) ، وإن كان هذا القول غير دقيق لأن جهماً سبقهم إلى هذه الأصول ، ويمكن أن يكون دقيقاً إذا قلنا مخانيثهم من بعض الوجوه (٦) .

ج -الأشاعرة :

يُنْسَبون إلى أبي الحسن الأشعري (٧) ، وقد كان أبوالحسن هذا على مذهب المعتزلة [٤٠] عاماً ، ثم انتقل عنه (٨) ، وآخر حاله الانتساب إلى أهل الحديث ، ولكن هو ليس في أصل مقالته على السنة المحضة (٩) .

---

(١) انظر الفتاوى ١٠٣/٣ ، ١٠٤ ، ٣٥٩/٥ ، ٢٥٨/٨ ، ١٠٠/١٣ ، ١٠١ ، ٣٨٦ .

(٢) الفتاوى ٥٢٦/٦.　　(٣) انظر الفتاوى ٥٢٥/١٨ .

(٤) ليس هو أول من استخدم هذه العبارة ، فشيخ الإسلام الأنصاري المتوفى سنة ٤٨١هـ قال « الأشعرية الإناث هم مخانيث المعتزلة » . والشهرستاني المتوفي سنة ٥٤٨هـ قال عن المعتزلة : « الخناثى من المعتزلة لا رجال ولا نساء » نهاية الإقدام /١٥٩ . وفي الحديث الصحيح (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اختناث الأسقية ، يعني أن تكسر أفواهها فيشرب منها) وفي رواية أخرى (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن اختناث الأسقية) قال عبدالله قال معمر أو غيره : (هو الشرب من أفواهها) كتاب الأشربة ، باب اختناث الأسقية ٢٣ ، رقم الأول ٥٦٢٥ والثاني ٥٦٢٦ ، فتح الباري ٨٩/١٠ ، وانظر الفتاوى ٢٢٧/٨ ، ٣١/١٢ ، ٣٤٨/١٤ ، ٣٤٩ وجامع الرسائل ١١٤/١ وانظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٨٥٦/٣ ، ٨٥٧ هامش رقم ١ .

(٥) انظر الفتاوى ٣٥٩/٦ ، ٢٢٧/٨ .　　(٦) انظر السابق ٣٤٩/١٤ .

(٧) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤٠) .　　(٨) انظر الفتاوى ٩٩/١٣ .

(٩) انظر الفتاوى ٥٢/٦ ، ٥٣ .

والأشعري وأئمة أصحابه يثبتون الصفات الخبرية ، بخلاف أبي المعالي وأتباعه (١) ، فهم أقرب إلى أهل السنة والحديث من المعتزلة ، ولا يرون الخروج على الأئمة كما تراه المعتزلة والرافضة (٢) .

والأشعرية فيما يثبتونه من السنة فرع على الحنبلية ، ومتكلمة الحنبلية فرع عليهم(٣). والمعتزلة استطالوا على الأشاعرة بسبب أنهم (٤) وافقوهم في نفي أفعال الله، وكذلك وافق الأشعري وابن كلاب وأتباعهما الجهمية على أكثر بدعتهم (٥) .

وقد قال بعض الأئمة في الأشاعرة إنهم « مخانيث المعتزلة » (٦) ، وأوضح ابن تيمية حكم الانتساب إلى الأشاعرة ، فعمد إلى التفريق بين الانتساب إلى كتاب « الإبانة» الذي صنفه الأشعري في آخر عمره ، وبين الانتساب إلى « الأشعرية » بصفة عامة .

يقول عمن قال بكتاب« الإبانة » ولم يظهر له قول يناقضه : « فهذا يُعدُّ من أهل السنّة » (٧) .

والانتساب إليهم بوجه عام قال إنه « بدعة لا سيما وذلك يوهم حسن الظن بكل من انتسب هذه النسبة وينفتح بذلك أبواب شر » (٨) .

وقد حصل عدد من لقاءات المناظرة والحوار بين ابن تيمية وعدد من الأشاعرة علماء وفقهاء وقضاة وأتباعاً .

ومن أبرز هذه اللقاءات مجالس مناقشته في العقيدة « الواسطية » « والحموية » ، واستطاع أن يبين لهم الاعتقاد السلفي السليم ، ولم يصمد أمامه أحد منهم ، واعترفوا بصحة ما يقول ويعتقد من العقائد وكان يرى من واجبه دعوة هؤلاء إلى الحق فكان مراراً يدعوهم إلى منهج السلف الصالح ، بعد أن بيّن لهم بعدهم عنه (٩) .

---

(١) انظر الفتاوى ١٣٣/١٢ - ١٣٥ ، ٢٠٢ - ٢٠٦ ، ١٣٩/١٣ .

(٢) انظر الفتاوى ٣٢/١٢ ، ٣٣ .

(٣) انظر الفتاوى ٥٣/٦ ، ٥٤ .

(٤) انظر الفتاوى ١٢٦/٨ - ١٢٩ .

(٥) انظر الفتاوى ٥٢٠/٦ .

(٦) الفتاوى ٣٥٩/٦ ، ٢٢٧/٨ .

(٧) الرسالة المدنية /٣٩ ، وانظر الفتاوى ٥٥٧/٥ ، ٣٥٩/٦ ، ٣٦٠ .

(٨) الرسالة المدنية /٣٩ ، وانظر الفتاوى ٥٥٧/٥ ، ٣٥٩/٦ ، ٣٦٠ .

(٩) لمزيد من الاطلاع على جهد ابن تيمية مع الأشاعرة لهدايتهم إلى الحق وبيان ما عندهم من ضده أحيل على رسالة الدكتوراه « موقف ابن تيمية من الأشاعرة » د/ عبدالرحمن بن صالح المحمود ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كلية أصول الدين .

ثالثًا : الفلاسفة والمناطقة :

يرى ابن تيمية ما يراه جمهور السلف أن الإسلام ليس له فلاسفة ،وأن الفلاسفة ليسوا من المسلمين ، يقول رحمه الله كنموذج لهذه المسألة : « وكان يعقوب ابن إسحاق الكندي (١) فيلسوف الإسلام في وقته ، أعني الفيلسوف الذي في الإسلام ، وإلا فليس الفلاسفة من المسلمين ، كما قالوا لبعض أعيان القضاة الذين كانوا في زماننا: ابن سينا من فلاسفة الإسلام ، فقال : ليس للإسلام فلاسفة » (٢) .

وحقيقة قول أهل المنطق ومن تابعهم من الفلاسفة كما قرره ابن سينا وأمثاله في الذات الإلهيه أن كل موجود في الوجود أكمل من الذات الإلهية . وذكر أنهم مختلفون في الباري ولهم فيه آراء عدة .

وأما الرسل فبعض الفلاسفة يتهمهم بالجهل ، حيث إنهم لا يعلمون حقائق العلوم الإلهية والكلية . وبعض آخر يقولون : الرسول يعلم الحقائق لكنه كذب على الناس للمصلحة فخاطبهم بالتخييل . يقول بذلك ابن سينا وأمثاله ، وابن رشد الجدّ وأمثاله من الباطنية (٣) .

وأما التوحيد والإيمان بالرسل واليوم الآخر والعمل الصالح فهي « ليست في حكمتهم وفلسفتهم المبتدعة ، ليس فيها الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن عبادة المخلوقات – بل كل شرك في العالم إنما حدث برأي جنسهم ... » (٤).

وما ذكره من الطرق المنطقية والفلسفية إنما يفيد علوماً قليلة خسيسة لا كثيرة ولا شريفة ، وهذه مرتبة القوم ،فإنهم من أخس الناس علماً وعملاً ، وكفار اليهود والنصارى أشرف علماً وعملاً منهم من وجوه كثيرة ، والفلسفة كلها لا يصير صاحبها في درجة اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل فضلاً عن درجتهم قبل ذلك » (٥) .

وقد أشار ابن تيمية إلى صدهم عن الإسلام حينما أشاروا على التتار بعدم الدخول

---

(١) هو : يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي ، فيلسوف العرب والإسلام في عصره ، وأحد أبناء الملوك من كندة ، اشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك وشى به إلى المتوكل فضرب وأخذت كتبه ثم ردت إليه .. توفي نحو سنة ٢٦٠هـ . انظر الأعلام ١٩٥/٨ .
(٢) انظر الدرء ١٥٩/٢ – ١٦٧ .
(٣) الفتاوى ١٥٦/١٩ ، ١٥٧ ، وانظر ٣٥٦/١٧ ، وانظر ٢٢٨/١١ ، ٢٢٩ .
(٤) الفتاوى ١٨٦/٩ . (٥) الرد على المنطقيين /٢٥٢ .

في الإسلام [1] .

ومن جانب آخر فقد تصدى ابن تيمية لكتب أشهر مفكري الفلاسفة والمنطقيين ونقدها وبيّن أخطاءها خصوصاً أنه وجد أن كثيراً من الناس يقدسون كتاب « الإرشاد » لإمام الحرمين [2] ، و « أساس التقديس » وكتاب « الأربعين في أصول الدين » ، كلاهما للرازي [3] ، وكتاب« الاقتصاد في الاعتقاد » للغزالي، وأخذوا ما فيها من آراء وأفكار واعتقدوا صحتها والتزموها ودافعوا عنها ،وخطأ كثيراً من آراء وأفكار المتكلمين والفلاسفة والمنطقيين بأدلة نقلية وعقلية ، وصنف في هذا عدداً من الكتب كان لها أبلغ الأثر مثل : « كتاب تخليص التلبيس من كتاب التقديس » في الرد على أساس التقديس للرازي ، وكتاب « درء تعارض العقل والنقل » وكتاب « تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلاميه » وكتاب « النبوات » وكتاب « الرد على المنطقيين» وكتاب« نقض المنطق » [4] .

ثم عمد إلى الشخصيات التي جعلت من أنفسها أنابيب تنقل العفن من المنطقيين والفلاسفة إلى المسلمين كالفارابي وابن سينا [5] وابن رشد [6] وغيرهم ممن انتسب إلى الإسلام وحملوا لواء الفلسفة والمنطق ، فبيّن أن فلسفة هؤلاء منقوله عن « أرسطو » الذي يسمونه « المعلم الأول »، وكان هو وقومه وثنيين مشركين يعبدون الأصنام [7] .

وذكر أن هؤلاء وأمثالهم أفسدوا بطريقتهم الفطرة فصاروا يسفسطون في العقليات ويقرمطون في السمعيات [8] .

رابعًا : دعوة أهل الكتاب :

دعوة الإسلام دعوة عالمية شاملة لجميع الإنس والجن ، وهموم المسلمين وآلامهم قبل آمالهم لم تُنسِ ابن تيمية تلك العالمية ، فوجه بعضاً من اهتمامه إلى أهل الكتاب من

(١) انظر الرد على المنطقيين /٢٤٨ .

(٢) إمام الحرمين هو : عبدالملك بن عبدالله بن يوسف أبوالمعالي الجويني النيسابوري ،كان إماماً في الفقه والأصول ، وكان على طريقة الأشعرية في التأويل . ولد سنة ٤١٩هـ ومات سنة ٤٧٨هـ . انظر :سير أعلام النبلاء ٤٦٨/١٨ ، تبيين كذب المفترى /٢٧٨ ، وفيات الأعيان ١٦٧/٣ رقم ٣٧٨ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٦٥) .

(٤) انظر الرد على المنطقيين /١٨٦ .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٨٢) .

(٦) تقدمت ترجمته في صفحة (٧١) .

(٧) الرد على المنطقيين /١٨٦ ، وانظر الفتاوى ٢٢٧/١١ ، ٢٢٨ .

(٨) النبوات /١٤٨ .

اليهود والنصارى ، وأكثر اهتمامه كان بالنصارى ؛لأنهم أكثر من اليهود في بلاد العرب خصوصاً منطقة الشام وحدودها ، ولأن بينهم وبين المسلمين احتكاكات ومناوشات ومؤامرات ، ولأنهم أقرب إلى الاهتداء من اليهود .

اهتم شيخ الإسلام بتحديد « الكتابي » ومن هو الذي يصح أن يطلق عليه هذا المصطلح ،يقول :« وبالجملة فالقول بأن أهل الكتاب المذكورين في القرآن هم من كان دخل جده في ذلك قبل النسخ والتبديل قول ضعيف ، والقول بأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أراد ذلك قول ضعيف ، بل الصواب المقطوع به : أن كون الرجل كتابياً أو غير كتابي هو حكم مستقل بنفسه لا بنسبه ، وكل من تدين بدين أهل الكتاب فهو منهم سواء كان أبوه أو جده دخل في دينهم أو لم يدخل ، وسواء كان دخوله قبل النسخ والتبديل أو بعد ذلك ، وهذا مذهب جمهور العلماء : كأبي حنيفة ومالك ، وهو المنصوص الصريح عن أحمد ، وإن كان بين أصحابه في ذلك نزاع معروف ، وهذا القول هو الثابت عن الصحابة رضي الله عنهم ، ولا أعلم بين الصحابة في ذلك نزاعاً، وقد ذكر الطحاوي (١) أن هذا إجماع قديم . والصواب قول الجمهور والدليل عليه من وجوه » ثم ذكر ستة أوجه (٢) .

وقد ناقش ابن تيمية عدداً من أهل الكتاب نقاشاً مباشراً وغير مباشر من خلال كتبهم ومقولاتهم، يقول رحمه الله : « وقد ذكرت في الرد على النصارى من مخالفتهم للأنبياء كلهم مع مخالفتهم لصريح العقل ما يظهر من كفرهم ما يظهر ، ولهذا قيل فيه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ،وخاطبتهم في مقامين :

أحدهما : تبديلهم لدين المسيح .

الثاني : تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم .

واليهود خطابهم في تكذيب من بعد موسى ، ثم في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم(٣) ،وما في القرآن من أمر لليهود والنصارى باتباع حكم التوراة والإنجيل إنما هو مما لم ينسخه الشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أمر اليهود بعد

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن سلامة بن سَلَمة بن عبد الملك الأزدي الإمام الحافظ الثقة الثبت ، له مؤلفات كثيرة منها « شرح مشكل الآثار » . ولد سنة ٢٣٩هـ وقيل غير ذلك وتوفي ٣٢١هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٧/١٥ ، وفيات الأعيان ٧١/١ رقم ٢٥ ولسان الميزان ٢٧٤/١ رقم ٨٣٦ ، الفهرس ٢٩٢ .
(٢) التفسير الكبير ٣٥/٤ ، ٣٦ ، وانظر ٣٦ - ٤٢ .
(٣) الفتاوى ١٨٩/١٩ .

مبعث موسى باتباع التوراة مما لم ينسخه عيسى عليه السلام من حكمها ، وفي التوراة أمرهم باتباع محمد ، وقد أمروا في الإنجيل باتباع محمد كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ (١) ، والقرآن مهيمن لما بين يديه من الكتاب بمعنى أنه شاهد وحاكم مؤتمن ، فهو يحكم بما فيها مما لم ينسخه الله .

واستمر في نقاش هذه القضية الهامة إلى أن قال : « فليس في أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ، فمن حكم بالمنسوخ فقد حكم بغير ما أنزل الله ،ومما يوضح هذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾ (٢) ، فدل ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله، وأنهم مأمورون بإقامته إذا كان مما قرره محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينسخه .. الخ » (٣) .

ويطرح اعتراضاً ثم يجيب عليه يقول : فإن قيل : فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة ، فلماذا ذم أهل الكتاب عن ترك الحكم بما أنزل الله منها ... ؟ قيل : النسخ لم يقع إلا في قليل من الشرائع ، وإلا فالأخبار عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وغير ذلك لم ينسخ ، وكذلك الدين الجامع والشرائع الكلية لا نسخ فيها ، وهو سبحانه ذمهم على ترك اتباع الأول ، لأن أهل الكتاب كفروا من جهتين :

من تبديلهم الكتاب الأول ، وترك الإيمان والعمل ببعضه ، ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثاني وهو القرآن ... الخ (٤) .

وركز ابن تيمية على أن اليهود والنصارى لو حكموا بما عندهم مما أنزل الله في التوراة والإنجيل لآمنوا بالإسلام وببعثة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهما تضمنا الأمر باتباعه .

فهو لا ينكر أنه وقع تحريف وتبديل لأن الله ذكره ، لكنه يقول في الكتب ما يدل على المحرف المبدل وأكثره في تحريف ألفاظ الأخبار دون الأحكام . ومما ناقشه ابن تيمية عدد من القضايا والشبهات التي أثاروها ، فتحدث عنها باسطاً ميزان

---

(١) سورة الأعراف آية (١٥٧) .
(٢) سورة المائدة آية (٦٨) .
(٣) التفسير الكبير ٤/١١١ .
(٤) التفسير الكبير ٤/١١٥ .

العـدل : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١)، فمن هذه الشبهات والقضايا ما يلي :

١ – قول النصارى: إن القرآن أثنى علينا وأنه نفى عنا اسم الشرك (٢) .

٢ – وكذلك قولهم إن الله في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) ساوى بهذا القول بين سائر الناس : اليهود والمسلمين وغيرهم (٤) .

٣ – وادعاؤهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جاهلية العرب (٥) . وقولهم لا يلزمنا اتباع محمد لأننا جاءنا رسل من قبله (٦)... وإنه في القرآن تعظيم المسيح وأمه (٧) ، ووجدناه يعظم إنجيلنا ويقدم صوامعنا ومساجدنا (٨) ، وأن القرآن أيدهم (٩) .

وقالوا عن قوله تعالى :﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٠) ،إنه بهذا ثبت ما معنا ، ونفى عن إنجيلنا التهم والتبديل (١١) ،دعواهم أن الرسول كان شاكاً فيما جاء به (١٢) .

٤ – دعوى المشابهة بين عقيدة المسيحيين في « المسيح » وعقيدة المسلمين في « أزلية القرآن » (١٣) .

وكان رحمه الله يناقش مع علمائهم ويبين لهم الحق ويدعوهم إلى الإسلام ، يقول رحمه الله :« ولهذا كنت أتنزل مع علماء النصارى إلى أن أطالبهم بالفرق بين المسيح

---

(١) سورة المائدة آية (٨) .
(٢) انظر التفسير الكبير ١٢٧/٤ ، ١٣٠ .
(٣) سورة المائدة آية (٦٩) .
(٤) التفسير الكبير ١٣٦/٤ .
(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢٩/١ ، ١٦١ ، ٣٨/٢ .
(٦) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢٠٣/١ .
(٧) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢٢٩/١ .
(٨) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢٧١/١ .
(٩) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١٣٤/٢ .
(١٠) سورة يونس آية (٩٤) .
(١١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣٣٤/١ ، ٣٤١ .
(١٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣٣٤/١ ، ٧٧/٢ .
(١٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٩٣/٣ .

وغيره من جهة الإلهية فلا يجدون فرقاً ، بل أبين لهم أن ما جاء به موسى من الآيات أعظم ، فإن كان حجة في دعوى الإلهية فموسى أحق ، وأما ولادته من غير أب فهو يدل على قدرة الخالق لا على أن المخلوق أفضل من غيره» (١) .

ويرى أنه لا مانع من ترجمة ما في كتب أهل الكتاب من الحق الموافق لشريعتنا؛ لأننا نستفيد في هذا عند مناظرتنا لهم (٢) ، وهذا يدل على أن في كتب اليهود والنصارى مستندات ضدهم تبين الحق وتجعلهم ينهزمون عند النقاش ، كما انهزموا وأسلم كثير منهم لما ناظرهم .

قال رحمه الله : « وأما اليهود والنصارى فأصل دينهم حق ... لكن كل من الدينين مبدل منسوخ ، فإن اليهود بدلوا وحرفوا ثم نسخ بقية شريعتهم بالمسيح صلى الله عليه وسلم .

ونفس الكتب التي بأيدى اليهود والنصارى – مثل نبوة الأنبياء وهي أكثر من عشرين نبوة وغيرها – تبين أنهم بدلوا وأن شريعتهم تنسخ ، وتبين صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن فيها من الأعلام والدلائل على نبوة خاتم المرسلين ما قد صنف فيه العلماء مصنفات ، وفيها أيضاً من التناقض والاختلاف ما يبين أيضاً وقوع التبديل ، وفيها من الأخبار من نحو بعدها ما بيّن أنها منسوخة ، فعندهم ما يدل على هذه المطالب .

وقد ناظرنا غير واحد من أهل الكتاب ، وبينا لهم ذلك ، وأسلم من علمائهم وخيارهم طوائف ، وصاروا يناظرون أهل دينهم ، ويبينون ما عندهم من الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ... وهذا من الحكمة في إبقاء أهل الكتاب بالجزية ، إذ عندهم من الشواهد والدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعندهم من الشواهد على ما أخبر به من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ما يبين أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء بالدين الذي بعثت به الرسل قبله ، وأخبر من توحيد الله وصفاته بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (٤) » (٥) .

---

(١) انظر الفتاوى ١١٣/٤ (٢) انظر الدرء ٤٣/١ – ٤٦ . (٣) سورة الأحقاف آية (١٠) .
(٤) سورة الرعد آية (٤٣) . (٥) الفتاوى ٢٠٨/٤ – ٢٠٩ .

وقد أرسل رحمه الله رسالة إلى أحد حكام النصارى (١) ،ضمنها بيان ما في النصرانية من العقائد الصحيحة والعقائد الباطلة ، وما فيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الله لا يقبل ديناً غير الدين الذي جاء به ، وأن الله ختم به الأديان ، ونسخ بالقرآن سائر الكتب (٢) .

ب ـ شمول دعوته للمرأة :

المرأة كما يقولون هي نصف المجتمع ، وهي نصف ذو أهمية وخطورة ، لذا لم يغفل عنها ابن تيمية في منهجه الدعوي ، برهان هذا اهتمامه بالمرأة عناية وتوجيهاً ، فأبرز في أقواله ومؤلفاته قواعد الشريعة فيما يخص المرأة ، وتناولها بالشرح والإيضاح ، ووضع الضوابط التي من شأنها صيانة المرأة والوصول بها إلى حياة سعيدة بناءة .

وركز على بيان أوضاع المرأة من حيث : التكوين الفطري ، والعقلي ، والنفسي ، فالمرأة فيها عوج ، ونقص دين ، ونقص عقل لا يوجد في الرجل ، ونفسها رقيقة عاطفية وسريعة الانجذاب ، لذا يكثر في النساء التقليد .

ويوجد بين المرأة والرجل تجاذب وحنين وشوق كانجذاب الفرع إلى الأصل ، وحنين الأصل إلى الفرع ، وهذا الرجل مع قوة نفسه وبأسه وجلده بما يفوق المرأة إلا أننا نجد أنه « ضعيف لا يصبر عن النساء » (٣)، ويورد حديث النبي صلى الله عليه وسلم :(ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) (٤).

من أجل هذا فالمرأة يخاف منها وعليها خوفاً عظيماً فأهم الأمور في نظره «صيانة المرأة عن أن تُفتَن أو تَفتِّن » (٥) ، ويقول: « المرأة يجب أن تصان وتحفظ بما لا يجب مثله في الرجل » (٦) .

وقد نفذ ما يدعو إليه فوضع منهجاً شاملاً يتم به تربية المرأة تربية إسلامية تصان بها وتحفظ لتكون قوة معمرة في المجتمع تؤدي دور التربية والإصلاح .

ومن أبرز ملامح هذا المنهج ما يلي :

---

(١) هي الرسالة القبرصية « لسرجواس » حاكم قبرص لشيخ الإسلام ابن تيمية اعتنى بها وعلق عليها علاء الدين ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، دار ابن حزم .

(٢) انظر المرجع السابق . (٣) التفسير الكبير ٣٨١/٥ .

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري وطرفه « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم » كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ٦ ، رقم الحديث ٣٠٤، فتح الباري ٤٠٥/١ .

(٥) الاستقامة ٣٥٩/١ . (٦) التفسير الكبير ٢٥٢/٥ .

أ - التحصن من الفتنة بها :

لما كانت المرأة فيها إغواء وإغراء للرجل ، ومهمة الرجل هي الكدح في الحياة لطلب الرزق والسعي في مناكب الأرض ، كان من حكمة التشريع الإسلامي أن جعل الحجاب على المرأة وجعل عملها ومهمتها داخل المنزل : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ (١) ؛ لأن ظهور النساء من أسباب الفتنة بهن ، ولأن النفس تحب رؤية الصور الجميلة وتميل إليها ومن ضمن ذلك النساء ، ويجوز للمرأة أن تخرج لحاجة متأدبة بأدب الإسلام (٢) .

وإذا احتاجت لمحادثة الرجال فالواجب الابتعاد عن الخضوع بالقول حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض « ... وهو مرض الشهوة فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يتلفت إليها ، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض .» (٣) .

وأمام غير المحارم يلزم أن يكون لباسها ساتراً لكل جسمها (٤) ، لا يظهر منه شيء ولا يصفه ، ولا يكون من ألبسة التشبه بالرجال أو الكفار، لأنه ورد لعن من فعلت ذلك.

ولا يكون أيضاً ثوب شهرة يلفت الأنظار إليها ، وهذا كله واجب في حقها غاية الوجوب (٥).

وإذا خرجت المرأة عن سمتها وموجب هيئتها الشرعية وطبيعتها الأنثوية ،كأن تتشبه بالرجال فيما يكون من سمتهم وطبيعتهم الخلقية، فإنها لا بد أن تؤدب وتمنع وترد إلى رشدها ، لأن تقليدها وتشبهها بالرجال تفحش منها (٦) « فيكون من أدبها أن تحبس شبيهاً بحالها إذا زنت سواء كانت بكراً أو ثيباً ، وعقوبة الحبس مما شرع في جنس الفاحشة » (٧) .

والمرأة التي تعرف بريبة تكون بها مصدر فتنة وإثارة للرجال ، فإنه

---

(١) سورة الأحزاب آية (٣٣) . (٢) انظر الاستقامة ٣٥٩/١ . (٣) الفتاوى ٩٥/١٠ .
(٤) انظر الفتاوى ١١٠/٢٢ - ١١١ ، التفسير الكبير ٢٥٢/٥ .
(٥) انظر الفتاوى ١٣٠/٣٤ . (٦) انظر التفسير الكبير ٢٧٣/٥ .
(٧) التفسير الكبير ٢٧٣/٥ .

يلزم إبعادها عن مواضع الريب بحسب الإمكان ، فإن دفع الضرر عن الدين بحسب الإمكان واجب » (١) .

ب – الوسط الاجتماعي للمرأة :

يلزم المرأة أن تكون مع نساء صالحات تعيش معهن مجتمع الأخوة الإيمانية ، وتبتعد عن النساء الفاجرات والفاسقات وصاحبات البدع ، وعن إضاعة الأوقات بما لا يفيد ، لأن المرء على دين خليله ، « فالمصاحبة والمصاهرة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله » (٢) .

والمرأة الفاجرة تبذل جهدها في للتأثير على من حولها ليكونوا مثلها ، ومن كمال حفظ المرأة وحسن تربيتها أن يهيأ لها مجتمع صالح فيه من الإيمان والعلم والذكر ما تحفظ به قلبها وعقلها وجميع جوارحها .

ولو تحقق لها هذا المجتمع فإنها تظل بحاجة إلي قوامة الرجل لأنه من لوازم حفظها وصيانتها . وفي الحديث :(النساء لحم على وَضَمٍ إلا ما ذب عنه) (٣) .

والرجال هم القوامون على النساء ، والمرأة كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عانية عند الرجل والعاني الأسير، فهو مؤتمن عليها ولذا أباح الله له أن يضربها ، وإنما يؤدب غيره من له ولاية عليه (٤) . فعليهم مسؤولية حفظ المرأة وصيانتها ، حتى من بعض محارمها الذين يخاف عليها الفتنه بهم ،وذلك مثل : ابن زوجها ، وابنه ، وابن أخيه ، وابن أختها ، ومملوكها عند من يجعله محرماً ، أو كان يخاف عليهم الفتنة بها فإنه يلزم احتجابها عنهم .

ج – العناية بالمرأة منذ الصغر :

والحفظ والرعاية للمرأة يلزم أن يكون مبكراً ليتم التأسيس الإيماني قبل أن يرد إلى القلب ما يلوث الفطرة ويفسدها ، وهذا من أسرار اهتمام ابن تيمية بحضانة الصغيرة ، حيث أولاه عناية كبيرة مما جعله يعيب على بعض العلماء قصور نظرهم في مراعاة

---

(١) الاستقامة ٣٥٩/١ وما بعدها . (٢) التفسير الكبير ٢٩٣/٥ .

(٣) أثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . انظر كنز العمال ٤٦٥/٥ رقم ١٣٦٢٩ ، وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ٣٥٤/٣ ، والفائق في غريب الحديث للزمخشري ٢٦٠/٣ « الكاف مع السين » والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٩٨/٥ . « وضم » وكلها بالضاء ، والوضم : كلما وقيت به اللحم من الأرض . انظر المراجع السابقة .

(٤) انظر الفتاوى ٧٩/٣٤ - ٨٠ .

المصالح ، واضعاً أمر تربيتها واستقامتها على الإيمان والعفاف في المرتبة الأولى ، فمن كان عليه أقدر فهو بها أولى .

وانتهت دراسة ابن تيمية لموضوع حضانة الصغيرة : أنها تكون عند أحد الأبوين على حسب الأصلح لها ، ولا يرى تخييرها ولا ترددها بينهما لأنها « إذا خيرت فكانت عند الأم تارة ، وعند الأب تارة ،أفضى ذلك إلى كثرة بروزها وتبرجها ، وانتقالها من مكان إلى مكان ، ولا يبقى الأب موكلاً بحفظها ولا الأم موكلة بحفظها ، وقد عرف بالعادة أن ما يتناوب الناس على حفظه ضاع ، ومن الأمثال السائرة لا يصلح القدر بين طباخين ، وأيضاً اختيار أحدهما يضعف رغبة الآخر في الإحسان والصيانة » (١) . والمرأة مهما كانت في نسبها ودينها هي بحاجة إلى من يكفلها ويحصنها ، ومريم عليها السلام احتاجت إلى كفيل وحاضن حتى أسرعوا إلى كفالتها قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ (٢) ، فكيف غيرها من النساء ، وهذا أمر معروف بالتجربة أن المرأة تحتاج من الحفظ والصيانة مالا يحتاج إليه الصبي ، وكل ما كان أسترلها وأصون كان أصلح لها » (٣) .

وإذا كنا نبالغ في وجود المحرمية والقوامة والمرأة كبيرة عاقلة عارفة فحاجتنا إلى ذلك أشد وآكد إذا كانت صغيرة مميزة ، وقد بلغت من ثوران الشهوة فيها ، وهي قابلة للانخداع (٤) .

د – المرأة وبيت الزوجية :

الزواج في نظر ابن تيمية يشكل مرحلة مهمة في حياة الزوجين ، ولها تأثير قويّ سريع . وقد جاء ذلك من الأثر النفسي والعاطفي والقلبي الذي يحدث بعد النكاح لأن « ... المناكحة في أصل اللغة : المجامعة والمضامة فقلوبهما تجتمع إذا عقد العقد بينهما ، ويصير بينهما من التعاطف والتراحم ما لم يكن قبل ذلك » (٥) .

وانطلاقاً من هذا فإنه يلزم حفظ المرأة من قرين يفسدها ، فإن الرجل الفاجر خطر عليها ، فإنه إذا لم يفسد فراشها كان قرين سوء لها كما قال الشعبي : « من زوج كريمته من فاسق قطع رحمها ، وإذا كان نكاح الزانية أشد من جهة الفراش ، فإن نكاح الزاني أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم على المرأة فتبقى المرأة الحرة العفيفة

---

(١) الفتاوى ١٢٨/٣٤ – ١٣٠ . (٢) سورة آل عمران آية (٤٤) .
(٣) الفتاوى ١٢٩/٣٤ ، وانظر ص١٣١ . (٤) انظر الفتاوى ١٣٠/٣٤ . (٥) التفسير الكبير ٢٩١/٥ .

في أسر الفاجر الزاني يقصر من حقوقها ويتعدى عليها ، ولهذا اتفق الفقهاء على اعتبار الكفاءة في الدين ، وعلى ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة » (١) .

ويلفت الأنظار إلى خطورة هذا الأمر ببيان النتائج المترتبة على زواج المرأة من الزاني ، أو من كونه زانياً بعد زواجه منها .

فالإسلام شرع النكاح لإفراغ الطاقة الجنسية والعاطفية في مجال مباح وهو الزواج، وهي بحاجة إلى هذا أيضاً ، فإذا أفرغها في غيرها أصبح مقصراً معها منصرفاً عنها فلا يكون قادراً على إعفافها، وإذا لم يعفها تشوقت هي إلى غيره فزنت به كما هو الغالب على نساء الزواني ، أو من يلوط بالصبيان ، فإن نساءه يزنين ليقضين أربهن ووطرهن ، ويراغمن أزواجهن بذلك حيث لم يعفوا أنفسهم عن غير أزواجهم (٢) .

ويتعين على كل واحد من الرجل والمرأة أن يترفع عن مقارنة ومعاشرة الزاني ، ولا يحصل هذا التعاشر إلا لخلل في نفوس الزوجين ناتج من الرضا بهذا الفعل من قرينه (٣) .

والمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل « والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطي كانت على دينه فتكون زانية وأبلغ ، فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه ، فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها » (٤) .

وبما تقدم يظهر اهتمام ابن تيمية في تكوين بيت زوجية نظيف تنشأ فيه الرحمة والمودة على البر والتقوى والطهر والعفاف ، وتنتج هذه المجامعة والمضامة والروابط النفسية الناشئة عن النكاح بيتاً مسلماً يذكر فيه الله ، ويتلى كتابه ، ويكون حصناً من حصون الدعوة وقلعة من قلاعها ، ومحضناً مباركاً من محاضن الجيل ، يجد فيه النشء الأم التي ترضعه حب الإسلام مع لبنها ، وأباً يعلمه الكرامة والعزة والشجاعة ويلبسه إياها كساءً أخلاقياً وافياً قبل كسائه المعهود المحسوس ، وفي الحديث :(الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) (٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم

(١) التفسير الكبير بتصرف يسير ٢٨/٥ . (٢) السابق .
(٣) انظر الفتاوي ٣١٩/١٥، و التفسير الكبير ٢٨٣/٥ .
(٤) الفتاوى ٣٢٢/١٥ و التفسير الكبير ٢٨٦/٥ .
(٥) صحيح مسلم ١٠٩٠/٢ رقم ١٤٦٧ كتاب الرضاع باب ١٧ .

لأهلي) (١) ،ومن مقتضيات هذه الخيرية أن يحرص على استقامة زوجته « عليه أن يأمرها بالصلاة ويجب عليه ذلك ... وقد قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (٢) الآية ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٣) الآية ، وينبغي مع ذلك الأمر أن يحضها على ذلك بالرغبة ، كما يحضها على ما يحتاج إليها ... » (٤) ، فإذا قصر الرجل في تربية أهله وتوجيههم وأمرهم بالخير أو فعل ما يضاد ذلك فإنه يأثم في الأولى ، ويلزم تأديبه في الثانية .

ولّما سُئل ابن تيمية عن رجل لا يحسن حفظ زوجته ورعايتها لا في سكنها ولا في الخلطاء والجلساء كان جوابه: « ليس له أن يسكنها حيث شاء ، ولا يخرجها إلى حيث شاء بل يسكن بها في مسكن يصلح لمثلها ، ولا يخرج بها عند أهل الفجور ، بل ليس له أن يعاشر الفجار على فجورهم ، ومن فعل ذلك وجب أن يعاقب عقوبتين : عقوبة على فجوره بحسب ما فعل ، وعقوبة على ترك صيانة زوجته ، وإخراجها إلى أماكن الفجور فيعاقب على ذلك عقوبة تردعه وأمثاله عن مثل ذلك » (٥) .

هـ - حماية المرأة من الاختلاط :

إضافة إلى ما تقدم مما يكفل حفظ المرأة وصيانتها وإرفاقها بالزوج الذي يكون خيراً لها في دينها ودنياها ، فإن ابن تيمية يرى ضرورة حماية المرأة من أي نوع من أنواع اختلاط النساء بالرجال ،فالمرأة يجب أن تكون بعيدة عن الرجال الأجانب في جسمها وصوتها ، فخير لها ألا ترى الرجال ولا يرونها : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (٦) .هذا لمن سأل أزواج النبي الطاهرات المطهرات المحفوظات ، فكيف بغيرهن من النساء المعرضات للفتنة ، وورد عدد من الإجراءات اتخذها النبي الكريم للحيلولة دون اختلاط الرجال بالنساء أو اقتراب أحدهما من الآخر« فالرجال إذا اختلطوا بالنساء كان بمنزلة اختلاط النار والحطب»(٧)، ومن هذه الإجراءات، وهي « من سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه : التمييز

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٦٣٦/١ رقم ١٩٧٧ كتاب النكاح باب ٥٠ ، الدارمي ٨٢/٢ رقم ٢٢٦٥ .
(٢) سورة طه آية (١٣٢) . (٣) سورة التحريم آية (٦)
(٤) الفتاوى ٢٧٦/٣٢ - ٢٧٧ .(٥) الفتاوى ٢٦٤/٣٢ - ٢٦٥ ، وانظر الفتاوى ١١٠/٢٢ - ١١١ .
(٦) سورة الأحزاب آية (٥٣) . (٧) الاستقامة ٣٥٩/١ .

بين الرجال والنساء والمتأهلين والعزاب » (١) .

وإذا وجد في الرجال من « يكون فتنة للنساء فإنه يؤمر بمباعدة سبب الفتنة فيه ، إما بتغيير هيئته ، وإما بالانتقال عن المكان الذي تحصل به الفتنة فيه ، لأنه بهذا يحصن دينه ، ويحصن دينهن ، وبدون هذا الإجراء ، ومع وجود المقتضي منه ومنهن فإنه لا يؤمن الفتنة » (٢) .

ويشهد لهذا فعل عمر بن الخطاب مع نصر بن حجاج (٣) لما سمع تشبيب النساء به تشبيهه بهن ، فأمر بأخذ شعره ليزيل جماله الذي كان يفتن به النساء ، فلما رآه بعد ذلك من أحسن الناس وجنتين غمه ذلك فنفاه إلى البصرة ، فهذا لم يصدر منه ذنب ولا فاحشة يعاقب عليها لكن كان في النساء من يفتتن به فأمر بإزالة جماله الفاتن ، فإن انتقاله عن وطنه مما يضعف همته وبدنه ، ويعلم أنه معاقب ، وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والفسق قبل وقوعه ، وليس من باب المعاقبة » (٤) ، «وكذلك الصبيان الذين تفتن بهم النساء فإنه يتخذ معهم ما يزيل هذه الفتنة » (٥) .

وهناك نوع من الرجال يشكل خطورة على الجنسين يلزم الحذر منه وإبعاده عن النوعين الرجال والنساء وهم :

المخنثون : وقد نفاهم النبي صلى الله عليه وسلم لشرهم لأن « المخنث يفسد أحوال الرجال والنساء جميعاً ، فلا يسكن مع واحد من الصنفين » (٦) ،ويذكر مبررات هذا العمل قائلاً :« لأنه إذا تشبه فقد تعاشره النساء ويتعلمن منه ، وهو رجل فيفسدهن ، ولأن الرجال إذا مالوا إليه فقد يعرضون عن النساء ، ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل هي ، وتتشبه بالرجال فتعاشر الصنفين ، وقد تختار هي مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال » (٧) .

و – الدور السلبي للمرأة في حياة الأمة والتحذير منه :

تتميز المرأة بعاطفة قوية وفي الغالب بإرادة ضعيفة؛ فلهذا فيها سرعة التقليد والانجذاب إلى الأشياء والانبهار بها ، ومقاومتها ضعيفة لما تميل إليه نفسها وتعشقه ، لهذا

---

(١) تفصيل هذا في الاستقامة ٣٥٩/١ . (٢) الاستقامة ٣٥٩/١ .
(٣) نصر بن حجاج بن علاط ، السلمي ثم البهزي شاعر من أهل المدينة وكان جميلاً . انظر الأعلام ٣٣٩/٨ .
(٤) التفسير الكبير ٢٧٣/٥ . (٥) الاستقامة ٣٥٩/١ .
(٦) الاستقامة ٣٥٩/١ . (٧) التفسير الكبير ٢٧٠/٥ .

فإنه يلزم عدم الجريان وراء إرادة النساء وميولهن حتى لا نقع في الفتنة التي حذر منها الرسول صلى الله عليه وسلم :(فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) (١) .

وإذا وقعت الفتنة بهن فإنه يحصل الجريان في فلكهن وتحقيق مرادهن ، ثم يدخل البلاء على الأمة من جوانب أهمها : التشبه باليهود والنصارى ، فأغلبه عن طريق النساء، فأكثر مشابهات الأمة لأهل الكتاب في أعيادهم وغيرها إنما كان عن طريق النساء ، وابن تيمية يدعو الأمة إلى الحذر من طاعة النساء في ذلك .

ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد (٢) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء) (٣) ، وأكثر ما يفسد الملك والدول طاعة النساء»(٤) .

والمرأة فيها ميل شديد ورغبة أكيدة ومحبة للتدخل في كل شيء مهما صغر أو كبر في اختصاصها أو غيره ، وتحب أن تعرف عن أعمال الرجال كل شيء ؛ لذا نجد النساء يتتبعن أخبار وأحوال الرجال أكثر من فعلهن بالنساء ، ولا يكتفي الأمر بالتتبع بل يتدخلن في أمور أهل العقل والحكم ويحاولن تغيير الرأي والقرار ، ولما قدّم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق راجعته إحدى أمهات المؤمنين في ذلك فقال : (إنكن صواحب يوسف) (٥) .

يريد أن النساء من شأنهن مراجعة ذي اللب كما في الحديث الآخر :(ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب للب ذي اللب من إحداكن) (٦).(٧) .

ولهذه المعاني المتقدمة وغيرها مما ليس هذا مجال ذكره ومما لا نعلمه ، جعل

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٩٨/٤ رقم ٢٧٤٢ كتاب الذكر والدعاء باب ٢٦ .
(٢) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل ، من كنانة عوف الصحابي الجليل حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد سنة ٧ قبل الهجرة ومات سنة ٥٤هـ . انظر : الإصابة ٤٥/١ رقم ٨٩ ، وسير أعلام النبلاء ٤٩٦/٢ والإعلام ٢٨١/١ .
(٣) صحيح مسلم ٢٠٩٨/٤ رقم ٢٧٤١ كتاب الذكر والدعاء باب ٢٦ .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٢٤ .
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ٣١٤/١ رقم ٤١٨ كتاب الصلاة باب ٢١ .
(٦) صحيح البخاري ٧٨/١ كتاب الحيض باب ٦ ، وصحيح مسلم ٨٦/١ رقم ٧٩ كتاب الإيمان باب ٣٤ .
(٧) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٢٤ .

الإسـلام عـدم الفلاح لقـوم ولو أمرهم امـرأة ، أو أطاعوا أمرهـا ولو كان مخـالفاً ، لأن هذه الطاعـة نوع ولاية عليهـم وغلبة على عقـولهـم ، والرسـول صلى الله علـيه وسلم يقـول: (لـن يفلح قوم ولوا أمـرهم امرأة) (١) . وروي أيضاً :(هـلكت الرجـال حين أطاعت النساء)(٢).

ز - التحذير من بعض ضلالات المبتدعة المتعلقة بالمرأة :

من الانحرافات الخطيرة التي وقع بها بعض المنحرفين عن منهاج النبـوة استحلال مؤاخاة الـنساء الأجنبيـات والشباب المردان والاجتـماع بهم في مـجالس الغناء بـاختلاط محرم . ومما يـزيد الأمر سوءاً إلباس هـذا الفعل ثوب الديـن بدعواهم أن هذا من مـحبة الصور الجميلة حباً في ذات الله وهو مما يقرب إلى حب الله .

وأسوأ منـهم حلولية الـصوفية الذين يـقولون : إن الله يحـل في الصور الجميـلة من النساء والمردان فيعبدونهم ويحبونهم زاعمين أن هذه العبادة إنما هي لله ، الذي هو فيهم، تعالى الله عما يـقولون . وأقل من هؤلاء الذين لا يعتقدون هذه الأمور لـكنهم يسمحون باختلاط النساء والمردان مع الرجال في مجالس السماع والذكر .

وابن تيمـية في كتابه القيـم « الاستقامة » وغيره كـالمجموع من الفتاوى فيـما يخص التصوف ناقش مثل هذه الانحرافـات ، وما هي إلا أهواء وشهوات وضلالات لـم يجرؤ أصحابها أن يظهروها علانية فألبسوها ثوب الدين زوراً وبهتاناً ، ومن قال بقولهم أو فعل فعلهم ولـم يكن على نيتهم فهم ضللوه ولبّسوا عليه .

والإسلام حرم ذلك كـله ، فقد حرم على الرجـل أن يصافح المرأة الأجنبـية مجرد مصافحة أو أن يقف معها في طريق غير سابلة موقف ريبة ، وعند سؤالها تسأل من وراء حجاب .

وكان صلى الله علـيه وسلـم يعظ النساء وهن مجتمعـات معزولات عن الرجال في مؤخرة المسجد ، ولـم يكـن هو ولا الصحابـة يخلون بالـنساء الأجنبـيات ، ولا كنّ ولا كانوا يـحضرون جميعاً مجالـس الدعوة والعـلم والذكر والـتلاوة مختلـطين كما يـفعل بعض المتصوفـة في مجالس غنائهم ، يجعـلون النساء والمردان يغنون لهـم ويزعمون أنهم يحبونهم في الله كما تقدم (٣) .

---

(١) صحيح البخاري ١٣٦/٥ كتاب المغازي باب ٨٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٥/٥ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢٢٤ .

(٣) انظر فيما تقدم الفتاوى ٣٤٩/١٥ ، ١١٠/٢٢ - ١١١ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٦٤/٣٢ - ٢٦٥ .

ح - المرأة واللهو المباح :

نفوس النساء والصبيان نفوس ضعيفة فلا بد من مراعاتها،مراعين الميول فيها ،وقد اهتم ابن تيمية بهذا الجانب من النساء والصبيان ،فأغلب هؤلاء نفوسهم إذا منعت من اللهو الذي ليس فيه مضرة راجحة وليس فيه فائدة قد لا تشتغل بما هو خير منه لها ، بل قد تشتغل بما هو شر منه أو بما يكون التقرب إلى الله بتركه ، فيكون تمكينها من بعض اللهو - الذي لا مضرة راجحة فيه كلهو الغناء والدف في الأعياد ومناسبات الأفراح وقدوم الغائب وما يماثل ذلك - من باب الإحسان إليها والصدقة عليها كإطعامها وإسقائها ، فلهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن بعض أنواع اللهو من الحق ، وكان الجواري والصغيرات يضربن بالدف عنده ، وكان صلى الله عليه وسلم يمكنهن من عمل هذا الباطل بحضرته إحساناً إليهن ورحمة بهن ، وكان هذا الأمر في حقه من الحق المستحب المأمور به وإن كان هو في حقهن من الباطل الذي لا يؤمر أحد سواهن به [1] .

ولكن اللهو بالغناء ليس مطلقاً ، فنجده في مواضع يمنع من إنشاد وغناء بعض الأشعار كالغزل معللاً ذلك بأنه « من أقوى ما يهيج الفاحشة إنشاد أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ومقدماتها بالأصوات المطربة ، فإن المغني إذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش ... وإن كان القلب في عافية من ذلك جعل فيه مرضاً » [2] .

وكان من خلقه صلى الله عليه وسلم أنه يخص النساء والصبيان بزيادة فرح ودعابة تطييباً لقلوبهم وتفريحاً لهم ، وهذا منه صلى الله عليه وسلم مراعاة لما في قلوب هؤلاء من الضعف وحب اللهو ، ومعلوم حاله من عائشة رضى الله عنها في إجازته لها اللعب بصور بُنَيَّاتها ، واللعب مع زميلاتها ، والتفرج على لعب الأحباش حتى شبعت ، ومعلوم سباقه لها عدد من المرات .

والغناء والدف أقره النبي صلى الله عليه وسلم في حق هؤلاء في مناسبات الأفراح

---

(١) انظر الاستقامة ٢/٨ ، ١٤٥ .

(٢) الفتاوى ١٥/٣١٤ ، التفسير الكبير ٥/٢٧٥ .

والسرور ولم يقره في حق غيرهم ولم يقره لهم في كل وقت « فلا يجعل الخاص عاماً » (١) .

ط – شبهات حول المرأة :

الردود على الشبهات تحدث ابن تيمية عن موضوع يخص المرأة ولج منه المستشرقون لتشويه الإسلام ومحاولة إظهار أنه ينتقص المرأة ويحط من قدرها ، متكئين على الحديث الشريف الذي فيه بيان أن النساء ناقصات عقل ودين ؛ ولهذا ابن تيمية تعرض لهذه المسألة فقال : « إن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ويتفاضلون في إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ناقصات عقل ودين) (٢) .

وقال في نقصان دينهن : « إنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي » ، وهذا مما أمر الله به ، فليس هذا النقص ديناً لها تعاقب عليه ، ولكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة في هذه الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة في كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها وإن لم يكن عاصياً ، فهذا أفضل ديناً وإيماناً، وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم » (٣) .

---

(١) انظر الاستقامة ٨/٢ .

(٢) سبق تخريجه في صفحة (٢١٧) .

(٣) التفسير الكبير ١٥٣/١ .

المبحث الثالث

الوضوح في منهج الدعوة عند ابن تيمية

الوضوح سمة من سمات هذا الدين ، فقد يسره الله فهماً وعملاً ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (١)، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ (٢). فهو دين الفطرة يخاطب أقواماً ذوي فطرة لم تكدرها الفلسفات ولا المنطقيات والضلالات العقلية.

فجاء ابن تيمية بمنهج يحمل الوضوح مؤسساً على الأدلة النقلية والعقلية ، لم يتكلف طرق المعرفة ، ولم يسلك مسالك مطولة وعرة ، ولم يأخذ بالمصطلحات الغامضة الشائكة المشتبهة المجملة .

وأما الجانب العملي في منهجه الدعوي ، فكان أيضاً واضحاً غاية الوضوح ، فلم يجعلها دعوة سرية لها تنظيمات وشعب وخلايا كما فعل الباطنيون الملاحدة والإسماعيليون والنصيريون والماسونيون ،حيث جعلوا أتباعهم درجات وطبقات وفئات ؛ كل واحدة لها معلومات وأسرار ورموز لا تعلم عنها الطبقة الأخرى .

ولم يكن له أهداف مستترة باطنة وأخرى ظاهرة ، بل دعوته واضحة المعالم والأهداف والمقاصد لم يخف على أحد من معاصريه ، حكاماً ومحكومين علماء وعامة، لهذا لما حاول الوشاة أن يوقعوا بينه وبين الحكام ناسبين إليه أنه يؤلب الناس ضدهم يريد الحكم ،فأحضر بين يدي السلطان الناصر محمد ابن قلاوون فقال له من جملة كلامه : « إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس ، وأن في نفسك أخذ الملك . فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابتٍ وصوتٍ عالٍ سمعه كثيرٌ ممن حضر : أنا أفعل ذلك ؟ والله إن ملكك وملك المغْل لا يساوي عندي فلسين ، فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إليّ كاذب . واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهرٍ طويل من كثرة ما يُلْقَى إليه في حقه من الأقاويل والزور والبهتان . ممن ظاهر حاله للطّغام العدالة ، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة » (٣) .

---

(١) سورة القمر آية (٣٢) . (٢) سورة الزمر آية (٢٨) .
(٣) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية /٦٥ - ٦٦ ت د. صلاح

في هذا المبحث أتناول العوامل والأسباب التي أدت إلى الوضوح في منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى .

أولاً : بعده عن الغموض في الألفاظ والطرق المعقدة المطولة :

لقد أدرك ابن تيمية أن من أهم أسباب تفرق الأمة واختلافها هو : التباس الحق بالباطل وسبب ذلك أمور كثيرة منها : -

١- استعمال ألفاظ مجملة مشتركة مشتبهة تحتمل حقاً وباطلاً ،ففهم قوم منها معنى وفهم آخرون معنى آخر ،وأحد المعنيين حق والآخر باطل فتفرقوا وكل منهم يظن الحق معه (١) .

وابن تيمية شديد الحرص في استعمال المصطلحات كما تقدم معنا (٢) ، ولزم مصطلحات الكتاب والسنة ومصطلحات السلف خصوصاً في القرون الثلاثة المفضلة في إطار لغة القرآن ، ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولغة الصحابة ،فجاء كلامه رحمه الله غاية الوضوح والبيان والتكامل من أول حياته العلمية والعملية إلى وفاته، وسلم من التناقض الذي وقع فيه الخصوم ، ومن أجل الوصول إلى الحقائق وإثبات المعارف نهج المنهج القرآني والنبوي فاعتمد على رصيد الفطرة المقرة بالخالق وما يتبع هذا الإقرار من عظيم الصفات ، واعتمد الأدلة العقلية القرآنية والنبوية مستغنياً عن الطرق العقلية التي جاء بها الفلاسفة والمتكلمون التي لا تفيد إلا الهذيان وإتعاب الأذهان وتضييع الزمان (٣) ، مع ما تولده من المفاسد والأخطاء .

يقول رحمه الله في تصوير هذين المسلكين : «مسلك النبوة ومسلك الفلاسفة :« ومَثَلُ النبي صلى الله عليه وسلم مَثَلُ طبيبٍ دخل على مريض ، فرأى مرضه فعلمه فقال له : اشرب كذا ، واجتنب كذا ، ففعل ذلك فحصل غرضه من الشفاء ، والمتفلسف يطوّل معه الكلام في سبب ذلك المرض وصفته وذمه وذم ما أوجبه ولو قال له مريض : فما الذي يشفيني منه؟ لم يكن له ذلك علم تام .

على أن الكلام في بيان تأثير بعض هذه الأسباب قد يكون فيه فتنة لمن ضعف عقله ودينه ، بحيث يختلط عقله فيتولّه إذا لم يرزق من العلم والإيمان ما يوجب له الهدى واليقين » (٤) .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٤٠٣/٧ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ .
(٢) الفصل الأول .
(٣) انظر الفتاوى ٢٠٧/٩ ، ٩٠ .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم /٣٤٧ .

وهو بهذا ينتقد مسلك المتكلمين وطريقهم في تقرير الأمور بأنهم عقدوها وطولوها، وبدل أن يجعلوها واضحة زادوها غموضاً وخفاءً ، وسبب ذلك أنهم يتكلمون في أشياء يدخلونها في كلامهم لا داعي لها ، وهي قبل بيانهم أبين ، وسلكوا في ذلك طرقاً غير فطرية فعذبوا النفوس بلا منفعة (١) .

والطريق الأمثل في ذلك أن نحدد غايتنا في الكلام ثم نسلك أيسر الطرق إليها وأقصرها « والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع ، حتى يتبين له الشيء ويستبين ... فأما الأشياء المعلومة التي ليس في زيادة وصفها إلا كثرة كلام وتفيهق وتشدق وتكبر ، والإفصاح بذكر الأشياء التي يستقبح ذكرها ، فهذا مما ينهى عنه كما جاء في الحديث : (إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها) (٢) ... وعامة الحدود المنطقية هي من هذا الباب : حشو لكلام كثير، يبينون به الأشياء وهي قبل بيانهم أبين منها بعد بيانهم ، فهي مع كثرة ما فيها من تضييع الزمان وإتعاب الفكر واللسان لا توجب إلا العمى والضلال وتفتح باب المراء والجدال .. » (٣) .

٢- بعض طرق الفلاسفة والمتكلمين وإن كانت صحيحة فإنها لا تسلك لما فيها من التطويل بلا فائدة ،ولما فيها من العيوب الكثيرة كالاستدلال على الأظهر بالأخفى ، وعلى الأقوى بالأضعف ،وبعض هؤلاء تصور أنه لا يمكن الوصول إلى الحق إلا بهذه الطرق ، وإذا بطلت انسد باب المعرفة وأصبحت متعذرة أو متعسرة (٤) .

٣- البعض يسد طرق المعرفة إلا طريقة يراها هو ظاناً أنها هي الوحيدة النافعة للوصول إلى الحق وإيضاحه ، فتتعقد الأمور وتتعارض المعاني ، وتسود الحيرة والشكوك والاضطراب ، ويتكلفون الردود والتأويلات والاعتراضات لأنهم قد سدوا على أنفسهم الطرق الأخرى بإبطالها والقول بعدم فائدتها (٥) .

والبعض يعمد إلى الأمور الدقيقة التي لا يدركها إلا قلة من الناس خافية على كثير منهم وفيها من الاختلاف الشيء الكثير ويتشبث فيها ، وهذا بسبب أنه يرى أن الأمور

---

(١) انظر الفتاوى ٢٠٨/٩ .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٢١٩/٤ رقم ٣٠١١ ، كتاب الأدب ، باب ١٠٥ ، وسنن أبي داود ٢٧٤/٥ رقم ٥٠٠٥ كتاب الأدب باب ٩٤ .
(٣) الفتاوى ٦٤/٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، وانظر ٢٤ ، ٤٢ ، ٤٣ .
(٤) انظر الدرء ٩٦/٣ ، ١٥٨ ، ١٦٤/١ ، ١٧٤ .
(٥) انظر الدرء ٩٨/٣ .

الواضحة من شأن العامة البسطاء .

ولكن ابن تيمية على النقيض من ذلك حيث يقول رحمه الله :« ... ونحن ذكرنا هذا التقسيم لئلا يكون الجواب مبنياً على أمور دقيقة يختص بفهمها بعض الناس ، فإن الجواب كلما كان أظهر ، واتفاق العقلاء عليه أكثر ،كان أولى بالذكر من غيره ، إذ المقصود بيان الحق وإبطال الباطل » [1] .

وعظمة علم ابن تيمية تبرز في أنه سلك هذا المسلك لا من عجز ، فلديه القدرة الكاملة على الطرق المطولة المعقدة التي يسلكها الفلاسفة والمتكلمون مما يُرْهبون به السامع والقارئ ،وهو كما يقال : « أسمع جعجعة ولا أرى طحينا » ، قال بعد كلام سابق: « وإلا فيمكن بسط الكلام في هذا [تقدم العلة الفاعلة على المعلول المفعول وأن يقال ثم أخذ يبين معرفته بالطرق المطولة المعقدة على طريقة هؤلاء الخصوم ..] [2] .

وأحياناً يأتي الشطح والغلط من استعمال « كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائعة ، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وهي إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط في عقله ، وتشوش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر ، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ،ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان » [3] .

ويوازن ابن تيمية بين الصحابة ومن بعدهم في مجال وضوح الكلمات فيقول : «فالصحابة يقول الواحد الكلمة الواضحة تهدي أمة ، ومن بعدهم يحشون الأوزان من التكلفات والشطحات » [4] .

ويذكر فائدة تنوع البيان وطرقه ووضوح عباراته بقوله :« فإن هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو - كلما تنوع بيانها ، ووضحت عباراتها كان ذلك نوراً على نور » [5] ، والنبي صلى الله عليه وسلم « .. لم يكن يخاطب أصحابه بخطاب لا يفهمونه » [6] ،فمنهجه صلى الله عليه وسلم الوضوح والإيضاح

---

(١) الدرء ٣/٣٠٠ . (٢) انظر الدرء ٣/٣٠٠ .
(٣) نقله ابن تيمية من كلام الغزالي في الإحياء ١/٦٠ الاستقامة ١/١١٩ ، ١٢٠ .
(٤) ابن تيمية للندوى /٢١٦ نقلاً عن نقض المنطق /١١٤ .
(٥) الفتاوى ١/٣١٣ . (٦) التفسير الكبير ٢/٣٤٧ .

ومخاطبة كل قوم بما يدركونه وينتفعون به ، فكان كلامه صلى الله عليه وسلم شفاء للأدواء ، مؤلفاً للقلوب ، جامعاً للناس ،مانعاً للفرقة والاختلاف .

ثانياً : بدؤه بالأهم فالأهم من أمور الإسلام وقضايا الأمة :

كان يقدم ما الحاجة ماسة إلى تقديمه ، والمصلحة تتطلبه ، ويعلل ذلك بأن الأوامر ليست في درجة واحدة ، فبعضها أفضل من بعض وألزم وأوجب [1] « وبعض المنهيات شر من بعض ،وحينئذ فطلب الأفضل يكون في نفسه أكمل من طلب المفضول ، والطالب إذا كان حكيماً يكون طلبه لهذا أوكد .. » [2] .

والمعارف اللازمة أقام الله لعباده أدلتها ، فالجزم بها طريقه معلوم وأما « ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق فيه عامته مما لا فائدة فيه ، فالكلام فيه من فضول الكلام ، وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً ، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه : اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف ، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة ، وفي مقدار سفينة نوح ، وما كان خشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ... » [3] ،إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم ... » [4] .

ولما ذكر الله خلافهم في عدة أصحاب الكهف قال سبحانه : ﴿ **قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ ..** ﴾ [5] ، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال : ﴿ **فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ..** ﴾ [6] ،أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته أولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب » [7] .

والأمور الضرورية للناس يجب عرضها بوضوح وبأحسن الطرق ، وهذا منهج رباني، فإن ما اشتدت الحاجة إليه سهل الله الوصول إليه ،« وأما ما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا ، فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً ، فلما كانت حاجتهم إلي التنفس أكثر من حاجتهم إلى الماء ، وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل ، كان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عاماً في كل زمان ومكان ، بضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر لأن الحاجة إليه أشد ،

---

(١) انظر التفسير الكبير ١٦٦/٧ . (٢) السابق /١٦٦ .
(٣) التفسير الكبير ٢٠٩/٢ ، وانظر الدرء ٣١٣/١٠ - ٣١٤ . (٤) التفسير الكبير ٢٣٥/٢ .
(٥) سورة الكهف آية (٢٢) . (٦) سورة الكهف آية (٢٢) . (٧) التفسير الكبير ٢٣٥/٢ .

فكذلك دلائل الربوبية حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات ثم دلائل النبوة ، فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما يحتاج إليه العامة » (١) .

والأنبياء كذلك يأمرون الناس بما فيه صالحهم وخيرهم ويدلونهم عليه بأوضح الطرق وأبينها وأقصرها وأوجزها « ولهذا كانت طريقة الأنبياء عليهم السلام : أنهم يأمرون الخلق بما فيه صلاحهم وينهونهم عما فيه فسادهم ، ولا يشغلونهم بالكلام في أسباب الكائنات كما تفعل المتفلسفة ، فإن ذلك كثير التعب قليل الفائدة أو موجب للضرر » (٢) .

فهو يركز على القضايا التي تهم الأمة من جميع الجوانب ، وأما القضايا التي هي نوع من الترف الفكري فإنه يرى أنه لا حاجة إلى ذكرها ، وما كان كذلك فذكره عيّ(٣) .

ولما تحدث ـ رحمه الله ـ عن مصرف الفيء وأموال بيت المال تكلم بآراء عجيبة تدل على بعد نظر وحكمة بعيدة الغور، يقول رحمه الله :« الواجب أن يبدأ بالأهم فالأهم من مصالح المسلمين العامة كعطاء من يحصل للمسلمين به منفعة عامة » (٤) .

ويقول عن توزيع الفيء :« ويصرف منه إلى ذوي الحاجات منهم أيضاً ويبدأ بالأهم فالأهم ،فيُقدم ذوو المنافع الذين يحتاج المسلمون إليهم على ذوي الحاجات الذين لا منفعة منهم ، هكذا نص عليه عامة الفقهاء من أصحاب أحمد والشافعي وأبي حنيفة (٥) وغيرهم » .

ويتحدث عمن يعطى من الزكاة ومما فضل عن المصالح العامة من الفيء كالفقراء والمساكين والغارمين وابن السبيل فيقول :« ... لكن من كان مميزاً بعلم أو دين كان مقدماً على غيره وأحق ... » (٦) .

وابن تيمية يعقب على كلام الغزالي عن علم الكلام وأن منفعته حراسة العقيدة وحفظها من تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل ... يقول : « فيقال أولاً : لا بد أن يكون المحروس هو نفس ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أخبر به لأمته ، فأما إذا

---

(١) التفسير الكبير٢/١٥٩ . (٢) اقتضاء الصراط المستقيم/٣٤٧ . (٣) انظر التفسير الكبير ٣/٢٦ .
(٤) ، (٥) الفتاوى ٢٨/٥٦٦ . (٦) الفتاوى ٢٨/٥٦٩ .

كان المحروس فيه ما يوافق خبر الرسول وفيه ما يخالفه ، كان تمييزه قبل حراسته أولى من الذّب عما يناقض خبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن حاجة المؤمنين إلى معرفة ما قاله الرسول وأخبرهم به ليصدقوا به ويكذبوا بنقيضه ، ويعتقدوا موجبه ، قبل حاجتهم إلى الذبّ عن ذلك والرد على من يخالفه ، فإذا كان المتكلم الذي يقول إنه يذب عن السنة ، قد كذّب هو بكثير مما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم واعتقد نقيضه كان مبتدعاً مبطلاً متكلماً بالباطل فيما خالف فيه خبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أن ما وافق فيه خبر الرسول فهو فيه متبع للسنة ، محق يتكلم بالحق ، ويقال بأنها لا بد أن تحرس السنة بالحق والصدق والعدل ، لا تحرس بكذب ولا ظلم ، فإذا رد الإنسان باطلاً بباطل ، وقابل بدعة ببدعة كان هذا مما ذمه السلف والأئمة » (١) .

ويرى أن على الإمام وعموم الأمة الاهتمام في سداد ثغور المسلمين وعمارة طرقاتهم وحصونهم ويصرف في هذا من الفيء وبيت المال (٢) .

ويرى أن المقاتلة الذين يجاهدون في سبيل الله أحق الناس بالفيء وإن كان لا يختص بهم ، وكذلك أهل المقاتل إذا قتل في سبيل الله تعطى امرأته وأولاده الصغار فينفق على الزوجة حتى تتزوج وعلى البنت حتى تتزوج وعلى الصغير حتى يبلغ (٣) .

ويرى أن الذي فيه مصلحة عامة للمسلمين يقدم على غيره في العطاء وينتقد من يعارض ذلك فيقول : « قول القائل إن عناية الإمام بأهل الحاجات يجب أن تكون فوق عنايته بأهل المصالح العامة ليس بمستقيم لوجوه ... » (٤) ، ولهذا يرى أن العطاء يكون بحسب منفعة الرجل وبحسب حاجته في مال المصالح وفي الصدقات (٥) .

ويرى عدم إعطاء المبتدعة والزنادقة من بيت المال لأنهم يستعينون به على شرهم والإضرار بالمسلمين (٦) .

هذه هي القاعدة التي سار عليها ابن تيمية في إيضاح الحقائق وبيانها وفي عرض قضايا الأمة وعلاجها وفي بدايات الدعوة ونهايتها : أوضح العبارات ، وأقصر الطرق ، وأبرز المعاني ، وأهم الأمور ، وأولى المسائل والأحداث ، مع البعد عما لا فائدة فيه ، ولا طائل تحته ، ولا مصلحة من ذكره ، ومع البعد عن الأمور الدقيقة التي تخفى على

---

(١) الدرء ١٦٤/٧ ، ١٨٢ . (٢) الفتاوى ٥٦٦/٢٨ ، ٢٨٦ . (٣) الفتاوى ٥٨٦/٢٨ .
(٤) الفتاوى ٥٧٦/٢٨ - ٥٨١ . (٥) انظر الفتاوى ٢٨٧/٢٨ ، ٢٨٨ .
(٦) انظر الفتاوى ٥٧٠/٢٨ ، ٥٧١ .

كثير من الناس ولا تدعو الحاجة إلى عرضها وإبرازها .

ولكن ابن تيمية رحمه الله يرى أن هذه القاعدة قد تُخْرَق للمصلحة واقتضاء الحاجة ذلك ، ويضع أمامنا مجالات أو مناسبات تستدعي خرق القاعدة فيقول رحمه الله عن الطرق المطولة والأدلة التي تدخل فيها المقدمات – وإن كان قد يذمه كثير من الناس مطلقاً – فقد ينتفع به في مواضع مثل :

١ – عناد المناظِر ومنازعته في المقدمة الجلية دون ما هو أخفى منها .

٢ – ومثل حصول العلم بذلك من الطرق الدقيقة الخفية الطويلة ، لمن يرى أن حصول العلم له بمثل هذه الطرق أعظم عنده وأحب إليه ، وأنه إذا خوطب بالأدلة الواضحة المعروفة للعامة ، لم تكن له مزية على العامة .

٣ – ولمن يقصد بمخاطبته بمثل ذلك ، أن مثل هذه الطرق معروف معلوم عندنا لم ندعه عجزا وجهلاً ، وإنما أعرضنا عنه استغناء عنه بما هو خير منه ، واشتغالاً بما هو أنفع من تطويل لا يُحتاج إليه . إلى أمثال ذلك من المقاصد (١) .

ثالثاً : عنايته بدراسة القضايا المشكلة والمثيرة للاضطراب الفكري والعملي :

فجعل نفسه وتلاميذه في وضوح فكري وعملي ،وكذلك أغلب من استمع إليه أو قرأ له أو نقل إليه فكره من سائر الأمة في وقته وبعده .وإذا نظرنا إلى نتاج ابن تيمية العلمي وسيرته العملية وجدنا فيها تفسير هذه القاعدة ونماذج كثيرة لهذه الحقيقة .

ولم تكن عنايته ودراسته لتلك القضايا في فن واحد أو زاوية واحدة من زوايا الحياة، بل شملت قضايا هي محل خلاف والتباس وغموض لدى كبار العلماء والدعاة قبله في أنواع المعارف والفنون وفي ألوان التخصصات وفي شتى مناحي الحياة ، حتى أصبحت الأمور الفكرية والعملية واضحة المعالم مستقيمة السبل لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا،فانقشعت سحب الضلالة وتبددت غيوم العماية وفرق الله به السنن من البدع والحق من الباطل فكان صبحاً للأمة بدد الظلام ، وشمساً أشرقت معالمها فهدت تائه الأنام ، ولو أردنا عرض الأمثلة على ذلك ، لطالت بنا المسالك ، ولكن نشير بعض الإشارات بما تتضح به العبارات ويكون للقارئ منارات .

ومن القضايا العقدية : ردوده على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والكلابية

---

(١) الدرء ٣/١٠٥ .

والماتريدية ونحوهم ،حتى بيّن مكان غلطهم ومواطن زللهم وهدم ما عندهم من باطل وأبان المعتقد السليم من خلال مذهب السلف الصالح .

وكذلك موقفه من القدرية والجبرية والوعيدية والمرجئة ، فأبان تناقضهم واضطرابهم، وقرر سبب اختلافهم وعلة ضلالهم ، ثم قرر الحق في هذه الأمور من خلال مذهب السلف الصالح .

وكذلك موقفه من الطوائف والفرق الإسلامية والخارجة عن الإسلام مثل : الخوارج ، والشيعة ، والإسماعيلية ، والقرامطة ، والنصيرية ، والباطنية ، ونحوهم ، بين عقائدهم ، وأصولهم الفكرية ، واعتمادهم في تقرير هذه الأصول ، وذكر أسباب نشأتهم ومن أنشأهم وأهدافهم ، ودورهم في واقع الأمة ، ورد أباطيلهم وافتراءاتهم، وقرر كذبهم على الإسلام وتآمرهم عليه ونحو ذلك .

وآخرين من فرق التصوف وطرقه وشيوخه ، وكذلك ناقش النصارى في ضلالهم وعقائدهم وبيّن تحريفهم للكتاب وأثبت لهم ذلك من كتبهم المقدسة ، وأثبت لهم منها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يخفى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

ولا شك أن ابن تيمية أماط اللثام عن أقوام وفرق تستروا بالإسلام نفاقاً ليدمروه ، وركب في ذلك الأهوال والمخاطر ، واقتحم الصعاب غير وجل ولا هيّاب ، مما جعل كثيراً من العلماء والدعاة والمصلحين والقادة يعيدون تقييمهم ونظرتهم وتقديرهم واعتقادهم في كثير من القضايا والجماعات والفرق والشخصيات ، كانوا يعتقدون فيها الخير والسلامة وحتى يدّعون في بعضهم الولاية ، والسيادة ، فهوت عروش بُنيت في القلوب من الحب والطاعة والانقياد لفرق باطلة ولشخصيات كثيرة من الدجالين المضللين والكفرة المنافقين . أمثال الشيعة وشيوخها ، وأمثال وكثير من شيوخها، وأمثال الكلاميين وكثير من أئمتها ، والباطنية وزنادقتها ، والتتار وخلاف بعض الناس فيهم حيث أظهروا الإسلام وقاتلوا المسلمين ونهبوهم .

فجرد سيف الحق ولساناً صارماً لا عيب فيه ، وعلمٌ بحرٌ خضمٌ لا تكدره الدلاء على أمثال نصير الدين الطوسي ، وابن العلقمي وصاحب منهاج الكرامة وابن سينا (١) والفارابي (٢) والرازي (٣) .

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٨٢) .
(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٨٢) .
(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٦٥) .

وعلى أمثال : الأشعري [1] والجويني [2] ، والغزالي [3] .

وعلى أمثال الهروي [4]، وابن عربي [5]، وابن سبعين [6] والحلاج[7]وابن الفارض [8] ،حتى قال رجل لابن تيمية أينك عنا منذ أربعين سنة؟ لما كشف ضلال ابن عربي وكفره وكان بعض المتصوفة يعتقدون به الولاية .

ولا شك أن هذا الجهد المبارك أزال غيوماً كانت تحجب الرؤية السليمة، بل كشف تناقضات كانت تمزق المسلمين ،وحيرة كانت تفتك بعقولهم ،وأدى ثماراً مباركة حيث عرف الناس علماء الهداية وعلماء الضلالة وأدركوا سبيل الاستقامة والرشاد .

وتطرق أيضاً إلى مسائل مشكلة كمسألة أيهما أفضل الفقير الصابر أم الغني الشاكر، ودار بينه وبين أحد العلماء جدال ومسائل في البيوع والمعاملات [9] ، ومسائل في الجهاد وما يتعلق به [10] .

وأجاب على سؤال هو مشكلة في واقع الدعاة والعلماء والمربين يسأل عنه في كل

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤٠) .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٠٥) .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٦٣) .

(٤) هو : عبد بن أحمد الهروي ، السروي ، الأنصاري المالكي ابن السماك شيخ الحرم ، جاور مكة ، وكان يحج كل عام ، ويحدث وكان ثقة ضبطاً .. وهو من أهل هراة وفيها مولده .. توفي بمكة سنة ٤٣٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥٥٤/١٧ ، تذكرة الحفاظ ١١٠٣/٣ ، الأعلام ٢٦٩/٣ .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٨٩) .

(٦) تقدمت ترجمته في صفحة (١٩٦) .

(٧) هو : الحسين بن منصور الحلاج من أهل البيضاء (بلدة بفارس) نشأ بواسط العراق وكان فيلسوفاً ، اتهم بالزندقة والإلحاد . وظهر سنة ٢٩٩هـ . وسمي حلاجاً لأنه كان يتكلم على ما في قلوب الناس ، فسمي بذلك حلاج الأسرار .. قتل سنة ٣٠٩هـ ببغداد . انظر لسان الميزان ٣١٤/٢ ، سير أعلام النبلاء ٣١٣/١٤ ، وفيات الأعيان ١٤٠/٢ ، الأعلام ٢٦٠/٢ .

(٨) هو : عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي ، المصري ، أشعر المتصوفين يلقب بسلطان العاشقين ، ولد بمصر سنة ٥٧٦هـ ، كان أبوه يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام ، ثم ولي نيابة الحكم فغلب عليه التلقيب بالفارض .. اختلف في شأن ابن الفارض ، توفي سنة ٦٣٢هـ . انظر وفيات الأعيان ٤٥٤/٣ ، لسان الميزان ٣١٧/٤ .

(٩) انظر العقود الدرية /٤٦ ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٥٩ .

(١٠) انظر العقود الدرية /٤٧ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٥٩ .

هذه الصفحات المذكوره في رقم (١)،(٢) ورد فيها أسماء مؤلفات لابن تيمية تكلم فيها عن عدد من جوانب هذه الموضوعات .

وقت ولم يجد هذا السؤال مثل ابن تيمية طبيباً ماهراً بعلاج الأمراض العقلية والقلبية والنفسية ،سئل :« ما الحكمة في أن المشتغلين بالذكر والفكر والرياضة ومجاهدة النفس وما أشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال – مع قلة علمهم ، وجهل بعضهم – ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودَرْسه والبحث عنه حتى لو بات الإنسان متوجهاً مشتغلاً بالذكر والحضور لا بد أن يرى واقعةً أو يفتح عليه شيء ، ولو بات ليلة يكرر عل باب من أبواب الفقه لا يجد ذلك ... الخ ، مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم العابد ، لا سيما إذا كان العابد محتاجاً إلى علم هو مشتغل به عن العبادة ، ثم إن كثيراً من المتعبدين يؤثر العبادة على طلب العلم مع جهله بما يبطل كثيراً من عبادته كنواقض الوضوء ... الخ .

فما المانع أن يحصل للمشتغلين بالعلم ما يحصل للمشتغلين بالعبادة مع فضله عليه ؟ فأجاب : الحمد لله رب العالمين . لا ريب أن الذي أُوتي العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أوتوا الإيمان فقط كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، والعلم الممدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورّثته الأنبياء ،والناس إنما يغلطون في هذه المسائل ، لأنهم يفهمون مسميات الأسماء الواردة في الكتاب والسنة ولا يعرفون حقائق الأمور الموجودة .

[وذكر في هذه المسألة أصولاً وهي] :

الأصل الأول : فقد يكون الرجل حافظاً لحروف القرآن وسوره ولا يكون مؤمناً بل يكون منافقاً فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه ، وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان ، وأما الذي أوتي العلم والإيمان فهو مؤمن عليم ، فهو أفضل من المؤمن الذي ليس مثله في العلم ، مثل اشتراكهما في الإيمان ، فهذا أصل تجب معرفته .

الأصل الثاني : وهو أنه ليس كل عمل أورث كشوفاً أو تصرفاً في الكون يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرفاً ، فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على دين الله وإلا كان من متاع الحياة الدنيا ، ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تتلقى من مثل هذا وإنما تتلقى من دلالة الكتاب والسنة ... ومن عبد الله بغير علم فقد أفسد أكثر مما يصلح .

الأصل الثالث : أن تفضيل العمل على العمل قد يكون مطلقاً مثل تفضيل أصل الدين على فرعه ، وقد يكون مقيداً ، فقد يكون أحد العملين في حق زيد أفضل من

الآخر ، والآخر في حق عمرو أفضل ، وقد يكونان متماثلين في حق الشخص ، وقد يكون المفضول في وقت أفضل من الفاضل ، وقد يكون المفضول في حق من يقدر عليه وينتفع به أفضل من الفاضل في حق من ليس كذلك ، [ثم ضرب أمثلة لذلك] .

الأصل الرابع : أنه « قد يأتي بالعمل الفاضل من غير قيام بشروطه ولا إخلاص فيه فيكون بتفويت شرائطه دون من أتى بالمفضول المكمل » [1] .

وقدم توضيحاً جيداً وتقعيداً مؤصلاً في عدد من المواضع في كتبه لمشكلة فيها التباس ضل بها اليهود والنصارى والمشركون وبعض المسلمين من أهل البدع والضلال والشرك وهي : تمثّل الشياطين بصور من يعظمه الناس ، وتلبّسهم بأصواتهم وهيأتهم ، سواء كانوا أحياء أم ميتين فيغيثون المستغيث ، ويلبون دعوة من دعا الشيخ المعظم ويقضون حاجاته ويعملون بعض الأعمال لبعض الناس ، فيأتي هؤلاء الناس إلى الشيخ إن كان حياً ويخبرونه بذلك ، فإن كان ممن يحبون الرئاسة أوْهَمَهم أنه أغاثهم ، وإن كان فيه صدق من جهل وضلال قال : هذا ملك صوره الله على صورتي ، والشياطين تغوي الناس بحسب الإمكان ، فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته في الشرك الظاهر والكفر المحض ، فأمرته ألا يذكر الله ، وأن يسجد للشيطان ... وكلما ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم .

وإن كان مسلماً يختار الفواحش والظلم أعانته على الظلم والفواحش ، وهذا كثير جداً أكثر من الذي قبله في البلاد التي في أهلها إسلام وجاهلية ، وبر وفجور، وإن كان الشيخ فيه إسلام وديانة ولكن عنده قلة معرفة بحقيقة ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات وهو لا يعرف كمال الولاية ... أمرته الشياطين بأمر لا ينكره ، فتارة يحملون أحدهم في الهواء ويقفون به في عرفات ، ثم يعيدونه إلى بلده وهو لابس ثيابه لم يحرم حين حاذى المواقيت ... وقد تحمل أحدهم الجن فتزوره بيت المقدس وغيره [2] ، وقد يسرقون من بعض الناس شيئاً ويخبرون من يستعين بهم بمكانه الذي وضعوه فيه ، أو يخبرونه عمن سرقه من الناس ويأتون لأهل المسروق ويقولون : اذهب إلى الشيخ الفلاني يخبرك عنه . وقد يصرعون شخصاً ويتلبسون به ثم يقولون لأهله :اذهبوا إلى الشيخ الفلاني يقرأ عليه يخرجه وهم قد تمالئوا معه « وهذا كله وأمثاله مما أعرفه قد وقع لمن أعرفه لكن هذا

---

(١) الفتاوى ١١/٣٩٥ - ٤٠٠ .
(٢) التفسير الكبير ٧/٥٢١ - ٥٢٤ .

باب طويل ليس هذ موضع بسطه» [1] .

ومما يميز ابن تيمية في دراسته لقضايا الخلاف والاختلاف إنه يبسط المسائل ويورد الأقوال وأدلتها ورأي كل فريق ودليل كل مسألة ، ثم يذكر القول الراجح بأدلته أو دليله من الكتاب والسنة والعقل ، فغالباً نجد في كل كلامه بعد أن يعرض المسائل الخلافية قوله : « والتحقيق » أو« القول الراجح » ونحو هذه العبارات .

ولا شك أن هذه الطريقة في دراسة القضايا أعطت منهج ابن تيمية وضوحاً أمام تلاميذه وأتباعه وكل من سمع له أو قرأ له على مر العصور ، حتى لا تخلو مسألة خلافية أو قضية فكرية أو عملية في جميع مجالات الحياة إلا وتجد لابن تيمية قولاً فصلاً يملأ نفسك أنساً وانشراحاً ، حتى قال عنه صاحب كتاب ابن تيمية وفكره السياسي: «وما كان ليترك أيّة مسألة بدون حل مرضٍ ومقبول وفق المعايير الشرعية » [2] .

رابعاً : إعلانه للدعوة :

لقد جهر ابن تيمية بما يدعو الناس إليه و « لم يكن يتردد لحظة واحدة في إعلان الحق في وجه مناوئيه من العلماء والمتنفذين وكذلك لم يخش العالم » [3] ، فكانت دعوته معروفة معلومة لكل أحد : القاصي والداني والعالم والعامي والحاكم والمحكوم ، بدايتها ونهايتها ، وكان معلوماً ما عنده من اعتقاد ، ومن آراء ، وانتقادات ، وقضايا تربية وإصلاح ، لأنه كان يطرحها ويناقشها علانية في كل الميادين المناسبة ، ولا أعلم أنه سلك تقسيمات معينة في الدعوة والمدعوين ولا أعلم أنه وضع مراحل ودرجات وطبقات للمدعوين وكل طبقة لها معلومات خاصة وأسرار معينة ، وكل مرحلة أو درجة أو طبقة لا تعلم عن الأخرى ، كما تفعل بعض الطوائف الباطنية .

ومن اليقين أن هذا يساعد على وضوح الدعوة في أسسها ومبادئها وأفكارها وما تتبناه من قضايا ، بعكس ما إذا كانت سرية في كل جوانبها أو في بعضها فسوف يلفها الغموض وتكثر حولها الاستفهامات والتفسيرات والإشاعات والتأويلات ، وأن يُنسب إليها ما ليس فيها ولا تُعلم الحقيقة . ومن تأمل الدعوات السرية في عصرنا الحاضر أو ما قبله وجد مصداق ذلك .

ولم أطلع على أنَّ ابن تيمية يمنع ذلك كله ويرفضه بل هو تحدث عن دعوة النبي

---

(١) التفسير الكبير ٥٢٤/٧ وانظر ايضاً الفتاوى ٤٧/١٩ - ٤٨ .
(٢) ص/٣٣ . (٣) ابن تيمية وفكره السياسي /٣٤ .

صلى الله عليه وسلم في مكة ، ولم يكن له فيما أعلم أي تعليق يمنع أن تكون الدعوة سرية .

والمنهج الحق أنه إذا أمكن العلن فلا يلجأ إلى الإسرار؛ لأن الإسرار في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم مرحلة بداية مرتبطة بأسبابها، فلما زالت انتقل عنها إلى الإعلان والجهر فالجهر هو الأصل .

وابن تيمية الذي يقرر أن التجربة مصدر للمعرفة استفاد من تجارب السابقين، فها هو يتكلم عن الباطنية وينتقد إغراقها في الإسرار حتى أصبحت غامضة على أصحابها، وانتقد عليها إظهارها للناس من أهداف ومقاصد خلاف ما تبطنه ، وهذا مع حرمته له انعكاسات خطيرة على المدعوين يقول : « ألا ترى أن الباطنية ونحوهم أبطنوا خلاف ما أظهروه للناس وسعوا في ذلك بكل طريق ، تواطؤوا عليه ما شاء الله ، حتى التبس أمرهم على كثير من أتباعهم ، ثم إنهم مع ذلك اطلع على حقيقة أمرهم جميع أذكياء الناس من موافقيهم ومخالفيهم ، وصنفوا الكتب في كشف أسرارهم ورفع أستارهم، ولم يكن لهم في الباطن حرمة عند من عرف باطنهم ، ولا ثقة بما يخبرون به ، ولا التزام طاعة لما يأمرون ، وكذلك من فيه نوع من هذا الجنس .

فمن سلك هذه السبل لم يبق لمن علم أمره ثقة بما يخبر به ، وبما يؤمر به حينئذ، فينقض عليه جميع ما خاطب به الناس ، فإنه ما من خطاب يخاطبهم به إلا ويجوزون عليه أن يكون أراد به غير ما أظهره لهم ، فلا يثقون بأخباره وأوامره فيختل عليه الأمر كله فيكون مقصوده صلاحهم ، فيعود ذلك بالفساد العظيم ، بل كل من وافقه فلا بد أن يظهر خلاف ما أبطن كأتباع من سلك هذه السبيل من القرامطة الباطنية وغيرهم ، لا تجد أحداً من موافقيهم إلا ولا بد أن يبين أن ظاهره خلاف باطنه ، ويحصل لهم بذلك من كشف الأسرار وهتك الأستار ما يصيرون به من شرار الكفار» (١) .

وكانت أهداف دعوته معلنة ، واضحة في كل ما يكتب ويخطب ويتصل ، وكان يتعمد إعلان أهداف الدعوة في كل مناسبة ومجال مناسب .

وأهداف دعوته : تحقيق الدين بأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، وتكون العبادة خالصة لله وحده لا شريك له ، والاتباع المطلق والطاعة التامة الكاملة للنبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) التفسير الكبير ٢/٦٥ - ٦٦ .

فمن عمل ببعض الدين وترك البعض الآخر ،ومن أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم وأطاع غيره فيما يخالف ما جاء به من الهدى لزم قتاله لأنه لم يجعل الدين كله لله ولا الطاعة لرسوله ، قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (١) .

« فالمقصود أن يكون الدين كله لله » (٢) ، فمن كانت دعوته إتباعاً للهوى ، أو تنافساً من أجل التكاثر في الأفراد من الأتباع ولو كان بطريق غير مشروع ولغرض لا يبتغي به وجه الله ،كالسيادة والزعامة والمشيخة ، أو لأغراض مادية أو أي نوع من أنواع شهوات النفوس ومراداتها الدنيوية ، فإذا دخلت أمثال هذه المقاصد في حياة الدعوة والدعاة فإن الجهود تبقى مصروفة في خدمة هذه الأغراض بعيدة عن غاية أن يكون الدين كله لله ؛ وكلمة الله هي العليا ، يقول رحمه الله في انتقاد بعض أهل هذه المسالك : « وقد كثر في المتزهدة والمتفقرة البدع ، وفي المعرضين عن ذلك طلب الدنيا، وطلاب الدنيا لا يعارضون تاركها إلا لأغراضهم وإن كانوا مبتدعة ، وأولئك لا يعارضون أبناء الدنيا إلا لأغراضهم ، وتبقى المنازعات للدنيا لا لتكون كلمة الله هي العليا ، ولا ليكون الدين كله لله ، بخلاف طريقة السلف رضى الله عنهم أجمعين ، وكلاهما خارج عن الصراط المستقيم » (٣) . ويعتقد ابن تيمية أن أهداف الدعوة والدعاة هي أهداف الأنبياء والمرسلين :إصلاح الناس وتعبيدهم لربهم ،يقول رحمه الله مخاطباً القيادات والمتبوعين المطاعين :« فمن كان من المطاعين – من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك – متبعاً للرسل : أمر بما أمروا به ، ودعا إلى ما دعوا إليه وأحب من دعا إلى مثل ما دعا إليه ، فإن الله يحب ذلك ، فيحب ما يحبه الله تعالى .

وهذا قصده في نفس الأمر: أن تكون العبادة لله تعالى وحده ، وأن يكون الدين كله لله ،وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى مثل ذلك ، فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود فله نصيب من حال فرعون وأشباهه ... فالمؤمن المتبع للرسل : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ليكون الدين كله لله لا له ، وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه وسر بوجود مطلوبه . وإذا أحسن إلى الناس فإنما يحسن إليهم ، ابتغاء وجه ربه الأعلى ؛ ويعلم أن الله قد منّ عليه بأن جعله محسناً ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله وأنه بالله ، فالمؤمن يرى أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله ، لأنه إياه يستعين فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاءً ولا شكورا ، لأنه إنما عمل له ما عمل لله

(١) سورة الأنفال آية (٣٩) . (٢) الفتاوى ٤٩٧/١١ ، ٦١٧ . (٣) الفتاوى ٢٧٨/١٩ ، ٢٧٩ .

كما قال الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ منكُم جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [1]... ومن الناس من يحسن إلى غيره ليمن عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته له وتعظيمه أو نفع آخر .

وقد يمن عليه فيقول أنا فعلت بك كذا ، فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه ولا عمل لله، ولا عمل بالله فهو المرائي» [2] .

وغير ذلك في الدعوة إنما هو من أعظم الفساد في الأرض فمن دعا إلى غير الله أو نصب نفسه أو غيره مطاعاً متبعاً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد هلك وأهلك لأنه خالف مقصود الدعوة الربانية والرسالة المحمدية . قال رحمه الله تعالى: « ... وبالجملة ، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره أو مطاع متبع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعظم الفساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم[3] .

ويعلن مرة أخرى أن « مقصود الدعوة : أن تكون كلمة الله هي العليا ... »[4] .

وكان رحمه الله يسعى في دعوته للعودة إلى عهد السلف الصالح [5] .

ولا أعتقد أنني أستطيع مهما تكلمت عن أهداف دعوته رحمه الله ومقاصدها أن أعبر وأفصح مثلما أفصح هو وعبر عنها ، فأكتفي ببيانه عن بياني فما ترك لمن بعده منة عليه .

خامساً : « بيان أسباب حدوث الأدواء والفتن وأسباب حصول الخير والشر في الأمم » :

منّ الله على شيخ الإسلام ابن تيمية بقدرة فائقة في معرفة أمراض الأمة وأسباب ذلك ، ولعظيم صلته بالكتاب والسنة وسلف الأمة فإنه استخلص الدواء لأدواء المسلمين فقدمه في أخلص صورة وأصفاها .

ومعلوم أن معرفة سبب الداء هو نصف الدواء ، وأدواء الأمة جاءت منها نتيجة

---

(1) سورة الإنسان آية (٩) .
(2) التفسير الكبير ٣/٣٦٣ - ٣٦٤ .
(3) التفسير الكبير ٤/٣٠٩ .
(4) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٤٣ .
(5) ابن تيمية وفكره السياسي /٢٧ .

للمعاصي ، يقول رحمه الله :« إن السيئات التي تصيب الإنسان – وهي مصائب الدنيا والآخرة – ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو نفسه ، فانحصرت في نفسه ، والقرآن بيّن في غير موضع أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب ، فقال هنا : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (١) ، (٢).

وتمكين أهل البدع والفجور من فسقة الأمة ومجرميها هو بسبب المعاصي والذنوب. ويضع شيخ الإسلام الأمة أمام عيوبها وأخطائها وجهاً لوجه بعد أن استطاع أن يبرز أسباب هذا الضعف والانهيار والتفرق ، وكأنه يقول للأمة :الحل في أيديكم ومقدوركم ؛لأن ما أصابكم فمن أنفسكم فأنتم أطباؤها . فعمل جاهداً على استنهاظ روح الأمة وعزيمتها ، وإيقاظ جذوة الإيمان في قلوبها لتقوى على علاج ذاتها « فما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة» و :﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(٣).

والأسباب التي ذكرها ابن تيمية للأدواء والفتن والتفرق والاختلاف ونحو ذلك كثيرة جداً نذكر بعضها :

أ ـ التفرق والضلال إنما حصل بترك بعض الهدى ، والبدع المقابلة للحق إنما كانت بالزيادة في النفي والإثبات ، وحدوث البدع ، والأسماء المجملة ، والاختلاف والافتراق، وتكفير بعض هؤلاء المختلفين لبعض ، كل ذلك بسبب ترك بعض الحق وأخذ بعض الباطل وكتمان الحق ، ولبس الحق بالباطل (٤) .

ب ـ ومن أعظم أسباب اختلاف بني آدم من المؤمنين وغيرهم ما يحصل لهم من العلوم في مداركهم الثلاثة « العقل ، والسمع ، والبصر » ، فأحدهم يدرك بها علماً قاطعاً عنده ضروري في حقه ، وتكون عند غيره ليست كذلك مع اجتهاده بسبب من الأسباب (٥) .

« ولهذا نجد في المختلفين كل طائفة تدعي العلم الضروري فيما تقوله إما من جهة

---

(١) سورة النساء آية (٧٩) . (٢) انظر ٣/٣٧٢ ، ٤٥٢ .
(٣) سورة الرعد آية (١١) . (٤) انظر الاستقامة ٣/١ . (٥) انظر الاستقامة ٢٩/١ .

القياس والنظر ، وإما من جهة السماع والخبر ، وإما من جهة الإحساس والبصر ، ولا تكون واحدة من الطائفتين كاذبة بل صادقة لكن يكون قد أدخل مع الحق ما ليس منه في النفي والإثبات باشتباه المعاني واشتراك الألفاظ فيكون حينئذ ما ينفيه هذا يثبته الآخر » (١) .

جـ ـ تمكين أصحاب البدع والأهواء المنحرفة ودخول غير المسلمين في الدولة الإسلامية من أسباب سقوطها وانهيارها ، وكلما كثروا كلما عجلت نهايتها ، يقول رحمه الله : « وهذا الجعد (٢) إليه ينسب مروان بن محمد الجعدي (٣) آخر خلفاء بني أمية وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة . » ... والرافضة كانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكيزخان (٤) ملك الكفر إلى بلاد الإسلام ، وفي قدوم هولاكو (٥) إلى بلاد العراق وفي أخذ حلب ونهب الصالحية وغير ذلك بخبثهم ومكرهم لما دخل فيه من توزر منهم للمسلمين وغير من توزر منهم » (٦) .

ويقول : « وإنما كثرت الفتن بين المسلمين وتفرقوا على ملوكهم من حين دخل

---

(١) الاستقامة ٢٩/١ .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (١٩٨) .

(٣) هو : مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي يعرف بالجعدي وبالحمار . ولد سنة ٧٢هـ بالجزيرة . تولى على أذربيجان وأرمينية والجزيره ، وهو آخر ملوك بني أمية في الشام ، قيل إنه قتل سنة ١٣٢هـ وعاش ٦٢ سنة . انظر : سير أعلام النبلاء ٧٤/٦ ، الأعلام للزركلي ٢٠٨/٧ .

(٤) هو : جنكيزخان كان يسمّى قبل أن يلي الملك تمر حين ، كان طاغية التتار وملكهم الأول الذي خرّب البلاد ، وقتل العباد ، لم يكن للتتار قبله ذكر حتى تولى عليهم سنة ٥٩٩هـ ، فاستولى على بخارى وسمرقند ، وحارب السلطان جلال الدين خوارزم شاه على نهر السند .. وسعياً منه إلى كثرة عدد التتار أمرهم بأن لا يمنع أحد من التزوج بأي إمرأة أحب ، ولو كانت بنتاً أو غيرها ، ثم عقد مهادنة بعد ذلك مع السلطان خوارزم شاه لمدة عشرين سنة ، وما جاءت العشرون سنة إلا والتتار أمم لا يحصون ولا يحصرون عدداً .. مات جنكيزخان كافراً ملحداً سنة ٦٢٤هـ بعد أن تربع على عرش الملك خمسا وعشرين سنة . انظر فوات الوفيات ٣٠١/١ ، والذيل عليها تأليف محمد بن شاكر الكتبي . تحقيق د. إحسان عباس . دار صادر بيروت – لبنان .

(٥) هو : هولاكو بن تولي قان بن جنكيزخان ملك التتار ، ومقدّمهم ، استولى على الممالك ، وفتح بلاد خراسان ، وفارس ، وأذربيجان ، والعراقين ، أسلم عندما عزم على الزواج من بنت ملك الكرج وأبت تلك إلا أن يسلم ، فأسلم وتزوجها .. وقتل الخليفة العباسي المستعصم ، وتوفي بعلة الصرع سنة ٦٦٤هـ ، وأخفوا موته . انظر فوات الوفيات ٢٤٠/٤ .

(٦) الفتاوى ٤٧٨/٢٨ .

النصارى مع ولاة الأمور بالديار المصرية في دولة المعز (١) ، ووزارة الفائز (٢) ، وتفرق البحرية (٣) ، فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل ، انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم ، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم ... وكان مبدأ ظهورهم من حيث تولى المقتدر (٤) ولم يكن قد بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية » (٥).

د ـ وكذلك ظهور المعاصي والبدع المخالفة لدين الإسلام سبب للمصائب والهزيمة، وتسلط الأعداء لأنه « ... من المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا ، وبما شهد به في كتابه : أن المعاصي سبب المصائب – فسيئات المصائب والجزاء هي من سيئات الأعمال – وأن الطاعة سبب النعمة ، فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله

---

(١) هو : أيبك بن عبدالله الصالحي النجميّ عزّ الدين التركمانيّ ، أول سلاطين المماليك البحرية في مصر والشام ، ولي مصر سنة ٦٤٨هـ ، وكان يلقب الملك المعز عزّ الدنيا والدين الجاشنكير .. غارت عليه زوجته أم خليل « شجرة الدّر » عندما علمت بخطبته ابنة بدر اكرين صاحب الموصل ، وبينما هو في الحمام جاء إليه خمسة من خدام أم خليل ، فقتلوه خنقاً .. وقيل قتلته أم خليل نفسها في الحمام .. وكان ذلك سنة ٦٥٥هـ وقيل ٦٥٦هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٩٨/٢٣ ، الأعلام ٣٣/١ .

(٢) لم أعثر على ترجمته في عدد من كتب التراجم والتاريخ .

(٣) البحرية : هي دولة المماليك التي حكمت مصر والشام نحو قرن وثلث قرن ، وكان معظم أولئك المماليك من الأتراك الذين جلبوا من بلاد القفجاق ، والقوقاز ، وقد تقلد أول سلاطين المماليك سدّة الحكم سنة ٦٤٨هـ ، وذلك بعد مقتل آخر ملك من ملوك بني أيوب وهو توران شاه الملك المعظم ، وقد مات جريحاً حريقاً غريقاً سنة ٦٤٨هـ في ماء النيل .. ثم صار الأمر والحكم إلى شجرة الدر زوجة الملك الصالح وما هي إلا شهور حتى تنازلت شجرة الدر عن الحكم لزوجها الجديد المعز عز الدنيا والدين الأمير أيبك بن عبدالله ، ويكون هذا أول مملوك يحكم مصر والشام .. ولم يعمر هذا الملك المعز طويلاً، فقد مات مخنوقاً سنة ٦٥٥هـ في الحمام بناء على مؤامرة شجرة الدر التي هي الأخرى لحقت به مقتولة، وقد زالت دولتهم سنة ٧٨٤هـ وسميت هذه الدولة البحرية ذلك أن الصالح نجم الدين أيوب اختار جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم – المماليك – ، ولأن معظمهم جلبوا من بلاد القفجاق – شمال البحر الأسود – ومن بلا القوقاز قرب بحر قزوين . انظر الأيوبيون والمماليك /١٩٦ وما بعدها .

(٤) هو : جعفر بن أحمد بن طلحة أبوالفضل المقتدر بالله ابن المعتضد بن الموفق ، ولد في بغداد سنة ٢٨٢هـ ، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي سنة ٢٩٥هـ ، فاستصغره الناس ، فخلعوه سنة ٢٩٦هـ ونصبوا أخاه ابن المعتز ثم قتلوه بعد يومين ، وأعيد المقتدر فطالت أيامه وكثرت فيها الفتن .. قتله جماعة من المغاربة سنة ٣٢٠هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٤٣/١٥ ، الأعلام ١٢١/٢ .

(٥) الفتاوى ٦٣٩/٢٨ - ٦٤٠ .

لإحسان الله قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (١) ثم ساق عدداً من الآيات القرآنية (٢).

وقال: « ... فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء فكان الإيمان بالرسول، والجهاد عن دينه سبباً لخير الدنيا والآخرة، وبالعكس البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة. فلما ظهر في الشام ومصر والجزيرة الإلحاد والبدع سلط عليهم الكفار، ولما أقاموا ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار تحقيقاً لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ (٣)، وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالإسلام كانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم، فلما ظهر ما ظهر من البدع والإلحاد والفجور سلط عليهم الكفار قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤) الآية.

وأيضاً مثار الاختلاف في التفسير من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه وفسروا كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بغير ما أريد به وتأولوه على غير تأويله (٥).

هـ - ومن أسباب الضلال والانحراف والخطأ أن يتصور قوم استحباب أمر من الأمور يجعلونه ديناً لازماً وشعاراً من شعار الصالحين وليس هو كذلك. وابن تيمية يعد مثل هذا أمراً خطيراً يجب العناية به، يقول رحمه الله: « وهذا أصل عظيم من أصول سبيل الله وطريقه يجب الاعتناء به، وذلك أن كثيراً من الأفعال قد يكون مباحاً في الشريعة، أو مكروهاً، أو متنازعاً في إباحته وكراهيته، وربما كان محرماً أو متنازعاً في تحريمه، فتستحبه طائفة من الناس يفعلونه على أنه حسن مستحب، ودين وطريق يتقربون به، حتى يعدون من يفعل ذلك أفضل ممن لا يفعله، وربما جعلوا ذلك من لوازم طريقتهم إلى الله، أو جعلوه شعار الصالحين وأولياء الله، ويكون ذلك خطأ وضلالاً وابتداع دين لم يأذن به الله.

مثال ذلك حلق الرأس في غير الحج والعمرة لغير عذر ... وأما حلقه لغير ذلك

---

(١) سورة الشورى آية (٣٠). (٢) الاستقامة ٢/٢٣٤، وانظر ص٢٤١. (٣) سورة الصف الآيات (١٠ - ١١). (٤) سورة الإسراء آية (٤). (٥) التفسير الكبير ٢/٢٢٩، وانظر ٢٢٥/.

فقد تنازع العلماء في إباحته وكراهته نزاعاً معروفاً على قولين ... ولا نزاع بين علماء المسلمين وأئمة الدين أن ذلك لا يشرع ولا يستحب ولا هو من سبيل الله وطريقه ولا من الزهد المشروع للمسلمين ، ولا مما أثنى الله به على أحد من الفقراء ،ومع هذا فقد اتخذه طوائف من النساك الفقراء والصوفية ديناً حتى جعلوه شعاراً وعلامة على أهل الدين والنسك والخير والتوبة والسلوك إلى الله المشير إلى الفقر والصوفية ، حتى إن من لم يفعل ذلك يكون منقوصاً عندهم خارجاً عن الطريقة المفضلة المحمودة عندهم ، ومن فعل ذلك دخل في هديهم وطريقهم ، وهذا ضلال عن طريق الله وسبيله باتفاق المسلمين ، واتخاذ ذلك ديناً وشعاراً لأهل الدين من أسباب تبديل الدين ، بل جعله علامة على المروق من الدين أقرب ، فإن الذي يكرهه - وإن فعله صاحبه عادة لا عبادة - يحتج بأنه من سيما الخوارج المارقين ... وروى عنه صلى الله عليه وسلم : (سيماهم التحليق) [(١)] » [(٢)] .

ويقول رحمه الله : « فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات ، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله .... الخ .

وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد يرون الشيء إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه ، بل يقال إنه جائز ولا يفرق بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضة » [(٣)].

و ـ ومن أسباب ضلال بعض المسلمين : التفريط في حقوق الله والعدوان على حدوده من البعض الآخر ، يقول رحمه الله : « ومن السبب الذي ضل به هؤلاء «الصوفية » وغووا ما وجدوه في كثير ممن ينسب إلى الشريعة من الداعين إلى الجهاد من ضعف حقيقة الإيمان وسوء النيات والمقاصد ، وبعدهم عن النيات الخالصة لله ، وصلاح قلوبهم وسرائرهم ... ، كما وجدوه في كثير ممن يذم السماع المحدث من قسوة القلب، والبعد عن مكارم الأخلاق وذوق حقيقة الإيمان .

فهذا التفريط في حقوق الله ، والعدوان على حدوده الذي وجد في هؤلاء وأمثالهم ممن لا يتدين بالسماع المحدث ، بل يتدين ببعض هذه الأمور صار شبهة لأولئك،

---

(١) صحيح البخاري ٢١٩/٨ كتاب التوحيد ، باب ٥٧ والتحليق هو حلق شعر الرأس حتى لا يبقى منه شيء .

(٢) الاستقامة ٢٥٥/١ - ٢٥٧ .

(٣) الفتاوى ٤٥٠/١١ ، ٤٥١ .

كما أن التفريط والعدوان الموجود في أهل السماع المحدث صار شبهة لأولئك في ترك كثير مما عليه كثير منهم من حقائق الإيمان وطاعة الله ورسوله .

ولهذا تفرق هؤلاء في الدين وصارت كل طائفة مبتدعة لدين لم يشرعه الله ، ومنكرة لما مع الطائفة الأخرى من دين الله وصار فيهم شبه الأمم قبلهم » (١) .

إذاً الخطأ الواقع من تفريط أو عدوان قد يولد ويسبب خطأً آخر أخطر منه أو مماثلاً له .

ومثال ذلك أن الصوفية وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون الله جلب المنافع دون المضار ، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار ، من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيراً، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، [فرأى أولئك الصوفية] أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلاً بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر كائناً من كان ، وهذا هو الذي أدخل كثيراً منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة حتى تركوا ... ما يحتاجون إليه وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به .

هب أن من الناس من يسأل الله جلب المنفعة له ودفع المضرة عنه طبعاً وعادة لا شرعًا وعبادة ، فليس من المشروع لي أن أدع الدعاء مطلقاً لأجل تقصير هذا وتفريطه ، بل أفعله أنا شرعاً وعباده (٢) .

ز ـ ويذكر ابن تيمية سلسلة من الأدواء يربطها بسلسلة من الأسباب، يقول رحمه الله :« كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق والإقرار به ، وسبب هذا عدم أسبابه من النظر التام والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه [وسبب هذا :] إما عدم المقتضي فيكون عدماً محضاً وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في النفس والله لا يحب كل مختال فخور وهو تصور باطل ، وسببه عدم غنى النفس بالحق ، فتعتاض عنه بالخيال الباطل .

والحسد أيضاً سببه : عدم النعمة التي يصير بها مثل المحسود أو أفضل منه ، فإن ذلك يوجب كراهة الحاسد لأن يكافئه المحسود أو يتفضل عليه ، وكذلك الفسوق كالقتل والزنا وسائر القبائح إنما سببها : حاجة النفس إلى الاستشفاء بالقتل والالتذاذ بالزنا ، وإلا فمن حصل غرضه بلا قتل أو نال اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك .

والحاجة مصدرها العدم ، وهذا يبين – إذا تدبره الإنسان – أن الشر الموجود إن

---

(١) الاستقامة ٢٦٨/١ - ٢٦٩ .

(٢) الاستقامة ١٣٣/٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ .

أضيف إلى عدم أو وجود ، فلا بد أن يكون وجوداً ناقصاً ، فتارة يضاف إلى عدم كمال السبب أو فوات الشرط ، وتارة يضاف إلى وجود ، ويعبر عنه تارة بالسبب الناقص والمحل الناقص .

وسبب ذلك إما عدم شرط أو وجود مانع ، والمانع لا يكون مانعاً إلا لضعف المقتضي » (١) .

ح - ومن أسباب نشوء البدع وقبولها عند بعض الناس ورواجها عليهم [أن الذين يعارضون الكتاب والسنة بما يسمونه عقليات] إنما يبنون أمرهم على أقوال مشتبهة مجملة تحتمل معاني متعددة ، ويكون ما فيها من الاشتباه لفظاً ومعنى يوجب تناولها لحق وباطل ، فبما فيها من الحق يقبل ما فيها من الباطل ، لأجل الاشتباه والالتباس ، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

[وهذا هو منشأ البدع ورواجها] فإن البدعة لو كانت باطلاً محضاً لظهرت وبانت وما قبلت ، ولو كانت حقاً محضاً لا شوب فيه ، لكانت موافقة للسنة لأن الحق المحض لا يتعارض .. ولكن البدعة تشتمل على حق وباطل ... ولهذا قال تعالى فيما يخاطب به أهل الكتاب على لسان محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، فنهاهم عن لبس الحق بالباطل وكتمانه ، ولبسه به : خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر » (٣) .

ط - سبب الفتن التي حصلت في آخر خلافة عثمان وخلافة علي رضى الله عنهم وأرضاهم هو في نظر ابن تيمية « ... عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية من الطرفين » (٤) .

وقد فصل رحمه الله كيف يحدث مثل هذا بادئاً هذا التفصيل بمقدمة عن بعض ما في النفوس من الدواعي قائلاً :

« فالنفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدي عليه في حقه ، وداعي الظلم لنفسها لتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث ، فإذا رأت نظراءها قد ظلموا وتناولوا هذه الشهوات صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير ،

---

(١) دقائق التفسير ١ ، ١٨٤/٢ . (٢) سورة البقرة الآيات (٤٠ - ٤٢) .
(٣) الدرء ٢٠٨/١ . (٤) الفتاوى ١٤٩/٢٨ .

وقد تصبر ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده ، وطلب عقابه وزوال الخير عنه ما لم يكن فيها قبل ذلك ، ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين ، والناس هنا ثلاثة أقسام : -

الأول : قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم فلا يرضون إلا بما يعطونه ولا يغضبون إلا لما يحرمونه ، فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام زال غضبه وحصل رضاه .

الثاني : قوم يقومون ديانة صحيحة يكونون في ذلك مخلصين لله مصلحين فيما عملوه ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا .

الثالث : قوم يجتمع فيهم هذا وهذا ، وهم غالب المؤمنين ، فمن فيه دين وله شهوة وتجتمع في قلوبهم إرادة الطاعة ، وإرادة المعصية ، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة.

... ولهذا لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر قال فيهما الرسول صلى الله عليه وسلم :« اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر »، فهم أقرب عهداً بالرسالة ، وأعظم إيماناً وصلاحاً ، وأئمتهم أقوم بالواجب ، وأثبت بالطمأنينة ، لم تقع فتنة إذ كانوا في القسم الأوسط [الثاني] .

ولما كان في خلافة عثمان وخلافة علي كثر القسم الثالث فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين ، وصار ذلك في بعض الولاة ، وبعض الرعايا ،ثم كثر ذلك بعد فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين واختلاطهما بنوع من الهوى والعصبية في الطرفين .

وكل منهما متأول : أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى » (1) .

ك ـ وسبب الرد على الأعداء بالشبهات المخالفة للكتاب والسنة هو : فتور العزائم عن طلب الحقائق من الكتاب والسنة فردوا عليهم بالباطل المعارض لهما ، أورد رحمه الله كلام الخطابي (2) في الغنية قائلاً :« وما ذكره من أنه لما تأخر الزمان وفترت عزائم

---

(1) الفتاوى ١٤٦/٢٨ ، ١٤٧ ، والاستقامة ٢٤٨/٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ .

(2) هو : أبوسليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أحد المشاهير الأعيان ، والفقهاء المجتهدين المكثرين من التصانيف ، شرح الأسماء الحسنى ، وكتاب الغنية عن الكلام وأهله ، توفى سنة ٣٨٨هـ . انظر طبقات الشافعية ٢٨٢/٣ - ٢٩٠ والبداية والنهاية ٣٦٣/١١ .

بعض الناس عن طلب حقائق علوم الكتاب والسنة أخذوا يردون سنة الملحدين بالكلام المبتدع ، المستلزم مخالفة النصوص ، فهو كما قال وقد تأملت هذا في عامة الأبواب فوجدته كذلك » (١) .

ل ـ ويبين لنا سبب فساد حال أكثر الناس حينما يتولى منصباً من المناصب فيقول رحمه الله عن الإمارة :« وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها . وقد روى كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) (٢) .

فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه ، مثل أو أكثر من فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم » (٣).

م ـ ومن الأسباب التي تجعل ولي الأمر محتاجاً لأن يسمع الكذب : أكله للسحت، يقول رحمه الله : « ومتى أكل السحت ولي الأمر احتاج أن يسمع الكذب من شهادة الزور وغيرها » (٤) .

ن ـ تعطيل الحد بمال أو جاه سبب لكثير من فساد أمور الناس خصوصاً أهل البوادي والقرى والأمصار ... وهو سبب سقوط حرمة المتولي وقدره من القلوب وانحلال أمره لأنه إذا ارتشى على تعطيل حد ضعفت نفسه أن يقيم حداً آخر ، وصار من جنس اليهود الملعونين (٥) .

س ـ الريب في الأنباء الصادقة والتي توجب الأمن من الخوف سببه : المرض والنفاق في القلب، يقول رحمه الله : « فدلت هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ (٦) على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان من الخوف حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم » (٧) .

ع ـ وسبب تمكن كبار أهل البدع والضلال من أمثال شيوخ الرافضة والمتصوفة ونحوهم من قلوب الناس وأخذهم موقعاً هائلاً منها أمور عدة نذكر بعضاً منها :

١ ـ كثرة انتشارهم في البلاد .

---

(١) الدرء ٢٨٩/٧ .
(٢) سنن الترمذي ١٦/٤ رقم ٢٤٨٢ ، الزهد باب ٣٠ قال الترمذي حديث حسن صحيح .
(٣) الفتاوى ٣٩١/٢٨ . (٤) الفتاوى ٣٠٢/٢٨ . (٥) انظر الفتاوى ٣٠٣/٢٨ .
(٦) سورة الأحزاب آية (١٢) . (٧) الفتاوى ٤٥٠/٢٨ .

٢ ـ استحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد .

٣ ـ خفاء نور الإسلام .

٤ ـ استبدال أكثر الناس النور بالظلام .

٥ ـ طموس آثار الرسول في أكثر الأمصار .

٦ ـ دروس حقيقة الإسلام في دولة التتار .

هذه أسباب كونت « لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لايزول بقول قائل » (١) .

ف ـ الفاصل الزمني بين المتأخرين وبين البعثة المحمدية فاصل طويل يراه ابن تيمية سبباً في تزايد مخالفة الكتاب والسنة لكثير من المتأخرين مما لم يكن مثله في السلف، وهم مع هذا مجتهدون معذورون يغفر الله لهم ، يقول : « فلما طال الزمن خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم » (٢) ، فكثرت مخالفتهم ولم يحصل هذا في السلف لقرب عهدهم بزمن الرسالة ، وكلما قرب الشارب من النبع كلما ضمن الصفو من الكدر .

ومعرفة أسباب أمراض الأمة في جميع مجالاتها الفكرية والقلبية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية اكتسبها ابن تيمية من القرآن والسنة ومن تجارب الأمم والأحداث التي مرت بالعالم وخصوصاً أمة الإسلام ، ومكنه من ذلك سعة اطلاعه ورجاحة عقلة ، وبعد نظره .

وبهذا وأمثاله استطاع ابن تيمية أن يرسم طريقاً للدعوة يتخطى فيه أخطاء من سبقه ويحدد له وللأمة مسار الطريق السليم لتحقيق النهوض بلا تعثر ولا سقوط ، فاكتسب منهج ابن تيمية الوضوح لأنه استطاع أن يجعل أمام كل الناس المعاصرين له واللاحقين بما خلفه من تراث علمي الأمور بأسبابها ومسبباتها ، وبأدوائها ودوائها ، ولم يكن يقرر الأمور بلا برهان ، ولا يأخذها من دون ميزان ، فجاءت قواعده المنهجية وحلوله العملية تحمل مصداق قبولها ، ويقين صدقها ، نورها يسعى من بين يديها وعن أيمانها وشمائلها ومن كل جوانبها .

---

(١) الفتاوى ٤٥٦/١١ ، ٤٥٧ .

(٢) التفسير الكبير ١٦٦/١ .

الفصل الرابع

الموضوعية
في منهج الدعوة عند ابن تيمية

وتحته مباحث :

الأول : العوامل الذاتية لتحقيق المنهجية الموضوعية.

الثاني : العدل والإنصاف وذكر محاسن الخصوم.

الثالث : النظرة الواقعية للإنسان.

الرابع : اعتبار ظرف الزمان والمكان.

الخامس : تقدير المصلحة والحاجة والضرورة.

المبحث الأول

العوامل الذاتية لتحقيق المنهجية الموضوعية في الدعوة عند ابن تيمية

المطلب الأول : الإخلاص في الوصول إلى الحق :

علماء سلفنا الصالح عرف عنهم الورع والزهد والتقلل من حضوض النفس الذاتية من الأموال ، والجاه ، والتعظيم ، والانتصار للنفس ، وحب التبعية ونحو ذلك .

وكان غاية كل منهم أن يظهر الله الحق على يديه وأن ينفع به عباده في تعليم العلم النافع . وأن يكونوا من الذين يسهمون في عودة الأمة إلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام .

وشيخنا الداعية المجاهد ابن تيمية واحد من هؤلاء ،كان غايته أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة أهل الضلال هي السفلى و « ... مقصده وهمه الوحيد خدمة الدين . فهو لا يقصد من وراء ذلك شهرة ولا استعلاء ، ودليل ذلك أنه قد نذر حياته كلها لخدمة دينه فلم يخلّف مالاً ولم يعقب ولداً ، بل ترك ثروة علمية .... » (١) .

فكان من منهجه أنه يقبل الحق من كل أحد براً أو فاجراً ،مؤمناً أو كافراً :لأن الحق هو ضالة المؤمن فحيث وجده أمسك به من أي مصدر كان .

واشتهر عنه اللجوء إلى الله إذا أعضلت عليه مسألة من مسائل العلم يتضرع إليه ليكشفها له ،ويصنع أمراً عجباً ، فكان يذهب إلى أحد المساجد المهجورة في البلد ويمرغ خده بالتراب بكل ذلة وخضوع لله عز وجل ويقول : يا معلم إبراهيم علمني ،ويا مفهم سليمان فهمني (٢) .ونقل عنه قوله :« إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليّ فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل ، قال : وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي » (٣) .

ولما تكلم عن بعض المصطلحات التي خاض فيها أهل التصوف وأشكل أمرها على الناس قال :« وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه

---

(١) بغية المرتاد ص٥٧ المقدمة . (٢) انظر العقود الدرية /٢٦ . (٣) العقود الدرية /٥ ، ٦ .

بباطلـه، فصار فيه من الحق مـا يوجب قبوله ، ومـن الباطل ما يوجب رده ، وصـار كثير من الناس على طرفي نقيض .

قوم كذبوا به كـله لما وجدوا فيه من الباطـل ، وقوم صدقوا به كله لمـا وجـدوا فيه مـن الحق ، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل ... » (١) .

وهذا هو العـدل فإن كلاً يؤخذ من قـوله ويرد سوى النبـي صلى الله علـيه وسلم، وهذا هو المنـهج الوسط ، لأن من رد كل أقوال الـعالم ونحوه من أجل خـطأ أو أخطاء وقع في أمـر عظيم وهو رد ما مـعه من الحق ،وكذلـك في القبول فـإنه يقبل ما مـعه من الباطل .

ومن براهين الصدق والإخـلاص والتجرد للحق لدى الدعاة والعـلماء ونحوهم أن يحبوا كل من يـشاركهم في مجال دعوتهم وتـعليمهم وطريقهم ، قـاصدين « أن تكـون العبادة لله وحده وأن يكون الدين كله لله » (٢) ؛لأن هذا العمل من محـبوبات الله فهو يحـب ما يحبـه الله « وأما مـن كان يكره أن يـكون له نظـير يدعو إلـى مثل ذلك فـهذا يطلب أن يـكون هو المطاع المعبود فـله نصيب من حال فرعـون وأشباهه » (٣) . وانبثاقاً من هذا نجده – رحـمه الله – يسر ويفرح إذا وجـد من ينهج طريق الحـق قولاً وفعلاً ، ونجده أيضاً يذكر أقوال أهل الحـق وينسبها إلى أصحابها معتبراً إيـاها شاهداً ودليلاً على ما يتبنـاه ؛ولذا فهو يرى أنّ الدعاة والعلـماء والمشايخ والأمراء الصادقين يـلزم أن يكونوا متـآلفين مـتحابـين يفرح كـل واحد منـهم بالآخـر لأنه يسـاعده في تـقصيـر المسافـة في الوصول إلى الأهداف المـرسومة ، ولأن كل واحد منهم يـسعى في محبوب اللـه فيحبه مـن أجل اللـه ، وخلاف ذلـك انمـا هو بـرهـان الـكذب وعـلامـة الأهواء والأغـراض الشخصية، كما قال فرعون : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (٤) .

وبإخلاص العبادة والدعوة والطاعة لله والتجرد من الأهواء والأغـراض الشخصيـة تصلـح الأرض ومن عليها» (٥) .

وابن تيميـة يستفرغ جهده في الوصول إلـى الحق بطرق العلم السلـيمة ، فإذا وجد الحق قبله مهما كان مصدره حتى ولو كان من عنـد غير المسلمين ، ثم يبالغ في التمسك به والمنـافحة عنه ، ولم يـكن يفعل ذلك « لمـصلحة خاصـه أو مداراة لخاطر العامـة كما

---

(١) الفتاوى ٤٣٤/١١ (٢) التفسير الكبير ٣٦٣/٣ .

(٣) التفسير الكبير ٣٦٣/٣ . (٤) سورة القصص آية (٣٨) . (٥) انظر التفسير الكبير ٣٠٩/٤ .

يفعل العلماء ، بل لإعلاء شأن الدين وإحياء السنة وإزالة ما تراكم عليها » (١) .

وانتقد من أحب وأبغض اتباعاً للهوى بقوله: « ولهذا تجد قوماً كثيرين يحبون قوماً ويبغضون قوماً لأجل أهواء لا يعرفون معناها ولا دليلها ، بل يوالون على إطلاقها ، أو يعادون من غير أن تكون منقولة نقلاً صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة ، ومن غير أن يعقلوا معناها ولا يعرفون لازمها ومقتضاها .

... فدين الإسلام مبني على اتباع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما اتفقت عليه الأمة ، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة ... وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته ويوالى عليها ويعادي غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا ينصب لهم كلاماً يوالى عليه ويعادي غير كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما اجتمعت عليه الأمة ، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة يوالون على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون » (٢) .

وانتقد ابن فورك (٣) في مواقفه عند السلطان من مخالفة الكرامية والقيام على المعتزلة في استتابتهم من غير أن يعدل وينصفهم ثم قال: « ومن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره فإنما هو ظلم نفسه ... [ومنهج أهل السنة والعلم والإيمان أن] « من اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول عذروه » .

وقال : « والله يحب الكلام بعلم وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم » (٤) . ولم يكن ابن تيمية صاحب هوى أو أغراض شخصية يبطنها ويتستر خلف الدعوة السلفية لتحقيقها ، وقد واتاه عدد من الفرص ليحقق لنفسه ما حققه الآخرون من علماء البدع ودعاة الخرافة وأصحاب المطامع ، ولكنه يأبى إلا أن يكون مسعاه لربه وخدمة دينه وأمته(٥).

ومن ذلك أنه في زمن حكم الجاشنكير حكم العلماء في مصر بحبس ابن تيمية هوى وانتقاماً ومنهم من أفتى بكفره . فلما عاد محمد ابن الناصر قلاوون إلى الحكم أخرج ابن تيمية من السجن واستقبله في مجلسه وفيه العلماء الأعيان استقبالاً حافلاً ،

---

(١) ابن تيمية وفكره السياسي /٣٦ . (٢) الدرء ١/٢٧١ ، وانظر الاستقامة ٢/٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (١٩٤) . (٤) التفسير الكبير ٢/١١٣ ، ١١٤ .
(٥) انظر مجموع الفتاوى ٣٥/١١٥ - ١/١٩٥ ، وانظر التفسير الكبير ٧/٥٢٢ و ١٩/٤٧ - ٤٨ .

وخلى به بعد ذلك في مجلس آخر وتحدث هو وإياه طويلاً ، ثم حاول الأمير أن يثير غضب ابن تيمية على العلماء بذكر ما أفتوا في حقه وحق الأمير نفسه ، وطلب منه أن يفتيه بقتلهم ، ولكن ابن تيمية رفض هذا القول رفضاً باتاً ودافع عنهم وقال قولاً بليغاً . فلو كان ينطلق من هوى لوجدها فرصة عظيمة لينتقم ويتمكن من نفس الأمير ويخلو له الجو منهم .

وعرض عليه بعض المناصب في الدولة ولكنه كان يرفضها .

ومن دلائل إخلاصه في الوصول إلى الحق ،وأن القصد ليس هو الغلبة والانتصار على الخصوم أننا نجده لا يرحب بمن شاركه في الرد على خصومه من المبتدعة ببدعة وبباطل ، فالغاية الشريفة لا تبرر الواسطة المحرمة ، لهذا رد على قوم من المتأخرين أرادوا أن يدافعوا عن الحق ويرفعوا تأويلات أهل البدع للمتشابه ، ولكنهم أخطأوا ، يقول: « كل مسلم يوافقهم على هذا القصد ولكن لا ندفع باطلاً بباطل آخر ، ولا نرد بدعة ببدعة ، فلا يشفع القصد الحسن لصاحبه فلا بد أن يكون الفعل حسناً أيضاً » (١) .

وكذلك نجده في مواضع عدة يخطئ أقواماً من المنتسبين للسنة والسلف ومن أتباع الأئمة الأربعة ، ولا يشفع لهم هذا الانتساب عنده لكي يتغاضى عن الأخطاء ، لأن انتسابه للحق ، والحق أحق أن يتبع .

وذكر أن الإمام أحمد لزم السنة وأمر بذلك ، ونهى عن البدعة وذم أهلها ، ودعا إلى معاقبة أهلها ، ثم قال : «ثم إن كثيراً مما يراجع النص هو أنه من البدع التي يذم أهلها صار بعض أتباعه يعتقد أن ذلك من السنة، وأن الذي يذم من خالف ذلك مثل : كلامه في مسألة القرآن .. ثم إن من أصحابه من جعل ما بدّعه الإمام أحمد هو السنة ..

ثم إنهم يبدعون من لا يقول بذلك ، ويحكمون في هؤلاء ، ما قاله الإمام أحمد في المبتدعة وهو فيهم ... الخ » (٢) .

ولو كان يريد تكثير الأتباع والأنصار والمؤيدين ، أو كان ينتمي إلى دعوة حزبية لقاده الهوى إلى أن يتغاضى عن أخطاء من انضم إلى المنهج السلفي الذي ينتمي إليه ، ولسكت عمن رد بدعة خصومه ببدعة أخرى .

يقول عنه أحد الكتاب : « لقد كانت لابن تيمية شخصية نظيفة من الأنانية وحب الذات ... » (٣) .

(١) انظر التفسير الكبير ٤٨٨/٧ .
(٢) الاستقامة ١/١٥ - ١٦ .
(٣) ابن تيمية وفكره السياسي ص ٣٤ .

المطلب الثاني : محبة الآخرين والحرص على نفعهم :

وصف الله عز وجل رسوله بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (٢) .

تلك صفة عظيمة أخذ منها ابن تيمية بحظ وافر . مما جعله يقف مع خصومه قبل محبيه مواقف عظيمة نبيلة ، وحليمة حكيمة .

وقف ابن مخلوف من ابن تيمية موقف العداء ورماه بكل قوس في جعبته ،وأثار عليه العلماء والحكام وأصدر ضده الأحكام والفتاوى حتى كانت فتنة عظيمة . وابن تيمية صابر عليه يرد السيئة بالحسنة ويحاول تهدئة الأوضاع وإخماد الفتن ، يقول عن ذلك :« وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها . وإقامة كل خير ، وابن مخلوف لو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه ، ولا أعين عليه عدوه قط ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه نيتي وعزمي ، مع علمي بجميع الأمور فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين . ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين ... » (٣) .

ولا شك أن هذه المنزلة عالية لا ينالها إلاّ الصابرون ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) ، ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٥) .

وهذه المواقف النبيلة والأخلاق الكريمة إنما صدرت من ابن تيمية بسبب ما تنطوي عليه نفسه من الحب للمؤمنين ، يقول :« وأنا أحب الخير لكل المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي » (٦) .

ويقول: « ونحن نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير

---

(١) سورة التوبة آية (١٢٨) .

(٢) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه ، أخرجه البخاري كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فتح الباري ٥٧/١ . ومسلم كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير . صحيح مسلم ٦٧/١ .

(٣) الفتاوى ٢٧١/٣ . (٤) ،(٥) سورة فصلت الآيات (٣٦ ، ٣٥) . (٦) الفتاوى ٥٥/٢٨ .

الدنيـا والآخرة » (١) .

ويقول فـي رسالة كتبهـا من السجن إلـى تلاميذه ومحـبيه: « ... وأكثر ما يـنقص عليّ الجـماعة فأنا أحـب لهم أن ينالـوا من اللذة والسـرور والنعيم مـا تقر به أعيـنهم وأن يفـتح لهـم مـن معرفـة اللـه وطاعتـه والجـهــاد في سبيله مـا يصلـون به إلى أعـلى الدرجات » (٢). وابن تيمـية وإن كان يحب الآخرين هـذه المحبة فإنه لا يسعـى لرضاهم ويعلم « أن رضا الناس غير مقدور ولا مأمور ورضـى الله مقدور ومأمور » ، فالمرء مهما فعل فلن يستطيع أن يجعل كل الـناس عنه راضين ، والذي يلزم كل أحد أن يكون همه ومناه رضى ربه ومولاه ، فإذا رضى الله عنه أرضى عنه الناس .

فالحب عـند ابن تيـمية عبـادة يتقرب بـها إلى اللـه ، فلا تكون إلا لـله ، وهذا دأب أولياء الله وعـباده الصالحين ، أما المنافقـون فهم وإن حصل تشابه فـي الأقوال والأعمـال إلا أن قلوبـهـم متفــرقة ، ولا تجتمع إلا عـلى مصالح مشتـركة « لأن المنافقين تـشابهت قلوبـهم وأعمالهم ، وهـم مع ذلك : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (٣) ثم يتخلى بعضهـم عن بعض بخلاف المؤمـن فإنه يحب المؤمن ويـنصره بظهر الغـيب ، وإن تناءت بهم الديار، وتباعد الزمان » (٤) .

المطلب الثالث : حسن الظن بالآخرين والبحث عن عذر لهم :

لا ينطلـق ابن تيمية من منـطلق أن المخالفين للـحق والغالطين في جوانـب منه أعداء متآمـرون مدسوسون، بل هـو يحسن الظـن بكل مسلـم ، ويضع عدداً من الاحـتمالات لهؤلاء المخالفين قد يكون واحداً منها يصدق فيهم ، إلا بعض طوائف أو أشخاص عرف فيهم السـوء أمثال بعض أئمة الرافـضة ، والفلاسفة ، والإسماعـيلية الباطنيـة ، والصوفية ممن بان كفره وعلم مكره وغدره .

ومع أنه يحسـن الظن بالآخرين فإنه لا يـوافق على أن الأصل في المسلـمين العدالة «بل الأصـل فــي بنـي آدم الظلـم والجـهـل كمـا قـال تـعالـى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٥) ومجرد التكلـم بالشهـادتـين لا يوجـب انتقـال الإنسـان عـن الظـلم والجهـل إلـى العـدل ... » (٦) .

وابن تيمية اكتسب بهذه الصفة مضافاً إليها ما قبلها من محبة الآخرين رحابة صدر

---

(١) الفتاوى ٦١٥/٢٨ . (٢) الفتاوى ٤١/٢٨ . (٣) سورة الحشر آية (١٤) .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم /١٩ . (٥) سورة الأحزاب آية (٧٢) . (٦) التفسير الكبير ٣٢٧/٥ .

وسعة أفق وليناً ورحمة وعفواً وتسامحاً فيما يخصه هو بذاته ، ولقد أثر ذلك في منهجه العلمي وحياته الدعوية ، فنجده حينما يتحدث عن خصومه أو من وقع منهم الخطأ والتقصير يعتذر عنهم ، فمثلاً يقول عن أقوام قصروا في الاستدلال على الحق الذي قامت عليه الأدلة السمعية والعقلية وأضافوا إلى ذلك دفع ما دلت عليه الأدلة الصحيحة: « وإن كنا لا نظن بمسلم ، بل بعاقل أن يتكلم في جهة الربوبية بما يراه تقصيراً ، ولكن لا يخلو صاحب هذه الطريق من عجزٍ أو تفريط وكلاهما يظهر به نقصه عن حال السلف والأئمة الموافقين للشرع والعقل » (١) .

ويحسن الظن في أهل العلم وطلابه الذين صدر منهم أخطاء قد تصل إلى الكفر والردة ، ويجعل حسن قصدهم والتباس الحق بالباطل على كثير من الناس حتى العلماء وطلبة العلم شافعاً لهم وعذراً لهم (٢) .حتى معاصريه الذين أصابه أذاهم وسُجن بسببهم لم يدفعه ذلك إلى أن يسيء الظنون بهم ويتهم النيات ويطعن في المقاصد، يقول رحمه الله : « وأكثر الطالبين للعلم والدين ليس لهم قصد غير الحق المبين ، ولكن كثر في هذا الباب الشبه والمقالات ، واستولت على القلوب أنواع الضلالات ، حتى صار القول الذي لا يشك من أولي العلم والإيمان أنه مخالف للقرآن والبرهان ، بل لا يشك في أنه كفر بما جاء به الرسول من رب العالمين ، قد جعله كثير من أعيان الفضلاء أنه محض العلم والإيمان ،بل لا يشك في أنه مقتضى صريح العقل والعيان ، ويظنون أنه مخالف لقواطع البرهان ». ثم يعتذر إلى معاصريه بكل لطف عما يناقشهم فيه مبيناً أنه مضطر لهذا لأنه واجبه ، ولأنه يدفع الكفر عن نفسه التي علمت أن ما يقولونه كفر. يقول رحمه الله : « كنت أقول لأكابرهم لو وافقتكم على ما تقولون لكنت كافراً مريدا ، وإن الموافقة عليه كفر ... لعلمي بأن هذا كفر بيّن وأنتم لا تكفرون لأنكم من أهل الجهل بحقائق الدين .

ولهذا كان السلف والأئمة يكفّرون الجهمية في الإطلاق والتعميم ، وأما المعين منهم فقد يدعون له ويستغفرون له ، لكونه غير عالم بالصراط المستقيم ، وقد يكون العلم والإيمان ظاهراً لقوم دون آخرين ، وفي بعض الأمكنة والأزمنة دون بعض بحسب ظهور دين المرسلين » (٣) .

فهو إذن يعتذر عنهم ويدفع عنهم التكفير مع أن أقوالهم تؤدي إليه، لكنهم لم يقصدوه لجهلهم بحقائق الدين .

---

(١) الدرء ٣٩/٤ - ٤٠ . (٢) انظر الاستقامة ٢٩/١ .

(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٧٥٣/٣ ، ٧٥٤ نقلاً من « نقض التأسيس » المخطوط ٥/١ ، ٦ .

ويعتذر محسناً الظن بمن تكون عادته في مصنفاته في أصول الدين ذكر الأقوال ورد الباطل منها ونصر قول الحق ، ويستوعب الأقوال في المسألة ويبطلها إلا واحداً ، وحين جاء لمسألة كلام الرب وأفعاله لم يذكر القول المعروف عن السلف والأئمة فحاله هذا « ... تبين أن هذا القول لم يكن يعرفه ليقبله أو يرده ،إما لأنه لم يخطر بباله ، أو لم يعرف قائلاً به ، أو لأنه خطر له فدفعه بشبهة من الشبهات » (١) .

ويعتذر عن طوائف المتأخرين ، وذلك أثناء حديثه عن السالمية ،وأنهم مع انتسابهم لكثير من أئمة السلف في العقيدة والفقه قد وقع منهم خطأ وغلط فيقول رحمه الله معتذراً عن خطأ هؤلاء ومن ماثلهم : « وقل طائفة من المتأخرين إلاّ وقع في كلامها نوع غلط لكثرة ما وقع من شبهة أهل البدع ... ، لا لكراهته لما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم » (٢) .

ولما تكلم عن بدعة السماع عند الصوفية، وأنه قد غلط فيه أقوام من الصالحين وبعض العلماء واشترطوا شروطاً لا تتوافر فيه وقد حضروه ، وخطأهم أوقع عدداً من الناس في هذا المنكر، ولكنه يعتذر لهؤلاء ويدعو الله لهم بغفران زلتهم يقول رحمه الله: « ... هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين ، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين ، وإن كان قد غلط فيه قوم من صالح المسلمين فإن الله لا يضيع أجرهم وصلاحهم لما وقع من خطأهم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد) (٣) ... والذين حضروا هذا السماع من المشايخ الصالحين شرطوا له شروطاً ، لا توجد إلا نادراً ، فعامة هذه السماعات خارجة عن إجماع المشايخ ، ومع هذا فأخطأوا والله يغفر لهم خطأهم فيما خرجوا به عن السنة – وإن كانوا معذورين ، والسبب الذي أخطأوا فيه أوقع أمماً كثيرة في المنكر الذي نهوا عنه » (٤) .

ويقول أيضاً عمن شهد هذا السماع : « والذين شهدوا هذا اللغو متأولين من أهل الصدق والإخلاص والصلاح غمرت حسناتهم ما كان لهم فيه وفي غيره من السيئات

---

(١) الدرء ٣٠٩/٢ .

(٢) الفتاوى ٤٨٤/٥ .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، فتح الباري ٣١٨/١٣ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ . ومسلم ١٣٤٢/٣ كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

(٤) الفتاوى ٥٩٧/١١ .

أو الخطأ في مواقع الاجتهاد ، وهذا سبيل كل صالحي هذه الأمة في خطئهم وزلاتهم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ... فما تأول فيه قوم من ذوي العلم والدين من مطعوم أو مشروب أو منكوح أو مملوك أو مما قد علم أن الله قد حرمه ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يجز اتباعهم في ذلك - مغفوراً لهم - وإن كانوا خيار المسلمين ، والله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو سبحانه يمحو السيئات بالحسنات ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (٢) .

وقاعدته في الاعتذار ما أسلفه من قوله : « من يعذره الرسول صلى الله عليه وسلم يعذر ومن لا يعذره فلا اعتذار له مطلقاً » ، يوضح ذلك موقفه رحمه الله من بعض الفرق والطوائف كالرافضة « أنهم يكذبون ويصدقون الكذب لأن رؤوسهم والمؤسسين كانوا منافقين زنادقة .

بخلاف قول الخوارج : فإنه كان عن جهل بتأويل القرآن ، وغلو في تعظيم الذنوب .

وكذلك قول الوعيدية القدرية : كان عن تعظيم الذنوب ، وكذلك قول المرجئة : كان أصل مقصودهم نفي التكفير عمن صدق الرسل ؛ ولهذا رؤوس المذاهب التي ابتدعوها لم يقل أحد إنهم زنادقة منافقون بخلاف الرافضة » (٣) .

وابن تيمية يشتد في انتقاد أفكار المعتزلة ومناهجهم وما جرته على المسلمين من مصائب وما فتحت من أبواب للمغرضين ، إلاّ أنه مع ذلك يحسن الظن بنياتهم في كثير من أخطائهم مع غلطها ويعتذر لهم بحسن القصد « وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس ، لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس ...

وكذلك هم والخوارج قالوا بـ (إنفاذ الوعيد) ، ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام ، فمن لم يقل بذلك لزم كذبه . وغلطوا في فهم الوعيد ، وكذلك (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالسيف) قصدوا به طاعة

---

(١) سورة الزمر الآيات (٣٣ - ٣٥) .
(٢) الاستقامة ١/٢٩٧ - ٢٩٩ .
(٣) منهاج السنة ٦/٣٠٢ .

الله ورسوله ، كما يقصده الخوارج والزيدية فغلطوا .

وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات قصدوا به إثبات النبوة ونصرها وغلطوا فيما سلكوه ، فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق ، وذلك لأنهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء » (١).

ويعتذر رحمه الله عمن أحدث أمراً من غير دليل صحيح بغير قصد فاسد « ... وإن كان كثير من العباد والعلماء ، بل والأمراء ، قد يكون معذوراً فيما أحدثه لنوع اجتهاد . فالغرض أن يعرف الدليل الصحيح ، وإن كان التارك له قد يكون معذوراً لاجتهاده ، بل قد يكون صديقاً عظيماً ، فليس من شروط الصديق : أن يكون قوله كله صحيحاً ، وعمله كله سنة ، إذ قد يكون بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٢).

وعن المواسم المبتدعة التي جعلها أهلها عبادة يتعبدون بها، وقد تمسكوا بها على أنها من الدين المشروع وذلك كالموالد والأعياد يقول : « لا ريب أن من فعلها متأولاً مجتهداً ومقلداً : كان له أجر على حسن قصده ، وعلى عمله من حيث ما فيه من المشروع وكان ما فيه من المبتدع مغفوراً له ، إذا كان في اجتهاده أو تقليده من المعذورين » (٣) .

والدافع لابن تيمية لهذه المواقف التي قد يعدها بعض الغيورين أو حتى أقل المسلمين متخاذلة متهاونة ، هو ما يتبناه في دعوته من منهجية منبثقة من عموم نصوص الشريعة التي تقيم للمقاصد اعتباراً كبيراً، يقول رحمه الله : « والغلط مع حسن القصد وسلامته وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته – كثيراً جداً – فليس من شروط ولي الله أن يكون معصوماً من الخطأ والغلط بل ولا من الذنوب ... » (٤) .

مع العلم أنه لم يقرّ شيئاً من البدع والمنكرات المحرمات لا في أصول الدين ولا في فروعه وإنما كان ينكر بكل ما أوتي من قدرات وإمكانات ، مراعياً تحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها .

---

(١) التفسير الكبير ٢٠١/١ – ٢٠٢ .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٨٢ .
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٩٠ .
(٤) الاستقامة ٩٣/٢ .

العدل والإنصاف وذكر محاسن الخصوم

يأبى البعض من العلماء والدعاة – طبعاً أو مكابرة أو حسداً أو هوى أو ظلماً – أن يعترف أو يظهر محاسن ومناقب أصدقائه فضلاً عن خصومه وأعدائه ، ولكن ابن تيمية ليس من هذا الطراز ، وليس هذا له بخلق ، فكل من عرفه أو كتب عنه ذكر أن من معالم منهجيته البارزة : العدل مع خصومه وإنصافهم سواء في مناظراته أو ردوده أو نقده أو كتاباته ، ويقول كلمة العدل فيهم حتى المعاصرين له ، مدح بعضهم مع مواقفهم السيئة معه ولم يدفعه الغضب عليهم وما لاقاه بسببهم من محن أن يقول فيهم غير الحق أو أن يغمط ما هم عليه من الهدى والرشد والاتباع للكتاب والسنة .

ومنهجه منهج الخلفاء الراشدين والسائرين على طريقهم أنه يجب أن « يعطى كل ذي حق حقه قولاً بالحق واتباعاً للعدل » (١) ، ويقول : « ولكن على هؤلاء الماشين على طريقة الخلفاء أن يعاملوا الناس بما أمر الله به ورسوله من العدل بينهم وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإقامة الحدود بحسب الإمكان » (٢) .

ومخالفة هذا المنهج ظلم للنفس وبُعد عن الحق والرحمة ، يقول رحمه الله : « وإن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد ، بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره فإنما هو ظلم نفسه ، وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق » (٣) .

وهذا المنهج ضروري لعدم عصمة الإنسان وعدم قدرته على الإحاطة بكل الحق ، وذلك في المسائل « الخبرية الاعتقادية وفي المسائل العلمية الاقتصادية » (٤) ، فقد يستغرق الإنسان وسعه علماً وعملاً ولا يعرف الحق فيها .

والله سبحانه قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان يقول تعالى : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (٥) . فينبغي أن يعلم أن للقلوب قدرة في باب العلم والاعتقاد العلمي، وفي باب الإرادة والقصد ،وفي باب الحركة البدنية أيضاً . فالخطأ

---

(١) الدرء ٤/٢٧٦ ، وانظر التفسير الكبير ٢/٢٢٥ – ٢٢٨ .
(٢) الاستقامة ٢/١٦٨ .
(٣) التفسير الكبير ٦/١١٣ .
(٤) الاستقامة ١/٢٦ .
(٥) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

والنسيان هو من باب العلم ، يكون إما مع تعذر العلم عليه ، أو تعسره عليه، والله قد قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٢) .

وإذا كان كذلك فيما عجز الإنسان عن عمله واعتقاده حتى يعتقد ويقول ضده خطأ أو نسياناً فذلك مغفور له ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام :(إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) (٣) ، وهذا يكون فيما هو من باب القياس والنظر بعقله ورأيه ، ويكون فيما هو من باب النقل والخبر الذي يناله بسمعه وفهمه وعقله ، ويكون فيما هو من باب الإحساس والبصر الذي يجده ويناله بنفسه .

فهذه المدارك الثلاثة قد يحصل للشخص بها علم يقطع به ويكون ضرورياً في حقه... ومع هذا فتكون هذه العلوم عند غيره [غير] متيقنة مع اجتهاده لدقة العلوم وخفائها ،أو لوجود ما يعتقد المعتقد أنه معارض ولا يكون معارضاً في الحقيقة ، فيشتبه بالمعارض لاشتباه المعارض ، لاشتباه المعاني ، أو لاشتراك الألفاظ ،وهذا من أعظم أسباب اختلاف بني آدم من المؤمنين وغيرهم ولهذا نجد في المختلفين كل طائفه تدعي العلم الضروري . فما يقوله إما من جهة القياس والنظر ، وإما من جهة السماع والخبر، وإما من جهة الإحساس والبصر . ولا تكون واحدة من الطائفتين كاذبة بل صادقة لكن يكون قد أدخل مع الحق ما ليس منه في النفي والإثبات لاشتباه المعاني واشتراك الألفاظ، فيكون حينئذ ما ينفيه هذا يثبته الآخر ، ولو زال الاشتباه والاشتراك زال الخلاف والتضاد وكان اختلاف الناس في مسائل الجبر والقدر ، ومسائل نفي الجسم وإثباته ونفي موجب الإخبار وإثبات ذلك – هو من هذا الباب » (٤) .

وتحقيق العدل والإنصاف في الحكم على الآخرين في أقوالهم وأفعالهم وكل شأنهم لا يكون إلا بعلم كامل بكل هذه الأمور وتجرد كامل من كل الوجوه ، أما إذا وجد البعض من هذا ومن هذا فلا يتحقق العدل والإنصاف فكيف إذا عدما ؟ .

وأهل السنة لا يتكلمون إلا بعلم لأن « الكلام بلا علم حرام » (٥) ولا يتعاملون إلا

---

(١) سورة الحج آية (٧٨) . (٢) سورة البقره آية (١٨٥) .

(٣) أخرجه البخاري ، فتح الباري ٣١٨/١٣ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ. ومسلم ١٣٤٢/٣ كتاب الأقضية باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

(٤) الاستقامة ٢٦/١ - ٣٠ . (٥) منهاج السنة غير المحقق ٢٣٥/٢ .

بعدل لأن الظلم والميل حرام حتى ولو على الكفار : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١) .فأهل السنة « قائمون بالقسط شهداء لله وقولهم حق وعدل لا يتناقض » (٢) ،بخلاف من سواهم من « الرافضة وغيرهم من أهل البدع ففي أقوالهم من الباطل والتناقض ... » (٣) ما لا يحصى .

والكلام في أقوال الآخرين وأفعالهم للحكم عليها في صواب أو تخطئة نوع من القضاء ،ولهذا يقول ابن تيمية في حديثه مع الرافضة عن الصحابة وما شجر بينهم وأنه يلزم في ذلك العلم الكامل بأحوالهم مع عدم الهوى :« وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة ، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار) (٤) .

فإذا كان هذا في قضاء بين اثنين في قليل المال أو كثيره فكيف القضاء بين الصحابة في أمور كثيرة ؟

فمن تكلم في هذا الباب بجهل ، أو بخلاف ما يعلم ، كان مستوجباً للوعيد ولو تكلم بحق لقصد الهوى لا لوجه الله تعالى أو يعارض به حقاً آخر لكان أيضاً مستوجباً للذم والعقاب » (٥) .

« والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم كحال أهل البدع » (٦) .وينتقد الرافضة ونحوهم أنهم يفرقون في الحكم بين متماثلين ويذمون شيئاً ويمدحون ما هو من جنسه أو ما هو أولى منه بالمدح والثناء أو العكس ، يقول : فإن الرافضة يعمدون إلى أقوام متقاربين في الفضيلة يريدون أن يجعل أحدهم معصوماً من الذنوب والخطايا والآخر مأثوماً فاسقاً أو كافراً ، فيظهر جهلهم وتناقضهم كاليهودي والنصراني إذا أراد أن يثبت نبوة موسى أو عيسى مع قدحه في نبوة محمد صلى الله

---

(١) سورة المائده آية (٨) . (٢) ، (٣) المرجع السابق ٢٣٤/٢ .

(٤) صحيح ، عن بريدة رضي الله عنه ، أخرجه أبو داود كتاب الأقضية ، باب في القاضي يخطىء ، سنن أبي داود ٥/٤ رقم ٣٥٧٣ . والترمذي ، كتاب الأحكام ، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القاضي ، سنن الترمذي ٦١٣/٣ رقم ١٣٢٢ . وابن ماجه في الأحكام رقم ٢٣١٥ ، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق .

(٥) منهاج السنة غير المحقق ٢٣٥/٢ . (٦) منهاج السنة غير المحقق ٢٤٣/٢ ، ٢٤٤ .

عليه وسلم فإنه يظهر عجزه وجهله وتناقضه ، فإنه ما من طريق يثبت بها نبوة موسى وعيسى إلا وتثبت نبوة محمد بمثلها أو بما هو أقوى منها ، ولا من شبهة تعرض في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ وتعرض في نبوة موسى وعيسى عليهما السلام بما هو مثلها أو أقوى منها ، وكل من عمد إلى التفريق بين المتماثلين أو مدح الشيء وذم ما هو من جنسه أو أولى بالمدح منه ، أو بالعكس ، أصابه مثل هذا التناقض والعجز والجهل .

وهكذا أتباع العلماء والمشايخ إذا أراد أحدهم أن يمدح متبوعه ويذم نظيره أو يفضل أحدهم على الآخر بمثل هذا الطريق ، فإذا قال أحد أهل العراق : أهل المدينة خالفوا السنة في كذا وكذا وتركوا الحديث الصحيح في كذا وكذا واتبعوا الرأي في كذا وكذا » ثم ذكر عدداً من المسائل الفقهية يخالف أهل المدينة فيها أهل العراق ثم قال :

« فيقول المدنيون نحن أتبع للسنة وأبعد عن مخالفتها وعن الرأي الخطأ من أهل العراق الذين لا يرون أن كل مسكر حرام ... » ثم ذكر عدداً من المسائل الفقهية يختلف أهل العراق فيها مع أهل المدينة ثم قال :

« وكذلك بعض أتباع فقهاء الحديث لو قال أحدهم نحن إنما نتبع الصحيح ، وأنتم تعملون بالضعيف ، فقال له الآخرون نحن أعلم بالحديث الصحيح منكم وأتبع له منكم ممن يروي عن الضعفاء ما يعتقد صحته ويظن أنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يثبت عنه ... وأما نحن فقولنا إن الحديث الضعيف خير من الرأي ليس المراد به الضعيف المتروك لكن المراد به الحسن كحديث عمرو بن شعيب [1] عن أبيه عن جده ، وحديث إبراهيم الهجري وأمثالهما ممن يحسن الترمذي [2] حديثه أو يصححه ، وكان الحديث في اصطلاح من مثل الترمذي إما صحيح وإما ضعيف ، والضعيف نوعان : ضعيف متروك ، وضعيف ليس بمتروك فتكلم أئمة الحديث بذلك الاصطلاح ، فجاء

---

(١) هو : عمرو بن شعيب بن محمد السهمي القرشي ، من بني عمرو بن العاص من رجال الحديث ، كان يسكن مكة ، وتوفي سنة ١١٨هـ بالطائف .. وضعفه بعض أهل الحديث . انظر تهذيب التهذيب ٣٤٧/٤ ، الأعلام ٧٩/٥ .

(٢) هو : محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي، من أئمة علماء الحديث وحفاظه من أهل ترمذ (على نهر جيحون) ومن تلميذ البخاري ، عمي في آخر عمره وكان يضرب به المثل في الحفظ .. ولد سنة ٢٠٩هـ بترمذ .. وتوفي سنة ٢٧٩هـ بترمذ . انظر سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٣ ، وفيات الأعيان ٢٧٨/٤ ، الأعلام ٣٢٢/٦ .

من لا يعرف إلا اصطلاح الترمذي فسمع قول بعض الأئمة الحديث الضعيف أحب إلي من القياس ، فظن أنه يحتج بالحديث الذي يضعفه مثل الترمذي ، وأخذ يرجح طريقة من يرى أنه أتبع للحديث الصحيح وهو في ذلك من المتناقضين الذين يرجحون الشيء على ما هو أولى بالرجحان منه ، إن لم يكن دونه .

وكذلك شيوخ الزهد : إذا أراد الرجل أن يقدح في بعض الشيوخ ويعظم آخر وذلك أولى بالتعظيم وأبعد عن القدح كمن يفضل أبا يزيد الشبلي وغيرهما ممن يحكى عنه نوع من الشطح مثل الجنيد وسهيل بن عبدالله التستري وغيرهما ممن هو أولى بالاستقامة وأعظم قدراً ، وذلك لأن هؤلاء من جهلهم يجعلون مجرد الدعوى العظيمة موجبة لتفضيل المدعي ، ولا يعلمون أن تلك غايتها أن تكون من الخطأ المغفور لا من السعي المشكور وكل من يسلك سبيل العلم والعدل أصابه مثل هذا التناقض » [1] .

« والله تعالى قد حرم ظلم المسلمين أحيائهم وأمواتهم ، وحرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع :(إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ...)[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [3] ، فمن آذى مؤمناً حياً أو ميتاً بغير ذنب يوجب ذلك ، فقد دخل في هذه الآية ومن كان مجتهداً لا إثم عليه ، فإذا آذاه مؤذٍ فقد آذاه بغير ما اكتسب ، ومن كان مذنباً وقد تاب من ذنبه ، أو غفر له بسبب آخر بحيث لم يبق عليه عقوبة فآذاه مؤذٍ ، فقد آذاه بغير ما اكتسب وإن حصل له بفعله مصيبة ... » [4] .

ويرى أن « المناظرات والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف »[5] الذي يراعى فيه هذه الأعذار التي يجهل الحق فيها أو ينسى أو يلتبس أو يشتبه أو يدفع بما يظن أنه يعارض .

ولما ذكر مجموعة من العلماء تكلم الناس في أخطائهم وذنوبهم ومنهم من بالغ في

---

(١) منهج السنة غير المحقق ٢/٢٤٣ - ٢٤٦ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي بكرة أثناء حديث طويل ، أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : رب مبلغ أوعى من سامع ، فتح الباري . ومسلم كتاب القسامة ، باب إثم من سن القتل ، صحيح مسلم ١٣٠٣/٣ .

(٣) سورة الأحزاب آية (٥٨) . (٤) منهاج السنة ١٣٥/٥ . (٥) الفتاوى ١٠٩/٤ .

ذم بعضهم إلى حد اللعن ، ومن هؤلاء العلماء الباقلاني ، وأبو ذر الهروي (١) ، وأبو الوليد الباجي (٢) ، والقاضي أبوبكر بن العربي ، وأبو المعالي الجويني (٣) ، وأمثال هؤلاء قال منصفاً لهم مبيناً المنهج الأقوم الذي ينبغي لكل مسلم خصوصاً الداعية أن يسكله وينهجه في مثل هذه الحال مع من هم مختلف فيهم بسبب ما لهم من عثرات وأخطاء في الأصول مع ما لهم من جهود وأعمال طيبة :« ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع ، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف ،لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة ، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه . فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين .

وصار الناس بسبب ذلك : منهم من يعظّمهم لما لهم من المحاسن والفضائل ، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل ، وخيار الأمور أوساطها ، وهذا ليس مخصوصاً بهؤلاء بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين ، والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات ويتجاوز لهم عن السيئات : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه ، تحقيقاً للدعاء الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (٥) .

ومن اتبع ظنه وهواه فأخذ يشنع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صواباً بعد اجتهاده ، وهو من البدع المخالفة للسنة ، فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم أو أصغر فيمن يعظمه هو من أصحابه ، فقلّ من يسلم من مثل ذلك في المتأخرين لكثرة الاشتباه

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٣٠) .

(٢) هو : سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي ، الباجي المالكي ، ولد سنة ٤٠٣هـ بمدينة بطليوس (الأندلس) وكان بينه وبين ابن حزم مجالس ومناظرات .. توفي سنة ٤٧٤هـ بالمرية . انظر سير أعلام النبلاء ١٨/٥٣٥ ، وفيات الأعيان ٢/٤٠٨ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٠٥) .

(٤) سورة الحشر آية (١٠) .

(٥) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

والاضطراب ، وبعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة الذي به يحصل الهدى والصواب ، ويزول به عن القلوب الشك والارتياب » [(١)] .

والميزان في تقويم الرجال هو الكتاب والسنة، فمن وافقهما فهو الممدوح المحمود، ومن خالفهما فهو المذموم المقدوح ويكون كل منهما بمقدار الموافقة والمخالفة [(٢)] .

لهذا لما ذكر بعض علماء المتكلمين المشهورين الذين يستدل الناس على الحق بقولهم قال : « الواحد من هؤلاء لم يعظمه من يعظمه من المسلمين إلا لما قام به في دين الإسلام الذي كان فيه موافقاً لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الواحد من هؤلاء له مساع مشكورة في نصر ما نصره الإسلام والرد على طوائف من المخالفين لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم » [(٣)] .

ويقول رحمه الله أثناء كلامه عن الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري : « ومع ما في كتابه من الفوائد في المقولات والمنقولات ففيه أحاديث وأحاديث ضعيفة بل باطلة، وفيه كلمات مجملة تحتمل الحق والباطل رواية ورأيا ، وفيه كلمات باطلة في الرأي والرواية ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً ، وقال تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ [(٤)] .

فكتبت من تمييز ذلك ما يسره الله واجتهدت في اتباع سبيل الأمة الوسط ، الذين هم شهداء على الناس دون سبيل من قد يرفعه فوق قدره ، في اعتقاده وتصوفه ، على الطريقة التي هي أكمل وأصح مما ذكره علماً وحالاً وقولاً وعملاً واعتقاداً واقتصاداً ، أو يحطه دون قدره فيهما ممن يسرف في ذم أهل الكلام أو يذم طريقة التصوف مطلقاً . والله أعلم » [(٥)].

فسلك ابن تيمية منهجاً وسطاً بين مذمتين : مذمة الإفراط والغلو ومذمة التفريط والنقص ، فلا يجعلنا الحب ننسى الأخطاء والسلبيات فنغلو فيه ونجعله قدوة في كل أقواله وأفعاله غير قابلين لنقده ، بل نتصور أن نقده وعيبه نقد وعيب للإسلام ، ولا يجعلنا الكره ننسى المحاسن والإيجابيات ومن ثم نلغي هذا الشخص من دائرة اهتمامنا وتقديرنا وننسف كل جهد له في سبيل الخير والعلم ، يقول رحمه الله : « فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء ، أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من

---

(١) الدرر ١٠١/٢ – ١٠٣ ، وانظر ٢٧٥/٨ ، الفتاوى ٥٩٦/١١ .
(٢) انظر الفتاوى ١٤/٤ .
(٣) الدرء ٢٧٥/٨ .
(٤) سورة النساء آية (١٣٥) .
(٥) الاستقامة ٨٩/١ – ٩٠ .

طريق الصحابة فهو مخطئ ضال مبتدع . ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيبا ممقوتا فهو مخطىء ضال مبتدع ، ثم الناس في الحب والبغض والموالاة والمعاداة هم أيضاً مجتهدون يصيبون تارة ويخطئون تارة ، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه أحب الرجل مطلقاً وأعرض عن سيئاته ، وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقاً ، وأعرض عن حسناته .

وأهل السنة والجماعة يقولون : ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو أن المؤمن يستحق وعد الله وفضل الثواب على حسناته ويستحق العقاب على سيئاته ، وأن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه وما يحمد عليه وما يذم عليه ، وما يحب منه وما يبغض منه فهو هذا » (١) .

يقول رحمه الله :« إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر ، وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة : استحق الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير ، واستحق المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر ، فيجتمع في الشخص الواحد من موجبات الإكرام والإهانة ، فيجتمع له من هذا وهذا . كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه ، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم عليه فلم يجعلوا الناس لا مستحقاً للثواب فقط ولا مستحقاً للعقاب فقط » (٢) .

وهذا المنهج رسمه ابن تيمية ونفذه لأنه يستشعر أن هذه الأمة شاهدة على الناس – وهو واحد منها – ولا بد أن تكون هذه الشهادة بعلم وعدل (٣) وإنصاف ، وهذا لا يكون إلا « بوسطية » تجانب « الغلو والجفاء » : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٤).

وبنية خالصة لإحقاق الحق لا التعالي على الخلق ، وبهدف أن يكون الدين كله لله .

وقد قال ابن تيمية مثالاً لهذه الوسطية فعدل وأنصف ، والشواهد كثيرة جداً تستغرق مئات الصفحات ، ولكن نذكر بعضاً منها من خلال مجالين : –

---

(١) الفتاوى ١١/١٥ – ١٦ .
(٢) الفتاوى ٢٨/٢٠٩ .
(٣) انظر الفتاوى ٤/١٦٦ .
(٤) سورة البقرة آية (١٤٣) .

الأول : إنصافه لمن يختلف معه من الأفراد .

الثاني : إنصافه لمن يختلف معهم من الفرق والطوائف والجماعات .

أولاً : إنصافه لمن يختلف معهم من الأفراد :

وقبل ذكر هذه النماذج نشير إلى منهجية برزت واضحة المعالم في منهج ابن تيمية عند نقده وتقويمه وهذه المنهجية هي : -

أنه يفرق بين الأفكار والآراء والمعتقدات وبين الأشخاص الذين صدرت منهم ، فالأخطاء والانحرافات العقدية العلمية والأمور العملية ينقدها ويبيّن ما فيها من المخالفة للكتاب والسنة دون اعتبار أو نظر لمن صدرت منه - إلا إذا كان على وجه يفيد في النقد والتقويم - ، وذلك لأن غرضه تعديل الأمة وتخليصها من الشوائب العلمية والعملية ولم يكن الغرض هو ذوات العلماء وأشخاصهم للنيل منها وتحطيمها من أجل أن يثبت ذاته هو ويرفع مكانته ويعلي بناءه ، وكل ذلك على أنقاض الآخرين وأعراضهم ،وأكثر ما يتضح هذا الكلام في الأمور المكفرة التي وقع فيها الجماعات والأفراد ، وكذلك ما ورد من نصوص الوعيد ، فمثلاً لما ذكر مسألة تتعلق بتكفير أهل الأهواء وأن الناس مضطربون في هذه المسألة وحكى عن الإمام مالك والشافعي وأحمد، كل واحد منهم له فيها قولان وكذلك الأشعري (١) ، وغالب مذاهب الأئمة التفصيل فيها (٢) .

قال بعد ذلك : « وحقيقة الأمر في ذلك : - أن القول قد يكون كفراً ، فيطلق القول بتكفير صاحبه ، ويقال من قال كذا فهو كافر لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره ، حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها ، وهذا كما في نصوص الوعيد فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ (٣) ، فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط ، أوثبوت مانع ، فقد لا يكون التحريم بلغه وقد يتوب من فعل المحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبته ، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه ، وقد يشفع فيه شفيع مطاع .

وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤٠) . (٢) انظر الفتاوى ٣٤٥/٢٣ . (٣) سورة النساء آية (١٠) .

الحق ، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون قد عرض له شبهات يعذره الله بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان سواء كان في المسائل النظرية أو العملية . هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وجماهير أئمة الإسلام ، وما قسموا المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها ، ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها »(١).

وإن كان الشخص من الدعاة إلى بدعة فإنه لا يخرج عن هذا المنهج فنجده يقول رحمه الله :« ... أو قد يكون رجع عن قوله الذي أخطأ أوتاب منه إما عند الموت وإما قبل الموت وهذا من أسباب الرحمة إن شاء الله تعالى في هذه الأمة ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وهذا أصح القولين في قبول توبة الداعي . لكن بقاء كلامهم وكتبهم وآثارهم محنة عظيمة في الأمة ، وفتنة عظيمة لمن نظر فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله » (٢) .

وإذاً فالدافع للكلام عن أقوام قد ماتوا هو ما خلفوه من أفكار منقولة أو مكتوبة مخالفة للحق تشكل خطراً على دين الأمة ، ولا بد من دفعه أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ونصحاً للأمة .

١ - الإمام الغزالي :

اختلف كثيرٌ من العلماء وطلبة العلم قديماً وحديثاً في الغزالي وسلكوا منه في مواقفهم ثلاث مسالك : -

الأول : منهم من يغلو فيه ويتغاضى عن عيوبه ويدافع عنه بأنه نسب إليه ما ليس فيه وقوّل ما لم يقل .

الثاني : جفا في حقه فسلب ما له من حسنات وفضائل ولم ير إلا أخطاءه ومزالقه العقدية والعلمية ونحوها .

والثالث : توسطوا وأنصفوا فذكروا حسناته وسيئاته وحملوه محملاً طيباً ولم يطعنوا في نيته وقصده ، وقالوا فيما أخطأ فيه هذا ما أداه إليه اجتهاده، وكان سبب ذلك ضعف بضاعته في الحديث وما عليه السلف الصالح . وقالوا : إنه ختم حياته بخير وقد

---

(١) الفتاوى ٣٤٥/٢٣ - ٣٤٦ . وانظر أيضاً في الاستقامة قريباً من هذا الكلام ج٢٦/١ - ٣١ وكذلك منهاج السنة غير المحقق ٢٣٥/٢ وله في أمثال ذلك كتاب قيم سماه « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » .

(٢) الاستقامة ٧٩/١ - ٨٠ .

تبنى هذا الرأي شيخ الإسلام ابن تيمية ،ذكر أخطاءه حتى تقول ليس له حسنة قط ، وذكر حسناته وفضائله حتى تقول ليس له سيئات ، ونذكر بعض ما وقع فيه الغزالي من أخطاء ومخالفات مما نقده شيخ الإسلام فيها وأنكرها عليه :

أ : تأثره ببعض أفكار الفلاسفة واعتناقها يقول عنه : « وأبو حامد يميل إلى الفلسفة – لكنه أظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية ... » (١) .

مع العلم أنه اعترض عليهم في جملة من معتقداتهم ومناهجهم وله دور مشكور في الرد عليهم ، ولكنه دخل الفسلفة وما سلم من أضرارها كما قال ابن العربي « شيخنا أبوحامد دخل بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج فما قدر » (٢) .

فالغزالي رحمه الله يثبت الرؤية ويريد بها ما تقوله الجهمية والفلاسفة » (٣) ، « وفي فلسفته الإشراقية اتفق هو وبعض الفلاسفة والإسماعيلية في بعض الأفكار، ويجعل الغزالي بعض ما أخبر الله به من الغيبيات روحانية وليست حسية كالقلم ، وصفات الذات – كاليد لله – والقدم والوجه ونحوها ، وهذا من جنس كلام الفلاسفة القرامطة فيما أخبر الله به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر .

ولكثرة نظره في كلام الفلاسفة واستمداده منهم مزج في كلامه كثيراً من كلامهم وإن كان قد يكفرهم بكثير مما يوافقهم عليه في موضع آخر » (٤) .

« ويرى أن ما ينزل على قلوب أهل الرياضة والصفا من الإيحاء والإلهام في اليقظة والمنام مثل سماع كلام الله سواء لا فرق بينهما »(٥).

ب : تعرض لتأويل بعض القرآن الكريم على طريقة القرامطة وكبار الاتحادية كالسهروردي الحلبي (٦) وأمثاله (٧) .

---

(١) الفتاوى ١٦٤/٤ .
(٢) الدرء ٥/١ ، الفتاوى ١٦٤/٤ .
(٣) انظر التفسير الكبير ١٢٩/٣ .
(٤) بغية المرتاد /٢٧٩ .
(٥) الفتاوى ١٨٠/٦ – ١٨١ ، وانظر منهاج السنة ٢١/٨ .
(٦) هو : يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي ، فيلسوف سيماوي منطقي ، كان متوقد الذكاء ، قليل الدين ، بارعاً في أصول الفقه ، مفرط الذكاء ، فصيحاً لم يناظر أحداً إلا أربى عليه .. ولد في سهرورد (من قرى زنجان في العراق العجمي) سنة ٥٤٩هـ ونشأ بمراغة إلى حلب .. وخنق في سجنه في قلعة حلب سنة ٥٨٧هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٢٠٧/٢١ ، وفيات الأعيان ٢٦٨/٦ ، الأعلام ١٤٠/٨هـ .
(٧) انظر بغية المرتاد /٣٥٦ .

« وقد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجد تصديق ذلك في كتبه » (١) .

ج : يرجح ما يرجحه من يعتقد إلاهية الكواكب من المتفسلفة والقرامطة على طوائف المسلمين المقرين برب العالمين الذين يصفونه بالصفات الثابتة ، وفضل الفلاسفة على سلف الأمة (٢) .

د : أخذ كثيراً من مصطلحات الفلاسفة وتعبيراتهم حيث يطلقون العبارات الإسلامية بالتفاسير الفلسفية القرمطية وكتابه « مشكاة الأنوار » هو كالعنصر لمذهب الاتحادية القائلين بالحلول بسبب « التفلسف وإبراز مقاصد الفلاسفة في الألفاظ النبوية وتأويلها عليها تارة » (٣) ، ويماثله أيضاً كتابه التفرقة بين الإيمان والزندقة ، وهذا قليل من كثير في نقد ابن تيمية للإمام الغزالي فهل يذكره بخير مع هذا كله ؟

نعم وإليك بيان ذلك .

نسب الغزالي إلى الإمام أحمد أنه يقول بالتأويل ، وهذا كذب ، والمنقول عن أحمد يرد ذلك ، ولا يستغرب منه هذا الكذب لأنه ينقل الأكاذيب على النبي صلى الله عليه وسلم والصحابه والتابعين » ولم يترك ابن تيمية للقارئ أن يجعل الغزالي كذاباً فيقول منصفاً له :« ولم يكن يتعمد الكذب فإنه أجل قدراً من ذلك ، وكان من أعظم الناس ذكاءً وطلباً للعلم وبحثاً عن الأمور ، ولما قاله كان من أعظم الناس قصداً للحق وله من الكلام الحسن المقبول أشياء عظمية بليغة من حسن التقسيم والترتيب ما هو به من أحسن المصنفين ، لكن كونه لم يصل إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الطرق الصحيحة كان ينقل ذلك بحسب ما بلغه لا سيما مع هذا الأصل ، إذ جعل النبوات فرعاً على غيرها » (٤) .

ولما ذكر أن الغزالي يوافق الفلاسفة في بعض الأمور احترز له قائلاً:« لكن أبو حامد لا يبيح محظورات الشرع قط بل يقول : قتل واحد من هؤلاء خير من قتل عدد كثير من الكفار » (٥). وامتدح ردود الغزالي على الفلاسفة في عدد من المسائل كاحتجاجهم بالتركيب على نفي الصفات،وبعض طرقهم في إثبات الصانع »(٦) .

---

(١) الفتاوى ١٦٤/٤ . (٢) انظر بغية المرتاد /٣٦٠ - ٣٦٧ .
(٣) بغية المرتاد /١٩٨ وانظر ص١٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٤) موقف ابن تيمية من الأشاعرة - المحمود ٧٥٠/٣ . (٥) التفسير الكبير ١٢٩/٣ .
(٦) انظر الدرء ٤٠٢/٣ - ٤٣١ و ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٣٨٩ وكذلك ٢١٠/٦ وأيضاً ١٥٦/٨ .

ولما ذكر أن كتابه « مشكاة الأنوار » صار العنصر للقائلين بوحدة الوجود اعتذر عنه وقال: « وإن كان صاحب الكتاب لم يقل بذلك بل قد يكفر من يقول بذلك »(١).

والحكم على الغزالي فيما تطرق إليه من الجوانب العلمية يختلف بحسب نوع العلم ، فإذا نظرنا إليه في علم المعاملة والأمر والنهي فكلامه مثل كلام أمثاله العلماء من أهل التصوف والفقه ، وأما علم العقائد وبالأخص ما سماه هو علم « المكاشفة » فكلامه فيه ألوان :

فتارة يذكره بصوت أهل الفلسفة ، وتارة بصوت الجهمية، وتارة بصوت هو من تصويت أهل الحديث والمعرفة، وتارة يطعن على هؤلاء وتارة يذكر ما هو غير ذلك » (٢) .

ولما ذكر تأثر الغزالي بالمتكلمين ومناهجهم بيّن أنه قد بان له الحق وندم « وفي آخر كلامه قطع بأن كلامهم لا يفيد علماً ولا يقيناً بل وكذلك قطع في كل كلام المتكلمين وآخر ما اشتغل به النظر في صحيح البخاري ومسلم ومات وهو مشتغل بذلك »(٣) .

ولما ذكر جملة من أخطائه العظيمة، ذكر أن له حسنات ومقصداً طيباً يشفع لأخطائه ، ولهذا يصفه بقوله :« إنه كثير الإحسان والعلم الصحيح والقصد الحسن » (٤).

وعن بعض كتبه وأن هناك من يطعن في صحة نسبتها للغزالي ويقول إنها مكذوبة عليه وآخرون يقولون : بل رجع عنها ، قال : - « وهذا أقرب الأقوال ، فإنه قد صرح بكفر الفلاسفة في مسائل وتضليلهم في مسائل أكثر منها وصرح بأن طريقتهم لا توصل إلى المطلوب » (٥) .

٢ - ابن كلاب (٦) :

وابن كلاب مع قربه إلى مذهب السلف فإن له أخطاء كبيرة وافق فيها الجهمية ، يقول ابن تيمية رحمه الله :« وابن كلاب لما رد على الجهمية لم يهتد لفساد أصل الكلام المحدث الذي ابتدعوه في دين الإسلام ، بل وافقهم عليه » (٧) .

---

(١) بغية المرتاد /١٩٨ .
(٢) المرجع السابق /٢١٧ .
(٣) بغية المرتاد /٢٧٩ .
(٤) ابن تيمية والتصوف /٣١٦ نقلاً عن نقض المنطق /٥٥ .
(٥) التفسير الكبير ٥٠/٢ .
(٦) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤٧) .
(٧) الفتاوى ٥٥٦/٥ .

وابن كلاب أحدث ما أحدثه لما اضطره إلى ذلك من دخول أصل كلام الجهمية في قلبه ، ويقول أيضاً : « لكن الأصل العقلي الذي بنى عليه ابن كلاب قوله في كلام الله وصفاته هو أصل الجهمية والمعتزلة بعينه » (١) .

ويقول أثناء حديثه عن هَجْر أصحاب أحمد للحارث المحاسبي (٢) : « لأنه كان على قول ابن كلاب الذي وافق المعتزلة على صحة طريق الحركات وصحة طريق التركيب ولم يوافقهم على نفي الصفات مطلقاً ، بل كان هو وأصحابه ينفون أن الله فوق الخلق عال على العالم موصوف بالصفات ، ويقررون ذلك بالعقل ، وإن كان مضمون مذهبه نفي ما يقوم بذات الله تعالى من الأفعال وغيرها مما يتعلق بمشيئة الله واختياره ، وعلى ذلك بنى كلامه في مسألة القرآن » (٣) .

ومع موافقته للجهمية والمعتزلة في بعض المسائل ، ومع دخول أصل كلامهم في قلبه ، ومع أنه أخذ أصل الجهمية والمعتزلة وتأثر به في مسألة كلام الله تعالى ، فإن هذا لم يمنعه أن يذكر محاسنه وفضائله ، فيقول رحمه الله : « وكان له فضل وعلم ودين ، ومن قال إنه ابتدع ما ابتدعه ليظهر دين النصارى في المسلمين كما يذكره طائفة في مثالبه ، ويذكرون أنه أوصى أخته بذلك – فهذا كذب عليه ، وإنما افترى هذا عليه المعتزلة والجهمية الذين رد عليهم ، فإنهم يزعمون أن من أثبت الصفات فقد قال بقول النصارى ، وقد ذكر مثل ذلك عنهم الإمام أحمد في الرد على الجهمية ، وصار ينقل هذا من ليس من المعتزلة من السالمية ، ويذكره أهل الحديث ، والفقهاء الذين ينفرون عنه لبدعته في القرآن ، ويستعينون بمثل هذا الكلام الذي هو من افتراء الجهمية والمعتزلة عليه ، ولا يعلم هؤلاء أن الذين ذموه بمثل هذا هم شر منه وهو خير وأقرب إلى السنة منهم » (٤) .

« ... وهؤلاء الذين يذمون ابن كلاب والأشعري بالباطل هم من أهل الحديث والسالمية من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم كثير ، منهم موافق لابن كلاب (٥)

---

(١) السابق /٥٥٧ .

(٢) هو : الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي ، الزاهد العارف شيخ الصوفية ، وصاحب التصانيف الزهدية.. ولد ونشأ بالبصرة ، وتوفي سنة ٢٤٣هـ ببغداد . انظر وفيات الأعيان ٥٧/٢ ، سير أعلام النبلاء ١١٠/١٢ ، الأعلام ١٥٣/٢ .

(٣) الدرء ١٤٧/٧ ، وانظر ص٩٧ .

(٤) الفتاوى ٥٥٥/٥ .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤٧) .

والأشعري [1] على هذا ، موافق للجهمية على أصل قولهم الذي ابتدعوه » [2] .

وطريقة ابن كلاب أخذ بها بعض النظار الذين فهموا أصل قول المتكلمين وهم يثبتون الصفات وينكرون القول بخلق القرآن ، وفرحوا بها وصاروا يردون على المعتزلة والجهمية ما رده عليهم ابن كلاب والقلانسي والأشعري وغيرهم من مثبتة الصفات ، فيبينون فساد قولهم : بأن القرآن مخلوق وغير ذلك ، وكان في هذا من كسر سورة المعتزلة والجهمية ما فيه ظهور شعار السنة .

٣ - ابن حزم [3] :

أبو محمد بن حزم يحمد في موافقته السنة والحديث في مثل مسائل القدر والإرجاء ونحو ذلك بخلاف ما انفرد به من قوله في التفضيل بين الصحابة .

وكذلك في باب الصفات فإنه يحمد فيه بموافقته أهل السنة والحديث ، ويقول : إنه موافق للإمام أحمد في مسألة القرآن وغيرها ، ولا ريب أنه موافق له ولهم في بعض ذلك وإن كان « أبو محمد بن حزم » في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره ، وأعلم بالحديث وأكثر تعظيماً له ولأهله من غيره . لكن قد خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصفات ما صرفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم في ذلك ،فوافق هؤلاء في اللفظ وهؤلاء في المعنى .

وبمثل هذا صار يذمه من يذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له . كما نفى المعاني في الأمر والنهي والاستقامة ،وكما نفى خرق العادات ونحوه من عادات القلوب . مضموماً إلى ما في كلامه من الوقيعة في الأكابر والإسراف في نفي المعاني ودعوى متابعة الظواهر » [4] .

« وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة مالا يدفعه إلا مكابر .

ويوجد في كتبه من كثرة الاطلاع على الأقوال والمعرفة بالأحوال ، والتعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره ... الخ » .

وقال في مسألة فضل أمهات المؤمنين : « وأما نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤٠) . (٢) المرجع السابق / ٥٥٦ .

(٣) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الإمام الظاهري عالم الأندلس في عصره ، ولد سنة ٣٨٤هـ وتوفى سنة ٤٥٦هـ ، انظر نفح الطيب ٢٨٣/٢ - ٢٨٩ ، وفيات الأعيان ٣٢٥ - ٣٣٠، الأعلام ٢٥٤/٤ .

(٤) الفتاوى ١٨/٤ ، ١٩ .

فلم يقل : إنهن أفضل من العشرة إلا أبو محمد بن حزم وهو قول شاذ لم يسبقه إليه أحد .

.... ونصوص الكتاب والسنة تبطل هذا القول [ثم ذكر حجته ورده عليها ثم قال] وبالجملة فهذا قول شاذ لم يسبقه إليه أحد من السلف ، وأبو محمد مع كثرة علمه وتبحره ، وما يأتي به من الفوائد العظيمة له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة ، وهذا كقوله : إن مريم نبية ، وإن آسية نبية ، وإن أم موسى نبية وقد ذكر القاضي أبوبكر (١) ، والقاضي أبو يعلى (٢) وأبو المعالي (٣) وغيرهم : الإجماع على أنه ليس في النساء نبية ، والقرآن والسنة دلاّ على ذلك .... » (٤) .

٤ – الرازي (٥):

وأما الرازي فإن شيخ الإسلام يدافع عنه منصفاً له من خصومه الذين يتهجمون عليه ويتهمونه بتعمد الكذب ونصرة الكلام الباطل كما جاء في كتبه « المباحث الشرقيه» ونحوها ، ويذكر فيها ما احتج به المتكلمون على امتناع حوادث لا أول لها ، أن الزمان والحركة والجسم لها بداية ، ثم ينقض ذلك كله ، ويجيب عنه ، ويقرر حجة من قال : إن ذلك لا بداية له ، وليس هذا تعمداً منه لنصرة الباطل ، بل يقول بحسب ما توافقه الأدلة العقلية في نظره وبحثه ، فإذا وجد في المعقول بحسب نظره ما يقدح في كلام الفلاسفة قدح به ، فإن من شأنه البحث المطلق بحسب ما يظهر له ، فهو يقدح في كلام هؤلاء بما يظهر له أنه قادح فيه من كلام هؤلاء وكذلك يصنع بالآخرين ، ومن الناس من يسيء به الظن وهو أنه يتعمد الكلام الباطل ، وليس كذلك بل تكلم بحسب

---

(١) هو : أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد بن العربي المعافري ، ولد سنة ٤٨٦هـ ، وتوفي سنة ٥٤٣هـ. من أئمة المالكية الكبار في الأندلس السليب .انظر : وفيات الأعيان ٤٢٣/٣ - ٤٢٤ ، نفح الطيب ٤١٥/٢ - ٤١٦ ، الأعلام ١٠٦/٧

(٢) هو : محمد بن الحسن بن محمد بن خلف بن الفراء القاضي الحنبلي عالم عصره في الأصول والفروع، وأنواع الفنون ، ارتفعت مكانته عند القادر والقائم بأمر الله العباسيين .. تولى قضاء دار الخلافة والحريم ، وحران ، وحلوان أيام القائم .. واشترط على القائم ألا يحضر أيام المواكب ، ولا يخرج في الاستقبالات .. ولد ببغداد سنة ٣٨٠هـ ، وتوفي سنة ٤٥٨هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٨٩/١٨ ، الأعلام ٩٩/٦ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (١٨٩) . (٤) الفتاوى ٣٩٥/٤ ، ٣٩٦ .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٥٧) .

مبلغه من العلم والنظر والبحث في كل مقام بما يظهر له ، وهو متناقض في عامة ما يقوله ، يقرر هنا شيئاً ثم ينقضه في موضع آخر، لأن المواد العقلية التي كان ينظر فيها من كلام أهل الكلام المبتدع المذموم عند السلف ، ومن كلام الفلاسفة الخارجين عن الملة ، يشتمل على كلام باطل – كلام هؤلاء وكلام هؤلاء – فيقرر كلام طائفة بما يقرر به ثم ينقضه في موضع آخر » (١) ، ويذكر أنه « أحرص على تقدير الأصول التي يحتاج إلى معرفتها من الآمدي » .

لقد أبرز ابن تيمية هذه المعلومة الدقيقة عن الرازي وهي في ميزانه وتعلي من قدره مع أنه يعلم هفوات صدرت منه لا محمل لها طيباً أبداً وهي كفر صريح بل هي دعوة إلى الكفر وتحسين له ،حيث قام الرازي بتأليف كتاب « في عبادة الكواكب » وأقام الأدلة على حسن ذلك ومنفعته ورغب فيه وهذه ردة عن الإسلام باتفاق المسلمين » ثم لا ينسى أن يلمح إلى أنه قد يكون تاب من ذلك وعاد إلى الإسلام » (٢) .

ثانياً : إنصافه لمن يختلف معهم من الفرق والطوائف والجماعات :

من أبرز الفرق التي تكلم عنها علماء الإسلام : الخوارج (٣) ، والجهمية (٤) ، والمعتزلة، والرافضة (٥)، والأشاعرة (٦) ، والصوفية (٧) ،ويضاف إليهم أهل المنطق ، وكل الفرق الأخرى إنما نتجت عن هؤلاء ، أو تلتقي معهم في أغلب أفكارهم . وشيخ الإسلام ابن تيمية حينما تحدث عن هؤلاء سلك مسلك العدل والإنصاف وقال فيهم قولة الحق ، وعرض ما عندهم على الكتاب والسنة وهدي الخلفاء الراشدين ،فما وافق ذلك قبله وما خالفه رده رداً جميلاً لمن كان له نية حسنة ،ومن كان غير ذلك رد عليه رداً عنيفاً ، وهتك أستاره ، وكشف عواره ، وفضح أسراره ، ويقرر أن هذا منهج رباني شرعه المولى الكريم في كتابه حيث ورد فيه مناظرة عموم الكفار بالعدل والإنصاف .

---

(١) الفتاوى ٥/٥٦١ ، ٥٦٢ .
(٢) انظرالفتاوى ١٨/٥٥ ، وانظر الفتاوى ٤/٥٥ .
(٣) تقدم التعريف بهم في صفحة (١٤٥) .
(٤) تقدم التعريف بهم في صفحة (٧٧) .
(٥) تقدم التعريف بهم في صفحة (١٤٥) .
(٦) هم : أتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المنتسب إلى أبى موسى الأشعري الصحابي .. يثبتون صفات المعاني السبع وهى السمع ، والبصر ، والكلام ، والحياة ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، ويقولون إن هذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى ، ويثبتون الكلام النفسي ، ويرون أنه معنى قائم بالنفس سوى العبارة ، والعبارة دلالة عليه من الإنسان ، والمتكلم من قام به الكلام .. ولهم آراء أخرى . انظر الملل والنحل ١/٩٤ .
(٧) تقدم التعريف بهم في صفحة (٦٩) .

يقول رحمه الله : « ولهذا يذكر سبحانه وتعالى مناظرة الكفار من المشركين ، وأهل الكتاب بالعدل ، فإذا ذكروا عيباً في المسلمين لم يبرئهم منه ، لكن يبين أن عيوب الكفار أعظم كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١) ، وهذه الآية نزلت لأن سرية من المسلمين ذكر أنهم قتلوا ابن الحضرمي (٢) في آخر يوم من رجب فعابهم المشركون بذلك فأنزل الله هذه الآية » (٣) .

وهو منهج أهل السنة فإنهم يستعملون « العدل والإنصاف ولا يظلمونهم ، فإن الظلم حرام مطلقاً ، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض ، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض ، وهذا مما يعترفون هم به ويقولون : أنتم تنصفوننا مالا ينصف بعضنا بعضاً ... ولا ريب أن المسلم العالم العادل أعدل عليهم وعلى بعضهم من بعض » (٤) .

وينتقد ابن تيمية الذين لا ينصفون غيرهم ، وينكر عليهم هذا الصنيع لأن إنصاف الآخرين معروف يجب الأمر به وتركه منكر يلزم النهي عنه ، حتى ولو كان المظلوم هم الفلاسفة الذين يقول عنهم :« لا يؤمنون لا بالله ، ولا بملائكته ولا كتبه ، ولا رسله ، ولا البعث بعد الموت ... وهم لما كانوا مكذبين بما أخبرت به الرسل قالوا : إن الرسل قصدوا إخبار الجمهور بما يتخيل إليهم لينتفعوا بذلك في العدل الذي أقاموه لهم » (٥).

فهو يدعو إلى إنصاف هؤلاء والاعتراف بما عندهم من الحق وينكر أن ينسب إليهم ما لم يقولوه ، فقال عن رجل صنف على طريقتهم أنه « ... لم ينصفهم في بعض ما أصابوا ، وأخطأ لعدم علمه بمرادهم أو لعدم معرفته أن ما قالوه صواب » (٦) .

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٧) .

(٢) هو: عمرو بن عبدالله بن عباد من الصَّرف ، والصرف بطن من حضرموت ، و كان يقود قافله لقريش تحمل زبيباً وتجارة وقد تعرض لها ثمانية من المسلمين بإمرة عبدالله بن جحش بين مكة والطائف فقتلوا الحضرمي . انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤١/٣ - ٤٣ .

(٣) التفسير الكبير ٢٩٤/٤ .

(٤) منهاج السنة ٥٧/٥ ، ١٥٨ .

(٥) الفتاوى ٣٢/٩ .

(٦) فتاوى ٩ / ١٣٣ .

والقارئ لابن تيمية رحمه الله فيما كتبه عن الفرق والجماعات والطوائف الإسلامية وغيرها قد يتصور أن في كلامه تناقضاً وتعارضاً أو قد يفهم منه فهماً خاطئاً حينما يراه يثني على بعض الطوائف كالأشاعرة ، والصوفية مثلاً ، فيظن أنه أشعري ، أو صوفي ، وأن هؤلاء كل ما لديهم مقبول لثنائه عليهم ، والمطلوب من كل قارئ أن يجمع الكلام مع بعضه لأنه يذكر من محاسن القوم ما فيهم ومن فضائلهم ما فضلوا به؛ ويستشهد بما عندهم من الحق وما وصلوا إليه من الهدى والطرق السليمة والصحيحة، وأيضاً يذكر أخطاءهم وبدعهم وتخريفاتهم ويرد عليهم مبيناً لهم سبب ضلالهم ووقوع الانحراف منهم .

فالواجب في هذه الحال وأمثالها جمع أقوال العلماء مع بعضها وعدم ضرب الكلام بعضه ببعض .

وابن تيمية كغيره من علماء السلف يرى أن الخطأ والغلط وسوء الفهم والجهل يحدث من العلماء ومن غيرهم من البشر من باب أولى ، ولا يعني وجود خطأ أو جهل أو سوء فهم أننا نلغي من حدث منه هذا ، ونترك التعامل معه في كل شيء من أجل هذا الشيء الذي غلط فيه ، بل كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك سوى النبي صلى الله عليه وسلم ، يصور هذه القاعدة المنهجية موقفه من عبّاد البصرة وفقهاء الكوفة أهل الرأي، فإن الناس على طرفي نقيض في هؤلاء : منهم من يذم العباد ، ومنهم من يغلو بهم ، ونفس الموقف أيضاً من أهل الفقه والرأي .

وابن تيمية ينتقد موقف كلا الطرفين في موقفهم من هؤلاء ، ونسوق كلامه بتمامه ليتم حسن التصور:« ما يقال عن عباد البصرة وغيرهم مما يزيد على حال الصحابة وعلى ما سنه الرسول من أمور توجب أن يصير الناس فيهم طرفين : قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا في ذلك .

وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها .

والتحقيق : أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك ، وخرج فيهم الرأي الذي فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس .

وخيار الناس من « أهل الفقه والرأي » في أولئك الكوفيين على طرفين :

قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم ، وقوم يغلون في تعظيمهم ، ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم وربما فضلوهم على الصحابة ، كما أن الغلاة في أولئك العُبَّاد قد يفضلونهم على الصحابة وهذا باب يفترق فيه الناس .

والصواب : للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وخير القرون القرن الذي بعث فيهم ، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه .

ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم كما قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) (٢)(٣) .

وقال تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا ﴾ (٤) وان كثيراً من المؤمنين - المتقين أولياء الله - قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده ، فلا بد أن يصدر منه الخطأ إما في علومه وأقواله ، وإما في أعماله وأحواله ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم .. » .

وقال :« فطائفة ذمت « الصوفية والتصوف » وقال : إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ، وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفي هذه الأمورذميم أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ،وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه . وقد انتسب إليهم طوائف

---

(١) سورة التغابن آية (١٦) .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه وطرفه « دعوني ما تركتكم » كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صحيح البخاري ٩٤/٩ - ٩٥ . وفي مسلم مع اختلاف في بعض الألفاظ في كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة في العمرة . صحيح مسلم ٩٧٥/٢ .

(٣) الفتاوى ١٢/١١ .

(٤) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

من أهـــل الـبـدع والزندقـــة ، ولكن عـنـد المحـققين من أهـل التصوف ليسوا منـهم : كالحلاج[1] مثلاً .

فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه ، وأخرجوه عن الطريق [2] .

هذا المنهج الذي رسمه ابـن تيمية لنفسه والتزمه جعله ميـزان عدل لجميع الطوائف والفرق والجماعات .

واستطاع أن يـفيد مما عندهـم من الحق خصوصاً ردود بعـضهم على بعـض . وفيما استعملـوه من أدلة عقلية أو طرق منـهجية صحيحة . وانـطلق في منهجه من مـنطلقات واقعية ، فهو لم يفترض في العلمـاء الكمـال فـي العلـم والعقـل والتسـاوي فـي ذلـك، ولـم يفـتـرض فيهـم العصمة من الخـطأ والنسيان والجـهل ، ولم ينس خفـاء بعض الحق والتباسـه بالباطل نتـيجة لما أحدث من ألفـاظ مجملة تحتمـل حقاً وباطلاً ، فصـار فيه من الحق ما يوجـب قبوله ومن الباطل مـا يوجب رده ... ثم ذكر أن الذين كذبـوا به كله لما فيه من الباطل مخطئون . والذين صدقوا به كله لما فيه من الحق مخطئون .

والصواب « الـتصديـق بـالحـق والتكـذيـب بالبـاطـل » [3] . ولـم يـنـس النـــوازع البشريـة من الحـب ، والكره ، والميل ، والهـوى ، والشهـوة ، ونحـــو ذلـك ، بيّن هـذا ورسـم منـهـج التعامـــل بقوله : « ... ففيهم مـحبة الحق والباطل ، وهـو وجود المحبوب والمكروه ، كما في الآخرين بغض الحق والبـاطل ، وهو دفع المحبوب والمكروه ، فيحمد من هؤلاء محبة الحق والاعتراف به ، ومن هؤلاء بغض الباطل وإنكاره » [4] .

واستطـاع تحقيق هذا المـنهج لعـلمه بالحق ، ورحـمته للخـلق ، وهذا منـهج « أهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق »[5] .

والحاصـل في كـثير مـن واقع الـناس أن الطـائفة أو الجـماعـة تبين أخـطاء وعـيوب الآخرين من الطوائف والجماعـات أو غيرهـم أكثـر ممـا تبـين عيـوب وأخطـاء نفسهـا أو مـن انتســب إليهـا أو والاها ، وهذا يجعلنـا نأخذ بهذا الاعتبار عند الـتقويم للآخرين أو الحكم عليهم ؛لأن هـؤلاء قد يذكرون عيوباً على حسب فهمـهم وقد لا تكون كذلك ، أو يذكرونها والأمر بخلاف الواقع ظلماً وعدواناً منهم على إخوانهم .

(١) تقدمت ترجمته صفحة (٢٣٠) . (٢) الفتاوى ١١/١٧ .
(٣) انظر الفتاوى ١١/٤٣٤ ، ١١/٦ ، ٧ ، ٨ .
(٤) التفسير الكبير ٥/١٥ . (٥) التفسير الكبير ٦/١١٣ .

يقول رحمه الله في ذلك : « لكن من غلب عليه طريق النظر والكلام ، كان ذمه لمنحرفة العباد أكثر من ذمه لمنحرفة أهل الكلام ، وهذا كثير في أهل الكلام والفقهاء لا سيما في المعتزلة ، وهؤلاء قد لا يعرفون ما في طريق أهل العبادة والتصوف من الأمور المحمودة في الشرع ، ومن غلب عليه طريقة أهل الإرادة والعبادة ، كان ذمه لمنحرفة أهل الكلام والنظر أكثر من ذمه لمنحرفة أهل التصوف ، وهذا يوجد كثيراً في كلام أهل الزهد والعبادة ، لا سيما المعظمين لطريقة الصوفية » (١) .

والطائفة أو الجماعة ينتمي إليها أعداد كثيرة من الناس ، وليس كل هؤلاء يلتزم بكل أقوال وآراء الجماعة ، بل بعضهم يقول أقوالاً مخالفة لأقوالها ، والطائفة ترد عليه ما خالفها فيه لأن ظاهر أقواله الفساد ، ولكن الذين يعادون هذه الطائفة وينفرون منها لا يلتفتون إلى ذلك بل قد لا يحفظون لها إلا هذه الأقوال ويشنعون بها عليها (٢)، وهذا ظلم وبخس للحق وعدوان أثيم بل هو افتراء وجناية ومجانبة لمنهج العدل والإنصاف المأمور به شرعاً .

إن أقوال الطوائف والجماعات ونحوها تؤخذ من مصادرها المعتمدة وشخصياتها المعتبرة المعترف بإمامتهم وزعامتهم في تلك الطائفة أو الجماعة ، وأما غير ذلك فلا يكون ملزماً لهذه الجماعة فضلاً عن أن يكونوا ردوا على أقواله الفاسدة على حسب منظورهم، ودلالة عقولهم .

ومن المناسب أن أذكر أمثلة ونماذج تبين إنصاف ابن تيمية للطوائف الذين كان له ردود معهم في المجادلة والمناقشة، سواء من خلال أفكارهم المكتوبة، أم من خلال أشخاصهم المعاصرين له ، ودخل معهم في صراع علمي في جوانب عديدة من الفكر الإسلامي أبرزها الجانب العقدي .

ولم يكن ثناء ابن تيمية وإبراز محاسن الغير جهداً مستقلاً منه ، وإنما جاء أثناء حديثه عنهم وعن أفكارهم أو مجادلاته معهم سواءً من خلال كتبهم أم أشخاصهم .

١ - الخوارج :

ذكر عدداً من الأحاديث فيها بيان مروقهم من الدين مع كثرة عبادتهم ، وفيها

---

(١) الدرء ٦٨/٨ ، ٦٩ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٤٣٨/٦ .

الأمر بقتالهم ، وبيّن أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب [(١)] قاتلهم ، ولكن ذلك لم يمنعه من بيان ما عندهم من الصفات الحميدة . فهم قوم صادقون لا يتعمدون الكذب ، ولا يعرف فيهم من يكذب، ولا يقصدون مخالفة الشرع [(٢)] .« وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج » [(٣)] .وبعد أن ذكر بدعتهم في التكفير قال: «إنما هي من سوء فهمهم للقرآن ولم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه... وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم ... وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن ، فكيف بمن تكون بدعته معارضة القرآن والإعراض عنه »[(٤)] .

وهم بخلاف الرافضة الذين يكذبون ويصدقون الكذب ، فإن كانت بدع الرافضة من هذا السبب ، فإن الخوارج كانت بدعهم « عن جهل بتأويل القرآن وغلو في تعظيم الذنوب » [(٥)] . ويفضل الخوارج على الرافضة ، لأن الرافضة قاتلوا المسلمين وسلطوا عليهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب ، وأما الخوارج فإنهم قاتلوا المسلمين لكنهم لم يسلطوا الكفار عليهم .

٢ - الرافضة :

ذكر أن رؤوس مؤسسي التشيّع والرفض كانوا منافقين وزنادقة ثم قال : « مع أن كثيراً منهم ليسوا منافقين ولا كفاراً ، بل بعضهم له إيمان وعمل صالح ، ومنهم من هو مخطئ يغفر له خطاياه ، ومنهم من هو صاحب ذنب يرجى له مغفرة الله ، لكن الجهل بمعنى القرآن والحديث شامل لهم كلهم ، فليس فيهم إمام من أئمة المسلمين في العلم والدين ... » [(٦)] .

ويذكر أن الرافضة منهم من له عبادة وزهد وورع « والرافضة فيهم من هو متعبد متورع زاهد لكن ليسوا في ذلك مثل غيرهم من أهل الأهواء ... » [(٧)] . وبعد أن ذكر

(١) هو : علي بن أبي طالب (عبد مناف وقيل : شيبة) بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أول الناس إسلاماً ، ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح .. شهد مع الرسول المشاهد كلها ما عدا غزوة تبوك .. قتله عبدالرحمن بن ملجم غيلة في ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ . انظر الإصابه ٥٧/٧ . تذكرة الحفاظ ١٠/١ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٥٩/١ ، وانظر ١٢٣/١ .

(٣) منهاج السنة ١٥٧/٥ .

(٤) التفسير الكبير ١٢٣/١ .

(٥) منهاج السنة ٣٠٢/٦ .

(٦) منهاج السنة ٣٠٢/٦ .

(٧) منهاج السنة ١٥٧/٥ .

جملة من مخالفات الرافضة لأحكام الإسلام ومشابهتهم لليهود قال : « وينبغي أيضاً أن يعلم أنه ليس كل ما أنكره بعض الناس عليهم يكون باطلاً ، بل من أقوالهم أقوال خالفهم فيها بعض أهل السنة ووافقهم بعض ، والصواب مع من وافقهم لكن ليس لهم مسألة انفردوا بها أصابوا فيها » (١) .

ولا ينسى ابن تيمية أن يذكر أن لهؤلاء مجهوداً في الدعوة إلى الإسلام وإن كانت دعوة مبتدعة ،إلا أن الخير والشر درجات فهؤلاء جاءوا إلى بلاد الكفار ودخلوها فنشروا الإسلام فيها فأسلم خلق كثيرٌ من الكفار على أيديهم ، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً (٢).

٣ - الفرق الكلامية :

لم يكن موقفه من المتكلمين وفكرهم واحداً ، وذلك لأنهم يختلفون في قربهم من الحق وبعدهم عنه . ويختلفون في مقاصدهم ونواياهم ، فالأشاعرة أقرب للحق من المعتزلة ، والمعتزلة أقرب للحق من الجهمية ، والكلابية أقرب من الجميع وهكذا .

وكل طائفة عندها خطأ وصواب وحق وباطل ،وفيها محسنون ومخطئون عن اجتهاد وحسن قصد ، وفيها من هو بضد ذلك وله من المقاصد الخبيثة ما لا يعلمه إلا الله .

والمتكلمون مع أنهم أحدثوا من الطرق الكلامية الباطلة وجرت على الأمة أضراراً، إلا أنه ينظر إلى هذا بمنظار واقعي . فيذكر أنهم في بعض الأوقات والأمكنة قابلوا ما هو أبطل منهم فاندفع باطلٍ أعظم بباطل أخف ، يقول رحمه الله عن حجج وأدلة أهل الكلام أنها تقطع كثيراً من أهل الباطل وتقوي كثيراً من أهل الحق : « وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها ، والخير والشر درجات ، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كان عليه إلى ما هو خير منه » (٣) .

أ - الجهمية :

يرى ابن تيمية أن الجهمية أصل كل بلاء ، ومع ذلك فإنه لا يمانع من أن يذكر الحق الذي يصيبون فيه ويوافقون السنة كقوله : « فالصواب من القول الأول قول الجهمية الذي وافقوا فيه السلف والجمهور ، وهو أنه ليس كل من طلب واجتهد واستدل يتمكن من معرفة الحق فيه ، بل استطاعة الناس في ذلك متفاوتة » (٤) .

---

(١) منهاج السنة ٤٤/١ .
(٢) انظر التفسير الكبير ١٩٨/١ ، ١٩٩ .
(٣) التفسير الكبير ١٩٨/١ .
(٤) الفتاوى ٢١٤/١٩ .

ويذكر أن من مآثر الجهمية أنه دخل بسببهم خلق كثير في الإسلام وخرجوا من الكفر ، وإن كانوا انتقلوا إلى إسلام دخله بدع وتخريف بوساطة الجهمية إلا أنه أفضل من حال الكفر .

« وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على أيديهم خلق كثير ، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً » (١) . ويوجد لأهل البدع من أهل القبلة لكثير من الرافضة والقدرية والجهمية وغيرهم من الاجتهاد ما لا يوجد لأهل السنة في العلم والعمل »(٢) . والفضل ليس بكثرة الاجتهاد ولكن بالهدى والسداد (٣).

ب – المعتزلة :

لم يكتف بإبراز الجوانب السلبية عند المعتزلة في مناهجهم العقلية ، وفي تقديمها على النصوص الشرعية ، والقول بأن القرآن والسنة ليس فيهما أدلة عقلية ، وكلامهم في الأسماء والصفات والقدر ، وموقفهم من أئمة الإسلام وغير ذلك ، بل يذكر أيضاً : ما لهم من محاسن وفضائل فيقول : « ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ، فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعة ... ويعظمون الذنوب ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج ولا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون اتخاذ دار غير دار الإسلام كالخوارج ، ولهم كتب في تفسير القرآن ، ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته ، وحكمته وصدقه وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس ، ولكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس » (٤) .

ويقول : « والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف والخوارج والصوفية يذمونها ويعيبونها » (٥) .

ويذكر موافقتهم للجماعة فيما يوافقون به ويعد ذلك منقبة لهم بخلاف غيرهم فيقول : «.. ولهذا كان الصواب في الأصل الثاني قول من يقول ، إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من عصاه بترك المأمور أو فعل المحظور ، والمعتزلة في هذا وافقوا الجماعة

(١) التفسير الكبير ١٩٨/١ ، ١٠٠٩ .
(٢) التفسير الكبير ٣٢٧/٤ ، ٣٢٨ .
(٣) انظر السابق ٣٢٧/ .
(٤) التفسير الكبير ٩٩/١ ، ١٠٠ ، التفسير الكبير ٢٧٧/٢ .
(٥) التفسير الكبير ٢٠٣/١ ، التفسير الكبير ٢٧٩/٤ .

بخلاف الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم فإنهم قالوا بل يعذب من لا ذنب له أو نحو ذلك » (١) .

ويذكر أن المعتزلة والأشاعرة والكرامية (٢) والشيعة بينوا فساد بعض طرق الفلاسفة، وأنهم ردوا عليهم في الحد والقياس والإلهيات وذلك مذكور في عدد من كتب الكلام(٣) .

ويقول :« والمعتزلة مثل سائر الطوائف – فيهم من يكذب وفيهم من يصدق ليس لهم من العناية بالحديث ومعرفته ما لأهل الحديث والسنة ، فإن هؤلاء يتدينون به فيحتاجون إلى أن يعرفوا ما هو الصدق » (٤) .

ويبين ما قام به المعتزلة من نصر للإسلام في مواطن ويعتذر عنهم في خطئهم وغلطهم الكبير بأنه حصل منهم لا من سوء نية ، ولم يكن بناء على تكذيب الشرع ومخالفته فيقول رحمه الله :« .. كما أن المعتزلة لما نصروا الإسلام في مواطن كثيرة وردوا على الكفار بحجج عقلية : إما ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وإما تقلوها عمن احتج بها من غير أهل الإسلام ، فاحتاجوا أن يطردوا أصول أقوالهم التي احتجوا بها لتسلم عن النقص والفساد فوقعوا في أنواع من رد معاني الأخبار الإلهية وتكذيب الأحاديث النبوية .. إلى أن قال :« وهم وإن كان لهم من نصر بعض الإسلام أقوال صحيحة ، فهم فيما خالفوا به السنة سلطوا عليهم وعلى المسلمين أعداء الإسلام فلا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا » (٥) .

والقول بأن القرآن مخلوق « لم يكن مختصاً بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس ، فإن كثيراً من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة ، وبشر المريسي (٦) لم يكن

---

(١) الفتاوى ٢١٤/١٩ .

(٢) أتباع أبي عبدالله محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥هـ ، يوافقون السلف في إثبات الصفات، ولكنهم يبالغون إلى حد التشبيه والتجسيم ، ويثبتون القدر والحكمة ، ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله تعالى بالعقل ، والحسن والقبح العقلي ، يقولون الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب ، وبهذا عدوا من المرجئة . الفصل لابن حزم ٧٤/٥ تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر والدكتور عبدالرحمن عميرة ، شركة مكتبات عكاظ . ط الأولى ١٤٠٢هـ ، الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي /٢٠٢ – ٢١٤ منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م .

(٣) انظر الفتاوى ٢٣١/٩ . (٤) منهاج السنة ٣٦/٧ . (٥) الدرء ١٠٦/٧ – ١٠٧ .

(٦) هو : بشر بن غياث بن عبدالرحمن المريسي ، العدوي ، فقيه حنفي معتزلي عارف بالفلسفة ، وهو رأس الطائفة « المريسية » القائلة بالإرجاء وكان يناظر الشافعي ، ويقال : إن أباه كان يهودياً سياغاً بالكوفة .. توفي سنة ٢١٩هـ ببغداد . انظر سير أعلام النبلاء ، ووفيات الإعيان ٢٧٧/١ ، الأعلام ٢٥٥ .

من المعتزلة بل منهم نجارية (١) ، ومنهم برغوث (٢) ... الخ (٣) .

وينتقد ابن فورك (٤) ويعيب عليه في تكفير المعتزلة عند السلطان ، ولم يعذرهم فيقول عن ابن فورك : « كما قصد بِنَيسابور القيام على المعتزلة في استتابتهم وكما كفرهم عند السلطان . ومن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد ، بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره فإنما هو ظالم نفسه ... » (٥) .

ويقول أيضاً عن المعتزلة مفضلاً إياهم على الروافض والخوارج : « وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً . وقالوا : إنه (٦) قال : « لو شهد علي والزبير (٧) لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه ، ولو شهد علي مع آخر ففي قبول شهادته قولان وهذا القول شاذ فيهم ، والذي عليه عامتهم تعظيم علي » (٨) .

ويقول بعد ذكر الرافضة: « فالمعتزلة أعقل منهم وأعلم وأديَن ، والكذب والفجور فيها أقل منه في الرافضة » (٩) .

---

(١) أتباع أبي عبدالله الحسيني بن محمد النجار ،لم يذكر المؤرخون له تاريخ وفات وبالنظر لما قيل في سبب وفاته يتحدد لنا قرب زمنها حيث قيل : إنه كان له مع النظام مناظرات وأنه انصرف من إحداها نقلاً فمات بعد ذلك ، والنظام توفي سنة ٢٣١هـ قيل إنهم من الجبرية وقيل من المرجئة ، وقيل إنهم أقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة . وافقوا المعتزلة في نفي الصفات وفي القول بتحصيل المعرفة بالعقل قبل السمع . انظر الفرق بين الفرق /١٩٥ - ١٩٨ . الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٨١/٣ ، الأعلام للزركلي ٢٧٦/٢ .

(٢) هو : محمد بن عيسى الجهمي رأس البدعة ، أحد من كان يناظر الإمام أحمد وقت المحنة .. توفي سنة ٢٤٠هـ وقيل ٢٤١هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥٥٤/١٠ .

(٣) التفسير الكبير ٣٨٧/٧ .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (١٩٤) .

(٥) التفسير الكبير ١١٣/٦ .

(٦) أشار إلى أن بعض متقدمي المعتزلة حكيت عنه هذه الحكاية .

(٧) هو : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى .. القرشي ، الأسدي ، حواري رسول الله عليه الصلاة والسلام وابن عمته ، أمه صفية بنت عبدالمطلب ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، أسلم وله ١٢ سنة ، شهد بدراً وأحداً وغيرهما ، كان موسراً ، كثير المتاجر ، وخلَّفَ أملاكاً بيعت بنحو أربعين مليون درهم .. وكان خفيف اللحية ، أسمر اللون .. ولد قبل البعثة ، وقتل سنة ٣٦ يوم الجمل . انظر الإصابة ٩/٣ ، الأعلام ٤٣/٣ .

(٨) التفسير الكبير ٢٧٧/٤ .

(٩) منهاج السنة ١٥٧/٥ .

جـ - الأشاعرة :

يعد ابن تيمية الأشاعرة من أقرب طوائف المتكلمين إلى السنة والحديث ، وينتقد من يبالغ في ذمهم أو يلعنهم (١) ويقول عنهم :« وهم في الجملة أقرب المتكلمين إلى مذهب أهل السنة والحديث » (٢) .

ومن محاسن الأشاعرة تصديهم لبدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم وردهم عليها ، يقول مبيناً هذه المحمدة لهم : « والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم وبينوا ما بينوا من تناقضهم ، وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كبير » (٣) .

ويذكر عن الأشاعرة ونحوهم قربهم من الآثار النبوية الصحيحة ، وموافقة السنة وأهلها ما لا يوجد عند الطوائف الأخرى (٤) ، ويجعلهم هم أهل السنة في البلاد التي لا يكون فيها إلا معتزلة ورافضة « فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة ، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم ، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم » (٥) .

وامتدح مساعي الأشاعرة في الرد على أهل البدع والضلال وفضحهم كالقرامطة (٦) ،

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣٨٩/٣ . (٢) الفتاوى ٢٣٠/٨ ، ٥٥/٦ .

(٣) التفسير الكبير ٢٠٢/١ .

(٤) انظر الفتاوى ٣٢/١٢ - ٣٣ ، الفتاوى ٢٣٠/٨ ، ٢٥٥/٦ وانظر الدرء ٢٩٤/٦ ، والجواب الصحيح ٢٥٢/١ .

(٥) نقض التأسيس المطبوع ٨٧/٢ .

(٦) القرامطة : فرقة من الباطنية ينسبون إلى حمدان بن الأشعث يلقب بقرمط ، قيل إنه من الصابئة الحرانية من تلاميذ حسين الأهوازي ، مقره الكوفة وسماها دار الهجرة ، كثر أتباعه فأغاروا على المسلمين وسببوا كثيراً من الحروب وعدهم البغدادي من الفرق الخارجة عن الإسلام ، وابن تيمية قال إنهم أكفر من اليهود والنصارى . انظر الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ، ط ٣ دار الآفاق الجديدة بيروت .

والنصيرية [1] والإسماعيلية [2] ، وكالفلاسفة فقد قاموا بكشف آرائهم وهتك أستارهم وجاهدوهم بكل ما يستطيعون بألسنتهم وأيديهم [3] .

٤ - المنطق وأهله والفلاسفة :

يقول عن صناعة المنطق وأن واضعها أرسطو يزن فيها ما يتكلمون فيه من حكمتهم وفلسفتهم وهي قسمان : نظرية ، وعملية .

فأصح النظرية - وهي المدخل إلى الحق - هي الأمور الحسابية الرياضية .

وأما العملية : فإصلاح الخلق ، والمنزل ، والمدينة ، ولا ريب أن في ذلك من نوع العلوم والأعمال الذي يتميزون بها عن جهال بني آدم ... الخ [4] .ويقول :« ... نعم لا ينكر أن في المنطق ما قد يستفيد ببعضه من كان في كفر وضلال وتقليد ممن نشأ بينهم من الجهال ، كعوام النصارى ، واليهود، والرافضة ونحوهم ، فأورثهم المنطق ترك ما عليه أولئك من تلك العقائد . ولكن يصير غالب هؤلاء مداهنين لعوامهم مضلين لهم عن سبيل الله ... الخ [5] .

ويقول عن المنطق :« وأما هو في نفسه فبعضه حق ، وبعضه باطل ، والحق الذي فيه كثير منه أو أكثره لا يحتاج إليه ... » [6] .

---

(١) النصيرية : أتباع أبي شعيب محمد بن نصير ،كان من الغلاة الذين يقولون إن علياً إله ، قال عنهم ابن تيمية « هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى ، بل وأكفر من كثير من المشركين وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين ، ويسبون فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها بكل فعل قبيح ، ويسبون الحسن والحسين رضي الله عنهما ويقولون إن خير الناس عبدالرحمن بن ملجم قاتل علي رضي الله عنه لما خلص روح اللاهوت من الجسد والتراب ، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع ، وموالاة أهل البيت ، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ، ولا برسوله ، ولا بكتابه ، ولا بأمر ولا نهي ولا جنة ولا نار ، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين وقال : لا يحل أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم بل ولا يقرون على الجزية . انظر الفتاوى ١٤٩/٣٥ - ١٦١ ، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان /٣٧ .

(٢) تقدم التعريف بهم في صفحة (٨١) .

(٣) انظر الدرء ٨/٥ ، ٢٧٩/٤ - ٢٨١ . وانظر منهاج السنة ١٢٥/١ - ١٢٦ . وانظر الرد على المنطقيين /١٤٢ - ١٤٣ .

(٤) الفتاوى ٢٦/٩ . (٥) الفتاوى ٢٤/٩ . (٦) الفتاوى ٢٦٩/٩ .

وقال عن أهل المنطق ومنطقهم ، ومقاصدهم فيه : « لهم فى الطبيعيات كلام غالبه جيد ، وهو كلام كثير واسع ، ولهم عقول عرفوا بها ذلك ، وهم يقصدون الحق ، لا يظهر عليهم العناد ، لكنهم جهال بـ « العلم الإلهي » إلى الغاية ، ليس عندهم منه إلا قليل كثير الخطأ » (١) .

ويقرر أن كلامه في بيان أخطائهم وانحرافهم عن الحق « لا يستلزم كونهم أشقياء إلا إذا بعث إليهم رسول » (٢) .

ولما قال الخطابي (٣) عمن سلك طريقة الأعراض من المتكلمين « وأنهم أخذوا هذه الطريقة من الفلاسفة » ، كما ذكر ذلك الأشعري (٤) . دافع عن الفلاسفة بأن بعضهم قد أبطل هذه الطريقة ، ومنهم من يقول بها ، وأن الذين قالوا بها من المتكلمين « ليس كلهم أخذها عن الفلاسفة بل قد تتشابه القلوب كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (٦) » (٧) . ويورد آراءهم الإيجابية الموافقة للحق ، وعقيدتهم في هذه الآراء ، ولكنهم كثيراً ما يفسدون الأول باعتقاد باطل ، مثال ذلك قوله : « والفلاسفة أيضاً لا تنكر جنس الخبر بل تقول بالأخبار المتواترة وغيرها ، ولكن ينكرون استعادة الأمور الغائبة بأخبار الأنبياء ، وهم قد يعظمون الأنبياء – صلوات الله عليهم – ويوجبون اتباع شرائعهم ، ويأمرون بقتل من يخرج عنها ، لكن يجعلون مقصودها هو إقامة مصالح الناس في دنياهم بالعدل الذي شرعته الأنبياء .

(١) الرد على المنطقيين /١٤٣ .
(٢) الفتاوى ٩ / ١٣٧ .
(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٤٤) .
(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤٠) .
(٥) سورة البقرة اية (١١٨) .
(٦) سورة الذاريات آية (٥٢ ، ٥٣) .
(٧) الدرء ٧ / ٢٩٥ .

النظرة الواقعية للإنسان

المطلب الأول : تكوين الإنسان ومتطلباته :

أولاً : النظرة للإنسان من حيث تكوينه ولوازم ذلك : –

نظر ابن تيمية للإنسان نظرة واقعية بعيدة عن المثالية التي تقرب من الملائكية وعن السافلية التي تقرب من البهيمية . ساعدته هذه النظرة في رسم منهج دعوي تربوي يساعد على صيانته وحفظه والعودة به إلى رحاب حياة السلف الصالح في اتزان وتناسق.

واستطاع ابن تيمية أن يقدم دراسة وافية عن الإنسان من جميع نواحيه العقلية والنفسية ، وميوله الذاتية ، والاجتماعية ، ورغباته ، وكذلك من حيث قدراته من شتى جوانبها ، ومن حيث استجابته لأنواع المؤثرات من حوله ، وأبدى تركيزاً كبيراً واهتماماً بقلب الإنسان وعقله وقدراته التي فطر عليها ،ودرس ـ بعناية فائقة – كيفية التعامل مع الإنسان ، والحكم على تصرفاته . ولعل ابن تيمية اختص من بين علماء السلف بهذا الاهتمام ، وذلك لأن ابن تيمية برز فيه جانب الإصلاح والدعوة وتغيير النفوس بالعودة بها إلى منهج السلف أكثر من غيره .

وما دام الإنسان هو المقصود بهذه الجهود فلا بد من الإحاطة به ومعرفته قدر الاستطاعة حتى يستطيع الداعية المصلح أن يتعامل مع هذا الإنسان تعاملاً سليماً يحقق الأهداف المرجوة بأيسر الأمور ومن غير إحداث ردود فعل عكسية ، ومن غير تصرفات قد تعثر حركات التغيير والإصلاح ، أو تحدث من الآفات الفكرية والنفسية ما هو أعظم مما أريد إصلاحه وتغييره . وفي هذا الموضوع أعرض بعض ما توصلت إليه لدى ابن تيمية من علم ومعرفة بالإنسان ، وما قدمه من نظرة انبعثت من نصوص القرآن والسنة وآراء سلف الأمة – هذه النظرة وضعت الإنسان في إطاره الذي كوّنه الله عليه، فلم تفترض فيه طهارة الملائكة من حيث الشهوات والميل إلى متع الحياة الدنيا المباحة وما حرمه الله من اللذائذ ، ولم تفترض الحيوانية الشهوانية التي لا تعقل خيراً وهدى ،وليس في تكوينها له مقدار ومنزلة ، بل هي في نظر ابن تيمية :جبل على حب العمل والحركة والسعي ، وجبل على الهم بالأشياء والإرادة إلى الفعل والميل نحو تحقيق أمور يريد إيجادها في ذات نفسه يرى أنه له فائدة ونفعاً أو لذة وشهوة ، وكلما انتهى من فعل سعى في آخر « فإن الإنسان حارث همام لا بد له من عمل ولا بد له من مقصود

يعمل لأجله » (١) . « والنفس بطبيعتها متحولة، فإنها حية والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :(أصدق الأسماء : حارث وهمام) ، فكل آدمي حارث وهمام ، أي عامل كاسب وهو همام أى يهم ويريد فهو متحرك بالإرادة ... ولكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة ... فإن عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته فذلك من تمام إنعام الله عليها ، وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله ، ومرادات سيئة تضرها ، فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده » (٢) .

والذي عنده همّ وهمة ، وله عملٌ وحركة وسعي ، مع تجرده من العصمة لا بد أن يقع منه الخطأ ، بل الإنسان فيه مادة الخطأ والذنب « الظلم والجهل » ، فالإنسان ظالم جاهل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (٣) » (٤) .

والقلوب البشرية ليست معصومة من الوساوس ، وفيها قابلية لهذه الوسوسة ، والموسوس موجود بقدرة فائقة عليها وهو الشيطان والنفس « والقلوب فيها وسواس النفس والشيطان يأمر بالشهوات والشبهات ما يفسد عليه طيب عيشها » (٥) .ولهذا فالنفوس البشرية فيها ميل وحب للشهوات والمعاصي ، وإن كانت هذه مرذولة ومستقبحة ومذمومة عقلاً وشرعاً ، وقد يدفعها لذلك حب الاستحواذ بالشيء وكراهية اختصاص الآخرين به ، وأقل أحوالها أنها تحب أن يحصل لها ما حصل لهم ، وهذا هو المعتدل ، والآخر يحب زوالها من الآخرين واختصاصه هو بها (٦) . والذي يدفعها لحب الاختصاص بالأشياء : ما فيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ، ويزيد طغيانها عندما ترى أن غيرها قد استأثروا بما تريده هي وتحبه من خير أو شر من محلل أو محرم (٧) .

والإنسان ليس معصوماً من الذنوب والخطايا ، بل هو مخلوق وفيه ضعف يستوجب وقوعالخطأ منه ، وفيه الميل إلى الشهوات « فإن السيئات تهواها النفوس ، ويزينها الشيطان ، فتجتمع فيها الشبهات والشهوات ... ، وفي قوله في آخر الآية : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ... ﴾ (٨) ، فوائد جليلة منها :

---

(١) التفسير الكبير ١٧/٦ . (٢) التفسير الكبير ٣٣١/٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
(٣) سورة الأحزاب آية (٧٢) . (٤) الفتاوى ٣٤/٢٨ . (٥) الفتاوى ٣١/٢٨ .
(٦) انظر الفتاوى ١٤٣/٢٨ . (٧) انظر الفتاوى ١٤٣/٢٨ . (٨) سورة النور آية (٣١) .

أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي ترك غض البصر ،وحفظ الفرج ، وترك إبداء الزينة ، وما يتبع ذلك فمستقل ومستكثر كما في الحديث : (ما من أحد من بني آدم إلا أخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا) (١) .

وفي السنن عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال :(كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) (٢) ، وفي الصحيح : (... يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالي ...) (٣) الحديث .

وفي الإنسان الاستئثار والظلم ، وفيه الجهل ، والحب والكره ، وفيه ميل إلى العلو والسيطرة والرئاسة ، وهذه الأمور يقع بكل واحد منها عدد من الأخطاء والمعاصي والذنوب« ... في الصحيحين : (لما نزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ .. ﴾ (٤) قال النبي صلى الله عليه وسلم :(أعوذ بوجهك) ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : أعوذ بوجهك. ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال هاتان أهون) (٥) .

وهذه الأمة لا بد أن تقع الذنوب منها ، ولا بد أن يختلفوا ، فإن هذا من لوازم الطبع البشري ، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلا كذلك ، ولهذا لم يكن ما وقع فيها من الاختلاف والقتال والذنوب دليلاً على نقصها ، بل هي أفضل الأمم »(٦) .

والله عز وجل قد عصم أمة محمد صلى الله عليه وسلم من أن تجتمع على ضلالة، أو تجتمع على خطأ وباطل ،وهذه العصمة لمجموع الأمة لا لأفرادها ، فهم غير معصومين يقع منهم الذنب والخطأ ، ومعنى هذا أن يكون في الأمة أخطاء غير مجمع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٤٥/١ . ومجمع الزوائد للهيثمي ٢٠٩/٨ قال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلي والبزار .. والطبراني ، وفيه علي بن زيد وضعفه الجمهور وقد وثق وبقية رجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) حديث حسن ، عن أنس رضي الله عنه ، أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة باب ٤٩ ، سنن الترمذي ٦٥٩/٤ رقم ٢٤٩٩ . ابن ماجه كتاب الزهد باب ذكر التوبة ، قال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٤١٨/٢ : حديث حسن ، سنن ابن ماجه ١٤٢٠/٢ رقم ٤٢٥١ .

(٣) أخرجه مسلم عن أبي ذر ، كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم ، صحيح مسلم ١٩٩٤/٤ .

(٤) سورة الأنعام آية (٦٥) .

(٥) حديث صحيح ، رواه البخاري من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول الله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ فتح الباري ٢٩٥/١٣ ، ٢٩٦ .

(٦) التفسير الكبير ١١٦/٣ .

عليها ، فيكون في هذا من الخطأ في أمور ، والكمال في أمور ما ليس في الآخر، فتتكامل الأمة في إقامة بعضها البعض على الصواب ولزوم الحق ومعاقبة المعاند وتأديبه قال رحمه الله : « وهنا أصل يجب اعتماده : وذلك أن الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ولم يعصم آحادها من الخطأ لا صدّيقاً ولا غير صديق ، لكن إذا وقع بعضها في خطأ ، فلا بد أن يقيم الله فيها من يكون على الصواب في ذلك الخطأ » [1] . ولوجود الخطأ والمعصية شرع الله النصيحة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلها من أوجب الواجبات ومن حق المسلم على أخيه المسلم .

وفي نص جميل يحلل ابن تيمية النفس الإنسانية من هذا الجانب ، ويبين ما تنطوي عليه من نزعات ، وميول ، وطباع ، وهذا النص يفتتحه بذكر أن الذنوب من لوازم نفس الإنسان فيكون بحاجة دائمة وملازمة إلى الهدى في كل لحظة ، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب [2] و « أعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة ونداً له أو أن تكون إلهاً من دونه وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي..﴾ [3] .

وإبليس يطلب : أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ويطاع . وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفي نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا ، إن لم يعن الله العبد ويهديه وإلا وقع في بعض ماوقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان ، قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ،غير أن فرعون قدر فأظهر وغيره عجز فأضمر ، وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ، ويعادي من يخالفه في هواه ، وإنما معبوده : ما يهواه ويريده ، قال تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ...﴾ [4] ، والناس عنده في هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم ، يقولون : « يا رباعي » أي : صديق وعدو ، فمن وافق هواهم ، كان ولياً وإن كان

---

(١) الاستقامة ١/٢٩٩ . (٢) انظر التفسير الكبير ٣/٣٥٤ .
(٣) سورة القصص آية (٣٨) . (٤) سورة الفرقان آية (٤٣) .

كافراً مشركاً ، ومن لم يوافق هواهم ، كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هي حال فرعون . والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية وجحود الصانع .

وهؤلاء وإن كانوا يقرون بالصانع ، لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده ، فإن كان مطاعاً مسلماً ، طلب أن يطاع في أغراضه ، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله، ويكون من أطاعه في هواه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه، وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسل ، وإن كان عالماً - أو شيخاً - أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها كالصلوات الخمس ، فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والاقتداء به أكثر من غيره ، وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (١) ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٢) ،ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون وسلط عليهم من انتقم منهم فقال تعالى عن فرعون: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٣) ، (٤) .والمرء له نفس وعقل ، والنفس تحب الشهوة والمال ، والرئاسة ، وهي خفيفة طائشة ومبدأ السفه منها ، لذلك هي تأمره بأمور العقل والدين ينهاها عنه ، وهذا الأمر منها خيانة واختيان : ﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (٥) ، فالنفس في فعلها هذا خائنة ظالمة وهي تدعو صاحبها في السر إذا لم يره أحد إلى أفعال لاتدعو إليها علانية ، فتكون بهذا اختانته وغلبته « وهذا يوجد كثيراً في أمر الجماع والمال ، ولهذا لا يؤتمن على ذلك أكثر الناس ،

(١) سورة البقرة آية (٩١) . (٢) سورة البينة آية (٤) . (٣) سورة القصص آية (٤) .
(٤) التفسير الكبير ٣/٣٥٤ - ٣٥٩ . (٥) سورة النساء آية (١٠٧) .

ويقصد بالائتمان من لا تدعوه نفسه إلى الخيانة » في ذلك قال سعيد بن المسيب (١): لو ائتمنت على بيت المال لأديت الأمانة . ولو ائتمنت على امرأة سوداء لخفت أن لا أؤدي الأمانة فيها ، وكذلك المال لا يؤتمن عليه أصحاب الأنفس الحريصة على أخذه كيف أنفق .

وهذا كله مما يبين أن النفس تخون أمانتها ، وإن كان الرجل ابتداء لا يقصد الخيانة فتحمله على الخيانة بغير أمره وتغلبه على رأيه . ولهذا يلوم المرء نفسه على ذلك ويذمها » (٢) . وما ذاك إلا لأن « ... النفس لها أهواء وشهوات تلتذ بنيلها وإدراكها ، والعقل والعلم بما في تلك الأفعال من المضرّة في الدنيا والآخرة يمنعها عن ذلك ، فإذا زال العقل الحافظ انبسطت النفس في أهوائها » (٣) .

والإنسان في أحواله القلبية ، وفي قدراته المعرفية ، وفي قبوله وتصديقه ، وفي إيمانه ، وفي حبه ، وفي بغضه ، ليس في درجة واحدة ، فالناس يتفاضلون في ذلك ، فبعضهم أعلى من بعض ، وبعضهم أنقص من بعض ، حتى الإنسان في نفسه مع نفسه يتفاضل في هذه الأمور من وقت لآخر ، ومن مكان لآخر .

يقول رحمه الله عن الإيمان : « وأما تفاصيله من جهة العبد فتارة يقوم هذا من الإقرار والعمل بأعظم مما يقوم به هذا ، وكل أحد يعلم أن ما في القلوب من الأمور يتفاضل ، حتى أن الإنسان يجد نفسه أحياناً أعظم حباً لله ورسوله وخشية لله ، ورجاء لرحمته ، وتوكلاً عليه ، وإخلاصاً منه في بعض الأوقات ، وكذلك المعرفة والتصديق تتفاضل في أصح القولين » (٤) .

وهذا الإنسان الحي يتحرك بالإرادة لا يأنس بهذه الحركة والحياة إلا في وسط جنسه فـ « بنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض » (٥) .

وحياة التفاعل هذه لا بد لها من أمر ونهي ، وهي ضوابط تحكم سيرها ، والنفس البشرية قابلة لهذا الأمر والنهي « حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها إما بمعروف وإما بمنكر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٦) . فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته ، والنهي طلب الترك وإرادته ،ولا بد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك ، فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته » (٧) .

---

(١) هو : سعيد بن المسيب بن حَزْن بن أبي وهب المخزومي ، القرشي ، سيد التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، كان أحفظ الناس لأحكام عمر حتى سمي راوية عمر .. ولد سنة ١٣هـ وتوفي بالمدينة سنة ٩٤هـ وقيل ٨٩هـ ، وقيل ٩١هـ . انظر تذكرة الحفاظ ٥٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٢١٧/٤ ، الأعلام ١٠٢/٢ .

(٢) التفسير الكبير ٤٦٨/٣ ، ٤٧٤ . (٣) الاستقامة ١٤٤/٢ . (٤) الفتاوى ٢٧٨/١٨ .

(٥) الفتاوى ١٦٨/١٨ . (٦) سورة يوسف آية (٥٣) . (٧) انظر التفسير الكبير ٢٧٥/٥ – ٢٧٧ .

فلا بد إذن لأي جماعة من هذا الأمر والنهي، وهو المنهج وقد تكفل الله عز وجل لأمة محمد بمنهج كامل شامل ، فالواجب اتباعه ، ومن نحا نحو غيره فقد غوى .

وحياة الاجتماع هذه مؤثرة في الأفراد ، فالمجتمع يتأثر بعضه ببعض إلى أن يكون التأثر ظاهرة اجتماعية ، إما سلبية أو إيجابية .

ومن أجل هذا التأثر ، ويضاف إليه وجود ميل النفس إلى الشهوات، يرى ضرورة حماية المجتمع مما يثير ويدفع إلى فعل هذه الشهوات والوقوع فيها .

والنفوس المريضة التي تحب الشهوات إذا سمعت بذكرها أو رأت فعلها أو وصف لها الفعل أو تخيلت ذلك كان هذا داعياً إلى الفعل ، حتى أن رؤية الوقاع الجنسي بين الحيوانات يثير ويُهيّج ، فـ « النساء متى رأين البهائم تنزو الذكور منها على الإناث ملن إلى الباءة والمجامعة ، والرجل إذا سمع من يفعل مع المردان والنساء ورأى ذلك أو تخيله في نفسه دعاه ذلك إلى الفعل .

وإذا ذكر للإنسان طعام اشتهاه ومال إليه ، وإن وصف له ما يشتهيه من لباس أو امرأة أو مسكن أو غيره مالت نفسه إليه ، والغريب عن وطنه متى ذكّر بالوطن حن إليه، وكل ما في نفس الإنسان محبته إذا تصوره تحركت المحبة والطلب إلى ذلك المحبوب المطلوب إما إلى وصفه وإما إلى مشاهدته . وكلاهما يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخيل بالسماع أو الرؤية ، أو الفكر في بعض الأمور المتعلقة به ، فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى ما تخيلته ، فتحركت داعية المحبة سواء كانت المحبة محمودة أم مذمومة ، ولهذا تتحرك النفوس إلى الحج إذا ذكر الحجاز [1] أو كان أوان الحج ، أو رأى من يذهب إلى الحج من أهله وأقاربه ... ، ولو لم يسمع ذلك ويراه لما تحرك ولا حدث داعية قوته إلى ذلك ... وكذلك أصحاب المتاجر والأموال إذا سمع أحدهم بالمكاسب تحركت داعيته إلى ذلك ، وكذلك أهل الفرح والتنزه إذا رأوا من يقصد ذلك تحركوا إليه . وهذه الدواعي كلها مركوزة في نفوس بني آدم ، والإنسان ظلوم جهول ، وكذلك ذكر أثار رسول الله صلى الله عليه وسلم تُذَكر به وتحرك محبته » [2] . والواجب على الدعاة والمصلحين إشاعة ما يُذكّر بالطاعات من محبة الله ورسوله ، ومحبة دين الإسلام وآثاره العظيمة ، حتى تتحرك قوة داعية النفوس إلى الخير فتحبه وأهله حتى يكثر وارد الخير عليها وآثاره ومثيراته ، والرؤية العملية لسلوكيات الإسلام من أكبر ما يحرك النفوس إلى هذه السلوكيات .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٣٧/٣ ، ١٤٦/٤ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢١٩ .

(٢) التفسير الكبير ١٤٦/٤ .

وهذا أمر تربوي له أهميته التي تلزمنا بأن نوليه جهداً كبيراً . وفي مقابل هذا أمر تربوي آخر يحرص عليه غاية الحرص ، وهو التحرز أمام الفتيان والفتيات وغيرهم من إظهار ما يحرك الشهوات الجنسية من ذكر القصص الغرامية أو الأشعار الغزلية . أو الغناء بها على الآلات الموسيقية ، وحتى ذكر قصة معينة قد حدثت ينبغي التحرز منه ، وكذلك أشرطة الفديو الغرامية والصور الفاضحة على أي وضع كانت . وكذلك يلزمنا تحذير الزوجين أثنا العلاقة السريرية من أن يكون برؤية غيرهما ، والبعض من الناس إذا وقع في الفاحشة التي حرمها الله ، أخذ في حكاية ذلك وهذا الفعل له دور في إشاعة الفاحشة لأن « .. المتلبس بالفاحشة والعشق إذا ذكر ما به لغيره تحركت النفوس إلى جنس ذلك ، لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة ، فإذا تصورت جنس ذلك تحركت إلى المحبوب ، ولهذا نهي عن إشاعة الفاحشة » (١) . من أجل هذا وغيره أمر الإسلام بستر الفواحش كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :(من ابتلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله ، فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله) (٢) . وقال : (كل أمتي معافى الا المجاهرين ...) (٣) ... فكيف إذا كان في ظهوره تحريك لغيره إليه » (٤) .

والإسلام حريص كل الحرص على إبعاد الناس عما يثير غرائزهم ، ووضع لذلك زواجر وأوامر وعقوبات ، أمر بالحجاب وعدم الاختلاط بين الأجانب ، وعدم النظر إلى المردان ومجالستهم بكثرة ، وألا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم يصونها ، إلى درجة أن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاءه كانوا يميزون بين الرجال والنساء المتأهلين والعزاب ، وحتى في الصلاة الرجال في المقدمة والنساء في المؤخرة ، وبعد الصلاة إذا سلم منها فإنه يلبث هنيهة هو والرجال لتنصرف النساء أو لئلا يختلطوا (٥) .

ويذكر ابن تيمية عاملين يؤثران في الفتنة ، في النظر إلى النساء والمردان والصور الجميلة ، وتحقيق هذه الفتنة من حيث قوتها وضعفها وهي : العادات والطبائع، فالعادات والطبائع لها أثر في مسألة النظر إلى الصور الجميلة وتحقيق الفتنة فيها ، وهذا أمر محسوس ملموس ، مع تأكيد عدم انتفاء الخوف مهما كانت الطبائع والعادات ، كما تؤكد النصوص ذلك من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة .

---

(١) التفسير الكبير ٢٣٧/٣ .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ٨٢٥/٢ رقم ١٢ كتاب الحدود باب ٢ .

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة ، أخرجه البخاري كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه ، فتح الباري ٤٨٦/١٠ . ومسلم كتاب الزهد والرقائق ، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه . صحيح مسلم ٢٢٩١/٤ .

(٤) التفسير الكبير ١٤٦/٤ - ١٤٨ .

(٥) انظر الاستقامة ٣٥٩/١ - ٣٦١ .

يقول رحمه الله : « والفتنة مخوفة في النظر إلى الأجنبية الحسنة والأمرد الحسن في أحد قولي العلماء الذي يصححه كثير من أصحاب الشافعي ، وأحمد وغيرهما، وهذا يختلف باختلاف العادات والطبائع ، وأما النظر للحاجة من غير شهوة ولا لذة فيجوز » (١) .

والمرء قد يريد الفاحشة ويهم بها لكنه لا يتمكن منها أو لا يقدر عليها فتفوت عليه فرصة فعلها ، وقد لا يعود إليها ، والذي يشير إليه ابن تيمية « أن الفاحشة لا تقع إلا مع قدرة ومكنة الإنسان ، لا يطلب ذلك إلا إذا طمع فيه بما يراه من أسباب المكنة ، فمن العقوبة على ذلك قطع أسباب المكنة » (٢).

وبعض الدعاة يجنح به الخيال والمثالية إلى أن يتصور ويتخيل مجتمعاً كله كاملاً لا يوجد فيه هفوة أو زلة ، ولا شك أن هذا قد يوجد في بعض أفراد المجتمع أما كلهم فلا ، لأن الكمال من كل الناس غير مأمور ولا مقدور « ومحبة النفوس للباطل نقص لكن ليس كل الخلق مأمورين بالكمال ولا يمكن ذلك منهم » (٣) .

والرسل عليهم السلام وهم أقدر الدعاة وأصلحهم ، بل هم أئمة الدعاة إنما كانت رسالتهم إلى أن يدعوا إلى إصلاح المجتمع إلى درجة ممكنة ولم تكن رسالتهم لرفع الفساد بالكلية ،« فإن هذا ممتنع في الطبيعة الإنسانية إذ لا بد فيها من فساد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (٤) ،ولهذا لم تكن أمة من الأمم إلا وفيها شر وفساد » (٥) .

فمن مهمات الدعاة إصلاح النفوس بدعوتها إلى عبادة ربها ، وطاعة رسوله ، والارتقاء بها في ذلك إلى درجة الكمال الممكن ؛ وذلك لأن إرادة الفساد من فساد النفوس ، والوقوع في المعاصي بعد التوبة منها سببه بقايا في النفس من الشر لم تتخلص منها « والإنسان إذا فسدت نفسه ، أو مزاجه يشتهي ما يضره ويلتذ به ، بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقله ودينه ، وخلقه وبدنه وماله » (٦) .

ويقول : « فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش ، وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه ، فمن أخرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب فهذه التوبة النصوح ، وهي واجبة بأمر الله تعالى » (٧) .والتصرف الواحد الخاطئ قد ينتج عنه من آخرين تصرفات خاطئة وأضرار عديدة فيكون التفرق

---

(١) الاستقامة ٤٤٨/١ . (٢) الاستقامة ٣٥٩/١ . (٣) التفسير الكبير ٨٠/٦ .
(٤) سورة البقرة آية (٣٠) . (٥) منهاج السنة ١٤٩/٦ . (٦) الفتاوى ٣٤/١٩ .
(٧) التفسير الكبير ٨٠/٦ .

والاختلاف والشر ، وإن السكوت عن الخطأ خطأ ، وإنكار الخطأ بطريق خاطئ خطأ .

« وإن كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشرك والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي فيكون ذلك من ذنوبهم فيحصل التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشرور قديماً وحديثاً ، إذ الإنسان ظلوم جهول ، والظلم والجهل أنواع ، فيكون ظلم الأول وجهله من نوع ، وظلم كل من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر » (١) .

وابن تيمية يخَطِّئُ من يتجاوز الطبيعة التكوينية ، فمثلاً من يقول : إن الإنسان يمكن أن يصغي إلى الباطل ويسلم من تأثيره ، قد يسلم مرة لكن لا يوثق ببقائه على ذلك ، ولأن تجرد الإنسان عن صفاته اللازمة لذاته محال ممتنع (٢) .

وقد يدفع هؤلاء إلى قولهم هذا أنهم لا يرون الأثر مباشرة للمؤثر ، وينبه ابن تيمية إلى أن بعض المؤثرات قد يعتقد أنها لا تؤثر آثاراً سلبية ، بينما هي تؤثر ولكن التأثير يأتي بالتدرج كتدرج النبات في النمو .

يقول في رده على ذي النون المصري (٣) في سماع الصوفية :« من أصغى إليه بحق تحقق » (٤) .

« ومن أين يعلم أن كل من أصغى إليه بحق تحقق ، بل المصغي إليه بحق يحصل له من الزندقة والنفاق علماً وحالاً ما قد لا يشعر به ، كما قال عبدالله بن مسعود (٥) : «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» (٦) ، والنفاق هو الزندقة .

ومن المعلوم أن البقل ينبت في الأرض شيئاً فشيئاً لا يحس الناس بنباته ، فكذلك ما يبدو في القلوب من الزندقة ،والنفاق قد لا يشعر به أصحاب القلوب ، بل يظنون أنهم

---

(١) الفتاوى ١٤٢/٢٨ . (٢) انظر الاستقامة ٣٩٣/١ .

(٣) هو : أبو الفيض ، أو الفياض ، توبان بن إبراهيم الأخميمي المصري ، أحد مشاهير الصوفية وهو من الموالي ، توفي سنة ٢٤٥هـ . انظر ميزان الاعتدال ٣٣/٢ - ٣٤ ، لسان الميزان ٤٣٧/٢ - ٤٣٨ ، الأعلام ١٠٢/٢ .

(٤) الاستقامة ٣٨٣/١ .

(٥) هو : عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي حليف بني زهرة ، أسلم قديماً ، وهاجر هجرتين ، ولازم النبي عليه السلام وكان صاحب ثعلبة ، وكان سادس من أسلم وأول من هاجر بالقرآن .. توفي بالمدينة المنورة سنة ٣٢هـ ودفن بالبقيع . انظر الإصابة ٢١٤/٦ . سير أعلام النبلاء ٤٦١/١ .

(٦) قال الحافظ العراقي في تعليقه على إحياء علوم الدين ١٦٦/٦ المرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم . رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ، ليس في رواية اللؤلوي ورواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً .

ممن تحقق ويكون فيهم شبه كثير ممن تزندق » (١) .

وإذا كان ثمة إنكار فإن الشرع لم يوقع الإنسان المُنكر في حرج ومشقة في حال إرادته الإنكار ، بل راعى المصالح المترتبة على هذا الإنكار ودفع المضار أيضاً من ناحيتين أو طرفين : من ناحية المنكَر عليهم ومن ناحية المنكِر .

في الناحية الأولى يراعى ألاّ يُنكر المنكر إلا بطريقة تزيله أو تخفف منه ولاتزيده . وفي الناحية الثانية يراعى حال الذي يقوم بالإنكار من حيث القدرة والعجز ، ومن حيث حاجته إلى هؤلاء وتأثر هذه الحاجة بالإنكار .

ومن أنواع تأديب أصحاب البدع المظهرين لها والإنكار عليهم تعزيرهم بالهجر ، يقول ابن تيمية : « ... فحكم المسلم يتنوع كما تنوع الحكم في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق مكة وفي المدينة ، فليس حكم القادر على تعزيرهم بالهجرة حكم العاجز ، ولا هجرة من لا يحتاج إلى مجالستهم كهجرة المحتاج » (٢) .

ومن أظهر المنكرات وجب إظهار عقوبته ليرتدع هو وأمثاله ومن توسوس له نفسه بهذا يرتدع . ومن أنواع هذه العقوبات الهجر وغيره « فلا يُسلم عليه ، ولا يرد عليه السلام ، إذا كان الفاعل لذلك متمكناً من ذلك من غير مفسدة راجحة » (٣) . وهذا الإنسان فيه فضائل ومحامد ، ولكن قل أن تجتمع فيه كلها ، خصوصاً القوة والأمانة فاجتماعها في الناس قليل ولهذا قال عمر بن الخطاب (٤) وهو الخبير بالرجال الملهم بكل حال من الأحوال بالصواب والكمال :« اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة » (٥) » (٦) . وعلى هذا فإسناد الأمور إليهم يختلف باختلاف ما عندهم من قدرات وإمكانات ، وكذلك تقويمهم وأقدارهم في واقع الأمة على ضوء ذلك . وإعطاؤهم من إمكانات الدولة وأعطياتها على حسب نفعهم والحاجة إلى إمكاناتهم وقدراتهم .

---

(١) الاستقامة ٣٩٣/١ . (٢) الفتاوى ٢١٦/٢٨ . (٣) الفتاوى ٢١٨/٢٨ .

(٤) هو : عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى القرشي العدوي ، أمير المؤمنين ، ولد بعد الفجار بأربع سنين ، وقيل بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة .. تولى الخلافة بعد أبي بكر ، وكان إسلامه فتحاً على المسلمين ، وفرجاً لهم من الضيق .. استشهد سنة ٢٣هـ بالمدينة المنورة . انظر الإصابة ٧٤/٧ ، تذكرة الحفاظ ٥/١ .

(٥) انظر الفتاوى ٢٥٤/٢٨ .

(٦) لم أجد له ذاكراً في كتب التخريج ، لذا لم أتمكن من ذكر مصدره ، وقد استعنت ببعض المختصين فكان رجع صداهم سلبياً .

ومن ناحية أخرى فإن معرفة ما لدى الشخص من إمكانات وقدرات ومواهب تخولنا اختيار أمثل الأساليب الموصلة إلى أبواب نفسه لغرس الخير فيها وتنميته . وما دام أن الإنسان لا تجتمع فيه كل الفضائل فما لم يجتمع فيه منها فإنه يكون فيه نقص بحسبها ، وهذا قد يوقع البعض في حرج من حيث شعوره بنقص يمنعه من تولى بعض مهام الأمة فيتركه لغيره مما هو مثله عرضة للنقص ، وقد يكون أكثر منه فيه ، وقد يضم إليه فجوراً ، ومن هذا المنطلق فإن ابن تيمية لا يغفر للأبرار ابتعادهم عن ولايات الأمة تورعاً وحرصاً عل براءة الذمة ، فإن الإنسان إذا عمل وسعه واجتهد لا يؤاخذ بما عجز عنه ؛ لأن « ... من ولي ولاية يقصد بها طاعة الله وإقامة ما يمكنه من دينه ومصالح المسلمين ، وأقام فيها ما يمكنه من الواجبات واجتناب ما يمكنه من المحرمات : لم يؤاخذ بما يعجز عنه ، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار ... » [1] .

وبالنسبة للشروط التي تشترط في القضاة والولاة فإنه يلزم تطبيقها والاختيار على ضوئها بحسب القدرة والإمكان ، فلا يعني أن المرء من المسلمين إذا نقص شرطاً من شروط هذه الولاية أن يتركها ويتهرب من الالتزام بها خصوصاً الأبرار ، فـ « ما يشترط في القضاة والولاة من الشروط يجب فعله بحسب الإمكان ، بل وسائر العبادات من الصلاة والجهاد وغير ذلك ، كل ذلك واجب مع القدرة ، فأما مع العجز : فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ... قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [2]، فلم يوجب مالا يستطاع ولم يحرم ما يضطر إليه إذا كانت الضرورة بغير معصية من العبد » [3].

ولا شك أن هذه المرونة والقدرة الفائقة في إعطاء الأمور حقها ناتج من عدم المثالية المتناهية للإنسان ، ومن الخبرة التامة بما كوّن الله العباد عليه وجبلهم به .

فهو يتعامل مع هذا الإنسان وفق شرع خالقه العالم بجبلته . فهناك أمور يلزم الإتيان بها على ما ألزم الله ؛لأن العلم واليقين فيها ممكن ، وهناك أمور يتفاضل الناس في تفاصيلها ودقائقها فيكون الإتيان بها اعتقاداً أو قولاً أو فعلاً على حسب القدرة .

نستوضح ذلك من إجابته على سؤال حول ما يتكلم الناس فيه من أصول الدين ، هل يكفي في ذلك ما يصل إليه المجتهد من غلبة الظن ؟ أو لابد من الوصول إلى القطع ؟

---

(١) الفتاوى ٣٩٦/٢٨ . (٢) سورة المائدة آية (٦) . (٣) الفتاوى ٣٨٨/٢٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ .

قال : « الصواب التفصيل، فإنه وإن كان طوائف من أهل الكلام يزعمون أن المسائل الخبرية التي قد يسمونها مسائل الأصول يجب القطع فيها جميعاً ، ولا يجوز الاستدلال فيها بغير دليل يفيد اليقين ، وقد يوجبون القطع فيها كلها على كل أحد ، فهذا الذي قالوه على إطلاقة وعمومه خطأ مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، وأما التفصيل : فما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ما أوجبه الله من ذلك كقوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(١)] ، وكذلك يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به ، وقد تقرر في الشريعة أن الوجوب معلق باستطاعة العبد كقوله تعالى :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [(٢)] ، وقوله عليه السلام: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) [(٣)] ، فإذا كان كثير مما تنازعت فيه الأمة من هذه المسائل الدقيقة قد يكون عند كثير من الناس مشتبهاً ، لا يُقدر فيه على دليل يفيد اليقين لا شرعي ولا غيره : لم يجب على مثل هذا في ذلك مالا يقدر عليه ، وليس عليه أن يترك ما يقدر عليه من اعتقاد قولٍ غالب على ظنه لعجزه عن تمام اليقين ، بل ذلك هو الذي يقدر عليه ، لا سيما إذا كان مطابقاً للحق ، فالاعتقاد المطابق للحق ينفع صاحبه ويثاب عليه ، ويسقط به الفرض ، إذا لم يقدر على أكثر منه » [(٤)] .

ويقول رحمه الله :« وأما عدم علم الإنسان ببعض الأشياء فهذا من لوازم المخلوق ولا يحيط علماً بكل شيء إلا الله ، فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصاً كالكذب » [(٥)]، وقد يقع المرء في بعض المخالفات من ترك مستحب أو واجب أو فعل محظور لكنه فعله بسبب يعذر به لا يستطيع دفعه من سكر أو ذهاب تمييزه أو إدراكه بشرط أن يكون بغير محظور ولا تفريط فهذا لا يلام عليه .

ومن أقسام الفناء ، الفناء عن شهود ما سوى الله بحيث يغيب بمشهوده عن شهوده، وهو لمن كان شهود الحقائق وعبادة الخالق واحد بحيث لا يقدر على الجمع بينهما ،ولهم وصف العبادة دون الشهادة وفيهم قوة عبادة ومحبة تجذبهم إلى معبودهم ومحبوبهم ، ولا قدرة لهم على معرفة قدرته على الكائنات وما له من الأسماء والصفات[(٦)] ،« فهؤلاء إذا لم يتركوا واجباً لم يضرهم ، وإن تركوا مستحباً مشتغلين عنه بما هو أفضل منه لم ينقلوا عن مقامهم ، وإن اشتغلوا فما تركوه من المستحب بما

---

(١) سورة المائدة آية (٩٨) .
(٢) سورة التغابن آية (١٦) .
(٣) سبق تخريجه في صفحة (١٤٦) .
(٤) الدرء ٥٢/١ - ٥٣ .
(٥) التفسير الكبير ١٦٤/٣ .
(٦) انظر الاستقامة ١٤٢/٢ ، ١٤٣ .

ليس مثله فانتقالهم إلى ذلك الأفضل أفضل إذا أمكن ، والأفضل المقدور عليه من الصالحات خير من الاهتمام بما يعجز عنه ويصد عن غيره ، وإن تركوا واجباً أو فعلوا محرماً مع إمكان العلم والقدرة فهم مؤاخذون على ذلك ، وإن كان مع سقوط التمييز بسبب يعذرون به ، مثل زوال عقل بغير محظور ، أو سكر بسبب غير محظور ، أو عجز لا تفريط فيه فلا ذم عليهم ، وإن كان مع التكليف فسبب الذم قائم ، ثم لهم حكم الله فيهم كما لسائر المؤمنين : من كون الذنب صغيراً أو كبيراً مقروناً بحسنات ماحية أو غير ذلك من أحكام السيئات ، ما لم يخرجوا إلى القسم الثالث وهو فناء الكافرين وهو جعل وجود الأشياء هو عين وجود الحق .. » (١) .

والإنسان يدرك ويستوعب ويهتم بما له حاجة فيه ومنفعة منه ، أو له فيه اهتمام لغرض معين من الأغراض ، ولذلك فإقرار الناس بالله من جهة الربوبية أكثر من إقرارهم من جهة الألوهية (٢) .والنفوس أتم إدراكاً ومعرفة لما يخصها من محبوباتها ومكروهاتها ومنافعها ومضارها ، وما ليس كذلك فمعرفته ليست في درجة الأول ، وما جاء للنفوس وهي محتاجة إليه وذاقت معه الحاجة ، له وقع كبير عليها ، وإذا اقترن مع العلم بالشيء الإحساس بالحاجة إليه ، أو تأثيره أو ثمراته ونتائجه وعواقبه المنظورة كان نفعه أشد وأعظم مما لو كان خبراً مجرداً عن ذلك . وحاجات الناس إلى ما يتعلمونه في حياتهم تختلف من شخص لآخر ، فحاجة زيد إلى العلم لا يلزم أن تكون مثل حاجة عمرو، حتى ولو كان بينهما مماثلة ، فلكلٍ حاجاته التي تخصه أو يهتم بها من معارف وغيرها ،« والمقصود هنا التنبيه على أن حاجة المعين إلى العلم لا تتوقف على العلم بحاجة كل من هو مثله .. ، وأيضاً فالحاجة التي تقترن مع العلم بها ذوق الحاجة، كانت معرفة النفوس بما تحبه وتكرهه وينفعها ويضرها هو أرسخ فيها من معرفتها بما لا تحتاج إليه ، ولا تكرهه ولا تحبه . ولهذا كان ما يعرف من أحوال الرسل وسوء عاقبة المكذبين أنفع من معرفة صدق الرسول وأتباعه مما يفيد العلم فقط . فإن هذا يفيد العلم مع الترغيب والترهيب . فيفيد كمال القوتين العلمية والعملية بنفسه ، بخلاف ما يفيد العلم ، ثم العلم يفيد العمل .

ألا ترى أن الناس يعرفون من أحوال من تتعلق به منافعهم ومضارهم كولاة أمورهم، ومماليكهم ، وأصدقائهم ، وأعدائهم مالا يعلمونه من أحوال من لا يرجونه ولا يخافونه ، ولا شيء أحوج إلى شيء من المخلوق إلى خالقه » (٣) .

---

(١) الاستقامة ٢/ ١٤٣ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٢/٣٠٩ .

(٣) الدرء ٣/١٣٤ .

ثانياً : حاجة الناس إلى الترويح والاستجمام :

يخطئ بعض الدعاة عندما يتصور أن يكون كل أفراد المجتمع في اتجاه واحد من الاهتمامات والإرادات والجد فيها ، فالبعض يرسم في ذهنه صورة لما يجب أن يكون عليه المسلم في حياته كلها وفي قضاء وقته اليومي ، ومن خالف هذه الصورة الذهنية المثالية فهو في نظره ناقص القدر والمقدار ، لا يصلح لأمر من الأمور ، ولا يصلح أن يكون في صف الدعوة والدعاة ، وليس مؤهلاً لأي جانب من جوانب الدعوة ، وإذا قام بالدعوة فإنه يوصف بأوصاف تدل على التنقص والتحقير ، والناس فيهم ذو الهمة العالية والمتوسطة والأقل من ذلك .

وفيهم أنواع من الاهتمامات والقدرات والطاقات ، ولا يمكن أن يكون كل المجتمع في اتجاه العلم الشرعي ، ولا في اتجاه أي علم من العلوم بعينه ، بل بعض الناس لا تميل نفسه إلى القراءة في الكتب ومطالعتها ، وأحياناً يصيب كثيراً من النفوس كلل وملل وسأم فتحتاج إلى أن تخفف هذا عنها ويلزم لها شيء من الترويح ، والتفريج ، والنفوس إذا كلت عميت فتصبح غير قادرة على الأمور الجادة .

وتلاحظ مراعاة الشرع للنفوس ، وعدم الإثقال عليها بالأمور الفكرية والعلمية الجادة ، فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومواعظه ودروسه قصيرة ، وقد أرشد إلى عدم إطالة خطبة الجمعة (١) ، والقرآن الكريم نزل بالتدريج لأنه يحمل التكاليف بالفعل والترك ، حتى العبادة نهى عن تنفير الناس وافتتانهم بها في الإطالة عليهم (٢) . وبعض الناس أوقاته ليست مستغرقة في الأعمال ، فيجد وقت فراغ لا قدرة له بملئه ،

---

(١) عن جابر بن سمرة قال : كنت أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكانت صلاته قصراً ، وخطبته قصراً (١). عن واصل بن حيّان قال : قال أبو وائل : خطبنا عمار فأوجز وأبلغ . فلما نزل قُلنا : يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت . فلو كُنت تَنَفَّستَ ، فقال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ طَول صلاة الرجل ، وقصر خُطبته ، مَئِنَّةٌ من فقهه . فأطيلوا الصلاة واقصرُوا الخُطبة. وإنَّ من البيان سحرا » (٢) [مئنة] أي علامة . (١) ، (٢) أخرجهما مسلم في كتاب الجمعة ٧ باب تخفيف الصلاة والخطبة ١٣ ، رقم الحديث الأول ٨٦٦ ، والثاني ٨٦٩ ، صحيح مسلم ٥٩١/٢ ، ٥٩٤ .

(٢) « عن أبي مسعود الأنصاري قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان ، مما يطيل بنا، فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قطّ أشدَّ مما غضب يومئذ فقال : « يا أيها الناس إنَّ منكم منفرين فأيكم أمَّ الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة » ، صحيح مسلم ٣٤٠/١ ، كتاب الصلاة ٤ ، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ٣٧ ، رقم الحديث ٤٦٦ .

ونفسه تميل إلى اللهو والترفه ، فمثل هذا منعه مما يشغل وقته من الأمور المباحة التي تميل إليها نفسه فيه مضرة عليه لأن النفس لا بد لها من أن تعمل ولا تكون فارغة ، فإذا منعت من أمور اللهو المباحة قد تشتغل بما هو مكروه أو محرم « فلا يمكن حفظ جميع بني آدم من كل ما للشيطان فيه نصيب » [1] . واللذة والسرور من ضروريات الأحياء يقول :« فاعلم أن اللذة والسرور أمر مطلوب ، بل هو مقصود كل حي وكونه أمراً مطلوباً ومقصوداً أمر ضروري من وجود الحي » [2] .

ونفوس الصبيان والنساء تحب اللعب واللهو وتميل إليه ، وتحتاج إلى ذلك في أوقات الأعياد والأفراح كالزواج وقدوم مسافر أكثر من غيرهم . وكذلك حديث العهد بالإسلام يحتاج إلى مراعاة وتأليف . وقسر بعض النفوس على بعض الأمور الجادة ومنعها من بعض ما كانت تعتاده من اللهو المباح يضرها .

ولهذا أذن النبي صلى الله عليه وسلم للأحباش باللعب في الحراب في المسجد تألیفاً لقلوبهم على الإسلام ،وهذا من تيسير الدين والتبشير فيه المأمور به في الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا) [3] ، قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: « والمراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء ، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل ، وكذلك تعلم العلم ينبغي أن يكون بالتدرج ، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً الازدياد بخلاف ضده والله أعلم » [4] ، ومثله من كان من المسلمين في لهو وفجور ثم بدأ يتجه للاستقامة والالتزام ، بل عامة الناس لا بد من تأليف قلوبهم ومراعاة ترغيبهم وتيسير الدين عليهم وتبشير نفوسهم ، وهذا الفقه في الدعوة نابع من مشكاة السلف رضوان الله عليهم ارتضعوه من لبانة النبوة ، وهاك نموذجاً له : « روى أبو وائل رضي الله عنه قال : كان عبدالله – يعني ابن مسعود – يذكر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ، قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم ، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله

---

(١) الاستقامة ٢٨٨/١ . (٢) الاستقامة ١٤٨/٢ .

(٣) فتح الباري ١٦٣/١ . كتاب العلم ، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة كي لا ينفروا ، رقم الحديث ٦٩ . (٤) المرجع السابق ١٦٣/١ .

عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا » [١] .

وقال ابن حجر رحمه الله :« ويستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد في العمل الصالح خشية الملال ، وإن كانت المواظبة مطلوبة لكنها على قسمين : إما كل يوم مع عدم التكلف ، وإما يوماً بعد يوم فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط » [٢] ، ومن جانب آخر بعض الناس يحب في فراغه أن يريض عقله لأن في نفسه ميلا إلى العلوم الرياضية التي فيها عقد وتحتاج في حلها والوصول إليها إلى إعمال الفكر وإجراء العمليات المتعددة ،فإذا وصل إلى ذلك شعر بنشوة وانتصار وسرور ولذة [٣] و « لذات النفوس أنواع » [٤] .

وابن تيمية يبين فوائد اشتغال النفس بمثل هذه العلوم ، وأن الفلاسفة كانوا أول ما يعلمون أولادهم العلم الرياضي ، وأن كثيراً من متأخري أصحابه الحنابلة كانوا يشتغلون بهذه العلوم وأمثالها يقول :« ففي الإدمان على معرفة ذلك [العلم الرياضي : الجبر والهندسة] تعتاد النفس العلم الصحيح والقضايا الصحيحة الصادقة والقياس المستقيم ، فيكون في ذلك تصحيح الذهن والإدراك . وتعود النفس أنها تعلم الحق وتقوله ، لتستعين بذلك على المعرفة التي هي فوق ذلك ، ولهذا يقال : إنه كان أوائل الفلاسفة أول ما يعلّمون أولادهم العلم الرياضي ، وكثير من شيوخهم في آخر أمره إنما يشتغل بذلك لأنه لما نظر في طرقهم ووجدها لا توصل إلى اليقين أخذ يشغل نفسه بالعلم الرياضي ، كما كان يتحرى مثل ذلك من هو من أئمة الفلاسفة كابن واصل [٥] وغيره . وكذلك من متأخري أصحابنا يشتغلون وقت بطالتهم بعلم الفرائض ، والحساب، والجبر والمقابلة ، والهندسة ونحو ذلك ، لأن فيه تفريجاً للنفس وهو علم صحيح لا يدخل فيه الغلط » [٦] .

في نظر ابن تيمية الفلاسفة حينما بحثوا واشتغلوا بمثل هذه العلوم لم

---

(١) فتح الباري ١٦٣/١ . كتاب العلم ، باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة ، رقم الحديث ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ١٦٣/١ . (٣) انظر الفتاوى ١٢٨/٩ ، ١٢٩ . (٤) الفتاوى ١٣٠/٩ .

(٥) هو : واصل بن عطاء المعتزلي المعروف بالغزالي كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين كان يلثغ بالراء غيناً ، فلاقتداره وتوسعه كان يتجنب الوقوع في لفظة فيها راء .. ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ طرده الحسن عن مجلسه لما قال : الفاسق لا مؤمن ولا كافر ، وانضم إليه عمرو بن عبيد واعتزلا حلقة الحسن البصري فسمّوا المعتزلة .. وكانا رأسي الاعتزال توفي سنة ١٣١هـ بالمدينة . انظر وفيات الأعيان ٢٧/٦ . سير أعلام النبلاء ٤٦٤/٥ .

(٦) الفتاوى ١٢٩/٩ .

يكونـوا يتسلون ويترفهون ، وإنما كانـوا يتكلمون فـيها لمصالح يـرونهـا وهـي : مـعرفة حسـاب الأفـلاك وعمارة الدنيا [1]. وإن كان الغرض الأول « غـاية لبعض النـاس الذين يتلذذون بذلك ... » [2].

فالتـلذذ والتسلـي واللهو إذا كـان لا بد للمرء منه ، فليكـن بما له مردود عـقلي أو بدني مما تبيحه الشريعة المطهرة .

واللهـو قد يكون قـولاً وكلاماً يتـحدث الناس فيه ويديرونـه بينهـم نقاشاً وإعـجازاً وإلغازاً لبعض ، كمسائل الفرائض ، وهي نوع من الحساب ، وكالجبر ونحوه .

وقد يكـون فعلاً وعملاً بـدنياً يحتـاج إلى جهد عقـلي كركوب الخيـل ، والرمي ، والسباق ، والمصارعة ، والسباحة ونحو ذلك من الأمور المندوبة أو المباحة .

« ... جاء عن عمـر بن الخطاب [3] أنه قال : إذا لهـوتم فالهوا بالرمـي وإذا تحدثتم فتحدثوا بالفرائض [4] ، فإن حسـاب الفرائض علـم معقول مـبني على أصـل مشروع ، فتبقى فيه رياضة الـعقل وحفظ الشرع لكن ليس هو علماً يطـلب لذاته ، ولا تكمل به النفس » [5] ،ويقول عـن العلوم الريـاضية أيضاً : « ... إن هـذا العلم – هو الـذي تقوم عليه بـراهين صادقة لكن – لا تـكمل بذلك نفـس ، ولا تنجو به من عـذاب الله ، ولا تنال به سعادة ... لكن قد تلتذ النفس بذلك كمـا تلتذ بغير ذلك ، فإن الإنسان يلتذ بعلم ما لم يكن يعلمه ، وسماع ما لم يكن يسمعه ، إذا لم يكن مشغولاً عن ذلك بما هو أهم عنده منهم ، كما يلتذ بأنواع من الأفعال التي هي من جنس اللهو واللعب » [6] .

وابن تيمية يرى أن الاشتغال بهذه العلوم أمر جائز ليقضي الإنسان وقت فراغه بها، وهي ذات أثر تربوي في النـفس فهذا لهو مفيد . والرياضة الجهاديـة مأمور بها ، ويجوز أخذ العوض عليها لما لها من أثر فعـال في إذكاء روح التنافس الذي له مردود مباشر في إعطاء مـهارات قتالـية تزيد كـفاءة المسلـم في مواجهـة الأعداء ،سواء نوى ذلـك أم لـم ينوه، أراده أم لم يرده ، فـلا بد أن تعطي هذه القدرة والكفاءة « ألا ترى أن في الحديث

---

(١) انظر الفتاوى ٩/١٢٦ ، ١٣٠ .

(٢) الفتاوى ٩/١٣٠ . (٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٩٩) .

(٤) ضعيف ، أخرجه الحاكم ٤/٣٣٣ ، كتاب الفرائض من طريق أبي هلال الراسبي عن قتادة ، عن سعيد ابن المسيب قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري : إذا لهوتم فالهوا بالرمي وإذا تحدثتم فتحدثوا بالفرائض . وصحيح الحاكم إسناده موقوفاً ووافقه الذهبي ، انتهى . قلت : أبوهلال الراسبي هو محمد بن سليم ، قال الحافظ في التقريب : صدوق فيه لين .

(٥) الفتاوى ٩/١٢٩ . (٦) الفتاوى ٩/١٢٨ .

المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل) (١) » (٢) فقد نهى عن السبق في غير هذه الثلاثة .

والنهي عن السبق في غير هذه الثلاثة لا يعني عدم جواز فعل غيرها من غير سبق ،والدليل على ذلك أن غيرها من أنواع الرياضة قد فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وأذن فيه ، وكذلك بعض صحابته ، لكن من غير عوض « فالمصارعة قد تجوز، كما صارع النبي صلى الله عليه وسلم ركانة بن يزيد (٣) (٤) ، وتجوز المسابقة بالأقدام ، كما سابق النبي صلى الله عليه وسلم عائشة (٥) (٦) ، وكما أذن لسلمة بن

---

(١) حديث حسن ، عن أبي هريرة ، أخرجه أبو داود كتاب الجهاد باب في السبق . سنن أبي داود ٦٣/٣ رقم ٢٥٧٤ والترمذي كتاب الجهاد ، باب البرهان والسبق ، وقال حسن . سنن الترمذي ٢٠٥/٤ رقم ١٧٠٠ ، والنسائي كتاب الخيل ، باب السبق . سنن النسائي ٢٢٦/٦ رقم ٣٥٨٥ . وأحمد في مسنده ٢٥٦/٢ ، ٣٥٨ ، ٤٢٥ ، ٤٧٤ .

(٢) الفتاوى ٢١٥/٣٠ .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه البيهقي عن سعيد بن جبير ، كتاب السبق والرمي ، باب ما جاء في المصارعة، وقد ضعفه البيهقي ، السنن الكبرى ١٨/١٠ . عن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة أو ركانة بن يزيد ومعه عير له فقال له : هل لك أن تصارعني ؟ فقال : ما تبتغيني ؟ قال : شاة من غنمي فصارعه ، فصرعه ، فأخذ الشاة – ثم عاد المصارعة مرة أخرى فصرعه وانتهت بإسلامه ورد عليه النبي صلى الله عليه وسلم غنمه . رواه أبو داود في المراسيل .

(٤) هو : ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف المطلبي ، صارع النبي صلى الله عليه وسلم فصرعه الرسول .. أسلم عام الفتح ، وقيل كان إسلامه قبل الفتح وذلك عقب مصارعته الرسول .. نزل المدينة ، وبقي إلى خلافة عثمان ، ويقال توفي سنة ٤١هـ ، وقيل مات في أول خلافة معاوية . انظر الإصابة ٣١٧/٣ ، تهذيب التهذيب ١٦٩/٢ .

(٥) أخرجه أبو داود عن عائشة في كتاب الجهاد ، باب السبق على الرجل ، سنن أبي داود ٦٥/٣ رقم ٢٥٧٧ . وابن ماجه في كتابه النكاح باب حسن معاشرة النساء ، سنن ابن ماجه رقم /١٩٧٩ . عن عائشة قالت : سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني ، فسبقني ، فقال : هذه بتلك .. رواه أحمد وأبو داود .

(٦) هي : عائشة بنت أبي بكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو القرشية التميمية ، أم المؤمنين زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق .. تزوجها الرسول قبل مهاجره بعد وفاة خديجة وذلك قبل الهجرة ببضعة عشرة شهراً وقيل بعامين .. ولدت سنة ٩ ق هـ بمكة ، وتوفيت بالمدينة سنة ٥٨هـ في خلافة معاوية . انظر سير أعلام النبلاء ١٣٥/٢ ، وفيات الأعيان ١٦/٣ .

الأكوع[1] [2] ، في المسابقة في غزوة الغابة [3] وذي قرد [4] ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :(كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل ، إلا رمية بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبة امرأته ، فإنها من الحق) [5] .

وهذا اللهو الباطل من أكل المال به كان أكلاً بالباطل لأنه « ليس كل ما جاز فعله جاز إعطاء العوض عليه » [6] .

وهذا اللهو الذي يشير الحديث إلى أنه باطل يرخص فعله لبعض الناس الذين تقتضي المصلحة أن يرخص لهم ، إما تأليفاً لقلوبهم أو تفريحاً لها لأنه لولا هذه الرخصة لوقعت فيما هو أعظم مما رخص لها فيه ، وهذا من مراعاة مصالح النفوس البشرية من أجل المحافظة على ودها للحق ، وقبولها له ، ومن أجل جبرها فيما ألفته .

ويرى ابن تيمية أن أنواعاً من اللهو الباطل يكون فعلها خيراً من تركه لبعض الناس لما يترتب عليها من المصالح ودفع المفاسد ، ولكن يلزم أن يكون الترخيص بهذا الفعل خاضعاً لضوابط « والباطل من الأعمال هو ما ليس فيه منفعة ، فهذا يرخص فيه للنفوس التي لا تصبر على ما ينفع ، وهذا الحق في القدر الذي يحتاج إليه في الأوقات التي تقتضي ذلك : الأعياد ، والأعراس ، وقدوم الغائب ، ونحو ذلك

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨٢/٢ - ٨٤ . عن سلمه بن الأكوع قال : بينما نسير ، وكان رجل من الأنصار لا يسبق شدًا ، فجعل يقول ألا نسابق إلى المدينة ، هل من مسابق ؟ قال : قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ذرني فلأسابق الرجل ، قال : إن شئت ، قال : فسبقته إلى المدينة ، رواه أحمد ومسلم .

(٢) هو : سلمة بن عمرو بن سنان الأكوع ، صحابي جليل، بايع عند الشجرة على الموت ، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات .. توفي سنة ٧٤هـ وقيل ٦٤هـ ، وقيل غير ذلك . انظر الإصابة ٢٣٣/٤ ، الأعلام ١١٣/٣ .

(٣) غزوة الغابة هي : غزوة ذي قرد .

(٤) غزوة ذات قرد : هي الغزوة التي أغارت فيها غطفان على لقاح الرسول صلى الله عليه وسلم وهي ترعى بذي قرد ، وأبلى سلمة بن الأكوع فيها بلاءً حسناً واستنفذ اللقاح منهم ، واستلب منهم ثلاثين بردة ، وعندما أدرك الرسول سلمة قال له سلمة : يا نبي الله قد حميت القوم الماء وهم عطاش ، فابعث إليهم الساعة ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : يابن الأكوع ملكت فأسْجِح . وقرد اسم ماء على نحو بريد مما يلي غطفان ، وقيل على مسافة يوم . انظر فتح الباري ٤٦٠/٧ .

(٥) حديث صحيح ، عن عقبة بن عامر ، أخرجه الترمذي كتاب الجهاد ، باب ما جاء في فضائل الرمي في سبيل الله رقم ١١ قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . سنن الترمذي ١٧٤/٤ رقم ١٦٣٧ . وأبو داود كتاب الجهاد ، باب في الرمي رقم ٢٤ سنن أبي داود ٢٨/٣ رقم ٢٥١٣ .

(٦) الفتاوى ٢١٦/٣٠ .

وهذه نفوس النساء والصبيان ، فهن اللواتي كن يغنين في ذلك على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ويضربن بالدف ، فأما الرجال فلم يكن ذلك فيهم .

وقد تقدم أن الرخصة في الغناء أوقات الأفراح للنساء والصبيان أمر مضت به السنة، كما يرخص لهم في غير ذلك من اللعب، ولكن لا يجعل الخاص عاماً » (١) .

« فعلم أن هذا وإن كان من الشيطان ، لكن الرخصة فيه لهؤلاء لئلا يدعوهم إلى ما يفسد عليهم دينهم ، إذ لا يمكن صرفهم عن كل ما تتقاضاه الطبائع من الباطل ... ، وكونه من عمل الشيطان لم يمنع ذلك من أن يكون قد وقع به ما هو أحب إلى الشيطان منه ، ويكون إقرارهم على ذلك من المشروع ، فهذا أصل ينبغي التفطن له .

والشيطان يوسوس لبني آدم في أمور كثيرة من المباحات ، كالتخلي ، والنكاح ، وغير ذلك ، وهو يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فلا يمكن حفظ بني آدم من كل ما للشيطان فيه نصيب ، لكن الشارع يأمر بالتمكن من ذلك ، كما شرع التسمية والاستعاذة عند التخلي والنكاح وغير ذلك

ولو لم يفعل الرجل ذلك لم نقل : إنه يأثم بالتخلي ، ونكاح امرأته ونحو ذلك(٢) بحجة أنه كان للشيطان نصيب ومشاركة في هذا الفعل ، وذلك أن المسلم محاسب على وقته كما جاء في الحديث : (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع : عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ...) (٣) الحديث .

واللهو الباطل الذي لا منفعة فيه دنيوية ولا أخروية يضيّع عمر الإنسان بما لا فائدة فيه .

ونذكر هنا بعض القواعد الجميلة التي تستفاد من كلام ابن تيمية ، أو نص عليها .

بعض الناس : « لا يمكن صرفهم عن كل ما تتقاضاه الطبائع من الباطل » خصوصاً الأطفال والنساء ، ويقول : « فلا يمكن حفظ جميع بني آدم من كل ما للشيطان فيه نصيب » (٤) فمجرد كون الفعل باطلاً إنما يقتضي عدم منفعته ، ولا يقتضي تحريمه إلا أن يتضمن مفسدة (٥) . واللذة التي تلهو النفوس بها وتتمتع بزينتها وحلاوتها وجمالها

---

(١) الفتاوى ٢١٦/٣٠ (٢) الاستقامة ٢٧٥/١ - ٢٨٧ .

(٣) سنن الترمذي ٣٦/٤ رقم ٢٥٣٢ كتاب القيامة باب ١ صفة القيامة وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » وانظر مجمع الزوائد ٣٤٦/١٠ « باب ما جاء في الحساب » ، وصحيح الجامع ١٤٨/٦ رقم ٧١٧٦ ، ٧١٧٧ .

(٤) الاستقامة ٢٨٧/١ . (٥) انظر الاستقامة ٢٧٥/١ .

وتكون لذة مطلوبة لنفسها ، ذاتها فهذه قد تذم ، وقد تحمد .

و « إنما تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها ، أو منعت لذة خيراً منها ، وتحمد إذا أعانت على اللذة المستقرة ، وهو نعيم الآخرة التي هي دائمة عظيمة كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١) ... و « الدنيا متاع تتمتع بها إلى غيرها ، والآخرة هي المستقر، وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها إنما هي متاع ... ووسيلة إلى لذات الآخرة وكذلك خلقت ، فكل لذة أعانت على لذات الآخرة فهو مما أمر الله به ورسوله ، ويثاب على تحصيل اللذة بما يثوب إليه منها من لذات الآخرة التي أعانت هذه عليها ، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه (الله) من أكله ، وشربه ، ولباسه ، ونكاحه ... ولذات جسده ونفسه وروحه من اللذات الحسية والوهمية والعقلية . وكل لذة أعقبت ألماً في الدار الآخرة ، أو منعت لذة الآخرة فهي محرّمة مثل لذات الكفار والفساق بعلوهم في الأرض وفسادهم ...

وأما اللذة التي لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألماً ولا تمنع لذة دار القرار ، فهذه لذة باطلة إذ لا منفعة فيها ولا مضرة ... وهي لا بد أن تشغل عمّا هو خير منها في الآخرة ، وإن لم تشغل عن أصل اللذة في الآخرة ... وهذا ... كقوله صلى الله عليه وسلم لعمر لما دخل وعنده جواري يضربن بالدف فأسكتهن لدخوله ، وقال:(إن هذا رجل لا يحب الباطل) (٢) ، فإن هذا اللهو فيه لذة ولولا ذلك لما طلبته النفوس .

ولكن ما أعان على اللذة المقصودة من الجهاد والنكاح فهو حق ، وأما ما لم يعن على ذلك فهو باطل ، ولا فائدة فيه . ولكن إذا لم يكن فيه مضرة راجحة لم يحرم ولم ينه عنه ، ولكن قد يكون فعله مكروهاً ، لأنه يصد عن اللذة المطلوبة ، إذ لو اشتغل اللاهي حين لهوه بما ينفعه ويطلب له اللذة المقصودة لكان خيراً له .

والنفوس الضعيفة ، كنفوس الصبيان والنساء ، قد لا تشتغل – إذ تركته – بما هو خير منها لها ، بل قد تشتغل بما هو شر منه ، أو بما يكون التقرب إلى الله بتركه ، فيكون تمكينها من ذلك من باب الإحسان إليها والصدقة عليها ، كإطعامها ، وإسقائها ، فلهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :إن بعض اللهو من الحق . وكان الجواري الصغيرات يضربن بالدف عنده وكان صلى الله عليه وسلم يمكنهن من عمل هذا الباطل

(١) سورة يوسف آيتا (٥٦ ، ٥٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد /٣٤٢ ، باب من مدح في الشعر وليس فيه ذكر الجواري .

بحضرته إحساناً إليهن ورحمة بهن وكان هذا االأمر في حقه لا يؤمر أحد سواهن به .

... فالنبي صلى الله عليه وسلم يبذل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألفها به على الحق المأمور، ويكون المبذول مما يلتذ فيه الآخذ ويحبه ، لأن ذلك وسيلة إلى غيره .

ولا يفعل صلى الله عليه وسلم ذلك مع من لا يحتاج إلى ذلك كالمهاجرين والأنصار، بل بذل لهم أنواعاً أخرى من الإحسان والمنافع في دينهم ودنياهم .

... ومحبة النفوس للباطل نقص ، لكن ليس كل الخلق مأمورين بالكمال ولا يمكن ذلك فيهم ، فإذا فعلوا ما به يدخلون الجنة لم يَحرُم عليهم ما لا يمنعهم من دخولها .

وجنس اللذة لا يذم إلا لمعارض راجح من فوات منفعة أو دخول مضرة وتحمد إذا كانت مقصودة أو معينة على المقصود » (١) .

وطبيعة النفوس البشرية لا بد أن تلتذ بالمباحات ، والذين يحرمونها من تلك اللذة بحجة المجاهدة أو الزهد فيحرمون عليها ما أباحه الله لها لا بد أن يقعوا في جنسه من المحرم ، يقول رحمه الله :« والمجاهدين : من جاهد نفسه في الله ، وأما المبتدعون في الزهد والعبادة السالكون طريق الرهبان فإنهم قد يزهدون في النكاح وفضول الطعام والمال ونحو ذلك ، وهذا محمود ، لكن عامة هؤلاء لا بد أن يقعوا في ذنوب من هذا الجنس ... فيبتلون بالميل إلى الصور المحرمة من النساء والصبيان ما لا يبتلى به أهل السنة المتبعون للشريعة المحمدية » (٢).

وبعض أهل التصوف المنحرف حين رأى أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده ، وألا يكون لأحدهم إرادة أصلاً « فلازموا الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات » (٣) .

ثالثاً : محبة الجمال والاستجمام به :

والإنسان يحب الأشياء الجميلة ويُسَرُّ بالنظر والاستماع إليها « لأن النفس مجبولة على حب الصور الجميلة » (٤) .وهذا الحب للأشياء قد يزداد إلى أن يصل بالإنسان إلى حد تفسد معه حاله . كمن يعشق امرأة أو يعشق خيلاً ، أو نحو ذلك من الدواب والثياب أو الولد ، فإن هذا نوع من الفتنة التي تؤدي به إلى الهلكة . وأما « إذا خلا

---

(١) الاستقامة ١٥١/٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) التفسير الكبير ١٤٨/٤ ، ١٤٩ ، وانظر / ١٤١ ، ١٤٤ .
(٣) الاستقامة ١٣٤/٢ .   (٤) التفسير الكبير ١٤٦/٤ .

عن المفسدة الراجحة ، مثل أن يحب امرأته وجاريته حباً معتدلاً ، أو يحب مالا فتنة فيه ، كحبه للجميل من الدواب والثياب ، ويحب ولده وأباه وأمه ، ونحو ذلك من محبة الرحم ، كنوع من الجمال ، والحب المعتدل فهذا حسن »[1] .ولأن الإنسان يحب الشيء الحسن والجميل وما به زينة ، فإن الكتاب والسنة وعلماء الأمة يستعملون لأمور الخير تسميات جميلة وحسنة لأنها تجعله يقبل على المسمى بشوق ورغبة . وأيضاً هو يكره ما يضادها من الأسماء ، فأطلق الكتاب والسنة وعلماء الأمة الأسماء القبيحة والسيئة والدنسة على الأعمال الفاسدة ، لأن هذا ينفره من المسمى ويجعله يحجم عنه [2]. « ومن ذلك حديث أبي ذر [3] المشهور وقد رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون له ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يكون فيها مع أصحابه الذين يخبرونه عن ذات نفسه ، وساعة يخلو فيها بلذته فيما يحلُّ ويجمل) [4] فذكر الحل والجمال» [5] ، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات فبيّن أنه لا بد من اللذات المباحة الجميلة فإنها تعين على تلك الأمور .

ولهذا ذكر الفقهاء « أن العدالة هي الصلاح في الدين والمروءة باستعمال ما يجمله ويزينه ، وتجنب ما يدنسه ويشينه ، وكان أبو الدرداء [6] رضي الله عنه يقول : إني لأستجم نفسي بالشيء من الباطل ، لأستعين به على الحق [7] – والله سبحانه إنما خلق اللذات والشهوات في الأصل لتمام مصلحة الخلق ، فإنهم بذلك يجتلبون ما ينفعهم ، كما خلق الغضب ليدفعوا به ما يضرهم ، وحرم من الشهوات ما يضر تناوله ، وذم من اقتصر عليها ، فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق ، فهذا من الأعمال الصالحة ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (في

---

(١) الاستقامة ١/٤٤٧ .

(٢) انظر الاستقامة ١/٣٦٣ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٧٣) .

(٤) أخرجه ابن حبان ، كتاب العلم باب السؤال للفائدة عن أبي ذر أثناء حديث طويل ، موارد الظمآن رقم/٩٤ .

(٥) الاستقامة ١/٣٦٣ .

(٦) هو : عويمر بن زيد بن قيس ، ويقال عويمر بن عامر ويقال عويمر بن عبدالله ، وقيل ابن ثعلبة الأنصاري الخزرجي .. صحابي جليل حكيم هذه الأمة ، وسيد القراء بدمشق .. تأخر إسلامه إلى يوم بدر وشهد أحداً ، وحفظ القرآن عن الرسول .. توفي بالشام سنة ٣٢هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٢/٣٣٥ ، تذكرة الحفاظ ١/٢٤ .

(٧) كنز العمال ٣/ رقم الحديث ٨٤٢٠ ورقم ٨٤٩٠ .

بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول اللـه أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها اجر؟ قال :أرأيتم لو وضعها في حرام أما يكون عليه وزر ؟ قالوا : بلى ، قال : فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال) (١) . فالأعمال يعتبر فيها المقاصد والنيات وقد تتحول الأمور المباحة إلى عبادة يثاب على فعلها نظراً لأنه استعملها بنية الخير والإعانة عليه (٢): «فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله ، وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته ... وكما أن العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، فقد شرع أيضاً كل ما يعين على ذلك ، فينبغي تيسير طريق الخير والطاعة والإعانة عليه ، والترغيب فيه بكل ممكن ، مثل أن يبذل لولده وأهله أو رعيته ما يرغبهم في العمل الصالح من مال ، وثناء ، أو غيره ، ولهذا شرعت المسابقة بالخيل ، والإبل ، والمناضلة بالسهام ، وأخذ الجعل عليها لما فيه من الترغيب في إعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله ، حتى كان النبي صلى الله عيه وسلم يسابق بين الخيل ، هو وخلفاؤه الراشدون ، ويخرجون الأسباق من بيت المال . وكذلك عطاء المؤلفة قلوبهم ، فقد روى « أن الرجل كان يسلم أول النهار رغبة في الدنيا فلا يجيء آخر النهار إلا والإسلام أحب إليه مما طلعت عليه الشمس » (٣) .

وهذا البذل والتوسعة من أجل الترغيب والتيسير في فعل الطاعات والأعمال الصالحة لا يعني الانطلاق في هذا الأمر من دون ضوابط . فالبعض قد يتوسع في هذا الأمر فيفتح الأبواب من غير قيد فيقع في الشر والمعاصي وهو يريد المصلحة فوقع في المفسدة .

« وكذلك الشر والمعصية : ينبغي حسم مادته ، وسد ذريعته ، ودفع ما يفضي إليه. إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة ، مثال ذلك، ما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :(لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يومين إلا معها زوج أو ذي محرم) (٤) ، فنهى صلى الله عليه وسلم عن الخلوة بالأجنبية ، والسفر بها ، لأنه ذريعة إلى الشر » (٥) .

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه كتاب الزكاة ، باب بيان أنه اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ، صحيح مسلم ٦٩٧/٢ .

(٢) انظر الباب الثاني الفصل الثاني « أصل العبادة » .

(٣) الفتاوى ٣٧٠/٢٨ .

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة بألفاظ مقاربة في عدد من الأحاديث ، كتاب الحج رقم ١٥ ، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره رقم ٧٤ ، رقم الحديث يبدأ من ٤١٣ - ٤٢٤، صحيح مسلم ٩٧٧/٢ .

(٥) الفتاوى ٣٧٠/٢٨ .

والحكم العام أن زينة الحياة الدنيا فتنة ، فمن أقبل عليها رغبة في لذاتها فهو مفتون، وقد حذرنا الإسلام منها « والنظر إلى زينة الحياة الدنيا فتنة ، فقال تعالى :﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴾ [1] الآية . والنظر الذي فيه ثمرة تعظيم الخالق مطلوب ومأمور: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.. ﴾ [4] . فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها منهي عنه ، والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكير والاعتبار مأمور به مندوب إليه ، وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدفع شر أولئك وإزالته فمأمور به ، وكذلك رؤية الاعتبار شرعاً في الجملة فالعين الواحدة ينظر إليها نظراً مأموراً به ومنهياً عنه »[5] .

ويحذر ابن تيمية من الخطأ في النظر إلى المنظورات ، وأنه يلزم سلامة هذا النظر من أن يكون نظر فتنة ، فيقول : « وقد تحصل للعين فتنة بنظر منهي عنه ، وهو يظن أنه نظر عبرة » [6] .

المطلب الثاني : الفروق الفردية :

لم يخلق الله هذا الإنسان على سمة وشكل واحد في الصورة ، بل خلقهم في أشكال وصور متنوعة حتى يتم التمييز بينهم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ ... ﴾ [7] .

وهذا الاختلاف ليس في الشكل الظاهر فقط ، بل يتبعه اختلاف في القدرات العقلية والنفسية ،وابن تيمية رحمه الله أدرك هذه الحكمة الإلهية في الناس، يقول : «والله تعالى قد فاوت بين الناس في قوى الأذهان كما فاوت بينهم في قوى الأبدان»[8]. ويقول مبيناً أن هناك فروقاً بين الشباب والشيوخ في القدرات العقلية والبدنية : « فالشيخ

(١) سورة طه آية (١٣١) . (٢) سورة الغاشية آية (١٧-٢٠) .
(٣) سورة يونس آية (١٠١) . (٤) سورة سبأ آية (٩) . (٥) التفسير الكبير ٣١٠/٥ ، ٣١١ .
(٦) التفسير الكبير ٣١١/٥ . (٧) سورة الروم آية (٢٢) . (٨) التفسير الكبير ٤٥/٤ ، وانظر ٣٧١/٣ .

وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب » (١) ،فرسم منهجه الدعوي التربوي على ضوء ذلك فجاء تعامله وتقويمه وتربيته وتعليمه وحكمه على الناس في أتم الإتقان والموضوعية والإحكام ، فهو يرى أن علم الناس للأمور وإدراكهم للحقائق ليس في درجة واحدة ، فالبدهي عند قوم لا يكون كذلك عند آخرين ، وقد يعلم بعض الناس شيئاً ويعتبره ظاهراً جلياً ، وآخرون لا يكون عندهم كذلك ، وبعض الحقائق العلمية أو الغيبية إذا عرضت على قوم أدركتها عقولهم ، وإذا عرضت على آخرين فإنها قد تحدث لهم فتنة واضطراباً وشكا .

يقول رحمه الله أقوالاً تبين تلك الحقائق التي ذكرتها منها : « .. ثم من شأن الإنسان أن يستدل بالظاهر على الخفي ، لكن الظهور والخفاء من الأمور النسبية ، فقد يظهر لهذا مالا يظهر لهذا ، وقد يظهر للإنسان في وقت ما يخفى عليه في وقت آخر ، فلهذا أمكن أن يستدل بهذا على ذاك ، وبذاك على هذا إذا قدر أن هذا أظهر من ذاك تارة ، وذاك أظهر من هذا أخرى ، إما بحسب شخصين ، وإما بحسب حالين »(٢) .

ويراعي القدرة في الفهم حتى في أصول الدين فقد يمنع عن الكلام ، فيما يعجز عن فهمه بعض الأشخاص في بعض الأحوال حتى لا يكون فتنة لهم وضلالاً كقول عبدالله بن مسعود(٣):« ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » (٤) .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن تيمية رحمه الله : « وقد روي عن ابن القاسم (٥) قال : سألت مالكاً عن من يحدث الحديث : (إن الله خلق آدم على صورته) (٦) . والحديث : (إن الله يكشف عن ساقه يوم القيامة) (٧)، وأنه يدخل في النار يده حتى

---

(١) التفسير الكبير ٣٨٦/٦ .

(٢) الدرء ٣٠٣/٣ . (٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٩٨) .

(٤) رواه مسلم مع اختلاف في بعض الألفاظ يسير في المقدمة ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١١/١ .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (١٩٣) .

(٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة رواه البخاري كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام فتح الباري ٣/١١ . ومسلم كتاب الجنة ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٢١٨٣/٤ .

(٧) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري أثناء حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ فتح الباري ٤٢٠/١٣ - ٤٢١ . ومسلم كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية صحيح مسلم ١٦٧/١ .

يخرج من أراد) [1] ، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً ونهى أن يتحدث به أحد ...

وابن القاسم إنما سأل مالكاً لأجل تحديث الليث [2] بذلك ، فيقال : إما أن يكون ما قاله مالك مخالفاً لما فعله الليث ونحوه أو ليس بمخالف ، بل يكره أن يتحدث بذلك لمن يفتنه ذلك ولا يحمله عقله ... [وقد كان مالك يترك رواية أحاديث كثيرة لكونه لا يأخذ بها ولم يتركها غيره ، فله في ذلك مذهب] .

فغاية ما يعتذر لمالك أن يقال : كره أن يتحدث بذلك حديثاً يفتتن المستمع الذي لا يحمل عقله ذلك ، وأما إن قيل إنه كره التحدث بذلك مطلقاً فهذا مردود على من قاله»[3] . ويقول : « فإنه ليس كل ما كان معلوماً متيقناً لبعض الناس يجب أن يكون معلوماً متيقناً لغيره . وليس كل ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمه كل الناس ويفهمونه » [4] .

ويقول عن الصفات الإلهية :« فالكيف هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، وأما نفس المعنى الذي بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه » [5] ، وعلى هذا فالمصلحة التربوية للأفراد تقتضي أن « ينهى بعض الناس عن أن ينظر فيما يعجز عن فهمه ومعرفة الحق فيه من الباطل خوفاً من أن يزل ذهنه فيضل ، ولا يمكن هداه ، فالخوف يكون فيما لا يعلم حاله ، أو لا يعلم حال مالكه وإن كان حقاً ، وأما الكلام المخالف للنصوص فهو في نفسه باطل فالنهي عنه كالنهي عن الكذب والكفر » [6].

والقضايا التي هي من أصول الدين ويراد إيصالها إلى المدعوين بطريق لا يفتنهم يكون « الكلام فيها بالتدريج مقاماً بعد مقام هو الذي يحصل به المقصود ، وإلاّ فإذا هجم على القلب الجزم بمقالات لم يحكم أدلتها وطرقها والجواب عما يعارضها كان إلى دفعها والتكذيب بها أقرب منه إلى التصديق بها .. » [7] .

---

(١) الحديث عند البخاري في كتاب التفسير باب (٢) باب يوم يكشف عن ساقه رقم ٤٩١٩ .

(٢) هو : الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي المصري إمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً ، أصله من خراسان ، وقيل من أصبهان ، ولد بقرقشندة (على نحو أربع فراسخ من الفسطاط) سنة ٩٤هـ كان من الكرماء الأجواد .. توفي سنة ١٧٥هـ بالقاهرة .. قال عنه الإمام الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به . انظر سير أعلام النبلاء ١٣٦/٨ ، تهذيب التهذيب ٦٠٨/٤ ، وفيات الأعيان ١٢٩/٤ ، تذكرة الحفاظ ٢٢٤/١ .

(٣) التفسير الكبير ٣٣٠/٤ . (٤) الدرء ٢٧٧/١ .

(٥) التفسير الكبير ٤٥٠/٧ . (٦) الدرء ٢٨٨/٧ . (٧) الفتاوى ١٥٨/٨ .

وإذا كان ابن تيمية يؤكد على مراعاة الفروق الفردية ، فإن هذا لا يعني إسقاط واجبات الشريعة عن البعض أو التناقض في المعلومات؛لذا فإنه ينبه على هذه المسألة بقوله: « وأما قول القائل : إن النبي صلى الله عليه وسلم خص كل قوم بما يصلح لهم ... الخ . فهذا الكلام له وجهان : إن أراد به أن الأعمال المشروعة يختلف الناس فيها بحسب اختلاف أحوالهم فهذا لا ريب فيه ، فأمر الله لعباده قد يتنوع بتنوع أحوالهم ... وإن أراد به أن الشريعة في نفسها تختلف وأن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب زيداً بخطاب يناقض ما خاطب به عمراً أو أظهر لهذا شيئاً يناقض ما أظهره لهذا ، كما يرويه الكذابون : أن عائشة سألته هل رأيت ربك ؟ فقال : لا. وسأله أبوبكر فقال : نعم . وأنه أجاب عن مسألة واحدة بجوابين متناقضين باختلاف حال السائلين ، فهذا من كلام الكذابين المفترين ، بل هو من كلام الملاحدة المنافقين »(١) . والواجبات الشرعية والعقلية ترتيبها يختلف باختلاف أحوال الناس (٢) « فينبغى أن يعلم أن ترتيب الواجبات فى الشرع واحداً بعد واحد ، ليس أمراً يستوي فيه جميع الناس - بل هم متنوعون في ذلك - فكما أنه قد يجب على هذا ما لا يجب على هذا ، فكذلك قد يؤمر هذا ابتداءً بما لا يؤمر به هذا ، فكما أن الزكاة يؤمر بها بعض الناس دون بعض ، وكلهم يؤمر بالصلاة ، فمن كان يحسن الوضوء وقراءة الفاتحة ونحو ذلك من واجباتها - أمر بفعل ذلك ومن لم يحسن ذلك أمر بتعلمه ابتداءً ، ولا يكون أول ما يؤمر به هذا من أمور الصلاة هو أول ما يؤمر به هذا » (٣) .

ويقول أيضاً : « وأما ما وجب على أعيانهم [أي المسلمين] فهذا يتنوع بتنوع قدرهم وخاصتهم ومعرفتهم وما أمر به أعيانهم ، فلا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك ، ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها ، ويجب على المفتي والمحدث والمجادل ما لا يجب على من ليس كذلك » (٤) .

وهكذا الواجبات العقلية ، إذا قيل بالوجوب العقلي يتنوع الناس في ترتيبها ، وكما أنهم متنوعون في ترتيب الحصول علماً وعملاً ... ويتنوعون في الحصول وترتيب الحاصلات لم يمكن أن يجعل ما يخص بعضهم شاملاً لجميعهم » (٥) .

والناس يختلفون في القدرة على معرفة الأدلة والوصول إليها ، وكذلك القدرة

---

(١) التفسير الكبير ٦٣/٢ ، ٦٤ ، وانظر الدرء ١٦/٨ .
(٢) انظر الدرء ١٧/٨ .
(٣) الدرء ١٦/٨، ١٧ .
(٤) الدرء ٥٢/١ .
(٥) الدرء ١٦/٨ ، ١٧ ، ٢١ .

على الاستدلال بها وكون العلم قطعياً أو ظنياً خاضع لهذا وهذا ، وعلى حسب قدراته يصل إلى أحدهما (١) ، يؤيد هذا « ... أن علياً رضى الله عنه(٢) كان أقضى من غيره (٣) بما أفهم من ذلك مع أن سماع النصوص مشترك بينه وبين غيره » (٤) .« مع أن الناس متباينون في نفس عقلهم الأشياء من بين كامل وناقص ، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير ، وجليل ودقيق وغير ذلك » (٥). « وكذلك نفس الأئمة المجتهدين : لا ريب أنه قد يكون عند أحدهم ما هو مظنون بل مجهول ، وهو معلوم للآخرين ... » (٦) .

ويوجد فروق فردية بين الناس في سرعة تصور الأمور وجودة هذا التصور (٧) ، وكذلك يتعاون الناس في النطق والتمييز والبيان « بل كثير ممن يكتب بيده لا يفهم ما يكتب ، وكثير ممن لا يكتب يكون عالماً بمعاني ما يكتبه غيره » (٨) .

والنواحي النفسية يتباين الناس فيها كما يتباينون في القدرات العقلية ، فالإرادة تختلف من شخص لآخر « والناس يختلفون في العلم والإرادة » (٩) ،والقدرة على مواجهة الأمور واحتمالها ، وكذلك التصرف في المواقف والأحداث ، فمنهم العاطفي الذي لا يحتمل فيكون بالغ التأثر في المواقف ، ومنهم الهلوع الجزوع ، ومنهم الثابت الذي عنده من البصر والثبات والحزم ، ولهذا الاختلاف والفروق « ... كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تبايناً عظيماً .. » (١٠)

وفي موضع ذكر الشجاعة ، وأنها شجاعة القلب ، وشجاعة البدن ،وقال إن شجاعة البدن أن يقتل ، ويقتل كثيراً إذا أمن ووثق من تمكنه ، لكنه إذا خاف جبن وضعف وفر ، وأما شجاعة القلب فإنه يتسم بالثبات والإقدام ، وضبط النفس ، فهذه هي الشجاعة المطلوبة وهذا هو المقدم في الحرب (١١) .

---

(١) انظر الفتاوى ٢١١/١٩ ، وانظر التفسير الكبير ٤٥٧/٧ .
(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٨١) .
(٣) أخرج ابن حبان من حديث أنس بن مالك بلفظ « أقضاهم علي » ، كتاب المناقب ، باب فضل جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر الموارد /٥٤٨ ، رقم الحديث ٢٢١٨ ، المطبعة السلفية حققه ونشره محمد عبدالرزاق حمزه .
(٤) الاستقامة ٨/١ .
(٥) الفتاوى ٣٠٩/٩ .
(٦) الاستقامة ٦٨/١ ، وانظر التفسير الكبير ٢٣٠/١ .
(٧) الفتاوى ١٠٣/٩ ، وانظر الفتاوى ٨٧/١ .
(٨) التفسير الكبير ٥٠٤/٧ .
(٩) التفسير الكبير ٣٠٩/٦ .
(١٠) التفسير الكبير ١٣٤/٧ .
(١١) انظر منهاج السنة ٧٧/٨ .

وبعد أن قدمنا هذه الدراسة للإنسان والنظرة الواقعية التي تحسب لكل ما كوّن عليه الإنسان حساباً ، فتراعي فيه الجوانب الخلقية والعقلية والنفسية ، وتراعي ما جعله الله بين الناس من تفاوت في القدرات ، وفروق في الإمكانات ،بعد هذا كله نقدم بعض النظريات الدعوية المنطلقة من هذه النظرة الموضوعية الواقعية للإنسان ، وهي متعلقة بتحمل الدعوة وأدائها ، ومن هذه النظريات الدعوية التيمية :

١ - تقسط الدعوة .

٢ - تقديم البدائل .

٣ - صدع الداعية بالدعوة ومواجهة الناس بها .

٤ - استمرار عملية الدعوة .

٥ - توقف الدعوة والتذكير عن بعض الناس .

٦ - الاستمرار بالتذكير والإنذار الخاص .

٧ - كيفية عرض الطلب والمنع على المدعوين .

المطلب الثالث : تقسّط الدعوة :

الإسلام بكامله حمل عظيم وقول ثقيل لا يقوم به إلا أولي العزم الصابرون ،بل لا يقوم به على وجه التمام والكمال إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي يسدده ربه ، ويعطيه من المواهب ما لا يوجد بكامله في أحد غيره ، وقد أكرمه الله بأنه لا ينسى الموحى إليه وأنه يجمعه في صدره ، والخصائص النبوية التي تفرده عن الناس لا ينكرها إلا جاهل أو معاند .

فالذين من بعده لا يقدر واحدهم على القيام بعبىء الدعوة إلى الإسلام بكامله ، وهو واجب لا يترك أبداً « فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله ... وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، فما قام به غيره سقط عنه ، وما عجز لم يطالب به ، وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا .

وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة ، وبحسب غيره أخرى ، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد واجب ، وهذا إلى عمل ظاهر واجب ، وهذا إلى عمل باطن واجب ، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة ، وفي الوقوع أخرى .

وقد تبيّن بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره »(١) .

فالأمة مطلوب منها أن تنفر لتبلغ وتنذر كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم ، كل واحد منهم أو طائفة أو جماعة أو فئة تحمل ما تقدر عليه من الإسلام العظيم من غير إضاعة أو معارضة أو مخاصمة لما لم تحمله من الإسلام . ويكون هذا أشبه بالتخصص ، فبعض الأمة يحمل على عاتقه واجب تعليم القرآن وتفسيره ، وآخرون يحملون واجب تعليم السنة النبوية وتفهيمها ، وآخرون يحملون تعليم الأمة الفقه ويتولون الإفتاء ، وآخرون يحملون واجب حمل الأمة على التطبيق العملي للسنن النبوية ، وآخرون يتولون الجهاد باللسان والسنان .

وهكذا يتكون من عموم الأمة دعوة إسلامية متكاملة كل واحدة منها تكمل الأخرى وتسددها .

وهذا من باب التنوع الذي يتيح للأمة أن يحمل كل فرد أو جماعة متناسبةِ الميول والقدرات نوعاً من الواجبات الإسلامية ، يتهيأ لهم القيام بها على الوجه الأكمل ، والتنوع في العبادات أمر وارد « وقد يكون في الوجوب تارة وفي الاستحباب أخرى . فالأول : مثل ما يجب على قوم الجهاد وعلى قوم الزكاة ، وعلى قوم تعليم العلم ، وهذا يقع في فروض الأعيان وفي فروض الكفايات .

وأما في الاستحباب فهو أبلغ ، فإن كل تنوع يقع في الوجوب فإنه يقع مثله في المستحب ، ويزداد المستحب بأن كل شخص إنما يستحب له من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى ... ما يقدر عليه ويفعله وينتفع ، والأفضل من الأعمال ما كان أنفع له ، وهذا يتنوع تنوعاً عظيماً ، فأكثر الخلق يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقاً ... ثم المفضول يكون أفضل في مكانه ، ويكون أفضل لمن لا يصلح له الأفضل »(٢) .

وهكذا يُعلم أن كل إنسان أو طائفة الأفضل لهم من المستحبات ما ينتفعون به ، ومن الواجبات ما يقدرون عليه ، ولا يجوز له ترك الأفضل والانتقال إلى المفضول مع القدرة ، ويتضح ذلك بالأمثلة :

« قراءة القرآن أفضل من الذكر بالنص ، والإجماع ، والاعتبار، وقول الأعرابي:

---

(١) التفسير الكبير ١٠٨/٥ ، ١٠٩ . (٢) الفتاوى ١٩ / ١١٩ .

إني لا أستطيع أن آخذ شيئاً من القرآن فعلمني ما يجزيني في صلاتي فقال : (قل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)(١) .

وأما الإجماع على ذلك فقد حكاه طائفة ، ولا عبرة بخلاف جهال المتعبدة . وأما الاعتبار : فإن الصلاة تجب فيها القراءة ، فإن عجز عنها انتقل إلى الذكر ، ولا يجزيه الذكر مع القدرة على القراءة ، والمبدل منه أفضل من البدل الذي لا يجوز إلا عند العجز عن المبدل .

وكذلك كثير من العباد قد ينتفع بالذكر في الابتداء ما لا ينتفع بالقراءة ،إذ الذكر يعطيه إيماناً ، والقرآن يعطيه العلم ، وقد لا يفهمه ، ويكون إلى الإيمان أحوج منه لكونه في الابتداء ، والقرآن مع الفهم لأهل الإيمان أفضل بالاتفاق »(٢) .

ومما يتأكد في هذا التقسّط أن يشعر كل واحد من هؤلاء أو كل جماعة من هؤلاء أنه جزء من مجموعة أجزاء ، والذي تحمَّله من الدعوة إنما هو جزء من جوانب شرع الله وليس هو كل شرع الله ، فهو بحاجة إلى إخوانه الآخرين كمثل أعضاء الجسم مجموعها يُكون إنساناً متكاملاً سوياً ، وإذا نقص عضو لحق النقص بالجسم بحسب مكانة وأهمية هذا العضو .

ومن هنا ندرك أن الدعوات أو الجماعات الإسلامية القائمة اليوم في العالم الإسلامي ، كل واحدة منها تحمل واجباً من واجبات الإسلام أو جوانب من شرع الله تتميز عن غيرها في العمل به والدعوة إليه ، مجموع هذا الجهد العلمي والعملي يكون مجموع شرع الله جل جلاله ، وحاصل هذا أن الأمة بحاجة إلى كل جهد مخلص يتحقق معه الاتباع الذي على صواب من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم سواء كان صادراً من فرد أو جماعة .

ومسألة التسميات لهذه الجماعات والعناوين ليست ذات اعتبار أو قيمة ما دام أن الاسم غير محذور من قبل الشرع ، المهم الحقيقة ، حيث الاتباع والسلامة من الابتداع، والولاء للمسلمين والبراء من كل أعداء الدين .

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث عبد الله ابن أبي أوفى ، باب ما يجزيء الأمي والأعجمي من القراءة ١٤٠ ، رقم الحديث ٧٤٢ ، صحيح سنن أبي داود ١/١٥٧ تصحيح الألباني ، الناشر مكتب التربية العربية لدول الخليج ، ط الأولى ١٤٠٩ هـ .

(٢) الفتاوى ١٩ / ١٢٠ ، ١٢١.

المطلب الرابع : البدائل :

النفس البشرية خلقت لتعمل لا لتترك[1] ، ومن طبعها الذي جبلها الله عليه أنها كذلك ، فالإنسان حارث همام ، ومنع النفس وتعطيلها من العمل يجعلها فارغة ، والفراغ لا يصلحها ، ولا تبقى عليه لأنها سوف تبحث عن عمل تعمله وتقضي به فراغها ، فإن قدم لها من الخير ما تشتغل به أغناها ، وإن لم يقدم لها اشتغلت بضده، قال تعالى : ﴿.. كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [3] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[4] . هذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالاً عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور ، وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له . ولا بد لهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات عدلاً من الله حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له – وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً – فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة ... »[5] ؛ ولذا رُوي عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال : « نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل » ، فإذا قام الداعية بنقل فرد أو جماعة من عمل منكر أو باطل أو مكروه ، فلا بد قبل أن يفعل ذلك أن ينظر في مصالح نقلهم وثمراته ، فقد يمنعهم من فعل ما هم عليه من الفساد ويتركهم فينتقلون إلى ما هو أفسد منه « إذ النفوس لا تترك شيئاً إلا بشيء »[6] .

والعمل قد يكون فيه خير مشروع وشر مبتدع ، ولكنه بالنسبة إلى الانتقال إلى ما هو أشد شراً منه يكون البقاء عليه مصلحة ، وإذا نسبناه إلى الدين والخير والعمل الفاضل فإنه يبقى على ما فيه من شر، يقول رحمه الله : « واعلم أن من الأعمال ما يكون فيه خير لاشتماله على أنواع من المشروع ، وفيه أيضاً شر من بدعة وغيرها ، فيكون ذلك العمل شراً بالنسبة إلى الإعراض عن الدين بالكلية ، كحال المنافقين والفاسقين .

وهذا قد ابتلي به أكثر الأمة في الأزمان المتأخرة ، فعليك هنا بأدبين :

أحدهما : أن يكون حرصك على التمسك بالسنة باطناً وظاهراً في خاصتك

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢٩٧ . (٢) سورة الأنعام آية (١٢٥) .
(٣) سورة الصف آية (٥) . (٤) سورة الليل الآيات (٨ – ١٠) .
(٥) التفسير الكبير ٣/٣٦٨ ، ٣٦٩ . (٦) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٩٦ .

وخاصة من يطيعك . واعرف المعروف ، وأنكر المنكر .

الثاني : أن تدعو الناس إلى السنة بحسب الإمكان ، فإذا رأيت من يعمل هذا ولا يتركه إلا إلى شر منه ، فلا تدعو إلى ترك منكر بفعل ما هو أنكر منه أو بترك واجب أو مندوب تركه أضر من فعل ذلك المكروه . ولكن إذا كان في البدعة نوع من الخير ، فعوض عنه من الخير المشروع بحسب الإمكان . إذ النفوس لا تترك شيئاً إلا بشيء ، ولا ينبغي لأحد أن يترك خيراً إلا إلى مثله ، أو إلى خير منه » (١) .

ويقول : « بل الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه ، فلا ينهى عن منكر ، ولا يؤمر بمعروف يغني عنه . كما يؤمر بعبادة الله وينهى عن عبادة ما سواه .

إذ رأس الأمر : شهادة ألا إله إلا الله ؛ والنفوس خلقت لتعمل لا لتترك ، وإنما رأوا الترك مقصوداً لغيره ، فإن لم يشتغل بعمل صالح وإلا لم تترك العمل السيء أو الناقص، لكن لما كان من الأعمال السيئة ما يفسد عليها العمل الصالح نهيت عنه حفظاً للعمل الصالح »(٢) .

ويضرب لذلك بعض الأمثلة من الأعمال التي تشتغل بها النفوس وفيها خير وشر، فلو منعت يربو على حاله الأول . المثال الأول : فيمن كان يصرف همه وبعض عواطفه في المولد النبوى ، والمثال الثاني : أحد الأمراء أنفق مالاً كثيراً في زخرفة مصحف . وإليك نص كلامه :

« فتعظيم المولد واتخاذه موسماً : قد يفعله بعض الناس ، ويكون له فيه أجر عظيم لحسن قصده ، وتعظيمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قدمته لك أنه يحسن من بعض الناس ما يستقبح من المؤمن المسدد . ولهذا قيل للإمام أحمد عن بعض الأمراء: إنه أنفق على مصحف ألف دينار ونحو ذلك ، فقال : دعه ، فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب أو كما قال . مع أن مذهبه : أن زخرفة المصاحف مكروهة ، وقد تأول بعض الأصحاب أنه أنفقها في تجديد الورق والخط . وليس مقصود أحمد هذا . وإنما قصده : أن هذا العمل فيه مصلحة ، وفيه أيضاً مفسدة كره لأجلها .

فهؤلاء إن لم يفعلوا هذا وإلا اعتاضوا الفساد الذي لا صلاح فيه ، مثل أن ينفقها في كتاب من كتب الفجور ، ككتب الأسمار أو الأشعار ، أو حكمة فارس والروم .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٩٦ . (٢) السابق /٢٩٧ .

فتفطن لحقيقة الدين ، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد ، بحيث تعرف ما ينبغي من مراتب المعروف ومراتب المنكر ، حتى تقدم أهمها عند المزاحمة . فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر ، وجنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيرا ، فأما مراتب المعروف والمنكر ومراتب الدليل بحيث تقدم عند التزاحم أعرف المعروفين فتدعو إليه ، وتنكروا أنكر المنكرين ، وترجح أقوى الدليلين : فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين »[1] .

المطلب الخامس : الصدع بالدَّعوة ومواجهة الناس :

إن إعلان الداعية بدعوته للمنحرفين من أصحاب الأهواء والشبهات يعني أنه وقف أمام رغباتهم وأهوائهم المنحرفة ، ووقف أمام سلطتهم وقوتهم ، وأيضاً أمام كيدهم ومكرهم وحسدهم

فإذا كان هشاً ليناً ضعيف الإرادة فإنه يذوب ويتلاشى أمام هذه العواصف العاتية كما يذوب الملح في الماء . وهذا سبب من الأسباب التي جعلت العارفين بالله الخبيرين بأمور الدعوة والحياة يوصون الداعية بألا يبكر في إعلان حاله ودعوته قبل أن يشتد عوده ويقوى الإيمان في قلبه ، ويصير لديه القدرة على المواجهة .

يقول رحمه الله : « ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى ، ولا يطلع عليه أحد والقوم أعظم شيئاً كتماناً لأحوالهم مع الله عز وجل وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب ، ولا سيما فعله للمهتدي السالك ، فإذا تمكن أحدهم وقوي ، وثبت أصول تلك الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه – بحيث لا يخشى عليه من العواصف فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليقتدى به ويؤتم به – لم يبال . وهذا باب عظيم النفع إنما يعرفه أهله »[2] .

المطلب السادس : الدعوة بين الاستمرار والتوقف :

أ – استمرار عملية الدعوة :

الدعوة الى الصراط المستقيم علماً وعملاً ليست محدودة بوقت ولا زمن معين ولا في مرحلة من عمر الإنسان ثم تتوقف ، بل هي عبارة عن إنشاء وصيانة ومحافظة على هذه المنشآت العلمية والعملية من التآكل والتناقص أو الهدم والزوال ؛ لأن المطلوب من

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٩٧ – ٢٩٨ .
(٢) التفسير الكبير ٤/٣٠٣ .

المسلم أن يفعل في كل وقت من الأوقات ما أمر به من الطاعة ويترك ما نهي عنه من المعصية . وهذا لا بد له من دافع يدفعه إلى تحقيقه وهو مقدار ما في القلب من العلوم والإرادات .. يهتدي به إلى الصراط المستقيم .

« والإنسان خلق ظلوماً جهولا ، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ... وعدل ينافي ظلمه ، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم » (١) .

لذا لا بد من استمرار الدعوة في الناس لكي توفر هذه الحاجة إلى العلم المفصل والعدل المفصل الذي يبقى به العبد في إطار الصراط المستقيم ، ولهذا يعلم السر في تكرار الفاتحة في كل ركعة من عبادات الصلاة وفيها سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو ما صلى إلا لأنه سالك له ولكن السؤال للاستمرار عليه والبعد عما يضاده أو يضاد سلامته وكماله . « فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه ، بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه فإذا انقطع رزقه مات ، والموت لا بد منه ... وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فإنه يموت شهيداً ، فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق ، بل لا نسبة بينهما لأنه إذا هدي كان من المتقين : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾ (٢)» (٣) .

وحاجة العبد إلى الاهتداء الثابت النامي دائماً وأبداً فـ « .. هو محتاج إلى الهدى في كل لحظة ... » (٤) ، والدعوة من واجبها تأمينه له، وهذا يكون بدوام استمرار العملية الدعوية بين الناس من دون خمول أو خمود .

ب – توقف الدعوة والتذكير عند بعض الناس :

هناك من لا يلزمنا الاستمرار في دعوتهم وتذكيرهم لما قام فيهم من الأسباب الموجبة لهذا التوقف . وهؤلاء هم :

١ – من لم ينتفع أصلاً بالدعوة مهما بذل معه ، وهو من أخبر الله عنه أنه لا يؤمن .

٢ – من أظهر أن الحجة قامت عليه وأنه تبلغ البلاغ المبين ولكنه لا يهتدي : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (٥) ، فهؤلاء

(١) التفسير الكبير ٣٣٥/٢ . (٢) سورة الطلاق الآيات (٢ – ٣) . (٣) التفسير الكبير ٣٣٧/٢ .
(٤) التفسير الكبير ٢٥٦/٣ . (٥) سورة المدثر الآيات (٤٩ – ٥١) .

لا يُدْعَون ولا يذكرون كما يدعى ويذكر المؤمنون ، إذا كانت الحجة قد قامت عليهم وهم مع ذلك معرضون عن القبول ولا يسمعون التذكرة .

٣ - إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت المصلحة راجحة وهو أن تحصل به منفعة راجحة على المضرة ، فحيث كان الضرر راجحاً فهو منهي عما يجلب ضرراً راجحاً ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يذكر إلا ذكرى نافعة لم يذكر قط ذكرى يكون ضررها راجحاً (١) .

والحجة تقوم على الناس بإمكان سماعهم لدعوة الحق قال تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾ (٢) ، فالذكرى المأمور بها تشمل : التذكر والتذكير ، وهو إنما يقدر على تجنب التذكر أما التذكير فهو لا يقدر على تجنبه ولم يتجنبه أحد ، لذا قد يراد بتجنبه لها ترك الاستماع والإصغاء إليها كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ (٣) . والحجة عليهم تقوم بوجود رسول يبلغ ، وتمكنهم من الاستماع والتدبر لهذا البلاغ ، لا تكون بنفس السماع ، لأن فئات من الكفار تجنبوا سماع القرآن (٤) .

فالرسول مأمور بتذكير كل أحد وإبلاغه أو كان بالإمكان أن يبلغه صوت الدعوة وحقيقتها وبراهينها ،فإن انتفع كان التذكير تاماً نافعاً ، وإلا حصل أصل التذكير الذي تقوم به الحجة ، وكونه لم يتذكر يدل على ذمه واستحقاقه التوبيخ ، وبقيام الحجة عليه يستحق العذاب في الدنيا والآخرة (٥) ، وتذكير الذي يتجنب الذكرى النافعة له فوائد منها : « أنه لما قامت عليه الحجة واستحق العذاب خف بذلك شر عن المؤمنين ، فإن الله يهلكهم بعذاب من عنده أو بأيديهم ، وبهلاكه ينتصر الإيمان وينتشر ، ويعتبر به غيره ، وذلك نفع عظيم ، وهو أيضاً يتعجل موته فيكون أقل لكفره ، فإن الله أرسل محمداً رحمة للعالمين ، فبه تصل الرحمة إلى كل أحد بحسب الإمكان ، وأيضاً فإن الذي يتجنبها بتجنبه استحق هذا الوعيد المذكور ، فصار ذلك تحذيراً لغيره من أن يفعل مثل فعله قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ (٦) ، وقال تعالى عن فرعون : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾(٧) ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي

---

(١) انظر التفسير الكبير ١٧٩/٦ . (٢) سورة الأعلى الآيات (١٠ - ١١) .
(٣) سورة فصلت آية (٢٦) . (٤) انظر التفسير الكبير ١٧٩/٦ .
(٥) انظر التفسير الكبير ١٨٣/٦ ، ١٨٤ . (٦) سورة البقرة آية (٦٦) . (٧) سورة الزخرف آية (٥٦) .

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (١)، (٢) .

ج – الدعوة والتذكير الدائم المستمر :

إذا قلنا إن الدعوة تتوقف مع هؤلاء المذكورين بأحوالهم ، فمن هم الذين يلزم استمرار الدعوة لهم ومعهم ؟ ويلزم مواصلة تذكيرهم ووعظهم بالتذكير والإنذار الخاص الذي هو التام النافع ؟

يكون استمرار الدعوة والتذكير والإنذار التام النافع مع المؤمنين المنتفعين القابلين لذلك . فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل ،وكلما نزل شيء من القرآن ذكرهم وأنذرهم به وبمعانيه ودلالته ، ويستمر في عملية الدعوة والتذكير فيما جد نزوله من الوحي وفيما سبق نزوله ، وأيضاً يستمر في الدعوة والتذكير مع من أقبل عليه وجاءه مريداً للخير قاصداً له راغباً فيه ، بخلاف من أعرض عنه فإن له أن يعرض عنه كما أعرض . لأن المقبل ينتفع بالذكرى فيكون الداعية مأموراً بتذكيره ودعوته بشيء خاص ينفرد به عن التذكير والتبليغ العام (٣) .

المطلب السابع : كيفية عرض الطلب والمنع على المدعوين :

والداعية حين يعرض دعوته لا بد أن يراعي نفوس المدعوين فلا يهجم عليهم بالأوامر والتكاليف والإلزامات والحقوق والواجبات ، بل يركز على الأصول التي بها تصلح النفوس . والأصول مترابطة فإذا تحقق واحد منها تحقق الآخر وحصل استقامة المدعو ، وابن تيمية تفطن لهذا المعنى وقد لاح له من خلال النصوص القرآنية فوضع لذلك فصلاً بيّن فيه المطلوب من الدعوة تحقيقه ، وكيف تتم عملية الدعوة إلى العلم والعمل . قال رحمه الله : « فصل في طريقتي العلم والعمل ، قال الله تعالى لموسى وهارون : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾(٤) ، وقال في السورة بعينها: ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (٥).

فذكر في كل واحدة من الرسالتين العظيمتين – رسالة موسى ورسالة محمد – أن ذلك لأجل التذكر أو الخشية ولم يقل : « ليتذكر ويخشى » ولا قال : ليتقوا ويحدث

---

(١) سورة يوسف آية (١١١) . (٢) التفسير الكبير ١٨٤/٦ . (٣) انظر التفسير الكبير ١٧٩/٦ .
(٤) سورة طه آية (٤٤) . (٥) سورة طه الآيات (٩٩ – ١١٣) .

لهم ذكرا ، بل جعل المطلوب أحد الأمرين . وهذا مطابق لقوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ونحو ذلك » (١).

[فالتذكر يناسبه في الدعوة « الحكمة » ، والذي يخشى أو يتقي يناسبه أن يدعى بالموعظة الحسنة ولذلك قال ابن تيمية] : « وهم في الصلاح على ضربين :

الأول : تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به فهذا هو الذي يدعى بالحكمة ، وهو الذي يتذكر ، وهو الذي يحدث له القرآن ذكرا .

والثاني : أن يكون له من الهدى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى ، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة ، وهذا هو القسم المذكور في قوله : ﴿ أو يخشى ﴾ ، وفي قوله : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ » (٢) .

ويعتمد في بيان سبب ذلك على ما فطرت عليه النفوس من محبة الخير والفضيلة وكره الشر والرذيلة ، ومحبة النافع وكره الضار ، وإذا اختلت هذه الفطرة فهو بسبب معارض أفسدها « من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك ، كما أنه في صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار ، فإذا اشتهى ما يضره أو كره ما ينفعه فلمرض في الجسد » (٣) . ولذا يلزم حماية النفوس عن المعارض الفاسد كما تحمى الأبدان عن المرض المانع من الطعام النافع .

والله الذي خلق النفوس هو العليم بما يصلحها وهو العليم بكيفية خطابها وتكليفها به ، ومن الطرق التي يخاطب الله بها النفوس خطاباً يقربها إلى الحق ويباعدها عن ضده أنه يجمع بين محمودين أحدهما نتيجة للآخر « كالهدى والسعادة » « وحسنة الدنيا وحسنة الآخرة »، ويجمع بين مذمومين أحدهما مترتب أو نتيجة للآخر « كالضلال والشقاوة » « وسيئة الدنيا وسيئة الآخرة » (٤) .

« ويقرن بين العلم النافع والعمل الصالح كما يقرن بين ضديهما وهو الضلال والغي: اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح » (٥) .

فلهذا إذا كان في مجال الذم والنهي والاستعاذة والمنع يكون ذلك لكل الأمور

---

(١) الفتاوى ٢٣٩/١٥ . (٢) الفتاوى ٢٤٣/١٥ . (٣) الفتاوى ٢٤١/١٥ .
(٤) انظر الفتاوى ٢٤٤/١٥ ، ٢٤٥ ، والتفسير الكبير ١٩٩/٥ . (٥) السابق .

المتلازمة المقترنة ، لأن كلاً من المقترنين مكروه مطلوب العدم مستلزم للآخر .

وإذا كان في مجال الطلب والحمد فإنه يطلب أحدهما ، وقد يطلب كلاهما ، ويحمد أحدهما ، ويحمدان معا ، لأن كلاً منهما خير مطلوب محمود ، وأحدهما سبب لحصول الآخر ، ووجود أحدهما سبب لوجود الآخر (١) .

وهذا لا يفهم منه الانفصال بين هاتين الطريقتين واستغناء كل واحدة منهما عن الأخرى ، بل الأمر على العكس من ذلك كما يقرره ابن تيمية ، وينبه أيضاً إلى أن كل واحدة قد تستلزم الأخرى وتكون داعية لها وسبيلاً إلى وجودها ؛ ولهذا نجد أن الله يجمع في بعض الآيات بين أمور لأن واحداً منها يقود إلى الباقي ويحقق حصوله لما يؤثر في القلب ويحدثه فيه فيتجاوب القلب لحدوث فضائل أخرى تنبع من تلك الفضيلة الواردة إليه . وهذا ابن تيمية يفصل هذه المعاني العظيمة مستضيئاً بكلام الله تعالى « ... في قصة فرعون : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ (٢) ، فجمع بين التزكي والهدى والخشية . كما جمع بين العلم والخشية في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٣) ، وفي قوله : ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (٤) . وذلك لما ذكرناه من أن كل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر والذكر الذي يحدثه القرآن . ومن الخشية المانعة من اتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان . وهو مستلزم للآخر إذا قوي على ضده . فإذا قوي العلم والتذكر دفع الهوى ، وإذا اندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم . وهاتان هما الطريقة : العلمية والعملية ، كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى ، وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعاً ، ولهذا كان فساده بانتفاء كل منهما . فإذا انتفى العلم الحق كان ضالاً غير مهتد ، وإذا انتفى اتباعه كان غاوياً مغضوباً عليه » (٥) .

وما دام أن الأمور المحمودة المطلوبة بينها هذا التلازم والترابط ، فإنه ينبغي للداعية الذي يدعو الخلق ويأمرهم أن « ... يسلك بذلك طريق الرفق واللين فيطلب أحدهما

---

(١) انظر السابق . (٢) سورة النازعات الآيات (١٧ - ١٩) . (٣) سورة فاطر آية (٢٨) .
(٤) سورة الأعراف آية (١٥٤) . (٥) الفتاوى ١٥/٢٤٣ - ٢٤٤ .

لأنه مطلوب في نفسه ، وهو سبب للآخر ، فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعاً، فقد يثقل ذلك عليه .

والأمر بناء ، والنهي هدم .

والأمر هو يُحَصّل العافية بتناول الأدوية .

والنهي من باب الحمية .

والبناء والعافية تأتي شيئاً بعد شيء .

وأما الهدم فهو أعجل ، والحمية أعم *.

وإن كان قد يحصل فيهما ترتيب أيضاً ، فكيف إذا كان كل واحد من الأمرين سبباً وطريقاً إلى حصول المقصود مع حصول الآخر » [١] .

وكنموذج للمنهج الرباني في الدعوة يورد ابن تيمية ما قاله الله لأنبيائه في كتابه الكريم كقوله سبحانه وتعالى :﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [٢] ،وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [٣] . طلب وجود أحد الأمرين بتبليغ الرسالة وجاء بصيغة لعل، تسهيلاً للأمر ورفقاً وبياناً ؛ لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول المقصود ، فلا يطلبان جميعاً في الابتداء »[٤] .ولإيضاح هذه المنهجية الدعوية التربوية فإنه يزيد من الأمثلة والنماذج ما يحقق القناعة التامة ويزيل الغموض ويقطع طريق التردد فيقول : « ولهذا جاء في الأثر : (إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها) لا سيما أصول الحسنات التي تستلزم سائرها مثل الصدق فإنه أصل الخير، كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى

---

* يقوى هذه معاني حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » .

(١) الفتاوى ١٥/٢٤٥ - ٢٤٦ .
(٢) سورة طه آية (٤٤) .
(٣) سورة طه آية (١١٣) .
(٤) المرجع السابق ١٥/٢٤٦ ، والتفسير الكبير ٥/١٩٩ .

يكتب عند الله كذابا) [1] .

ولهذا يذكر أن بعض المشايخ أراد أن يؤدب بعض أصحابه الذين لهم ذنوب كثيرة فقال : يا بني : أنا آمرك بخصلة واحدة فاحفظها لي ، ولا آمرك الساعة بغيرها ، التزم الصدق وإياك والكذب، وتوعده على الكذب بوعيد شديد ، فلما التزم ذلك الصدق دعاه إلى بقية الخير ونهاه عما كان عليه ، فإن الفاجر لا حد له في الكذب » [2] .

المطلب الثامن : اعتبار ظرف الزمان والمكان :

ابن تيمية لا ينظر للإنسان مجرداً عن زمانه الذي يعيش فيه ولا عن مكانه الذي يستقر فيه ، فإن الدعوة والتربية والتعليم والأمر والنهي والفتوى قد يتغير كل ذلك في أسلوبه ووسائله وأيضاً في مضمونه وفي تقديمه وتأخيره أو تقديم بعضه على بعض وتأخير بعضه عن بعض ، وما يصلح في زمان قد لا يصلح في آخر ، وما يصلح في الحاضرة قد لا يصلح في البادية ،وأيضاً العلم في الشريعة في مجالاتها: العقيدة والعبادة والمعاملات قد تخفى أحكامها في بعض الأزمنة أكثر من بعض وتعلم في بعضها أكثر من بعض ،كذلك ينطبق هذا القول على الأمكنة . وأيضاً : قوة أهل الحق وضعفهم في زمان معين ومكان معين تراعى في جوانب عدة في الدعوة وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي الهجر ، وفي إعلان الإسلام إخفائه ، ونحو ذلك .

ونعرض باختصار أقوال ابن تيمية في هذه المجالات وغيرها .

بعض الأمصار يشتهر فيها علم بنوع من علوم الشريعة أكثر من غيرها فيكون قول أهلها في هذا العلم مقدم على غيرهم ، يقول رحمه الله :« فإن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ، ثم أهل الشام ، ثم أهل العراق ، فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم ، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم .. وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس [3] ... » [4] .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب ٧٨ ، باب قوله الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ ٦٩ ، وطرفه « إن الصدق » رقم الحديث ١٠٩٤ ، فتح الباري ٥٠٧/١٠ . وأخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب ٤٥، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ٢٩ ، رقم الحديث ٢٦٠٧ ، صحيح مسلم ٢٠١٣/٤ .

(٢) الفتاوى ٢٤٥/١٥ - ٢٤٧ .

(٣) هو : عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث ، وقيل بخمس .. لقب حبر الأمة .. وصحب النبي نحواً من ثلاثين شهراً ، وعمي في آخر عمره ، توفي سنة ٦٨هـ بالطائف . انظر الإصابة ١٣٠/٦ ، سير أعلام النبلاء ٣٣١/٣ ، وفيات الأعيان ٦٢/٣ .

(٤) التفسير الكبير ٢١٢/٢ .

ويرجح قول الصحابة من أهل العراق على قول أهل الحجاز في أكل جبن المجوس [1] باعتبار أنهم أعلم بذلك منهم « وما نقل عن بعضهم كراهة ذلك [أكل جبن المجوس] ففيه نظر فإنه من نقل بعض الحجازيين وفيه نظر ، وأهل العراق كانوا أعلم بهذا فإن المجوس كانوا ببلادهم ولم يكونوا بأرض الحجاز » [2].

ويرى أن ما يجوز فعله في زمن وبين قوم لا يجوز فعله في زمن آخر وقوم آخرين، بل يمنع لتجدد ما يوجب منعه وانتفاء ما يوجب بقاؤه فيقول :« ... وقد كانت الإماء على عهد الصحابة يمشين في الطرقات مكشفات الرؤوس ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب ، فلو أراد الرجل أن يترك الإماء التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل هذه البلاد والأوقات كما كان أولئك الإماء يمشين كان هذا من باب الفساد » [3] .

كما أنه يفرق بين تأثير الأمكنة في الناس في أبدانهم وفي أخلاقهم وفي كلامهم وسائر طباعهم وعاداتهم ، يقول :« إن الله سبحانه وتعالى جعل سكنى القرى يقتضي من كمال الإنسان في العلم والدين ورقة القلوب ، ما لا يقتضيه سكنى البادية . كما أن البادية توجب الكلام من صلابة البدن والخلق ومتانة الكلام ما لا يكون في القرى ، هذا هو الأصل ، وإن جاز تخلف هذا المقتضي لمانع ، وكانت البادية أحياناً أنفع من القرى ولذلك جعل الله الرسل من أهل القرى ... « وفي الحديث » قال : (من سكن البادية جفا ...) [4] ، ولهذا كانوا يقولون لمن يستغلظونه : إنك لأعرابي جاف ، إنك لجلف جاف يشيرون إلى غلظ عقله وخلقه .

ثم لفظ « الأعرابي » هو في الأصل : اسم لبادية العرب ، فإن كل أمة لها حاضرة وبادية ... والتحقيق أن سكان البوادي لهم حكم الأعراب ، سواء دخلوا في لفظ الأعراب أم لم يدخلوا ، فهذا الأصل يوجب أن يكون جنس الحاضرة أفضل من جنس البادية ، وإن كان بعض أعيان البادية أفضل من أكثر الحاضرة مثلاً .

ويقتضي أن ما انفرد به أهل البادية عن جميع جنس الحاضرة ، أعني في زمن السلف من الصحابة والتابعين فهو ناقص عن فضل الحاضرة أو مكروه ... » [5] .

---

(١) التفسير الكبير ٤/ ٢٠

(٢) التفسير الكبير ٤/ ٢٠ . (٣) التفسير الكبير ٥/ ٤١١ .

(٤) حديث حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٥٧ وأبو داود كتاب الصيد، باب في إتباع الصيد ، سنن أبي داود ٣/ ٢٧٨ رقم ٢٨٥٩ . والترمذي كتاب الفتن ، باب ٦٩ وقال حسن غريب ، سنن الترمذي ٤/ ٥٢٣ رقم ٢٢٥٦ .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم/ ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

وخفاء بعض علم الشريعة وغربة الإسلام قد تكون في بعض أحكامه وشرائعه وقد تكون في بعض الأماكن .

يقول رحمه الله في أثناء حديثه عن غربة الإسلام :« وقد تكون الغربة في بعض شرائعه ، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة ، ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريباً بينهم لا يعرفه منهم إلا الواحد بعد الواحد » (١) .

وهذا يقتضي أن لا يكون حكم من خفي عليهم كحكم العالمين ، ولا حكم أهل هذا المكان كحكم أهل مكان فيه العلم والعلماء من حيث حكمنا عليهم وتطبيق الحدود الشرعية عليهم .

يقول رحمه الله في أثناء حديثه عن تكفير الرافضة ونحوهم :« ولهذا لا يكفر العلماء من استحل شيئاً من المحرمات لقرب عهده بالإسلام أو لنشأته ببادية بعيدة ، فإن حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة ، وكثير من هؤلاء قد لا يكون قد بلغته النصوص المخالفة لما يراه ولا يعلم أن الرسول بعث لذلك فيطلق أن هذا القول كفر ، ويكفر من قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها دون غيره » (٢) .

وقال أيضاً : « كثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يدرس فيها كثير من علوم النبوات ، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة مما يبعث الله به رسوله ، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك ، ومثل هذا لا يكفر ، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان كان حديث العهد بالإسلام ، فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهر المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول . ولهذا جاء في الحديث :(يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صوماً ولا حجاً إلا الشيخ الكبير ، والعجوز الكبيرة يقول أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلا الله ، فنحن نقولها وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجاً ولا صوماً فقال له صلة : ما تغني عنهم ؟ فقال حذيفة : تنجيهم من النار) (٣) » (٤) .

---

(١) الفتاوى ٢٩٨/١٨ . (٢) الفتاوى ٥٠١/٢٨ .

(٣) أخرجه ابن ماجه من حديث حذيفة بن اليمان وفيه ألفاظ مختلفه قليلاً وطرفه « يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب ... » ، كتاب الفتن ، باب ذهاب القرآن والعلم . سنن ابن ماجه ١٣٤٤/٢ ، ١٣٤٥ رقم الحديث ٤٠٤٩ وفي الزوائد : إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، رواه الحاكم في المستدرك ٤٧٣/٤ وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ١٢٧/١ . وصحيح الجامع الصغير ٣٣٩/٦ ، وصحيح سنن ابن ماجة ٣٧٨/٢ .

(٤) الفتاوى ٤٠٦/١١ ، وقد ألحقت بعض الجمل ليتضح مدلول الحديث .

وكذلك مطالبتنا لهم بتكاليف الدعوة والأمر والنهي والإظهار والإسرار بذلك فإن القيام بذلك خاضع لعدد من الأمور منها علم الإنسان وقدرته الذاتية ووجود الظهير والنصير والمعاون .

يقول رحمه الله :« فإن إظهاره والأمر به والإنكار على من خالفه بحسب القوة والأعوان ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ..) (١) » (٢).

وهذا منهج في الدعوة متميز ، فالإنسان لا ينفصل عن واقعه الزماني والمكاني فنجده « .. يفرق بين الأمكنة التي كثرت فيها البدع ، كما كثر القدر في البصرة ، والتنجيم بخراسان ، والتشيع بالكوفة ، وبين ما ليس كذلك ، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم » (٣) .

ومثال ذلك ما ذكره عن أهل خراسان بقوله : « عن إسحاق (٤) أنه قال لأبي عبدالله (٥) : من قال : القرآن مخلوق ؟ قال : ألحق به كل بلية – قلت : فيظهر العداوة لهم أم يُداريهم ؟ قال : أهل خراسان لا يقوون بهم .

... فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء أحد ، بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مأموراً بها ، كما ذكره أحمد عن أهل خراسان إذ ذاك : أنهم لم يكونوا يقوون بالجهمية ، فإذا عجزوا عن إظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة ، وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن الضعيف ، ولعله أن يكون فيه تأليف الفاجر القوي (٦) . والعلاقة الزوجية من حيث حق الزوج في الخدمة يختلف أيضاً على حسب ما عرف في البلد من حاضرة وبادية ونحو ذلك ، يقول:

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، صحيح مسلم ٦٩/١

(٢) الفتاوى ٢٩٨/١٨ . (٣) الفتاوى ٢٠٦/٢٨ .

(٤) هو : إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المرزوي الشهير بابن راهويه ، كان أحد كبار الحفاظ ، وعالم خراسان في عصره أخذ عنه الإمام أحمد والبخاري ، ومسلم والترمذي ، وغيرهم .. ولد سنة ١٦١هـ واشتهر بابن راهويه ذلك أن أباه ولد في طريق مكة ، فقال أهل مرو : راهويه ! أي ولد في الطريق . توفي بنيسابور سنة ٢٣٨هـ . انظر تذكرة الحفاظ ٤٣٣/٢ ، تهذيب التهذيب ١٣٩/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١١ ، الأعلام العلية ٢٩٢/١ .

(٥) هو الإمام أحمد بن حنبل تقدمت ترجمته في صفحة (٧٥) .

(٦) الفتاوى ٢١٠/٢٨ ، ٢١٢ .

« تجب الخدمة بالمعروف وهذا هو الصواب فعليها أن تخدمه الخدمة المعروفة من مثلها لمثله، ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال : فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية ... » [1] .

المطلب التاسع : تقدير المصلحة والحاجة والضرورة ونحوها واعتبارها مؤثراً :

بعد الدراسة التي تقدمت عن الإنسان من جوانبه العقلية والنفسية والبدنية والسلوكية ونحو ذلك ، وكذلك ما تقدم من إدراك الفروق الفردية بين الناس وضرورة اعتبارها ومراعاتها ، وكذلك ما تقدم من اعتبار ظرف الزمان والمكان وتغير الأحوال وأن كل ذلك كان منظورا له في منهج ابن تيمية الدعوي الإصلاحي التربوي .

والذي يدرك في دعوته ونظرته للإنسان مثل هذه الأمور لا يغيب عنه إدراك جوانب تترتب عليها ، يلزم من وجودها النظر فيما هو الأصلح والأقوم من أجل تحقيق خير المدعوين ، وكذلك النظر فيما الحاجة داعية إليه . وكذلك ما تقتضيه الضرورة وأن هذه الأمور « تحقيق المصلحة » « واعتبار الحاجة » « وتقدير الضرورة » « والمصالح والمفاسد والحسنات والسيئات عند التعارض » تؤثر في المواقف ، والأحكام ، والحكم ، والتصرفات والفعل وعدم الفعل .

وما منهج الأنبياء والرسل إلا هذا ، فهو متبع لا مبتدع ، سلك في دعوته آثار أساتذة الدعاة والمصلحين والمربين ممن أعطاهم الله العصمة وكتب لهم الإصابة في القول والفعل « ... والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها » [2] ،« والورع ترجيح خير الخيرين بتفويت أدناهما ، أو دفع شر الشرين وإن حصل أدناهما » [3] .

ضمن هذا المنطلق تكلم عن التحدث بلغة الكفار وأصحاب الباطل الذين يتكلمون غير العربية ، وأن الكلام بغير العربية واستعمال مصطلحات باطلة أحدثوها لا يجوز إلا في حالة « إن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم ، فبيان ضلالهم ، ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك ، لأجل مجرد اللفظ ، كما لو جاء جيش كفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفاً من التشبه بهم في الثياب » [4] .

---

(١) الفتاوى ٣٤/٩٠ ، ٩١ .
(٢) الفتاوى ١/٢٦٥ ، وانظر ٣٠/١٩٢ ، ٢٣٤ .
(٣) الفتاوى ٣٠/١٩٣ ، وانظر الاستقامة ١/٣٣ .
(٤) الدرء ١/٢٣١ .

ومراعاة الأصلح في رعاية أمور الناس وإداراتهم أمر واجب وهو في كل ولاية بحسبها (١) « فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة قُدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضرراً فيها فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع - وإن كان فيه فجور - على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً ... ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل خالد بن الوليد (٢) على الحرب منذ أسلم مع أنه أحياناً قد كان يعمل ما ينكره النبي صلى الله عليه وسلم كما فعل في قتل بني جذيمة(٣) وأخذ أموالهم بنوع شبهة ، حتى وداهم النبي صلى الله عليه وسلم وضمن أموالهم ، ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب ؛لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره ، وفعل ما فعل بنوع تأويل ... وأمر النبي صلى الله عليه وسلم مرة عمرو بنِ العاص (٤) في غزوة ذات السلاسل (٥) استعطافا لأقاربه الذين بعثه إليهم - على مَن هُم أفضل منه ... وكذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة راجحة ، مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والإيمان » (٦) .

(١) انظر الفتاوى ٢٥٤/٢٨ .

(٢) هو : خالد بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ القرشي سيف الله المسلول ، صحابي ، كان من أشراف قريش أسلم قبل فتح مكة سنة ٧هـ (بعد خيبر) ،ولاه الرسول عليه السلام الخيل ، ووجهه أبوبكر لقتال مسيلمة والمرتدين. مات بالمدينة وقيل بحمص سنة ٢١هـ . انظر الإصابة ٧٠/٣ ، الأعلام ٣٠٠/٢.

(٣) بعث الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد عقب فتح مكه في ثلاثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار إلى بني جذيمة ، وكانوا بأسفل مكة ، بعثه لقصد دعوتهم إلى الإسلام ، ولم يأمره بقتالهم ، ودعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ،فقالوا : صبأنا ، صبأنا ، فجعل ذلك خالداً يقتل منهم ويأسر وأعطى كل واحد أسيراً ثم أمرهم بقتله فأبى أكثرهم حتى إذا قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ذكر له ذلك فرفع يديه قائلاً : اللهم أني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين .. وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على خالد عجلته وعدم تثبته من أمر بني جذيمة . انظر فتح الباري ٥٧/٨ .

(٤) هو : عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي ، أمير مصر ، ولد قبل الهجرة بخمسين سنة ، وأسلم قبل الفتح سنة ٨هـ ، وقيل بين الحديبية وخيبر ، ولاه الرسول إمرة جيش « ذات السلاسل » وأمده بأبي بكر وعمر ثم استعمله على عمان . توفي سنة ٤٣هـ بالقاهرة . انظر الإصابة ١٢٢/٧ ، تهذيب التهذيب ٣٥٢/٤ .

(٥) ذات السلاسل : هي غزوة لخم وجذام ، وأمير الجيش فيها عمرو بن العاص بعثه إلى بلاد بَلَيّ وعذره ، وبني القين ليستنفرهم إلى الإسلام ويتألفهم بذلك ، ومنع عمرو الناس من إيقاد النار ليلاً مع طلب الجيش ذلك مخافة أن يعلم العدو عددهم وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل ؛ لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا .. وقيل نسبة إلى ماء يقال له : السلسل . انظر فتح الباري ٧٤/٨ ، ٧٥ .

(٦) الفتاوى ٢٥٤/٢٨ ، ٢٥٦ .

« وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب فإن الولاية لها ركنان : القوة والأمانة ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ (١) . والقوة في كل ولاية بحسبها ... والأمانة ترجع إلى خشية الله وألا يشترى بآياته ثمناً قليلاً ، وترك خشية الناس » (٢) ، وعند الحديث عن قول القائل : إن عناية الإمام بأهل الحاجات تجب أن تكون فوق عنايته بأهل المصالح العامة التي لا بد للناس منها في دينهم ودنياهم كالجهاد والولاية والعلم، قال : ليس بمستقيم لوجوه [ثم ذكرها ومنها] الوجه الرابع : أن يقال : العطاء إذا كان لمنفعة المسلمين لم ينظر إلى الآخذ هل هو صالح النية أو فاسدها ، ولو أن الإمام أعطى ذوي الحاجات العاجزين عن القتال ، وترك إعطاء المقاتلة حتى يصلحوا نياتهم لأهل الإسلام لاستولى الكفار على بلاد الإسلام . فإن تعليق العطايا في القلوب متعذر . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم)(٣) ، وقال :(إني لأعطي رجالاً وأدع رجالاً والذين أدع أحب إليّ من الذين أعطي ، أعطى رجالاً لما في قلوبهم من الهلع والجزع ، وأكل رجالاً لما في قلوبهم من الغنى والخير) (٤) .

« ... وفي غنائم حنين أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يعط المهاجرين والأنصار ، والذين أعطاهم ... عامتهم أغنياء لا فقراء ، فلو كان العطاء للحاجة مقدماً على العطاء للمصلحة العامة لم يعط النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الأغنياء السادة المطاعين في عشائرهم ، ويدع المهاجرين والأنصار الذين هم أحوج منهم وأفضل . فإن العطاء إنما هو بحسب مصلحة دين الله ، فكلما كان لله أطوع ولدين الله أنفع كان العطاء فيه أولى، واعطاء محتاج إليه في إقامة الدين وقمع أعدائه وإظهاره وإعلائه أعظم من إعطاء من لا يكون كذلك وإن كان الثاني أحوج ... » (٥) .

ومراعاة المصلحة تأتي أيضاً في العبادات من حيث إطالة القيام وتقصيره فهذا يتنوع بتنوع المصالح « فتستحب إطالة القيام تارة ، وتخفيفه أخرى في الفرض والنفل بحسب

---

(١) سورة القصص آية (٢٦) . (٢) الفتاوى ٢٥٣/٢٨ وما بعدها حتى ٥٩٧ .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله بأقوام لا خلاق لهم ، أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، فتح الباري ١٧٩/٦ . ومسلم في كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ، صحيح مسلم ١٠٦/١ .

(٤) أخرجه البخاري عن عمرو بن تغلب في كتاب الجمعة ، باب من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد ، فتح الباري ٤٠٣/٢ .

(٥) الفتاوى ٥٧٨/٢٨ ، ٥٧٩ .

الوجـوه الشرعيـة من غير أن يكـون المشروع هو الـتسوية بين مـقادير ذلك في جـميع الأيام ، فعـلم أن التسـوية في مقـادير العبـادات البدنيـة في الظاهـر لا اعتبار بـه إذا قارنه مصلحة معتبرة ، ولا يلزم مـن التساوي في القدر التساوي في الفضل ، بل قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبـي صلى الله عليه وسلم أن : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن) [1] » [2] .

وفي نـص جميل حـوى قواعد نـادرة في مسـألة المصالـح والحاجات والـضرورات رأيت نقلـه بكامله لأنه يـوضح مدى العمق الفـكري في هذه الأمور عنـد شيخ الإسلام يقول رحمه الله:« مسـألة » وهـو ما إذا كـان لا يأتي لـه [أي القـائم بـالملـك والإمارة ونحوه] فعل الحسنة الراجحة إلا بسيئة دونها في العقاب : فلها صورتان :

« إحداها إذا لم يـكن إلا ذلـك فهـنا لا يـبقـى سيئة ، فـإن ما لا يـتم الـواجب أو المستحب إلا به فهـو واجب أو مستحب ، ثم إن كانت مفسدته دون تـلك المصلحة لم يكن محظوراً ، كأكل الميتة للمضـطر .. كلبس الحرير في الـبرد وهذا باب عظيم ، فإن كثيراً من الـناس يستشعر سوء الـفعل ولا ينظر إلى الحاجـة المعارضة له التي يحـصل بها من ثواب الحـسنة ما يربـى على ذلك ، بحـيث يصير المحـظور مندرجاً فـي المحبوب ، أو يصير مباحاً إذا لم يعارضه إلا مجرد الحاجة . كما أن من الأمور المباحة ، بل المأمور بها إيجاباً ، أو استحـباباً ، ما يعارضها مفسدة راجـحة تجعلها محرمة أو مرجـوحة كالصيام للمريض والطهارة بالماء لمن يخاف عليه الموت ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (قتلوه قتلهم الله ...) [3] .

وعلى هذا الأصل يبنى جواز العدول أحياناً عن بعض سنة الخلفاء ،كما يجوز ترك بعض الـواجبات الشرعـية وارتكاب بعض مـحظوراتها لـلضرورة ، وذلك فيـما إذا وقع العـجز عـن بعـض سنتهم ، أو وقـعت الـضرورة إلـى بعض مـا نهـوا عنـه ، بأن تـكون الواجبات المقصودة بالإمارة لا تقوم إلا بما مضرته أقل .

« الصورة الثانية إذا كـان يمـكـن فعـل الحسنـات بـلا سيئـة ، لكـن بمشـقـة لا

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة قل هو الله أحد ، صحيح مسلم ١/٥٥٦ .

(٢) التفسير الكبير ٢/٢٨٥ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم /٩٧ .

(٣) حديث حسن عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أخرجه أبو داود كتاب الطهارة ، باب في المجروح يتيمم ، سنن أبي داود ١/٢٤٠ رقم ٣٣٧ . ابن ماجه كتاب الطهارة ، باب في المجروح تـصيبه الجنابة فيخاف على نفسه ، سنن ابن ماجه ١/١٨٩ رقم ٥٧٢ .

تطيعه نفسه عليها ، أو بكراهة من طبعه بحيث لا تطيعه نفسه إلى فعل تلك الحسنات الكبار المأمور بها إيجاباً أو استحباباً إن لم يبذل لنفسه ما تحبه من بعض الأمور المنهي عنها التي إثمها دون منفعة الحسنة ... مثل من لا تطيعه نفسه إلى القيام بمصالح الإمارة – من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وأمن السبل وجهاد العدو وقسمة المال إلا بحظوظ منهي عنها – من الاستئثار ببعض المال والرياسة على الناس ، والمحاباة في القسم ، وغير ذلك من الشهوات .

وكذلك في الجهاد : لا تطيعه نفسه على الجهاد إلا بنوع من التهور . وفي العلم لا تطيعه نفسه على تحقيق علم الفقه ، وأصول الدين إلا بنوع من المنهي عنه من الرأي والكلام ، ولا تطيعه نفسه على تحقيق علم العبادة المشروعة والمعرفة المأمور بها إلا بنوع من الرهبانية .

فهذا القسم أكثر في دول الملوك ، إذ هو واقع فيهم ، وفي كثير من أمرائهم وقضاتهم وعلمائهم وعبادهم ، أعني أهل زمانهم ، وبسببه نشأت الفتن بين الأمة .

... وحكم الشريعة أنهم لا يؤذن لهم فيما فعلوه من السيئات ، ولا يؤمرون به ولا يجعل حظ أنفسهم عذراً لهم في فعلهم ، إذا لم تكن الشريعة عذرتهم ، لكن يؤمرون بما فعلوه من الحسنات ويحضون على ذلك ، ويرغبون فيه وإن علم أنهم لا يفعلونه إلا بالسيئات المرجوحة . كما يؤمر الأمراء بالجهاد وإن علم أنهم لا يجاهدون إلا بنوع من الظلم الذي تقل مفسدته بالنسبة إلى مصلحة الجهاد ، ثم إذا علم أنهم إذا نهوا عن تلك السيئات تركوا الحسنات الراجحة الواجبة لم ينهوا عنها ، لما في النهي عنها من مفسدة ترك الحسنات الواجبة ، إلا أن يمكن الجمع بين الأمرين ، فيفعل حينئذ تمام الواجب كما كان عمر بن الخطاب يستعمل من فيه فجور لرجحان المصلحة في عمله ، ثم يزيل فجوره بقوته وعدله .

ويكون ترك النهي عنها حينئذ ، مثل ترك الإنكار باليد ، أو بالسلاح إذا كان فيه مفسدة راجحة على مفسدة المنكر ، فإذا كان النهي مستلزماً في القضية المعينة لترك المعروف الراجح : كان بمنزلة أن يكون مستلزماً لفعل المنكر الراجح . كمن أسلم على ألا يصلي إلا صلاتين ، كما هو مأثور عن بعض من أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أسلم بعض الملوك المسلطين وهو يشرب الخمر أو يفعل بعض المحرمات ، ولو نهي عن ذلك ارتد عن الإسلام .

ففرق بين ترك العالم أو الأمير لنهي بعض الناس عن الشيء إذا كان في النهي

مفسدة راجحة ، وبين إذنه في فعله ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال [1] .

وبعض الأمور المباحة قد يساء استخدامها أو يقترن بها ما تكون عوناً على الظلم والعدوان « كما يستعان بالأكل والشرب » على الكفر والفسوق والعصيان ، وقد يقترن بانعدام العقل بسبب محرم ما يمنع أن يكون مفسدة إذا استعين به على ترك الإثم والعدوان ، وعن بعض هذه المعاني يقول [2] : « وإذا لم يجتمع التمييز واللذة ، بل إما صحو بلا لذة ، أو لذة بلا صحو ، فقد يترجح هذا تارة ، وهذا تارة . فأما المؤمنون فالصحو خير لهم . فإن السكر يصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء وكذلك العقل خيرٌ لهم ، لأنه يزيدهم إيماناً . وأما الكفار ، فزوال عقل الكافر خير له وللمسلمين ، أمّا له : فلأنه لا يصده عن ذكر الله وعن الصلاة بل يصده عن الكفر والفسق .

... ولهذا كنت آمر أصحابنا ألا يمنعوا الخمر عن أعداء المسلمين من التتار والكرج ونحوهم ، وأقول : إذا شربوا لم يصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة ، بل عن الكفر والفساد في الأرض . ثم إنه يوقع بينهم العداوة والبغضاء ، وذلك مصلحة للمسلمين ، فصحوهم شرٌ من سكرهم ، فلا خير في إعانتهم على الصحو بل قد يستحب - أو يجب - دفع شر هؤلاء بما يمكن من سكر وغيره فهذا في حق الكفار ، ومن الفساق الظلمة من إذا صحا كان في صحوه من ترك الواجبات وإعطاء الناس حقوقهم ، ومن فعل المحرمات والاعتداء في النفوس والأموال ، ما هو أعظم من سكره، فإنه إذا كان يترك ذكر الله والصلاة في حال سكره ، ويفعل ما ذكرته في حال صحوه لم يكن سكره شراً من صحوه ، وإذا كان في حال صحوه يفعل حروباً وفتناً ، لم يكن في شربه ما هو أكثر من ذلك ، ثم إذا كان في سكره يمتنع عن ظلم الخلق في النفوس والأموال والحريم ، ويسمح ببذل أموال - تؤخذ على وجه فيه نوع من التحريم - ينتفع بها ، كان ذلك أقل عذاباً ممن يصحو فيعتدى على الناس في النفوس والأموال والحريم ، ويمنع الناس الحقوق التي يجب أداؤها .

فالحاصل أنه تجب الموازنة بين الحسنات والسيئات التي تجتمع في هذا الباب وأمثاله وجوداً وعدماً ... فعليك بالموازنة في هذه الأحوال والأعمال الباطنة والظاهرة حتى يظهر لك التماثل والتفاضل ، وتناسب أحوال أهل الأحوال الباطنة لذوي الأعمال الظاهرة ، لا سيما في هذه الأزمان المتأخرة التي غلب فيها خلط الأعمال الصالحة

---

(١) الفتاوى ٢٨/٣٥ - ٣٢ .

(٢) وذلك أثناء كلامه عن مسألة السكر والغناء والذوق والوجد .

بالسيئة في جميع الأصناف ، لنرجح عند الازدحام والتمانع خير الخيرين ، وندفع عند الاجتماع شر الشرين ، ونقدم عند التلازم : – تلازم الحسنات والسيئات – ما ترجح منها . فإن غالب رؤوس المتأخرين وغالب الأمة من الملوك والأمراء والمتكلمين والعلماء والعباد وأهل الأموال ، يقع غالباً فيهم ذلك » (١) .

ثم بيّن واجب السائرين على منهج الخلفاء الراشدين نحو هذه الأمور قائلاً : أن يعاملوا الناس بما أمر الله به ورسوله من العدل بينهم ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإقامة الحدود بحسب الإمكان إذ الواجب هو الأمر بالمعروف وفعله ، والنهي عن المنكر وتركه بحسب الإمكان ، فإذا عجز أتباع الخلفاء الراشدين عن ذلك قدموا خير الخيرين حصولاً ، شر الشرين دفعاً ... » (٢).

وقال راداً أو ماقتاً لقول من يقول : إذا غزا الكفار بلاد المسلمين فإنه لا يقاتل مع الإمام الفاجر :

« وصاحب هذا القول تورع فيما يظنه ظلماً فوقع في أصناف ما تورع عنه بهذا الورع الفاسد ... » (٣) ، وما أعان على طاعة الله فهو محمود في حال إعانته وهذا لا يعني أنه محمود مطلقاً فـ « كل ما يعين على طاعة الله من تفكر أو صوت ، أوحركة ، أو قوة ، أو مال أو أعوان ، أو غير ذلك ، فهو محمود في حال إعانته على طاعة الله ومحابه ومراضيه ، ولا يستدل بذلك على أنه في نفسه محمود على الإطلاق ويحتج بذلك على أنه محمود إذا استعين به على ما هو من طاعة الله ، ولا يحتج به على ما ليس هو من طاعة الله بل هو من البدع في الدين أو الفجور في الدنيا ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم :(ليس منا من لم يتغن بالقرآن) (٤) يقتضي أن التغني المشروع هو بالقرآن ، وأن من تغنى بغيره فهو مذموم ، ولا يقال هذا يدل على استحباب حسن التغني .... » (٥) .

ولا يجوز للمسلم طلب الولاية إلا إذا كان لجلب مصلحة دينية أو دفع مضرة ، يقول عن طلب يوسف عليه السلام للولاية في قوله تعالى عنه : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٦) : فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن

(١ ، ٢) الاستقامة ٢/١٦٤ – ١٦٨ . (٣) منهاج السنة ٦/١١٨ .

(٤) أخرجه أبو داود عن سعد بن أبي وقاص كتاب الصلاة ، باب استحباب الترتيل في القرآن ، سنن أبي داود ٢/١٥٦ رقم ١٤٦٩ . وصححه الحاكم في المستدرك ١/٥٦٩ ووافقه الذهبي في التلخيص .

(٥) الاستقامة ١/٢٩١ . (٦) سورة يوسف آية (٥٥) .

هذا مناقضاً للتوكل ، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه » (١) .

ويرى أنه يلزم سد الذرائع إلى الفساد ما لم يعارضها مصلحة راجحة « ولهذا كان النظر الذي يفضي إلى الفتنة محرماً إلا إذا كان لحاجة راجحة مثل : نظر الخاطب والطبيب وغيرهما ، فإنه يباح النظر للحاجة مع عدم الشهوة ، وأما النظر لغير حاجة إلى محل الفتنة فلا يجوز » (٢).

فـ « الشر والمعصية ينبغي حسم مادته وسد ذريعته . ودفع ما يفضي إليه ، إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة »(٣) .

وقد يفعل المرء ما هو ممنوع شرعاً إذا كان في تحقيقه مصلحة راجحة لا تتم إلا بذلك أو تفويت الترك يترتب عليه أضرار تربو على مصالح فعله، مثاله : مشابهة اليهود والنصارى ونحوهم من الكفار في شيء من هديهم الظاهر محرمة إلا أننا نرى أنه « قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر – إذا كان في ذلك مصلحة دينية : من دعوتهم إلى الدين والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك، أو دفع ضررهم عن المسلمين، ونحو ذلك من المقاصد الصالحة » (٤) .

وما أحدثه الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم هل يرد على أنه بدعة وعمل محدث ؟ أم يقبل على أساس أنه احتياج لهم ومنفعة ؟ يجيب على هذا بقوله : «والضابط في هذا – والله أعلم – أن يقال : إن الناس لا يحدثون شيئاً إلا لأنهم يرونه مصلحة ، إذ لو اعتقدوه مفسدة لم يحدثوه ، فإنه لا يدعو إليه عقل ولا دين ، فما رآه المسلمون مصلحة نظر في السبب المحوج إليه ، فإن كان السبب المحوج إليه أمراً حدث بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن تركه النبي صلى الله عليه وسلم من غير تفريط منا ، فهنا قد يجوز إحداث ما تدعو الحاجة إليه ، وكذلك إن كان المقتضي لفعله قائماً على عهد النبي صلي الله عليه وسلم لكن تركه لمعارض قد زال بموته . وأما ما لم يحدث سبب يحوج إليه ، أو كان السبب المحوج إليه بعض ذنوب العباد ، فهنا لا يجوز الإحداث .

فكل أمر يكون المقتضي لفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم موجوداً لو كان مصلحة ولم يفعل : يعلم أنه ليس بمصلحة ، وأما ما حدث المقتضي له بعد موته من غير معصية الخالق : فقد يكون مصلحة ... فأما ما كان المقتضي لفعله موجوداً لو

(١) التفسير الكبير ٥/٥٧ .
(٢) التفسير الكبير ٥/٤١٢ .
(٣) الفتاوى ١٨/٣٧٠ .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم/١٧٦ – ١٧٧ .

كان مصلحة ، وهو مع هذا لم يشرعه فوضعه تغيير لدين الله تعالى ... » (١) . والقول بأن المصالح والمفاسد والحاجات والضروريات مؤثرة في الحكم والتقويم والإمضاء والإلغاء أمر خطير لا يترك بابه مشروعاً لكل أحد بدون ضابط ولا رابط . والضابط والرابط في نظر ابن تيمية أن يكون معرفة المصالح والمفاسد ومقاديرها « بميزان الشريعة فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر ، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام ... » (٢) .

وبهذا يتبين أن مسألة الاهتمام بالمصالح والمفاسد واعتبار الحاجة والضرورة والموازنة بينها والأخذ بخير الخيرين وأخف الضررين وأهون الشرين وأقل المفسدتين مسألة ذات شأن كبير في منهج ابن تيمية الدعوي الإصلاحي . والكلام فيها يحتاج إلى رسالة مستقلة ولكن حسبنا في هذا المقام الإشارة المختصرة .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٢) الاستقامة ٢/٢١٧ .

الفصل الخامس

معرفته لثقافة عصره

وتحته مبحثان :

الأول : إلمامه بمعارف وعلوم عصره.

الثاني : معرفته بواقع مجتمعه.

المبحث الأول

إلمامه بعلوم ومعارف عصره

الحياة ومن فيها تتأثر بجميع أنماطها بالأفكار المطروحة فيها ، ولا يمكن المكابرة في ذلك . والإنسان يتأثر بأفكار وسلوكيات بني جنسه كما تقدم في النظرة الواقعية للإنسان ، والإنسان هو مرتكز اهتمام الداعية ، فالتغيرات الفكرية والسلوكية السلبية فيه لا بد من إصلاحها ، وهذا يقتضي معرفة الأسباب التي أحدثت هذا التغير ، وقد سبق قول ابن تيمية في الفصل الأول أن تعلم اللغة يورث تأثيراً في السلوك والأخلاق ، وأن المشابهة في الظاهر تورث مشاكلة وميلاً في الداخل . وأيضاً قرر أن ترجمة المنطق وعلوم اليونان فتحت على المسلمين أبواب شر وانحراف عقائدي وفكري لم يكن موجوداً قبل ذلك .

ومن أجل هذا وغيره غضب النبي صلى الله عليه وسلم على فاروق الإسلام – الذي يفر الشيطان منه – لما رأى بيده ورقة من التوراة ومنعه من قراءتها (١) .

وأيضاً علماء السلف يمنعون من مجالس أهل الفلسفة والكلام ومن مطالعة كتبهم خوفاً من التأثر بها لمن عنده قابلية التأثر .

ومن جانب آخر فإن معرفة الداعية لعلوم وثقافة وتقنيات عصره يجعله في مستوى أفراد هذا العصر أو متفوقاً عليهم . ويكون لديه القدرة على معرفة اهتمامات الناس العقلية والنفسية ومعرفة المؤثرات مما يجعله أقدر على دراسة أدواء النفوس ورسم منهج لعلاجها فيستأصل الداء من منبعه .

ومعرفته لها تمكنه من تشجيع المفيد والبناء منها ، ومحاربة الضار والوقوف ضده. وتمكنه من الاستدلال والاستشهاد بما يكون صالحاً لذلك أثناء دعوته وتربيته . فكلما كان الداعية ملماً بأنواع من العلوم كلما كان لديه القدرة على امتلاك مشاعر الناس وانبهارهم به ، ومن ثم الثقة بأقواله والإعجاب بها وهذا يولد القبول لما يقوله .

وابن تيمية رحمه الله بلغ في معرفة علوم وثقافة عصره وما قبل عصره شأواً بعيداً ومنزلة عالية ، والمطالع لتراثه العلمي والفكري وتراث من كتب عنه يجد أنه لم يكن

---

(١) حديث حسن من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أخرجه أحمد في مسنده ٣٨٧/٣ ، وابن أبي عاصم في السنة ٢٧/١ رقم ٥٠ وحسنه الألباني .

علم من العلوم إلا وله فيه معرفه ودراية ، إما أن تكون تفصيلية أو إجمالية .

ويندرمن علماء السلف من كان بهذه القدرة الشمولية لأنواع العلوم والمعارف (١)، وهذا جعل بعض المجلات الإسلامية (٢) في عصرنا تصفه بأنه جامعة متكاملة لأنواع العلوم ليس فقط حفظاً وتدويناً بل نقداً وتقويماً وفرزاً متقناً منصفاً عادلاً ، حتى استطاع بهذه المعرفة النقدية أن يخلص الأمة من كثير من شوائب الضلالات والبدع خصوصاً ما يتعلق بالمنطق والفلسفة والكلام والتصوف ، وكذلك ما يتعلق بالعلوم العقلية الأخرى .

وبيّن ما يتعارض مع الشريعة من كل هذه العلوم وما لا علاقة له بالشريعة والدين ، وما تعارض مع الشريعة من هذه العلوم بيّن نوع هذا التعارض وخطورته ، وبيّن ما يمكن الاستفادة منه من هذه العلوم . ولكنه يقرر حقيقة لا تقبل عنده ولا عند أحد من السلف ومن تبعهم نقاشاً وهي أن شريعة الله لا يتوقف فهمها وإدراكها على شيء من هذه العلوم وإن كانت هي بنفسها علوماً صحيحة فيقول :

« مثل هذه المسائل لا يحتاج إليها الدين ، كما لا يحتاج إلى مسائل الهيئة والتشريح ، وإن كان العلم بها مما ينتفع به في الدين ، كما ينتفع بالحساب والطب ، وكما ينتفع بمسائل النحو واللغة ونحو ذلك » (٣) .

وابن تيمية عمد إلى علوم عصره فدرسها دراسة وافية وإن لم يكن في بعضها خصوصاً العقلية كالطب والهندسة ونحوها ملماً إلمام المتخصصين بها ، لذا كان من منهجه الرجوع إلى أصحاب الاختصاص والإفادة من علمهم وخبرتهم سواء كانوا أحياء أم ميتين ، وحذر من أنصاف العلماء مستشهداً بقول : « بعض الناس : أكثر ما يفسد الدنيا : نصف متكلم ، ونصف متفقه ، ونصف متطبب ، ونصف نحوي ، هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان » (٤) .

وقد جاء على الأمة زمان أحجمت فيه عن العلوم العقلية ، وانشغلت بالفلسفة والكلام ومالت إلى اللهو والترف ، بينما أعداؤها أقبلوا عليها حتى أنهم سرقوا علوم المسلمين ونسبوها لأنفسهم ، وفي هذا العصر يوجد فئة قليلة أيضاً ترى أن العلوم العقلية الموجودة علوم ضارة ولا يجوز تعلمها ولا تعليمها وأنها زاحمت علم الشريعة ، وأنها محدثة مبتدعة في المسلمين ، وينادون بترك منجزات العصر ، وهذه وإن كانت طائفة

---

(١) انظر مقدمة المحقق لمنهاج السنة ١/٧٤٦ - ٨١ .   (٢) مجلة البيان .
(٣) الدرء ١٠/٣١٥ .   (٤) الفتاوى ٥/١١٨ - ١١٩ .

نشازاً في المجتمع الإسلامي وتفكيراً نادراً إلا أنني أحب أن أقرر من خلال هذا الموضوع ما يراه شيخ الإسلام وما نفذه هو بنفسه في هذا المجال من الاهتمام بالعلوم العقلية وغيرها ، مع العلم أنه قد مرّ معنا أن ابن تيمية يعد الآيات في الأنفس والآفاق أدلة صادقة نستدل بها على أمور عقائدية وغير عقائدية .

والآيات والبراهين الدالة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن من عند الله « كثيرة متنوعة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ... » (١) .

وهي متجددة في الأزمنة والأقوام « وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء ، وكان يُظْهِرُ لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ما بيّن به أن القرآن حق كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) . أخبر سبحانه أنه سيري العباد الآيات في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم أن القرآن حق ، فإن الضمير عائد إليه » (٣) ،« ... فإن الآيات إذا ظهرت ، فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مشاقاً ، ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤) فأخبر أنه سيري عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين أنه حق » (٥) .

وذكر ابن تيمية أن شهادة الله للقرآن ولمحمد تكون بعدد من الأشياء منها ما هو بأقواله المنزلة على الأنبياء السابقين ، وبأقواله المنزلة على النبي محمد « وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون » (٦) .

وكذلك ذكر أن دلائل النبوة كثيرة « لكن الآيات نوعان : منها ما مضى وصار معلوماً بالخبر كمعجزات موسى وعيسى .

ومنها ما هو باق إلى اليوم [ثم ذكر أمثلة لها إلى أن قال] وكالآيات التي يظهرها الله وقتاً بعد وقت ... » (٧) .

وأدلة العلم في نظر ابن تيمية مجالاتها ثلاث وهن آيات « فالآيات أفقية ، وأرضية،

---

(١) التفسير الكبير ١٤٤/٢ ، وانظر ١٤٨ . (٢) سورة فصلت الآيات (٥٢ ، ٥٣) .
(٣) التفسير الكبير ١٣٩/٢ - ١٤٠ . (٤) سورة فصلت آية (٥٣) . (٥) التفسير الكبير ١٤٠/٢ .
(٦) السابق /١٤١ (٧) السابق /١٤٨ .

وقرآنية وهي أدلة العلم » ، وبموجب قول ابن تيمية المستخلص من النصوص القرآنية فإن كل ما يصل إليه العقل البشري من علم واكتشاف في مجال النفس البشرية ، وفي مجال الآفاق ، وفي مجال الأرض وما فيها فإنه مما أراه عباده آية على عظمته وصدق وحيه ، ونبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يقبل ذلك وأعرض عنه فإنه من المشاقين إما جهلاً وإما عناداً .

فكلما كان العلم بالآيات أكبر كان الاستدلال أقوى وأكثر إقناعاً .

وابن تيمية يرى أنه ليس هناك شيء لا يحسن التحدث عنه ، فمجال العلم والتعليم والتكلم في المعارف لا يحده حد وليس له مقدار معين مادام الأمر منضبطاً بضوابط تحقق المصالح وتدفع المفاسد منها :

١ - ألا يكون ما يتكلم به باطلاً فالكلام بالباطل مذموم .

٢ - أن يكون الكلام بعلم ومعرفة قائم على الأدلة .

٣ - أن يكون المتحدث إليهم لا يعجزون عن الفهم . فما دام الكلام في هذه الأطر فإنه كلام حق نافع محمود غير مذموم (١) . ويرى أن الفلاحة ، والصناعة ، والنساجة ، والبناية ، وما ماثلها مما يحتاجه الناس قد يكون واجباً في حق أهله وللحاكم أن يلزمهم بالعمل في صناعتهم - والإنتاج للمسلمين « ومن ذلك أن يحتاج الناس إلى صناعة ناس، مثل حاجة الناس إلى الفلاحة والنساجة والبناية فإن الناس لا بد لهم من طعام يأكلونه ، وثياب يلبسونها ، ومساكن يسكنونها فإذا لم يجلب لهم من الثياب ما يكفيهم كما كان يجلب إلى الحجاز في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ... احتاجوا إلى من ينسج لهم الثياب ، ولا بد لهم من طعام إما مجلوب من غير بلدهم وإما من زرع بلدهم ... وكذلك لا بد لهم من مساكن يسكنونها فيحتاجون إلى البناء فلهذا قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعي ، وأحمد بن حنبل وغيرهم كأبي حامد الغزالي(٢) ، وأبي الفرج بن الجوزي (٣) وغيرهم : إن هذه الصناعات فرض على الكفاية ، فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها ، والمقصود هنا : أن هذه الأعمال التي هي فرض على الكفاية

---

(١) انظر الدرء ٧/٣٣٠ . (٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٦٣) .

(٣) هو : عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي علامة عصره في التاريخ والحديث .. ولد ببغداد سنة ٥٠٨هـ ، وتوفي سنة ٥٩٧هـ ببغداد . انظر وفيات الأعيان ٣/١٤٠ ، الأعلام ٣/٣١٦ .

متى لم يقم بها غير الإنسان صارت فرض عين عليه ، لا سيما إن كان غيره عاجزاً عنها، فإذا كان الناس محتاجين إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم صار هذا العمل واجباً يجبرهم ولي الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل ... ولا يمكن الناس من ظلمهم بأن يعطوهم دون حقهم ... » (١) .

وبعض هذه المهن والحرف والأعمال موجود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول أثناء حديثه عن المضاربة كعمل من أعمال التجارة :« فعلم أنها كانت معروفة بينهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة ، والجزارة » (٢) .

فهذه الأعمال والمهن والحرف أمر معروف معلوم عند النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن كان فيه أعلم وأتقن فهو مقدم على غيره ، وما دامت من احتياجات الناس فتسهيل أمورها وتيسير الحصول عليها وتطويرها أمر مطلوب ، وهذا لا يكون إلا بعلم منبثق من عدد من التجارب العلمية اليقينية ، والتجربة مصدر من مصادر المعرفة اليقينية كما سبق بيانه .

وكل جيل لا بد له من أن يعلم تجارب السابقين ونتائجهم حتى يبدأ من حيث انتهوا ويعلم كيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، وكل فن ومجال من هذه المجالات صار له قواعد وقوانين يلزم شرحها وبيانها من قبل المختصين بها .

وفي موضع يعقد مقارنة بين علم الطب والكلام فيقول :« والأطباء كلامهم وعلمهم أنفع وأولئك أكثر ضلالاً وأقل نفعاً .. بخلاف الطب المحض فإنه علم نافع .. بل إمام صناعة الطب بقراط له فيه من الكلام الذي تلقاه أهل الطب بالقبول ووجدوا مصداقه بالتجارب وله فيها من القضايا الكلية التي هي عند عقلاء بني آدم من أعظم الأمور» (٣).

إنه يتعامل مع العلوم على أنها مصلحة للإنسان قائمة على نتاج عقلي لخدمة الأمة ، وما دام أنه لا ضرر فيها فالدين لا يتعارض مع العقل ولا يقف أمام النافع المفيد أو الذي غلب خيره شره ونفعه ضرره ، يقول رحمه الله : « ... بل كل ما علم بالعقل الصريح فلا يوجد عن الرسول إلا ما يوافقه ويصدقه » (٤) .

ويتحدث عن علم الحساب والهندسة وأنها علم يقيني لا يحتمل النقيض ألبتة (٥) .

---

(١) الفتاوى ٧٩/٢٨ ، ٨٢ . (٢) الفتاوى ١٩٦/١٩ .

(٣) الفتاوى ٢١/٩ . (٤) الرد على المنطقيين /٢٦٠ . (٥) انظر الفتاوى ١٢٦/٩ .

ويقول عن الجبر والمقابلة إنهما حساب صحيح « وقد كان لأبي وجدّي – رحمهما الله – فيه من النصيب ما قد عرف . ولا يعني كونها صحيحة أنها لازمة لمعرفة الحق الشرعي فلا يعرف إلا بها ، من تصور هذا فهو مخطئ ولذا قال :« وقد بينا أنه يمكن الجواب عن كل مسألة شرعية جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم بدون حساب الجبر والمقابلة ... » [1] .

وحينما تكلم عن معرفة « القبلة » وأن بعض الناس يقول : لا يمكن معرفتها إلا بمعرفة الأطوال والعروض للبلاد تحدث عن خطوط العرض والطول وعلاقتها بخط الاستواء ، مما يدل على معرفة ابن تيمية لعلوم الجغرافيا قال : « وعرض البلد هو بعد ما بينه وبين خط الاستواء الموازي لدائرة معدل النهار ، وذلك يعرف بارتفاع القطب الشمالي » [2] . ثم تكلم عن كيفية معرفة بعد البلد عن خط الاستواء ، ثم تكلم عن خط الطول وأنه ليس له حد في السماء يضبط به إذ هو بحسب المعمور من الأرض ... الخ [3] .

ثم قال : « فهذا علم حسابي يعرف بالعقل ، لكن معرفة المسلمين بقبلتهم في الصلوات ليست موقوفة على هذا » [4] .

وعن علم الأحوال الفلكية يقول:« وكذلك ما يعلم بالمشاهدة ، والحساب الصحيح من أحوال الفلك علم صحيح لا يدفع ، والأفلاك مستديرة ، ليست مضلعة ،ومن قال إنها مضلعة أو جوز ذلك من أهل الكلام فهو وأمثاله ممن يرد على الفلاسفة وغيرهم ما قالوه من علم صحيح معقول مع كونه موافقاً للمشروع ، وهذا من بدع الكلام الذي ذمه السلف وعابوه .. » [5] .

وذكر أن الفلك مستدير وأن الإجماع على ذلك من سلف الأمة من الصحابة ومن بعدهم ، ثم قال [6] :« وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في جواب مسألة سئلنا عنها في هذا الباب فذكرنا دلالة الكتاب والسنة على ذلك موافقا لما علم بالحساب العقلي » [7] . وتكلم عن الفلك واستدارته وأن حركته دولابية وعند القطبين رحاوية تشبه حركة الرحى [8] .

وتكلم عن الفرق بين طلوع الشمس وطلوع شعاعها ، مما يترتب عليه السبب في

---

(١) الرد على المنطقيين /٢٥٨ . (٢) الرد على المنطقيين /٢٥٩ . (٣) انظر السابق /٢٥٩ .
(٤) السابق /٢٥٩ . (٥) السابق /٢٦٠ . (٦) انظرالسابق /٢٦٠ – ٢٦١ .
(٧) السابق /٢٦١ . (٨) انظر الفتاوى ٥/٤٦٨ .

قصر حصة العشاء وطول حصة الفجر في الشتاء والعكس في الصيف (١) ، وتكلم عن الشمس وحركتها على الكرة الأرضية في الغروب والشروق (٢) .

وفي رده على من يقول إن العلة والمعلول يقترنان في الزمان فيكون حدوثهما في آن واحد ، أكد على أن هذا غير ممكن فالعلة دائماً تسبق المعلول ، وتسابق العلة مع المعلول كتسابق الصوت مع الحركة ، إذ أن الصوت يكون دوماً عقيب الحركة ... وإذا كانت الحركة متصلة والزمان متصلاً فليس معناه أن الاثنين : الحركة والصوت يحدثان في زمن واحد ، ونفس الشيء يقال على الشعاع مع ظهور الشمس، مع أن الشمس ليست فاعلاً للشعاع بل الشعاع يحدث في الأرض إذا قابل الشمس ما ينعكس عليه ذلك الشعاع ، وكذلك الحركة ليست هي الفاعلة للصوت ولكن الشمس شرط في الشعاع والحركة شرط في الصوت (٣) .

ويتكلم عن المياه : سواء مياه الأمطار أو المياه التي في الأرض وذلك في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ (٤) .

فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع ، والينابيع جمع ينبوع وهو منبع الماء ، كالعين ، والبئر ، فدل القرآن على أن ماء السماء تنبع فيه الأرض ، والاعتبار يدل على ذلك ، فإنه إذا كثر ماء السماء كثرت الينابيع ، وإذا قل قلت ، وماء السماء ينزل من السحاب ، والله ينشئه من الهواء الذي في الجو ، وما يتصاعد من الأبخرة، وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء ، ولا هذا أيضاً معلوم بالاعتبار، فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال ، ويكون فيها أبخرة يخلق منها الماء ، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل . كما إذا أخذنا إناء فوضع فيه ثلج ، فإنه يبقى ما أحاط به ماء ، وهو هواء استحال ماء ، وليس ذلك من ماء السماء ، فعلم أنه ممكن أن يكون في الأرض ماء ليس من ماء السماء ، فلا يجزم بأن جميع المياه من ماء السماء ، وإن كان غالبها من ماء السماء » (٥) . وتكلم عن المياه الجوفية أنها تكون في الشتاء ساخنة وفي الصيف باردة وبيّن سبب ذلك (٦) .

وفي المجلد السابع من التفسير الكبير تكلم عن عدد من المسائل العلمية ، مما يدل على جواز الحديث فيها ،وكلما كان العلم أدق وأعمق كلما كان الحديث أكثر إفادة

(١) السابق /٢٦٦ . (٢) انظر الفتاوى ٤٦٨/٥ . (٣) انظر الرد على المنطقيين /٣٨١ .
(٤) سورة الزمر آية (٢١) . (٥) التفسير الكبير ٣٩/٦ . (٦) انظر التفسير الكبير ٥٤٦/٧ .

وإقناعاً وتأثيراً في القلوب ، وكان أعظم تصوراً لعظمة الرب وكمال قدرته . تحدث عن كيف يتم خلق الإنسان ابتداء من الإيلاج ، وعن خلق النبات والتمر[1] .

وتكلم عن الغذاء منذ أن ينزل إلى المعدة وكيف يتحول [2] .

وتكلم عن كيفية إشعال النار في الزناد ، وعن أمور عملية تتعلق بثقل الهواء وخفته[3] . وتكلم عن الدم الزائد في الجسم ، وأنه في البلاد الحارة يخرج إلى سطح البدن فيناسب الحجامة ، وفي البلاد الباردة يغور داخل العروق فيناسب الفصد [4] ، وتكلم عن أكل الإنسان وأنه في الشتاء والبلاد الباردة أكثر من الصيف ، والبلاد الحارة أقل ، وبيّن سبب ذلك [5] .

وما من شك أن هذه الحقائق توصل إليها ابن تيمية عن طريق العلم والتعلم وبعضها عن طريق الاعتبار ، مما يدلنا على أنه يرى أن العلم بها علم مشروع .

وابن تيمية يدرك أن العقول لا تتوقف عن التفكير والإبداع والاختراع ، وما دامت كذلك « فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصر » [6] في أشياء محدودة ، وكل ما أنتجه العقل من المعارف والعلوم مما يخدم مصلحة الناس في دنياهم وفي دينهم ، وكانت منافعه أعظم من مضاره فهو أمر مقبول لا يتعارض مع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن تصور أن العلم والمعرفة التي تقبل بشرط أن تكون في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فإن ابن تيمية يرد هذا التصور بقوله :« ليس كل علم بعد الرسول يردّ »، والأشياء التي يستعملها الرسول في عباداته وعاداته مما جد في العصور بعده لا يعني ذلك تركها ، يقول رحمه الله :« ليس كل دابة بعد النبي لا تركب » ، وذلك في أثناء حديثه عن الزاد والراحلة في الحج .

مصادر معرفة العلوم نوعان :

النوع الأول : « يحصل بالعقل : كعلم الحساب والطب ، وكالصناعة من الحياكة والخياطة والتجارة ونحو ذلك . فهذه الأمور عند أهل الملل كما هي عند غيرهم ، بل هم فيها أكمل .

وأما ما لا يعلم بمجرد العقل كالعلوم الإلهية ، وعلوم الديانات ، فهذه مختصة بأهل الملل ، وهذه منها ما يمكن أن يقام عليه أدلة عقلية ، وبهذه العلوم : يعلم صحة ما جاء

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣٣٤/٧ ، ٣٣٩ .
(٢) الدرء ٨٩/١ .
(٣) انظر السابق /٣٤٧ .
(٤) انظر السابق /٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ .
(٥) انظر السابق /٥٤٦ .
(٦) انظر السابق /٥٤٦ .

به الرسول صلى الله عليه وسلم وبطلان قول من خالفهم .

النوع الثاني : ما لا يعلم إلا بخبر الرسل ، فهذا يعلم بوجوه ... الخ [1] .

فالعلوم العقلية : العلم بها ومعرفتها متعلقة بالعقل سواء كان هذا العقل مؤمناً أم كافراً ، فإن أي علم منها ثبتت صحته جاز قبوله وتصديقه ، بل هذه العلوم إذا كانت عند المسلمين سواء ابتداءً أو اقتناء فإنها تكون أكمل وأسلم مما لو كانت عند أهل الكتاب ،وهي عند هؤلاء أسلم مما لو كانت عند الكفار .

وأما معرفة ابن تيمية للديانات والنحل والفرق والطوائف فشيء يشبه الخيال ، ويؤدي إلى الانبهار بهذه الشخصية الموسوعية العجيبة التي هي بحق آية من آيات الله في خلقه العجيب وكونه الرحيب ، ولتعلم مدّى معرفة ابن تيمية للتوراة والإنجيل ومعارف النصارى واليهود اقرأ أو تصفح كتابه القيم « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح في أربعة أجزاء »، وكذلك الرسالة القبرصية ونحوها، وفي التفسير في الآيات التي تتحدث عن اليهود والنصارى والتوراة والإنجيل ، فتجده يتحدث وكأن هذه المصادر بين عينيه يقرأ ما فيها ويبيّن الصواب والخطأ مما حرفه اليهود والنصارى ، وتميز بمعرفة فائقة في تطورات التبديل والتغيير ومن كان وراءه وأسباب ذلك ، ومعرفة فرقهم وطوائفهم وعقائد كل واحدة منهم .

وإذا اطلعت على كلامه عن المجوس والمجوسية وعقائدهم ومناسباتهم وطرق عبادتهم وتاريخ تطوراتهم وحركة التغير لديهم قلت كأنه عاش بينهم . وتجد عنده إلماماً كبيراً واطلاعاً واسعاً على الديانات الهندية ، والعقائد المتنوعة والخرافات الكثيرة في تلك القارة .

وأما طوائف وفرق المسلمين أو المنتسبين إلى الإسلام ، فهو يعد بحق مؤرخاً عظيماً من مؤرخي نشأة الفرق وتطوراتها مما فاق به أصحاب الاختصاص في زمانه وغيره . وقد اعترف له بذلك عدد ممن كتب عنه. وأما معرفته بما عندهم من عقائد وأفكار وآراء وما عندهم من انحرافات وأسباب ذلك فشيء فاق فيه أصحاب هذه الفرق والطوائف، حتى إن أصحاب المذاهب يحضرون مجلسه يتعلمون منه مذاهبهم [2] .

ويدخل في معرفة الداعية بثقافة عصره ، المعرفة بأحوال الناس في مجالاتهم المتعددة ومناحي أنشطتهم ،مما يجعل الداعية في حضور مع قومه في مجالهم : الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

---

(١) الفتاوى ٤/ ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية /٣٦ ، ٣٧ ، وذيل طبقات الحنابلة ٣٩٢/٢ ، الرد الوافر / ٥٨ تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٣٩٣هـ .

معرفتـــه بواقـــع مجتمعـــه

أولاً : معرفته بالواقع الاجتماعيّ :

معرفة الداعية بتركيبة المجتمع وتكون سكانه أمر لازم له ليتم الإصلاح على وجه أكمل ، فمعرفة الداعية بالأنساب والقبائل وتفرعها والمشاكل التي بينها وطريقة تعاملها مع بضعها ، وكذلك معرفته بتركيبة الأسرة في المجتمع وطريقة حياتها ، والمؤثرات الإيجابية والسلبية عليها ، وكذلك الأعراف والتقاليد المراعاة في كل أسرة أو قطر أو مدينة ، فإن بعض الأمور يلزم لعلاجها وحلها العلم بما ذكر ، والعلم بالعرف في البلد يؤهل الداعية لحسن التعامل والفصل في نزاعات القوم ومشاجراتهم .

يقول ابن تيمية كلاماً يدل على ذلك « والإجارة : تثبت بالعرف ، والعادة ، كمن دخل الحمام ، أو ركب في سفينة بغير مشارطة ... ونظائر ذلك متعددة (١) ، ونفقة الزوجة عند الخلاف تقديرها يرجع فيه إلى العرف و« نفقة الزوجة تقدر بالعرف .» (٢) وكذلك في حق كل واحد منهما على الآخر يرجع فيه إلى العرف (٣) . وكذلك العقود وما يقتضيه كل عقد ، عند الخلاف فيها يرجع إلى الأعراف « موجبات العقود تتلقى من اللفظ أو من العرف » (٤) .

والعلم بأحوال الناس والخبرة بحيلهم وطرقهم في تنفيذ أغراضهم ومآربهم يعصم الداعية من أن يقع في ألاعيبهم أو من أن يمرروا عليه حيلهم ، وكذلك يجعل له قدرة على كشف ذلك لهم وعلاجهم العلاج المناسب .

وابن تيمية ولا شك من المدركين لأحوال المجتمع ، وهذا من منهجه أنه لا بد من العلم المميز بأحوال المدعوين وقدراتهم ، وكذلك القدرة على الحكم على ما يصدر منهم وتصنيفه في إطار المعروف أو المنكر . ولو أخذنا نصاً من النصوص لنعرف به مدى علم ابن تيمية بحيل الناس للوصول إلى أغراضهم يقول : « فمن الناس من يغتاب موافقةً لجلسائه وأصحابه وعشائره، مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون ، أو فيه بعض ما يقولون ، ومنهم : من يخرج الغيبة في قوالب شتى :

تارة : في قالب ديانة وصلاح ، فيقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ،

(١) الفتاوى ٣٠/٤١٥ .
(٢) الفتاوى ٣٤/٨٣ .
(٣) انظر الفتاوى ١/٩١ .
(٤) الفتاوى ١/٩١ .

ولا أحب الغيبة ولا الكذب وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين أو رجل جيد ولكن فيه كيت وكيت .

وربما يقول : دعونا منه الله يغفر لنا وله وإنما قصده استنقاصه وهضماً لجنابه .

ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة يخادعون الله بذلك ، كما يخادعون مخلوقاً ، وقد رأينا منهم ألواناً كثيرة من هذا وأشباهه ، ومنهم من يرفع غيره رياء فيرفع نفسه ...

ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة ... ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب ... ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب .. ومنهم من يخرج الاغتمام ... وقلبه منطوي على التشفي به .. وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه . ومنهم من يخرج الغيبة في قالب غضب وإنكار .... » (١) .

وفي مجال آخر يقرر أن الإنسان لا يمكن أن يرتكب أمراً منهياً عنه في الشرع إلا وله مطمع فيه عوض جعله يتخطى حدود ربه ، وعرف ذلك من خلال ما رآه من فعل الناس « لأن العادة أن الشهادة المزورة يعتاض عليها ، وإلا فليس أحد يشهد شهادة مزورة بلا عوض - ولو مدح أو اتخاذ يد » (٢) .

ثانياً : معرفته بالواقع الاقتصادي :

والداعية يلزم أن يكون في حضور اقتصادي للمجتمع ؛ لأن الناس دائماً يميلون وينقادون لمن يهتم بشئونهم ومصالح حياتهم وأرزاقهم . والداعية من اللازم له أن يكون ذا معرفة ودراية بالحياة الاقتصادية في المجتمع الذي يعيش فيه وأحوالهم المادية ومداخل ومصارف أرزاقهم والقدرات الاقتصادية الفعالة في البلد .

وكذلك يكون ذا دراية في التسيير الاقتصادي وأدوات الكيل والوزن وطرقه ، والمعاملات المالية والصرافة ونحو ذلك .

وكان رحمه الله على أتم المعرفة وأوسع الاطلاع في المجال الاقتصادي الذي في بلاده ،كما أن لديه الوعي بحيل الناس في البيع والشراء - كما أنه على إلمام واسع بالعرف التجاري في البلد ، وذا قدرة فائقة في معرفة بيع الناس وشرائهم ومقادير المكاييل والموازين ، وذا معرفة بعقود الناس ومواثيقهم في بيوعهم ، وهذا أهّله لأن يكون قطباً تتجه إليه أنظار الناس في كل شئونهم وحل معضلاتهم . وهذا نتيجة لاطلاعه الشامل على الواقع (٣).

---

(١) الفتاوى ٢٣٦/٢٨ . (٢) التفسير الكبير ١٧١/٤ .
(٣) انظر ابن تيمية وفكره السياسي / ١٦١.

الباب الثاني

أصول منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله

الفصل الأول : أصل العقيدة.

الفصل الثاني : أصل العبادة .

الفصل الثالث : أصل الأخلاق.

تمهيد

العلماء الدعاة والمصلحون والمجددون تقابلهم في مجالات حياتهم الإصلاحية لتغيير واقع الأمة والسير بها إلى الأفضل أمور كثيرة تحتاج منهم إلى حلول وأحكام، ومواقف تحتاج إلى من يتصرف معها تصرف المنصف العادل.

والجزئيات في حياتهم وحياة الأمة لا تُعد ولا تُحصى، والحكم في الجزئيات يُعرض لكثير من تفاوت وجهات النظر والاختلاف في الآراء والأحكام، ولهذا يلزم الداعية أن يضع له أصولاً يرد إليها هذه الفروع وكليات يرد إليها الجزئيات؛ حتى يضمن لنفسه الحكم العادل المبني على دراية وعلم، فإن لم يكن له هذه الأصول فإنه يقع في الجهل والظلم لأنه لم يؤسس انطلاقته في دعوته على أصول.

ولا بد أن يعلم الجزئيات كيف وقعت وكيف يردها إلى أصولها وإلا وقع في الكذب والجهل.

لذا فإن ابن تيمية رحمه الله يرى أنه لا بد لكل إنسان من « الأصول الكلية » التي يرد إليها الجزئيات سواء في مجال العقائد أو العبادات أو التعامل مع الناس والحكم عليهم، وحتى يستطيع الآخرون التعامل مع أي إنسان آخر لا بد من هذه « الأصول الكلية » التي تكون مستنداً يعرفه الآخرون ويستطيعون من خلاله الرؤية العلمية لِمَا أسس عليه هذا الإنسان آراءه ومواقفه وتعاملاته.

وإذا لم توجد هذه الأصول الكلية فلا بد أن « .. يتولد فساد عظيم »، يقول رحمه الله في التأكيد على ذلك أثناء مناقشته للشيعة: « ونحن نذكر قاعدة جامعة في هذا الباب لهم ولسائر الأمة فنقول: لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، « فيتولد فساد عظيم » [(١)].

وابن تيمية جعل أصول دعوته إلى الإسلام ما جعله الله أصولاً لدينه: كلها أو كلياتها توقيفية، وأصول دينه لا تكاد تخرج عن: العقائد، والعبادات، والأخلاق. وقد أبرز ابن تيمية الأصول الكلية لهذه الأصول التي يمكن من خلالها أن ترجع الجزئيات إليها. وهذا ما جعل منهج ابن تيمية في الدعوة واضحاً غاية الوضوح سليماً

---

(١) منهاج السنة ٨٣/٥.

من التناقض والاضطراب ، وجعله منهجاً راشداً استوعب مشاكل الأمة وعالج أدواءها، حتى استطاع أن يوقظهـا من رقدتها ويقيلها من عثرتها ، ويلم شتاتها ، ويوقظ فيها روح العزة والكرامة .

والأصول في كل أمر هي أهم شيء فيه ، وإذا سلمت الأصول فغيرها في الغالب تبع لها ؛ لذا انصب كل اهتمام الشيخ في حياته العلمية والعملية على تقرير وتوضيح أصول الدين وفي مقدمتها العقيدة والعبادة وأصول التعامل مع الآخرين ، إلى درجة أن هذا الاهتمام لفت أنظار تلاميذه وغيرهم حتى قال البزار رحمه الله :« ولقد أكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول ، فضلاً عن غيره من بقية العلوم ، فسألته عن سبب ذلك، والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه : إن الفروع أمرها قريب ، فإذا قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلَّدين جاز له العمل بقوله ، ما لم يتيقن خطأه .

وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة ، والباطنية ، والملاحدة ، والقائلين بوحدة الوجود ، والدهرية ، والقدرية ، والنصيرية [1]، والجهمية، والحلولية [2] ، والمعطلة ، والمجسمة ، والمشبهة ، والروندية [3] ، والكلابية، والسليمية ، وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصدوا إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية على كل دين ، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم ، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده .

---

(١) تقدم التعريف بهم في صفحة (١٤٥) .

(٢) هم : طائفة يرون في أنفسهم أحوالاً عجيبة وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر ، فيتوهمون أنه قد حصل لهم الحلول أو الاتحاد ، وأول من أظهر دعوى الحلول في الإسلام الروافض فإنهم ادعوا الحلول في حق أئمتهم . ويذكر من الحلولية : الحسين بن منصور الحلاج . انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين /١١٦ .

(٣) هم : أتباع أبي هريرة الروندي ، وهؤلاء يزعمون أن الإمامة كانت أولاً حقاً للعباس بن عبدالمطلب ، وأبناؤه كانوا أحق بالإمامة لاتصال النسب ، ويقولون إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه العباس أولى بالوراثة .. ويرون زوراً أن ابن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب لعلي بن أبي طالب ، فإن الحسن بن علي ، قال : أنا مولاك ، فقال : مولى لتمام بن العباس بن عبدالمطلب ثم أنشد قائلاً :

جحدت بني العباس حق أبيهم   فما كنت في الدعوى كريم العواقب
متى كان أبناء البنات كوارث   يجوز ويدعي والداً في المناسب

انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، والمرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين / ٩٥ .

فلما رأيت الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم ويزيف دلائلهم ، ذباً عن الملة الحنيفة والسنة الصحيحة الجلية .

[ثم أشار إلى ردود من سبقه وأن كثيراً منهم ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام بسبب إعراضهم عن السنة واتباعهم طرق الفلسفة إلى أن قال] : قال الشيخ الإمام قدس الله روحه : فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جلّ همي إلى الأصول ، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عليها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية » (١) .

وشيخ الإسلام ابن تيمية لا يرى جعل الدين « أصولاً وفروعاً » ، ولا يرى التفريق بينهما ، لأن هذا كله لم يكن من هدي السلف والأئمة ، والانتقاد متوجه إلى من قسم هذا التقسيم وبنى عليه أحكاماً كمن يقول : إن المخطىء بالأصول يُكَفرّ وفي الفروع لا يُكَفر ، فإن هذا التقسيم خاطىء من أساسه ، وذلك لأن فيما يدعونه فروعاً أموراً يكفر بها من خالفها ، وكذلك من « كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان ، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الإسلام . وما قسموا المسائل إلى أصول يكفّر بإنكارها ، ومسائل فروع لا يكفّر بإنكارها .

فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع آخر وتسميته مسائل الفروع فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان ولا أئمة الإسلام ، وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع ، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم ، وهو تفريق متناقض ، فإنه يقال لمن فرق بين النوعين : ما حد مسائل الأصول التي يكفر المخطىء فيها ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ؟

فإن قال : مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد ، ومسائل الفروع هي مسائل العمل، قيل له : فتنازع الناس في محمد صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه أم لا ؟ وفي أن عثمان أفضل من علي ، أم علي أفضل ؟ وفي كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية العلمية ، ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الفواحش والخمر هي مسائل عملية والمنكر لها يكفر بالاتفاق .

---

(١) الأعلام العلية /٣٣ - ٣٥ .

وإن قال الأصول : هي المسائل القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية ، وكثير من مسائل العلم ليست قطعية ، وكون المسائل قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن سمع النص من الرسول صلى الله عليه وسلم وتيقن مراده منه ، وعند رجل تكون ظنية ، فضلاً عن أن تكون قطعية لعدم بلوغ النص إياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته » (١).

ثم أورد حديث الرجل الذي أمر بإحراق جثته ثم سحقه ثم إلقائه في اليم معللاً بما يدل على الشك في قدرة الله والإعادة بعد الموت ، ومع هذا فالله قد غفر له وأدخله الجنة (٢) (٣) .

---

(١) الفتاوى ٣٤٦/٣٥ - ٣٤٧ ، وانظر منهاج السنة ٨٧/٥ ، التفسير الكبير ٢٣١/١ .

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر رجلاً فيمن سلف - أو فيمن كان قبلكم - قال كلمةً يعني أعطاه الله مالاً وولداً ، فلما حضرت الوفاة قال لبنيه ... الخ . كتاب التوحيد ٩٧ ، باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ... (٣٥) رقم الحديث ٧٥٠٨ ، فتح الباري ٤٦٦/١٣ - ٤٦٧ .

(٣) انظر الفتاوى ٣٤٧/٣٥ .

الفصل الأول

أصـــــل العقيـــدة

ونحته مبحثان :

الأول :أسباب اهتمام ابن تيمية بالدعوة إلى العقيدة.

الثاني: منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة.

أسباب اهتمام ابن تيمية بالدعوة إلى العقيدة

وجه ابن تيمية كثيراً من جهوده وطاقاته وصرف كثيراً من وقته في دعوة الأمة حكاماً وعلماء وعامة إلى العقيدة ، وهذا الاهتمام الكبير يرجع إلى عدد من الأسباب منها :

أولاً : العقيدة في الإسلام هي أصل أصول الدين :

وهي أساسه المتين ، فالإيمان بني على أنواع التوحيد الثلاثة [1] ، فإذا انهدمت أو ضعفت انهدم البناء العقدي للإسلام أو ضعف وسرى هذا إلى كل المجالات الإسلامية فـ « إن فساد الأصل لا بد أن يؤثر في الفروع » [2] .

ومن كان في معتقده فساد فلا بد أن يتأثر عمله تأثراً سلبياً فيسرى إليه الفساد ، لأن العقيدة مرتبطة بالعبادة والسلوك [3] . وهذا يحتم الاهتمام بالعقيدة حتى لا ينهدم البناء ولا تتأثر الفروع وحتى لا يفسد العمل .

والمعتقدات والإرادات محلها القلب ، وبداية التغيير والتحويل تكون منه ، فإذا تحرك القلب تحركت الجوارح « فإن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته ... » [4] ،« والأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة، وأصولها ، والأمور الظاهرة كمالها وفروعها التي لا تتم إلا بها » [5] .

والقلب هو قائد الجوارح يصدر أوامره إليها ؛ فالأعمال « الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب ، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا خبث الملك خبثت جنوده ... » [6] .

ولأهمية علم الباطن الذي هو « العلم بأحوال القلوب ومعارفها وما يصلحها » فإن ابن تيمية يرى أنه لا بد أن يكون كل إنسان له معرفة وعلم بما يصلح باطنه ويفسده من الاعتقادات والإرادات .

---

(١) توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٥٧ .
(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢٦ .
(٤) انظر التفسير الكبير ٥/٣٠٦ ، ٣٠٧ .
(٥) الفتاوى ١٨/١٨٥ .
(٦) الفتاوى ١١/٣٨١ ، وانظر ١٨/١٨٥ ، و التفسير الكبير ٢/٨٥ .

وأصل الإثبات والنفي، والحب والبغض: هو شعور النفس بالوجود والعدم والملاءمة والمنافرة ،فإذا شعرت بثبوت ذات شيء أو صفاته : اعتقدت ثبوته ، وصدقت بذلك ثم إن كانت صفات كمال اعتقدت إجلاله وإكرامه صدّقت ومدحته وأثنت عليه .

وإذا شعرت بانتفائه ، أو انتفاء صفات الكمال عنه : اعتقدت انتفاء ذلك، وإن لم تشعر لا بثبوت ولا انتفاء ، لم تعتقد واحداً منهما ، ولم تصدق ولم تكذب ، وربما اعتقدت الانتفاء إذا لم تشعر بالثبوت ، وإن لم تشعر أيضاً بالعدم .

وكذلك إذا شعرت بما يلائمها أحبته وأرادته ، وإن شعرت بما ينافيها أبغضته وكرهته ، فإن ما لم يلائم الإنسان : فلا فائدة له فيه ، ولا منفعة ، فيكون الميل إليهم من باب العبث والمضرة ، فينبغي الإعراض عنه لأنه لا فائدة فيه ... ثم يتبع الحب للشخص، أو العمل ، الصلاة عليه ، والثناء عليه ،كما يتبع البغض اللعنة له ، والطعن عليه ، وما لم يكن محبوباً ولا مبغضاً لا يتبعه ثناء ولا دعاء ولا طعن ولا لعن .

ولما كان في نفس الأمر وجود محبوب مألوه ، كان أصل السعادة الإيمان بذلك ، وأصل الإيمان : قول القلب الذي هو التصديق ، وعمل القلب الذي هو المحبة على سبيل الخضوع ، إذ لا ملاءمة لأرواح العباد أتم من ملاءمة إلهها الذي هو الله الذي لا إله إلا هو (1) .

ولم يترك ابن تيمية علم الباطن من غير بيان بل يقول :« والعلم بمعرفة الله ومحبته والإخلاص له وخشيته والتوكل عليه ... والعلم بما يحمد ويذم من أخلاق النفوس كالسخاء ، والحياء ، والتواضع ، والكبر ، وأمثال ذلك من العلوم المتعلقة بأمور باطنة في القلوب ونحوه ، قد يقال له علم الباطن ، أي : علم بالأمر الباطن ، فالمعلوم هو الباطن، بل غالب آي القرآن هو من هذا العلم ، فإن الله أنزل القرآن : ﴿ ... وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) بل هذا العلم هو العلم بأصول الدين .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) (3) ، ومن لم يكن له علم بما يصلح باطنه ويفسده ، ولم يقصد صلاح قلبه

(1) انظر الفتاوى ٢/٣٩ ، ٤٠ .
(2) أول الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ ﴾ سورة يونس آية (٥٧) .
(3) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير أخرجه البخاري كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، فتح الباري ١/١٢٦ . ومسلم كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، صحيح مسلم ٣/١٢١٩ .

بالإيمان ودفع النفاق ، كان منافقاً إن أظهر الإسلام ، فإن الإسلام يظهره المؤمن والمنافق وهو علانية ، والإيمان في القلب كما في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الإسلام علانية والإيمان في القلب) [(١)] » [(٢)] .

والعقيدة ونوايا العبادات من أعمال القلوب فلا بد من العناية بها ، بل إصلاحها هو أول البدايات وأهم المهمات ، وهو التأسيس لمنهج بناء أمة قوية تحمل رسالة الإسلام وتتصدى لكل التيارات المعارضة .

ثانياً : العقيدة مؤثرة في الفهم والإدراك والتصور :

فالإنسان من حيث عقله للأشياء وتصوره لها وفهمه لمضمونها والحكم عليها وقبولها ورفضها يتأثر بما لديه من اعتقادات .

فعقيدة المرء تؤثر عليه في فهم النصوص الشرعية من القرآن والسنة وكذلك نصوص الآخرين ومقولاتهم ، سواء ما يتعلق بأمور العقائد أو الأحكام أو شئون الدنيا .

ولهذا نجد المتكلم يتحدث إلى قوم كثيرين في مكان واحد بكلام واحد وهم يسمعون سماعاً واحداً ، ولكن تجد بينهم تفاوتاً في الفهم والإدراك ، بل إن البعض يفهم الكلام على غير مراد المتكلم ، ومثال ذلك ما ذكره ابن تيمية عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :كان يخاطب الناس على منبره بكلام واحد يسمعه كل أحد ، لكن الناس يتفاضلون في فهم الكلام بحسب ما يخص الله به كل واحد منهم من قوة الفهم وحسن العقيدة » [(٣)] .

ولما تكلم عن التأويل وأن تصنيف الناس للنصوص بكونها من المحكم أو من المتشابه متأثر بعقائدهم قال : « ثم هم في هذه النصوص بحسب عقائدهم فإن كانوا من القدرية قالوا : النصوص المثبتة لكون العبد فاعلاً محكمة ، والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريداً لكل ما وقع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ، وكثير منهم يكون له قولان وحالان » [(٤)] .

---

(١) حديث حسن عن أنس رضي الله عنه أخرجه أحمد في مسنده ١٣٤/٣ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥٢/١ : رواه أحمد وأبو يعلي بتمامه والبزار باختصار ورجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن سعده وقد وثقه ابن حبان وأبو داود والطيالسي ، وأبو حاتم وابن معين ، وضعفه آخرون .

(٢) التفسير الكبير ٤٣/٢ - ٤٤ .

(٣) الفتاوى ٣٣٩/١٨ .

(٤) الفتاوى ٣٦٠/١٧ ، التفسير الكبير ٤٣٦/٧ ، وانظر ص٤٧٢ .

وأهل الضلال يحرفون الكلم عن مواضعه إلى ما يعتقدون ثبوته [١] ، وكذلك المقلدون للمذاهب ، أو المقلدون في دينهم كل واحد يتعسف « بكل طريق » حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه ، وكل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره » [٢] .

ولما تحدث عن الجهر بالنية في العبادة وأنه ليس بواجب وإنما الغرض وجود الإرادة في القلب وهم يعلمون عدم الوجوب . والإرادة موجودة في القلب لكنهم لا يعتقدون وجودها [٣] بحيث « إذا قيل لأحدهم : النية حاصلة في قلبك ، لم يقبل لما قام به من الاعتقاد الفاسد المناقض لفطرته » [٤] .

وقد ينكر الإنسان ما هو موجود في قلبه وذلك لشبهة عرضت له جعلته ينكر هذه الحقيقة، يقول عن محبة الله ورسوله : « فهذه المحبة لله ورسوله موجودة في قلوب أكثر المنكرين لها ، بل في قلب كل مؤمن وإن أنكرها لشبهة عرضت له » .من أجل هذا كانت عناية ابن تيمية بالعقيدة ، ولأنها صمام الأمان من الضلال عن حقائق الإيمان والإسلام ، وسلامتها تعني سلامة اتجاه الأمة في دينها ودنياها وتعني سلامة وحدتها وتماسكها .

والاعتقاد الصحيح له تأثير في قوة الإدراك وسلامته ، وفي القدرة على تحصيل العلوم والمعارف بأيسر الطرق وأقل الأزمان وهكذا كانت الأمة الإسلامية بين الأمم في نظر ابن تيمية « فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدّ وأسدّ عقلاً ، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال ، وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين . وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوّي الإدراك ويصحّحه ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [٥] ، وقال : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [٦] » [٧].

فالمسلمون من بين الأمم هم أهل الدين الصحيح والاعتقاد السليم ،وأهل السنة والحديث في المسلمين هم أهل الاعتقاد السليم والمنهج الحق ، فهم أفضل الناس في أمة

(١) انظر التفسير الكبير ٢/٩٩ . (٢) التفسير الكبير ٦/٧١ .
(٣) انظر التفسير الكبير ٦/٣٣٧ . (٤) التفسير الكبير ٦/٣٣٧ .
(٥) سورة محمد آية (١٧) . (٦) سورة النساء الآيات (٦٦ – ٦٨) . (٧) الفتاوى ٤/١٠ .

الإسلام « وهذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم ، فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم ، وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم ... الخ » (١).

وبناء على هذا فإن ابن تيمية يرى أن من أسباب نهوض الأمة علمياً وحضارياً ، ومن أسباب نبوغها في شتى المجالات وتفوقها على غيرها - بل هو أولى الأسباب وأعظمها - صحة العقيدة وسلامتها وصفاؤها . فبهذا تزكو عقول الأمة ويصح إدراكها ويتحدد اتجاهها في مسار صحيح يسبب لها الاستقرار النفسي ، فتسلم من التخبط في متاهات فكرية عقدية محيرة تستنزف الطاقة الفكرية وتكسو العقول بظلمة الخرافة والجهالات ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (٢) .

ثالثاً : كل دعوة من دعوات الأنبياء والمرسلين تلتزم الدعوة إلى العقيدة والعبادة :

منذ سيدنا نوح عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « ... فلا بد لكل نبي من الأصول الثلاثة : الإيمان بالله ، واليوم الأخر ، والعمل الصالح » (٣) .

وهذه الثلاثة هي أصل السعادة وأصل النجاة من العذاب » (٤) .

والدعاة هم ورثة الأنبياء ، فهم وارثون في دعواتهم لهذه الأصول وهي لازمة لهم كما لزمت لمورثيهم ، وابن تيمية من وراث النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعوته ملتزمة بهذه الأصول الثلاثة ليحقق لها السعادة والنجاة ، والدعوة مرتبطة بالإلهيات أكثر من ارتباطها بغيرها ، وهي الأصل في الدعوة (٥) . فهذا مثلاً إبراهيم وموسى عليهما السلام في دعوتهما « قاما بأصل الدين الذي هو : الإقرار بالله ، وعبادته وحده لا شريك له ، ومخاصمة من كفر به » (٦) .

وقد وقع اختلاف واضطراب في واحد من أنواع التوحيد الثلاثة وهو « الأسماء والصفات » ، وهذا « من أعظم الأصول التي دل عليها القرآن في مواضع كثيرة جداً ، وكذلك الأحاديث وسائر كتب الله ، وكلام السلف ، وعليها تدل المعقولات الصريحة ... فإثبات هذا الأصل يمنع ضلال الطوائف الذين كذبوا به » (٧) .

والاختلاف في مجال العقيدة خصوصاً الأسماء والصفات من أعظم

---

(١) الفتاوى ٤/١٠ . (٢) سورة النور آية (٤٠) . (٣) التفسير الكبير ٢٢٨/٧ .
(٤) انظر الفتاوى ٣٤/٩ ، ٥٧/١٨ . (٥) انظر التفسير الكبير ٢٢٨/٧ .
(٦) التفسير الكبير ٢١٨/٦ . (٧) التفسير الكبير ٣٠٨/٦ ، ٣٠٩ ، وانظر ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

الانشطارات الحاصلة في الأمة ، وإثبات أصول العقائد فيما يخص الذات الإلهية يمنع ضلال الأمة . وهذا ما جعل ابن تيمية يبذل جهداً في إثباته وتصفيته في نفوس الناس على ضوء القرآن والسنة وفق فهم السلف الصالح ، وهذا من ألزم واجبات الدعاة، وأن يجعلوا أصول الدين هي أصول دعوتهم ومنطلقها .

رابعاً : كل صلاح في هذه الأرض فهو بسبب التوحيد ، وكل فساد فإنما هو بسبب الشرك ومعصية الرسول :

فإن الأرض « لاصلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ... ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى غير الله » (1). ويقول : « فأصل الصلاح : التوحيد والإيمان ، وأصل الفساد : الشرك والكفر »(2) .

والشرك والقول على الله بلا علم منكر محض لا تحبه النفوس ولا تميل إليه ، لأنه ليس في فطرتها ، ومن حصل منه ذلك فإنما حصل عن عناد وظلم ، وهذا فساد في القوة العلمية .

وأما الفواحش والبغي ، وإن كانت القلوب تنكرها ، فإن النفوس تشتهيها وتميل إليها ، وهذا فساد في القوة العملية (3) .

خامساً : كثير من الناس حدث منهم إخلال عظيم في حقيقة الإيمان بالوحدانية ، والرسالة :

وهما أصل الإسلام والركن الأول من أركانه « شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله » وبهما يحصل تمييز أهل الإيمان من أهل الكفر ، وقد وقع هذا الإخلال من دون إرادة وقصد كثير منهم بل « مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة » (4). وهذا يفسر لنا ضعف براءة الأمة من أصحاب العقائد المنحرفة انحرافاً ظاهراً لأنهم لم يتميز عندهم الأمر .

فلا بد إذن في أثناء مسيرة الدعوة لتصحيح المفاهيم من التوجه إلى الأصول العقدية وتصحيحها .

---

(1) التفسير الكبير ٤/٣٠٩ .
(2) الفتاوي ١٨/١٦٣ .
(3) انظر التفسير الكبير ٥/٣١٨ .
(4) التدمرية /١٩٥ .

سادساً : فساد العقيدة أيضاً له أثر في حدوث الاختلاف والتفرق وحدوث التنازع في الأمة :

فالخلاف في القدر مثلاً منه « نشأ مذهب المجوس القائلين بالأصلين : النور والظلمة، ومذهب الصابئة وغيرهم القائلين بقدم العالم ، ومذاهب كثير من مجوس هذه الأمة وغيرهم ، ومذاهب كثير ممن عطل الشرائع [(١)]؛ ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (أصل هلاك بني آدم : إنما كان التنازع في القدر) [(٢)] » [(٣)] .

وليس من فضول العلم أو الترف الفكري أن يكرس ابن تيمية أعظم جهوده لعقيدة الأمة إيضاحاً وشرحاً ، وتصفية وتمحيصاً وتخليصاً مما نسب إليها وهو مخالف لها ، لأن المرء تتعلق حياته بجميع ألوانها وترتبط ارتباطاً وثيقاً بقلبه وعقله ، وأبرز المؤثرات عليه سلباً أو إيجاباً هي العقيدة . ولم يكن ابن تيمية مقصوراً في مباحثه على مجال العقائد وإنما لأنه أرجع كثيراً من الخلل والفساد في الأمة ، إن لم يكن كله إلى الخلل والفساد في عقيدتها ، لذا أولاها اهتمامه .

سابعاً : تصديق المدعوين للدعاة وتكذيبهم لهم يتأثر بما لديهم من معتقدات :

وكذلك تصديق المرء وتكذيبه لما يشاع ضد الدعاة من أقوال كاذبة متأثر بها أيضاً ، يقول ابن تيمية مقرراً ارتباط التصديق والتكذيب للرسل باليوم الآخر وذلك عند كلامه على قوله تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ [(٤)] : فعلم أن مخالفة الرسل ، وترك الإيمان بالآخرة متلازمان ، فمن لم يؤمن بالآخرة أصغى إلى زخرف أعدائهم فخالف الرسل ، كما هو موجود في أصناف الكفار والمنافقين في هذه الأمة

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٤٢ .   (٢) السابق /٤٢ .

(٣) ورد بألفاظ مقاربة عن أبي هريرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان ، فقال : « أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ، ألا تتنازعوا فيه » وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري .. وله غرائب يتفرد بها . سنن الترمذي ٣/ ٣٠٠ رقم الحديث ٢٢١٦ ، أبواب القدر باب ما جاء من التشديد في الخوض في القدر ، أشرف على طباعته وراجع أصوله وصححه عبدالرحمن محمد عثمان، دار الفكر ط الثالثة ، عام ١٣٩٨هـ .

(٤) سورة الأنعام آية (١١٣) .

وغيرها »[1] ، وذلك بسبب اتباعهم أهواءهم ، فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يتبع هواه وإنما يتبع ما يحبه الله ورسوله ، يقول رحمه الله عند كلامه على قوله تعالى : ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [2] : « فالمؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ما يحبه الله ورسوله ، وينهى عما يبغضه الله ورسوله ، ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه ... » [3] .

وأهل الضلال لا يعظمون التوحيد بل هم متهاونون به ، والمشركون يسبون الأنبياء ويزدرونهم،وكذلك كل من شاكل المشركين وشابههم ، يقول رحمه الله: « والضالون مستخفون بتوحيد الله تعالى يعظمون دعاء غيره من الأموات ، وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به وما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد لما في أنفسهم من عظيم الشرك ، وهكذا تجد من فيه شبههم إذا رأى من يدعو إلى التوحيد استهزأ بذلك لما عنده من الشرك ... فهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله وعبادته »[4].

ثامناً : إذا سلمت عقيدة الأمة سلم لها كل من القوتين : القوة العلمية والقوة العملية:

لأن العلم بالله « أصل كل عمل وجامعه ، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته ، وإذا حصل لهم ذلك فما سواه إما فضل نافع ، وإما فضول غير نافعة ، وإما أمر مضر .. ثم من العلم به تتشعب أنواع العلوم ، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة ، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم متمسك قد لجأ إلى ركن وثيق واعتصم بالدليل الهادي والبرهان الوثيق . فلا يزال إما في زيادة العلم والإيمان ، وإما في السلامة من الجهل والكفر ، وبهذا جاءت النصوص الإلهية في أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات إلى النور » [5] .

وبعد أن ذكرنا هذه الأسباب والمبررات التي دفعت ابن تيمية أن يجعل العقيدة أصلاً مهماً من أصول ما يدعو الناس إليه ، فلهذه الأسباب وغيرها كرس ابن تيمية غالب جهوده العلمية والعملية في الدعوة إلى حماية الاعتقاد الصحيح من أن يختلط بغيره من الآراء الفاسدة والأهواء المضلة ، حتى أصبح كل حياة ابن تيمية عقيدة كما قال أحد المترجمين له : « ... وما ينطق إلا عن عقيدة ، ولا يكتب إلا عن عقيدة ، ولا يتحمل الأذى والرزية إلا في سبيل عقيدة ، ولا يبغي الحياة ، ويسترخص الموت إلا في عقيدة أو حفاظاً على مبدأ اعتقد أنه طريق الله القويم وسنة نبيه الكريم وسبيل جماعة المسلمين » [6].

---

(١) الفتاوى ٥٦/١٨ . (٢) سورة النور آية (٢) . (٣) الفتاوى ٢٩٢/١٥ .
(٤) التفسير الكبير ٣٨١/٤ . (٥) الفتاوى ١٦/٢ . (٦) ابن تيمية/لعبد العزيز المراغي ص٥.

منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة

تمهيد :

العقيدة الإسلامية لا مجال للآراء والاجتهادات فيها لأنها توقيفية مصدرها «الكتاب والسنة» فقط ، وأقرب الناس إلى هذين المصدرين هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان ، وكلما قرب من المصدر والمنبع كان أولى وأسلم وأعلم وأحكم .

ورأى ابن تيمية لزاماً عليه شرعاً وعقلا واعتباراً اتباع منهج السلف الصالح في العقيدة والعبادة أولاً وفي سائر أمور الدين ثانياً .

وكانت دعوته إلى العقيدة دعوة إلى التزام منهج السلف قولاً وعملاً .

وحتى يُسَهَّل على الأمة الأخذ به ، قام بجهود مشكورة لإبرازه وإظهاره وتيسير تناوله ، كما قام بفرز البدع الحادثة في الأمة من الآراء والمناهج الضالة المضلة ، حتى انقشعت دياجير الظلم وأصبحت سماء العقيدة صحواً تتلألأ نجومها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

وقبل أن أبدأ بعرض منهجه في الدعوة إلى العقيدة أحدد : مفهوم مصطلح « السلف » الذين تبنى ابن تيمية منهجهم في كل شيء .

قال ابن فارس [1] رحمه الله : « سلف » حروفه الثلاثة حروف أصل يدل على التقدم والسبق ومن ذلك « السلف » وهم الذين مضوا ويقال : قوم سلاف : أي المتقدمون [2] .

« والقوم السلاف المتقدمون ، وسلف الرجل آباؤه المتقدمون » [3] ، روى مسلم في حديث فاطمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها :

---

(١) هو : أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ، الرازي ، كان من أئمة اللغة والأديب ، ولد سنة ٣٢٩هـ . توفي بالري سنة ٣٩٥هـ بعد أن أقام مدة في همذان .

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة مادة « سلف » ٩٥/٣ .

(٣) العباب الزاخر : للحسن بن محمد الصغاني، حرف « الفاء » مادة « سلف » ، وانظر مشارق الأنوار ٢١٩/٢ .

(.. ولا أراني إلا قد حضر أجلي ، وإنك أول أهلي لحوقاً بي ونعم السلف أنا لك) [1] .

وروى الإمام مسلم أيضاً في الحديث المرفوع : (إن الله تعالى اذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها ...) [2] .

وبما تقدم من معاني « السلف » في اللغة العربية والأحاديث النبوية الشريفة يتبين لنا أن من معاني هذا المصطلح :

« السبق والتقدم » وهذا سبب إطلاق اسم السلف الصالح على الجيل الأول من الصحابة والتابعين وتابع التابعين [3] .

وفي تحديد من يدخل تحت هذا المصطلح وقع تنازع بين العلماء : فإطلاق هذا المصطلح هل يكون على أقوام في فترة زمنية محددة معلومة ، أو يكون إطلاقه بموجب أوصاف معينة متى تحققت قيل فيمن كانت فيه إنهم « السلف » ، أو يطلق هذا المصطلح على « الأئمة الأربعة الفقهاء » أصحاب المذاهب الفقهية المتبعة في الأمة الإسلامية .

مناقشة الأقوال :

فإذا قلنا مثلاً إن « السلف » هم أهل القرون المفضلة الثلاثة الواردة في الحديث النبوي الشريف ، فإنه يدخل في هذه القرون أهل بدع مغلظة كالخوارج ، والشيعة ، والقدرية ، لأنهم وجدوا في هذه الحقبة الزمنية التي نص على تفضيلها ، وهم قطعاً لا يدخلون في مسمى مصطلح « السلف » الذين يقتدى بهم .

وهذا اعتراض على تحديد إطلاق المصطلح على فترة زمنية .

وإذا قلنا « السلف » هم الذين ينطبق عليهم وصف اتباع الكتاب والسنة قولاً وعملاً ، فإننا والحالة هذه نصطدم بالواقع فكل فرقة وطائفة ونحلة في هذه الأمة تدعي

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل فاطمة - رضي الله عنها رقم الحديث (٢٤٥٠) صحيح مسلم ٤/١٩٠٤ .

(٢) خرجه مسلم من حديث أبي موسى ، كتاب الفضائل ، باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها (٨) رقم الحديث ٢٢٨٨ . صحيح مسلم ٤/١٧٩١ ، ١٧٩٢ .

(٣) انظر النهاية مادة « السلف » ٢/٣٩٠ ، تاج العروس مادة « سلف » .

اتباع الكتاب والسنة اتباعاً مطلقاً سليماً [1] .

فتحديد إطلاق هذا المصطلح بأوصاف معينة عليه هذا الاعتراض ، وإذا قلنا إن « السلف » هم الأئمة الفقهاء الأربعة المعروفون بين الأمة بالعدالة والنزاهة مع العلم وصدق العمل ، فأين يذهب الذين هم أفضل منهم علماً وعملاً وجهاداً ممن هم أولى منهم بهذا الاسم والاصطلاح [2] ؟ .

وشيخ الإسلام ابن تيمية يرى أن المتأخرين من خلف هذه الأمة اتسع مفهوم مصطلح السلف عندهم فكل طائفة وفرقة لها سلف يرون الأخذ عنهم ، قال رحمه الله عن ذلك :

« ولفظ السلف أصبح يطلق في عرف كثير من المتأخرين من علماء الكلام والتفسير على أئمة المذاهب المختلفة التي ينتمون إليها ويوجبون على جميع الناس تقليد هؤلاء الأئمة فيما ذهبوا إليه من آراء ومعتقدات ، ولهذا كان سلف الأشاعرة غير سلف المعتزلة ، وسلف الشيعة غير سلف الخوارج ، وأصبحت كلمة السلف ذات ذيول طويلة – إن صح التعبير – قد تمتد إلى القرن السابع الهجري ، وكل فرقة تدعي لآرائها سلفية لا تتمتع بها آراء غيرها من الفرق » [3] .

وبعد هذا العرض لهذه الآراء الثلاثة ، نحدد إطلاق مصطلح « السلف » فنقول : إن هذا المصطلح يصدق على القول الأول ، والاعتراض عليه يزول بإلحاق وصف وضابط يزيله . فيكون السلف : هم القرون المفضلة الواردة في الحديث المتبعون للكتاب والسنة الموافقون لهما قولاً وعملاً ، ومن لم يكن موافقاً لهما فهو ليس من الداخلين في دلالة مصطلح « السلف » ولو كانوا في الفترة الزمنية التي فيها الصحابة والتابعون وتابع التابعين [4] .

وتنحصر دلالة هذا المصطلح في كل زمن وجيل بعد القرون المفضلة إلى يومنا هذا فيمن كان على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعون لهم وتابع التابعين الذين هم لكتاب ربهم وسنة نبيهم مقتفون ، الذين يأخذون بالمنقولات

---

(١) انظر قواعد المنهج السلفي /٢٤ وموقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/٢٧ . وانظر الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل /٥٢ .

(٢) انظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/٢٧ ، ٢٨ .

(٣) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل /٥٢ .

(٤) انظر ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل /٥٢ ، ٧٤ .

الصريحة والمعقولات الصحيحة [1] . وزبدة القول وصفوته ولـبابه وثمرته « أن المرء أو الجماعة يكتسب وصف السلفية إذا كان سائراً عـلى طريقة ومنهج القرون المفضلة التي هي خير القـرون لأنهـم هم الذين تتصـل حلقاتهـم الفكـرية من مكان التلقـي السليم ... وسبب هذا القـول أن ابن تيمية يقرر أن الـصحابة تلقوا من الـنبي صلى الله علـيه وسلـم ألفاظ القرآن ومعانيه ، وتلـقوا السنة النبويـة منـه ، وأنهـم بلغـوها إلى مـن بعدهم كما تلقوها » [2] .

---

(١) انظر قواعد المنهج السلفي /٢٣ .

(٢) موقف ابن تيميـة مـن الأشاعـرة ١/٢٨ ، وانظر في موضـوع تعريف السلف والسلفية كتاب عقيدة ابن تيمية /٤١ .

منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة

اتبع ابن تيمية منهجاً حكيماً سديداً في الدعوة إلى العقيدة ،ومن أبرز ملامح هذا المنهج وسماته ما يلي :

أولاً : الاعتماد على الكتاب والسنة وفق فهم الصحابة ، وهذا له مبررات منها :

أ - أن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن لهم معاني القرآن الكريم كما علمهم ألفاظه ، وهم بلغوا إلى من بعدهم معانيه كما بلغوا حروفه .

ب - فهمهم للنصوص أكثر وأدق من غيرهم لأنهم شهدوا الوقائع ، ونزول القرآن، فكانوا أعلم بتأويله .

جـ - كانوا متفقين على أصول الدين ولم يتفرقوا فيه كما تفرق من بعدهم ، ولم تظهر فيهم الأهواء والبدع كما ظهرت في الخلف ، حتى صاروا شيعًا وأحزاباً عمدة أكثرهم في الباطن ليست على النصوص وإنما على أصول ابتدعوها ، ثم ما ظنّوا أنه يوافقها من النصوص الشرعية احتجوا به وما يخالفها تأولوه ، والسلف بخلاف ذلك فكانوا أكمل علماً وإيماناً وأخف خطأً وأكثر صواباً (١) .

وابن تيمية رحمه الله يحرص على عرض العقيدة عرضاً واضحاً سهلاً مدعماً بالأدلة النقلية والعقلية ، فجاءت دعوته فيها التجديد في العرض والأسلوب والتأصيل في المحتوى والمضمون .

د - ولأن طريق السلف هو الأصلح في الجدل والمناظرة وله القدرة التامة في القضاء علي حجج العقلانيين (٢) من الدهريين وغيرهم ، قال في ذلك :« ولا تنقطع الدهرية من الفلاسفة وغيرهم قطعاً تاماً عقلياً لا حيلة لهم فيه إلا على طريقة السلف أهل الإثبات للأسماء والصفات والأفعال ... » (٣) .

ثانياً : التزام ألفاظ ومصطلحات الكتاب والسنة، والتعبير بها عن المعاني الشرعية وفق لغة القرآن ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يتحاشى استعمال الألفاظ والمصطلحات من غيرهما . يقول في المجلس الذي عقد له من أجل العقيدة : « وذكرت

---

(١) التفسير الكبير ١/١٥٨ ، ١٦٠ ، وانظر ٢/٢٢٣ .

(٢) الذين يتكلمون بالحقائق الشرعية بمقتضى عقولهم ، أو يقدمون معقولهم على أدلة الشرع .

(٣) الدرء ١/٣٧٥ .

في غير هذا المجلس أني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه ، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة .... الخ » (١) .

ويقول : « والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص فيثبت ما أثبته الله ورسوله باللفظ الذي أثبته وينفى ما نفاه الله ورسوله كما نفاه » (٢) .

وعارض الألفاظ والمصطلحات المبتدعة غير الشرعية التي استخدمها المتكلمون ونحوهم لأنها تعطي مدلولات غير محددة ولا منضبطة ، وأحيانا تعطي مدلولات غير صحيحة ، وأكثر مصطلحاتهم ألفاظ مبتدعة أو مصطلحات شرعية استعملوها لمعان لا تدل عليها لغة وشرعاً وجعلوا هذه المعاني هي الأصل المعقول وساروا في التأويل تبعاً لما اعتقدوه صحيحاً .

ثالثاً : لايتقدم بين يدي الله ورسوله بمقررات سابقة وأحكام جاهزة ، ينقب في النصوص عما يؤيدها ويثبت صحتها ، فإن وجد وإلا لوى أعناق النصوص وتسلط عليها بالتأويل ودعوى المجاز .

هذا – أعني التقدم بين يدي النصوص – منهج خاطىء في التلقي من الكتاب والسنة قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (٣) ، فإن هذا أمر للمؤمنين أمرهم به ليكونوا مثل ملائكته الذين قال عنهم :﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ...** ﴾ (٤) . فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله : ﴿ **لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ** ﴾ (٥) .... وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله ،كذلك فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه ، بل بينهم وبينه رسول من البشر فعليهم ألا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله .

وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه ، نظر فيما قاله الله والرسول فمنه يتعلم ، وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل فهذا أصل أهل السنة » (٦) .

---

(١) العقود الدرية /٢١٢ – ٢١٦ .
(٢) التفسير الكبير ٦/٤٠٨ ، ٤١٤ .
(٣) سورة الحجرات آية (١) .
(٤) سورة الأنبياء آية (٢٦ ، ٢٧) .
(٥) الآية السابقة .
(٦) التفسير الكبير ١/١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

رابعاً : يدقق ويحترز في مسائل العقائد كثيراً ، ويسعى لسد الذرائع الموصلة إلى الشرك ، لأنه يرى أن الغلط إذا كان شبراً صار ذراعاً ثم باعاً وهكذا .

والغلط في أصول الدين أعظم من الغلط في فروعه ، فقد يكون كفراً أكبر أو أصغر ، وإذا كان مجتهداً مخطئاً فالله يغفر له خطأه ويأجره على اجتهاده .

ومنهجه في مسائل المعاملات والفروع الفقهية يغاير منهجه في العقائد ، فيسلك فيها مسالك التيسير والرفق والتوسعة على الأمة لرفع الحرج عنها .

والمسائل الخلافية لا يرى الاختلاف والتفرق فيها ما دام أن في المسألة قولاً لإمام متبوع أو أكثر من إمام .

وإذا كان رحمه الله ينافح عن قضايا الإسلام والمسلمين فإنه عن القضايا العقدية أشد منافحة ومدافعة ، فكان لا يتهاون أبداً بالمساس بأي جانب من جوانبها ، أو جزئية من جزئياتها .

خامساً : يرى أن مسائل العقيدة وقضاياها ليست في درجة واحدة ، لأن العقيدة فيها أصول وفيها فروع ، والحكم في الأصول يختلف عن الحكم في الفروع ، وليس ترك الفروع منها مثل ترك الأصول ، والذين لا يدركون هذا الفرق يقعون في مزالق خطرة فيخرجون المرء من الدين بمجرد خطأ في أي أمر اعتقادي ولو كان من فروع العقيدة (1) .

وقد ذكر أن الصحابة اختلفوا في مسائل من العقيدة ، وما تفرقوا ولا تهاجروا بل مع اختلافهم باقون على ألفتهم وجماعتهم ... وإليك قوله في خلاف الصحابة في مسائل عقدية وغير عقدية يقول : « وقد اتفق الصحابة في مسائل تنازعوا فيها ، على إقرار كل فريق للفريق الآخر على العمل باجتهادهم ، كمسائل في العبادات والمناكح والمواريث والعطاء ، والسياسة وغير ذلك ، وحكم عمر أول عام في الفريضة الحمارية بعدم التشريك ، وفي العام الثاني بالتشريك في واقعة مثل الأولى ، ولما سئل عن ذلك قال : تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي (2) .. وهم الأئمة الذين ثبت بالنصوص

---

(1) انظر ابن تيمية السلفي /٦٦ .

(2) الفريضة الحمارية صورتها : هلكت امرأة عن : زوج ، وأم ، وإخوة لأم وإخوة أشقاء . في العام الأول لم يورث الإخوة الأشقاء . فقال بعضهم يا أمير المؤمنين هب أن أبانا كان حماراً أليست أمنا واحدة فسميت الحمارية . وفي العام الثاني شركهم مع الإخوة لأم ، فسميت المشركة ، فلما روجع في ذلك قال : تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي . انظر أصول علم المواريث أحمد عبدالجواد /٤٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الثانية عام ١٤٠٦هـ .

أنهم لا يجتمعون على باطل ولا ضلالة ، ودلت على وجوب متابعتهم (١) .

وتنازعوا في مسائل علمية اعتقادية ، كسماع الميت صوت الحي ، وتعذيب الميت ببكاء أهله ، ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه قبل الموت ، مع بقاء الجماعة والألفة. وهذه المسائل منها ما أحد القولين خطأ قطعاً ، ومنها ما المصيب في نفس الأمر واحد عند الجمهور أتباع السلف ، والآخر مؤد لما وجب عليه بحسب قوة إدراكه ... ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على من اجتهد وإن اخطأ .. » (٢) .

سادساً : يرى ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة أن يكون توحيد الربوبية سبباً لتوحيد الألوهية ودليلاً عليه : لأن الناس مقرون بوجود الله ، وكل ما هو من لوازم الربوبية ، ولم ينكره أحد إنكاراً حقيقياً (٣) ،لأن علم الخلق بما يحتاجون في دنياهم لجلب نفعهم ودفع ضرهم أقرب إلى نفوسهم من الحاجة إلى الإله المعبود، وقصدهم لدفع الحاجة العاجلة قبل الآجلة لهذا « كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه ، ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية ... وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية ، وأما الرسل فهم دعوا إليها من جهة الألوهية ، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة ، وأرباب الأحوال إنما توجههم إلى الله من جهة ربوبيته لما يمدهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون ، وهؤلاء من جنس الملوك ، وقد ذم الله عز وجل في القرآن هذا الصنف كثيراً .... وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة ، وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به » (٤) .

ولأجل ما في نفوس الخلق من الإقرار بربوبية الخالق ، ولوازم الربوبية فإن الرسل لم يدعوا أقوامهم إلى توحيد الربوبية ابتداء لأنه لم يكن معدوماً ، وقد ابتدأوا دعوتهم

---

(١) قال تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) خرجه الترمذي في الباب ٥٢ ، مناقب أبي بكر وعمر من حديث حذيفة وقال : هذا حديث حسن رقم الحديث ٣٧٤٢ ، انظر رقم ٣٧٤٤ . سنن الترمذي ٥/٢٧١ ، ٢٧٢ وقال : (... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) رواه أبو داود ٥/١٣ ، ١٤ ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ٦ ، رقم الحديث ٤٦٠٧ .

(٢) الفتاوى ١٩/١٢٢ ، ١٢٣ . (٣) انظر التفسير الكبير ٣/٤١١ .

(٤) الفتاوى ١٤/١٤ - ١٥ .

بالمعدوم ، وهو توحيد الألوهية وجعلوا توحيد الربوبية سبباً « لتوحيد الإلهية ودليلاً عليه، كما يحتج به القرآن على المشركين ، فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد ، توحيد الربوبية، ومع هذا يشركون بالله فيجعلون له أنداداً يحبونهم كحب الله»[١].

«فكان ذلك التوحيد - الربوبية - حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق ، ولا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا » [٢] .

وتوحيد الألوهية « هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة ، فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » [٣] .

فهو - رحمه الله - يؤكد على أن الدعوة يجب أن تركز على توحيد الألوهية لأنه هو الذي ينقص الأمة ، ووقعت في الضلال من جهته ، ودخل عليها النقص من جانبه ، ويلفت الانتباه إلى خطأ الذين يدعون إلى توحيد الربوبية فقط أو يركزون عليه ظانين أنهم إذا أثبتوا مقتضاه نالوا كمال التوحيد وخلوصه ، ناسين أن الشرك قد وقع من أقوام مقرين بالربوبية « فالرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه ، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحداً بل ولا مؤمناً حتى يشهد أن لا إله إلا الله ، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له » [٤] .

والإله ، هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة ، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق ، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله ، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية ، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه ، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين .. » [٥] .

سابعًا : عمد ابن تيمية إلى تجفيف منابع الشرك الذي يضاد العقيدة ، وذلك بكشف الستار عنها ، وبيان الحق والصواب في كل ما يتعلق بذلك ، وقد تركز جزء من جهده

(١ ، ٢) التفسير الكبير ٤١١/٣ ، ٤١٣ .
(٣) التفسير الكبير ٤١٣/٣ ، وانظر ايضاً في هذا الموضوع الفتاوى ٧٠/٢ - ٧١ ، الدرء ٢٥٥/١ .
(٤) انظر الدرء ٢٢٥/١ ، ٧٠/٢ - ٧١ . (٥) الدرء ٢٢٥/١ - ٢٢٦ .

الدعوي في هذا الاتجاه .

ومن أبرز الشركيات وأسبابها في العالم الإسلامي :المشاهد ، والأضرحة ، وتعظيم الصالحين والغلو فيهم إلى درجة أن يُطلب منهم ما هو من خصائص الإله جل جلاله .

وقد أبان رحمه الله حقيقة المشاهد والأضرحة والقبور في أكثر بلاد الإسلام ، وكشف للناس أن أكثرها مكذوب مفترى ، وليست القبور في الغالب لمن نسبت إليه (١) .

وعمد إلى البدع والشركيات في العالم الإسلامي وسلط عليها الأضواء ، وبذل جهداً في بيان خطورتها وأضرار استمرارها في حياة الناس .

وأخيراً فإنه لم يتوان عن تغيير المنكر الشركي بيده ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فيزيل أماكن الشرك ومقرها ، ويمنع الناس الذين يريدون فعل الشرك فيها وينكر على من تلبس بشيء من الشركيات غير هياب ولا وجل (٢) .

ومن هذا ما ذكره ابن كثير بقوله :« راح .. ابن تيمية إلى مسجد التاريخ وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها » (٣) .

ويرى ابن تيمية أن إزالة عقيدة الشرك والوثنية عملية ليست شاقة ، لأنها عقيدة ليس لها قرار في القلب ولا مكان تستقر فيه « فالمبطل ليس قوله ثابتاً في

---

(١) « فمن ذلك عدة أمكنة بدمشق مثل : مشهد لأبي بن كعب خارج الباب الشرقي ، ولا خلاف بين أهل العلم : أن أبي بن كعب إنما توفى بالمدينة ولم يمت بدمشق . والله أعلم قبر من هو ؟ لكنه ليس بقبر أبي بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك . وكذلك مكان بالحائط القبلي بجامع دمشق ، يقال : إن فيه قبر هود عليه السلام ، وما علمت أحداً من أهل العلم ذكر أن هوداً النبي مات بدمشق ، بل قد قيل : إنه مات باليمن ، وقيل : بمكة فإن مبعثه كان باليمن ، ومهاجره بعد هلاك قومه كان إلى مكه ، فأما الشام فلا هي داره ولا مهاجره ، فموته بها - والحال هذه - مع أن أهل العلم لم يذكروه ، بل ذكروا خلافه - في غاية البعد . وكذلك مشهد خارج الباب الغربي من دمشق يقال : إنه قبر أويس القرني ، وما علمت أن أحداً ذكر أن أويساً مات بدمشق ولا هو متوجه أيضاً : فإن أويساً قدم من اليمن إلى أرض العراق . وقد قيل : إنه قتل بصفين . وقيل : إنه مات بنواحي أرض فارس وقيل : غير ذلك وأما الشام فما ذكر أحداً أنه قدم إليها ، فضلاً عن الممات بها وكذلك مقابر كثيره لأسماء رجال معروفين قد علم أنها ليست بمقابرهم . اقتضاء الصراط المستقيم /٣١٦ ، ٣١٧ وانظر ما بعدها ، ٣٦٨ وما بعدها ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، وانظر الفتاوى ٥٠٠/١٧ ، ١٧٣/٢٧، ٦١ وانظر التفسير الكبير ٥٥٥/٧ ، ٥٥٦

(٢) انظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١٤٥/١ - ١٤٦ .

(٣) البداية والنهاية ٣٠/١٤ .

قلبه ولا هو ثابت فيه ولا يستقر كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (١) » (٢) .

وهي عقيدة طارئة لأن (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه) (٣) ، ولهذا كان المشركون عند الاضطرار إذا ركبوا البحر يوحّدون وينسون ما يشركون لأنه ليس له قرار في قلوبهم بخلاف التوحيد فهو في قلب المؤمن كالشجرة الطيبة في الأرض قد غاصت جذورها في الأعماق وامتد فرعها في الأعلى يعانق السماء (٤) .

والشرك « وهو الكلمة الخبيثة : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (٥) ، استؤصلت واجتثت كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض « ما لها من قرار » ، فإن القرار يراد به مكان الاستقرار » (٦) .

والعقيدة الشركية لا ثبات لها فعند الحقيقة تخون ولا تنفع ولا توصل لغاية محمودة، « ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول لأنه ضيع الأصول ، ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِه لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِه وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ (٧) » (٨) .

ثامناً :

أ – من منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة أنه لا يكفّر المخطئين فيها الذين تأولوا وقصدهم متابعة الرسول فاجتهدوا فخالفوا الحق ، يقول : « ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة فإنه يكون إما كافراً وإما فاسقاً وإما عاصياً ، إلا أن يكون مؤمناً مجتهداً مخطئاً فيثاب على اجتهاده ويغفر له خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة ، فإن الله يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (٩) ، وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالف فإنه يعاقب بحسب ذلك إما بالقتل أو بدونه » (١٠) .

---

(١) سورة الرعد آية (١٧) . (٢) التفسير الكبير ٢٦٩/١ . (٣) سبق تخريجه في صفحة (٩٨) .
(٤) انظر التفسير الكبير ٢٦٨/١ . (٥) سورة إبراهيم آية (٢٦) . (٦) التفسير الكبير ٦٢٨/١ .
(٧) سورة الرعد آية (١٤) . (٨) التفسير الكبير ٢٦٩/١ .
(٩) سورة الإسراء آية (١٥) . (١٠) الفتاوى ١١٣/١ ، وانظر الاستقامة ١٨٨/٢ .

ويرى أن التكفير في مسائل العقيدة في مثل هذه الحال من فعل أهل البدع وهو مخالف لمنهج السلف والأئمة، ويقرر عن نفسه قائلاً :« هذا مع أني دائماً ومن جالسني يعلم ذلك مني : أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية ، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة ، وفاسقاً تارة أخرى ، وعاصياً أخرى ، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها ، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية .. » (١) .

ويقول :« فليس كل مخطىء كافرا لا سيما في المسائل الدقيقة التي كثر فيها النزاع » (٢).

وقد يكون القول الذي قاله كفر ويقال عنه ذلك ، ولكن لا يلزم أن كل من قال قولا كفرا أن يكون كافرا مع الجهل والتأويل (٣) .

و « ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر يصير بها كافرا الكفر المطلق ، حتى تقوم به حقيقة الكفر ، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير بها مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان وحقيقته » (٤) .

يقول رحمه الله في مسألة « التكفير بالذنوب » : « والكلام في هذه المسألة مبني على أصلين :

أحدهما : أن الذنب لا يوجب كفر صاحبه كما تقول الخوارج ، ولا تخليده في النار ومنع الشفاعة فيه كما تقول المعتزلة .

الثاني : أن المتأوّل الذي قصده متابعة الرسول لا يكفّر ولا يفسّق إذا اجتهد فأخطأ ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية .

وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفروا المخطئين فيها وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا يعرف عن أحد من المسلمين ، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم كالخوارج والمعتزلة والجهمية ، ووقع ذلك من كثير من أتباع الأئمة ، كبعض أصحاب مالك والشافعي ، وأحمد وغيرهم ، فمنهم من يُكفر أهل البدع مطلقاً ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع [كافر] وهذا بعينه قول الخوارج ، والمعتزلة والجهمية، وهذا القول أيضاً لا يوجد في طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة ، ولا غيرهم،

---

(١) الفتاوى ٣/٢٢٩ .
(٢) التفسير الكبير ٦/٤١٥ - ٤١٦ .
(٣) انظر الفتاوى ٥/٣٠٦ - ٣٠٧ .
(٤) انظر الصراط المستقيم /٧٠ .

وليس فيـهم من كفرّ كل مبتـدع بل المنقولات الصريـحة عنهم تناقض ذلـك ، ولكن قد ينقـل عن أحدهم أنه كـفرّ من قال بعـض الأقوال ويكون مـقصوده أن هذا القـول كفر ليحذر ، ولا يـلزم إذا كان القول كفـراً أن يكفر كل من قـاله مع الجهل والتـأويل ، فإن ثبـوت الكفـر في حق الـشخص المـعين كثبـوت الوعيـد في الآخرة فـي حقه وذلـك له شروط وموانع .

قال إسحاق : حدثنا وكيع (١) عن أبي خالد عـن حكيم بن جابر قال : قـالوا لعلي حين قتل أهل النهروان :أمشركون هم ؟ قال : من الشرك فروا ، قيل أفمنافقون ؟ قال : المنافقون لا يذكرون اللـه إلا قليلا ، قيل : فما هم ؟ قال قوم حاربونا فحـاربناهم وقاتلونا فقتلـناهم ... فمن عيـوب أهل البدع تكفيـر بعضهم بعـضا ومن ممادح أهل العـلم أنهم يخطئون ولا يكفرون » (٢) .

ويقول رحـمه الله أثـناء كلامه في مـسألة الجهـة وهي من مباحـث العقيـدة :« نعم وقوع الغلط في مثـل هذا يوجب ما نقوله دائماً : إن المجتهد في مـثل هذا من المؤمنين إن استفرغ وسعه في طـلب الحق ، فإن الله يـغفر له خطأه ، وإن حـصل منه نوع تقـصير ، فهو ذنب لا يـجب أن يبلغ الكـفر ، وإن كان يطلق الـقول بأن هذا الكلام كـفر ، كما أطلق السلف الكفر على من قال ببعض مـقالات الجهمية ، مثل القول : بخلق القرآن أو إنكار الرؤية ، أو نحـو ذلك مما هو دون إنكار علو الله على الخـلق ، وأنه فوق العرش ، فإن تكفـير صاحب هذه المقالة كـان عندهم من أظهر الأمـور ، فإن التكفير المطـلق مثل الوعـيد المطلـق، لا يستلـزم تكفيـر الشخص المـعيّن حـتى تقوم عـليه الحجـة التي يكـفر تاركها.

كما ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي قال : (إذا أنا مت فأحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً لا يـعذب به أحداً من الـعالمين ، فقال اللـه له : ما حملـك على ما فعلـت ؟ قال : خشيتك فغفر له) (٣) .

فهذا الـرجل اعتقـد أن الله لا يقـدر على جمـعه إذ فعل ذلـك ، أو شك ، وأنه لا يبعثه ، وكل من هذين الاعـتقادين كفر يكفر من قامت عليه الحجـة ، لكنه كان يجهل

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (١٨٤) .
(٢) ابن تيمية لعبدالعزيز المراغي /١١٨ ، ١١٩ نقلاً عن منهاج السنة .
(٣) سبق تخريجه في صفحة (٣٦٤) .

ذلك ، ولم يبلغه العلم بما يرده عن جهله ، وكان عنده إيمان بالله وبأمره ونهيه ووعده ووعيده ، فخاف من عقابه فغفر الله له بخشيته .

فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد من أهل الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح ، لم يكن أسوأ حالاً من هذا الرجل فيغفر له خطأه ، أو يعذّبه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدر دينه ، وأما تكفير شخص علم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم » (١) .

ويقول :« ... فمن ترك الأعمال شاكراً بقلبه ولسانه فقد أتى ببعض الشكر وأصله والكفر إنما يثبت إذا عدم الشكر بالكلية ، كما قال أهل السنة : إن من ترك فروع الإيمان لا يكون كافراً ، حتى يترك أصل الإيمان ، وهو الاعتقاد ، ولا يلزم من زوال فروع الحقيقة – التي هي ذات شعب وأجزاء – زوال اسمها ، كالإنسان ، إذا قطعت يده ، أو الشجرة إذا قطع بعض فروعها » (٢) .

ب – ومن منهجه في العقائد وغيرها أن لازم القول ليس بقول ، أو لازم المذهب ليس بمذهب ، لأن كثيراً من أهل الإيمان يقولون أقوالاً تستلزم الكفر وتتضمن تكذيب الرسول فيما أخبر به عن ربه ، لكنهم لا يعرفون أن هذا يلزمهم من قولهم « فلازم المذهب ليس بمذهب إلا أن يستلزمه صاحب المذهب ، فخلق كثير من الناس ينفون ألفاظاً أو يثبتونها بل ينفون معاني أو يثبتونها ويكون ذلك مستلزماً لأمور هي كفر ، وهم لا يعلمون بالملازمة بل يتناقضون ، وما أكثر تناقض الناس لا سيما في هذا الباب ، وليس التناقض كفراً » (٣) .

ويقول :« بل أكثر الناس يقولون أقوالاً ولا يلتزمون لوازمها فلا يلزم إذا قال القائل ما يستلزم أن يكون معتقداً للتعطيل بل يكون معتقداً للإثبات ولكن لا يعرف ذلك اللازم » (٤).

جـ –ونبه إلى مسألة كمون الكفر في القول ، وعدم كون القول متضمناً للكفر الظاهر الواضح ، فإنه والحالة هذه لا يكفر لأن تضمن القول للكفر خفيٌّ فلا يكفر إلا إذا علم حقيقة ما تضمنه قوله من الكفر .

---

(١) الاستقامة ١٦٤/١ .
(٢) الفتاوى ١٣٨/١١ ، وانظر التفسير الكبير ٢٣٦/٥ .
(٣) الفتاوى ٣٠٦/٥ – ٣٠٧ وانظر ٤٧٧ .
(٤) التفسير الكبير ٤٣٧/٦ .

يقول رحمه الله بعد قوله السابق [1] :« ... وليس كل من فتن يكون كافراً ، وادعيت أن من قال ذلك كان قوله مستلزماً للتعطيل ، فيكون الكفر كامناً في قوله ، والكامن في الشيء لا يجب أن يكون ظاهراً فيه ، ولو كان الكفر ظاهراً في قوله للزم تكفير القائل – أما إذا كان كامناً وهو خفي لم يكفر به من لم يعلم حقيقة ما تضمنه من الكفر ، وإن كان متضمناً للكفر مستلزماً له » [2] .

تاسعاً : تختلف الأمة في مداركها العقلية وقدرتها على الفهم والاطلاع ،وكثير من الأمة علمهم محدود ، ولا بد لهم من شيء يدركونه على مستوى عقولهم ، وهذا مما دفع ابن تيمية لإبراز عقيدة صافية نقية بعيداً عن الخلافات والمجادلات الكلامية ، وأبرز ما يمثل ذلك من مؤلفاته : العقيدة الواسطية ، والعبودية ، واقتضاء الصراط المستقيم، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والاستقامة ونحوها . ومن جانب آخر تصدى لمعضلات مسائل العقيدة التي واجهت الأمة وناقش المخالفين ، وذكر أقوالهم وحججهم، وفندها واحدة واحدة مركزاً على أسباب خطئهم وضلالهم ، موجهاً الدعوة إليهم أن يعودوا إلى منهج السلف . ثم يقول كلمة الفصل في تلك القضايا مستعملاً بعض العبارات الدالة على ذلك كقوله :

وفصل الخطاب[3] ، والتحقيق [4] ، والصواب [5] .

عاشراً : السير على منهج السلف في عدم الجدل في مسائل العقيدة والخوض فيها، ولا يستعمل ذلك إلا عند الحاجة والضرورة التي لابد منها لرد افتراء ، أو دحض شبهة، أو إقناع ضال عن الحق ، واذا ناظر أحداً في العقائد أو غيرها فإنه يلتزم الأدلة الشرعية النقلية والعقلية ويناظرهم بها .

ولا يناظر بالطرق الكلامية الفلسفية وحدها ، ولا يرد بدعة ببدعة [6] .

الحادى عشر : إظهار حاجة الناس إلى العقيدة : النفوس البشرية تحرص علماً وعملاً على ما لها فيه مصلحة وفائدة عاجلة أو آجلة ، وهي تحب ما ينفعها وتكره ما يضرها ، ولا بد للنفوس من غاية مطلوبة بها سكينتها واطمئنانها « فإن الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، ونفسه مريدة دائماً ، ولا بد لها من مراد يكون غاية

---

(١) المرجع السابق.   (٢) الفتاوى ٥/٣٠٦ – ٣٠٧ .
(٣) الفتاوى ١٨/٢٧١ .   (٤) الفتاوى ١٨/١٣ .   (٥) الفتاوى ١١/١٢ – ٢٧ .
(٦) انظر الفتاوى ٥/٤٢٩ ، ٤٣٠ ، وعقيدة ابن تيمية لمحمد أحمد الهراوي /٧٧ .

مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به ، وليس ذلك إلا لله وحده ، فلا تطمئن القلوب إلا به ، ولا تسكن النفوس إلا إليه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) ،ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له فبالتوحيد يقوى العبد ويستغني ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » (٢).

ولهذا فإن المولى يذكر منافع وفوائد ومصالح العمل بأوامره واجتناب نواهيه ، ويذكر أخطار وأضرار وعقوبات ترك أوامره وفعل نواهيه ، ويذكر نماذج عملية عبر المسيرة البشرية لذلك مما يتمثل في عاقبة المتقين ، وعاقبة المكذبين .

وابن تيمية رحمه الله يقرر أن النفوس فيها قوة جذب وقوة دفع ، فلا بد من استثمار هاتين القوتين وتحريك أولاهما لتجذب والأخرى لتدفع ، كل واحدة في مجال اختصاصها (٣) .

وابن تيمية بذل جهوداً كبيرة في تحرير الإنسان من العبودية للإنسان ، والعبودية للشيطان ، والعبودية لنفسه وشهواته ، ليكون خالصاً لله عز وجل .

وسلك من أجل ذلك طريق الإيضاح لأضرار العبودية لغير الله وفوائد العبودية لله، وأن الإنسان والحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا بالعقيدة والعبادة الخالصة لله عز وجل .

وأقدم بعض النماذج لهذا المنهج من أقواله :

يقول رحمه الله : « وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا قيام ولا لذة بدون ذلك بحال ، بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ... فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه ، ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ، ونوع من اللذة ، فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم ، ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك بل ينتقل من نوع إلى نوع ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذي تنعم به والتذ ، غير منعم له ولا ملتذ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك . وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال

(١) سورة الأنبياء آية (٢٢) . (٢) الفتاوى ٥٥/١ . (٣) انظر التفسير الكبير ١١/٦ - ١٤ .

وكل وقت وأينما كان فهو معه » [(١)] .

« فإن اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده ، والإيمان به ، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية كما قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال أقول فيها : إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب ، وقال آخر: لتمر على القلب أوقات يرقص فيها طرباً ، وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (أرحنا بالصلاة يا بلال) [(٢)] ،ولا يقول أرحنا منها» [(٣)] .

وإذا كان توحيد العبد من القلب خالصاً محققاً لشهادة ألا إله إلا الله ، فإن الله يحليه بالأمن والسرور والرحمة للخلق ، والجهاد في سبيل الله ، وكلما قوي التوحيد قوي إيمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه ، وما يحصل في القلوب من خوف وهلع وجبن فإنما هو من الشرك ، ويستدل بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [(٤)] ، يقول الإمام أحمد لبعض الناس : لو صححت لم تخف أحدا [(٥)] .

والتوحيد والاستغفار عقيدة لها أثرها في تحريك الإنسان ورفع همته ، وتنشيطه للتحصيل الأكثر فيما قصر فيه وقصر عنه .

فالعقيدة لها ثمار عظيمة في تحقيق فعالية الإنسان ، فيزداد عطاؤه وإنتاجه مما يكون له مردود محمود على نفسه وعلى المجتمع الذي هو فيه ، فالتوحيد والاستغفار علاج للبطالة ، وشفاء من وهن النفوس والأبدان من إرهاق البدع والمعاصي ، يقول رحمه الله : « ... فمن أحس بتقصير في : قوله : أو عمله ، أو حاله ، أو رزقه ، أو تقلب قلب ، فعليه بالتوحيد والاستغفار ففيهما الصفاء إذا كان بصدق وإخلاص »[(٦)] .

والمسلم إذا لقي الله على التوحيد والعقيدة السليمة من الشرك فإنه يدخل الجنة برحمة الله عز وجل ولو كان عليه ذنوب كثيرة من كبائر الذنوب ما دام أنه لم يستحلها .

قال ابن تيمية بعد أن ذكر بعض الفواحش المحرمة :« وإن أتى هذه الفواحش معتقداً تحريمها فهو من المسلمين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث

---

(١) الفتاوى ٢٣/١ ، ٢٤ ، ٢٥ . (٢) سيأتي تخريجه في صفحة (٣٩٩) .(٣) الفتاوى ٣١/٢٨ .
(٤) سورة الأنعام آية (٨٢). (٥) انظر الفتاوى ٣٥/٢٨ . (٦) الفتاوى ٦٩٨/١١ .

أبـي ذر: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، وإن زنا وإن سرق) [١].... فإن الذنـوب التي يـبتلـى بها الـعباد يـسقط عـنهم عـذابها ، إمـا بتوبـة تجنّب ما قـبلهـا ، وإما باستغفار، وإما بحسنات يذهبن السيئات ، وإما بدعاء المسلمين وشفاعتهم ، أو بما يفعلونه له من البر ، وإما بـشفاعة النبي صلي الله عـليه وسلم وغيره يوم القيـامة ، وإما أن يكفر الله خطاياه بما يصيبه من المصائب .. » [٢] .

والدعاء سلاح المؤمن ، ومفـتاح للمدد والعون الرباني ، والدعاء هـو العبادة ولبها، وبه يتجلى الضعف البشري ، وحقيقة العبودية أمام القوي المعبود ، فإذا كان هذا الدعاء من قلب مـخلص موحد عابد فـإنه يتحقق به الأمور الـعظيمة ، وإذا كان الدعـاء شركياً فإنه لا يتحقق به شيء وإن تحقق به شيء فإنه لا يتحقق إلا الأمور الحقيرة [٣].

وأي دعوة أو دولـة أو كيان لا يـحمل الـعقيـدة السلـيمة والـتوحيـد الخالص فـكراً ومنهجاً وسلوكاً فـإنه لا يحقق للناس السعادة والأمن والنجـاة من العذاب ، بل كل « ما يأمرون بـه من الأخلاق والأعمـال والسياسـات كما قال تـعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [٤] » [٥] .

وهذه حال أهل الفلسفة والكلام ، ليس عـندهم ما تحصل به السعادة « والقوم وإن كان لهـم ذكاء وفطنة وفـيهم زهد وأخلاق فـهذا القول لا يوجـب السعادة والنـجاة من العذاب إلا بالأصول المتـقدمة ... وأهل الرأي والعلم بمنزلـة أهل الملك والإمارة ، وكل هؤلاء ، وهؤلاء ،لا ينفعه ذلـك شيئاً إلا أن يعبد الله وحده لا شريك لـه ، ويؤمن برسله واليوم الآخر » [٦] ،لأن عمل المشركين الكفار جعله الله هـبـاء منثورا وكسراب بقيعـة لا يسمـن ولا يغني مـن جـوع .

ولأن الشرك فساد وإفسـاد في الأرض وإضلال للبشر وصد عن سبـيل الله والله لا يصلح عمل المفسدين .

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنـه في كتاب الإيمان ، بـاب من مات لا يشرك بـالله شيئا دخل الجنة ، صحيح مسلم ٩٤/١ .

(٢) الاستقامة ١٧٩/٢ ، ١٨٣ .

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٣٥٦ .

(٤) سورة الروم آية (٧) .

(٥) الفتاوى ٥٨/١٨ ، وانظر ٥٥ .

(٦) الفتاوى ٥٨/١٨ .

الفصل الثاني

أصل العبادة

وتحته مباحث :

الأول : منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العبادة.

الثاني : الدعوة إلى التطبيق العملي للعبادة.

الثالث : الشمول في الدعوة إلى الأصول.

تمهيد

العبادة أصل من أصول الدعوة :

عبادة الله وحده لا شريك له هي الغاية من خلق العقلاء الجن والإنس ،قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون ﴾ (١) ، وسائر المخلوقات عبيد لله يسبحون بحمده (٣) . فليس غريباً أن يجعل القرآن العبادة هي أصل الدعوة إلى الله(٢) .

وبعثة الرسل إنما كانت لأجل دعوة الناس إلى عبادة ربهم مخلصين له الدين ، والكتب السماوية شرعة ومنهاجاً للعبادة ، وعموم الرسل والكتب المنزلة « ... تدعو إلى عبادته وحده لا شريك له » (٤) .

والدعوة في نظر ابن تيمية تركز على أصل ما يدعى إليه ، والدعوة : هي دعوة إلى الدين ، وأصله العبادة . والغاية من إنزال الكتب وإرسال الرسل أن يعبد ولا يشرك به أحد (٥) .

وهكذا كانت بداية دعوة النبي عليه الصلاة والسلام تركز على أصلي : العقيدة والعبادة ، وقد جاء ذلك في السور المكية حيث « تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله ، إذا كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة ... ولهذا كان الخطاب في السور المكية : ﴿ يا أيها الناس ﴾ لعموم الدعوة إلى الأصول ، إذا لا يدعى إلى الفرع من لا يقر بالأصل » (٦).

وعصر ابن تيمية عصر من يقر بأصل الرسالة وفروعها ، إلا أنه عصر اضطربت فيه مفاهيم الأمة في أصول دينها ، وأدخل عليها وزِيد ما ليس منها كما نُفي ما هو منها حتى وصل الأمر ببعض الأمة أن يدعي وجود الله في كل مكان وجود ذات ، تعالى الله عما يقولون ، وبعض آخر يصف الله بالسلوب حتى يكون الله عندهم عدما .

وبعض يرى نفسه أو شيوخه أنه في مقام أعلى من مقام النبوة لأن النبي يتلقى عن الله بوساطة جبريل ، أما هو وشيوخه فيتلقون عن الله مباشرة ، وبعض قد سقطت

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦) .
(٢) قال تعالى: ﴿ يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ ، وقال : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾.
(٣) انظر الفتاوى ٦/٢ . (٤) الفتاوى ١٣٦/٩ .
(٥) انظر الرد على المنطقيين/١٤٤ ، ١٤٥ ، والفتاوى ١٥/٢ .
(٦) التفسير الكبير ١٠٠/٥ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، وانظر ٣٠/٧ .

عنهم تكاليف الإسلام التعبدية لأنهم بلغوا مرحلة الصفاء .

وآخرون من هؤلاء وغيرهم توجهوا إلى أنواع من المخلوقين أحياء وميتين يدعونهم ويذبحون لهم ويتوسلون بهم ، ونحو ذلك مما هو من خصائص العبادة ، التي لا تكون إلا لله جل جلاله .

وهذه الانحرافات وأمثالها أمراض أصابت أصول دين الأمة في عقول أبنائها ، وإذا شفيت الأمة من هذه الأمراض التي في الأصول فإنها تشفى من كثير من الأمراض التي في فروع الدين ، وأمر الفروع سهل بالنسبة إلى الأصول .

وهذا مما حتم على ابن تيمية وسائر المصلحين والدعاة من علماء السلف والخلف أن يركزوا على قلب الدين وأصله وأساسه « العقيدة والعبادة » .

منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العبادة

أولاً : بيان شمولها لأنشطة الحياة كلها :

هذه العبادة التي هي أصل من أصول الدعوة في منهاج ابن تيمية تستوعب الحياة كلها ، وليست في الإسلام كما هي في النصرانية كما يقال : دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر ، ففي الإسلام كل قول أو فعل أو إرادة أو هَمٍّ يقصد به العباد وجه الله تعالى فهو عبادة ينالون ثوابها ؛لأن العبادة « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة » (١) ، فكل أمر مباح من أمور المسلمين «... إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً » (٢) .

حتى أركان الإسلام يدخل فيها هذا الشمول ، فالصلاة وإن كانت بمعناها الخاص ما ورد عن النبي بقوله: (صلوا كما رأيتموني أصلي) (٣) ، فإنها بمعناها العام «تتضمن كل ما كان ذكراً لله أو دعاء له كما قال ابن مسعود : ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ولو كنت في السوق » (٤) ، وكذلك الزكاة بمعناها العام « .. اسم لكل نفع للخلق » (٥) .

ونية العبادة في الأفعال معتبرة ولها تأثير في حكمها والحكم عليها ، فالنية قد يتحول الفعل من مباح إلى محرم ومن محرم إلى مباح « ولو سئل عمن يعدو بين جبلين: هل يباح له ذلك ؟ قال : نعم ، فإذا قيل : إنه على وجه العبادة كما يسعى بين الصفا والمروة ؟ قال : إن فعله على هذا الوجه حرام منكر ، يستتاب فاعله ، فإن تاب وإلا قتل .

ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم » (٦) ،« وأصل هذا اعتبار المقاصد والنيات في التصرفات » (٧) .

فالمباحات إذا عملها بموجب شهوته ولذته فقط فليس له إلا المتعة واللذة الدنيوية،

---

(١) الفتاوى ١٤٩/١٠ . (٢) الفتاوى ٣١٩/١١ .
(٣) أخرجه البخاري عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه كتاب الأذان ، باب الأذان للمسافر ، فتح الباري ١١١/٢ . (٤) التفسير الكبير ٢٤٣/٣ .
(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢٠ . (٦) الفتاوى ٦٣٢/١١ . (٧) الفتاوى ٣٥٣/٣٠ .

وأما إذا جعل مع ذلك نية التقوي بها على الطاعة ، والقربة إلى الله ، ومن ثم شكر ربه المنعم عليه بها كان ذلك عبادة يؤجر عليها « فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة .... » (١) . فكل عمل مشروع ومباح يعمله العبد ينوي به العبادة لله وحده أو الإعانة والتقوي على العبادة أو نفع الخلق والإحسان إليهم فهو عبادة، وبهذا تكون حياة المسلم كلها عبادة وقربة إلى الله عز وجل .

وكذلك ما يبذله الرجل لنفسه وأهل بيته من المباحات من حظوظ النفس الدنيوية من أجل أن تستعين بها على الطاعة وتنشط بها على العبادة ، وكذلك ما يبذله الحاكم لرعيته من المباحات وحظوظ النفس من أجل أن تستعين بها على الطاعة والجهاد ويتألفها على الحق ،كل ذلك عبادة لله وطاعة مع النية الصالحة (٢) .

ثانياً : بيان حاجة الخلق إليها وانتفاعهم بها :

ذكرت في فصل العقيدة المبررات لابن تيمية في سلوكه هذا المنهج في الدعوة إلى العقيدة ، والمنهج نفسه اتبعه في العبادة ،وهذا مما يؤكد أنه ما سلكه إلا عن قناعة ناتجة عن معرفة بالنفس البشرية وما جبلت عليه ، حيث النفوس تحرص على ما لها فيه نفع وفائدة .

أ – وانتفاع الناس بالعبادة وحاجتهم إليها أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب وأشد من حاجتهم إلى طب الأبدان « والرسالة ضرورية للعباد ، لا بد لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ ... وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب » لأنه بعدم الطب يموت البدن وبعدم الرسالة يموت القلب» (٣) .

« والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته ونجاته » (٤) . والقلوب لايغنيها شيء من متع الدنيا وشهواتها وسلوتها ولعبها ولن تجد غناءها ولا راحتها إلا بعبادة الله وحده (٥) .

ب – ولما كانت العبادة بهذه الأهمية فإن الإسلام يؤكد على ضرورة القيام بالتكاليف الشرعية من الطاعات ، واجتناب المحرمات ، ولا يكفي إقرار القلب ونطق اللسان بالشهادتين أو الاعتراف بأهمية العبادات وفرضيتها عليه ، فمن اكتفى بذلك فهو

---

(١) الفتاوى ٣٦٩/٢٨ . (٢) انظر الفتاوى ٣٦٦/٢٨ . (٣) الفتاوى ٩٣/١٩ ، ٩٦ .
(٤) التفسير الكبير ٣٣٠/٢ ، وانظر دقائق التفسير ١ ، ٢ / ١٩١ . (٥) انظر الفتاوى ٥٥/١ .

كافر(١) . وتارك الطاعات يلزم عقابه وتأديبه إلى حد القتل .

ج - العناية بالعبادة وإلزام الناس بها سبب لصلاح الدين والدنيا : للخاصة والعامة «ومتى اهتمت الولاة بإصلاح دين الناس ، صلح للطائفتين دينهم ودنياهم وإلا اضطربت الأمور عليهم » (٢) ، و « ... بالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية ... » (٣) .

د - واذا انغلق الفهم واختلط عليك الحق بالباطل واشتبهت عليك الأمور فعليك باللجوء إلى الله جل جلاله بدعائه والتضرع إليه ، يقول رحمه الله مرشداً الذين اشتبه عليهم أمر الأسماء والصفات ولم يهتدوا للصواب ويسلكوا طريق الهدى :« ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام يصلي من الليل قال : (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) (٤) » (٥) .

والصدق في الإخلاص والدعاء والتضرع إلى الله من عباده المسلمين له قوة عظيمة في النصر والتمكين ، يقول عن المسلمين : « وقلوبهم الصادقة ، وأدعيتهم الصالحة هي العسكر الذي لا يغلب والجند الذي لا يخذل » (٦) .

والعبادة لها لذة وطعم يذوقه القلب لذا فإن « ... الإنسان في الدنيا يجد في قلبه بذكر الله وذكر محاميده وآلائه وعبادته من اللذة ما لا يجده بشيء آخر ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (جعلت قرت عيني في الصلاة) (٧) ، وكان يقول : (أرحنا بالصلاة يا بلال) (٨) » (٩).

هـ - ذكر الله عز وجل يفيد في علاج الوساوس التي يهجم بها الشيطان على قلوب ضعفاء العلم والإيمان ، والذكر يعد مضاداً فعّالاً لهذا الداء العضال ، يقول رحمه

---

(١) انظرالفتاوى ٣٥/١٠٥ ، ١٠٦ . (٢) الفتاوى ٢٨/٣٦١ . (٣) الفتاوى ٢٨/٣٦٢ .
(٤) صحيح مسلم ١/٥٣٤ رقم (٧٧٠) كتاب صلاة المسافرين ، باب (٢٦) .
(٥) الفتاوى ٥/١١٧ . (٦) الفتاوي ٢٨/٦٤٤ .
(٧) حديث صحيح ، أخرجه أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه ، المسند ٣/١٢٨ . وصححه الحاكم في مستدركه ٢/١٦٠ كتاب النكاح ووافقه الذهبي .
(٨) رواه أحمد ٥/٣٦٤ عن رجل من أسلم وأبو داود في سننه ٥/٢٦٢ رقم ٤٩٨٥ كتاب الأدب ، باب صلاة العتمة ، وإسناده صحيح .
(٩) منهاج السنة النبوية ٥/٣٨٩ .

الله : « ... وذكر الله يدفع ما يضاده من الوسوسة القادحة في العلوم الضرورية الفطرية ويشبه هذا الوسواس الذي يعرض لكثير من الناس في العبادات حتى يشككه هل كبَّر أو لم يكبر ؟ وهل قرأ الفاتحة أم لا ؟ وهل نوى العبادة أم لم ينوها ؟ وهل غسل عضوه في الطهارة أو لم يغسله ؟ فيشككه في علومه الحسية الضرورية وهذا الوسواس يزول بالاستعاذة ، وانتهاء العبد ، وأن يقول إذا قال لم تغسل وجهة بلى قد غسلت وجهي ... الخ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ (١) » (٢) .

ثالثاً : بيان أضرار تركها والوقوع في ضدها :

فطرت النفوس على حب ما ينفعها وكره ما يضرها ، ولا يكون خلاف ذلك إلا لمرض فيها ، أو جهل بحقيقة النفع والمضرة .

والنفوس قد تعلم فوائد أنواع من العبادات كما تعلم أيضاً مضار أنواع من المعاصي والسيئات ، لكن هذه المعرفة ظاهرية لم تصل إلى أعماق القلب فتهزه ليكون متفاعلاً مع هذه المعرفة فتتحول إلى سلوك يظهر على الجوارح .

ومن منهج ابن تيمية في الدعوة أنه يسعى إلى تعميق معرفة الناس بمنافع وفوائد العبادات الدنيوية والأخروية ، ومضار ومساوئ ترك العبادات وفعل المعاصي والبدع ، ليحقق بذلك اندفاع النفوس إقبالاً على الطاعة ، وإدباراً عن المعصية . وأذكر بعض النماذج لبيانه أضرار ترك الطاعة والوقوع في المعاصي :

أ : المعاصي سبب للمصائب والمآسي : منذ أول خطيئة من نبينا آدم عليه السلام حيث عاقبه الله بأن أخرجه من الجنة دار الكرامة إلى الدنيا دار الابتلاء والامتحان .

وسنة الله جارية في الخلق إلى أن تقوم الساعة أن الثواب لمن أطاعه والعقاب لمن عصاه وخالف أمره ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (٣) .

ويقص الله علينا قصص الذين عصوا فأشركوا معه في عبادته وحاربوا رسله ، وأنه أنزل بهم أنواعاً من العذاب والعقوبات ، وممن قص الله علينا نبأ عذابهم في الدنيا « ... قوم نوح ، وعاد ، وثمود ... وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة ، ولهذا قال مؤمن آل

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٢٠١ ، ٢٠٢) . (٢) الدرء ٣/٣١٧ - ٣١٨ .
(٣) سورة الشورى آية (٣٠) .

فرعون: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ (١) (٢).

ب : إهمال العبادة والوقوع في المعاصي يدخل النفس في قيد وحبس يحرمها من لذة « الجولان في فضاء التوحيد ، وجني ثمار الأعمال الصالحة » (٣) .

ج : وكذلك الذنوب والمعاصي قد تدخل صاحبها بجهل الحنيفية السمحة فيقع في آصار وأغلال ، وحرمان وتشديد لم يكن عليه في الشرع ولكن بسبب ذنوبه ومعاصيه عاقبه الله بذلك بسبب جهله ، أو عدم من يفتيه بالرخص في الحنيفية السمحة، أو يكون بتولي مطاع فيهم يلزمهم بما يكون فيه مشقة عليهم وهو لا يلزمهم بالشرع .

يقول رحمه في بيان هذا الأمر العظيم الناتج عن إهمال الطاعات والوقوع في المحرمات :« .. الذنوب والمعاصي قد تكون سبباً لعدم العلم بالحنيفية السمحة فإن الإنسان قد يفعل شيئاً ناسياً أو مخطئاً ، ويكون لتقصيره في طاعة الله علماً وعملاً لا يعلم أن ذلك مرفوع عنه ، إما لجهله ، وإما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة في الحنيفية السمحة .

والعلماء قد تنازعوا في كثير من مسائل الخطأ والنسيان ، واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به ... فإذا كان الله سبحانه قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان وخفي ذلك في مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين ، كان هذا عقوبة لمن لم يجد في نفسه ثقة إلا هؤلاء فيفتونه بما يقتضي مؤاخذته بالخطأ والنسيان .

والله جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع . فتبين أن المقصرين في طاعته من الأمة قد يؤاخذون بالخطأ والنسيان ومن غير نسخ بعد الرسول لعدم علمهم بما جاء به الرسول من التيسير ، ولعدم علم من عندهم من العلماء بذلك ، ولهذا يوجد كثير ممن لا يصلي [في السفر قصراً] ويرى الفطر في السفر حراماً فيصوم في السفر مع المشقة العظيمة عليه ، وهذا عقوبة له لتقصيره في الطاعة .

وكذلك منهم من يعتقد التربيع في السفر واجباً فيربع فيبتلى بذلك لتقصيره في الطاعة ، ومنهم من يعتقد تحريم أمور كثيرة من المباحات التي بعضها مباح بالاتفاق وبعضها متنازع فيه لكن الرسول لم يحرمه ... وقد يبتلون بمطاع يلزمهم ذلك فيكون آصاراً وأغلالاً من جهة مطاعهم ... لاعتقاده الفاسد أن ذلك من الشرع ، ويكون عدم علم مطاعيهم تيسير الله عليهم عقوبة في حقهم لذنوبهم ... فهؤلاء لم ترفع عنهم

---

(١) سورة غافر الآيات (٣٠ ، ٣١) .
(٢) الفتاوى ١٣٩/٢٨ ، وانظر ٣٨ ، والاستقامة ٢٣٤/٢ .
(٣) التفسير الكبير ١٣/٣ .

الآصار والأغلال لذنوبهم ومعاصيهم ، وإن كان الرسول ليس في شرعه آصار وأغلال، فلهذا تسلط عليهم حكام الجور والظلم وتساق إليهم الأعداء ، وتقاد بسلاسل القهر والقدر ، وذلك من الآصار والأغلال التي لم ترفع عنهم مع عقوبات لا تحصى ، وذلك لضعف الطاعة في قلوبهم وتمكن المعاصي وحب الشهوات فيها، فإذا قالوا ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ (١) دخل فيه هذا ، وأما قوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ... أي لا تبتلينا بمصائب لا نطيق حملها ، كما يبتلى الإنسان بفقر لا يطيقه ، أو مرض لا يطيقه ، أو حدث ، أو خوف ... ويكون سبب ذلك ذنوبه، وهذا مما يبين أن الذنوب عواقبها مذمومة مطلقاً .

ولهذا كانوا في الحنيفية السمحة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا فيها على عهد أبي بكر خيراً مما كانوا فيها على عهد عمر ، فلما كانوا في زمن عمر حدث من بعضهم ذنوب أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم كمنعهم من متعة الحج ، وكإيقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة ، وكتغليظ العقوبة في الخمر... وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها حتى تنازعوا فيها وهم مؤتلفون متحابون ، كل منهم يقر الآخر على اجتهاده .

فلما كان في آخر خلافة عثمان (٢) زاد التغير والتوسع في الدنيا ، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر ، فحصل بين بعض القلوب تنافر حتى قتل عثمان فصاروا في فتنة عظيمة قد قال تعالى :﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٣) ، وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات ، وصاروا يختصمون في متعة الحج ونحوها ، مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر ، فطائفة تمنع المتعة مطلقاً كابن الزبير (٤) ، وطائفة تمنع الفسخ كبني أمية وأكثر الناس ، وصاروا يعاقبون من تمتع ،

---

(١) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

(٢) هو : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي أمير المؤمنين ، ولد بعد الفيل بست سنين ، أسلم قديماً ، وكان ربعة ، حسن الوجه ، رقيق البشرة ، عظيم اللحية ، زوّجه الرسول ابنته رقية ، فماتت عنده أيام بدر ، وزوجه بعدها أختها أم كلثوم ، فلقب بذي النورين من أجل ذلك ، بشره النبي بالجنة وعدّه من أهلها .. كان أول من هاجر إلى الحبشة ومعه زوجته رقية وتخلف عن بدر لتمريضها .. واستشهد سنة ٣٥هـ . انظر الإصابة ٣٩١/٦ ، تهذيب التهذيب ٩١/٤ .

(٣) سورة الأنفال آية (٢٥) .

(٤) هو : عبدالله بن الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزي القرشي الأسدي ، ولد عام الهجرة ، وحفظ عن الرسول عليه السلام وهو صغير وهو أحد العبادلة ، وأحد الشجعان من الصحابة ، وأول مولود للمهاجرين بعد الهجرة ، حنكه النبي عليه الصلاة والسلام ، شهد اليرموك ، والجمل مع عائشة، امتنع عن مبايعة يزيد ، وتحول إلى مكة ، بايع الناس ابن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد... قتل على يد جيش الحجاج سنة ٧٣هـ بمكة المكرمة . انظر الإصابة ٨٢/٦ ، تهذيب التهذيب ١٤١/٣ .

وطائفة أخرى توجب المتعة ، وكل منهم لا يقصد مخالفة الرسول ، بل خفي عليهم العلم ، وكان ذلك سببه ما حدث من الذنوب ، والمقصود هنا أن من الذنوب ما يكون سبباً لخفاء العلم النافع أو بعضه بل يكون سبباً لنسيان ما علم ، ولاشتباه الحق بالباطل تقع الفتن بسبب ذلك ، والله سبحانه وتعالى كان أسكن آدم وزوجه الجنة وقال لهما : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (١) ، فكل عداوة كانت في ذريتهما وبلاء ومكروه تكون إلى قيام الساعة وفي النار يوم القيامة سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى (٢) .

د : المعاصي تقتل عزيمة الإنسان وتهبط باهتماماته والطاعات بعكس ذلك فإذا ، كان مستقيماً فإنه يصبح متعلقاً بمعالي الأمور وكرامها ويستمر في هذا العلو والكرامة حتى يذنب ويعصى فيكون تعلق بالشهوات والملذات الدنيوية فينزل قلبه واهتمامه إلى الدون ، وكلما ازداد في المعاصي ازداد هبوطاً « وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعلى فلا يزال في علو ما دام كذلك ، فإذا أذنب هبط قلبه إلى أسفل ، فلا يزال في هبوط ما دام كذلك » (٣) .

ويقول : « ونتيجة فعل المنهي انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي كان فيها وإن كان لا يعاقب بالضرر » (٤) .

هـ : قد تكون عقوبة الذنب من نوعه : الذنب الذي يذنبه العبد في داخل نفسه ولا يظهره كالهم بفعل المعاصي والظلم ولا يتمكن من فعله فإن العبد يعاقب عليه بعقوبة من نوعه لها طابعه وسماته ، فيجد في نفسه غماً وكآبة وعدم انشراح صدر ولا يدري ما سبب ذلك ، وهذا المعنى أدركه أحد علماء سلفنا الصالح سفيان بن عيينة (٥) لما سئل رحمه الله عن « غم » لا يعرف سببه ، قال : هو ذنب هممت به في سرك ولم تفعله ، فجزيت هماً به ، فالذنوب لها عقوبات : السر بالسر والعلانية بالعلانية » (٦) ، والجزاء

(١) سورة البقرة الآيات (٣٥ ، ٣٦) .
(٢) انظر التفسير الكبير ١١٧/٣ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ .
(٣) التفسير الكبير ١٢٧/٣ . (٤) التفسير الكبير ٢٦٢/٦ ، وانظر ٢٥٣/٣ .
(٥) هو : سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي سكن مكة، ولد سنة ١٠٧هـ بالكوفة ،قال عنه الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، قال في آخر حجة حجها : قد وافيت هذا الموضع سبعين مرة أقول في كل سنة اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان وأني قد استحيت من الله من كثرة ما أسأله ذلك فرجع ، فتوفي في السنة الداخلة وهي ١٩٨هـ .. كان أعلم الناس بحديث أهل الحجاز ، وكان خلق من الطلبة يتكلفون الحج من أجل لقياه لإمامته وعلو إسناده . انظر تهذيب التهذيب ٣٥٧/٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨ ، وفيات الأعيان ٣٩١/٢ .
(٦) دقائق التفسير ٢٣٧/ .

من جنس العمل .

و : والطاعات والمعاصي لها أثر فيما يأتي للإنسان من رزق وما يمتنع عنه ، والرزق مما يهتم به الإنسان وهو من ضرورياته ومتعلقاته النفسية ، التي تشغل حيزاً كبيراً من تفكيره ووقته ، فما أعانه عليه وسهله عليه فهو ذو شأن عنده وكذلك ما عسره عليه أو أزاله منه فهو ذو خطر ، يقول رحمه الله : « ... وضيق الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لماله من ذنوب وخطايا ، كما قال بعض السلف : إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم :(من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب) (١) ، وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات ، والاستغفار سبب للرزق والنعمة » (٢) .

ز : طاعة الله ورسوله لا تكون سبباً لمصيبة : نبه الشيخ إلى هذا الأمر العظيم أثناء حديثه عن السيئات وأنها من نفس الإنسان وإن كانت مقدرة عليه ،وهذا التنبيه ذكره إزالة للوهم وقطعاً للوساوس الشيطانية فقال :« والمقصود : أن ما جاء به الرسول ليس سبباً لشيء من المصائب ، ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة ، ولكن قد تصيب المؤمن بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله ورسوله ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال ، ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيه من الشر وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليتميز طيبه من خبيثه والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه قال تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) » (٤).

---

(١) حديث حسن ، أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، المسند ٢٤٨/١، ورواه أبو داود كتاب الصلاة ، باب في الاستغفار بلفظ من لزم الاستغفار ، سنن أبي داود ١٧٨/٢ رقم ١٥١٨ .

(٢) التفسير الكبير ٧٣/٦ .

(٣) سورة آل عمران الآيات (١٤٠ ، ١٤١) .

(٤) التفسير الكبير ٢٨٦/٣ .

الدعــوة إلــى التطبيــق العملــي للعبــادة

وهذا التطبيق العملي لا بد أن يكون وفق ضوابط معينة منها :

أ- **الإخلاص**: فكل أعمال المسلم يجب أن تكون خالصة لله لا يشوبها شائبة من الشرك لغيره ،ولا يشفع للإنسان مطلقاً أن تكون صورة عمله الظاهرة متفقة مع الشرع إذا كان الباطن مصروفاً لغير الله ،« فالسالك طريق الزهادة والعبادة إذا كان متبعاً للشريعة في الظاهر وقصد الرياء والسمعة وتعظيم الناس له كان عمله باطلاً لا يقبله الله ،كما ثبت في الصحيح أن الله يقول :(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه برىء ، وهو كله للذي أشرك) (١)، وفي الصحيح عنه أنه قال :(من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به) (٢) ، و « أصل الإسلام أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة فلم يحقق شهادة ألا إله إلا الله »(٣) .

ب – **أن يكون بتوسط واعتدال بعيداً عن الغلو** : فالاقتصار على المشروع من العبادات والاجتهاد في إتقانه وإحسانه ظاهراً وباطناً هو منهج السلف ، قال أبي بن كعب (٤) وابن مسعود وأبو الدرداء (٥) : « اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة» (٦) .

يقول رحمه الله :« فليس الفضل بكثرة الاجتهاد ولكن بالهدى والسداد كما جاء

(١) حديث صحيح من حديث ، أخرجه مسلم كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله ٢٩٨٥/٤ .

(٢) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، كتاب الزهد باب من أشرك في عمله غير الله . صحيح مسلم ٢٢٨٩/٤ .

(٣) الفتاوى ٦١٣/١١ ، ٦١٧ .

(٤) هو : أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو الأنصاري البخاري سيد القرّاء ، كان من أصحاب العقبة الثانية ، شهد بدراً والمشاهد ، قال له الرسول عليه السلام :« ليهنك العلم أبا المنذر...» وكان عمر يسميه سيد المسلمين وكان ربعة أبيض اللحية لا يغير شيبه ... توفي سنة ٢٢ هـ وقيل ١٩هـ في خلافة عمر رضي الله عنهما . انظر الإصابة ٢٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٨٩/١ .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٣١٢) .

(٦) أخرجه البيهقي في السنن كتاب الصلاة ، باب القصد في العبادة من كلام عبدالله بن مسعود موقوفاً عليه ، وقال البيهقي وروي عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً بزيادة ألفاظ ، سنن البيهقي ١٩/٣ .

في الأثر : ما ازداد مبتدع اجتهاداً إلا ازداد من الله بعداً ... ويوجد لأهل البدع من أهل القبلة لكثير من الرافضة والقدرية والجهمية وغيرهم من الاجتهاد ما لا يوجد لأهل السنة في العلم والعمل ، وكذلك لكثير من أهل الكتاب والمشركين ، لكن إنما يراد الحسن من ذلك » (١).

ويقول : « والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها ، فإنه إن رآه مائلاً إلى الرحمة زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ، ولا يغار لما يغار الله منه ، وإن رآه مائلاً إلى الشدة زين له الشدة في غير ذات الله حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ، ويتعدى في الشدة فيزيد الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله ، فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والإحسان ، وهو مذموم مذنب في ذلك ويسرف فيما أمر الله به ورسوله من الشدة حتى يتعدى الحدود ، وهو من إسرافه في أمره فالأول مذنب والثاني مسرف ﴿ ... وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢) » (٣) . والتوسط والاعتدال مطلوب في كل حياة المسلم في أكله وشربه ولبسه وعبادته وزهده ، والتعدي في ذلك محرم والإفراط والتفريط كذلك «ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه » (٤).

وقال رحمه الله : « ثم نهى سبحانه عن تحريم ما أحل من الطيبات ، وعن الاعتداء في تناولها وهو مجاوزة الحد ، وقد فسر الاعتداء في الزهد والعبادة بأن : يحرموا الحلال ، ويفعلوا من العبادة ما يضرهم ، فيكونوا قد تجاوزوا الحد وأسرفوا ، وقيل : لا يحملنكم أكل الطيبات على الإسراف وتناول الحرام من أموال الناس فإن أكل الطيبات والشهوات المعتدي فيها لا بد أن يقع في الحرام لأجل الإسراف في ذلك ... وهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وهي وسط بين هذين الصنفين أصحاب البدع ، وأصحاب الفجور ، أهل الإسراف والتقشف الزائد ، ولهذا كان السلف يحذرون من هذين الصنفين ، وكانوا يأمرون بمجانبة أهل البدع والفجور .

فـ « القسم الأول » أهل الفجور وهم المترفون المنعمون ، أوقعهم في الفجور ما هم فيه . و « القسم الثاني » المترهبون أوقعهم في البدع غلوهم وتشديدهم ... كما حرم كثير من العباد والزهاد أشياء ، يقول أحدهم : لله عليّ ألا آكل طعاماً بالنهار أبداً، ويعاهد أحدهم ألا يأكل الشهوة الملائمة ، ويلتزم بقصده وعزمه وإن لم يحلف ولم ينذر، فهذا يلتزم ألا يشرب الماء ، وهذا يلتزم ألا يأكل الخبز ... وهذا يلتزم ألا يتكلم

---

(١) التفسير الكبير ٣٢٧/٤ .
(٢) سورة الأعراف الآية (٣١) ، وسورة الأنعام الآية (١٤١) .
(٣) التفسير الكبير ٢٤٧/٥ .
(٤) الفتاوي ٢١٣/٢٨ ، وانظر ص٢٧٢ .

قط ، وهذا يجب نفسه ، وهذا يلتزم ألا ينكح ولا يذبح ، وأنواع هذه الأشياء من الرهبانية التي ابتدعوها على سبيل مجاهدة النفس وقهر الهوى والشهوة .

ولا ريب أن مجاهدة النفس مأمور بها ، وكذلك قهر الهوى والشهوة ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني)(١) .لكن المسلم المتبع لشريعة الإسلام هو المحرم ما حرمه الله ورسوله فلا يحرم الحلال ولا يسرف في تناوله ، بل يتناول ما يحتاج إليه من طعام أو لباس أو نكاح ، ويقتصد في ذلك ، ويقتصد في العبادة ، فلا يحمل نفسه ما لا يطيق ، فهذا تجده يحصل له من مجاهدات النفس وقهر الهوى ما هو أنفع له من تلك الطريق المبتدعة الوعرة القليلة المنفعة ، التي غالب من سلكها ارتد على حافره ، ونقض عهده ، ولم يرعها حق رعايتها ، وهذا يثاب على ذلك ما لا يثاب على سلوك تلك الطريق ، وتزكو به نفسه ، وتسير به إلى ربه ، ويجد بذلك من المزيد في إيمانه ما لا يجده أصحاب تلك الطريق ، فإنهم لا بد أن تدعوهم أنفسهم إلى الشهوات المحرمة ... » (٢) .

وناقش في هذا المجال بعض المقولات المشهورة ، التي تدل على التشديد في العبادة، والمشقة ، والتعسير ، وبيّن المفهوم الصحيح الذي يوافق هدي الإسلام الذي شرعه خالق النفوس العليم بما يناسبها ويصلحها .

ومن هذه المقولات :« قول بعض الناس : الثواب على قدر المشقة ، ليس بمستقيم على الإطلاق ، كما قد يستدل به طوائف على أنواع من (الرهبانيات والعبادات المبتدعة) التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات ، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال :(هلك المتنطعون) (٣)،وقال :(لو مد لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم) (٤) ، مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم ، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه ، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر

---

(١) هذا الحديث مركب من حديثين الأول أخرجه الترمذي عن فضالة بن عبيد ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، سنن الترمذي ١٦٥/٤ ، رقم ١٦٢١ . والثاني وهو : (الكيس من دان نفسه ... الخ » أخرجه ابن ماجه عن شداد بن أوس ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له ، سنن ابن ماجه ١٤٢٣/٢ رقم ٤٢٦٠ .

(٢) التفسير الكبير ١٤١/٤ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٣) أخرجه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنهما كتاب العلم ، باب هلك المتنطعون ، صحيح مسلم ٢٠٥٥/٤ .

(٤) أخرجه مسلم عن أنس كتاب الصيام ، باب النهي عن الوصال في الصوم ، صحيح مسلم ٧٧٦/٢ .

الإنسان بلا فائدة : مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائماً ولا يجلس ولا يتكلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه)(١) ، رواه البخاري وهذا باب واسع » (٢) .

ويذكر بعد أن نقد هذه العبارة « بإطلاقها » البديل عنها من العبارات ذات المدلول المتناسب مع روح الشريعة المنزلة للأمة الوسط فيقول :« وأما الأجر على قدر الطاعة ، فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر كما يسر الله على أهل الإسلام الكلمتين وهما أفضل الأعمال ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) (٣) ، أخرجاه في الصحيحين ، ولو قيل : الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحاً اتصاف « الأول » باعتبار تعلقه بالأمر ، و « الثاني » باعتبار صفته في نفسه، والعمل تكون منفعته وفائدته تارة من جهة الأمر فقط ، وتارة من جهة صفته في نفسه ، وتارة من كلا الأمرين .... » (٤) .

« فأما كونه مشقاً فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه ، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً ففضله لمعنى غير مشقته ، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره ، فيزداد الثواب بالمشقة ، كما أن من كان بعده عن البيت في الحج والعمرة أكثر يكون أجره أعظم من القريب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في العمرة : (أجرك على قدر نصبك) (٥). لأن الأجر على قدر العمل في بعد المسافة ، وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر وكذلك الجهاد » (٦) .

ويقرر أن شريعة الإسلام شريعة يسر ورفع للحرج والمشقة ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (٧) ، وقد رفع عنا الآصار والأغلال ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (٨) . وإذا كان الثواب يكثر مع المشقة في بعض الطاعات فليس هذا لأن المشقة مقصودة ومرادة من هذا العمل ، بل لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب .

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية الله ، فتح الباري ٥٨٦/١١ .

(٢) الفتاوى ٦٢٠/١٠ - ٦٢١ .

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ وهو آخر حديث صححه البخاري ، فتح الباري ٥٣٧/١٣ .

(٤) الفتاوى ٦٢١/١٠ .

(٥) حديث صحيح من حديث أم المؤمنين عائشة أخرجه البخاري فتح الباري ٦١٠/٣ كتاب العمرة ، باب أجر العمرة على قدر النصب .

(٦) الفتاوى ٦٢٢/١٠ . (٧) سور البقرة آية (١٨٥) . (٨) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

وفي الشرائع السابقة قد تكون المشقة مطلوبة منهم وداخلة ضمن التعبد . ولهذا (١) « .. كثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوباً مقرباً إلى الله تعالى لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد ، وهذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم » (٢) . فتأثراً بمسلك الأمم التي قبلنا صار بعض العبّاد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يفرضون على أنفسهم ومن تبعهم زهادات ، وعبادات شاقة ، ويكابدون الآلام والتعب من أجل تحقيقها (٣) ،« مع أنه لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ولا منفعة إلا أن يكون شيئاً يسيراً لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه ، ونظير هذا الأصل الفاسد مدح بعض الجهال بأن يقول : فلان ما نكح ولا ذبح ، وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون ، وأما الحنفاء فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :(لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني) (٤) ، وهذه الأشياء هي من الدين الفاسد وهو مذموم ، كما أن الطمأنينة إلى الحياة الدنيا مذمومة » (٥) .

وأرشد – رحمه الله – إلى أن العبادات يرجع في صفاتها ومقاديرها إلى الشارع كما يرجع إليه في أصلها في حديث الثلاثة الذين تقالوا عبادة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن منعوا أنفسهم مما أحل الله ، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الفعل (٦) ، قال رحمه الله :« والأحاديث الموافقة لهذا كثيرة في بيان أن سنته التي هي الاقتصاد في العبادة وفي ترك الشهوات – خير من رهبانية النصارى – التي هي ترك عامة الشهوات من النكاح وغيره ، والغلو في العبادات صوماً وصلاة ، وقد خالف هذا بالتأويل ولعدم العلم طائفة من الفقهاء والعباد .

روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: (الْقط لي حصىً فلقطت له سبع حصيات مثل حصى الخذف ، فجعل ينفضهن في كفه ويقول : أمثال هؤلاء فارموا . ثم قال : (أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين) (٧) ، وقوله :(إياكم والغلو في الدين) عام في جميع أنواع الغلو في

---

(١) انظر الفتاوى ٦٢٢/١٠ . (٢) الفتاوى ٦٢٣/١٠ . (٣) الفتاوى ٦٢٣/١٠ .

(٤) صحيح من حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح . فتح الباري ١٠٤/٩ .

(٥) الفتاوى ٦٢٣/١٠ . (٦) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٩٩ ، ١٠٤ .

(٧) حديث حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢١٥/١ ، وابن ماجه ١٠٠٨/٢ رقم ٣٠٢٩ كتاب المناسك ، باب ٦٣ . وليس في رواية أحمد " أيها الناس " قال=

الاعتقادات والأعمال ، والغلو هو مجاوزة الحد ، بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك » (١) .

والتفاضل في العبادة ليس في كمها وطولها ونوعها وإنما بما في القلب من العلم والإيمان وقوة اليقين ومن الصدق والإخلاص وحسن الاتباع ، وبهذا ترفع درجات المؤمن ويعلو قدره في الدنيا والآخرة يقول رحمه الله : « ... قال تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ (٢)قال زيد بن أسلم (٣) : بالعلم نرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان ، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين ، وآخر لا ينام الليل ، وآخر لا يفطر ، وغيرهم أقل عبادة منهم ، وأرفع قدراً في قلوب الأمة ، فهذا كرز بن وبَره (٤) ، وكهمس (٥) ، وابن طارق (٦) يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة ، وحال ابن المسيب (٧) وابن سيرين (٨) والحسن وغيرهم في القلوب أرفع

= صاحب الفتح الرباني : قال النووي وسنده حسن أو صحيح وهو على شرط مسلم ١٢ /١٦٩ ، وصححه الحاكم في المستدرك كتاب الحج ، باب رمي الجمار ومقدار الحصى ، ووافقه الذهبي في التلخيص .

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) سورة يوسف آية (٧٦) .

(٣) هو : زيد بن أسلم العدوي العمري المدني الفقيه ، كان له حلقة للعلم في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال عنه أبو حازم الأعرج : لقد رأينا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهاً أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا .. أرخ ابنه وفاته سنة ١٣٦هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١٣٢/١ ، وتهذيب التهذيب ٢٣١/٢ ، سير أعلام النبلاء ٣١٦/٥ .

(٤) هو : كُرْز بن وبرة الحارثي ، الكوفي ، نزيل جرجان وكبيرها ، دخلها غازياً سنة ٩٨هـ مع يزيد بن المهلب . كان زاهداً مقبلاً على القيام ، وكان لا ينزل منزلاً إلاّ ابتنى فيه مسجداً وكان يقول :لا يكون العبد قارئاً حتى يزهد في الدرهم .. وكان إذا أمر بالمعروف يضرب حتى يغشى عليه ويضرب به المثل في التعبد يختم القرآن في الشهر ٩٠ مرة توفي بجرجان سنة ١١٠هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٨٤/٦ ، الأعلام ٢٢١/٥ .

(٥) هو : كهمس بن الحسن التميمي ، البصري ، العابد من كبار الثقات قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ثقة وزيادة .. كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة - وكان براً بأمه ، وكان يقول في الليل : أتراك معذبي ، وأنت قرة عيني ، يا حبيب قلباه ! ! يختم القرآن في الشهر تسعين مرة ، توفي سنة ١٤٩هـ . انظر تهذيب التهذيب ٦٠٢/٤ ، سير أعلام النبلاء ٣١٦/٦ .

(٦) لم أجد له ترجمة وقد رجعت إلى أكثر كتب التراجم ولكن دون جدوى .

(٧) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٩٤) .

(٨) هو : أبوبكر محمد بن سيرين الأنصاري الأنسيّ البصري ، مولى أنس بن مالك خادم الرسول عليه السلام ، كان أبوه من سبي جراجرايا (من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد) ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان بن عفان ، وأدرك ثلاثين صحابياً .. كان من أشد الناس إزراءً على نفسه ، وكان حليماً كثير المزاح والضحك ... كان عالماً بتعبير الرؤيا .. توفي بعد الحسن البصري بمائة يوم عام ١١٠هـ . انظر تذكرة الحفاظ ٧٧/١ ، سير أعلام النبلاء ٦٠٦/٤ .

وكذلك ترى كثيراً ممن لبس الصوف ، ويهجر الشهوات ، ويتقشف وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب ، وأحلى عند النفوس، وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنية وصفائها ، وخلوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك ، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول وكمال تصديقه في قلوبهم ، ووده ومحبته وأن يكون الدين كله لله » (١) .

ويقول في رده على من فضل الملائكة على الصالحين من الإنس نظراً لكثرة عبادتهم : « ... الفضل بنفس العمل وجودته لا بقدره وكثرته ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٢)، وقال : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (٣) ، ورب تسبيحة من إنسان أفضل من ملء الأرض من عمل غيره ، وكان إدريس يرفع له في اليوم مثل عمل جميع أهل الأرض ، وإن الرجلين ليكونان في الصف وأجر ما بين صلاتهما كما بين السماء والأرض ... » (٤) .

ويلفت الانتباه إلى أن النفوس تختلف في قدراتها وتحملها ، فأكثر النفوس لا تحتمل القيام بالواجب والصبر على المحرم إلا بشيء من المباح ، من أجل ذلك فهو يرى أن الإنسان لا بد له من الاستجمام والترويح عن النفس والأخذ بنصيب من المباح من الشهوات لكي تقوى النفس وتنشط على العبادة فيكون فعله هذا عبادة ،« والله سبحانه إنما خلق اللذات والشهوات في الأصل لتمام مصلحة الخلق فإنهم بذلك يجتلبون ما ينفعهم ، كما خلق الغضب ليدفعوا به ما يضرهم ، وحرم من الشهوات ما يضر تناوله ، وذم من اقتصر عليها ، فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (في بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أما يكون عليه وزر؟ قالوا : بلى ، قال : فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال) (٥) » (٦) .

وابن تيمية ينتقد كثيراً المتصوفة ونحوهم في رياضة القلوب ، وقسوتهم أحياناً في بداية رياضة النفس وحرمانها من الملذات المباحة، ويقول إن هذا أوقع بعضاً منهم في المحرمات ، وفي جانب آخر أدخلوا ملذات وشهوات وجعلوها عبادات ،ومن ذلك السماع المحرم « الغناء »، رفض ابن تيمية هذا وأنكره عليهم ولكنه رحمه الله يرى أن

---

(١) التفسير الكبير ٦٩/٦ . (٢) سورة الكهف آية (٧) . (٣) سورة الكهف آية (٣٠) .
(٤) الفتاوى ٣٧٨/٤ - ٣٧٩ . (٥) سبق تخريجه في صفحة (٣١٣) . (٦) الفتاوى ٣٦٩/٢٨ .

النفـوس لا بـد أن تعـوض فـلا تتـرك فارغة ، وإذا سلب مـنها شيء اعتادت علـيه بقي مكانـه فارغاً ، فالحداء رفع الـصوت مع التلحـين بأبيات شعـرية مباحة جائـز ، وقد ذكر الاتفاق علـى جوازه، وقد ثبت أن عامـر بن الأكـوع [١] كان يحـدو الصحابة مع الـنبي صلى الله عليه وسلم قـال : (مـن السائـق ؟ قالـوا : عامـر بن الأكـوع ، فقال : يرحمه الله ، فقالوا : يا رسول الله لولا أمتعتنا به) [٢] .

فالكمـال غير مأمور ولا مقـدور لكل الخلق ، بل الـنقص هو الغالـب وهو الواقع ، وكل نفس فيـها جانب من جوانب النقـص ونوع منه ، كما أن كل نفس فـيها جانب أو جوانب مـن الكمال ، ومن نـقص النفـوس محبتهـا « للباطل ... لـكن ليس كـل الخلق مأمورين بالكمال ولا يمكن ذلك فيهم ، فإذا فعلوا ما به يدخلون الجنة لم يَحرُم عليهم ما لا يمنعهم من دخولها ... » [٣] .

وفي نظرته وتقويمه لما يـقع من بعض العُبّاد والنساك أثناء حياتهم الـعبادية نهج منهج التوسط والاعتدال معتبراً الإنسان وما كوّنه الله عليه ، فمثلاً لما تكلم عن الذين يصعقون عند سـماع القرآن ذكر أنّـه أنكر عليـهم طائفة مـن الصحابة والـتابعين ولهـم مأخذان : منهم من ظنه تكلـفاً وتصنعاً ، ومنهم من أنكره لأنه يراه بدعـة ، ثـم قـال بعـد ذلك : « والذي عليه الجمهور أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغـلوباً عليه لم ينكر عليه وإن كان حال الثابت أكمل منه » [٤] .

---

(١) هو : عامـر بن سنان بـن عبد اللـه الأسلمي ، المعروف بابن الأكـوع عمّ سلمـة بن عمرو بـن الأكوع ، واسم الأكوع سـنان لعامر صـحبة وهو الذي بـارز مرحبا اليـهودي يوم خيـبر فاختلـفا بضربتـين ، فوقع سيف مرحبـا في ترس عامر ، ورجع سيف عامر عـلى ساقه .. فمات من جراحه سنـة ٧هـ . وفي شأنه ورد حديث سلـمة الذي فيه قاتل أخي عـامر قتالاً شديداً فارتـد عليه سيفه ، فـقتله فقالوا حبـط عمله ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :كذب من قال إنه لمجاهدٌ ومجاهد ، قلّ عربيٌ نشأ بها مثله .
انظر الإصابة ٥/٢٨٠ ، الأعلام العلية ٣/٢٥١ .

(٢) في الصـحيحين عـن سلمة بـن الأكوع قال : (خرجـنا مع رسول اللـه صلى الله عليه وسـلم فسرنـا ليلاً وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم يقول :

والله لولا أنت مااهتدينـا ولا تصدقنا ولا صلينـا
فاغفر فداءً لك ما اقتفينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقيـن سكينـة علينـا إنا إذا صبـح بنا أتينـا
وبالصباح عولوا علينا

فقال رسول الـله صلى الله عليـه وسلم : (من هذا السائـق ؟ قالوا : عامر بن الأكـوع ، فقـال : « يرحمه الله) فقال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله . لولا أمتعتنا به ... » الاستقامة ١/٢٨٣ . انظر صحيح مسلم ٣/١٤٢٧ رقم ١٣٦٥ كتـاب " الجهاد والسير " باب ٤٣ ، وصحيح الـبخاري ٤/٢٥ كتاب " الجهاد والسير " باب ١٦١ الرجز في الحرب ، فتح الباري ٦/٤٦٣ .

(٣) الاستقامة ٢/٥٩٦ . (٤) الفتاوى ١١/٧ .

ثم أشار إلى أمر مهم في الحكم في أمثال هذه الأمور، وهو أن واقع من يقوم بالحكم على الشيء له تأثير في حكمه على ما ينظر إليه أو يريد أن يحكم عليه ، يقول رحمه الله :« وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء عن الدين ما هو مذموم وقد فعلوا ، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها وكلا طرفي هذه الأمور ذميم » (١) .

ولما تكلم عن السكر والإغماء والغشي التي تحصل من بعض العباد قال : « كلها زوال العقل والتمييز ، لكن تفترق أسبابها وأذواقها ، فقد يكون أحد الذوقين والوجدين عن محبة ولذة وقد يكون عن خشية وألم ، وقد يكون عن عجز عن الإدراك لفرط العظمة التي تجلت للإنسان كما وقع لموسى عليه السلام .

فهذه الأمور يجب أن يعرف أنها ليست كمالاً مطلقاً كالغناء ، لكن يحمد ما فيها من الأمور المحمودة الإيمانية ، من ذوق أو وجد إيماني مشروع ، أو محبة إيمانية أو خشية إيمانية ، ولا يحمد منها ما زاد على المستحب ، وما شغل عن ما هو أحب منه ، ويذم منها ما تضمن ترك واجب من علم أو عمل ، أو فعل محرم ، لكن إذا كان المذموم بغير تفريط من العبد ولا عن عدوان منه لم يذم منه ... فإن السكر نوع من الغلبة ، ويذم من لم يحصل له من هذه الأحوال ما يجب حصوله ، كما ينقص من عدم منها ما يستحب حصوله ، فهكذا يجب التفصيل في هذه الأحوال والله أعلم » (٢) .

ولما تكلم عن خوف صوفية البصرة أمثال : عتبة الغلام (٣) ، وعطاء السليمي (٤) ، قال: «ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم ، ومن خاف الله خوفاً مقتصراً يدعوه إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء وهو حال الصحابة

(١) الفتاوى ١١/ ٧ ، ٨ . (٢) الاستقامة ٢/١٦٣ .

(٣) هو : عتبة بن أبان البصري من نساك البصرة ، كان يشبه في حزنه بالحسن البصري ، وكان يصوم الدهر ويأوي السواحل والجبانة وكان يقول في سجوده : اللهم احشر عتبة من حواصل الطير وبطون السباع، وقيل إن نفسه نازعته لحماً ، فماطلها سبع سنين .. مات شهيداً غازياً في سبيل الله في غزوة الروم . انظر سير أعلام النبلاء ٧/٦٢ .

(٤) هو : عطاء السليمي البصري العابد من صغار التابعين أدرك أنس بن مالك ، وسمع من الحسن البصري، كان يقول في دعائه : اللهم ارحم غربتي في الدنيا ، وأرحم مصرعي عند الموت ، وأرحم قيامي بين يديك .. وكان إذا بكى من شدة خوفه من جهنم بكى ثلاثة أيام بلياليها ، توفي بعد سنة ١٤٠هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٦/٨٦ .

رضي الله عنهم » (١) .

ج- فعل العبادات المسنونة وترك البدع :

إن ترك السنن وإهمالها هو الذي يفتح أبواب البدع لأن العبادات والشرائع أغذية القلوب فإذا لم تتغذ بها بحثت عن غذاء ، وليس أمامها في هذه الحال إلا أن تبتدع ، يقول رحمه الله : « الشرائع أغذية القلوب فمتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن ، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث »(٢) .

ولزوم العبادة المشروعة يغني النفوس عن البدع ، والعبادة المشروعة موجودة في الكتاب والسنة فلو لزمها المبتدعون من العلماء والعباد والأمراء لما وقعوا فيما وقعوا فيه من البدع والمخالفات ، يقول رحمه الله : « وعامة الأمراء إنما أحدثوا أنواعاً من السياسات الجائرة من أخذ أموال لا يجوز أخذها وعقوبات على الجرائم لا تجوز لأنهم فرطوا في المشروع .. وكذلك العلماء إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله ، وما فيه من الهدى ... لاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أهل الدين ... الخ » (٣) .

ويضرب مثالاً لما أحدث من البدع بسبب التفريط بالسنة فيقول :« ومثال ما حدثت الحاجة إليه من البدع بتفريط من الناس : تقديم الخطبة على الصلاة في العيدين ، فإنه لما فعله بعض الأمراء أنكره المسلمون لأنه بدعة ... فيقال له سبب هذا تفريطك فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطبهم خطبة يقصد بها نفعهم ... وأنت تقصد إقامة رياستك » (٤).

والبدع يخفى أمرها على كثير من الناس وينخدعون بها ، وسبب ذلك أن البدعة « لا تكون حقاً محضاً موافقاً للسنة إذ لو كانت كذلك لم تكن باطلا ، ولا تكون باطلا محضاً لا حق فيه ، إذ لو كانت كذلك لم تخف على الناس ، ولكن تشتمل على حق وباطل ، فيكون صاحبها قد لَبَّس الحق بالباطل إما مخطئاً غالطاً ، وإما متعمداً لنفاق فيه وإلحاد » (٥) .

ويعرفنا ابن تيمية متى يكون الشيء عبادة ومتى يكون بدعة فيقول :« إن كل قول لم يرد لفظه ولا معناه في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة فإنه لا يدخل في الأدلة السمعية ولا تعلق للسنة والبدعة بموافقته ومخالفته ... ، وإنما السنة موافقة الأدلة

---

(١) الفتاوى ١١/١٣ . (٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٨١ .
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٨٠ . (٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٨٠ . (٥) الدرء ٢/١٠٤ .

الشرعية والبدعة مخالفتها ، وقد يقال عما لم يعلم أنه موافق لها أو مخالف إنه بدعة إذ الأصل أنه ما لم يعلم أنه من الشرع فلا يتخذ شريعة ودينا ، فمن عمل عملاً لم يعلم أنه مشروع فقد تذرع إلى البدعة ، وإن كان ذلك العمل تبين له فيما بعد أنه مشروع ، وكذلك من قال في الدين قولاً بلا دليل شرعي ، فإنه تذرع إلى البدعة ، وإن تبين له فيما بعد موافقته للسنة » (١) ، والبدع شر لذا « ... صارت .. باب الإلحاد كما أن المعاصي بريد الكفر » (٢) . و « كانوا يقولون : البدع مشتقة من الكفر وآيلة إليه » (٣)، والبدع تبدأ غالباً متدرجة في الظهور فيبدأ منها أولاً ما كان أخف (٤) ،« وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة » (٥). ولكن كل هذا لم يدفعه أن يقول كما يقول البعض :« كل ضلالة في النار » ؛ لأن من البدع من قد يعفى من صاحبها لحسن قصده يقول رحمه الله : « وكل بدعة ضلالة ، لكن إذا كان صاحبها قاصداً للحق فقد يعفى عنه فيبقى عمله ضائعاً لا فائدة فيه ، وهذا هو الضلال الذي يعذر صاحبه فلا يعاقب ولا يثاب .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الصحيح في خطبته يوم الجمعة :(خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة) (٦) . ولم يقل : وكل ضلالة في النار ، بل يضل عن الحق من قصد الحق ، وقد اجتهد في طلبه فعجز عنه فلا يعاقب ، وقد يفعل بعض ما أمر به فيكون له أجر على اجتهاده ... » الخ (٧) .

---

(١) الدرء ٢٤٤/١ .
(٢) التفسير الكبير ٤١٩/٧ .
(٣) الرسالة المدنية /٣٨ .
(٤) انظر التدمرية /١٩٤ .
(٥) التدمرية /١٩٤ .
(٦) صحيح عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أخرجه مسلم في كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة ، صحيح مسلم ٥٩٢/٢ .
(٧) الفتاوى ١٩٠/١٩ .

المبحث الثالث

شمــول فــي الدعــوة إلــى الأصــول

العبادة كالعقيدة أصل من أصول الدين وبينهما علاقة وطيدة وارتباط وثيق . حتى إنك تجد صعوبة في فك هذا الارتباط والعلاقة ، فمعرفة الله بأسمائه وصفاته عبادة ، ومن لم يعرفه هذه المعرفة الحقة فما عبده حق العبادة « وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه ، وما وصفه به رسله ، ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره ، وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عبدوه حق عبادته ... » (١) .

وعقيدة من دون عبادة لا توصل إلى الله ، وعبادة من دون عقيدة كذلك لا توصل إلى الله ، لأن العقيدة هي أصل التوحيد والعبادة هي فرعه ، وإذا اجتمع الأصل والفرع حصل الوصول لأنه في هذه الحالة وجدت الأصول ، ومن فقد الأصول حرم الوصول إلى الغاية المحمودة (٢). « والتوحيد الذي جاءت به الرسل لا بد فيه من التوحيد بإخلاص الدين لله ، وعبادته وحده لا شريك له » (٣) ، فلا يتم التوحيد إلا بإخلاص الدين والعبادة ودين الله الذي هو صراطه المستقيم يتكون من اعتقادات وإرادات وهي : أمور باطنة في القلب أقوال وأفعال ، وهي : أمور ظاهرة محلها الجوارح (٤) .

« وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينها – ولا بد – ارتباط ومناسبة ، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة ، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً [والشهوات داء العصاة ، والشبهات داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات] ، وكثيراً ما يجتمعان فقل من تجد في اعتقاده فساداً إلا وهو ظاهر في عمله » (٥) .« ومتى كان القلب مريضاً لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة.... » (٦) .

(١) التفسير الكبير ١/٢٧٠ ، وانظر الفتاوى ٩/١٣٦ .
(٢) انظر التفسير الكبير ١/٢٦٩ .
(٣) الفتاوى ١٨/٥٧ .
(٤) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم /١١ ، ٢٦ .
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم /١١ ، ٢٦ ، ٥٧ .

يقول أبو الطيب المراغي (١) : « صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد » (٢) ، فإذا صفا الأصل صفا الفرع .

وأعمال البر داخلة في التوحيد ، فالعبادة ممتزجة في التوحيد ، لذا فإن الله يجمع بينهما إيجاباً في مواضع ،يقول رحمه الله : « وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء ، وإذا كان قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ في صلاة ، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه ... وقد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً في مواضع كقوله في آخر سورة هود ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (٣) وكذلك آية ثمان وثمانون منها (٤) ، وآية أربعة من سورة الممتحنه(٥) » (٦) .

و « النفس لها قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة إرادية عملية ، فلا بد لها من كمال القوتين بمعرفة الله وعبادته ، وعبادته تجمع محبته والذل له فلا تكمل نفس قط إلا بعبادة الله وحده لا شريك له » (٧) .

ومما تقدم ندرك أن منهج ابن تيمية في الدعوة الاهتمام بدعوة الناس إلى العقيدة والعبادة ، اهتماماً كبيراً بدرجة واحدة ، وهذا ما لم يقم به بعض طوائف الأمة حيث توجه بعضهم إلى التركيز والاهتمام بأحدهما على حساب الآخر .

فمثلاً : الفلاسفة الذين في الإسلام ، وأهل الكلام ، ركزوا على الجوانب الفكرية النظرية العلمية من الإسلام ، أو المخالفة للإسلام بينوا مخالفتها .

وأما العبادة والسلوك فكان لديهم أقل بكثير من الأول ؛ ولهذا تجد عندهم نوعاً من الجفاء والغلظة وقلة الورع .

ومن جانب آخر نجد الصوفية وأهل الزهد عموماً اهتمام أغلبهم منصب على العبادات ، وأنواع من السلوك ، وقضايا الترغيب والترهيب ، وأما العقيدة بجميع

---

(١) أبو الطيب المراغي : لم أجد له ترجمة والذي وجدته هو أحمد بن محمد بن إبراهيم المراغي الرومي الحنفي ، قدم دمشق ، وصار شيخ زاوية بالشرق الأعلى ، وكان حسن النغمة ، وولي مشيخة الخاتونية، وإمامة الحنفية بالجامع الأموي ، وتوفى رحمه الله سنة ٧١٧هـ . انظر الدرر الكامنه ١/٢٥٧ .

(٢) الاستقامة ١/١٨٠ ، وانظر ص١٤٥ .   (٣) سورة هود آية (١٢٣) .

(٤) نص الآية ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

(٥) نص الآية ﴿ ... ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ .

(٦) دقائق التفسير ١ ، ٢ /١٧٣ .   (٧) الفتاوى ٩/١٣٦ .

مباحثها وأقسامها وشمولها فالتقصير فيها لديهم ظاهر (١) .

ومنهج ابن تيمية وسلف الأمة من قبله أن العقيدة والعبادة أصل من أصول الدعوة لا يفرطون بجزئية من جزئيات أحدهما ، ولا يفرقون بين ما جمعه الله في أعظم سور القرآن فاتحة الكتاب في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) ،« وقد جمع الله بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً وغير إيجاب في مواضع ... وإلى هذين الأصلين كان النبي صلى الله عليه وسلم يقصد في عباداته وأذكاره ومناجاته » (٣) .

والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة لا تتم إلا بجمع هذين الأصلين العظيمين ، إفراده بالتوحيد وإفراده بالعبادة « فقد تبين أن أصل السعادة وأصل النجاة من العذاب هو توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له ، والإيمان برسله واليوم الآخر والعمل الصالح » (٤).

والقلوب تسعد بذلك وبـ « .. تحقيق الصراط المستقيم ... والذي في تحقيقه تحقيق مقصود الدعوة النبوية والرسالة الإلهية وهو لب القرآن وزبدته » ، وتسعد أيضاً بـ «...بيان التوحيد العلمي القولي المذكور في قوله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٥) ، والتوحيد القصدي العلمي المذكور في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (٦)، وما يتصل بذلك فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها » (٧) .

---

(١) انظر الاستقامة ١/١٤٤ .

(٢) سورة الفاتحة آية (٥) .

(٣) التفسير الكبير ٢/٣٠٢ .

(٤) الفتاوى ٩/٣٤ .

(٥) سورة الصمد آية (١ - ٢) .

(٦) سورة الكافرون آية (١) .

(٧) التفسير الكبير ٥/١٠٦ ، وانظر الفتاوى ٢/١٥ .

ردمك ٥ ـ ٧ ـ ٩١٠٠ ـ ٩٩٦٠

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة

تأليف

الدكتور عبد الله بن رشيد الحوشاني
مدير عام معهد الأئمة والخطباء

الجزء الثاني

مركز الدراسات والإعلام
دار اشبيليا

منهج
شيخ الإسلام ابن تيمية
في الدعوة إلى الله تعالى

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

ⓒ دار اشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

الحوشاني ، عبد الله بن رشيد

منهج شيخ الاسلام ابن تيميه في الدعوة الى الله تعالى ــ الرياض

...ص : .. سم

ردمك ٥ ــ ٧ ــ ٩١٠٠ ــ ٩٩٦٠

١ ــ الدعوة الاسلامية ٢ ــ ابن تيميه احمد بن عبد الحليم ، ت٧٢٨هـ

ا ــ العنوان

ديوي٢١٣ ١٦/٣٥٩٣

رقم الايداع : ١٦/٣٥٩٣

ردمك : ٥ ــ ٧ ــ ٩١٠٠ ــ ٩٩٦٠

مركز الدراسات والإعلام / دار اشبيليا

ت / فاكس : ٤٧٧٣٩٥٩ - ص.ب. : ٢٢٤٦٠ - الرياض : ١١٤٢٨

تطلب جميع منشوراتنا خارج المملكة من :

دار أولي النهى - بيروت - هاتف : ٦٣١٥٥٢ - فاكس : ٦٣١٥٥٣

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية

في الدعوة إلى الله تعالى

تأليف
الدكتور عبد الله بن رشيد بن محمد الحوشاني
مدير عام معهد الأئمة والخطباء

الجزء الثاني

مركز الدراسات والإعلام
دار اشبيليا

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث

أصـــل الأخــلاق

وتحته مباحث :

الأول : قواعد عامة في مجال التعامل الأخلاقيّ.

الثاني : منهجه الأخلاقيّ في التعامل مع علماء الأمة.

الثالث : منهجة الأخلاقيّ في التعامل مع العامة.

الرابع: منهجه الأخلاقيّ في التعامل مع ولاة الأمر.

الخامس : منهجه الأخلاقيّ مع أهل البدع والمنكرات.

السادس: منهجه الأخلاقيّ في التعامل مع غير المسلمين.

تمهيد

الخُلُق في منظور ابن تيمية جماع الدين وبه بعث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهو كلمة واحدة ، لكنها شملت الدين ، وانطوت على معانيه العظيمة ودلالاته الكريمة، وهذا ما جعل ابن عباس (١) رضي الله عنهما يفسر هذه الكلمة بأنها الدين في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) ، قال: على دين عظيم (٣) . فلا انفصال بين الدين والخلق ، بل لا يتصور وجود أحدهما وجوداً مؤثراً من دون الآخر .

والدعوة الإسلامية دعوة أخلاق (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (٤).

والنبي صاحب أخلاق عظيمة ، فليس بدعاً أن يولي الدعاة والمصلحون والمربون الأخلاق اهتماماً كبيراً ؛ لأنها من أساسات الإسلام ومبانيه العظيمة ، ولأنها ضرورة من ضرورات النفوس البشرية ، ولأنها عامل من العوامل المؤثرة في الهدم والبناء .

والناس مجتمع متجانس متآنس ، فالإنسان « مدني بالطبع لا يمكن أن يعيش وحده كما يعيش الوحش بل لا يمكنه أن يعيش إلا مع بني جنسه » (٥) .

لذا فإن ابن تيمية يرى أن شطر سعادة الإنسان في صلته بالناس بعد صلته برب الناس جل جلاله (٦) .

وهذه الحياة الاجتماعية المتجانسة المتآنسة ليست حياة سلبية ، بل هي حياة تفاعلية تتنامى فيها قيم ، وتتهاوى فيها قيم أخرى ، والفرد في إطار المجموعة له نصيب من هذا ، لأن النفس الإنسانية ذات إرادات وميول ورغبات وشهوات ، وهذه تتأثر بالسلوكيات التي في المجتمع ، لوجود الدواعي في الإنسان ، فكم من الناس لم يرد خيراً ولا شراً حتى رأى غيره ، لا سيما إن كان نظيره يفعله فيفعله فإن الناس كأسراب القطا (٧) مجبولون على تشبه بعضهم ببعض ، ولهذا كان المبتدىء بالخير وبالشر له مثل من تبعه من الأجر والوزر .

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٣١٣) . (٢) سورة القلم آية (٤) .

(٣) انظر الفتاوى ٦١/١٦ .

(٤) حديث صحيح أخرجه البيهقي عن أبي هريرة كتاب الشهادات ، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها ، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٢/١٠ . قال ابن عبدالبر : هذا الحديث يتصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، تجريد التمهيد /٢٥١ رقم ٨١٧ .

(٥) كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة . ت . د. على الدخيل الله ٦٤١/٢ .

(٦) انظر عقيدة ابن تيمية الحنبلي /٩١ . (٧) الاستقامة ٢٥٤/٢ ، ٢٥٥ .

وهذا التأثر والتشبه يقوى أزمنة الفترات التي تشبه من بعض الوجوه أزمنة الجاهلية، فإن الإنسان منذ أن يدرك قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء .

ولا يسلم من هذه التأثيرات حتى الذين لديهم أسباب الحصانة والمناعة ، كمن نشأ في بيت علم ودين فكيف بغيره ممن هو أقل منه (1) ، لما ذكر حديث :(لتتبعن سنن من كان قبلكم) (2) ، قال : « وهذا أمر قد يسري في المنتسبين إلى الدين من الخاصة » (3) .

وهذه التأثيرات السيئة والسلوكيات المنحرفة يعدها ابن تيمية ورطات يتورط بها المسلم ولا بد له من مخرج منها ، والواجب على الدعاة والمصلحين البحث عن علاج لهذه الورطات السلوكية .

ولقد اجتهد في معرفة العلاج فاكتشفه ، وقدمه للأمة في زمانه ، وهو مشتمل على الأخلاق يقول :« فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو : اتباع السيئات الحسنات ، والحسنات : ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات» (4) .

ونظرية ابن تيمية في التأثر لدى الإنسان واسعة المحيط ، فهو لا يقتصر على من يعايشهم من البشر بل يمتد إلى أن يشمل البيئة الطبعية التي نشأ فيها وتربى على ثراها وتغذى من ثمارها . فمثلاً : سكان البلاد الجبلية يختلفون في بناهم الجسمية وسلوكياتهم الأخلاقية عن سكان المناطق الصحراوية بعض الاختلاف .

وسكان البلاد الحارة يختلفون في جوانب من ذلك عن سكان البلاد الباردة (5) .

ويسري مجال التأثر أيضاً إلى المهنة التي يمارسها ويعيش وقتاً أطول في مزاولتها فمثلاً : أهل الزراعة يختلفون في جوانب من طباعهم عن أهل الصناعة ، ورعاة الإبل يختلفون في جوانب من طباعهم عن رعاة الغنم ، فـ « الآدمي إذا عاشر نوعاً من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه » (6).

---

(1) انظر الفتاوى ١٠/٦٥٦ .

(2) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، فتح الباري ٦/٤٩٥ . ومسلم كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، صحيح مسلم ٤/٢٠٥٤ .

(٣ ، ٤) الفتاوى ١٠/٦٥٧ . (٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم /٢١٩ .

ولقد بذل ابن تيمية جهداً لمعرفة الدوافع والمؤثرات لفعل الحسنات والسيئات ، والخير والشر ، والإحسان والإساءة .

واستَنَدَ في هذه المهمة على مصدرين هامين :

الأول : ما يذكره الخالق العظيم سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وعلى لسان نبيه الصادق الأمين عن الإنسان وما جبل عليه وما ركب في نفسه من الإرادات والقدرات والطبائع .

واستنتاجات العلماء في مجال النفس والطبائع والسلوكيات ومن خلال ما توصل إليه أيضاً من دراسة لهذه الأمور .

الثاني : الرصيد العلمي التراثي والمعاصر الذي تحصل عليه في حياته العلمية والعملية ومعايشته لأنواع وألوان الناس ، وهم يتعاملون بشتى ألوان التصرفات في مواقف متعددة ، وهذا نوع من الملاحظات التجريبية على الأعمال السلوكية للإنسان ، وتعاضد ما تحصل عليه من المصدرين في تكوين نظريات سلوكية هي حقائق واقعية يلزم الدعاة والمصلحين الأخذ بها ليتمكنوا من رسم منهاج دعوي لتربية الأمة تربية ربانية متكاملة تحقق لها واقع : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١).

وأحب أن أبرز بعض هذه النتائج التي هي في الحقيقة تصلح أن نسميها :

(قواعد عامة في مجال التعامل الأخلاقي) وإليك بيانها :ـ

---

(١) سورة الحجرات آية (١٠) .

المبحث الأول

قواعد عامة في مجال التعامل الأخلاقي

أولاً : الأخلاق تتُلقى من الشارع الحكيم :

فما قرر الإسلام أنه خلق فاضل التزمناه ، وما قرر أنه بخلافه تركناه « فإن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق . وهذا كله مبيّن في الكتاب والسنة ، فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه ... » (١) ، « فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة » (٢) .

وهذا رد على السياسة الميكافيلية التي تقول : إن الغاية تبرر الواسطة أو الوسيلة ، فإذا كانت الأهداف والغايات شريفة فلا بد أن تكون الوسائط والوسائل كذلك ؛ لأن المسلم يتبع الصراط المستقيم الذي ينافي كل منحرف ويجافي كل ما لم يكن مع الحق مؤتلفاً .

ثانياً : توجد علاقة وثيقة وصلة وطيدة بين الأخلاق والعقائد والعبادات :

وكل واحد منها ينمي الآخر ويعضده ويقويه ، بل إنه لا يتصور إسلام من دون أخلاق كما أنه لا يتصور إيمان من دون عقيدة وعبادة .

فكل من الممارسات العقدية والعبادية ينمي السلوك الحميد في النفس البشرية ويقضي على سلوكيات سيئة ، كما أن الممارسات الأخلاقية السيئة تؤدي إلى نقص وتخلخل في الجوانب العقدية والعبادية ، وقد تؤدي إلى أنواع من الشرك والبدع .

والممارسات الأخلاقية الفاضلة تزكي النفس البشرية وترتقي بها إلى منازل عليا في الفضائل الإيمانية .

وإذا نظرنا إلى التشريع الرباني فإنه يربط بين الاعتقادات والعبادات ، وبين السلوكيات الأخلاقية في الذكر والحكم ، وترتب أحدهما على الآخر في السلبيات والإيجابيات .

ولبيان ذلك يذكر لنا ابن تيمية بعض الأمثلة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (٣) ،وهذان

---

(١) الفتاوى ٢٧٣/١٩ ، ٢٧٤ . (٢) المصدر السابق . (٣) سورة النحل آية (١٢٨) .

الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال : التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله .

فالتعظيم لأمر الله : يكون بالخشوع والتواضع وذلك أصل التقوى ، والرحمة لعباد الله : بالإحسان إليهم . وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة ، فإن الصلاة : متضمنة للخشوع والعبودية له والتواضع له ، والذل له ، وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر .

والزكاة : متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم وذلك مضاد للبخل » [1]، ففعل الصلاة ولّدَ معاني أخلاقية وسلوكيات فاضلة ، ونفى معاني سافلة وسلوكيات رذيلة ، وكذلك أداء الزكاة .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [2] :

« فلا بد أن يصبر وأن يرحم وهذا هو الشجاعة والكرم » [3] ، فالصبر نوع من الشجاعة بل هو شجاعة ، والشجاعة ينتج عنها الصبر ، فالحياة الاجتماعية تحتاج إلى مولدات للسلوكيات الكريمة الرئية التي تستقر بها النفوس في جو الأخوة الإيمانية الكريمة .

وهذه المولدات منها : الصلاة والزكاة ، والصبر « ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة وهي الإحسان إلى الخلق ، وبينهما وبين الصبر تارة . ولا بد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . ولا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم » [4] .

وإذا كانت هذه ضرورية ولازمة لحياة الناس ، ونفوسهم لا تصلح إلا بها ، فكذلك هي لازمة في دعوتهم للآخرين وهدايتهم الصراط المستقيم ، فلا بد للداعية: من اللطف واللين والتواضع مع مجانبة ما يضاد هذه السلوكيات من الفخر والخيلاء والكبر وهذا ينبع من « الصلاة » . ولا بد للداعية من الإحسان إلى المدعوين والرحمة بهم والعطف عليهم وهذا ينبع من « الزكاة » .

ولا بد له من تحمل التعب والعناء في دعوتهم وتحمل ما يصدر منهم من إيذاء قولي وفعلي . وأن يكون شجاعاً في الصدع بالحق ومفاتحتهم بأخطائهم مما خالفوا فيه الشرع . ومنبع هذا كله هو « الصبر » ، وإذا كان لزوم هذه السلوكيات للدعوة في

---

(١) الفتاوى ١٤/٢١٤ . (٢) سورة البلد آية (١٧) . (٣) الفتاوى ٢٨/١٥٤ .
(٤) الفتاوى ٢٨/١٥٤ .

الرخاء والحياة المستقرة فإن لزومها أعظم وآكد كلما قويت الفتنة والمحنة .

مثال آخر : بعض السلوكيات الأخلاقية المنحرفة نتجت من انحرافات عقدية ، ولهذا نجد القرآن الكريم يربط بين التكذيب بالبعث وبين بعض التعاملات الفاسدة بين الناس قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [1] ، ويقول تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [2] .

ولذا فإن ابن تيمية يرى أن الأخلاق الذميمة السيئة قد تكون منبعاً وأساساً للعقائد الفاسدة والبدع المضلة .

وكل من كان عن التوحيد والسنة بعيداً كان إلى الأخلاق السيئة الذميمة قريباً . وهذا من باب التأثر المتلازم لارتباط باطن الإنسان وهو القلب بظاهره وهو الجوارح .

قال رحمه الله : « والشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء ؛ولهذا فإن كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع أقرب كالرافضة [3] الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء وأعظمهم شركاً ، فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم ولا أبعد عن التوحيد ... »[4] ،وإذا وقع انفصال بين هذه الأصول الثلاثة: العقيدة ، العبادة ، الأخلاق – حدث خلل كبير – بل إن شيخ الإسلام يرى أن الأخلاق والأعمال والمعارف من دون عقيدة سليمة وعبادة خالصة لا تفيد ولا تحقق فلاحاً ولا نجاحاً ولا سعادة في الدنيا والآخرة .

يقول عن منهج الفلاسفة [5] وكثير من المتكلمين :« فإذا كان ما تحصل به السعادة والنجاة من الشقاوة – وهو التوحيد – ليس عندهم أصلاً كان ما يأمرون به من الأخلاق والأعمال والسياسات كما قال تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [6] .

ويقول أيضاً : « وجميع ما يأمرون به من العلوم والأعمال والأخلاق لا يكفي في النجاة من عذاب الله فضلاً أن يكون موصلاً لنعيم الآخرة » [7] ،والتفاضل بين الناس

---

(١) سورة المطففين الآيات (١ – ٥) . (٢) سورة الماعون الآيات (١ ، ٢ ، ٣) .
(٣) تقدم التعريف بهم في صفحة (١٤٥) . (٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٣٩١/١ .
(٥) تقدم التعريف بهم في صفحة (٦٨) . (٦) سورة الروم آية (٧) . (٧) الفتاوى ٥٥/١٨ .

والشرف يحصل « إما بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح ... وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق ، وهي الغرائز المخلوقة في النفس » (١) .

وهذا مما يؤكد على عموم المسلمين وخصوص الدعاة التحلي بالأخلاق الفاضلة ليحصل لهم الشرف والفضل وليكونوا كما أرادهم الله أئمة للناس .

ثالثاً : الأخلاق بين الفطر والاكتساب :

إذا كانت الأخلاق بهذه الأهمية والمنزلة من الدين فهل هي جبلة فطرية يولد الإنسان وهي به يرثها وراثة كما يرث الصفات الجسمية ؟ أم هي مكتسبة تنال بالتعلم والاقتداء والممارسة ؟ .

يرى ابن تيمية أن الأخلاق فيها هذا وهذا ، فالله يجبل ويفطر عباده على ما يشاء من الأخلاق فتكون كل الأخلاق جبلية في الأمة متوزعة عليهم . ومنها ما هو مكتسب ينال بالتعلم والاقتداء فيكون كل الأخلاق مكتسبة، يكتسب منها المرء ما لم يجبل عليه .

وقد أبدى ابن تيمية رحمه الله اهتماماً كبيراً بالأخلاق ، فأكثر الحديث عن القدوة والتشبه والمجالسة ، وأصدر كتابه القيم الذي هو قنبلة في موضوعه إنه « اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم » ، والداعية ليس بمنأى عن التأثر فيمن يختلط بهم من الكفار وأهل البدع والفجور في أثناء دعوته لهم ، ومع طول المخالطة قد ينتقل إليه الشيء من سلوكياتهم ، فيلزمه أن يكون حذراً « الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم ، فليأخذ حذره ، فإنه محتاج إلى مخالطتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى » (٢) .

والتأثر بالأخلاق المكتسبة لا يظهر على الإنسان دفعة واحدة ، سواء كان هذا التأثر إيجابياً أم سلبياً ، فأكثر التأثرات السلوكية تنمو بالتدريج فأولها بذرة من فعل قولي أم مرئي ، تنمو كنمو النبات بشكل خفي متدرج حتى تصبح سلوكاً فردياً ، أو ظاهرة سلوكية اجتماعية ، يقول الشاعر في هذا المعنى :

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /١٦٠ .

(٢) الفتاوى ١٦/٦٤ ، التفسير الكبير ٦/٨٥ .

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات [1] .

وهذا من أسباب تحذير ابن تيمية للدعاة من اكتساب شيء من أخلاق المدعوين ، فإذا كان يخاف على هؤلاء من التأثر فغيرهم أشد وآكد ، وهذا التأثر الأخلاقي الخفي المتدرج ينتج من المخالطة أو المشابهة أو المشاهدة ، أو الاطلاع الفكري على ثقافات الآخرين ونحو ذلك .

قال رحمه الله : « إن الله تعالى جبل بني آدم ، بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين ، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر ألا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط ، ولما كانت بين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص كان التفاعل فيه أشد ، ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم .

واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة .... فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي ، وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفراً من غيرهم ، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام ... » [2] . وكل ما تقدم يفيدنا أن ابن تيمية يرى أن الأخلاق منها ما هو مكتسب يستطيع المرء أن يتحلى به ويجالس أهل الأخلاق الفاضلة ويحاكيهم ، ومنها ما هو جبلي فطري ، ولو نظرنا إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لرأينا أن فيها ما يدل على ذلك .

وابن تيمية يسوق لنا حديث الأشج أشج عبدالقيس [3] : (إن فيك لخلقين يحبهما الله ، الحلم ، والأناة ، فقال : أخلقين تخلقت بهما، أم خلقين جبلت عليهما ؟

---

(١) قصيدة جميلة لمعروف الرصافي بعنوان « التربية والأمهات » والبيت المذكور مطلعها وبعده :

تقوم إذا تعهدها المربي على ساق الفضيلة مُثمرات

وتسمو للمكارم باتساق كما اتسقت أنابيب القناة

الخ وهي في ديوانه : ديوان معروف الرصافي ١٤٤/٢ - ١٥١ ، دار العودة . بيروت ، لبنان ، ط عام ١٩٧٢م .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٢١٩ .

(٣) هو : المنذر بن عائذ بن المنذر العبديّ المعروف بالأشج أشج عبد القيس وقيل اسمه منقذ بن عائذ .. كان قدومه ومن معه سنة عشر من الهجرة وقيل كان سنة ٨ قبل فتح مكة .. واستقر في البحرين بعد إسلامه ثم البصرة . انظر الإصابة ٢٧٩/١ ، ٢٨٤/٩ ، تهذيب التهذيب ٥٣٦/٥ .

فقال : بل خلقين جبلت عليهما ، فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله) [(١)]. ولهذا احتج البخاري وغيره على خلق أفعال العباد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ [(٢)]، فأخبر تعالى أنه خلق الإنسان على هذه الصفة » [(٣)]. وفي الحديث لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على أشج عبدالقيس سؤاله : « أخلقين تخلقت بهما » ، مما يدل على جواز القول بأن من الأخلاق ما هو مكتسب . ولو كانت كل الأخلاق جبلية فطرية في الإنسان لم يكن قيمة لنصوص الترغيب والترهيب في مجال السلوك والأخلاق .

رابعاً : مراعاة المصالح ودرء المفاسد في التعامل مع الناس :

لأن الناس لهم عادات اعتادوها ، وطبائع ألفوها . قد يكون في مخالفتها شر وفتنة أعظم من مصلحة فعل السنة . وقد يكون في عدم مراعاتها أضرار تربو على تركها إنكاراً لها مع ملاحظتنا الفرق بين ترك الإنكار والإذن في الفعل . فمثلاً : السلام على القادم وكيفيته :

الخلفاء الراشدون وسلف الأمة الذين في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يكن من عادتهم القيام للنبي كلما يرونه ، لكنهم قد يقومون لمن قدم من سفر ونحوه من الغياب عن البلد يتلقونه ،كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام لعكرمة بن أبي جهل[(٤)]، وأمر الأنصار أن يقوموا إلى سعد بن معاذ [(٥)] ، فعلى هذا يكون القيام لمن قدم من سفر ونحو ذلك تلقياً له أمر حسن .

وإذا كان في مكان أو بلد من عادة أهله أن يقوموا لمن جاء إليهم ولو لم يكن

---

(١) حديث صحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ، صحيح مسلم ٤٨/١ - ٤٩ .

(٢) سورة المعارج آية (١٩ ، ٢٠) . (٣) الدرء ٦٨/١ .

(٤) هو : عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشي ، أسلم يوم الفتح ، وحسن إسلامه ، قال له الرسول يوم جاءه (مرحباً بالراكب المهاجر) كان محمود البلاء في الإسلام .. استشهد يوم اليرموك في خلافة عمر سنة ١٥هـ ، وقيل يوم مرج الصفر في خلافة أبي بكر سنة ١٣هـ . انظر الإصابة ٣٦/٧ ، تهذيب التهذيب ١٦٣/٤ ، سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١ .

(٥) هو : سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس الأنصاري الأوسي الأشهلي سيد الأوس ، شهد بدراً ، ورمي بسهم يوم الخندق ، فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني قريظة وأجيبت دعوته في ذلك .. ثم انتقض جرحه فمات سنة ٥هـ ، وقال المنافقون : ما أخف جنازته ! ! فقال الرسول : (إن الملائكة حملته) ، وقال أيضاً :(اهتز العرش بموت سعد بن معاذ) . انظر الإصابة ١٧١/٤ . تهذيب التهذيب ٢٨٣/٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٩/١ .

مسافراً إكراماً له ، ولو تركت هـذه العادة لظن القـادم ظن سوء في الذي لم يـقم له مع جهـالته بالـسنة ، فـإن « الأصح أن يقام لـه لأن ذلك أصلـح لذات البـين وإزالة التبـاغض والشحناء » (١) .

وهذا القيام لا يدخل في إطار الوعيد الذي جاءت به السنة في قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) (٢)؛ لأن القيام المتوعـد عليه في الحديـث صورته أن يقعد الـرجل والناس من حـوله وقوف تعظمـياً له ، وقد كان يفعـل ذلك ملوك الأعاجم وهو من الـكبر المذموم . ولهذا يفـرقون في الألفاظ بين أن يقال : قمت إليه ، وقمت له .

والقائم للقادم ساواه في القيام ، أما القائم للقاعد فإنه لم يساوه (٣) .

ويضرب أيضاً عدداً من الأمثـلة التي يتـم فيها هذا الـتصرف الأخلاقي فـي مراعاة المصالح ودرء المفاسد ليتحقق للمجتمع الصفاء والوفاء :

المثال الأول : من قضى دين غيره سواء كان أداءً أم ضماناً بغير إذن المدين .

المثال الثاني : إذا وقع مسـلم في أسر الـكفار ثم سعـى بفكاكه مـن أسرهم فطـلبوا مقابل فكاكه مالاً فدفع هذا المال لافتكاك أخيه المسلم من الأسر .

المثال الثالث : من كان يلزمه نفـقة تجب عليه وجوباً شرعياً كالـنفقة على الأهل أو البـهائم فلـم يقم بهـا هذا إما لغـيبة أو سـجن أو عدم تمكـن أو تقصيـر ، فأداها عنـه أحد إخوانه المسلمين .

المثال الرابع : إذا كان هناك مال لا بد أن يدفع ، إما لـرد عدوان ، أو منع ظلم ظالم أو لمصلحة عامة من مـصالح الأمة . وأصبح هذا الحق متعيناً علـى عدد من الناس معلوم ، وصار كل واحد عـليه قسط محـدد . فإنه يلزم كل واحد أن يـدفع قسطه حتـى لا يكثر الظلم على غيره .

المثال الخامس : إذا توجه قطاع طريق أو عسكر ظالم ، أو حاكم ظالم لأخذ أموال مسلم بـغير حق ، ثم عمل مسـلم آخر لإبعاد الضرر عن مـال أخيه فدفع إليهم بـعضاً من

(١) الفتاوى ٣٧٤/١ .

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي عن معاوية رضي الله عنه كتاب الأدب ، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، سنن الترمذي ٩٠/٥ رقم ٢٧٥٥ .

(٣) انظر الفتاوى ٣٧٤/١ .

المال مقابل أن يتركوا هذا المال .

في هـذه الأمثلـة نماذج من الأخـلاق الإسلاميـة الرفيعة ، حيث يتـصدى مسـلم لتحمل المسئوليـة عن أخيه المسلم ليحفظ دمه وماله وعرضه وكرامتـه ، ولينوب عنه فيما يلـزمه مـن واجبات الحـياة الـتي لم يـتسـن له أن يقـوم بهـا ، أليس هـذا باب مـن أبواب الإحسـان عظيـم ؟ وهل جزاء الإحـسان إلا الإحسان ؟ فـمن الواجـب رد ما غرمـه هذا المحسن إليه إذا لم يكن متبرعاً به .

وَيحْسُنُ بنا أن نذكر بعض اللفتات الكريمة لابن تيمية مراعياً فيها المصلحة العامة ، وهي لا تنافي دلالات الشرع الشريف بل عدم أدائها هو المخالف .

قال رحمه اللـه : « جميع الواجبات علـيه أن يؤديها إلى من أدى عنـه وأحسن إليه بالأداء عنه » [1]؛ لأن هذا المسلم لما أدى عن أخيه : إنما أسقط عنه الواجب الذي يلحقه الضـرر والإثم بتركـه . ولأنه قد أراحه مـن العناء والجـهد في أداء الفـعل ، وقام عنـه في مواجهة المؤدى لهم وقد يـكونون ظالمين ، فأراحه من عناء مقابلتهـم . فـ « كان محسناً في الأداء عنه ومباشـرة الظالمين دونه ... فيلزمه أن يعـطيه ما أداه عنه » [2] ، وعدم الدفع إليهم باسم الدين يعطل مصالح كبيرة وينتج أضراراً خطيرة .

« ولو لم يستحق هؤلاء المؤدون عن غيرهم الرجوع لحصل فساد كثير في النفوس والأموال . فإن الـنفوس والأموال قـد يـعتريهـا مـن الضـرر والفـسـاد مـا لا يـنـدفـع إلا بـأداء مـال عنـهم . فلو علم المؤدون أنهم لا يستحـقون الرجوع بما أدوه إلا إذا أذن ذلك الشـخص لـم يؤدوا . وهـو قد لا يأذن – إمـا لعـذر وإما لظـلمـة نفسـه بـعـدم حسـن التصرف – وليس لأحد أن يضر نفسه ومالـه ضرراً نهاه الله عنه ، ومن دفع ذلك الضرر العظيم عنه بما هو أخف منه ، فقد أحسن إليـه ، وفي فطر الناس جميعهم أن من لم يقابل الإحسان بالإحسان فهـو ظالم معتدٍ ، وما عده المسلمون ظلمـاً فهو ظالـم ... وأصل هذا اعتبار المقاصد والنيات في التصرفات » [3] .

هذا فوات المصـلحة وحصول الضـرر على الناس ، أما مـن ناحية الدين فـإن الذين يمنعون الدفع إلـى هؤلاء زاعمين أن ذلك هو الشرع فإن هذا يوجب سـوء الظن بالشرع والفرار منه ، أو القدح في أصحابه .

وفي الحقـيقة إن هذا القـول ليس هو شرع الـله وإنما هو قـول بعض العلـماء ، وقد

---

(١) ، (٢) الفتاوى ٣٠/٣٤٨ .

(٣) السابق ٣٠/٣٤٩ .

خالفهم آخرون ، بل الأدلة الشرعية قد تدل على نقيض هذا القول (١) .

خامساً : الأخلاق الفاسدة تنفر منها النفوس السليمة المستقيمة ، والله جل جلاله قد فطر النفوس على حب الصور والمعاني الجميلة ، وحب الإحسان ، ولكن لماذا يفعل بعض الناس الأخلاق الفاسدة حتى تكون لهم طبعاً وخلقاً ؟

يجيب شيخ الإسلام بأن سبب هذا أمر عارض على النفوس أفسد فطرتها وجعلها تُقْدم على فعل الأخلاق الفاسدة . وهذا الأمر يتلخص في شيئين خطيرين هما منبع أعظم الأدواء وهما : الجهل ، والظلم . فلا تقع الأخلاق المنكرة الخبيثة إلا من جاهل بما فيها من خبث وسوء ومضرة ، ولم يتحقق بعلم يقيني من تلك الآفات المترتبة على هذه السلوكيات ، وكذلك يجهل ما في ضدها من الأخلاق الحميدة والسلوكيات الطيبة من المنافع والفوائد العاجلة والآجلة . وقد يكون لا يجهل هذين الأمرين ولكن حمله على فعل الأخلاق الفاسدة والإقدام على السلوكيات السافلة الميل والعدوان ، وكون نفسه تشبعت بالظلم ، فصار يتلذذ بإيذاء الآخرين ، ويحس بذلك متعة أو انتصاراً على من أساء إليه « فلا يفعل السيئات إلا جاهل بها . أو محتاج إليها يلتذ بها وهو الظالم ، فنهاه عن طاعة الجاهلين والظالمين » (٢) .

سادساً : منهج الأنبياء والرسل تقديم الخير والإحسان إلى الناس ولا يطلبون منهم مكافأة ولا جزاء ولا شكورا ، وهم قدوة وأساتذة لكل الدعاة .

وكل ما يقدمونه من إحسان إلى الناس إنما يرجون ثوابه من عند الله عز وجل، والناس يحبون من يفعل بهم ذلك ولا يطلب منهم مقابل إحسانه .

وكلما كثر إحسان المحسن إليهم مع استغنائه عنهم كلما علت مكانته عندهم وعظمت محبته ،« ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته ليكون الدين كله لله ولا يشرك به شيء» (٣) .

والناس في مجال تعاملهم فيما بينهم ثلاثة أصناف : ظالم ، وعادل ، ومحسن .

فالظالم : هو الذي يستفيد من الناس ولا يفيدهم ويأخذ منهم ولا يعطيهم عوضاً عنه أو يضرهم لينفع نفسه .

---

(١) انظر الفتاوى ٣٥٤/٣٠ ، ٣٥٥ .

(٢) الفتاوى ٦٥/١٦ ، التفسير الكبير ٨٦/٦ .

(٣) الفتاوى ٣٩/١ .

والعادل : هو الذي إذا استفاد منك مالاً أو عوضاً أعطاك ما يكافئه ويماثله ، فكل منهما مستفيد من الآخر ومحتاج إليه ، كاستفادة المتبايعين ، وكاحتياج الزوجين والشريكين .

والمحسن : هو الذي يقدم ويعطي من دون أن يأخذ مالاً أو نفعاً ، ودافعه حاجته ومصلحته ، ومنها حصول لذته بالإحسان الذي يطمع ويرجو أن ينال ثوابه .

وقد يدفعه مصلحته في حب الناس له وثنائهم عليه ، وقد يدفعه رغبة التقرب إلى من أحسن إليه .

وعموم الناس إذا أحسنوا أو عظموا أو أكرموا أحداً فإنما لحاجتهم إليه ، إما عوضاً أو أي نفع آخر يحسن به إليهم .

وهذه القاعدة شاملة لكل الخلق حتى الملوك والرؤساء وأصحاب الثراء والوجاهة . إنما يحسنون رجاء مصالح وأغراض وحاجات يريدونها فيمن أحسنوا إليه ، فإما أن يعاوضهم أو يحسن إليهم بأي نوع من أنواع الإحسان ، أو ليكون لهم تابعاً مطيعاً ، أو يكف عنهم ويلين معهم « فهؤلاء كلهم من الملوك إلى من دونهم تجد أحدهم سيداً مطاعاً وهو في الحقيقة عبد مطيع ، وإذا أوذي أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغير الأمر بحسب الأحوال ، ومتى كنت محتاجاً إليهم نقص الحب والإكرام والتعظيم بحسب ذلك وإن قضوا حاجتك » [(١)] .

وهذه النظرية الأخلاقية في علو المنزلة وارتفاعها وفي سفولها وانخفاضها لدى المخلوقين ، عكس ما يتم في النظرية الأخلاقية فيما يتم بين العبد وربه « والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له ، كان أقرب إليه وأعزّ له وأعظم لقدره . فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله .

وأما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره » [(٢)].والفقر إلى الله واللجوء إليه في الحاجة والاستعانة به عبادة من العبادات ينال بها المخلوق القرب والكرامة من ربه .

و « ... الرب سبحانه أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه ، وأفقر ما تكون إليه . والخلق أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم ، لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم لا يفعلون شيئاً إلا لحاجتهم ومصلحتهم وهذا هو الواجب ... » [(٣)] .

---

(١) الفتاوى ٣٩/١ ، ٤٠ ، ٤١ . (٢) الفتاوى ٣٩/١ . (٣) الفتاوى ٣٩/١ ، ٤٠ .

وإذا كان اللجوء إلى الخالق وسؤاله فيه منافع عظيمة ، فإن اللجوء إلى المخلوقين وسؤالهم فيه ثلاث مفاسد :

١ - « مفسدة الافتقار إلى غير الله ، وهي من نوع الشرك » .

٢ - « مفسدة إيذاء المسئول ، وهي من نوع ظلم الخلق » .

٣ - وفيه ذل لغير الله ، وهو ظلم للنفس » (١) .

سابعاً : الأمم والفرق والجماعات والأفراد يوجد فيهم جوانب سلبية وجوانب إيجابية تقل وتكثر ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة فلا يتفق فعلها لخلق ذميم ولا بد أن يكون فيها من ينكر .

فالخير الذي في غيرها فيها ما هو أعظم منه ، والشر الذي فيها في غيرها ما هو أعظم منه ، وعندما نأتي لتقويم أمة أو فرقة أو جماعة أو فرد ، أو نأتي لنختار من أفراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحداً ، فلا بد أن ننظر لما فيه من سلبيات وإيجابيات وخير وشر . والنظر إلى أحد الجانبين وإغفال الآخر خطأ منهجي قد يترتب عليه ، إما رفع من لا يستحق وإما خفض من يستحق ، ونحن مأمورون أن نعدل ونعطي كل ذي حق حقه، ولا يتخيل أمة ، أو جماعة ، أو فرد من دون عيوب وأخطاء فلا كمال للبشر .

وهكذا نعلم خطأ الذين يتصورون مثاليات أخلاقية لا تكون إلا في ندرة ممن أنعم الله عليهم ، ثم يحاكمون الناس على ضوئها . فأمام هذه المثاليات تتضاءل الحسنات حتى تصبح كأمثال الذر على سفوح الجبال ، وبعض الناس يكون في حال نظره كالذباب لا يقع إلا على المكان المجروح .

والتقويم لا بد أن يكون أيضاً وفق إطار الزمن الذي فيه من نريد تقويمه من أفراد أو جماعات ، فقد يكون المفضول في زمان فاضلاً في زمان آخر ، ويكون في إطار الجو الاجتماعي الذي يعيش فيه المقيم ، فقد يكون الفرد أو الجماعة الذي نرى به من السيئات ما يوجب إلغاءه أو معارضته في بعض الجوانب هو أفضل الموجود وأولاهم بالقبول .

قال رحمه الله تعالى : « ومما ينبغي أن يعلم أن الله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الناس على غاية ما يمكن من الصلاح لا لرفع الفساد بالكلية ، فإن هذا ممتنع في الطبيعة الإنسانية إذ لا بد فيها من فساد ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

---

(١) الفتاوى ١/١٩٠ .

الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (١) الآية ، ولهذا لم تكن أمة من الأمم إلا وفيها شر وفساد ... » (٢) .

وأوضح في رده على نقد صاحب منهاج الكرامة (٣) لعمر رضي الله عنه في جعله الخلافة شورى في الستة (٤) ، ولم يجعلها لعلي رضي الله عنهم .

قال رحمه الله : « ولا ريب أن الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، الذين عينهم عمر ، لا يوجد أفضل منهم ، وإن كان في كل واحد منهم ما كرهه فإن غيرهم يكون فيه من المكروه أعظم ... وإذا كان الواحد من هؤلاء له ذنوب فغيرهم أعظم ذنوباً وأقل حسنات فهذا من الأمور التي ينبغي أن تعرف ، فإن الجاهل بمنزلة الذباب الذي لا يقع إلا على العقير (٥) ، ولا يقع على الصحيح ، والعاقل يأتي الأمور جميعاً : هذا وهذا » (٦) .

والرافضة وقعت في الخطأ لما خالفت هذا المنهج فهم « من أجهل الناس يعيبون على من يذمونه ، ما يعاب أعظم منه على من يمدحونه ، فإذا سلك معهم ميزان العدل تبين أن الذي ذموه أولى بالتفضيل ممن مدحوه » (٧) .

ثامناً : الأخلاق لها تأثير في النفوس سلباً وإيجاباً ، فالأخلاق الطيبة والأفعال الحميدة لها تأثير إيجابي على النفوس فتكون منشرحة سعيدة مسرورة آلفة مألوفة ، الدنيا أمامها رحبة الفضاء ، وذلك أنه لما اتسع خيرها على الآخرين أوسع الله سعادتها ، وجعلها ممتدة في سرورها وأنسها ، والجزاء من جنس العمل ، وعلى العكس من ذلك الأخلاق السيئة والأفعال القبيحة لها أثر سلبي على النفوس وذلك بانقباضها وكآبتها ، وضيق صدرها ، والشعور بالذلة والمهانة .

فالمرء حينما يمنع إحسانه وخيره عن الآخرين ، ويُضيق في مجال فضله وعطائه مع قدرته على ذلك نزل به جزاء من جنس فعله فضاقت نفسه ، وانقبضت وصار غير

---

(١) سورة البقرة آية (٣٠) . (٢) منهاج السنة ١٤٩/٦ .

(٣) هو : أبومنصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي ، ولد سنة ٦٤٨هـ وتوفي سنة ٧٢٦هـ . انظر البداية والنهاية ١٢٥/١٤ .

(٤) النفر الستة هم : علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، طلحة بن عبيدالله ، الزبير بن العوام ، عبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص .

(٥) العقير : الجريح عقره أي جرحه ، فهو عَقِرٌ وعَقْرَى ، مثل جريح وجرحى . انظر لسان العرب ٥٩٢/٤ « مادة عقر » .

(٦) منهاج السنة ١٥٠/٦ . (٧) منهاج السنة ١٥١/٦ .

مألوف لأنه غير آلف ، والنفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، فيشعر بالكآبة والمذلة .

وهذه المعاني تدل على أثر الأخلاق والأفعال الطيبة في حياة الأمة النفسية والاجتماعية وفي كل المجالات ، وكل الآثار الضارة النفسية ، والاجتماعية سببها كل ما كان ضد هذه السلوكيات ، وابن تيمية بهذا يلفت انتباه الدعاة والمصلحين وأهل الغيرة لكي يولوه مزيداً من العناية والاهتمام ؛لأن الإسلام ليس أحكاماً للردع والزجر والترهيب فقط بل هو هذا مع المودة والمحبة .

واللطف والبشاشة والإحسان والإيثار والبذل والسخاء والصدقة والتعاون والتآلف، وهذا الجانب من الإسلام هو المقدم ، فمن لم ينشرح به صدراً ويذعن للحق فإنه لا بد له من الجانب الآخر ، يهذب من كبريائه ، ويمنع أذاه وشره وغدره عن أهل الخير والفضل ، « .. فالبر والتقوى يبسط النفس ، ويشرح الصدر بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعاً وبسطاً عما كان عليه قبل ذلك ، فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح له صدره .

والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها بحيث يجد البخيل من نفسه أنه ضيق ، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في الحديث الصحيح فقال : (مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما ، فجعل المتصدق كلما هَمَّ بصدقة اتسعت وانبسطت عنه حتى تغشى أنامله ، وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هَمَّ بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها ، وأنا رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : بأصبعه في جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع) (١) أخرجاه » (٢) .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة أخرجه البخاري كتاب الطلاق ، باب الإشارة في الطلاق ، فتح الباري ٤٣٧/٩ . ومسلم كتاب الزكاة ، باب مثل المنفق والبخيل ، صحيح مسلم ٧٠٨/٢ .
(٢) الفتاوى ٦٢٩/١٠ .

المبحث الثاني

منهج ابن تيمية الأخلاقي في التعامل مع علماء الأمة

العلماء هم ورثة الأنبياء (١) وهم أساتذة الأمة ومصابيحها ، وهم ملاذها وكنفها بعد الله عز وجل . وابن تيمية يعرف قدر العلماء ومنزلتهم وموقعهم في الأمة، لذا فإنه يرى للعالم حقاً ، وحرمة وإحساناً على تلاميذه ، يجب أن يشكر عليه ، ويعترف بفضله ، وجحد هذا نكران للجميل وسوء أدب « ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله»(٢) .وكل هذا يفعل مع العلماء بنية خالصة طيبة لا عصبية ولا حمية وبمقدار معين وفق إطار الشرع ، حب في الله واعتراف بالإحسان وإكرام وإجلال ، لا يتصاعد إلى الغلو (٣) والتعظيم فيتجاوز حدود الشرع فيكون « كحب النصارى للمسيح ، وحب اليهود لموسى ، وحب الرافضة لعلي ، وحب الغلاة لشيوخهم ... » (٤) . وهذا يعني عدم تفضيل العلماء بعضهم على بعض لهوى في النفس ،أو لأجل مصالح دنيوية، ولا بأس بتفضيل بعضهم على بعض في الحب والولاء إذا تفاضلوا في الرتبة ولكن من دون عصبية لأحد دون أحد ، أو الوقوف مع أحدهم مناصرة له ، ومنابذة ومجابهة لآخر بلا دليل ولا برهان ولا مصلحة شرعية .

ومن خالف ذلك فإنه يسعى لإيقاد نيران الفتنة بين علماء الأمة وذلك « مثل : من يوالي شيخاً أو إماماً وينفر عن نظيره ، وهما متقاربان ، أو متساويان في الرتبة ، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ، ويعادون بعضهم ، وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد ، الذين يوالون الشيوخ والأئمة دون بعض ،

(١) ضعيف من حديث أبي الدرداء أخرجه أبو داود في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم ، سنن أبي داود ٥٧/٤ رقم ٣٦٤١ . والترمذي في كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، وقال : ليس هو عندي بمتصل ، سنن الترمذي ٤٨/٥ رقم ٢٦٨٢ وابن ماجه المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ، سنن ابن ماجه ٨١/١ رقم ٢٢٣ .

(٢) صحيح عن أبي هريرة أخرجه أبو داود كتاب الأدب ، باب في شكر المعروف ، سنن أبي داود ١٥٧/٥ رقم ٤٨١١ . والترمذي كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الشكر ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، سنن الترمذي ٣٣٩/٤ رقم ١٩٥٤ .

(٣) الفتاوى ١٣/٢٨ .

(٤) الفتاوى ٣٢٠/١٨ .

وإنما المؤمن من يوالي جميع أهل الإيمان ... » [1] .

وأما علاقة العلماء وطلاب العلم مع بعضهم فيرى : أن تكون مؤسسة على حسن الظن لمن أبدى خيراً ، وأظهر صلاحاً وتقوى ، وإن ظهر معه ما يؤخذ عليه ديناً وشرعاً، وتكون علاقتهم مؤسسة على التعاون على البر والتقوى ، وعلى التناصح والتغافر ، وأن يدفع أحدهم عن الآخر ، وقد ذكر في مواضع متفرقة من مؤلفاته ما يمكن أن نستنتج منه المنهج الأخلاقي في تعامل العلماء وطلابهم مع أمثالهم فيقرر جملة من الضوابط لذلك منها :-

١ - أنه لا يجوز لأحدهم شرعاً ولا مصلحة ولا ذوقاً أن يقع في عرض الآخر ، وأنه يلزم بعضهم أن يدافع عن بعض كما يدافع عن نفسه أو أحد أبنائه ، فضلاً أن يمتنع عن أذاه .

ولذا فإن ابن تيمية لم يعجبه مسلك ابن حزم [2] وجرأته على إخوانه العلماء ، فهذا جفاء وبعد عن الوفاء ، وهو مسلك مرفوض من كل الجوانب ، وهذا مما يُجرىءُ العامة والمنافقين على خلاصة الأمة وصفوتها [3] .خصوصاً إذا علمنا أن عيب العلماء وتجريحهم خصلة متأصلة قديمة في المنافقين حيث يصفون العلماء بألقاب شنيعة ليتوصلوا بذلك إلى أن يكذب الناس بالحق ، فما عيب العلماء والقدح فيهم ونبزهم بالألقاب الشنيعة في منهج المنافقين إلا وسيلة للعيب والقدح في الحق الذي يحمله هؤلاء العلماء ويدعون الناس إليه . فهم لا يجرؤون ولا يقدرون على فعل ذلك مباشرة ، فاتخذوا هذا المنهج وسلكوا هذا المسلك ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون [4] .

ولكن هل يعي علماء الأمة وطلبة العلم هذا ، وهل يدركون هذا المخطط الماكر فيلتفوا على بعضهم البعض ويحمي أحدهم عرض وظهر أخيه العالم ، ويعلموا أنهم في خندق واحد ، وأن المدفع الذي يضرب واحداً منهم اليوم هو موجه إليهم جميعاً على انفراد .

وابن تيمية صاحب منهج تطبيقي واقعي ليس صاحب نظريات مثالية في منأى عن التطبيق ، فما ينظره هو منهج سلوكي أخلاقي علمي ، فهو حين يدعو إلى هذا المنهج بين العلماء يبادر إلى تطبيقة ، فها هو ينبري مدافعاً عن « أبي ذر الهروي » [5]

(١) الفتاوى ١٨ / ٣٢٠ .
(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٧٣) .
(٣) انظر التفسير الكبير ٤ / ٣٢٧ .
(٤) انظر التفاوى ٤/٩٦ ، ٨٩ .
(٥) تقدمت ترجمته .

حينما رآه قد تطاول عليه أحد العلماء وقال فيه قولاً لا ينبغي له أن يقوله ، وإليك هذا المشهد ندياً طرياً حيوياً متفاعلاً متألقاً .

قال رحمه الله : « ذكر أبو إسماعيل الأنصاري (١) قال : وسمعت الحسين بن أبي أمامة المالكي (٢) يقول : سمعت أبي يقول : لعن الله أبا ذر الهروي فإنه أول من حمل الكلام إلى الحرم ، وأول من بثه في المغاربة . قلت : أبو ذر الهروي فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة وانتصابه لرواية البخاري على شيوخه الثلاثة ، وغير ذلك من المحاسن والفضائل ما هو معروف به ، وكان قدم إلى بغداد من هراة فأخذ طريقة ابن الباقلاني وحملها إلى الحرم فتكلم فيه وفي طريقته من تكلم ...

[ثم ذكر بعض العلماء وعليهم بعض الأخطاء العلمية ثم قال] : ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة ، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع ، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم ، وصدق ، وعدل وإنصاف ، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداءً من المعتزلة ، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين ، وصار الناس بسبب ذلك منهم من يعظمهم ، لما لهم من المحاسن والفضائل ، ومنهم من يذمهم ، لما وقع في كلامهم من البدع والباطل ، وخيار الأمور أوساطها وهذا ليس مخصوصاً بهؤلاء بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين ، والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات ويتجاوز لهم عن السيئات .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) هو : أبو إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري ، كان يدعى شيخ الإسلام ، وكان إمام أهل السنة بهراة ، ويسمى خطيب العجم لتبحر علمه وفصاحته ونبله ، توفي سنة ٤٨١هـ . انظر طبقات الحنابلة ٢/٢٤٧ - ٢٤٨ لأبي الحسين ابن أبي يعلى تحقيق محمد حامد الفقي ، ط السنة المحمدية القاهرة . والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/٥٠ - ٦٨ تحقيق محمد حامد الفقي ، ط السنة المحمدية القاهرة ١٣٧٢هـ .

(٢) لم أجد له ترجمه في الكتب التي بين يدي .

رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] » [2] .

وعلى علماء الأمة أن يلزموا الحكمة والحنكة ، ويقابلوا أخطاء بعضهم بأنها اجتهادات خالفت الحق ، وأن هذا العالم لم يكن غرضه الباطل والخطأ ، ولكن هذا ما توصل إليه ، ويحمدوا له حسن قصده ، ويبينوا له وجه الصواب بأسلوب يهيء نفسه لقبول الحق وانشراحها له .

أما من خالف ذلك وأساء الظنون واتبع هواه فأخذ يتكلم فيمن أخطأ من العلماء فيما اجتهد فيه وكان قصده الحق ولكنه لم يوفق إليه ويشنع عليه ، فإنه ولا شك لن يسلم من الأخطاء لا هو ولا غيره ممن يعظمه ويجله . وهذا الذي شنّع عليه سوف يشنّع عليه أيضاً ، ويتكلم فيه ، وفيمن يعظمه ، ممن أخطأ وخالف الحق . وإذا كان الغلط شبراً صار في الأتباع ذراعاً ثم باعاً [3]. وهكذا يعم داء الفرقة والاختلاف والتناحر«... ومن اتبع ظنه وهواه فأخذ يشنع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صواباً بعد اجتهاده وهو من البدع المخالفة للسنة ، فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم أو أصغر فيمن يعظمه هو من أصحابه ، فقل من يسلم من مثل ذلك في المتأخرين لكثرة الاشتباه والاضطراب ، وبعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة ، الذي جاء يحصل الهدى والصواب ، ويزول به عن القلوب الشك والارتياب ... » [4] .

٢ - العلماء يستفيد بعضهم من بعض وقد يحصل لأحدهم من العلم مالم يحصل لغيره ، وقد يفوق التلميذ أستاذه في كل الأمور أو بعضها ، وقد يستدرك المفضول على الفاضل بعض المسائل العلمية أو العملية فينبهه على خطئه ، فينبغي قبول ذلك بصدر رحب بهدف التكامل وتحقيق التناصح الواجب بين الأمة ، ولا يكون في ذلك غضاضة على الفاضل أن يستدرك عليه من هو مثله أو دونه . وقد قال الهدهد لنبي الله سليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ [5].

وقال موسى عليه السلام للخضر مع علو مرتبته عليه : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [6] » [7] .

فواجب أهل العلم أن يسمحوا بطرح الآراء في مواضع الاجتهاد ، والرأي ،

---

(١) سورة الحشر آية (١٠) .
(٢ ، ٣) الدرر ٢/١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، وانظر ١٠٤ .
(٤) انظر بغية المرتاد /١٠٨ .
(٥) سورة النمل آية (٢٢) .
(٦) سورة الكهف آية (٦٦) .
(٧) انظر منهاج السنة ٧/٧٦ ، ٧٧ .

والمصالح ، ويتناقش فيها العلماء مع زملائهم وتلاميذهم ، ويتقبل الكبار الملاحظات من الصغار ، والصغار من الكبار ، وما كان فيه من خير وحق قبل بدليله ، وما كان بغير ذلك رد .

وبهذا المنهج تنمو الروح الأخوية بين أهل العلم وطلبته ، ويختفي كثير من السلبيات ، ويقضى عليها وهي في المهد، وتنقشع سحب الخلافات الهامشية التي استنفذت طاقة علماء الأمة وقدراتها .

وكذلك يزول من الساحة هذا الشتات الذي فرق كيان الأمة وأضعف بنيان قيادتها الفكرية ، وأوجد ثغرات يدخل معها المتربصون بالأمة الدوائر من داخلها وخارجها .

٣ – الخلاف في المسائل العلمية والعملية قائم بين علماء الأمة منذ الجيل الأول إلى يومنا هذا ، ولكن الجيل الأول جيل القرون المفضلة من الصحابة لم يختلفوا في الأصول ولا يجوز الاختلاف في أصول الدين وقد حدث الخلاف في مسائل في أصول الدين ولكن من غير الصحابة .

ولا بد من الكلام في هذه المسائل الخلافية وتبادل الآراء فيها بعلم وعدل ، والمرجع في ذلك الكتاب والسنة وفق مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ووفق ما فهمه السلف من نبيهم صلى الله عليه وسلم .

وبعد الرد إليها فما وافقها فهو المقبول وما خالفها فهو الباطل المردود ، ومن كان مجتهداً في معرفة الحق ولكنه لم يصبه فالله يغفر له خطأه « سواء كان خطؤه في المسائل العلمية الخبرية ، أو المسائل العملية ، فإنه ليس كل ما كان معلوماً متيقناً لبعض الناس يجب أن يكون معلوماً متيقناً لغيره ، وليس كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه كل الناس ويفهمونه ، بل كثير منهم لم يسمع كثيراً منه ، وكثير منهم قد يشتبه عليهم ما أراده ... » (١) .

ولا يتصور عقلاً وعرفاً أن أحد العلماء الورعين أهل الصدق أن يعرف الحق ويقول أو يعمل أو يدعو بخلافه ، فلعل له عذراً من هذه الأعذار التي ذكرها ابن تيمية أو غيرها مما لم يذكره .

ولا يغيب على أهل الفطنة اختلاف مدارك العقول وقدرتها على التحصيل ، فمن جعل العلماء في رتبة واحدة فقد جانب الحق وغلط عقلاً وشرعاً ، فما أصاب به عالم

---

(١) الدرء ١/٢٧٧ .

قد لا يدركه عالم آخر ، فيصدر منه أمر بخلافه .

وعدم مراعاة هذه المعاني والضوابط أوقعت أهل العلم في أمتنا في السلبيات التي ما زلنا نراها في الواقع إلى اليوم ، وإن كانت تقل في زمن وتكثر في آخر ، ارتباطاً بأسبابها ومسبباتها.

٤ – إذا كان الخطأ في الأمور العلمية الخبرية والأمور العملية واقع وحاصل بين علماء الأمة ، وكل منهم أراد الحق وقال ما قاله بعد استفراغ الوسع ، وبذل الجهد والتمحيص والتدقيق ولكنه لم يوفق للصواب ، والله قد غفر له خطأه وأثابه على تحريه الحق واجتهاده في طلبه ، فإذا كان الأمر كذلك فما الدافع للبعض أن يطلق ألفاظ التبديع والتفسيق والتضليل والتكفير على من أخطأ من علماء الأمة ممن هذا شأنه . ولم يكن هذا مسلكاً معروفاً عن أهل السنة والجماعة ، وإنما هو منهج لمن خالف السلف كـ « الخوارج ، والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأو فيه من الدين » [١] .

فهو منهج مبتدع غريب على حياة الأمة وسلوكياتها في التعامل والأحكام . أما المنهج الأصيل الذي اتفقت عليه الأمة الراشدة ، والطائفة المنصورة ، وعلماء أهل السنة والجماعة فهو « أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض ، بل كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » [٢] .

ومن رُدَّ بعض قوله لمخالفته للحق ، مع حسن النية والقصد ، وبذل الاجتهاد ، لا يلزم أن يكون كافراً أو فاسقاً ، بل قد لا يكون آثماً ولا عاصياً وإنما له حسنة على اجتهاده في طلب الحق الذي لم يصبه ، والله قد غفر له هذا واستجاب دعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [٣] » [٤] .

ومن أطلق لسانه في تكفير علماء الإسلام وأئمتهم أو تفسيقهم أو تبديعهم بغير برهان يوجب هذا ويقتضيه « فإنه يلزم إيقاع عقوبة غليظة تزجره وأمثاله عن تكفير المسلمين » [٥] ، بل إن من أعظم المصائب والمنكرات التي حدثت في الأمة تسليط الجهال على علماء الأمة وأئمتها يتهجمون عليهم بكل ما في قاموسهم الشيطاني من التهم والأكاذيب والمفتريات [٦] .

---

(١) الفتاوى ٣٥/١٠٠ .
(٢) الفتاوى ٣٥/١٠٠ .
(٣) سورة البقرة آية (٢٨٦) .
(٤) الفتاوى ٣٥/١٠٠ .
(٥) انظر الفتاوى ٣٥/١٠١ ، ١٠٢ .
(٦) الفتاوى ٣٥/١٠٠ .

وإذا سمحنا بمجرد حصول خطأ أن ينال من علمائنا الذين هم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته ، وهم قيادة الأمة ورمز من رموزها البارزة وهم قمتها وأفضلها وأشرفها ، فأي شيء يبقى للأمة إذا قيل في هؤلاء .

إن أعظم قصف تصاب به الأمة ويدمرها هو قصف علمائها والنيل منهم ، وأعظم خذلان يقع من الأمة خذلان حملة كتاب الله وسنة رسوله والدعاة إليهما . وإن من واجب الأمة أن تنصر الظالم والمظلوم من أفرادها وجماعتها وذلك بحماية الأمة من الوقيعة في الأئمة ، وحماية العلماء من الوقيعة في بعضهم البعض بغير دليل ولا برهان، وولاة الأمور من الحكام لهم الحظ الأوفر والجزء الأكبر من هذا الواجب ، وأن يمارسوا دوراً إيجابياً في إطفاء نار الفتن بين أفراد الأمة وجماعاتها وفرقها وطوائفها وعلمائها وعامتها ،ويمكنوا العلماء العادلين أهل البصيرة والحكمة ليقولوا كلمة الحق والفصل في الخلافات الناشئة بين أهل العلم أو بين جماعات المسلمين . ثم على الحكام أن يضربوا بيد من حديد على من تسول له نفسه أن يتطاول على أحد من علماء الأمة العاملين بتسفيه رأي أو تفسيق أو تبديع أو تكفير أو تضليل أو ما يدل على تنقص وازدراء « ومن المعلوم أن المنع من تكفير علماء المسلمين الذين تكلموا في هذا الباب ، بل دفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية. » (١).

والعالم إذا أخطأ لا يتصرف معه مثل غيره ، لأن منزلته ومقامه وموقعه من الأمة ليس مثل غيره .

فللعلماء من الهيبة والتوقير والإجلال ما يجب أن يحفظ ويبقى ، ولا يُتَجَاسر عليه فَيُهْدم ، ويرسم منهجاً يتعامل به مع العالم إذا صدر منه خطأ :

وأول خطوات هذا المنهج أن يُبَيَّن له خطأه ويُرشد إلى الحق بالأدلة والبراهين الشرعية وبالرفق واللين ، مع حسن القصد والأدب الذي يراعى فيها تهيء نفسه لقبول الحق .

فإن أصر بعد ذلك على خطئه ولم يرجع للحق ، وأخذ يظهر ما يخالف الكتاب والسنة ويدعو إليه ، فالواجب منعه ومعاقبته إن لم يمتنع « وأما إذا لم يبين له ذلك بالأدلة الشرعية لم تجز عقوبته باتفاق المسلمين ، ولا منعه من ذلك القول ، ولا الحكم عليه بأنه لا يقوله إذا كان يقول ، إن هذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة كما قال فلان وفلان من علماء المسلمين ، فهذا إذا اجتهد فأخطأ لم يحكم عليه إلا بالكتاب والسنة ،

---

(١) الفتاوى ٣٥/١٠٣ .

والمنازع له يتكلم بلا علم ، والحكم الذي حكم به لم يقله أحد من علماء المسلمين ، فعلماء المسلمين الكبار لو قالوا بمثل قول الحكام لم يكن لهم إلزام الناس بذلك إلا بحجة شرعية لا بمجرد حكمهم » [1].

وكلام ابن تيمية في هذه المسألة كلام المجرب الخبير ، الذي عانى مرارة الظلم والتعدي بغير الحق من قبل العلماء والحكام على السواء ، وقد نصب له مجالس للمناظرة في عقيدته وبعض آرائه وفتاويه الفقهية ، ودافع عن ذلك بالأدلة والبراهين العقلية والشرعية الصحيحة ، ولم يقدروا على دفعها وأنى لهم ذلك ، وكان فيها الخصم هو الحكم [2] فأودع في السجون ظلماً وبغياً وعدواً ، إرضاء للعلماء الكبار الذين أعماهم وأصمهم التقليد والهوى عفا الله عن الجميع .

وهذا المنهج - الذي يكون به التعامل مع علماء الإسلام في المسائل الخلافية الأصولية ، أو غير الخلافية ، حينما يغلط أحدهم فيها - يحمي علماء الأمة ومفكريها من تسلط أصحاب الأهواء ، من المنحرفين أو المتزلفين ، أو الولاة الظالمين ، إذا خالف العلماء ما يريدون من الآراء والديانات والسياسات المخالفة للحق .

ويحميهم من تسلط أصحاب النفوذ من علماء البدعة والضلالة ، الذين اتبعوا شرعاً مبدلاً أو مؤولا ، وتحاكموا إليهما معرضين عن الشرع المنزل ، وما أكثر اعتراض هذه الأصناف على علماء الأمة المخلصين المجاهدين ، الذين يصدعون بكلمة الحق ، وما أكثر ما يطلقون عليهم الأحكام الجائرة بلا دليل ولا برهان من الله .

وكل ما تقدم يشير إلى مكانة العلماء ودورهم الكبير في الأمة ، ويتضح لنا به سرّ اهتمام ابن تيمية وتركيزه بجهود مكثفة لتصحيح مسار علماء الأمة الذين حادوا عن الصراط المستقيم ، وانفصلوا عن المنهج القويم ، وانفصل معهم أجزاء كثيرة من الأمة ممن يأخذ برأيهم ويقلدهم ، ففي عودتهم عودة لهؤلاء والتمام لشمل الأمة .

ومن خلال نصوص الكتاب والسنة إضافة إلى التجارب التي مرّ بها واقع علماء الأمة توصل إلى حقيقة لا مراء فيها وهي :

أن النزاع بين الأمة علماء وغيرهم لا يفصله إلا كتاب منزل من عند الله . أما أحكام العقول وآراء الرجال فكل عقل يختلف في إدراكه عن الآخر ،وليس هناك عقل

---

(١) الفتاوى ٣٥/٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(٢) انظر مثالاً على ذلك العقود الدرية لابن عبدالهادي / ٢٥٠ .

جامع مانع يرجع إليه (١) .

ومنزلة العلماء في نفوس الأمة أعظم من منزلة الحكام لأنها تستمد قوتها وعمقها من دين الله الذي عظمته النفوس وانقادت له من غير غرض يزول أو غرض يفنى ، فهي سلطة ثابتة عميقة الجذور .

فهم إذاً لا بد أن يكونوا قادة الأمة الحقيقيين ، لما لهم من العلم بدين الله ، والحب من عباد الله ، ولسعيهم دائماً في مصالح الأمة بدافع الواجب الشرعي .

وبناء عليه فإن ابن تيمية يرى أنه لا يجوز للأمة أن تخالف العلماء المخلصين ، ولا تخرج عن رأيهم ، سواء كان في دين أو دنيا « وإذا أجمع أهل العلم على شيء فسائر الأمة تبع » (٢) .

وإذا كان الجنود يقومون على مصالح الدنيا وحراسة حدود الدولة الإسلامية من الأعداء ، وداخل البلد من اللصوص والمجرمين ، فإن علماء الأمة هم حراس لعقولها وأفكارها من أن تغزوها وتحتلها الشبهات والضلالات أو يتسلط عليها دعاة الأهواء ، وحراسٌ لنفوس الأمة من أن تستعبدها الشهوات والملذات المحرمة . فترك العلماء لحراستهم ينتج عنه من الأضرار والأخطاء أعظم من ترك الجنود لقتال العدو الذي يعتدي على حدود المسلمين .

وأيضاً العلماء من واجبهم حفظ الكتاب والسنة صورة ومعنى من التحريف والتبديل والتأويل الباطل ، تقع هذه المسئولية أولاً على الذين نالوا شرف الرياسة في العلم وفاقوا غيرهم فيه ، وعلى الذين أخذوا مالاً من بيت مال المسلمين لهذه الغاية .

ومن بدأ في العلم الشرعي الذي يتوصل به إلى حماية الكتاب والسنة فهو كالجندي الذي يبدأ بالقتال ، تركه له من غير عذر مشروع كبيرةٌ من كبائر الذنوب وخيانة للأمة وخذلان لها ، وهو التولي يوم الزحف ، وكالذي يشرع في نسك الحج لا يجوز تركه من غير إحصار ، وهذا « يعني أن ما حفظه من علم الدين ، وعلم الجهاد ليس له إضاعته ... » (٣) .أو التفريط فيه حتى يكون علماً مفقوداً فالعلماء المنصبون والمفرغون من قبل الحاكم بموجب الرزق عليه من خزينة الدولة أو نالوا التنصيب فيه بموجب رياستهم في العلم ،هؤلاء عليهم حق للأمة أن يحفظوا لها علم دينها تبليغاً

---

(١) انظر موافقة صحيح المنقول ١/١٧٧ .

(٢) الفتاوى ١٨/١٧ .

(٣) الفتاوى ٢٨/١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

ودعوة وتربية وجميع المجالات حتى يكون الدين ظاهراً ولعدوه كاسراً ، فإذا ضيعوا حفظ علم الدين ، وتبليغه للناس فإن ذلك من أعظم الظلم للناس .

وتبليغ الدين قولاً وعملاً ، والدعوة إليه واجب في حق العلماء خصوصاً لأنهم هم خلفاء الرسول في أمته ، وهو صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة للأمة ، فيلزم أن يكونوا مثله في الظاهر والباطن ، وموقعهم يقتضي أن يكونوا مرآة صادقة للإسلام وخلاف ذلك ظلم . ومن أعظم الظلم وأشنعه : الكذب في العلم ، أو ظهور الفجور والمعاصي والبدع ، وغير ذلك مما يجعل الناس يفقدون الثقة فيهم ولا يقبلون أقوالهم .

وسبب ذلك أن هؤلاء العلماء لا يمثلون ذواتهم إنما هم يمثلون الدين ، فرؤيتهم على هذا الحال يجعل النفوس تنفر من الدين ويقل دافعها ، وتتجرأ على البدع والمعاصي ، وقد يفعلها أقوام يظنون أنها الحق .

فإذا فعل العلماء هذه المخالفات فإنهم « يستحقون من الذم والعقوبة عليها ما لا يستحق من أظهر الكذب والمعاصي والبدع من غيرهم » (١).

ومن المعلوم لدى العموم أن ترك الجنود للقتال وحراسة الحدود يوجب عقوبتهم بما يظهر شناعة جرمهم ، فكذلك إظهار العلماء « للفجور والبدع بمنزلة إعراض المقاتلة عن الجهاد ، ودفع العدو ، ليس هو مثل إعراض آحاد المقاتلة لما في ذلك من الضرر العظيم على المسلمين ،فترك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال للجهاد ، وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم كترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم كلاهما ذنب عظيم» (٢) .

وابن تيمية على جلالة قدره وغزارة علمه وعظم مكانته يعرف للعلماء قدرهم وفضلهم ويلتزم الأدب معهم ويظهر ذلك بين أيديهم .

فمرة حضر مجلس أحد العلماء الكبار ، وجلس جلسة التلميذ الحريص على الاستماع والإفادة والمكبر المجل لهذا العالم ، والتفت هذا العالم إلى ابن تيمية وقال له تكلم ، وحاول فيه ولكن ابن تيمية يعتذر ويقول كلاماً مفاده أنه في مثل هذا المجلس يكون تلميذاً مستمعاً .

والحادثة المشهورة مع السلطان الملك الناصر بن محمد بن الملك المنصور قلاوون عندما دخل السلطان إلى مصر في عودته للحكم لم يكن له همّ إلا إخراج ابن تيمية من السجن بالإسكندرية ورؤيته معززاً مكرماً .

---

(١) الفتاوى ١٨٦/٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) الفتاوى ١٨٦/٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

وخرج الشيخ من الإسكندرية إلى القاهرة ومعه خلق يودعونه واستقبله الملك استقبالاً عظيماً ، فيوم رآه قادماً إلى المجلس قام إليه وأمسك بيده واعتنقا هنيهة ثم أخذه معه إلى طبقة فيها شباك يطل على بستان وجلس معه ساعةً يتحدثان ،ثم جاء إلى المجلس وبه القضاة والفقهاء والأمراء من الشاميين والمصريين ويد الملك بيد ابن تيمية وأجلسه بجانبه على طرف ردائه ، وقد حدث أمر عجب أثناء هذه الخلوة مع الشيخ في الجلسة حدث الشيخ عنها أصحابه ، يحكي لنا ابن كثير (١) ذلك عن الشيخ ابن القلانس (٢) الذي كان حاضراً أن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه ، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير (٣) ، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً ، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم ، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير ، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء ، وينكر أن ينال أحد منهم بسوء وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم ، فقال له إنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

قال : وكان قاضي المالكية ابن مخلوف (٤) يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرَّضْنا

---

(١) هو : عماد الدين بن إسماعيل بن عمر بن كثير بن صنو بن درع القرشي ، البصروي ثم الدمشقي أبو الفداء .. ولد في قرية من أعمال بصرى الشام ، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة ٧٠٦هـ ، رحل في طلب العلم وتناقل الناس تصانيفه في حياته .. وكان ميلاده سنة ٧٠١هـ ، توفي بدمشق سنة ٧٧٤هـ . انظر البداية والنهاية ١٨٤/١٤ نقلاً عن الأعلام ٣٢٠/١ .

(٢) هو : حمزة بن أسد بن علي الدمشقي المؤرخ صاحب « التاريخ » تولى رئاسة دمشق مرتين وكان يكتب له في سماعه أبو العلاء والمسلم صنف تاريخاً للحوادث ، وكان متميزاً في الكتابتين الإنشاء والديوان .. وحمدت ولايته ، وفي عقبه رؤساء وعلماء .. توفي سنة ٥٥٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٢٠ .

(٣) هو : بيبرس الجاشنكير : المظفر ركن الدين المنصوري من المماليك البرجية ، ومعنى الجاشنكير الذي يتذوق الأطعمة قبل تقديمها للسلطان ، ولي الاستادارية للسلطان الناصر ، وتسلطن بعد خلعه ، وتسمى بالسلطان المظفر سنة ٧٠٨هـ ، وكان له في وقعة شقحب يد بيضاء وكان من المعادين لابن تيمية . ولما عاد السلطان ناصر إلى السلطة أمسك به وسجنه وقتل في سجنه في شوال سنة ٧٠٩هـ . انظر البداية والنهاية ٤١/١٤ - ٤٨ .

(٤) هو : زين الدين قاضي قضاة المالكية بمصر : علي بن مخلوف النويري . قال ابن حجر : اشتغل على مذهب مالك ومهر ، وكان مشكور السيرة كثير الاحتمال والإحسان للطلبة ، كان خصماً لدوداً لشيخ الإسلام وبسببه سجن في الإسكندرية ، توفي رحمه الله سنة ٧١٨هـ . انظر البداية والنهاية ٧٨/١٤ ، الدرر الكامنة ٣٠٢/٣ .

عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا » [١] .

والخلاف مع عالم أو أكثر في مسائل أو أقل حتى ولو كانت في مسائل الاعتقاد ما لم يكن كفراً لا تجعله يلغي المحامد الأخرى ، ولا تجعله ينتهز الفرص لاستشفاء الغيظ والانتقام للذات ، فإن أكثر هؤلاء مجتهدون مخطئون ويشكرون على اجتهادهم والله يغفر لهم خطأهم [٢] ، ولو أن كل عالم من العلماء أخطأ عليه عالم آخر أو خالفه في مسألة من المسائل حتى الأصول كفره وحكم بقتله لم يبق للأمة إلا عدد قليل من العلماء ولا استغل السلاطين ذلك ، فكل واحد وقف أمامهم لا بد أن يجدوا من يفتيهم بكفره وضلاله وإراقة دمه .

ولكن ابن تيمية يرسم منهجاً لكل من عاصره أو جاء بعده بأن الخلافات الناتجة عن اجتهاد يجب ألا تجعلنا نغمط المخالف حقه ، ولا يدفعنا حب الانتصار والتفوق إلى ارتكاب مسلك ننال به اليوم من الخصوم ظلماً وعدواناً ، وغداً يستعملونه ضدنا فينالون به منا .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٤٧ ، وانظر العقود الدرية /٢٨٣ .

(٢) قال الإمام الذهبي عن ابن تيمية : « ومذهبه توسعة العذر للخلق ، ولا يكفر أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه» شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين /١٣٦ نقلاً عن الذهبي ، ولما حضر الشيخ إلى القاهرة في الثاني والعشرين من رمضان سنة ٧٠٥هـ عقد له مجلس وادعى عليه عند ابن مخلوف قاضي المالكية وهو خصم لابن تيمية فقال : كيف تحكم فيّ وأنت خصمي ، ثم سجن الشيخ وأخوه ثم أُعيد للمقاضاة ، ويقال : إن أخاه شرف الدين ابتهل ودعا الله عليهم في حال خروجهم ، فمنعه الشيخ وقال له : بل قل : اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق . المرجع السابق/ ١٣٩ نقلاً عن الذهبي . بتصرف .

منهجه الأخلاقي في التعامل مع العامة

الناس ليسوا سواء في ميزان ابن تيمية بل يتفاضلون بحسب تقواهم وعلمهم ونفعهم للإسلام والمسلمين ، فعنده من كان أنفع كان أفضل ، ومن كان مميزاً بعلم أو دين كان مقدماً على غيره (١) ، ويقدم ذوو المنافع الذين يحتاج المسلمون إليهم على ذوي الحاجات الذين لا منفعة فيهم (٢) .

قال رحمه الله : « ألا ترى أن من كان من الصحابة أعظم إيماناً وأكثر جهاداً بنفسه وماله كحمزة (٣) وعلي ، وسعد بن معاذ (٤) وأسيد بن حضير (٥) وغيرهم هم أفضل ممن كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وينفعه في نفسه أكثر منهم كأبي رافع(٦) وأنس بن مالك(٧) وغيرهما ... » (٨) .

---

(١) انظر الفتاوى ٥٧٦/٢٨ . (٢) انظر الفتاوى ٥٦٦/٢٨ .

(٣) هو : حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو عمارة عم النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب . ولد قبل الرسول بسنتين وقيل بأربع ، وأسلم في السنة الثانية من البعثة ، ولازم نصر الرسول وهاجر معه .. استشهد بأحد سنة ٣هـ على يد وحشي .. ودفن مع عبدالله بن جحش في قبر واحد . انظر الإصابة ٢٨٥/٢ ، سير أعلام النبلاء ١٧١/١ .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٣٢) .

(٥) هو : أسيّد بن الحضير بن سماك بن عتيك بن نافع بن امرىء القيس الأنصاري ، الأوسي ، الأشهلي ، أحد النقباء الأثنى عشر ليلة العقبة أسلم قديماً ، وكان أبوه شريفاً مطاعاً يدعى حضير الكتائب .. وكان أسيد من أحسن الناس صوتاً بالقرآن .. وهو الذي طعنه الرسول بعود فقال : أصبرني ، فقال : اصطبر. قال : إن عليك قميصاً وليس علي قميص ، فكشف النبي قميصه ، قال فجعل يقبل شحمه ويقول : إنما أردت هذا يا رسول الله . انظر الإصابة ٧٥/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٤٠/١ .

(٦) هو : نفيع بن رافع الصائغ أبو رافع المدني نزيل البصرة ، مولى ابنت عمر ، وقيل مولى بنت العجماء ، أدرك الجاهلية ، خرج من المدينة قديماً ، وكان ثقة من كبار التابعين ، ومن نظراء أبي العالية ولما أعتق بكى وقال : كان لي أجران فذهب أحدهما ، توفي سنة نيف وسبعين . انظر تهذيب التهذيب ٦٤٣/٥، سير أعلام النبلاء ٤١٤/٤ .

(٧) هو : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري الخزرجي خادم الرسول عليه السلام ، وأحد المكثرين من الرواية عنه .. قدم الرسول المدينة وعمره عشر سنين وخدم الرسول عشر سنين .. وأقام بالمدينة بعد وفاة الرسول ، وشهد الفتوح وقطن البصرة ، ومات بها سنة ٩٣هـ وقيل ٩٢هـ وقيل ٩١هـ . انظر الإصابة ١١٣/١ ، وتذكرة الحفاظ ٤٤/١ .

(٨) منهاج السنة النبوية ٢٣٣/٢ .

وقال رحمه الله : « وكذلك قول القائل : إن عناية الإمام بأهل الحاجات تجب أن تكون فوق عنايته بأهل المصالح العامة التي لابد للناس منها في دينهم ودنياهم كالجهاد ، والولاية ، والعلم ، ليس بمستقيم لوجوه » (١) ، ثم ذكر أربعة أوجه وقال رحمه الله : «وقد أجمع المسلمون على أن من كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل ممن هو دونه في التقوى .

وليس معنى هذا أنه رحمه الله يتعامل مع الناس بحسب مراكزهم وهيئاتهم وصورهم ، ويقيم لذلك الاعتبار ، وإنما اعتباره رحمه الله بالحقائق ، فالتتار أظهروا بعض الشعائر الإسلامية مع فساد وظلم فلم ينخدع بهم واعتبرهم خارجين عن الإسلام «ومن يشبههم في كثير من أمورهم ، وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين ، وعلمائهم، وزهادهم ، وتجارهم ، وصناعهم فالاعتبار بالحقائق .

فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم فمن كان في قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه، وكان مامعه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظاهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار » (٢) .

وفي مناقشة مسألة التفضيل بين الفقير الصابر ، والغني الشاكر أيهما أفضل ؟ قال من ضمن الإجابة: « ... والنصوص الواردة في الكتاب والسنة حاكمة بالقسط . فإن الله في القرآن لم يفضل أحداً بفقر ، ولا غنى ، كما لم يفضل أحداً بصحة ولا مرض . ولا اقامة ولا سفر ، ولا إمارة ولا ائتمار، ولا إمامة ولا ائتمام بل قال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٣) وفضلهم بالأعمال الصالحة .

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين غنيهم وفقيرهم في أمورهم ،ولما طلب بعض الأغنياء من النبي صلى الله عليه وسلم إبعاد الفقراء نهاه الله عن ذلك ، وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه ، ولما طلب بعض الفقراء من النبي صلى الله عليه وسلم مالا يصلح له نهاه عن ذلك ... وكانوا يستوون في مقاعدهم عنده وفي الاصطفاف خلفه ، وغير ذلك ، ومن اختص منهم بفضل عرف النبي صلى الله عليه وسلم له ذلك الفضل ... وكان أيضاً لعثمان (٤) ،

---

(١) الفتاوى ٥٤٣/٢٨ . (٢) الفتاوى ٣٣/١١ . (٣) سورة الحجرات آية (١٣) .
(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٠٢) .

وطلحة (١) والزبير (٢) ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير (٣) ، وعباد بن بشر (٤) ونحوهم من سادات المهاجرين والأنصار الأغنياء منزلة ليست لغيرهم من الفقراء» (٥) .

ثم ذكر رحمه الله : أن بعض الأئمة يميل إلى الفقراء ويميل على الأغنياء وقد عوتبوا في ذلك ورجعوا ، وفيهم من كان يميل مع الأغنياء والرؤساء ولهم في ذلك تأويل واجتهاد . والأول هو العدل والقسط الذي دل عليه الكتاب والسنة (٦) .

والإنسان لا يعلو بنسبه فقط ، ولا يشرف به وحده ، ولا يتقدم به بين الناس في عطاء أو حكم أو إمارة أو نحو ذلك ، ولا يكون هذا إلا عند أهل الجهل والبدع .

فـ « تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل فإن الله تعالى قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ (٧) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم :(لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ...) (٨) . ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيه أحد بنسبه ولا يذم أحد بنسبه ، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى ويذم بالكفر والفسوق والعصيان ، وقد ثبت في الصحيح أنه قال : (أربع من أمر الجاهلية في أمتي لن يدعوهن: الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم » (٩) . فجعل الفخر

---

(١) هو : طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو القرشي التيمي ، المدني أحد العشرة المبشرين بالجنة ، شهد أحداً وما بعدها ، وكان يوم أحد كله يومه وكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى .. وقى الرسول يوم أحد بنفسه ، واتقى النبل عنه بيده حتى شلت أصبعه .. قتله مروان بن الحكم بسهم يوم الجمل سنة ٣٦هـ . انظر الإصابة ٢٣٢/٤ ، تهذيب التهذيب ١٦/٣ ، سير أعلام النبلاء ٢٣/١ .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٠٢) . (٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٥٣) .

(٤) هو : عباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زعوراء الأنصاري ، الأشهلي ، كان من سادة الأوس ، وأحد البدريين ، وهو الذي أضاءت له عصاته ليلة انقلب إلى منزله من عند الرسول عليه السلام .. أسلم على يد مصعب بن عمير ، وكان من قتلة كعب بن الأشرف اليهودي .. استشهد يوم اليمامة . انظر الإصابة ٣١١/٥ ، سير أعلام النبلاء ٣٣٧/١ .

(٥) الفتاوى ١٢٥/١١ ، ١٢٦ . (٦) انظر الفتاوى ١٢٦/١١ .

(٧) سورة الحجرات آية (١٣) .

(٨) صححه الهيثمي كتاب الأدب ، باب لا فضل لأحد إلا بالتقوى وعزاه للطبراني في الأوسط والبزار ، وقال الهيثمي : رجال البزار رجال الصحيح ، مجمع الزوائد ٨٤/٨ .

(٩) حديث حسن من حديث أبي هريرة قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦/٣ كتاب الجنائز ، بـــاب في=

بالأحساب من أمر الجاهلية .

والدعوة الإسلامية في كل حين وعصر ومصر تحتضن كل من خفق قلبه بحب الله ورسوله وأعطى من نفسه لخدمة دينه وأمته . لا ينظر إلى نسبه أو جاهه أو ماله أو لونه أو لغته ، وكل من كان لله أتقى ولعباده أنفع فهو أحق بالتقديم والتقدير ممن هو أقل منه في ذلك مهما كان نسبه ومنزلته الاجتماعية والمالية . خصوصاً الذين هم في مواقع القدوة والقيادة والتخطيط والتنظير .

والدعاة يصادمون الناس في أهوائهم وشهواتهم وملذاتهم وهي محبوبة مرغوبة لديهم ولا يحتملون فراقها .

وأغلب أعداء الدعوات في كل زمان ومكان هم المترفون الذين يخافون على اختصاصاتهم الذاتية في مجتمعاتهم . وهم يوقنون زوالها بانتصار دعوة الحق .

ويستطيع هؤلاء أن يسيّروا كماً هائلاً من النفعيين والمغررين وضعفاء العقول والإرادة . ولا شك أن الوقوف في وجه هذا التيار الجارف الخائف على مقدراته الذاتية ومنافعه الشخصية محفوف بالمخاطر والمكائد والمؤامرات ، ولا بد من الأذى ، فهذا دائماً طريق الدعاة فلم يكن يوماً من الأيام مفروشاً بالورود والرياحين .

والقائم بمهمة إنقاذ هؤلاء من شر نفوسهم وإنقاذ الأمة منهم يحتاج إلى عدة من الإيمان الصادق وسلاح من الأخلاق الفاضلة ، فواجب الدعاة والمصلحين وقادة التغيير في الأمة ان يتسلحوا بدروع من الأخلاق الكريمة ، ومن أعلاها الصبر والحلم والعفو والإحسان .

وعماد أخلاق الداعية في مواجهة أذى المدعوين ومقابلة غضبهم وبغضهم خلقان ذكرهما الله بقوله :﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (١). وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ﴾ (٢) ، فالصبر على ما تقدم نوع من الحلم الذي يضبط به نفسه عن مجازاة السيئة بالسيئة ، وهذا بجانب الفظاظة .

وبالرحمة يندفع إلى العطف على حماقاتهم فتندفع نفسه إلى الإحسان إليهم فيرد

= النوح : رواه البزار بإسناد حسن . ونصه كما ورد في مجمع الزوائد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أربع في أمتي ليس هم بتاركيها الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب والنياحة . تبعث يوم القيامة النائحة إذا لم تتب عليها درع من قطران) .

(١) سورة البلد آية (١٧) . (٢) سورة آل عمران آية (١٥٩) .

علـى السيئـة بالحسنـة وهذا خلـق بجانب غـلظة الـقلب ، وهذا الإحـسان المعنـوي . أما الإحسـان المحسـوس فهو بـالمال والمـنفعـة وهذا كـالسخـاء المحمـود ، وقد جمـع اللـه بين الإحسانين في قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

فأخذ العفو منهم هو احتمال أذاهم وذلك بنوعين :

الأول : عدم مطالبتهم بما تركوه من حقك عليهم .

الثاني : عدم نهيهم إذا تجاوزوا في حقك الخاص بلا ضرر ، أو بضرر محتمل .

والصبر هو جماع الخلق العظيم : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (٢) ، فلا بد للـدعاة من الصبر على أذى الخلق ، وأقدار الخالق ، والأول أشد (٣) .

والواجـب بين المؤمـنين أن يحـب كل واحد منـهم لأخيـه ما يحـب لنفـسه . وأن يقومـوا بحقوق كل مؤمن قائم بواجب الإيمان وإن لم يكن بينهما عقد خاص ، أو رابطة خاصة غير الإيمـان ؛لأنه بـإيمانه وعمله بمقتضاه أصبح أخاً لكـل مؤمن « فإن الله ورسوله قد عقد الأخوة بينهما بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ (٤) .. ومن لم يكـن خارجاً عن حقوف الإيمـان وجب أن يعامل بموجب ذلك فـيحمد على حسنـاته ويوالى عليها ، وينهـى عن سيئـاته ويجانـب عليهـا بحسب الإمـكان . وقد قال الـنبي صلـى الله علـيه وسلم: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ...) (٥) .

والواجب على كل مسلـم أن يكون حبـه وبغضـه وموالاتـه ومعاداتــه تابعـاً لأمـر الله ورسوله ، فيحب مـا أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الـله ورسوله ، ويوالي من يوالي اللـه ورسوله ، ويعادي من يـعادي الله ورسوله ، ومن كـان فيه ما يوالى عـليه من حسنـات وما يعادى عليه من سيئـات عومل بموجب ذلـك ، كفساق أهل المـلة ، إذ هم مستحقـون للثواب والعقاب والموالاة والمعـاداة ، والحب والبغض بحسب ما فـيه من البر والفجور .

والرسول صلى اللـه عليه وسلم هو القدوة في مـعاملته للخلق حيـث بعث بأحسن

---

(١) سورة الأعراف آية (١٩٩) . (٢) سورة القلم آية (٤٨) .
(٣) انظر الفتاوى ٧١/١٦ ، و التفسير الكبير ٩١/٦ ، ٩٢ ، و التفسير الكبير ٣٦٦/٥ .
(٤) سورة الحجرات آية (١٠) .
(٥) حديث صحيح من حديث أنس أخرجه البخاري كتـاب المظالم ، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فتح الباري ٩٨/٥ رقم ٢٤٤٣ .

الأخلاق فكان يحسن إليهم ويرحمهم ويكرمهم ويحلم عليهم ويصبر ويعفو ولا يطلب لذلك عوضاً ولا يرجو منهم مقابلاً « بعثه الله تعالى هدى ورحمة للعالمين فإنه كما أرسله بالعلم والهدى ، والبراهين العقلية والسمعية ، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس والرحمة بهم بلا عوض ، وبالصبر على أذاهم واحتماله .... » (1) .

فإن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، بخلاف الخوارج (2) والمعتزلة، وبخلاف المرجئة (3) والجهمية(4) ، فإن أولئك يميلون إلى جانب ، وهؤلاء إلى جانب وأهل السنة والجماعة وسط » (5) .

وعندما نفعل الخير مع المخلوقين أياً كانوا ، يلزم أن تكون النية فيه خالصة لله من أجل الحصول على ثوابه ومرضاته ؛ لأن هذا الفعل الذي هو خدمة المخلوقين والإحسان إليهم من أنواع القرب العظيمة التي يلزم لها نية التعبد ليكون فاعلها مأجوراً « ولا يطلب من المخلوقين جزاء ولا دعاء ولا غيره » (6) ، فإذا فعل ذلك فإنه يخرج من دائرة الإحسان إليهم (7) .

والإحسان إلى الناس يقوم على أسس وقواعد وضوابط ومصالح ، فالناس فيهم من يطلب ما يضره ويترك ما ينفعه انطلاقاً من دوافع الشهوة والهوى ، فيلزم المتصدين للناس ولاية ودعوة وكل نوع من أنواع الرعاية ألا يستجيبوا لذلك « فليس من حسن النية بالرعية والإحسان إليهم : أن يفعل ما يهوونه .

فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. ﴾ (8) ،وقال تعال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ (9) . وإنما الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ، ولو كرهه من كرهه، لكن ينبغي له أن يرفق بهم فيما يكرهونه ، ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه

---

(1) الفتاوى ١٦/٣١٣ ، ٣١٤ ، والتفسير الكبير ٦/٣١٣ .
(2) تقدم التعريف بها في صفحة (١٤٥) .
(3) تقدم التعريف بها في صفحة (١٤٥) . (4) تقدم التعريف بها في صفحة (٧٧) .
(5) الفتاوى ٣٥/٩٤ ، ٩٥ . (6) الفتاوى ١/١٨٨ .
(7) الفتاوى ١/٥٤ . (8) سورة المؤمنون آية (٧١) . (9) سورة الحجرات آية (٧) .

وسلم أنه قال :(ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا كان العنف في شيئ إلا شانه)(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : (إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف) (٢) .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه (٣) يقول : « والله إني لأريد أن أخرج لهم المرة من الحق فأخاف أن ينفروا عنها فأصبر حتى تجيء الحلوة من الدنيا ، فأخرجها معها ، فإذا نفروا لهذه سكنوا لهذه ، وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول ..) (٤) .

ويقول فـ « إذا أمر غيره بحسن أو أحب موافقته على ذلك . أو نهى غيره عن شيء فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده ، من حصول المحبوب واندفاع المكروه ، فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو لا يمكن غير ذلك ، ولهذا أمر الله بتأليف القلوب حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً في الصدقات » (٥) .

وفي موضع آخر يرسم لنا طريق الوصول إلى السعادة في معاملة الخلق « بأن تعاملهم لله فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله ، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله ، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله، لا لمكافأتهم، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم .

وافعل ما أمرت به وإن كرهوه ، وفي الحديث :(إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله أو تذمهم على ما لم يؤتك الله) (٦) ، فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله ، وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً : لا بوعده ولا برزقه ... وأما كون الناس كلهم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها ، المسند ٢٠٦/٦ .

(٢) متفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة ، رواه البخاري كتاب الأدب ، باب الرفق في الأمر كله ، فتح الباري ٤٤٩/١٠ . ومسلم كتاب البر والصلة ، باب فضل الرفق ٢٠٠٣/٤ .

(٣) هو : عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميه بن عبدشمس القرشي الأموي ، المدني ، ثم الدمشقي ، أمير المؤمنين ، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، كان يلقب بأشج بني أمية ، ولد بالمدينة في خلافة يزيد ، ونشأ في مصر في ولاية أبيه عليها .. وعاش أربعين سنة ، توفى بدير سمعان سنة١٠١هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١١٨/١ ، وفيات الأعيان ٣٠١/٦ ، سير أعلام النبلاء ١١٤/٥ ، تهذيب التهذيب ٢٩٩/٤ .

(٤) الفتاوى ٣٦٤/٢٨ ، ٣٦٥ .

(٥) الفتاوى ١٥٣/٢٨ ، ١٥٤ .

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم /٢٠٧ الشعبة الخامسة من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً وفي إسناده محمد بن مروان ، قال البيهقي : ضعيف .

يرضون عنه : فقد لا يحصل ذلك (١) ، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض ، وإذا تبين لهم العاقبة ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ، كالظالم الذي يعض على يديه يقول : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً . . . ﴾ (٢) » (٣) .

ويمضي بنا في شرح متعلقات هذا التعامل وآثاره على المتعاملين النفسية والدنيوية والآخروية . وفي العلاقات بشكل عام بين الناس في حدوث الاستقرار والأمن والوصول إلى مرتبة الإحسان إلى نفس الداعية ، وإلى نفوس المدعوين . كما يوضح الأضرار المرتبة على مخالفة هذا التعامل ، قال : « فمن عَبَدَ الله وأحسن إلى الناس فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله في إخلاص الدين له . ومن طلب من العباد العوض ، ثناءً ، أو دعاءً أو غير ذلك لم يكن محسناً إليهم لله ، ومن خاف الله فيهم ، ولم يخفهم في الله كان محسناً إلى الخلق وإلى نفسه .. ، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم ، حيث خاف غير الله ورجاه لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرهم عنه بكل وجه ، إما بمداهنتهم ومراءاتهم ، وإما بمقابلتهم بشيء أعظم من شرهم أو مثله ، وإذا رجاهم لم يقم فيهم بحق الله ، وهو إذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم ، فإن طبع النفس الظلم لمن لا يظلمها فكيف بمن يظلمها .

فتجد هذا الضرب كثير الخوف من الخلق كثير الظلم إذا قَدِر ، مهين ذليل إذا قُهر. فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك وهذا مما يوقع الفتن بين النّاس » (٤) .

ولم يكن ابن تيمية صاحب نظريات ونظرات مثالية يرسم المناهج والخطط ويطالب الناس بأن يفعلوا وهو قاعد على مراتب وثيرة بعيداً عن الميدان العملي ، بل إنه ما وصل إلى ما وصل إليه من نظريات واقعية صادقة ، وما هدي إلى ما هدي إليه من قوة

---

(١) يقول رحمه الله :« ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ في العقل ، ولا الدين طلب رضى المخلوقين لوجهين : أحدهما : أن هذا غير ممكن ، كما قال الشافعي رضي الله عنه : إرضاء الناس غاية لا تدرك . فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه ، ودع ما سواه ولا تعانه . والثاني : أنا مأمورون بأن نتحرى رضى الله ورسوله كما قال تعالى : ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ وعلينا أن نخاف الله فلا نخاف أحداً إلا الله كما قال تعالى : ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ وقال : ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون** ﴾ وقال : ﴿ **فإياي فارهبون** ﴾ و ﴿ **وإياي فاتقون** ﴾ فعلينا أن نخاف الله ونتقيه في الناس : فلا نظلمهم بقلوبنا ، ولا جوارحنا ، ونؤدي إليهم حقوقهم بقلوبنا وجوارحنا ، ولا نخافهم في الله فنترك ما أمر الله به ورسوله خيفة منهم . ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له ... فالمؤمن لا تكون فكرته وقصده إلا رضا ربه ، واجتناب سخطه والعاقبة له ولا حول ولا قوة إلا بالله » الفتاوى ٢٣٣/٣ .

(٢) سورة الفرقان آية (٢٨) . (٣) الفتاوى ٥١/١ ، ٥٢ . (٤) الفتاوى ٥٤/١ .

الاستنتاج إلا بسبب أنه يكتب من خلال معايشة وسيرة مباشر وتجربة ميدانية ، وكل هذا يعتمد على علم غزير ، ودراية تامة بمقاصد التشريع .

ولهذا فإنه يقال : إن ابن تيمية شيخ العامة لا تثق إلا به ولا تصدر إلا عن رأيه يقول ابن عبدالهادي (١) : « وسائر العامة تحبه ، لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً ، بلسانه وقلمه » (٢) ، ولا يكون ذلك إلا من خلال معايشة الناس والتعرف على حاجاتهم وضرورياتهم . وقد ذكرنا أن النفوس تحب من يرزقها وينصرها وتحب من يسعى في مصالحها وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وكان هو كذلك ،فقد « كان مع العامة درعاً حصينة في كل بلاء ينزل بهم ينافح عنهم بلسانه ، وقلمه ، وسيفه، يشاركهم السراء والضراء والآلام والآمال (٣) .« وجنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة ، وينفر عمن يتصف بالقبائح » (٤) .

نماذج من تعامله مع عامة الناس :

ابن تيمية يحب الناس ويحب لهم الخير ويخلص في خدمتهم والإحسان إليهم ، ويتلطف في معاملتهم ، وكان الناس يبادلونه هذا الحب (٥) .

يقول البزار : « فقلّ من يراه أحد ممن له بصيرة إلا وانكب على يديه فيقبلها » (٦) ، حتى أنه إذا مشى في أسواق البيع والتجارة ورآه أصحاب الحوانيت خرجوا إليه يسلمون عليه ويتبركون بدعائه ،« وهو مع هذا يعطي كلاً منهم نصيباً وافراً من السلام وغيره » . وكان إذا سمع بجنازة يسرع للصلاة عليها ، وإذا فاتته الصلاة عليها ندم، وتأسف وقد يذهب إلى القبر ليصلي على صاحبه ويدعو له .

وكان يشغل وقته بالدرس ، وإفتاء الناس وقضاء حوائجهم حتى يصلي الظهر ثم كذلك بقية يومه » (٧) . وكان في كل أسبوع يزور المرضى خصوصاً الذين بالمارستان (٨) .

---

(١) هو : شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي الإمام الحافظ ، ولد سنة ٧٠٥هـ وقيل ٧٠٦هـ اعتنى بالرجال والعلل ، وبرع وجمع وتصدى للإفادة والاشتغال في القراءات والحديث والفقه والأصول والنحو .. توفي سنة ٧٤٤هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١٥٠٨/٤ .

(٢) العقود الدرية /١١٨ .

(٣) ابن تيمية حياته وعصره وآراءه الفقهية /٨ .

(٤) الرد على المنطقيين /٤٣٠ .

(٥) انظر ابن تيمية لمحمد أبوزهرة /٨ .

(٦) الأعلام العلية للبزار /٣٩ المنجد .

(٧) الأعلام العلية للبزار /٣٩ المنجد .

(٨) المارستان : هو المستشفى أو مكان يعالج فيه المرضى المقيمون في المستشفى ، وهو مارستان نور الدين محمود بن زنكي الذي بناه بدمشق . انظر هامش رقم ٣ ، الأعلام العلية للبزار تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

وكان مجلسه مفتوحاً لكل أحد ، وقلبه يسع كل الناس ، فالمجلس يكون « عاماً للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، قد وسع كل من يرد عليه من الناس . ثم يرى كل منهم في نفسه أنه لم يكرم أحداً بقدره »[1] ،وكان حسن التوجيه والتنبيه لمن يريد أن ينبهه إلى أمر من الأمور .

وكان ينبه العاقل بحسن الملاطفة ودقيق المخاطبة [2] وقد بلغ في الإيثار أعلاه ، وفي الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين كأنه لهم أب شفيق وأخ رفيق « فقد كان يتصدق ، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه مما يحتاج إليه فيصل به الفقير ، وكان يستفضل من قوته القليل الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه ، وربما خبأهما في كمه ويمضي ونحن معه لسماع الحديث فيراه بعضنا وقد دفعه إلى الفقير مستخفياً ، يحرص ألا يراه أحد » [3] .

وكان إذا ورد عليه فقير وآثر المقام عنده يؤثره عند الأكل بالأكثر من قوته [4] ، وكان شديد التواضع والتلطف للمسلمين خصوصاً الفقراء ، وكان مع علو شأنه وقدره بين الخاص والعام يهين نفسه ويلينها فـ « كان يتواضع للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والغني الصالح والفقير »، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلي زيادة على مثله من الأغنياء . حتى إنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بتحمل حاجته جبراً لقلبه ، وتقرباً بذلك إلى ربه » [5] .

« وكان يلزم التواضع في حضوره مع الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ، ومشيه ومجلسه ، ومجلس غيره » [6] .

وكان يلاطف الذين يأتون إليه للفتوى والسؤال ويبش في وجوههم ويتبسط معهم ويقبل عليهم ببشارة وجه ، ولين عريكة ، ويترفق بالسائل « ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً كان أو صغيراً ، رجلاً أو امرأة ، حراً أو عبداً عالماً أو عامياً ، حاضراً أو بادياً ، ولا يجبهه ولا يحرجه ولا ينفره بكلام يوحشه ، بل يجيبه ويفهمه ويعرِّفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط » [7] .

---

(١) الأعلام العلية للبزار/٣٩ . (٢) الأعلام العلية للبزاز /٣٩ . (٣) الأعلام العلية للبزار/٤١ .
(٤) الأعلام العلية للبزار/٥٩ ، ٦١ . (٥) السابق /٤٨. (٦) السابق /٤٩ .
(٧) السابق /٤٩ .

المبحث الرابع

منهجه الأخلاقي في التعامل مع ولاة الأمور

توطئـة :

الولاة عند ابن تيمية « هـم الذيـن يأمـرون النـاس ، وذلك يـشترك فيه أهل اليـد والقدرة وأهـل العلم والـكلام ... ، وكل من كـان متبوعـاً فإنه من أولـي الأمر » (١) ، وهـم بالتخصيـص الأمـراء والعلمـاء ، وهـم خلفـاء الرسـول صلـى اللـه عليـه وسلـم فـي الحديث الصـحيح :(إن بني إسرائيل كانت تـسوسهم الأنبياء ، كلما هـلك نبي قام نبي ، وانه لا نـبي بعدي ، وسيكون خـلفاء كثيرون ، قـالوا : فما تأمرنا يـا رسول الله ؟ قال : أوفوا بيـعة الأول فالأول ...) (٢) ، وروي عنـه أنه قال : (وددت أني قـد رأيت خلفائي، قالـوا : ومن خلفـاؤك ؟ قال : الذين يحيون سنتي يعلمونها النـاس) (٣) .

فهـؤلاء هـم ولاة الأمـر بعـده وهـم الأمـراء والعلماء ، وبذلك فسرها السلف ومن تبعهم من الأئمة كالإمام أحمد وغيره ... » (٤) .

ووجه كون الولاة هم العلماء والأمراء أنَّ الحياة فيها مطلبان : دفع المضار ، وجلب المنافع ، وأعظم المطالـب في هذه الحياة عند المسلمين هو الدين ، فـلا بد من علم وحجة لدفع المضـار عن الدين ، ولابد من عـلم بالسياسة والـتقدير لتحصـيل المنافع المطـلوبة في الدين والدنيا .

والأول من اختـصاص أهل العـلم بالدرجـة الأولى ، والثانـي من اختصـاص الملوك والأمراء بـالدرجة الأولى ، وقـد يكون هـذان العلمـان في رجل واحـد ، كما كانـا في الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائـه الراشدين ، لكن قد يكون نوع من الرجال أمهر بنوع من هذين العلمين .

ويحـــدد من هم أئمــة المسلـمين واختصاص كـل نـوع منـهم وأن كلاً يطـــاع في

(١) الفتاوى ٢٨/١٧٠ .
(٢) حديث صحيح من حديث أبي هـريرة أخرجه ابن ماجـه كتاب الجهاد ، باب الـوفاء بالبيعـة ، سنن ابن ماجه ٢/٩٥٨ .
(٣) وجدته بلفـظ « يأتي بعدي خلفائي يـروون أحاديثي وسنني ويعلـمونها الناس » ذكره الشيـخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم ٥٤٩٣ وقال : إنه موضوع .
(٤) الفتاوى ١٩/١١٦ ، ١١٧.

اختصاصه « وقد قال الأئمة : إنّ أولي الأمر صنفان : العلماء والأمراء . وهذا يدخل فيه مشايخ الدين ، وملوك المسلمين : كل منهم يطاع فيما إليه من الأمر ، كما يطاع هؤلاء بما يأمرون به من العبادات ويرجع إليهم في معاني القرآن ، والحديث ، والإخبار عن الله ، وكما يطاع هؤلاء في الجهاد ، وإقامة الحد ، وغير ذلك : مما يباشرونه من الأفعال التى أمرهم الله بها » (١) .

كما قال رحمه الله: « فقصة ابراهيم في العلم بالحجة والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين ، وقصة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير لتحصيل منفعة المطلوب والأول : هو العلم الذي يدفع المضرة عن الدين ويجلب منفعته ، والثاني : علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها ، أو يقال : قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة ضد (٢) الحاجة إليها، وقصة يوسف في عمل الأفعال ضد (٣) الحاجة إليها » (٤).

ومن قصر في هذين العلمين فإنه يكون مقهوراً مع أهليهما محتاجاً إليهم ، وجميع الأمة تكون في ظل أهل القدرة في هذين العلمين لأن حاجة كل مخلوق دفع ما يضر ، وجلب ما ينفع ، وهم أهل الترأس فيهما فلا غنى للناس عن هذين العلمين ولا غنى لهم عن المترأسين فيهما ، ولا غنى لكل أهل ترأس في علم منهما إلى أهل الترأس في العلم الآخر ، فهما يتكاملان ويتعاضدان ، ويتوافقان ولا يتنافران .

ويظهر في هذا صورة التكامل والارتباط بين العلماء والحكام وحاجة أحدهما للآخر وحاجة الكل إليهما ؛ ولهذا قيل : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء ، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما ؛ فإن البدع والظلم لا تكون إلا فيهما : أهل الرياسة العلمية ، وأهل الرياسة القدرية .

والواجب اتفاق أهل القدرتين العلمية والسياسية ، فإذا اتفقوا كان هذا حجة قاطعة على عموم الأمة ؛ لأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة « وإن تنازعوا فالرد إلى الكتاب والسنة » (٥) .

ومن فقد هاتين الرياستين فلا بد أن يحتاج إلى أهلها ، وأكثر الأمة كذلك « تارة بالاحتياج إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك ، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض في الدين والدنيا ، وتارة يعيشون في ظلالهم في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ، ولا وال يظلمهم ، وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدافعة

---

(١) الفتاوى ٢٤٩/٣ ، ٢٥٠ .
(٢) ، (٣) كذا في الأصل ولعل الصواب (عند) .
(٤) التفسير الكبير ٢٠٣/٤ .
(٥) الفتاوى ٢٤٩/٣ ، ٢٥٠ .

لأهل البدع ، والسياسية الدافعة للظلم » [١] .

ويرى ابن تيمية جواز تعدد الأئمة مع تعدد الأمكنة عند الاضطرار ؛ وفي هذه الحال يتعامل معهم على أنهم ولاة شرعيون تلزم طاعة كل واحد منهم في حدود ولايته، ومن واجب كل إمام أن يقيم الحدود ويستوفي الحقوق وينفذ الشريعة فيمن يدينون له بالولاء والطاعة ، وحتى البغاة على الإمام إذا ثاروا وحكموا جزءاً من البلاد وأصبحت لهم السيطرة فيه والأمر والنهي ، لزمهم إقامة الحدود واستيفاء الحقوق كما يلزم بقية الولاة .

وكذلك إذا كان الناس أحزاباً متعددة ومتفرقة ، وكل حزب له سيطرة وحكم وله أتباع مطيعون وموالون ، فإنه يلزم كل حزب أن يطبق الحدود ويستوفي الحقوق على من تحت ولايته وطوع أمره .

وهذه الحالات ليست طبعية في وضع المسلمين ، ومنشؤها معصية من البعض وعجز من الباقين عن منع عصيانهم ؛ والأصل أن يكون للمسلمين إمام واحد وله نواب يساعدونه في حكم البلاد يأتمرون بأمره ، فإذا كان الحال كذلك وهؤلاء الولاة طاعتهم للإمام ليست طاعة تامة بحيث لا ينقادون له في كل الأمور ولا يستطيع هو عزلهم لشوكتهم وتمكنهم ولضعفه هو ، فإنه إذا سقط عنه إلزامهم والحالة هذه ، فإنه لا يسقط عنهم مسئولية إقامة الحدود واستيفاء الحقوق ، وإذا عجز أحد الولاة أو الأمراء عن إقامة الحدود واستيفاء الحقوق ، أو أضاع فعل ذلك وأهمله ، فإنه يجب على القادرين على فعل ذلك أن ينفذوه ،ولو لم يأذن هذا الحاكم ، ما لم يكن ضرر أو فتنة أعظم من ضرر ترك الفعل [٢] ،« وقول من قال : لا يقيم الحدود إلا السلطان ونوابه ، إذا كانوا قادرين فاعلين بالعدل ، كما يقول الفقهاء : الأمر إلى الحاكم ؛ إنما هو العادل القادر، فإذا كان مضيعاً لأموال اليتامى ، أو عاجزاً عنها لم يجب تسليمها إليه مع إمكان حفظها بدونه .

وكذلك الأمير إذا كان مضيعاً للحدود عاجزاً عنها لم يجب تفويضها إليه مع إمكان إقامتها بدونه .

والأصل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه ، فمتى أمكن إقامتها من أمير لم يحتج إلى اثنين ، ومتى لم يقم إلا بعدد ، ومن غير سلطان أقيمت، إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضاعتها ، فإنها من (باب الأمر بالمعروف

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٣/٤ . (٢) انظر الفتاوى ١٧٥/٣٤ ، ١٧٦ .

والنهي عن المنكر) ، فإن كان في ذلك من فساد ولاة الأمر أو الرعية ما يزيد على إضاعتها لم يدفع فساد بأفسد منه والله أعلم » (١).

فالهدف في نظر ابن تيمية في الإمام هو إقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ الشريعة ، واستتباب الأمن ، فمن استطاع تحقيق ذلك من الولاة المنصبين لزمه وإذا ضعف أو عجز أو تكاسل فإنها لا تسقط بذلك ، بل ينتقل الوجوب إلى القادر من الأمراء ،فإن لم يكن منهم قادر انتقل إلى أي فرد في الأمة له القدرة على ذلك مع الاشتراط في الكل « إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضاعتها ... » (٢) ، سواء كان الفساد في ولاة الأمر أو الرعية ؛ لأن فساد ترك إقامة الحدود واستيفاء الحقوق لا يُزال بما هو أفسد منه .

المطلب الأول : منهجه في التعامل مع ولاة الأمور (الحكام) :

أولاً : الدراسة التحليلية لنفسيات وطبائع الولاة والحكام :

قدم شيخ الإسلام تصوراً وتحليلاً نفسياً لعامة الولاة ، أو لعموم الناس الذين يتولون مناصب كبيرة ، وهذا التصور والتحليل يعطي راحة واطمئناناً لمنهجه في التعامل معهم لأنه تعاملٌ مدروس ومقصود ، ومبني على وعي ومعرفة كاملة بالأرضية التي يتعامل معها .

وقبل عرض منهجه في التعامل مع الولاة نقدم تلك الدراسة التحليلية لنفسيات وطبائع الولاة والحكام . وهذه الدراسة لا يجمعها مكان واحد وإنما تم جمعها من مواطن متفرقة من كتبه .

أ ـ الولاة والرؤساء والأمراء يحبون هذه الرياسات ويطلبونها « وطلب الرياسة والمال مباح » (٣) ، ومن طبع الإنسان أنه يحب أن يكون رأساً وهذا هو الشهوة الخفية ، قال شداد بن أوس (٤) : إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية(٥). قال أبو داود : هي حب الرئاسة » (٦) وهو يُحْدِثُ لكثير من أصحابه سُكْراً

---

(١) الفتاوى ١٧٦/٣٤ . (٢) السابق /١٧٦ . (٣) انظر منهاج السنة ٤٦٧/٧ .

(٤) هو أبويعلى شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري ، صحابي ، ولاه عمر إمارة حمص ولما قتل عثمان اعتزل ، واعتكف على العبادة . توفى في القدس سنه (٧٥هـ) . انظر طبقات بن سعد ٤٠١/٧ ، سير أعلام النبلاء ٤٦٠/٢ – ٤٦٦ ، الإصابة ٥٢/٥ .

(٥) حديث ضعيف ، رواه أحمد ١٢٤/٤ ، قال الهيثمي : فيه عبدالواحد بن زيد وهو ضعيف ، مجمع الزوائد ٢٠٢/٣ .

(٦) انظر ابن تيمية والتصوف /٤٨٢ ، التفسير الكبير ٤٧٦/٣ .

« ومن السكر أيضاً ما يكون بحب الرياسة والمال ، أو شفاء الغيظ فإنه إذا قوي ذلك أوجب سكراً ، وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب سكراً ، لأن السكر شبيه ما يوجب اللذه القاهرة التي تضمر العقل ، وسبب اللذة إدراك المحبوب ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحب قوياً ، والعقل والتمييز ضعيفاً كان ذلك سبباً للسكر ، لكن ضعف العقل تارة يكون من ضعف الإنسان المحب ، وتارة يكون من قوة السبب الوارد ، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرياسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه » [1]. فالمبتدئون بالرئاسة أشد سكراً بها ، لما ينالهم من التعظيم وتسابق الناس إليهم ومداهنتهم وهذا شيء لم يألفوه ولم يعتادوا عليه مما يجعل الغرور يسارع إلى نفوسهم ، فتتعاظم بعض النفوس كما تعاظمت نفس فرعون حتى قال: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [2] ، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [3] .ومن النفوس من يصل تعاظمها إلى أقل من ذلك ،وإذا حصل هذا السكر بالزعامة وسلطنة الترأس على الناس فإنه يحب ويرضي كلمة المدح والثناء ولو كانت كذباً وباطلاً ، ويعلم أنها كذلك؛ لأنه يتوقع أن كثيراً من السامعين الحاضرين والغائبين يصدقون هذا المدح والثناء [4] ، وهذا يهمه كثيراً ، بينما تسخطه وتثير غضبه الكلمة التي فيها نقده وبيان خطئه ولو كانت حقاً وصدقاً ويعلم أنها كذلك ؛ لأنه لا يحب أن يسمع أتباعه عيوبه فيخشى أن تقل منزلته عندهم أو أن يتجرأوا على نقده وبيان عيوبه ، وأقل الأحوال أن في الناس من إذا سمع هذا النقد صدقه وأعجبه ومالت نفسه إليه .

يقول رحمه الله :« وطالب الرئاسة – ولو بالباطل – ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً ، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً ، والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه ، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه ؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل، ويبغض الكذب والظلم » [5]. ويبين أنَّ الجاه فتنة لكل مفتون » [6] .

الفتنة في الرئاسة والجاه والمال وغيره تستولي على القلب حتى تسكره ولا تزول « إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل ، فيكون حبه لله ولما يحبه الله ، وبغضه لله ولما يبغضه الله، وكذلك موالاته ومعاداته ... » [7] .

وبعض الأمور التي تجعل للإنسان مكانة ومنزلة بين الناس يكون له فيها من الفتنة

---

(١) الاستقامة ٢/١٤٦ ، ١٤٧ .(٢) سورة النازعات آية (٢٤) . (٣) سورة القصص آية (٣٨) .
(٤) انظر الفتاوى ١/٥٩٩ ، ٦٠٢ . (٥) الفتاوى ١٠/٦٠٠ .
(٦) انظر السابق ٢/٦٠٢ . (٧) السابق ١/٦٠١ .

النفسية ما لا يوجد في غيرها ، فمثلاً : العلم ، والإمارة ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها « من الفتنة النفسية وغيرها ما ليس في غيرها ، ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور ، فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه ، كما تطمع مع القدرة ، فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة ، بخلاف حالها بدون القدرة ، فإن الصبر مع القدرة جهاد ، بل هو أفضل من الجهاد » (١) .

وما دام أن النفوس تشتهي الرئاسة والعلو وتتعلق بالصور الجميلة فإنه يلزم الحذر من الانسياق وراء مرادات النفس التي هي خلاف الحق أو المصلحة ؛ لأنها سيكون تعذيب للنفس وتكالب للهموم والغموم والأحزان والآلام عليها وضيق للصدر بما لا يستطاع تصوره والتعبير عنه (٢) . « وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى، ولا يحصل له ما يسره ، بل هو في خوف وحزن دائماً إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل ، فإذا أدركه كان خائفاً من زواله وفراقه » (٣) .

ب ـ الرياسة محبوبة مرغوبة ومن حصل عليها من الملوك أحب أن تدوم له وتستمر؛ لذا تجد أنَّ أصحاب الرياسات والولايات يعملون أعمالاً من شأنها أن تحفظ لهم سلطتهم وتبقيها في أيديهم ، من ذلك : تولية أقاربهم المناصب ، والولايات ، وإيثارهم بها (٤) ؛ وذلك لوجوه :

أحدها : محبتهم لأقاربهم أكثر من الأجانب ، لما في الطباع من ميل الإنسان إلى قرابته .

الثاني: لأن أقاربهم يريدون إقامة ملكهم ما لا يريده الأجنبي ؛ لأن في عزّ قريب الإنسان عزٌ لنفسه ، ومن لم يكن له أقارب من الملوك استعان بمماليكه ومواليه فقربهم واستعان بهم ، وهذا موجود في ملوك المسلمين والكفار » (٥) .

ثم ضرب أمثلة في بني أمية ، وبني العباس في تولية أقاربهم ثم قال : « وكان ذلك مما يقيمون به ملكهم » (٦) ، وذكر ملوك الطوائف وملوك الكفار وأهل الكتاب وملوك الفرنج ... الخ (٧) .

(١) الفتاوى ٥٧٦/١٠ .
(٢) انظر الفتاوى ٦٥١/١٠ .
(٣) الفتاوى ٦٥١/١٠
(٤) انظر منهاج السنة ٤٦٦/٧ .
(٥) منهاج السنة ٤٦٦/٧ .
(٦) منهاج السنة ٤٦٦/٧ .
(٧) انظر المصدر السابق ٤٦٦/٧ .

ج ـ أغنياء الناس وكبراؤهم من المترفين المتكبرين هم من أبعد الناس عن قبول الحق والإذعان له، وأمثال هؤلاء « قد قالوا لنوح: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾[1] .

فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته ؛ لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك ، بخلاف المستضعفين . وفي هذا المعنى الحديث المأثور – إن كان محفوظاً – (اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين)[2] .

فالمساكين ضد المتكبرين ، وهم الخاشعون لله ، المتواضعون لعظمته ، الذين لا يريدون علواً في الأرض ، سواء كانوا أغنياء أو فقراء »[3] .و « الفقر » ليس هو التواضع والمسكنة والتذلل ، وهذا نشأ من رؤية أكثر الفقراء على هذا ، وليس التواضع والمسكنة في لفظ « الفقراء » الوارد بالنصوص هو هذا ، بل هو عدم المال ، والمسكنة خضوع القلب[4] .ويعطينا شيخ الإسلام نظريته بما يسر الأغنياء والشرفاء والرؤساء ، حيث يقرر أن الصلاح في الفقراء أكثر منه في الأغنياء ،ولكنه إذا كان في الأغنياء فهو أكمل منه في الفقراء[5] .ويدلل على ذلك بقوله : « ولهذا كان الغالب على المهاجرين الفقر والغالب على الأنصار الغنى ، والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وكان في المهاجرين أغنياؤهم من أفضل المهاجرين مع أنهم بالهجرة تركوا من أموالهم ما صاروا به فقراء بالنسبة إلى ما كانوا عليه »[6] .

فإذا كان الملوك والرؤساء والأمراء والأغنياء صالحين فهم أنفع وأعز للأمة من صلاح الفقراء ، وتأثيرهم في المجتمع ونصر الإسلام في كل مكان ، وتأييد أهله والدعاة إليه أقوى وأعظم مما يفعله الفقراء والضعفاء الصالحون ، فصلاح واحد من الملوك أو الرؤساء أو الأمراء يعادل آلافاً من هؤلاء وفي كل خير ، والله نسأل أن يصلح أئمتنا وولاة أمورنا وأمور المسلمين .

د ـ نظراً لنفسية التكبر والتعالي عند أكثر الرؤساء والملوك والولاة فإنهم يحبون من يبدي التذلل والخضوع عندهم ، ولا يحبون من يأتي شامخاً بأنفه معتزاً بنفسه يخاطبهم

---

(١) سورة الشعراء آية (١١١) .

(٢) حديث صحيح من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، مجالسة الفقراء ١٣٨/٢ حديث رقم ٤١٢٦ .

(٣) الفتاوى ١٣٠/١١ .

(٤) انظر الفتاوى ١٣٢/١١ .

(٥) انظر الفتاوى ١٣١/١١ .

(٦) الفتاوى ١٣٢/١١ .

بصوت عال ، أو يتكلم في مجالسهم بصوت يعلو على أصواتهم ، ولعل كراهيتهم لهذا لما فيه من توجه الأنظار إلى غيرهم وسحب الأضواء عنهم ، ولما فيه من الغضاضة والرعونة .

لذا كان من الأدب عدم رفع الأصوات من غير حاجة « لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم ومن رفع صوته لديهم مقتوه » [1] .

هذا مع أن الأدب العام مع كل أحد عدم رفع الصوت ؛لأن رفع الصوت من غير حاجة خلق ممقوت ، يقول العبد الصالح لولده: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [2] .

ثانياً : ولاية المسلمين من الواجبات في الدين :

يرى ابن تيمية – وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة – أن ولاية المسلمين من واجبات الدين وضرورياته ؛ التي لا يجوز التشاغل عنها وتركها ، لأن بقاء الناس بلا حاكم من أعظم الفساد ومن أخطر أبواب الشر والفتنة ، بل وجود إمام ظالم خير من بقاء الناس بلا إمام ، والوالي الصالح من أعظم أسباب صلاح الأمة [3] .

يقول رحمه الله في شأن الوالي :« وهو أقوى الأسباب التي بها يصلح أمور خلقه وعباده فإذا صلح ذوو السلطان صلحت أمور الناس ، وإذا فسد فسدت بحسب فساده، ولا تفسد من كل وجه ، بل لا بد من مصالح ، إذ هو ظل الله لكن الظل لا يكون كاملاً مانعاً من جميع الأذى ، وتارة لا يمنع إلا بعض الأذى ، وإذا عدم الظل فسد الأمر» [4] .

ويقول :« فإن الخلق عباد الله ، والولاة نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر ففيهم معنى الولاية والوكالة » [5] .

ومن تولى على الناس وساسهم بعلم وعدل فعمله من أعظم العباذات وأرفع المنازل، يقول رحمه الله :« ولهذا كانت الولاية – لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان – من أفضل الأعمال الصالحة ،حتى قد روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : (إنَّ أحب الخلق إلى الله إمام عادل ،

---

(١) التفسير الكبير ٤/٣٠٠ . (٢) سورة لقمان آية (١٩) .
(٣) انظر منهاج السنة ١/٥٤٧ ، ٥٤٨ ، وانظر ابن تيمية وفكره السياسي /٥٨ .
(٤) الفتاوى ٣٥/٤٦ . (٥) منهاج السنة ٢/١٢ ، ١٣ .

وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر » (١) .

وقال بعد أن ذكر بعض الولايات :« وجميع هذه الولايات هي في الأصل ولاية شرعية ، ومناصب دينية ، فأي من عدل في ولاية من هذه الولايات فساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان ، فهو من الأبرار الصالحين ، وأي من ظلم وعمل فيها بجهل فهو من الفجار الظالمين ، إنما الضابط قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (٢) .

ويقول :« فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه ، وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله » (٣) .

وهذه الطاعة المأمور بها لولاة الأمور عبادة يجب أن تكون من أجل الله لا لحظوظ الدنيا ، يقول رحمه الله : « وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم ، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله ، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم وإن منعوه عصاهم فما له في الآخرة من خلاق ، وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم [ثم ذكر الثالث] ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها وفى ، وإن لم يعطه منها لم يف) (٤) ، (٥).

وبهذا يتبين منزلة ولاية أمر المسلمين في منهج ابن تيمية ، وأنها بمكانة سامقة ولها موقع في النفوس عظيم .

ثالثاً : وجوب طاعة الولاة وحرمة الخروج والثورة عليهم :

وطاعة ولي الأمر لا تخضع لضوابط معينة من اللغة والجنس واللون ، فهو ما دام يسوس الأمة بالشريعة فطاعته واجبة ولا يجوز عصيان أمره ، والخروج عليه والحالة هذه كبيرة من كبائر الذنوب ؛ فالإمام ما دام لم يظهر منه كفر بواح عليه من الله برهان

---

(١) الفتاوى ٦٥/٢٨ . (٢) الفتاوى ٦٨/٢٨ .

(٣) الفتاوى ٢٦٢/٢٨ .

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ، باب من بايع رجلاً لا يبايعه إلا لدنيا ، فتح الباري ٢٠١/١٣ . ومسلم في كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم إسبال الإزار ، صحيح مسلم ١٠٣/١ .

(٥) الفتاوى ١٦/٣٥ ، وانظر الفتاوى ٢٠/٣٥ .

فإنه يحرم الخروج عليه حتى ولو ارتكب الكبائر دون الشرك ، حتى ولو ظلم الناس بأخذ حقوقهم وبخسهم فيها ، قال رحمه الله : « ونهوا عن قتالهم ما صلوا ، وذلك لأن معهم أصل الدين المقصود وهو توحيد الله وعبادته ، ومعهم حسنات وترك سيئات كثيرة » (١) .

ويورد الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك) (٢) ، ومعنى قوله :« وأثرة عليك » « وأثرة علينا » أي وإن استأثر ولاة الأمور عليك فلم ينصفوك ولم يعطوك حقك [وذكر أحاديث فيها أثرة الحكام وأخذهم الحق الذي لهم من الناس ومنع الناس حقهم ، وظهور أمور ينكرها الناس وفيها وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالسمع والطاعة لهم (فإنما عليهم ما حملوا ، وعليكم ما حملتم) (٣) . ثم قال بعد ذلك] :« فذلك ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم؛ وهو واجب على المسلم ، وان استأثروا عليه ، وما نهى الله عنه ورسوله من معصيتهم ، فهو محرم عليه ، وإن أكره عليه .

وهذه الطاعة واجبة وإن لم يعاهدهم على ذلك ،« وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة ، كما يجب عليه الصلوات الخمس ، والزكاة والصيام وحج البيت ... ، فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيداً وتثبيتاً لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم ، فالحالف على هذه الأمور لا يحل له أن يفعل خلاف المحلوف عليه ، سواء حلف بالله أو غير ذلك من الأيمان التي يحلف بها المسلمون » (٤) .

ولا يجوز لأحد أن يفتيه في الحنث في يمينه ومخالفته ما حلف عليه بما أمر الله ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم ، ومن أفتى بذلك فهو مفتر على الله الكذب مفت بغير دين الإسلام (٥) .

ويقرر أنّ معاقدة ولاة الأمور هي أعظم العقود التي أمر الله بالوفاء بها ، وإذا نظرنا للواقع نجد أن الخروج على الأئمة لإزالة ظلمهم وجورهم ومخالفاتهم الشرعية وكل ما

---

(١) الفتاوى ١٧٩/٢٨ .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ، صحيح مسلم ١٤٦٧/٣ ، رقم الحديث ١٨٣٦ .

(٣) أخرجه مسلم عن وائل الحضرمي ، كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق ، رقم الحديث ١٨٤٦ صحيح مسلم ١٤٧٤/٣ ، ١٤٧٥ .

(٤) الفتاوى ٩/٣٥ ، ١٠ .

(٥) انظر الفتاوى ١٠/٣٥ .

وقع منهم دون الكفر سواء بتأويل سائغ أو غير سائغ لا يجوز لما يترتب على ذلك من مفاسد ؛ لأن التغيير لا يكون إلا بما هو أظلم منه وأشد ضرراً (١) ، وهذا « عادة أكثر النفوس تزيل الشر بما هو شر منه وتزيل العدوان بما هو أعدى منه » (٢) .

ويرى ابن تيمية أن الخروج على الأئمة والثورة لا يزيل الشر بل يزيده ، ويأتي بشر أعظم ، والحل في نظره هو الصبر على هذا الظالم ومعالجته ، يقول : « فالخروج عليهم يوجب من الظلم والفساد أكثر من ظلمهم ، فيصبر عليه .... » (٣) .

ويقول :« نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم ، لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم » (٤) ، وقال :« والشارع أمر كل إنسان بما هو المصلحة له وللمسلمين ، فأمر الولاة بالعدل والنصح لرعيتهم ، .. وأمر الرعية بالطاعة والنصح ... وأمر بالصبر على استئثارهم ونهى عن مقاتلتهم ومنازعتهم الأمر مع ظلمهم، لأن الفساد الناشيء من القتال في الفتنة أعظم من فساد ظلم ولاة الأمر ، فلا يزال أخف الفسادين بأعظمهما » (٥) .

والتاريخ خير شاهد ، فالثورات على الحكام لم تأت إلا بالقتل وإثارة الأحقاد وفناء الأخيار وبقاء الفجار كما هم ، إضافة إلى أنواع من الظلم (٦) ، وإشغال الأمة عن الجهاد ومراقبة الأعداء الكفار ، إضافة إلى أن الحكام يركنون إلى المنافقين وأصحاب الأهواء الذين يتربصون بالمخلصين الدوائر .

وابن تيمية يقيم للتجارب ونتائجها أكبر الاعتبار فلا داعي لتكرار التجارب المريرة، فيلزم الطاعة للأئمة والقتال معهم (٧) ،والصبر على ظلمهم وجورهم إذا لم يكن في ترك الصبر مفسدة راجحة ، حتى وإن كانوا فجرة فسقة ، معلنين بذلك ، ما داموا مقيمين للصلاة ومقيمين لأركان الدين ، وهذا من أصول أهل السنة والجماعة حيث يرون أنه «... لا تجوز معصية الإمام براً كان أو فاجراً إلا أن يأمره بمعصية الله » (٨) .
ولا يكون جور الأئمة وظلمهم مبرراً للشعوب منع الحكام ما لهم من الحقوق على شعوبهم ، بل الواجب أداء الحقوق إليهم، يقول رحمه الله :« ولا لهم أن يمنعوا السلطان ما يجب دفعه إليهم من الحقوق وإن كان ظالماً كما أمر النبي صلى الله

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨ ، ١٧٩ .
(٢) انظر السابق .
(٣) الفتاوى ٢٨/١٨٠ .
(٤) الاستقامة ١/٣٤ .
(٥) منهاج السنة ٤/٥٤١ ، ٥٤٢ .
(٦) انظر منهاج السنة ٤/٥٣٣ - ٥٤٩ .
(٧) انظر الفتاوى ٢٨/١٨٠ ، ٥٨٧ .
(٨) الفتاوى ٢٨/٥٨٧ .

عليه وسلم لما ذكر جور الولاة فقال :(أدوا إليهم الذي لهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم) (١) ، وفيهما [أي الصحيحين] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها . قالوا : فما تأمرنا به يا رسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم : واسألوا الله حقكم) (٢) » (٣) .

والخروج على الولاة لا يجوز إلا في حالة واحدة وهو أن يصدر منهم كفر بواح مرئي أو مسموع عليه من الله برهان ليس من الأمور الاجتهادية المختلف فيها، ومما يسوغ فيه الاجتهاد .

يقول رحمه الله عن نهج أهل العلم والدين والفضل وعادات أهل السنة على مر العصور ،أنهم « ... لا يرخّصون فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور ، وغشهم ، والخروج عليهم بوجه من الوجوه كما قد عرف من عادات أهل السنة والدين قديماً وحديثاً ومن سيرة غيرهم » (٤) .

« وفي صحيح مسلم ، عن نافع (٥) قال : جاء عبدالله بن عمر (٦) إلى

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ، فتح الباري ٤٩٥/٦ كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل . ومسلم كتاب الإمارة ، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ١٤٧١/٣ رقم ١٨٤٢ .

(٢) أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه كتاب الفتن ، باب سترون بعدي أموراً تنكرونها ، فتح الباري ٥/١٣

(٣) الفتاوى ٢٦٧/٢٨ .

(٤) الفتاوى ١٢/٣٥ .

(٥) هو : نافع الفقيه مولى عبدالله بن عمر أبو عبدالله المدني أصابه ابن عمر في بعض مغازيه صغيراً ، ونشأ في المدينة وهو مجهول النسب ،كان من أئمة التابعين والفقهاء بالمدينة ، وكان متفقاً على رياسته وكثرة روايته الحديث .. قال عنه البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر .. أرسله عمر بن عبدالعزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن .. توفي سنة ١١٧هـ وقيل سنة ١١٩هـ وقيل ١٢٠هـ . انظر تهذيب التهذيب ٦٠٦/٥ ، تذكرة الحفاظ ٩٩/١ ، سير أعلام النبلاء ٩٥/٥ .

(٦) هو : عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي الصحابي ولد سنة ٣ من البعثه النبوية ، هاجر وهو ابن عشر سنين ، أسلم مع أبيه ، ولم يكن بلغ يومئذ .. وكان من المكثرين في الرواية عن الرسول .. شهد الخندق ، وبيعة الرضوان والمشاهد وغيرها .. أفتى الناس ستين سنة كما قال عنه مالك.. توفي سنة ٧٣هـ بعد الحج إثر إصابته بحربة رجل مسمومة من الحجاج بن يوسف . انظر الإصابة ١٦٧/٥ ، تهذيب التهذيب ٢١٣/٣ .

عبدالله ابن مطيع (١) حين كان من أمر الحرة ما كان ، زمن يزيد بن معاوية (٢) ، فقال: اطرحوا لأبي عبدالرحمن وسادة ،فقال : إني لم آتك لأجلس ، أتيتك لأحدثك حديثاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) (٣) » (٤) .

ووجود البغي من الأئمة لا يوجب قتالهم ولا يبيحه « بل من الأصول التي دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم يؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ، ولا يقاتلونه ، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في غير حديث ، فلم يأذن في دفع البغي مطلقاً بالقتال ، بل إذا كانت فيه فتنة نهى عن دفع البغي به وأمر بالصبر على جوره ... أما إذا وقع بغي ابتداء بغير قتال مثل أخذ مال أو مثل رئاسة بظلم، فلم يأذن الله في اقتتال طائفتين من المؤمنين على مجرد ذلك ، لأن الفساد في الاقتتال في مجرد رئاسة أو أخذ مال ، فيه نوع ظلم ، فلهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم ، لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم وقوله صلى الله عليه وسلم :(ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم) (٥) .وأمثال ذلك من الأحاديث الصحاح ، فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم ، وطلب

---

(١) هو : عبدالله بن مطيع بن الأسود القرشي من رجال قريش ،كان جلداً شجاعاً ولد في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان على قريش يوم الحرة ، واستعمله ابن الزبير على الكوفة فأخرجه منها المختار بن أبي عبيد ، وعاد إلى مكة فلم يزل بها إلى أن قتل مع ابن الزبير في حصار الحجاج لهم ، وأرسل رأسه إلى الشام مع رأسي ابن الزبير وصفوان سنة ٧٣هـ . انظر تهذيب التهذيب ٢٧٣/٣ ، الإصابة ٢٢٠/٦ .

(٢) هو : يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية الخليفة ، القرشي ، تسلم الخلافة عند موت أبيه سنة ٦٠هـ ،كان قوياً شجاعاً ذا رأي وفطنة وحزم . ولد في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .. وأرسل جيوشاً إلى الحسين فقتل سنة ٦١هـ .. وأثناء حصار جيشه الكعبة في قتال ابن الزبير مات يزيد سنة ٦٤هـ ولم يبلغ الأربعين من العمر بعد . انظر سير أعلام النبلاء ٣٥/٤ ، تهذيب التهذيب ٢٢٧/٦، لسان الميزان ٢٩٣/٦ .

(٣) أخرجه مسلم عن ابن عمر ، كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ، صحيح مسلم ١٤٧٨/٣ ، رقم الحديث ١٨٥١ .

(٤) الفتاوى ١٢/٣٥ .

(٥) خرجه مسلم من حديث عبدالله وطرفه « إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها » ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول رقم ١٠ ، رقم الحديث ١٨٤٣ ، صحيح مسلم ١٤٧٢/٣ .

المظلوم حقه من الله ، ولم يأذن للمظلوم الدخول مع الولاة في خصومات تدفعهم أن يقتحموا أموراً تؤدي بهم إلى الظلم وارتكاب المحرمات من أجل الانتصار لذواتهم وخوفاً على عروشهم ، يخيل لهم حيناً أن هذا هو أقوم السبل وأحياناً كثيرة من الظلم المحض لذا «يقول علي بن أبي طالب : إن للخصومات قحماً وإن الشيطان يحضرها » (١) . والقحم : الأمور العظام التي لا يركبها كل أحد ، بمعنى أن المرء في حال الخصام يقدم ويتجرأ على أمور لا يقدم عليها ولا يجرؤ لولا الخصومة ، وإنه يستجيز لنفسه في هذه الحالة أموراً لا يجيزها في غيرها ، وإذا فعل الولاة ذلك حدثت الفتن لأن أنصار الحق لن يُسلم بعضهم بعضاً لمخالب هؤلاء ومن ثم يقوم البلاء ؛ والذي يريد أن يعتبر في دواهي الفتن وما تجره على الناس من الأضرار والمصائب ، حتى أن المرء ليحار في عقول العقلاء الذي دهاها ، فلينظر لما حدث في قرن من القرون رجاله خير الرجال وذلك بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه « ... والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء ، فصار الأكابر رضي الله عنهم عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها ، وهذا شأن الفتن كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً... ﴾ (٢) ، وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله » (٣) .

والمبغي عليه ليس مأموراً بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها فتنة ،كما أذن في دفع الصائل بالقتال قال :(من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ...) (٤) ،فإن قتال اللصوص ليس قتال فتنة إذ الناس كلهم أعوان على ذلك فليس فيه ضرر عام على غير الظالم ، بخلاف قتال ولاة الأمور فإن فيه فتنة وشراً عاماً أعظم من ظلمهم فالمشروع فيه الصبر ... [إلى أن قال] وكل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين ، سواء كان قولاً أو فعلاً ، ولكن المصيب العادل عليه أن

(١) منهاج السنة المحقق ١٩٦/٦ . (٢) سورة الأنفال آية (٢٥) .
(٣) منهاج السنة غير المحقق ٢٤٦/٢ .
(٤) خرج مسلم من حديث أبي هريرة قال :(جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : فلا تعطه مالك » قال أرأيت إن قاتلني ؟ قال :قاتله ، قال: أرأيت إن قتلني ؟ قال : فأنت شهيد .قال : أرأيته إن قتلته ؟ قال (هو في النار) رواه مسلم ، وفي حديث آخر قال عبدالله بن عمرو لخالد بن العاص أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قتل دون ماله فهو شهيد . رواه مسلم ، صحيح مسلم ١٢٤/١ ، ١٢٥ كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه .. ٦٢ ، رقم الحديث الأول ٢٢٥ ، والثاني ٢٢٦ .

يصبر عن الفتنة ، ويصبر على جهل الجهول وظلمه إن كان غير متأول ، وأما إن كان ذاك أيضاً متأولاً فخطؤه مغفور له ، وهو فيما يصيب به من أذى بقوله أو فعله له أجر على اجتهاده ، وخطؤه مغفور له ، وذلك محنة وابتلاء في حق ذلك المظلوم ، فإذا صبر واتقى الله كانت العاقبة له ... وإن كان ظالماً لا تأويل له فلا يحل دفع ظلمه بما فيه فتنة بين الأمة ، وبما فيه شر أعظم من ظلمه ، بل يؤمر المظلوم ها هنا بالصبر فإن ذلك في حقه محنة وفتنة » (١) .

وإذا كانت الأمة بمقدورها إصلاح الوالي وإزالة فساده بالتي هي أحسن فذلك واجب ، وإذا قدرت على إبدال الوالي بمن هو أتقى لله وأصلح منه من دون فتنة وفساد فذلك من مهمات الأمة وبالأخص أهل الحل والعقد فيها .

أما إن كان ذلك لا يتأتى ولو قاموا لحصل إبادة الأخيار ، وهتك الأعراض واختلال الأمن في الديار ، ومع ذلك بقاء الظلمة على أعظم مما كانوا وزاد تسطلهم على الأبرار وتشبثهم بالفسقة والفجار من الذين يظهرون لهم الولاء ، وفي باطنهم البراء ، ويظهرون الحب والوفاء ، وفي باطنهم البغض والجفاء ، ألسنتهم أحلى من العسل ، يلبسون جلود الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب ، وإذا تولوا من عندهم سلقوهم بألسنة حداد .

وما على الأمة والحالة هذه إلا أن تتوجه إلى الله بالدعاء الخالص أن يصلح ولاتها وقادتها ، ويبذلون لهم النصح ما استطاعوا ثم ينتظرون فرجهم من الله دون توقف عن الدعوة لدينه وتقريب الأمة إليه . ومن الأخطاء العظيمة التى يقع فيها بعض الدعاة والمصلحين ، وبعض العلماء والمفكرين ، وضع النصوص الشرعية في غير مواضعها فيُدْخَل أقوام فيها وهم ليسوا ممن تنطبق عليهم .

ويوجد أحوال متعددة يحصل فيها ظلم وعدوان وبغي ومنكرات ؛ فقد يصدر من فرد ،ويكون في أمور دنيوية ، وقد يكون في أمور شرعية ، يقع منه على فرد من أفراد الأمة ، وقد يصدر منه ويقع على جماعة أو طائفة ، وقد يكون ذلك من طائفة أو قبيلة على طائفة أو قبيلة أخرى في أمور دنيوية من مال ومنصب ورئاسة وعقار وعصبية ونحو ذلك . وقد يكون في أمور دينية شرعية .

وقد يكون ذلك من حاكم على فرد أو على طائفة أو قبيلة من المسلمين ، وقد يكون في أمور دنيوية ، أو أمور دينية شرعية ؛ وقد أباح الله للمظلوم الذي بُغي عليه أن يرد الصائل عن دينه أو نفسه أو ماله وإذا قُتل فهو شهيد ، ويبدأ حين الدفع

(١) الاستقامة ١/٣٤ - ٤٠ ، وانظر الفتاوى ٣٥/٢٠ .

بالأخف إلى الأثقل حتى القتل .

وهذا يتصور في صيالة فرد على فرد من أفراد الأمة العادين ، وأما صيالة أو عدوان طائفة على فرد ، أو طائفة على طائفة ، أو حاكم على فرد أو طائفة ، فالإنسان مأمور في هذه بالموازنة بين المصالح والمفاسد ودرء الفتنة عن الأمة ، ودفع أعظم الفسادين بأهونهما ، وأما بغي وعدوان وظلم طائفة من الأمة على عموم الأمة أو على حاكمها كالمبتدع « الذي يظن أنه على حق – كالخوارج النواصب الذين نصبوا العداوة والحرب لجماعة المسلمين – فابتدعوا بدعة ، وكفروا من لم يوافقهم عليها ، فصار بذلك ضررهم على المسلمين أعظم من ضرر الظلمة الذين يعلمون أن الظلم محرمٌ وإن كانت عقوبة أحدهم في الآخرة – لأجل التأويل – قد تكون أخف ، لكن أَمَرَ النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، ونهى عن قتال الأمراء الظلمة ، وتواترت عنه بذلك الأحاديث الصحيحة [ثم ذكر الأحاديث التي تبين حال الخوارج ومروقهم من الدين والأمر بقتالهم وذكر الأحاديث في شأن الولاة الذين يستأثرون ويظلمون الناس والأمر بالوفاء بحقوقهم والصبر على جورهم والمنع من قتالهم ما أقاموا الصلاة] .

ثم قال : « وهذه الأحاديث كلها في الصحيح إلى أحاديث أمثالها . فهذا أمره بقتال الخوارج ، وهذا نهيه عن قتال الولاة الظلمة ، وهذا مما يستدل به على أنه ليس كل ظالم باغ يجوز قتاله . ومن أسباب ذلك أن الظالم الذي يستأثر بالمال والولايات لا يُقاتل في العادة إلا لأجل الدنيا ، يقاتله الناس حتى يعطيهم المال والولايات ، وحتى لا يظلمهم، فلم يكن أصل قتالهم ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، ولا كان قتالهم من جنس قتال المحاربين قطاع الطريق الذين قال فيهم : (من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون حرمته فهو شهيد ...) لأن أولئك معادون لجميع الناس ، وجميع الناس يعينون على قتالهم ، ولو قدر أنه ليس كذلك العداوة والحرب ، فليسوا ولاة أمر قادرين على الفعل والأخذ ، بل هم بالقتال يريدون أن يأخذوا أموال الناس ودماءهم ، فهم مبتدئون الناس بالقتال بخلاف ولاة الأمور فإنهم لا يبتدئون بالقتال للرعية .

وفرق بين من تقاتله دفعاً وبين من تقاتله ابتداء ، ولهذا هل يجوزَ في حال الفتنة قتال الدفع ؟ فيه عن أحمد روايتان لتعارض الآثار والمعاني .

وبالجملة ، العادة المعروفة أن الخروج على ولاة الأمور يكون لطلب ما في أيديهم من المال والإمارة ، وهذا قتال على الدنيا .

وقد ذكر أبو برزة الأسلمي (١) أن الذين ينازعون الملاك والأمراء في الحكم ، ويثورون عليهم ويعارضون سلطتهم « إنما يقاتلون على الدنيا ، وأما أهل البدع كالخوارج فهم يريدون إفساد دين الناس ، فقتالهم قتال على الدين .

والمقصود بقتالهم [أي أهل البدع] أن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، فلهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا ، ونهى عن ذلك » (٢) .

وقتال علي الخوارج ثابت بالنصوص والإجماع من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة، وقتال الجمل وصفين قتال فتنة كما دلت على ذلك النصوص وكرهه فضلاء الصحابة والتابعين وسائر العلماء والحاضرون له كارهون (٣) .

والخطأ هو التسوية بين هذه الحالات انطلاقاً من نصوص الانتصار ، وأخذ الحق ، وإزالة العدوان والظلم والبغي ، وأن ذلك شهادة في سبيل الله، وانطلاقاً من نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانطلاقاً من أنّ (سيد الشهداء رجل قال كلمة حق عند سلطان جائر فقتله) (٤) كما جاء في الحديث الشريف ، وانطلاقاً من النصوص في عزة المسلم وقوته وشدته وكرامته ونحو ذلك مما يطول الإشارة إليه فضلاً عن تفصيله .

ولكن يغيب عن أولئك في أوج حماسهم وعواطفهم الجياشة مراعاة النصوص الأخرى ، ومراعاة الضوابط الشرعية في كل ذلك ، ومراعاة المصالح والمفاسد في أثناء التطبيق .

وفي المقابل لذلك فريق آخر ترك الظلم والفساد والبغي والعدوان والمنكرات في الأمة وكأنه لا يعنيه ولم يتخذ أي موقف لمنع هذا الظلم والاعتداء على حق الخالق جل جلاله وعلى حقوق المخلوقين ، ظاناً أن هذا من السياسة وهو لا يرى التدخل فيها أو من التدخل فيما لا يعنيه ، وتخدّر وخدّر الأمة معه ملبساً تقاعسه ثوب الدين ، وهو يتلو

---

(١) هو : نضلة بن عبيد بن الحارث الأسلمي ، صحابي غلبت عليه كنيته ، واختلف في اسمه ، شهد مع علي قتال أهل النهروان ، ثم شهد قتال الأزارقة مع المهلب بن أبي صفرة ، مات بخراسان سنة ٦٤هـ وقيل في خلافة معاوية ، انظر الإصابة في تمييز الصحابة ١٥٢/١٠ ، تهذيب التهذيب ٦٢٧/٥ ، سير أعلام النبلاء ٤٠/٣ .

(٢) منهاج السنة المحقق ١٤٩/٥ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ .

(٣) انظر السابق /١٥٣ .

(٤) حديث ضعيف عن جابر رضي الله عنه صححه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة ، المستدرك ١٩٥/٣ وتعقبه الذهبي في التلخيص فقال : الصفار لا يدرى من هو .

على الناس نصوص السمع والطاعة للأئمة والولاة ، وعدم إثارة الفتنة ، وكأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة والتعاون على البر والتقوى ونصر المظلوم ، كأنه خروج على الأئمة وكأنه إثارة لفتنة وإثارة للبلبلة ، وكأنه تدخل فيما لا يعني ، سبحان الله إن ترك ذلك هو الفتنة : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١) ، ولا بد أن تعرف الأمة في مسألة الحكام والولاة أن هناك فرقاً كبيراً بين نصيحة الوالي وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وبين التمرد عليه والثورة والعصيان المسلح ، فالأول واجب والثاني محرم والأول عبادة بل نوع من أنواع الجهاد العظيم ، والثاني معصية من كبائر الذنوب .

رابعاً : لا إنكار على الأئمة والولاة في مسائل الاجتهاد :

المسائل التي شاع فيها النزاع من المسائل الاجتهادية يرى أنه ليس لأحد أن ينكر على الإمام ، ولا على نائبه من حاكم وغيره ، ولا ينقض ما فعله الإمام ونوابه من ذلك(٢). لأن الأمور الاجتهادية مما لا يدخل الإنكار فيها لتفاوت الاجتهادات ، واختلاف العقول في تقدير المصالح ، فقد يجتهد الإمام في سلوك أحد الطريقين بناء على ما يراه مصلحة ، وبناء على ما يراه من ضروريات وحاجات لا تنقضي إلا بهذا المسلك ، وهذه المصالح والضروريات والحاجات قد لا يعلمها غيره أو لا يستطيع تقدير حجمها تقديراً سليماً ، وأكثر المعارضات على الولاة داخلة في هذا الباب .

خامساً : أخذ الوالي من أموال الرعية لمصلحتهم :

إذا احتاج الوالي لدفع الشر عن الناس كأن يعطي حاكماً « لدفع شره عن المسلمين، كإعطاء المؤلفة قلوبهم لدفع شرهم (٣)، أو إعطاء الكفار إذا احتاج – والعياذ بالله – إلى ذلك ولم يكن في بيت المال واستلف من الناس أموالاً أداها إليهم » (٤) .

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلف على الصدقة وعلى الفيء ، وفي هذه الحال لا يقال إن ولي الأمر اقترض أموال الناس لأنه لم يفعل ذلك لنفسه إنما ليدفع الشر عن نفوسهم وأموالهم ، وعليه أن يوفي ما أخذه من أموالهم المشتركة كالصدقات والفيء (٥) ،« ولا يقال : لا يحل له صرف أموالهم ، فإن الذي أخذه ذلك الظالم كان مال بعضهم بل إعطاء هذا القليل لحفظ نفوسهم وأموالهم واجب » (٦) .

---

(١) سورة التوبة آية (٤٩) .
(٢) الفتاوى ٤٠٧/٣٠ .
(٣) انظر الفتاوى ٣٤٧/٣٠ .
(٤) الفتاوى ٣٤٧/٣٠ .
(٥) انظر الفتاوى ٣٤٧/٣٠ ، ٣٤٨ .
(٦) الفتاوى ٣٤٧/٣٠ ، ٣٤٨ .

فهذه دعوة إلى تفهم مواقف الولاة في الضرورات ، ولزوم التفاعل مع اجتهاداتهم والتقدير لها إذا كانت في صالح الأمة ، كما هي أيضاً دعوة للولاة إلى تقدير الذين بذلوا أموالهم واستجابوا لأمر الولاة في سبيل الصالح العام أن يرد الولاة إليهم حقوقهم، حتى يستمر هذا التفاعل .

سادساً : الولاة ليسوا معصومين (١) :

الملوك والرؤساء والولاة هم بشر يخطئون ويصيبون ، ويذنبون ويستغفرون ، ولهم شهوات وأهواء ، ولهم ميول ورغبات، ولهم حسنات وسيئات ، وهم يفرحون ويحزنون، ويضحكون ويبكون ، ويصحون ويمرضون ويعتريهم من الضعف والقوة ، والأحوال البشرية كلها ما يعتري غيرهم ، فلا بد أثناء التعامل معهم من إدخال ذلك في الحسبان ومراعاة المصالح والمفاسد في مخاطبتهم ودعوتهم ، وأمرهم ونهيهم ، بل فعل ذلك وملاحظته معهم يلزم أن يكون أكثر من غيرهم .

ويخطيء من يفترض فيهم غير ذلك أو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأنبياء والرسل أو حتى الخلفاء الأربعة الراشدين ؛ فوجود بعض الأخطاء والتقصير من الولاة لا يبرر للدعاة والعلماء وعموم الأمة أن يخلعوا الطاعة ، أو ينازعوهم الأمر ، أو يعينوا من يفعل ذلك ، أو يتركوا مناصحتهم والنصح لهم ؛ وابن تيمية إذا كان ينظر هذه النظرة فإنه يؤصلها على أسس شرعية ونظرة واقعية إلى الإنسان وما جبل عليه خصوصاً في هذه الجوانب الثلاثة وهي : الطاعة ، المنازعة ، النصيحة .

فكان يرحمه الله عالماً بواجبه الشرعي تجاه ولاة الأمور في هذه الجوانب الثلاث التي يعتبرها أصولاً جامعة ، ويحدد في مواضع عديدة من مؤلفاته الأطر التنفيذية لهذه الأصول ، وما هو موضع كل منها ، ومتى يجوز مخالفتها . ومما يدل على بعض ما ذكرنا قوله عن نفسه :

« ولكن عليّ أن أطيع الله ورسوله وأطيع أولي الأمر إذا أمروني بطاعة الله ، فإذا أمروني بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، هكذا دل عليه « الكتاب » و « السنة » واتفق عليه « أئمة الأمة » قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٢) .

(١) انظر منهاج السنة ٥٢٥/٤ .
(٢) سورة النساء آية (٥٩) .

ومأمور أيضاً مع ذلك أن أقول ، أو أقوم بالحق حيث ما كنت لا أخاف في الله لومة لائم – كما أخرجاه في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في يسرنا وعسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول – أو نقوم – بالحق حيث ما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » (١) . فبايعهم على هذه « الأصول الثلاثة الجامعة » وهي الطاعة في طاعة الله ، وإن كان الآمر ظالماً ، وترك منازعة الأمر أهله ، والقيام بالحق بلا مخافة من الخلق ... » (٢) .

سابعاً : نصح الولاة من أعظم الواجبات :

فطاعتهم وعدم منازعتهم لا تعني إقرارهم على أخطائهم ومنكراتهم ، لأن نصح الحكام من أعظم واجبات أهل العلم خصوصاً ، والأمة عموماً « فذلك ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم هو واجب على المسلم ، وإن استأثروا عليه – ويقرر وجوب ذلك – وإن لم يعاهدهم عليه ، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة ... فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيداً أو تثبيتاً لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ، ومناصحتهم ... فإن ما أوجبه الله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب وإن لم يحلف عليه فكيف إذا حلف عليه ... ولا يجوز لأحد أن يفتيه بمخالفة ما حلف عليه ، والحنث في يمينه ... » (٣) .

إنَّ من مناصحتهم « متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم فإنه من باب التعاون على البر والتقوى » وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم ، وإعانتهم على ظلمهم وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك ، مما هو من « باب التعاون على الإثم والعدوان »، وما أمر به أيضاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : لهم ولغيرهم على الوجه المشروع ، وما يدخل في ذلك من تبليغ رسالات الله إليهم ، بحيث لا يترك ذلك جبناً ، ولا بخلاً ، ولا خشية لهم ، ولا اشتراء للثمن القليل بآيات الله ، ولا يفعل أيضاً للرئاسة عليهم ، ولا على العامة ، ولا للحسد ، ولا للكبر ، ولا للرياء لهم ولا للعامة ، ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه ، بحيث يخرج بالسلاح ، وتقام الفتن ، كما هو معروف من

---

(١) أخرجه البخاري عن عبادة بن الصامت كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس ، فتح الباري ١٣/١٩٢ .

(٢) الفتاوى ٣/٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٣) الفتاوى ٣٥/ ٥ ، ٩ ، ١٠ ، وانظر ١١ .

أصول أهل السنة والجماعة كما دلت عليه النصوص النبوية ، لما في ذلك من الفساد الذي يربو على الفساد ما يكون من ظلمهم ، بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم ، ويفعل ما أمر به ، ويترك ما نهى عنه ... » (١) .

فهو إذاً يفرق بين واجب النصيحة للولاة وقول كلمة الحق وعدم الجبن في ذلك – ولزوم تبليغ الحق إليهم والقيام عليهم من أجل تنفيذه ، ومنعهم من المنكرات وإفساد الرعية بالطرق اللطيفة وغير اللطيفة – ، وبين العصيان المسلح والثورة والخروج عليهم ونبذ طاعتهم من غير كفر بواح ، فهذا مرفوض في منهج ابن تيمية رفضاً مطلقاً حاسماً، وحتى الأسباب والأمور التي توصل إليه يمنعها ويحرمها تحريماً قاطعاً ، ويرى الصبر على الجور والظلم والعدوان على حقوق الناس ، وأنّ هذا أسلم للأمة من خلع البيعة والخروج على الأئمة .

المطلب الثاني : صلة الدعاة والعلماء بالحكام والولاة :

كما أنه يرى من واجب العلماء والدعاة وأهل الغيرة على الدين أن يصلوا جسورهم مع ولاة الأمور ولا ينقطعوا عنهم ، ويكون اتصالهم بهم بقدر ما يفيدونهم في فهم الإسلام ، ويستفيدون منهم في نصرة الإسلام ، ولا تتجاوز العلاقة هذا الهدف العظيم ، والذي أساء علاقة العلماء بالحكام أقوام فعلوا ذلك من أجل ذواتهم ومصالحهم أو شيئاً من هذا وهذا .

ولم ير ابن تيمية مبرراً لا شرعياً ولا عقلياً ولا اجتماعياً ولا عرفياً لقطع جسور العلماء والدعاة مع الولاة ، بل إنه يرى ذلك من الأضرار العظيمة في الدين والدنيا . لأنه لا يزيد الحكام إلا جهلاً بالدين وفهماً خاطئاً لأمور الناس لوجود قنوات غير أمينة لديهم إضافة إلى ما في ذلك من خلو جوهم الفكري والاجتماعي لغير المخلصين ، ولا يزيد العلماء والدعاة إلا جهلاً بالسياسة وأحوال الولاة ، مما يجعل الدعاة والمصلحين غير قادرين لرسم سياسة للتعامل معهم ودعوتهم وإصلاح أوضاعهم .

ومما يثير العجب إعراض الدعاة والمصلحين عن الاهتمام بعقول وقلوب الولاة ، وهم أصحاب السلطة والأمر والنهي في البلاد ، وهم القائمون على تنفيذ الشريعة ، وهم الذين يقيمون الجهاد ، ويقيمون الحدود ، فلا يصح ذلك إلا بهم ، وهم الذين يصدرون المراسيم إلى نواحي الدولة الإسلامية ، وهم عموماً المتصرفون في بلاد المسلمين التصرف الأعلى في إدارة شئونها .

---

(١) الفتاوى ٣٥/٢١ .

أيصح أن يترك هؤلاء وكل ذلك من الأمور العظيمة من مصالح الدين والدنيا بأيديهم ؟ ! وتخلو ساحتهم من أهل العلم والصلاح لتبقى لأهل الجهل والفجور والأغراض الشخصية ؟ ويمكن أن يقال : البعض له أن يفعل ذلك لكن أن يتخذ منهجاً فهذا مما لا يجوز وفيه من الأضرار ما أشرنا إليه وما لم نشر إليه أكثر . ومن أجل ذلك فإن ابن تيمية كان على صلة كبيرة بالولاة والأمراء ، بل إن بعض الأمراء قيل إنهم من تلاميذه أو على الأقل من المحبين له المعجبين به ، ومنهم : كتبغا المنصوري (١) توفي سنة ٧٢١هـ الذي كان حاكم دمشق ، وأرغون الناصري (٢) توفي سنة ٧٣١هـ تولى منصب نائب السلطان في مصر ، ووالي حلب ، والأمير سلار (٣) ، والأمير : حسام الدين مهنا بن عيسى (٤) ، السلطان : الناصر محمد بن قلاوون (٥) عاد للسلطنة سنة ٧٠٩هـ (٦) .

ولكنّ ابن تيمية يفرق بين صلة عامة الناس ، وصلة خاصتهم وعلمائهم بالحكام . فالدعاة والعلماء في نظره يجب أن تكون صلتهم خالصة لله عز وجل لا يشوبها شائبة من الهوى والمنفعة في مال أو جاه ، وذلك لأن من عادة السلاطين أنهم يحبون استمالة هؤلاء إليهم إما بمال أو منصب أو أي نوع من أنواع الترغيب والترهيب .

وابن تيمية كان على وعي بذلك مما جعله لم يقبل منهم مالاً ولا كساءً ولا منصباً

(١) هو : الأمير زين الدين كتبغا المنصوري ، حاجب دمشق ، كان من خيار الأمراء وأكثرهم براً للفقراء ، يحب سماع الحديث ، ويلزم أهله ويحسن إليهم ، كان ملازماً لشيخنا أبي العباس ابن تيمية كثيراً ، وكان يحج ويتصدق ، توفي يوم الجمعة آخر النهار في الثامن عشر من شوال سنة ٧٢١هـ .

(٢) هو : أرغون بن عبدالله الناصريّ ، تولى نيابة مصر ، ثم نيابة حلب ، أذن له بعض العلماء بالإفتاء ، وكتب جميع كتبه بخطه .. وكان بينه وبين ابن تيمية محبة ، توفي سنة ٧٣١هـ بحلب . انظر البداية والنهاية ١٤/١٣٤ .

(٣) هو : سلار البيري المنصوري من مماليك الصالح علي بن قلاوون ، ناب في الملك عن الناصر وتولى الشوبك ، قدم إلى القاهرة ، واعتقل هناك ، ومنع عنه الغذاء ، ومات جوعاً سنة ٧١٠هـ ، كان كبير أمراء الصالحية والظاهرية ، وكان أعجوبة في الكرم والبخل . انظر الدرر الكامنة ٢/٢٧٦ .

(٤) هو : مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع الطائي حسام الدين ويلقب سلطان العرب ، كانت إمارته بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٣هـ ، كان يحب ابن تيمية حباً زائداً . توفي سنة ٧٣٥هـ . انظر: الدرر الكامنة ٤/٣٦٨ ، البداية والنهاية ١٤/١٧٢ .

(٥) أبوالفتح محمد بن قلاوون بن عبدالله الصالحي من كبار ملوك الدولة القلاوونية ، ولي سلطنة مصر والشام سنة ٦٩٣هـ وهو صبي ، وخلع منها لحداثة سنه سنة ٦٩٤هـ ، وعاد إلى عرشه سنة ٧٠٩هـ . توفي بالقاهرة سنة ٧٤١هـ . انظر : وفيات الأعيان ٢/٢٦٣ ، والدرر الكامنه ٤/١٤٤ .

(٦) انظر الفكر التربوي عند ابن تيمية /٥٤ .

مع أنهم عرضوا عليه كل ذلك وغيره .

ويرى أن هذا هو نهج الدعاة والعلماء مع الحكام حتى يتحققوا أن دافع الدعاة والعلماء هو الدين وحده ، وأنهم ليس لهم مطمح فيما يخافون عليه من دنياهم ومناصبهم ، وحتى لا يكون لهم عليهم منة وفضل . يقول رحمه الله: « قال القائل : ما وضعت يدي في قصعة أحد إلا ذللت له ! ولا ريب أنّ من نصرك ورزقك كان له سلطان عليك ، فالمؤمن يريد ألاّ يكون عليه سلطان إلاّ لله ولرسوله ، ولمن أطاع الله ورسوله » (١) .

ومع هذا فهو كعادته لا يغلو ، فقدم رأياً معتدلاً في أعطيات السلاطين يتوجه به إلى عموم الناس ، ويستمد هذا الرأي من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم :(خذ العطاء ما كان عطاءً ، فإذا كان عوضاً عن دين أحدكم فلا يأخذه) (٢) .

« ... قال أحمد : أجرة التعليم خير من جوائز السلطان ، وجوائز السلطان خير من صلة الإخوان » (٣) .

المطلب الثالث : معركة ابن تيمية في التغيير والإصلاح :

من الواضح لمن قرأ سيرة ابن تيمية أنه لم يجعل معركته مع الحكام والولاة ، ولم يكن جهده الإصلاحي متركزاً نحوهم بالدرجة الأولى ، ويتضح أنّه يركز على ثلاث قنوات رئيسة :

القناة الأولى : العلماء : لأنه أدرك أن منزلة العالم فوق منزلة الحاكم في نفوس الأمة، وأن العلماء هم ملاذ الأمة بعد الله في حال كربها وشدتها .

وأدرك أن العلماء لهم صولة في قلوب الحكام ورهبة ، والحكام غالباً يبررون أفعالهم وتصرفاتهم في شئون الأمة بفتاوى العلماء وإقراراتهم . ومن دلائل ذلك قوله لشمس الدين الوزير بدمشق لما جاءه وهو في السجن وقد مرض مرض الوفاة :« إني قد أحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي ، كونه فعل ذلك مقلداً غيره ، معذوراً ، أو لم يفعله بخط نفسه بل لما بلغه مما ظنه حقاً من مبلغه والله يعلم أنه بخلافه»(٤) .

---

(١) الفتاوى ٩٨/١١ ، ٩٩ .

(٢) ضعيف من حديث معاذ رضي الله عنه عزاه الهيثمي في كتاب الخلافة ، باب أئمة الظلم للطبراني في الكبير ، وفي إسناده يزيد بن مرثد وهو لم يسمع من معاذ ، مجمع الزوائد ٢٣٨/٥ .

(٣) الفتاوى ١٩٣/٣٠ .

(٤) الأعلام العلية /٨٢ ، والكواكب /١٧٤ ، ١٧٥ .

والأمراء الحاكمون في وقته لا يشعرون بخلفية نسبية لها جذور في المجتمع ،مما جعلهم يحاولون استمالة العلماء إليهم ليقووا جانبهم بهم .

والأمة أيضاً تعاني من انحرافات عقدية وجمود علمي وتقليد أعمى ، وتبعية لمن لايستحقون ، ومن أقوى أسباب ذلك العلماء أو كثير منهم ، حيث هم القيادة الفكرية للعامة وطلاب العلم ، وبداية التصحيح والإصلاح الفكري والعلمي يبدأ من منابع الانحراف وهم العلماء . إذن في إصلاح هذه القناة يتحقق ثلاثة مكاسب : صلاح العلماء بعودتهم إلى منهج السلف الصالح ، صلاح الحكام وصدور أمرهم عن الشريعة في كل شأن من الشئون ، وصلاح العامة وطلاب العلم .

القناة الثانية : العامة : عموم المسلمين أصابهم في عزائمهم الفتور ودبّ فيهم الوهن وركن كثير منهم إلى ملذات الحياة الدنيا وماتت فيهم روح الجهاد في سبيل الله وأصيبوا بالرعب من التتار، فما توجه التتار إلى جهة أو إلى مكان إلا وهرب أهلها منها خوفاً من بطشهم . وساعد على ذلك عدد من العوامل ليس هذا مجال ذكرها وإنما ننوه إلى تفرق وتفكك المسلمين مما أدى إلى ضعف التناصر بينهم .

فتركز جهد شيخ الإسلام على : محاولة إعادة الثقة إلى المسلمين بأنفسهم ، وتحريك عزائمهم وبث روح الجهاد فيهم مذكراً لهم نصر الله لعباده المؤمنين وولايته لهم، ومذكراً لهم حياة سلفهم الصالح داعياً أن يكونوا مثلهم حتى ينالوا مثلما نالوا من الكرامة .

وبذل جهوداً كبيرة في ربط عموم الأمة بالكتاب والسنة ، مبتعداً عن أي ارتباط بمذهب فقهي ، أو منهج كلامي ، أو طريق صوفي .

القناة الثالثة : التركيز على صفوف المبتدعة ، والطوائف المنحرفة ، والمنافقين والكافرين الذين يتآمرون على الأمة ويتحزبون ضدها .

وقد تقابل مع هؤلاء في حرب اللسان والسنان حتى هتك أستارهم وفضح أسرارهم وكسر شوكتهم وأخرجهم من صياصيهم أذلة صاغرين ، وتوّب جماعات منهم وألزمهم الحق .

ومن الواضح أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لم يوجه المعركة إلى الحكام؛ ليس لأنهم صالحون غاية الصلاح وقائمون على منهج لا خلل فيه ولا قصور ، بل لأنهم على ما فيهم قائمون بحفظ السلطة والكلمة مجتمعة عليهم ، ولم يكونوا يتبنون اتجاهات فكرية مخالفة للإسلام ، غير المجاملة مع العلماء الكبار الذين لهم نفوذ بين

العامة ، وذلك في موافقتهم في اتجاهاتهم التي غالباً ما تكون صوفية أو جهمية أو أشعرية فيها انحراف كبير عن منهج السلف .

وليس في المقدور إيجاد أفضل منهم نظراً لظرف الأمة الفكري والاجتماعي والسياسي ، بل الحاجة متوجهة إلى تعزيز مكانتهم وتقوية سلطانهم ، مع بث روح الجهاد فيهم وإيقاد جذوة الإيمان في نفوسهم ؛لأن الضرورة متوجهة لجمع كلمة المسلمين من أجل الجهاد . فالأعداء متربصون من كل جانب ؛ فالباطنيون يفسدون البلاد قتلاً وهتكاً ونهباً وتجسساً على المسلمين لصالح النصارى والتتار ، ودائماً يشجعون هؤلاء ويجرءونهم على حرب المسلمين ويتعاونون معهم . والتتار يعيثون في بلاد المسلمين طولاً وعرضاً تخريباً وسفكاً للدماء ، وأيضاً النصارى يتربصون بالمسلمين الدوائر ويغيرون على ثغورهم وبلدانهم ويقتلون ويأسرون . ولم يكن من بلاد المسلمين من تجتمع كلمتهم ويستطيعون التحرك سوى مصر والشام .

فرأى ابن تيمية رحمه الله : أن هؤلاء الحكام مهما يكن فيهم من عيوب ومنكرات دون الكفر فالمصلحة تفرض كسب ودهم وثقتهم ، وأن يضع يده في أيديهم للتعاون على أعداء الأمة الكفرة من : الباطنية ، والتتار ، والنصارى ، وسائر فئات المنافقين والمتآمرين على المسلمين .

ويركز في كتاباته بشكل واضح وقوي على واجب الولاة نحو الدين ونحو الأمة ، ويرسم المنهج القويم للوصول بالأمة إلى شاطىء الأمان ، ومن أبرز مؤلفاته في ذلك: «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » . وكتاب :« الحسبة في الإسلام »، وكانت هذه الكتب وغيرها تصلهم ، بل قد يكون كتبها بناء على طلب منهم ؛ كما ورد في حاشية الفتاوى قوله عن « السياسة الشرعية » كتبها في ليلة لما سأله الإمام (١) أن يعلق له شيئاً من أحكام الرعايا ، وما ينبغي للمتولي » (٢) .

ولا يغيب عنا اتصاله بهم في المناسبات وأوقات الحاجات العامة في مصالح الأمة . ولم أعثر خلال دراستي لحياة ابن تيمية على مواقف تمثل مواجهات معارضة مع الحكام، وأبرز المواقف في ذلك موقفه مع السلطان محمد بن قلاوون (٣) في شأن لبس النصارى لباس المسلمين ، وموقفه معه حين استشاره في العلماء . والمواقف التي حدثت له معهم مع قلتها كانت طارئة ، فهي مواقف فرضت نفسها في وقتها ، ولم تكن عن خطة مدروسة أو منهج مرسوم سوى ما شرعه الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما رآه أو سمعه أو علم به ويقدر على تغييره .

---

(١) هو السلطان الناصر محمد بن السلطان قلاوون .

(٢) الفتاوى ٢٨/٢٤٤ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٨٤) .

ولعل مما يؤخذ على شيخ الإسلام عدم تنفيذه لمرسوم السلطان في منعه عن الفتوى في مسألة الطلاق بالثلاث ، وقد بنى السلطان أمره هذا على رأي علماء المذاهب والقضاة في وقته حتى اضطر الحاكم لسجنه .

وابن تيمية رحمه الله امتثل فترة من الزمن ونفذ أمر السلطان والتزم الطاعة . ولكنه يرى أن هذه مسألة اجتهادية ، وقد اختلف الصحابة فيها ، بل يرى أن الحق معه، فهو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفته أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وما فعله عمر اجتهاد بناه على مصلحة للناس في وقته ووافقه جمع من الصحابة ، فالسكوت والحالة هذه لا يسعه ، وقد يؤدي إلى نسيان هذا الحكم واندثاره بين العلماء ، ثم هو متبع وليس مبتدعاً ، ورأى أيضاً أنَّ موقف العلماء في وقته خاطيء في المنع من الفتوى ، وأنَّه قد يكون منهجاً مسلوكاً لمن بعدهم من العلماء .

لذا رأى أن من المصلحة أن يمتثل ليبين أنَّ من فعل ذلك فهو جائز ، ورأى ألا يمتثل ليبين أنه لا يلزم الداعية السكوت عما ترجح عنده أنه الحق من أجل أمر السلطان ما دام أن الضرر لا يتعدى إلى غيره . وأنَّ هذا لا يعد معصية يأثم بها .

وأبرز مواقف ابن تيمية الصلبة مع الحكام ونوابهم كانت مع حاكم التتار ونوابه ، وهم في نظره كفار معتدون على المسلمين يجب قتالهم . ولم يكن رحمه الله في مواقفه هذه مع الحكام المسلمين ينطلق من منطلق أن هذا هو مصلحة الوقت فقط ، بل يرى أن هذا هو المنهج الذي عليه سلف الأمة ، وهو المنهج الإسلامي الراشد الذي تمليه النصوص الشرعية الصريحة من القرآن ، والصحيحه الصريحة من السنة النبوية الشريفة.

وترك لنا شيخ الإسلام عدداً من القواعد العظيمة في كيفية تعامل الأمة بشتى مستوياتها مع الحكام خصوصاً الذين يظهر فيهم الفسق والفجور ، وأبرز لنا فقهاً عظيماً في مجال درء المفاسد وجلب المصالح في هذا المجال ، مما لو وعاه المسلمون اليوم وخصوصاً الدعاة وقادة الحركات الإسلامية لجنَّبوا المسلمين بعض الفتن التي حصلت ، وأفادوا منه في رسم سياسة شاملة يتم فيها تعامل الدعاة المصلحين مع الحكام والولاة معاملة تحقق مصالح الأمة وتجنبها الأخطار والمؤامرات من أعدائها الكفار .

المطلب الرابع : بعض مسؤوليات الولاة في منهج ابن تيمية

أولاً : العدل في الحقوق والأعطيات :

يجب العدل في حقوق الناس وأعطياتهم على كل حاكم وقاسم . فإذا كان الحاكم أوالقاسم ليس عدلاً فإن هذا لا يبطل جميع أحكامه وقسمه ، والقول بخلاف ذلك

يؤدي إلى فساد أمور الناس ، والواجب طاعة الأئمة ولو كانوا جائرين ، ومن أمر بالخير والحق منهم أطيع ولو كان ظالماً ، وإذا كان في الحكم أو القسم ظلم بأن يعطي البعض فوق ما يستحقون والبعض أقل مما يستحقون « فهذا هو الاستئثار الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بالصبر عليه ، وعلى هذه الحال فالمعطى يأخذ ما حكم له به لأنه حقه بحكم قسمة هذا القاسم [١] ، « وليس لقائل أن يقول : أخذه بمجرد الاستيلاء - كما لو لم يكن حاكم ولا قاسم - فإنه على نفوذ هذه المقالة تبطل الأحكام والأعْطِية التي فعلها ولاة الأمور جميعهم غير الخلفاء ، وحينئذ فتسقط طاعة ولاة الأمور إذ لا فرق بين حكم وقسم ، وبين عدمه .

وفي هذا القول من الفساد في العقل والدين ما لا يخفى على ذي لب ، فإنه لو فتح هذا الباب أفضى من الفساد إلى ما هو أعظم من ظلم الظالم ... ، ومعلوم عند كل أحد أن دخول الشركاء تحت حاكم غيرهم ودخول الخصماء تحت حاكم غيرهم ولو كان ظالماً أو جاهلاً أولى من أن يكون كل خصم حاكماً لنفسه ، وكل شريك قاسماً لنفسه ، فإن الفساد في هذا أعظم من الفساد في الأول .

والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها ، ورجحت خير الخيرين بتفويت أدناهما ، وهذا من فوائد نصب ولاة الأمور ، ولو كان على ما يظنه الجاهل لكان وجود السلطان كعدمه ، وهذا لا يقوله عاقل ، فضلاً عن أن يقوله مسلم ، بل قد قال العقلاء : ستون سنة من سلطان ظالم خير من ليلة واحدة بلا سلطان، وما أحسن قول عبدالله بن المبارك [٢] : لولا الأئمة لم يأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهباً لأقوانا [٣] .

ثانياً : حماية الأمة واختيار الأكفاء :

والولاة عليهم واجب حماية الأمة ليس عسكرياً فقط وإنما أيضاً حماية عقائدها وأفكارها وجميع مقومات حياتها ، وأصحاب الافتراءات والأكاذيب والأقوال المزورة خطرعلى الأمة في

---

(١) انظر الفتاوى ١٣٤/٣٠ ، وانظر ٥٨٧/٢٨ .

(٢) هو : أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح ، الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه ، حديثه حجة بالإجماع . ولد سنة ١١٨هـ ، وتوفي في رمضان سنة ١٨١هـ ، انظر : تاريخ بغداد ١٥٢/١٠ ، شذرات الذهب ٢٩٥/١ .

(٣) الفتاوى ١٣٤/٣٠ - ١٣٥ .

جبهتها الداخلية ؛ فمن واجب الولاة دفع شر هؤلاء عن الأمة وردعهم ، يقول رحمه الله بعد أن تحدث عن جملة من الأمور مكذوبة ومفتراة صدرت من أقوام في أماكن عامة :« وعلى ولاة الأمور أن يمنعوا من التحدث بها في كل مكان ، ومن أصرَّ على ذلك فإنَّه يعاقب العقوبة البليغة التي تزجره وأمثاله عن الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأهل بيته ، وغيرهم من أهل العلم والدين . والله أعلم » (١) .ولا يستطيع الولاة أن يقوموا بهذه المهمة وغيرها حتى يكون لهم معاونون أكفاء « فلهذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل وإذا تعذر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل ، وإن كان فيه كذب وظلم فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ، والواجب إنَّما هو فعل المقدور ... فالواجب إنَّما هو الأرضى من الموجود، والغالب أنَّه لا يوجد كامل ، فيفعل خير الخيرين ، ويدفع شر الشرين ؛ ولهذا كان عمر ابن الخطاب يقول : اشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقه (٢) .

ثالثاً : دور الولاة في منازعات طوائف المسلمين وجماعاتهم :

وعن المسائل الخلافية التي فيها قولان متضادان يرى أن الوالي لا يحكم بأن قول واحد هو الصواب لأنه هو الحاكم ،« فهذا لا يمكن أن يكون كل واحد من القولين المتضادين يلزم جميع المسلمين اتباعه ، بخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه من عند الله حق وهدى وبيان ... وعلى ولاة الأمور أن يمنعوهم من التظالم ، فإذا تعدى بعضهم على بعض منعوهم من العدوان ... فكيف يسوغ لولاة الأمور أن يمكنوا طوائف المسلمين من اعتداء بعضهم على بعض ، وحكم بعضهم على بعض بقوله ومذهبه » (٣) .

فإذاً ما دام الأمر في إطار تداول الآراء ومناقشتها والجدال بالتي هي أحسن وكل يحترم وجهة نظر الآخر فلا تدخل للولاة ، لكن إذا تعدى الأمر إلى الاعتداء والعدوان من أجل فرض الرأى وإصدار حكم على من خالفه بموجب أقوال البشر ومذاهبهم، فيلزم الولاة التدخل لمنع العدوان بين طوائف المسلمين وجماعاتهم .

رابعاً : مراعاة اختصاص الولايات :

لكل وال اختصاص في حدود ولايته فهو مسئول عن اختصاصه في دائرته وهذا الاختصاص ليس له حد مقرر في الشرع وإنما « يتلقى من الألفاظ والأحوال

(١) الفتاوى ٣٧١/١٨ . (٢) الفتاوى ٦٧/٢٨ .
(٣) الفتاوي ٣٨٠/٣٥ .

والعرف... ، فقد يدخل في ولايته القضاء في بعض الأمكنة والأزمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس ، وكذلك الحسبة وولاية المال » (١) .

ويلزم الولاة التقيد بالاختصاص ، ويلزم الناس احترام هذا وعدم مطالبة كل والٍ في غير حدود ولايته واختصاصه .

وعلى الدعاة والعلماء أن يعرفوا تلك الاختصاصات حتى يحسنوا التعامل مع الولاة ويرسموا معهم المواقف ،كما فعل ابن تيمية رحمه الله حينما ثار جماعة عليه في مسألة الحموية وخرجوا معترضين وشكوا الأمر إلى القاضي الحنفي جلال الدين بن حسام فوافقهم ،« ومشى معهم إلى دار الحديث الأشرفية ، وطلب حضوره ، وأرسل إليه فلم يحضر ، وإنما أجابه ابن تيمية بقوله : إن العقائد ليس أمرها إليك ، وإن السلطان إنّما ولاك لتحكم بين الناس ، وإن إنكار المنكرات ليس مما يختص به القاضي ، فلما وصل إلى القاضي هذا الجواب غضب وأمر بأن ينادى في البلد ببطلان هذه العقيدة » (٢) .

خامساً : كيف ينمي الولاة الفضائل في الأمة ؟ :

ولاة الأمر لهم دور كبير في تنمية الفضائل والأخلاق الحميدة والترغيب في العلم ، وذلك بتقريب أهل هذه المحامد والاستماع إليهم ، والإعلاء من شأنهم لـ « أن أولي الأمر كالسوق ما نفق فيه جلب إليه هكذا قال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة جلب إليه ذلك ، وإن نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة جلب إليه ذلك » (٣) .

فإذا قرّب الولاة أهل الصدق والبر والعدل والأمانة والعلم أقبل أولئك عليهم وعرف الناس أنّ من اتصف بهذه الصفات فإنه ينال التقريب من الولاة والمنزلة الكريمة، فيكون عاملاً لتنافس الناس في ذلك ، ثم أهل الكذب والفجور والظلم والخيانة يعلمون أن بضاعتهم لدى الولاة كاسدة ومقدمهم إليهم غير مأمون ، بل هم محل السخطة والغضب ، فإنهم ينكمشون عنهم ، ثم يحاولون إظهار هذه الصفات الحميدة حتى تكون لهم طبعاً وخلقاً أصيلاً فيهم لأن الحلم بالتحلم والعلم بالتعلم ، ومن استمر على فعل خلق صار له سجية .

سادساً : الولاة وتحقيق حاجات الرعية :

من الواجب كف الظلم عن الرعية بحسب القدرة والاستطاعة ، وقضاء حوائجهم

(١) الفتاوى ٦٨/٢٨ . (٢) العقود الدرية /٢٠٠ - ٢٠٢ . (٣) الفتاوى ٢٦٨/٢٨ .

التي لا تتم حياة الناس الهنيئة السعيدة إلا بها ، ويبلغ السلطان بهذه الحاجات ويعرف بأحوال الرعية وقضاياهم ويشار عليه بما فيه مصلحتهم وخيرهم ، ويصرف عن ما فيه فسادهم وضررهم، ويستعمل معه في كل ذلك الوسائل والطرق اللطيفة التي تيسر فعله لذلك وقبوله التنفيذ ، فإن لم تجد الطرق اللطيفة استعمل معه الطرق غير اللطيفة حتى لا تفسد الرعية فيحق عليها غضب الله عز وجل (١) .

ثم ينبه ابن تيمية على أن تحقيق حاجاتهم لا يعني أن يفعل ما يهوونه ويترك ما يكرهونه فليس هذا من حسن النية بالرعية وليس من الإحسان إليهم ،« قال الله تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (٢) ،وقال تعالى للصحابة ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ (٣) ، وإنما الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه ، لكن ينبغي له أن يرفق بهم فيما يكرهونه » (٤) ، إلا إقامة الحدود فإنها « رحمة من الله بعباده ، فيكون الوالي شديداً في إقامة الحدود ، لا تأخذه رأفة في دين الله فيعطله ، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات لا شفاء غيظه ، وإرادة العلو على الخلق »(٥) .

المطلب الخامس : دراسة بعض القضايا المتعلقة بالولايات والولاة :

أولاً : حكم من يتولى ولاية ولا بد فيها من ظلم :

إذا تولى ولاية أو قطاعاً ، ولا بد أن يرتكب ظلماً على من تولى عليهم بسبب ما فرض من قبل السلطان في هذه الولاية والإقطاع مما لا بد من فعله ، لكنه يحاول أن يسقط الظلم ويزيله كله ويجتهد في ذلك حسب قدرته مع يقينه أنه لو تركها لن يأتي إلا من يبقي الظلم كله أو يزيده ، وهو يستطيع أن يزيل النصف من الظلم ، والناس الذين تولى عليهم يريدون بقاءه لمنفعتهم ورفع ما يقدر على رفعه من الظلم عنهم مثل هذا الشخص المجتهد في العدل ، ورفع الظلم بحسب إمكانه ، يجوز له البقاء في الولاية إذا كان لا يعمل بما هو أفضل منها إذا تركها ، وولايته خير وأصلح للمسلمين من ولاية غيره ، بل بقاؤه فيها أفضل من تركها ، وقد يكون ذلك واجباً إذا لم يقم به غيره قادراً عليه ، فنشر العدل – بحسب الإمكان ، ورفع الظلم بحسب الإمكان – فرض على

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨٢/٢٨ .
(٢) سورة المؤمنون آية (٧١) .
(٣) سورة الحجرات آية (٧) .
(٤) الفتاوى ٣٦٤/٢٨ .
(٥) الفتاوى ٣٢٩/٢٨ .

الكفاية يقوم كل إنسان بما يقدر عليه من ذلك إذا لم يقم غيره في ذلك مقامه ، ولا يطالب والحالة هذه بما يعجز عنه من رفع الظلم . وما يقرره الملوك من الضرائب ونحوها على الناس مما لا يستطيع إزالته عن الناس فلا يأثم هو بذلك ، وإذا كان الملوك ونوابهم يطلبون أموالاً لا يقدر على دفعها إلا بإقرار بعض تلك الضرائب والمكوس ، وإذا لم يعطهم ذلك عينوا في الولاية والإقطاع من يدفع لهم ذلك ويقر الظلم أو يزيده ولا يخففه ، فإنَّ توليه الولاية والحالة هذه ودفع ما يريدون خيرٌ للمسلمين من تركها لغيره ، ويرفع عن المسلمين ما أمكنه من الظلم ، ويدفع شر الشرين بأخذ بعض ما يطلب منهم، فما لا يمكنه رفعه فهو محسن إلى المسلمين غير ظالم لهم ، يثاب ، ولا إثم عليه فيما يأخذه ولا ضمان عليه فيما أخذه ، ولا إثم عليه في الدنيا والآخرة إذا كان مجتهداً في العدل والإحسان بحسب الإمكان .

ويضرب مثالاً يوضح فيه أنَّ ارتكاب بعض المحظور مما يدفع شراً أعظم عن حق نفسه أو من ينوب عنه ، وأنَّ هذا قد يكون واجباً في حقه ، وتركه يترتب عليه فساد وفوات مصالح فيقول : « وهذا كوصي اليتيم ، وناظر الوقف ، والعامل في المضاربة والشريك وغير هؤلاء ممن يتصرف لغيره بحكم الولاية أو الوكالة إذا كان لا يمكنه فعل مصلحتهم إلا بأداء بعض من أموالهم للقادر الظالم ، فإنه محسن في ذلك غير مسيء ، [وذلك مثل ما يفرضه المكاسون على أموال الناس ومثل ما يفرض على العقار وعلى ما يباع ويشترى من الضرائب] (١) ، فإن كلٌّ من تصرف لغيره أو لنفسه في هذه الأوقات من هذه البلاد ونحوها فلا بد أن يؤدي هذه الوظائف ، فلو كان ذلك لا يجوز لأحد أن يتصرف لغيره لزم من ذلك فساد العباد وفوات مصالحهم .

والذي ينهى عن ذلك لئلا يقع ظلم قليل لو قبل الناس منه تضاعف الظلم والفساد عليهم ، فهو بمنزلة من كانوا في طريق وخرج عليهم قطاع الطريق ، فإن لم يرضوهم ببعض المال أخذوا أموالهم وقتلوهم ، فمن قال لتلك القافلة لا يحل لكم أن تعطوا لهؤلاء شيئاً من الأموال التي معكم للناس ، فإنه يقصد بهذا حفظ ذلك القليل الذي ينهى عن دفعه ، ولكن لو عملوا بما قال لهم ذهب القليل والكثير ، وسلبوا مع ذلك ؛ فهذا مما لا يشير به عاقل ، فضلاً أن تأتي به الشرائع ، فإن الله تعالى بعث الرسل لتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها .

---

(١) ما بين القوسين بتصرف من الباحث .

فهذا المتولي الذي يدفع ما قرر من قبل السلطان ونوابه من الضرائب والمقررات السلطانية ، ويصرف ظلماً وشراً كبيراً عن المسلمين أعظم من هذه الضرائب والمقررات ولا يمكنه دفع هذا الظلم إلا بذلك إذا ترك هذه الولاية تولى من يقر كل الظلم ولا ينقص منه شيئا ، هو مثاب على ذلك ، ولا إثم عليه ولا ضمان ، فولايته جائزة، بل قد تجب عليه هذه الولاية .

والمجتهد من هؤلاء أصحاب الولايات والإقطاعات ،كلهم في العدل والإحسان بحسب الإمكان يجزيه الله على ما فعل من الخير ، ولا يعاقبه على ما عجز عنه ، ولا يؤاخذه بما يأخذ ويصرف إذا لم يمكن إلا ذلك وكان ترك ذلك يوجب شراً أعظم منه [1] .والله أعلم .

ثانياً : التغيُّر في الأمة ليس من طرف واحد :

النقص والتغير الذي يحصل في الأمة والضعف في أمر دينها ودنياها ليس من جانب الحكام والولاة فقط ، بل هو يأتي من الرعاة والرعية جميعاً ،فيلزم الدعاة والمفكرين وأهل الرأي أن يتنبهوا لذلك جيداً حتى لا يصبُّوا جام غضبهم على الولاة ، ويصرفوا جهودهم بالنقد واللوم على الحكام ، والتفكير في الخلاص منهم ، ويتركوا التفكير في ذواتهم وبقية الرعية ، فإذا صلح هؤلاء فإن الحاكم وإن كان سيداً مطاعاً ففيه جانب من العبودية لرعيته ، ألا تراه يتودد إليهم ويتقرب من أجل أن يحبوه ومن أجل أن يكسب رضاهم ، فإذا استقاموا كان رضاهم يحصل بلزوم الشريعة فلا يجد بدأ من ذلك .

ويستند في هذه النظرية إلى النصوص الشرعية كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ [2] » [3] ،كقول الرسول صلى الله عليه وسلم :(كما تكونوا يُولى عليكم) [4] .

---

(١) انظر الفتاوى ٣٠/٣٥٦ - ٣٦٠ .

(٢) سورة الأنعام آية (١٢٩) . (٣) انظر الفتاوى ٣٥/٢٠ .

(٤) أخرجه التبريزي في المشكاة كتاب الإمارة الفصل الثالث ، من طريق يحيى بن هاشم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كما تكونوا كذلك يؤمر عليكم ، المشكاة للتبريزي ١٠٩٧/٢ رقم ٣٧١٧ قال الألباني : ضعيف . انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ٣٢٨/١ - ٣٢٩ .

ثالثاً : الخلافة ، والملك ، وحسنات الولاة وسيئاتهم :

وتميز رحمه الله بمنهج فريد في التعامل مع حكام زمانه يتسم بالمرونة والإيجابية الدائرة مع اتجاه تحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها .

وأبرز ما ساعده على ذلك النظرة الواقعية للإنسان بشكل عام والحكام بشكل خاص . فالنفوس البشرية تحتاج إلى المتعة واللذة الدنيوية والتمتع بالمباحات ، ونفوس الحكام تحب التوسع والانبساط في ذلك ، وهم يحبون أيضاً الاستحواذ ، بحيث لا يفاقون في كل ممتلك ومدخر ، ويحبون أن يحققوا مصالحهم الذاتية وأن يكون لهم من يأتمر بأمرهم في ذلك . وهذا خلاف « الخلافة الراشدة » وهو من شوب «الخلافة بالملك » ،وهذا لا ينافي العدالة وإن كانت « الخلافة » أفضل من « الملك » [1] .

ويرى أنَّ الملك بدأ بمعاوية رضي الله عنه [2] ،حيث خرج بالولاية من « الخلافة » إلى الملك لأجل ما شابها به مما خرج به عن سمت الخلفاء ،ومع ذلك فهو من أفضل ملوك الإسلام .

ولكن لأجل خروجه بالولاية من « الخلافه » إلى « الملك» ولما حدث من فتن ، تسلط أقوام فقالوا : إنه مات مرتد فأنكر ابن تيمية ذلك وقال : لو قيل هذا فيمن هو دونه ممن بعده من ملوك بني أمية وبني العباس إلى هارون الرشيد [3] لعلم كذب ذلك

---

(١) يعيب بعض الناس جهلاً النظام الملكي ، ويدعو إلى النظام الجمهوري ، معللاً أن الملكي يقوم على التوارث للملك ، والجمهوري يقوم على الترشيح والانتخاب ، والصورة الإسلامية الصحيحة لتنصيب الحاكم ليست هي الموجودة الآن في الواقع بأن يكون استفتاء عام لكل الناس ، ويؤدي الإعلام والمال دوره في التأثير عليهم . والأنبياء منهم ملوك كسليمان وداود ، وقد خير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون رسولاً ملكاً أو عبداً رسولاً فاختار الأخيرة ، وإذا كان في النظام الملكي ذو صلاح وكفاءة فلا مانع من ذلك ، كما كان معاوية بن أبي سفيان ، ومن بعده كانت خلافة المسلمين ملكية، وجمهور صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحياء ، وكانوا يبايعون لهم .

(٢) هو : معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبدشمس الأموي ، أسلم يوم الفتح ، ولد قبل البعثة بخمس سنين وقيل بسبع .. وقيل أسلم بعد الحديبية ولكنه كتم إسلامه حتى أظهره عام الفتح ، كان من الكتبة الحسبة الفصحاء ، حكيماً وقوراً أبيض أجلح ، ولاه عمر الشام ، وأقره عثمان ، وتسمى بالخلافة بعد التحكيم .. وعاش عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ، توفي سنة ٦٠هـ . انظر الإصابة ٢٣١/٩ ، تهذيب التهذيب ٤٧٨/٥ ، سير أعلام النبلاء ١١٩/٣ .

(٣) هو : هارون بن مهدي محمد بن منصور بن أبي جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشمي العباسي ، استخلف بعهد معقود له بعد الهادي من أبيهما المهدي سنة ١٧٠هـ ،كان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك ، وكان ذا فصاحة وعلم وبصر يحب المديح ويجيز الشعراء ويقول الشعر .. له فتوحات ومواقف مشهودة ، مات غازياً بخراسان سنة ١٩٣هـ وكان عمره ٤٥ سنة . انظر سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٩ .

وافتراؤه ، بل يزيد ابنه مع ما فعل فإنه لا يلعن ولا يقال مات مرتداً « وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات ، وحسناتهم عظيمة وسيئاتهم عظيمة ، فالطاعن في واحد منهم دون نظرائه إما جاهل ، وإما ظالم .

وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين ، منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته ، ومنهم من قد تاب من سيئاته ، ومنهم من كفّر الله عنه ، ومنهم من قد يدخله الجنة ، ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته .

[والواحد المعين من هؤلاء لا يجوز لعنه ولا الشهادة له بالنار] فهكذا الواحد من الملوك أو غير الملوك ، وإن كان صدر منه ما هو ظلم ، فإن ذلك لا يوجب أن نلعنه ونشهد له بالنار ، ومن دخل في ذلك كان من أهل البدع والضلال ، فكيف إذا كان للرجل حسنات عظيمة يرجى له بها المغفرة مع ظلمه [ثم ذكر حسنات يزيد بن معاوية] (١) .

« والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات ، وطاعات ومعاصي ، وبر وفجور وشر ، فيثيبه الله على حسناته ، ويعاقبه على سيئاته إن شاء ، أو يغفر له ، ويُحب ما فعله من الخير ويبغض ما فعله من الشر » (٢) .

وموجب العدل من مقتضى نصوص الكتاب والسنة في الثواب والعقاب ، واعتبار الموازنة والمقابلة في الجزاء : أن الكبيرة إذا كان معها حسنات كثيرة عظيمة فلا يستحق صاحبها الوعيد وهو الأصح ،وإذا ارتبط فعل الحسنة الراجحة بفعل سيئة دونها في العقاب ، فهل تفعل أو تترك وهذا يحدث كثيراً في حياة الولاة وأهل الرياسات ويحدث لغيرهم ، يقول ابن تيمية : هذه المسألة لها صورتان« الأولى » :إذا لم يمكن إلا ذلك ، فهنا لا يبقى سيئة ، فإن ما لا يتم الواجب أو المستحب إلا به فهو واجب ، أو مستحب . ثم إن كان مفسدته دون تلك المصلحة لم يكن محظوراً كأكل الميتة للمضطر ، ونحو ذلك من الأمور المحظورة التي تبيحها الحاجات .

فإن كثيراً من الناس يستشعر سوء الفعل ، ولا ينظر إلى الحاجات المعارضة له التي يحصل بها من ثواب الحسنة ما يربو على ذلك ، بحيث يصير المحظور مندرجاً في المحبوب ، أو يصير مباحاً إذا لم يعارضها إلا مجرد الحاجة ، كما أن من الأمور المباحة ، بل والمأمور بها إيجاباً ، أو استحباباً : ما يعارضها مفسدة راجحة تجعلها محرمة أو

---

(١) الفتاوى ٤/٤٧٣ ، ٤٧٤ . (٢) الفتاوى ٤/٤٧٥ .

مرجوحة ، كالصيام للمريض ...

وعلى هذا الأصل يبنى جواز العدول أحياناً عن بعض سنة الخلفاء ، كما يجوز ترك بعض واجبات الشريعة ، وارتكاب بعض محظوراتها للضرورة ، وذلك فيما إذا وقع العجز عن بعض سنتهم ، أو وقعت الضرورة إلى بعض ما نهوا عنه ، بأن تكون الواجبات المقصودة بالإمارة لا تقوم إلا بما مضرته أقل ، وهكذا « مسألة الترك » كما مر من قبل ، وتبين أنه لا يخالفه إلا أهل البدع ونحوهم من أهل الجهل والظلم .

« والصورة الثانية » إذا كان فعل الحسنات بلا سيئة ، لكن بمشقة لا تطيعه نفسه عليها ، أو بكراهة من طبعه بحيث لا تطيعه نفسه إلى فعل تلك الحسنات الكبار المأمور بها إيجاباً ، أو استحباباً ، إن لم يبذل لنفسه ما تحبه من بعض الأمور المنهي عنها ، التي إثمها دون منفعة الحسنة .

فهذا القسم واقع كثيراً في أهل الإمارة ، والسياسة ، والجهاد ، وأهل العلم ، والقضاء ، والكلام ، وأهل العبادة ، والتصوف ، وفي العامة . مثل من لا تطيعه نفسه إلى القيام بمصالح الإمارة – من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود – وأمن السبل ، وجهاد العدو ، وقسمة المال – إلا بحظوظ منهي عنها ، من الاستئثار ببعض المال ، والرياسة على الناس ، والمحاباة في القسم ، وغير ذلك من الشهوات . وكذلك في الجهاد: لا تطيعه نفسه على الجهاد إلا بنوع من التهور ...

فهذا القسم كثر في دول الملوك ، إذ هو واقع فيهم ، وفي كثير من أمرائهم وقضاتهم ، وعلمائهم وعبادهم ، أعني أهل زمانهم ، وبسببه نشأت الفتن بين الأمة .

فأقوام نظروا إلى ما ارتكبوه من الأمور المنهي عنها ، فذموهم ، وأبغضوهم ، وأقوام نظروا إلى ما فعلوه من الأمور المأمور بها ، فأحبوهم .

ثم الأولون ربما عدوا حسناتهم سيئات ، والآخرون ربما جعلوا سيئاتهم حسنات ، «فالتحقيق » أنّ الحسنات : حسنات ، والسيئات : سيئات وهم خلطوا عملاً صالحاً ، وآخر سيئا ، وحكم الشريعة أنهم لا يؤذن لهم فيما فعلوه من السيئات ، ولا يؤمرون به . ولا يجعل حظ أنفسهم عذراً في فعلهم ، إذا لم تكن الشريعة عذرتهم ، لكن يؤمرون بما فعلوه من الحسنات ويحضون على ذلك ، ويرغبون فيه ، وإن علم أنهم لا يفعلونه إلاّ بالسيئات المرجوحة ، كما يؤمر الأمراء بالجهاد ، وإن علم أنهم لا يجاهدون إلا بنوع من الظلم الذي تقل مفسدته بالنسبة إلى مصلحة الجهاد .

ثم إذا علم أنهم إذا نهوا عن تلك السيئات تركوا الحسنات الراجحة الواجبة لم ينهوا عنها – لما في النهي من مفسدة ترك الحسنات الواجبة ، إلا أن يمكن الجمع بين الأمرين ، فيفعل حينئذٍ تمام الواجب . كما كان عمر بن الخطاب يستعمل من فيه فجور، لرجحان المصلحة في عمله ، ثم يزيل فجوره بقوته وعدله .

ويكون ترك النهي عنها حينئذٍ : مثل ترك الإنكار باليد ، أو بالسلاح إذا كان فيه مفسدة راجحة على مفسدة المنكر ، فإذا كان النهي مستلزماً في القضية المعنية لترك المعروف الراجح ، كان بمنزلة أن يكون مستلزماً لفعل المنكر الراجح ،كما إذا أسلم بعض الملوك المسلطين وهو يشرب الخمر ، أو يفعل بعض المحرمات ، ولو نهي عن ذلك ارتد عن الإسلام .

ففرق بين ترك العالم أو الأمير لنهي بعض الناس عن الشيء إذا كان في النهي مفسدة راجحة ، وبين إذنه في فعله ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال .

ففي حال أخرى يجب إظهار النهي : إما لبيان التحريم ، واعتقاده ، والخوف من فعله ، أو لرجاء الترك ، أو لإقامة الحجة بحسب الأحوال . ولهذا تنوع حال النبي صلى الله عليه وسلم في أمره ونهيه ، وجهاده ، وعفوه ، وإقامته الحدود ، وغلظته ، ورحمته » (١) .

رابعاً : الولاة المعتقدون للبدع والمدافعون عنها :

وإذا اعتقد الأئمة بدعة غليظة كبدعة الجهمية بقولهم : « إنَّ القرآن مخلوق »، ودعوا لذلك ووالَوْا وعادوا وقرَّبوا وأبعدوا وأثابوا وعاقبوا بموجب ذلك ، فإنه يرى ألاَّ نقف معهم إلاَّ كما وقف الإمام أحمد رضي الله عنه من الأئمة إبَّان امتحانه بخلق القرآن . وفي هذه القضية « موقف الدعاة والعلماء من الأئمة إذا أصبحوا دعاة للبدع المغلظة أو مدافعين عنها » يقول رحمة الله : « ... فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وأنَّ الله لا يرى في الآخرة ، وغير ذلك ، ويدعون الناس إلى ذلك ويمتحنونهم ، ويعاقبونهم ، إذا لم يجيبوهم ، ويكفِّرون من لم يجبهم حتى أنَّهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقرّ بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وغير ذلك ، ولا يولون متولياً ولا يعطون رزقاً من بيت المال إلاَّ لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد – رحمه الله تعالى – ترحم عليهم واستغفر لهم ، لعلمه بأنهم لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول ، ولا جاحدون لما جاء به ، ولكن تأولوا

(١) الفتاوى ٢٨/٣٥ .

فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك » (١) .

خامساً : الجهاد مع الولاة الفساق والظلمة :

ويرى ابن تيمية كما هو مذهب الجمهور الجهاد مع الأئمة حتى ولو كانوا فجاراً وفساقاً وظلمة ، « وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وقالوا : يغزى مع كل أمير برّاً كان أو فاجراً إذا كان الغزو الذي يفعله جائزا ، فإذا قاتل الكفار أو المرتدين أو ناقضي العهد أو الخوارج قتالاً مشروعاً قُوتل معه ، وإن قاتل قتالاً غير جائز لم يقاتل معه فيعاون على البر والتقوى ، ولا يعاون على الإثم والعدوان ، كما أن الرجل يسافر مع من يحج ويعتمر ، وإن كان في القافلة من هو ظالم .

فالظالم لا يجوز أن يعاون على الظلم لأن الله تعالى يقول حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ (٤) ، والشفيع : المعين ، فكل من أعان شخصاً على أمر فقد شفعه فيه فلا يجوز أن يُعان أحد: لا ولي أمر ولا غيره على ما حرمه الله ورسوله . وأما إذا كان للرجل ذنوب . وقد فعل برّاً ، فهذا إذا أعين على البر لم يكن هذا محرما ، كما لو أراد مذنب أن يؤدي زكاته ، أو يحج أو يقضي ديونه ، أو يرد بعض ما عنده من المظالم ، أو يوصي على بناته فهذا إذا أعين عليه فهو إعانة على بر وتقوى ، ليس إعانة على إثم وعدوان، فكيف بالأمور العامة ؟

والجهاد لا يقوم به إلا ولاة الأمور ، فإن لم يغز معهم ، لزم أنَّ أهل الخير الأبرار لا يجاهدون ، فتفتر عزمات أهل الدين عن الجهاد ، فإما أن يتعطل ، وإما أن ينفرد به الفجار ، فيلزم من ذلك استيلاء الكفار ، أو ظهور الفجّار ، لأن الدين لمن قاتل عليه .

وهذا الرأي من أفسد الآراء ، وهو رأي أهل البدع من الرافضة والمعتزلة وغيرهم . حتى قيل لبعض شيوخ الرافضة : « إذا جاء الكفار إلى بلادنا فقتلوا النفوس وسبوا الحريم وأخذوا الأموال هل نقاتلهم ؟ فقال : لا ، المذهب أنا لا نغزو إلا مع المعصوم .

---

(١) الفتاوى ٣٤٨/٢٣ ، ٣٤٩ .
(٢) سورة القصص آية (١٧) .
(٣) سورة هود آية (١١٣) .
(٤) سورة النساء آية (٨٥) .

فقال ذلك المستفتي مع عاميته : والله إن هذا لمذهب بخس ، فإن هذا المذهب يفضي إلى فساد الدين والدنيا .

وصاحب هذ القول تورّع فيما يظنه ظلما ، فوقع في أضعاف ما تورّع عنه بهذا الورع الفاسد ، وأيّد ظلم بعض ولاة الأمور من استيلاء الكفار ، بل من استيلاء من هو أظلم منه ؟ فالأقل ظلماً ينبغي أن يُعاوَن على الأكثر ظلماً ، فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان ، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين حتى يقدم عند التزاحم خير الخيرين ويدفع شر الشرين .

ومعلوم أنّ شر الكفار والمرتدين والخوارج أعظم من شر الظالم ، وأمّا إذا لم يكونوا يظلمون المسلمين ، والمقاتل لهم يريد أن يظلمهم فهذا عدوان منه ، فلا يُعاون على العدوان » [1] .

---

(١) منهاج السنة ٦ / ١١٦ ـ ١١٨.

المبحث الخامس

منهجه الأخلاقي في التعامل مع أهل البدع والمنكرات

المطلب الأول : نظرته إلى أهل البدع والمنكرات :

من الأصول عند أهل السنة والجماعة أن الدين قول اللسان والقلب وعمل القلب واللسان والجوارح ، والإيمان يزيد وينقص ، والعبد له قدرة ومشيئة وعمل ، وهو مختار مريد ولا يسمونه مجبوراً ، والله خالقه وخالق اختياره . وأهل السنة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق الذنوب والمعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج ، ويثبتون أخوة الإيمان للعصاة . وفساق أهل الملة مؤمنون لا يخرجون من الإيمان بالكلية ، ولا يخلدون في النار كما تقوله المعتزلة ، وقد لا يدخل في مطلق الإيمان ، يقولون : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الاسم (١) .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن المرء يجتمع فيه ما يثاب عليه ويحب من أجله وما يعاقب عليه ويبغض من أجله ،« ولامنافاة بين أن يكون الشخص الواحد يحرم ويحب من وجه ، ويعذب ويبغض من وجه آخر ، ويثاب من وجه ويعاقب من وجه ، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الشخص الواحد يجتمع فيه الأمران خلافاً لما يزعمه الخوارج ونحوهم من المعتزلة » . « قالوا بخلود أهل التوحيد بالنار ومن استحق العذاب لا يستحق الثواب » (٢) .

وابن تيمية ملتزم بمنهج أهل السنة والجماعة في حق المبتدعة والمخطئين من أهل القبلة في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية ، وهذا واضح من قوله: « فتعلمون أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير ، وتفسيق ومعصية ، وإلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخرى ، وعاصياً أخرى . وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها ، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية .

وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم

---

(١) انظر الفتاوى ٣/١٥١ ، وانظر ص ٣٧٤ ، الفتاوى ٢٣/٣٤٥ ، وانظر الفتاوى ١٥/٢٩٤ .
(٢) الفتاوى ١٥/٢٩٤ .

على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية ، - ثم ذكر أمثله منها أن شريحاً (١) : أنر على من قرأ ﴿ بل عجبتُ ويسخرون ﴾ ،وقال : إن الله لا يعجب ، ورد عليه إبراهيم النخعي بقراءة عبد الله « بل عجبتُ » .

وعائشة وغيرها من الصحابة نازعت في رؤية محمد صلى الله عليه وسلم ربه قائلة: إن هذا فرية عظيمة ، ونازعت في سماع الميت كلام الحي ، وفي تعذيب الميت ببكاء أهله .

وكنت أبيّن لهم أنما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهذا أيضاً حق ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين ، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة « الوعيد »، فنصوصه بالقرآن مطلقة كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ﴾ (٢) الآية ، وكذلك سائر ما ورد : من فعل كذا فله كذا فإن هذه مطلقة عامة . ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه : بتوبة أو حسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة » (٣) .

ولا يجوز تكفير المسلم بالذنب (٤) والخطأ الذي أخطأ فيه ما لم يستحله . والخوارج ثبت ضلالهم بالنص والإجماع وقاتلهم الإمام علي بن أبي طالب لدفع شرهم وظلمهم لا لكفرهم .

فإذا كان الحال مع هؤلاء كذلك فعدم تكفير طوائف المسلمين المختلفين بعضهم لبعض أولى وأوجب ، خصوصاً أن المسائل التي اختلفوا فيها اشتبه عليهم الحق فيها ، كما أن الغلط فيها سبقهم إليه من هو أعلم منهم وأكثر تحرياً للسنة . فإذا كان في طائفة من طوائف المسلمين بدعة محققة فلا يحق لفرد أو طائفة أو جماعة أن تكفرها ، أو تستحل دمها ومالها ، ويزداد المنع من ذلك إذا كانت الطائفة المكفرة والمستحلة مبتدعة أيضاً ،وغالباً ما يحدث هذا الفعل من طائفتين مبتدعتين ، « وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ،

---

(١) هو : شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر الكندي أبو أمية القاضي ويقال : شريح بن شرحبيل ، ويقال : ابن شراحيل ، استقضاه عمر على الكوفة ، وأقام على القضاء بها ستين سنة ، وقضى بالبصرة سنة . ممن روى عنه الشعبي وابن سيرين وإبراهيم النخعي قال أبو نعيم : مات سنة ٧٢هـ زمن مصعب بن الزبير وفي الطبقات : توفي سنة ٧٦هـ .انظر : تهذيب التهذيب ٤٩١/٢ ، طبقات ابن سعد ١٣١/٦ - ١٤٤ .

(٢) سورة النساء آية (١٠) .

(٣) الفتاوى ٢٢٩/٣ ، مع قليل من الاختصار .

(٤) انظر الفتاوى ٣٠٧/٤ .

والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق ما يختلفون فيه» [(١)] .

والتكفير إذا حدث بين طائفتين مسلمتين أو أفراد مسلمين بتأويل فلا يكفرون به ، وقد حدث مثل ذلك بين الصحابة أفراداً وطوائف ولم يكفر بعضهم بعضاً ، كما حدث بين عمر وحاطب [(٢)] ، وأسيد [(٣)] وسعد من الاتهام بالنفاق ، وكذلك القتال في الجمل وصفين ، فمع كل ذلك كان « ... يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين ... ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، ... فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم ، وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك . وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها » [(٤)] .

وأهل البدع والمنكرات والمفسدون في الأرض من الدعاة إلى باطلهم خطر على الأمة في عقائدها وعباداتها ومنهاج حياتها ، فترك الإنكار عليهم وكشف حالهم منكر تعاقب الأمة بسببه . وإذا تُركوا اغتر بهم الناس وخالطوهم وتأثروا بباطلهم ، وتمكنوا من نشر بدعهم وضلالهم . وتعذر على الجاهل معرفة من هم أهل الحق الذين يقتدى بهم كما قال الإمام أحمد بن حنبل لما قال له بعضهم : « إنه يثقل علي أن أقول فلان كذا ، وفلان كذا ، فقال : إذا سكتَ أنت وسكتُ أنا فمتى يَعرفُ الجاهلُ الصحيحَ من المستقيم » [(٥)] .

« وإذا كان الرجل يترك الصلوات ، ويرتكب المنكرات ، وقد عاشره من يخاف أن يفسد دينه ،بُين أمره له لتتقى معاشرته ،وإذا كان مبتدعاً يدعو إلى عقائد تخالف الكتاب والسنة أو يسلك طريقاً يخالف الكتاب والسنة ويخاف أن يضل الرجل الناس بذلك بيّن أمره الناس ـ ليتقوا ضلاله ويعلموا حاله ... » [(٦)] . وبيان حال دعاة الضلالة من المروجين للبدع من أهل المقالات والعبادات المخالفة للشرع من الواجبات باتفاق المسلمين ، والاشتغال بهذا أفضل من الاشتغال بنوافل العبادات ،« قيل لأحمد بن

---

(١) الفتاوى ٢٨٢/٣ .

(٢) هو : حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب اللخمي ، حليف بني أسد بن عبدالعزى شهد بدراً ، وكان من أهل اليمن حليفاً للزبير وشهد كذلك الحديبية .. وكان من فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها .. وفيه نزل قوله : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾** أول الممتحنة ،توفي في خلافة عثمان سنة ٣٠هـ . انظر الإصابة ١٩٣/٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٣/٢ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٥٣) .

(٤) الفتاوى ٢٨٢/٣ .

(٥) الفتاوى ٢٣١/٢٨

(٦) الفتاوى ٢٢٠/٢٨ ، ٢٢١ .

حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك ، أو يتكلم في أهل البدع ؟ فقال : إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه ، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل. فبيّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم ، ومن جنس الجهاد في سبيل الله ، إذ تطهير سبيل الله ودينه ، ومنهاجه وشرعته ، ودفع بغي هؤلاء عدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين ، وكان فساده أعظم من فساد وابتلاء العدو من أهل الحرب ، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً ، أما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :(إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[1] . ودين أهل الكتاب فسد حينما غير وبدل من قبل أصحاب الأهواء والمنافقين ولم ينكر عليهم ، وهكذا يكون في أمة محمد إذا ترك المنافقون ينشرون بدعهم المخالفة للكتاب والسنة ، يلتبس على الناس الحق فيضلوا عنه فيفسد الكتاب . ويمنع أيضاً من سمع شبهات المنافقين والتبس عليه الأمر فظنها حقاً وأخذ يدعو اليها مغتراً بأهلها، فإذا لم يمتنع فلا بد من كشف حاله للناس لأن الافتتان بهؤلاء أعظم من المنافقين من أجل أن « ... فيهم إيماناً يوجب موالاتهم ، وقد دخلوا في بدع من بدع المنافقين التي تفسد الدين ، فلا بد من التحذير من تلك البدع وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم »[2] .

ويفعل ذلك أيضاً بمن اعتقد بدعة أو دعا إليها ولو لم يكن تلقاها من المنافقين بل أخذها يظنها الحق والهدى والدين « ولهذا وجب بيان حال من يغلط في الحديث والرواية ، ومن يغلط في الرأي والفتيا ، ومن يغلط في الزهد والعبادة وإن كان المخطئ المجتهد مغفوراً له خطؤه ، وهو مأجور على اجتهاده ، فبيان القول والعمل الذي دل عليه الكتاب والسنة واجب ، وإن كان في ذلك مخالفة لقوله وعمله »[3] .

وهؤلاء المذنبون والعصاة والمجرمون وأمثالهم من الفسقة والظلمة هم في نظر ابن تيمية مرضى يستحقون العطف والرحمة ويستحقون أن تبذل الجهود لعلاجهم من أدوائهم حتى يشفوا ، وليس من الرحمة بهم أن يمكنوا من فعل ما يهوونه من الشهوات المحرمة والشبهات المضلة ، أو ترك الطاعات التي تزيل مرضهم وتخفف آلامهم .

---

(١) رواه مسلم كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ١٩٨٦/٤ ، ١٩٨٧، رقم الحديث ٢٥٦٤ .

(٢) الفتاوى ٢٣٢/٢٨ .

(٣) الفتاوى ٢٣٢/٢٨ ، ٢٣٣ .

والمريض إذا اشتهى ما يضره منع منه ، وإذا امتنع عن تناول ما ينفعه أجبر عليه ، ولا يُظن أن تمكينه مما يشتهيه من المحرم يكون دواؤه وإن حصل له به لذة وسكون بلاء ، فما يعقب ذلك هو أشد من الأول حيث يصبح ذلك « مرضاً عظيماً عسيراً لا يتخلص منه ، بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء الذي ترامى به إلى الهلاك والعطب ... » (١) .

قال رحمه الله : « ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب ، فإن الشهوة توجب السكر ، كما قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) »(٣) . وذكر الحديث الذي فيه زنى الجوارح :(العينان تزنيان وزناهما النظر ...) (٤) . ومنهم من يرتقي إلى منكر أعلى من المذكور في الحديث ، وكل ذلك حرام وقد نهانا الله عز وجل أن تأخذنا بالزناة رأفة بل نقيم عليهم الحد فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك ؟ ! بل ينبغي شنآن الفاسقين وقليهم ، ليمنعوا من فوقهم ويقلعوا عن معاصيهم وهذا من باب الرحمة بهم، « وذلك أن المحب العاشق وإن كان إنما يحب النظر والاستمتاع بصورة ذلك المحبوب وكلامه ، فليس دواؤه في أن يعطي نفسه محبوبها وشهوتها من ذلك ، لأنه مريض ، والمريض إذا اشتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه فأخذتنا رأفة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعناه على ما يضره أو يهلكه وعلى ترك ما ينفعه ، فيزداد سقمه فيهلك .

وهكذا المذنب العاشق ونحوه هو مريض ، فليس الرأفة به والرحمة أن يمكن مما يهواه من المحرمات ، ولا يعان على ذلك ، ولا أن يمكن من ترك ما ينفعه من الطاعات التي تزيل مرضه، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (٥) أي فيها الشفاء وأكبر من ذلك . بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهاً ، مثل الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات ، وأن يُحمى عما يقوي داءه ويزيد علته وإن اشتهاه » (٦) .

---

(١) الفتاوى ٢٨٩/١٥ ، ٢٩٠ . (٢) سورة الحجر آية (٧٢) . (٣) الفتاوى ٢٨٨/١٥ .

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة كتاب القدر ، باب قدر على ابن آدم حظه من الزني ، صحيح مسلم ٢٠٤٧/٤ .

(٥) سورة العنكبوت آية (٤٥) . (٦) الفتاوى ٢٨٨/١٥ ، ٢٨٩ .

« ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر وأخف من ألم المرض الباقي » [1] .

وعلاج هؤلاء يكون بأمور منها :

أولاً : منعهم من المنكرات ، من الشهوات المحرمه والأهواء المضلة .

ثانياً : إعطاؤهم من الأدوية النافعة وهي العبادات المشروعة .

ثالثاً : إجراء العقوبات الشرعية عليهم من الهجر في المجالسة والكلام ، ومن إظهار أمرهم لدى الناس ،إلى ما هو أعظم من ذلك بإيقاع الحدود الشرعية عليهم .

والعقوبات الشرعية وإن كان ظاهرها الشدة والقسوة إلا أن مؤداها ومآلها النفع في الدين والدنيا ، فهي رحمة ورأفة وليست قوة وعنف ، يقول رحمه الله :« العقوبات الشرعية كلها أدوية نا فعة يصلح بها الله مرضى القلوب ، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم ، الداخلة في قوله تعالى :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [2] ، فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه ، وإن كان لا يريد إلا الخير ، وإذ هو في ذلك جاهل أحمق ، كما يفعله بعض النساء والرجال الجهال بمرضاهم ، وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ، ويتركونه من الخير رأفة بهم ، فيكون ذلك سبب فسادهم ، وعداوتهم ، وهلاكهم ... » [3] .

والدافع لإجراء العقوبات والإجراءات العلاجية والوقائية من الفواحش والمنكرات هو :

بغض القلب لها من أجل الله « فمن لم يكن مبغضاً للفواحش كارهاً لها ولأهلها ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها لم يكن مريدا للعقوبة عليها ، فيبقي العذاب عليها يوجب ألم قلبه ، قال تعالى: ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [4] ، فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ، ما لم تكن مضيعة لدين الله . » [5] .

المطلب الثاني : منهجه في هجر أصحاب البدع والمنكرات :

يرى ابن تيمية أن الهجر أسلوب من أساليب الدعوة التي تمثل نوعاً من الضغط النفسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي على المهجور ليحس بأن ما فعله أمر غير مرغوب

---

(١) الفتاوى ١٥/٢٩٠ . (٢) سورة الأنبياء آية (١٠٧) .
(٣) الفتاوى ١٥/٢٩٠ . (٤) سورة النور آية (٢) . (٥) الفتاوى ١٥/٢٩١ .

فيه شرعياً واجتماعياً ، وأنه أصبح في المجتمع نشازاً ومصدر أذى .

فالـهجر إذن ليـس مقصـوداً لذاته وإنما هـو إجراء علاجـي تأديبـي لمنع المخطئ من مقارفـة خطئه ومنع الـعامة من الاقتـداء به ، فمتى تحقـقت هذه الغايـة بوجود الفيئـة منه كُف عن هجره . ويفعل من الهجر ما يحقق هذه الغاية بأقرب الطرق وأيسرها . أما إذا كان الهجر لا يحقق شـيئاً فإنه لا فائدة منه ، بل إذا كان يأتي بما يـضاد هذه الغاية حيث يزيـد المهجور فـساداً فإنه يمـتنع مـن فعله ، يـقول رحمـه الله :« فإذا كـان يحصل بـهذا الهجر حصول معروف أو اندفاع منكر فهي مشروعة ، وإن كان يحصل بها من الفساد ما يزيد على فساد الذنب فليست مشروعة » [1] .

ويقول رحمه الله مؤكداً على تحقيق المصلحة من الهجر بنوعيه :

« وما أمر به من هجر الـترك والانتهاء وهجر العقوبة والتعـزير ، إنما هو إذا لم يكن فيه مصـلحة دينية راجحة عـلى فعله ، وإلا فإذا كان في الـسيئة حسنة راجحـة لم تكن سيئـة ، وإذا كان في العـقوبة مفسـدة راجحة علـى الجريمة لم تكـن حسنة ، بـل تكون سيئة، وإن كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة .

فالهجران قـد يكون مقصوده ترك سيئـة البدعة التي هي ظلـم وذنب وإثم وفساد ، وقد يـكون مقصـوده فعل حسـنة الجهاد والـنهي عـن المنكر وعـقوبة الظـالمين لينـزجروا ويرتدعـوا وليقوى الإيمـان والعمل الـصالح عنـد أهله . فإن عـقوبة الظـالم تمنع الـنفوس ظلمه. وتحضها على فعل ضد ظلمه : من الإيمان والسنة ونحو ذلك .

فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء أحد ، بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مأمور بها ... » [2] .

وابن تيمية يقسم الهجر الشرعي إلى قسمين :

أحدها : بمعنى الترك للمنكرات .

« فإن النبي صلى الله عليه وسلـم قال :(المهاجر من هجر السيئات) [3] ، وقال :

---

(١) الفتاوى ٢١٦/٢٨ ، ٢١٧ .

(٢) الفتاوى ٢١١/٢٨ ، ٢١٢ .

(٣) حديث حسن عن أنس رضي الله عنه أخرجه أحمد في مسنده ١٥٤/٣ . وابن حبان في صحيحه ١٦ – موارد الظمآن ، كتاب الإيمان ، باب في الإسلام والإيمان ، بلفظ المهاجر من هجر السوء ، وهو ضمن حديث أوله « المؤمن من آمنه الناس ... » الخ .

(من هجر ما نهى الله عنه) [1] ، فهذا هجرة التقوى » [2] .

الثاني : بمعنى العقوبة عليها .

فالأول : فيه أن على المسلم هجر المنكرات والبدع والمعاصي وهجر أماكنها ، ومجالسها ، ولا يشهد القوم المجتمعين على هذه الأمور المخالفة للشرع إلا إذا كان لحاجة، كالإنكار ، أو الإشهاد ، أو كان مكرهاً على الحضور ، أو حضر لدفع شر أعظم عن دينه ونفسه وماله وأهله وغير ذلك .

وهذا هو ما ذكره الله في قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ – إلى قوله : – ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [3] ، وقوله: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [4] ، وقوله: ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [5] ، وقوله :﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [6] » [7] .

النوع الثاني : الهجر على وجه التأديب ، وهو هجر من يظهر المنكرات يهجر حتى يتوب منها ، كما هجر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون : الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم ، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ، ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقا ، فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود .

والتعزير : يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك الصلاة والزكاة، والتظاهر بالمظالم والفواحش ، والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع » [8] .

وهذا الهجر لا بد فيه من مراعاة حال الهاجر والمهجور من أجل انتفاء الضرر

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، كتاب الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي ، فتح الباري ٣١٦/١١ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٠٣/٢٨ ، ٢١٦ ، ٢١١ .

(٣) سورة الأنعام آية (٦٨ ، ٦٩) .

(٤) سورة النساء آية (١٤٠) .

(٥) سورة المزمل آية (١٠) .

(٦) سورة المدثّر آية (٥) .

(٧) انظر الفتاوى ٢٠٣/٢٨ ، ٢١٦ ، ٢٨٦/١٥ ص٢٢١ ، ٢٣٩ .

(٨) الفتاوى ٢٠٣/٢٨ ، ٢٠٤ . وانظر ص ١٨٢ .

وجلب النفع . فمن حيث الهاجر يلزمنا النظر إلى حاجة المهجورين ، وقدرته على الهجر وما يترتب عليه ، وعدم تضرره في دينه أو دنياه أو تضرر أحد من أتباعه وأقاربه .

والمهجورون من حيث قلتهم وكثرتهم ، وثمرة هذا الهجر فيهم ، فلو كان الهاجرون في مدينة يكثر أهل المنكرات والبدع فيها والقيام بهجرهم لا يحقق المراد ، وإنما يضر بالهاجرين في دينهم أو دنياهم أو هما معاً « فلهذا اختلف حكم الشرع في نوعي الهجرتين بين القادر والعاجز وبين قلة نوع الظالم المبتدع وكثرته وقوته وضعفه ، كما يختلف الحكم بذلك في سائر أنواع الظلم » (١) .

ويقول رحمه الله في هذه المعاني : « وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم ، فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله . فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً ، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك ، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف ، بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته ، لم يشرع الهجر ، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر .

والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف ؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتألف قوماً ويهجر آخرين ، كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيراً من أكثر المؤلفة قلوبهم ، لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرهم ، فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم ، وهؤلاء كانوا مؤمنين ، والمؤمنون سواهم كثير ، فكان في هجرهم عز الدين ، وتطهيرهم من ذنوبهم ، وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة ، والمهادنة تارة ، وأخذ الجزية تارة ، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح .

وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل ؛ ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع ، كما كثر القدر في البصرة ، والتنجيم بخراسان ، والتشيع بالكوفة ، وبين ما ليس كذلك ، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم (٢) .

ذكر الإمام أحمد رحمه الله « عن أهل خرسان إذ ذاك : أنهم لم يكونوا يقوون بالجهمية ، فإذا عجزوا عن إظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة ، وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن الضعيف ،ولعله أن يكون فيه تأليف الفاجر القوي.

---

(١) الفتاوى ٢١١/٢٨ .   (٢) الفتاوى ٢٠٦/٢٨ - ٢٠٧ .

وكذلك لما كثر القدر في أهل البصرة ، فلو ترك رواية الحديث عنهم لاندرس العلم والآثار المحفوظة فيهم .

فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك الواجب ، كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيراً من العكس » (١) .

ولوجود عدد من النصوص الشرعية النبوية ونصوص العلماء تأمر بهجر أصحاب المنكرات والمخالفات الشرعية عموماً ، فإن ابن تيمية كعادته في الوضوح والاحتراز من الغلط في فهم الأحكام فإنه ينبه إلى أمر مهم جداً بخصوص « الهجر » وأن الكلام في مسائله لابد من التفصيل والتفريق بين الأمور العامة والقضايا المعينة ، وكان الأئمة كأحمد وغيره متفطنين لذلك ؛ لذا كان كثير من أجوبته « وغيره من الأئمة ، خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله ، أو خرج خطابا لمعين قد علم حاله ، فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يثبت حكمها في نظيرها . فإن أقواماً جعلوا ذلك عاماً فاستعملوا من الهجر والإنكار مالم يؤمروا به ، فلا يجب ولا يستحب ، وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات . وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية ، فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية ، بل تركوها ترك المعرض لا ترك المنتهي الكاره ، أو وقعوا فيها ، وقد يتركونها ترك المنتهي الكاره ، ولا ينهون عنها غيرهم ، ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها ، فيكون قد ضيعوا من النهي عن المنكر ما أمروا به إيجاباً أو استحباباً ، فهم بين فعل المنكر أو ترك النهي عنه ، وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به فهذا هذا . ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه . والله سبحانه أعلم » (٢) .

وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه ، وإذا عرف هذا، فالهجرة الشرعية ، هي من الأعمال التي أمر بها الله ورسوله ، فالطاعة لا بد أن تكون خالصة لله ، وأن تكون موافقة لأمره ، فتكون خالصة لله صوابا ، فمن هجر لهوى نفسه ، أو هجر هجراً غير مأمور به : كان خارجاً عن هذا ، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ، ظانة أنها تفعله طاعة لله (٣) .

وإذا كان الهجر عبادة يفعل من أجل الله وفق مراد الله ومراد رسوله صلى الله

---

(١) الفتاوى ٢١٢/٢٨ ، وانظر ص ٢١٠ .

(٢) الفتاوى ٢١٣/٢٨ . (٣) الفتاوى ٢٠٧/٢٨ .

عليه وسلم ، فإن الهجر لحظ الإنسان وحقه حرام ، وقد رخص في بعضه كما رخص للزوج أن يهجر امرأته في المضجع إذا نشزت، وكما رخص في هجر الثلاث ، كما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) (١) .

« فينبغي أن يفرق بين الهجر لحق الله ، وبين الهجر لحق نفسه ، فـ (الأول) مأمور به ، و (الثاني) منهي عنه ... لأن الهجر من « باب العقوبات الشرعية » فهو من جنس الجهاد في سبيل الله ، وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله » (٢) .

وحتى لا يلتبس الأمر فيقع بين المسلمين التهاجر والتعادي وترك الموالاة والتناصر بسبب الظلم فيما بينهم ، فإن ابن تيمية يقرر أن وقوع الظلم من مسلم على مسلم لا يقطع الموالاة الإيمانية ، ويستدل بقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ – إلى قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٣) ، فأثبت لهم أخوة الايمان مع ما حصل بينهم من القتال والبغي (٤) .

« فليتدبر المؤمن الفرق بين هذين النوعين – الهجر لحق الله والهجر لحق النفس – فما أكثر ما يلتبس أحدهما بالآخر ، وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك ، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن اليك » (٥).

وقد يكون ممن وقع في البدع من أهل الأهواء مجتهداً فلا يعني هذا أنه آثم وقد ذكر ابن تيمية « أن قول كل مجتهد مصيب أي لا يأثم أنه قول عامة الأئمة كأبي حنيفه والشافعي وغيرهما ، ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ، ومن ردها كمالك وأحمد فليس ذلك مستلزماً لإثمهما ، لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة ، فإذا هجر ولم يصل خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعاً له من إظهار البدعة .

---

(١) متفق عليه من حديث أبي أيوب الأنصاري ، أخرجه البخاري كتاب الأدب ، باب الهجرة ، فتح الباري ٤٩٢/١٠ . ومسلم كتاب البر والصلة ، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي ، صحيح مسلم ١٩٨٤/٤ .

(٢) الفتاوى ٢٠٨/٢٨ .

(٣) سورة الحجرات آية (٩ ، ١٠) .

(٤) انظر الفتاوى ٢٠٨/٢٨ ، ٢٠٩ ، وانظر ٩٤/٣٥ ، ٦١٧/١١ .

(٥) الفتاوى ٢٠٩/٢٨ .

ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة والمظهر لها وغيره ، وكذلك قال الخرقي(١): ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكر أعاد» (٢) .

وابن تيمية وغيره من علماء السلف يفرقون في التعامل مع أصحاب البدع والمنكرات بين الداعي إليها وغير الداعي ، وبين المسر المستخفي والمعلن المظهر ، يقول عن السلف : « ولهذا يفرقون بين الداعية ، وغير الداعية لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة ، بخلاف الكاتم فإنه ليس شراً من المنافقين الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع علمه بحال كثير منهم » (٣) .

فمن لم يدع ويلعن فإن هذا ينكر عليه سراً ويزجر عن فعله ويستر عليه ، قال رحمه الله بعد أن ذكر المجاهرة بعقوبة المجاهر :« بخلاف من كان مستتراً بذنبه مستخفياً فإن هذا يستر عليه ، لكن ينصح سراً ، ويهجره من عرف حاله حتى يتوب ، ويذكر أمره على وجه النصيحة »(٤).

ويخرج عن هذه القاعدة في حالين :

الأولى : إذا تعدى ضرر المسر المستخفي إلى غيره فإن « ... المتعدي لا بد من كف عدوانه » (٥) .

الثانية : إذا نُهي سراً فلم ينته ولم يقلع عن فساده وانحرافه « فعل ما ينكف به من هجر وغيره إذا كان ذلك أنفع في الدين » (٦) .

وهذا يؤكد علمنا بأن الإسلام يريد المحافظة على مشاعر المسلمين وكرامتهم وسمعتهم ، ولأن الرجل مادام يحرص على سلامة ذلك فإن هذا حالة من الحياء تعين على استقامته . فإذا أعلن أمره وفضح سره وهتك ستره ذهبت كرامته مما قد يجرئه أكثر ويجعله يقدم على ما لم يكن يقدم عليه قبل ذلك ، إما لذهاب الحياء ، وإما للانتقام أو لغير ذلك من الأهواء والشهوات .

والنبي صلى الله عليه وسلم أوصى بستر المسلم مادام مستتراً (لا يستر عبدٌ عبداً

---

(١) هو : عمرو بن الحسين بن عبدالله البغدادي ، الخرقي ، الحنبلي صاحب المختصر المشهور الذي شرحه ابن قدامة « المغني » ، كان والده من الأعيان تفقه على يديه .. قدم الخرقي دمشق ، وبها توفي سنة ٣٣٤هـ وقيل توفي ببغداد . انظر وفيات الأعيان ٤٤١/٣ ، سير أعلام النبلاء ٣٦٣/١٥ .

(٢) التفسير الكبير ٢٣١/١ .

(٣) الفتاوي ٢٠٣/٢٨ وانظر ١٨٢ ، ٢٨٦/١٥ .

(٤) الفتاوى ٢٢٠/٢٨ .

(٥) الفتاوى ٢١٧/٢٨ .

(٦) الفتاوى ٢١٧/٢٨ .

في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة) [1] .

ومن دعا إلى البدعة وأظهر المنكرات كـ « أن يكون الرجل مظهراً للفجور ، مثل الظلم والفواحش والبدع المخالفة للسنة » ،« ... أو كلام قبيح يدل السامع له على فجور قلب قائله ...» [2] .

فإنه يجب الإنكار عليه علانية وأن يهجر ويذم على ذلك ويذكر باسمه وحاله، ويمكن وصفه ببعض الصفات التي تبين حاله وتردع عن فعاله خصوصاً أهل البدع .

يقول رحمه الله عن الجهمية المجبرة :« ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر الحمر المستنفرة التي تنفر من الرماة ومن الأسد ، ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا ، وكان الشيخ إبراهيم بن معضاد يقول لمن رآه من هؤلاء كاليونسية والأحمدية : يا خنازير يا أبناء الخنازير ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة » [3] .

وقال :« فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة : مثل النهي عنها وعنهم ، والذم لها ولهم ، وذكر ما يبغضها وينفر عنها وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك ، وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبهم ، فهذا كله حسن ، يجب تارة ، ويستحب أخرى » [4].

وهذا المجاهر لا غيبة له لأنه ألغى جلباب الحياء ، ولأنه فاسق ،قال الحسن البصري: أترغبون عن ذكر الفاجر اذكروه بما فيه يحذره الناس » [5] . وقد روي مرفوعاً [6] . وإذا ألحق به عقوبة فيجب « أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره ، فلا يسلم عليه ولا يرد عليه سلام » [7] .

ولأن الفساد المعلن إذا لم ينكر فإنه يضر العامة كما جاء في الحديث :(إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة)، والنبي صلى الله عليه وسلم قال :(إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه). « وهذا الهجر هو حقيقة قول من قال من السلف والأئمة :إن الدعاة

---

(١) خرجه مسلم من حديث أبي هريرة . كتاب البر والصلة والآداب ٤٥ ، باب بشارة من ستر الله تعالى عليه في الدنيا ، بأن يستر عليه في الآخرة ٢١ ، رقم الحديث ٢٥٩٠ . صحيح مسلم ٢٠٠٢/٤ .

(٢) الفتاوى ٢١٩/٢٨ .

(٣) التفسير الكبير ٢٨/٢ .

(٤) الفتاوى ٣٣٣/١٥ .

(٥) الفتاوى ٣٠٠/١٥ ، ٢١٩/٢٨ ، ٢٢٠ .

(٦) الفتاوى ٢٨٦/٣٥ .

(٧) الفتاوى ٢١٨/٢٨ .

إلى البدع لا تقبل شهادتهم ولايصلى خلفهم ، ولا يؤخذ عنهم العلم ولا يناكحون ، فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا » (١) .

وإذا كانت الخطيئة ظاهرة وسترت كان ذلك إقراراً لها ، وعوناً على نشرها ومجالاً لجرأة الفساق والمجرمين والمبتدعين . و« لأنه لما أعلن استحق عقوبة المسلمين له، وأدنى ذلك أن يذم عليه ليزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته ، ولو لم يذم ويذكر بما فيه من الفجور والمعصية أو البدعة لاغتر به الناس ، وربما حمل بعضهم على أن يرتكب ما هو عليه ، ويزداد أيضاً جرأة وفجورا ومعاصياً ، فإذا ذكر ما فيه انكف ، وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته ومخالطته » (٢) .

فالمعلنون للبدع الداعون لها على ثلاث حالات :

الأولى : من « ... علم منه الاجتهاد السائغ فلا يجوز أن يذكر على وجه الذم والتأثيم له ، فإن الله غفر له خطأه ، بل يجب لما فيه من الإيمان والتقوى موالاته ومحبته والقيام بما أوجب الله من حقوقه من ثناء ودعاء وغير ذلك » .

الثانية : من « ... علم منه النفاق ، كما عرف نفاق جماعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن أبيّ وذويه ، وكما علم المسلمون نفاق سائر الرافضة : عبد الله بن سبأ وأمثاله : مثل عبد القدوس بن الحجاج (٣) ، ومحمد بن سعيد المصلوب (٤) ، فهذا يذكر بالنفاق .

الثالثة : من « ... أعلن بالبدعة ولم يعلم هل كان منافقاً أو مؤمناً مخطئاً ، ذكر بما يعلم منه ، فلا يحل للرجل أن يقفو ما ليس له به علم .. فمن تكلم في ذلك بغير علم أو بما يعلم خلافه كان آثما » (٥) .

وقد أمر الله بجهاد أعداء الدين – وهم الكفار والمنافقون – في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٦) في آيتين من القرآن (٧) .

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٠٣ ، وانظر ٢٢٠ .
(٢) الفتاوى ١٥/٢٨٥ ، ٢٨٦ .
(٣) لم أعثر له على ترجمة .
(٤) هو : محمد بن سعيد الأزدي المصلوب ، قال عنه الدارقطني : إنه متروك . صلبه أبو جعفر على الزندقة . انظر لسان الميزان ٥/١٧٥ – ١٧٤٦ ، وميزان الاعتدال ٣/٦٤ .
(٥) الفتاوى ٢٨/٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٦) سورة التوبة آية (٧٣) ، سورة التحريم آية (٩) .
(٧) انظر الفتاوى ٢٨/٢٣٢ .

وبكل ما تقدم تتفسر لنا مواقف ابن تيمية النقدية الجريئة من الطوائف والفرق ومن الأفراد فهو إنما كان يؤدي واجباً يرى أن فيه خيراً لهؤلاء وخيراً للأمة وفيه دفع شر عنهم وعن الأمة . فهو يرى أنه كان يقوم بدور الطبيب الذي يصرف الدواء الذي يكون به الشفاء من المرض والوقاية للآخرين من أن يصابوا به .

وكان واجباً لم يقم به غيره في وقته وقبل وقته، من قام به قام ببعض جوانبه والبعض الآخر ما زال في حاجة إلى كشف وبيان ،ولم يكن في كل هذا له غرض وقصد شخصي أو حزبي وإنما غرضه كما قال كثيراً وفي عدد من المواضع : أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله ، ومن منهجه في نقد الآخرين وأفكارهم أن يكون الميزان وحكم العدل « هو الكتاب والسنة » ،فما وافقها فهو المقبول من أي مصدر كان وماخالفها فهو المرفوض من أي مصدر كان ،فالحق أحق أن يتبع والواجب موالاة الموافقين ومحبتهم والإنكار على المخالفين اعتقاداً وعملاً مع محبة ما فيهم من الخير وبغض ما فيهم من مخالفة للسنة ، ولا بد من العمل على هدايتهم إلى الحق واتخاذ ما يحقق ذلك من الهجر لهم وإجراء بعض العقوبات الشرعية . وهذا داخل في الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى دينه ، ولا بد أن يكون مع هذا أسباب تهيء النفوس لقبوله والتأثر به ومن ذلك :

الإخلاص وحسن القصد في هذا التعامل ، والتجرد عن الأهواء وإرادة العلو في الأرض أو الفساد . ومجافاة الانتصار للذات وتضخيمها مع تحقير الآخرين والتعالي عليهم والتقليل من شأنهم وغمطهم حقوقهم من أجل إبراز الذات وتلميع الشخصيات أو إثبات أفضلية الأتباع والجماعات والأحزاب المنتمية إليه .

وابن تيمية رحمه الله كما أنه يلتزم ويلزم أن يكون الهجر والإنكار مبنياً على علم باستحقاق المهجور للهجر، فكذلك يلتزم ويلزم بـ « حسن النية ، فلو تكلم بحق لقصد العلو في الأرض أو الفساد كان بمنزلة الذي يقاتل حمية ورياء ، وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له الدين كان من المجاهدين في سبيل الله ، من ورثة الأنبياء خلفاء الرسل » (١) .

والغرض من كشف حال أهل البدع المخالفين للشرع وأصحاب المنكرات وعقوبتهم تحقيق أمرين :

١ - هداية هؤلاء إلى الحق .

(١) الفتاوى ٢٨/٢٣٥ ، وانظر ص٢٣٤ .

٢ – كفاية الأمة شرهم وضررهم .

لأن المسلم عموماً لا يكره هؤلاء كراهة أجساد وأبدان إنما يكره سلوكهم وأعمالهم المخالفة للشرع ، وما يتخذه من إجراء إنما هو بدافع حب الخير لهم لإنقاذهم من شر نفوسهم وشياطينهم ، فهذا الجهد الدعوي « يجب أن يكون على وجه النصح وابتغاء وجه الله تعالى ، لا لهوى الشخص مع الإنسان : مثل أن يكون بينهما عداوة دنيوية ، أو تحاسد ، أو تباغض ، أو تنازع على الرئاسة ، فيتكلم بمساويه مظهراً للنصح ، وقصده في الباطن الغض من الشخص واستيفاؤه منه ، فهذا من عمل الشيطان و (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) ، بل يكون الناصحُ مقصده أن الله يصلح ذلك الشخص وأن يكفي المسلمين ضرره في دينهم ودنياهم ، ويسلك في هذا المقصود أيسر الطرق التي تمكنه) (١) .

ويؤكد في كل أعمال المسلم وأخلاقه وحركاته في تغيير سلوك الأمة إلى المنهج الراشد ، وفي كل إجراء تربوي أن يكون ذلك خالصاً لله تعالى وأن يكون الهدف منه مصلحة الفرد والأمة في إطار الشرع ، لذا يقول أيضاً : « ... ويجب الإنكار على هذا المبتدع وأمثاله بحسن قصد ، بحيث يكون المقصود طاعة الله ورسوله ، لا اتباع الهوى ولا منافسة ولا غير ذلك ، قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (٢) » (٣). ويقول : « والواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ، ومعاداته تابعاً لأمر الله ورسوله ، ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات ، وما يعادي عليه من سيئات عومل بموجب ذلك كفساق أهل الملة ، إذ هم مستحقون للثواب والعقاب والموالاة والمعاداة ، والحب والبغض ، بحسب ما فيهم من البر والفجور فإن: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٤) وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، بخلاف الخوارج والمعتزلة ، وبخلاف المرجئة والجهمية ، فإن أولئك يميلون إلى جانب ، وهؤلاء إلى جانب وأهل السنة والجماعة وسط » (٥) .

وإذا بذل الدعاة كل جهدهم في البيان والنصح والإيضاح ثم الهجر والإنكار فلم تفلح في هدايتهم وكف فسادهم وشرهم ، فلا يمكن والحالة هذه تركهم يفسدون دين

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٢١ . (٢) سورة الأنفال آية (٣٩) . (٣) الفتاوى ١١/٦١٧ .
(٤) سورة الزلزلة آية (٧ ، ٨) . (٥) الفتاوى ٣٥/٩٤ ، ٩٥ ، وانظر ١٥/٢٩٤ ، وانظر ٢٨/٢٠٩ ، ٥٨٧.

الأمة وسلوكها فلا بد من دفع خطرهم ولو بقتلهم وقتالهم « والداعي إلى البدعة مستحق العقوبة باتفاق المسلمين ، وعقوبته تكون تارة بالقتل ، وتارة بما دونه كما قتل السلف الجهم بن صفوان [1]، والجعد بن درهم [2] ، وغيلان القدري [3] ، وغيرهم، ولو قدر أنه لا يستحق العقوبة أو لا يمكن عقوبته فلا بد من بيان بدعته والتحذير منها » [4].

وقال رحمه الله :« وجوز طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما : قتل الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة ، وكذلك كثير من أصحاب مالك قالوا : إنما جوز مالك وغيره قتل القدرية لأجل الفساد في الأرض لا لأجل الردة ... وكذلك قد قيل في قتل الساحر ... لأجل الفساد في الأرض ، وقد يستدل على أن المفسد متى لم ينقطع شره إلا بقتله فإنه يقتل لما رواه مسلم في صحيحه ... (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد ، يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه) [5] . وهذا لأن المفسد كالصائل ، فإذا لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتل » [6] .

ومن امتنع عن اعتقاد عقيدة من عقائد الأمة أو فعل شريعة من شرائعها الإسلامية الظاهرة المعلوم تواترها بين المسلمين فقالوا مثلاً « لا نصلي ولا نزكي ... أو نتبع القرآن ولا نتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قالوا : إنا لا نجاهد الكفار مع المسلمين فإنه يجب جهاد هذه الطوائف جميعها ، كما جاهد المسلمون مانعي الزكاة ، وجاهدوا الخرمية والقرامطة ، والباطنية ، وغيرهم من أصناف أهل الأهواء والبدع الخارجين عن

(١) لم أجد له ترجمة .

(٢) هو : الجعد بن درهم من أهل الشام مؤدب مروان الحمار ، وهو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولا كلم موسى ، وإن ذلك لا يجوز على الله ، كان زنديقاً ، وقيل تلقى مذهبه هذا عن أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم عن خاله لبيد عن الأعصم اليهودي . وقد كان شيخاً للجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الجهمية .. قتله خالد القسري على زندقته يوم النحر سنة ١١٨هـ بالعراق . انظر لسان الميزان ١٠٥/٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٣٣/٥ ، الأعلام ١٢٠/٢ .

(٣) هو : غيلان بن مسلم الدمشقي كاتب من البلغاء تنسب إليه فرقة « الغيلانية » من القدرية ، وهو ثاني من تكلم في القدر ودعى إليه ، ولم يسبقه سوى معبد الجهني ، واتهم بأنه كان من أتباع الحارث بن سعيد الكذاب ، وقيل تاب عن القول بالقدر على يد عمر بن عبدالعزيز ، أفتى الأوزاعي بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ . انظر لسان الميزان ٤٢٤/٤ .

(٤) أخرجه مسلم عن عرفجة رضي الله عنه كتاب الامارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ، صحيح مسلم ١٤٨٠/٣.

(٥) الفتاوى ٣٤٦/٢٨ ، ٣٤٧ .

(٦) سورة البقرة آية (١٩٣) .

شريعة الإسلام وذلك لأن الله يقول في كتابه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (١) ، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله » (٢) .

« وكذلك المبتدع الذي خرج عن بعض شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته واستحل دماء المسلمين المتمسكين بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته وأموالهم ، هو أولى بالمحاربة من الفاسق ، وإن اتخذ ذلك ديناً يتقرب به إلى الله ، ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أن هذه البدع المغلظة شر من الذنوب التي يعتقد أصحابها أنها ذنوب » (٣) .

ويستشهد بفعل أحد الخلفاء الراشدين في عقوبته لأهل البدع بالجلد والقتل فقال : « ... فهذه سنة أمير المؤمنين علي وغيره قد أمر بعقوبة الشيعة الأصناف الثلاثة وأخفهم المفضلة فأمر بجلدهم ، والغالية يقتلون باتفاق المسلمين ، وهم الذين يعتقدون الإلهية والنبوة في علي وغيره ، مثل النصيرية والإسماعيلية ومن دخل فيهم من المعطلة الذين ينكرون الصانع ... أو ينكرون ظواهر الشريعة ... فإن جميع هؤلاء الكفار أكفر من اليهود والنصارى ... ومن أظهر ذلك كان أشد من الكافرين كفراً ، فلا يجوز أن يقر بين المسلمين لا بجزية ولا ذمة ، ولا يحل نكاح نسائهم ، ولا تؤكل ذبائحهم ، لأنهم مرتدون من شر المرتدين ، فإن كانوا طائفة ممتنعة ، وجب قتالهم كما يقاتل المرتدون ... وإذا كانوا من قرى المسلمين فرقوا وأسكنوا بين المسلمين بعد التوبة وألزموا بشرائع الإسلام التي تجب على المسلمين ، وليس هذا مختصاً بغالية الرافضة ، بل من غلا في أحد المشايخ وقال : إنه يرزقه ، أو يسقط عنه الصلاة ، أو أن شيخه أفضل من النبي ... أو أن أحداً من المشايخ يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم كما كان الخضر مع موسى ، وكل هؤلاء كفار يجب قتالهم بإجماع المسلمين ، وقتل الواحد المقدور عليه منهم » (٤) .

« فلا يجوز أن تأخذ المؤمن رأفة بأهل البدع والفجور والمعاصي والظلمة ، وجماع ذلك كله فيما وصف الله به المؤمنين حيث قال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

---

(١) الفتاوى ٢٨/٤٦٨ ، وانظر ١٥/٤١٤ . (٢) الفتاوى ٢٨/٤٧٠ .

(٣) الفتاوى ١٥/٤١٤ .

(٤) الفتاوى ٢٨/٤٧٤ ، ٤٧٥ ، وانظر ص٤٧٦ .

الْكَافِرِينَ ﴾ (١)، وقال : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .

« فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ، ما لم تكن مضيعة لدين الله . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(إنما يرحم الله من عباده الرحماء) (٣) ، وقال : (لا يرحم الله من لا يرحم الناس) (٤) ... فهذه الرحمة حسنة مأمور بها أمر إيجاب أو استحباب ، بخلاف الرأفة في دين الله فإنها منهي عنها .

والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها ، فإنه إن رآه مائلا إلى الرحمة زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ولا يغار لما يغار الله منه ، وإن رآه مائلا إلى الشدة زين له الشدة في غير ذات الله حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ، ويتعدى في الشدة فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله ..» (٥) .

وإذا تاب صاحب البدعة والمنكرات وأظهر التوبة « أظهر له الخير »، هذا بإجماع إذا أمضى سنة من الزمان وهو يعمل عملا صالحاً ولم ينقض التوبة (٦) .

« وأما إذا تاب ولم تمض عليه سنة فللعلماء فيه قولان مشهوران منهم من يقول : في الحال يجالس ، وتقبل شهادته .

ومنهم من يقول : لا بد من مضي سنة . كما فعل عمر بن الخطاب بصبيغ بن عسل . وهذه من مسائل الاجتهاد ، فمن رأى أن تقبل توبة هذا التائب ويجالس في الحال قبل اختباره : فقد أخذ بقول سائغ .

ومن رأى أنه يؤخذ مدة حتى يعمل صالحاً ، ويظهر صدق توبته ، فقد أخذ بقول سائغ ، وكلا القولين ليس من المنكرات » (٧) .

وقد ورد عن ابن تيمية أنه أخذ بهذا القول حينما توب طوائف من المبتدعة أهل

---

(١) سورة المائدة آية (٥٤) . (٢) سورة الفتح آية (٢٩) .

(٣) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أخرجه البخاري كتاب الأيمان والنذور ، باب قول الله تعالى ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾، فتح الباري ٥٤١/١١ . مسلم كتاب الجنائز ، باب البكاء على الميت ، صحيح مسلم ٦٣٥/٢ - ٦٣٦ ، رقم الحديث في مسلم ٩٢٣ .

(٤) أخرجه البخاري عن جرير بن عبدالله ، باب قول الله تبارك وتعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ ٢، فتح الباري ٣٥٨/١٣ ، رقم الحديث ٧٣٧٦ .

(٥) الفتاوى ٢٩١/١٥ ، ٢٩٢ . (٦) انظر الفتاوى ٢١٤/٢٨ .

(٧) الفتاوى ٢١٤/٢٨ - ٢١٥ .

الضلال وذلك بقوله: « وقد أخضع الله رقاب الخصوم وأذلهم غاية الذل ، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه، ونحن – ولله الحمد – قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة ، وإقماع الباطل والبدعة ، وقد دخلوا في ذلك كله وامتنعنا حتى يظهر ذلك إلى الفعل ، فلم نثق لهم بقول ولا عهد ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا والمذكور مفعولاً ، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم »[1] .

(١) العقود الدرية/٢٨٤ ، ٢٨٥ .

المبحث السادس

منهج ابن تيمية الأخلاقي مع غير المسلمين

في أكثر البلاد الإسلامية يوجد أعداد من أهل الكتاب وكنائسهم وبيعهم خصوصاً في الشام ، ومصر التي قضى فيها ابن تيمية أغلب أيام حياته ، وقد رأى ابن تيمية واقع المسلمين في التعامل مع هؤلاء وواقع الكفار مع المسلمين أيضاً .

ولا شك أنه رأى أن من الواجب عليه - كأحد الدعاة الذين حملوا على أكتافهم تجديد الدين وإحياءه في نفوس الأمة - أن يحدد علاقة المسلم بهؤلاء وتعامله معهم ، وأن يرسم الوجود الذمي في الدولة الإسلامية بأسلوب عصره ، كاشفاً عن بعض المخاطر التي تؤثر على المسلمين من الوجود الكافر أفراداً وجماعات ودولاً .

ولا شك أن هذه مشكلة تهم الدعاة ابتداء من معلمهم الأول محمد صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة ؛ لأن هذا من أبواب الخطر المؤثر على المسلم والتي ينتج عنها بعض المعوقات في مسيرة الدعوة التجديدية الإصلاحية .

وابن تيمية من علماء الأمة القلائل الذين اتسعت دائرة جهودهم في الدعوة لتشمل غير المسلمين خصوصاً النصارى ، وقد كان ابن تيمية علماً معروفاً لدى كَبِير غير المسلمين وصغيرهم ، وكان له لقاءات حوار وجدل مع أحبارهم ورهبانهم ومع رؤسائهم وأمرائهم ومقدميهم .

فكانوا يأتون إليه بالمعضلات والشبهات التي يثيرونها فيرد عليهم رداً مفحماً ، ويدعوهم إلى الحق ، وكثيراً ما كان يستدل بما عندهم في كتبهم من الحق الذي لو اتبعوه لآمنوا بالإسلام .وقد أرسل إلى بعض ملوكهم رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام ويعرفهم بما عندهم في الكتب المقدسة من الحق الذي به البشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وينتقدهم لمخالفتهم الحق الذي في التوراة والإنجيل ، ويطلب منهم إنصاف المسلمين الذين في ديارهم ، وإكرامهم ،وكانت تتضمن عبارات رسائله ألفاظاً فيها التخويف من الله عز وجل ثم التخويف من غضبة المسلمين لإخوانهم في الدين .

وكان رحمه الله يستقبل أفرادهم الذين يقدمون إلى بلاد الشام ويكرمهم ويدعوهم إلى الإسلام ، وكان يأخذ منهم الأخبار عن بلادهم وعن المسلمين فيها ، وعن كثير من الأوضاع التى يجب أن يعرفها بأسلوب حكيم . وكانوا يحبونه ويثنون عليه في

بلادهم وعند ملوكهم . مما جعل له شهرة وقبولاً عندهم خاصة وعامة . حتى أن أحد ملوكهم أو أمرائهم وقع في أزمة شديدة ومحنة عظيمة فجاءه من أنقذه فسأل :من أنت؟ فقال : أنا ابن تيمية فاستعظم فعله ، وكتب بذلك إلى حاكم المسلمين وطلب منه إكرام ابن تيمية وشكره على صنيعه ، وكان ابن تيمية وقتها في السجن فقيل له في ذلك فأخبر رحمه الله : أنه لم يفعل ذلك وإنما هذا جني كان يحبه وكان يرى صنيعه بهم حين قدومهم من الإحسان والإكرام فأحب أن يفعل بهم مثل فعلنا إكراماً لنا . وابن تيمية وضع أيدي الأمة على أبرز الأمور التي تخص الكفار خصوصاً أهل الكتاب ، وكيفية وجودهم في الدولة الإسلامية وما يلزم لهذا الوجود . ليكون التعامل معهم في إطار محدد واضح الأهداف والمعالم .

وسوف أوضح بعض هذه القضايا بشيء من الإيجاز :

أولاً : من الشروط التي شرطها المسلمون على النصارى واليهود تبع لهم أن يلتزموا مظهراً معيناً يعرفون به عند رؤيتهم يختلف عن مظهر المسلمين . وذلك فيما يتعلق بلباسهم وشعورهم ، ويكون لهم هيئة في ركوب الدواب تختلف عن هيئة ركوب المسلمين .

وذلك لأجل أن يتميزوا بلبس وركوب الغيار عن المسلمين ، ليشعروا أنهم جنس آخر غير المسلمين ، وليعرفهم المسلمون فيحذروا منهم (١) . ولا شك أن هذا جانب من الضغط النفسي عليهم مما يدفعهم إلى الإسلام . وابن تيمية حذّر الناس من مشاكلة هؤلاء الكفار والتشبه بهم وبيّن تحريم ذلك ، وأضراره بأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار (٢) .

وأظهر أن نفس المخالفة للمشركين أمر مقصود للشارع في الجملة ، واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر لأن اليهود والنصارى يؤخرون) (٣) . ثم قال معلقاً عليه : « وهذا نص في أن ظهور الدين الحاصل بتعجيل الفطر لأجل مخالفة اليهود والنصارى ، وإذا كانت مخالفتهم سبباً لظهور الدين فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله ، فتكون

---

(١) انظر الفتاوى ٦٥٢/٢٨ ، ٦٥٤ ، ص١٣٦ . (٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٨٠ - ٢٢٢ .

(٣) حديث صحيح عن أبي هريرة أخرجه أبو داود ، كتاب الصوم ، باب ما يستحب من تعجيل الفطر . سنن أبي داود ٧٦٣/٢ رقم ٢٣٥٣ .

نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة » (١) .

ويرى أن التشبه بالمشركين أصل من أصول دروس دين الله وشرائعه وظهور الكفر والمعاصي (٢) . ولهذا اشتملت الحكمة التي بعث بها رسوله مجانبة سبيل المغضوب عليهم والضالين ومخالفتهم في هديهم الظاهر ، وإن لم ير البعض في ذلك مفسدة ظاهرة وذلك لعدد من الأسباب (٣) :

١ - « منها : أن المشاركة في الهدي الظاهر : تورث تناسباً وتشاكلاً وائتلافاً بين المتشابهين وإن بعد المكان والزمان ، وهذا أمر محسوس وهو يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال » (٤) .

ويستدل لهذه النظرية بالتجربة المشاهدة ، فلو ألبسنا شاباً لباس أهل العلم مثلاً لوجد في نفسه من دون اختيار ميلاً وانجذاباً إليهم وإلى بعض طباعهم وأحوالهم .

وكذلك لو ألبسناه ثياب الجنود المقاتلين لوجد في نفسه نوع انجذاب إلى أحوالهم وتقليد حركاتهم وهيئاتهم وأخلاقهم ، وتكون نفسه مطيعة في ذلك إلا أن يكون هناك مانع من الموانع يحول دون ذلك .

وهكذا من لبس لباس الكفار وشابههم في هيئاتهم الظاهرة فإنه ينجذب إلى أخلاقهم وأحوالهم ، وقد لا يحس بهذا الانجذاب في أول وهلة من أمره (٥) .

٢ - « ومنها : أن مشاركتهم في الهدي الظاهر : توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين ... » (٦) .

والواجب أن يكون هناك تميز (٧) .

٣ - « ومشاركتهم في الظاهر : إن لم تكن ذريعة أو سبباً قريباً أو بعيداً إلى نوع ما من الموالاة والموادة ، فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة مع أنها تدعو إلى نوع مّا من المواصلة كما توجبه الطبيعة وتدل عليه العادة » (٨).

ويقول :« ... مشابهتهم في الظاهر سبب ومظنة لمشابهتهم في عين الأخلاق

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٣٦ .
(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٤) انظر السابق /١١ ، ص ٢١٩ .
(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٧) انظر الفتاوى ٦٥٨/٢٨ .
(٨) اقتضاء الصراط المستقيم /٤٩ .

والأفعال المذمومة بل في نفس الاعتقادات وتأثير ذلك لا يظهر ولا ينضبط ، ونفس الفساد الحاصل من المشابهة قد لا يظهر ولا ينضبط ، وقد يتعسر أو يتعذر زواله بعد حصوله لو تفطن له ، وكل ما كان سبباً إلى مثل هذا الفساد فإن الشارع يحرمه ».

« ... والمشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن ، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة » (١) .

وهذا جار فيما إذا كان الأمر مباحاً محضاً إذا خلا من مشابهتهم ،فأما إذا كان غير مباح فقد جمع فيه المخالفين ،كأن يكون من أمور تخصهم وينفردون بها في دين أو دنيا . ففي هذه الحالة تكون المشابهة شعبة من شعب الكفر (٢) .

والكفار يفرحون غاية الفرح ويسرون غاية السرور بهذه الموافقة والمشاكلة ولديهم الاستعداد لبذل الأموال لحصولها (٣) .

ونجد أن الإسلام اهتم بسد باب المشاكلة والموافقة لهم بشيء مما يختصون به حتى لا يفرحوا بذلك ويحتسبونها موافقة لهم في دينهم .

ومثال ذلك مسألة القبلة ،فقد صرف الله المسلمين عن الصلاة إلى بيت المقدس إلى وجهة الكعبة المشرفة حتى لا يقولوا وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا (٤) .

ثم إن الكفار ناقصون في دينهم وعقولهم فما من أمر من أمورهم إلا وفيه نقص أو ضرر لأنه « ... لا يتصور شيء من أمورهم كاملاً قط » (٥) .

فمخالفتهم فيها منفعة وخير وصلاح لنا في كل الأمور (٦) . حتى أمورهم المادية الدنيوية لا تخلو من مضرة علينا في الآخرة ،وفي الدنيا قد تعيقنا وتشغلنا عما هو خير وأنفع لنا منها (٧).

ولا ينسى الداعية الحكيم الخبير بواقع الأمة في ماضيها وحاضرها أن ينبه إلى أن مسألة التشبه هذه حكم يخضع لحال الزمان والمكان وقدرة المؤمن وقوته وضعفه .

فالإسلام في بداية الهجرة إلى المدينة لم يتعرض لمسألة التشبه بالمنع وذلك لأن المسلمين في بداية أمرهم كانوا ضعفاء غير ظاهرين ، فكان هذا مباحاً ، وحاله مثل بعض

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ٢١٩ . (٢) اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ١٤ . (٤) اقتضاء الصراط المستقيم ، / ١٤ .
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم /٥٦ . (٦) انظر السابق /٥٧ .
(٧) انظر السابق /٥٧ .

الأحكام كالجهاد وفرض الجزية على أهل الكتاب . لم يشرعا إلا بعد قوة أهل الإسلام وظهور الدين .

« ثم إنه يثبت بعد ذلك في الكتاب والسنة والإجماع الذي كمل ظهوره في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما شرعه الله من مخالفة الكافرين ومفارقتهم في الشعار والهدي الظاهر » (١) .

« وسبب ذلك أن المخالفة لهم لا تكون إلا بعد ظهور الدين وعلوه كالجهاد وإلزامهم بالجزية والصغار .

فلما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء لم يشرع المخالفة لهم ، فلما كمل الدين وظهر وعلا شُرِع ذلك .

ومثل ذلك اليوم : لو أن المسلم بدار حرب ، أو دار كفر غير حرب : لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر ، لما عليه في ذلك من الضرر . بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه : أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية : من دعوتهم إلى الدين والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك ، أو دفع ضررهم عن المسلمين ، ونحو ذلك من المقاصد الصالحة .

فأما في دار الإسلام والهجرة التي أعز الله فيها دينه ، وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية : ففيها شرعت المخالفة » (٢) .

وكان ابن تيمية رحمه الله يشتد على ولاة المسلمين في إبقاء أهل الذمة على غيار مع المسلمين في هيئاتهم الظاهرة ولا يسمحوا لهم أبداً أن يلبسوا مثل ما يلبسون أو يركبوا مثل ما يركبون ، ومن أدلة هذا موقفه مع السلطان محمد بن الناصر قلاوون في أول مجلس له بعد رجوع الحكم إليه في محضر أعيان العلماء والكبراء من الشيوخ والقضاة والأمراء ، وعُرِض على السلطان طلب من النصارى بدفع مال زيادة على ما كانوا يدفعون ليؤذن لهم بالعودة إلى ما كانوا يلبسون مثل المسلمين ، فسكت الحاضرون، فجثا الشيخ على ركبتيه وقال للسلطان : لا تفعل وإني أعيذك أن يكون أول مراسيمك – في أول مجلس لك بعد أن أعاد الله إليك الملك ونصرك على عدوك – تنصر فيه الكفار وتعزهم من أجل حطام الدنيا الفانية (٣) .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /١٧٦ . (٢) اقتضاء الصراط المستقيم /١٧٦ ، ١٧٧ .
(٣) انظر العقود الدرية /٢٨١ .

ثانياً : مناسباتهم الدينية وشعائرهم التعبدية :

المناسبات الدينية كالأعياد هي من أخص ما تتميز به الشرائع ،وهي من جملة شرعتها ومناهجها ومناسكها التي قال الله فيها : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(١) ، وقال : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (٢) ،« فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج ، فإن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر ... » (٣) .

ولا يجوز لهم أن يظهروا شعائرهم التعبدية إذا كانوا في البلاد الإسلامية لأنه لا يجتمع شعائر الكفر مع شعائر الإسلام (٤) . ولا يسمح لهم بما فيه قوة لهم ولدينهم ، ولا يعين أو يشير بذلك إلا : منافق ، أو صاحب غرض فاسد ، أو جاهل (٥) .

ولا يحل للمسلمين أن يظهروا لهم أي نوع من الموافقة في أعيادهم ومناسباتهم حتى ولو كانت الموافقة من دون تخطيط وقصد . حتى قال بعض أصحاب الإمام مالك رحمه الله : من ذبح بطيخة في أعيادهم فكأنما ذبح خنزيراً (٦) .

وقال بعض أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله : بتكفير من تشبه بالكفار في لباسهم وأعيادهم . و « مشابهتهم في أعيادهم ولو بالقليل : هو سبب لنوع من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونه » (٧) . والدليل على تحريم ذلك من طريقين :

الأول : عام : لأن موافقتهم فيما ليس من ديننا ولا عادة سلفنا الصالح فيه مفسدة موافقتهم ، وتفويت مصلحة مخالفتهم .

ولأنه من البدع المحدثة ومن سبيل المغضوب عليهم والضالين ، وقد حرم علينا اتباع سبيلهم وأعيادهم من سبيلهم .

الثاني : خاص : ورد النص على تحريم أعياد الكفار بالكتاب والسنة والإجماع والاعتبار (٨) .

فإذا كان حكم أعيادهم ومناسباتهم التعبدية كذلك فلا يجوز حضورها إذا دعي

---

(١) سورة المائدة آية (٤٨) .
(٢) سورة الحج آية (٦٧) .
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٠٢ .
(٤) انظر الفتاوى ٦٥٥/٢٨ .
(٥) انظر الفتاوى ٢٨/ ٦٤٢ ، ٦٤٣ .
(٦) انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ١٣٥ .
(٧) اقتضاء الصراط المستقيم / ٢١٩ .
(٨) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٨٠ ، ٢٦٧ .

إليها ، حتى للنزهة والفرجة [1] . ولا يجوز دخول كنائسهم وبيعهم يوم عيدهم ، وأما حضور ما يبيعونه في الأسواق في أعيادهم فلا بأس من حضوره [2] ، وكذلك إحضار أنواع المبيعات وبيعها في الأسواق لهم ولغيرهم [3] . ولا يجوز للمسلم أن يهدي لهم أو لأحدهم شيئاً في عيدهم ولا أن يبارك له ويهنئه [4] . ولا يجوز إظهار الفرح والسرور واللعب في أعيادهم ، ولا تخصيصها بأي نوع من الأفعال حتى ولو كان عبادة كالصوم بنية المخالفة لهم [5] . ولهذا نهى الفقهاء أو كثير منهم من فعل ذلك بهذه النية « لأجل ما فيه من تعظيم « ما » لعيدهم » [6] .

ثالثاً : الأخذ من علومهم ومخترعاتهم ومصادر معرفتهم :

وضع ابن تيمية رحمه الله ما يمكن أن نصنفه أنه من القواعد في التعامل فيما يخص هذا الموضوع حيث يفيد :

أن كل نفع لا يفعله إلا المسلم لا يجوز أخذه من الكافر كتعليم القرآن والحديث ، والأذان والصلاة .

وأما النفع الذي يفعله المسلم والكافر : كالبناء والخياطة والنسج والصناعة ونحو ذلك ،فإنه يجوز أخذه من غير المسلم [7] .

ولهذا أجاز المسلمون استعمال القوس الفارسية بعد فتح فارس في عهد عمر رضي الله عنه لأنهم وجدوها أفضل من العربية ، وكذلك كان الصحابة ومن بعدهم من المسلمين يلبسون الملابس التي وردت من بلاد الكفار ، وقد استفادوا بعد الفتح بعض التنظيمات الإدارية من الكفار [8] . أما كتب الكفار التي تتحدث عن عقائدهم وأديانهم وأنواع تعبداتهم وأخلاقهم فلا يجوز لهم أن يعرضوها في أسواق المسلمين ولا في طرقهم ، فيمنعون من إنشاء المكتبات التجارية والوقفية في بلاد المسلمين .

وقراءة هذه الكتب وأمثالها متوقف على نوع القارئ وغرضه، فإن كان القارئ ليس من أهل العلم الراسخين فيه فلا يجوز له قراءتها خوفاً على عقيدته ودينه .

وإذا كان من الراسخين في العلم وكان غرضه من القراءة مجرد الاطلاع ، أو

---

(1) انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ١٩٥ .
(2) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٨٠ .
(3) انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٠٢ .
(4) انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٣١ .
(5) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٨٤ ، ١٩٤ .
(6) أنظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٩٥ .
(7) انظر الفتاوي ٢٠٦/٣٠ ، وانظر ١١٣/٤ ، ١١٤ .
(8) انظر التفسير الكبير ٥٤٧/٧ ، ٥٤٨ ، وانظر ٣١ /٨٥ - ٨٧ .

البحث عن الحق فيها فإنه لا يجوز له قراءتـها . وأما إذا كان هدفه معرفة ما فيها من الحق والبـاطل من أجل دعـوتهم إلـى الإسلام ، وإلزامهـم بالحق مـن خلال كتـبهم ، فهـذا قد يكون واجباً على من ندب نفسه لذلك إذا كان لازما (١) .

ولهذا الغـرض يجوز ترجمة مـا في كتبهـم من الحـق الموافق لديننـا والتكلم بلـغتهم ومصطلحاتهم إذا كانوا لا يعرفون العربية (٢) .

وما تحويه كتبهم الدينية لا يخلو من ثلاث حالات :

الأولى : منه ما نـعلم صحته من ديـننا الذي بعث به رسولـنا صلى الله علـيه وسلم، فهذا نصدق به ونؤمن أنه من عند الله لأنه جاء في كتبنا ونحن متعبدون بما فيها وموقنون بثبوته .

الثانية : ما نعلم أنه كذب لأنـه مخالف لما في ديننا ، فهذا نكذب بـه ونعلم أنه ليس من عند الله .

الثالثة : منه ما خرج عن الأمرين حيث لا نعلم صحته ولا كذبه ، فهـذا لا نصـدق بـه ولا نكـذب ، وأكـثره مما لا فائـدة فيه ، والكـلام به من فضـول القول ولغـوه وذلك مثـل: ما يروونـه من أخبـار عن ألواح سـفينة نـوح وطولهـا وعرضهـا ونحو ذلـك ، وما يذكرونه عن عدة أصحاب الكهف ولون كهفـهم ، وما يذكرونه عن عصى موسى عليه السلام من أي الشجر هي (٣) .

وابن تيمـية ينطلق في تـقرير تعامله مـع غير المسلمين مـن منطلق اعتزاز وثـقة بدين الإسلام أنه الحق والمهيمن على الدين كله ، وأن المسلمين هم الأعلون وهم المنصورون إذا كانـوا مسلمـين حقاً . ومنـطلق آخر أن المـسلمـين يستغـنون عن هؤلاء فـي دنياهم كـما استغنوا عنهم في دينهم ،بعكس الكفار جميعاً فإنهم لا غنى لهم عن المسلمين في مصالح دينهم ودنياهم ، يقول رحمه الله :« فإن المسلـمين مستغنون عنهم ، وهم إلى ما في بلاد المسلمين أحـوج من المسلمين إلى ما فى بلادهـم ، بل مصلحة دينهم ودنـياهم لا تقوم إلا بما في بلاد المسلمين . والمسلمون ولله الحمد والمنة أغنياء عنهم في دينهم ودنياهم . وكل مسلـم يعلم أنهم لا يـتجرون إلى بلاد المسـلمين إلا لأغراضهـم ، لا لنفع المسلـمين ، ولو منعهم ملوكهـم من ذلك لكان حرصهم على المال يمنعهم من الـطاعة فإنهم أرغب الناس

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٣٤/٢ . (٢) انظر ١٠٩/٤ - ١١٣ . (٣) انظر التفسير الكبير ٢/ ٢٣٤ .

في المال ، ولهذا يتقامرون في الكنائس ، وهم طوائف مختلفون ، وكل طائفة تضاد الأخرى » (١) .

رابعاً : الاستعانة بهم في أمور المسلمين :

لا يجوز الاستعانة بغير المسلمين في أعمال الدولة الاسلامية ومناصبها ، ولا حتى في أعمال الأفراد المسلمين ، ويستدل لذلك بأدلة من القرآن والسنة وهدي السلف ، وبأدلة من واقع المسلمين والتاريخ الإسلامي ،مما وقع في دول المسلمين الذين كان لهم تهاون معهم فولوهم بعض أعمالهم .

وابن تيمية يقدم حقيقة ملؤها الفخر والاعتزاز ببني دينه ، حيث يرى أننا لا نحتاج إلى الكفار إطلاقاً ، وفي المسلمين كفاية ولله الحمد في جميع مصالحهم ومصالح الدولة الإسلامية (٢) ، وأن العقل لا يتصور إلا ذلك ولا يوجد خلافه إلا بتفريط من المسلمين وتهاون ، إما بعدم العمل الجاد في تحصيل أنواع العلوم والمعارف والخبرات ، وإما بعدم البحث عن مسلم لهذا العمل والولاية في البلاد الإسلامية ؛ ولذا نجد السلف رضوان الله عليهم يرون ترك الاستعانة بهم في الولايات ويستدلون على ذلك بالآيات القرآنية .

ومن المعلوم أن الدولة الإسلامية بدأ اتساعها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،وفتحت بلاد كافرة وكثرت الأموال والأعمال ، وكانت هذه البلاد المفتوحة متقدمة ومتطورة في أمور الدنيا وتنظيمها أكثر من المسلمين العرب الذين عاشوا في الجزيرة العربية ، فاجتهد بعض الأمراء على بعض البلاد المفتوحة في تولية غير المسلمين على بعض الأعمال الحسابية ؛لأن هذا في رأيهم عمل لا علاقة له بالدين ،وقد طلبوا من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأذن لهم بذلك ، وكان عمر بعيد النظر وأعلم منهم بالسياسة الشرعية الإلهية وما يصلح الدولة الإسلامية .
فمثلا : خالد بن الوليد رضي الله عنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « إن بالشام كاتباً نصرانياً لا يقوم خراج الشام إلا به » ،فكتب إليه عمر « لا تستعمله »، فكتب «إنه لا غنى بنا عنه » فكتب إليه عمر رضي الله عنه « لا تستعمله » فكتب إليه : « إذا لم نوله ضاع المال » ،فكتب إليه عمر رضي الله عنه :« مات النصراني والسلام » (٣) .

---

(١) الفتاوى ٦٤١/٢٨ ، ٦٤٢ . (٢) انظر الفتاوى ٦٤٣/٢٨ . (٣) الفتاوى ٦٤٣/٢٨.

وأيضاً « .. روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري [١] رضي الله عنه قال :« قلت لعمر رضي الله عنه : إن لي كاتباً نصرانياً قال : مالك ؟ قاتلك الله أما سمعت الله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ... ﴾ الآية، ألا اتخذت حنيفاً ؟ قال قلت : يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه . قال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله » [٢] » [٣] ؛ لأن تولية هذا الكافر وإن لم يكن بها خطر على الدين إلا أن فيها معاني أخرى تتعلق بإعزاز عدو الله وتكريمه مع أن حقه الذلة والصغار . ثم الولاية تتطلع إليها النفوس وإلى أهلها ، فإذا كان فيها كافر كانت له علواً على من كانت ولايته أقل منها أو أبعد عن الحاكم ،ومن لم يكن له ولاية من المسلمين فإنه قد يعظمه لما يرجو من نفعه .

وقد يحتاج ضعفاء الإيمان لمصانعته ومداراته ، ويستغل هو ذلك . والتجارب التي خاضتها الأمة دلائلها تشير بالخطر من هؤلاء ،وقد ثبت لدى العارفين للأمور خيانتهم للمسلمين ومصانعتهم لبني دينهم ، فمن ذلك :

١ – أنهم يعملون جواسيس لأهل ملتهم فيرسلون الرسائل إليهم بأخبار المسلمين وأسرارهم التي اطلعوا عليها من خلال ولايتهم التي يعملون بها [٤] .

٢ – يقربون أهل ملتهم ويدخلون أعداداً منهم في الدولة الإسلامية ويمدونهم بما يتقوون به ، ويسعون إلى تنشيط الذين في الداخل وتنظيمهم والنهوض بهم إلى مستوى ديني ومادي وعلمي أفضل [٥] .

٣ – يبذلون جهوداً كبيرة جداً في إظهار أديانهم وتمكينها بالمحافظة على أماكن عبادتهم الموجودة وصيانتها وبإنشاء أماكن جديدة . وجمع الأموال من بني قومهم في الداخل والخارج للإنفاق عليها ووضع الأوقاف لها [٦] .

---

(١) هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب الأشعري ، سكن الرملة وخالف سعيد بن العاص ، أسلم مبكراً ، وهاجر إلى الحبشة وقدم المدينة بعد خيبر ، وصادفت سفينتة سفينة جعفر بن أبي طالب ، استعمله الرسول على بعض اليمن واستعمله عمر على البصرة واستعمله على الكوفة ، وكان أحد الحكمين بصفين كان خفيف الجسم قصيراً ، حسن الصوت بالقرآن مات سنة ٥٠هـ وقيل ٥١هـ . انظر الإصابة ١٩٤/٥ ، تهذيب التهذيب ٢٣٤/٣ ، سير أعلام النبلاء ٣٨٠/٢ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ، باب لا ينبغي للقاضي ولا للوالي أن يتخذ كاتباً ذمياً ١٢٧/١٠ .

(٣) الفتاوى ٣٩٧/٣٠ .

(٤) انظرالفتاوى ٦٤٦/٢٨ .

(٥) انظر الفتاوى ٦٥٥/٢٨ .

(٦) انظر الفتاوى ٦٥٦/٢٨ .

ويعملون على بث الفرقة والعداوة بين المسلمين ، والسعي في إثارة الرعية على الراعي وتحريضهم عليه ، ومن ثم تحريض الراعي عليهم والبطش بالذين يعارضونه[1] .

ولهذه الأمور – وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره خوف الإطالة – فإن ابن تيمية يرى أن يمنعوا من « أن يكونوا على ولاية المسلمين ، أو على مصلحة من يقويهم ، أو يفضل عليهم في الخبرة والأمانة من المسلمين ، بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم ، والقليل من الحلال يبارك فيه ، والحرام الكثير يذهب ويمحقه الله تعالى »[2] .

ومن أخطر الأمور وأعظمها ضرراً أن يكونوا في ولاية من ولايات الحرب أو ما لها علاقة بخدمة الجند وشئونهم ، فإن هذا داء كبير وأمر خطير ، فإن الجيش الإسلامي لا يصلح إلا إذا كان الجنود مسلمين مؤمنين يدافعون عن عقيدة يبتغون العزة لدين الله وحماية عرض وأرض الأمة .

وأحوال الجيش لا تصلح إلا إذا كان الذين يعاونون الجيش في الأعمال المساندة والخدمات والإمدادات ونحوها من إخوانهم المسلمين .

لذا لا يجوز أن يكون غير مسلم في أى عمل من الأعمال المتعلقة بالجيش الإسلامي فضلاً عن أن يكونوا قادة له أو مجاهدين معه [3] . بل إن مجرد حملهم للسلاح وتدريبهم عليه يُشكل خطراً على الدولة الإسلامية ، وقد أدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى وغيره مما جعله يضع في شروطه على نصارى الشام يوم صالحهم شرطاً يتعلق بهذا ، حيث منعهم من حمل السيف أو اتخاذ أي نوع من أنواع السلاح وادخاره وحيازته [4] .

وهذا الكلام الذي تقدم في المنهج الأخلاقي في بعض التعامل مع غير المسلمين لا يعني أن المسلمين يظلمون غيرهم من أهل الأديان من أهل الذمة إذا كانو تحت ولايتهم، بل إنهم إذا التزموا بالشروط المشروطة عليهم عصموا دماءهم وأموالهم وأعراضهم . وأصبحوا آمنين في ظل الدولة الإسلامية لا يحل إكراههم على ترك دينهم ، ولهم أن يمارسوا حياة طبيعية في شتى أشكال وألوان الأعمال ،ويمارسوا ما يرون حله في دينهم من غير إظهار له بين المسلمين [5] « فأهل الذمة يُذَلون ولا يُظلمون » [6] .

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨/٦٣٩ ، ٦٤٠ . (٢) الفتاوى ٢٨/٦٤٦ . (٣) انظر الفتاوى ٢٨/٦٤٣ .
(٤) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٢ . (٥) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٢ . (٦) الفتاوى ٢٨/٦٥٣ .

وكما أنه ليس على ولاة المسلمين ولا غيرهم أن يظلموهم ، فكذلك عليهم أن يزيلوا الظلم الذي يكون فيما بينهم ، سواء كان بين أهل ديانتين من أهل الذمة مع بعضهما أم بين أهل ديانة واحدة [1] .

(١) انظر الفتاوى ٣٥/٣٨٠ .

الباب الثالث

الأساليب والوسائل في منهج ابن تيمية

الفصل الأول : الأساليب.

الفصل الثاني : الوسائل.

تمهيد

استعمال أساليب ووسائل غير مشروعة : سئل ابن تيمية رحمه الله عن رجل من أهل الخير والصلاح أراد منع قوم يجتمعون على الكبائر من القتل وقطع الطريق والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك .

وهذا الشيخ أراد منعهم بدعوتهم إلى الخير والعمل الصالح ،ولكنه لم يتمكن بالوسائل المشروعة والمباحة فسلك وسائل محرمة كالغناء بالأصوات الجميلة والألحان فصاروا يجتمعون على ذلك . ونيته إخراجهم من تلك الكبائر العظيمة بوسيلة السماع حتى يجرهم إلى الحق ، وقد تحقق ما يريد حيث تاب جماعة منهم .

والسؤال متوجه إلى معرفة رأي ابن تيمية في مثل هذه الوسائل في الدعوة ،فبدأ الجواب بتأصيل علمي منهجي فذكر أموراً منها :

أولاً : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق .

ثانياً : إن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه كامل شامل ، قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ (١) .

ثالثاً : السعادة في الدنيا والآخرة لمن أطاع رسوله صلى الله عليه وسلم والشقاوة في الدارين لمن عصاه ، قال تعالى : ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ (٢) .

رابعاً : إن ما يهدي به الله من الضلالة ويرشد به من الغواية وما يتوب به على أهل المعاصي موجود فيما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الكتاب والسنة كافيان وافيان بذلك .

ومن ترك ما فيها إلى أمر مبتدع مخالف لهما ظاناً عدم كفايتهما في الدلالة فإنه يترتب على ذلك اعتقاد نقصان الدين وحاجته إلى إتمام .

وما يراه بعض من الدعاة وسيلة تقرب إلى الله مما لم يشرعه في كتابه ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لابد أن يتضمن من الأضرار ما يزيد على ما به من

---

(١) سورة المائدة آية (٣)   (٢) سورة النساء آية (٦٩) .

منافع، ولو كان العكس لم يهمله الشارع « فإنه صلى الله عليه وسلم حكيم لا يهمل مصالح الدين ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين » (١) .

ثم قال في الإجابة بعد ذلك :« إذا تبين هذا فنقول للسائل : إن الشيخ المذكور قصد أن يتوّب المجتمعين على الكبائر فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي ، يدل على أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة ، أو عاجز عنها ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية ، التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية، فلا يجوز أن يقال : إنه ليس في الطرق الشرعية التى بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة ، فإنه قد علم بالاضطراب والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي » (٢) .

وكل من اهتدى على يدي الدعوة النبوية ووراثها الداعين على بصيرة من لدن خديجة وأبي بكر رضي الله عنهما إلى أن تقوم الساعة ، بل كل أمصار المسلمين وقراهم مملوءة من التائبين والمهتدين وكل ذلك كان بالطرق الشرعية لا بالطرق البدعية (٣) .

فلا يقال إن العصاة لا يتوبون إلا بوسيلة الطرق البدعية ،وإنما الصواب أن يقال : إن من الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية عاجزاً عنها ولا علم عنده بالكتاب والسنة مما يخاطب به الناس ويعلمهم إياه مما يكون سبباً لهدايتهم . ولتحقق جهله بذلك كله «يعدل عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية . إما مع حسن القصد إن كان له دين. وإما أن يكون غرضه الترأس عليهم وأخذ أموالهم بالباطل كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٤) » (٥) .

تم أخذ يحصر أغراض العادلين عن الوسائل الشرعية إلى وسائل بدعية محرمة وأنها ثلاثة أغراض فيقول : « فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل ، أو عجز ، أو غرض فاسد » (٦) .

والحكم على مثل هذه الأساليب والطرق بالحل أو الحرمة يلزم له النظر في المقاصد

(١) الفتاوى ٦٢٤/١١ ، وانظر ص ٦٢٠ - ٦٢٤ .
(٢) الفتاوى ٦٢٤/١١ .
(٣) انظر الفتاوى ٦٢٥/١١ .
(٤) سورة التوبة آية (٣٤) .
(٥) الفتاوى ٦٢٥/١١ .
(٦) الفتاوى ٦٢٥/١١ .

لأن الكلام فيها على ضربين :

أحدهما : أنه هل هو محرّم ؟ أو غير محرّم ؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس ، وغيرها مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله .

النوع الثاني : أن يفعل على وجه الديانة ، والعبادة ، وصلاح القلوب ، وتجريد حب العباد لربهم ، وتزكية نفوسهم ، وتطهير قلوبهم ، وإن تحرك من القلوب الخشية والإنابة ، والحب ، ورقة القلوب ، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات ، والطاعات لا من جنس اللعب والملهيات » (١) .

لأن النية والقصد مؤثرة في الحكم على الفعل ، فلو « سئل عمن يقوم في الشمس قال هذا جائز ، فإذا قيل : إنه يفعله على وجه العبادة . قال : هذا منكر كما روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال : من هذا ؟ قالوا : هذا أبو إسرائيل يريد أن يقوم في الشمس ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ،فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مروه فليتكلم ، وليجلس وليستظل وليتم صومه) (٢) ، فهذا لو فعله لراحةٍ ، أو غرض مباحٍ لم ينه عنه لكن لما فعله على وجه العبادة نهى عنه » (٣) .

ثم قال :« ولا يقول أحد من أئمة المسلمين : إن اتخاذ هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى أمر مباح ، بل من جعل هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى فهو ضال مفتر ومخالف لإجماع المسلمين ،ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم » (٤) . والأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه ، ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم .

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات ، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات

(١) الفتاوى ٦٣٢/١١ - ٦٣٣ .
(٢) سبق تخريجه في صفحة (٤٠٨) .
(٣) الفتاوى ٦٣٢/١١ .
(٤) الفتاوى ٦٣٣/١١ .

كان ذلك ديناً لم يشرعه الله ... » [1] .

والوسائل والأساليب من الأمور الاجتهادية ولا يصح القول بأنها توقيفية ؛لأنه لم يرد في الكتاب والسنة ما يدل على التوقيف ، والصحابة رضوان الله عليهم من بعد النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون إلى يومنا هذا يستعملون وسائل وأساليب عديدة يستعينون بها على أداء عباداتهم ودعوتهم ولم يعارض أحد ذلك .

فمن ذلك استعمال بعض أنواع سلاح الفرس ووضع الدواوين واتخاذ دار للخلافة وبناء المدارس للتعليم ،واستعملوا ما يسمى بالدبابة ليصلوا بها إلى جدران القلاع والحصون واستعملوا الساعة ، كل ذلك مستجد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو في زمن الصحابة والتابعين ومن بعدهم ،ولم ينكر أحد منهم هذه الوسائل والأساليب بحجة أنها مبتدعة .

فيكون هذا إجماعاً من الأمة على أن الوسائل والأساليب ليست توقيفية ،بل إن ابن تيمية له رأي في هذه المسألة ، يقول رحمه الله حينما تحدث عن الزاد والراحلة في الحج : « ليست كل راحلة بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا تركب » .

ويقول عن العلم :« ليس كل علم بعد النبي صلى الله عليه وسلم يترك » ، وإني لأجزم ببدعية القول (بتوقيف) أساليب الدعوة ووسائلها لمخالفته منهج السلف ومن بعدهم إلى يومنا هذا .

وواقع الأمة اليوم – وهي تستعمل في شئون حياتها ودعوتها وسائل لم تكن في عهده صلى الله عليه وسلم وعلماء الأمة يجيزون ذلك بإجماع – خير شاهد على أن وسائل الدعوة وأساليبها اجتهادية .

---

(١) مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية /١٥ تحقيق عبدالرحمن دمشقية .

الفصل الأول

الأساليب في منهج ابن تيمية

وتحته مباحث :

الأول :القدوة.

الثاني : الجدل والحوار والمناظرة .

الثالث : الفتاوى.

توطئة : تعريف الوسيلة والأسلوب

الوسيلة :

الوسيلة أمرها لازم لا يمكن - واقعاً - ولا يتصور - عقلاً - الاستغناء عنها ،وابن تيمية يجعلها شطراً لما لا بد منه للداعية الذي يدعو غيره إلى أمر من الأمور حيث يحتاج في ذلك إلى أمرين لا بد منهما :

أحدهما : المقصود المراد [وهو ما يمكن أن نسميه بالموضوع ، أو الفكرة ، أو المشروع] .

الثاني : الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود» (١) .

فالوصول إلى الموضوع أو الفكرة أو المشروع لايتم إلا بوسيلة تناسب طبيعته ، وهذا يجعلنا نقول إنه يتحتم اتخاذ الوسيلة في الدعوة ، فهي إذن مسألة شرعية وضرورة عقلية ، وهي من الأسباب التي يأمر بها الله عز وجل .

وهذا الكلام يدفعنا إلى البحث عن دلالة هذا المصطلح وما يراد به في اللغة والاصطلاح .

تعريف الوسيلة :

أولاً : الوسيلة لغة : الوسيلة في اللغة العربية لفظ يستعمل للدلالة على ما يستخدم في تقريب الشيء ، وإيصاله إلى الغير، أو في الوصول إلى الشيء أو القرب منه، ويستعمل أيضاً لمعان منها :

الوسيلة : القربة : يقال : وسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرب به إليه .

وتوسل إليه بكذا : تقرب إليه بحرمة آصرة تعطفه عليه .

والوسيلة : الوصلة والقُربى ، وجمعها الوسائل (٢) .

قال الجوهري : الوسيلة : ما يتقرب به إلى الغير ، والجمع الوُسُل والوسائل .

وهي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به (٣) .

---

(١) الفتاوى ١٥/١٦٢ .

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور ١١/٧٢٤، ٧٢٥ طبعة دار صادر .

(٣) الصحاح للجوهري مادة (وسل) .

إذن الوسيلة لغة : هي ما يتوصل به إلى الشيء ، ويتقرب به .

ثانياً : الوسيلة اصطلاحاً : عرف كثير من العلماء الوسيلة نظراً لورودها في القرآن الكريم والسنة المطهرة كقوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ...﴾ (١) أي القربة .

وقال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ (٢) . وفي الحديث الشريف (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة) (٣) .

ونذكر بعض التعريفات الواردة لمصطلح الوسيلة :

ورد في الجامع لأحكام القرآن قوله : « الوسيلة : القربة التي ينبغي أن يُطلَب بها» (٤) .

وفي تفسير القرآن العظيم قال : « الوسيلة هي : ما يتوصل بها إلى تحصيل المقصود» (٥) ، وفي تفسير التحرير والتنوير قال : « فالوسيلة : ما يقرب العبد من الله بالعمل بأوامره ونواهيه » (٦) .

فالوسيلة إذن اصطلاحاً : ما يستعمله الداعية من إمكانات يوصل بها الدعوة إلى المدعوين وغالباً تكون حسيّة .

وأما الأسلوب : فقد تعرض العلماء لتعريفه لغة واصطلاحاً ، وهذه بعض تلك التعريفات :

---

(١) سورة المائدة آية (٣٥) . (٢) سورة الإسراء آية (٥٧) .

(٣) أخرجه مسلم من حديث عمرو بن العاص ، كتاب الصلاة ، باب ٧ استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله له الوسيلة رقم الحديث ٣٨٤ صحيح مسلم ٢٨٨/١ ، ٢٨٩ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ٥ مجلدات .

(٤) للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي ١٥٩/٦ مصورة عن طبعة دار الكتب الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧هـ .

(٥) لابن كثير ٩٧/٣ تحقيق عبدالعزيز غنيم ، ومحمد عاشور ومحمد البنا القاهرة ، دار الشعب .

(٦) للشيخ محمد عاشور تفسير الجزء ٦ سورة المائدة /١٨٧ .

أولاً: الأسلوب لغة :

قال ابن منظور ويقال للسطر من النخيل : أسلوبٌ وكل طريق ممتد ، فهو أسلوب، قال : والأسلوب الطريق ، والوجه [(١)] والمذهَبُ يقال : أنتم في أُسلُوب سوء ،ويجمع : أساليب .

والأُسلوبُ بالضم : الفَنُّ ، يقال : أخذ فلانٌ في أساليب من القول أي : أفانين منه. ويطلق على التكبر أُسْلُوب « وإنَّ أنفه لفي أُسْلُوب إذا كان متكبراً » [(٢)] .

ونلاحظ هذه المعاني للفظ « أسلوب » ،فـهي تدل على أداء الشيء وإيقاعه قولاً أو فعلاً ، وعلى ما يصدر من الإنسان من بعض السلوكيات وعلى ما يعتني الإنسان بإتقانه من منظوم ومنثور .

ثانياً : الأسلوب اصطلاحاً :

عُرّف الأسلوب بعدد من التعريفات منها :

أولاً : « الطريقة التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه .

أو هو : المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه .

أو هو : طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم » [(٣)] .

ثانياً : الأساليب : جمع أسلوب وهو : الفن ، فأساليب الدعوة هي فنون الدعوة،وهي الشكل الذي يتم به الأداء [(٤)] .

ثالثاً : الأسلوب : « عرض ما يراد عرضه من معان وأفكار وقضايا في عبارات وجمل مختارة لتناسب فكر المخاطبين وأحوالهم وما يجب لكل مقام من المقال » [(٥)].

إذن فأساليب الدعوة : هي الكيفيات التي يتم بها أداء الدعوة وتبليغها من الأمور المعنوية الفنية ، وأنواع المسالك التأثيرية . وهي في الغالب غير حسية .

---

(١) لعل الصواب (الوجهة) .

(٢) لسان العرب لابن منظور ٤٧٣/١ ماده « سلب » .

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمؤلفه محمد عبدالعظيم الزرقاني ٣٠٣/٢ ، مطبعة دار الفكر .

(٤) مناهج الدعوة وأساليبها . للدكتور علي جريشة /١٦ .

(٥) المرأة المسلمة المعاصرة، للدكتور أحمد بن محمد أبابطين /٥٢٣ ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع بالرياض ، ط الأولى عام ١٤١١هـ .

الفرق بين الوسيلة ، والأسلوب :

الوسيلة غالباً تكون من أشياء مادية محسوسة ، والشيء الواحد قد يكون وسيلة من وجه، ومن وجه آخر أسلوباً ،وهذا عائد إلى أن الوسائل أوعية الأساليب وحاملة لها.

مثال على ذلك : المسجد ، أو المدرسة : المكان وأبنيته إذا استخدم في الدعوة فهو « وسيلة » من وسائلها .

وأما ما يلقى فيها من الدروس والمحاضرات والندوات ونحو ذلك فهذا أسلوب من أساليب الدعوة والتربية .

مثال ثانٍ : الداعية بشخصه وذات نفسه يعد وسيلة من وسائل الدعوة ، أما كلامه من التعليم والوعظ والمجادلة ونحو هذا فهو أسلوب من أساليب الدعوة .

مثال ثالث : مكبر الصوت : وسيلة من وسائل الدعوة ، وما يستعمل فيه من أنواع الاستعمالات الدعوية فهو أسلوب من أساليب الدعوة .

مثال رابع : الخطابة : يتم من خلالها نشر الدعوة بالكلمة أو القول : فالقول وسيلة من وسائل نشر الدعوة . لكنه قد يكون وعظاً بالترغيب أو الترهيب ، وقد يكون خطابة حماسية عاطفية وقد يكون درساً علمياً ، وقد يكون قصصياً ... الخ . فهذه كيفيات أُدي بها القول : فهي أساليب .

ويمكن استعمال الوسيلة الواحدة لأكثر من أسلوب . ولو تأملنا بعض ما كتبه المؤلفون في علوم الدعوة لوجدنا أن بعضاً منهم – عند ذكر الأساليب والوسائل – يدخل شيئاً في الأساليب بينما نجده عند آخر في الوسائل ، ولعل هذا عائد إلى عدم الدقة في تحديد دلالة هذين المصطلحين ، إضافة إلى ما ذكرته آنفاً من أن الوسائل حاملة للأساليب .

ولعله قد تبين لك أيها القارىء الكريم التفريق بين الوسيلة والأسلوب من خلال هذا الإيضاح الموجز حتى يتسنى لنا الحديث عن بعض أساليب ووسائل الدعوة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية بادئين بالأول منها .

القـــدوة

تقدم فـي الأخـلاق أن ابـن تيميـة يـرى أن منهـا مـا هـو مكتسـب ؛ لأن الإنسـان يتأثـر بأخلاق من يسـاكنهم ويجالسهم ويخالطهم بأي نوع مـن أنواع الخلطة حتى ولو كان يخـالط نوعاً مـن البهائـم تأثر بطبـاعه « ولما كـان بين الإنسان مـشاركة في الجنس الخاص : كان التـفاعل فيه أشد ، ثم بـينه وبين سائر الحيـوان مشاركة في الجنـس المتوسط فلا بد من نوع تفاعل بقدره . ثم بينه وبين النبات مشاركة في الجنس البعيد مثلاً ، فلا بد من نوع ما من المفاعلة ، ولأجل هذا الأصل : وقع الـتأثر والتأثير في بني آدم ، واكتساب بعضهم أخـلاق بعض بالمشاركة والمعـاشرة ، وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعـاً من الحيوان اكتسب من بعض أخلاقه .

والمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة علـى وجه المسارقـة والتدريـج الخفي .إن المشـابهة في الـظاهر تـورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهـر وهذا أمر يشهد به الحس والـتجـربه » [1] .والداعـي إلى الـفعل يـقوى في الـنفـس برؤية الـغير مـن النـظراء والأقران يفعلونه فإنه يندفع لفعله مثلهـم « فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض » [2] . والتقليد ومحـاكاة الغير أمر فطري في النفوس يـبدأ منذ الطفولة ، فالـطفـل يكتـسب كلامـه وحركـاته وتصـرفاته عـن طريـق التقـليد لـلأبويـن والإخوان والأقارب ،ومن هنا جاء الحديث الشريف ليؤكد هذا المعنى ويحذر منه (كل مولود يولد على الفطـرة فأبـواه يهودانـه أو ينصرانـه أو يمجسانـه)، ويقـول ابن تيمية :أو يجهمانه ، ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلـم علـى اختيـار الزوجـة ذات الديـن (فاظفر بذات الدين تربت يداك) [3].وجاءت نصوص الشريعة محذرة من التشبه والاختلاط باليهود والنصارى والمجوس وسائر الكفرة والمنافقين ومن لا خلاق لهم .

وفي المـقابل جـاءت مؤكدة عـلى الاقتـداء بالنـبي صلـى الله عـليه وسـلم وأتبـاعه

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢١٩ ، ٢٢١ .
(٢) ١٤٩/٢٨ انظر نظريات ابن تيمية في علم السياسة والاجتماع هنري لاوست /١١٣ .
(٣) متفق عليـه من حديث أبي هريرة أخرجه البخـاري كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الـدين ، فتح الباري ١٣٢/٩ . ومسلم في كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدين ١٠٨٦/٢ .

والاقتداء بالذين من بعده أبو بكر وعمر (١) ،واتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وكذلك تؤكد على اختيار الخليل والجليس والصاحب ، والعالم الذي يتعلم عليه أو يستفتيه كما جاء في الأحاديث (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ...) (٢) وحديث (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) (٣) . وحديث (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم) (٤) ، وغير هذه الأحاديث كثير ويؤكد علماء السلف على تلاميذهم وأتباعهم وأصحابهم بالبعد عن أصحاب الأهواء والشهوات والبدع فالإمام أحمد رحمه الله ينهى عن الاجتماع بأصحاب الحارث المحاسبي لأنه لم يرتض نهجهم .

وأهل الضلال أضلوا الجهم بن صفوان وأفسدوا عليه دينه فإن أول كلامه اشتقه من السمنية ، وكانوا شككوه في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوماً ... (٥) والتتار قلدوا من هو معهم ممن ينتسب « إلى العلم والدين من هو شر منهم ، فإن التتار جهال يقلدون الذين يحسنون بهم الظن ... » (٦) .

والقدوة المطلق الذي يقتدى به في كل شيء هو الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه هو المعصوم الذي لا يقول ولا يفعل إلا حقا ، وما سوى الرسول يؤخذ من قوله ما وافق الحق وهو ما قام عليه الدليل ويترك ما لا دليل عليه (٧) . وكثير من الناس يقع في الغلط في هذا المجال حيث يعتقد في شخص أنه من أولياء الله ،وأن ولي الله يقبل منه كل شيء ما يقوله ويفعله وإن خالف الكتاب والسنة ، فيوافق هذا الولي ويخالف الرسول صلى الله عليه وسلم فينتهي به ذلك أولاً إلى البدعة والضلال وآخراً إلى الكفر والنفاق (٨) .

---

(١) حديث حسن أخرجه الترمذي كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عن كليهما ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ٦٠٩/٥ رقم ٣٦٦٢ .

(٢) متفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه أخرجه البخاري كتاب الذبائح والصيد ، باب المسك ، فتح الباري ٦٦٠/٩ . ومسلم كتاب البر والصلة ومجانبة قرناء السوء ، صحيح مسلم ٢٠٢٦/٤ .

(٣) حديث صحيح عن أبي هريرة أخرجه أبو داود كتاب الأدب ، باب من يؤثر أن يجالس ، سنن أبي داود ١٦٨/٥ رقم ٤٨٣٣ . والترمذي كتاب الزهد باب ٤٥ وقال حسن صحيح ، سنن الترمذي ٥٨٩/٤ رقم ٢٣٧٨ .

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء ١٥٥/١ من حديث أنس وفي إسناده خليد بن دعلج ضعيف .

(٥) انظر ابن تيمية والتصوف /٤٥٠ ، ١٣ . (٦) الفتاوى ٥٥٢/٢٨ .

(٧) انظر الفتاوى ١٢٠/٣٥ ، ١٢١ ، وانظر الدرء ٢٨٢/٤ ، ومنهاج السنة ١٩٠/٦ ، ١٩١ .

(٨) انظر الفتاوى ٢١٠/١١ ، ٢١١ .

وهذا هو التقليد المذموم الذي يقبل فيه أقوال الآخرين من غير حجة [1] حتى أن بعضاً من هؤلاء المقلدين يطلع على أشياء من شيوخه تخالف العقل ، ويرى بعقله نقيض ما يقوله شيخه « فتجد أتباع أرسطو طاليس يتبعونه فيما ذكره من المنطقيات والطبيعيات والإلهيات ، مع أن كثيراً منهم قد يرى بعقله نقيض ما قاله أرسطو ، أو تجده لحسن ظنه به يتوقف في مخالفته ، أو ينسب النقص في الفهم إلى نفسه » [2] .

ومثل ذلك أيضاً الذين يتبعون الرؤساء أصحاب المقالات من أهل القبلة وفيها بدع مخالفة للكتاب والسنة وفيها مخالفة للعقل الصريح بشكل كثير واضح ، « كأتباع ابن الهذيل العلاّف[3] ، وأبي إسحاق النّظام [4]... وأبي الحسين البصري [5] وأمثالهم ، وكذلك أتباع من هو أقرب إلى السنة من هؤلاء كأتباع حسين النجار [6] ، وضرار بن عمرو [7]» [8]] وبرغوث ... وحفص الفرد وكذلك أتباع متكلمي أهل الإثبات ،

---

(١) انظر الفتاوى ١٩٧/٤ . (٢) الدرء ١٥١/١ .

(٣) هو : محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدي ، العلاّف ، كان من أئمة المعتزلة ، ولد في البصرة سنة ١٣٥هـ ، قال عنه المأمون : أطل أبو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الأنام كف بصره في آخر عمره ، وتوفي في سامرا سنة ٢٣٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥٤٢/١٠ ، الأعلام ١٣١/٧ .

(٤) هو : إبراهيم بن شيار بن هانيء البصري ، كان من أئمة المعتزلة ، قال فيه الجاحظ « الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك ، تبحر في الفلسفة ، واطلع على أكثر ما كتبه رجالها ، وانفرد بآراء خاصة تابعه فيها فرقة من المعتزلة سميت « النظامية » اتهم بالزندقة والارتداد .. ولقب بالنظام لأنه كان مجيداً لنظم الكلام ، وقيل لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة.. توفي سنة ٢٣١هـ ، وقيل سنة بضع وعشرين ومائتين هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥٤١/١٠ ، لسان الميزان ٦٧/١ ، الأعلام ٤٣/١ .

(٥) هو : محمد بن علي بن الطيب ، البصري ، أحد أئمة المعتزلة ، كان أصولياً بارعاً ويعد كتابه « المعتمد من دعائم أصول الفقه على طريقة المتكلمين » ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد .. وتوفي ببغداد سنة ٤٣٦هـ . انظر وفيات الأعيان ٢٧١/٤ ، سير أعلام النبلاء ٥٨٧/١٧ ، لسان الميزان ٢٩٨/٥ ، الأعلام ٢٧٥/٦ .

(٦) هو : الحسين بن محمد بن عبدالله النجار الرازي ، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة وإليه نسبتها ، كان حائكاً ، وكان له مع النظام عدة مناظرات وقيل : كان يعمل الموازين من أهل قم ، ومن متكلمي «المجبرة» ، توفي نحو سنة ٢٢٠هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥٥٤/١٠ ، الأعلام ٢٥٣/٢ .

(٧) هو : ضرار بن عمرو الغطفاني ، كان قاضياً وكان من كبار المعتزلة ، طمع برئاسة المعتزلة في بلده «غطفان » ولكنه لم يدركها شهد عليه الإمام أحمد بن حنبل عند القاضي سعيد بن عبدالرحمن الجمحي فأقضى بضرب عنقه ، فهرب .. يتبرأ منه المعتزلة ويعدونه من المجبرة ، توفي نحو سنة ١٩٠هـ . انظر لسان الميزان ٢٠٣/٣ ، سير أعلام النبلاء ٥٤٤/١٠ ، الأعلام ٢١٥/٣ .

(٨) الدرء ١٥٣/١ .

كأتباع ابن كلاب [1] وابن كرام [2]، والأشعري وغيرهم ، وهو موجود أيضاً في أتباع أئمة الفقهاء] [3] « كأصحاب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وغيرهم ، تجد أحدهم دائما يجد في كلامهم ما يراه هو باطلاً ، وهو يتوقف في رد ذلك ، لاعتقاده أن إمامه أكمل منه عقلاً وعلماً وديناً ، هذا مع علم كل من هؤلاء أن متبوعه ليس بمعصوم ، وأن الخطأ جائز عليه ، ولا تجد أحداً من هؤلاء يقول : إذا تعارض قولي وقول متبوعي قدمت قولي مطلقاً ، لكنه إذا تبين له أحياناً الحق في نقيض قول متبوعه ، أو أن نقيضه أرجح منه قدمه ، لاعتقاده أن الخطأ جائز عليه » [4] .

والمؤمن الكيس يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة ، وأطاعوا فيها الله ورسوله ، ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة أو عصوا فيه الله ورسوله ، ويقبل من كل طائفة ما جاء به الرسول كما قال صلى الله عليه وسلم : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) [5] » [6] .

والذين يقتدى بهم هم العلماء العاملون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر « قال الله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [7] ، وهذه الآية بها استدل المستدلون على أن شيوخ الدين يقتدى بهم في الدين ، فمن لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ولا ممن يقتدى به » .

ولكنه يحذّر أو ينبّه من أقوام يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر مع وقوعهم في تقصير كثير من المشروع من العبادات ، والأعمال الصالحة ، والعلم النافع ، أو في أحدهما ، وذلك كبعض أهل الفقه أو الذين لهم ميل إلى أهله ممن ينكرون على أهل النسك والعبادة والتصوف ،يقول رحمه الله : « وكثير من المنكرين لبدع العبادات

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤٧) .
(٢) هو : محمد بن كرّام بن عراق بن حزابة ، السجزي ، إمام الكرّامية من فرق الابتداع في الإسلام .. كان يقول بأن الله مستقر على العرش، وأنّ الله جوهر .. ولد ابن كرّام في سجستان وإليه ينسب السجزي ، حبسه طاهر ، وابنه محمد بنيسابور ، وخرج من الحبس سنة ٢٥١هـ ، ومات بالقدس سنة ٢٥٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥٢٣/١١ ، لسان الميزان ٣٥٣/٥ ، الأعلام ١٤/٧ .
(٣) الدرء ١٥٣/١ بتصرف . (٤) الدرء ١٥٣/١ ، ١٥٥ .
(٥) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، فتح الباري ٣٠١/٥ . ومسلم كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، صحيح مسلم ١٣٤٣/٣ .
(٦) الفتاوى ٢٨/١١ ، ٢٩ . (٧) سورة آل عمران آية (١٠٤) .

وتجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك - أو الأمر به ، ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ من حال من يأتي بتلك العادات المشتملة على نوع من الكراهة ... بل كثير من هؤلاء الذين ينكرون هذه الأشياء زاهدون في جنس عبادة الله من العلم النافع ، والعمل الصالح أو في أحدهما لا يحبونها ولا يرغبون فيها ، لكن لا يمكنهم ذلك في المشروع فيصرفون قوتهم إلى هذه الأشياء فهم بأحوالهم منكرون للمشروع وغير المشروع ، وبأقوالهم لا يمكنهم إلا إنكار غير المشروع » (١) .

فهؤلاء لا يكونون قدوة إلا فيما أنكروه مما هو منكر، أما المنكر الذي وقعوا فيه أو المعروف الذي قصروا فيه فيجانب هذا الخطأ منهم . وعلى المؤمن أن يكون بصيراً حاذقاً فـ « يعرف المعروف وينكر المنكر ، ولا يمنعه من ذلك موافقة بعض المنافقين له ظاهراً في الأمر بذلك المعروف والنهي عن ذلك المنكر ، ولا مخالفة بعض علماء المؤمنين فهذه الأمور مما ينبغي معرفتها والعمل بها » (٢) .

وحذّر ابن تيمية من أهل الفلسفة والنظر في كتبهم ، قال في التحذير منهم : « فاحذر مثل هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الإيمان أصحاب البصائر في الشبهات والشهوات » (٣) .

وحذّر من أهل المعاصي والبدع ومن مخالطتهم إلا لمن ينكر عليهم مع إظهار المقت لهم والكره لأفعالهم « وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ، ماقتاً لهم ، شانئاً ما هم فيه بحسب الإمكان ، كما في الحديث :(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (٤) ، فالمصاحبة والمصاهره والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله ، ويدل على ذلك الحديث الذي في السنن:(لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي) (٥)» (٦) .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٩٧ ، ٢٩٩ .   (٢) المرجع السابق /٢٩٩ .

(٣) الفتاوى ٦٩٧/١١ .

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكرات من الإيمان ، ورقمه ١٩ ، صحيح مسلم ٦٩/١ رقم الحديث ٤٩ تحقيق عبدالباقي .

(٥) حديث حسن عن أبي سعيد أخرجه أبو داود كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس ، سنن أبي داود ١٦٧/٥ رقم ٤٨٣٢ . والترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في صحبة المؤمن وقال الترمذي حسن ، سنن الترمذي ٦٠٠/٤ رقم ٢٣٩٥ .

(٦) التفسير الكبير ٢٩٠/٥ ، ٢٩٣ .

وهذه المصاحبة والمقارنة مؤثرة فإذا كانت « شراً » فإنه يحدث تأثر بهذه المصاحبة والمقارنة الشريرة عن طريق المحاكاة والاقتداء والتقليد ، والتقليد للقدوة الفاسدة يورث الباطل الذي يفسد الفطرة فتنكر ما هي مفطورة عليه بعد أن كانت مقرة به قبل فسادها (١) .

وفساد الفطرة أمر خطير لذا يوصي ابن تيمية أن يمر المختارون للصحبة والمقارنة بامتحان يظهر به صدقهم وطاعتهم من كذبهم وفجورهم ، خصوصاً أولئك الذين ينسب إليهم الفجور وأنهم قد تركوه وتابوا منه ،يقول رحمه الله : « والمؤمن محتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه بنكاح أو غيره ... فإذا أراد الإنسان أن يصاحب المؤمن ، أو أراد المؤمن أن يصاحب أحداً ، وقد ذكر عنه الفجور وقيل : إنه تاب منه ، أو كان ذلك مقولاً عنه سواء كان ذلك القول صدقاً أو كذباً ، فإنه يمتحنه بما يظهر به بره أو فجوره ، وصدقه أو كذبه » (٢) .

ومعرفة الناس وأحوالهم وصلاحهم لا تقتصر على طريق واحد وهو امتحانهم بل هو أحد ثلاثة طرق يتوصل بها إلى ذلك قال رحمه الله : « ومعرفة أحوال الناس : تارة تكون بشهادات الناس ، وتارة تكون بالجرح والتعديل ، وتارة تكون بالاختبار والامتحان » (٣) .

والقدوة منزلة عالية لم يعطها النبي صلى الله عليه وسلم لأحد من أمته بعده إلا إلى اثنين فقط « أبي بكر وعمر » في قوله : (اقتدوا باللذين من بعدي أبوبكر وعمر) (٤) ، وأما أتباع السنة فهي للخلفاء الراشدين جميعاً .

والدعاة من علماء الأمة وفقهائها يلزمهم أن يكونوا قُدْوةً فيما يرى الناس منهم والغلط منهم ليس كالغلط من غيرهم ، فإنه إذا كان فيهم شبراً كان في الأتباع ذراعاً ثم باعاً وهكذا ، وقد ورد عن الأوزاعي رحمه الله قوله :« كنا نضحك ونمزح فإذا صرنا يقتدى بنا فلا أرى ذلك يسعنا » (٥) .

وابن تيمية يشدد على القدوة من العلماء والحكام والأمراء وسائر الولاة والدعاة في

---

(١) انظر الرد على المنطقيين /١٤٧ ، والفتاوى ١٣٨/٩ ، ١٣٩ .
(٢) التفسير الكبير ٢٩٥/٥ ، ٢٩٦ . (٣) السابق /٢٩٦ .
(٤) حديث حسن أخرجه الترمذي كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عن كليهما ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ٦٠٩/٥ رقم ٣٦٦٢ .
(٥) تلبيس إبليس / ١٥٥ . قدم له وحقق أحاديثه محمود مهدي الإستانبولي ، ط سنة ١٣٩٦هـ .

ضبط سلوكياتهم وأعمالهم وتسييرها وفق السنة ، وعلى رأس القدوة العلماء ،فهم قدوة في صدق الكلمة ، وفي صدق السلوك الظاهر والباطن ، وكذبهم في العلم وإظهارهم للمعاصي والبدع التي تمنع الثقة بأقوالهم ، وتصرف القلوب عن أتباعهم وتقتضي متابعة الناس لهم فيها هي من أعظم الظلم ، ويستحقون من الذم والعقوبة عليها ما لا يستحقه من أظهر الكذب والمعاصي والبدع من غيرهم ، لأن إظهار غير العالم وإن كان فيها نوع ضرر - فليس هو مثل العالم في الضرر الذي يمنع ظهور الحق - ويوجب ظهور الباطل ، فإن إظهار هؤلاء للفجور والبدع بمنزلة إعراض المقاتلة عن الجهاد ، ودفع العدو ليس هو مثل إعراض آحاد المقاتلة لما في ذلك من الضرر العظيم على المسلمين» (١). « وكان غير واحد من السلف يقول : « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » (٢) .

وابن تيمية حرص أن يكون قدوة وأن يجاهد نفسه على ذلك حتى لا يظهر منها إلا الخير والفضيلة ، وحرص أن يكون فعله يصدّق قوله ،وقد قيل عنه من معاصريه ما يدل على أنه كان من الذين يقتدى بهم ، من ذلك ما يلي : قال الإمام الذهبي (٣)رضي الله عنه :« ... شيخ الإسلام ، مفتي الفرق قدوة الأمة » (٤) ، وقال كمال الدين ابن الزمْلِكَاني(٥) تقي الدين : «شيخ الإسلام ومفتي الأنام سيد العلماء قدوة الأئمة الفضلاء... حجة الله على عباده » (٦) ، وقال في تعليقه على كتاب ابن تيمية رفع الملام عن الأئمة الأعلام: « ... الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، قدوة الأمة ... » (٧) .

وقال أحد قدماء أصحاب ابن تيمية عنه :« ... حتى كان مقالُه بلسان حاله وحالُه ظاهر في مقاله » (٨) ، وقال علم الدين البرزالي (٩) عن ابن تيمية وانتفاع الناس به لأسباب منها : « ... موافقة قوله لعمله » (١٠) .

---

(١) الفتاوى ١٨٦/٢٨ - ١٨٨ .
(٢) الفتاوى ١٩٧/١ .
(٣) انظر ترجمته في الباب الرابع .
(٤) العقود الدرية /٩ .
(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (١٧٨) .
(٦) العقود الدرية /٨ .
(٧) العقود الدرية /٩ .
(٨) العقود الدرية /٦ .
(٩) هو : علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي مؤرخ الشام الشافعي ، ولد سنة ٦٦٥هـ وكان له خط حسن ، وخلق حسن ، وهو مشكور عند القضاة ومشايخه أهل العلم . سمعت العلامة ابن تيمية يقول : نقل البرزالي نقر في حجر ، وكان أصحابه من كل الطوائف يحبونه ويكرمونه ، وكان شيخ حديث بالنورية ، وفيها وقف كتبه بدار الحديث السنية .. توفي سنة ٧٣٩هـ رحمه الله . انظر : البداية والنهاية ١٦١/١٤ .
(١٠) العقود الدرية /١٣ .

ولما كان في النفوس الميل إلى التقليد والمحاكاة خصوصاً فيمن كان بينهم تجانس واشتباه فإن « الله تعالى جبل بني آدم بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين ، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط ... » (١) ، فإن هذا الاقتداء والتقليد والمشابهة والمحاكاة قد تتصاعد عن المشروع إلى الغلو المذموم الذي هو سبب الهلاك .

ومبدأ الشرك كان الغلو بالبشر الصالحين وتعظيمهم وإعطائهم منزلة فوق منزلتهم البشرية « وأصل الشرك في بني آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ، فإنهم لما ماتوا ، عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم ، فهذا أول شرك كان في بني آدم وكان في قوم نوح » (٢) .

وفي أمة محمد غلا أقوام من المتعبدة والمتصوفة بالأنبياء والصالحين حتى وقعوا في حلول واتحاد جاوزوا فيه ضلال اليهود والنصارى أو مثله أو دونه . ثم إنهم أطاعوا من غلوا فيه من الصالحين ومن يدعون لهم الولاية حتى فيما يحلّلونه من الحرام ويحرّمونه من الحلال فكانوا كما قال اللـه تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٣) ، (٤) .

« وبعض المتصوفة المريد يعتقد أن شيخه أكمل شيخ على وجه الأرض وطريقته أفضل الطرق وكلاهما انحراف » (٥) .« ومن الناس من يكون نشأ على مذهب إمام معين ، واستفتى فقيهاً معيناً أو سمع حكاية عن بعض الشيوخ فيريد أن يحمل المسلمين كلهم على ذلك وهذا غلط » (٦) .وكذلك الرافضة في هذه الأمة وقعوا في الغلو فإن فيهم من ادعى الإلهية في علي وهؤلاء شر من النصارى ، وفيهم من ادعى النبوة فيه ... وهؤلاء الإمامية يدّعون فيه وفي ذريته العصمة ، وادّعاء العصمة تضاهي المشاركة في النبوة (٧) .

« وكثير من غلا في المشايخ يعتقد أحدهم في شيخه نحو ذلك ويقولون : الشيخ محفوظ ، ويأمرون باتّباع الشيخ في كل ما يفعل ولا يخالف في شيء أصلا ،وهذا من

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم/ ٢١٩ . (٢) التفسير الكبير ٣٩٧/٣ .
(٣) سورة التوبة آية (٣١) . (٤) انظر اقتضاء الصراط المستقيم/ ٩ .
(٥) التفسير الكبير ٤٦٣/٣ . (٦) الفتاوى ٣١٦/٢٩ . (٧) انظر منهاج السنة ١٨٧/٦ .

جنس غلو الرافضة والنصارى والإسماعيلية تدّعي في أئمتها أنهم كانوا معصومين .

وأصحاب ابن تومرت الذي ادعى أنه المهدي يقولون : إنه معصوم ،ويقولون في خطبة الجمعة : الإمام المعصوم والمهدي المعلوم يقال : إنهم قتلوا بعض من أنكر أن يكون معصوماً .

ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الإسلام : الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها » (١) ،ومخالفة أيضاً للعقل الصحيح السليم . وكل أحد بعد الرسول صلى الله عليه وسلم يجوز عليه الخطأ والصواب والذنوب ،ومنهم من يتوب ومنهم من تكفر سيئاتهم بحسناتهم ،ومنهم من تكفر بمصائب تصيبهم ، ومنهم من يكفر عنهم بغير ذلك (٢) .

ولا يعني أن هؤلاء العلماء والمشايخ الصالحين والصديقين ليس لهم حقوق ، بل حقهم في الدين واجب وهو « المحبة والإجلال ، ونحو ذلك من الحقوق التي جاء بها الكتاب والسنة ، وكان عليها سلف الأمة » (٣) .

فمنهج الدعوة عند ابن تيمية أن الحق يتلقى من الكتاب والسنة والقدوة المطلق هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ،وأما غيره من الناس فكل يؤخذ من قوله ويرد ، وليس لأحد أن ينصب إماماً ، أو شيخاً أو طائفة معينة يدعو الناس إلى ذلك ويوالي ويعادي بموجب ذلك فإن هذا هو الغلو المذموم ، وهذا انحراف كانحراف الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والمتصوفة والخوارج ،كل طائفة منهم وضعت لها طريقاً ومنهجاً وفكراً من خالفها فيه كان عندها مذموماً منقوصاً أو كافراً مرتداً .

وبكل ما تقدم فإن ابن تيمية رحمه الله يرسم لنا منهج الاقتداء والتقليد ويوضح معالمه مبيناً المحاذير التي يلزم اجتنابها والأخطاء التي يجب الحذر منها .

---

(١) منهاج السنة ١٨٩/٦ .

(٢) انظر منهاج السنة ١٩٦/٦ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم /٣٣٦ .

المبحث الثاني

الجدل والحوار والمناظرة

مقدمة :

بدأ ابن تيمية الجدل والحوار والمناظرة في زمن مبكر من عمره ،ويندر في أطوار البشرية أن يكون ذلك حيث يبدأ غلام صغير لم يبلغ الرشد في جدال مع المخالفين في مسائل كبار من أمور الدين ، فابن تيمية نادرة النوادر وأعجوبة فريدة في هذا الشأن إلى حد يبهر العقول .

وهذا هو - رحمه الله - يحكي مناظرته مع أحد المحبين للفلاسفة والمتكلمين والمحبين لمناهجهم وطرقهم يقول : « وأذكر أني قلت مرة لبعض من كان ينتصر لهم من المشغوفين بهم وأنا إذ ذاك صغير قريب العهد من الاحتلام - كل ما يقوله هؤلاء ففيه باطل ، إما في الدلائل وإما في المسائل ... » الخ [(١)] .

ولقد تصدى لكل من خالف الحق ونهج غير منهج السلف فانبرى لكل « الفرق التي كانت تعيش في عصره ، وجادلها بالمنطق والحجة ، ورفع على آراء أصحابها معول الهدم ، فناقش أصحاب الحلول والاتحاد ، وهاجم آراء المسيحية في الألوهية ، والصلب، وهاجم أصحاب اليهودية وصب عليهم من قلمه سوط عذاب ... » [(٢)] .

وما من شك أن الجدل مع هؤلاء يثيرهم ويجعلهم في موقف لا بد أن يدافعوا عن آرائهم ، ومنهم من يشعر بالعجز عن الرد فيلجأ إلى استعداء الموافقين والأتباع والأصدقاء ، فيكون من ذلك بعض الاضطراب ، وأحياناً تصل إلى تدخل السلطة والقضاء ونحو ذلك ، ولكن ابن تيمية لا يبالي بكل ما يصيبه في سبيل الحق ، إلا أننا نجده يراعي أوقات الاضطراب في الدولة من داخلها ، أو بسبب خارجي، ففي مثل هذه الحالات كان يقل جدله ويقتصر على ما لا يقتضي الأمر تأجيله . وهو بالعكس من ذلك « في الفترات التي كانت تقوى فيها سلطة الدولة ويبتعد فيها تهديد السلام » [(٣)] .

وإنما ينهج ابن تيمية هذا النهج مراعاة للمصلحة وصرفاً للجهود إلى مواجهة الخطر والشر المستجد ، والوقوف مع ولاة الأمور والعامة وسائر الناس ، وإبداء النصيحة

---

(١) الفتاوى ٤/ ٢٧ . (٢) التفسير الكبير ١/ ٥٤ مقدمة المحقق .

(٣) انظر نظرية شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع /٢٦٨ .

والرأي ، وهذا دأبه في كل الأزمات والملمات .

والعلماء قديماً وحديثاً اهتموا بهذا الأسلوب اهتماماً كبيراً فوضعوا له القواعد والأسس وجعلوها علماً لا بد للمناظر من معرفته ، وهذا ابن الجوزي (١) رحمه الله يعبر عن هذه المعاني فيقول : « اعلم وفقنا الله وإياك : أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنها ناظر ، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر ، لأن به يتبين صحة الدليل من فساده – تحريراً وتقريراً – وتتضح الأسئلة الواردة من المردودة – إجمالاً وتفصيلاً – ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة (٢) ،ولو خلي كل مدّعٍ ودعوى ما يرومه على الوجه الذي يختاره، ولو مكن كل مانع من ممانعة (٣)ما يسمعه متى شاء ، لأدى إلى الخبط وعدم الضبط .

وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل ، وتميز المستقيم من السقيم ، فمن لم يحط بها علماً كان في مناظرته كحاطب ليل » (٤) .

وهذا النص يؤكد أهمية القواعد والآداب الجدلية وضرورة العناية بها ليحقق الجدل والمناظرة أهدافه ومقاصده ؛لأن النفوس البشرية تكره الغلبة والانهزام في أقل الأشياء وهذا في الإنسان منذ طفولته ، وهذا يدفعه إلى تحقيق النصر على من أراد غلابه أو التفوق عليه في الأمور الدنيوية ، والناس مفطورون على الجدل في الأمور التي تخص دنياهم ، فما خص دينهم فهو آكد وألزم .

والنفوس البشرية في أثناء تجادلها وتخاصمها تكون في أعلى قمة من الانفعال وشد الأعصاب ، والتحفز ، واستجماع القوى الذهنية ، خصوصاً إذا كانت المناظرة على ملأ من الناس .

---

(١) هو : يوسف بن عبدالرحمن بن علي بن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي أستاذ دار الخلافة ، ولد ببغداد سنة ٥٨٠هـ وتوفي سنة ٦٥٦هـ ، قتل شهيداً على يدي التتار حين سقوط بغداد بأيديهم ، وله من المؤلفات : المذهب الأحمد في مذهب أحمد ، الإيضاح لقوانين الاصطلاح . انظر البداية والنهاية ١٣/١٩٣ مطبعة المتوسط بيروت – لبنان .

(٢) المنازعة في المسألة العلمية لا لإظهار الصواب ، بل لإلزام الخصم ، وقيل : كابرته مكابرة : غالبته مغالبة وقيل : المكابرة : مدافعة الحق بعد العلم به . انظر : التعريفات للجرجاني /١١٩ ، والمصباح المنير ٢/١٨٣ (كبر) .

(٣) الممانعة : المنازعة ،وذكر الجرجاني أنها : امتناع السائل عن قبول ما أوجبه المعلل من غير دليل . انظر الصحاح /١٢٨٧ والتعريفات /١٢١ .

(٤) الإيضاح لقوانين الاصطلاح لأبي محمد يوسف بن الجوزي الحنبلي /٥ .

فهذه الحالة قد تدفع بالمتخاصمين أو أحدهما إلى تعدي الحد الشرعي أو الأدبي الأخلاقي في حق الآخر ، وكما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «إن للخصومات قحماً وإن الشيطان يحضرها » (١) .

وفي الإسلام الهدف من الجدل والحوار والمناظرة إما إحقاق حق ، أو دفع باطل(٢). وإذا كان في هذا الإطار فهو عبادة بل جهاد في سبيل الله عز وجل ودعوة إلى الله ونصرة لدينه .

وإذا خرج عن هذا الإطار المشروع فأصبح جدالاً بالباطل والزور أو بالكذب والبهتان أو من أجل عصبية أو قبلية أو سياسات جاهلية ، أو من أجل إظهار القدرة العلمية والبلاغية ونحو هذه الأغراض الفاسدة ، فهو جدال وحوار ومناظرة في سبيل الشيطان .

وحتى يتم الجدل والحوار والمناظرة ويحقق الفائدة التي كان من أجلها ،لا بد أن يلتزم المتناظران آداب المناظرة ، وابن تيمية رحمه الله يذكر بعضاً منها في أماكن متفرقة من كتبه نورد هنا إشارات إليها .

---

(١) منهاج السنة النبوية ١٦٩/٦ .

(٢) يقول ابن القيم رحمه الله وهو يذكر أحوال الناس من الدعوة : « ... وإما أن يكون معانداً معارضاً فهذا يجادل بالتي هي أحسن فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن ،فلمناظرة المبطل فائدتان : أحدهما : أن يُرَدّ عن باطله ويُرْجَع إلى الحق . الثانية : أن ينكف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف ... » الصواعق المرسلة ١٢٧٦/٤ .

المطلب الأول : مسائل في قواعد وآداب الجدل والحوار والمناظرة :

* المسألة الأولى : الجدل والمناظرة من الأمورالفطرية :

الجدل والمناظرة فطريان جبلت النفوس عليه في أمور الناس في دينهم ودنياهم . قال رحمه الله لما سئل : هل يلزم الاستدلال على الإيمان أم يكفي حصول المعرفة بلا استدلال ؟ فتضمن جوابه :

أن هذا اللفظ فيه إجمال : فإن أريد بالاستدلال نظم الأدلة والإجابة عن المعارضات فهذا لا يحسنه إلا من يحسن الجدل .

وإن أريد به نفس طلب العلم بالشيء بالدليل ، والنظر فيما يدل على الشيء ، فهذا مركوز في فطرة جميع الناس ، فإنه ما منهم من أحد إلا وعنده من نوع النظر والاستدلال ، بل ومن نوع الجدال ، بحسب ما هداه الله إليه من ذلك ،وقد قال تعالى: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ (١) ،والإنسان يجادل بالباطل ليدحض به الحق، من غير معرفة بقوانين الجدل ، فكيف لا يجادل بالحق .

وللناس من النظر والمناظرة في صناعاتهم وأمور دنياهم ، ما يبين أن النظر والمناظرة مركوز في فطرهم ، فكيف في أمور الدين » (٢) . ويمكننا القول إن « الجدل ظاهرة إنسانية بل عالمية لوجودها في غير الأجناس البشرية كالملائكة ، وإبليس ...

إن النفس البشرية مجبولة على حب الدفاع عنها وتقرير مطالبها وإيضاح أبعاد مقاصدها حتى في مواقف القيامة ، فإنها لا تتخلى عن هذه النزعة البيانية الإنسانية كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ (٣) » (٤) .

« فالجدل يعود بمعناه العام إلى نزعة البيان والإفصاح المودعة فطرياً في الإنسان ... فالجدل ضرورة حتمية بمعناه العام ، فلا يقال إنه واجب ولا مكروه لأنه طبيعة وجبلة في الفطرة الإنسانية : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ (٥) » (٦) .

ولما كان فطرياً مركوزاً في فطرهم جاء الإسلام ليوجه هذه الطاقة الفطرية ويفيد منها في الدعوة ، جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة النهي عن أمور سلوكها

---

(١) سورة الكهف آية (٥٤) .
(٢) الدرء ٧/٤٣٩ ، وانظر المدخل إلى علم الدعوة /٢٦٥ .
(٣) سورة النحل آية (١١١) .
(٤) مناهج الجدل د/ زاهر عوض الألمعي /٣١ .
(٥) سورة الكهف آية (٥٤) .
(٦) مناهج الجدل /٣١ ، ٣٢ .

انحراف وضلال بهذه الفطرة واستعمال لها في غير مراد الله ، فمن ذلك : «القول على الله بلا علم كقوله تعالى: ﴿ وأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

ومنها أن يقال على الله غير الحق كقوله : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ [3] .

ومنها الجدل بغير علم كقوله تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ [4] .

ومنها الجدل في الحق بعد ظهوره كقوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ [5] ، ومنها الجدل بالباطل كقوله : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [6].

ومنها الجدل في آياته كقوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) ﴾[7] ، وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم توافق كتاب الله ، كالحديث المشهور عنه الذي روى مسلم بعضه عن عبدالله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ، ورجل يقول: ألم يقل الله كذا ؟ ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقيء في وجهه حَبُّ الرمان ، فقال : أبهذا أمرتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدّق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه بعضا، انظروا ما أمرتم به فافعلوه ، وما نهيتم عنه فاجتنبوه) [8] ... وكذلك قوله: (المراء في القرآن كفر) [9] » [10].

---

(١) سورة البقرة آية (١٦٩) . (٢) سورة الأعراف آية (١٦٩) . (٣) سورة النساء آية (١٧١) .
(٤) سورة آل عمران آية (٦٦) . (٥) سورة الأنفال آية (٦) . (٦) سورة غافر آية (٥) .
(٧) سورة غافر آية (٤) .
(٨) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم ٨٥ المقدمة، وقال البوصيري في الزوائد هذا إسناد صحيح رجاله ثقات .
(٩) حديث حسن أخرجه أبو داود عن أبي هريرة كتاب السنة ، باب النهي عن الجدل في القرآن ، سنن أبي داود ٥/٩/ رقم ٤٦٠٣ .
(١٠) الدرء ١/٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ .

* **المسألة الثانية : الجدل من أساليب الدعوة :**

الجدل : أسلوب من أساليب الدعوة التي ذكرها الله في كتابه وأمر بها أنبياءه ورسله قال الله تعالى لرسوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(١) » (٢) . فذكر الله في هذه الآيه ثلاثة أساليب آمراً بها والجدل واحد منها وهي :

١ - الحكمة . ٢ - الموعظة الحسنة .

٣ - المجادلة بالتي هي أحسن .

وكان نوح يجادل قومه حتى قالوا كما أخبر الله في كتابه : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ (٣) ،وقال عن إبراهيم : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (٤) ، وقوله عنه أيضاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ (٥) ،فالجدل أسلوب من الأساليب الشرعية ومن أبرز مقاصد الدّعوة الإسلامية وغاية الدعوة « أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله » ،والجدل والمناظرة داخل في هذه الغاية الشريفة (٦) ، ومهمته حراسة السنة بالصدق والعدل والحق (٧) .

* **المسألة الثالثة : طرق المسلمين في الجدل ليست هى طرق أهل المنطق :**

ادعى بعض حذاق الفلاسفة والداخلين في الإسلام منهم ، والذين ينهجون طريق الجمع بين الفسلفة والدين والتوفيق بينهما أن الأقيسة المنطقية خصوصاً الثلاثة وهي : البرهاني ، والخطابي ، والجدلي ، هي نفس ما ذكره الله في سورة النحل (٨): من الحكمة ، والموعظة ، والمجادلة ، ويرفض ابن تيمية هذا الادعاء رفضاً مطلقاً ، مقدماً لهذا الرفض عدداً من المبررات والبراهين نبدؤها بما يلي : بيان ما تدل عليه هذه الأقيسة وماذا يراد بها :

---

(١) سورة النحل آية (١٢٥) .

(٢) انظر الفتاوى ١٦٤/١٩ ، والرد على المنطقيين /٤٦٧ .

(٣) سورة هود آية (٣٢) .

(٤) سورة الأنعام آية (٨٣) .

(٥) سورة البقرة آية (٢٥٨) .

(٦) انظر فيما تقدم المدخل إلى علم الدعوة /٢٦٦ .

(٧) موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبدالرحمن المحمود /٨٢٦ .

(٨) نص الآية : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ رقمها (١٢٥) .

أ – البرهاني : هو ما كانت المواد المستعملة فيه يقينية بحيث إنه يجب قبولها .

ب – الخطابي : هو ما كانت مواده المستعملة فيه مشهورة تناسب مدارك جمهور الناس حينما يخاطبون بها سواء كانت هذه المواد علمية أو ظنية .

ج – الجدلي : هو ما كانت المواد المستعملة فيه يسلم بها المجادل سواء كانت مشهورة أوغير مشهورة أو كانت علمية أو ظنية . وهذا أحسن ما تفسر به هذه الأقيسة الثلاثة .

وبعد هذا التفسير لهذه الأقيسة الذي تحدد به المراد بكل منها نتوجه لنقاش أصحاب هذا الادعاء ، وقد كان من عدة جوانب منها :

أولاً : بيّن الموقف الذي وقفه أصحاب هذه الأقيسة مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الأمور العلمية والعملية ،فهم قالوا الأنبياء خاطبوا العوام بما يناسب أفهامهم وأخبروهم بأمور ليتخيلوا ما في صالحهم ، ودل هذا خلاف الحقيقة وهو من الكذب للمصلحة العامة ، وهم يعترفون أن ما جاء به الأنبياء لا يحصل لا ببرهانهم ولا غيره .

ثانياً : هذه الأقيسة الثلاثة التي يستعملونها لا تفيد إلا أموراً كلية عامة مطلقة والذي جاء به الأنبياء أمور مخصوصة جزئية .

ثالثاً: الحكمة التي يستعملونها تشتمل على جانب واحد وهو الجانب العلمي فقط، بينما الحكمة الواردة في آية سورة النحل تشتمل على ما يشتمل عليه الإسلام من الجانبين: العلمي والعملي ، لا يصلح أحدهما دون الآخر .

رابعاً: المقدمات والحجج التي يقرها الإسلام ويأمر بها هي ما كانت علماً صحيحاً صادقاً مشروعاً ، أما المقدمات والحجج الباطلة فإنه لا يقرها حتى ولو رضيها الخصم وسلم بها .

خامساً : الطريقان الأولان – الحكمة والموعظة الحسنة – يستعملان للدعوة . والطريق الثالث – الجدل – لا يدعى به ، وإنما يستعمل عندما يصول أحد على الدين بشبهات وأباطيل يدفع به صياله .

وبهذا يُظهر ابن تيمية الفروق بين هذه الأقيسة من حيث الاستعمال وبه يتحدد لنا الاختلاف بين هذه الأقيسة .

ومن جانب آخر فإن نظرة هؤلاء الفلاسفة لما جاءت به الأنبياء والرسل يختلف تماماً عن المسلمين ، فهم يرون أن الأمور العلمية التي جاء بها الأنبياء لم يقصدوا بها

إثبات حقائق ،وإنما المقصود مخاطبة جمهور الناس بما يناسبهم ويصلحهم . فيكون في رأيهم ليس من البرهانيات وإنما من المشهورات .

والأمور العملية قصدوا بها التخييل على عوام الناس ولم يكونوا فيما يخبرون به من الأمور العملية يثبتون حقائق وإنما هي أشياء خيالية من أجل أن ينتفعوا بها في إقامة دنياهم ، فيكون الناس يعتقدون أشياء على خلاف ما هي عليه في الحقيقة وهذا من جنس الكذب للمصلحة العامة للناس .

إذاً هذا المفهوم يتناسب مع ما يرونه في قياسهم الخطابي على هذا التفسير الباطل الذي ذكروه . وأقيستهم الثلاثة في دلالتها وإفادتها تتباين مع ما جاء به الرسول فهي لا تفيد إلا أموراً كلية لا وجود لها في الأعيان ، وإنما وجودها في الأذهان فقط والذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أمران :

أ – خبر . ب – أمر .

الخبر : ويتضمن ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بأسمائه وصفاته المعينة ، وعن اليوم الآخر ، وعن الأمور الماضية ، والأمور المستقبلة مما هو من أمور الغيب وعلامات النبوة ، والأمور الحاضرة .

وكل هذه يعترفون أنه لا يمكن معرفتها ببرهانهم ولا غيره لأن هذه أمور جزئية خاصة ، وبرهانهم لا يدل على مثل هذه .

وابن تيمية لا يقر من يقول : إن هذه الثلاثة [١] في « سورة النحل » [٢] وإن كانت مخالفة لبراهين الفلاسفة ... لكنها من جنسها فهي : « البرهان الصحيح ، الخطابة الصحيحة ، والجدل الصحيح » فهذه مقولة باطلة .

أسباب بطلان المقولة السابقة :

أ ـ أن الخطابة عندهم : ما كان مقدماته مشهورة سواء كانت علماً مجرداً أو علماً يقينياً . والوعظ في القرآن : هو الأمر والنهي بترغيب وترهيب ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [٣] ،أي ما يؤمرون به ، وقال تعالى :

(١) وهي الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن .

(٢) آية (١٢٥) . (٣) سورة النساء الآيات (٦٦ – ٦٨) .

﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١)، أي ينهاكم عن ذلك » (٢) .

ب ـ أيضاً : ليس في القرآن أنه قال « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل » بل قال : « وجادلهم » وذلك لأن الإنسان له ثلاث أحوال :

١ ـ إما أن يعرف الحق ويعمل به .

٢ ـ وإما أن يعرفه ولا يعمل به .

٣ ـ وإما أن يجحده .

فأفضلها الأولى : يدعى فيها بالحكمة ، والثانية : يعرفه لكن له نفساً تخالفه على العمل ، وبه هوى وشهوة ، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة ، والثالثة : يجادل بالتي هي أحسن (٣) .

« فصاحب الحكمة يدعى بالمقدمات الصادقة سواء كانت مشهورة أم غير مشهورة أو مسلمة أو لم تكن ، لما فيه من إدراك الدِّق (٤) ، واتباع الحق وصاحب الموعظة : يدعى من المقدمات الصادقة بالمشهورة لأنه قد لا يفهم الخفية من الحق ، ولا ينازع في المشهورة .

وصاحب الجدل : يدعى بما يسلمه من المقدمات الصادقة ، مشهورة كانت أو لم تكن اذ قد لا ينقاد إلى ما لا يسلمه سواء كان جلياً أو خفياً . وينقاد لما يسلمه سواء كان جلياً أو خفياً فهذا هذا » (٥) .

ج ـ الجدال ليس طريقاً للدعوة كالحكمة والموعظة وإنما هو من باب دفع الصائل .

د ـ ولذا يكون فيه ما يحرك الحمية من المدافعة والمغاضبة فلا بد أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ذلك ، والموعظة ليس فيها ذلك فلا تحتاج إلى التي هي أحسن إلا إذا مانع لشبهة عارضة فيجادل بها .

هـ ـ المجادلة علم كما أن الحكمة علم والمجادل بغير علم مذموم ، والله لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمات ليست علماً وإن سلمها الخصم ، حتى لو قدر أن المجادل

---

(١) سورة النور آية (١٧) . (٢) انظر الفتاوى ٢/٤٥ .

(٣) انظر فيما تقدم في المسألة الثالثة ، الرد على المنطقيين /٤٣٨ - ٤٦٩ ، وانظر الفتاوى ٢/٤٢ - ٤٩ و ١٩/١٦٣ - ١٦٥ .

(٤) أي الأمور الدقيقة . (٥) الفتاوى ٢/٤٦ .

قال باطلاً لم يأمر الله أن نرد عليه بالباطل والجهل ، وقد نجادله بباطله ونرد عليه لبيان فساد قوله وتناقضه لا لأجل أن ندعوه إلى الحق قولاً وعملاً ، وذلك نابع من مقاصد التنزيل وهي هداية الناس ودعوتهم إلى الحق .

و – أما المقدمات الجدلية التي ليست علماً ففائدتها بيان تناقض الناس في أقوالهم ، وبيان خطأ هذا أو هذا ، وهي تصلح لبيان أخطاء الناس بشكل مجمل .

ز – ثم هم متناقضون : فتارة يجعلون النبوة من باب الخطابة ، وتارة يجعلون الخطابة أحد أنواع كلامها .

وسبب هذا التناقض : أنهم لم يعرفوا عظمة القرآن وما فيه من العلم والحكمة فأرادوا أن يشبهوه بكلام قوم كفار ، ولو شبهوه بالتوراة والإنجيل لظهر خطؤهم غاية الظهور والجميع كلام الله (١) .

* المسألة الرابعة : حكم الإسلام في الجدل :

حكم الجدل : ذكر ابن تيمية حكم الجدل في عدد من المواضع نذكر بعضاً منها بنصه : من ذلك قوله : لما ذكر بعض الأمور من الدين كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة قال :« والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهذا واجب على الكفاية منهم » (٢) .

ولما ذكر ما أمر الله به أنبياءه من المجادلة قال :« وأمثال ذلك فقد يكون واجباً ، أو مستحباً ... » (٣) ،وقال : « وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى وفي جملة جنس المناظرة والمجادلة فيها : محمود ومذموم ، ومفسدة ومصلحة ، وحق وباطل » (٤) .

والذي تبين لي من حكم الجدل في نظر ابن تيمية أنه : واجب كفائي (٥) إذا قام به من الأمة من يكفي سقط الإثم عن الباقين ، وقد يكون واجباً عينياً (٦) إذا تعين عليه بولاية أو بفقد من يقوم به غيره وذلك كأمثاله من فروض الكفايات (٧) .

---

(١) انظر الرد على المنطقيين / ٤٣٨ – ٤٦٩ ، والفتاوى ٤٢/٢ – ٤٩ ، ١٦٣/١٩ – ١٦٥ .

(٢) الدرء ٥١/١ . (٣) الدرء ١٥٦/٧ . (٤) الدرء ١٧٣/٧ .

(٥) الواجب الكفائي : هو ما إذا قام به من المسلمين من يكفي سقط الإثم والحرج عن الباقين .

(٦) الواجب العيني : هو ما يلزم فرداً أو جهة بعينها أن تقوم به .

(٧) انظر آداب البحث والمناظرة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي /٤ .

والأصل في مشروعيته : قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١) ، وقوله : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) ، وقوله :﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (٣) » (٤) .

والجدل منه الممدوح والمذموم والمستحب والمكروه ، ومنه المحرم والواجب والمأمور به والمنهي عنه . ونبين بعض هذه الجوانب كما جاءت عن ابن تيمية رحمه الله .

والمذموم من الجدل شرعاً ما ألحق الشارع به الذم ، وقد ذم الله في كتابه ثلاثة أنواع من الجدل هي : الجدل بالباطل ليدحض به الحق (٥) ،والجدل بغير علم (٦) ، والجدل في الحق بعدما تبين (٧) (٨) ، وما ذمه السلف والأئمة من المجادلة والكلام هو من هذا الباب(٩).« والمناظرة المحمودة نوعان والمذمومة نوعان » (١٠) ، وهذا التقسيم من ابن تيمية راجع إلى حال المناظر مع الحق من حيث العلم به ، وإرادته وقصده له ، لأنه قسم حال المناظر إلى ثلاث أحوال :

١ – إما أن يكون عالماً بالحق .

٢ – أو طالباً له .

٣ – أو لا عالماً به ولا طالباً .

والذم واقع على الحالة الثالثة ، وأما الأولى والثانية ، فيحمد العالم بالحق ، وفي مناظرته تبيين الحق لغيره إذا كان طالباً للهداية ، وإن كان معانداً فإنه يبين له ضلاله ويكف عدوانه اذا لم يتبع الحق بعد تبينه ، ويبعث همته في النظر ، والبحث في أدلة الحق إن كان يظن أنه حق وهو يقصد الحق ويريده .

ويذم الجدل من المجادل العالم بالحق ومقصده مجرد الظلم والعدوان لخصومه الذين

---

(١) سورة النحل آية (١٢٥) . (٢) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

(٣) سورة الفرقان آية (٣٣) . (٤) انظر المرجع السابق ٤/ .

(٥) ورد الذم في سورة غافر في قوله : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ آية (٥) .

(٦) ورد الذم في سورة آل عمران في قوله : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ آية (٦٦) .

(٧) ورد الذم في سورة الأنفال في قوله : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ... ﴾ آية (٦) .

(٨) انظر الدرء ١٥٦/٧ . (٩) انظر الدرء ١٧٠/٧ . (١٠) انظر الدرء ١٦٧/٧ .

يناظرهم ويقصد إظهار قدراته وتفوقه العلمي والبياني والعلو في الأرض والفساد ، وكذلك يذم الجدل لمن جادل بلا علم فتكلم بما لا يعرف من القضايا والمقدمات [1] .

وينهى السلف عن الجدل في حالات ولو كان الكلام صدقاً وحقاً ومنها :

إذا كان المجادل ضعيفاً في العلم بالحجج والبراهين وجواب ما يثيره الخصم من الشبهات ، وهذا النهي يماثل نهي الجندي المسلم الضعيف عن مقاتلة الجندي القوي المتدرب من الكفار لأن في مقاتلة هذا ضرراً على نفسه وعلى المسلمين .

وكذلك ينهى عن الجدل إذا كان المجادل معانداً يتبين له الحق فلا يتبعه ، وهذا يسمى مسفسطاً ، والأمم أجمعت على أن الحق إذا تبين بمقدمات مسلّمة وجحدها الخصم أنه لا يناظر [2].

وكذلك ينهى عن المجادلة والمناظرة في كلام لا يدركه ولا يفهمه المناظر ، كأن يكون في علوم لا يعرفها ولا يعلم مصطلحاتها وتقسيماتها ، أو لكونه في أمور تثير عنده تساؤلات أو فيها غرابة عليه كبعض مسائل العقائد إذا أثيرت عند العوام [3] .

يقول ابن تيمية :« إن الكتاب والسنة لم ينهيا عن الجدال فيما يستحق أن يكون من أصول الدين « اللهم إلا أن ينهيا عن بعض ذلك في بعض الأحوال مثل مخاطبة شخص بما يعجز عن فهمه فيضل كقول عبد الله بن مسعود : « ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » [4] ، وكقول علي : « حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله »[5] » [6] . وينهى عن الجدل والمناظرة « التي تورث شبهات وأهواء فلا تفيد علماً ولا ديناً » [7] كتناظر الصحابة في القدر وضربهم كتاب الله بعضه ببعض ،وينهى عن المناظرة والجدل إذا تضمن أن كل واحد من المتناظرين يكذب ببعض الحق الذي يقوله صاحبه المناظر له [8].

وينهى عن الجدل والمناظرة في « قول حق يستلزم فساداً أعظم من تركه » [9] .

هذه الأمور في الجدل والمناظرة منهي عنها لما يترتب عليها من المخالفات الشرعية

(١) انظر الدرء ١٦٧/٧ – ١٧٠ . (٢) الدرء ١٧٣/٧ .
(٣) انظر الدرء ١٨٤/٧ . (٤) سبق تخريجه في صفحة (٣١٥) .
(٥) البخاري كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم ، فتح الباري ٢٢٥/١ . وانظر كنز العمال ١٠ رقم ٢٩٥١٥ .
(٦) الدرء ١ / ٥٠ . (٧) الدرء ٧ / ١٨٤ . (٨) انظر الدرء ٧ / ١٨٤ . (٩) الدراء ٥٠/١ .

والأضرار الدينية والدنيوية (١) .

« وأما جنس النظر والمناظرة فهذا لم ينه عنه السلف مطلقاً ، بل هذا – إذا كان حقاً يكون مأموراً به تارة ومنهياً عنه أخرى (٢) . ويقول أيضاً :« وفي الجملة جنس المناظرة والمجادلة فيها محمود ومذموم ومفسدة ومصلحة وحق وباطل ، ومنشأ الباطل من نقص العلم ، أو سوء القصد كما قال تعالى : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُس﴾ (٣) ، ومنشأ الحق : من معرفة الحق والمحبة له ، والله هو الحق المبين ، ومحبته أصل كل عبادة » (٤) .

* **المسألة الخامسة : الجدل ليس منسوخًا :**

يظن البعض أن الأمر بالجهاد نسخ الأمر بالجدال ، وأن آيات مجادلة ومحاجة الكفار منسوخات بآية السيف ، وهذا الظن باعثه الاعتقاد بتعارض الأمرين :

حيث اعتقدوا أن الأمر بالقتال المشروع ينافي الأمر بالمجادلة المشروعة ، وهذا غلط عظيم ؛لأن النسخ إنما يحكم به إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ ، وأمثلة ذلك : أمر الله للمسلمين باستقبال الكعبة المشرفة نسخ الاستقبال إلى المسجد الأقصي.

والأمر بوجوب الصيام في رمضان على المقيم يناقض التخيير بينه وبين الإطعام .

والأمر بقوله: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه ﴾ (٥) مناقض لقوله: ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (٦)، فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم ؛وذلك لأن بقاء الحكم الأول يؤدي إلى وجود حكمين متعارضين متناقضين وهذا لا يكون في أحكام الله جل جلاله ،فهنا لا بد أن يكون الأول منسوخاً والأخير ناسخاً . أما الأمر بالدعوة والأمر بالجدال في قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٧) ، وقوله: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٨) ، فهذا لا يناقضه الأمر بالجهاد لمن أمر

---

(١) انظر الدرء ٧ / ١٨٤ . (٢) انظر الدرء ٧ / ١٨٤ . (٣) سورة النجم آية (٢٣) .
(٤) الدرء ٧ / ١٧٣ . (٥) سورة البقرة آية (١٩٣) . (٦) سورة النساء آية (٧٧) .
(٧) سورة النحل آية (١٢٥) . (٨) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

الله بجهادهم ، والصورة التي يكون فيها التناقض إذا نهى عن القتال واقتصر على الجدال ،ولا يقال بالنسخ مع إمكان الجمع بين النصوص جمعاً تزول المنافاة بينها وهو هنا ممكن فيصار إليه وينفى القول بالنسخ (١) .

ومما يدل على عدم القول بالنسخ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجادل ويناظر ويدعو قبل نزول آية السيف وبعدها ، وقد أورد قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ (٢) .

وفي كتابه (٣) الذي كتبه إلى هرقل مع دحية الكلبي (٤) مدة هدنته للمشركين ، وأبو سفيان (٥) لم يسلم وحضر عند هرقل وسأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ،وأبو سفيان أسلم عام الفتح (٦) فيعلم أن هذا الكتاب كان قبل فتح مكة ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع ، ويعلم أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية والمباهلة ، ووفد نجران قدم قبل آية المباهلة ، وآية المباهلة قد علم يقيناً عند المفسرين وأهل السير أنها نزلت في قصة قدوم وفد نجران على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد صالح النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران على الجزية ، وكان لم يأخذ

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٦٦/١ . (٢) سورة آل عمران آية (٦٤) .

(٣) من محمد بن عبدالله عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسْلِم تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنّ عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. فتح الباري ٣٢/١ .

(٤) هو : دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبيّ القضاعيّ ، كان من كبار الصحابة لم يشهد بدراً ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد وبقي إلى خلافة معاوية ، وكان يشبه بجبريل عليه السلام .. بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيصر رسولاً في الهدنة ، وذلك في سنة ست من الهجرة فآمن به قيصر وأبت بطارقته أن تؤمن .. توفي نحو سنة ٤٥هـ . انظر الإصابة ١٩١/٣ ، الاستيعاب ٢١٧/٣ ، سير أعلام النبلاء ٥٥٠/٢ ، الأعلام ٣٣٧/٢ .

(٥) هو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الصحابي القرشي ، وكان من سادات قريش في الجاهلية ، أسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ وأبلى بعد إسلامه بلاءً حسناً ، فقئت عينه يوم الطائف ، ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك ، فعمي ، وكان عامل الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاته على نجران .. وتوفي بالمدينة سنة ٣١هـ ، وقيل بالشام . انظر الإصابة ١٢٧/٥ ، سير أعلام النبلاء ١٠٥/٢ ، الأعلام ٢٠١/٣ .

(٦) فتح مكه المكرمه في ٢٠ رمضان من السنة الثامنة للهجرة .

الجزية على أحد قبلهم لا من الأميين ولا من الكتابيين ، ولهذا لم يضربها على يهود قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، ولا ضربها على أهل خيبر فإنها فتحت سنة سبع قبل نزول آية الجزية .

ويعلم بهذا أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التي هي آية الجزية . وهي قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١).

وقد روي عن ابن جريج (٢) في قوله تعالى : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ قوله : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا اليهود أهل المدينة فأبوا عليه فجاهدهم (٣) .

والدعوة الإسلامية بكل أدوارها وأطوارها محتاجة إلى الجدال والجهاد . واستعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق وكل منهما يفيد وينفع حيث لا يفيد الآخر (٤) ، ويتبين ذلك بوجوه عديدة :

أحدها : أن من كان من أهل الذمة والعهد المستأمن منهم لا يجاهد بالقتال ، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن (٥) .

الثاني : أنه قال تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا... ﴾ (٦) ، فالظالم المستحق للقتال غير الطالب للعلم والدين لا يجادل بالتي هي أحسن فمن كان يعلم أنه على الباطل ويجادل عناداً نجادله بطرق أخرى غير « التي هي أحسن » نبين فيها عناده ، وظلمه ، وجهله جزاء له بموجب عمله وهذا بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم (٧) .

الثالث : أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ

---

(١) سورة التوبة آية (٢٩) .
(٢) هو : عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج ، القرشي ، الأموي ، المكي ، أول من دوّن العلم بمكة ، وصاحب التصانيف ، ولد سنة ٨٠هـ ، توفي سنة ١٥٠هـ وقيل ١٥١ . انظر سير أعلام النبلاء ٣٣٤/٦ ، تذكرة الحفاظ ١٦٩/١ ، تهذيب التهذيب ٥٠١/٣ .
(٣) عزاه السيوطي إلى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم ، الدر المنثور ٤٠/٢ .
(٤) انظر الجواب الصحيح ٦٧/١ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) سورة العنكبوت آية (٤٦) .
(٧) انظر الجواب الصحيح ٦٧/١ .

يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (١). الآية في سورة براءة المتضمنة لنقض العهود ، وآية السيف ، والآية مذكورة ضمن نقض العهود مما يدل على أن مثل هذا يؤمَّن حتى تقوم عليه الحجة ، ولا يحارب كمحاربة من لم يطلب الحجة .

والمراد في الآية أن يسمع سمعاً يفهم به المعنى ، فلو احتاج إلى ترجمة ترجم له ما تقوم به الحجة ، وإن احتاج إلى بيان ألفاظ غريبة عليه بينت له ، وإن سأل بما يقدح في القرآن أجبناه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيب على أسئلة أهل الكتاب وبعض المشركين ، وقد ورد الأمر بالجدال في مواضع والنهي عنه في أمور أخرى .

وبما يثبت لنا من مجادلته صلى الله عليه وسلم للكفار بعد الأمر بالقتال ، وإجارة المستجير وإسماعه ما تقوم الحجة به عليه وهذا يحتاج إلى محاجة ، وإجابة عن معارضات وهذا من الواجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فتقرر إذن بطلان من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ للأمر بالمجادلة مطلقاً (٢) .

الرابع: الذي يدّعي نسخ المجادلة بآية السيف نقول له : أهي آية معينة أم كل آية تأمر بالجهاد ؟ فإن أراد الأول فجوابه من وجهين :

أحدهما : آيات الجهاد متعددة فلا يصح تخصيص بعضها ، فإن قال : أريد آية : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (٣) . قيل له : هذه في قتال المشركين . وبعدها ذكر قتال أهل الكتاب : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٤) ، فلو لم تكن آية السيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى من هذه .

وإن قال : كل آية فيها ذكر الجهاد ،قيل له : الجهاد شرع على مراتب أول ما نزل الإذن فيه ، ثم نزل وجوبه مع عدم الأمر به لمن طلب المسالمة والمهادنة ، ثم نزل في براءة نبذ العهود وقتال المشركين كافة ، وأهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية .

فإن قيل : الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم . قيل : هذا باطل، والجدال إما أن يكون منافياً للجهاد ، وإما غير منافٍ .

فإن كان الأول : فهو منافٍ لإباحته ولوجوبه ولو للمسالم . وإن كان الثاني : فهو

(١) سورة التوبة آية (٦) .
(٢) انظر الجواب الصحيح ١/٦٧ - ٧٢ .
(٣) سورة التوبة آية (٥) .
(٤) سورة التوبة آية (٢٩) .

لم ينافِ وجوبه للمسالمين ، كما لم ينافِ وجوب جهاد غيرهم والمسالم قد لا يجادل ولا يجاهد ، وقد يجادل ولا يجاهد ، كما أنَّ غيره قد يجادل ويجاهد وقد يفعل أحدهما .

كما أن وجوب قتال المبتدىء به من المحاربين لا ينافي مجادلته ، فيكون مجاهدة من لا يبدأ بالقتال لا تنافي مجادلته من باب أولى وأحرى ، فمن كان عن القتال أبعد قلت منافاة مجادلته للقتال ممن يكون أعظم قتالاً ، ويوضّح هذا أكثر [1] .

الوجه الخامس : المنسوخ هو الاقتصار عن الجدل وحده ، لأنه كان في الأول مأموراً به وحده يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً ، ولم يؤمر بالجهاد ولعجزهم عن ذلك وبعد الانتقال إلى المدينة وقوة المسلمين عليه أوجب عليهم ونسخ تركه ، أما مجاهدة الكفار باللسان فما زال مشروعاً من أول الأمر إلى آخره . قال صلى الله عليه وسلم : (جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم) [2] ، وكان ينصب لحسان منبراً في مسجده يجاهد المشركين بلسانه يهجوهم [3] ، وهذا بعد نزول آيات الجهاد ، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام وإبطال حجج المشركين وأهل الكتاب .

الوجه السادس : الجهاد شرع ضرورة ، ولو آمنوا بالبرهان لم يكن قتال ، فبيان براهين الإسلام واجب مطلقاً وجوباً أصلياً، فكيف يكون والحال هذه مانعاً من الجدال ؟

وإن قيل : الإسلام ظهرت آياته وبراهينه ولم يبق حاجة إلا إلى السيف ، يقال : وعد الله بإظهار دينه على الدين كله ظهور السيف والسنان والعلم والبيان ، وبهذا فسره العلماء ، وظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره بالقتال ، وبالأول أسلم الذين قاموا بالجهاد لما رأوا الآيات والبراهين .

وإذا كان جهاد الكفار بالسيف واجباً ابتداءً ودفعاً ، فوجوب بيان الإسلام وإعلانه ابتداءً ودفعاً لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى ، فوجوب ومنفعة هذا قبل ذاك والإسلام محتاج كل وقت إلى السيف ، فكذلك هو محتاج إلى العلم

---

(١) انظر الجواب الصحيح ٧٢/١ ، ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أنس باب كراهية ترك الغزو ، كتاب الجهاد ، رقم الحديث ٢٥٠٤ ، سنن أبي داود ٢٢/٣ . وأخرجه النسائي من حديث أنس باب وجوب الجهاد ، كتاب الجهاد ، سنن النسائي ٧/٦ ، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان .

(٣) حديث صحيح عن عائشة أخرجه الترمذي كتاب الاستئذان ، باب ما جاء في إنشاد الشعر ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب ، سنن الترمذي ١٣٨/٥ ، رقم ٢٨٤٦ .

والبيان ، وإظهاره بهذا من جنس إظهاره بذاك ، وكثير من الكفار لم يقهرهم سيفه ، وكثير من الناس لم يظهر لهم براهينه ، فهم يقدحون فيه ويذكرون حججاً على بطلانه. والمقهورون بسيف الإسلام فيهم منافقون لا بد من جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان ، ويؤكد هذا (١) .

الوجه السابع : القتال لا يكون إلا لظالم قامت عليه الحجة فشاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين . وأما الجدال فيكون لظالم كمن طعن في الدين ، أو من قامت عليه الحجة فلم يقبلها ، ويكون لطالب حق لم يبلغه ، أو بلغه بعض الحق وعنده شبهات تنافي ذلك، فإذا كان القتال لدفع ظلم المقاتل مشروعاً ، فالمجادلة لدفع ظلمه وانتفاعه وغيره مشروعة بطريق الأولى . وثبت عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ (٢) نصوص تدل على أن الذين ظلموا هم من قاتل ولم يعط الجزية وهؤلاء هم الذين يقاتلون . وفي رواية عنه قال : من أدى الجزية فلا تقولوا لهم إلا خيراً ، وقال : ﴿ **إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ فإن قالوا شراً فقولوا : خيراً ،فهو لا يجعلها منسوخة ، وهو قول أكثر المفسرين وبه قال عبدالرحمن بن يزيد بن أسلم وقتادة يرى نسخ الجدال بقوله : ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ﴾ (٣) ،قال ولا مجادلة أشد من السيف . ولكن الأول أصح ، لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ (٤) .

الوجه الثامن : كثير من أهل الكتاب يزعم أن هذا الدين انتشر بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات . فإذا طلبوا المناظرة ، وأجبناهم بقولنا : ليس عندنا إلا السيف، تقرر زعمهم الباطل ، وكان من أعظم ما يستدلون به على فساد الإسلام وأنه لا يعدو إلا أن يكون دين ملك أقامه بالسيف (٥) .

الوجه التاسع : كل سيف يتبع العلم والحجة لا سيما سيف المسلمين ، والمشركون سيفهم تابع لآرائهم واعتقادهم ، والسيف من جنس العمل ، والعمل تابع للعلم والرأي .

وحينئذ فبيان الإسلام بالعلم وبيان ضلال ما خالفه هو تثبيت لأصل الإسلام ، واجتناب لأصل ما خالفه . وإذا حصل هذا كان الناس أحد رجلين :

---

(١) انظر الجواب الصحيح ١/٧٤ - ٧٥ . (٢) سورة العنكبوت آية (٤٦) .(٣) سورة التوبة آية (٥) .
(٤) انظر الجواب الصحيح ١/٧٥ - ٧٦ . (٥) انظر الجواب الصحيح ١/٧٧ .

إما رجل تبين له الحق فاتبعه ، فهذا هو المقصود من الرسالة ، وإما رجل لم يتبعه فهذا قامت عليه الحجة ، وهذا أرضى لله ورسوله ، وأنصر لسيف الإسلام وأذل لسيف الكفر [1] .

*** المسألة السادسة : عدم التزام المجادل بمقدمات معينة :**

ولا يلتزم المناظر والمجادل عدداً من المقدمات كما يقول أهل المنطق بلزوم مقدمتين فقط ، فـ « قد يكون الدليل مقدمة واحدة متى علمت علم المطلوب وقد يحتاج المستدل إلى مقدمتين ، وقد يحتاج إلى ثلاث مقدمات وأربع وخمس وأكثر ، ليس لذلك حد مقدر يتساوى فيه جميع الناس في جميع المطالب ، بل ذلك بحسب علم المستدل الطالب بأحوال المطلوب ، والدليل ولوازم ذلك ، وملزوماته ، فإذا قدر أنه عرف ما به يعلم المطلوب مقدمة واحدة ، كان دليله الذي يحتاج إلى بيانه له تلك المقدمة ،كمن علم أن الخمر محرّمة وعلم أن النبيذ المتنازع فيه مسكر ، لكن لم يعلم أن كل مسكر هو خمر ، فهو لا يحتاج إلا إلى هذه المقدمة .

فإذا قيل له ثبت في الصحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال : (كل مسكر خمر) [2] حصل مطلوبه ، فإذا ذكر المجادل والمناظر من المقدمات ما يحتاج إليه المجادل لبيان المراد من مقدمة أو اثنتين أو أكثر .

*** المسألة السابعة : التزام الطرق الشرعية :**

ويلتزم في مناظرته ومجادلته الطرق الشرعية السلفية معرضاً عن الطرق المبتدعة، فإنها إنما تفيد الحيرة والشك والتوقف .

وابن تيمية دائماً يبرز تجارب السابقين المتعثرة بل الهالكة من الخارجين عن منهج النبوة وسلف الأمة ويحذر منها ، ومن هؤلاء الذين ناظروا بالحجج العقلية معرضين عن الكتاب والسنة كابن رشد ، والآمدي ، والخونجي ، والغزالي ونحوهم الذين أعلنوا حيرتهم وتوقفهم ، ومنهم من رجع إلى طريق أهل الحديث .

ولكن الطريقة النبوية السنية السلفية لا يستطيع أن يناظر بها مناظرة سليمة إلا من كان حاصلاً على أمرين متمكناً منهما :

١ - أن يكون خبيراً بهذه الطريقة وأدلتها ولوازمها وما ينافيها .

---

(١) انظر الجواب الصحيح ١/٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي عمر كتاب الأشربة ، باب بيان أن كل مسكر خمر ، صحيح مسلم ٣/١٥٨٨ .

٢ - أن يكـون خبيراً بأقـوال الخصـوم وطـرقـهـم ومناهـجـهـم المنـاقضة للطريــقة السلفية (١).

والمجادل بهذه الطـريقة السلفية يحتـاج إلى معرفة المنكر وإنكاره ، وقـد يحتاج إلى الحجج المـبينة لـذلك ، وإلى الجواب عـما يعارض بـه أصحابهـا من الحجج ، وإلـى دفع أهوائهم وإرادتهم .

وذلك يـحتاج إلى إرادة جـازمة ، وقدرة علـى ذلك ، وذلك لا يـكون إلا بالصـبر كمـا قال تعـالى : «﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾» (٢) .

ثم إن ابن تيمية عرف حق المعرفة تخبط الذين يـستدلون بالأدلة العقلية غير القرآنية إذا صنفوا في الأصول وأنهم يصيرون أحزاباً :

الأول : اذا جاء يستدل بالأصول استدل بأدلة عقـلية غير قرآنية كدليل الأعراض على حدوث الأجسام ، وهو مبتدع شرعاً باطل عقلاً .

الثاني : قوم اعتمدوا الأدلة القرآنية الخبرية وتركوا العقلية ، وكل من الفريقين يذم الآخر .

الثالث : قد عرف تفريط الحزب الثاني ، وتعدي الأول وبدعتهم فذمهم وقال: «إن طريقتهم لم يسلكها السلف ، وهو كلام صحيـح لكنـه إنما يـدل علـى أمـر مجمـل لا تتبـين دلالتـه علــى المطلوب . بـل قد يعتقد طـريق المتكلـمين مع قوله : إنـه بدعة ، ولا يفتـح أبواب الأدلة التـي ذكرها اللـه في القرآن الـتي تبين أن مـا جاء به الرسـول حق ، ويخرج الذكي بمعرفتها عن التقليد وعن الضلال والبدعة والجهل »(٣).

*** المسألـة الثـامـنـة : الاستدلال بالأظهر على الخفي :**

القاعدة في الاستدلال والحدود أن يستدل بالأظهر على الأخفى ولا يحد الشيء بما هو أخـفى مـنه (٤)، لأن الأفهـام تتـدرج من الأدنـى إلى الأعـلى ، ومـن الأسهـل إلى الأصعـب ،ومن الجزئـي إلى الكـلي ، ومن الأظهـر إلى الأخفـى ، حتى يـصير الخـفي واضحاً أو ظاهراً ، هذا ما عليه فطر عموم الـناس وهذا هو القاعدة العامة ، يقول رحمه

(١) الدرء ١٦٢/١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .
(٢) الفتاوى ٢٦٧/١٥ ، ٢٦٨ ، التفسير الكبير ٢٢٠/٥ ، ٢٢١ .
(٣) الفتاوى ١٦٢/١٩ . (٤) الدرء ٩٧/٣ .

الله :« فلا يجوز أن يستدل على الأظهر الأبين بالأخفى كما لا يفعل مثل ذلك في الحدود»(١) .

ولكن يمكن خرق هذه القاعدة إذا وجد منفعة في الاستدلال بالأخفى ،وذلك إذا وجد من حصلت له شبهة أو معاندة في الأمر الجلي ، فيبين له بغيره لكون ذلك أظهر عنده لأن الظهور والخفاء من الأمور النسبية الإضافية التي تختلف من شخص لآخر .

ومثال ذلك : أن يوجد « من شأنه الاستخفاف بالأمور الواضحة البينة ، فإذا كان الكلام طويلاً مستغلقاً هابه وعظمه ، لكن ليس هذا مما يتوقف العلم والبيان عليه مطلقاً » (٢) .

وذَكَر مقدمتين من مقدمات المتكلمين وهما : « إن كل حادث فلا بد له من محدث ، وان المحدث للموجود لا يكون إلا موجوداً ، وهما معلومتان بالضرورة ، ولكن المتكلمين قرروا ذلك بأدلة نظرية ويحتجون على ذلك ، وهي وإن كانت صحيحة لكن النتيجة أبين عند العقل من المقدمات ، فيصير كمن يحد الأجلى بالأخفى، وهذا وإن كان يذمه كثير من الناس مطلقاً ، فقد يُنتفع به في مواضع مثل :

أ – عناد المناظر ومنازعته في المقدمة الجلية دون ما هو أخفى منها .

ب – ومثل حصول العلم بذلك من الطرق الدقيقة الخفية الطويلة ، لمن يرى أن حصول العلم له بمثل هذه الطرق أعظم عنده وأحب إليه ، وأنه إذا خوطب بالأدلة الواضحة المعروفة للعامة لم تكن له مزية على العامة » (٣) .

ج – ومن نقصد بمخاطبته بهذه الطرق الخفية أن نعلّمه أننا عارفون لها متقنوها ولم نتركها جهلاً بها ولا عجزاً عنها ، وإنما كان إعراضنا عنها استغناء بما هو خير منها وأنفع من تطويل لا حاجة إليه (٤) .

ويعود طلب الحجج الخفية من بعض الناس إلى كثرة البحث والنظر ، حتى اعتاد على ذلك والعادة طبيعة ثانية فتأصل ذلك فيهم « فلا يقبل الواحد منهم ولا يعترف إلا عن طريق البحث والنظر والجدل والمعارضة والممانعة ... وهؤلاء تنفع معهم الطريق الطويلة المليئة بالمقدمات الخفية » (٥) .

---

(١) التدمرية /١٣٣ .
(٢) الدرء ٣/٩٧ .
(٣) الدرء ٣/١٠٤ - ١٠٥ .
(٤) انظر السابق /١٠٥ .
(٥) الرد على المنطقيين /٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ .

* **المسألة التاسعة : معرفة آراء وأقوال المناظر :**

وقبل أن يبدأ المجادل والمناظر مجادلته مع خصومه لا بد أن يكون درس آراءهم وأقوالهم وتأكد تماماً من معرفته لأمور منها :

١ – القول أو الأقوال التي خالفوها وأنها الحق .

٢ – أن يعرف أقوال السلف في ذلك ويعلم أن ما عندهم مخالف لهم .

٣ – أن يعرف أن قولهم محدث مبتدع .

٤ – أن يعرف بالطرق المفصلة كيفية إفساد قولهم وبيان بطلانه .

٥ – أن يحدد مواضع الخلاف ويبدأ بأصلها وأساسها وأمها .

يقول رحمه الله :« فتواعدنا يوماً – أي للمناظرة – فكان فيما تفاوضنا أن أمهات المسائل التي خالف فيها متأخرو المتكلمين – ممن ينتحل مذهب الأشعري لأهل الحديث « ثلاث مسائل » وصف الله بالعلو على العرش ، ومسألة القرآن ، ومسألة تأويل الصفات ، فقلت له :

نبدأ بالكلام على « مسألة تأويل الصفات » فإنها الأم وسائر المسائل فرع عليها » [(١)] .

والأمور المتماثلة في أدلتها وطرقها يذكر لها نموذج واحد ويكون الجدل فيه والبقية تبع له يقول :« قلت له : ونحن نتكلم على صفة من الصفات ونجعل الكلام فيها أنموذجاً يحتذى عليه .. » [(٢)] .

* **المسألة العاشرة : عدم الحكم على بطلان قولين لتناقضهما :**

القولان المتجادلان إذ تناقض أو بطل أحدهما لا يعني صحة القول الآخر ؛ لأن القولين قد يكونان بدعيين لكن أحدهما أقرب إلى الحق والصواب من الآخر ، فبطلان الأبعد لا لصحة الأقرب وسنيته وإنما لشدة بطلان الأبعد بطل بالأقرب . والقول الصحيح يكون قولاً آخر غير هذين القولين .

قال رحمه الله :« وحينئذ فيقال : هب أن قول السالمية والكرامية باجتماع الحروف محال ، فقول الكُلابيّة أيضاً محال ، فلا يلزم من بطلان ذاك صحة هذا ، وقول المعتزلة

---

(١) الرسالة المدنية /٢٨ ، وانظر الفتاوى ٢٣٢/٩ ، ٢٣٣ . (٢) الرسالة المدنية /٤٤ .

والفلاسفة أبطل من الكل ، وحينئذ فيكون الحق هو القول الآخر ، وهو أنه لم يزل متكلماً بحروف متعاقبة لا مجتمعة ... » (١) .

*المسألة الحادية عشر : تناقض الخصم وعدم كون ذلك صحة في القول الآخر:

وأيضاً قريب من هذا : إذا تناقض أحد الخصمين في حججه وأدلته فلا يعني هذا صحة القول الآخر وصوابه، بل يكون كلاهما باطلين والصواب في قول خارج عنهما.

فلا يصح الاستدلال على أحقية قول ورجحانه بتناقض القول المعارض له ، وهذا ما جعل ابن تيمية يعترض على من فعلوا ذلك قائلاً : « وبالجملة عامة ما يذكر في هذا الباب [قيام الحوادث بذاته] يعود إلى نوع تناقض من الكرامية ، وهو عمدة منازعيهم ، ليس معهم ما يعتمدون عليه إلا تناقضهم ، وتناقض أحد المتنازعين لا يستلزم صحة قول الآخر لجواز أن يكون الحق في قول ثالث لا قول هذا ولا قول هذا ، لا سيما إذا عرف أن هناك قولاً ثالثاً ، وذلك القول يتضمن زوال الشُّبه القادحة في كلٍ من القولين الضعيفين » (٢) .

ومثال ذلك : اختلافهم في زمن أو كيفية وقوع التأثير من المؤثر . المتكلمون قالوا : الأثر يوجد متراخياً عن المؤثر ، والفلاسفة قالوا : يوجد الأثر مقترناً مع المؤثر ، وكلا القولين غلط والصحيح القول الثالث ، يقول ابن تيمية رحمه الله : « .. وبينا أن قولاً ثالثاً هو الصواب الذي عليه أئمة العلم ، وهو أن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عَقِبَه – لا معه في الزمان ولا متراخياً عنه ، فمن قال بالتراخي من أهل الكلام فقد غلط ، ومن قال بالاقتران – كالمتفلسفة – فهم أعظم غلطاً ، ويلزم قولهم من المحالات ما قد بيّناه في مواضع (٣) [ثم أخذ في سياق الأدلة على القول الثالث سمعية وعقلية] .

*المسألة الثانية عشر : عدم كون نفور النافرين من القول دليلاً على بطلانه:

نفور النافرين من القول أو الأقوال ليس دليلاً عل بطلان هذا القول ، ولا يدل أيضاً على صحة القول الآخر الذي لم ينفروا منه ، وذلك أن كثيراً من الفطر قد تلوثت وتغيرت بتجهيم ، أو اعتزال ، أو أشعرية ، أو رفض ، أو جهل ، أو نحو ذلك .

وهذا النوع من الاستدلال هو اتباع للهوى ، قال رحمه الله في رده على أبي

(١) الدرء ١٢٧/٤ . (٢) الدرء ٦١/٤ . (٣) التفسير الكبير ٢٧١/٦ – ٣٧٢ .

الفرج ابن الجوزي (١) حينما ذكر إثبات الحنابلة لبعض الصفات المتفقة مع بعض صفات المخلوقين في الاسم وأنهم بهذا يكابرون العقول :« ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين ، أو محبة الموافقين لايدل على صحة قول ولا فساده إلا إذا كان ذلك بهدى من الله ، بل الاستدلال بذلك هو استدلال باتباع الهوى بغير هدى من الله ، فإن اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذي يحبه ، ورد القول والفعل الذي يبغضه بلا هدى من الله، قال تعالى :﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٢) » (٣) .

* **المسألة الثالثة عشر وما بعدها : التزام الردود والحجج العلمية :**

من القواعد والأصول في الجدل التزام الردود والحجج العلمية ، وهذا يعني تجنب الردود العاطفية والانفعالية خصوصاً الرد الذي يكون فيه سب وشتم (٤) وكلام يخرج عن حدود اللياقة الأدبية ؛لأن هذا اللون من الرد كل يستطيعه والأليق به السفهاء وأهل الجهل ، أما أهل العلم والفكر وعموم الدعاة إلى الله فهم ينزهون ألسنتهم عن مثل هذا اللون من المخاطبات ، حتى لو استعمل الخصم معهم هذا النوع من الرد فالواجب أن يكونوا كما قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ (٥) ، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٦) .

وابن تيمية هكذا فإنه يضبط ما يقول وما يفعل مع الخصوم ، وإذا غلطوا عليه فإنه يحلم عليهم ويرد الإساءة بالإحسان ، ولا يرد بدعة ببدعة ولا باطلاً بباطل بل يقول الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة بأدلته من المنقول والمعقول بعدل وإنصاف وحسن نية وقصد ،« هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير ، أو تفسيق ، أو افتراء أو عصبية جاهلية : فأنا لا أتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ما أقوله ، وأفعله ، وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزل الله ، وجعله هدى للناس ، حاكماً فيما اختلفوا فيه ... وذلك أنك ما جزيت من

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٥٠) .

(٢) سورة الأنعام آية (١١٩) . (٣) الفتاوى ١٨٩/٤ .

(٤) يقول أبو محمد يوسف بن الجوزي :« وليتق السباب والمنافرة ، فإنهما يضعان القدر ويكسبان الإثم ، وإن زل خصمه فليوقفه على زلله ، غير مخجل له بالتشنيع عليه ، فإن أصر أمسك عنه ، إلا أن يكون ذلك الزلل ما يحاذر استقراره عند السامعين ، فينبههم على الصواب فيه بألطف الوجوه ، جمعا بين المصلحتين » الإيضاح لقوانين الاصطلاح لابن الجوزي ت د . فهد السدحان / ٤٢ .

(٥) سورة الفرقان آية (٦٣) (٦) سورة المؤمنون اية (٣) .

عصى الله فيك أن تطيع الله فيه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [١] ، وقال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[٢] » [٣] .

وابن الجوزي حينما ذكر بعض ما يثبته الحنابلة من الصفات الذاتية والفعلية ، رد عليهم بالشتائم والسخرية فانتقده ابن تيمية وإليك سياق هذه الصورة :« ثم قال المعترض: قال أبو الفرج ابن الجوزي في الرد على الحنابلة : « إنهم أثبتوا لله سبحانه عيناً ، وصورة ، ويميناً وشمالاً ووجهاً زائداً على الذات [ثم أخذ يعدد الصفات الذاتية والفعلية ثم قال] لقد كملوا هيئة البدن ! وقالوا : يحمل على ظاهره ، وليست بجوارح ومثل هؤلاء لا يحدثون،فإنهم يكابرون العقول،وكأنهم يحدثون الأطفال »[٤].

ثم ناقش ابن تيمية قوله هذا فقال : « قلت : الكلام على هذا فيه أنواع : —

(**الأول**) : بيان ما فيه من التعصب بالجهل والظلم قبل الكلام في المسألة العلمية .

(**الثاني**) : بيان أنه رد بلا حجة ولا دليل أصلاً .

(**الثالث**) : بيان ما فيه من ضعف النقل والعقل . » [٥] .

ثم أخذ ابن تيمية في بيان هذه الأنواع الثلاثة التي هي انتقاد لمسلك أبي الفرج ابن الجوزي في مجادلته للحنابلة ورده عليهم قال :

« النوع الثاني : أن هذا الكلام ليس فيه من الحجة والدليل ما يستحق أن يخاطب به أهل العلم . فإن الرد بمجرد الشتم والتهويل لا يعجز عنه أحد ، والإنسان لو أنه يناظر المشركين ، وأهل الكتاب ، لكان عليه أن يذكر من الحجة ما يبين به الحق الذي معه ، والباطل الذي معهم . فقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [٦]،وقال تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [٧] ، فلو كان خصم من يتكلم بهذا الكلام — سواء كان المتكلم أبو الفرج أو غيره من أشهر الطوائف بالبدع كالرافضة —

---

(١) سورة النحل اية (١٢٨) . (٢) سورة آل عمران آية (١٢٠) .
(٣) الفتاوى ٣/٢٤٥ ـ ٢٤٦ . (٤) الفتاوى ٤/١٦٥ .
(٥) الفتاوى ٤/١٦٥ . (٦) سورة النحل آية (١٢٥) . (٧) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

لكان ينبغي أن يذكر الحجة ويعدل عما لا فائدة فيه ، إذ كان في مقام الرد عليهم ، دع والمنازعون له - كما أوعاه - هم عند جميع الناس أعلم منه بالأصول والفروع ، وهو في كلامه ورده لم يأت بحجة أصلا ، لا حجة سمعية ، ولا عقلية ، وإنما اعتمد تقليد طائفة من أهل الكلام ... ومن يرد على الناس بالمعقول إن لم يبين حجة عقلية ، وإلا كان قد أحال الناس على المجهولات ، كمعصوم الرافضة ، وغوث الصوفية » (١) .

* **المسألة الرابعة عشر : تحديد ميدان الجدل وموضوعه :**

ومن القواعد الهامة في الجدل والمناظرة تحديد ميدان الجدل والمناظرة (٢) وموضوعهما ، وكذلك اللغة الاصطلاحية لهما ، وهذا قد يحدده الموضوع المتجادل فيه فإذا كان في العقائد فإنه يجري على اصطلاح المتكلمين واصطلاح السلف ، وإذا كان في الفقه فإنه يجري على اصطلاح الفقهاء وهكذا . وإذا خرج عن اصطلاح المناظرة فإنه يُعد مخالفاً لقواعدها والتزاماتها .

وتحديد هذه الأمور يضمن جريان الجدل على نسق واحد ، وأيضاً يضمن عدم الخروج عن الموضوع المحدد على وجه التفلت والهروب والحيدة إلى أمور أخرى لا علاقة لها في موضوع المناظرة ، فإذا كان الموضوع يتضمن عدداً من المسائل فإنه يبدأ بأمها وأهمها لأنه إذا بان له الحق فيها فقد يكون في ما سواها أبين له فيكتفي بها عما سواها (٣) .

* **المسألة الخامسة عشر : مراعاة دلالات المصطلحات :**

ومن أهم ما يراعيه المتناظران هو دلالة المصطلحات والألفاظ فيتفقان على اصطلاح معين تتحدد به المعاني لأن أكثر اختلاف العقلاء ناتج من اشتراك الأسماء كما تقدم بيانه في الفصل الأول من هذه الرسالة، ولقد أحسن ابن تيمية في رعايته لمدلولات الألفاظ ودقته في استخدام اللغة ، ولعل ذلك أهم ما توصي به الفلسفة الحديثة اليوم ، جاء في كتاب مبادىء الفلسفة لرابوبرت : « هذا ولا يخفى ما في تحديد معاني الألفاظ من الفائدة فكثير ما يثور الخلاف بيننا في مسألة ويشتد الجدال في موضوع ويظهر أن المتجادلين على خلاف فيما بينهم وهم في الواقع على اتفاق ، ولو حددت ألفاظهم

---

(١) الفتاوى ١٨٦/٤ - ١٨٧ وانظر نقض المنطق /١٥٢ .
(٢) انظر ضوابط المعرفة للميداني /٣٨٦ .
(٣) انظر الفتاوى ٢٣٢/٩ ، وانظر الرسالة المدنية /٢٨ ، وانظر آداب الحوار والمناظرة /٦٦ المستشار علي جريشة .

لتجلى لهم أنهم على رأي واحد ، وليس منشأ الخطأ في الفهم إلا الغلط في تحديد الألفاظ أو غموضها وتعقيدها والتباسها ، لذلك كان فولتير يبدأ المناقشة دائماً بقوله (حدد ألفاظك) ، فالعلم بمعاني الألفاظ علم صحيح لا يستغنى عنه للتفكير الصحيح ولا للحكم الصحيح » [1] .

وكان ابن تيمية مدركاً لخطورة الألفاظ والمصطلحات « يعنى أشد العناية بتحديد الألفاظ وتعيين مدلولاتها حتى لا يقع فيها اشتباه أو لبس ، ويرى أن أكثر ما يقع بين الناس من خلاف إنما سببه اشتراك الألفاظ وإبهامها ، لذلك كان في مناقشته للفرق المختلفة يطالبهم بتحديد ما اصطلحوا عليه من ألفاظ ويرى أن البحث بدون ذلك خطأ وضلال .

كما أنه كان يحتكم إلى اللغة وأوضاعها في تحديد مدلولات الألفاظ حتى يمنع من التلاعب بها وحملها على معان اصطلاحية لا صلة بينها وبين المعنى اللغوي » [2] .

*** المسألة السادسة عشر : الاستفسار عن الألفاظ في الجدل:**

إذا كان المجادل والمناظر يستعمل الألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة التي عند إطلاقها تحتمل حقاً وباطلاً ، فالمجادل لهم في هذه الحال يستفسر عن مرادهم بهذه الألفاظ ، فإن كان موافقاً للكتاب والسنة قبلت وإن خالف ردت .

وإن امتنع عن إثباتها أو نفيها والتكلم بها معهم على إحدى هاتين الصورتين اتهموه بالعجز وعدم الحجة واعتبروا هذا انتصاراً لهم . وإن تكلم بها معهم استغلوا ذلك ونسبوا إليه أنه تكلم بهذه الألفاظ واستعملها وأوهموا الجهال باصطلاحهم أن هذه الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً أنها تتناول الباطل الذي ينزه الله عنه .

ففي هذه الحالة الخطاب له مقامات وحالات ولكل مقام مقال [3] :

الحالة الأولى : فإن كانوا دعاة إلى بدعتهم يسعون إلى إلزام الناس بها وإقناعهم فهؤلاء يلتزم معهم ألفاظ الكتاب والسنة ، ويقال :لا نجيبكم إلى ألفاظ لم يستعملها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدع إليها ،« فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه ، ولا له دعوة الناس إلى ذلك ، ولو قُدر أن ذلك المعنى حق » [4] .

---

(١) ابن تيمية السلفي /٦٥ - ٦٦ نقلاً عن مبادىء الفلسفة لرابوبرت ترجمة أحمد أمين /٣٩ .
(٢) ابن تيمية السلفي /٦٤ . (٣) انظر الدرء ٢٩٩/١ ، ٢٣٣ . (٤) الدرء ٢٢٩/١ وانظر ٢٣٤ .

وهذه الطريقة يفيد استعمالها إذا استطاع أهل البدع أن يصلوا إلى ولاة الأمور ويلبسون عليهم بدعتهم كما فعلت الجهمية حين لبست على بعض الخلفاء وأقنعوهم ببدعة القول بخلق القرآن (١) ،« فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال : ائتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك ، وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة» (٢) .

وهكذا فعل الإمام أحمد لما دعي إلى محنة القول بخلق القرآن وناظره أبوعيسى محمد برغوث (٣) وقال للإمام : إذا أثبت لله كلاماً غير مخلوق لزم أن يكون جسماً ، فأجابه الإمام أحمد بأن هذا اللفظ « الجسم » لا يعرف مراد المتكلم به ولم يرد في الكتاب والسنة ولم يكن له أصل بالإجماع ، فلم يثبت ، ولم يُنف ، لأن كلا الحالين بدعة ، وليس حجة شرعية ، فلا يجب إجابة من دعا إلى البدعة (٤) « فهذه المناظرة ونحوها هي التي تصلح إذا كان المناظر داعياً » (٥) .

الحالة الثانية : إذا كان المناظر والمجادل من الذين يعارضون الشرع أو من الذين يتحاكمون إليه ولا يلتزمون به مثل : كثير من الفلاسفة الذين يقولون إن الرسول خاطب الجمهور ولم يرد حقيقة ما يقول أو لا حقيقة له ، ومثل الباطنية الذين يقولون : إن المراد بالمعقول الصريح ليس الظاهر وإنما باطن يدل على أمور تخالف الشرع ، ومثل: المتكلمين الذين يدعون الناس إلى ما ابتدعوه من أمور تخالف الشرع يدعونها عقليات، ومثل: من لصق به من شبهات هؤلاء، فهؤلاء مناظرتهم ومجادلتهم تكون بالمعاني التي يدعونها؛ إما بألفاظهم، وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم(٦).

الحالة الثالثة : إذا كانت المخاطبة مع من يلتزم الشريعة ويتقيد بألفاظها أو كانت مع من ندعوه ونبيّن له الحق وهو ليس ممن يعارض الشرع ، أو كان الخطاب مع نفس الإنسان في حالة نظره في أمور الشريعة وبحثه عنها ،فيلتزم الاستمساك بالشريعة والتقيد بألفاظ الكتاب والسنة ويدعو إليها وله أن يتكلم مستعملاً الأدلة العقلية(٧) .« والأمثال المضروبة ، فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة فإن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال في كتابه، وبيّن بالبراهين العقلية توحيده، وصدق رسله ، وأمر المعاد ، وغير ذلك

(١) انظر السابق /٢٩٩ .
(٢) السابق /٢٢٩ .
(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٨٥) .
(٤) انظر الدرء ٢٣٠/١ ، ٢٣٧ .
(٥) السابق /٢٣١ .
(٦) انظر الدرء ٢٣١/١ ، ٢٣٨ .
(٧) انظر السابق /٢٣٢ ، ٢٣٥ .

من أصول الدين ، وأجاب عن معارضة المشركين كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (١) » (٢) . وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخاطبته فلما أخبرهم عن رؤية الله في الآخرة ، ضرب لهم مثلاً برؤية القمر(٣) وهو واحد وكل يراه كأنه فريد برؤيته، ولما سئل عن إحياء الموتى ضرب مثلاً بإحياء النبات حينما ينزل المطر على الأرض (٤) ،وكذلك ابن عباس لما أخبر عن رؤية الله في الآخرة اعترض عليه بقوله تعالى : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ (٥) فقال للمعترض: «ألست ترى السماء ؟ فقال : بلى ، قال : أتراها كلها ؟ قال : لا » ، فنفي الإدراك لا يقتضي نفي الرؤية وكذلك أحمد بن حنبل لما بيّن علو الله واستواءه على العرش مع علمه بكل شيء ضرب لهم أدله عقلية « فقال : لو أن رجلاً في يده قوارير فيها ماء صاف ، لكان بصره قد أحاط بما فيها مع مباينته ، فالله – وله المثل الأعلى – قد أحاط بصره بخلقه وهو مستو على عرشه » (٦) .

ويمكن أن تفسر الألفاظ المجملة وتفصل ويبين ما فيها من معنى حق وما فيها من معنى باطل ، ويبين له أن هذه ألفاظ محدثة فيها حق وباطل فلا تنفى مطلقاً ولاتثبت مطلقاً (٧) (٨) .

* **المسألة السابعة عشر : القائمون بعلم الحجج :**

وعلم الحجج والمناظرات والمجادلات : القائمون به هم أهل الرئاسة العلمية ، وعلم السياسة والتدبير : القائمون به هم أهل الرئاسة القدرية ، علمان يتعاضدان في جلب المنافع ودفع المضار عن الدين والدنيا . وبصلاح أهلهما يصلح الناس ولهذا قيل : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء ، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما .

والفاقدون لهذين العلمين أو المقصّرون فيهما بحاجة إلى أهلهما ،فهم بحاجة إلى أهل الرياسة العلمية « إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل ... أو إذا هجم على أنفسهم

---

(١) سورة الفرقان آية (٣٣) . (٢) الدرء ١/٢٣٥ .
(٣) متفق عليه عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أخرجه البخاري كتاب الرقاق ، باب الصراط جسر جهنم ، فتح الباري ١١/٤٤٤ – ٤٤٦ . ومسلم كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، صحيح مسلم ١/١٦٣ – ١٦٥ .
(٤) انظر الدرء ١/٢٣٦ . (٥) سورة الأنعام آية (١٠٣) .
(٦) الدرء /٢٣٧ . (٧) السابق /٢٣٢ .
(٨) انظر هذه الحالات الثلاث في موافقة صحيح المنقول ١/١٨٠ – ١٨٢ .

من أنفسهم ذلك » (١) . وهم بحاجة إلى أهل الرياسة القدرية إذا هجم عدو يفسد الدنيا بالظلم .. وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض في الدين والدنيا . وتارة يعيشون في ظلهم - أي العلماء والساسة - في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ، ولا وال يظلمهم ، وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدافعة لأهل البدع ، والسياسة الدافعة للظلم » (٢) .

* المسألة الثامنة عشر : الجدل والمناظرة للذب عن السنة جهاد :

ويرى شيخ الإسلام رحمه الله أن الجدل والمناظرة للذب عن السنة جهاد في سبيل الله ويستشهد بقول « يحيى بن يحيى » (٣) : « الذب عن السنة أفضل من الجهاد » (٤) . ويتبنى هو هذا الرأي نظرية وتطبيقاً في كتابه الدرء ومنهاج السنة وغيرهما ، ومن ذلك قوله عن الفلاسفة والمتكلمين : « دفع صيالهم وتبيين ضلالهم من أعظم الجهاد في سبيل الله » (٥) .

والجهاد الذي يكون في سبيل الله هو ما كان مقصوداً به أن تكون كلمة الله هي العليا ، فالجدل والمناظرة يكون في سبيل الله إذا كان بنية خالصة من أجل تبيين الحق وظهوره ، ولو على يد خصمه فالحق أحق أن يتبع (٦) .

*المسألة التاسعة عشر : الإخلاص لله في الجدل :

والمناظر قبل أن يبدأ يلزمه « أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه وطلب مرضاته في امتثال أمره سبحانه ... ويتقي الله أن يقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه ، والتكسب والمماراة ، والمحك ، والرياء ،ويحذر أليم عقاب الله سبحانه ولا يكون قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة ، والقهر ، فإنه من دأب الأنعام الفحولة : كالكباش والديكة » (٧) .

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٣/٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٠٣/٤ .

(٣) هو : يحيى بن يحيى بن وسلاس بن شملال بن منغايا ، فقيه الأندلس الليثي البربري ، المصمودي الأندلسي القرطبي ،ولد سنة ١٥٢هـ كان كبير الشأن وافر الجلالة ، عظيم الهيبة مجاب الدعوة ، وكان ممن اتهم ببعض الأمر في الهيج - القيام والإنكار مع أمير الأندلس .. توفي سنة ٢٣٤هـ وقيل ٢٣٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥١٩/١٠ ، وفيات الأعيان ١٤٣/٦ . تهذيب التهذيب ١٩١/٦ .

(٤) الفتاوى ١٣/٤ . (٥) الدرء ٢٠٦/٤ .

(٦) قال صاحب الإيضاح :« أول ما تجب البدايه به : حسن القصد في إظهار الحق ، طلبًا لما عند الله تعالى ، فإن آنس من نفسه الحيد عن الغرض الصحيح فليكفها بجهده ، فإن ملكها وإلا فليترك المناظرة في ذلك المجلس » . الإيضاح لقوانين الإصلاح لابن الجوزي ت د فهد السدحان / ٤٢ ، وانظر آداب البحث والمناظرة ، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي / ٧٦ .

(٧) الكافية في الجدل للجويني إمام الحرمين ت د فوقية حسين محمود / ٥٣٥ .

* **المسألة العشرون : توافر القدرة في المجادل :**

لما كان الجدل والمناظرة « جهاداً » فإنه لا يجوز استعماله إلا لمن كان عنده القدرة في ذلك ، والقدرة في هذا نوعان :

القدرة العلمية وهي : العلم بالأدلة والبراهين والحجج والقدرة على فهم ما يورده الخصوم المجادلون .

والقدرة البيانية وهي : المكنة من إظهار ما لديه من القدرة الأولى وذلك بحسن الرد على ما يقوله المعترض المجادل أو ما يسأل عنه (١) .

والقول باشتراط هاتين القدرتين عائد إلى أنه « ليس كل من عرف الحق – إما بضرورة أو بنظر – أمكنه أن يحتج على من ينازعه بحجة تهديه أو تقطعه ، فإن ما به يعرف الإنسان الحق نوع ، وما به يعرف به غيره نوع ، وليس كل ما عَرَفه الإنسان أمكنه تعريف غيره به .

فلهذا كان النظر أوسع من المناظرة ، فكل ما يمكن المناظرة به يمكن النظر فيه ، وليس كل ما يمكن النظر فيه يمكن مناظرة كل أحد به » (٢) .

* **المسألة الحادية والعشرون : توافر العلم بالحجج والبراهين في المجادل :**

إن هذا الدين جاء بالبراهين والحجج السمعية والعقلية ، ولا يقبل الله عز وجل من أحد أن يجادل أحداً أو يناظره بغير علم ،وقد نهى الله عن ذلك بقوله : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٣) .

وهذا منهج رباني كما جاء في الكتاب العزيز حيث غالب ما فيه من البيان مقرون بالحجة والبرهان ، يقول ابن تيمية :« غالب ما بينه القرآن فإنه بين الحق والصدق ويذكر أدلته وبراهينه ، وليس يبينه بمجرد الإخبار عن الأمر ، كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة والمتفلسفة » (٤) .

وجاء في السنة بغض الله للألد الخصم (٥) ،وهو الذي يجادل عن نفسه بالباطل ، وفيه لدد أي ميل واعوجاج عن الحق ، ولا بد من أن يقيم المجادل الحجة على

---

(١) انظر آداب البحث والمناظرة : الشيخ محمد الأمين الشنقيطي / ٧٦ .

(٢) الدرء ١٧١/٧ .

(٣) سورة آل عمران آية (٦٦) .

(٤) الفتاوى ٤٣٧/١٤ .

(٥) أخرجه البخاري كتاب الأحكام ، باب الألد الخصم وهو الدائم في الخصومة ، فتح الباري ١٨٠/١٣ .

الخصم ويفحمه ، ولا يترك له حجة يتمسك بها أو شبهة يتخذها دليلاً على باطله ومن قصر في ذلك فقد نقص الإسلام حقه ، وعليه أن يعرف من أين أوتي ، فإن كان قادراً على الوفاء وإلا فعليه أن يتجنب ما لا يقدر عليه حتى لا يسيء إلى الحق ، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله : « فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دارهم ، لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفى بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس ، ولا أفاد كلامه العلم واليقين » (١).

* المسألة الثانية والعشرون: تصديق القول وتكذيبه يجب أن يكون بموجب خبري :

وليس للمجادل والمناظر أن يصدق قولاً دون قول أو يكذبه أو يرد قولاً أو ينقضه إلا بموجب خبري أو عقلي يوجب ذلك (٢) ،ولا يكفي نوع من الأدلة بل يستعمل المجادل والمناظر أنواع الأدلة القرآنية كلها ، ويشترط أن يسلم الخصم المقدمات وإن لم تكن بينة معروفة ، فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية ، والقرآن يعتمد القضايا والمقدمات البرهانية الصادقة التي يسلمها الناس ، وإن كان بعض الناس يسلمها وبعضهم لا يسلمها بل ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها (٣) .

* المسألة الثالثة والعشرون : تجنب الأحكام القبلية في نيات الخصم :

تجنب الأحكام القبلية في نيات الخصم ومقاصده ، والواجب أن يحسن المناظر ظنه بالله ويدعو ربه أن يوفقه لهداية خصمه إلى الحق وكشف الغشاوة عن قلبه ، ثم يحسن ظنه بالمناظر « الخصم » ، وأنه يعتقد أنه على الحق والصواب وأن مخالفه على الباطل ، فكم من الناس يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وليسوا كذلك .

إن الأحكام القبلية « في اتهام نية الخصم » تكسو المناظرة بالعنف ، وبالكلمات التي تخرج عن حدود اللياقة الأدبية ، ثم إن النية أمر قلبي لا يعلمه إلا الله، ووجود الخطأ والتمسك به قبل التبين لا يخولنا الحكم بسوء النية ، وما لم يظهر الخصم نيته بقول أو فعل فمن أين لنا أن نتقول عليه ؟ وهذا من أخطر القضايا بين الدعاة والعلماء وعموم الناس أن يضع المرء نفسه في منزلة رب العالمين فيطلق لسانه في الآخرين بشتى أنواع الاتهامات وكأنه عالم بما تخفي الصدور .

*المسألة الرابعة والعشرون : تجنب الشدة والعنف على الخصم :

الشدة والعنف على الخصم تغلق أبواب النفس عن قبول الحق من قِبَل المناظَر

---

(١) الدرء ٣٥٧/١ . (٢) انظر التفسير الكبير ١٧٥/٧ . (٣) انظر الفتاوى ١٦٥/١٩ .

والمجادَل ، ومهما يكن ضلال الخصم وكفره ما دمنا في ساحة المناظرة فيلزم اتخاذ ما ييسر قبوله للحق ويعينه على نفسه وشيطانه .

وهذا من أدب الله لأنبيائه قال لموسى وهارون عليهما السلام حينما بعثهما لأكفر من على وجه الكرة الأرضية فرعون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(١)، فالقول اللين يحقق غاية التذكر أو الخشية . فإذا بان الحق والصواب بأدلته ، وعرفه الخصم ولكنه حاد عنه ورفض الرجوع عن كفره أو ضلاله ، فهنا يأتي مجال اتهام مقاصد الخصم ومن ثم الشدة عليه واستعمال القوة لردعه عن الباطل إذا لم يكن هناك مضرة راجحة .

* **المسألة الخامسة والعشرون : التركيز على أفكار وآراء ومعتقدات الخصم :**

التركيز على أفكار ومعتقدات وآراء الخصم التي هي موضع النقاش ، فهي المستهدفة في الجدال والمناظرة لبيان ما فيها من خطأ وصواب . وأما السيرة الذاتية للشخص المجادَل فيلزم أن تكون بعيدة عن مجال المناظرة والمجادلة حتى لا تنقلب إلى دفاع عن النفس أو الكيان أو نحو ذلك وتتحول إلى مهاترات وتهكمات ، وكل خصم ينقب عن عيوب خصمه الشخصية .

* **المسألة السادسة والعشرون : إعطاء المناظر قدره وحقه واعتباره :**

إعطاء المناظر قدره وحقه واعتباره وإنزاله منزلته ، فإذا كان من العلماء الكبار أو الذين لهم أتباع وأنصار ، أو كان أحد الملوك والأمراء أو الأعيان والوجهاء ، قد اعتاد على التقدير والإجلال ونوع من الخطاب ، فلا بد أن يراعي الداعية المُنَاظَر ، من باب مراعاة المصالح التي تهيء نفسه وتفتح أبوابها لقبول الحق ، ويبتعد عن الأساليب المثيرة من غير جدوى ، ولأن فعل هذه الأمور يسيء للمناظر ويحط من قدرة قالت عائشة رضي الله عنها :« أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم » رواه أبو داود وغيره (٢) » (٣) .

* **المسألة السابعة والعشرون: عدم التعصب على الغير من أجل مقادحة وإهمال ممادحه:**

عدم التعصب على الغير بالنظر إلى مقادحه وإهمال ممادحه وإبراز الخصم أنه

---

(١) سورة طه آية (٤٤) .
(٢) أخرجه مسلم في المقدمة معلقاً عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، مسلم ١/٦ .
(٣) انظر شرح الأصفهانية /١٤٥ - ١٤٦ .

مسلوب كل فضيلة ومحروم من كل خصلة نبيلة مع نسيان أن كل إنسان لا يخلو من عيوب حتى من يحكم على مناظره هذا الحكم . ولكن الإنسان يرى عيوب غيره أكثر من عيوب نفسه ويظهرها أكثر ، وكما قيل :« ... يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع المعترض في عينه » (١) ، فمن الأدب ذكر محاسن المرء وما فيه من فضيلة ، حتى تكون منصفاً .

*** المسألة الثامنة والعشرون : ترك التعصب والظلم :**

ومن الأمور الواجبة في كل حين ، وفي وقت الجدل والمناظرة أوجب وألزم ترك التعصب والظلم (٢) ، وأن يكون قصد المناظرة إظهار الحق ووضوحه لكلا الطرفين ، وهذا لا يتم إلا بالعدل والإنصاف ، فإذا كان عند الخصم أدلة مقبولة وحجج معقولة وفضائل مشهودة فمن العدل الاعتراف بها . قال تعالى : ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ (٣) ، يقول رحمه الله :« والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف ، وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمه وهو المسفسط والمقرمط ، أو يمتنع عن الاستماع والنظر في طريق العلم وهو المعرض عن النظر والاستدلال ... ولما كانت المحاجة لا تنفع إلا مع العدل قال تعالى : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ (٤) ،فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتي هي أحسن » (٥) ، فالعدل والإنصاف يعدان من أركان الجدل إذا وجدا فيه مع العلم والإخلاص بصدق النية كانت النتائج إيجابيه والواجب أن « ... من كان عنده من العلم والبيان ما يقوله سمع ذلك منه فقبل ما تبين أنه حق ، وردّ ما تبين أنه باطل ، ووقف ما لم يتبين فيه أحد الأمرين » (٦) ، ويقول : « وليس مما أمر الله به ورسوله ولا مما يرتضيه عاقل أن تقابل الحجج القوية بالمعاندة والجحد ، بل قول الصدق والتزام العدل لازم عند جميع العقلاء ، وأهل الإسلام والملل أحق بذلك من غيرهم » (٧) . والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل (٨) ، ولهذا فهو يحذر كثيراً من رد الأمور الصحيحة فيما يورده الخصم لأنه مخالف لمنهج العدل والإنصاف وخروج عنه إلى الظلم وبطر الحق ، وله مخاطر عظيمة ونتائج وخيمة حيث إنه مسلك يتيح فرصة لقبول

---

(١) الدرء ٤٦٣/٧ . (٢) انظر الفتاوى ١٦٥/٤ .
(٣) سورة المائدة آية (٨) . (٤) سورة العنكبوت آية (٤٦) .
(٥) نقض المنطق لابن تيمية /٩١ ، ٩٢ ، وانظر الفتاوى ١٠٩/٤ - ١١٣ .
(٦) التفسير الكبير ٤٥/٤ . (٧) الدرء ٢٠٧/٩ . (٨) انظر الدرء ١٥٠/١٠ .

كلام الخصم من قبل الآخرين فيروج عليهم باطله وإفكه بسبب ذلك (١) . إضافة إلى أنه نوع من المكابرة مع الخصم وهذا خلق مذموم حين الجدل وفي كل حين ، وابن تيمية لا يكابر مع خصومه وإن كابروا معه أو مع غيره يقول في إحدى مناقشاته مع خصومه :«الجواب التاسع : أن يقال : نحن لا نرضى أن نجيبكم بما أجبتم به النفاة وذلكم أنكم مقصرون في مناظرة النفاة لما أثبتموه عقلاً وسمعاً ، فإنكم في كثير من مناظراتكم لهم تصيرون إلى المكابرة ودعوى ما يعلمون هم نقيضها كما تفعلونه في مسألة الرؤية والكلام ، وإثبات الصفات بدون إثبات لوازم ذلك ، إذا أنتم كثيراً ما تثبتون الشيء بدون لوازمه أو مع وجود منافيه » (٢) .

وكذلك المراوغة مع الخصم والتلون في المواقف الجدلية قدح في عقل ودين الرجل، فبعض العلماء في مسألة واحدة إذا ناظروا بها الملاحدة صارت باطلاً أو سكتوا عن دفع اعتراضهم عليها . وإذا ناظروا المسلمين صارت حقاً ونافحوا عنها . فمثلاً في مسألة إثبات جواهر غير متحيزة يقول مخاطباً الرازي (٣) ، والشهرستاني (٤) وأمثالهم : « فإن كان هذا القول حقاً فادفعوا به الفلاسفة الملاحدة (٥) ، وإن كان باطلاً فلا تعارضوا به المسلمين ، أما كونه يكون حقاً إذا دفعتم ما يقوله إخوانكم المسلمون ، ويكون باطلاً إذا عجزتم عن دفع الملاحدة في الدين ، فهذا طريق من بخس حظه من العقل والدين وحسن النظر والمناظرة عقلاً وشرعاً » (٦) .

ويلفت ابن تيمية انتباهنا إلى حقيقة واقعة وهي أن كل من خالف الحق أو شيئاً منه لا بد أن يكتم من الأدلة القرآنية والنبوية ما يقابل هذا الحق المتروك ، وذلك خوفاً أن يستفيد منها الخصم ، وهذا حال من لا يريد ظهور الحق وبيانه وإنما يريد ظهوره هو وإثبات ما يراه ولو كان باطلاً ، وأهل الباطل هذا دأبهم حتى لو أمكنهم كتمان القرآن لكتموه وحتى إن منهم من يمنع رواية الأحاديث النبوية المأثورة عنه صلى الله عليه وسلم لأنها تخالف ما يعتقده من الباطل ، قال رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ **أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ (٧) :«حال من يكتم النصوص

---

(١) انظر التفسير الكبير ٤١٦/٧ . (٢) الدرء ١٣٧/٧ .

(٣) تقدمت ترجمته صفحة (٦٥) .

(٤) هو : أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني ، ولد سنة ٤٧٩هـ ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ ، من أئمة الأشاعرة ، والمطلعين على الفلسفة والمقالات المختلفة ، ومن كتبه المشهورة « الملل والنحل » و « نهاية الإقدام في علم الكلام » . انظر سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٢٠ ، وفيات الأعيان ٢٧٣/٤ .

(٥) تقدم التعريف بهم في صفحة (٨١) . (٦) الدرء ١٦٣/٤ . (٧) سورة البقرة آية (٧٦) .

التي يحتج بها منازعه ... » (١) .

ويشهد لهذا ما حدث في سنة ٧٠٥هـ للحافظ الشيخ جمال الدين المزي حين قرأ فصلاً فيه الرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخاري من أجل الاستسقاء ، فأغضب ذلك بعض الفقهاء الحاضرين ورفعوا أمره إلى القاضي الشافعي ابن صصري (٢) ، وهو من أعداء ابن تيمية والشيخ المزي على معتقد ابن تيمية ، فسجن المزي فأبلغ ابن تيمية بذلك ، فذهب بنفسه إلى السجن وأخرجه وهو متألم لهذا الفعل ، ثم ذهب ابن تيمية إلى القصر للقاء القاضي الشافعي فوجده هناك فتكلم هو وإياه وتبادلا القول بسبب الشيخ المزي ، فحلف ابن صصري أن يعاد وإلا عزل نفسه من القضاء .. » (٣).

* **المسألة التاسعة والعشرون : طول النفس مع الخصم :**

طول النفس مع الخصم ، وإعطاؤه فرصة ليتكلم بآرائه وحججه ، حتى لو أطال ، ما لم يكن حيلة منه لغرض من الأغراض ، ولا يصح في المناظرة مقاطعة المتكلم إلا بشيء لا بد منه كطلب إعادة كلام لم يسمعه ، أو طلب توقف لعارض عرض له يمنعه من الاستماع أو كماله ونحو ذلك .

وبعض المناظرين يضيق عطنه بمناظرة، فيظهر ضجره وتأففه من آراء خصمه وأدلته وقد لايتمالك نفسه فيصدر منه ما يخل بأدب المناظرة ويفقده بعض ما يظن به من الهيبة والرزانة فينقص قدره ، وأحياناً الخصم المناظر قد يتعمد هذا ليستفزه فيحقق انتقاص قدره .

وعلى المناظر والمجادل أن يضع في ذهنه أن خصمه لن يترك وسيلة من وسائل الانتصار ولا مجالاً من مجالات الحجج والآراء إلا وطرقها ،وليروض نفسه على سماع ما لم يسمعه في عمره من أقوال باطلة ، يقول رحمه الله :« وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية فأنا لا أتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله ، وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس ... » (٤) .

---

(١) التفسير الكبير ٣٧/٣ .
(٢) هو : أحمد بن محمد بن سالم بن الحافظ أبي المواهب بن صصري ، التغلبي ، الدمشقي ، الشافعي ، كان قاضي القضاة في عصره توفي سنة ٧٢٣هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١٤٩/٤ .
(٣) انظر البداية والنهاية ٣٢/١٤ ، ٣٣ .
(٤) الفتاوى ٢٤٥/٣ ، ٢٤٦ .

* المسألة الثلاثون : الإجابة بأكثر من طريقة :

من الحكمة في الجدل والمناظرة أن تتنوع طرق الإجابة ، لأن في تنوعها تجديداً في عرض المعلومات وأساليب الإقناع ، وهذا يعطي الجدل والمناظرة طرافة وحيوية ، وأيضاً يساعد في إيصال المعلومات بإحدى الطرق التي يستوعبها الخصم .

وهذا أيضاً يؤدي بدوره إلى انبهار الخصم وشعوره بتفوق خصمه عليه مما يضعف قدراته ويقلل ثقته بنفسه . وهذا مما يساعد على قبوله للرأي الذي يطرحه المجادِل . يقول رحمه الله : « وهنا طريقة ثالثة في الجواب على قول من قال :إنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وإن الحركة من لوازم الحياة ... » (١) .

ويقول في الرد على المعتزلة بقولهم إن كل موصوف متحيز والباري ليس بمتحيز فلا يكون محلاً للصفات ، ذكر الإجابة (٢) ثم قال : « فهذا جواب برهاني ، والجواب الإلزامي » ثم ذكره (٣) .

فإن ابن تيمية يرى أن يستعمل المجادل أكثر من طريقة في الإجابة أو الرد على الخصم ويقول في موضع آخر في مسألة حلول الحوادث بذاته أو قيامها :« فتبين أنه لا بد من بطلان إحدى المقدمتين ، وأيهما بطلت ، بطلت الحجة ، فهذا جواب ليس بإلزامي ، بل هو علمي يبطل الحجة قطعاً » (٤) .

*المسألة الحادية والثلاثون : عدم اشتراط المعادلة :

لا يشترط في المجاهد أن يكون عدلاً ، بل يجوز ان يُجَاهِد وأن يُجَاهَد مع من فيه فجور وظلم ، فالراد على أهل البدع الدافع لصيالهم على الإسلام والسنة مشكور على فعله ولو كان فاجراً أو ظالماً ، كما يشكر المجاهد على جهاده ، يقول رحمه الله نقلاً عن « يحيى بن يحيى » (٥) : « والمجاهد قد يكون عدلاً في سياسته ، وقد لا يكون ، وقد يكون فيه فجور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :(إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم) (٦) .ولهذا مضت السنة بأن يغزى مع كل أمير ، براً كان أو فاجراً . والجهاد عمل مشكور لصاحبه في الظاهر لا محالة وهو

---

(١) الدرء ٦٦/٤ . (٢) انظر الدرء ٧٨/٤ – ٨٠ . (٣) الدرء ٨١/٤ .
(٤) الدرء ٦٦/٤ . (٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٥٨٤) . (٦) سبق تخريجه .

مع النية الحسنة مشكور باطناً وظاهراً ، ووجه شكره : نصره للسنة والدين فهكذا المنتصر للإسلام والسنة يشكر على ذلك من هذا الوجه » (١) .

*المسألة الثانية والثلاثون : أحوال المجادل والمناظر :

المجادل والمناظر له حالان : الأولى : أن يكون عالماً بالحق ، الثانية : أن يكون غير عالم بالحق .

في الحالة الأولى : ينظر إلى إرادته في المناظرة ، فإن كان قصده إظهار الحق والذب عن السنة فهو مشكور ظاهراً وباطناً . وإن كان قصده مجرد الظلم والعدوان وإظهار قدراته العلمية والبيانية لقصد العلو في الأرض أو الفساد فهذا مذموم على نيته وقصده .

ولكنه من وجه آخر « قد يكون من الفجار الذين يؤيد الله بهم الدين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) فكما قد يجاهد الكفار فاجر فينتفع المسلمون بجهاده فقد يجادلهم فاجر فينتفع المسلمون بجداله » (٢) .

ومثل هذا النوع قد يوقعه سوء قصده بما يضر نفسه من الكذب والبدعة والظلم وهذه تجره إلى أمور أخرى .

والحالة الثانية : إذا كان المناظر غير عالم بالحق بأن يكون : « لا يعرف الحق في نفس المسألة أو يعرف الحق لكن لا يعرف بعض الحجج أو الجواب عنها ، أو الجمع بين دليلين متعارضين وأمثال ذلك » (٣) ، فإذا قصد بالمناظرة معرفة ما يجهله من ذلك كان فعله محموداً وإن ناظر لغير ذلك كان مذموماً .

« والسلف – رضوان الله عليهم – كانت مناظرتهم مع الكفار وأهل البدع – كالخوارج وغيرهم – من القسم الأول ، وكانت مناظرة بعضهم لبعض في مسائل الأحكام والتفسير تارة من القسم الأول ، وتارة من القسم الثاني وهي المشاورة التي مدحهم الله عليها بقوله عز وجل : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٤) ، وما ذكره الله تعالى عن الأنبياء والمؤمنين من المجادلة يتناول هذا وهذا » (٥) . أما وجه الذم إذا حاول وناظر بغير علم فتكلم بما لا يعرف من القضايا والمقدمات ، فإنه والحالة هذه يكون « ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة ، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل ، كما

---

(١) الفتاوى ١٣/٤ ، ١٤ . (٢) الدرء ١٦٩/٧ . (٣) الدرء ١٦٩/٧ .
(٤) سورة الشورى آية (٣٨) . (٥) الدرء ١٦٩/٧ ، ١٧٠ .

ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة»(١) .

وعلى هذا يتبين لنا أن الذب عن الإسلام بالمجادلة والمناظرة – لدفع الصولة العلمية والفكرية عن الإسلام من قبل الخصوم – « من أعظم الجهاد في سبيل الله » (٢) ، والجهاد لا يُمنَع منه من توافرت فيه شروطه ، أما من كانت منه أو عليه مضرة إذا جاهد لسبب من الأسباب فإنه يمنع ، وهكذا الجهاد بالمجادلة لا يُمنَع منه إلا « من لا يقوم بواجبها أو مع من لا يكون في مناظرته مصلحة راجحة ، أو فيها مفسدة راجحة، فهذه أمور عارضة تختلف باختلاف الأحوال »(٣) .

*** المسألة الثالثة والثلاثون : وجوب قبول الحق عند ظهوره :**

المجادَل والمناظَر إذا بان له الحق وجب قبوله ومن ثم التوقف عن المجادلة خصوصاً إذا وصلت المجادلة إلى إنكار العلوم الحسية والضرورية ، فإذا لم يتوقف وجب الامتناع عن مناظرته .

والشكوك والشبهات التي تعرض للمرء وتقدح في علومه الحسية والضرورية لا يجاب عنها بالبرهان والنظر والاستدلال ، لأن غاية هذه أن تنتهي إلى تلك العلوم ، فإذا وقع الشك فيها انقطع طريق النظر والبحث .

وأيضاً ليس كل شبهة تعرض للإنسان يمكن إزالتها بالبرهان والنظر والاستدلال ، وإنما يخاطب بهذه الذي عنده مقدمات علمية ولديه مكنة أن ينظر فيها نظراً يفيده العلم بغيرها . ومن لم يكن متوافراً فيه هذان الأمران المقدمات العلمية ، والمكنة من النظر فإنه لا يمكن مخاطبته بالنظر والاستدلال والبرهان (٤) .

ومثال ذلك ما ذكره بقوله :« ... فالوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تزال بالبرهان ، بل متى فكر العبد ونظر ازداد ورودها على قلبه ، وقد يغلبه الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه ، كما يعجز عن حل الشبهة السوفسطائية ، وهذا يزول بالاستعاذة بالله ، فإن الله هو الذي يعيذ العبد ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية ... » (٥) .

---

(١) الدرء ١٦٩/٧ ، ١٧٠ . (٢) الدرء ١٧٣/٧ .
(٣) الدرء ١٧٣/٧ . (٤) انظر الدرء ٣٠٩/٣ ، ٣١٠ . (٥) الدرء٣١٠/٣ ، ٣١١ .

وبعض العلوم الاستدلال عليها والبرهنة لا يأتي بثمرات إيجابية مطلقاً ، وهذا راجع لعدد من الأمور بعضها متعلق بالعلوم ، وبعضها متعلق بنفس البراهين والأدلة ، وبعضها متعلق بنفس المستدل من حيث قدرته على نظم الأدلة ، وهذا ما ذكره ابن تيمية بقوله: «إن كثيراً من العلوم تكون ضرورية فطرية ، فإذا طلب المستدل أن يستدل عليها خفيت، ووقع فيها شك ، إما لما في ذلك من تطويل المقدمات ، وإما لما في ذلك من خفائها ، وإما لما في ذلك من كلا الأمرين ؛ والمستدل قد يعجز عن نظم دليل على ذلك، إما لعجزه عن تصوره ، وإما لعجزه عن التعبير عنه ، فإنه ليس كل ما تصوره الإنسان أمكن كل أحد أن يعبر عنه باللسان وقد يعجزه المستمع عن فهمه ذلك الدليل .

وإن أمكن نظم الدليل وفهمه ، فقد يحصل العجز عن إزالة الشبهات المعارضة إما من هذا ، وإما هذا ، وإما منهما . وهذا يقع في التصورات أكثر مما يقع في التصديقات (1) .

*** المسألة الرابعة والثلاثون : التنزل مع الخصم إلى مستوى حجته وعدم الضجر منه :**

التنزل مع الخصم إلى مستوى حجته ، وعدم الضجر منها إذا كان بطلانها واضحاً عند الداعية المناظِر والمجادِل ، لأنها عنده ليست كذلك ، ومناقشته فيها مناقشة تكشف له مخالفتها للحق ، ولا يستهين المناظِر بهذه الحجة التي كان يعلم بطلانها قبل أن يعرضها صاحبها ، لأن هذه الحالة تقلل من أهمية المناظرة ، وقد يتهاون في إيراد الاعتراضات على الخصم .

يقول رحمه الله :« فإنا في هذا المقام نتكلم معهم بطريق التنزل إليهم ، كما نتنزل إلى اليهودي والنصراني في مناظرته ، وإن كنا عالمين ببطلان ما يقوله اتباعاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (2) ،وقوله : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (3) ، وإلا فعلمنا ببطلان ما يعارضون به القرآن والرسول ويصدون به أهل الإيمان عن سواء السبيل وإن جعلوه من المعقول بالبرهان – أعظم من يبسط في هذا المكان » (4) .

***المسألة الخامسة والثلاثون : عدم الاستهانة بحجة المجادل والمناظر :**

ويلزم المجادل المناظر ألا يستهين بحجة الخصم أياً كانت حتى ولو كانت مخالفة لما

---

(1) الدرء ٣١٩/٣ .
(2) سورة النحل آية (١٢٥) .
(3) سورة العنكبوت آية (٤٦) .
(4) الدرء١/١٨٨ ، وانظر ٢٣٩/٣ .

يعلم يقيناً أنه حق ، أو كأن يصرّ الخصم على تسمية معينة لا تنطبق على المسمى .

وفي هذه الحالة يتنزل المجادل مع الخصم ويناظره على افتراض صحة حجته وعلى حسب ما يعرف ، قال رحمه الله :« ولهذا كنت أتنزل مع علماء النصارى إلى أن أطالبهم بالفرق بين المسيح وغيره من جهة الإلهية فلا يجدون فرقاً ... » (١) ، ويقول : « وإذا قدر أن المعارض أصرّ على تسمية المعاني الصحيحة التي ينفيها بألفاظه الاصطلاحية المحدثة ، مثل أن يدعي أن ثبوت الصفات ومباينة المخلوقات يستحق أن يسمى في اللغة تجسيماً وتركيباً ونحو ذلك ، قيل له : هب أنه سمّي بهذا الاسم ، فنفيك له إما أن يكون بالشرع ، وإما أن يكون بالعقل » (٢).

ولما تكلم مع الآمدي بمسألة تماثل الأجسام وتجانسها ، وأن جميع الطرق التي ذكروها لاتدل على التماثل وهذا يعلم اضطراراً وإنما يدل على اشتراك الأجسام في معنى من المعاني ، وليس جعل ما به الاشتراك هو الذات ، وما به الاختلاف من الصفات بأولى من العكس ثم قال : « وهذا على سبيل التنزل وإلا فنحن نعلم بالضرورة والحس اختلاف الأجسام المختلفة .. » (٣) . ويقول مبيناً التنزل مع الخصم في الألفاظ والمصطلحات على حسب لغته واصطلاحه وإن كان المجادل لا يجيز هذا الإطلاق في غير هذا المقام وذلك كما لو تناظر مع رافضي فقال الرافضي :« أنتم ناصبة تنصبون العداوة لآل محمد ، فقيل له : نحن نتولى الصحابة والقرابة فقال : لا ولاء إلا ببراء ، فمن لم يتبرأ من الصحابة لم يتول القرابة فيكون قد نصب لهم العداوة ، فيقال له : هب أن هذا يسمى نصباً ، فلم قلت : إن هذا محرم ؟ ... » (٤) .

***المسألة السادسة والثلاثون : القصد من الجدل بيان الحق وإزالة الشبهات :**

المقصود من الجدل والمناظرة بيان الحق أو إزالة الشبهات عن الشخص المجادَل والمناظَر ، ولا مراء أن المجادَلين والمناظَرين يختلفون في القدرات العلمية والنواحي العقلية والنفسية ، والواقع الاجتماعي والسياسي ونحو ذلك ، ولا بد للمجادل أن يقيم اعتباراً لكثير من هذه النواحي ويضع في حسابه مراعاة مصلحة المجادَل المناظَر . مع إضافة مراعاة المقام وإعطائه المقال الذي يناسبه لأنه « لكل مقام مقال » (٥) .

ويقول إن هذا منهج سلفي ، فالسلف الصالح كانوا يراعون حاجة المخاطبين حتى

---

(١) التفسير الكبير ١٧٩/٥ . (٢) الدرء ١٣٩/١ . (٣) الدرء ١٧٩/٤ .
(٤) الدرء ٢٤٠/١ . (٥) الفتاوى ٢٨٠/٩ ، وانظر الإيضاح لقوانين الاصطلاح لابن الجوزي /٤٣ .

في تفسير وبيان معاني القرآن « ... وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين كما ذكرناه من عادة السلف أن يفسرها بذكر بعض الأنواع يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين لا على سبيل الحصر والتحديد .. » (١) .

و « قال الشيخ الملقب بالكبيري للرازي ورفيقه وقد قالا له : يا شيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين ، فقال : نعم ، فقالا : كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذَكَر شيئاً أفسدته ، وكلما ذكرت شيئاً أفسده ؟ فقال : هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام ... فتبين له أن الحق مع أهل الإثبات ... رأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين ...

وهذا الوصف الذي ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فإنهم قسموا العلم إلى ضروري ونظري ، والنظري مستند إلى الضروري والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه معه هذا الانفكاك عنه ... فقال لهم علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس » (٢) .

* **المسألة السابعة والثلاثون : مراعاة ما يناسب المجادل من كلام خشن لسوء أدبه :**

قد يناسب المجادَل المناظَر الكلام الخشن والعبارات القاسية نظراً لسوء أدبه أو شناعة قوله أو فعله ، ومثال ذلك بعض مواقفه مع الرافضة خصوصاً حينما يردّ عليهم أو على أقوالهم الأثيمة في حق الصحابة ،من هذه المواقف قوله :« ومن العجب أن هذا الحمار الرافضي الذي هو أحمر من عقلاء اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ (٣) ، والعامة معذورون في قولهم: الرافضي حمار اليهودي » (٤) .

وهذا الرافضي قال قولاً مخالفاً للعقل والنقل حيث قال ما مضمونه : إن علياً أمير على ذرية آدم كلهم ، وإنما ولد بعد موت آدم بألوف السنين ، وأن يكون أميراً على الأنبياء الذين هم متقدمون عليه في الزمان والمرتبة (٥) ... ثم كرر عبارته مرة أخرى

---

(١) التفسير الكبير ٥/٤٤٠ . (٢) التفسير الكبير ١/١٧٣ .
(٣) سورة الجمعة آية (٥) . (٤) منهاج السنة النبوية ٧/٢٩٠ - ٢٩١ . (٥) انظر السابق /٢٩١ .

« ثم هذا الحمارالرافضي « وهو صريح في الباب ... »[1] ، ثم يبدي بعد ذلك أن الأمر من هذا الرافضي عظيم وخطير مما يبرر قسوته فيقول :« ولولا أن هذا المعتدي الظالم قد اعتدى على خيار أولياء الله ، وسادات أهل الأرض خير خلق الله بعد النبيين اعتداء يقدح في الدين ، ويسلط الكفار والمنافقين ، ويورث الشبه والضعف عند كثير من المؤمنين – لم يكن بنا حاجة إلى كشف أسراره ، وهتك أستاره ، والله حسيبه وحسيب أمثاله » [2] .

وأحياناً يقتضي الأمر في الجدل أن يغلظ القول ويشد على الخصم بما يحقق كبح جماحه وإطفاء جذوة استعلائه النفسي ، وكبريائه العلمي ، ويحقره أمام أتباعه الذين انتصروا به ،ويُمثل هذا موقفه مع الشيخ صفي الدين الهندي لما جاء به خصوم ابن تيمية في المجلس الثاني في المناظرة بدمشق في شأن العقيدة ، واعتبروا مجيئه مكسباً لهم لجلالة قدره ، وسعة علمه ، ولكنه مع ابن تيمية ساقية لاطمت بحراً فجاء منتفشاً وعارض ابن تيمية في بدايات المجلس في مسألة فغلطه ابن تيمية فيها وأغلظ له القول وهذا ابن تيمية يروي ما حدث : « فلما انتهيت إلى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن معنى المعتزلة ؟ فقلت: كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق المِليّ ، وهو أول اختلاف حدث في الملة ، هل هو كافر ، أو مؤمن ... الخ .

فقال الشيخ الكبير بجلبة ورد : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام ، وسُمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ثم خلفه بعد موته عطاء بن واصل هكذا قال : وذكر نحواً من هذا .

فغضبت عليه ، وقلت : أخطأت ، وهذا كذب مخالف للإجماع وقلت له : لا أدب ولا فضيلة ، لا تأدبت معي في الخطاب ، ولا أصبت في الجواب » [3] ، ثم أجاب عليه معدلاً أخطاءه في مسألة الأولية ، وفي الخطأ في اسم « واصل بن عطاء » [4] .

---

(١) المراد قول صاحب منهاج الكرامة فيما يدعيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو يعلم الناس متى سمي علي أمير المؤمنين ما أنكروا فضله ، سمي أمير المؤمنين وآدم بين الروح والجسد . قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ سورة الأعراف آية (١٧٢) قالت الملائكة : بلى ، فقال تبارك وتعالى: أنا ربكم، ومحمد نبيكم وعلي أميركم ، وهو صريح في الباب) منهاج السنة النبوية ٢٨٨/٧ – ٢٨٩ .

(٢) منهاج السنة النبوية ٢٩٢/٧ .

(٣) العقود الدرية /٢٣٤ – ٢٣٥ .

(٤) انظر السابق / ٢٣٥ – ٢٣٦ .

ولما اعترض عليه ذاكراً أنه ينتسب إلى الإمام أحمد أناس من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام ،ثم رد عليه بأن هذا في أصحاب غير الإمام أحمد أكثر ، خصوصاً الشافعية والأحناف (١) ثم قال : « وقلت لهذا الشيخ : من في أصحاب الإمام أحمد من الأعيان حشوي بالمعنى الذي تريده ؟ وأخذ يعدد بعض هؤلاء الأعيان ورفعت صوتي وقلت سَمِّهم ، قل لي : مَنْ هُم ، مَنْ هم ؟ أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ؟ (٢) ثم قال : «وأخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ : من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين ، ما يستحق أن يعامل بموجبه » (٣) .

وقال أيضاً: « وذكر بحثاً حسناً يتعلق بدلالة اللفظ، فحسنته ومدحته عليه.. » (٤).

وهكذا لاحظنا أنه مع رجل واحد وقف موقفين متغايرين ، الأول : تبكيت وتعنيف وعبارات قاسية ، وانطلاقة مندفعة ، والثاني : ثناء وتبجيل واعتراف بالفضيلة . وكل في موقعه بلسم شافٍ ودواء ناجح ، والجدل والمناظرة كالحرب فيها كَرٌّ وفَرٌّ ومراوغةٌ ومناورةٌ . وكل ذلك بعدل وإنصاف ، وذلك جار على قوله :« لكل مقام مقال » كما تقدم بيانه .

* **المسألة الثامنة والثلاثون : اتهام ابن تيمية بالشدة وجواب ذلك :**

وابن تيمية متهم بشدته على الخصوم ، وحدّته ومواجهتهم بما يصدعهم ، فما مدى صحة هذا الاتهام ؟ أترك الإجابة له يدافع عن نفسه حينما ذكر له ذلك .

« ما ذكرتم من لين الكلام والمخاطبة بالتي هي أحسن فأنتم تعلمون أني من أكثر الناس استعمالاً لهذا ، لكن كل شيء في موضعه حسن وحيث أمر الله ورسوله بالإغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة ، فنحن مأمورون بمقابلته ، لم نكن مأمورين أن نخاطبه بالتي هي أحسن ، ومن المعلوم أن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥) ، فمن كان مؤمناً فإنه الأعلى بنص القرآن » (٦) .

ابن تيمية مدرك أنه شديد على الخصوم في بعض المواضع ، لكن يرى أن هذا في موضعه لأن هؤلاء لا يصلح لهم اللين ، فهو يفسدهم أو يفسد غيرهم . ولا شك أن

(١) العقود الدرية /٢٣٧ - ٢٣٨ . (٢) العقود الدرية /٢٣٨ . (٣) العقود الدرية /٢٣٩ .
(٤) العقود الدرية /٢٤٠ . (٥) سورة آل عمران آية (١٣٩) . (٦) الفتاوى ٢٣٢/٣ .

المناظر الخبير الحكيم يعرف موضع الابتسامة وموضع الإهانة ، والشدة مع الخصم واللين لا تأخذ حكماً واحداً لازماً لا يخرج عنه، وفي تصوري أن الأخذ بأحدهما دون الآخر يرجع إلى عدد من الضوابط والاعتبارات بعضها يرجع إلى المتناظرين وبعضها يرجع إلى مكان المناظرة والمجادلة، وبعضها يرجع إلى موضوع المناظرة والمجادلة.

*** المسألة التاسعة والثلاثون : لا يدفع بما يولد أعظم من شره :**

وإذا كان الجدال دفعاً لصيال صائل على الدين لإفساده أو صيال شبهات على قلب إنسان وعقله ونحو ذلك ، فإنه لا يدفع هذا الصيال والمنكر والفساد بما يولد ما هو أعظم منه ، أو بأمر يعجز الإنسان عن إدراكه وتصوره ، فيكون في ذلك زيادة في ضلاله فيكون المجادل في هذه الحال كمن أراد إطفاء النار بالبنزين (١) .

*** المسألة الأربعون : الذين يسمح أو يمنع من مجادلتهم :**

المجادَل والمناظر إذا كان يناظر ومراده أن يتبين له الحق بأدلته لعدم معرفته به أو لأنه ملتبس عليه فالمناظرة معه محمودة ذات فائدة مرجوة .

وأما إذا كان يجادل عناداً مع ظهور الحق له وتبينه ولكنه يردّه ولا ينقاد له خصوصاً إذا آل الجدال إلى الحقائق الضرورية الفطرية والمقدمات البينة المعروفة ، فإن مثل هذا مسفسط ينهى عن مناظرته بل مناظرته من النوع المذموم (٢) .

ولا يعني ترك مناظرة هذا وأمثاله إقراره على باطله ، بل لا بد من البحث عن علاج له يقيه شر نفسه ويرتاح المجتمع من أذاه .

والسفسطة نوع من المرض يعرض لبعض الناس ، أو هي أعراض لمرض ينفع فيه العلاج أحياناً ، ونوع العلاج يتحدد على حسب نوع المرض ، فإن كان مرضاً بدنياً، عولج بالأدوية الطبية الحسية ، وإن كان نفسياً عولج بالأدوية المعنوية من الآيات القرآنية والأدعية الشرعية ، وإن كان ناتجاً عن خلق فاسد كالكبر والتعالي والغرور والفجور ، كان علاجه السياط الشرعية .وقد يكون عدم قبوله للحق بعد ظهوره بأدلته له أسباب منعته من القبول ، وهذه الأسباب تعود إما لعقله ، وإما لعدم قدرته على المعرفة ، وإما لعناده ومعصيته وبطره للحق .

ولكل واحد من هذه الأسباب موقف يناسبه كما ذكره ابن تيمية بقوله : « فإن كان فاسد العقل داووه ، وإن كان عاجزاً عن معرفة الحق ولا مضرة فيه تركوه ، وإن

---

(١) انظر الدرء ١/ ٥٠ .
(٢) انظر الدرء ٧/ ١٧٣ .

كان مستحقاً للعقاب عاقبوه مع القدرة إما : بالتعزير ، وإما : بالقتل . وغالب الخلق لا ينقادون للحق إلا بالقهر » (١) .

*** المسألة الحادية والأربعون : في قواعد وآداب الجدل والمناظرة مع غير المسلمين وهم نوعـــــان :**

النوع الأول : غير المقرين بالرسالة والكتب المنزلة :

الذين لا يقرون برسالة ولا رسول لا فائدة من عرض النصوص الشرعية عليهم ، وإنما يستفيد من هذه المؤمن بالرسل حيث يعلم أن جنس هؤلاء هم المكذبون للرسل . فهؤلاء الكفار والمنافقون من جاهدهم « لم يحتج عليهم بأقوال من كذبوه من المرسلين » (٢) . « وأما إن كان المخاطب لا يقر بنبوة نبي من الأنبياء ، لا موسى ، ولا عيسى ، ولا غيرها فللمخاطبة طرق » (٣) . ويقول : « فنجيب من يقر أن محمداً رسول الله فنبين له مما جاء به ما يزيل شبهه ، فأما من يطعن في نبوته فنكلمه من وجه آخر ولكل مقام مقال » .

والرد عليهم في جهادهم بالجدل والمناظرة له مسالك وطرق منها :

الأول : بيان فساد عقلياتهم التي يدعون أنها تعارض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك بالبراهين العقلية ، لأنه لا يمكن أن العقول السليمة الصريحة تناقض ما جاءت به الرسل ، فهي لا بد أن تكون معقولات غير عاقلة ولا معقولة (٤) .

الثاني : أن نبيّن أن ما جاء به الرسول معلوم بالضرورة من دينه أو معلوم بالأدلة اليقينية ، وحينئذ فلا يمكن مع تصديق الرسول أن نخالف ذلك ، وهذا ينتفع به كل من آمن بالرسول (٥) .

الثالث : أن نبيّن أن المعقول الصريح يوافق ما جاءت به الرسل لا يناقضه ،إما بأن ذلك معلوم بضرورة العقل ، وإما بأنه معلوم بنظره . وهذا أقطع لحجة المنازع مطلقاً» (٦) .

الرابع : أن نسلك في الكلام بين أهل الملل وغيرهم – من المشركين والصابئين والمتفلسفة والبراهمة وغيرهم – نظير الكلام بين المسلمين وأهل الكتاب .

---

(١) الدرء ١٧٣/٧ .
(٢) الدرء ٤/٦ ، وانظر الدرء ٢٥٨/٥ .
(٣) انظر الدرء ٤/٦ .
(٤) انظر السابق .
(٥) الدرء ٤/٦ .
(٦) الدرء ٥/٦ .

فنقول : من المعلوم لكل عاقل له أدنى نظر وتأمل : أن أهل الملل أكمل في العلوم النافعة والأعمال الصالحة ممن ليس من أهل الملل ... » (١) ، وسبب ذلك أن العلوم والأعمال نوعان :

النوع الأول : نوع من العلوم يحصل بالعقل : كعلم الحساب والطب ، وكالصناعة: من الحياكة ، والخياطة ، والنجارة ونحو ذلك ، فهذه عند أهل الأديان كما هي عند غيرهم ممن لا دين له سماوي ، بل أهل الأديان السماوية فيها أكمل وأتم .

ومن العلوم ما يعلم بالعقل والخبر ولكن العقل المجرد لا يستقل بعلمه ، وهي العلوم الإلهية وعلوم الأديان ، فهذه من اختصاص أهل الملل ، وهذه العلوم يمكن إثبات صحتها وصدقها بأدلة عقلية لأن الرسل نبهوا العقول وأرشدوها إلى البراهين والأمثال التي يعمل بها صدق ما جاء من عند ربهم فهي عقلية شرعية ، فتكون هذه العلوم ثبتت بخبر الرسل وبالأدلة العقلية والأمثال المضروبة ، وبالفطرة السليمة .

وبهذه العلوم يعلم صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبطلان قول من خالفهم (٢) .

النوع الثاني : من العلوم « ما لا يعلم إلا بخبر الرسل فهذا يعلم بوجوه : -

منها : اتفاق الرسل على الإخبارية من غير تواطؤ ولا اتفاق بينهم ، ومعلوم أنه إذا أخبر واحد عن علوم طويلة فيها تفاصيل كثيرة : لا يمكن في العادة خطؤهم ، وأخبر غيره قبل ذلك مع الجزم بأنهما لم يتواطآ: أفاد خبرهما العلم ، وإن لم يعلم حالهما .

وموسى عليه السلام أخبر بما أخبر به قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعثة المسيح عليه السلام ، وقد أخبر محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه ، وعن اليوم الآخر، وعن الأنبياء ، وأممهم بنظير ما يوجد في كتب الأنبياء قبله ، ومن تدبر التوراة والإنجيل علم أنهما يخرجان من مشكاة واحدة (٣) .

الخامس : ومن الطرق في مخاطبة غير أهل الكتاب ما ذكره الله عز وجل من أخبار في كتبه المنزلة وما تركه من آثار عيانية شاهدة ، وما نقل متواتراً من الناس عن أحوال الأنبياء والمرسلين مع أممهم في نصر وفوز ونجاة المؤمنين المصدقين ، وهزيمة وذل وهلاك الكافرين المكذبين ، وقد علم منقولاً نقلاً صادقاً متواتراً لا مجال لتكذيبه

---

(١) الفتاوى ٤/٢١٠ .
(٢) انظر الفتاوى ٤/٢١٠ ، ٢١١ .
(٣) انظر الفتاوى ٤/٢١١ - ٢١٢ .

أو الريب فيه حال أتباع الأنبياء وأحوال من كذبهم وكفر بهم [1] ،« حال نوح وقومه ، وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وحال إبراهيم وقومه ، وحال موسى وفرعون ، وحال محمد صلى الله عليه وسلم وقومه » [2] . وفي ذلك آيات كثيرة منها : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [3] إلى قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [4]، وقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [5] ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [6] » [7] .

فبين الله لهؤلاء الذين لا يقرون برسالات الرسل أنه ترك آثار المعذبين المهلكين بعد حلول العذاب بهم لتكون شاهدة ودليلاً على أن الرسل صادقون فيما يدعون إليه وما أخبروا به عن ربهم ، فالذين خالفوا وكذبوا نزلت بهم العقوبة وهذا دليل الصدق وبرهان الحقائق . وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [8] [9] الآيتين فذكر طريقتين يعلم بهما ذلك :

(أحدهما) : ما يعاين ويعقل بالقلوب .

(والثاني) : ما يسمع فإنه قد تواتر عند كل أحد حال الأنبياء ، ومصدقهم ومكذبهم ، وأنه أحل العقوبات بمن كذبهم ... [10] . وهذا يدل على أن الأنبياء على حق ومكذبهم على باطل ، وأن طاعة الرسل طاعة لله ، ومعصيتهم معصية لله .

السادس : من طرق الاستدلال على الحق الذي جاءت به الرسل وأنه صدق ويقين بآيات ومعجزات الأنبياء [11] أن هذه المعجزات المتوافقة المتعاضدة لا تكون إلا على يد نبي حق مؤيد من الله ، ولو كانت على يد غير نبي لظهر فيها التناقض والتعارض .

السابع : « من الطرق : أن الرسل جاءوا من العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة بما

---

(١) انظر الفتاوى ٤/٢١٣ .
(٢) الفتاوى ٤/٢١٣ .
(٣) سورة الحج آية (٤٥) .
(٤) سورة الحج آية (٤٦) .
(٥) سورة الصافات آية (١٣٨) .
(٦) سورة الحجر آية (٧٥) .
(٧) الفتاوى ٤/٢١٣ - ٢١٤ .
(٨) سورة الإسراء آية (١٧) .
(٩) انظر الفتاوى ٤/٢١٤ .
(١٠) الفتاوى ٤/٢١٤ .
(١١) انظر الفتاوى ٤/٢١٤ .

هو معلوم عند كل عاقل لبيب، ولا ينكره إلا جاهل غاو .. فإذا تبين صدقهم وجب التصديق في كل ما أخبروا به، ووجب الحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض » (١).

النوع الثاني : المقرون بالرسالة والكتب المنزلة :

والجدال والمناظرة مع أهل الكتاب المقرين بالنبوة والمصدقين بالكتب يكون بأدلة عقلية ونقلية ، وقد خالف المتكلمون هذا المنهج فإن كثيراً من « المصنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون إنه يعلم بالعقل ، مثل تثليث النصارى ، ومثل تكذيب محمد » (٢) . ولا يجادلونهم بالمنقول في أصول الدين ومهماته ، وهذا تفريط منهم إضافة إلى مخالفته لمنهج القرآن في مجادلة أهل الكتاب ، فالله جل جلاله يحاججهم بالأدلة العقلية والنقلية « فإن الله يبين في القرآن ما خالفوا به الأنبياء ويذمهم على ذلك ، والقرآن مملوء من ذلك ، إذ كان الكفر والإيمان يتعلق بالرسالة والنبوة ، فإذا تبين ما خالفوا فيه الأنبياء ظهر كفرهم » .

وابن تيمية في مجادلته لأهل الكتاب استعمل البراهين والحجج العقلية القرآنية والنقلية الشرعية ،وأثبت لهم بهذا المنهج مخالفتهم لكل الأنبياء حتى الذين يدعون اتباعهم وينتسبون إليهم ، إضافة إلى مخالفتهم لصريح العقل حتى أبان كفرهم وأظهر انحرافهم عن دينهم وما جاءت به الرسل ، ومن أجل ذلك سمى كتابه الذي رد فيه على النصاري « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ، والدين المبدل عما جاء به الرسل مردود على أهله (٣) .

كما أننا نستدل عليهم بما عندهم في كتبهم التي بين أيديهم ويقرون بها ونتوصل لهذا عن طريق الثقاة الذين يعرفون هذه الكتب ، وهذا « ... إذا حصل من مسلمة أهل الكتاب الذين علموا ما عندهم بلغتهم وترجموا لنا بالعربية انتفع بذلك في مناظرتهم ومخاطبتهم كما كان عبد الله بن سلام (٤) ، وسلمان الفارسي (٥) ،

---

(١) الفتاوى ٢١٥/٤ .   (٢) الفتاوى ١٨٨/١٩ .   (٣) انظر الفتاوى ١٨٩/١٩ .

(٤) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي أبو يوسف صحابي جليل أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، واعتزل الفتنة بين علي ومعاوية توفي بالمدينة سنه ٤٣ هـ ، انظر تهذيب التهذيب ١٦٣/٣ ، تذكرة الحفاظ ٢٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٤١٣/٢ .

(٥) هو : أبو عبدالله سلمان ابن الإسلام ، ويقال له : سلمان الخير ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان، كان سمع بأن النبي عليه السلام سيبعث فخرج في طلب ذلك فأسر ، وبيع بالمدينة فاشتغل بالرق ، شهد الخندق وبقية المشاهد، وولي المدائن ، كان عالماً زاهداً قال فيه الرسول :(سلمان منا آل البيت ..) توفي بالمدائن سنة ٣٦هـ. انظر الإصابة ٢٢٣/٤ ، تهذيب التهذيب ٣٦٩/٢ ، سير أعلام النبلاء ٥٠٥/١ .

وكعب الأحبار (١) ، وغيرهم يحدثون بما عندهم من العلم وحينئذ يستشهد بما عندهم على موافقة ما جاء به الرسول ويكون حجة عليهم من وجه وعلى غيرهم من وجه آخر ... » (٢) .

وإذا تناظرنا معهم وأرادوا الطعن في ديننا بأدلة عقليه أو نقلية ، كأن يحتجوا علينا بما في كتبهم المقدسة مما يدعون مخالفته لما دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ومثال ذلك إنكارهم لحكم الرجم وأن ما في كتبهم يخالف ذلك وهو التحميم (٣) .

وكذلك ما يروونه عن موسى مما هو خلاف القرآن أنه قال :« تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض » ، ففي مثل هذه الحالات يمكننا « أن نقول لهم : في أي كتاب هذا أحضروه . وقد علمنا أن هذا ليس في كتبهم وإنما هو مفترى مكذوب »(٤) . وكذلك يمكننا أن نطلب منهم كتبهم التي يدّعون وجود ما يقولون فيها ، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم معهم في مسألة الزاني والزانية من اليهود قال:(ما تجدون في التوراة على من زنا ؟ قالوا : نسود وجوههما وكما لهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ، قال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) ، فجاءوا بها فقرأها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما ورائها . فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مر فليرفع يده ، فرفعها فإذا تحتها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما بعد أن أقام عليهم الحجة من كتابهم) (٦) ، (٧) .

---

(١) هو : كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الأحبار من آل ذي وعين ، وقيل من ذي الكلاع أدرك الجاهلية ، وأسلم أيام أبي بكر ، وقيل في أيام عمر ، قدم المدينة ، ثم خرج إلى الشام ، كان يحدث عن الكتب الإسرائيلية ويحفظ عجائب ويأخذ السنن عن الصحابة ، وكان حسن الإسلام متين الدين من نبلاء العلماء .. كان خبيراً بكتب اليهود (لأنه كان من يهود اليمن) توفي كعب بحمص ذاهباً للغزو في أواخر خلافة عثمان سنة ٣٢هـ وكان عمره ١٠٤هـ . انظر تهذيب التهذيب ٥٩٥/٤ ، سير أعلام النبلاء ٤٨٩/٣ ، تذكرة الحفاظ ٥٢/١ .

(٢) نقض المنطق لابن تيمية /٩٢ .

(٣) التحميم : هو تسويد الوجه بالحمم وهو الفحم . انظر لسان العرب ١٥٧/١٢ (حمم) .

(٤) نقض المنطق لابن تيمية /٩٤ . (٥) سورة آل عمران آية (٩٣) .

(٦) أخرجه البخاري عن حديث أبي عمر كتاب التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها .

(٧) نقض المنطق لابن تيمية /٩٣ .

المطلب الثاني : تعريف الجدل والحوار والمناظرة لغة واصطلاحاً :

وبعد أن عشنا فترة مع الإنتاج التيمي في قواعد وآداب الجدل وخلصنا بإدراك واضح وتصور سليم – إن شاء الله – لما يجب أن يجري عليه الجدل ليحقق ثماراً طيبة ويوصل إلى غاية حميدة ، وليكون جهاداً مباركاً نجني منه حصيلة « إظهار الهدى ودين الحق ولتكون كلمة الله هي العليا » ،بعد أن علمنا ذلك ننتقل إلى المنهج العملي التطبيقي الذي سار عليه ابن تيمية في أسلوب الجدل مبتدئين هذا بتعريف للمصطلحات .

أولاً : الجـــدل :

أ – الجدل في اللغة العربية :

إذا تتبعنا مادة كلمة « جدل » في اللغة العربية ، وتأملنا معانيها ومعاني مشتقاتها ، وجدناها تدل على عدد من المعاني منها :

١ – شدة الفتل وإحكامه (١) .

٢ – حسن الخَلْق والتكوين (٢) .

٣ – اشتداد الشيء وصلابته وحسن طيه (٣) .

٤ – قدرة وقوة الضعيف على اللحاق بالأقوى منه (٤) .

٥ – الصرع : أي السقوط والإلقاء على الأرض (٥) .

٦ – العزيمة في الرأي (٦) .

٧ – الشدة في الجدل والقوة في الخصام (٧) .

٨ – الغلبة والانتصار (٨) .

---

(١) « الجدَل : اللدد في الخصومة والقدرة عليها ، ورجل جَدِل وَمِجْدَل وَمِجْدال : شديد الجَدَل » .

(٢) « ويقال : جادلت الرجل فجَدَلته جَدْلاً : أي غلبته ، ورجل جَدِل إذا كان قويا في الخصام ، والاسم : الجَدَل : هو شدة الخصومة » .

(٣) « والمجادلة : المناظرة والمخاصمة » .

(٤) « والجَدَّال : الذي يُخْصَرُ الحَمام في الجَديله » لسان العرب ١١/١٠٤ ، ١٠٥ .

(٥) الإيضاح لقوانين الاصطلاح /٥ ، ٦ .   (٦) انظر لسان العرب ١١/١٠٥

(٧) الرسالة الشريفية /١٨ .

(٨) « الجدل : شدة الفتل . وجدلت الحبل أجدله جدلاً إذا شددت فتله وفتلته فتلاً محكماً » ابن سيده : جدل الشيء يَجْدِله وتَجدِله جدلاً أحكم فَتْله » .

٩ - المناظرة والمخاصمة (١) .

١٠ - الذي يحصر الحَمام في الجديلة (٢) .

وهذه الدلالات من المعاني اللغوية لكلمة جدل وتصريفها تُعين الباحثين والعلماء على تحديد الدلالة الشرعية لهذا المصطلح .

وهذا ابن الجوزي أبو محمد يأخذ من أحد المعاني اللغوية بعض التحديد لهذا المصطلح فيقول : « فإن الجدل من قولك « جدلت الحبل أجدله جدلاً » إذا فتلته فتلاً محكماً » وله بهذا الاشتقاق معنيان :

أحدهما : أن يكون استعمالك إياه في محافل النظر سبباً لفتل خصمك إلى موافقتك بتوجيه أولئك وإبطال شبهة .

الثاني : أن يكون سمي بذلك لكونه محكماً للأدلة والأسئلة والأجوبة مبرماً لمنتشرها بقوانينه المعتبرة » (٣) .

والجدل : مقابلة الحجة بالحجة لإظهار الحق والغلبة على الخصم (٤) .

ورد بعض التعريفات الاصطلاحية للجدل منها :

١ - المجادلة : هي المنازعة ، لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم » (٥) .

٢ - الجدال : هو حوار كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر ، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره .

ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته، أو من خلال الأدلة التي ينير له بها بعض النقاط التي كانت غامضة عليه »(٦) .

٣ - « تحرير وجه الاستدلال بها - أي الأدلة - على شرط الصحة والاحتياط عن مكامن وجوه الزلل وعثرات الوهم عند تعارض الاحتمالات في التفاريع » (٧) .

(١) « ومنه جارية مجدولة الخَلْق حسنة الجَدْل ».
(٢) « وغلام جادل : مُشْتَد ، وساق مجدولة وجدْلاء : حسنة الطي » .
(٣) « وجَدَل ولد الناقة والطبية يَجْدُل جُدُلاً : قوى وتَبِع أمه » .
(٤) « والجَدْل : الصرع ... وقيل للصريع مُجَدَّل لأنه يُصْرَع على الجَدَالة ، والمُجَدَّل الملقي بالجدالة وهي الأرض » ، لسان العرب ١١/١٠٣ ، ١٠٤ .
(٥) « ورأيت جَدِيلَةَ رأيه : أي عزيمته » .
(٦) ضوابط المعرفة للميداني /٣٧١ .
(٧) الإيضاح لقوانين الاصطلاح /٥ ، ٦ .

« والمجادلة : الاحتجاج لتصويب رأي وإبطال ما يخالفه أو عمل كذلك » [١] .

٤ – الجدل : « المفاوضة على سبيل المنازعة لإلزام الخصم .

٥ – قال ابن سينا في (الشفاء) كتاب الجدل ما نصه : « أما المجادلة فهي مخالفة تبغي إلزام الخصم بطريق مقبول محمود بين الجمهور » [٢] .

٦ – وقال صاحب المصباح المنير بعد أن ذكر المعنى اللغوي :« ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها » [٣] .

٧ – وقال الجرجاني :« الجدل عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها » [٤] .

٨ – وقال أبوالبقاء : « هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره » [٥] .

٩ – « الجدال والجدل .. الخصومة والمنازعة في البيان والكلام لإلزام الخصم بإبطال ما ادّعاه وإثبات دعوى المتكلم » [٦] .

ب – التعريف الاصطلاحي للجدل :

كلام – أو ما يقوم مقامه – بين طرفين بحجج محكمة صائبة ، حسنة النظم والأداء ، يتفهم فيه كل طرف رأي صاحبه ، لإظهار الحق أو إلزام الخصم بتصويب رأي وإبطال مخالفه .

ثانياً : المناظـــرة :

أ – تعريفها في اللغة :

المناظرة : مأخوذة إما من النظير [٧] ، يقال :« ناظرت فلاناً أي صرت نظيراً له في المخاطبة » [٨].

أو من النظر بمعنى الإبصار بالعين ورؤية المحسوسات ، أو بمعنى التفات النفس إلى المعاني المعقولة والتأمل فيها [٩]، والنظر يقع على الأجسام والمعاني فما كان بالأبصار فهو

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، تفسير الجزء ١٤/٣٢٨ ، وانظر تفسير الجزء ٢٨/٨ .
(٢) الشفاء (كتاب الجدل) لابن سينا ٢٣/١ . (٣) المصباح المنير /١٢٨ .
(٤) التعريفات للجرجاني /٦٦ . (٥) كتاب الكليات لأبي البقاء /١٤٥ .
(٦) مناهج الجدل في القرآن /٢٤ .
(٧) الرسالة الرشيدية على الرسالة الشريفية / علي مصطفى الغزالي /١٤ .
(٨) لسان العرب ٢١٩/٥ . (٩) انظر الرسالة الرشيدية /١٤ .

للأجسام ، وما كان بالبصائر كان للمعاني » [1] .

أو بمعنى الانتظار [2] « النظر : الانتظار »[3]،« والتناظر : التراوض في الأمر » [4] .

أو بمعنى المقابلة [5] والعرب تقول داري تنظر إلى دار فلان ودورنا تناظر أي تقابل [6] .

والمناظرة : مفاعلة على بابها من اقتضاء الطرفين ، وهي من النظر أو النظير ، وكلاهما معروف لغة . وتطلق على المقابلة بين اثنين كل منهما ينظر إلى الآخر، أو كل منهما ينظر نظر تفكير ، والفكر هو المؤدي إلى علم أو غلبة ظن [7].

ب - تعريف المناظرة في الاصطلاح :

المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر ، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق فكأنها بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر الذي هو الفكر المؤدي إلى علم أو غلبة ظن ليظهر الصواب » [8] .

تعريف آخر : « قوانين يعرف بها أحوال الأبحاث الجزئية من كونها موجهة أو غير موجهة » [9] ، وعالم آخر يجعلها بمعنى الجدال بالتي هي أحسن [10] .

ويقرر هدف المناظرة مما يلتمس منه التعريف فيقول : « هو في الأصل تعاون الفريقين المتناظرين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها بتبصير كل منهما صاحبه بالأماكن المظلمة عليه ، والتي خفيت عنه حينما أخذ ينظر باحثاً عن الحقيقة ، وذلك حينما لا يكون أحدهما واقفاً على الحقيقة » [11] .

وللمناظرة السليمة مراحل ثلاث ونتيجة :

الأولى : مرحلة (المبادىء) وهذه المرحلة يتم تعيين محل النزاع .

الثاني : مرحلة (الأواسط) وفي هذه المرحلة تقدم الدلائل التي يظهر فيها لزوم المطلوب .

---

(1) انظر لسان العرب ٢١٨/٥ .
(2) الرسالة الرشيدية /١٤ .
(3) لسان العرب ٢١٦/٥ .
(4) لسان العرب ٢١٩/٥ .
(5) الرسالة الرشيدية /١٤ .
(6) لسان العرب ٢١٥/٥ ، ٢١٨ .
(7) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي /٣ .
(8) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي /٣ .
(9) تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث ، كلاهما من وضع أحمد مكي شيخ معهد الزقازيق الديني ص١٣ ط الأولى ١٣٥٣هـ .
(10) انظر ضوابط المعرفة عبدالرحمن الميداني /٣٧١ .
(11) السابق /٣٨٦ .

الثالثة : مرحلة (المقاطع) وهي مرحلة إذا انتهى البحث إليها انقطع وهي ينقطع إذا انتهى إلى الضروري (وهو اليقين الذي يجب التسليم به بالضرورة العقلية) [(١)] .

النتيجة : إذا عجز (المعلَّل) عن ردّ اعتراض (السائل) كان المعلل (مفحماً) ، وإذا عجز (السائل) عن تصحيح اعتراضه كان (مُلزماً) [(٢)] .

ثالثاً : الحـــوار :

أ - تعريفه لغـة :

الحَوْر، والحِوَار ، والمحاورة ، والتحاور كلها تدل على تبادلِ الكلام بين الطرفين بحيث أن أحدهما يكلم صاحبه وينتظر منه الرد ،وإليك بعض ما ذكره أهل اللغة قال في لسان العرب : « .. كلمته فما رجع إلي حَوَاراً وحِوَاراً .. أي جواباً وأحار عليه جوابه : ردّه ، وأحَرْتُ له جواباً ، وما أحار بكلمة ، والمحاورة : المجاوبة والتحاور التجاوب ، واستحاره أي استنطقه . وهم يتحاورون : أي يتراجعون الكلام .

والمحاورة : مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة .

والمَحُـورة : من المحاورة مصدر كالمشورة من المشاورة .

واستحار الدار : استنطقها ، من الحوار الذي هو الرجوع » [(٣)] .

وقد سمى الله المجادلة حواراً في قوله تعالى : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** .. ﴾ [(٤)] » [(٥)] .

ب - التعريف الاصطلاحي :

بمقدورنا الآن بعد أن عرفنا المعاني اللغوية لمصطلح « الحوار » أن نحدد دلالته الاصطلاحية فنقول : هو تردد الكلام - أو ما يقوم مقامه - بين المتحاورين على وجه المراجعة في القول وانتظار الجواب الذي يحمل نتيجة الحوار على أي وجه كان .

وبعد أن تناولنا بعض مصطلحات هذا الموضوع من حيث التعريف بإيجاز نقدم دراسة لمنهجه العملي في الجدل والمناظرة والحوار محاولين إيضاح ذلك بما يبرهن على صدق استنتاجنا عن طريق إيراد صورٍ تنفيذية من حياة ابن تيمية العلمية والعملية فيما يخص جانب الجدل . فإلى هذا المنهج العملي سائلاً المولى السداد .

---

(١) ضوابط المعرفة عبدالرحمن الميداني /٣٨٦ .
(٢) ضوابط المعرفة عبدالرحمن الميداني /٣٨٦ .
(٣) لسان العرب ٢١٨/٤ - ٢١٩ .
(٤) سورة المجادلة آية (١) .
(٥) انظر تفسير التحرير والتنوير ، تفسير الجزء ٢٨/٥ .

المطلب الثالث : منهج ابن تيمية في الجدل والحوار والمناظرة :

أولاً : الاستدلال بأنواع الأدلة الممكنة :

كل يؤخذ من قوله ويرد سوى النبي صلى الله عليه وسلم ، فما كان حقاً وصدقاً ومعناه معقولاً ومشروعاً ولفظه صحيحاً مقبولاً فهو المصدق به الذي لا يرد، والحق ما قامت عليه الدلائل والبينات .

فالكفار من كل ملة سلكوا مسالك ضالة ودافعوا عنها زاعمين أنها الحق ، فطالبهم الله بالسلطان على ما يذكرون ليثبتوا صدقه ، وكما أن ابن تيمية يطالب الخصوم بالأدلة لما يدعون ، فإنه أيضاً هو يطالب بذلك ، بل إن هذا منهج في التخاصم والتناظر، بل إن هذا منهج رباني قرآني « ... فإنه يبين الحق والصدق ويذكر أدلته وبراهينه ، ليس يبينه بمجرد الإخبار عن الأمر، كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة والمتفلسفة .. » (١) .

ويستخدم ابن تيمية في ردوده ومناظراته عدداً من أنواع الأدلة منها :

١ - الكتاب . ٢ - السنة .

٣ - الإجماع : ويستشهد بأنواع من الإجماعات (٢) :

أ - إجماع الصحابة . ب - إجماع علماء الأمة .

ج - إجماع المسلمين (٣) . د - إجماع جميع البشر والخلق .

هـ - إجماع أهل الكتاب .

٤ - الفطرة .

٥ - الأدلة العقلية : وهي أنواع :

أ - الأدلة العقلية من القرآن والسنة . ب - الأدلة العقلية القياسية .

ج - الضرورة العقلية .

يقول رحمه الله في مسألة وجود الله :« ويلزمون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية ، والضرورة العقلية ، والقواطع العقلية واتفاق الأمم ، وغير ذلك من الدلائل » (٤) .

---

(١) التفسير الكبير ٤٦٧/٣ .
(٢) انظر الفتاوى ١٩٤/١٩ وما بعدها .
(٣) انظر الاستقامة ٢٠٦/٢ ، ٢٠٧ .
(٤) التفسير الكبير ١٢٤/٢ .

٦ - أقوال السلف الصالح : من الصحابة ومن بعدهم من أئمة الإسلام ،ويذكر المصادر من الكتب التي فيها ألفاظهم بأسانيدها وغير أسانيدها [١] .

٧ - القياس [٢] . ٨ - اللغة العربية . ٩ - التوراة والإنجيل .

١٠ - أقوال شيوخ الخصم . ١١ - أقوال أقوام من أصحاب الخصم .

١٢ - تناقض أصول مذهبه وطريقته .

١٣ - تناقض الخصم نفسه في أقواله وأدلته .

١٤ - حيرته أو حيرة وشك ورجوع الكبار ممن يستشهد بأقوالهم .

فمثلاً : تكلم عن الأفلاك واستدارتها فقال :« والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع » ،ثم يذكر الأدلة على ذلك [٣] .ولما تكلم عن قدرة الله واطلاعه ومعيته قال :« فقد أجمع الناس أنه يكون بكل مكان ولا يشغله شأن عن شأن » [٤] .

وقال في موضوع آخر :« ولا ريب أن جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم على إنكار هذا .. » [٥] .

وابن تيمية يرى أن الأمة لا يفصل بينها في نزاعها إلا كتاب منزل [٦] ، لأن العقول كل يدعي أن عقله هو الراجح وليس هناك عقل جامع معصوم يلجأ إليه ، وأما الكتاب فإنه جامع معصوم منصور ؛ فمن لجأ إليه فإن الله ناصره ، ومن خرج عن حكمه فإنه مغلوب « فإن الله نصر الكتاب بأمر من عنده ، وأنتم ممن خرج عن حكم الكتاب كما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٧] ،وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :﴿ ... إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [٨] وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [٩] ،وكل من وافق الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه في ذلك، وله نصيب من قوله : ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ ، فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة ، وهذا قد دل عليه القرآن وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه » [١٠] ، ومن شنأ شيئاً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فله نصيب

---

(١) انظر التفسير الكبير ١١٧/٧ .
(٢) انظر الفتاوى ١٧٦/١٩ .
(٣) الفتاوى ١٥٠/٥ وما بعدها .
(٤) الفتاوى ٤٠٣/٥ .
(٥) الفتاوى ٤٢٥/٥ .
(٦) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٣٤٣
(٧) ، (٨) سورة التوبة آية (٤٠) .
(٩) سورة النحل آية (١٢٨) .
(١٠) الفتاوى ٣٧/٢٨ .

من قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [1] ،على قدر ما شنأ من سنته صلى الله عليه وسلم ،والذين أعلنوا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ورفعوه واعتزوا به والتزموه لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [2] لهم منه على ما أعلنوا » [3] .

وقد ذم الله من يجادل في الدين بغير علم « والعلم : هو ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو : السلطان كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [4] ، فمن تكلم في الدين بغير ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم كان متكلماً بغير علم » [5] .

والشارع الحكيم لا يقبل كل دليل ، فهناك أدلة يحرمها ، فهو يحرم « الدليل لكونه كذباً في نفسه ، مثل أن تكون إحدى مقدماته باطلة ، فإنه كذب والله يحرم الكذب لاسيما عليه كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [6] ، ويحرمه لكون المتكلم به يتكلم بلا علم كما قال تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [7] ، ويحرمه لكونه جدالاً بعدما تبين كقوله تعالى : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [8] » [9] .

« فما جاءت به الرسل عن الله تعالى إخباراً أو أمراً لا يجوز أن يعارض لشيء من الأشياء ، وأما ما يقوله الناس فقد يعارض بنظيره ، إذ قد يكون حقاً تارة وباطلاً أخرى وهذا مما لا ريب فيه » [10] .

اذاً ابن تيمية يرسم منهجاً يبين به ما هو الدليل الذي يقبل في الجدل والمناظرة وما هو الدليل الذي يرفض ويُعَارَض ، وهذا من مسائل التقعيد التي أولاها ابن تيمية جل اهتمامه ، وهي المنهجية التي تضع قضايا الأمة العلمية والعملية في معالم واضحة للسالكين .

ومن أمثلة استشهاده لَمَّا رد على الآمدي في إثبات امتناع حلول الحوادث بذاته قال: « والسلف والصحابة والتابعون وأهل الحديث متواتر عنهم ذلك » [11] ، أي أن الله موصوف بصفات منزهٌ عن النقائص .

---

(١) سورة الكوثر آية (٣) . (٢) سورة الشرح آية (٤) . (٣) انظر الفتاوى ٣٨/٢٨ .
(٤) سورة غافر آية (٥٦) . (٥) الفتاوى ٣٩/٢٨ . (٦) سورة الأعراف آية (١٦٩) .
(٧) سورة الاسراء آية (٣٦) . (٨) سورة الانفال آية (٦) . (٩) الدرء ١٩٩/١ ، ٢٠٠ .
(١٠) الدرء ٢٠٠/١ . (١١) الدرء ٩٥/٤ .

واستشهد باللغة العربية أيضاً في هذه المسألة [١] .وفي إثبات علو الله تعالى استدل بأن الفطرة تعلم وتشهد به وطلب من المنكرين الرجوع إليها فعندها علم اليقين « ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم ، وما ركبت عليه خلقتهم من معرفة الخالق ، لعلموا أن الله هو العلي الأعلى وبالمكان الرفيع » [٢] .

وكذلك استدل بها على أن الشيء المخلوق كان بعد أن لم يكن ، فما السموات والأرض إلا كذلك ، واستدل بها على إنكار تقدير أنّ خَلْقَهُمَا لم يزالا معه مع كونهما مخلوقين له، وهذا لم تقله إلا شرذمة قليلة من الدهرية كابن سينا وأمثاله [٣] . واستدل بها على ما دخل في دين أصحاب التثليث من الفساد [٤] .

وابن تيمية يؤصل مسألة الاستدلال بالفطرة كشاهد أقامه الله وأقام فيه القدرة على معرفة الحق من الباطل : « والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به ومعرفة الباطل والتكذيب به ، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ، ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة ... » [٥] ، « فعلم أن فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع .. » [٦] .واستدل على مسألة علو الله تعالى بالإنجيل « قال الشيخ: « وفي « الإنجيل » أن المسيح قال : «لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسي الله ... » ثم قال : « ومثل هذا من الشواهد كثير يطول به الكتاب » [٧] .

ولما ذكر خلق السماء من بخار الماء قال إن الآثار عن الصحابة والتابعين وردت بذلك وكما عليه أهل الكتاب [٨] [٩] .

وفي مسألة التغير والاستحالة استشهد بقول الأطباء والفقهاء على حدوث استحالة الأجسام بعضها إلى بعض كما هو موجود في كتبهم [١٠] ،واستشهد بما يدخل في

---

(١) انظر السابق /٧٣ .
(٢) الفتاوى ٥/٤٠٤ ، وانظر ص٥٥٧ .
(٣) انظر الفتاوى ١٨/٢٢٦ .
(٤) انظر الفتاوى ٢٨/٦٠٨ .
(٥) نقض المنطق /٢٦ .
(٦) الدرء ٨/٤٥٨ ، وانظر ٤٥٩ ، وانظر موضوع الفطرة في الباب الثاني .
(٧) الفتاوى ٥/٤٠٦ .
(٨) انظر الفتاوى ٥/٥٦٤ ، وانظر الدرء ١/١٢٢ ، ١٢٣ .
(٩) وانظر في مسألة الاستدلال بالتوراة والإنجيل ، الفتاوى ١/٢١٠ ، ٤/١٠٩ ، ٥/٥٦٥ ، ١٩/١٨٤ ، الدرء ٧/٧٨ ، ٧٩ ، ٤/٢٣ ، وانظر بغية المرتاد /٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤١ .
(١٠) انظر الفتاوى ٥/٤٢٥ .

جغرافية الأرض وعلم « الجيلوجيا » حينما رد على الذي يقول إن المدينة من الشام: « وتربة الشام تخالف تربة الحجاز - كما يوجد الفرق بينهما عند المنحنى الذي يسمى عقبة الصوان فإن الإنسان يجد تلك التربة مخالفة لهذه التربة كما تختلف تربة الشام ومصر ، فما كان دون وادي المنحنى فهو من الشام مثل معان ، وأما العلى ، وتبوك ونحوها : فهو من أرض الحجاز » والله أعلم (١) .

والذي مكّن ابن تيمية من سعة مجال الاستدلال وتنوعه هو علمه الموسوعي وقدرته الفائقة على استحضار هذه الأدلة .

يضاف إلى ذلك أن الناحية المنهجية عنده تعتمد هذا وتقرره ، وترى أن الأدلة كلما تنوعت وكثر تواردها على الخصم كلما أسرعت في الإجهاز عليه ، فالجدل والمناظرة جهاد والأدلة الصادقة سلاحه .

ثانياً : بيان جهل الخصوم بالمنقول والمعقول :

مناظرات ابن تيمية مع الخصوم كان هدفه فيها إيضاح الحق لهم ، أو رد كيدهم عن الشريعة ، أو كشف ضلالهم لتحذرهم الأمة . فكان أول عمل يقوم به أن يكشف حالهم ويبين حقيقة مقالهم وأنهم غير عالمين بالكتاب والسنة وأقوال السلف ، وأن براهينهم وحججهم التي يعتمدون عليها مخالفة للعقل والنقل .

فمثلاً : يقول لمن ينفون العلو ويثبتون بعض الصفات : « بل نجيبكم وأولئك - النفاة - جميعاً ببيان أنه ليس معكم فيما تخالفون به النصوص : لا عقل صريح ، ولا نقل صحيح ، بل ليس معكم في ذلك إلا الأكاذيب المموهة المزخرفة بالألفاظ المجملة الموهمة التي تلقاها بعضكم عن بعض تقليداً لأسلافكم ، فإذا فسّر معناها وكشف مغزاها ظهر فسادها بصريح المعقول ، كما علم فسادها بصحيح المنقول » (٢) .

فإذا كان ما يوردونه من اعتراضات مخالفاً للنقل ومخالفاً للعقل فماذا بقي عندهم ولهم ؟ فإذا استل منهم سهامهم فبأي شيء يرمون ، وأفسد قذائفهم فبأي شيء يطلقون ؟

حتى أولئك الذين يتكلمون بأصول الدين ممن يحسبون أنفسهم من أفضل قومهم المتكلمين أو المتصوفين ، هم أقل الناس علماً في نصوص الشريعة ، فمثلاً يقول : فأبو الحسين وأمثاله من المعتزلة ، وكذلك الغزالي والرازي وأمثالهما من فروع الجهمية ، هم

(١) الفتاوى ٦٣٠/٢٨ .

(٢) الدرء ١٤٠/٧ ، وانظر ص ٣٦١، وانظر الفتاوي ٢٢٢/١٨.

من أقل الناس علماً بالأحاديث النبوية وأقوال السلف في أصول الدين ، وفي معاني القرآن ، وفيما بلغوه من الحديث حتى أن كثيراً منهم لا يظن السلف تكلموا في هذه الأبواب » (١) .

ولم يقتصر الأمر على مخالفتهم للكتاب والسنة (٢) فهم مخالفون للمعارف الضرورية ولما أجمعت عليه فطر البرية ، ومخالفون لما جاء في الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب ، مع أن المسلمين يعلمون عامة مخالفتها للقرآن والسنة والإجماع (٣) .

يقول عن كتب الرازي وأمثاله من الكلابية ومن حذا حذوهم وكتب المعتزلة والشيعة والفلاسفة ونحو هؤلاء في مسائل أصول الدين الكبار ليس فيها « القول الصحيح الذي يوافق المنقول والمعقول الذي بعث الله به الرسول، وكان عليه سلف الأمة وأئمتها ... » (٤) .

وأهل البدع إن ذكروا القرآن أو الحديث في أصولهم ذكروه للاعتضاد لا للاعتماد، واعتمادهم على طريق أخرى ابتدعوها (٥) ،وليس فيها علم أصلاً ، وما لديهم من العقائد التي يتكلمون بها فهو من الفطرة وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين (٦) .

وأبو المعالي الجويني « مع فرط ذكائه وحرصه على العلم وعلو قدره في فنه كان قليل المعرفة بالآثار النبوية ، ولعله لم يطالع الموطأ حتى يعلم ما فيه ولم يكن له بالصحيحين البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي وأمثال هذه السنن علم أصلا .

واعتبر ذلك بأن كتاب أبي المعالي الذي هو نخبة عمره (نهاية المطالب في دراية المذاهب) ليس فيه حديث واحد معزو إلى صحيح البخاري ولم يكن في البخاري كما ذكره – ولقلة علمه وعلم أمثاله بأصول الإسلام اتفق أصحاب الشافعي على أنه ليس لهم وجه في مذهب الشافعي ، فإذا لم يسوغ أصحابه أن يعتد بخلافهم في مسألة من فروع الفقه كيف يكون حالهم في غير هذا ... ولقلة علمه بالكتاب والسنة وكلام سلف الأمة يظن أن أكثر الحوادث ليس في الكتاب والسنة والإجماع ما يدل عليها ، وإنما يعلم حكمها بالقياس كما يذكر ذلك في كتبه ... ولا ريب أن سبب هذا كله

(١) الدرء ٧ / ٣١ . (٢) المقصود « نفاة الصفات » .
(٣) انظر الدرء ٧ / ١٣٤.
(٤) التفسير الكبير ٣٣٨/٧ ، ٣٣٩ ، وانظر ص٤٢٧ ، ٤٢٨ ، وانظر منهاج السنة ٤٣٤/٥ .
(٥) انظر منهاج السنة ٣٧/٧ . (٦) انظر ٢٧٦/١ ، انظر التفسير الكبير ص٢٧٧ .

ضعف العلم بالآثار النبوية والآثار السلفية » (١) .

ومن جهلهم يذكرون مقالات ينصرونها يعتقدون إجماع المسلمين عليها ولم يكن أحد قالها من السلف ، بل إن الثابت عنهم خلافها ، وهذا راجع إلى عدم خبرتهم بما دل عليه القرآن والسنة وآثار السلف الصالحين (٢) .

وهم جهال تمام الجهل بأقوال السلف، بل لا يعرفونها إطلاقاً ولم يطلعوا عليها أبداً، فإذا كانوا جاهلين لما هو أعظم منها من نصوص الشريعة فهي من باب أولى ، وسبب جهل هؤلاء بهذه هو أنهم أشغلوا أنفسهم بقراءة كتب أهل المنطق والفلسفة والكلام ، وبعض علماء السنة الذين تأثروا أو نهجوا مناهج المتكلمين ، وهؤلاء يروون عن السلف على حسب ما يفهمون ومن أخذ عنهم اكتفى بقولهم فَضَلَّ بضلالهم .

وهؤلاء جميعاً لو علموا أقوال السلف وسلموا من الهوى ما تركوها ولكنهم لم يعلموها « ولهذا يوجد كثير من المتأخرين المصنفين في المقالات والكلام يذكرون في أصل عظيم من أصول الإسلام الأقوال التي يعرفونها ، وأما القول المأثور عن السلف والأئمة الذي يجمع الصحيح من كل قول فلا يعرفونه ولا يعرفون قائله ، فالشهرستاني صنف (الملل والنحل) وذكر فيها من مقالات الأمم ما شاء الله ، والقول المعروف عن السلف والأئمة لم يعرفه ولم يذكره ، والقاضي أبوبكر ، وأبو المعالي ، والقاضي أبو يعلى ، وابن الزاغوني ، وأبو الحسين البصري ، ومحمد بن الهيثم ، ونحو هؤلاء من أعيان الفضلاء المصنفين ، تجد أحدهم يذكر في مسألة القرآن أو نحوها عدة أقوال للأمة، ويختار واحداً منها .

والقول الثابت عن السلف والأئمة كالإمام أحمد ونحوه من الأئمة لا يذكره ... إذ المقصود هنا أن من أكابر الفضلاء من لا يعرف أقوال الأئمة في أكابر المسائل لا أقوال أهل الحق ولا أهل الباطل ، بل لم يعرف إلا بعض الأقوال المبتدعة في الإسلام » (٣) .
« ... والقول الصواب الذي هو قول السلف والأئمة لا يعرفونه » (٤) .

والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي :

فالطريق الشرعي : هو النظر فيما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها، وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية .

---

(١) التفسير الكبير ٣٢٤/٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ . (٢) انظر التفسير الكبير ٤١٦/٧ .
(٣) الدرء ٢ / ٣٠٧ ، ٣١٣ .
(٤) الدرء ٤ / ٢٩١ ، وانظر الفتاوى ٥ / ٤١٢ ، ٤١٣ ، وانظر التفسير الكبير ١١٤/١ ، ١١٥ .

وأما الطريقان المبتدعان :

فأحدهما : طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي ، فإن هذا فيه باطل كثير ، وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال ، فيبقى هؤلاء في فساد علم، وفساد عمل ، وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة .

والثاني : طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة ، فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم .

وكثير من هؤلاء تكون عباداته مبتدعة بل مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقعون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول ... » [1] .

فإذا كان عموم الطوائف وكبارها لم يسلم لهم عقل ولم يثبت لهم نقل وأنهم لا يعرفون الطرق الصحيحة للحق ، وكانت نهاياتهم ضلالاً وحيرة وشكّاً ، وكانت نهاية مطاف أكثرهم الندم على ما مضى والإقبال على طريق السلف . تلك حقائق أثبتها ابن تيمية فأتى بها على بنيانهم من القواعد ، فماذا يقولون للأتباع المضللين ، وماذا يقولون لكل السامعين ، بعد أن أشرقت الأرض بنور ربها ، وبطل ما كانوا يصنعون ، وقيل الحمد لله رب العالمين .

ثالثاً : إرجاع آراء الخصم المخالفة للحق إلى منابعها :

من الأمور المنهجية لدى ابن تيمية في الجدل والمناظرة أنه يفاجيء خصمه أو مناظريه بأنه عالم بآرائهم وعارف لتاريخ نشأتها ، وكل قول مخالف للحق في أصول الدين فإنه على اطّلاع في أغلب الأحوال على من قال به وأين هو مدون ، يقول :« أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام ، وأول من ابتدعها ، وما كان سبب ابتداعها » [2] .

وأحياناً يكون القول لطائفة كافرة معلوم خروجها من الدين ، ومروقها منه ، أو معلوم نفاق أصحابها ، أو معلوم ضلالهم ، وانحرافهم عن منهج السلف ، وأحياناً يكون القول صادراً عن غير أهل الإسلام كاليهود والنصارى أو الهنود أو المجوس وأمثال هؤلاء من الصابئة والدهريين ومناطقة اليونان ، فلما يعزو حجة المجادل إلى أمثال هؤلاء عزواً عن علم ويقين يصدم الخصم صدمة قوية تنهار لها قواه ، ثم يضعف مكانة أولئك الذين

---

(١) منهاج السنة ٤٢٨/٥ ، ٤٢٩ .

(٢) العقود الدرية /٢٣٥ - ٢٣٦ .

يأخذون أفكار غيرهم وينسبونها لأنفسهم ويدعي فيها بعضهم أنها كشف وإلهام .

وأذكر نماذج لهذا من أقوال ابن تيمية رحمه الله : -

١ - « ثم أصل هذه المقالة مقالة التعطيل للصفات إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين .. » (١) .

٢ - « والجهمية النفاة » موافقون لآل فرعون أئمة الضلال » (٢) ويرجع بعض أفكار المتكلمين إلى الجهمية والمعتزلة .

٣ - يقول :« كان من أصل ابن كلاب ومن وافقه كالحارث المحاسبي وأبي العباس القلانسي ، وأبي الحسين الأشعري .. الخ أن الرب لا يقوم به ما يكون بمشيئته وقدرته ، ويعبرون عن هذا بأنه لا تحله الحوادث ، ووافقوا في ذلك الجهم بن صفوان وأتباعه من الجهمية والمعتزلة » (٣) .

٤ - « ... وحقيقة قول هؤلاء الاتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح ، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد ولا يوحِّد الله إلا الله ... » (٤) .

٥ - « وهذه الشبهة شبهة الجهمية - هي في الأصل نشأت من ملاحدة الأمم المنكرين للصانع ، وهؤلاء أجهل الطوائف ، وأقلهم عقلا ، فلهذا لم تكن العرب تعارض بمثل هذه الشبه ، وإنما ذكر الله تعالى نظير قول الجهمية عن مثل فرعون وأمثاله من المعطلة كالذي حاج إبراهيم في ربه » (٥) .

وحينما يناظر بعض الطوائف المنحرفة المعادية لأهل السنة يقول إنكم في مواقفكم من أهل الحق وارثون لها من المشركين .

٦ - يقول : « فالروافض تسميهم نواصب ، والقدرية مجبرة ... الخ ،كما كانت قريش تسمي النبي صلى الله عليه وسلم تارة مجنوناً ، وتارة شاعراً ، وتارة كاهنا ، وتارة مفترياً ، قالوا فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة » (٦). وسماع الصوفية يرجعه إلى الزنادقة بعد أن نفاه عن السلف (٧) .

---

(١) الفتاوى ٢٠/٥ .
(٢) الفتاوى ١٧٢/٥ ، انظر التفسير الكبير ٣٥٤/٤ .
(٣) الفتاوى ٤١١/٥ .
(٤) منهاج السنة ٣٧٠/٥ .
(٥) الدرء ٧٢/٧ ، ٧٣ .
(٦) الفتاوى ١١١/٥ .
(٧) انظر الاستقامة ٢٣٨/١ ، وانظر ص٣٢٥ .

وعن الأفراد يذكر من أين تلقوا أفكارهم الضالة :

١ - « وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حران وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته ، وأخذها الجهم أيضاً فيما ذكره الإمام أحمد وغيره ... » (١) .

٢ - « قلت : أبو عبدالله الرازي غالب مادته في كلام المعتزلة : ما يجده في كتب أبي الحسين البصري ، وصاحبه محمود الخوارزمي ، وشيخه عبدالجبار الهمداني ونحوهم .

وفي كلام الفلاسفة : ما يجده في كتب ابن سينا وأبي البركات ونحوهما وبعض كتب القاضي أبي بكر وأمثاله .

وهو ينقل أيضاً من كلام الشهرستاني وأمثاله » (٢) .

٣ - ويقول عن الآمدي: « أن يقال له ولأمثاله كالرازي والشهرستاني ونحوهما من المتأخرين الذين أثبتوا جواهر معقولة غير متحيزة موافقة للفلاسفة الدهرية » (٣) .

وانظر إلى بغية المرتاد [(ص) ٤٤٦ - ٤٤٧] فإنه قد ذكر الجذور الحقيقية لأصحاب المذاهب من الفلاسفة والمتكلمين والصوفية ، وتأثر تلك المذاهب بعضها ببعض ، وتأثر الأشخاص بعضهم ببعض ، وتقليد كل واحد منهم الآخر (٤) .

وقد ذكر مجموعة من الأسماء التي يعتمد عليها كثير من أصحاب الفرق والطوائف ومشاربهم الفكرية وهو نص ذو أهمية كبيرة في هذا الموضوع ولولا طوله لذكرته (٥) .

رابعاً : بيان التناقض في آراء الخصم وأقواله :

من أسوأ ما يقع فيه المرء ـ حتى أمام نفسه فضلاً عن الآخرين ـ أن يكون متناقضاً في أقواله وأفعاله .

وكل المخالفين للكتاب والسنة لا بد أن يكون في أصولهم وكلامهم اختلافٌ وتناقضٌ ، وهذا التناقض « غالب على المتفلسفة والمتكلمين المخالفين للكتاب والسنة

---

(١) الفتاوى ٢٢/٥ . (٢) الدرء ١٥٩/٢ . (٣) الدرء ١٦٢/٤ .

(٤) انظر بغية المرتاد /١٥٤ .

(٥) وللتوسع في الموضوع ارجع إلى : التفسير الكبير ٢٦٥/١ ، ٢٦٦ . التفسير الكبير ٣٨٢/٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ . ٩٤/٥ ، ٤٦/٢ ، ٤٧ ، ٤٨ . الفتاوى ١٤٠/٩ ، ٣٢٢ . ٤٣٧/١١ ، ٤٣٩ . والاستقامة ١٧٦/٢ . والرسالة المدنية /٣٧ . التفسير الكبير ٢٧٤/٧ ، ٤٣٩ .

تجدهم دائماً يتناقضون فيحتجون بالحجة يزعمون أنها برهان باهر ، ثم في موضع آخر يقولون : إن بديهة العقل يعلم بها فساد هذه الحجة » (١) .

وابن تيمية رحمه الله عرف هذا الداء فيهم معرفة تفوق معرفتهم له ، فأمسكهم من العضو الذي يؤلمهم ، وأخذ يرد عليهم بأقوالهم ويبين أن أصولهم متناقضة ، وكلامهم متناقض مع أصولهم ، وكل طائفة متناقضة مع الطائفة الأخرى ، بل كل طائفة وفرد متناقض مع نفسه .

أقض مضاجعهم حتى آل بفضلائهم وكبارهم إلى الشك والحيرة والاضطراب ، وما من شك أن استعمال هذا الجانب في المناظرة والمجادلة ضد الخصم ضربة قاضية ، وحجة دامغهة، وجولة حاسمة .

وكما قيل : «من فمك أدينك ، وأيضاً يداك أوكتا وفوك نفخ »، ولقد أراحوا دعاة الإسلام بتناقض بعضهم مع بعض ، وتناقضهم مع أنفسهم ، مما جعل كل طائفة ترد على الأخرى لإبطال حجتها ، وكل واحدة تدعي أن الحق لديها ، وأن الأخرى هي المبطلة ، فكشف بعضهم عن سوءة بعض ، فجاء دعاة الإسلام أمثال ابن تيمية وصار يضرب بعضهم بحجج بعض ، وبما تناقضوا به هم مع أنفسهم : ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ (٢) ﴿.. وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) ، وبقيت كلمة الله هي العليا وجنده هم الغالبون .

ويمكننا أن نحدّد كيف استعمل ابن تيمية تناقضهم لإسكاتهم والغلبة عليهم :

١ – لما كانت طوائفهم متناقضة مع بعضها ومختلفين وكل واحدة تجادل الأخرى وتبين لها ما عندها من خطأ وضلال ، أيّد ابن تيمية هذا فيهم ليحصل ضرب الظالمين بالظالمين ، ويخرج أهل الحق منها سالمين ، ثم استعمل تلك الردود بين الطوائف حججاً عليهم ، وسيأتي بيان ذلك في موضوع مستقل .

٢ – الطائفة الواحدة متناقضة في أصولها وعلى أصولها ، فكان يرد عليهم بما نقضوا به أنفسهم (٤) .

٣ – الأفراد من هذه الطوائف متناقضون ، فما رآه حقاً في موضع أبطله في موضع آخر ، فيرد عليه بما رد على نفسه ، ويبين لمن يعظمه من الناس هذا الفساد فيه ، وكان له

---

(١) الدرء ٣٢٦/١ .
(٢) سورة الأعراف آية (١١٩) .
(٣) سورة الزمر آية (٧٥) .
(٤) انظر بغية المرتاد /٢٢٩ .

أكبر الأثر في وقته ، حيث إن علماء كباراً خدعوا بضُلاّل هؤلاء كابن عربي ، وابن سبعين ، وابن رشد ، والرازي ، وابن سينا وأمثال هؤلاء .

فهذا الإمام الذهبي على جلالة قدره وسعة علمه بالرجال ونقدهم إلا أنه التبس عليه حال ابن عربي فذكر أنه من أولياء الله (١) .

وهذا الاهتمام الكبير من ابن تيمية في بيان تناقض الخصوم كان له سببان :

الأول : أنه يرى « أن التناقض أول مقامات الفساد » (٢) فإذا أثبته فيهم ، فإن فسادهم ينكشف في أول مقام من مقامات التناظر ، وبوجوده يظهر فسادات كثيرة، ويتوصل من خلاله إلى عيوب كبيرة .

الثاني : إذا بيّن تناقضهم وخلافهم فيما بينهم ، وأن بعضهم قد رد على بعض ، فقد أثبت أن القضايا عندهم ليست مسلمة ولا يقينية ولا ظاهرة ، وأن كبار هذا المذهب أو الاتجاه كانوا مترددين ، وبعضهم كانوا حائرين مرتابين .

فهذه المعلومة تحل عقدة الإصرار والتصميم على التقليد والاتباع ، وتثبط من حماس الأتباع والمقلدين نحو متبوعيهم ، وتضعف الثقة بما كانوا ملتزمين فيه ، وتهيء فرصة نفسية للدخول في النقاش والمناظرة ونقد من يعظمه هؤلاء بما لا يتجاسرون عليه من قبل (٣) .

٤ - وفي مجال آخر من استعمال تناقضهم للغلبة عليهم أنه استعمل أدلتهم العقلية والشرعية الصحيحة لأنها لا تصلح لهم ، فالحق لا يؤيد الباطل ولا ينصره ، وذلك أن « جميع ما يحتج به المبطل من الأدلة الشرعية والعقلية إنما تدل على الحق لا تدل على قول المبطل ، وهذا ظاهر يعرفه كل أحد ، فإن الدليل الصحيح لا يدل إلا على حق لا على باطل » (٤).

وذكر رحمه الله في كلامه على الجهمية النفاة عندما نقض « أساس التقديس » للرازي « أن عامة ما يحتج به النفاة للرؤية والنفاة لكونه فوق العرش ونحوهم من الأدلة الشرعية : الكتاب والسنة ، هي أنفسها تدل على نقيض قولهم ، ولا تدل على قولهم فضلاً عما يعترفون هم بدلالته على نقيض قولهم ، وهكذا أيضاً عامة ما يحتجون به من الأدلة العقلية ، إذا وصلت معهم فيها إلى آخر كلامهم ، وما يجيبون به معارضهم ،

---

(١) انظر بغية المرتاد /١٥٢ .

(٢) التفسير الكبير ٤٣٤/٥ . (٣) انظر الدرء ٣٧٦/١ - ٣٧٧ .

(٤) الفتاوى ٢٨٨/٦ ، وانظر ٢٩/٨ ، وانظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣٢٧/١ .

وجدت كلامهم في ذلك يدل على نقيض قولهم ، وأن ما يذكرونه من المناظرات العقلية ، هو على قول أهل الإثبات أدل منه على قولهم » [1] .

وهذا التناقض من ثمراته بيان خطئهم كلهم من وجهين :

الأول : « من جهة العقل الصريح الذي بيّن به كل قوم فساد ما قاله الآخرون » [2]. فعرفنا خطأ كل الفريقين بدلالة الحجج العقلية التي أوردها كل فريق على الآخر في معرض رده عليه .

الثاني : « من جهة أنه ليس معهم معقول اشتركوا فيه ، فضلاً عن أن يكون من صريح المعقول ، بل المقدمة التي تدعي طائفة من النظار صحتها ، تقول الأخرى هي باطلة » [3] .

وإذا كان لدينا رغبة أكيدة في معرفة أسباب هذا التناقض الكبير فإن ابن تيمية رحمه الله يعطينا الإجابة ويعرفنا بالأسباب التي تجعلهم يتناقضون على قولين متعارضين : -

١ - إما أن يكون لكونه لم يفهم أن هذا المعنى الذي أثبته بهذه العبارة هو الذي نفاه بتلك ، فلا يكون قد تصور حقيقة ما يقول بل تصور ما يتقيد باللفظ بحيث إذا خرج المعنى عن ذلك اللفظ لم يعرف أنه هو .

وهذا قبيح بمن يدّعي النظر في العقليات المحضة التي لا تتقيد بلغة ولا لفظ » [4] ، فأتى من « ... نقص كمال الفهم والتصور » [5] . وهذا يدل على ضعف إدراكهم واستيعابهم لعقلياتهم التي يدعون تقديمها على الشرع .

٢ - وإما أن يكون مع نسيانه وذهوله في كل مقام لما قاله في المقام الآخر ،وهذا أشبه أن يُظن بمن له عقل وتصور صحيح - لكنه يدل على أن في المسألة قولين ،وأنه يقول في كل مقام ما ترجح عنده في ذلك المقام لا يمشي مع الدليل مطلقاً ، بل يتناقض» [6] .

٣ - وقد يكون لضعف قدرته واختلاط الأمور عليه يخاف « ألا يكون القولان متنافيين ، فلا يهجم بإثبات التناقض » [7] ، فمرة يقول بهذا ومرة بهذا .

---

(١) الدرء ٤/٢١٨ .
(٢) الدرء ٤/٢٧٧ - ٢٧٨ .
(٣) الدرء ٤/٢٧٧ - ٢٧٨ .
(٤) الدرء ٤/١٧٥ .
(٥) الدرء ٤/١٨٠ .
(٦) الدرء ٤/١٧٥ .
(٧) الدرء ٤/١٨٠ .

٤ – وإما أن يكون فاهماً ومدركاً للتناقض فلا يخلو من حالين :

أ – ألا يبالي بتناقض كلامه ولا يهمه ذلك .

ب – وإما أن يرجح هذا في موضع وهذا في موضع آخر (١) .

٥ – وقد يكون « .. لنوع من الهوى والغرض » (٢) ، لكونه لا ينطلق من قصد إرادة الحق ، فينظر في كل موطن ما يوافق أهواءه وأغراضه ، « ولو لم يكن – من ذلك – إلا مراعاة الطائفة التي يتكلم باصطلاحها ألا يخالفها فيما هو من مشهورات أقوالها » (٣) .

٦ – أما تناقضهم مع أهل الإثبات مع كون مقدماتهم موافقة لما جاء به الرسول ومن العقليات التي اتفقت عليها فطر العقلاء السليمي الفطرة ، فهذا عائد إلى أنهم تلقوا النزاع والخلاف مع أهل الإثبات تعليماً من غيرهم لا فطرة ، وقدحوا بمقدمات تقليدية أو نظرية لا ترجع إلى العقل الصريح ، وهو يدعي أنها عقلية فطرية .

ومن كان له خبرة بحقيقة هذا الباب تبين له أن جميع المقدمات العقلية التي ترجع إليها براهين المعارضين للنصوص النبوية ، إنما ترجع إلى تقليد منهم لأسلافهم ، لا إلى ما يعلم بضرورة العقل ولا إلى فطرة .. » (٤) .

وأذكر بعض النماذج لتناقض المخالفين للكتاب والسنة ، مقسماً إياها إلى قسمين :

الأول : تناقض الفرق والطوائف .

الثاني : تناقض الأفراد .

الأول : تناقض الفرق والطوائف :

يقول عن المعتزلة ونحوهم بعد أن ذكر جملة من تناقضهم وضلالهم :« وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبيّن تناقضهم في الصفات والأفعال حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ، ومع نفي الحكمة ، وبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض ، وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً » (٥) .

ويقول عن الفلاسفة :« فهؤلاء الذين يدعون أنهم أفضل المتأخرين من الفلاسفة

---

(١) انظر الدرء ٤/١٧٥ . (٢) الدرء ٤/١٨٠ .
(٣) الدرء ٤/١٨٠ . (٤) الدرء ٤/٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٥) التفسير الكبير ١/٢٣٤ ، وانظر الدرء ٧/٤٦٣ .

المشائين يقولون في وجود واجب الوجود : ما يعلم بصريح المعقول الموافق لقوانينهم المنطقية : أنه قول بامتناع وجود الواجب وأنه جمع بين النقيضين وهذا هو في غاية الجهل والضلال » (١) .

ويقول عن الفلاسفة والقرامطة في مسألة العلو :« أما المتفلسفة والقرامطة فيقولون إن الرسل كلموا الخلق بخلاف ما هو الحق ، وأظهروا لهم خلاف ما يبطنون ، وربما يقولون إنهم كذبوا لأجل مصلحة العامة ، فإن مصلحة العامة لا تقوم إلا بإظهار الإثبات ، وإن كان في نفس الأمر باطلاً . وهذا مع ما فيه من الزندقة البينة والكفر الواضح : قول متناقض في نفسه » (٢) .

ويقول عن أصحاب وحدة الوجود :« وعندهم الوجود واحد ، ويقولون : النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ، ولو عمّموا لما كفروا ، وكذلك يقولون في عباد الأصنام : إنما أخطأوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لما أخطؤوا عندهم ، والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام ، وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ، ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض لأنه يقال لهم : فمن المخطىء؟ لكنهم يقولون إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق ، ويقولون : إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ، وهم مع كفرهم لا يندفع عنهم التناقض فإنه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس ذاك » (٣) .

وهكذا نرى أن كل طائفة متناقضة مع نفسها في أصولها وفروعها وكل طائفة مختلفة مع الأخرى تقدح في أدلتها ولا تكاد تجد اثنين من أهل البدع يتفقان على مقدمات الدليل الواحد جميعها ، حتى الكبار منهم فلكل واحد منهم طريق في الاستدلال ومنهج يخالف به الآخرين (٤) ،إلى أن يصل إلى أتباعهم حيث يقدح أتباع كل طريقة بطريقة الآخرين من غيرهم ويلزمونها بكل عيب إلا أن « يعتقد كل منهما أن الله لا يعرف إلا بطريقته وإن كان جمهور أهل الملة ، بل عامة السلف يخالفونهم فيها (٥) (٦) .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٤٦٦ .
(٢) الفتاوى ١٦٨/٥ .
(٣) الفتاوى ٢٤٢/١١ ، ٢٤٣ .
(٤) انظر الدرء ٢٧٧/٤ – ٢٧٨ .
(٥) الفتاوى ٢٢/٢ .
(٦) وللمزيد انظر المراجع الآتية : منهاج السنة المحقق تناقض الرافضة ٢٩٠/٦ . منهاج السنة غير المحقق ٢٢٧/٢ . الفتاوى ٣٢٢/٩ تناقض أهل المنطق . الفتاوى ٨/١٩ تناقض المتكلمين . الدرء ١٣٧/٧ ، ٤٦٣ . الدرء ٥٢/١ ، ص١٥٨ . الدرء ٣٤٧/٣ تناقض الفلاسفة . الدرء ١٧٥/٤ . منهاج السنة المحقق ٤٣٦/٥ .

الثاني : تناقض الأفراد :

١ - يقول رحمه الله عن تناقض بعض أتباع الأئمة الفقهاء :

« وقد رأيت من أتباع الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من يقول أقوالاً ويكفر من خالفها ، وتكون الأقوال المخالفة هي أقوال أئمتهم بعينها ، كما أنهم كثيراً ما ينكرون أقوالاً ويكفرون من يقولها ، وتكون منصوصة عن النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة ما وقع من الاشتباه والاضطراب في هذا الباب » (١) .

٢ - يقول عن الإمام الرازي :« وهو متناقض في عامة ما يقوله يقرر هنا شيئاً ثم ينقضه في موضع آخر ... فيقرر كلام طائفة بما يقرر به ، ثم ينقضه في موضع آخر بما ينقض به » (٢) . ويقول :« والرازي لما كان مثبتاً لهذا الإمكان موافقة لابن سينا كان في كلامه من الاضطراب ما هو معروف في كتبه الكبار والصغار » (٣) .

٣ - ويقول :« والآمدي قدح في الطرق التي اعتمد عليها الرازي كلها . والمقصود هنا ذكر طعن الآمدي في حجج نفسه التي احتج بها على نفي كونه جسما ، ونفي قيام الحوادث به وقد تقدم أن حججه المبنية على تماثل الجواهر والأجسام قد قدح فيها وبيّن أنه لا دليل لمن أثبت ذلك ، وحجته المبنية على التركيب قد قدح هو فيها في غير موضع... الخ » (٤) .

٤ - وذكر تناقض مجموعة من الأعيان الفلاسفة حينما تكلم عن « أرسطو طاليس» قال :« وأما كلامه - أرسطو طاليس - وكلام أتباعه كالإسكندر الأفروديسي ، وبرقلس ، ونامسطيوس ، والفارابي ، وابن سينا ، والسهروردي المقتول ، وابن رشد الحفيد ، وأمثالهم في الإلهيات ، فما فيه من الخطأ الكثير والتقصير العظيم ظاهر لجمهور عقلاء بني آدم ، بل في كلامهم من التناقض مالا يكاد يستقصى » (٥) .

٥ - ويقول عن ابن سينا :« ولكن ابن سينا تناقض فادعى في باب إثبات واجب الوجود : أن الممكن قد يكون قديماً أزلياً مع كونه ممكناً ، ووافقه على ذلك طائفة من المتأخرين كالرازي وغيره » (٦) .

ونختم هذه الأمثلة بقوله :« ... فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة

---

(١) الدرء ٣٠٨/٢ . (٢) الفتاوى ٥٦٢/٥ .
(٣) الدرء ١٤٠/٣ ، وانظر ٢٥٦ .
(٤) الدرء ٢٦٨/٤ ، وانظر ٢٦٩ - ٢٧٥ ، وانظر ٢١٩ .
(٥) الدرء ١٥٢/١ . (٦) الدرء ١٣٩/٣ .

من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما أحال نظيره إذ كلامهم من عند غير الله، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (١) » (٢) .

خامساً : بيان حيرة وشك الخصوم ورجوعهم عن طريقهم :

ابن تيمية إذا جادل أو ناظر أحداً من المخالفين لمذهب الحق فإنه يستدل على فساده ببيان تناقض « الفضلاء العارفين من الشيوخ الكبار في هذا الفن والمجال الذي يناظر فيه .

فمثلاً يقول وهو يجادل أحد المشغوفين بالفلاسفة والمتكلمين ، يبين له بطلان أدلتهم بأمور أحدها : إنك تجدهم أعظم الناس شكاً واضطراباً وأضعف الناس علماً ويقيناً وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ويشهده الناس منهم ، وشواهد ذلك أعظم من أن تذكر هنا » (٣) .

والحيرة والشك مرحلة تأتي بعد التناقض ، فلما تتعارض الأدلة وتتناقض ويصبح لا يدري أين الحق ولا يعرف له دليلاً ولا مسلكاً سليماً لأنه لا يعرف إلا الطرق الباطلة التي يسميها عقليات وهي ضلالات وجهالات ، يقول رحمه الله عن المتكلمين وعلم الكلام: « .. ومن تبين له تناقضه أوصله إلى الحيرة والشك ، ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون إلى الحيرة والشك » (٤) .

والحيرة والشك عقوبة لهم مماثلة لأفعالهم في انتقاص الشريعة ومصادرها وأنها لا توصل إلى علم ، وأن معقولاتهم هي التي بها العلم والدلائل البينة ،يقول رحمه الله : «والله سبحانه يجزي الإنسان بجنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل ، فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه ، فإن كان قد قدح نبيهم ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ابتلي في عقله وعلمه وظهر من جهله ما عوقب به ، ومن قال عنهم إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه ، ومن قال إنهم جهال أظهر الله جهله – ثم ذكر فرعون وأبو جهل ومن قال عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أبتر عوقبوا بانبتارهم .. » (٥) .

« وفحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة العقليات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض

---

(١) سورة النساء آية (٨٢) .
(٢) التفسير الكبير ١٢٨/٢ .
(٣) الفتاوى ٢٧/٤ .
(٤) التفسير الكبير ٢٤٩/١ .
(٥) التفسير الكبير ٢٨١/١ .

الكتاب بل إما إلى حيرة وارتياب ، وإما إلى اختلاف بين الأحزاب .. فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب .

فالأول :﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾[1].

والثاني : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[2] »[3] .

ونورد نماذج لما ذكره ابن تيمية من حيرة واضطراب ورجوع كثيرين من الذين سلكوا طريق الكلام والفلسفة ولم يحققوا ما جاء به الرسول ، وهي نماذج كثيرة جداً كما ذكره شيخ الإسلام بقوله :« ولو جمعت ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء ، كفلان وفلان ، لكان شيئاً كثيراً ، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر »[4] .

وقال هذا بعد أن ذكر جملة من أعيان الحائرين الذين أعلنوا حيرتهم ومنهم :

١ - الرازي أبو عبدالله أنشد في غير موضع من كتبه مثل : كتاب « أقسام اللذات» لما ذكر أن هذا العلم أشرف العلوم ، وأنه ثلاث مقامات : العلم بالذات ، والصفات ، والأفعال ، وعلى كل مقام عقدة ... ثم قال :« ومن الذي وصل إلى هذا الباب أو ذاق من هذا الشراب ثم أنشد :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتهما تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن »[5] .

٢ - وقال عن الخونجي أفضل أهل زمانه في المنطق أنه حدث عنه بسند متصل « أنه قال عند الموت : « أموت وما عرفت شيئاً إلا علمي بأن « الممكن يفتقر إلى المؤثر » ثم

---

(١) سورة النور آية (٣٩) . (٢) سورة النور آية (٤٠) .
(٣) الدرء ١٦٩/١ . (٤) الدرء ١٦٦/١ .
(٥) الدرء ١٥٩/١ ، ١٦٠ ، وانظر الفتاوى ٢٤٩/١ ، ١٠/٥ ، ١١ ، ٥٦٢ ، ٢٢٥/٩ ، التفسير الكبير ٤١٠/٧ .

قال :« الافتقار وصف سلبي ، فأنا أموت وما عرفت شيئا » [١] .

٣ – وعن أبي المعالي الجويني يذكر رجوعه عما هو عليه وهو على فراش المرض الذي مات فيه بنيسابور فأقعد فقال لنا :« اشهدوا على أني رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها ما قال السلف الصالح عليهم السلام ، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور» [٢].

٤ – وعن واحد من أعيان الفلاسفة وأعيان تلامذة الرازي وهو « الخسروشاهي » أنه كان يقول : «ما عثرنا إلا على هذه الكليات ، وكان قد وقع في حيرة وشك حتى كان يقول : والله ما أدري ما أعتقد ! والله ما أدري ما أعتقد » [٣] .

٥ – وقال عن الآمدي :« تغلب عليه الحيرة والوقف في عامة الأصول الكبار حتى أنه أورد على نفسه سؤالاً في تسلسل العلل ، وزعم أنه لا يعرف عنه جواباً ، وبنى إثبات الصانع على ذلك ، فلا يقرر في كتبه لا إثبات الصانع ولا حدوث العالم ولا وحدانية الله ولا النبوات ولا شيئاً من الأصول التي يحتاج إليه معرفتها » [٤] .

٦ – وقال عن ابن واصل الحموي : « وكان من فضلاء المتأخرين ، وأبرعهم في الفلسفة والكلام ... كان يقول : أستلقي على قفاي وأضع الملحفة على نصف وجهي، ثم أذكر المقالات ، وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندي شيء ولهذا أنشد الخطابي :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكل كاسر مكسور [٥] .

٧ – وقال رحمه الله :« وأما اعتراف المتكلمة من الإسلاميين فكثير ، قد جمع العلماء شيئا ، وذكروا رجوع أكابرهم عما كانوا يقولونه وتوبتهم : إما عند الموت ، وإما قبل الموت » [٦] .

٨ – وذكر حيرة الغزالي ورجوعه وأنه مات وهو يشتغل في صحيح البخاري .

٩ – وذكر ابن رشد الحفيد .

---

(١) الرد على المنطقيين /١١٤ ، وانظر الدرء ٢٦٢/٣ .
(٢) التفسير الكبير ٣٢٦/٤ . (٣) الفتاوى ٢٢٨/٩ .
(٤) الفتاوى ٥٦٢/٥ ، وانظر الدرء ٢٣٤/٤ .
(٥) الفتاوى ٢٨/٤ ، وانظر الدرء ١٦٥/١ ، ٢٦٣/٣ .
(٦) الفتاوى ٢٤٧/١١ .

١٠ – وأبو الحديد البغدادي[1] من فضلاء الشيعة المعتزلة المتفلسفة [2] .

١١ – وابن الفارض [3] من أهل الحلول والاتحاد [4] .

١٢ – وإبراهيم الجعبري [5] قال :« بت البارحة أفكر إلى الصباح في دليل على التوحيد سالم عن المعارض فما وجدته » [6] [7] .

سادساً : المناظرة بين قولين باطلين :

كما تكون المناظرة بين الحق والباطل بهدف تبيين الحق وإظهاره وكشف الباطل والمبطل واندحاره ، كذلك تكون المناظرة والمجادلة بين القولين الباطلين ليقوم كل واحد منهما بإبطال الآخر بأدلته التي هي من عند أنفسهم ولم يتلقوها من التشريع ، بل هم يعارضون أدلة التشريع ، وهذا منطبق على أهل الكلام والفلسفة وأمثالهم ممن يعترض على خصمه بقول فاسد وقول خصمه أقرب للحق والصواب من قوله . فبالمناظرة يبين له فيقال : إن كان قولك صحيحاً نقول : خصمك أولى بالصحة منك ، وإن كان قول خصمك فاسداً فقولك أولى بالفساد من قوله .

وهذا المنهج مهم لأنه يحقق لنا أحد ثلاثة أمور :

١ – بيان بطلان القولين كليهما .

٢ – بيان بطلان أحد القولين .

٣ – بيان أن أحد القولين أشد بطلاناً من الآخر .

---

(١) هو : عبدالحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ، كان من أعيان المعتزلة ، ولد في المدائن سنة ٥٨٦هـ، وانتقل إلى بغداد ، وخدم في الدواوين السلطانية .. من مؤلفاته « شرح نهج البلاغة » .. توفي سنة ٦٥٦هـ ببغداد . انظر سير أعلام النبلاء ٢٣٧٢/٢٣ ، الأعلام ٢٨٩/٣ . ويرى الذهبي أن اسمه قاسم وليس عبدالحميد وفي ذلك نظر .

(٢) الدرء ١٦٠/١ – ١٦٣ . (٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٣٠) .

(٤) الفتاوى ٢٤٧/١١ .

(٥) هو : إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبري الشافعي ، ولد بقلعة جعبر (على الفرات بين بالس والرقة) سنة ٦٤٠هـ كان عالماً بالقراءات ، وصنف فيها التصانيف المفيدة ، وصنف في الفقه ، والأصول ، والتاريخ ، ولي مشيخة بلد الخليل قرابة أربعين سنة ، وتوفي هناك سنة ٧٣٢هـ . انظر معجم الشيوخ ١٤٧/١ ، الأعلام ٥٥/١ .

(٦) الدرء ٢٦٢/٣ .

(٧) وانظر أيضاً في الموضوع : الاستقامة ٥٠/١ . منهاج السنة ٢٦٨/٥ – ٢٧٢ . موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١٢٨/١ وما بعدها . الدرء ١٢٦/٧ ، ١٢٧ ، الفتاوى ٢٢٥/٩ . الفتاوى ٢٢٥/١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

وهذا أمر مهم لأن هؤلاء الفلاسفة وأغلب المتكلمين مخالفون للكتاب والسنة ويعارضونها بأدلتهم وأقوالهم الفاسدة ، فإذا تولى بعضهم أدلة وحجج بعض تتبعاً وتعقباً من أجل إبطالها وهدمها كان ذلك نصراً للحق ، وإذا تبين فسادها وظهر فإن هذا أحد ركني الحق ، وأحد الأهداف المطلوبة من المناظرات والمجادلات (١) .

وقد تقدم في موضوع « تناقض الخصوم » وإبطال بعضهم لحجج بعض : من طائفتين ، ومن طائفة واحدة ، والفرد مع نفسه .

والدعاة وأهل الحق عليهم تشجيع هذا المسلك في الخصوم ، ومساعدة الفريق الأقرب للحق على خصمه الأبعد ، فإذا كانوا في البعد سواء أعين كل فريق على الآخر ليكون بأسهم بينهم شديداً ولينشغلوا بأنفسهم عن معاداة الحق وأهله .

بعض الأمثلة في المناظرة بين قولين باطلين :

١ – تكلم عن أصحاب علم الباطن المنحرف في ادعائهم خاتم الأولياء ، ثم قال : «... بل طوائف كثيرون آل الأمر بهم إلى مشاهدة الحقيقة الكونية القدرية وظنوا أن من شهدها سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وهذا هو دين المشركين الذين قالوا :﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ... ﴾ وهؤلاء شر من القدرية المعتزلة ، الذين يقرون بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ويكذبون بالقدر ، فإن أولئك يشبهون المجوس ، وهؤلاء يشبهون المشركين المكذبين بالأنبياء والشرائع ، فهم من شر الناس » (٢).

٢ – مثال آخر : قال في مسألة حدوث الأثر وعلاقته بالمؤثر : « واعتقد هؤلاء أن المعقول المصنوع المبتدع المعين كالفلك يقارن فاعله أزلاً وأبداً لا يتقدم الفاعل عليه تقدماً زمانياً . وأولئك قالوا : بل المؤثر التام يتراخى عنه أثره ثم يحدث الأثر من غير سبب اقتضى حدوثه .

فأقام الأولون الأدلة العقلية الصريحة على بطلان هذا . كما أقام هؤلاء الأدلة العقلية الصريحة على بطلان قول الآخرين ، ولا ريب أن قول هؤلاء أهل المقارنة أشد فساداً ومناقضة لصريح المعقول وصحيح المنقول ، من قول أولئك أهل التراخي – ثم ذكر القول الثالث الصحيح وهو – « أن المؤثر التام يستلزم وقوع أثره عقب تأثره

(١) انظر الدرء ٤/٢٠٦ .

(٢) التفسير الكبير ٢/٨٤ .

التام لا يقترن به ولا يتراخى ... » (١) وهنا يلزمنا التنبيه على : أن إثبات بطلان أحد طرفي المناظرة لا يعني أن الطرف الآخر على الحق « فلا يلزم من بطلان ذاك صحة هـذا » (٢).

وقد يفيدنا تبين أمر القولين الباطلين في المناظرة أن نقول لأحد الأقوال – إذا كان فيه ما نقول – هذا القول أقرب إلى الحق والمعقول من القول الآخر ولا يعني أنه هو الحق في نفس الأمر (٣) .ونفرح بانتصار مثل هذا القول الذي هو أقرب للحق والمعقول وإن لم يكن هو الحق ولا المعقول الصحيح ، هذا المعنى أوضحه بقوله : « فهذا ينتفع به من ناظر الطاعن على الأشعرية من المعتزلة ، والطاعن على المعتزلة من الفلاسفة، فتبين له أن قول هؤلاء خير من قول أصحابك ، فإنه كما أن كل من كان أقرب إلى السنة فقوله أقرب إلى الأدلة الشرعية ، فكذلك قوله أقرب إلى الأدلة العقلية . ولا ريب أن هذا مما ينبغي سلوكه ، فكل قول – أو قائل – كان إلى الحق أقرب فإنه يبين رجحانه على ما كان عن الحق أبعد ، ألا ترى أن الله تعالى لما نصر الروم على الفرس ، وكان هؤلاء أهل الكتاب وهؤلاء أهل أوثان ، فرح المؤمنون بنصر الله لمن كان إلى الحق أقرب على من كان عنه أبعد .

وأيضاً فيمكن القريب إلى الحق أن ينازع البعيد عنه في الأصل الذي احتج به عليه البعيد ، وأن يوافق القريب إلى الحق للسلف الأول الذين كانوا على الحق مطلقاً » (٤) .

سابعاً : بيان مكر الخصوم وكيدهم وخداعهم :

وبعض الطوائف المنحرفة عن الكتاب والسنة يضمرون للسائرين على منهج السلف الشر والكيد والمكر ، وبعضهم يعلم الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم ولكنه يستمر في غوايته لأغراض يريدها من شهوات وأهواء .

وابن تيمية إذا رأى في بيان هذا مصلحة فإنه يظهره ويعلنه إما قولاً وإما كتابة لعموم الناس أو خاصتهم من أهل الشأن .

إن الجدل نوع من أنواع الجهاد والذب عن حوزة الدين العلمية والفكرية فله مواقف وأقوال وأوضاع غير الأوضاع في الأمور الاعتبارية ؛ لذا يقول : « فان للسلم

(١) الفتاوى ٢٨١/٩ ، ٢٨٢ .
(٢) الدرء ١٢٧/٤ .
(٣) انظر الدرء ٢٣٨/٧ .
(٤) الدرء ٢٣٨/٧ .

كلاماً وللحرب كلاماً » [١] .

ولكنه أحياناً لا يرى كشف ما يعلم من كيد الخصم ومكره وتآمره على أهل الحق خاصة وعامة ، حاكمين ومحكومين ، إلا بإذن الحاكم وأمره لأنه يرى أنه سيكون مخاطر من كشفه وبيانه لأنها حقائق خطيرة تشكل اتهامات كبيرة بالتآمر على الأمة من حاكمها إلى محكومها فلا بد أن يكون بإذن السلطان حتى يتحمل المسئولية ، وهو يقدر العواقب والمترتبات وقدرته على احتواء ما يكون .

وأحياناً في مناظراته يهدد الخصوم بكشف خباياهم للحاكم أو لعموم الناس إن لم يَصْدقوا وينصفوا من أنفسهم ويتركوا ما هم عليه من الباطل .

يقول في بداية المجلس الثاني في مناقشته في الاعتقاد في دمشق :« وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين ، وهو متفق عليه بين السلف ، فإن وافق الجماعة فالحمد لله ، وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفت له الأسرار ، وهتكت الأستار ، وبيّنت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملك والدول ، وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس ... » [٢] .

وفي كتاباته أبان عن حقائق تخفى على كثير من الناس عن مقاصد المخالفين للكتاب والسنة وتآمرهم على الحق وأهله ، وعلاقاتهم مع أعداء الإسلام ، وأعرض باختصار إلى عدد من النماذج ، من ذلك :

ما تكلم به عن الشيعة في منهاج السنة من تآمرهم مع أعداء الإسلام من النصارى واليهود والتتار والفرق الباطنية .

ولا يخفى موقف وزير الخليفة العباسي آخر الخلفاء الذي قتله التتار بتآمر مع هذا الوزير المسمى « نصير الدين الطوسي » ، الذي كان حاقداً على دولة الإسلام والمسلمين السنة فعمل على زوالها ، فكاتب التتار وشجعهم على غزو خلافة المسلمين ، وخدع الخليفة العباسي .

يقول عنهم : « ... وأما الرافضة فإما أن يعاونوا أعداء الإسلام وإما أن تمسك عن نصر الطائفتين » [٣] ،« فإنهم دائماً يستعينون بالكفار والفجار على مطالبهم ويعاونون الكفار والفجار على كثير من مآربهم ، وهذا أمر مشهود في كل زمان ومكان ، ولو لم

---

(١) العقود الدرية /٢٣٤ .
(٢) العقود الدرية /٢٣٣ - ٢٣٤ .
(٣) منهاج السنة غير المحقق ١٧٣/٢ .

يكن إلا صاحب هذا الكتاب « منهاج الندامة » وإخوانه ، فإنهم يتخذون المغل والكفار والفساق والجهال أئمة بهذا الاعتبار » (١) .

ومن الجانب الفكري والعلمي مارس الشيعة التضليل والكذب فكانوا يضعون « حججاً لهم على لسان بعض اليهود ليقال لأهل السنة أجيبوا هذا اليهودي ، ويخاطب بذلك من لا يحسن أن يبين فساد تلك الحجة من جهال العامة ، وهذا المذهب وضعه زنادقة مرادهم إفساد دين الإسلام » (٢).

ثم يذكر عن بعض المسلمين أنهم عدلوا عن القرآن ونبذوه وراء ظهورهم فلا يعلمون له أمراً ولا نهياً واتبعوا ما تتلوه الشياطين عليهم ويعظمه من رآه يأتي ببعض خوارقهم بإعانة الشياطين ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيطان ، ولكن يعظم ذلك لهواه ويفضله على طريق القرآن ليصل إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار ، ومنهم من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم والعبادة والتصوف حتى جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة التي تعينهم عليها الشياطين ، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ولا كفرهم به وبكتابه إذا نالوا ذلك . ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس وتعظيمهم له لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه ، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك ... » (٣) .

ويقول : « قالوا : ربما حذفوا بعض مقدمات القياس إما تعديلا على فهم الذهن لها أو لترويج المغلطة حتى لا يطلع على كذبها عند التصريح بها »(٤) .

ويقول : « فأذكياء طوائف الضلال إما مضللون مداهنون ، وإما زنادقة منافقون لا يكاد أحد منهم عن هذين » (٥) .

ويقول عن أقوام من الفلاسفة والباطنيين :« وكثيراً ما كنت أظن أن ظهور مثل هؤلاء من أكبر أسباب ظهور التتار واندثار شريعة الإسلام ، وأن هؤلاء مقدمة الدجال الأعور الكذاب الذي يزعم أنه هو الله ، وقولهم يجمع كل شرك في العالم ، وهم لا

---

(١) منهاج السنة غير المحقق ١٧١/٢ .
(٢) منهاج السنة النبوية ٣٠٨/٦ ، وانظر ص٣٠٣ .
(٣) التفسير الكبير ٣٩٥/٣ .
(٤) الفتاوى ١٦٤/٩ .
(٥) الفتاوى ٢٤/٩ .

يوحدون الله سبحانه وتعالى ، وإنما يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات فهم بربهم يعدلون .

ولهذا حدثني الثقة أن أحدهم كان يريد الذهاب إلى الهند وقال : إن أرض الإسلام لا تسعه لأن الهند مشركون يعبدون كل شيء حتى النبات والحيوان » (١) .

ويتكلم عن أهل الكتاب وأن متأخريهم صاروا ينكرون ما في التوراة من الصفات، وأن هذا حدث فيهم لما صار فيهم جهمية إما متفلسفة مثل موسى بن ميمون وأمثاله ، وإما معتزلة مثل أبي يعقوب البصير وأمثاله فإن اليهود لهم بالمعتزلة اتصال وبينهما اشتباه، ولهذا كانت اليهود تقرأ الأصول الخمسة التي للمعتزلة ، ويتكلمون في أصول اليهود بما يشابه كلام المعتزلة ،كما أن كثيراً من زهاد الصوفية يشبه النصارى ويسلك في زهده وعبادته من الشرك والرهبانية ما يشبه سلوك النصارى ... » (٢) .

ويقول عن الحلاج :« ... وكان يظهر عند كل قوم ما يستجلبهم به إلى تعظيمه ، فيظهر عند أهل السنة أنه سني ، وعند أهل الشيعة أنه شيعي ، ويلبس لباس الزهاد تارة ، ولباس الأجناس تارة ... » (٣) .

ثامناً : الأمانة في الاستدلال والتثبت في نسبة الأقوال :

من أهم القضايا في مجالات الحياة كلها والمجالات العلمية والفكرية بخاصة النزاهة والأمانة والصدق ، وتحري الحق دائماً وأبداً .

ومن المشاكل التي تعاني منها الأمة في المجالات العلمية مشكلتان مهمتان :

الأولى : ذلك الكم الهائل من المعلومات والكتب المؤلفة وما في كثير منها في التخبط والضلال ، وما فيها من أفكار وقضايا واستدلالات متناقلة وكل ينسبها إلى نفسه، فالتعدي على حقوق الآخرين ونتاجهم العلمي أمر لا يقره شرع ، وهذا فيه خطورة ضياع المنابع الرئيسة للأفكار والآراء .

الثانية : استمراء بعض أهل العلم والرأي على نسبة قول إلى قائل معين من غير تحقق ولا تثبت ، فإذا جاء التحقيق فإذا الأمر خلاف ما قيل ، أحياناً يكون عن غير قصد لأسباب سيأتي ذكرها وأحياناً عن تعمد الكذب كما ذكر عن الحلاج أنه : «وجد من كلامه الكفر والزندقة ، واعترف به : مثل أنه ذكر في كتاب له : من فاته

(١) كتاب إشارات لطيفة /٥١ .
(٢) الدرء ٧/٩٤ .
(٣) الفتاوى ٣٥/١١٠ .

الحج فإنه يبني في داره بيتاً ويطوف بـه كما يطوف بالبيت ويتصدق على ثلاثين يتيماً بصدقة ذكرها ، وقد أجزأه ذلك عن الحج ، فقالوا له: أنت قلت هذا؟ قال نعم ، فقالوا له : من أين لك هذا ؟ قال : ذكره الحسن البصري (١) في « كتاب الصلاة ». فقال :له القاضي أبو عمر : تكذب يا زنديق أنا قرأت هذا الكتاب وليس هذا فيه، فطلب منهم الوزير أن يشهدوا بما سمعوه ، ويفتوا بما يجب عليه . فاتفقوا عل وجوب قتله » (٢) .

أسباب وقوع الغلط – من غير تعمد – في الأقوال المنسوبة إلى الغير :

١ – أن القول قد يحكى من قائل قاله وهو لم يضبطه ضبطاً تاماً فيأتي الخطأ من عدم تثبت الناقل من نقله أو عدم تثبته من فهمه (٣) أو عدم خبرته بمن ينقل عنهم .

٢ – قد يكون الذي يحكي القول عن آخرين « لم يحرر قولهم بل يذكر كلاماً مجملاً يتناول النقيضين ولا يميز فيه بين لوازم أحدهما ولوازم الآخر » (٤) .

٣ – أن يحكي القول مفصلاً ولا يجمله إجمال قائله (٥) .

٤ – إذا قاله مفصلاً فإنه يذكر لوازم أحد النقيضين دون ما يعارضها ويناقضها .. مع اشتمال الكلام على النوعين المتناقضين أو احتماله لهما (٦) .

٥ – وقد يروي القول بلوازم لم يلتزمها القائل المحكي عنه ، وما كل من قال قولاً يلتزم لوازمه ، وعموم الخلق كذلك ، ومعلوم أن لازم القول ليس بقول ، ولازم المذهب ليس بمذهب إذا لم يلتزمه صاحبه ، فهذا الذي نقل القول جعل اللوازم قولاً لمن نقل عنه، ويَتَبَّتُ هذا إذا لم ينف القائل الأول ما حكي عنه وجعل قولاً له (٧) .

٦ – أن يقول أحد أفراد الطائفة قولاً محدثاً مخالفاً لطائفتة فينقل هذا القول على أنه قول الطائفة التي ينتسب لها هذا الشخص صاحب القول المحدَث في الطائفة (٨) .

٧ – وقد يكون الأمر راجعاً إلى الألفاظ والمصطلحات واختلاف دلالاتها ، فيسمع

---

(١) هو : الحسن بن أبي الحسن يسار البصري مولى الأنصار، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، ونشأ بوادي القرى ، وكان فصيحاً رأى علياً وطلحة وعائشة ، وحفظ القرآن في خلافة عثمان .. كان فقيه النفس ، كبير الشأن ، عديم النظر ، مليح التذكير .. توفي سنة ١١٠هـ . انظر تهذيب التهذيب ٤٨١/١ ، تذكرة الحفاظ ٧١/١ .

(٢) الفتاوى ١٠٩/٣٥ . (٣) الفتاوى ٤١٣/٥ .

(٤)، (٥) ، (٦) ، (٧) انظر الدرء ٣١٠/٢ ، وانظر منهاج السنة ٣٠٠/٦ – ٣٠٥ .

(٨) انظر الفتاوى ٧٩/٥ .

أو يقرأ متكلماً بلفظ من الألفاظ أو مصطلح من المصطلحات وله معنى عند المتكلم به يختلف عن الآخرين ، فيحمله الراوي على ما يعلم هو من اصطلاحه أو اصطلاح طائفة معينة (١).

٨ - وقد يكون الغلط نتيجة لعزل النص عن مناسبته أو بتره مما قبله أو بعده من كلام المتكلم (٢) .

وكان ابن تيمية رحمه الله يسير على هذا المنهج ، حيث يأخذ أقوال السلف من الكتب المتخصصة في روايتها بأسانيدها ويحدد هذه الكتب ويدعو للرجوع إليها ، وأقوال المفسرين من كتب التفسير وأقوال المحدثين من كتب الحديث ، وأقوال أهل المنطق من كتب المنطق ، وأقوال الطائفة من كتبها ومن علمائها الذين تعدهم طوائفهم مصادر معتمدة وما لديهم حجة مقبولة بالنسبة لهم .

يقول رحمه الله :« ولكن المقصود هنا أنّا نذكر قاعدة فنقول : المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب ، والمرجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث ، كما نرجع إلي النحاة في الفرق بين نحو العرب ونحو غير العرب ، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة ، وما ليس من اللغة ، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك ، فلكل علم رجال يعرفون به » (٣) .

من أجل هذا فإن شيخ الإسلام رحمه الله له منهج يتم به تحقيق نزاهة الاستدلال والتثبت من نسبة الأقوال ومن أبرز ملامح هذ المنهج ما يلي :

١ - الرجوع إلى المصادر التخصصية في المجال الذي ينقل عنه أو الشخص الذي ينقل قوله ويرويه . فإذا كان مثلاً يتكلم في فقه الحنابلة فليأخذ أقوالهم من كتب المذهب مباشرة ، ومن العلماء المعتبرين في المذهب . وإذا كان يتكلم في مسألة في النحو فليأخذ الأقوال فيها من الكتب المتخصصة في النحو ويأخذ أقوال العلماء المعتبرين في اللغة العربية .

أما أن يأخذ في هذه المسائل من الكتب التي تنقل عنهم أو يأخذ مثلاً : قولاً للحنابلة من كتب الحنفية مما رووه عنهم ، أو من كتب التفسير ، فهذا خطأ منهجي أوقع الكثير في الأخطاء التي ذكرناها سابقاً .

---

(١) الفتاوى ٥/٧٩ . (٢) انظر الفتاوى ١٨/٢٢١ .

(٣) منهاج السنة ٧/٣٤ ، وانظر ص٤٦٩ ، وانظر التفسير الكبير ٦/١٠٢ ، التفسير الكبير ٧/٤١٧ .

وإذا نقل أقوال عالم بعينه فليأخذ من كتبه أو من الثقات الذين سمعوا منه أو تتلمذوا له ، وإذا أمكن التحقق بأي طريق سليم فهو لازم .

ولشدة اهتمامه في الرجوع إلى المصادر المتخصصة للتثبت نجده يعتذر بأنه لم يجد هذا الكتاب المعين الذي فيه هذا القول المذكور (١) .

٢ – نقل الكلام نصاً كما قاله قائله أو كما كتب ، لأن أفهام الناس تختلف فلو نقله على حسب فهمه فقد يكون فهم النص على غير ما أريد له ، وقد وقع أقوام في أخطاء نسبة آراء وأفكار لآخرين وهم لم يقولوها وكان آفتهم من الفهم السقيم .

لكن إذا كان النص موجوداً فلا ملامة ، ويكون القارىء المتمكن يميز هل الاستشهاد في موضعه أم لا .

وكان ابن تيمية حريصاً على نقل كلام من ينقل عنهم بألفاظهم التي صدرت عنهم فمثلاً يقول : « وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه – كما ذكره الخلال في كتاب السنة، وكما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك – في غير موضع» (٢) .

ولكننا نجده أحياناً يقول عبارات لا تدل على تأكده من النص ولم يذكر أنه حاول فلم يجد المصدر ، فهل هذا مخالفة لمنهجه أم ماذا ؟

إن من يعلم حياة ابن تيمية وكيف قضاها سيجد الإجابة عن ذلك سريعاً ويعرف سرّ ذلك ، وأنا لا أرى إلا أن هذا أمر اضطراري لابن تيمية ، فإنه عاش فترة طويلة في سجون دمشق والقاهرة ولم يكن لديه المصادر والمراجع التي تمكنه من ضبط نقله أو روايته ، فضلاً عن التثبت مما رواه الآخرون عن غيرهم .

ولهذا نجد في كلامه بعض العبارات التي تشير إلى أنه ليس متأكداً من لفظ النص الذي يورده ، وإن كان متأكداً من المعنى تماماً لكن لأمانته العلمية ونزاهته آلى على نفسه إلا أن يبين أن ما يقوله عن غيره ليس نصاً ، ونذكر بعض الأمثلة لهذه العبارات مع الإشارة إلى مصادر ورودها : ذكر حكاية حادثة فقال : « أو كما قال فإن عهدي بالحكاية من زمان » (٣) .

---

(١) انظر رسالة موقف ابن تيمية من الأشاعرة /٣٥٢ .
(٢) الفتاوى ٣٦٤/١٧ ، التفسير الكبير ٤٣٩/٧ وانظر رسالة موقف ابن تيمية من الأشاعرة /٣٤٧ .
(٣) الدرء ٤٣٢/٧ .

وذكر قولاً حكاه ثقة عن الآمدي ثم قال :« أو كلاماً هذا معناه » [1] .ولما ذكر قول ابن عربي في ثنائه علي طريقة الآمدي قال: « أو ما هو نحو هذا » [2] . وفي عبارة مماثلة يقول :« أو كلاماً من هذا » [3] .

وذكر أن مسائل الخلاف قد جردت بعد المائة الثالثة ، وأن الذي جردها أبوبكر الصيرفي ثم قال: « فيما يغلب على ظني » [4] .

وإذا كان في النص الذي ينقله بألفاظه أخطاء فإنه لا يعدل في النص وإنما بعد انتهائه من إثبات النص يعدل ما يراه من أخطاء وينبه على الأغلاط الموجودة تنبيهاً خارجاً عن إطار لفظ النص .

وكتب الشيخ التي حققت قد أبانت دقته في نقل ألفاظ العلماء والطوائف مثل كتاب درء تعارض العقل مع النقل ، منهاج السنة ، بغية المرتاد ، اقتضاء الصراط المستقيم .

وكان رحمه الله يتعقب ما ينقله الكاتبون في المقالات من أجل معرفة صحة نسبتهم ، فوجد أنهم غير دقيقين في هذه النسبة، يقول رحمه الله :« ... وقد رأيت كثيراً من كتب أهل المقالات التي ينقلون فيها مذاهب الناس ، ورأيت أقوال أولئك ، فرأيت فيها اختلافاً كثيراً » [5] . فهو يتعقب الآخرين على إنتاجهم ويتأكد مما في الكتب التي قد يَرْجع إليها أو يقرأها لا يعول على ما يقولون بل لا بد من التثبت لأن نسبة القول إلى عالم هي شهادة عليه ، والشهادة لا بد أن تكون على أمر واضح معلوم للشاهد .

٣ – يرجع للنص الذي ينقله عن العالم لأكثر من كتاب من كتبه ، وإذا كان في أحدها إضافة أو نقص عن الآخر فإنه يبينه ، وإذا كان يعلم أن من نقل عنه من العلماء له كتاب آخر تكلم فيه بنفس الموضوع ، فإنه يشير إليه إذا لم يكن عنده الكتاب ليتحقق ويتثبت مما فيه .

فمثلاً : نجده ينقل عن أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم من كتابه « الإبانة » كلاماً في الصفات ثم يقول :« وقال في « كتاب التمهيد » كلاماً أكثر من هذا – لكن ليست النسخة حاضرة عندي ... » [6] .

(١) الدرء ٣/٢٦٢ .
(٢) السابق /٢٦٣ ، وانظر الفتاوى ١١/٧ ، وانظر الدرء ١/٢٤٩ .
(٣) الاستقامة ١/١٦٧ .
(٤) الاستقامة ١/٦٢ ، وانظر ٢/١٩٠ .
(٥) منهاج السنة ٦/٣٠٣.
(٦) الفتاوى ٥/٩٨ ، ٩٩ ، وانظر رسالة موقف ابن تيمية من الأشاعرة /٣٥٣ .

٤ - ويهتم ابن تيمية كثيراً بذكر المصادر التي يرجع إليها ،أحياناً يذكر اسم الكتاب الذي نقل منه ، وأحياناً يذكر اسم الكاتب ، وأحياناً يعرف بالكتاب والكاتب .

وبكل ما تقدم فإننا نجد ابن تيمية قد أسس منهج التوثيق والتدقيق والضبط العلمي والأمانه فيما يكتب وينقل وهكذا سائر علماء السلف الصالح فإنهم على هذا النهج الرصين ، وليس هذا منهجاً جديداً ابتكره المتأخرون ، اللهم إلا أن يكون لهم ميزة في بعض الجوانب في هذا المجال كان دورهم دور الترتيب والتبويب .

وخصوم شيخ الإسلام لا يلتزمون بالنزاهة في الاستدلال ولا التثبت في نسبة الأقوال ،كل ما ذكرناه فيما سبق فإنه لا يوجد أحد من مخالفئ السلف إلا وهو واقع في سلبياته متجنب لإيجابياته أو في بعضها ، فهم منطبق عليهم ما ذمه الله من تحريف الكلم من بعد مواضعه ،وتحريف الكلم يشمل عدداً من الأمور ذكرها ابن تيمية رحمه الله (١) . ومن تجرأ على تحريف كلام الله ورسوله فهو على غيره من سائر الكلام أجرأ، ويصل الأمر إلى أنهم ينسبون كلاماً إلى أشخاص أو طوائف وأصحابها حاضرون، وذلك كما في مناظرة ابن تيمية مع ابن المرحل « قال الصدر بن المرحل : فإن أصحابك قد خالفوا الحسن البصري في تسمية الفاسق كافر النعمة ، كما خالفوا الخوارج في جعله كافراً بالله ، قال الشيخ تقي الدين : أصحابي لم يخالفوا الحسن في هذا فمن تنقل من أصحابي هذا ؟ بل يجوز عندهم أن يسمى الفاسق كافر النعمة حيث أطلقته الشريعة .

قال ابن المرحل :إني أنا ظننت أن أصحابك قالوا هذا » (٢) .بمجرد ظنه نسب قولاً إلى طائفة من المسلمين وصدق الله : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ . وهؤلاء الكلابية في مسألة من مسائل العقيدة يتمسكون بشبه منها قول نصراني خمار ،ومع ذلك حرفوا فيه فقد أورد ابن تيمية عن الكلابية في مسألة القرآن من ضمن الرسالة التي أرسلها الحافظ أبو نصر السجزي إلى أهل زبيد في الواجب من القول في القرآن : « ... ثم خرجوا من هذا إلى أن إثبات الحرف والصوت في كلام الله تجسيم ، وإثبات اللغة فيه تشبيه ، وتعلقوا بشبه منها قول الأخطل :

إن البيان من الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا .

فغيروا وقالوا :« إن الكلام من الفؤاد » (٣) ، وذكر ما نقل عن أبي بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة أنه قال :«من نظر في كتبي المصنفه في العلم ظهر له وبان بأن

---

(١) انظر الدرء ٧٧/١ . (٢) الفتاوى ١٣٨/١١ . (٣) الدرء ٨٥/٢ ، وانظر ص ٨٣ - ٨٤ .

الكلابية – لعنهم الله – كذبة فيما يحكون عني مما هو خلاف أصلي وديانتي ... الخ » [1] .

وقال رحمه الله حين كلامه عن الاستواء على العرش والنزول : « وقد صنف أبو القاسم عبدالرحمن بن مندة [2] في ذلك مصنفاً ، وزيف قول من قال : ينزل ولا يخلو منه العرش ، وضعف ما قيل في ذلك : عن أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدد ، وطعن في هذه الرسالة وقال : إنها مكذوبة على أحمد وتكلم على راويها « البردعي أحمد بن محمد » وقال إنه مجهول لا يعرف في أصحاب أحمد » [3] .

وفي منهاج السنة عند مناقشته لمنهاج الندامة ـ كما يحلو له أن يسميه وهو كما سماه ـ قال : « الحديث الذي ذكره وقوله اسمه كاسمي وكنيته كنيتي ، ولم يقل يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي لم يروه أحد من أهل الخبرة بالحديث في كتب الحديث المعروفة بهذا اللفظ ، فهذا الرافضي لم يذكر الحديث بلفظه المعروف في كتب الحديث مثل : مسند أحمد وسنن أبي داود ، والترمذي ، وغير ذلك من الكتب ، وإنما ذكره بلفظ مكذوب لم يذكره أحد منهم » [4] [5] .

وأحياناً يتفقون على قبول قول يتضمن القدح فيمن يعظمونه ولا يعلمون ذلك لأن هذا القول وافق هواهم ، ولأنهم لا يتثبتون مما يقولون ويقبلون فوقعوا في شباك صيدهم ، وارتدت عليهم سهامهم فأصابت نحورهم [6] [7] .

والداهية الدهياء أن يكذب ويحرف ويزور قاض من القضاة على شيخ الإسلام في مسألة شدّ الرحال لزيارة القبور لما وجدوا فتوى في هذا الشأن ، ذكر ذلك ابن كثير في

---

(١) الاستقامة ١/١٠٩ .

(٢) هو : عبدالرحمن بن أبي عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة العبدي الأصبهاني ، ولد سنة ٣٨١هـ ، كان صاحب خلق وفتوة وسخاء .. وكان سيفاً على أهل البدع آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.. توفي سنة ٤٠٧هـ . انظر تذكرة الحفاظ ٣/١١٦٥ ، سير أعلام النبلاء ١٨/٣٤٩ .

(٣) الفتاوى ٥/١٣١ ، ١٣٢ ، وانظر ص٣٧٢ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٣٠ وأبو داود في سننه ٤/٤٧٢ رقم ٤٢٨٢ كتاب المهدي ، والترمذي في سننه ٤/٥٠٥ رقم ٢٢٣٠ كتاب الفتن ، باب ما جاء في المهدي عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٥) منهاج السنة غير المحقق ٢/١٦٦ .

(٦) انظر الدرء ٧/٩١ .

(٧) وللمزيد في الموضوع يراجع ما يلي : منهاج السنة غير المحقق ٣/٢٠٨ . الرد على الأخنائي ١٣/ . نقض أساس التقديس ١٢/٣٤٤ . الفتاوى ٦/٣٧٥ ، ٣٥/١٠٩ ، ٩/١٤٠ . التفسير الكبير ٧/٤٠٢، ٤٣٧ . منهاج السنة ٦/١٧١ ، ١٧٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

سنة ٧٢٦هـ في الحادي عشر من ذي القعدة يوم الخميس ،دخل القاضي جمال الدين ابن جملة (١) وناصر الدين مشدّ الأوقاف ، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة ، فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق : قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال : وإنما المخزي جعله زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعاً بها » . فانظر إلى هذا التحريف على شيخ الإسلام ، فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور ، وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى » (٢) .الأولى مستحبة والثانية محرمة .

ضاق خصوم ابن تيمية ذرعاً به لكثرة نفوذه وتمكنه وحاولوا الطعن فيه فلم يجدوا مجالاً لذلك لزهده وعدم إقباله على الدنيا ، وترك المزاحمة على المناصب ، وكثرة علمه وجودة أجوبته وفتاويه فعمدوا إلى الكلام في العقيدة لكونهم يرجحون مذهب المتكلمين في الصفات والقرآن على مذهب السلف ، ويعتقدونه الصواب ، فأخذوا الجواب الذي كتبه ، وعملوا عليه أوراقاً في ردّه ، ثم سعوا السعي الشديد إلى القضاة والفقهاء واحداً واحداً ، وأوغروا خواطرهم ، وحرفوا الكلام ، وكذبوا الكذب الفاحش ، وجعلوه يقول بالتجسيم – حاشاه ذلك – وأنه قد أوعز ذلك المذهب إلى أصحابه ، وأن العوام قد فسدت عقائدهم بذلك ، ولم يقع من ذلك شيء ، والعياذ بالله ... وكان سعيهم في حقه أتمّ السعي ، لم يبقوا مكاناً من الاجتماع بمن يرتجون منه أو فيه نصر لهم ، وتكلموا في حقه بأنواع الأذى وبأمور يستحي الإنسان من الله سبحانه أن يحكيها ، فضلاً عن أن يختلقها ويلفقها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله » (٣) .

تاسعاً : الرد على المتأخرين بأقوال شيوخهم وردود بعضهم على بعض :

مما يكسر به ابن تيمية شوكة الخصم ويهيض جناحه ويحشره في زاوية ضيقة أن يقول له : من أين أتيت بهذا القول لا هو من الكتاب ولا من السنة ولا من أقوال

---

(١) هو : يوسف بن إبراهيم بن جملة القاضي ، كان حنبلياً ، وتحول شافعياً ، ولد بدمشق سنة ٦٨٢هـ ، وولي قضاء دمشق سنة ٧٣٣هـ وعزل عنه سنة ٧٣٤هـ وسجن إلى سنة ٧٣٦هـ ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٨هـ . انظر الأعلام ٢١٢/٨ .

(٢) البداية والنهاية ١٠٨/١٤ .

(٣) العقود الدرية /١٩٩ – ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

السلف ولا حتى من أقوال شيوخك بل هو مخالف لهم .

ولا شك أن هذا محاصرة للخصم من جميع الجوانب والجهات ، وهذا من منهج شيخ الإسلام إذا أراد أن يرد على مقالة الخصم ويناظره فإنه « لا يكتفي بالرد عليها ونقضها مباشرة ، وإنما يأتي بالردود من وجوه عديدة ، فينظر إلى كتب صاحب المقالة ، أو شيوخه ، أو شيوخ المذهب عموماً ويستخلص منها ما يرد به على صاحب المقالة ، ويبين عدم ثقته هو أو ثقة شيوخه بهذا الكلام الذي يقوله في المقالة أو الكتاب المردود عليه » (١) .

ويذكر لنا أسباب نقله عن شيوخ ورؤساء الطوائف وكتبهم وهي أربعة أسباب :

١ – ليعلم أن أئمة الطوائف معترفون بفساد هذه القضايا التي يدعي إخوانهم أنها قطعية مع مخالفتها للشريعة .

٢ – ولأن النفوس إذا علمت أن ذلك القول قاله من هو من أئمة – المخالفين – استأنست بذلك واطمأنت به ورضيت لأن « ... كثيراً من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين ومحسناً للظن بهم دون غيرهم ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم ، فلو أتي بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم » (٢) .

٣ – ولأن ذلك يبين أن تلك المسألة فيها نزاع بين تلك الطائفة وليست من المسائل المتفق عليها فيما بينهم .

٤ – تنحل عقد الإصرار والتصميم على التقليد ، فإن عامة الطوائف – وإن ادعوا العقليات – فجمهورهم مقلدون لرؤوسهم فإذا رأوا الرؤوس قد تنازعوا واعترفوا بالحق انحلت عقدة الإصرار على تقليدهم(٣) .

وإذا تتبعنا طوائف الفلاسفة والمتكلمين وأهل التصوف وكل من خالف منهج القرآن والسنة وجدنا أن شيوخهم يغلّط بعضهم بعضا وينقض بعضهم حجج بعض ، ثم ابن تيمية يبدأ من حيث انتهوا فيغلط آخر الشيوخ ، وفي تغليطه وإفساد حججه تغليط لأصحابه وأتباعه الذين يقتدون به .

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/٧٥٨ ، وانظر الدرء ١/٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) الدرء ١/٣٧٦ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم /٨ .

(٣) انظر الدرء ١/٣٧٦ – ٣٧٧ ، وانظر رسالة موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/٧٥٩ .

فإذا انهدم أساس البناء سقط البناء كله فلسنا بحاجة إلى أن نسقطه من فروعه ففي ذلك عناء ، ولذا فإن ابن تيمية يهدم آراء وحجج الشيوخ الكبار المبتدعين أصحاب التأسيس فإذا بان زيفها وانحرافها فقد كفي الرد على آحاد المقلدين لهم . ولنتابع هذا النص الذي فيه سلسلة تغليطات المتأخرين للسابقين من الفلاسفة ثم آخرهم يغلطه ابن تيمية .

ذكر أن العلوم الرياضية كانت مبدأ فلسفتهم التي وضعها « فيثاغورس »، وكانوا يظنون أن الأعداد المجردة موجودة خارجة عن الذهن .

ثم تبين لأفلاطون وأصحابه غلط ذلك ، وظنوا أن الماهيات المجردة ... موجودات خارج الذهن ، وأنها أزلية أبدية .

ثم تبين لأرسطو وأصحابه غلط ذلك ، فقالوا : بل هذه الماهيات المطلقة موجودة في الخارج مقارنة لوجود الأشخاص ، ومشى من مشى من أتباع أرسطو من المتأخرين على هذا وهو أيضاً غلط ، فإن ما في الخارج ليس بكلي أصلاً ، وليس في الخارج إلا ما هو معين مخصوص .

وقد ذكرت كلام أرسطو نفسه الذي ذكره في « علم ما بعد الطبيعة » في « مقالة اللام » وهو آخر منتهى فلسفته وبينت بعض ما فيه من الجهل ... » [1] .

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن انتصاب كل طائفة معارضة للشارع بعقلياتها لطائفة أخرى مثلها تقدح في أصولها وفروعها نصر للدين من رب العالمين ونصر للمؤمنين ، ومن دفع الناس بعضهم ببعض لدرء الفساد عن الأرض .

فكل طائفة من هؤلاء تحارب الأخرى بسلاح من جنس سلاحها وعن خبرة وإتقان ودراية به ، والمؤمن يترقب للطائفة المهزومة يأتيها من الناحية الأخرى فيهدم حصونها ، ولا أحب أن أحرم القارىء الكريم من متعة قراءة تلك المعاني العظيمة من كلام ابن تيمية المبارك .

يقول رحمه الله تعالى :« وقد تبين لك أن الطوائف التي في كلامها ما يعارضون به كلام الشارع من العقليات ، سواء عارضوا به في الظاهر والباطن ، وكل منهم يقول جمهور العقلاء : إن عقلياته تلك باطلة ويبينون فساد عقلياته بالعقليات الصحيحة الصريحة التي لا يمكن ردها .

---

(١) الفتاوى ٩/١٢٧ ، ١٣٤ .

وهذا مما ينصر الله به رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، فإن الله تعالى إذا أقام لكل طائفة تعارض الرسول من جنسها من يبين فساد قولها المعارض له ، ويكشف جهلها وتناقضها ، كان بمنزلة أن يقيم لكل طائفة تريد محاربته من جنسها من يحاربها بالسلاح ، ثم المؤمن المجاهد يمكنه جهاد هؤلاء ، كما يمكنه جهاد هؤلاء . ويمكنه أن يستعين بما فعلته كل طائفة بالأخرى ، فإن أغارت طائفة على الأخرى وهزمتها أتاها من الناحية الأخرى ففتح بلادها ، وإن كان هو لم يستعن بأولئك ابتداءً لكن الله يسر بما فيه الهدى والنصر لعباده المؤمنين ، وكفى بربك نصيرا » (١).

ولا شك أن هذا من دفع الناس بعضهم ببعض الذي بوجوده يتحقق كثير من المصالح ، ومن أمثلة ما أورده ابن تيمية في اختلاف آراء المتأخرين عن شيوخهم المتقدمين ما يلي :

قال ابن تيمية بعد أن ذكر تفسيرات الباطنية المخالفة للظاهر لبعض آيات القرآن الكريم :« وقد وقع في هذا الباب في كلام كثير من متأخري الصوفية ما لم يوجد مثله عن أئمتهم ومتقدميهم – كما وقع في كلام كثير من متأخري أهل الكلام والنظر من ذلك ما لا يوجد عن أئمتهم ومتقدميهم .

وهؤلاء المتأخرون – مع ضلالهم وجهلهم – يدّعون أنهم أعلم وأعرف من سلف الأمة ومتقدميها ... وهم يدّعون مع ذلك أن الشيوخ المتقدمين كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبدالله التستري ، وإبراهيم الخواصي، وغيرهم ماتوا وما عرفوا التوحيد» (٢).

وقال رحمه الله عن الشيعة في مسألة التفضيل وأن المتقدمين منهم لا يفضلون أحداً على أبي بكر وعمر ومعلوم أن المتأخرين منهم أغلبهم يكفّرهما ويلعنهما (٣) .

وقال عن بعض الطوائف في مسألة الرؤية « قوله تعالى » : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾... فالجهمية والمعتزلة والخوارج وطائفة من غير الإمامية تنكرها .

والإمامية لهم فيها قولان: فجمهور قدمائهم يثبت الرؤية، وجمهور متأخريهم ينفونها » (٤) .

ويقول رحمه الله عن المتكلمين القدماء إنهم لم يكونوا يرضون أن يتكلموا في

---

(١) الدرء ٣١٧/١٠ ، وانظر الفتاوى ٣١٤/١٢ .
(٢) التفسير الكبير ٥٠/٢ ، ٥١ ، ٥٢ .
(٣) انظر منهاج السنة النبوي ١٣٦/٦ .
(٤) التفسير الكبير ٢٤٠/٤ .

الحدود كما يفعله المنطقيون وعلى طريقتهم ، بينما متأخرو المتكلمين فيهم خاضوا فيها على طريقة هؤلاء ظانين أن ذلك من التحقيق وإنما هو زيغ عن سواء الطريق (١) .

ويقول عن الفلسفة واختلاف المتأخرين عن المتقدمين فيها :« فإن الفلسفة التي كانت قبل أرسطو وتلقاها من قَبْلَه بالقبول طعن أرسطو في كثير منها وبيّن خطأهم ، وابن سينا وأتباعه خالفوا القدماء في طائفة من أقاويلهم وبينوا خطأهم وردّ الفلاسفة بعضهم على بعض أكثر من ردّ كل طائفة بعضهم على بعض ، وأبو البركات وأمثاله قد ردّوا على أرسطو ما شاء الله » (٢) .

ويقول عن متأخري الأشاعرة واختلافهم عن إمامهم أبي الحسن الأشعري :« فعلم بطلان قول القائل : إن تقديم النقل على العقل يوجب القدح فيه القدح في أصله ، حيث تبين أن ذلك ليس قدحاً في أصله .

وهذا الكلام في الأصل هو من قول الجهمية المعتزلة وأمثالهم وليس من قول الأشعري وأئمة أصحابه ، وإنما تلقاه عن المعتزلة متأخرو الأشعرية لما مالوا إلى نوع التجهم ، بل الفلسفة .. وهؤلاء خالفوه وخالفوا أئمة أصحابه في هذا وهذا ... » (٣) .

ومن أمثلة ردود بعضهم على بعض إضافة إلي بعض ما تقدم الإشارة إليه قوله : «ومما يعتبر به أن النساك وأهل العبادة والإرادة توسّعوا في السمع والبصر ، وتوسّع العلماء وأهل الكلام والنظر في الكلام والنظر بالقلب ، حتى صار لهؤلاء : الكلام المحدث ، ولهؤلاء : السماع المحدث : هؤلاء في الحروف ، وهؤلاء في الصوت . وتجد أهل السماع كثيري الإنكار على أهل الكلام ، كما صنف الشيخ أبوعبدالرحمن السلمي مصنفاً في ذم الكلام وأهله ، وهما من أئمة أهل السماع ، ونجد أهل العلم والكلام مبالغين في ذم أهل السماع ، كما نجده في كلام أبي بكر بن فورك ، وكلام المتكلمين في ذم السماع وأهله والصوفية ما لا يحصى كثرة ، وذلك أن هؤلاء فيهم انحراف يشبه انحراف اليهود أهل العلم والكلام .

وهؤلاء فيهم انحراف يشبه انحراف النصارى أهل العبادة والإرادة . والصواب أن يحمد من حال كل قوم ما حمده الله ورسوله ، كما جاء به الكتاب والسنة ، ويذم من حال كل قوم ما ذمه الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة » (٤) .

وبعد أن ذكر دلائل عدد من كبار المتكلمين والفلاسفة قال : « فهذا جملة ما احتج

---

(١) انظر الفتاوى ٩/٩٠ .
(٢) الفتاوى ٩/١٩٥ .
(٣) الدرء ٧/٩٧ .
(٤) الاستقامة ١/٢٢٠ .

به هؤلاء – الذين هم فحول النظر وأئمة الكلام والفلسفة في هذه المسائل ، وقد تبين بكلام بعضهم في بعض وإفساد هذه الدلائل » (١) .

ويقول رحمه الله :« وهذا موجود في كلام عامة هؤلاء الذين في كلامهم سنة وبدعة ، ولا ريب أنهم يردون على الفلاسفة وغيرهم أموراً ، ولكن الفلاسفة ترد عليهم أموراً ، وهم ينتصرون في غالب الأمر بالحجة العقلية على الفلاسفة أكثر مما تنتصر الفلاسفة بالحجة العقلية عليهم ... » (٢) .

ويذكر أن كلاً من الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات والأفعال ، وأيضاً نفاة الأفعال القائمة به دون الصفات ، والفلاسفة القائلون بقدم العالم نفاة الصفات ، تطعن في طريقة الأخرى وتبين فسادها (٣) ، والأشاعرة ممثلين بإمامهم أبي الحسن الأشعري ردوا على المعتزلة وبينوا فسادهم ما لم يبينه غيرهم (٤) .

ويقول في ردود الفلاسفة والمتكلمين على بعض : « والمقصود هنا أن نبين أن فحول النظار بينوا فساد طرق من نفى الصفات أو العلو بناءً على نفي التجسيم ، وكذلك فحول الفلاسفة – كابن سينا ، وأبي البركات ، وابن رشد ، وغيرهم – بيّنوا فساد طرق أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشعرية – التي نَفَوا بها التجسيم ، حتى أن ابن رشد في « تهافت التهافت » بيّن فساد ما اعتمد عليه هؤلاء ، كما بين أبو حامد في « التهافت » فساد مااعتمد عليه الفلاسفة ، والمقصود هنا أن جميع ما احتج به النفاة قدح فيه بعض النفاة قدحاً يبيّن بطلانه ، كما بيّن غير واحد فساد طرق الفلاسفة » (٥) .

والشواهد كثيرة وما ذكرناه فيه دلالة على المقصود. ونختم هذا الموضوع بنصوص لشيخ الإسلام تنص على ثمرة معرفة ردود بعض الطوائف والأفراد على بعض :

تكلم رحمه الله عن ذم السلف لأهل الكلام ثم قال : « ومع هذا فيستفاد من كلامهم نقض بعضهم على بعض وبيان فساد قوله ، فإن المختلفين كل كلامهم فيه شيء من الباطل ، وكل طائفة تقصد بيان بطلان قول الأخرى ، فيبقى الإنسان عنده دلائل كثيرة تدل على فساد قول كل طائفة من الطوائف المختلفين في الكتاب (٦) .

كما أنه يفيد أن هذه الردود مفيدة ولو لم يعرف بعضهم فساد مقالة بعض ، لأن

---

(١) الدرء ٣/٤٥٣ .
(٢) الدرء ١/٣٧٦ .
(٣) انظر الدرء ٧/١٤٣ .
(٤) انظر منهاج السنة ٥/٢٧٧ .
(٥) الدرء ٤/٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
(٦) منهاج السنة ٥/٢٧٦ .

كل طائفة لها أتباع ومؤيدون فكونهم يعرفون هذه الردود على طائفتهم ويعرفون الفساد فيها فيكون هذا نهيا عن المنكر الذي في الطائفة ، وكذلك يعرف ما في الطائفة الأخرى من المنكر فيتقي ما بها من شر وباطل .

فإن كان ممن بيّن الله له الهدى : إما بكونه قولاً ثالثاً أو قولاً من هذا وهذا فالتزمه كان نعمة من الله عليه (١) .وإن لم يتبين له الحق « كان امتناعه من موافقة هؤلاء على ضلالهم نعمة في حقه ، واعتصم بما عرفه من الكتاب والسنة مجملاً ، وأمسك عن الكلام في تلك المسألة ، وكانت من جملة ما لم يعرفه ، فإن الإنسان لا يعرف الحق في كل ما تكلم الناس به ... وكثير من الناس يحكي الخلاف في أنواع العلوم ولا يعرف الحق » (٢).

ثم لا ينسى أن ينبه كعادته على الذين قد تأخذهم الحماسة فيندفعوا لمعرفة ردود هؤلاء عل بعض وشبهاتهم ، فيورد لنا أنْ هذه الردود المدونة في كتبهم لا يطلع عليها كل أحد ، لأنها رد باطل بباطل آخر ، وهي شبهات معقدة ، من لا يدركها قد لا تخرج منه لعدم فهمه للرد عليها ، وإنما الذي يحتاج إليها هم : -

١ - من خطرت بباله وقلبه الشبهة فاحتاج إلى نقضها وردها لإخراجها من قلبه .

٢ - إذا خاطبه أحد بشبهة من هذه الشبهات فيحتاج إلى الاطلاع عليها لمناقشته والرد عليه .

٣ - إذا طالع كتاباً فيه هذه الشبهات أو احتاج إلى مطالعته فأراد أن يقرأ الردود عليها .

٤ - أن هذه الكتب التي فيها ردود بعضهم على بعض لا ينتفع بها من لا يفهم الرد « بل قد يستضر به من عرف الشبهة ولم يعرف فسادها » (٣).

ومع أن ابن تيمية يذكر أنهم يردون على بعضهم باطلاً بباطل وكلا القولين باطل، إلا أننا نجده يحسن الظن بأولئك المتحمسين لما عندهم ضد غيرهم فيقول :« وكثير منهم - أو أكثرهم - لا يعرف أن الذي يقوله باطل » (٤) . ويظهر لك هذا إذا طالعت موضوع حيرتهم وشكهم ورجوعهم عما هم عليه من الضلال وكلمات الحسرة والتألم على الماضي ، ويكفيك أن تتأمل قول بعضهم : « وأرواحنا في وحشة من جسومنا »، ولكنه يقول :« وبكل حال فهم يذكرون من عيوب باطل غيرهم وذمه ما قد ينتفع به» -

---

(١) انظر منهاج السنة ٢٨١/٥ ، ٢٨٢ .

(٢) منهاج السنة ٢٨٢/٥ .

(٣) انظر منهاج السنة ٢٨٣/٥ .

(٤) منهاج السنة ٢٨٣/٥ .

ثم ضرب مثالاً لهذا « تنازعهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد: فالخوارج والمعتزلة يقولون : صاحب الكبائر الذي لم يتب منها مخلد في النار ، ليس معه شيء من الإيمان ، ثم الخوارج تقول : هو كافر والمعتزلة توافقهم على الحكم لا على الاسم . والمرجئة تقول : هو مؤمن تام الإيمان لا نقص في إيمانه بل إيمانه كإيمان الأنبياء والأولياء... فيحتج أولئك بنصوص الوعيد وعمومها ، ويعارضهم هؤلاء بنصوص الوعد وعمومها » (١) ثم ساق الأدلة .

عاشراً : الرد على الخصم بحجته ودليله أو ما يماثله :

هذا أخص من السابق حيث أن هذا دخول عليه في عقر داره ، ورمي له بنفس سلاحه الذي يرمي به غيره ، وهذا عائد إلى حقيقة مهمة وهي أن الدليل الصحيح عقلياً أو نقلياً لا يدل إلا على الحق ، فإذا كانوا مخالفين للحق موافقين للباطل فأين هم والأدلة الصحيحة ؟

ومنهج ابن تيمية في مسألة أدلة الخصم التي يستدل بها على أقواله يسلك معه فيها مسلكين :

الأول : يثبت لخصمه أن أدلته النقلية والعقلية لا تدل على مقصوده ومراده فلا تصلح أن يستدل بها .

الثاني : يثبت له أن هذه الأدلة دلالتها على نقيض قصده أولى وأظهر منها على قصده ، بل هي تخالف ما أراد وجاءت هذه الخطوه مع الخصم بعد استقصاء وتدبر لعموم أدلة الخصوم ، يقول رحمه الله : « وقد كنت قديماً ذكرت في بعض كلامي أني تدبرت عامة ما يحتج به النفاة من النصوص ، فوجدتها على نقيض قولهم أدل منها على قولهم كاحتجاجهم على نفي الرؤية بقوله تعالى : ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (٢) .

فبينت أن الإدراك هو الإحاطة لا الرؤية ، وأن هذه الآية تدل على إثبات الرؤية أعظم من دلالتها على نفيها ... ثم تبيّن لي بعد ذلك مع هذا أن المعقولات في هذا كالسمعيات ، وأن عامة ما يحتج به النفاة من المعقولات هي أيضاً على نقيض قولهم أدل منها على قولهم ، كما يستدلون به على نفي الصفات ، ونفي الأفعال ، وكما يستدل به الفلاسفة على قدم العالم ، ونحو ذلك والمقصود هنا التنبيه » (٣) .

---

(١) منهاج السنة ٢٨٤/٥ . (٢) سورة الأنعام آية (١٠٣) . (٣) الدرء ٣٧٤/١ .

ونورد بعض النصوص لابن تيمية يذكر فيها مناظرات يستعمل الخصم حجة خصمه أو يسير في معارضته على نفس منهجه، قال رحمه الله تعالى : « ... ثم إنهم جعلوا عمدتهم في تنزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم ،ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شيء من النقائص ألبتة فإنه ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام إلا يقال له فيما أثبته نظير ما يقوله هو في نفس تلك الصفة .

فإن كان مثبتاً لبعض الصفات قيل له : القول في هذه الصفة التي تنفيها كالقول فيما أثبته ، فإن كان هذا تجسيماً وقولاً باطلاً فهذا كذلك ، وإن قلت : أنا أثبت هذا على الوجه الذي يليق بالرب ، قيل له : وكذلك هذا ، وإن قلت : أنا أثبته وأنفي التجسيم قيل وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين .

وإن كان ممن يثبت الأسماء وينفي الصفات كالمعتزلة قيل له في الصفات ما يقوله هو في الأسماء ، فإذا كان يثبت حياً عالماً قادراً ، وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسماً كان إثبات أن له علماً وقدرة كما نطق به الكتاب والسنة كذلك .

وإن كان ممن لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة قيل له : فلا بد أن تثبت موجوداً قائماً بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً ، وإن قال : لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفي ، قيل له : سكوتك لا ينفي الحقائق ، ولا واسطة بين النفي والإثبات ، فإما أن يكون حقاً موجوداً وإما أن يكون باطلاً معدوماً ... » (١) .

ويقول رحمه الله : الحجج العقلية التي يحتج بها أهل الضلال ، يحتج بها على نقيض مطلوبهم ، كما أن الحجج السمعية التي يحتجون بها حالها كذلك (٢) (٣).

الحادي عشر : يثير قضايا يتوقع أنها مشكلة ويجيب عليها :

ناقش ابن تيمية عدداً من العلماء السابقين له من خلال مؤلفاتهم التي بين يديه ، وناقش الطوائف والفرق من خلال أفكارها المدونة في كتب مؤسسيها وقادتها الفكريين.

في هذه الحال المناظر غائب بشخصه حاضر بفكره ، فابن تيمية يقوم بتقمص شخصية العالم المناظر ويقوم بدوره كما لو كان حاضراً . فأحياناً يرى أن المؤلف المناظر

---

(١) التفسير الكبير ٢٧٥/١ ، وانظر التفسير الكبير ١٢١/٢ – ١٢٥ ، وانظر الدرء ١٢٧/١ – ١٢٩ .

(٢) انظر الدرء ٦٩/٤ .

(٣) للمزيد يراجع : التدمرية /٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ . منهاج السنة النبوية ١٨٤/٦ ، ٢٦٦/٧ – ٢٦٧ ، ١٤ ، ١٥. الدرء ١٣/٣ ، ٥١/٤ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٤ . الاستقامة ٥٠/١ .

لو كان حاضراً لاعترض وأثار إشكالاً ، فإن ابن تيمية يثير هذا الإشكال ويجيب عليه ، أو يتوقع أن القارئ أو المستمع سوف يقوم في ذهنه هذا الافتراض أو الاشكال وأنه يحتاج إلى من يناقشه ، فيقوم بإثارته ومناقشته .

وقد يرى أهمية إثارة هذا الاعتراض أو الافتراض في إيضاح المسألة ، وأن وجوده يخدم المناظرة ، فيثيره ويجيب عليه . ويساعده على ذلك سعة علمه ومعرفته بفكر الخصم أو الطائفة حتى أنه أحياناً يثير افتراضاً أو اعتراضاً لا يخطر ببال من يناظرهم أو أتباعهم .

ونورد بعض الأمثلة لهذا وهي كثيرة جدا منها :

ادعى الرازي تعارض العقل مع النقل وقال بتقديم العقل على النقل عند التعارض لأنه هو الأساس الذى يعلم به الشرع ، وناقشه ابن تيمية رحمه الله في كتاب درء التعارض ، والرازي غير موجود بشخصه ، فنلاحظ أن ابن تيمية يضع نفسه في مقامه ويجيب عنه ويعترض بما يعلم من خلال ما كتبه المناظَر .

قال رحمه الله في هذه المناظرة :« فيقال له : أتعني بالعقل هنا الغريزة التي فينا أم العلوم التي استفدناها بتلك الغريزة ؟ أما الأول فلم ترده ، ويمتنع أن تريده ، لأن تلك الغريزة ليست علماً يتصور أن يعارض النقل ، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة ، وما كان شرطاً في الشيء امتنع أن يكون منافياً له ، فالحياة والغريزة شرط في كل العلوم سمعيّها وعقليها ، فامتنع أن تكون منافية لها ، وهي أيضاً شرط في الاعتقاد الحاصل بالاستدلال ، وإن لم تكن علماً فيمتنع أن تكون منافية له ومعارضة له .

وإن أردت بالعقل الذي هو دليل السمع وأصله : المعرفة الحاصلة بالعقل ، فيقال لك: من المعلوم أنه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلاً للسمع ودليلاً على صحته ، فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصر ، والعلم بصحة السمع غايته يتوقف على ما به يعلم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم » (١) .

وفي مناقشته حول التأويل في أسماء الله وصفاته قال : « فإذا قالوا : ما حقيقة علمه وقدرته ، وسمعه وبصره ؟ قيل : هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله ، فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (٢) .

---

(١) الدرء ١/٨٩ .

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري كتاب الوضوء ، باب وضع الماء عند الخلاء ، فتح الباري ١/٢٤٤. ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن عباس ١٩٢٧/٤.

قيل : أما تـأويل الأمر والنهي فذاك يـعلمه ، واللام هنـا للتأويل المعهـود ، لم يقل : تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله » (١) (٢).

الثانـي عشر : النظـر في قانون الخصـم ودليله لـبيان فساده ومـا يترتب علـيه من اللوازم الفاسدة :

اعتمد الفلاسفة والمتكلمون على قوانين عقلية أو ظنوها كذلك لإثبات وجود الخالق أو صفاتـه ، وهذه القوانين الـتي لم ترد في الـكتاب والسنة نـاقشهـم بهـا ابن تيميـة وبيّن مضمون كل قانون ، وفساده وتناقضه واللوازم الباطلة التي تلزم من قال به .

وكان ابن تـيمية فـي هذه المناقـشات يفاضِـل بين هذه القـوانين ،وأن بعضـها أقرب للمـعقول من بعض ، وإن كـانت كلها باطـلة ،أما لماذا يهـدم قانونهم ؟ فلأنـه هو أساس بنائـهم فإذا ثبـت فساد القانـون فسد كل مـا أصلوه وفرعـوه عليه فبـفساد الأصل يـفسد الفرع (٣) .

من ذلك أنـه : يذكر عن الفـلاسفة أنهم مـعترفون بـفساد قوانيـنهم وأصولهـم التي خالفوا بـها النصوص ، ولفـسادها تناقضوا ، ومـن تناقضهم أنـهم إذا تكلموا فـي المنطق خالفوا ما يتكلمون به مع أهل الكلام .

وهذا التـناقض يعلـم في العادة أنه ليـس بسبب مجـرد الاختلاف في الاجتـهاد مع وجود الفهم الكامل منهم في الموضعين ، وإنما هذا التناقض راجع إلى أمور منها :

١ – نقص كمال الفهم والتصور .

٢ – عدم الجزم بتـنافي القولين فلا يـحكم بالتناقـض خوفاً ألا يكون كذلك فـينسب إلى الجهل .

٣ – وقد لا يحكم بالتنافي والتناقض لهوى في نفسه وغرض يرونه .

وذلك مـثل : أن يراعـي ويجـامل الطـائفة الـتي يـتكلـم باصطـلاحهـا فلا يقـع في مخالفتها فيما هو من مشهورات أقوالها ، فتقع له الخصومة والجفاء معهم (٤) .

« والمقـصود هنا نـوع تنبيـه على أن مـا يَدَّعُونَه مـن العقـليات المخالـفة للنـصوص لا

---

(١) التفسير الكبير ١٣٧/٢ ، ١٣٨ .

(٢) وللمزيد انظر: الفتاوى ٢٤٢/٩ ، التفسير الكبير ٤٩٤/٧ ، الاستقامة ٣٩٥/١ .

(٣) انظر مقدمة موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول /٢٧ .

(٤) انظر الدرء ١٨٠/٤ ، ١٨١ .

حقيقة لها عند الاعتبار الصحيح ، وإنما هي من باب القعقعة بالسنان لمن يفزعه ذلك » (١).

ومن القوانين التي بيّن بطلانها ما يلي : القانون الذي وضعه الرازي والذي ينص على تقديم العقل على النقل عند التعارض ، وكان تأليف كتاب درء التعارض من أجل الرد عليه لخطورته ، بأنه قانون فاسد صدوا به الناس عن سبيل الله وعن فهم مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، وقال رحمه الله :« وإنما المقصود فساد القانون الزائغ الذي يقدمون به مذاهبهم المبتدعة على المنصوص من كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم » (٣).

وقانون الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأعراض : التي هي صفات الأجسام القائمة بها ، إما الأكوان وإما غيرها ...

فهذه طريقة مبتدعة في نظر شيخ الإسلام مذمومة في الشرع ، وقد اعترف حذاق أهل الكلام كالأشعري وغيره أنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم ولا سلف الأمة ، وأنها طريقة مخطرة محدثة في العقل . ومن اعتمد عليها في أصول دينه فيلزمه أحد أمرين :

١ – إما أن يعلم ضعفها ويقابلها بأدلة القائلين بقدم العالم فتتكافأ عنده الأدلة أو يرجح هذا تارة وهذا تارة .

٢ – وإما أن يلتزم لأجلها لوازم باطلة معلومة الفساد في الشرع والعقل ، كما التزم جهم فناء الجنة والنار (٤) .

أمثلة لقوانينهم وبيان قصورها أو فسادها :

ذكر جملة من الفلاسفة ،وأنهم اعتمدوا في إثبات وجود الله « واجب الوجود » طريقة الاستدلال بالوجود . ويذكر رحمه الله أنهم عظموا هذه الطريقة حتى قيل إنها أشرف الطرق ، وأن كل الطرق محتاجة إليها حتى ظنوا أن طريقة الحدوث مفتقرة إليها. وهذا في منظور ابن تيمية كله غلط ، وإن كان يوافقهم على أنها طريقة لا ريب في إثباتها لواجب الوجود ، لكنهم لم يستعملوها الاستعمال الصحيح فأصبحت باستعمالهم لا تحقق الغرض المنشود ؛ لأنهم يفسرون الممكن بالممكن الذي ينقسم إلى

(١) الدرء ١٨١/٤ .
(٢) انظر الدرء ٢٠/١ .
(٣) الدرء ٢٦١/٥ .
(٤) انظر موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ٥١/١ ، ٥٢ ، وانظر درء التعارض ٣٨/١ ، ٣٩ ، وانظر ابن تيمية السلفي /٦٨ .

قديم واجب بغيره وإلى محدث مسبوق بالعدم ، فهذا أصل فاسد لا يصح به إثبات واجب بنفسه ، ولا إثبات ممكن يدل على الواجب بنفسه .

« وهذه الطريقة هي في الحقيقة مأخوذة من طريقة الحدوث ، وطريقة الحدوث أكمل وأبين » وقد ذكرنا فيما تقدم رأيه في طريقة الحدوث (١) .

ويذكر إجمالاً اعتراف أكثر أئمة وكبار أهل الكلام والفلسفة من الأولين والآخرين بعقم أكثر الطرائق التي سلكوها في أمور الربوبية، وأنها لم توصلهم إلى العلم اليقيني . وكذلك ما سلكوه بها في أمور الإلهية مثل : كلامهم بالجنس والعرض والجسم والمركب لم توصلهم إلى علم يقيني أيضاً .

ومن أجل هذا فإن الذين عرفوا مقالات هؤلاء في العلوم الإلهية وعرفوا ما حصلوه اتفقوا على أنه ظنون كاذبة ، وأقيسة فاسدة ، وما فيه من العلم الحق فهو قليل (٢) .

وذكر الطرق العقلية التي جعلها المتكلمون والفلاسفة قوانين لعلومهم ومعارفهم وبيّن أن هذه الطرق قد اعترف أئمة أهل النظر من المتكلمين والفلاسفة بأن العلم بصحة السمع لا يتوقف عليها ، فامتنع أن تكون أصلاً له واعترفوا ببطلانها .

وقد ترجع طرقهم إلى طريقين أو ثلاثة فهي جماعها وهي :

« طريقة الأعراض (٣) والاستدلال بها على حدوث الموصوف بها .

وطريقه التركيب والاستدلال بها على أن الموصوف بها ممكن أو محدث .

والثالثة : الاستدلال بالاختصاص على إمكان المختص أو حدوثه ، قد يقال : إنها طريقة أخرى ، وقد تدخل في الأول » (٤) .

وقانون التأويل للنصوص تأويلاً باطنياً الذي فتحه ملاحدة الباطنية ، فولج منه «الجهمية والرافضة حيث صار بعضهم يقول : الإمام المبين علي بن أبي طالب ، والشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية ، والبقرة المأمور بذبحها عائشة ، واللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين » (٥) (٦) .

---

(١) انظر الدرء ٣/٢٦٧ . (٢) انظر الاستقامة ١/٧٩ .

(٣) انظر موافقة صحيح المنقول ١/٢٢٥ . (٤) الدرء ٧/١٤١ .

(٥) الفتاوى ٥/٥٥١ .

(٦) وللمزيد ارجع في بيان النتائج الفاسدة للقانون إلى الفتاوى ١٨/٢٢٤ ، ٢٤٢ ، ٢٢٨ - ٢٣٠ ، ٥/٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ الدرء ١/٢٧٦ ، ٣٧٢ ، ٢/٣٠٢ ، ٣/٢٣ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢٣٩ ، ٢٦٩، ٤٢٧ . وانظر في بيان اللوازم الفاسدة إلى الفتاوى ١٨/٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢/٦ ، ٥/٣٥ ، ٥٥٢ . الدرء ١/١٨٥ ، ٢٧٥ .

الفتاوى

لا يتولى الفتوى إلا العلماء المتمكنون من العلم ، الذين يشهد بفضلهم وورعهم وبصرهم بالأمور .

والفتوى في الإسلام لها مكانة عظيمة ، وخطورتها جسيمة ، فهي بيان لحكم الله وحكم رسوله فيما يحدث للناس في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم ، وقد جاء في المأثور: (أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار) (١) . وقد اشتهر بين الصحابة عدد منهم بالفقه وتولي الفتوى .

ولم يكن من عادات علماء السلف الصالح الرغبة في التصدي للناس لإفتائهم ، بل كانوا يتدافعون الفتوى عل بعضهم لا قلة في العلم ولا زهداً في الثواب ، ولا مظنة بالعلم ، وإنما تورعاً . وهذا يدل على عظمة شأن الفتوى ومنزلتها من الدين وخطورتها أيضاً بين المسلمين .

ولا شك أن أغلب الناس بالنسبة إلى الأحكام الشرعية عوام ، لا يعرفون إلا ما يقيمون به دينهم من الإسلام ، أما تفاريع الفقه بأنواع أقسامه فهو شأن الفقهاء وأهل العلم في الدين ، والناس أفراداً وجماعات حكاماً ومحكومين يحدث لهم أمور تجد في حياتهم ويقعون في مخالفات شرعية ، ويصيبهم من أمراض القلوب والنفوس ما يحتاجون معرفة الحكم والتصرف فيه على ضوء الكتاب والسنة . وهذا موجود عند العلماء ، فالعلماء في الإسلام جزء مهم من حياة الأمة لا يستغنى عنه كالغذاء للجسم .

والعلماء يأتيهم أصناف الناس من الأمراء والوزراء والأغنياء والفقراء والعرب والعجم من الذكور والإناث ، من أجل استفتائهم وعرض قضاياهم ومشاكلهم ، وما من شك أن هذه من أكبر الفرص للتعرف على الناس وتعريفهم بالإسلام ، وترغيبهم فيه وترهيبهم من مخالفته ، ومن أعطى الناس اهتماماً وصدراً رحباً وتفهماً لما يرد عليه وعناية ورعاية للأمر ، فإن الناس يحبونه ويألفونه ويفتحون له صدورهم وقد يفضون إليه بأمور من خاصة نفوسهم وأفعالهم ، كما يفضي المريض لطبيبه عن خبايا في جسده لما

(١) أخرجه الدارمي ١/٥٧ باب الفتيا ومافيه من الشدة . من حديث عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً وهو حديث ضعيف .

يرجو من نفع الدواء ثم الشفاء .

فالفتوى في حياة الأمة أفراداً وجماعات لها عدد من الجوانب:

أولاً : جانب علمي :

حيث يتعرف الناس فيها على الحلال والحرام والمستحبات والمكروهات ، ويستطيع العالم أن يوصل آراءه وأفكاره للناس من خلالها .

ثانياً : جانب اجتماعي :

حيث يرتبط العالم الداعية بالناس ويعرضون عليه ما يشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم ، ويعرف الداعية كثيراً من الأمور من خلال لقاءاته بالناس ، تخفى عليه لولا الكم الكبير من الاتصال المباشر بهم .

ولذا نجد أن العالم الذي أعطى من وقته لإفتاء الناس وتقبل الاستماع إلى ما لديهم، أكثر علماً واطلاعاً ودراية بأمور المجتمع وما يحدث فيه ، وأكثر خبرة بطبائع الناس وأخلاقهم ، وأكثر خبرة بأمراض المجتمع وما فيه من أدواء ، وأكثر خبرة بتوجهات الناس واهتماماتهم والمؤثرات عليهم ، وأكثر خبرة بمعرفة الأسباب والمسببات في الظواهر الاجتماعية الحاصلة في وقته .

ومع مرور الأيام يكتسب مثل هذا العالم معرفة ودراية وقدرة على الدخول إلى نفوس الناس لأنه علم منافذ الدخول ،كما أنه يكون أكثر واقعية من غيره في حل مشاكلهم وعلاج قضاياهم ، وأكثر تفهماً لأسلوب التعامل معهم ، وهذا كله يجعل له رصيداً في القلوب يزداد نمواً مع الأيام وعمقاً بمرور السنين ، ويكون له شبكة من العلاقات الاجتماعية والصلات الفردية تمتد في كل مجتمع .

ثالثاً : جانب نفسي :

بعض الناس لديهم أمراض نفسية وهموم ووساوس وغير ذلك ، والاهتمام بها وعلاجها بالقرآن والسنة والأدعية النافعة والأساليب المجربة المشروعة له آثار على المجتمع وأفراده ، وله آثار في ربط الأمة في دينها من جميع الجوانب في حياتهم .

رابعاً : جانب سياسي :

إن العالم الذي وثق الناس منه وألفوه وعلموا حرصه ينقلون إليه أحداث المجتمع ، وما فيه من أمور مخالفة للشرع ومؤثرة على أمن الناس وحياتهم طمعاً أن يبلغها لولاة

الأمور ، ويسعى معهم في منع الضرر عن الأمة ، إضافة إلى ما يكتسبه العالم المفتي من شعبية ومنزلة عند الناس ، مما يعطيه اهتماماً عند ولاة الأمور ومكانة محترمة ، فتكون كلمته مسموعة أكثر من غيره ، وهيبته عظيمة ، ويحرصون على إرضائه وإجابة ما يدعوهم إليه ، ولا يتجاسرون على إيذائه كتجاسرهم على عالم ليس له مكانة لدى عامة الناس .

وبهذا يظهر لنا أن الفتوى ذات أهمية كبيرة في المجال العلمي ، والاجتماعي ، والنفسي ، والسياسي وغير ذلك من المجالات مما لا نحب أن نطول بذكره وشرحه .

وابن تيمية رحمه الله صار يفتي الناس وهو في زهرة الشباب وريعانه ، فقد أفتى وعمره الثانية والعشرون وقيل ١٩ وقيل ١٧ ، وتصدى للعويص من المشكلات والمناظرات في عمر مبكر (١) ، والناس يختلفون في قدراتهم العقلية ومواهبهم .

إضافة إلى الناحية الاجتماعية والأخلاقية عند ابن تيمية حيث كان كريماً حسن الأخلاق عطوفاً مهتماً بأمور الناس متواضعاً يحب الفقراء والمساكين ويعطف عليهم يزور المرضى في المصحات ويشهد الجنائز في المساجد فإذا فاتته جنازة في المسجد صلى عليها في المقبرة .

والناس دائماً يحبون من يحبهم ومن لا يتعالى عليهم فكيف به إذا كان يعطيهم ولا يأخذ منهم ،كيف به إذا كان يخدمهم ولا يطلب منهم أن يخدموه ؟

لقد ألهب ابن تيمية بسياط الإحسان والأخلاق والتواضع قلوب الناس للإقبال عليه ، ورأت فيه أنموذج الصفاء والنقاء والحب والوفاء ، والزهد والورع .

لقد أعطاه الناس بمقدار ما أعطاهم والأرواح جنود مجندة ، وقد تهاتف قلبه مع قلوبهم فعرفوا مكنونه نحوهم ، وكان ابن تيمية كما كانوا يظنونه ترجمت أعماله عما في قلبه .

ولهذا فهو كما قلنا شيخ العامة لا تصدر إلا عن رأيه ولا تثق إلا في فتواه رغم ما لاقاه هو وأصحابه وواجهه من الأذى والافتراء من حساده ، ومصداق ذلك كثرة الفتاوى التي ترد إليه من كل مكان من بلاد الإسلام وأعظمها من مصر والشام من مسلمين وغير مسلمين ومن محبين وكارهين ، ومن أصحاب أغراض ومقاصد شريفة ومن أصحاب كيد ومكر ودسيسة ، وأكثر إنتاجه العلمي كان إجابات عن

---

(١) انظر العقود الدرية ص٤ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

أسئلة ترد إليه من أفراد أو من بلدان .

ابن تيمية كان بمصر في السجن وخارجه يستقبل الفتوى من الناس ويجيبهم كلاماً وكتابة ، وكان يرد إليه أسئلة من علماء ومن أعيان ومن عامة ومن جميع فئات الناس ، وكان بعضهم يحضر إليه في السجن ويتعلم منه . ويطرح عليه ما عنده من أسئلة ومشكلات علمية قد حار فيها جماعات من أهل العلم . كان هذا دأبه في القاهرة والإسكندرية [١] . وكذلك لما قدم إلى دمشق بعد غيبته في مصر سبع سنين بدأ نشاطه العلمي ، يحدثنا ابن كثير عن ذلك قائلاً :« ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً لاشتغال الناس في سائر العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام ، والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم ، وله اختيارات كثيرة مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف » [٢] .

وقد استخدم ابن تيمية الفتوى كأسلوب من أساليب الدعوة استخداماً واسعاً ، فلم تكن الفتوى عنده مجرد بيان للحكم في المسألة الجزئية المسئول عنها .

وإنما كانت أعظم من ذلك فهي علاج لقضايا فكرية وأمراض اجتماعية ، وهي كشف لأسرار خصوم الحق وهتك لأستارهم . فهي عنده أسلوب مهم من أساليب الدعوة ، استغل فرصة السؤال ليعالج كل ما يدور حول القضية المسئول عنها ، فأحياناً يرد إليه سؤال من إحدى المدن ويعلم أن هذه المدينة فيها نوع من البدعة ظاهرة [٣] ، فإنه يركز على بيان ما لدى هذه الطائفة في البلد من البدعة أثناء الإجابة على السؤال ، وهذا ما يفسر بعض الاستطرادات في فتاويه .

ويفسر أيضاً ما نجده من اختلاف في طول بعض الفتاوى وقصر البعض الآخر[٤] .

وتميز منهج ابن تيمية في الفتاوى بعدد من الملامح والسمات منها :

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٤٠ ، ٤٧ .
(٢) البداية والنهاية ١٤/٥٨ سنة ٧١٢هـ .
(٣) انظر العقود الدرية /٥٦ ، ٥٧ محمد حامد الفقي .
(٤) انظر العقود الدرية /٦٤ ، ٦٥ .

أولاً : فهم المسألة المستفتى فيها :

قدمنا أن الفتوى هي بيان لحكم الإسلام في الواقعة المسؤول عنها ، وهذا أمر له حساسية شديدة ، فقد يفتي العالم من غير رؤية وفهم للمسألة بحكم خلاف الحق لا لنقص في علمه وإنما لنقص في فهمه لمراد السائل ، أو فحوى السؤال ومضمونه .

فأحياناً خلف السؤال أغراض ومقاصد سيئة ويريدون الفتوى لتكون حجة لهم أمام المعارضين ، وقد يكون للخروج من حكم من أحكام الشريعة لازم لطائفة أو فئة من الناس ، وقد يكون لنقض فتوى عالم آخر وإيجاد التناقض بين العلماء مما هو من مسائل الاجتهاد السائغ . ونذكر مثالاً لهذا مما سئل عنه ابن تيمية وغرض السائل كان خبيثاً وتعرف من خلال العرض موقف ابن تيمية رحمه الله :« سئل عن قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد ... فحصل بذلك ضرر عظيم في الطرقات وتجرأ عليهم بسببه السفهاء وآذوهم ، فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول ... الخ .

قال ابن القيم :« قال شيخنا : فجاءتني الفتوى فقلت : لا تجوز إعادتهم ويجب إبقاؤهم على الزي الذي يتميزون به عن المسلمين فذهبوا ، ثم غيروا الفتيا ، ثم جاءوا بها في قالب آخر ، فقلت : لا تجوز إعادتهم . فذهبوا ثم أتوا بها في قالب آخر ، فقلت : هي المسألة بعينها وإن خرجت في عدة قوالب »[1] .

فلا بد أن يُشغَل المفتي جميع حواسه ويقرأ ما وراء الكلمات ويفكر كثيراً قبل أن يفتي خصوصاً العلماء ذوي الشأن أمثال ابن تيمية .

ويدعو ابن تيمية إلى حسن تصور المسألة قبل الإجابة عليها لأن بعض المسائل يحصل فيها اضطراب للناس لأسباب معينة فمثلاً :« سئل رحمه الله عن الهم والعزم على فعل المعاصي هل فيه ثواب أو عقاب ؟

فكان جوابه رحمه الله :« هذه المسألة – ونحوها – تحتاج قبل الكلام في حكمها إلى حسن التصور لها ، فإن اضطراب الناس في هذه المسائل وقع عامته من أمرين :

أحدهما : عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها التي هي مورد الكلام .

والثاني : عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها .... » أ – هـ [2] .

فالأصل في المفتي معرفة المسألة وتصورها تصوراً حسناً ثم معرفة الأدلة الشرعية

---

(١) الفتاوى ٢٨/٦٥٨ وانظر ص١٩٨ .

(٢) الفتاوى ١٠/٧٢٠ – ٧٢١ .

وحصرها واستقصاؤها وجمعها إلى بعضها ثم استخلاص الحكم منها .

وأحياناً السؤال قد ضمنه السائل معلومات خاطئة وحقائق مغلوطة عن قصد أوعن غير قصد ، وسكوت العالم عنها يوهم صحتها عند من لا علم عنده .

وأحياناً تكون صيغة السؤال غير صحيحة فالإجابة عليه وهو على حاله وبصيغته يوقع في إيهام واضطراب ، أو يفهم شيئاً لا يريده المفتي ، فلا بد من الانتباه جيداً للسؤال والتمعن فيه وملاحظته من جميع الجوانب ، فإذا تأكد المفتي بعد حسن التصور والاحتياط أجاب .

ونضرب لكل حال من الحالين مثالاً واحداً : -

سئل - رحمه الله - عن الشيعة ، وضمن السائل سؤاله عنهم بأنهم يؤمنون بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فلما أجاب ابن تيمية عن هذا السؤال كان منتبهاً لهذه المعلومة الخاطئة في السؤال فقال : « وأما ما ذكر المستفتي أنهم يؤمنون بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهذا عين الكذب ... وما ذكرناه وما لم نذكره من مخازيهم يعلم كل أحد أنه مخالف لما بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم » (١) .

وسئل رحمه الله « عن شيخ يُتوب أهل الكبائر بالسماع ، وقد تاب جماعة منهم، فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه ... الخ قال في الإجابة: « ... وقول السائل وغيره : هل هو حلال ؟ أو حرام ؟ لفظ مجمل فيه تلبيس ، يشتبه الحكم فيه ، حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه ، وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على حزبين :

(**أحدها**) أنه هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس ، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس ...

(**النوع الثاني**) أن يفعل على وجه الديانة والعبادة ، وصلاح القلوب ، وتجريد حب العباد لربهم ... فيجب الفرق بين سماع المتقربين ، وسماع المتلعبين ... فإن هذا يسأل عنه : هل هو قربة وطاعة ؟ وهل هو طريق إلى الله ؟ وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم ، وتحريك وجدهم لمحبوبهم وتزكية نفوسهم ... إذا عرف هذا فحقيقة السؤال : هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التي هي : إما محرمة ، أو مكروهة ، أو مباحة ، قربة وعبادة وطاعة ، وطريقة إلى الله يدعو بها إلى

---

(١) الفتاوى ٢٨/٤٨٤ .

الله ، ويتوب العاصين ، ويرشد به الغاوين ويهدي به الضالين ؟ » [١] .

وحسن التصور للمسألة في منهج ابن تيمية يأتي في السؤال ومضمونه، ويأتي أيضاً في الجواب ومضمونه كما تقدم في الأمثلة المذكورة في هذا الموضوع ، ولهذا فإنه قد يقلّبُ أعداداً كبيرة من الكتب ويقضي ساعات كثيرة في مسألة واحدة . وهذا ليس غريباً فإن منهجه « في البحث والدراسة يقوم على التبحر الجاد والمضني في جوانب المسألة محل البحث ، حتى وإن أنفق فيها الليالي والأيام ، وما كان ليترك أية مسألة بدون حل مرضي ومقبول وفق المعايير الشرعية » [٢] .

ثانياً : معرفة حال المستفتي ومراعاتها :

الفتوى حكم شرعي يعم جميع الناس مطلقاً ولا يستثنى في الأحكام فيئات أو هيئات أو ذوات معينة ، وإنما عند التطبيق قد يرتفع الوجوب بمانع شرعي في ذات الفاعل، أو تنتفي الحرمة لوجود مبرر شرعي لذات الفاعل . فهناك موانع وأعذار تسقط الفعل وترفع الحرج عن المسلم .

وحالة واحدة قد يختلف فيها الجواب من شخص إلى شخص لاختلاف أحوالهم. فيلزم الفقيه أن يكون محيطاً بظروف السائل ودوافع الفعل أو موانعه وقدرة الشخص واستطاعته ، فإن الله بعث رسوله بالحنيفية السمحة التي ترفع الحرج والآصار والأغلال .

كما بعثها مانعاً ورادعاً وزاجراً للعصاة المجترئين على معاصيه الذين يسعون في الأرض فساداً ولا يصلحون .

وابن تيمية الداعية المصلح ، والبارع في طب القلوب العارف بأدوائها ، العالم بظروف المجتمع الذي يعيش فيه علماً واسعاً وفهماً دقيقاً ، صاحب الفطنة والذكاء اللماح ، يعرف أموراً يعجز غيره من العلماء عن معرفتها تدخل في مجال الفراسة والفطنة . ونسوق بعض الأمثله التي توضح لنا اهتمام ابن تيمية بحال السائل ومراعاتها حال الإجابة :

سئل رحمه الله عن سفر صاحب العيال : « فأجاب : أما سفر صاحب العيال فإن كان السفر يضر بعياله لم يسافر ... وأما إن كان كسفر كثير من الناس إنما يسافر قلقاً وتزجية للوقت فهذا مقامه يعبد الله في بيته خير له بكل حال ... » .

---

(١) الفتاوى ١١/٦٢٠ – ٦٣١ .
(٢) ابن تيمية وفكره السياسي /٣٣ .

هذه القاعدة العامة في الإجابة، ولكن أحوال الناس تختلف فقد يكون بعضهم السفر خير له في دينه ودنياه ، وقد يكون خيراً لأهل بيته فيلتزم أن يستشير عالماً ثقة يعرف حاله وظروفه من جميع الأوضاع فيفتيه بما يصلحه ، لذا يقول في بقية الجواب .

« ويحتاج صاحب هذه الحال أن يستشير في خاصة نفسه رجلاً عالماً بحاله ، وبما يصلحه ، مأموناً على ذلك ، فإن أحوال الناس تختلف في مثل هذا اختلافاً متبايناً » (١) .

وأيضاً مما يدل على أن هذا هو منهج علماء السلف ومنهم الإمام أحمد بن حنبل يقول رحمه الله : « وكثير من أجوبة الإمام أحمد وغيره من الأئمة خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله ، أو خرج خطاباً لمعين قد علم حاله ، فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يثبت حكمها في نظيرها ... » (٢).

ويؤكد رحمه الله على ضرورة النظر إلى قصد الفاعل ونيته والنظر في الفعل ذاته يقول :« ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم ، ولم ينظر إلى فعل الفاعل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم ، ولو سئل عمن يقوم في الشمس قال : هذا جائز ، فإذا قيل إنه يفعله على وجه العبادة قال : هذا منكر ... الخ (٣) .

وبعض الناس يستفتي وليس قصده معرفة حكم الله ورسوله ، بل مراده ما يوافق هواه كائناً ما كان صحيحاً أو باطلاً ، فهذا لا يسمع للحق المبعوث به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، « فليس على خلفاء رسول الله أن يفتوه ويحكموا له ، كما ليس عليهم أن يحكموا بين المنافقين والكافرين المستجيبين لقوم آخرين لم يستجيبوا لله ورسوله » (٤) .

ثالثاً : التفصيل والاحتراز في الفتوى :

ومن منهج ابن تيمية في الفتوى التفصيل في الإجابة إذا اقتضت حال السائل أو المسئول عنه التفصيل ، وقد يترك التفصيل في الفتوى اعتماداً على علم السائل ومعرفته، مثال ذلك ما ذكره في بعض فتاوى الإمام أحمد رحمه الله حيث لم يذكر بعض جوانب في المسألة « لأن السائل (مهنا بن يحيى الشامي) وهو فقيه عالم » (٥) ، وتنبيه ابن تيمية على هذا الجانب وجعله مبرراً للإمام أحمد ناتج من أنه رحمه الله من منهجه ذلك .

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٨ ، ٢٩ . (٢) الفتاوى ٢١٣/٢٨ . (٣) الفتاوى ٦٣٢/١١ ، ٦٣٣ .
(٤) الفتاوى ١٩٨/٢٨ . (٥) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٢٨ .

وسيره على منهج التفصيل والاحتراز لأنه يدرك أن الإجمال لشخص معين أو الإجمال في موضوع معين يكون ضاراً بالأمرين ، وأن التفصيل أسلم ، وغالباً ما يكون التفصيل في بعض الأمور التى يكون فيها خلاف ، أو ذات مفاهيم مشتركة موهمة ، أو يكون السائل عنده شكوك وشبهات ونحو ذلك من المبررات التى تدفع بالمفتي إلى التفصيل ، وقد يفصل من غير سبب في السائل أو المسؤل عنه لرغبة العالم في توسيع الاجابة لغرض يرى فيه صالحاً للعام لأن هذه الفتوى سوف تنتشر في عدد من الأمكنة .

فمثلا لما سئل عن النظر إلى الشاب الأمرد وأن النظر إليه ليس من أجل الشهوة وإنما لأنه اذا رآه قال سبحان الله ... الخ ، استغرقت الإجابة على هذا السؤال ما يقارب ثلاث صفحات في مجموع الفتاوى ، وذلك لأن هذه المسألة وقع فيها بعض عباد الصوفية وأوغل فيها القائلون بالحلول والاتحاد ، فلئن كان السؤال متوجها من فرد ، إلا أن هذه مسألة موجودة في مجتمع الأمة فبسطها بالأدلة وبيان عواقبها مما يعين على الإقناع في تركها .. » (١) .

وسئل عن مسأله تتعلق في العلم والعقل ؛ ولأن هذين المصطلحين وقع فيهما الخوض لما لهما من معان متعددة ، فإنه يرى لزوم التفصيل في الإجابة « فلا يجوز إطلاق الجواب بلا تفصيل ؛ ولهذا كثر النزاع فيها لمن لم يفصل ، ومن فصل الجواب فقد أصاب والله أعلم » (٢) .

ويحرص ابن تيمية على ألا تكون الفتوى لها جوانب قد تفهم خطأ فتنفذ الفتوى خطأ فيترتب مضار لا تخدم الأفراد ولا المجتمع ، لذا فإنه يضع احترازات في الفتوى إذا كانت من هذا النوع ،وهذا يتحقق فيما له صلة بالآخرين كمجال المعاملات ونحوه .

فمثلاً لما سئل عن الكنائس وبقائها ، قال ضمن الجواب : « فعلم أن هدم كنائس العنوة جائز ، إذا لم يكن فيه ضرر على المسلمين ، هذا احتراز حتى لا ينطلق بعض أهل الغيرة ويهدم الكنائس ثم تقوم حرب طائفية والمسلمون غير قادرين على السيطرة على الوضع .

وقال في موضع آخر عن التعاون : « ... فالتعاون نوعان :

الأول : تعاون عل البر والتقوى .

---

(١) انظر الفتاوى ٤٠٩/٥ - ٤١١ .

(٢) الفتاوى ٣٠٦/٩ ، وللمزيد انظر الفتاوى ١٠٩/١١ - ١١٤ ، والفتاوى ٧٦/٢٨ .

الثاني : تعاون على الإثم والعدوان كالإعانة على ذم معصوم أو أخذ مال معصوم... فهذا الذي حرمه الله ورسوله ، لكنه ينتبه إلى أمر مهم وهو أن المال الذي أخذ بغير حق مال محرم لكن رده إلى من يستحق ليس بمحرم فقال في الإجابة السابقة: «.. نعم إذا كانت الأموال قد أخذت بغير حق ، وقد تعذر ردها إلى أصحابها ، ككثير من الأموال السلطانية فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين ... من الإعانة على البر والتقوى » (١) .

رابعاً : مراعاة التيسير والرفق :

من الملاحظ أن ابن تيمية في فتاويه يحترز ويدقق ، ويشدد في أمر العقائد والعبادات من حيث شرعيتها والاتباع فيها وترك الابتداع ... لأنها أصول توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها ، والغلط فيها يؤثر على غيرها من أمور الإسلام .

فنجده لا يتسامح أبداً ، يأخذ قولا من الأقوال التي تفتح باب بدعة أو تكون وسيلة لذلك ، وهذا من منهج الإسلام . بينما نراه في مجال المعاملات يختار الأقوال المتناسبة مع روح الإسلام ومراده في رفع الحرج والمشقة عن الأمة في حياتها، ونراه أيضاً ينظر إلى المصالح العامة للناس وما يترتب على الفتوى وما يتولد منها في حياة الناس من أضرار وتضييق وتعطيل إنتاج أو تقليله .

فمثلاً يقول عن مؤاجرة الأرض التي أقطعها الحاكم لأحد من الناس من أجل زراعتها أو نحو ذلك :« .. وسواء كانت الأرض مُقْطَعة أو لم تكن مُقْطَعة وما علمت أحداً من علماء المسلمين – لا أهل المذاهب الأربعة ولا غيرهم – قال إن إجارة الإقطاع لا تجوز ، وما زال المسلمون يؤجرون الأرض المقطعة من زمن الصحابة إلى زمننا هذا ، لكن بعض أهل زماننا ابتدعوا هذا القول . قالوا : لأن المُقْطَع لا يملك المنفعة فيصير كالمستعير إذا أكْرَى الأرض المعارة ، وهذا القياس خطأ ... – إلى أن قال – ... وليّ الأمر يأذن للمقطعين في الإجارة وإنما أقطعهم لينتفعوا بها إما بالمزارعة وإما بالإجارة . ومن حرم الانتفاع بها بالمؤاجرة والمزارعة فقد أفسد على المسلمين دينهم ودنياهم » (٢) .

كما أنه يحارب النظرات التشاؤمية التي فيها غلو وتشديد من دون أن يكون هناك أي مبرر لا شرعي ولا عقلي ولا تربوي ،فمثلاً أحدهم يسأل وأورد في سؤاله أن أكل

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٨٣ .

(٢) الفتاوى ٢٨/٨٥ .

الحلال متعذر ، وأنه لا يمكن وجوده في هذا الزمان . فهذا القول خلاف الواقع الموجود، رد عليه ابن تيمية بأن قوله خطأ مخالف للإجماع ، بل الحلال هو الغالب على أموال الناس وهو أكثر من الحرام ، وهي إجابة مطولة مفيدة جداً يحسن الرجوع إليها(١) .

وفي الأمور التي فيها حفظ لحياة الناس وحفظ الفضيلة وسعادة الناس بأمنهم ورزقهم نجده يسلك جانب القوة والحزم ويرجح ما يراه محققاً مصلحة الناس وحفظ الشريعة وردع الذين يحاولون الانفلات منها ، فمثلاً يتكلم عن الذين يحاربون الناس ويأخذون أموالهم بالقوة والظلم :« وأما المحاربون فإنما يقتلون لأخذ أموال الناس ... حتى لو كان المقتول غير مكافىء للقاتل : مثل أن يكون القاتل ... مسلماً والمقتول ذمياً أو مستأمناً فقد اختلف الفقهاء هل يقتل في المحاربة ؟ والأقوى أنه يقتل ، لأنه قتل للفساد العام حداً كما يقطع إذا أخذ أموالهم » .

وكذلك يرجح إذا كان الحرامية المحاربون جماعة وواحد منهم باشر القتل والباقون له رديء وأعوان أنهم يقتلون « والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض حتى صاروا ممتنعين فهم مشتركون في الثواب والعقاب كالمجاهدين ... » (٢) .

وكذلك المرأة إذا صارت حبلى وليس لها زوج ولا سيد ولم تَدَّعِ شبهة وطىء ونحوه قيل لا حد عليها لاحتمال أنها حملت مكرهة أو وطىء شبهة ، أو بتحمل ماء رجل ، وقيل عليها الحد ويرجح ابن تيمية هذا القول قائلاً « ... فإن الاحتمالات النادرة لا يلتفت إليها ، كاحتمال كذب الشهود وكاحتمال كذبها » (٣) .

وقريباً من هذا الترجيح ترجيحه في مسألة ما إذا وجد رجل تشم منه رائحة الخمر، أو رؤي وهو يتقيؤها ونحو ذلك، قيل : لا يقام عليه الحد لاحتمال أنه شرب ما ليس بخمر أو شربها مكرهاً أو جاهلاً أو نحو ذلك من الاحتمالات ، وقيل : يجلد إذا عرف أن هذا مسكر، وهذا الذي رجح ابن تيمية لأنه هو المأثور عن الخلفاء والصحابة وعليه تدل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي يصلح عليه الناس..» (٤).

وهو مع ذلك يرى أن أمور التشريع تؤخذ بالاستطاعة ويراعى فيها تحصيل المصالح

---

(١) انظر الفتاوى ٣٢٨/٢٩ ، ٣٢٩ ، وأول المبحث يبدأ من ص٣١١ .

(٢) الفتاوى ٣١١/٢٨ ، ٣١٢ . (٣) الفتاوى ٣٣٤/٢٨ .

(٤) انظر الفتاوى ٣٣٩/٢٨ .

وتعطيل المفاسد يقول رحمه الله :« فإن مدار الشريعة على قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [(١)] ،المفسر لقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [(٢)] ، وعلى قول النبي صلى الله عليه وسلم :(إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) أخرجاه في الصحيحين [(٣)] ، وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع » [(٤)] .

---

(١) سورة التغابن آية (١٦) .

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٢) .

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وطرفه « دعوني ما تركتكم » كتاب الاعتصام بالسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢ ، رقم الحديث ٧٢٨٨ ، فتح الباري ١٣/٢٥١ . وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، كتاب الفضائل ٤٣ ، باب توقيره صلى الله عليه وسلم ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ٣٧ ، رقم الحديث ١٣٣٧ ، صحيح مسلم ٤/١٨٣٠ ، الناشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية .

(٤) الفتاوى ٢٨/٢٨٤ .

الفصل الثاني

الوسائل في منهج ابن تيمية

وتحته مباحث :

الأول : الاتصال الشخصي .

الثاني : الخطابة .

الثالث : الرسائل الشخصية.

الرابع : الكتب.

الخامس : الرحلات .

السادس : الجهاد والقوة في آراء ابن تيمية .

السابع : المدارس .

الثامن : المسجد .

الاتصال الشخصي

وسيلة من الوسائل المهمة في الدعوة في جميع أدوارها وأطوارها لكل فئات الناس وأجناسهم وأديانهم ومراكزهم .

يحتاجه الدعاة إما من أجل الدعوة إلى الإسلام إذا كان المدعو غير مسلم كأن يكون من أهل الذمة في البلاد الإسلامية أو غيرهم ، فهذا الصنف لا يحضر تجمعات المسلمين ومنتدياتهم فيسمع ما يقال فيها عن الإسلام مما يتوجب إسماعه ذلك ، ثم ما يقال في المجامع العامة لا يتناسب مع هؤلاء فيحتاجون نوعاً من الخطاب والجدال والحجج وإزالة الشبهات مما لا يناسب إثارته في المجامع العامة بين المسلمين .

وقد كان لابن تيمية دور كبير في هذا الاتصال الشخصي مع غير المسلمين ، وقد جاء بنتائج طيبة وثمرات مباركة فأسلم بعض اليهود والتركمان والنصارى وكثير منهم كانوا حال جدالهم يعترفون بأن ما يقوله ابن تيمية حق وصدق .

ويحتاج إليه الداعية لشخص من المسلمين من ذوي الهيئة والمكانة لا تصل الدعوة إليه إلا بالذهاب إليه في مكانه الذي يمكن للداعية أن يلتقي فيه ، فتكون دعوته من أجل زيادة الإيمان والهدى في قلبه ولأجل مشاركته وإسهامه في الدعوة بدعم مادي وأدبي، وقد يحصل من هذا اللقاء فقط تعريفه بالداعية والدعوة وأهدافها ومقاصدها وفائدتها من أجل أن يكون لديه تصور حسن وانطباع طيب لقطع الخط على أعداء الدعوة والمغرضين حتى لا يشوهوها لدى الأعيان الذين لا تتاح لهم فرص السماع للداعية واللقاء به .

ويحتاج إليه الداعية للاتصال بالحكام والأمراء في مصالح الدعوة ومصالح البلاد والعباد ، ولمعالجة المنكرات والسعي في إزالتها ، ويحتاج الداعية إليه مع العلماء الكبار وشيوخ الجماعات والفرق الإسلامية للنقاش معهم في ما لديهم من أخطاء في العقائد أو العبادات ، أو في أمور الدعوة أو للتباحث معهم في قضايا الأمة ومصالحها وكيفية الإصلاح .

وقد يحتاج إليه لفرد من أفراد المسلمين من غير هؤلاء يُدعى إلى الهدى أو يُنصح عما هو فيه ، وينكر ما عنده من منكر ، أو يرى حاجته أو مشكلته فيسهم الداعية في

مساعدته ونحو ذلك مما يحتاج الداعية إليه من الأشخاص في مصالح الدين والدنيا لا يتم إلا بالاتصال الفردي من قبل الداعية .

وقد استعمل وسيلة الاتصال الفردي استعمالاً واسعاً جداً فكان له لقاءات مع الحكام ، ومع العلماء ، ومع الأعيان ، ومع الفرق والطوائف ، وكان له لقاءات مع غير المسلمين يأتونه أو يذهب إليهم أو يتقابلون في مكان ما ويدور بينهم وبينه حوار .

ويرى أن الإسلام فيه ما قصد به الهدى العام لكل الناس عموماً ، فالقرآن الكريم يذكر فيه من الأدلة ما ينتفع به الناس عامة ، والذي يمكن بيانه من هذه الأدلة أنواعها العامة تبين لعموم الناس ، وأما الذي يختص به كل شخص على حدة بانفراده من الأدلة التي تتناسب معه والهدى الذي يلائم عرضه عليه بأسلوبه المتفق معه ، فهذا لا ضابط له حتى يذكر في المجال العام أو الهدى العام ، فما لدى واحد منهم يختلف عن الآخر في نوعه ويختلف في الأسلوب الذي يلائم عرضه به ، وهذا لا يتم إلا بالاتصال الفردي، يقول رحمه الله : « وما قصد به هدى عام كالقرآن الذي أنزله الله بياناً للناس يذكر فيه من الأدلة ما ينتفع به الناس عامة ، وهذا إنما يمكن بيان أنواعها العامة ، وأما ما يختص به كل شخص فلا ضابط له حتى يذكر في كلام ، بل هذا يزول بأسباب تختص بصاحبه : كدعائه لنفسه ، ومخاطبة شخص معين له بما يناسب حاله ، ونظره فيما يختص حاله ونحو ذلك » (١) .

أمثلة وشواهد لما ذكرنا :

قدم من المشرق مشايخ كبار معتبرون ، واتصل بهم الشيخ واتصلوا به وجرى تباحث في ابن عربي وأمثاله : كالتلمساني والحلاج ونحوهم ، وكان مطلبهم معرفة الطرق الإسلامية الصحيحة ومعرفة حقيقة هؤلاء الذين أضلوا الناس (٢) .

التقى ابن تيمية بشيخ من شيوخ أهل الحلول والاتحاد وتناقش معه في دعواهم حلول الله في المخلوقات ، ومن ضمن النقاش قال ابن تيمية :« قلت لبعض من خاطبته من شيوخ هؤلاء قول الخليل ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ممن يبرأ الخليل ، أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير الله قط ؟ والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين ... الخ (٣) .

---

(١) الفتاوى ٩/٢١١ .

(٢) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين/٨٨ .   (٣) التفسير الكبير ١/٣١٠ .

وكان له لقاءات ومكاتبات مع بعض الشيوخ الذين عندهم انحرافات فمثلاً : كان له لقاءات مع الشيخ محمد السكاكيني (١) ،كان رافضياً ويعرف مذهب الرافضة والشيعة جيداً وكان ولده حسن قتل بسبب إظهاره الرفض وإعلانه له ، وقيل إنه كان عازماً قبل قتله على قتل والده لما أظهر السنة ، وذكر ابن كثير أن محمد السكاكيني والد حسن « ... كانت له أسئلة على مذهب أهل الخير ، ونظم في ذلك قصيدة أجابه فيها شيخنا الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وذكر غير واحد من أصحاب الشيخ أن السكاكيني ما مات حتى رجع عن مذهبه ، وصار إلى قول أهل السنة فالله أعلم » (٢) .

وفي مجالس مناظرته في عقيدته في دمشق قال حين روى ما حصل في المجالس الثلاثة : « وخاطبت بعضهم في غير هذا المجلس بأن أريته العقيدة التي جمعها الإمام القادر بالله التي فيها « إن القرآن كلام الله خرج منه » فتوقف في هذا اللفظ فقلت : هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه) يعني القرآن » (٣) .

فيظهر في هذا دلالة الاتصال الشخصي بالعلماء الذين هم طرف في النزاع في مسألة العقيدة ، أو هم من الحضور الذين يحب أن يُثَبِّتَ لديهم ما سمعوه منه أثناء النقاش في المناظرة ، ويكسبهم إلى صف الدعوة ليكونوا مؤيدين أو على الأقل محايدين .

ومثال آخر :

لما جاء قازان وقد أسلمت دمشق له ، انكشفت للناس أحوال بعض الطوائف ومنها اليونسية ، فظهر أنهم ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار ، والتقى ابن تيمية بأحد شيوخ هذه الطائفة وحضر عنده واعترف بالردة عن الإسلام والانحياز إلى التتار الكفار وتحدث مع ابن تيمية بفصول كثيرة وتجادل هو وإياه وهو يحتج لكفره وردته ، قال ابن

---

(١) هو : محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهمذاني ، الدمشقي ، كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، ويناظر على القدر ، وينكر الجبر ... احترف في صغره صناعة السكاكين فنسب إليها ، ولد سنة ٦٣٥هـ ، توفي سنة ٧١٢هـ . انظر الأعلام ٥٥/٦ .

(٢) البداية والنهاية ١٨٢/١٤ سنة ٧٤٤هـ .

(٣) حديث ضعيف في اسناده بكر بن خنيس وليث بن أبي سليم ، أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن ، باب ١٧ عن أبي أمامة رضي الله عنه . وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك ، وتركه في آخر أمره . سنن الترمذي ١٧٤٦/٥ رقم ٢٩١١ .

تيمية :« فقلت له لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول : فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا عصوا وأن هناك منكرات من الزنا ونحوه أفيجوز أن تستباح بلاد المسلمين من قبل الكفار ويعاونهم المسلمون بدعوى باطلة وتخيلات شيطانية كقولهم انهم يقاتلون مع التتار والنصارى ضد المسلمين بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأن هؤلاء المسلمين قد عصوا وخالفوا بعض سنته . إن هؤلاء المسلمين وإن كانوا عصاة فهم خير من التتار والنصارى الكفار الوثنيين ، وأن ما حدث من الشر وعبادة الأوثان وارتفاع الصلبان ودق النواقيس في بلاد المسلمين وغير ذلك من إكراه المسلمين على الوثنية وهتك الأعراض لا يقارن بمعاصي المسلمين . فعرف الحق وأنه كان على خطأ عظيم ، وأن الشياطين كانت تتلاعب بهم » (١) .

وذكر أيضاً أنه التقى بشيخ من شيوخ التصوف من شيوخ بعلبك لم يذكر اسمه ولكنه ذكر اسم والده – وكان والده يقال له محمد الخالدي – وكان يقول : الأنبياء ضيعوا الطريق ، قال ابن تيمية معلقاً على هذا القول :« ولعمري لقد ضيعوا طريق الشياطين ، شياطين الجن والإنس » (٢) .

وكان رحمه الله لا يدع فرصة من الفرص التي تهيء له الاجتماع بالناس والاتصال بهم .

فمن ذلك أن الأمير فخر الدين بن الشمس لؤلؤ قد عمل وليمة في بستان له في دمشق ، فاستغل ابن تيمية هذا الجمع ليتمكن من إفادتهم وإيصال الخير إليهم ، وكان من الحاضرين الشيخ ابن عبدالهادي ، وقد قرأ عليه أربعين حديثاً ثم بعد ذلك أخذ ابن تيمية يتكلم في أنواع العلوم بكلام بهت الحاضرون منه حتى أذهلهم عن الأكل وحصل في ذلك المجلس خير كثير ، وكان فيه غير واحد من المشايخ (٣).

وأما لقاءاته بعلماء الأشاعرة ومناقشاته معهم وزياراته لهم فهذه لا عدد لها ، فمثلاً اجتمع بعدد من العلماء والفضلاء عند القاضي إمام الدين وكان معتقده حسناً ومقصده صالحاً وبحثوا في العقيدة الحموية وناقشوا الشيخ في عدد من مسائلها في مواضع الخلاف ، واعترضوا عليه بعدد من الاعتراضات فأجابهم بما يسكتهم من كتاب الله وسنة رسوله ومن أقوال السلف الصالح (٤) .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢/١٨ – ٢٢ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٢/٢٤ – ٢٨ .

(٣) انظر العقود الدرية /٣٢٧ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٤/٤ .

وبعث برسالة إلى الشيخ « شمس الدين الدباهي » في المدينة أجاب فيها على طلب له فقال : « .. ما ذكرت من طلب الأسباب الأربعة التي لا بد منها في صرف الكلام من حقيقته إلى مجازه ، فأنا أذكر لك ملخص الكلام الذي جرى بيني وبين بعض الناس في ذلك ، وهو ما حكيته لك وطلبته وكان – إن شاء الله – له ولغيره به منفعة ... ثم أخذ في ذكر ما دار بينه وبين هذا الرجل بقوله : قال لي بعض الناس ... » ، وفي آخر الرسالة قال: فأظهر الرجل التوبة وتبين له الحق » (١) .

والتقى مع رافضي كبير من كبراء أهل جبل الكسروان له اطلاع على مذهب الرافضة وتناظر معه في مسألة عصمة الإمام وعدم عصمته ، وفيٓ أن علي بن أبي طالب معصوم من الصغائر والكبائر في كل أقواله وأفعاله ، هذه الدعوى التي أثارها هذا الرافضي وجادله الشيخ مقرراً أن العصمة لم تثبت إلا للأنبياء (٢) .

وكان ابن تيمية رحمه الله على اتصال دائم بالملوك ونوابهم والأمراء والأعيان في مصالح المسلمين ، ويتكثف اتصاله بهم وقت الأزمات والشدائد والكروب والخطوب التي تحتاج إلى مواقف الغيورين على الأمة المهتمين بخيرها المتفاعلين مع أحداثها أمثال ابن تيمية ، بل هو الوحيد في زمانه الذي لا أحد يضاهيه من أقرانه حتى قال فيه الإمام الذهبي رحمه الله إنه « صاحب معضلات المسلمين » (٣) .

وكل ذلك لا يبغي به مالاً ولا جاهاً إنما يريد به نصر ملة الإسلام وعزة المسلمين وذل الكافرين ، وفي كل مرة يقبل شبح التتار إلى دمشق ولو مجرد خبر فإن الجميع تتجه أنظارهم إلى رجل الأزمات والمعضلات ابن تيمية ، وهو لا ينتظر أن يطلبوه بل هو الذي يأتي إليهم ويقوم بدور يعجز عنه آلاف الرجال ، يقوّي القلوب ، ويثبت الناس ، ويطمئنهم ويربطهم بالله ، ويدعوهم إلى الجهاد والبذل ، ويتابع الأخبار ويتصل بالأمراء في الشام يدعوهم إلى التكاتف والتعاون ، ويتصل بملك مصر والشام يحثه على الجهاد وحماية بلاد الشام ، ويعمل مجموعات من الناس لحفظ الأمن في داخل المدينة ، ويكون في جانب الأمراء يعطيهم جرعات إيمانية تقوي هممهم ، ويشير عليهم بالآراء النافعة والتدابير الحكيمة ، وهم مستجيبون لكل ما يطلب وكأنه ملك البلاد ، لأنهم علموا صدقه ونصحه ، وعرفوا رجاحة عقله ، وقد جربوا مراراً بركة طاعة رأيه .

---

(١) الرساله المدنية/٢٦ ، ٦٦ تحقيق الوليد عبدالرحمن الفريان .
(٢) انظر العقود الدرية /١٨١ تحقيق حامد الفقي . (٣) العقود الدرية /٢٤ .

وأضرب أمثلة توضح اهتمامه بالاتصال بملوك المسلمين وأمرائهم في أوقات الشدة والرخاء :

في سنة ٦٩٨هـ قدم قازان إلى الشام وأراد دخول دمشق فالتقى به ابن تيمية وبعض أعيان دمشق وأخذوا الأمان منه لأهل دمشق ولكنه لم يف بأمنه ، وفي هذه السنة صار يُخطب بالقوة لقازان يوم الجمعة ، وجاء الخبر بقدوم الجيش المصري إلى الشام فخرج أمير دمشق يستقبله ومعه الجند فأصبحت البلد فارغة ، فتحرك رجل الملة وصاحب الأزمات فالتقى بالأمير واتفق معه على حفظ الأسوار وأن يبيت الناس عليها ، فاجتمع الناس على الأسوار ومعهم السلاح لحفظها ، وابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر على القتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط (١) .

وفي سنة ٧٠٠ هـ في شهر صفر وردت الأخبار بأن التتر متوجهون إلى بلاد الشام وعازمون على مصر ، فانزعج الناس وأخذوا في الهرب حتى هرب مجموعة من أعيان دمشق من القضاة والفقهاء والأمراء والتجار ، وأخذ ابن تيمية بزمام المبادرة لما رأى هذه الحال وأخذ يتصل بالناس أفراداً وجماعات من الأعيان والعامة ويثبتهم ويدعوهم إلى الصبر وإنفاق الأموال التي تدفع من أجل الهروب في الجهاد فهو أنفع فهدأ الناس .

ثم خرج رحمه الله في مستهل جمادى الأولى إلى نائب الشام في المرج وثبّتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء وتلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (٢) ، وبات عند العسكر ليلة الأحد ثم عاد إلى دمشق ثم جُعِلَ مندوب الشام إلى ملك مصر يستحث الجيش المصري على سرعة القدوم ، ويشجع الملك على الجهاد ، ثم ذهب إلى هناك وكان نعم السفير ، فقد أقنع الملك وجهز جيشاً لمقابلة التتار مع جيش الشام .

ورجع الشيخ من مصر بعد أن عمل اتصالات عديدة مع الملك والأمراء والأعيان يوقد فيهم جذوة الإيمان ، ويحثهم على الجهاد ويعدهم بنصر الله . وجلس على هذه الحال ثمانية أيام في قلعة مصر . ولكن جاءت الأخبار برجوع جيش التتار نظراً لضعفه وقلته (٣) .

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/١٠ .
(٢) سورة الحج آية (٦٠) .
(٣) البداية والنهاية ١٤/١٤ ، ١٥ .

واتصل رحمه الله بنائب السلطان بدمشق واقترح عليه تعيين بعض الشخصيات من القضاة والفقهاء في بعض المراكز وإبعاد آخرين ، فاستجاب له ونفذ ، فحدث بعض التغييرات بمشورته رحمه الله (١) .

وفي أواخر سنة ٧٠٤ هـ وأوائل سنة ٧٠٥ هـ بعد موقعة « شقحب » عمل عدداً من الاتصالات بولاة الأمر بمصر ودمشق ، وأقنعهم بأهمية القضاء على الذين في بلاد الجرد والرفض والتيامنة .

قال ابن عبد الهادي يروي كلام الأمير الحاجب في ثمرات هذه الاتصالات: حتى جرد الله سبحانه عزمات نفوس ولاة الأمر لقتال أهل جبل كسروان وهم الذين بغوا وخرجوا على الإمام ، وأخافوا الناس وعارضوا المارين بهم من الجيش بكل سوء ، فقام الشيخ في ذلك أتم القيام فأذن لهم السلطان بالقتال فسار ابن تيمية في طائفة من الجيش ثم لحق بهم نائب السلطنة « الأفرم » بنفسه وتحقق لهم النصر بإذنه عز وجل وحصل خير كثير (٢) .

ومن اتصالاته بالأعيان الكبار : ذهابه إلى الأمير قطلو بك الكبير (٣) . وقد شكا إنسان إلى ابن تيمية ظلمه له ، وكان قطلو بك « فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصبها ، وحكاياته في ذلك مشهورة » (٤) . دخل عليه ابن تيمية وتكلم معه وخوفه بالله وبيّن له عاقبة الظلم ، « فقال له قطلو بك : أنا كنت أريد أن أجيء اليك لأنك عالم زاهد ، يعني يستهزئ به ، فقال له : لا تعمل عليّ دركوان (هكذا بخط المصنف) فقال له : موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك ، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ، ويعرض عليه الإيمان » (٥) .

وبعد هذه السياقات من الإنجازات العظيمة لصاحب الهمة العالية والتي رأينا فيها الدور الإيجابي لابن تيمية ، وهذه الحركة المستمرة من الاتصالات المتعددة الأغراض والمستويات ، الكثيرة في كمها والعظيمة في مضمونها المباركة في نتائجها .

(١) انظر البداية والنهاية ٢٥/١٤ . (٢) انظر البداية والنهاية ٣١/١٤ .

(٣) هو قطلو بك المنصوري الكبير كان حاجباً بمصر ، ثم نائباً في طرابلس ، ثم أميرا بدمشق . قتل سنة ٧١٦ هـ . انظر الدرر ٣٣٨/٣ .

(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين نقلا عن « فوات الوفيات » لصلاح الدين الكتبي/٧١ وكذلك نقله عن الوافي بالوفيات في ص٢٦ .

(٥) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين نقلا عن « فوات الوفيات » لصلاح الدين الكتبي/٧١ وكذلك نقله عن الوافي بالوفيات في ص٢٦ .

لقد صدق فيه قول من تغذى بلبانة علمه حين قال : –

« وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين ، وشجىً في حلوق أهل الأهواء المبتدعين ، وإماماً قائماً بنصرة الدين ، وكان بحراً لا تكدره الدلاء وحبراً يقتدى به الأخيار الألباء ، طنَّت بذكره الأمصار ، وظنت بمثله الأعصار » (١) .

وأختتم الحديث في مجال الاتصالات الشخصية لابن تيمية مع الملوك والأفراد والأعيان بقول الشيخ القاضي عماد الدين الواسطي في رسالة بعث بها إلى تلاميذ ابن تيمية وأصحابه يوصيهم به ويحثهم على اتباعه ، ويفند بعض الشبهات التي يثيرها خصوم ابن تيمية ضده والتي منها : أنه يكثر الدخول والاتصال بالسلاطين والأمراء فقال رحمه الله : « وأما دخوله على الأمراء فلو لم يكن ، كيف كان شم الأمراء رائحة الدين العتيق الخالص ؟ ولو فتّش المفتش ، لوجد هذه الكيفية التي عندهم من رائحة الدين ، ومعرفة المنافقين ، إنما اقتبسوها من صاحبكم ... » (٢) .

فهناك اتصالات شخصية بين ابن تيمية والملوك والأمراء من أجل مصلحة الدين وكشف المنافقين ، وإيضاح الحقائق الشرعية لولاة أمر الرعية في الدولة الإسلامية .

كان ابن تيمية شديد العناية بدعوة غير المسلمين من يهود ونصارى وتتر وأمثالهم وقد أسلم على يديه بعض منهم ، ومن اهتمامه بدعوة غير المسلمين كان إذا علم بأحد من الترك التتر أنهم جاءوا لدمشق قابلهم وعرض عليهم الإسلام ، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أكرمهم وأطعمهم ما تيسر ، وأخذ منهم أخبار بلادهم وأحوالهم الخاصة والعامة (٣) . وكان ابن تيمية يعرف اللغة التركية (٤) .

وكان رحمه الله يدعو النصارى إلى الإسلام ويتصل بهم ويتصلون به ويجري بينه وبينهم مناظرات ، قال رحمه الله :« وقد ناظرنا غير واحد من أهل الكتاب وبينا لهم ذلك ، وأسلم من علمائهم وخيارهم طوائف ، وصاروا يناظرون أهل دينهم ، ويبينون ما عندهم من الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم » (٥) ، و « دخل عنده ثلاثة رهبان من الصعيد فناظرهم ، وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار ، وما هم على الذي كان عليه إبراهيم والمسيح . فقالوا له : نحن نعمل مثل ما تعملون : أنتم تقولون بالسيدة

---

(١) العقود الدرية /٧ . (٢) العقود الدرية /٣٢٠ .

(٣) انظر التفسير الكبير ١/١٩٥ .

(٤) انظر " مجموع الرسائل الكبرى " ١/١٢٤ الأعلام العلية الحاشية /١٧ تحقيق الشاويش .

(٥) الفتاوى ٤/٢٠٨ – ٢٠٩ .

نفيسة ونحن نقول بالسيدة مريم ، وقد أجمعنا نحن وأنتم على أن المسيح ومريم أفضل من الحسين ونفيسة ، وأنتم تستعينون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك ، فقال لهم : وأي من فعل ففيه شبه منكم وهذا ما هو من دين إبراهيم الذي كان عليه ... » ، ثم ذكر لهم دين إبراهيم ، وتكلم عن الاستعانة بالخالق والمخلوق وأن من كفر بنبي واحد فقد كفر بالجميع... الخ ، فلما سمعوا ذلك منه قالوا : الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه ثم انصرفوا من عنده » (١) .

وفي سنه ٦٩٨هـ في الثامن من رجب خرج ابن تيمية إلى مخيم « بولاي » مقدم التتر فاجتمع به في فكاك الأسرى المسلمين الذين معه ، فأنقذ كثيراً منهم وفك أسرهم وأقام عند بولاي ثلاثة أيام ، وجرت بين ابن تيمية وبين بولاي وغيره مناقشات ، ويقول ابن تيمية :« فسألني فيما سألني : ما تقولون في يزيد ؟ فقلت : لا نسبه ولا نحبه ، فإنه لم يكن رجلاً صالحاً فنحبه ونحن لا نسب أحداً من المسلمين بعينه ، فقال : أفلا تلعنونه ؟ فقلت له : نحن إذا ذكر الظالمون كالحجاج وأمثاله : نقول كما قال الله في القرآن :﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ » ، ثم تكلم معه في قتل الحسين ، ومحبة أهل البيت ، ورد على من قال إن أهل دمشق نواصب (٢) .

وكان ابن تيمية يتصل برجل يهودي من قضاة اليهود ثم أسلم ويعرف بالشيخ عبدالسيد ، وكان ابن تيمية يتحدث معه في قول الجهمية المعطلة النفاة القائلين بوحدة الوجود وأنه يؤول إلى قول فرعون ، وكان عبدالسيد قبل إسلامه يتصل بشيخ من هؤلاء اسمه« الشرف البلاسي » يطلب منه المعرفة ، « قال : فدعاني إلى هذا المذهب فقلت له : قولكم هذا يشبه قول فرعون . قال : ونحن على قول فرعون ! فقلت لعبد السيد : واعترف لك بهذا ؟ قال نعم ... قاله له عبدالسيد لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون ... فقلت لعبدالسلام – وكان هذا قبل أن يسلم – نفعتك اليهودية ، يهودي خير من فرعون » (٣) ، وكان ابن تيمية يفهم الكثير من اللغة العبرية ، وسمع التوراة التي بين أيديهم » (٤) ، وكان قد أسلم على يديه قبل ذلك يهودي آخر ، كان ابن تيمية وقتها في مراحل الصبا يذهب إلى المكتب وفي طريقه يعترضه يهودي كان منزله

---

(١) الفتاوى ٣٧٠/١ .
(٢) الفتاوى ٤٨٧/٤ – ٤٨٨ ، وانظر البداية والنهاية ٨/١٤ .
(٣) التفسير الكبير ٢٩٧/١ ، ٢٩٨ ، وانظر البداية والنهاية ١٧/١٤ – ١٨ .
(٤) الأعلام العلية الحاشية /١٧ تحقيق زهير الشاويش ، وانظر نقض المنطق /٩٢ .

بطريقه فيسأل اليهودي مسائل لما رأى من ذكاء ابن تيمية وفطنته ، وكان يجيب عليها ابن تيمية سريعاً حتى تعجب منه وذهل ، ثم طمع الفتى بهداية هذا اليهودي فصار كلما مرّ به يكلمه ويخبره عن أشياء تدل عل بطلان ما هو عليه من دين ، فلم يطل الوقت حتى أسلم اليهودي وحسن إسلامه وكان هذا ثمرة الجهد المبارك من ابن تيمية مع صغر سنه [1] .

(١) انظر الأعلام العلية تحقيق زهير الشاويش /١٧ .

الخطابة

المطلب الأول : آراء ابن تيمية في أسلوب ومضمون الخطابة :

من وسائل التواصل العلمي والفكري والعاطفي بين الداعية والمدعوين ينقل بها الداعية ما لديه من أفكار وعواطف ويفرغها في عقول وقلوب المدعوين ليعرفهم من هو وماذا يريد منهم وكيف يكون هذا المراد ، وهي نداء من قلب ملهوف مشفق محب ناصح إلى قلوب لاهية أو غافلة أو شاردة عن الحق . وهي صيحة مدوية بكلمات قوية ، حارة ملتهبة موجهة لأبناء الأمة أن يتيقظوا وينتبهوا ويحذروا من الأخطار المحيطة بهم من داخلهم وخارجهم .

وهي معان وكلمات بليغة مع عاطفة إيمانية رقيقة يناقش فيها الداعية قضية من قضايا الأمة أو يحلل بها حدثاً من الأحداث ، أو يعالج بها مرضاً من الأمراض الاجتماعية أو السلوكية في المجتمع الإسلامي .

وهي أسلوب من القول يطرح فيه الداعية مشروعاً مفيداً للأمة يحركها بإثارة دوافعها الخيرة لتحقيقه وتنفيذه . والخطابة هي كل هذه المعاني والدلالات مجتمعة ومقسطة .

وقبل أن أبدأ بتقسيم الخطابة عند ابن تيمية أطرح بعض أرائه في أسلوب ومضمون الخطابة :

١ - يرى أن الخطابة عريقة في العرب وكان العرب في الجاهلية لهم خطباء مشهورون لهم وزنهم وقدرهم ومكانتهم الاجتماعية المحترمة .

٢ - والرسول صلى الله عليه وسلم هو أخطب العرب وأقدرهم بكل ما يتعلق بالخطابة من المعاني والألفاظ والأداء . لا يجارى ولا يبارى ولا يقارن به أحد صلى الله عليه وسلم .

٣ - برز من المسلمين خطباء في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده . وكان منهم خطباء يخطبون بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم نيابة عنه وهو يستمع

إليهم ويقرهم مثل أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وثابت بن قيس بن شماس (١) وكان يسمى خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وزياد بن أبيه (٢) من أخطب الناس وأبلغهم ... ومعاوية كان خطيباً ، وكانت عائشة من أخطب الناس (٣). وهو بهذا يؤصل هذا الأسلوب وأنه أسلوب في الدعوة من أساليب النبوة ، وخلافاء النبوة ، وسائر السلف الصالحين من بعدهم .

٤ - والخطابة في نظر ابن تيمية تتكون من مجموعة من المضامين ذات الأهمية التي بمجموعها تؤدي إلى التكامل ، فالخطابة ، موقف ، ولفظ ، ومعنى ، وأداء .

ونتحدث عن هذه المضامين بما يوضحها من كلام ابن تيمية رحمه الله .

أ - الخطابة موقف :

الذين يدعمون كلامهم بمواقف فعالة وإيجابية يبرزون بها عن غيرهم إنما يضعون في كلامهم مصداقية القبول والتأثير .

لأن الناس في حال الاضطراب ، والفتن ، والأمور غير الاعتيادية يحتاجون إلى رجال أصحاب مواقف يظهر فيها الشجاعة ، والثبات والإقدام ، والصرامة ، والحكمة ، والحنكة والقدرة السريعة على التفكير والتدبير ، والمبادرة إلى التحرك العملي في اتخاذ مواقف يتصرف الناس على ضوئها ، تجلب لهم الطمأنينة وتوضح لهم غوامض الأمور .

لذا نرى الصحابة رضوان الله عليهم يعبرون عن مثل هذا في سرورهم واغتباطهم بمواقف الصديق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم :« ... قال أنس خطبنا أبوبكر عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وإنا كالثعالب فما زال يشجعنا حتى صرنا كالأسود » (٤) .

---

(١) هو : ثابت بن قيس بن شماس بن مالك بن امرىء القيس الخزرجي الأنصاري خطيب النبي عليه الصلاة والسلام والأنصار رضي الله عنهم .. بشره الرسول بالجنة وقال عنه : نعم الرجل ثابت بن قيس .. شهد أحداً وما بعدها من الغزوات واستشهد يوم اليمامة وكان متحنطاً . انظر الإصابة ١٤/٢ ، سير أعلام النبلاء ٣٠٨/١ ، تهذيب التهذيب ٣٣٢/١ .

(٢) هو : زياد بن عبيد الثقفي ، وهو زياد بن أبي سفيان الذي استعلقه معاوية بأنه أخوه .. ولد عام الهجرة ، وأسلم زمن الصديق وهو مراهق ، وكان كاتباً لأبي موسى الأشعري زمن إمرته على البصرة ،وكان يضرب به المثل في النبل والسؤدد ، أصابه الطاعون سنة ٥٣هـ عندما جمع أهل الكوفة ليعرضهم على البراءة مع أبي الحسن . انظر سير أعلام النبلاء ٤٩٤/٣ ، الإصابة ٥٨٠/١ .

(٣) انظر منهاج السنة ٥١/٨ ، ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) منهاج السنة ١٣٩/٦ ، ٨٣/٨ .

وقد رأينا ابن تيمية رحمه الله وهو يقف مثل هذه المواقف حينما زلزل المسلمون زلزالاً شديداً في الشام في عدد من المرات حتى طاشت عقولهم ، فما زال بهم يثبتهم ويقوي من عزائمهم بكلمات إيمانية ومواقف بطولية حتى يطمئنوا ويسكنوا وترجع إليهم عقولهم .

من ذلك في سنة ٧٠٠هـ في أول شهر صفر وردت الأخبار بأن التتر يريدون بلاد الشام ، والتوجه إلى مصر فخاف الناس وانزعجوا وبلغت القلوب الحناجر ، وأخذوا في الهروب إلى مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة يحتمون بها من العدو . وللدلالة على هذه الحال يخبرنا ابن كثير عن غلاء وسائل النقل غلاءً فاحشاً : حيث بلغ أجرة الحماره إلى مصر (٥٠٠) ، وبلغ ثمن الجمل بيعاً بـ (١٠٠٠) والحمار بـ (٥٠٠) . وباع الناس ممتلكاتهم من الثياب والأمتعة والأشياء الغالية بأرخص الأثمان ، وفي اليوم الثاني منه لم يصبر رجل الملة رجل الملمات والمهمات الصعبة في الأمة ، خصوصاً لما رأى الأمراء والفقهاء والقضاة وأعيان التجار يسابقون العامة في الخروج من دمشق .

جلس شيخ الإسلام في مجلسه في الجامع بدمشق خطيباً يحرض المؤمنين على القتال ، ويسوق لهم الآيات والأحاديث الواردة في فضل الجهاد ومنزلة المجاهدين والشهداء ونصر الله للمؤمنين وولايته ومعيته لهم ، ويقص عليهم من حوادث السلف وفعالهم وينهى عن الإسراع في الفرار ، ويرغب في إنفاق الأموال في الذب والدفاع عن المسلمين وبلادهم وأموالهم .

وقال لهم إن ما تنفقونه في أجرة الهرب والخروج من بلادكم تاركين كل شيء خلفكم لو أنفقتموه في الجهاد والإعداد له لكان خيراً في الدين والدنيا ، وأفتى بوجوب الجهاد ضد التتر حتماً في هذه الكرة وأن النصر متحقق بإذن الله (١) .

وتابع المجلس في ذلك مراراً ، واتصل بنائب السلطان والأمراء والأعيان ممن لم يهرب وقوى عزائمهم وثقتهم ويقينهم بربهم ، فكان ثمرة ذلك أن نودي في البلاد ألا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة فتوقف الناس عن المسير وسكن جأشهم ... (٢) .

هذا موقف من المواقف التي لا يقفها في مثل هذا الوقت إلا أصحاب العزائم والشجاعة والهمم العالية واليقين الصادق وقليل ما هم .

وابن تيمية من هذا القليل جمع في هذا الموقف رباطة الجأش ، والشجاعة ، والكلمة الإيمانية الصادقة ، والتدبير الحكيم ، والمبادرة قبل فوات الأوان فاجتمع فيما

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/١٤ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٣/١٤ .

يرى الناس ويسمعون ، قوة وثبات في الموقف ، ومناسبة في المعنى ، وصدق في الكلمة، مع التصميمة والإرادة العالية ، مع الأداء الذي يتفق في إيقاعه اللفظي ونغماته مع رهبة الموقف ، ورباطة الجأش التي ترى في شاشة الوجه مع كل حرف وكلمة .

في وقعه شَقْحب في رمضان سنة ٧٠٢هـ ، كان لابن تيمية مواقف يندر أن تذكر لأحد مثله من العلماء الكبار بعد جيل الصحابة والتابعين (١). ففي ١٨/ شعبان قدم طائفة كبيرة من جيش المصريين فيهم عدد من الأمراء التقى بهم حين وصولهم وخطب الأمراء وخطب الجيش وأثار نخوتهم وغيرتهم على الإسلام والمسلمين وذكّرهم بعظيم الأجر للمجاهدين والمرابطين .

ثم قدمت طائفة أخرى من الجيش المصري وفيها بعض الأمراء فقابلهم وخطب معهم مثل ما خطب مع الأولين ، وحضر تعاهد الأمراء من الشام ومصر على الجهاد في سبيل الله حتى النصر أو الشهادة في سبيله ، وكان ابن تيمية في لقائه معهم يحلف بالله إنهم لمنصورون في هذه المرة ، ويقولون : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً .

ثم ذهب والتقى بالعسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم ، وخطبهم ووعظهم وذكرهم بفضل الجهاد ، وذكر لهم تحالف إخوانهم الشاميين والمصريين على الجهاد ودعاهم إلى ذلك وحلفوا معه « واتفقت كلمة إجماعهم على تعظيم الشيخ تقي الدين ومحبته وسماع كلامه ونصيحته واتعظوا بمواعظه » .

وتأخر مجيء السلطان من مصر مع بقية الجيش فأرسلوا ابن تيمية إلى مصر مع البريد يستحثه على سرعة المجيء ، فسار إليه وحثه على المجيء بعد أن كاد يرجع إلى مصر ، فكان لابن تيمية دور كبير في تقوية عزيمة السلطان والأمراء والجيش حين خطبهم ورغبهم ورهبهم وذكر لهم حال إخوانهم ، وقوة عزائمهم ، وتحالفهم على القتال ، وأكد لهم النصر في هذه المرة ، ورغب السلطان أن يكون عز الإسلام وخذلان الأعداء على يديه فيكون له في ذلك الشرف العظيم ، فجدت لهم همة ، وانبعثت لهم إرادة ، وانبثق لهم يقين بالله عظيم ، فتحركوا في نية صادقة إلى الشام رغبة في عظيم ثواب الجهاد ، والشيخ معهم يلهب حماستهم ويخطبهم في كل وقت وفرصة ، وينفخ فيهم عزة المسلم ، فوصل الشيخ مع الجيش بقيادة السلطان ومعهم الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان .

---

(١) انظر البداية والنهاية ٢١/١٤ - ٢٣ .

وقف السلطان في صفوف القتال ، فأخذ ابن تيمية يخطب السلطان يحرضه على القتال ، ويذكره بعظم الموقف ، وعظم الأجر ، وييشره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو أنكم منصورون عليهم في هذه المرة ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً . وقد بلغ الحماس والعزم في السلطان مبلغا لا يوصف ، فلما التحمت الصفوف ، وتقابل الجيشان أمر السلطان بجواده فقيد حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف الرهيب (١) .

لقد أثار ابن تيمية بمواقفه وبكلماته وبآرائه براكين القلوب فتفجرت حماساً ، والتهبت النفوس غيرة واشتعلت إيماناً ، فتولدت قوة عظيمة مرتبطة بالله ، لا تصدها الجبال ولا يقف أمامها صناديد الرجال . فنزل النصر في شهر الانتصارات وفرح المسلمون بنصر الله .

إن الخطب الرنانة لا تفيد وحدها ما لم يكن وراءها ما يصدقها من الأفعال التي تراها الأعين وتلمسها الأيدي ، انها تظل كلمات ميتة كالجثث المحنطة ، فإذا ما حركت بالجهد والعناء ، وسقيت بالعرق والدماء ، انتفضت وعاشت حية ، وبدون ذلك فإنها ستكون خامدة لا تحرك مشاعر ولا توقظ ضمائر ، ولا تهز النفوس وتظل في إطار المقت الكبير .

ب - الخطابة لفظ ومعنى :

الله جل جلاله أمر رسوله أن يقول لقومه قولاً بليغاً، فما هي هذه البلاغة المأمور بها ؟

يجيب ابن تيمية فيقول : « هي علم المعاني والبيان ، فيذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة للمطلوب ، ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني . فالبلاغة: بلوغ غاية المطلوب ، أو غاية الممكن من المعاني بأتم ما يكون من البيان ، فيجمع صاحبها بين تكميل المعاني المقصودة ، وبين تبيينها بأحسن وجه » (٢) .

فبلوغ الغاية في انتقاء المعاني الجيدة والآراء والأفكار الصائبة التي تفي بتحقيق المراد أمر مطلوب ، ووصفها من غير تقليل أو تنفيش في قوالب لفظية ومضامين كلامية تجعلها في مكان ذوقي مقبول محترم أمر أيضاً مطلوب ومراد ، بحيث لا تصبح هذه الكلمات هابطة فتهبط بالمعنى معها ، ويقل التفات السامع إليه ، ولا تكون فضفاضة

---

(١) انظر العقود الدرية /١٧٦ ، ١٧٧ محمد حامد الفقي .

(٢) منهاج السنة ٨ / ٥٤ .

فتذهب المعنى ، فالأول : اهتمام بالمعنى ، وهو علم المعاني . والثاني اهتمام بالمبنى وهو : علم البيان ، لأن المعاني أماكنها العقول والقلوب ، واللسان يبين عنها حين يغرف من القلب والعقل بالكلمات العذبة الرائقة الأخاذة الساحرة سحراً حلالاً (١) . ثم ينتقد مسالك الخطباء والمتكلمين المخالفة لهذا المنهج وهي ثلاثة مسالك :

الأول : الذين يهتمون بالمعاني فقط دون اهتمام بالألفاظ التي يبينون بها تلك المعاني التي تعبوا في إجادتها ، فإنه هنا أخبر وبين فأمر ، لكنه لم يحكم بيانه ، أو المأمور به فجاء ناقصاً في عدم إظهار الحكمة ، وهي إظهار دلائل الصدق والثبوت الموجودة في الكلام وإبرازها للمخاطب فأتي من حيث البيان لا من حيث المعاني .

المسلك الثاني : الذين يحرصون على الألفاظ وأن تكون ذات أوزان وكلمات فخمة باهرة عبرت عما في نفسه من المعاني ، لكن هذه المعاني لم تحمل مضامين كبيرة محصلة للمطلوب المراد بيانه أو الإخبار به ، لأنه لم يهتم بأن تكون هذه المعاني وافية بأن تحمل دلائل ثبوتها ، فأتى من حيث المعاني لا من حيث البيان . ومثل هذا كمثل الذي يزخرف السلاح وهو جبان ، والتكلف بالقول ليكون على أسجاع وأوزان وجناس ومطابقة متماثلة يظهر فيها الكلام فجاً ثقيلاً مرهقاً للنفس لكثرة التكلف في الصنعة ، من دون مضمون مناسب ، هذا مخالف لنهج الخطباء الفصحاء من الصحابة والتابعين ، ولا كان ممّا تهتّم به العرب في خطابتها تكلفاً له .

فهو يدعو إلى منهج سلفي في الخطابة بأن « ... يذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة للمطلوب ، ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني » (٢) .

المسلك الثالث : عدم العناية بالمعاني وعدم العناية بالألفاظ ، وهؤلاء الذين ليس لهم هدف نبيل ولا غاية محمودة ، هدفهم تحصيل المدح والثناء والثراء ، ولهو الناس وأنسهم وتسليتهم ، وهؤلاء يقعون في إسفاف وسفول في المعاني والبيان .

ج - الخطابة أداء :

الأداء في الخطابة : يكون متناسباً ومتناسقاً مع متطلبات الموقف الذي يخطب ويتكلم من أجله ، ويحصل به جلب ذهن المخاطب وشد انتباهه .

كالوقوف ، والحركة ، والإشارة ، وتغير ملامح الوجه ، ورفع الصوت وتغيير

---

(١) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن من البيان لسحرا) صحيح الجامع الصغير ، تخريج الألباني ، رقم الحديث ٢٢١٦.

(٢) انظر منهاج السنة ٥٤/٨ ، ٥٥ .

الهيئة التي عليها الإنسان حين بداية خطابته ، كأن يغير من وضع جلوسه أو وضع قيامه أو يشير بيده ، أو يهزها ، وهذا كله وارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى مسلم في صحيحه عن جابر قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين – ويقرن بين أصبعيه : السبابة والوسطى – ويقول : أما بعد ...) [1] .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يخطب في غير الجمعة أحياناً واقفاً ويحدث أصحابه ويطيل حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، جاء ذلك فيما رواه أوس بن حذيفة قال :(قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة [2] ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني مالك في قبة له قال : وكان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش ، ثم يقول لا سواء كنا مستضعفين مستذلين بمكة ، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا ...) [3] » [4]

د – الخطابة قدرة :

ما كل عالم خطيباً ولا كل خطيب عالماً :

فلا يلزم من وجود العلم القدرة على الخطابة ، لأن البعض إذا كان لديه علم فإنه ليس له القدرة على وصف هذا العلم وبيانه بأدلته وتشعباته وأقوال العلماء فيه .

والعلم ليس هو الكلام ، بل الكلام هو التعبير عن ذلك العلم ، وهذا الكلام يسمى علماً « ولهذا يقال العلم علمان : علم في القلب وعلم على اللسان ، فعلم القلب هو

---

(١) أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة ، صحيح مسلم ٥٩٢/٢ .

(٢) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي ، من دهاة العرب صحابي جليل ولد في الطائف سنة ٢٠ قبل الهجرة أسلم عام ٥هـ ، شهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام والقادسية ونهاوند وغيرها ، تولى البصره في زمن عمر توفى سنة ٥٠هـ . انظر الإصابة ٢٦٩/٩ ، سير أعلام النبلاء ٢١/٣ .

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة ، باب تحزيب القرآن ، سنن أبي داود ١٦٤/٢ رقم ١٣٩٣ . وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة ، باب في كم يستحب أن يقرأ القرآن ، سنن ابن ماجه ٤٢٧/١ رقم ١٣٤٥ .

(٤) أورد ابن الأثير القصة كاملة في ترجمة لأوس بن حذيفة . انظر سنن أبي داود وابن ماجه وأسد الغابة لابن الأثير ١٦٧/١ – ١٦٩ ، التفسير الكبير ٢٧٨/٢ – ٢٧٩ .

العلم النافع ، وعلم اللسان هو حجة الله على عباده » (١) ، « وعدم البيان صفة نقص ، فإن الله ميَّز الإنسان بالنطق والبيان الذي فضله به على سائر الحيوان كما قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (٢) ، وأهل المنطق يقولون : الإنسان هو الحيوان الناطق ، ولما كان هذا أظهر صفاته قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٣) » (٤) . فكونه قادراً على البيان صفة مدح وثناء يزيد هذا بزيادتها ، ولا يلزم من كون المرء خطيباً لامعاً مؤثراً أن يكون عالماً فقيهاً يستفتى بالأحكام ، ولكن القدرة الخطابية بلا فقه يؤيدها ويركزها لا تمدح ، لأن لها مزالق خطرة فقد يتصدّر بها الرجل ، ويصبح في أعين الناس كبيراً فيستفتى في مسائل كبار فيظن أنه يعلم فيفتي بجهل ، وقد يفتي في قضية من قضايا الأمة فلا يوفق في فهم الحق فيها فيوقع الناس في التخبط ويتناقض هو مع غيره من أهل العلم .

ويدل لهذا المعنى الأثر الذي أورده ابن تيمية قال : « وقال عبدالله بن مسعود (٥) رضي الله عنه : إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه ، كثير معطوه قليل سائلوه ، وسيأتي عليكم زمان كثير خطباؤه قليل فقهاؤه ، قليل معطوه كثير سائلوه »(٦) ، فالفقيه الذي تفقه قلبه ، غير الخطيب الذي يخطب بلسانه » (٧) . ويحصل لقلب بعض الناس فقه عظيم وفهم دقيق مما لا يتصور في قوته وغزارته ، ومع ذلك لا يكون من الذين يخاطبون به غيره . ولا يعني كونه لا يخاطب الغير بعلمه وفقهه أنه عادم لذلك العلم والفقه، فعدم خطابته ليس علماً بعدم علمه وفقهه (٨)، مع أنه يوجد من يخطب « ويخاطب غيره بأمور كثيرة من معارف القلوب وأحوالها وهو عار عن ذلك فارغ منه» (٩) ، فليس في علمنا بخطابته وخطابه علم بفقهه وصلاحه وتقواه فقد يتكلم بكلام الله وكلام رسوله ويقرأ القرآن وهو منافق ليس في قلبه إيمان كما قال الله عنهم : ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (١٠) ، وقد جاء في الصحيحين ما يدل على أن الرجل يقرأ القرآن وهو منافق (١١) » (١٢) .

---

(١) الدرء ٤٥٣/٧ . (٢) سورة الرحمن الآيات (١ - ٤) . (٣) سورة الذاريات آية (٢٣) .
(٤) الدرء ٣٦٥/٧ . (٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٩٨) .
(٦) حديث حسن من حديث حكيم بن حزام مرفوعاً عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٢٧/١ إلى الطبراني في المعجم الكبير .
(٧) الدرء ٤٥٣/٧ . (٨) انظر المرجع السابق . (٩) الدرء ٤٥٣/٧ . (١٠) سورة المنافقون آية (٤) .
(١١) متفق عليه عن أبي موسى أخرجه البخاري كتاب الأطعمة ، باب ذكر الطعام ، فتح الباري ٥٥٥/٩ . ومسلم كتاب صلاة المسافرين ، باب فضيلة حافظ القرآن ، صحيح مسلم ٥٤٩/٤ .
(١٢) انظر الدرء ٤٥٣/٧ .

المطلب الثاني : أنواع الخطابة :

ابن تيمية خطيب مؤثر كلامه ينفذ إلى القلوب فتتفاعل معه ويظل هذا التفاعل يتردد صداه في داخل نفوس السامعين ، يبرهن لذلك ما يرويه بعض قدماء أصحابه بقوله : « ولقد كنت في تلك المدة وأول النشأة إذا اجتمعت به ... وتكلم مع حداثة سنه أجد لكلامه صولة على القلوب ، وتأثيراً في النفوس ، وهيبة مقبولة ونفعاً يظهر أثره وتنفعل له النفوس التي سمعته أياماً كثيرة بعقبه . حتى كأن مقاله ظاهر بلسان حاله ، شهدت ذلك منه غير مرة » (١) .

وكان رحمه الله متكلماً فصيحاً بليغاً إذا تكلم كأنما يغرف من بحر وكأن العلوم والمعارف بين يديه يختار منها ما يشاء ، وله قدرة عجيبة باهرة في استحضار النصوص الشرعية ، وأقوال العلماء والحكماء وغالباً أنه يذكر مواطنها ومصادرها وقلما يخطىء في ذلك .

فمؤهلات الخطابة والتحدث موجودة لديه على أتم الوجوه وأكملها فالقدرة العلمية، والبيانية ، والشجاعة ورباطة الجأش ، والشخصية المهيبة الجذابة ، والصوت القوي المدوي ، إضافة إلى حسن الخلق والبشاشة والحكمة في مخاطبة الناس .

وبعد تأمل ونظر رأيت أن خطب ابن تيمية تدور ضمن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : الخطب العلمية .

النوع الثاني : الخطب العاطفية الحماسية .

النوع الثالث : الخطب الإنكارية أو الدفاعية .

ونتحدث عن كل نوع من هذه الأنواع :

النوع الأول : الخطب العلمية :

وهي الخطبة التي تأتي لمعالجة قضية حدثت أو نتجت عن خلاف علمي بينه وبين خصومه ، فهي تحتاج إلى الناحية العلمية وإلى الناحية الخطابية ليؤدي المجموع إلى إشباع فكري عاطفي يولد القبول والتسليم والانقياد بقناعة تامة . وهي تختلف عن الدرس العلمي : بأن الدرس لا يأتي لحل قضية ومشكلة ، ثم الدرس العلمي لا يحتاج إلى الطرح الخطابي واللمسات العاطفية ، فالخطابة العلمية تختلف عن الدروس العلمية في

(١) العقود الدرية /٦ .

الباعث ، والقصد ، والأداء .

والخطابة العلمية تتشكل من عدد من المكونات المتوزعة في عدد من الأساليب والوسائل فتأخذ من الجدل ، ومن الدروس العلمية ، ومن الخطابة بعض ملامحها وخصائصها [(١)] .

ومثال الخطب العلمية :

في رابع شهر رجب سنة ٧١١هـ جماعة من الغوغاء جاءوا إلى الشيخ بجامع مصر وتفردوا به وضربوه ثم قام جماعة من الحسينية وغيرها رجالاً وفرساناً للانتقام لابن تيمية ولكنه تلطف معهم ، وعفا عمن آذاه وهدأ هؤلاء الثائرين ، وتوجه للصلاة في الجامع وكانوا خائفين عليه منهم فطلبوا منه أن يصلي في مكانه فأبى إلا الصلاة في الجامع . ثم مشى قاصداً الجامع والناس يقولون : هنا يقتلونه ، الساعة يقتلونه ، فدخل الجامع ودخلنا معه فصلى ، فلما سلم منها أذن المؤذن بالعصر فصلى العصر ، ثم افتتح بقراءة : (الحمد لله رب العالمين) ثم تكلم في المسألة التي كانت الفتنة بسببها إلى أذان المغرب . فخرج أتباع خصومه وهم يقولون : والله لقد كنا غالطين في هذا الرجل لقيامنا عليه ، والله إن الذي يقوله هذا ، هو الحق ، ولو تكلم هذا بغير الحق لم نُمهله إلى أن يسكت ، بل كنا نبادر إلى قتله ، ولو كان هذا يُبطن خلاف ما يُظهر لم يخفَ علينا ، وصاروا فرقتين يخاصم بعضهم بعضاً » [(٢)] .

وفي يوم السبت التاسع جمادي الأول سنة ٧٠٥هـ اجتمع جماعة من الأحمدية الرفاعية عند نائب السلطنة بالقصر ، وحضر الشيخ تقي الدين ، وطلبوا أن يسلم إليهم حالهم ، وأن الشيخ تقي الدين لا يعارضهم ولا ينكر عليهم وأرادوا أن يظهروا شيئاً مما يفعلونه ، فانتدب لهم الشيخ – فحمد وأثنى على الله – وتكلم باتباع الشريعة ، وأنه لا يسع أحداً الخروج عنها بقول ولا فعل ، وذكر أن لهم حيلاً يتحيَّلون بها في دخول النار وإخراج الزبد من الحلوق وقال لهم : من أراد دخول النار فليغسل جسده في الحمام ، ثم يدلكه بالخل ثم يدخل ، ولو دخل لا يُلتفت إلى ذلك بل هو نوع من فعل الدّجال عندنا ، وكانوا جمعاً كثيراً وقال شيخ منهم : نحن أحوالنا تنفق عند التتار ما تنفق قدام الشرع ، وانفصل المجلس على أنهم يخلعون أطواق الحديد ، وعلى أن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت رقبته » [(٣)] .

---

(١) العقود الدرية / ١٩٤ ، ٢٨٨ .
(٢) العقود الدرية /٢٨٥ – ٢٨٨ تحقيق محمد حامد الفقي .
(٣) العقود الدرية /١٩٤ ، ١٩٥ .

وتكلم مع دجاجلة البطائحية وقد التقى بشيخ من شيوخهم في المسجد الجامع فكلمه ونهاه عن لبس الحديد له ولطائفته « وقلت هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعل ذلك أحد من سلف الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم ،ولا يجوز التعبد بذلك ولا التقرب به إلى الله تعالى لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة ... فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به » (١) .

وسبق أن تكلم ابن تيمية فيما بينه وبين هذا الشيخ ، ثم تكلم معه مع بعض أصحابه وفي كل ذلك يناصحه ويبين له الحق ، ثم لما علم وجوده في المسجد نقل القضية إلى نطاق أوسع فبدأ يتكلم مع هذا الشيخ في المسجد والجميع يسمعون منه بيان ضلال هؤلاء ومخالفتهم للشريعة .

النوع الثاني : الخطابة الحماسية العاطفية :

برز هذا النوع من الخطابة عند ابن تيمية في مواطن الإحساس بالخطر ، أو مواطن الانفعال العاطفي في بعض مواطن جدله مع الخصوم حينما يتفكر في نفسه وما هو عليه من الحق وما قام به من خدمة للإسلام بإخلاص ، وفي خصومه الذين على انحراف عن منهج السلف قاطع به تماماً مع تخاذلهم عن القيام بالواجب في إنكار المنكر ومناصحة ولاة الأمور والسعي في مواطن الشدة لتحريك همم المسلمين نحو الجهاد ومقابلة الأعداء .

بل يعلم أنهم أسلموا البلاد وولوا هاربين بأهليهم وأموالهم وكل ما استطاعوا حمله . ينطلق بعد هذا التأمل من داخله بركان من الحماس والاندفاع العاطفي يترجمه بكلمات حماسية يوجهها إلى الحاضرين .

يقول الإمام الذهبي عن هذا الاندفاع والحماسة حين كلامه للدفاع أو الإقناع ، أنه ينطلق بحدة وقوة « حتى كأنه ليث حرب » (٢) .

نموذج ذلك ما حدث في المجلس الثاني من مناظرته في عقيدته في دمشق وقد جاء خصومه هذه المرة باستعداد عظيم وقد بحثوا واتفقوا وتواطأوا ، وحضروا بقوة واستعداد غير ما كانوا عليه؛ لأن المجلس الأول كان بغتة له ولهم ،قال رحمه الله عنه: « فلما اجتمعنا – وقد أحضرت ما كتبته من الجواب على أسئلتهم المتقدمة التي طلب تأخيره إلى هذا اليوم – حمدت الله بخطبة الحاجة ، خطبة ابن مسعود رضي

(١) الفتاوى ١١/٤٤٩ . (٢) العقود الدرية /١١٨ .

الله عنـه (١) (٢) ثم قـلت : إن اللـه أمرنـا بالجمـاعة والائتـلاف ، ونهـانـا عن الفـرقة والاختلاف، وقـال لنا في القـرآن : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (٤) ،وقال ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (٥) وربنا واحد ، وكـتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين ، وهو متفق عليـه بين السلف ، فإن وافق الجماعة فالحمد لله ، وإلا فمـن خالـفني بـعد ذلـك ، كشـفت له الأسـرار ، وهتـكت الأستـار ، وبيـنت المـذاهب الفـاسدة ، التـي أفسدت المـلل والدول ،وأنـا أذهب إلى الـسلطـان الوقت عـلى البـريد ، وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس ، فإن للسلم كلاماً وللحرب كلاماً . » (٦).

وقال في المجلس الأول بعد أن ذكر جمل الاعـتقادات في أبواب الصـفات والقدر ومسائل الإيمان والوعيـد والإمامة والتفضيل : « ثم قلت للأميـر والحاضرين : أنا أعلم أن أقواماً يكذبون علي ، كما قد كذبوا علي غـير مرة ، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون كتـم بعضه أو داهن وداری ، فأنا أحضر عقـيدة مكتوبة من نحو سبـع سنين قبل مجيء التتر إلى الـشام ... إلى أن قال وتكلمت بكلام احتجت إلـيه ، مثل أن قلت : من قام بـالإسلام فـي أوقات الحـاجة غـيري ؟ ومـن الذي أوضـح دلائلـه ، وبينه ، وجـاهد أعداءه، وأقـامه لما مـال ، حين تخلـى عنه كـل أحد ، فلا أحـد ينطق بـحجتـه ، ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهراً لحجته ، مجاهداً عنه ، مرغباً فيه ؟

فإذا كان هؤلاء يطمعـون في الكلام فيّ ، فكيف يصنعون بـغيري ؟ ولو أن يهودياً طلب مـن السلطـان الإنصاف لوجـب عليه أن ينـصفه وأنا قـد أعفو عن حـقي ، وقد لا أعفو ، بل قد أطلب الإنصاف منه ، وأن يُحضر هؤلاء الذين يكذبون عليّ ليحاققوا على افترائهم ، وقلت كلاماً أطول من هذا الجنس ، لكن بعد عهدي به ... » (٧) .

---

(١) حسن من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه أبو داود في كتاب النكاح ، باب في خطبة النكاح، سنن أبي داود ٢/٥٩١ رقم ٢١١٨ . والترمذي في كتاب النكـاح ، باب في خطبة النكـاح ، وحسنه الترمذي ، سنن الترمذي ٣/٤١٣ رقم ١١٠٥ .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٩٨) .

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٣) .

(٤) سورة الأنعام آية (١٥٩) .

(٥) سورة آل عمران آية (١٠٥) .

(٦) العقود الدرية /٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٧) العقود الدرية /٢٠٩ - ٢١٠ تحقيق محمد حامد الفقي .

ومثال خطبته الحماسية العاطفية في مواطن الإحساس بالخطر ، لما أرسل أمراء الشام ابن تيمية مندوباً عن أهل الشام يكلم السلطان في مصر لإرسال جيش مصري يساعد الجيش الشامي في مواجهة التتار العدو الفاتك الغدار ، فذهب ابن تيمية إلى مصر مع البريد وكله حماس لإقناع السلطان بخطورة الوضع ، وأنه بموجب ولايته على الشام يلزمه حمايتها ونجدتها ، وأنه لابد أن يكون رسولاً ناجحاً محققاً لآمال من أرسله منقذاً لبلد من بلاد الإسلام من خطر الدمار والعار .

قال ابن كثير : « ... فساق وراء السلطان وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة وتفارط الحال ، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة ، وقال لهم فيما قال : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن ، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام ، ثم قال لهم : لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم ، وقوّى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة فخرجوا إلى الشام» (١) .

وذكر ابن عبدالهادي هذا الموقف وظهر فيه تأثير خطب ابن تيمية فيهم قال : « فاجتمع - يعني ابن تيمية - بالسلطان وأركان الدولة ، واستصرخ بهم وحضهم على الجهاد ، وتلا عليهم الآيات والأحاديث ، وأخبرهم بما أعدّ الله للمجاهدين من الثواب فاستفاقوا ، وقُوِّيت هممهم ، وأبدوا له العذر في رجوعهم ... ونودي بالغزاة وقوي العزم ، وعظّموه وكرموه ... » (٢) .

وفي سنة ٦٩٧هـ حصل بعض الفتوح بعد جهاد مشكور من جيش مصر وأصيب بعض الأمراء فيه وكان ذلك في رمضان بعد منتصفه .

فلما كان يوم الجمعة ١٧ في شهر شوال عمل ابن تيمية ميعاداً خطب الناس في الجهاد وشجعهم عليه وأثار حماسهم إليه ، وقد ركز على بيان ما أعده الله للمجاهدين من الثواب وكان ميعادا حافلاً جليلاً مؤثراً عظيم النفع (٣) .

النوع الثالث : الخطب الإنكارية :

وهي الخطب التي يكون دافعها إنكار شيء معين حدث ، يحتاج في إنكاره إلى

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٤ . (٢) العقود الدرية /١١٩ .

(٣) انظر البداية والنهاية ٣٣٤/١٣ .

أسلوب خطابي ، يحمل إقناعات للمنكر عليه ، مع وعظ بترغيب وترهيب .

وهذا غالباً يكون في الأمور الكبار مع الأعيان ، ويخشى من خطر هذا الحدث أو الأحداث على الأمة ، ويلزم لمنعه إيضاح خطورته ومخالفته الشرعية وحمل نفس المخاطب وإثارة مشاعره وإيقاظ حميته لعدم تنفيذ أمر معين أو تركه أو إلغائه إذا كان منفذاً .

وقد تعرض ابن تيمية لعدد من المواقف احتاج فيها إلى هذا النوع من الخطابة الإنكارية ، حيث ينكر بأسلوب خطابي وعظي . يجمع فنوناً من القول والاستدلال والعاطفة والجرأة والإقدام ، والشجاعة ، وإثارة عواطف المخاطب ، وتذكيره بما يهيء قبوله واندفاعه لتحقيق المراد ، وذلك باستعمال خلفيته التاريخية عن المخاطب شخصياً وعن أسرته وأقاربه ونحو ذلك .

ولعل الأمثلة التي أذكرها تبين هذا النوع من الخطابة .

أمثلة ونماذج للخطابة الإنكارية :

من المواقف البارزة لابن تيمية مقابلته لملك التتر قازان ومخاطبته له في أخذ الأمان لأهل دمشق ، وجرأته التي بهرت الجميع حتى أيقنوا أن التتري سيريق دمه حتى جعل بعضهم يكفكف أثوابه خوفاً من تلوثها بدمه ، وهذه الحادثة حكايتها :

أنه « لما ظهر السلطان قازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكُرج وبذل له أموالاً جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ووصل الخبر إلى الشيخ – فحثهم على الاستعداد للجهاد – ... فانتُدب منهم رجالٌ من وجوههم وكبرائهم وذوي الكلام منهم ، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان قازان . فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق . فأذِن لهم ، فحضروا بين يديه فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولاً ، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة رضي الله عنه . حتى أدناه وأجلسه . وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكُرج على المسلمين وضمن له أموالاً وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكره ووعظه ، فأجابه إلى ذلك طائعاً ، وحقنت بسببه دماء المسلمين ، وحميت ذراريهم ، وصين حريمهم ... فجعل ... الشيخ يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه

بكليته ، مصغ لما يقول شاخصٌ إليه لا يعرض عنه ، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته : من هذا الشيخ ؟ وقال ما معناه : إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه ... » [1] .

ولما عاد الملك الناصر محمد قلاوون إلى حكم مصر أخرج ابن تيمية من السجن واستقبله بحضور الكبار من القضاة والفقهاء والأمراء من مصر والشام استقبالاً عظيماً... وفي المجلس تكلم الوزير في إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض ، وأنهم قد التزموا للديوان بسبع مائة ألف في كل سنة ، زيادة على الحالية فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من أهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكاني... فقال لهم السلطان : ما تقولون ؟ يستفتيهم في ذلك ، فلم يتكلم أحد ، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ وردَّ على الوزير ما قاله رداً عنيفاً ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويسكته برفق وتؤدة وتوقير . وبالغ الشيخ في الكلام وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ، ولا بقريب منه ، وبالغ في التشنيع على من يوافق في ذلك . وقال للسلطان حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية ، فاذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك ، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك ، فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدد عليهم ذلك ، فقال : والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائباً لك ، فأعجب السلطان ذلك واستمرّ بهم على ذلك ... » [2] .

(١) الأعلام العلية / ٦٤ ، ٦٥ صلاح الدين المنجد .
(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٤٦ - ٤٧ .

الرسائــــل الشخصيـــة

وهي وسيلة من الوسائل النبوية ذات أهـمية في إيصال الدعوة إلى الآخرين الذين لا يمكن الاتصال بهم شخصياً ، ولا يمكن حضورهم ليسمعوا من الدعاة .

والرسائل كوسيلة من وسائل الدعوة استخدمها ابن تيمية استخداماً واسعاً سواء مع المسلمين المخالفين له في بعض العقائد والاجتهادات العلمية ، أو الأصدقاء والأقارب ، وخاصة المسلمين وعامتهم أو مع غير المسلمين إما لدعوتهم ، أو لغرض معين من أمور الأمة أو لهما جميعاً .

وهي وسيلة من وسائل التواصل العلمي والفكري بين الدعاة والعلماء والمفكرين والمثقفين وأهل الرأي في العالم كله ، ولقد أدت ثمرات كبيرة في إيضاح الحقائق وكشف الغوامض ، وبيان اللبس في عدد من القضايا والأنباء ونحو ذلك .

والرسالة تتيح للمرسل أن يركز على قضايا يحب اطلاع المرسل إليه عليها فيعالجها معالجة تناسبه من جميع الأمور ، ويركز على ما يهتم به المرسل إليه ويبحث عن مداخل نفسه وأبوابها ليأتي إليه منها فيُدْخِل الحق إلى قلبه وعقله .

وقد استطاع ابن تيمية أن يوصل الحق إلى علماء كبار وإلى سلاطين وأمراء وإلى بلدان اطلع على رسائله فيها أهل الحل والعقد وقاعدة عريضة من الناس وهو في مكانه في دمشق أو مصر .

وقد كانت هذه الرسائل والأجوبة تحدث قلقاً وهماً لخصومه حيث أن كل رسالة أو إجابة يرسلها إلى بلد تعصف بأهل البدع وتزلزل كيانهم . وكلما هدأت معركة بسبب ذلك تفجرت معركة أخرى .

وكان يعتني بهذه الرسائل والإجابات التي يرسلها عناية كبيرة يزيل بها غشاوة الجهل ، ويبدد بها ظلمة البدع والمناهج التي شطحت بعلماء الأمة ودعاتها عن منهج السلف القرآني النبوي .

وإنني لألفت انتباه الدعاة إلى مثل هذه الأساليب التي هي قنوات للتواصل العلمي والفكري فيما بينهم ، وأن تكون كرسائل ابن تيمية فيها من الإنصاف والحب واحترام الآخرين والحرص على دلالتهم على الخير ، من غير إشعار بالأستاذية ، ولا

إظهار للتعالي على الغير ، ورغبة الانتصار والتفوق ، ومخالفة هذا المنهج من معوقات قبول المرسل إليه أو المخاطب لما يوجه إليه .

ويرى ابن تيمية أن الخصم إذا استعمل معنا وسيلة من الوسائل أن نعكسها عليه[1]. ونقابله بنفس وسيلته لتكون قوة الدفع بالوسائل متماثلة وقوة البيان أيضاً متماثلة ويبقى هو نصيره في وسيلته الشيطان وأولياؤه ، ويبقى نصيرنا الرحمن وأولياؤه .

أرسل شيخ من شيوخ الصوفية لابن تيمية كتاباً بعد كتاب وفيه أدلة مكذوبة وإسرائليات وحكايات مختلفة ، فرد عليه ابن تيمية بكتاب مع أحكام الاتصال بهذا الشيخ وأتباعه ولكنه يبرر ذلك قائلاً :« فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب ، فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذاك » [2].

ويجوز استعمال وسيلة الخصم أو مماثل لها إذا لم يكن في الشرع معارض لها، فالوسائل في الشريعة لها أحكام المقاصد .

ونقسم هذا المبحث إلى مطلبين :

الأول : رسائل ابن تيمية إلى المسلمين .

الثاني : رسائل ابن تيمية إلى غير المسلمين .

المطلب الأول : رسائل ابن تيمية إلى المسلمين

أ - رسائله إلى الأفراد .

ب - رسائله إلى أقاربه وعموم تلاميذه وأصحابه .

ج - رسائله إلى البلدان .

أ - رسائله إلى الأفراد :

بعث ابن تيمية عدداً من الرسائل يوم كان في دمشق إلى بعض العلماء في مصر وغيرها ، تتضمن هذه الرسائل مواضيع علمية وتعريفاً بمراده وقصده في دعوته وعقيدته.

وأكثر رسائله كانت تحتوي إيضاح بعض الأمور في العقيدة ، أو توجيه ملاحظات ونهي عن منكرات قد وقع بها عالم معين وتبعه فيها آخرون .

مع الإشادة والثناء وإظهار الاحترام والتقدير والإجلال ، ومن هذه الرسائل التي بعثها للعلماء ما يلي :

(١) بشرط أن تكون من الوسائل الجائزة في ديننا . (٢) مناظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحية / ٣٠ ، ٣١ .

١ – رسالة كتبها إلى الشيخ شمس الدين الدباهي ، وتسمى المدنية .

٢ – ورسالة كتبها إلى الشيخ نصر المنبجي ، تسمى المصرية .

٣ – رسالة كتبها إلى القاضي شمس الدين السروجي ، قاضي الحنفية بمصر .

٤ – ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ عدي بن مسافر ، تسمى العدوية .

٥ – ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ جاكير ، وأرسل إليهم أجوبة في مجلد غير الرسالة .

٦ – ورسائل أخرى إلى عدد من القضاة والعلماء (١) .

من رسائله إلى العلماء الرسالة المصرية إلى الشيخ أبي الفتح المنبجي :

في سنة ٧٠٤هـ (٢) كتب ابن تيمية كتاباً أرسله إلى الشيخ أبي الفتح نصر المنبجي المتوفى سنة ٧١٩هـ (٣) .وموضوع هذه الرسالة بيان حال شيوخ أهل الحلول والاتحاد : أمثال : ابن عربي والحلاج ، والتلمساني ، والبلباني من مشايخ شيراز ، وهذا الشيخ المرسل إليه من المعظمين لابن عربي وأمثاله ، ويظهر في هذا الخطاب إشارة إلى أن ابن تيمية قد أرسل له رسالة قبل ذلك أشار إلى موضوع الحلول والاتحاد وتكلم فيه من غير إطالة .

وفي هذا الخطاب تأدب وتلطف مع الشيخ أبي الفتح ، وفيه ثناء وتعظيم ، واعتراف بمكانة الشيخ وعلو قدره ، وحاجة الناس إلى منزلته وجاهه .

وفيه بيان مقصده وأنه إرادة الحق وأن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله وإرادة الخير لأهل التصوف ، والشيخ واحد منهم . وغير ذلك مما يتضح لك مما سننقله من فقرات قليلة من هذه الرسالة التي قال فيها : « ... وقد بلغني أن بعض الناس ذكر عند خدمتكم الكلام في مذهب الاتحادية ، وكنت قد كتبت إلى خدمتكم كتاباً اقتضى الحال من غير قصد أن أشرت فيه إشارة لطيفة إلى حال هؤلاء ولم يكن القصد به والله أحداً بعينه ، وإنما الشيخ هو مجمع المؤمنين فعلينا أن نعينه في الدين والدنيا بما هو اللائق .

---

(١) العقود الدرية /٥٠ .

(٢) في جلاء العينين في محاكمة الأحمدين أنه ٦٠٤هـ ومعلوم أن مولد ابن تيمية ٦٦١هـ ولعله غلط من الطابع ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين /٨٧ .

وأما هؤلاء الاتحادية فقد أرسل إلى الداعي من طلب كشف حقيقة أمرهم وقد كتبت في ذلك كتاباً ربما يرسل إلى الشيخ ، وقد كتب سيدنا الشيخ عماد الدين في ذلك رسائل .

والله تعالى يعلم وكفى به عليما لولا أني أرى دفع ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى السالكين إليه من أعظم الواجبات ، وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين - لم يكن للمؤمنين بالله تعالى ورسوله حاجة إلى أن يكشف أسرار الطريق ، وتهتك أستارها .

ولكن الشيخ أحسن الله تعالى إليه يعلم أن مقصود الدعوة النبوية بل المقصود بخلق الخلق وإنزال الكتب وإرسال الرسل أن يكون الدين كله لله هو دعوة الخلائق إلى خالقهم بما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [١] » [٢]... - ثم ذكر أنه لم يتبين عنده أولاً حال ابن عربي وكان يحسن به الظن ويعظمه ، وبعد ذلك كان يجتمع بأهل التصوف يطلب الحق في هؤلاء وغيرهم - ثم تبين له الحق وعرفه « فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا »[٣]. ثم أخذ في بيان ضلال هؤلاء القائلين بالحلول والاتحاد وما قاله العلماء المتقدمون والمعاصرون له في كفرهم .

ثم قال : « وهذا الكتاب مع أني قد أطلت فيه الكلام على الشيخ أيده الله تعالى بالإسلام ، ونفع المسلمين ببركة أنفاسه وحسن مقاصده ونور قلبه . فإن ما فيه نكت مختصرة فلا يمكن شرح هذه الأشياء في كتاب .

ولكن ذكرت للشيخ أحسن الله تعالى إليه ما اقتضى الحال أن أذكره ... » [٤] ،ثم أخذ بالدعاء للمسلمين وللشيخ .

وكتب إليه من أطراف الشام رجال صالحون من أهل السلوك والصدق والطلب، وطلبوا منه أن يكتب لهم النكت الجامعة التي تبين حقيقة أهل الحلول والاتحاد من أمثال ابن عربي .

وقد كتب إليهم كعادته ، فهناك تبادل للرسائل فيما بينه وبين المسلمين بشتى أجناسهم ومستوياتهم وأقطارهم [٥] .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات (٤٥ ، ٤٦) .
(٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين /٨٧ - ٨٨ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق /٩٨ .
(٥) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين /٨٨ .

ولما كان يتكلم في ابن عربي وأمثاله من أهل الحلول والاتحاد وذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال وأنه أعور وأن هذه علامة تنفي الإلهية عنه ، لأن الحلولية يقولون : يجوز ظهور الرب في البشر أو يقولون هو البشر ، قال بعد ذلك :« وقد خاطبني قديماً شخص من خيار أصحابنا كان يميل إلى الاتحاد ثم تاب منه، وذكر هذا الحديث فبينت له وجهه » [١] .

وأرسل رسائل إلى الملوك والسلاطين والأمراء في مصر والشام يحثهم فيها على التزام الشريعة ، والعدل ونصرة الدين بإقامة الجهاد في سبيل الله ، وينكر بعض المنكرات الظاهرة ، وبعض رسائله تحمل أخباراً ومعلومات عن أمور حدثت ووقائع وقعت ، يخبر كيف صارت ومبرراتها ونتائجها ، ويقترح بعض الاقتراحات التي تخدم صالح الأمة وتنصر الملة وتقمع أهل البدعة ، ويكون فيها عز للسلطان في الدنيا والدين .

ومما يلفت الانتباه في هذه الرسائل الثناء والتبجيل للسلاطين والدعاء لهم ونسبة ما حدث من أمور الخير والجهاد وقمع أهل البدع إليهم ، وأنه ببركتهم وتأييدهم بعد عون الله عز وجل .

ولا يريد ابن تيمية بهذا تزلفاً لهم لأن هذا هو الواقع فعلاً ،فكان السلاطين في زمن ابن تيمية خصوصاً السلطان الناصر محمد قلاوون قائمين بالجهاد بأنفسهم ، ويأذنون بل يحضون نوابهم في الشام على ذلك ، سواء جهاد التتار أو جهاد أصحاب البدع والمنكرات والمتآمرين على المسلمين ممن يدعي الإسلام وهو منهم براء .

ومن الرسائل التي أرسلها إلى السلاطين والأمراء :

رسالة أرسلها إلى ملك مصر .

رسالة أرسلها إلى ملك حماة .

رسالة أرسلها إلى الأمراء الكبار في مصر والشام [٢] .

والرسالة التي أرسلها من دمشق إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر بشأن وجوب تطهير الجبل من الروافض الخبثاء المفسدين ، وفيها بيان اعتقاد الروافض في الصحابة والمسلمين . وحكم كثير من السلف على الرافضة بأنهم ليسوا مسلمين .

وفيها بيان قتال هؤلاء وما حصل من النصر ومن ثم اقتراحات يطلب من السلطان

---

(١) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين /٩٦ .

(٢) انظر العقود الدرية /٥١ محمد حامد الفقي .

اعتمادها لما فيه من الصالح العام في قطع دابر فتنة هؤلاء وإراحة المسلمين من شرهم ، وفيها :

أن يفرق بينهم وبين معلميهم وشيوخهم ، وأن يوزعوا بين المسلمين ولا يمكنون من التجمع ، وأن ينشر بينهم علم القرآن والسنة ، ونورد بعضاً من هذه الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم . من الداعي أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين ومن أيد الله في دولته الدين ، وأعز بها عباده المؤمنين ..... أما بعد : فقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده وأنعم الله على السلطان ، وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تُعهد في القرون الخالية ، وجدد الإسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية ، وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق أفضل الأولين والآخرين ، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين ... وذلك : أن السلطان - أتم الله نعمته - حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته وصحة إسلامه وعقيدته ، وبركة إيمانه ومعرفته ، وفضل همته ، وشجاعته ، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته ، ونتيجة اتباعه لكتاب الله وحكمته ، ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين : من جهاد أعداء الله المارقين من الدين ....

فالحمد لله الذي يسّر هذا الفتح في دولة السلطان بهمته وعزمه وأمره ، وإخلاء الجبل منهم ، وإخراجهم من ديارهم » (١) .

وفي ٢٨/١٢/٧٠٦هـ أخبر نائب السلطنة بدمشق بوصول كتاب إليه من الشيخ تقي الدين من الجب ، وأعلم بذلك جماعة ممن حضر مجلسه ، وأثنى عليه ، وقال : ما رأيت مثله ، ولا أشجع منه ، وذكر ما هو عليه في السجن : من التوجه إلى الله تعالى ، وأنه لم يقبل شيئاً من الكسوة السلطانية ، ولا من الإدرار السلطاني ، ولا تدنس بشيء من ذلك (٢) .

ب - رسائله إلى أقاربه وعموم تلاميذه :

وحينما كان في مصر بعث عدداً من الرسائل إلى أقاربه وفي مقدمتهم والدته ضمنها بيان الحال التي هو فيها ، وما تحقق من مصالح للمسلمين وعز لأهل السنة وخذلان لأهل البدعة رغم تآمرهم وكيدهم له . وكان يضمنها بعض الطلبات أو السؤال عن شيء ، إضافة إلى ما يودعها من نفثات عاطفية عن شوقه إلى أهله وإخوانه وأحبابه ،

---

(١) انظر العقود الدرية /٨٢ - ١٩٤ .

(٢) انظر العقود الدرية /٢٥١ .

مع تأكيده في المبدأ والمقام على تذكيرهم بالله ونصحهم ودعوتهم والدعاء لهم ، وطلب الدعاء منهم .

ونذكر بعض النماذج من رسائله إلى أقاربه :

لما كان في مصر أرسل إلى والدته ، قال ابن عبدالهادي رحمه الله : « وقد وقفت على عدة كتب بخط الشيخ ، بعثها من مصر إلى والدته وإلى أخيه لأمه : بدر الدين ، وإلى غيرهما منها كتاب إلى والدته يقول فيه : من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقرّ الله عينها بنعمه ، وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من خيار إمائه وخدمه . سلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته . كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة ومنن كريمة ، وآلاء جسيمة نشكر الله عليها ، ونسأل المزيد من فضله ... وتعلمون أن مُقامنا الساعة في هذه البلاد ، إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ، ولكن الغائب عذره معه ، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور ، فإنكم – ولله الحمد – ما تختارون الساعة إلا ذلك ... فلا يظن الظان أنا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط ، بل ولا نؤثر من أمور الدين ، ما يكون قربكم أرجح منه ، ولكن ثم أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب والمطلوب كثرة الدعاء والخيرة » (١) .

وكتب الشيخ إلى أقاربه بدمشق عدداً من الكتب يخبرهم عما هو فيه من الخير والنعم من الله ، وعن حال خصومه ، وأن الله قد أخضع رقابهم وأذلهم وأنه قد اشترط عليهم شروطاً بما فيه عز الإسلام والسنة وانقماع الباطل والبدع ، وكذلك جرى من الأسباب ما فيه انقماع اليهود والنصارى ، وقد طلب منهم إرسال بعض الكتب .

وأخبر أنه قد أرسل لهم رسالة قبل هذه الرسالة (٢) . ومن مصر أرسل عدداً من الرسائل إلى تلاميذه وأصحابه حملها حبه لهم واشتياقه إليهم ، مع بيان تفاصيل ما جرى له وماذا فعل وما هي نتائج ما حدث وثمراته .

وكان في رسائله يوجه عدداً من النصائح وأحياناً العتب على تلاميذه وأصحابه في بعض التصرفات . ويطلب منهم ضبط النفس وعدم الاندفاع والتعجل في الحكم على الأمور والناس . وأحياناً يطلب منهم الكف عن بعض التصرفات والإعراض عن بعض ما يحدث .

---

(١) انظر العقود الدرية /٢٥٧ – ٢٥٩ محمد حامد الفقي .
(٢) انظر العقود الدرية /٢٨٤ – ٢٨٥ محمد حامد الفقي .

قال ابن عبد الهادى رحمه الله : « ورسائل كثيرة كتبها إلى الصلحاء من إخوانه : من مصر إلى دمشق ومن دمشق إلى غيرها ، ومن السجن شيء كثير يحتوي على مجلدات » [1] .

بعد خروج الشيخ من السجن في شهر ربيع الأول يوم الجمعة ٢٣ سنة ٧٠٧هـ ، وكان الذي أخرجه الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب واجتمع في دار نائب السلطنه مع بعض الفقهاء ، وحصل بينهم بحث وكان المجلس الثاني يوم الأحد ٢٥ ربيع الأول ، وكان بمرسوم السلطان مدته مجموع النهار وحضره جماعة أكثر من الأولين وهو إكمال للأول وانفصل المجلس على خير ، وبات الشيخ عند نائب السلطنة .

وكتب كتاباً إلى أصحابه وتلاميذه يطلعهم فيه على أخباره وأنه سيقيم في مصر مدة أطول بمرسوم نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار رغبة منه أن يشتغل الناس عليه ويسمعوا منه ويعرفوا قدره [2] .

وفي يوم الخميس السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٠٧هـ عُقد للشيخ مجلس آخر بالمدرسة الصالحية بالقاهرة واجتمع فيه القضاة وغيرهم ومما قيل للشيخ : تُب إلى الله عز وجل من كذا وكذا وذكر له كلام فقال : إن كنت قلت كلاماً يستوجب التوبة فأنا تائب منه ثم كتب الشيخ كعادته في صلته الدائمة عن طريق الرسائل والمكاتبات بأقاربه وإخوانه وأصحابه وتلاميذه كتب رسالة يخبرهم عن ذلك المجلس وما كان فيه، وقد كتبه الشيخ يوم الجمعة ١٤ ربيع الآخر وذكر أنه حصل فيه خير ، وأن في إقامته مصالح وفوائد [3] .

وهذه الرسالة مطولة ذكرها ابن عبدالهادي رحمه الله وهي تعالج قضية وقع فيها تلاميذه وأصحابه ، حيث صار منهم لوم وسب لبعض الذين آذوا شيخهم تقي الدين ابن تيمية والذين قصروا في نصرته والدفاع عنه من تلاميذه وأصحابه ، وهذه الرسالة تكشف ما ينطوي عليه ابن تيمية من الحنكة والحكمة والخلق الطيب والحرص على تأليف القلوب وجمع الكلمة .

وتبرز أيضاً ما يتحلى به من روح الحب والعفو والمسامحة وعدم الانتصار للنفس لا من عجز وإنما من حسن ظن بالذين آذوه بأنهم مجتهدون يظنون أن ما فعلوه دفاعاً عن الحق والدين فهم مغفور لهم مأجورون ، وانظر في ذلك جيداً الصفحات ٢٨٦ ،

---

(١) العقود الدرية /٥١ .
(٢) العقود الدرية /٢٥٣ .
(٣) انظر العقود الدرية /٢٥٦ .

٢٨٧ من العقود الدرية . ونقتطف من هذه الرسالة بعض المقاطع :

« أما بعد فإن الله – وله الحمد – قد أنعم عليّ من نعمه العظيمة ومننه الجسيمة وآلائه الكريمة . ما هو مستوجب لعظيم الشكر والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن الصبر على فعل المأمور والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء – ثم ذكر الآيات من سورة هود (٩ ، ١٠ ، ١١) .

... وتعلمون أن الله سبحانه منّ في هذه القضية من المنن التي فيها من أسباب نصر دينه ، وعلو كلمته ونصر جنده ... وقوة أهل السنة والجماعة وذل أهل البدعة والفُرقة وتقرير ما قرر عندكم من السنة ... وتعلمون أن من القواعد العظيمة ، التي هي جماع الدين : تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [(١)] ، وذكر الآية (١٠٣ ، ١٠٥) آل عمران ، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهى عن الفُرقة ، والاختلاف.

وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه ، هم أهل الفُرقة .

... وأول ما أبدأ به من هذ الأصل : ما يتعلق بي ، فتعلمون – رضي الله عنكم – أني لا أحبُّ أن يؤذى أحد من عموم المسلمين – فضلاً عن أصحابنا – بشيء أصلاً ، لا باطناً ، ولا ظاهراً ، ولا عندي عَتْبٌ على أحد منهم ، ولا لومٌ أصلاً – بل لهم عندي من الكرامة ، والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان – كلٌّ بحسبه ، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً .

فالأول : مأجور مشكور . والثاني مع أجره على الاجتهاد : فمعفوٌّ عنه ، مغفور له. والثالث : فالله يغفر لنا وله ، ولسائر المؤمنين فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل ، كقول : فلان قصَّر ، فلان ما عمل ، فلان أوذي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان ، ونحو هذه الكلمات ، التي فيها مذمّة الأصحاب ، والإخوان ، فإني لا أسامح من آذاهم ، من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله . وتعلمون – رضي الله عنكم – : أن مادون هذه القضية من الحوادث يقع فيها من اجتهاد الآراء ، واختلاف الأهواء وتنوع أحوال أهل الإيمان ، وما لا بد منه – من نزغات الشيطان – ما لا يَتصَوَّر أن يَعْرَى عنه نوع الإنسان ... وتعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب المفتراة والأغاليط المظنونة ، والأهواء الفاسدة ، وأن ذلك أمر يجل عن الوصف ، وكل ما قيل : من كذب وزور ، فهو في حقنا خير ونعمة .

---

(١) سورة الأنفال آية (١) .

... والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي وأما ما يتعلق بحقوق الله – فإن تابوا تاب الله عليهم ، وإلا فحكم الله نافذ فيهم . فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله ، لكنت أشكر كلَّ من كان سبباً في هذه القضية ، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة ... وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم ، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم ، وأنتم تعملون أن هذا من خلقي ، والأمر أزيد مما كان وأوكد » (١) . هذه الرسالة القيمة التربوية لتلاميذه وأصحابه تستحق الدراسة المتأملة لما فيها من قواعد تربوية أخلاقية ، وقيادة وسياسة حكيمة ، وما تركته منها تركته خوف الإطالة وإلا فهو لا يقل ثمرة عما ذكرته منها .

ج – رسائله إلى البلدان :

وأرسل عدداً من الرسائل إلى بلدان كثيرة من بلدان المسلمين ، تتضمن هذه الرسائل أموراً عقدية وعلمية ومباحث أخرى . إما أن يكون الدافع لها سؤال ورد إليه من بلد معين فيجيب على هذا السؤال على حسب موضوعه مراعياً لما في هذا البلد من مخالفات شرعية .

وأحياناً يرسل ابتداء لعلمه بحاجة هذا المكان إلى هذه الرسالة لوجود مخالفات وبدع ونحو هذا . ومن الرسائل التي بعثها إلى بعض الأمصار ما يلي :

١ – رساله كتبها إلى أهل بغداد .

٢ – رسالة كتبها إلى أهل البصرة .

٣ – رسائل بعثها إلى ثغور الشام : إلى طرابلس وغيرها بمصالح تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٤ – وفي أواخر سنه ٧٠٤هـ بعث برسائل إلى أطراف الشام يحثهم فيها على قتال الكسروانيين ويبيّن أنه جهاد في سبيل الله (٢) .

٥ – رسالة لأهل تدمر .

٦ – رسالة إلى طبرستان وجيلان .

٧ – وله أجوبة على عدد من الأسئلة من بلدان كثيرة أرسل بها إليهم :

أ – أجوبة في مسائل وردت من أصبهان .

---

(١) العقود الدرية /٢٥٩ – ٢٦٧ .

(٢) العقود الدرية / ١٧٩ .

ب - جواب عن مسائل وردت من الأندلس .

ج - جواب عن سؤال ورد من الرحبة .

د - جواب عن سؤال ورد من ماردين .

هـ - جواب عن سؤال ورد من أزْرَع .

و - أجوبة كثيرة عن مسائل وردت من الصَّلْت .

ز - جواب ورد عن سؤال من حماة سنة ثمان وتسعين وستمائة ، والسؤال عن آيات الصفات كقوله تعال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ وجرى بسبب تأليفها أمور ومحن [1] .

المطلب الثاني : رسائل ابن تيمية إلى غير المسلمين :

غير المسلمين هم من أمة الدعوة الذين يلزم الدعاة إقامة الحجة عليهم خصوصاً الذين يجاورون البلاد الإسلامية ، وخصوصاً الذين يؤمل منهم قراءة ما يكتب إليهم ويأتيهم من المسلمين .

وابن تيمية رحمه الله تعالى حفظ لنا التاريخ عنه رسالة عظيمة أرسلها إلى ملك النصارى في قبرص واسمه « سرجوان » وهي مشهورة بالرسالة القبرصية .

وهذه الرسالة هي شيء آخر من اهتمامات ابن تيمية في دعوة أهل الكتاب كما مرّ معنا في فصل « الشمول » .

وقد بيّن ابن تيمية غرضه من هذه الرسالة وهو حب الخير والنصح للملك ورعيته في دينهم ودنياهم ، ومصلحة الأسرى المسلمين في بلاد قبرص .

وبيّن السبب الذي جعله يكتبها وأنه ما بلغه من حسن نية الملك ورغبته في الخير وحبه للمدارسة وللعلم ورأفته ورحمته . ومن الأشياء التي برزت في هذه الرسالة وكل شيء فيها كذلك ما يلي :

١ - عدم الشعور بالانهزام أو الظهور بروح الضعف أوحال المغلوب .

٢ - وبما أن الرسالة من أحد أغراضها استعطاف الملك النصراني من أجل أسرى المسلمين لم يمنعه هذا من إبراز مساوىء النصرانية والنصارى ونقدهم ، ولم يمنعه أن يبين

---

(١) العقود الدرية / ٥٠ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٧ وانظر ص ١٧٩ .

أن الإسلام يأمر بقتال النصارى وغيرهم ممن كفر وحارب الإسلام .

ولم يمنعه من تهديد الملك بأمور منها :

أ - أن تثور حمية المسلمين لإخوانهم الأسرى في قبرص فيقوموا بالجهاد خصوصاً أن عوامله قد وجدت فيهم .

ب - أن يقوم من فدائيي المسلمين من يغتال الملك وغيره من أكابرهم .

ج - مقابلة الغدر بغدر مثله وذلك أن يغدر المسلمون بالنصارى الموجودين في بلادهم ، أو إساءة معاملتهم والإضرار بهم .

د - تخويف الملك بالله عز وجل أن ينتقم للأسرى الذين هم ضعفاء وفقراء ومظلومون ، وتخويفه بدعاء الصالحين في الأمة فإن منهم من يغضب الله لغضبه ويرضى لرضاه .

٣ - جمع الشيخ في هذه الرسالة في مخاطبته للملك النصراني بين الشدة واللين والترغيب والترهيب وأسلوب الهجوم والدفاع .

٤ - حاول الشيخ أن يثير في الملك روح البحث والاستقصاء والتنقيب عن الحق وذلك من خلال مسالك منها :

الأول : الثناء على الملك بحبه للخير والحق وأنه محب للبحث والمدارسة والعلم ، وهذا ما يلزم أن يفعله كل أحد من الناس ولا يكون مقلداً كالحيوان .

الثاني : ذكر ما في النصرانية من أخطاء وانحراف وفساد وتناقض وتحريف وتبديل، وأن في رجالها من يعلم ذلك ويكتمه وأن في رجالها من يبتدع الحيل لخداع الناس ، وأن فيهم من يستخف عقول بعض خصوصاً النساء والرهبان .

وأثار موضوع التناقض الكبير بين اليهودية والنصرانية ، مع أن النصارى في ظاهرهم يلتزمون التوراة .

الثالث : التاريخ وما فيه من أحداث بين الإسلام والنصرانية ومن ذلك :

أ - إسلام عدد من رهبان وعلماء النصرانية قديماً وحديثاً وبينوا ما في الكتب النصرانية من ذكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ب - حادثة وفد نجران ومناظرة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم وإلقامهم الحجة، ولكن راغوا ، ودعاهم للمباهلة فامتنعوا ، ودفعوا الجزية .

ج - ملوك النصارى وحالهم مع خطابات النبي صلى الله عليه وسلم : كقيصر ملك الروم ، والنجاشي ملك الحبشة واعترافهم بالإسلام والنبوة ففيهم سابقة خير له إن أراد الخير .

د - بيان انتصار الإسلام على النصرانية وأن قبرص كانت بأيدي المسلمين ، وأن المسلمين عازمون على الجهاد في سبيل الله والانتقام لكل من آذاهم .

هـ - أن في علماء النصرانية من يعرف بعض الحق ويعمل بكثير منه ، ويعرف من قدر الإسلام وأهله ما يجهله غيره ، فيعاملهم معاملة نافعة له في الدنيا والآخرة .

٥ - بيّن الشيخ للملك النصراني أنهم في واقعهم وحياتهم يَدَّعون متابعة المسيح وهم مخالفون له في تعاليمه ووصاياه ، ومن ذلك أن المسيح عليه السلام لم يأمر بقتال ولا جهاد أي أحد فضلاً عن جهاد أهل الملة الحنيفية .

٦ - ويثير نخوته من أجل إطلاق الأسرى والعناية بهم حينما يذكر حسن معاملة المسلمين للنصارى فيقول : « فإنا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان إليهم والذب عنهم »، وذكر أنه لما طالب التتار بإطلاق الأسرى المسلمين قيل له إن معهم نصارى لا يطلقون قال لهم ابن تيمية : « بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فإنا نفكهم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة وأطلقنا من النصارى ما شاء الله» .

وهي رسالة عظيمة فيها من الدهاء والخبرة في مخاطبة النفوس الشيء العظيم ، وهي تحمل اعتزاز المسلم وثقته بما هو عليه من الحق ، وثقته بأمته ، وقبل ذلك كله ثقته بمن يسعى له ويحفد وله يركع ويسجد ملك الملوك جل جلاله [1] .

---

(١) انظر فيما تقدم الرسالة القبرصية لابن تيمية / اعتنى بها وعلق عليها علاء الدين شفيق دمج ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ط الأولى ١٤٠٨هـ .

الكتب

الكتب وسيلة من وسائل الدعوة الهامة والمؤثرة ، والكتب هي الدعاة «السواكت» والسجل الحافظ لمنهج الدعوة وفكرها وحياة الدعاة وتجاربهم ، وهي من الشهود على الناس فيما يعتقدون ويلفظون .

وهذه كتب ابن تيمية جعلته كأنه حي بيننا ينفث فينا الروح ويحرك الهمم والعزائم ويقوي فينا الإرادة ويفقهنا في ديننا ويعلمنا من أسرار تشريعنا .

يكشف لنا المؤامرات القديمة على الإسلام ونعرف على ضوئها المؤامرات الجديدة، وما هذه إلا تلك ولكنها لبست ثوباً آخر .

كانت تمثل إعلاماً متنقلاً لابن تيمية ، ينقل أفكاره وآراءه إلى الآخرين من الموافقين والمخالفين ، وقد تميزت مؤلفات ابن تيمية بأنها تبحث في نقاط « التفجير » في الأمة ، فالمسائل في العقيدة ، عقد له من أجلها أكثر من خمسة عشر مجلساً رسمياً وسجن مرات بسببها وجلد بعض أتباعه وسجنوا وأصبح حيازة مؤلفاته في بعض الفترات جريمة وتهمة يعاقب عليها .

والمباحث الفقهية كذلك كان كثير منها فيما اختلف فيه الفقهاء من قبله ، وكثير من علماء عصره جمد على بعض الآراء فرجح هو رأياً آخر غير ما عندهم ، فثارت ثائرتهم ولم تهدأ إلا بسجن ابن تيمية ومنعه من آرائه التي يفتي فيها خلاف ما هم عليه يفتون .

كتاباته براكين ثائرة تحرك في الأمة روح الجهاد والتحرر الفكري من الجمود والتقليد المميت . الذي شطح بها بعيداً عن عذوبة القرآن ونداوته وحلاوته وتأثيره ، وعن السنة النبوية وإشراقتها ، ومؤلفاته فيها روح النسف والتدمير لكل المناهج الفلسفية والكلامية والصوفية والفقهية الأرأيتية المخالفة لمنهج السلف الصالح المنهج القرآني النبوي، الموافقة للفطرة والعقل ، وقد ذكر بعض العلماء منهج ابن تيمية في التأليف ويتمثل في الآتي :

١ - السهولة ، وذلك بخلو مؤلفاته من الجفاف والتعقيد .

٢ - استقصاء مادة البحث من مصادر عديدة .

٣ – التركيز على الأصول لمعرفته بمقاصد الشريعة .

٤ – قوة الاستدلال مع حسن الاستشهاد بالكتاب والسنة .

٥ – فيضان الكتابة بالحيوية لارتباطها بالحياة .

٦ – مخاطبة العقل ، دون الثقة به ثقة مطلقة (١) .

٧ – عدم التعصب من أجل الوصول إلى الحقيقة (٢) .

٨ – النقد البناء وذلك بفحص كل ما يقرأ فحصاً سليماً وإدراك محاسنه وعيوبه (٣) .

وأخصب فترات عمر ابن تيمية في التأليف كانت بعد قدومه إلى دمشق من مصر في أول ذي القعدة سنة ٧١٢هـ ، وفي هذه الفترة حصل له استقرار فألف كثيراً من كتبه(٤) .

ولقد ركز ابن تيمية في حياته العلمية في التدريس والتأليف على التأصيل والمنهجية: في الدعوة والتعامل والأحكام والتلقي ، والحكم على الآخرين .

ورسم منهجاً في التعامل مع نصوص التشريع والمنقول عن سلف الأمة وكيف يتم التلقي عنها ، فهم ذلك فهماً سليماً وفق مراد من قاله .

وأوضح بجانب ذلك كل المناهج المخالفة لمنهج السلف ونقدها وبيّن تاريخ ظهورها وعلى يد من ، ومن كان وراءها وأهدافها وكيف ضلت الصراط المستقيم .

وقد حذر الأمة من تلك المناهج المنحرفة ، وبيّن ما جرته على الأمة من وباء ابتداءً بأصحابها الذين أعطوا ذكاء ولم يعطوا زكاء ، وأوتوا علوماً ولم يؤتوا فهوما .

وكان ابن تيمية في كل ذلك واضحاً كل الوضوح مشرق الفكر متنوع العبارة لأن « .... تنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الأمور وأنفعها للعباد في مصالح المعاش والمعاد » (٥) .

على نهج واحد رسمه لنفسه التزمه في كل مؤلفاته الكثيرة ذات التخصصات

---

(١) د . عبداللطيف محمد العبد دراسات في فكر ابن تيمية /١٦ .
(٢) الشيخ محمد أبو زهرة ابن تيمية /٢١٣ – ٢١٨ .
(٣) عمر عوده الخطيب لمحات في المكتبة والبحث والمصادر /٩١ – ٩٢ .
(٤) انظر البداية والنهاية ١٦٧/١٤ ، والعقود الدرية /٣٢١ .
(٥) الفتاوى ٣٦٨/١ .

المتنوعة، وسار فيها على نفس واحد من أول مؤلف إلى آخر مؤلف في حياته لم يتناقض كما تناقض كثير من خصومه، حتى كانت مؤلفاته كالغيث لا يدرى أوله من آخره .

ونظراً للدور الذي أعطته كتب ابن تيمية ومؤلفاته في نشر العقيدة السلفية المستقاة من الكتاب والسنة، والقضاء على ما خالفها وكشف بطلانها وانحرافها فإن خصوم الشيخ بذلوا جهوداً لئلا يخرج من كتبه شيء، خصوصاً بعد ما خرجت « الأخنائية »، قال رحمه الله تعالى : « وخروج الكتب كان من أعظم النعم، فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها لتقفوا عليه، وهم كرهوا خروج « الأخنائية » فاستعملهم الله في إخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق، فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس، فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله، واستحق أن يذله ويخزيه، وما كتبت شيئاً من هذا ليكتم عن أحد ولو كان مبغضاً » (١) .

ومن جانب آخر فإن ابن تيمية اهتم بكتب الآخرين ليظهر للأمة المصادر التأليفية الجيدة التي تستحق أن يعتنى بها، والمصادر الرديئة التي لا يطلع عليها إلا الخاصة من أهل العلم لغرض معرفة ما لدى أصحابها من انحراف ونقدها ونحو ذلك .

فمثلاً : يذكر المصادر التي تنقل مذهب السلف وأقوالهم باعتبارها مصادر مرجعية في هذا الشأن، وذكر : صحيح البخاري، وتفسير البغوي، وكتاب الصفات للبيهقي ومسند الشافعي، وتفسير محمد بن جرير الطبري ... وكتاب السنة للفقيه الحافظ أبي بكر الأثرم، وكتاب السنة للخلال ،وذكر كتباً كثيرة (٢) كصحيح مسلم وما جمع بين الصحيحين، وكتب السنن، ومسند أحمد وموطأ الإمام مالك (٣) .

وذكر أن بعض المؤلفين يؤلفون لأغراض شخصية من أجل مصالحهم وشهواتهم ونفوذهم وذكر أسماء بعضهم ومؤلفاتهم (٤)، ونهى عن « النظر في كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوي نور الحق وبرهانه في القلوب خفي عن المعرفة » (٥) .

وذكر بعض كتب السير والمغازي وسير بعض الأشخاص وما فيها من كذب وزيادة .. (٦).

---

(١) الفتاوى ٤٢/٢٨ .
(٢) انظر الدرء ٢٠/٢ - ٢٤ .
(٣) انظر ٧٤/١٨ .
(٤) انظر الاستقامة ٤٣/١ .
(٥) الفتاوى ٦٩٧/١١ .
(٦) انظر منهاج السنة ٩٢/٨ .

وقد انتشرت مؤلفات ابن تيمية انتشاراً عظيماً في وقته في حياته وبعد مماته حتى تكاد أن تكون شملت الكرة الأرضية في المناطق التي عرفت أنوار العلم واتصلت بالشرق الإسلامي ، وما يزال كثير من أصول المخطوطات في أنحاء من العالم الغربي والشرقي وأمريكا وغيرها .

وقد كتب عدد من المستشرقين في مختلف البلدان عن ابن تيمية وعن جوانب من فكره ، وكتب عدد من المسلمين في نواحي العالم الإسلامي وغيره عن ابن تيمية وجوانب من علومه .

وكل هؤلاء قرأوا له الكثير من المؤلفات ، وتأثروا بمنهجيته مما جعلهم يندفعون للكتابة عن هذه الجوانب التي كتبوا عنها ، ومنهم الذي أحسن ومنهم الذي أساء والله يغفر لأهل المقاصد الحسنة .

المبحث الخامس

الرحلات

قد يرى الدّاعية مصلحة راجحة في انتقاله من مكان إقامته إلى مكان آخر ، فيتحرك صوب هذا المكان ليقوم بنقل أفكار الدعوة لتحقيق أهدافها في هذا المكان .

وابن تيمية تكوّن لديه رغبة قوية وقناعة أكيدة في الانتقال إلى مصر ، لأن الرسائل التي بعث بها إلى هناك لم تؤد الدور المطلوب ، وأقلقه كثرة انتشار البدع وتمكن شيوخها ونفوذ كلمة بعضهم لدى حكام مصر .

ولابن تيمية نظرية في الإقامة في أي أرض وأن هذه الإقامة ترتبط بمعنى في الأرض، بل ترتبط بتحقق النفع للإنسان ذاته أو وجود مصلحة عامة يستطيع تحقيقها في هذه الأرض التي انتقل للإقامة فيها « ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل إنسان أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ، ولا تتعين أرض يكون مقام الانسان فيها أفضل ، وإنما يكون الأفضل في حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور . وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان : هلم إلى الأرض المقدسة ! فكتب إليه سلمان : إن الأرض لا تقدس أحدا ، وإنما يقدس العبد عمله » (١) .

وليس هناك أرض يقال إنها هي دار الإيمان وأخرى يقال دار الكفر ويكون هذا وصفاً ثابتاً لها إلى الأبد ، وقد سمى الله الأرض المقدسة « دار الفاسقين » في قوله لموسى ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) ثم صارت بعد ذلك دار المؤمنين ، وهي الدار التي دل عليها القرآن من الأرض المقدسة ، وأرض مصر كانت أرض كفر لفرعون وقومه ثم أورثها الله بني إسرائيل فصارت دار إيمان « فأحوال البلاد كأحوال العباد ، فيكون الرجل تارة مسلماً ، وتارة كافرا ، وتارة مؤمنا ، وتارة منافقا ، وتارة براً تقيا ، وتارة فاسقا ، وتارة فاجراً شقيا ، وهكذا المساكن بحسب سكانها » (٣) .

وتحقق الصفة لأي أرض في الكرة الأرضية مرتبط بسكانها فإن كانوا مؤمنين صارت دار إيمان في ذلك الوقت وإن كانوا كفاراً صارت دار كفر في ذلك الوقت ،

---

(١) الفتاوى ٢٨٣/١٨.
(٢) سورة الأعراف آية (١٤٥) .
(٣) الفتاوى ٢٨٤/١٨ .

وإن كانوا فاسقين صارت دار فسوق في ذلك الوقت ، فإن كان سكانها غير هؤلاء أو تبدلوا بغيرهم فهي دارهم لها صفتهم (١) .

حتى أفضل البقاع في أرض الله المساجد فـ « إذا تبدل - المسجد - بخمارة أو صار دار فسق أو دار ظلم أو كنيسة يشرك فيها بالله كان بحسب سكانه ، وكذلك دار الخمر والفسوق ونحوها إذا جعلت مسجداً يعبد الله فيه عز وجل كان بحسب ذلك»(٢) .

فالمكان بحسب الأحوال يتبدل وصفه وحكمه مع تبدل حاله، وقد قال الله تعالى في مكة المكرمة لما كانت دار كفر : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

فهذا القول فيها من الله مع أنها ما زالت في نفسها خير أرض الله وأحب البقاع إليه وأكرمها عنده ، ولكن حصل هذا لا بسببها وإنما بسبب سكانها فهم المرادون المقصودون بهذا الوصف (٤) .

وعلى هذا فالوطن للمسلم هو المكان الذي يعبد الله فيه ويقام شرعه ، وكلما كان دين الله أمكن وكان حاله لله أطوع وأكثر إيماناً وتقوى كان أفضل من غيره .

وقد يكون بلدٌ واحدٌ الإقامة فيه لإنسان معين أفضل وأحسن بينما لا تكون كذلك لإنسان آخر .

وتكون أيضاً الأفضلية للمكان بحسب النفع للمسلمين ، فالمرابطة في الثغور الإسلامية لحراستها من الأعداء وتحقيق الحماية للأمة والدولة الإسلامية أفضل من المجاورة في مكة والمدينة (٥) ؛لأن المجاورة عبادة نفعها قاصر على صاحبها يحقق خيراً له بذاته ، أما المرابطة في الثغور فهو يحقق مصلحة عامة للأمة مع تحقيق المصلحة الخاصة للشخص المرابط (٦) .

فإذاً ليس هناك في نظر ابن تيمية مفاضلة بين مكان ومكان في أمور العبادة والطاعة أو تحقق وصف أنه دار إيمان أو دار كفر أو دار فسوق بل هذا راجع إلى صفة وحال السكان ، وراجع إلى مصلحة الفرد ، فقد يكون في مكان أطوع لله وأكثر نشاطاً

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨٢/١٨ .
(٢) الفتاوى ٢٨٢/١٨ .
(٣) سورة النحل آية (١١٢) .
(٤) انظر الفتاوى ٢٨٢/١٨ .
(٥) انظر الفتاوى ٢٨٣/١٨ .
(٦) انظر الفتاوى ٢٨٣/١٨ .

في الدعوة والعبادة وأنفع للأمة مما لو كان في مكة أو المدينة .

وعلى المرء أن يبحث عن المكان الذي يكون فيه لله أطوع ولدينه وعباده أنفع « ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان ، فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به ومن هذا قوله: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (١) » (٢).

وابن تيمية ينطلق في رحلاته من هذا المنطلق ، فمع أنه يرى أن نفس بلاد الشام أفضل من بلاد مصر ويورد عدداً من الأحاديث النبوية في فضائل الشام ، إلا أنه يرى أن سفره إلى مصر صار لازماً عليه لأن هناك مصالح لا تتحقق ومضار لا تندفع إلا بوجوده هناك مع علمه وعلم أصحابه أن هذه الرحلة محفوفة بالمخاطر لكثرة خصومه هناك وتكاتفهم ضده وتحزبهم عليه مع ما لهم من مكانة وصولة لدى السلطان في مصر .

وكان في مخططه ومنهجه الدعوي أن يقوم بالرحلة إلى مصر لكن يريدها سبباً من غيره ؛ لأنه يرى أن ذهابه من ذات نفسه له بعض السلبيات . وشاء الله عز وجل أن يطلب حاكم مصر حضوره إليها فخاف نائب السلطنة في دمشق على الشيخ من خصومه هناك فسعى في إقناعه في البقاء في دمشق وترك الارتحال إلى مصر وهو يقوم بدور الاعتذار عنه وإقناع السلطان .

ولكن ابن تيمية يصر على الذهاب إلى مصر ويرى أن في ذهابه مصالح وقد قال ابن عبدالهادي في ذلك :« وأخبرت : أن نائب السلطنة كان قد أشار على الشيخ بترك التوجه إلى مصر ، وأنه كاتب في ذلك . فامتنع الشيخ من ذلك ، ولم يقبل ، وذكر أن في توجهه إلى مصر مصالح كثيرة » (٣) .

أ – رحلة الشيخ من دمشق إلى مصر :

في يوم الإثنين ٧٠٥/٩/٥هـ وصل خطاب من السلطان في مصر إلى نائب السلطنة بدمشق وفيه أمر بإحضار ابن تيمية وإحضار القاضي نجم الدين بن صصري إلى الديار المصرية .

قال ابن عبد الهادى :« قرأت بخط بعض أصحاب الشيخ قال : ولما توجه الشيخ في اليوم الذي توجه فيه من دمشق المحروسة ، كان يوماً مشهوداً ، غريب المثل ، في

---

(١) سورة المدثر آية (٥) . (٢) الفتاوى ٢٠٤/٢٨ .

(٣) العقود الدرية /٢٤٩ ، البداية والنهاية ٣٣/١٤ .

كثرة ازدحام الناس لوداعه ورؤيته حتى انتشروا من باب داره إلى قريب للجسورة – فيما بين دمشق والكسوة – التي هي أول منزلة منها ، وهم مابين باكٍ وحزين ، ومتعجب ومتنزه، ومزاحم متغال فيه . ودخل الشيخ مدينة غزة يوم السبت وعمل في جامعها مجلساً عظيماً » (١) .

وهكذا نجد الداعية الكبير ابن تيمية لم يفوت هذه الفرصة في سفره فمنذ نزل فيها حاول أن يبذر بذرة خير ، وتكون فرصة للتعريف بنفسه وفكره ، فقد تَحِين فرصة أخرى لِيُرْوي هذه البذرة أو تجد من يرويها من تلاميذه أو كتبه ورسائله .

في يوم الخميس ٢٢/٩/٧٠٥ هـ وصل ابن تيمية والقاضي إلى القاهرة . وفي ثاني يوم بعد صلاة الجمعة ، جمع القضاة وأكابر الدولة بالقلعة لمحفِلٍ ، وأراد الشيخ أن يتكلم فلم يمكن من البحث والكلام على عادته ، وانتهى هذا المجلس بحبس ابن تيمية ، وقد حبس في برج أياماً ثم نقل منه ليلة عيد الفطر إلى الحبس المعروف بالجُب هو وأخواه شرف الدين عبدالله ، وزين الدين عبدالرحمن (٢) .

وبعد أكثر من سنة حاول نائب السلطنة إخراجه وذلك ليلة عيد الفطر سنة ٧٠٦هـ فلم يرضِ الشيخ أن يخرج إلى المجلس الذي عقد له لأنهم اتفقوا على أنه يشترط عليه شروط ويلزم بالرجوع عن بعض العقيدة وهو لا يرى ولا يقبل أن يتنازل عن جزء يسير من معتقده (٣) .

وفي شهر ربيع الأول من سنة ٧٠٧هـ دخل الأمير حسام الدين مهنًا بن عيسى ملك العرب إلى مصر ، وحضر بنفسه إلى الجب فأخرج الشيخ تقي الدين بعد أن استأذن في ذلك ، وحصل بعد خروجه يوم الجمعة مجلس مناظرة مع بعض الفقهاء ثم تلاه مجلس تكميلي آخر وذلك يوم الأحد بمرسوم من السلطان على أن يحضر القضاة والفقهاء ، فحضر هؤلاء واعتذر الأولون بأعذار متعددة وقبل عذرهم نائب السلطنة .

وبعد هذا أمر نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار بتأخير إقامة ابن تيمية في مصر [١٨] عشر شهراً عن مدة مقام الشيخ في الجب (٤) .

وفي هذه الفترة أتيح لابن تيمية فرصة الاتصال بالناس اتصالاً مباشراً فردياً وجماعياً وحصل له مواقف طريفة ، ومواقف عنيفة ، ومجادلات ومناظرات عديدة،

---

(١) العقود الدرية /٢٤٩ .
(٢) المرجع السابق /٢٤٩ ، ٢٥٠ .
(٣) انظر المرجع السابق /٣٥١ .
(٤) انظر العقود الدرية /٢٥٢ – ٢٥٣ .

وحقـق الشيخ في هـذه الفترة كثيراً من الأهداف والمقاصد والمصالـح التي كان مخططاً لـهـا .

إضافـة إلى ما حقـقه في الـسجن من الاتـصال بالنـاس وإفتائـهم وإرسال الرسـائل إليهم، وكان يريد الإقامة فترة أطول ليتـمكن من تحقيق مصالح ومقاصد أخرى للدعوة، يدل على ذلـك الرسالة التي بعـث بها لأمه في هذه الفـترة يقول فيها: « .. وتـعلمون أن مُقامنا الساعة في هـذه البلاد ، إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسـد علينا أمر الدين والدنيـا... وأنتم لو اطلـعتم عل باطـن الأمـور فإنكـم – ولله الحمـد – مـا تختـارون الساعـة إلا ذلك » يعني إقامته في مصر (١) .

ويقول في رسالـة بعثها إلى تلاميذه مخـبراً عن بعض ثمرات رحلتـه إلى مصر وما حصل لـه من السجـن والإهانة من قـبل خصومـه العلمـاء والحكام : « وتعلمـون أن الله سبحانه منّ فـي هذه القضية من المنن التي فيـها أسباب نصر دينه ، وعلو كـلمته ، ونصر جنده ، وعزة أوليائه ، وقـوة أهل السنة والجماعة ، وذل أهل البدعة والـفرقة . وتقرير ما قرر عندكم من السنة ، وزيادات على ذلك بانفتاح أبواب من الهدى والنصر والدلائل ، وظهور الحـق . لأمم لا يُحصي عـددَهم إلا الله تـعالى ، وإقبـال الخلائق إلى سـبيل السـنة والجماعة ، وغيـر ذلك من المنن ما لا بد معه مـن عظيم الشكر ، ومن الـصبر ، وإن كان صبراً في سرّاء » (٢) .

وامتـد عميـق تأثيـر هذه الرحـلة إلى الـسجنـاء كما تـقدم بيـان ذلك حيـث وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللهو واللعب وتـضييع الصلوات فأنكر عليهم ذلك ودعاهم إلى إشغال أوقاتهم بما يفيد من العلم والـعبادة « ... حتى صار الحبس بما فيه من الانشغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والـربط ، والخوانق والمدارس ، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده وكثر المترددون إليه ، حتى كان السجن يمتلىء منهم » (٣)، إلى درجـة أن ضاق أعداؤه بهـذا الإقبال المتـزايد والتأثـير المتنـامي ، وامتلأت صـدورهم غضباً من ذلك فطلبوا نقله عن القاهرة إلى الإسكندرية .

ب – الرحلة من القاهرة إلى الإسكندرية :

هذه الـرحلة وإن لـم تكن باخـتيار ابـن تيمـية إلا أن اللـه كتب فـيها منـافع كثيرة وخيرات عظيمة .

---

(١) العقود الدرية /٢٥٧ ، ٢٥٨، الفتاوى ٤٩/٢٨ ، ٥٠ .
(٢) العقود الدرية /٢٦٠ ، الفتاوى ٥٠/٢٨ . (٣) العقود الدرية /٢٦٩ .

كانت بدايتها في آخر ليلة من شهر صفر ليلة الجمعة ، وكان وصوله إلى الإسكندرية يوم الأحد من شهر ربيع الأول ، ونقل ليلاً إلى برج في شرقي البلد وبقي ابن تيمية « بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر ، مقيماً ببرج مليح ، له شباكان : أحدهما إلى جهة البحر ، ويدخل إليه من شاء ، ويتردد إليه الأكابر والأعيان ، والفقهاء يقرأون عليه ويبحثون معه ، ويستفيدون منه »[(1)] .

وقد آتت هذه الرحلة ثمرات عظيمة يحدثنا عنها أخو الشيخ : شرف الدين عبدالله بن تيمية وذلك في رسالة بعث بها إلى أخيه بدر الدين بعد وصول الشيخ تقي الدين إلى الإسكندرية قال في هذه الرسالة مخبراً عن الشيخ : « وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ ، متقبلين لما يذكره وينشره ، من كتاب الله وسنة رسوله والحط والوقيعة في أعدائهما من أهل البدع والضلالات ، والكفر والجهالات ، خصوصاً أخبث الملاحدة والاتحادية ، ثم الجهمية .

واتفق أنه وجد بها إبليس إلحادهم ، قدباض وفرّخ ، ونصب بها عرشه ودوّخ ، وأضل بها فريقي السبعينية والعربية[(2)]، فمزق بها بقدومه الثغر جموعهم ، شَذَرَ مَذَرَ .

... واستتاب جماعات منهم وتوّب رئيساً من رؤسائهم ... وصنف هذا التائب كتاباً في كشف كفرهم وإلحادهم ، وكان من خواصّ خواص اللعين عدو الله ورسوله نصير الملحدين[(3)] ، واشتهر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين ، وخواصهم ... وعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله ، ولُعنوا لعناً ظاهراً في مجامع الناس بالاسم الخاص، وصار بذلك عند نصير الملحدين المقيم المقعد ، ونزل به من الخوف والذل ما لا يعبر عنه ، وهمّ أن يكيد كيداً آخر ... »[(4)] .

ج – الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة :

لما عاد السلطان الناصر إلى الحكم ووصل إلى مصر في يوم عيد الفطر سنة تسع وسبعمائة كان من أول مراسيمه الأمر بإخراج ابن تيمية من سجنه في الإسكندرية وإحضاره إلى القاهرة ، وكان صدور هذا الأمر في اليوم الثامن من شهر شوال .

خرج الشيخ متوجهاً إلى مصر ومعه جموع من أهل الإسكندرية يودعونه ، ووصل إلى القاهرة يوم السبت الثامن من شهر شوال ، واجتمع بالسلطان في يوم الجمعة

---

(١) العقود الدرية /٢٧٤ . (٢) نسبة إلى ابن سبعين وابن عربي .
(٣) المقصود به نصر المنبجي على أفكار بن عربي يعتقد فيه الولاية ، وهو من دعاة الحلول والاتحاد .
(٤) العقود الدرية /٢٧٤ - ٢٧٥ .

الرابع والعشرين من هذا الشهر وأكرمه وتلقاه في مجلس جمع القضاة والفقهاء من مصر والشام وقام السلطان بالإصلاح بينهم وبين ابن تيمية .

ثم نزل الشيخ تقي الدين إلى القاهرة وسكن قريباً من مشهد الحسين ،وفي هذه الفترة أخذ يعمل في نشر العلم بين الناس العام والخاص ، وجلس للتعليم والتدريس وأقبل الناس عليه يقرأون ، ويستفتونه ويجيبهم بالكلام والكتابة ، وصاروا يترددون عليه ويقدم إليه الأعيان من الأمراء والقضاة والفقهاء وعموم الأكابر للمباحثة معه والاعتذار إليه وفيهم من يتبرأ مما وقع والشيخ يقول : « قد جعلت الكل في حل مما جرى » (١) ، ويذكر ابن تيمية بنفسه بعضاً من ثمرات هذه الرحلة والإقامة في القاهرة فيقول في رسالة بعثها إلى أقاربه بدمشق :« ... والحق دائماً في انتصار وعلو وازدياد ، والباطل في انخفاض وسِفال ونَفاد ، وقد أخضع الله رقاب الخصوم ، وأذلهم غاية الذل ، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه .

ونحن – ولله الحمد – قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة ، وانقماع الباطل والبدعة ، وقد دخلوا في ذلك كله وامتنعنا ، حتى يظهر ذلك إلى الفعل ، فلم نثق لهم بقول ولا عهد ، ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا ، والمذكور مفعولاً ، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم .

وقد أمدّ الله من الأسباب التي فيها عز الإسلام والسنة ، وقمع الكفر والبدعة بأمور يطول وصفها في كتاب ، وكذلك جرى من الأسباب التي هي عز الإسلام وقمع اليهود والنصارى ، بعد أن كانوا قد استطالوا وحصلت لهم شوكة وأعانهم من أعانهم على أمر فيه ذُلّ كبير من الناس ، فلطف الله باستعمالنا في بعض ما أمر الله به ورسوله ، وجرى في ذلك مما فيه عز المسلمين ، وتأليف قلوبهم وقيامهم على اليهود والنصارى وذل المشركين وأهل الكتاب ، مما هو من أعظم نعم الله على عباده المؤمنين ووصف هذا يطول ... » (٢) .

د – الرحلة من مصر إلى دمشق :

في الثامن من شهر شوال من سنة ٧١٢هـ وصلت الأنباء من مصر إلى دمشق بعزم السلطان على الخروج لجهاد التتار ، وخرج الركب في منتصف شهر شوال متوجهاً إلى دمشق ، ودخلها في ١٠/٢٣ وكان في صحبة السلطان وجيشه المجاهد شيخ الإسلام

(١) العقود الدرية /٢٧٨ – ٢٨٣ .
(٢) العقود الدرية /٢٨٤ – ٢٨٥ .

ابن تيمية ، خرج بنية الغزو ومعه أخواه وجماعة من أصحابه ، وفي الطريق تحقق السلطان أن التتر قد رجعوا إلى بلادهم ولن يكون غزوة ، فلما تحقق ابن تيمية من ذلك انفصل عن السلطان وجيشه المتوجه إلى دمشق ، وقد كان مفارقته للجيش من مدينة غزة وتوجه إلى القدس الشريف لزيارته وجلس به أياماً. ثم سافر على عجلون وبلاد السواد ، وزرع (١) .

وفي هذه البلاد التقى بقضاتها ومشايخها وفقهائها ، وأقام فيها الدروس في العقيدة والجهاد وأموراً أخرى ، وأجاب فيها على أسئلة الناس .

ونلاحظ أن ابن تيمية كان حريصاً على زرع بذور الدعوة في أماكن متعددة ، ففي كل رحلة يقوم بها يمر في طريقه ببعض المدن ويلتقي بأعيانها وعلمائها وأهل الفضل فيها ، ويلقي الدروس العلمية في قضايا العقيدة والدعوة والجهاد .

وصول ابن تيمية إلى دمشق :

وصل شيخ الإسلام ابن تيمية إلى دمشق في أول يوم من ذي القعدة ، وقد خرج خلق كثير لاستقباله سروراً بمقدمه وفرحاً بسلامته وعافيته ، وقد استبشر أهل دمشق بذلك القدوم الميمون حتى خرج خلق من النساء لرؤيته فرحاً وسروراً بعافيته .

وبعد استقرار الشيخ بدمشق واطمئنانه برؤية الأهل والأقربين والأصحاب والتلاميذ والمحبين ، باشر أعماله الدعوية في نصح الناس وتعليمهم وإفتائهم وحل مشاكلهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إضافة إلى تأليف الكتب وإرسال الرسائل إلى الموافقين والمخالفين والعلماء والحكام وغيرهم وإرسال الفتاوى المكتوبة (٢) .

وكانت هذه الرحلة هي نهاية رحلات ابن تيمية رحمه الله ، وامتدت إقامته في دمشق حتى وفاته في سجن القلعة سنة ٧٢٨هـ وقد قضى هذه الفترة من حياته بالدعوة والتعليم والإفتاء القولي والكتابي والتأليف والردود .

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٥٨ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/٥٨ .

الجهـــاد

يجمع كثير من المعاصرين لشيخ الإسلام ابن تيمية ومن بعده إلى يومنا هذا أنه لم يوجد عالم من علماء الإسلام بعد جيل الصحابة والتابعين من هو مثله ، فقد نال الإمامة والمكانة العالية في كل أمر من أمور الخير .

فهو إمام في العلم ، وإمام في العبادة ، وإمام في نوائب العامة والخاصة ، وإمام في مكارم الأخلاق ، وإمام في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإمام في مقابلة خصوم الحق والمناوئين له والمنحرفين عنه ، وإمام في جهاد الكفار والمنافقين وأهل البدع الكبار الذين خانوا دينهم وأمتهم .

وفي هذا المبحث أتحدث عن جانب الجهاد في حياة ابن تيمية الدعوية كوسيلة من وسائل الدعوة لإعلاء كلمة الحق ، ودحض كلمة الباطل وأهلها .

والقوة والجهاد في نظر ابن تيمية لها جانبان :

الأول : « قوة الإدراك النظرية » (١) .

وهي القوة المعنوية ، ويدخل فيها أحد نوعي الجهاد ، وهو الجهاد « بالحجة والبيان والدعوة » (٢) . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (٣) ،فأمره الله سبحانه وتعالى أن يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً ، وهذه السورة مكية نزلت بمكة قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم وقبل أن يؤمر بالقتال ولم يؤذن له ، وإنما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب والبيان والدعوة لا بالقتال » (٤) .

وهذا الجانب في الجهاد هو الذي يخص علماء الأمة ودعاتها ورجالات الفكر فيها، فذخيرته موجودة لديهم وهي العلم ونيته في قلوبهم فهم أهل إرادته ، وهم أكثر من يعرف فضله وشرفه وأهميته وخطورة إهماله ، وآلته موجودة لديهم وهي الألسنة مغاريف القلوب تغرف من نور الكتاب والسنة الدلائل النقلية والعقلية وتقذف بها على أوكار الضلالة فتجعلها دكاء ، وترسله على الباطل فإذا هو زاهق .

---

(١) الفتاوى ١٨/٦٠ .
(٢) منهاج السنة ٨/٨٦ .
(٣) سورة الفرقان الآيات (٥١ - ٥٢) .
(٤) منهاج السنة ٨/٨٦ .

وابن تيمية له القدح المعلا في هذا الجانب من الجهاد ،فقد وقف وقفة أمة أمام كل تيارات الهدم الفكرية في داخل المجتمع الإسلامي وخارجه ،وكشف للأمة أنواعاً من الضلالات والانحرافات كان كثير من الناس يعتقدها حقاً موافقاً للكتاب والسنة نظراً لكثرة السائرين عليها من السابقين والمعاصرين .

وكشف الستار عن شخصيات كان لها من التعظيم والتبجيل واعتقاد الولاية إلى درجة أن من نال منها كأنما نال من الإسلام ، وبيّن للناس أن هؤلاء ضلال منحرفون عن الحق وفي أقوالهم كفر صريح ، وذلك كابن عربي وابن سبعين والحلاج والفارابي وابن سينا والجهم بن صفوان . ويرى أن دفع شر هؤلاء وضلالهم وتحريفهم من أعظم الجهاد، فما كانت وقفته أمام كل الطوائف والنحل والأفراد والجماعات إلا وقفة مجاهد باع نفسه في ساحة الجهاد الفكري وميدان الصراع العقائدي والعلمي مقدماً نفسه في سبيل الله لإزاحة هذه الظلمات المتراكمة التي بعضها فوق بعض ، حتى حجبت أنوار النصوص الشرعية والآثار النبوية والسلفية عن أعين الناس فأصمتهم وأعمت أبصارهم ، يقول عنهم :« فإن هؤلاء لو تركوا نصوص الأنبياء لهدت وكفت ، ولكن صالوا عليها صول المحاربين لله ولرسوله ، فإذا دفع صيالهم وبيّن ضلالهم كان ذلك من أعظم الجهاد في سبيل الله » (١) .

ويقول :« فقد أوجب الله تعالى على المؤمنين الإيمان بالرسول والجهاد معه ، ومن الإيمان به تصديقه في كل ما أخبر به ، ومن الجهاد معه دفع كل من عارض ما جاء به وألحد في أسماء الله وآياته .

وهؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة لا قاموا بكمال الدين ولا بكمال الجهاد ... وأخذوا يقولون إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار ، والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات ، وأن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكذيباً أو تأويلاً أو تفويضاً – لأنها أصل السمعيات ، وإذا حقق الأمر عليهم وجِدَ الأمر بالعكس ، وأنه لا يتم الإيمان بالرسول والجهاد لأعدائه ، إلا بالمعقول الصريح والمناقض لما ادعوه من العقليات » (٢) .

ويعد هذا النوع من الجهاد مثل جهاده العملي بالسيف والسنان لمن خالف الإسلام، يقول عن خصومه الذين عارضوه ونابذوه العداء :« ونحن ولله الحمد على عظيم الجهاد في سبيله ... بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان ، والجبلية والجهمية،

---

(١) الدرء ٢٠٦/٤ . (٢) الدرء ٣٧٣/٢ .

والاتحادية وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .

وإذا ظهر للدين معارض ومعاند فإن أهله يتحامون للدفاع وتتحرك هممهم وغيرتهم ، وهذا « .. من سنة الله : أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه ، فيحقُ الحق بكلماته ، ويقذف بالحق عل الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق » (٢) .

وقد كثر المعارضون له وذلك لقيامه بـ « نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون ، وهابوا ، وجسر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام ، قياماً لا مزيد عليه ، وبدّعوه ، وناظروه ، وكابروه ، وهو ثابت لا يُداهن ، ولا يحابي ، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده ، وحدة ذهنه ، وسعة دائرته في السنن والأقوال... فجرى بينه وبينهم حملات حربية ، ووقائع شامية ومصرية ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله » (٣) .

الثاني : « قوة الحركة العملية » (٤) .

وهي القوة الحسية البدنية « ... فمعلوم أن الجهاد منه ما يكون بالقتال باليد » (٥) ، وهذا الجهاد « ... يحتاج إلى التدبير والرأي ويحتاج إلى شجاعة القلب ، وإلى القتال باليد . وهو إلى الرأي والشجاعة في القلب في الرأس المطاع أحوج منه إلى قوة البدن » (٦) .

وينقل ابن تيمية رأياً لابن حزم في أقسام الجهاد وذلك عندما تكلم أبو محمد عن الذين يفضلون علياً على غيره من الصحابة بجهاده قال : « وهذا خطأ لأن الجهاد ينقسم أقساماً ثلاثة :

أحدها : الدعاء إلى الله تعالى باللسان .

والثاني : الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير .

والثالث : الجهاد باليد في الطعن والضرب » (٧) .

ثم يبيّن أبو محمد أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر كان لهم الأول

(١) الفتاوى ٥٩/٢٨ . (٢) العقود الدرية /٣٦٤ . (٣) العقود الدرية /١١٧ .
(٤) الفتاوى ٦٠/١٨ . (٥) منهاج السنة ٨٦/٨ . (٦) السابق .
(٧) منهاج السنة النبوية ٨٧/٨ .

والثاني وممارستهم لهذين النوعين من الجهاد أكثر من الثالث ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يكون له إلا الأفضل (1) .

وقد أثبت ابن تيمية رحمه الله من خلال حياته العملية أنه داعية قدوة فالنظريات الجهادية والدعوات التي وجهها للأمة في كل المناسبات من أجل أن تكون أمة مجاهدة أنزلها إلى ساحة الواقع يراها الناس نماذج حية وصوراً مشرقة متمثلة فيه وفي تلاميذه وأصحابه .

وهذا هو ما تحتاج الأمة إليه في كل زمان ومكان . والقادة العلميون والسياسيون والعسكريون الحقيقيون هم الذين يقولون ويفعلون ، حتى تكون أفعالهم تترجم أقوالهم .

وجهود شيخ الإسلام في الجهاد العملي جهود مبرورة مشكورة مذكورة مشهورة، وقد جعلت له مكانة سامقة عالية بين الحكام والأمراء والأعيان والعامة وبين العلماء المنصفين المخلصين ، وأما غيرهم فقد أشعلت مواقفه الجهادية نيران الحقد في نفوسهم فهي درجة عالية هممهم تقصر دون ذراها ، وعزائمهم تضعف عن مجرد التفكير فيها .

وأتناول باختصار بعض مواقفه الجهادية العملية ، واضعاً بين يديها مقدمة لا بد منها :

أ - « أهم أمر الدين الصلاة والجهاد ، ولهذا أكثر الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة والجهاد ، وكان إذا عاد مريضاً يقول : (اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة وينكأ لك عدوا) (2) » (3) .

والجهاد في سبيل الله « أفضل ما تطوع به الإنسان ، وكان باتفاق من العلماء أفضل من الحج والعمرة ومن الصلاة التطوع ، والصوم التطوع ، كما دل عليه الكتاب والسنة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم :(رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة ،

---

(1) انظر السابق ويراجع الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٤/٢١١ ، ٢١٢ .

(2) أخرجه أبو داود من حديث ابن عمرو ولفظه (إذا جاء الرجل يعود مريضاً فليقل : اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدواً ، أو يمشي لك إلى جنازة) وفي رواية « الصلاة » صححه الألباني وذكره في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم الحديث ١٥٠٤ . صحيح سنن أبي داود ، تصحيح الألباني ٢/٦٠٠ ، رقم الحديث ٢٦٦٤ ، باب الدعاء للمريض عند العيادة ١٢ ، الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج .

(3) الفتاوى ٢٨/٢٦١ .

وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله) [1] ،وقال :(إن في الجنة لمائة درجة ، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله) [2] متفق عليه » [3]. و « ... الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة » [4] ، والجهاد أحد الأركان الثلاثة التي لا يقوم الدين إلا بها وهي :

١ – الكتاب : يهدي به الله وبه يقوم العلم والدين .

٢ – الميزان : به تقوم الحقوق في العقود المالية والقبوض .

٣ – الحديد : ينصر الدين وبه تقوم الحدود على الكافرين والمنافقين .

والكتاب له الصلاة ، والحديد له الجهاد ، ولهذا كان أكثر الآيات والأحاديث فيهما » [5] . والجهاد مطهرة للعبد الذي تراكمت عليه الذنوب وعظمت ، وفيه الدواء النافع منها ويكفر الله به ويمحو من ذنوب عباده ما لا يمحوه بغيره من الطاعات ، يقول رحمه الله: « ومن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد ، فإن الله عز وجل يغفر ذنوبه كما أخبر الله في كتابه ... ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [6] ومن أراد التخلص من الحرام والتوبة ولا يمكن رده إلى أصحابه فلينفقه في سبيل الله عن أصحابه . وكذلك من أراد أن يكفر الله عنه سيئاته في دعوى الجاهلية وحميتها فعليه بالجهاد » [7] .

ب – والذين يجب قتالهم هم « كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة ، من هؤلاء القوم وغيرهم – يعني التتر – فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين ببعض شرائعه ... فعلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال ، فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله وحتى لا تكون فتنة ، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٣١ طبعة الدرويش في ٦ مجلدات ، وأخرجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل وطرفة « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ... » كتاب الإيمان ، باب حرمة الصلاة ، رقم الحديث ٢١١٠ صحيح سنن الترمذي ٢/٣٢٨ ، ٣٢٩ تصحيح الشيخ الألباني ، الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج ، وأخرجه أيضاً ابن ماجه في كتاب الفتن ، باب كف اللسان في الفتنة ، رقم الحديث ٣٢٠٩ ، صحيح سنن ابن ماجه ٢/٣٥٩ .

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وطرفه « من آمن بالله ورسوله » كتاب الجهاد ، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ، رقم الحديث ٢٧٩٠ ، فتح الباري ٦/١١ ، وفي كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم ﴾ ، رقم الحديث ٧٤٢٣ ، فتح الباري ١١/٤٠٤ .

(٣) الفتاوى ٢٨/٣٥٢ . (٤) الفتاوى ٢٨/٢٦١ ، وانظر ص ٣٥٣ .

(٥) انظر الفتاوى ٣٥/٣٦ . (٦) سورة الصف آية (١٢) . (٧) الفتاوى ٢٨/٤٢١ – ٤٢٢ .

... فإما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء ... [الخ] وغير ذلك من واجبات الدين ومحرماته والتي لا عذر لأحد في جحودها وتركها – التي يكفر الجاحد لوجود بها ، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء » (١) .

« وقتال هؤلاء واجب ابتداء بعد بلوغ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بما يقاتلون عليهم ، فأما إذا بدأوا المسلمين فيتأكد قتالهم .

... وأبلغ الجهاد الواجب للكفار والممتنعين عن بعض الشرائع كمانعي الزكاة والخوارج ونحوهم : يجب ابتداء ودفعاً ، فإذا كان ابتداء فهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين ، وكان الفضل لمن قام به .

... فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لإعانتهم : ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ (٢) » (٣) .

ومن لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة فإنه يرى عدم قتله ، وذلك أن الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق كما قال تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (٤) ،أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه ، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه ، ولهذا قال الفقهاء : إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة يعاقب بما لا يعاقب به الساكت ، وجاء في الحديث : إن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، ولكن إذا ظهرت فلم تنكر ضرت العامة » (٥) .

ج – يثور في النفوس بعض الشبهات أو المعوقات عن الجهاد أو تثار من قبل المغرضين ونحوهم ، هذه الشبهات والأوهام تتبع ابن تيمية أقصى دائها فشفاها ، قال مخاطباً الجبناء الذين يفرون من القتال خوف الموت : قال تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٦) ، فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون .. والفرار من

---

(١) الفتاوى ٢٨/٥٠١ – ٥٠٤ وانظر ص٣٥٧ .
(٢) سورة الأنفال آية (٧٢) .
(٣) الفتاوى ٢٨/٣٥٨ .
(٤) سورة البقرة آية (٢١٧) .
(٥) الفتاوى ٢٨/٣٥٥ .
(٦) سورة الأحزاب آية (١٦) .

القتل كالفرار من الجهاد ، وحرف « لن » ينفي الفعل في الزمن المستقبل ... فاقتضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدا ، وهذا خبر الله الصادق فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره .

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن ... ومضمون الأمر أن المنايا محتومة : فكم ممن حضر الصفوف فسلم ، وكم ممن فرّ من المنية فصادفته » (١) .

ولما قال أقوام في زمنه في مواجهة التتر لا تنفروا في البرد ،ردّ عليهم بأن هذا له نموذج سابق حينما قال المنافقون للصحابة لا تنفروا في الحر « وهكذا الذين يقولون: لا تنفروا في البرد فيقال : نار جهنم أشد برداً كما أخرجاه في الصحيحين أنه قال : (اشتكت النار إلى ربها فقالت : ربي أكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر والبرد فهو من زمهرير جهنم) (٢) . فالمؤمن يدفع بصبره على الحر والبرد في سبيل الله حر جهنم وبردها ، والمنافق يفر من حر الدنيا وبردها حتى يقع في حر جهنم وزمهريرها » (٣) .

وقد عرضت شبهة كادت تثبط المسلمين عن جهاد التتار وغيرهم ، والذين أثاروها بعضهم من حسن نية والبعض الآخر من أهل الأهواء والضلال . قالوا : كيف يجوز قتال التتار وهم يدّعون الإسلام وفي جيشهم مسلمون ومنهم أقوام مكرهون على القتال معهم من أهل الإسلام ؟ وقد امتنع بعض المسلمين عن قتالهم لهذه الشبهة ، وقد أثيرت قوية جذعة قبيل وقعة شقحب فقيل : قتال هؤلاء من أي نوع من أنواع القتال ؟ ليسوا خوارج لأنهم لم يكونوا تحت طاعة الإمام من قبل فيقال خرجوا عليه ، وليسوا بغاة لهم تأويل سائغ ، فتصدى لهذه الشبهة وأجاب بما أزال الشكوك والشبهات عنهم ، قال رحمه الله : « قتال التتار الذين قدموا إلى بلاد الشام واجب بالكتاب والسنة فإن الله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (٤) ، والدين هو الطاعة فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون الدين كله لله » (٥) .

« والتتار وأشباههم أعظم خروجاً عن شريعة الإسلام من مانعي الزكاة والخوارج

---

(١) الفتاوى ٤٥٣/٢٨ ، ٤٥٥ .
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ، فتح الباري ١٨/٢ كتاب مواقيت الصلاة ، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر . ومسلم ٤٣١/١ كتاب المساجد ، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر .
(٣) الفتاوى ٤١٩/٢٨ . (٤) سورة الأنفال آية (٣٩) . (٥) الفتاوى ٥٤٤/٢٨ .

من أهل الطائف الذين امتنعوا عن ترك الربا ، فمن شك في قتالهم فهو أجهل بدين الإسلام ، وحيث وجب قتالهم قوتلوا وإن كان فيهم المكره باتفاق المسلمين . كما قال العباس لما أسر يوم بدر : يا رسول الله إني خرجت مكرها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أما ظاهرك فكان علينا ، وأما سريرتك فإلى الله) (١) ، ونحن لا نعلم المكره ولا نقدر على التمييز فإذا قاتلناهم بأمر الله كنا في ذلك مأجورين معذورين ، وكانوا هم على نياتهم ... » (٢) .

« والصواب أن هؤلاء ليسوا من البغاة المتأولين ، فإن هؤلاء ليس لهم تأويل سائغ أصلا ، وإنما هم من جنس الخوارج المارقين ومانعي الزكاة ، وأهل الطائف الخرمية ونحوهم ممن قوتلوا على ما خرجوا عنه من شرائع الإسلام » (٣) .

« وبالجملة فمذهبهم ودين الإسلام لا يجتمعان ، ولو أظهروا دين الإسلام الحنيفي الذي بعث رسوله به لاهتدوا وأطاعوا » (٤) .

وقال أيضاً في إجابه لسؤال وجه إليه عنهم : « فهؤلاء القوم المسئول عنهم عسكرهم مشتمل على قوم كفار من النصارى والمشركين ، وعلى قوم منتسبين إلى الإسلام - وهم جمهور العسكر - ينطقون بالشهادتين إذا طلبت منهم ، ويعظمون الرسول ، وليس فيهم من يصلي إلا قليل جداً ... وعندهم من الإسلام بعضه وهم متفاوتون فيه لكن الذي عليه عامتهم والذي يقاتلون عليه متضمن لترك كثير من شرائع الإسلام أو أكثرها » (٥) .

« وقتال هذا الضرب واجب بإجماع المسلمين وما يشك في ذلك من عرف دين الإسلام وعرف حقيقة أمرهم » (٦) .

وقال عنهم :« وهم يقاتلون على ملك جنكسخان ... وذلك أن اعتقاد هؤلاء التتار كان في جنكسخان عظمياً فإنهم يعتقدون أنه ابن الله من جنس ما يعتقده النصارى في المسيح ، ويقولون إن الشمس حبلت أمه .. (٧) ، وهم يحاربون المسلمين ويعادونهم أعظم معاداة ويطلبون من المسلمين الطاعة لهم .. ولا ينضم إليهم من المظهرين للإسلام إلا منافق أو زنديق أو فاسق فاجر، ومن أخرجوه مكرهاً فإنه يبعث

(١) أخرجه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، المسند ٣٥٣/١ قال الهيثمي في مجمع الزوائد : فيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات ٨٦/٦ .
(٢) الفتاوى ٥٤٦/٢٨ ، ٥٤٧ .
(٣) الفتاوى ٥٤٨/٢٨ .
(٤) الفتاوى ٥٥٢/٢٨ .
(٥) الفتاوى ٥٠٤/٢٨ .
(٦) الفتاوى ٥٠٦/٢٨ .
(٧) الفتاوى ٥٢٠/٢٨ .

على نيته ونحن علينا أن نقاتل العسكر جميعه إذ لا يتميز المكره من غيره (١) .

وقال وهو في ميدان المعركة في شقحب لما طرح إشكال من أي نوع قتالهم : «هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية ، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطن العلماء والناس لذلك وكان يقول للناس : إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ، فشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد» (٢) .

وانتشرت شبهة أخرى عن غرض حسن من البعض وغرض سيء من آخرين ، وهذه الشبهة تتعلق بالولاة وأن منهم من يقاتل العدو ليس في سبيل الله وإنما في سبيل حكمه وسلطانه ، ومنهم من هو ظاهر الفجور والظلم والفساد وأن مَنْ هذه حاله لا يصح القتال معه لأن فيه إعانة على ما هو فيه من المقاصد غير الحسنة والأعمال القبيحة .

ومما لا شك فيه أن هذه شبهة خطيرة عظيمة الأثر على الأمة، اندفع ابن تيمية لإظهار الحق للناس في هذه القضية ومن أقواله في شأن القتال مع الولاة الذين هذه أحوالهم قوله بعد إيجاب قتال التتار :« فإن اتفق من يقاتلهم على الوجه الكامل فهو الغاية في رضوان الله وإعزاز كلمته وإقامة دينه وطاعة رسوله ، وإن كان فيهم من فيه فجور وفساد نية بأن يكون قاتل على الرياسة ، أو يتعدى عليهم في بعض الأمور، وكانت مفسدة ترك قتالهم أعظم على الدين من مفسدة قتالهم على هذا الوجه : كان الواجب أيضاً قتالهم دفعاً لأعظم المفسدتين بالتزام أدناهما ، فإن هذا من أصول الإسلام التي ينبغي مراعاتها .

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة الغزو مع كل بر وفاجر ، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ... لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجار ، أو مع عسكر كثير الفجور فإنه لابد من أحد أمرين : -

الأول : إما ترك الغزو معهم فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضرراً في الدين والدنيا .

---

(١) الفتاوى ٥٣٤/٢٨ . (٢) البداية والنهاية ٢١/١٤ .

الثاني : وإما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين ، وإقامة أكثر شرائع الإسلام وإن لم يمكن إقامة جميعها ، فهذا هو الواجب في هذه الصورة ، وكل ما أشبهها ، بل كثير من الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين لم يقع إلا على هذا الوجه ...
– و – ما رواه أبو داود في سننه من قوله صلى الله عليه وسلم :(الغزو ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل) (١) ... إلى غير ذلك من النصوص التي اتفق أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف على العمل بها في جهاد من يستحق الجهاد مع الأمراء أبرارهم وفجارهم ، بخلاف الرافضة والخوارج والخارجين عن السنة والجماعة .

هذا مع إخباره صلى الله عليه وسلم بأنه « سيلي أمراء ظلمة خونة فجرة ، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم فليس مني ولست منه ولا يرد علي الحوض ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وسيرد على الحوض » (٢) .

« فإذا أحاط المرء علماً بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من الجهاد الذي يقوم به الأمراء إلى يوم القيامة ، وبما نهى عنه من إعانة الظلمة على ظلمهم : علم أن الطريقة الوسطى التي هى دين الإسلام المحض جهاد من يستحق الجهاد كهؤلاء القوم المسؤول عنهم – التتار – مع كل أمير وطائفة هي أولى بالإسلام منهم ، إذا لم يمكن جهادهم إلا كذلك . واجتناب إعانة الطائفة التى يغزو معها على شيء من معاصي الله ، بل يطيعهم في طاعة الله ، ولا يطيعهم في معصية الله ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديماً وحديثاً ، وهي واجبة على كل مكلف ، وهي متوسطة بين طريق الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم ، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقاً وإن لم يكونوا أبرارا » (٣) .

من المواقف الجهادية العملية : –

معركة شَقْحب :

من المعارك المعدودة العظيمة في التاريخ الإسلامي ، ولابن تيمية فيها جهود كبيرة ومساع حميدة وآراء سديدة وشجاعة فريدة « وظهر فيها من كرامات الشيخ وإجابة دعائه ، وعظيم جهاده ، وقوة إيمانه ، وشدة نصحه للإسلام ، وفرط شجاعته ، ونهاية

---

(١) ، (٢) الفتاوى ٢٨/٥٠٦ – ٥٠٨ .   (٣) الفتاوى ٢٨/٥٠٦ – ٥٠٨ .

كرمه ، وغير ذلك من صفاته : ما يفوق النعت ويتجاوز الوصف ،واتفقت كلمة إجماعهم على تعظيم الشيخ تقي الدين ومحبته وسماع كلامه ونصيحته ، واتعظوا بمواعظه .

وساق الله جيش الإسلام العرمرم المصري السلطان والأمراء المصريين والعظماء وزعماء الجيش هؤلاء عن آخرهم « فاجتمع – ابن تيمية – بالخليفة والسلطان ، وأرباب الحل والعقد ، وأعيان الأمراء عن آخرهم ... وبينهم وبين التتار أقل من مقدار ثلاث ساعات مسافة ، ودار بين الشيخ .. وبينهم ما دار بين الشاميين وبينه ، وكان بينهم ومعهم كأحد أعيانهم ... وهذا توفيق عظيم كان من الله تعالى له ، لم يتفق لمثله .

وبقي الشيخ – رضي الله عنه – هو وأخوه وأصحابه ومن معه من الغزاة قائماً بظهوره وجهاده ولأمة حربه، يوصي الناس بالثبات ويعدهم بالنصر ، ويبشرهم بالغنيمة، والفوز بإحدى الحسنيين إلى أن صدق الله وعده ، وأعز جنده ، وهزم التتار وحده ، ونصر المؤمنين ودخل جيش الإسلام المنصور إلى دمشق ... والشيخ في أصحابه شاكياً في سلاحه ، داخلاً معهم ، عالية كلمته ، قائمة حجته ... مكرماً معظماً ذا سلطان وكلمة نافذة ، وهو مع ذلك يقول للمادحين له: أنا رجل مِلّة، لا رجل دولة .

وعن شجاعة الشيخ وإقدامه وشدة بأسه عند القتال يحدثنا ابن عبدالهادي قائلاً: «ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين ، أمير من أمرائهم ذو دين متين ، وصدق لهجة معروف في الدولة قال :

قال لي الشيخ – يوم اللقاء ، ونحن بمرج الصُّفَّر ، وقد تراءى الجمعان – : يا فلان أوقفني موقف الموت ، قال : فسقته إلى مقابلة العدو ، وهم منحدرون كالسيل ... ثم قلت له : يا سيدي ، هذا موقف الموت ، وهذا العدو قد أقبل نحو هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد .

قال : فرفع طرفه إلى السماء ، وأشخص بصره ، وحرّك شفتيه طويلا ، ثم انبعث وأقدم على القتال ... قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام وما عدت رأيته ، حتى فتح الله ونصر ، وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة ، وكان آخر النهار .

قال : وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما ، تحريضاً على القتال وتخويفاً للناس من الفرار ، وقد حدثت هذه المعركة في سنة ٧٠٢هـ في أول شهر رمضان المبارك ، وقد بدأت من العصر يوم السبت الثاني من شهر رمضان المبارك إلى

الساعة الثانية من يوم الأحد الثالث من شهر رمضان (١) .

قتال أهل جبل كِسروان :

لم يزل الشيخ في اتصال فعلي وقولي وكتابي « حتى حرك الله سبحانه عزمات نفوس ولاة الأمر لقتال أهل جبل كِسروان ، فقام الشيخ في ذلك أتم قيام ، وكتب إلى أطراف الشام في الحث على قتال المذكورين وأنها غزاة في سبيل الله » (٢) .

وكان هذا الجبل « من أصعب الجبال ، وأشقها ساحة ، وكانت الملوك المتقدمة لا تُقدِم على حصاره ، مع علمها بما عليه أهله من البغي والخروج على الإمام والعصيان ، وليس إلا لصعوبة المسلك ومشقة النزول عليهم .

وتوجه الشيخ تقي الدين رضي الله عنه إلى هؤلاء الرافضة الكسروانين « في مستهل ذي الحجة سنة ٧٠٤هـ وصحبته الأمير قراقوش ، وتوجه نائب السلطنة ، الأمير جمال الدين الأفرم ، بمن تأخر من عسكر دمشق إليهم ، لغزوهم ، في ثاني المحرم سنة ٧٠٥هـ كان قد توجه قبله العسكر ، طائفة بعد طائفة في ذي الحجة ٧٠٤هـ .

وفي يوم الخميس ٧٠٥/١/١٧هـ وصل النائب والعسكر معه إلى دمشق بعد أن نصرهم الله تعالى على حزب الضلال من الروافض والنصيرية ، وأصحاب العقائد الفاسدة ، وأبادهم الله من تلك الأرض (٣) .

وكتب ابن تيمية إلى السلطان الملك الناصر رسالة يخبره بالنصر ويهنيه به ويشرح له أحوال هؤلاء وما فيهم من كفر وتآمر مع أعداء الإسلام ، ويشرح له ما فعل بهم في هذه الغزوة ، وكان ابن تيمية وجماعة من أصحابه وخلق كثير من المتطوعة والحوارنة قد خرج إلى قتل هؤلاء من تخريب بيوتهم وحرق أشجارهم ونخيلهم ونحو ذلك ، وبيّن الوجه الشرعي لهذه الأفعال (٤) أهل جبال الجرد وكسروان وكانوا صحبة نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق ، وكان هذا في يوم الجمعة ٢٠/١٠/٦٩٩هـ، وكان غزوهم « بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم ، وما كادوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا حين اجتازوا ببلادهم ، وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم وقتلوا كثيراً منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء

---

(١) يراجع في تفاصيل هذه المعركة البداية والنهاية ٢٢/١٤ - ٢٤ والعقود الدرية /١٧٥ - ١٧٨ .

(٢) العقود الدرية /١٧٩ .

(٣) انظر العقود الدرية /١٧٩ - ١٨٢ .

(٤) لمزيد من التفاصيل في محتوى هذا الخطاب القيم انظر العقود الدرية /١٨٢ - ١٩٤ .

رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم وبيّن لكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين ، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال ، وأقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الملة ولا يدينون دين الحق ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » [1] .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١١ ، ١٢ .

المـــدارس

ينتشر في العالم الإسلامي عدد من المدارس وأغلبها تتبع أحد المذاهب الفقهية أو الفرق الصوفية أو الطائفة الرافضية ، وفي دولة المماليك كثرت هذه المدارس وتنافس أمراء المماليك في إقامتها وإجراء المرتبات والأوقاف عليها ، وكان ذلك مما أثرى الناحية العلمية في الشام ومصر .

وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة مدرسة أو أكثر يتولى الإشراف عليها وإقامة الدرس فيها كبير علماء المذهب ، والحنابلة في دمشق لهم بعض المدارس ومن أشهرها المدرسة الحنبلية ودار الحديث السكرية التي بالقصاعين .

وفي يوم الأثنين الثاني من شهر محرم سنة ٦٨٣هـ درّس شيخ الإسلام ابن تيمية بدار الحديث السكرية بعد وفاة والده رحمه الله وكان عمر ابن تيمية اثنتين وعشرين سنة . وقيل له إحدى وعشرون سنة وقيل سبع عشرة سنة . وقد حضر عنده قاضي القضاة والشيوخ الكبار من جميع المذاهب ، وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنة وصغره (١) .

وفي يوم الأربعاء ٦٩٥/٨/١٧هـ درّس ابن تيمية بالمدرسة الحنبلية عوضاً عن الشيخ زين الدين بن المنجي (٢) من شيوخ الحنابلة رحمه الله (٣) . وفي سنة ٧١٧هـ درّس ابن تيمية بالمدرسة الحنبلية لما سافر أخوه شرف الدين إلى الحج وكان هذا يدرس بها بإذن من أخيه . واستمر الشيخ يدرّس بها حتى حضر أخوه من الحج وكذلك بعد حضوره (٤) .

وفي سنة ٧٢١هـ خرج من سجنه بالقلعة بدمشق واشتغل بتعليم الناس وكان أحياناً يلقي الدروس بالمدرسة الحنبلية ، ويقرأ عليه في مدرسته بالقصاصين في أنواع من العلم (٥) .

---

(١) البداية والنهاية ٢٨٧/١٣ .

(٢) هو : زين الدين أبو البركات بن المنجي بن الصدر عز الدين عمر عثمان بن أسعد بن المنجي بن بركات بن المتوكل التنوخي،شيخ الحنابلة، ولد سنة ٦٣١هـ سمع الحديث وتفقه وبرع في فنون من العلم كثيرة وانتهت إليه رياسة المذهب ، وتوفي رحمه الله سنة ٦٩٥هـ . انظر البداية والنهاية ٣٢٦/١٣ - ٣٢٧ .

(٣) البداية والنهاية ٣٢٥/١٣ - ٣٢٦ .

(٤) البداية والنهاية ٧١/١٤ .

(٥) العقود الدرية /٣٢٦ .

المسجد

المسجد على طول التاريخ الإسلامي منذ قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة إلى يومنا هذا له في نفوس الأمة المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ، فالمساجد بيوت الله ، وهي مصدر الإشعاع الروحي في بلاد الإسلام .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم فيها ويعقد الشورى ويقضي بين الناس ويدير شئون الدولة وينظم الجيوش ويستقبل الوفود .

وهذا ابن تيمية يحدثنا عن مكانة المساجد في الأمة وواقع الأمة معها :« وكانت (مواضع الأئمة ومجامع الأمة) هي المساجد فإن النبي صلي الله عليه وسلم أسس مسجده المبارك على التقوى : ففيه الصلاة ، والقراءة والذكر ، وتعليم العلم ، والخطب، وفيه السياسة ، وعقد الألوية والرايات وتأمير الأمراء – وتعريف العرفاء ، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم .

وكذلك عماله في : مكة ، والطائف ، وبلاد اليمن ، وغير ذلك من الأمصار والقرى ، وكذلك عماله على البوادي ، فإن لهم مجمعاً فيه يصلون ، وفيه يساسون .

وكان (الخلفاء والأمراء) يسكنون في بيوتهم ، كما يسكن سائر المسلمين في بيوتهم لكن مجلس إمام الجامع هو المسجد الجامع .

... فلما كانت إمارة معاوية احتجب لما خاف أن يغتال كما اغتيل علي ، واتخذ المقاصير في المساجد ليصلي فيها ذو السلطان وحاشيته واتخذ المراكب ، فاستن به الخلفاء الملوك بذلك ، فصاروا مع كونهم يتولون الحرب والصلاة بالناس ويباشرون الجمعة والجماعة والجهاد وإقامة الحدود : لهم قصور يسكنون فيها ويغشاهم رؤوس الناس فيها ، كما كانت (الخفراء) لبني أمية قبلي المسجد الجامع ، والمساجد يجتمع فيها للعبادات ، والعلم ونحو ذلك »[(١)] .

ثم يذكر كيف ضعف دور المسجد في الأمة حين ابتعدت الأمة عن مساجدها وقلصت اتصالها به في كثير من شئون دينها ودنياها قال : « طال الأمد ، وتفرقت الأمة،

(١) الفتاوى ٣٥/٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط الثانية ١٣٩٢هـ .

وتمسك كل قوم بشعبة من الدين بزيادات زادوها فأعرضوا عن شعبة منه أخرى .

أحدثت الملوك والأمراء « القلاع ، والحصون ، وأحدثت « المدارس » لأهل العلم ، وأحـــدثت « الربط والخوانق » لأهل التعبد ، وأظن مبدأ انتشار ذلك في « دولة السلاجقه» [1] ووقفت عليها وقوف تجرى على أهلها في وزارة « نظام الملك » [2] .

وأما المدارس فقد رأيت لها ذكراً قبل دولة السلاجقة في أثناء المائة الرابعة ، ودولتهم إنما كانت في المائة الخامسة » [3] .

وأما ابن تيمية فإنه في دعوته اهتم بعقد الدروس في المساجد ، وأحياناً الإنكار على المبتدعة ومجادلتهم وبيان خطئهم ، أو توضيح مواضع الاشتباه فيما بينه وبين خصومه ، فعل ذلك في دمشق وفي طريق ذهابه إلى مصر وفي مصر وكذلك بعد عودته من مصر إلى دمشق .

---

(١) السلاجقة : طائفة من الأتراك الغُز من قبائل الأتراك كانت تسمى « الأوغوز » نزحت من تركستان ، وحطت رحالها في مناطق تقع بين بلاد ما وراء النهر، والبلاد التى كانت تسكنها طائفة « الخزلج » التركية المسلمة . وترجع تسمية هذه الطائفة بالسلاجقة إلى رئيسها « سلجوق بن دقاق » الذي تولى قيادتها ، وتوحيد كلمة أبنائها .. واعتنقت هذه الطائفة المذهب السنيّ عندما أسلموا ، الأمر الذي كان سبباً في تقربهم من حكام الدول المجاورة لهم .. وقامت حرب طاحنة بينهم وبين الغزنويين بقيادة السلطان مسعود ، وانتهت بانتصار السلاجقة فسيطروا على إقليم خراسان بعد أن هزموا جيش مسعود عند مدينة سرخس عام ٤٢٩هـ .. وبذلك الانتصار أعلنوا دولتهم بقيادة طغلي الأول واستولوا على نيسابور التى كانت مقر دولة الغزنويين وقتئذ.. واعترف الخليفة العباسي القائم بأمر الله بدولة السلاجقة عام ٤٣٢هـ .. واتسع نفوذ السلاجقة حتى طمعوا في السيطرة على العالم الإسلامي ، وحاولوا محاولات نجحوا في بعضها وأخفقوا في بعض .. حتى كانت نهاية دولتهم على يد الدولة الخوارزمية التى استولت بعد معارك كثيرة على ممتلكات السلاجقة في الشرق والغرب ، وكان ذلك عام ٥٩٠هـ . وفروع السلاجقة هي: سلاجقة إيران ، وسلاجقة العراق ، وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة آسيا الصغرى (الروم) وسلاجقة الشام .. وقد دالت دولتهم نهائياً في القرن السادس الهجري بعد أن كانوا متمكنين كل التمكن . انظر السلاجقة في التاريخ والحضارة ، د. أحمد كمال الدين حلمي /٢١ وما بعدها ، ط الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت ، دولة السلاجقة ، د. عبد المنعم محمد حسنين /١٧ وما بعدها ١٩٧٥م ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) هو : الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، كان وزيراً حازماً عالي الهمة ، أصله من نواحي طوس ، اتصل بالسلطان إلب أرسلان فاستوزره ، وبقي في خدمته عشر سنين ، ولما مات السلطان وصار الأمر إلى ابنه ملك شاه ، أصبح الأمر كله إلى نظام الملك وأقام على ذلك عشرين سنة .. حتى اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند سنة ٤٨٥هـ ، ودفن في أصبهان .. وكان ميلاده سنة ٤٠٨هـ ، وكانت أيامه دولة أهل العلم . انظر وفيات الأعيان ١٢٨/٢ ، سير أعلام النبلاء ٩٤/١٩ ، الأعلام ٢٠٢/٢ .

(٣) الفتاوى ٣٩/٣٥ ، ٤٠ ، ٤١ .

بعد وفاة والده « أخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجامع على كرسي ، من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم ، وكذا كان الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح» (١) وكان ذلك في جامع دمشق .

وقال علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : « وكان يجلس في صبيحة كل جمعة على الناس يفسر القرآن العظيم فانتفع بمجلسه وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه وصدق نيته، وصفاء ظاهره وباطنه، وموافقة قوله لعمله وتاب إلى الله خلق كثير» (٢) .

وذكر ابن كثير في سنة ٦٨٣هـ « يوم الجمعه عاشر صفر – جلس الشيخ تقي الدين – بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيء له لتفسير القرآن العزيز فابتدأ من أوله في تفسيره ، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان ، واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة » (٣) .

وقال ابن عبدالهادي عن ابن تيمية بعد أن أخرجه ابن مهنا من سجنه بالجب في سنة ٧٠٧هـ في شهر ربيع الأول :« ولم يزل بمصر يعلم الناس ويفتيهم ، ويذكر بالله ويدعو إليه ، ويتكلم في الجوامع على المنابر بتفسير القرآن وغيره من بعد صلاة الجمعة إلى العصر » (٤) .

وفي يوم الجمعة بعد خروجه من السجن المذكور أعلاه صلى الشيخ في جامع الحاكم ، وجلس فاجتمع إليه خلق عظيم ، وسأله بعضهم أن يتكلم بشيء يسمعون منه فلم يجبهم إلى ذلك بل كان يتبسم ، وينظر يمنة ويسرة فقال له رجل : قال الله في كتابه الكريم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ ، فنهض الشيخ قائماً وابتدأ بخطبة الحاجة ... وتكلم عن تفسير قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفي معنى العبادة والاستعانة إلى أن أذن مؤذن العصر » (٥) .

في شهر رجب سنة ٧١١هـ اجتمع جماعة من الغوغاء وتفردوا بالشيخ بجامع مصر وتعصبوا عليه فضربوه ... ثم قام جماعة من أهل الحسينية وغيرهم انتصاراً للشيخ وجاءوا إلى الشيخ وقال له بعضهم : يا سيدي قد جاء هؤلاء خلق من الحسينية ، ولو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا ،فقال لهم الشيخ : لأي شيء ؟ قال : لأجلك ،

---

(١) العقود الدرية /٦ نقلاً عن الذهبي . (٢) العقود الدرية /١٣ .
(٣) البداية والنهاية ٢٨٧/١٣ . (٤) العقود الدرية /٢٦٧ . (٥) العقود الدرية /٢٥٥ .

فقال لهم : هذا ما يحق ،وهدأهم الشيخ وأقنعهم وأخبرهم أنه عفا عمن أساء إليه ثم هدأوا ، وكانوا خائفين على الشيخ من هؤلاء الغاضبين عليه من الصوفية ونحوهم ، فطلبوا من الشيخ ألا يذهب للصلاة في الجامع وليصل في المسجد الذي هو فيه حينما جاءوا إليه « مسجد الفخر كاتب المماليك عل البحر » ، أو يصلي في أي مسجد آخر في الطريق ، ولكنه رفض إلا الصلاة في الجامع العتيق ثم سار وكثر وراءه الناس حتى امتلأ الطريق ودخل الجامع والناس معه فصلى ركعتين وصلى العصر ثم افتتح بقراءة :﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم تكلم في المسألة التي كانت الفتنة بسببها إلى أذان المغرب : فخرج أتباع خصومه وهم فرقتان يقولون : والله لقد كنا غالطين في هذا الرجل لقيامنا عليه والله إن الذي يقوله هذا ، هو الحق .. وصاروا فرقتين يخاصم بعضهم بعضا » (١) .

وهذا يفيدنا مدى اهتمام ابن تيمية بالمسجد كوسيلة من وسائل الدعوة والتعليم ومحاربة الأفكار المنحرفة .

والنفوس تجد في المسجد من الطمأنينة والراحة والصفاء والتأثر أكثر مما يحدث في غيره .

وابن تيمية يحب أن تكون أغلب أمور الناس النافعة لهم في دينهم منطلقة من المسجد لما في هذه البقاع من البركة ، والقلوب ترق فيها وتكون أقرب إلى الله تعالى .

ولهذا لما سئل عن النكاح ذكر أنه يستحب عقده في المساجد (٢) ، وهي مرافق عظيمة قد بنيت بأموال كبيرة من أموال المسلمين في مساحات واسعة وفيها إمكانات محترمة مفيدة ، واستغلالها في أمور الطاعات كالمؤتمرات الإسلامية ، والتعليم ، والدعوة ، واستقبال الوفود الإسلامية من بلاد المسلمين ، ونحو ذلك من أمور الخير ، يوفر على الأمة جهود تأسيس أماكن لذلك ، إضافة إلى ما في المساجد من البركة وتنزل الرحمة .

---

(١) العقود الدرية /٢٨٥ - ٢٨٨ .

(٢) انظر الفتاوى ١٨/٣٢ .

الباب الرابع

آثار منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى

الفصل الأول : آثاره على تلاميذه ومحبيه.

الفصل الثاني : آثاره على الحركات الإسلامية .

آثار منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى

مقدمة :

أصبح الآن – وبعد مسيرة ثلاثة أبواب – المنهج التيمي في الدعوة إلى الله تعالى واضح الأسس بيّن المعالم محدد الأطر .

ولم يبق لنا في هذه المسيرة العلمية المنهجية سوى الباب الرابع وهو « آثار منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى » ، ونحن على يقين أن الجهود المدروسة المؤسسة على علم وهدى من الله لا بد أن تثمر ، خصوصاً إذا كان يقف وراءها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ويسترخصون في سبيلها كل ذرة في أجسامهم ، وكل درهم من أموالهم ، وكل غال ونفيس ومحبوب ومرغوب لديهم ، وذلك وفاءً بالبيع ، وصدقاً بالعهد ، ووفاء بالوعد ، رجاء قبض الثمن الموعود من صادق الوعد في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ (١) .

وابن تيمية وتلاميذه والسائرون على منهاجه لقوا حرباً شديدة قاسية من قبل كل طائفة مخالفة لمنهج السلف ، خصوصاً الأشاعرة والصوفية ، حتى سجن وعذب جماعات منهم (٢) ، وإذا كان شيخهم مع جلالة قدره وعظيم منزلته عند الخاص والعام حصل له ما حصل من التضييق والسجن (*) فغيره من باب أولى .

وإذا أردنا أن نستشهد لذلك فإننا نذكر ما جرى لابن قيم الجوزية حيث طيف به في شوارع دمشق منكساً على حمار ، ويشنع به ، لاتباعه آراء ابن تيمية (٣) .

يضاف إلى ذلك الحرب التي وجهت ضد المصادر الفكرية لهذا المنهج من كتب ابن تيمية ، وآرائه ، واجتهاداته ، حتى أصبح حيازتها جريمة يستحق عليها العقاب .

---

(١) سورة التوبة آية (١١١) . (٢) العقود الدرية / ٣٣٠ .

(*) انظر التمهيد ترجمة حياة الشيخ محنته وابتلاؤه .

(٣) في سنة ٧٢٦هـ السنة التي سجن فيها ابن تيمية السجن الأخير عم البلاء والمحنة تلاميذ الشيخ والحنابلة ، ومن الذين نالهم من ذلك أبو عبدالله بن القيم تلميذ ابن تيمية ففي يوم الأثنين سادس شعبان ضرب شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، وشهر على حمار بدمشق . السلوك للمقريزي ٢/٢٧٣ .

وما من شك أن هذا من الابتلاء الذي يخلص صفوف الدعوة من المندسين والمنافقين ، أو المترددين ليتميز الخبيث من الطيب ، وهذه سنة ربانية ﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (1) .

وفي هذا الجو القاتم المظلم العابس الذي عاشه ابن تيمية وتلاميذه والسائرون على منهجه لم تتوقف أشعة النور الكامنة في القلوب المؤمنة ، وكانوا يقاومون صابرين محتسبين كل ما يلاقونه لأنهم كانوا على ثقة مطلقة أنهم على الصراط المستقيم ، وأنهم على نور الله ، والله متم نوره ولو كره أعداء الدعوة ومناوءوها .

وفي الباب الرابع الذي نستقبله يتم الحديث عن بعض ما تركه الجهد الدعوي التيمي من تأثير في مجالين اثنين :

الأول : التلاميذ وهم كثيرون جداً وقد نبغ منهم أعداد كبيرة كان لهم دور رائد في المسيرة العلمية للأمة .

الثاني : الحركات الإسلامية الإصلاحية :

وهذا الجانب ما يزال يحتاج إلى دراسات وافية دقيقة تبين الوجود الحقيقي للتأثر بالمنهج والفكر التيمي ؛لأن الدراسات في هذا تكاد تكون معدومة ما خلا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ، فإنها نالت حظاً وافراً وافياً من الدراسة في هذا المجال.

ومن البشائر الخيرة أن موضوعاً للدكتوراه يخدم جوانب من هذا الغرض قد سجل في كلية الشريعة بالرياض في قسم الثقافة الإسلامية أسأل الله أن يتممه بخير .

وأما الدراسة التي سوف تقدم في بحثي هذا فلن تكون وافية بالغرض لأنني لا أستطيع التوسع ولا الاستقصاء في هذا المجال ؛ لأن لب رسالتي وأساسها هو « المنهج » وقد مضى في الأبواب الثلاثة المتقدمة .

وهذا الباب يعد من الأبواب الخارجة عن صلب المنهج وحتى حواشيه . لأن صحة المنهج والفكر وسلامته لا تقاس بتأثيره ، ولا آثاره ، ولا يكون حصول التأثير الكبير دليلاً على قبول المنهج أو الفكر . وإنما المقياس هو أن يكون موافقاً للكتاب والسنة وفق

---

(1) سورة العنكبوت الآيات (١ - ٣) .

فهم السلف الصالح حتى ولو لم يكن له أي تأثير ، وأصدق الأدلة على ذلك هو دعوات الأنبياء عليهم السلام ، فهذا نوح عليه السلام أول الأنبياء وقد أعطاه الله من القوة والعزم والصبر ما أعطاه وكان في دعوته لا يفتر ولا يتوقف ليلاً ولا نهاراً وسراً وجهاراً ومع ذلك لم يؤمن من قومه إلا القليل جداً .

والنبي صلى الله عليه وسلم حينما وصف أتباع الأنبياء يوم القيامة بيّن أن النبي يأتي وليس معه إلا الرهط والرهيط ويأتي النبي وليس معه أحد (١) .

---

(١) حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(عُرِضت عليّ الأمم . فرأيت النبيَّ ومعه الرّهيط ، والنبيَّ ومعه الرجل والرَّجلان . والنبيَّ ليس معه أحد . إذ رفع لي سوادٌ عظيم . فظننت أنهم أمتي . فقيل لي : هذا موسى صلى الله عليه وسلم وقومه . ولكن انظر إلى الأفق . فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر . فإذا سوادٌ عظيم . فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) الحديث . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ٩٤ . صحيح مسلم ١٩٩/١ تحقيق وتصحيح وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي طبعة استانبول عام ١٤٠١هـ . الرُّهَيط :تصغير الرهط . وهي الجماعة دون العشرة ، حاشية المرجع السابق .

الفصل الأول

آثاره على تلاميذه ومحبيه

الفصل الأول
آثار منهج ابن تيمية
في الدعوة إلى الله تعالى على تلاميذه ومحبيه

كما تميز ابن تيمية بكثرة شيوخه ومعلميه تميز أيضاً بكثرة تلاميذه ومحبيه .

ولم يكن ابن تيمية من ذلك النوع البسيط في عين جليسه ومحدثه ، فقد كان يجذب محدثه إليه حتى يبهره بقوة الحجج والبراهين ، ويجعل الحق أمامه ناصعاً مع قوة في الشخصية وحسن الأداء مما به يتمنى السامع أنه لم يسكت وأن مجلسه لم ينفض ، وكان للعلم الغزير والشامل لأنواع كثيرة من المعارف والفنون دور ظاهر في كثرة التلاميذ وحسن فهمهم وسعة أفقهم .

وكان للدور الكبير الذى قام به في تجديد بناء المدرسة السلفية أثر بالغ في انتشار أخباره حتى صار حديث المسلمين في أنحاء المعمورة ، يضاف إلى ذلك ما ذكرناه آنفاً من تنوع علومه واتجاهه في إحداث انقلاب فكري « على التقليد والطائفية ، والمذاهب الكلامية ، والتخبطات العقائدية رجوعاً بالأمة إلى ما كان عليه السلف الصالح ، ورداً لكل نزاع في ذلك إلى الله والرسول . كل ذلك لا بد أن يكون له في نفوس المتعلمين الأثر الكبير » (١) .

وإذا تأملنا ابن تيمية من كل جوانبه وجدنا أن لديه من المواهب والإمكانيات والقدرات ، إضافة إلى واقعه العملي في إنكار المنكرات والجهاد المسلح ، إضافة إلى جهاده باللسان لأهل البدع والأهواء .

كل هذه الأمور مكنت ابن تيمية من أن يكون له قدرات تجعل تلاميذه في إطار منهجه العلمي والعملي .

فتخرج في مدرسته من يحمل آراءه العقدية والعلمية ويسير على منهجه في الدعوة

---

(١) ابن القيم الجوزية حياته وآثاره /٧٨ بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط الثانية ١٤٠٣هـ ، المكتب الإسلامي بيروت - ودمشق ، ومكتبة الرشد الرياض شارع الحجاز .

والإصلاح ، وكانوا أعداداً كبيرة (١) ، وقد انتقل جمع منهم في أنحاء البلاد الإسلامية مما كان له أكبر الأثر في انتشار واتساع تأثير فكر ومنهج المدرسة التيمية السلفية .

ومما ساعد على هذا انتقال ابن تيمية إلى مصر وبقاؤه هناك سبع سنين مما مكنه أن يوجد أيضاً تلاميذ آخرين ، وينشر آراءه وأفكاره العلمية وطريقته ومنهاجه العملي .

وإذا عرفنا مكانة دمشق ومصر في العالم الإسلامي وانهما كانتا منارتي إشعاع علمي ومهوى أفئدة المسلمين عموماً وطلاب العلم خصوصاً فإننا نستطيع أن نتصور إمكانية الانتشار الواسعة والكبيرة .

ولم يكن ابن تيمية شيخ كلمة يلقيها ويمشي ، بل إنه شيخ تربية وتهذيب وإعداد ، يظهر هذا من علاقته مع تلاميذه وتنشئته لهم .

فكان تلاميذه على نوعين (٢) :

نوع يحضر دروسه العامة ومجالسه في المدارس والمساجد وهؤلاء كثرة وتتنوع

---

(١) ولولا العداء المستحكم ضد ابن تيمية وتلاميذه وأصحابه الذي بلغ إلى حد السجن والجلد والصفع والتشهير بين الناس في الأسواق والطرقات وقراءة المراسيم السلطانية ، والقضائية في الجوامع والميادين ضد ابن تيمية وتلاميذه ، لولا ذلك لبلغت دعوة ابن تيمية مبلغ الليل والنهار . وأذكر نموذجاً لما جرى له ولتلاميذه مما ذكرنا : في ٧٢٦هـ صار كلام في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين وحصلوا على جواب للشيخ في هذه المسألة ، فكثر الكلام والقيل والقال بسبب ذلك وعظم التشنيع على الشيخ وحرف عليه ، وحصل فتنة طار شررها في الآفاق واشتد الأمر ، وخيف على الشيخ من كيد القائمين في هذه القضية بالديار المصرية والشامية ، وضعف من ضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة ، وجَبُنَ منهم من كانت له همة ، وأما الشيخ - رحمه الله - فكان ثابت الجأش ، قوي القلب ، وظهر صدق توكله واعتماده على ربه . ولقد اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حق الشيخ فمنهم من قال :يقطع لسانه ، ومنهم من قال : يعزر ، ومنهم من قال : يحبس ، وكل واحد منهم فُعِل به مثل ما قال . واجتمع جماعة آخرون بمصر ، وقاموا في هذه القضية قياماً عظيماً ، واجتمعوا بالسلطان، وأجمعوا أمرهم على قتل الشيخ ، فلم يوافقهم السلطان على ذلك ، وأمر بحبسه بالقلعة ، فحبس في يوم الأثنين السادس من شعبان ٧٢٦هـ . وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر القاضي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ بسجن الحكم وذلك بمرسوم النائب ، وإذنه له في فعل ما يقتضيه الشرع في أمرهم . وأوذي جماعة من أصحابه ، واختفى آخرون ، وعزر جماعة ، ونودي عليهم ثم أطلقوا سوى الإمام ابن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة وسكنت القضية . العقود الدرية /٣٢٧ - ٣٣٠ بتصرف .وانظر ما كتب عن تلاميذه في المقدمة .

(٢) انظر كتاب « ابن تيمية حياته وعصره - آراؤه وفقهه /٥٢٥ للشيخ محمد أبو زهرة ، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي ، مطابع الدجوي- القاهرة- عابدين . وانظر ابن تيمية وجهوده في التفسير تأليف إبراهيم خليل بركة /٦١ ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي .

قدراتهـم العلمية وإمكاناتهم الذهنية والقيادية . وكان تأثرهم كبيراً في عدد من الجوانب ، وبعضهم يحضر مع ما لديه من بعض الاعتقادات المخالفة لبعض ما يعتقده ابن تيمية .

وكان هؤلاء يحضرون دروسه ويواظبون عليها ، سواء في دمشق أو مصر . وهذه الدروس وسّعت الامتداد الأفقي لآراء ابن تيمية ، وكانت بمثابة إضاءات لغوامض الأفكار والمناهج أمام هؤلاء الجموع ، مما أدى إلى إزاحة كثير من زيف الشبهات التى كانت تخيم سحابتها في أجواء المنطقه الشامية والمصرية ، يقف من خلفها تكتلات بشرية بحسن نية غالباً وبسوء نية في القليل . وهذا الآخر يكثر في بعض القيادات والمتنفذين في الفرق والطوائف .

ونوع آخر من التلاميذ والأتباع يختصهم الشيخ بمزيد من الاهتمام والرعاية ، وكان يوجه إليهم في الدروس العلمية زبدة آرائه ونظرياته العلمية والإصلاحية ، وكان أكثر هؤلاء من الحنابلة وبعضهم من الشافعية .

إضافة إلى أن ابن تيمية كان يكلفهم ببعض المهمات مما يحملهم المسئولية ويدربهم على مواجهة الشدائد والمعضلات . فكان ينتدب بعضهم لمناظرة ومجادلة بعض العلماء أو الطوائف نيابة عنه (١) .

وأحياناً يكلف بعضهم بإنكار منكر في مكان معين ، أو إزالة وثن أو صنم يعتقد به العامة ويعظمونه . كما أنه أحياناً يصحب بعضهم معه إذا ذهب لمهمات صعبة خطرة

---

(١) في سنة٧٠٦هـ في ٧ من ذي الحجة اجتمع الشيخان شرف الدين عبدالله ، وزين الدين عبدالرحمن أخو الشيخ بالقاضي المالكي : زين الدين بن مخلوف المالكي وجرى بينهم مناظرة ، وكان المناظر مع القاضي الشيخ شرف الدين وقد ظهر عليه في النقل والمعرفة وخطئه في مواضع ادعى فيها الإجماع . وسبب الاجتماع : طلب من نائب السلطنة سلار . مكان الاجتماع : مجلس نائب السلطنة . موضوع المناظرة : مسألة العرش ، والكلام ، والنزول . وقت الاجتماع : يوم الخميس . وفي يوم الجمعة أحضر الشيخ شرف الدين وحده إلى مجلس نائب السلطنة وحضر ابن عدلان وتكلم معه الشيخ شرف الدين وناظره وظهر عليه وكانت هذه المناظرة من أخوي الشيخ بإذن منه في ذلك .
انظر العقود الدرية لابن عبدالهادي قدم له وعلق عليه محمد حامد الفقي /٢٥٢ ، والبداية والنهاية ٣٧/١٤ .

لهدم مكان بدعة وشرك كما فعل في إزالة العمود المخلق (1) .

كما أننا نلاحظ من خلال الدراسة لبعض تلاميذه أن بعضهم كان ملازماً له مرابطاً معه أكثر الأوقات ، ومما يدلنا على أن أمثال هؤلاء لهم خصوصية ما كتبه الشيخ عماد الدين أحمد الواسطي في رسالته وقد خصهم بأسمائهم ، ويوصيهم (2) بالاهتمام بشيخه وشيخهم ابن تيمية والإفادة منه ومناصرته وتأييده .

---

(1) بلغ الشيخ أن جميع ما ذكر من البدع يتعمدها الناس عند العمود المخلق الذي داخل الباب الصغير الذي عند درب النافدانيين ، وشد عليه واستخار الله في الخروج إلى كسره : فحدثني أخوه الشيخ الإمام القدوة شرف الدين عبدالله قال : فخرجنا لكسره ، فسمع الناس أن الشيخ يخرج لكسر العمود المخلق . فاجتمع معنا خلق كثير . قال : فلما خرجنا نحوه ، وشاع في البلدان « ابن تيمية » طالع ليكسر العمود المخلق » صاح الشيطان في البلد وضجت الناس بأقوال مختلفة ، هذا يقول : « ما بقيت عين الفيجة تطلع » ، وهذا يقول : « ما ينزل المطر ، ولا يثمر شجر » ، وهذا يقول : « ما بقى ابن تيمية يطلع بعد أن تعرض لهذا » ، وكل من يقول شيء غير هذا . قال الشيخ شرف الدين : فلما وصلنا إلى عنده إلا وقد رجع عنا غالب الناس ، خشية أن ينالهم منهم في أنفسهم آفة من الآفات ، أو ينقطع بسبب كسره بعض الخيرات قال : فتقدمنا إليه ، وصحنا على الحجارين : « دونكم هذا الصنم » ، فما جسر أحد منهم يتقدم إليه . قال : فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم ، وضربنا فيه ، وقلنا « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » وقلنا : إن أصاب أحدا منه شيء نكون نحن فداه وتابعنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه ، فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسدة مصورة ، طول كل صنم نحو شبر ونصف . وقال الشيخ شرف الدين : فقال الشيخ النووي : اللهم أقم لدينك رجلاً يكسر العمود المخلق ، ويخرب القبر الذي فيه جيرون » فكسرناه ولله الحمد ، وما أصاب الناس من ذلك إلا الخير . واستمر الشيخ وأعوانه في تكسير الأصنام والقبور والأضرحة حتى ما بقي قبر أو صنم أو ضريح يعبد من دون الله تعالى . ذيل طبقات الحفاظ /٢٠١ . وفي سنة ٦٩٩هـ وفي يوم الجمعة ٧/١٧ في الصباح الباكر « دار الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله وأصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظروف ، وأراقوا الخمور ، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش ، ففرح الناس بذلك » وكانت دمشق في هذه الفترة قد كثر فيها الفساد لوقوعها في يد التتار حتى أن هذا اليوم كان آخر مائة يوم يخطب فيه لغازان التتري وخطب فيه لسلطان مصر . البداية والنهاية ١١/١٤ . وفي مستهل ذي الحجة من سنة ٧٠٤هـ ركب ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان فاستتابوا خلقاً منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً . المرجع السابق /٣١ .

(2) تقي الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن عبد الأحد بن شقير ، شمس الدين محمد ابن عبد الأحد الآمدي ، شرف الدين محمد ابن المنجّي ، زين الدين عبد الرحمن بن محمود بن عبيدان البعلبكي ، نور الدين محمد بن محمد بن محمد بن الصائغ ، وأخيه فخر الدين محمد ، شرف الدين محمد بن سعد الدين سعد الله ابن نجيح . وغيرهم من اللائذين بحضرة شيخهم وشيخنا السيد الإمام الأمّة الهمام . العقود الدرية ٢٩٢ - ٢٩٤ بتصرف تحقيق محمد حامد الفقي .

كما أن ابن تيمية نفسه كان يذكر بعضهم ذكراً يدل على قربهم منه وأن لهم منزلة خاصة لديه ،كأخويه (١) اللذين لازماه في مصر وفي الشام في أصعب الأحوال وكانا في خدمته وهم وزراؤه وسفراؤه .

وكما كان الشيخ المزي على علم بأحوال الشيخ خصوصاً نواحيه العلمية ومؤلفاته وكتبه .

كما أن علاقة ابن تيمية بتلاميذه علاقة المربي والمؤدب ، فإذا كان من أحدهم زلة أو هفوة ، أو كان منه ما يشين في مواقفه من إخوانه أو شيوخه أو الآخرين فإنه يتعرض للأدب .

ولعل هذا ما يوضحه تلك الرسالة التى وجهها أخو الشيخ من مصر إلى دمشق لتلاميذ الشيخ وأتباعه وسائر المحبين (٢) ، وكذلك الرسالة التى وجهها الشيخ ابن تيمية أيضاً من القاهرة الى دمشق ، وكانت تفيض بالمعاني الإيمانية والتربوية ، والتوجيهات القيمة التي تحض على الصبر والعفو والتسامح ونحو ذلك (٣) .

وكان سبب بعض هذه الرسائل ما فعله نصر المنبجي وأعوانه من الفتنة في دمشق حتى صدر من تلاميذ الشيخ وأنصاره بعض التجاوزات التى أدبوا عليها (٤) .

من كل ما تقدم نلاحظ أن حياة ابن تيمية مع تلاميذه لم تكن حياة العالم الملقن لأنواع العلوم فقط ، وإنما هي حياة العالم الداعية المربي الموجه الذى يهيء للحاضر والمستقبل .

ويعرف هذا من تأمل سيرته العلمية وعلاقاته مع تلاميذه وأنصاره ، وقد كان في سلوكه وتصرفاته خير أنموذج وقدوة .

وأكثر ما يؤثر في تغيير النفوس ، وتثبيت المعاني والقيم فيها هو المعايشة والاحتكاك المباشر ، والتربية العلمية والفكرية التي فيها شيء من الخصوص ،كما كان ابن تيمية يخص جملة من تلاميذه بهذا في منزله وبعض مجالسه حتى أنه كان يستضيف بعضاً منهم خصوصاً الغرباء عن دمشق الذين يلمس فيهم الذكاء والفطنة

---

(١) هما : شرف الدين عبدالله ، وزين الدين عبدالرحمن .

(٢) انظر العقود الدرية /٢٧٢ – ٢٧٥ . رساله بعث بها شرف الدين إلى أخيه بدر الدين .

(٣) انظر السابق /٢٥٩ – ٢٦٧ . كتاب بعثه الشيخ ابن تيمية من مصر الى دمشق .

(٤) انظر السابق /٢٧٥ .

والحرص على العلم والجد في الحياة ، فكان يتناول معهم الطعام ، ويلاطفهم ويقوم بخدمتهم ، فيرون منه أنموذجاً فاضلاً كريماً لحياة السلف الصالح ، والعالم العامل ، والداعية الحكيم .

من ذلك ما ذكره البزار بقوله :« حدثني الشيخ الصالح العارف زين الدين علي الواسطي ما معناه : أنه أقام بحضرة الشيخ مدة طويلة ، قال : فكان قوتنا في غالبها أنه كان في بكرة النهار يأتيني ومعه قدر نصف رطل خبزاً بالعراقي ، فيكسره بيده لقماً ، ونأكل منه أنا وهو جميعاً ، ثم يرفع يده قبلي ، ولا يفرغ باقي القرص من بين يديّ حتى أشبع ، بحيث أني لا أحتاج إلى الطعام إلى الليل ... فيؤتى بعشائنا فيأكل هو معي لقيمات ، ثم يؤثرني بالباقي ، وكنت أسأله أن يزيد على أكله فلا يفعل ، وكان هذا رأينا في غالب مدة إقامتي عنده ، وما رأيت نفسي أغنى منها في تلك المدة ، ولا رأيتني أفقر هماً مني فيها »(١) .

ويقول البزار: « ولقد بالغ معي حال إقامتي بحضرته في التواضع والإكرام حتى أنه لا يذكرني باسمي ، بل يلقبني بأحسن الألقاب ، ويظهر لي خصوصاً بين أصحابي من الإكرام والتبجيل والإدناء منه ، بحيث لا يتركني أجلس إلا إلى جانبه ، قصيراً كان مجلسه أو طويلاً ، خاصاً أو عاماً ، ولازمني في حال قراءتي « صحيح البخاري » ... وأظهر لي من حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث أنه كان إذا خرجنا من منزله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ولا يَدَعُ أحداً منا يحملها عنه ... »(٢).

ونذكر نماذج لبعض هؤلاء التلاميذ ومدى صلتهم بابن تيمية ، ونذكر الذين كان لهم دور مرموق في نشر العلم منهم ، وهؤلاء التلاميذ هم :

١ – العلامة الحافظ المزي .

٢ – العلامة الحافظ الذهبي .

٣ – العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية .

١ – الحافظ المزي :

الإمام جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن علي

---

(١) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية /٤٧ – ٤٨ لأبي حفص عمر البزار ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ط الأولى ١٣٩٦هـ ، دار الكتاب الجديد – بيروت .

(٢) الأعلام العلية للبزار ، د . صلاح الدين المنجد /٤٩ – ٥٠ .

المزي ولد سنة (٦٥٤هـ) . برز الحافظ في علم الحديث وصار له من المتقنين .

تعرف الإمام المزي على الشيخ تقي الدين ابن تيمية فأعجب به غاية الإعجاب وصارا رفيقين طيلة الحياة .

قال الذهبي : ترافق هو وابن تيمية كثيراً في سماع الحديث وفي النظر في العلم ، وكان يقرر طريقة السلف في السنة » وبمرافقته لابن تيمية صار خصوم رفيقه خصوماً له فناله الأذى منهم وما ذاك إلا لمناصرته ابن تيمية وملازمته له وأخذوا بمنهجه وآراءه (١) ، ومن ذلك أن الحافظ المزي قرأ يوماً في صحيح البخاري - من أجل الفرج - « خلق أفعال العباد » فظنه الأشاعرة يقصدهم به ، فسجن بسبب ذلك ، فلما علم ابن تيمية ذهب إلى السجن بنفسه وأخرجه منه .

كان ابن تيمية يعتمد على المزي كثيراً وهو أهل لذلك لكثرة علمه ومعرفته ورجاحة رأيه . وفي سنة (٧٠٩هـ) احتاج إلى بعض كتبه بالشام وكان في مصر ، فطلب من أهله أن يرسلوا له جملة منها ، وطلب منهم إذا اقتضى الأمر أن يستعينوا على ذلك « بجمال الدين المزي » لأنه يعرف كيف يخرج الكتب المطلوبة من مكتبة شيخه ورفيقه ، وهذا يدلنا على كمال صحبته لابن تيمية .

وقد كان له ملازمة لأصحاب ابن تيمية : البرزالي ، والذهبي ، وهو أكبرهم سناً ، وكانوا يتدارسون العلم سوياً ، فكان بعضهم يقرأ على بعض ، فهم شيوخ و أقران في آن واحد ، وقد قرأوا على المزي ، توفي سنة (٧٤٢ هـ) (٢) .

٢ - الحافظ الذهبي (٣) :

شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الفارقي الأصل الدمشقي الذهبي ، أو ابن الذهبي نسبة إلى صنعة أبيه ،ولد عام (٦٧٣ هـ) من علماء الشافعية الأفذاذ . أحد النقاد الكبار والمؤرخين العظام ، شيخ المحدثين . نشأ وتربى في أسره علم ودين ، تولى مشيخة عدد من المدارس ودور

---

(١) انظر مقدمة تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ، للحافظ المزي مع النكت الظراف على الأطراف لابن حجر العسقلاني تحقيق عبدالصمد ، إشراف زهير الشاويش ، الدار القيمة بهيوندي ، بمباي ، الهند ، توزيع المكتب الإسلامي ، ط الثانية ١٤٠٣هـ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٦٦/١٤ ، ١٦٧ ، مطبعة المتوسط بيروت - لبنان .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٧/١ - ١٤٠ .

العلم ، ولـه يد طولى في التـأليف في أنواع العلـوم خصوصاً علم الحـديث ، والرجال ، والتاريخ .

تتلمـذ لابن تيمية ، ورافـقه وسمع منه الحـديث وبعض مصنـفاته واختصر بـعضها، وتأثر به غـاية التأثر ، كان يقـول عنه « شيخنا » ،كـتب تحت خط ابن تيمـية « هذا خط شيخنا الإمام شيخ الإسلام فرد الزمان ، بحر العلوم ، تقي الدين ، قرأ القرآن ، والفقه ، وناظر واستدل ، وهو دون البلوغ ...» (١) .

وقـال عنـه مـادحـاً : « وهـو أعـظـم مـن أن تـصفـه كـلمـي ، ويـنبـه ـ علـى شـأوه قلمـي ـ ... فإنه كان رباني الأمة ، وفريد الزّمان ، وحامل لواء الشريعة، وصاحـب معضلات المسلمين ، رأساً في العلـم ، يبالـغ في أمر قيـامه بالحق والجـهاد ، والأمر بالمعروف والـنهي عن المنكر مبالغـة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحـد ، ولا لحظتها من فقيه » (٢) .

كان ابن تيمية يكبـر الذهبي في العمر ويقدمه في طلب العلـم ، فحينما كان الإمام الذهبي فـي أول درجات العلم وسلمـه ،كان ابن تيميـة قد صار من المجتهديـن وله بعض الاجتهادات التي يخالف بها بعض علماء عـصره معتمداً على النصوص الشرعية والآثار السلفية .

ومما يدلنا عل حب الذهبي لابن تيمية وإعجابه به ذلك الثناء العاطر من العلامة في الجرح والتعديل وصاحب ميزان الاعتدال في نقد الرجال .

وكذلك تلك المرثية الـعصماء التي قالها بعد وفاة ابن تيميـة رحمه الله . وكتب عن حياة ابن تيمية الكثير (٣) ، وتولى الرد والنقد للذين عارضوا ابن تيمية ولمزوه .

وهذا السبكـي أحد تلاميذ الذهبي وخصوم ابـن تيمية يتأسف علـى حصول علاقة شيخه بابن تيمية ويذكر أنها أضرت به وحـملته أضراراً بينة وأوقعته في عظائم الأمور ، وعظائم الأمور التي يعنيها السبكي هـي اعتقاد أهل السنة والجماعة والخروج عن اعتقاد الأشعرية . إن هنـاك ثلاثياً من الصحبـة والأخوة الوثيقة سببـها الوحدة الفكرية الـسلفية

---

(١) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية للحافظ البزار /٤٠ ، تحقيق نجم عبدالرحمن خلف .

(٢) انظر المرجع السابق /٤٣ .

(٣) له مؤلـف منفرد عن حيـاة ابن تيميـة سماه « الدرة اليتـيمية في سيـرة التيميـة » . انظر سير أعلام الـنبلاء ٨٢/١ .

المتأثرة بابن تيمية وهم : الحافظ المزي ، والحافظ البرزالي ، والحافظ الذهبي . هؤلاء ساروا على منهج واحد وكل واحد منهم شيخ وتلميذ للآخر والذهبي كان أقلهم سناً .

هذا المنهج الذي ساروا عليه هو المنهج التيمي والمذهب الحنبلي (١) ، وقد نال هؤلاء الثلاثة مصاعب جمة ، وأذى شديد، فالمزي يسجن بسبب الأشاعرة والذهبي يحرم من مشيخة أكبر دور الحديث في دمشق ، وهي دار الحديث الأشرفية . ويظهر التأثير التيمي على الذهبي عند النظر إلى مؤلفاته ومختصراته (٢) ، وفي صياغة بعض آرائه وأفكاره وطريقة تحليله (٣) .

---

(١) وكان الذهبي متأثراً بآراء ابن تيمية العقيدية السلفية ، مع أنه كان من المعدودين من علماء الشافعية وكثير منهم في ذلك الوقت أشاعرة، ونراه يحكم على اتجاه الأشاعرة في الصفات بأنه خاطىء ، والاعتزال بدعة (انظر تذكرة الحفاظ ١١٢٢/٣) وكان معجباً أعظم الإعجاب بمنهج السلف وأعمالهم، وقد دفعه ذلك إلى الاهتمام بذكر أخبار العلماء في فتنة القول بخلق القرآن في عهد المأمون ومن بعده وذكر مواقفهم الشجاعة في ذلك وأيضاً اختصر بعض المؤلفات في العقائد على منهج السلف ومنها كتاب « البعث والنشور » وكتاب « القدر » وكلاهما للبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ ،وكتاب الفاروق في الصفات لشيخ الإسلام الأنصاري المتوفى سنة ٤٨١هـ، وكتاب منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال لابن تيمية . كما أن له مؤلفات قيمة في العقيدة على مذهب السلف منها : الأربعين في صفات رب العالمين ، وكتاب العرش ، وكتاب مسألة الوعيد ، وكتابه المشهور العلو للعلي الغفار طبع بمصر سنة ١٣٣٢هـ ، وله كتاب في رؤية الباري وغير هذه الكتب . انظر سير أعلام النبلاء ٦٤/١ ، ٦٥ ، ٧٦ .

(٢) اختصر بعض كتب ابن تيمية كمنهاج السنة النبوية و منهاج الاعتدال في نقد كلام أهل الرفض والاعتزال . انظر سيرأعلام النبلاء ٦٥/١ .

(٣) نلاحظ ذلك فيما يلي من كلام الذهبي وذلك حينما ترجم لابن نعيم الأصبهاني قال : أحد الأعلام صدوق ، تكلم فيه بلا حجة ، ولكن هذه عقوبة من الله بكلامه في ابن منده بهوى ، قال الخطيب : رأيت لأبي نعيم أشياء يتساهل فيها ،منها أنه يطلق في الإجازة أخبرنا ولا يبين ، قلت - أي الذهبي - هذا مذهب رآه أبو نعيم وغيره ، وهو ضرب من التدليس . وكلام ابن منده في أبي نعيم فظيع ، لا أحب حكايته ، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، لا أعلم لهما ذنباً أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عنها ... قلت : كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به ، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد ، ما ينجو منه إلا من عصم الله ، وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك ، سوى الأنبياء والصديقين ، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس ، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم . سير أعلام البنلاء ١١١/١ . وحتى يتكلم الذهبي في نقد الكتب والمؤلفات فإنه يذكر المحاسن والمساوئ بل إنه غالباً يذكر المحاسن والمميزات فمثلاً أثنى على كتاب العقيلي وقال إنه مفيد ، وقال عن كتاب الكامل لابن عدي المتوفى سنة ٣٦٥هـ « أكمل الكتب وأجلها في ذلك » انظر ميزان الاعتدال ٢/١ ، وانظر سير أعلام البنلاء ٦١/١ . وعليك بعد قراءة هذا أن تنظر إلى ما كتبناه في الباب الأول الفصل الثالث « الموضوعية » لترى أن نفس ابن تيمية ومنهجه قد ارتسم تماماً في تلميذه الذهبي .

وكذلك في نظرته وتقويمه لبعض الطوائف والفرق والأشخاص في عصره ، ومن ذلك نظرته لبعض الطوائف المتصوفة خصوصاً الرفاعية ، وكذلك نظرته للمنطق والفلسفة الإلهية (١) .

توفي بحر العلوم الإمام الأجل الحافظ الذهبي سنه ٧٤٨هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

٣ - الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية :

شمس الدين الحنبلي أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الأصل ، ثم الدمشقي ، ابن قيم الجوزية ، وتلميذ ابن تيمية ... ولد سنة (٦٩١هـ) (٢) .

وكان أحد الملازمين لابن تيمية ، بل هو من أبرز تلاميذه وخاصته بحيث إذا ذكر أحدهما ذكر الآخر .

بلغ ابن القيم منزلة عالية في عدد من العلوم ، قال الحافظ أبو بكر محمد بن المحب (٣) : قلت لشيخنا الحافظ المِزي : ابن القيم في درجة ابن خزيمة ؟ فقال : هو في هذا الزمان كابن خزيمة في زمانه » (٤) .

ولما سجن ابن تيمية في القلعة بدمشق سجن ابن القيم معه منفرداً ، وقد أوذي بسبب حبه وموافقته لابن تيمية (٥) ، وكان شيخه أيضاً يحبه ويكرمه . درّس وعلّم وأفاد في حياة شيخه ابن تيمية ، وقد تولى الخطابة في أحد جوامع دمشق ، وصار إماماً لمدرسة الجوزية ، ودرّس بالمدرسة الصدرية وتصدى للإفتاء والمناظرة توفي رحمه الله سنة (٧٥١هـ) .

---

(١) انظر ترجمة الذهبي في سير أعلام النبلاء ٣٦/١ - ٤٠ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط الثانية عام ١٤٠٢هـ .

(٢) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة عل ابن تيمية للشيخ مرعي بن يوسف الكرني / ٣٣ تحقيق نجم عبدالرحمن خلف ، ط الثانية ١٤٠٥هـ ، دار الفرقان ، ومؤسسة الرسالة .

(٣) محمد بن عبدالله بن أحمد بن المحب السعدي ، المقدسي ثم الصالحي ، الحنبلي ، الشهير بالصامت لكثرة سكوته عن فضول الكلام توفي عام (٧٨٨هـ) .

(٤) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة عل ابن تيمية للشيخ مرعي بن يوسف الكرني / ٣٣ تحقيق نجم عبدالرحمن خلف ،ط الثانية ١٤٠٥هـ ، دار الفرقان ، ومؤسسة الرسالة .

(٥) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية /٣٣ .

كان ابن تيمية يلاحظ تلاميذه فإذا وجد من يتصف بالذكاء والجد والرغبة في العلم أقبل عليه وأعطاه مزيد عناية واهتمام ، ومثال ذلك التلميذ الألمعي والجهبذ الذكي (ابن القيم) .

لقد لفت هذا التلميذ انتباه أستاذه إليه فأقبل عليه إقبالاً كلياً وتعهده بالتوجيه والنصح وركز عليه في التدريس والتعليم وصار يراقبه مراقبة جيدة حتى يُعدل من أخطائه وأغلاطه ليكون قائداً للحاضر والمستقبل يتحمل مهام الدعوة مع شيخه .

وابن القيم رحمه الله يحس بهذه العناية والرعاية من شيخه ، فكان يأنس بها ويسر لها وزادته إقبالاً على معلمه ومربيه ، وكانت ذات أثر في نفسه فما كان ينساها ، وعلامة ذلك ذكره لها في مؤلفاته إذا جاءت مناسبتها .

ومن أمثلة ذلك ما يلي :

« وقال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد : لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات أو كما قال ، فما أعلم أنني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بهذه » (١) .

وقال أيضاً : « قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) مرة : العوارض والمحن هي كالعوارض والبرد ، فإذا علم العبد أنه لا بد منها لم يغضب لورودها ، ولم يغتم لذلك ولم يحزن » (٢) .

وقال أيضاً منوهاً على توجيه تربوي من شيخه يحثه فيه على ترك التوسع في المباحات، فإن الذي يُعد نفسه لحمل القول الثقيل يحتاج إلى نفس غير مترفة وغير متعلقة بملذات الدنيا ، وهذه روايته لقول شيخه : « وقال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية (قدس الله روحه) في شيء من المباح : هذا ينافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة ، أو نحو هذا من الكلام .

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً على صيانته ولا سيما إذا كان ذلك المباح

---

(١) مفتاح دار السعادة /١٥٣ لابن قيم الجوزية ، ط الثانية بمصر عام ١٣٥٨هـ .

(٢) مدارج السالكين ٣٨٩/٣ لابن قيم الجوزية ، مطبعة السنة المحمدية بمصر طبع سنة ١٣٧٥هـ .

برزخاً بين الحلال والحرام » (١) .

ومن المتفق عليه لدى العلماء المحققين – المعاصرين لابن تيمية وابن القيم ، ومن بعد المعاصرة إلى يومنا هذا – أن ابن القيم كان متأثراً غاية التأثر بشيخه ابن تيمية ،وهذا أحد العلماء الذين لهم عناية فائقة بابن القيم حياته وآثاره يتحدث عن بعض الجوانب عند ابن تيمية وأنها تركت تأثيراً في المتعلمين وجذبتهم إلى ابن تيمية ثم قال عن ابن القيم :« فما كان لابن القيم إذاً أن ينفلت من ذلك التأثير فاتصل بشيخ الإسلام عام قدومه (٢) ، وثنى ركبتيه في حلقات درسه لينهل من معارفه وعلومه ، وصحبه في ذلك ستة عشر عاماً ، وهو يقرأ عليه فنون العلم .

فصار لهذه الصحبة والملازمة الطويلة الأثر البالغ على ابن القيم في تكوين اتجاهه وتغذية مواهبه وإشباع نهمته بعلوم الكتاب والسنة والرد إلى الله والرسول ، حتى صار أبرع تلاميذه ... فلا يكاد يذكر الشيخ ابن تيمية إلا ويذكر معه تلميذه ابن قيم الجوزية » (٣) .

وابن القيم نفسه ذكر في نونيته فضل ابن تيمية عليه ، وأن الله هداه به وانتشله من البدع العقدية التي كان قد تورط بها . ونذكر هذه الأبيات التي تقدمها كلامه عن الأشاعره وانحرافاتهم في الصفات وضلال النفاة فيها وفي غيرها قال :

جربت هذا كله ووقعت ... في تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله ... من ليس تجزيه يدي ولساني
فتى أتى من أرض حران فيا ... أهلاً بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله ... من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي وسار فلم يرم ... حتى أراني مطلع الإيمان (٤)

وهذا التأثر جلي جداً ، ولا أعظم إثباتاً له من أن يعترف به ابن القيم نفسه ،

---

(١) السابق ٢/٢٦ .

(٢) عام قدومه من مصر كان سنة (٧١٢هـ) ، واستقر بدمشق إلى أن توفي سنة ٧٢٨هـ . انظر البداية والنهاية١٤/٢٠٢ مطبعة المتوسط بيروت – لبنان .

(٣) ابن قيم الجوزية حياته وآثاره /٧٨ للشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد .

(٤) نونية ابن القيم ٢/٦٨ – ٧٤ شرح ابن عيسى ، ط المكتب الإسلامي دمشق عام ١٣٨٢هـ .

ولشدته ووضـوحه جعل كثيراً مـنهم يقول عنه إنه لـم يأت بجديد عن شيـخه ، ونذكر بعض هذه الأقوال التـي تجزم بأن الفكر التيمي بـإشراقته وعمقه منعكـس تمام الانعكاس في مرآة الفكر القيمي .

قال الإمام الحافظ ابن حجر في ابن القيم : « وكان جريء الجنان واسع العلم عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه » (١) .

وقال أيضاً عن مـؤلفاته : « ومعظمهـا من كلام شيخه يتصـرف في ذلك ، وله في ذلك ملكة قوية ، ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها » (٢) .

وابن كثيـر رحمه الله يذكر هـذه الحقيقة عن شيـخه ابن القيم حيـث أفاد أنه أخذ عن شيخه ابن تيـمية علومه وآراءه وفتاويه ، ويذكر أنه كان له دور فـي إبراز الكثير من آراء ابن تيمية، فهو بمثابة المترجم لها المقرب لمعانيها بعباراته الأدبية وألفاظه الرائقة (٣) .

ويقول أحد خصوم الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ،بل هو خصم لكل من كان على منهج السلف وذلك في كتاب تناول فيه ابن تيمية وتلميذه بالنقد والافتراء (٤) :

« ابن قيم الجوزيـة لم يكن غير شيخه فـي المعنى بل هما قمـاش واحد ذاك ظهارته وهذا بطانتـه ، ذاك يسود وهذا يبيض ، عمله جـله تزويق بضائع شيخـه بحيث تروج ، يقلده في كل شيء ، وليس له رأي خاص قطعاً على سعته في العلم » (٥) .

وفي حاشيته علـى كتاب (السيف الصقيل في الرد عـل ابن زفيل) يؤكد أن ابن القيم صدى لابن تيمية يقول : « ويجد القارىء في كـتابنا الرد على ابن تيمية كما يجد فيه الرد علـى ابن القيم باعتبار أن الـثاني إنما يردد صدى الأول في أبحـاثه كلها دون أن تكون له شـخصيـة خاصـة بـل هـو ظل الأول فـي كل آرائه وجميع أهـوائه فلينتـظمها الرد » (٦) .

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢١/٤ ، ط المدني ، مصر عام ١٣٨٧هـ .

(٢) السابق ٢٢/٤ .

(٣) انظر البداية والنهاية ٢٠٢/١٤ مطبعة المتوسط بيروت – لبنان .

(٤) وهو : محمد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري من أصل جركس كانت وفاته بالقاهرة سنة ١٣٧١هـ . انظر الأعلام للزركلي ٣٦٣/٦ ، ط الثالثة سنة ١٣٨٩هـ ، بيروت – لبنان .

(٥) صفعات البرهان /٣٢ للكوثري ، ط القدس مطبعة الترقي دمشق سنة ١٣٤٨هـ .

(٦) ص/١٩٢ ، ط الأولى عام ١٣٥٦هـ ، مطبعة السعادة بمصر . والكوثري يقصد بابن زفيل ابن قيم الجوزيه رحمه الله .

وابن القيم إنما كان كذلك لأن هذا هو الحق وما قاله ابن تيمية متفق مع الكتاب والسنة ، ولم يتبن ابن القيم آراء شيخه تعصباً له وتقليداً من غير بصيرة حاشاه ذلك ، وإنما هكذا علماء السنة تتفق آراؤهم في كل الأزمان وكأنهم نسخة لشخص واحد ، أو كأنهم صدى لصوت واحد ، وهم كذلك نسخة وصدى لواحد هو النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (١) .

---

(١) انظر كتاب ابن قيم الجوزية حياته وآثاره /٨٩ - ٩٧ للشيخ بكر عبدالله أبوزيد .

الفصل الثاني

آثاره على الحركات الإسلامية

آثار دعوته على الحركات الإسلامية

كـان تـأثير ابن تـيمية في وقته وعصره كـبيراً جداً سواء فـي العلمـاء أو الحكام أو العامة ، وسبب ذلك أعماله في نفع الخلق وهـدايتهم ، وتنقلاته ، واتصالاته ، إضافة إلى جهاده العملي الذي أعطاه مكانة عالية لدى الحكام والعامة ، وإن كان ذلك جاءه ببعض المردود العكسي حيث أثار حسد الأقران .

وانتشرت أخبار ابن تيمية فـي أنحاء البلاد الإسلامية وغيرها [1] ، بسبب ما ذكرنا مضافاً إليه تصديه للتتار والوقوف في وجـه غازان ، وكذلك تصديه لأهل البدع الغليظة وغيرها ، فكان لهم بالمرصاد قذى في عيونهم وشوكة في حلوقهم .

ونال إعجاب كثير من العلماء وأهل الغيرة على الدين حتى تمنى من كان بعيداً عنه لقـاءه ، وكثيرٌ أولئك الذيـن راسلوه يـصفونـه بأوصاف عـظيمة كـريمة وهـم لـم يروه ، ويعرضون عليـه ما لديهم من مشكلات وأمور مـختلفات ، وهو يجيب بإجـابات مطولة ومختصرة على حسب السؤال وما تقتضيه الحال .

وانتشرت مؤلفاته ورسائله في بلاد كثيرة فانتفع بها أقوام كانوا في حيرة من أمرهم وفي تخبط في عقائدهم ، وأدى هذا الانتشار إلى الاتـساع الأفقي لرقعة منهج ابن تيمية في الدعـوة وآرائه العقـدية والفقهـية ،إضافة إلـى دور تلاميذه فقـد خلف أعداداً كـبيرة منهم تفرقوا في حياته وبعد مماته في عدد من أقطار الدنيا وهـم يحملون حبه ، وآراءه في الاعتقاد ، وفي العبادات ، وفي كثير من الاجـتهادات في أمور الحياة . ويحملون روحه الإصلاحية ، وهمته الجهـادية ، وعزيمته على تغيير واقع المجتمعـات المنحرف المشتت إلى واقع صالح مؤتلف .

وحيثمـا حلوا كانوا كالغيث حينما يلامس جـبهة الأرض تربوا وتخضـر بكل لون بهيج يسر الناظريـن . فتجدهم يقيمون حلق العلم وينكرون المنـكرات ، ويقيمون العديد من العلاقات ، ويناظرون أصحاب الأهواء والنحل ، وسائر أهل الأديان والملل .

فكـانوا كشيـخهم شعـلة لا تنطـفيء ، ونوراً لا يـخبأ ، وسراجـاً يضيء ، التـزموا

(١) « وكانت سمعته في البلاد البعيدة أكثر وأكبر وأشهر مما هي بالشام خصوصاً بلده دمشق » شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين / ٣٠ نقلاً عن الصفدي الوافي بالوفيات .

منهجه العلمي فنشروه قولاً وعملاً فارتبط الناس بالكتاب والسنة ، وخرجوا من ربقة التقليد الجاف المتخشب ، الذي يطرح النصوص الشرعية ، مؤثراً عليها الأقوال البشرية.

حتى وجدنا أنه نشأ في حياة الأمة مدرسة حرة التفكير لا تلتزم بغير الدليل من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح .

وبهذا زالت الحواجز التي كانت تقف سداً منيعاً بين علماء الأمة وطلبة العلم فيها ، وبين الكتاب والسنة ، مما كان له أبلغ الأثر في ظهور قيادات علمية مستنيرة كان لها دور في مسيرة التصحيح والبناء في واقع أمة الإسلام أتباع سيد الأنام عليه الصلاة والسلام .

يضاف إلى هذا تلك الثروة العلمية الهائلة من الكتب والرسائل والفتاوى التي لا يحدها حد ولا يعدها عد ، هذه الثروة العلمية لم تكن رهينة في داره ، بل جابت أنحاء الدنيا ، ونسخ تلاميذه منها النسخ العديدة .

وكان لما اتخذه من منهج في الدعوة في إرسال الرسائل إلى العلماء والأعيان وأهل الأمصار والبلدان أكبر الأثر في انتشار أفكاره الدعوية وآرائه الإصلاحية وقبل ذلك عقيدته السلفية .

وكان ابن تيمية يحب انتشار كتبه ، إضافة إلى ما يعتقده من عدم منع طالب الكتاب ، فكان رحمه الله لا يرد يد لامس لكتبه بل ما أُخذ منها أحب إليه مما بقي عنده، هذه الروح سهلت لمؤلفاته سبل الانتشار ، فكان هذا من أبلغ ما أثار خصومه ومناوئيه لأن كل كتاب منها أو رسالة كان عليهم أشبه بقنبلة شديدة الانفجار تدمر بأمر ربها كل بناء على الباطل شيدوه .

وأدت الكوكبة الهائلة من تلاميذه الذين انتشروا إلى نشر العديد من مؤلفاته حيث كانت أول ما يصحبون وأهم ما إليه يرجعون ، فهو شيخهم الذي ملأ قلوبهم حبه ، وملك الإعجاب بقوله وفعله كل ذرة فيهم ، فإن غاب عنهم جنابه فلا يحرموا من صحبة كتابه الذي هو أنيسهم في الغربة وجليسهم في الوحدة ، ومنجدهم في حال الشدائد العلمية والمعضلات الفكرية .

ولئن كان التلاميذ يموتون فإن أثرهم لا يموت بما يخلفونه من تلاميذ وبما يخلفونه من تراث علمي ، وكذلك ابن تيمية فإن كانت أنفاسه قد خمدت ، فإن ما نفثه في القرطاس من القوة العلمية والروح الجهادية وما أصله من المناهج العملية لا يزال حياً يبعث روح العزم والتصميم في وراث السلف من علماء الأمة ودعاتها ، وسائر أفرادها.

فهذه المكتبة التيمية لا يخلو بلد من بلدان العالم إلا ويزدان بأعداد منها . وقد هيأ الله لها من يخدمها ويسعى في إبرازها ، وهيأ من يبرز العديد من الجوانب العلمية والعملية في حياة ابن تيمية ، حتى كان ذلك الصنيع من غير من يدين دين الحق من اليهود والنصارى وأنصارهم .

فوجدنا العديد من المستشرقين وغيرهم في الغرب والجامعات الغربية يكتبون بكل إعجاب وانبهار عن حياة ابن تيمية وجوانب من فكره وآرائه ، ومنهم من قام بدراسة العديد من كتبه وتحليلها ، ومن ثم طبعها ونشرها .

ومن المستشرقين من تناول ابن تيمية بالنقد والذم والهجوم لأنهم نصارى متعصبون متجردون من العدل والإنصاف . وقد حرَّك ذلك فيهم القوة التأثيرية لابن تيمية في القديم والحديث .

وأذكر بعض النماذج للمؤلفات والرسائل التى كتبت في الغرب عن ابن تيمية أو تناولت فكره أو مؤلفاته من أي جانب من جوانبها :

ومن هؤلاء :

١ - إخباز جولد زيهر شتم ابن تيمية وقال :« في عمامته نحلة » .

٢ - المستشرق دونكان ب . ماكدونالد - ردد نفس قول سابقه ، بأسلوب يتعارض مع روح البحث العلمي .

٣ - جورج مقدسي : أستاذ الدراسات العربية في جامعة بنسلفانيا في أمريكا ، ذكر أن ابن تيمية يقف بين أعظم المفكرين في التاريخ الإسلامي نظراً لما قدمه في ميدان البحث العلمي والمنهجية العلمية ، ولما تركه من أعمال في هذا المجال .

٤ - فيكتوري مكاري : وصف ابن تيمية بأنه : الحد الفاصل الذي يفصل بين العصور الإسلامية الوسيطة والعصور الإسلامية الحديثة .

٥ - محمد حمون : باحث أمريكي مهاجر من إحدى دول أوربا الشرقية - حيث قام بترجمة كتاب - اقتضاء الصراط المستقيم - ثم علق عليه بكتاب آخر ونشر الاثنين عام ١٩٧٦م في مجلد واحد سماه : [ترجمة العنوان] « كفاح ابن تيمية ضد المفاهيم الشعبية للدين » .

٦ - الباحث الفرنسي الشهير هنري لاوست : له مؤلف بعنوان نظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع ،وهو مؤلف تظهر فيه الروح العلمية ، وهو أول باحث أجنبي

استهدف مجابهة العداء لابن تيمية في دوائر الدراسات الغربية . ولهنري هذا مقالات أخرى .

٧ - سار على منهج لاوست البروفسور جورج مقدسي في مقالات ثلاث عن ابن تيمية كتبها بأسلوب علمي مركز ، المقالة الأولى « مخطوطة ابن تيمية عن الاستحسان » . المقالة الثانية « ابن تيمية صوفي من الطريقة القادرية » . المقالة الثالثة « تنبيه ابن تيمية عن التفكير الجدلي » .

وفي هذه المقالات كان يحاول إثبات خطأ - دونكان ماكدونالد - في زعمه أن ابن تيمية لم يكن إلا رجلاً أنانياً وليس لديه نفع لطريق الزهد أو الفلسفة أو الدين .

٨ - جوزيف ب . يل . كتب ثلاثة فصول عن ابن تيمية في الزهد والحب الإلهي وهي في كتابه الصادر عام ١٩٧٩م وعنوانه :« نظرية الحب عند الحنابلة المتأخرين » .

٩ - رسالة دكتوراه قدمها فكتور عمانويل مكاري إلى جامعة تمبل في فيلادلفيا عام ١٩٧٥م بعنوان : « العامل الاجتماعي في القواعد الأخلاقية عند ابن تيمة » .

١٠ - مزمل حسين صديقي : قدم رسالة إلى كلية اللاهوت في جامعة هارفارد عام ١٩٧٨م بعنوان : « وجهات نظر إسلامية عن المسيحية في العصور الوسطى » دراسة تحليلية لكتاب ابن تيمية عن المسيح وهو كتاب : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

١١ - ف . مايكل : قدم رسالة إلى جامعة شيكاغو عام ١٩٧٨م وعنوانها: « كتاب ابن تيمية الجواب الصحيح : رد عالم مسلم على المسيحية » .

١٢ - ماجد عرسان الكيلاني : قدم رسالة دكتوراه إلى جامعة بتسبرج عام ١٩٨١م بعنوان :« الفكر التربوي عند ابن تيمية » (١) .

ولا شك أن هذه المؤلفات قد ترجمت إلى العديد من اللغات فساهمت في أثر الفكر الإنساني والإسلامي .

وصدق الله العلي العظيم : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٢) ، وإنه لنصر لابن تيمية على خصومه المناوئين لفكره أن يسخّر الله

---

(١) نقلته مع بعض التصرف من « الفكر التربوي عند ابن تيمية » للدكتور ماجد عرسان الكيلاني /١٤ - ٢١ .

(٢) سورة غافر آية (٥١) .

لـه هـذا التسخير فتخدم شـخصيته ومؤلـفاته وكامل تراثـه في جامعات الغـربيين أعداء المسلمين فلله الحمد والمنة .

ومن جانـب آخر ساعد على انـتشار دعوة ابن تيـمية وآرائه العلـمية والعملـية ذلك العـدد الهائـل من المنـاوئين والخصوم المـعارضين ، فـكان الحال كـما قال : إذا أراد الـله إظهار الحق أظهر من يعارضه [1] .

فهؤلاء الخصوم والحساد كان لمعارضتهم المنطوقة والمكتوبة أثر فـي بعث همة كثير من الـذين لا يعرفـون ابن تيمـية إلا من طريـق هؤلاء المعارضـين أن يبحثـوا عن مؤلفـاته ورسائله ليطلعوا عن كثب ويتحققوا مما يقال .

وإذا نظرنـا إلى ما قيـل من أهل العلـم والرأي ومن المؤرخـين عن انتشـار دعوة ابن تيمية وتأثيرهـا فإنه يبلغ المجلدات ، والذين فعلوا ذلك يـعدون بعشرات المئات ، وإذا كان المتقدمون فعلوا ذلـك فلا غرابة لأنهم كانوا على العلم أحدب ، وبـزمنه أقرب ، ولكنها في المتـأخرين في هذا الزمـان من العلماء والمـفكرين الذيـن بالغوا في الإطراء وأعـظموا الثـناء ، وذكروا من تـأثير المـنهج العـلمي والعـملي لابـن تيميـة في حيـاة الأمة ما يـبهج النفوس ويرفع الرؤوس اعتزازاً لأهل العقيدة السليمة والمناهج السلفية القويمة .

وفي عصرنا الحاضر كان لدعوة ابن تيمية وآرائه العقدية والفقهية تأثير في الحركات الإسلامية والصحوة في العالم كله الإسـلامي والأقليات الإسلامية . وهذا ما أقرّ به عدد من الباحثين والمطلعين على أحوال هذه الاتجاهات والمتابعين لمسيرة الصحوة الإسلامية .

ونذكر في هذا الفصل بعض هذه الأقوال لبعض العلماء والمفكرين :

يقول الأستاذ محمد خليل هراس :

« هذه دعـوة ابن تيـمية إصـلاح وإحياء وتجـديد فهـو بحق أبـو النهـضة الإسلامـية الحديثة ، وواضع أساسها ، وجميع دعاة الإصلاح من بـعده إنما بهديه اقتدوا وعلى كتبه تخرجوا » [2] .

يقول أبو الأعلى المودودي عن دعوة ابن تيمية :

« ولكن نداءه لاتباع الإسلام الخالص المحض كان نفخة في صور أحدثت في العالم

(١) انظر العقود الدرية /٣٦٤ .

(٢) كتاب : باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي /١٩٨ .

حركة دائمة لا نزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر » [1] .

قال د. محمد محمد حسين بعد أن ذكر مقالات لمحمد عبده ، وعبدالله النديم ، والكواكبي في محاربة بعض البدع :

« فتأثر هؤلاء الكتاب جميعاً بمحمد بن عبدالوهاب ، وبابن تيمية من قبله واضح في هذا الموضوع » [2] .

قال الأستاذ محمد الغزالي :

« نشأت مدرسة الموازنة والترجيح في القرن السابع على يد ابن تيمية وتلامذته، وهي المدرسة التى استوعبت الأخبار المروية ، وأدركت وجوه الحكمة والمصالح ... وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر نشأت مدارس أخرى، هناك مدرسة أشبه أن تكون ابتداءً لمدرسة الأثر ، عرضت الفقه الإسلامي من الكتاب والسنة مباشرة ، وأفادت من الجهد العقلي لرجال المذاهب التقليدية ، وضمت إلى ذلك جهد الفقهاء الظاهريين ، وانتفعت من مدرسة ابن تيمية . يمثل هذه المدرسة الصغاني في « سبل السلام » والشوكاني في « نيل الأوطار » والسيد سابق في « فقه السنة » وصديق حسن خان في « مؤلفاته » والألباني في « رسائله » [3] .

وقال الشيخ : عبدالعزيز المراغي :

« ولا تزال آثاره ماثلة في كل حركة إصلاحية في العالم الإسلامي » [4] .

ويقول الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد :

« وصلت دعوة شيخ الإسلام إلى القارات الخمس الآن – وإن لم تصل إليها في حياته – وعمت مشارق الأرض ومغاربها بواسطة دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب التي هي امتداد لدعوته .

وكانت مدرسة ابن تيمية ذات أثر عميق في أوساط العلماء من أول يومها – وفرضت هيمنتها العقدية والفقهية والجهادية على المخالفين قبل الموافقين .. » [5] .

---

(١) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه /٨٠ لأبي الأعلى المودودي .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ، ٣٢٣/١ ، ط الثالثة دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت .

(٣) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين/٧٦ – ٧٧ ، تأليف محمد الغزالي ، دار القلم بالكويت ، ط الثانية عام ١٩٨٣م .

(٤) ابن تيمية لعبدالعزيز المراغي /١٧٤٦ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية .

(٥) دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /١٧٩ ، تأليف الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد .

والحافظ البزار يخبرنا عن تأثر عدد من العلماء بفكر ابن تيمية وهدايتهم إلى المنهج الأقوم بسببه ومؤلفاته قال :« حدثني غير واحد من العلماء الفضلاء النبلاء المعنيين بالخوض في أقاويل المتكلمين بإصابة الثواب ، وتمييز القشر من اللباب : أن كلاً منهم لم يزل حائراً في تجاوب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم ، وأنه لم يستقر في قلبه منها قولٌ، ولم يَبِنْ من مضمونها حق ، بل رآها كلها موقعة في الحيرة والتضليل ، وجُلها ممعن بتكلف الأدلة والتعليل ، وأنه كان خائفاً على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل ، حتى منّ الله عليه بمطالعته مؤلفات هذا الإمام ، أحمد بن تيمية شيخ الإسلام ، وما أورده من النقليات والعقليات في هذا النظام ، فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها ، فرآها موافقة للعقل السليم وعلمها ، حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الكلام ، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظَفِرَ بالمرام (١) .

وأقدم شاهداً على ذلك أحد المتأثرين بابن تيمية يحكي لنا هذا التأثر وكيف تم ، وهو الشيخ : عبد الله بن حامد (*)، في رسالة كتبها إلى من ذكره بكنيته (أبو عبدالله) (٢) ، بيّن فيها حبه لابن تيمية وأن سبب تأثره وهدايته وقوة يقينه حينما اطلع على مباحثه واستدلالاته التي تزلزل أركان المبطلين ولا يثبت في ميادينها سفسطة المتفلسفين ، ولا يقف في حلباتها أقدام المبتدعين من المتكلمين :

« كنت قبل وقوفي على مباحث (إمام الدنيا) رحمه الله ، قد طالعت مصنفات المتقدمين ووقفت على مقالات المتأخرين من أهل الفلسفة ، ونظار أهل الإسلام . فرأيت منها الزخارف والأباطيل ، والشكوكات التي يأنف المسلم الضعيف في الإسلام أن يخطرها بباله ، فضلاً عن القوي في الدين ، فكان يتعب قلبي ويحزنني ما يصير إليه الأعاظم من المقالات السخيفة والآراء الضعيفة التي لا يعتقد جوازها آحاد العامة .

وكنت أفتش على السنة المحضة في مصنفات المتكلمين من أصحاب الإمام أحمد رحمه الله على الخصوص ، لاشتهارهم بالتمسك بمنصوصات إمامهم فلا أجد عندهم ما

---

(١) الأعلام العلية ، تحقيق زهير الشاويش ، ط الثالثة سنة ١٤٠٠هـ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر .

(*) لم أجد له ترجمة في المراجع التي بين يدي .

(٢) هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب المشهور بابن قيم الجوزية من أشهر تلاميذ ابن تيمية تقدمت ترجمته في هذا الباب . انظر رسالة قصيرة في فضل شيخ الإسلام ابن تيمية ومحبة أهل العلم له . لعبدالله بن حامد الشافعي رحمه الله تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن إبراهيم الشيباني ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، مكتبة ابن تيمية - الكويت .

يكفي ... ثم قد تشبثت فطرتي بالحق الصريح في أمهات المسائل ، غير متجاسرة على التصريح بالمجاهرة قولاً وتصميماً للعقد عليها ، حيث لا أراه مأثوراً عن الأئمة وقدماء السلف . إلى أن قدر الله سبحانه ووقع مصنف الشيخ الإمام (إمام الدنيا) رحمه الله في يدي قبيل واقعته الأخيرة بقليل ، فوجدت ما بهرني من موافقة فطرتي لما فيه ، وعزو الحق إلى أئمة السنة وسلف الأمة ، مع مطابقة المعقول والمنقول ، فبهت بذلك ، سروراً بالحق وفرحاً بوجود الضالة التي ليس لفقدها عوض . فصارت محبة هذا الرجل رحمه الله محبة ضرورية ، يقصر عن شرح أقلها العبارة ، ولو أطنبت .

ولما عزمت على المهاجرة إلى لقيه ، وصلني خبر اعتقاله ، وأصابني بذلك المقيم المقعد .

ولما حججت سنة ٧٢٨هـ صممت العزم على السفر إلى دمشق لأتوصل إلى ملاقاته ببذل مهما أمكن من النفس والمال للتفريج عنه ، فوافاني خبر وفاته رحمه الله تعالى مع الرجوع إلى العراق قبيل وصول الكوفة ، فوجدت عليه ما لا يجده الأخ على شقيقه ، وأستغفر الله ، بل ولا الوالد الثاكل على ولده ، وما دخل على قلبي الحزن لموت أحد من الولد والأقارب والإخوان كما وجدته عليه رحمه الله – ثم مضى في وصف مشاعره وتجدد حزنه كلما ذكر الشيخ إلى أن قال : – فإن أنعمتم بشيء من مصنفات الشيخ رحمه الله تعالى ، كانت لكم الحسنة عند الله تعالى علينا بذلك ، فما أشبه كلام هذا الرجل بالتبر الخالص المصفى ، ثم أبدى عجبه من أولئك المعارضين لابن تيمية مع وضوح الحق بدلائله العقلية ، ثم ختمها بقوله : وإن أنعمتم بالسلام على أصحاب الشيخ وأقاربه كبيرهم وصغيرهم كان ذلك مضافاً إلى سابق إنعامكم .. » (١) .

ونذكر في هذا المجال أنموذجين في جهتين مختلفين متباينتين في هذا العالم الواسع ، وفي هذين الأنموذجين يتضح لنا مدى تأثير دعوة ابن تيمية واتساع انتشارها فضلاً من الله ونعمة .

نماذج لتأثير دعوته في العالم الإسلامي :

الأنموذج الأول في : العراق .

الأنموذج الثاني في : الهند .

---

(١) العقود الدرية ، لابن عبدالهادي ، تحقيق محمد حامد الفقي /٥٠٢ – ٥٠٧ .

الأول : تأثير دعوة ابن تيمية وفكره في العراق :

لدعوة ابن تيمية وفكره تأثير كبير في العراق ، وله أنصار ومؤيدون ، وبرهان ذلك الوقفة المجيدة معه والنصرة الحميدة له والدفاع الجريء أمام سلطان مصر وعلمائها المعادين لابن تيمية حينما سجنه السلطان الناصر محمد قلاوون بسبب ما زُوِّر عليه من قبل بعض العلماء في أنه يحرم زيارة قبور الأنبياء ، وهو إنما منع شد الرحال إليها لمجرد الزيارة .

وأحد تلاميذ ابن تيمية المخلصين يذكر في كتاب ألفه عن شيخه [1] عنواناً يترجم ما ذكرناه قال :« انتصار علماء بغداد للشيخ في مسألة شدّ الرحال للقبور » وننقل منه بعض عبارات هؤلاء العلماء في رسائلهم لسلطان مصر دفاعاً عن ابن تيمية وبياناً للحق ونصرة للمظلوم :

قال ابن الكتبي الشافعي ، في رسالته التي بعث بها للسلطان يوضح الحق ويطلب الإفراج عن ابن تيمية : « ولا ريب أن المملوك وقف على ما سئل عنه الشيخ الإمام العلامة وحيد دهره ، وفريد عصره ، تقي الدين أبوالعباس أحمد بن تيمية وما أجاب به، فوجدته خلاصة ما قاله العلماء في هذا الباب حسب ما اقتضاه الحال من نقله الصحيح... وبالجملة فما ذكره الشيخ تقي الدين على الوجه المذكور الموقوف عليه ، لم يستحق عليه عقاباً ، ولا يوجب عتاباً » [2] .

وقال الشيخ محمد بن عبدالرحمن البغدادي المالكي [3] :« ما أجاب به الشيخ الآجل الأوحد ، بقية السلف ، وقدوة الخلف رئيس المحققين ، وخلاصة المدققين ، تقي الملة والحق والدين من الخلاف في هذه المسألة : صحيح منقول في غير ما كتاب من كتب أهل العلم ، لا اعتراض عليه في ذلك ، إذ ليس في ذلك ثلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غض من قدره صلى الله عليه وسلم ... » [4] .

---

(١) العلامة « ابن عبدالهادي » وكتابه هو العقود الدرية ترجمة لحياة شيخه ابن تيمية ، وانظر كتاب الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية /٦١ - ٦٢ تحقيق نجم خلف ، ط الثانية سنة ١٤٠٥هـ .

(٢) العقود الدرية /٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٣) هو الشيخ : محمد بن عبدالرحمن بن عسكر البغدادي المالكي ، ولد سنة ٧٠١هـ وهو القائم بلواء مذهب مالك في العراق ، توفي رحمه الله سنة ٧٦٧هـ . انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية /٢٢٢ ، ط الأولى القاهرة سنة١٣٤٩هـ المطبعة السلفية ومكتبتها .

(٤) العقود الدرية لابن عبدالهادي /٣٤٥ - ٣٤٨ .

وقال الشيخ عبدالمؤمن بن عبدالحق الخطيب (١) في تأييد ابن تيمية والثناء عليه قريباً من هذا القول (٢) .

وكذلك الشيخ الإمام العلامة جمال الدين يوسف بن عبد المحمود بن عبدالسلام ابن البتي الحنبلي (٣) رحمه الله ، أيد ابن تيمية مثل من سبقه وأثنى عليه ثناءً عظيماً في علمه وعمله وجهاده (٤) .

ومن المتأثرين بدعوة ابن تيمية وفكره في العراق العلامة الشيخ نعمان خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود الآلوسي ، الشهير بابن الآلوسي البغدادي (٥) .

له مؤلف قيم حوى بين دفتيه رد افتراءات الشيخ أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي (٦) على ابن تيمية ، وهو يدلنا على محبة الآلوسي لابن تيمية ومعرفته بحقيقة دعوته وفكره وإعجابه بمنهجه في الإصلاح والاستنباط وغير ذلك .

وأيضاً العلامة محمود شكري الآلوسي (٧) له دور في نشر مذهب السلف وهو

(١) عبدالمؤمن بن عبدالحق الخطيب : هو : عبدالمؤمن بن عبدالحق بن الشمائل القطيعي البغدادي الحنبلي صفي الدين ، ولد ببغداد سنة ٦٥٨هـ كان يضرب به المثل في معرفة الفرائض ، توفي ببغداد سنة ٧٣٩هـ . انظر الأعلام ١٧٠/٤ .

(٢) انظر العقود الدرية لابن عبدالهادي/٣٤٨ .

(٣) كان من فضلاء العراق وإليه المرجع في القراءة واللغة العربية توفى سنة ٧١٦هـ . انظر الدرر الكامنة لابن حجر ٤٦٤/٤ ، ط حيدر أباد سنة ١٣٤٨هـ ، بغية الوعاة ٣٥٨/٢ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، درة الرجال في أسماء الرجال ٣٥٦/٢ تحقيق محمد الأحمد أبوالنور ، المكتبه العتيقة دار التراث ،. ط الأولى عام ١٣٨٤هـ .

(٤) انظر العقود الدرية لابن عبدالهادي /٣٤٩ - ٣٥٣ .

(٥) نعمان خيرالدين الآلوسي : الواعظ الفقيه الباحث المولود سنة ١٢٥٢هـ من أعلام الأسرة الآلوسية في العراق ،ولد ونشأ ببغداد وولي القضاء في بلاد متعددة منها (الحلّة) وترك المناصب ، وزار مصر في طريقه إلى الحج سنة ١٢٩٥هـ ، قصد الأستانة سنة ١٣٠٠هـ فمكث سنين ، وعاد يحمل لقب رئيس المدرسين فعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفي ببغداد سنة ١٣١٧هـ ، انظر :جلاء العينين في محاكمة الأحمدين / المقدمة ص (ج) .

(٦) هو : أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي : شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري الشافعي ولد بمصر سنة ٩٠٩هـ وتوفي سنة ٩٧٣هـ بمكة شرفها الله وكان مقيماً بها ، له مؤلفات منها : تحفة المحتاج في أربع مجلدات والزواجر والصواعق ، وشرح الهمزية ، والفتاوى الفقهية والحديثية وغير ذلك ، أخذ عن القاضي زكريا وغيره والهيتمي نسبة إلى محلة أبي الهيتم من إقليم الغربية بمصر . جلاء العينين في محاكمة الأحمدين /٢٧ .

(٧) هو : محمود شكري الآلوسي : شهاب الدين السيد محمود أفندي الشافعي ابن ولي الله السيد عبدالله أفندي ، مفتي الحنفية ببغداد اشتهر بالآلوسي، ولد يوم الجمعة منتصف شعبان عام ١٢١٧هـ وتوفي سنة ١٢٧٠هـ ،ومن مؤلفاته تفسير « روح المعاني » . انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين /٤٣- ٤٥ .

من المتأثرين بمنهج ابن تيمية في الإصلاح والفكر ، وقد حذى حذوه في إنكار المنكرات ونقد أهل البدع في دروسه ومجالسه ، ويرد عليهم بالرسائل والمؤلفات .

وله مؤلف في الرد على النبهاني هو « غاية الأماني في الرد على النبهاني »، وكان النبهاني قد أجاز الاستغاثة بغير الله ، في هذا الرد بيّن الآلوسي عقيدة السلف ودافع عن ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب .

وله مؤلف آخر أسماه « الآية الكبرى على ضلال النبهاني في رائيته الصغرى » ،رد به على النبهاني في تهجمه وسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ورشيد رضا [1] ، ومحمد بن عبدالوهاب [2] .

الثاني : تأثير دعوة ابن تيمية في الهند :

ابن تيمية رحمه الله لم يتجاوز في رحلاته الشام والقدس ومصر ولكن دعوته جابت البلاد في شتى أنحائها بوسائل ذات أهمية وأثر فعال ، من أبرزها : تلاميذه ، وكتبه .

وقد استقر في الهند من هاتين الوسيلتين ما سمح بانتشار دعوته في القارة الهندية، فقد « ورد عديد من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – إلى الهند وزاروا مليكها القوي الشجاع محمد تغلق [3] وأقنعوه بالقضاء على خزعبلات المتصوفة ، وعبادة القبور ، وحثوه على الاهتمام بإقامة الصلوات الخمس وإحياء ما اندرس من معالم الإسلام ، ورغبوه في اختيار منهج شيخ الإسلام في العقائد والعبادات والآداب والمعاملات .

---

(١) رشيد رضا : محمد رشيد ابن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني البغدادي الأصل الحسيني النسب ، ولد في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) سنة ١٢٨٢هـ . لازم الشيخ محمد عبده ، وتتلمذ على يديه ، أنشأ مجلة « المنار » توفي فجأة في سيارة عندما كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة سنة ١٣٥٤هـ ودفن بالقاهرة .انظر الأعلام ١٢٦/٦ .

(٢) انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي للدكتور : صالح بن عبدالله العبود/٦٦٧ ، ٦٦٨ وانظر كتاب « الشيخ محمد بن عبدالوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية للشيخ أحمد آل يوطامي /٩٧ قدم له وصححه الشيخ عبدالعزيز بن باز مطبعة الحكومة بمكة المكرمه ١٣٩٥هـ .

(٣) أبو المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند . وكان حكمه بعد وفاة والده في سنة ٧٢٥هـ إلى سنة ٧٥٢هـ . انظر رحلة ابن بطوطة /٢٩٤ وما بعدها دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة ، وانظر تاريخ الإسلام في الهند /١٧٢ د/ عبدالمنعم النمر ، ط الثانية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان .

وعلى رأس هؤلاء التلامذة :

التلميذ الأول : العلامة عبدالعزيز الأردبيلي :

صرح بوروده إلى الهند وتأثيره في الملك محمد تغلق المذكور عديد من المؤرخين ، منهم : أكبر شاه النجيب آبادي في « مرآة الحقائق » ، والشيخ محمد إكرام في « ماء الكوثر »، والأستاذ مسعود الندوي في « تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند »، والدكتور محمد إسماعيل الندوي في « تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية » (١) .

ومما يدل على أن العلامة الأردبيلي قد سافر للهند ما ذكره ابن بطوطة في رحلته إلي الهند ، وأنه رآه بحضرة السلطان محمد تغلق ، وأنه أكرمه غاية الإكرام ، ونذكر ما قاله الرحالة ابن بطوطه عن الأردبيلي وهو يتحدث عن محمد تغلق وأعطياته لمن يفد إليه :

« ذكر عطائه لعبدالعزبز الأردبيلي ، وكان عبدالعزيز هذا محدثاً قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية ، وبرهان الدين بن البركج ، وجمال الدين المزي ، وشمس الدين الذهبي ، وغيرهم ، ثم قدم على السلطان فأحسن إليه وأكرمه .

واتفق يوماً أنه سرد عليه أحاديث في فضل العباس وابنه رضي الله عنهما وشيئاً من مآثر الخلفاء أولادهما ، فأعجب ذلك السلطان لحبه لبني العباس ، وقبل قدمي الفقيه ... » (٢) .

« وعلاقته بالسلطان كان لها تأثير في مساعي السلطان للقضاء على الصوفية وآرائهم في الولاية في عصره » (٣) .

---

(١) دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية /١٩ .

(٢) رحلة ابن بطوطة /٣٠٣ ، ٣٠٤ . وقد ذكره أيضاً صاحب كتاب نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٦٦/٣ .

ذكر ابن كثير في ترجمة الشيخ نجم الدين بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن فقال : أبي نصر المحصل المعروف بابن السّمام ، اشتغل ببلده ثم سافر وأقام بمدينة سراي من مملكة إربل ، ثم قدم دمشق في سنة ٧٢٤هـ فدرس بالظاهرية البرانية ثم بالجاروضية ، وأضيف إليه مشيخة رباط القصر ، ثم نزل عن ذلك لزوج ابنته نور الدين الأردبيلي . توفي في ربيع الأول سنة ٧٣٠هـ وكان يعرف طرفاً من الفقه والطب . البداية والنهاية ١٣٠/١٤ .

(٣) السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية /٩٣ .

التلميذ الثاني : الشيخ عليم الدين الملتاني :

(حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني) (١) ذكره الشيخ محمد إكرام والنجيب آبادي وصرّح بأنه : « من تلامذة ابن تيمية ، وكان من أبرز من دعا محمد تغلق إلى إزالة البدع والمنكرات وشجعه على استئصال الأوهام والخرافات » (مرآة الحقائق ص٤٣٣) (٢) .

التلميذ الثالث : العلامة شمس الدين ابن الحزيري (٣) .

قال النجيب آبادي : كان حنفي المذهب ، وكان قاضياً في مصر إلا أنه قد عزل عن القضاء لأجل تأييده الإمام ابن تيمية ، وجاء إلى الهند سنة ٧٠٨هـ في عهد السلطان علاء الدين الخلجي ، وجاء معه بأربعمائة كتاب في الحديث ، ولعل هذه الخزانة الحديثية التي وصلت إلى الهند أجدر بالذكر والتنويه من غيرها » (مرآة الحقائق ص٤٣٣) .

وكان الشيخ شمس الدين يقول : « إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن ؟ وقال بعض أصحابه : أتحب الشيخ تقي الدين ؟ قال : نعم ! والله لقد أحببت شيئاً مليحاً » . توفي في جماد الآخر سنة (٧٢٨هـ) (٤) رحمه الله .

ثم بعد الحكومة التغلقية خبت أنوار الدعوة السلفية ثم قيض الله من يضيئها ليهتدي بها من التبست عليهم معالم السنن ، وهذا هو : الشيخ الشاه أحمد بن عبدالرحيم

---

(١) الشيخ العلامة عليم الدين - وقيل علم الدين - سليمان بن زكريا القرشي الملتاني حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني رحل إلى الحرمين ، والقدس ، وبغداد وغيرها من بلاد العراق ، وأخذ العلم من علماء هذه البلاد ، وكان ممن صحب شيخ الإسلام ، ورجع إلى الهند ودخل دلهي في أيام غياث الدين تغلق شاه ، وكان ممن يحث السلطان محمد تغلق كثيراً على دحض البدع والمنكرات والقضاء عليها » انظر :السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية /٨٩ ، د/ عبدالرحمن الفريوائي ، الناشر إدارة البحوث الإسلامية بالجامعة السلفية ببنارس .

(٢) دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /٢٠ .

(٣) أبو عبدالله محمد بن صفي الدين أبي عمر عثمان بن أبي الحسن عبدالوهاب الأنصاري الحنفي . ولد سنة ٦٥٣هـ تولى التدريس بعدد من الأماكن في دمشق ، ثم تولى القضاء فيها ، ثم طلب ليتولى القضاء في مصر ، وكان قوياً في الحق لا تأخذه في الحكم لومة لائم ، كان يحب ابن تيمية ويعده شيخاً للإسلام . انظر البداية والنهاية ١٢٣/١٤ .

(٤) البداية والنهاية ١٢٣/١٤ ، الدرر الكامنة ٣٢٠/٥ ، دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة/٢٠ .

المشهور بولي الله الدهلوي (١) وقد تعرف على ابن تيمية من خلال مؤلفاته لما ذهب إلى المدينة المنورة ، وتتلمذ للشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي ، وكان والد أبي طاهر من علماء الحديث المبرزين ، ومن المحبين لابن تيمية المثنين عليه ، فاستطاع أن يصل الشاه أحمد بفكر ابن تيمية بحكمة وحلم حتى كان له من المحبين ، وأقبل على مولفات شيخ الإسلام فأفاد منها ، وظهرت استفادته وبان تأثره من خلال مؤلفاته ومنها «حجة الله البالغة » و « إزالة الخفاء » و « قرة العينين » (٢) .

وفي رسالة له في « التفهيمات الإلهية » الذب عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد بذل جهداً في التعرف على عقيدته وفقهه وآرائه ثم قال :

« وقد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية ، وحافظ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار السلف عارف بمعانيهما اللغوية والشرعية ، أستاذ في النحو واللغة ، محرر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله ، فائق الذكاء ، ذو لسان وبلاغة في الذب عن عقيدة أهل السنة ، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة ، اللهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها ، وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى ، وإن كان تضييقه ذلك ناشئاً من اجتهاد ، ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما بينهم ، والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير » (٣) .

ومن المتأثرين بدعوة ابن تيمية في القارة الهندية:

السيد صديق بن حسن البوفالي :

كانت علاقته بدعوة ابن تيمية وفكره من خلال الكتب ، وذلك أنه كان في طريقه للحج فأقام فترة قصيرة في اليمن عند المحدث اليماني الشيخ حسين بن محسن الحديدي ، فاشترى السيد صديق منه كتباً من ضمنها كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم »

(١) الشيخ الآجل سند الوقت : أحمد عبدالرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي الملقب شاه ولي الله ، فقيه حنفي من المحدثين ، ولد سنة ١١١٠هـ من أهل دهلي ، له اشتغال بعلم التفسير والحديث والعقيدة ، توفي سنة ١١٧٦هـ وقيل ١١٧٩هـ . انظر الأعلام للزركلي ١٤٩/١ .

(٢) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للسيد نعمان خير الدين الآلوسي /٤٥ - ٤٦ . وانظر دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /٢٦ ، ٢٧ .

(٣) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للسيد نعمان خير الدين الآلوسي /٤٦ .

فلما قرأه أعجب به ورأى أنه أحسن ما يعتمد عليه في الإصلاح الاجتماعي والتوجيه الفكري .

ثم عثر على كتاب « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » لابن تيمية فلم يفلته إلا بعد أن نسخ بيده نسخة منه .

وكان متزوجاً بملكة « بوفال » شاهجهان بيكم ، فآلت الأمور إليه ، وتقلد المسئولية ، وصار إليه التدبير ، فعمد إلى نشر أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية ومعارفه بمؤلفاته ، ومطبوعاته ، ومدارسه ، ومساجده ، في بلاده وخارجها .

وقد كتب ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه بالفارسية مثل : « إتحاف النبلاء المتقين لإحياء مآثر الفقهاء والمحدثين » ،و « تقصار جهود الأحرار من تذكار جنود الأبرار » وكذلك في كتبه بالعربية مثل : « التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول » و« أبجد العلوم » .

وقد قام بأعمال طيبة في الدفاع عن ابن تيمية وسعى من أجل ذلك في طباعة كتابين في هذا الغرض وهما :

الأول : « الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر » للشيخ ابن ناصر الدين الدمشقي .

الثاني : «جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين » للشيخ خيرالدين أبي البركات نعمان بن محمود الآلوسي .

ومما قام به في نشر علوم ابن تيمية طباعة مختصرات لعدد من رسائل ابن تيمية وفتاواه في اللغة الفارسية التي كان لها رواج في الهند . كما أنه وقف مطابعه وسخرها لنشر معارفه ومعارف الأئمة السلفيين الآخرين (١) .

ومن علماء القارة الهندية المتأثرين بدعوة ابن تيمية وفكره :

الشيخ « صوفي نذير أحمد الكاشميري » (١٩٠٤ - ١٩٨٥م) :

من كبار العلماء الزهاد في شبه القارة الهندية تأثر بكتابات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وكان يعدهما من بواعث القوة الإيمانية والجرأة الدينية ، وكان يقرر

---

(١) انظر دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /٣٠ .

بأنه كما لا نظير لإبراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الأنبياء والرسل في الدعوة والعزيمة ، وكذلك الإمام أحمد وابن تيمية لا نظير لهما في العلماء المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم(١).

ومما يدل على أن شيخ الإسلام ابن تيمية له مكانة ومنزلة ومحبة في القارة الهندية وقت حياته ما ذكره الحافظ ابن رجب حين توفي ابن تيمية قال : صلى عليه في الهند صلاة الغائب (٢) ، ومما لاشك فيه أنهم لا يصلون عليه إلا لمعرفة بعظيم قدره وعلو مكانته في العلم والعمل وإلا فإنه في كل يوم يموت المئات في الكرة الأرضية ولم يصل عليهم صلاة الغائب .

تأثير دعوة ابن تيمية في الحركات الإسلامية :

أثرت دعوة ابن تيمية على واقعه المعاصر تأثيراً قوياً خصوصاً في الشام ومصر ، ونال الحنابلة من ذلك القسط الأوفر باعتبار ابن تيمية منتسباً إلى مذهب الإمام أحمد العقدي والفقهي ، وإن كان هذا الانتساب كثير منه عائد إلى أن الحق واحد وهو نقطة التقاء العلماء والدعاة في كل عصر ومصر .

ولا نحب أن نتتبع التاريخ لنعرف مدى صلة الدعوات بحركة ابن تيمية الإصلاحية، فإن هذا صعب المنال في ظروف كظروف إعداد الرسائل العلمية الجامعية.

ولكن نحب الإشارة إلى علاقة بعض الحركات الإسلامية بدعوة ابن تيمية في العصر الحديث، فنقول :

تختلف علاقة الحركات الإسلامية وصلتها بدعوة ابن تيمية من حركة إلى حركة وأغلب هذه الحركات كانت على معرفة بابن تيمية في جوانب سيرته الذاتية ومنهجه الفكري والعملي ، وكثير من قادة هذه الحركات ، والقادة المفكرين في العالم تحدثوا عن ابن تيمية في هذه الجوانب .

وهذا يجعلني أجزم بأن هناك تأثرا بمنهج ابن تيمية وفكره ، وهذا التأثر تتفاوت فيه الحركات الإسلامية :

---

(١) هامش كتاب « دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة » ١١٤/١ .

(٢) انظر كتاب « الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية » للشيخ : مرعي بن يوسف الكرمي تحقيق نجم عبدالرحمن خلف /٥١ ، ٦٩ ، ط الثانية عام ١٤٠٥هـ ، دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان الأردن ، ومؤسسة الرسالة ، بيروت .

فمن الحركات الإسلامية من تأثرت في الجانب الفكري والعلمي ، وجانب تغيير المنكرات والإقدام على ذلك .

ومنها من تأثرت في الجانب الجهادي ضد أعداء الإسلام والمارقين عنه ، وكذلك في مجال المشاركات الاجتماعية والعلاقات مع الناس ، وفي مجال نبذ التقليد السلبي والسير في مجال الاجتهاد والتجديد ، يرافق ذلك العزم على التخلص من القيادات والزعامات التي تؤول بالناس إلى سلوكيات منحرفة وبعيدة عن الهدي النبوي .

ومنها من تأثرت في مجال نقده العلمي لأهل المنطق والفلسفة ، والكلام وسائر الفرق المنحرفة أو لديها انحرافات عن الإسلام ، فكرست جهودها متأثرة بمنهجه في الرد والمجادلة مع هؤلاء وأمثالهم .

ومنها من تأثرت في اتجاهه العلمي فقط تاركةً وراءها منهجه العملي والجهادي ، ومقارعة أصحاب المنكرات وأهل البدع والضلالات وأمثال هذه الأعمال الدعوية العظيمة .

والقول بثبوت التأثر لا يكون إلا ببرهان على ذلك ، أما ادعاء أن حركة من الحركات قد تأثرت بابن تيمية لأنها تشابهت وإياه في المنحى الفكري والعملي أو أحدهما ، فإن وجود هذا قد يعود إلى تأثير منهج السلف الذي تأثر به ابن تيمية ، وعلماء السنة المتبعون تتشابه أفكارهم وأعمالهم ومناهجهم لأن النبع الذي ينهلون منه واحد .

وفي هذا الفصل أحاول أن أبين تأثر الحركات الإسلامية بابن تيمية من خلال صلة المؤسسين للحركات الإسلامية أو الأعضاء الفاعلين فيها بمنهج ابن تيمية الدعوي مقتبسين هذا مما كتبوه عنه من مؤلفات أو مقالات أو من معرفتنا بتلقيهم من كتبه ومؤلفاته ، أو تلقيهم عمن تتلمذ على كتبه .

وقياس التأثر من عدمه يصعب جداً معرفته لأن حكمنا بأن هذا الرجل أو الجماعة حدث لها تأثر أو لم يحدث يحتاج منا أن نكون عارفين بمجريات الأمور المستقبلية ، وهذا إن كان ممكناً في بعض الأمور فإنه في كثير منها غير ممكن .

ونستطيع أن نقول : إنه لولا هذا التأثر الإيجابي مثلاً لكانت الحال أسوأ مما هي عليه لدى فرد ما أو جماعة ما ، وعلى العكس من ذلك في حالة التأثير السلبي .

ونقدم في هذا الفصل بعض الحركات الإصلاحية الإسلامية التي تأثرت بمنهج ابن تيمية رحمه الله .

أولاً : تأثير دعوة ابن تيمية في الحركة الإصلاحية الوهابية :

الشيخ محمد بن عبدالواهاب يعد مجدد قرنه ، لأنه استطاع أن يطهر نجداً وما حولها مما أحدثه الناس في دين الله من الشركيات والبدع ، وحمّل أحفاده وتلاميذه من بعده الدعوة حتى عمّت أغلب أرض الجزيرة وانقدحت شرارتها في أنحاء العالم ، وقد ركزت هذه الدعوة على تصفية التوحيد وإخلاص العبادة .

وقد جاءت دعوته امتداداً لدعوة ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله ، فجاءت واضحة المعالم سهلة التناول ، جامعة للعلم والعمل .

وابن عبدالوهاب لم يكن من تلاميذ ابن تيمية لأنه يفصل بينهما قرون عديدة ، فإذا لم يكن تلميذاً مباشراً فلا يعني هذا انعدام التأثر ، فإن مئات من العلماء اكتسبوا أنصاراً ومؤيدين ، مع وجود هذا الفاصل الزمني ، وتم ذلك بوساطة التراث العلمي والفكري الذي يخلفه أولئك القادة الفكريون المتميزون بعلم وعمل وجهاد ودعوة .

والمطالع لمؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ورسائله ومنهجه العملي في الدعوة يدرك التقارب الشديد بينه وبين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، إلى مستوى أننا نجد نصوصاً طويلة من كلام هذين الشيخين مدونة في الإنتاج العلمي لابن عبدالوهاب .

وبيان ذلك بالشواهد من كل مؤلفاته يطول ، ولكن حسبي أن آخذ أُنموذجاً واحداً ، ويكون عينة اختيارها من غير ترتيب وقصد سابق .

وتنفيذ ذلك بأن أفتح أحد مجلدات مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب وما خرج علي من عنوان مؤلفاته اعتمدته ليكون موضعاً للتطبيق ، وقد فعلت ذلك على النحو الآتي : فتحت « القسم الأول من مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب طبعة جامعة الإمام فخرج العنوان الآتي « كتاب مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد» حققه وعلق عليه الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري ، يبدأ من صفحة (٢٨٠) إلى صفحة (٣٢٩) .

وإليك هذا البيان الذي يكشف حقيقة استقاء الشيخ محمد بن عبدالوهاب من تراث ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمة الله على الجميع ، وذلك من واقع الكتاب الذي تحدد أن يكون موضعا للتطبيق وهو كتاب : « مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد » .

الصفحة	عدد الأسطر المنقولة	المصدر المنقول منه
٢٨٣	١٠	اقتضاء الصراط المستقسم
٢٨٥ – ٢٨٦	١٠	اقتضاء الصراط المستقسم
٢٨٦ – ٢٨٨	٣٧	اقتضاء الصراط المستقسم
٢٨٨	١	نقض المنطق
٢٨٩	٣	الفتاوى
٢٨٩	٩	نقض المنطق
٢٩١	٤٢	الرسالة السنية لابن تيمية
٢٩٨ – ٢٩٩	١٤	نقض المنطق
٣٠٠ – ٣٠١	١٠	في كلامه عن مانعي الزكاة
٣٠١	١,٥	في كلامه عن مانعي الزكاة
٣٠٥	٢	نقض المنطق
٣٢٥ – ٣٢٨	٥٠	رسالة بعثها ابن تيمية من السجن
٣٢٨	٩	في فتوى عن الحشيشة
أما مانقله عن ابن القيم فإليك بيانه من خلال صفحات الكتاب المذكور :		
٢٩٣ – ٢٩٧	٥٠ تقريباً	لم يذكر الكتاب
٣٠٣ – ٣٠٤	٣	إغاثة اللهفان
٣٢٤	١	لم يذكر الكتاب

وقال الأمير شكيب أرسلان عن صلة دعوة ابن عبدالوهاب بابن تيمية :« وتشرب مبادىء الحافظ حجة الإسلام ابن تيمية وتليمذه ابن قيم الجوزية ... وأخذ يفكر في إعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى : عقيدة الصحابة والتابعين ؛فلذلك الوهابية يسمون مذهبهم عقيدة السلف . ومن هنا أنكر الاعتقاد بالأولياء ... والاستغاثة بغير الله وغير ذلك مما جعله من باب الشرك واستشهد على صحة آرائه بالآيات القرآنيه والأحاديث النبوية ، ولا أظنه أورد ثمة شيئاً غير ما أورده ابن تيمية » (١) .

وقال الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي : « ... أخذ يدعو مثل ما دعا إليه ابن تيمية قبله ، من التوحيد بالعبادة لله وحده » (٢) .

وقال الأستاذ أحمد أمين : « اقتفى في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو : ابن تيمية .... فيظهر أن محمد بن عبدالوهاب عرف ابن تيمية ... فكان إمامه ، ومرشده ، وباعث تفكيره ، والموحي إليه بالاجتهاد ، والدعوة إلى الإصلاح » (٣) .

وقال الأستاذ ماجد عرسان الكيلاني : « أما في الجزيرة العربية ، فقد وجدت روح تعاليم ابن تيمية تعبيرها الأكمل في حركة التوحيد التي بدأها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ولعبت دوراً حاسماً في تاريخ المملكة العربية السعودية ، وما جاورها من الأقطار العربية والإسلامية » (٤) .

ويقول الأستاذ محمد عبدالله السلمان : « ومما يجب ذكره هنا إعجاب الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأتباعه من علماء الدعوة بآراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأتباعهما في كثير من الآراء » (٥) .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ، المجلد الثاني ، الجزء الرابع « تاريخ نجد الحديث » /١٦١ تأليف : لوثروب ستودارد الأمريكي ، نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض ، وفيه فصول وتعليقات وهوامش لأمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط الرابعة ، ١٣٩٤هـ .

(٢) المجددون في الإسلام من القرن الأول الهجري إلى الرابع عشر (١٠٠ - ١٣٧٩هـ) ، نشر مكتبة الآداب ومطبعتها بمصر دار الحمامي للطباعة .

(٣) زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين /١٥ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥م .

(٤) الفكر التربوي عند ابن تيمية /٩ ، لماجد الكيلاني ، طبعة عمان - الأردن ، جمعية عمال المطابع التعاونية عام ١٤٠٥هـ .

(٥) دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب / ٦٨ تأليف محمد السلمان .

ويقول الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد : « كانت دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب في القرن الثالث امتداداً لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن ،وقد تأثر بها الإمام لموافقتها مع أصول الإسلام في العقائد والأحكام واعتنى بكتب شيخ الإسلام ، وبكتب تلميذه ابن القيم اعتناءً كاملاً فأجاد وأفاد رحمة الله تعالى عليهم أجمعين » (١) .

ماذا يعني هذا التأثر ؟

يعني حياة دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية باعتبارها دعوة تمثل منهج السلف واستمرار عطائها ممثلة بمحمد بن عبدالوهاب وتلاميذه وتراثه العلمي ، ولكن من الحق أن نبين أن هذا التأثر الكبير من قبل ابن عبدالوهاب وتلاميذه لا يعني التبعية المطلقة والتقليد الأعمى لابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، ولا حتى للمذهب الحنبلي ، وهذا ما أكده ابن عبدالوهاب بنفسه حينما قال :« ولست أدعو إلى مذهب صوفي ، أو فقيه ، أو متكلم أو لإمام من الأئمة الذين أعظمهم مثل ابن القيم ، والذهبي، وابن كثير، وغيرهم بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أوصى بها أول أمته وآخرهم » (٢) .

وأيضاً أكد هذا المعنى تلاميذه من بعده فهذا ابنه الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب يقول : « وعندنا أن الإمام ابن القيم وشيخه (ابن تيمية) إماما حق من أهل السنة ، وكتبهم عندنا من أعز الكتب ، إلا أننا غير مقلدين لهم في كل مسألة ، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » (٣) .

ثانياً : رشيد رضا (٤) وتأثره بمنهج ابن تيمية :

بدأ تعرف السيد محمد رشيد رضا على الدعوة السلفية منذ هجرته إلى مصر حيث وُفق لقراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم .

ومع أن رشيد يصرح بعدم معرفته لكثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه

---

(١) دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /٥١ .

(٢) مجموعة المسائل والرسائل النجدية لحسين بن غنام ١/١٥٢ - ١٥٤ ، مطبعة المنار بمصر عام ١٣٤٩هـ ، ط الأولى .

(٣) الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية /٤٩ للشيخ سلمان بن سحمان تعليق السيد محمد رشيد رضا ، ط الثانية مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٤هـ .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (٧٧٥)

ابن قيم الجوزية قبل هجرته إلى مصر ، إلا أنه يقرر فيما بعد أنه لم يعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب هذين الشيخين ، ويذكر أن قلبه اطمأن بمذهب السلف تفصيلاً بعد ممارسته لكتبهما (١) .

ويقول عن نفسه مبيناً أثر كتب هذين الشيخين عليه : « وهذا الفقير على اعترافه .. بل افتخاره بأنه استفاد من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، وكان أعظم مثبت لقلبه ومقوّ لحجته في مذهب السلف الصالح يصرح بأنه على إعجابه بتحقيقه لا يقلده في شيء من أقواله تقليداً » (٢) .

ورشيد رضا يعد ابن تيمية من أكبر أنصار السنة المجددين للدين يقول رحمه الله : «ولم يجيء بعد الإمام ابن حزم من يساميه أو يساويه في سعة علمه وقوة حجته وطول باعه ، وحفظه للسنة وقدرته على الاستنباط إلا شيخ الإسلام مجدد القرن السابع أحمد تقي الدين بن تيمية ... ثم قال : وكان الإمام أبوعبدالله محمد بن القيم وارث علم أستاذه ابن تيمية وموضحه .. » (٣) .

وتأثر رشيد رضا بابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب لم يتضح بشكل بارز وجلي إلا بعد هجرته إلى مصر واطلاعه على كتبهما وكتب أتباعهما عن كثب (٤) .

وحينما قاوم التصوف المنحرف وهاجمه في كتاباته مبيناً مخالفته للإسلام وضرره على الأمة بدأ تأثير آراء ابن تيمية عليه في هذا المجال ، بل صرح بأنه استفاد من بعض كتابات ابن تيمية عن التصوف، وبنظرة ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين) (٥) .

وكان من ضمن واجبات رشيد رضا التي قررها على نفسه الدفاع عن ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب باعتبارهما أصحاب دعوة على منهج السلف ، فالدفاع عنهما دفاع عن رموز هذا المنهج ، وقد دوّن كثيراً من ذلك في كتابه (الوهابيون والحجاز) ، كما امتلأت مجلة المنار بذلك ، وكان يقدمهما كأسوة حسنة لاتجاه الدعوة السلفية ،

---

(١) انظر تفسير المنار ٢٥٣/١ ، ط الثانية ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ومجلة المنار ٤٩٣/٢ .

(٢) مجلة المنار ٦٨/٣١ .

(٣) تفسير المنار ١٨٨/٢ ، ٨١/٨ - ٩٩ ، ٣٥٦ ، ط الثانية ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، وانظر الوهابيون والحجاز /٤ - ٦ لرشيد رضا مطبعة المنار ، ط الأولى عام ١٣٤٤هـ ، القاهرة .

(٤) انظر رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب /٢٤٠ .

(٥) انظر السابق /٢٤٥ ، ٢٤٧ .

لذا كان لا يترك مناسبة إلا ويقدم مبادىء هؤلاء الرواد ، وتاريخهم الإصلاحي .

ولقد سخّر قلمه في مقالات عديدة في صحف مصر ومجلاتها لهذا الغرض وأمثاله (١) .

ولقد أضاف رشيد رضا إلى ذلك نشر مؤلفات الأقطاب الثلاثة - ابن تيمية وابن القيم ، ومحمد بن عبدالوهاب ، فقام بطبع عدد منها وأحياناً كان يوزعها مجاناً ، ومن الكتب التي حظيت بذلك :

(الصوفية والفقراء ، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، والاجتماع والافتراق في الحلف والطلاق ، وخلاف الأمة في العبادات) ، وهذه كتب لابن تيمية ، وكذلك من الكتب :(اعلام الموقعين ، ومدارج السالكين ، وإغاثة اللهفان في طلاق الغضبان) وهي كتب لابن القيم (٢) .

ثالثاً : تأثر الجماعة الإسلامية في الباكستان بدعوة ابن تيمية :

حظي ابن تيمية بحديث مركَّز من مؤسس الجماعة الإسلامية ، وعده من قادة التجديد في العالم الإسلامي ، وأثنى عليه ثناء عظيماً في جميع الجوانب ، وأرى من الضروري تقديم موجز لما قاله الشيخ أبو الأعلى المودودي عن ابن تيمية حتى نتعرف على انطباعاته من خلال أقواله .

قال عن العصر الذي عاش فيه ابن تيمية : إنه عصر ظهرت فيه قوة التتر في بلاد الإسلام ، وشاع التقليد الجامد حتى صارت المذاهب الفقهية والكلامية كأنها ديانات ، والاجتهاد معصية ، والبدع أمور مستندة إلى الشرع ، وصار الرجوع إلى الكتاب والسنة ذنباً لا يغفر ، وتكون ثلاثي عجيب من : العوام الجهلة ، والعلماء أصحاب النظرة الضيقة وطلاب الدنيا ، ومن الملوك الجهلة الغاشمين ، والوقوف في وجه هذا الثلاثي من أجل الإصلاح مصافحة للموت .

والذي اجترأ على رفع الإصلاح في هذا العصر المظلم لم يكن إلا رجل واحد هو : ابن تيمية . ثم تكلم عن علم ابن تيمية فذكر أنه إمام في الحديث ، وأنه عالي الكعب في الفقه حتى بلغ مقام المجتهد المطلق . وأما العلوم العقلية والمنطق والفلسفة والكلام فإن أصحاب الاختصاص فيها « كانوا بين يديه كالناشىء التلميذ بين يدي

---

(١) انظر كتاب « الوهابيون والحجاز » /١٠ لرشيد رضا .

(٢) انظر « رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب » /١٧٩ .

الجهبذ الخنديد ». وتحدث عن بعض صفاته : فوصفه بالشجاعة والجرأة ، والجهر بكلمة الحق حتى دخل السجن مراراً .

وحينما تحدث عن جانب التجديد فضل ابن تيمية على الإمام الغزالي في هذه المسألة ، ثم لخص أعماله التجديدية في أربع نقاط وهي :

أولاً : انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقاداً أشد وأدق مما فعله الغزالي حتى خفف نفوذها على العلوم العقلية ، وتجاوزت آثار هذا النقد الشرق إلى الغرب حيث « .. كان من نتائجها أن علا في أوربا أول صدى بقرنين ونصف قرن بعد ابن تيمية ينتقد منطق أرسطو وما عند المتكلمين المسيحيين من نظام الفلسفة المتأثر باليونان » .

ثانياً : بيّن ابن تيمية بالأدلة والبراهين استقامة عقائد الإسلام وقوانينه ، بينما العلماء قبل ذلك كانوا مقصرين في استعمال الأدلة العقلية أو ناقصين في القدرة على التفهيم بها « أما ابن تيمية فبيّن العقائد والأحكام الإسلامية على صورتها التامة الصحيحة .. ثم اختار لإفهامه فيها ذلك الأسلوب الفطري .. الذي لم يكن يسع العقل إزاءه إلا الخضوع والتسليم » .

ثالثاً : أنكر التقليد الجامد وزاول الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى ، مستنبطاً من الكتاب والسنة وآثار الصحابة .. ، وحاكماً بين مختلف المذاهب الفكرية ، وقد انفتح بهذا الباب الاجتهاد من جديد .

كما أنه اهتم وتلميذه ابن القيم ببيان حكمة التشريع ، وطريق تشريع الشارع مما لا نظير له فيمن قبلهم .

رابعاً : جاهد البدع ، وتقاليد الشرك وظلال العقائد والأخلاق جهاداً قوياً عنيفاً ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب ،« وخلص طريق الإسلام من هذه الشوائب ، وعرضها مجلوة أمام أعين العالمين .

وتصدى بالاحتساب للكبير والصغير ، حتى من كان له المهابة والصيت ، وتوجه إلى الطرق والأعمال التي كانت تغير من الدين وأخذوا من الأدلة ما يؤيدونها به ، وكان العلماء يداهنونهم فيها ، وقد وجدها ابن تيمية مضادة للإسلام ، ومعاكسة له فشدد في مخالفتها ، وأخذ في بيان ما لاقاه ابن تيمية من خصومه حتى كان نهايته السجن الذي لاقى ربه فيه ، ومنهم من تسلط عليه بالتكفير والتضليل .

ثم تكلم المودودي عن الجانب السياسي من دعوة ابن تيمية حيث جهاده للتتار ،

واتصالاته برؤساء المسلمين ، وعموم الرعية ، فنفث فيهم روح الغيرة والحمية والحماس ... وكانت معنويات المسلمين خصوصاً في الشام قد ضعفت ، فاستطاع أن يوقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بث في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد [1] .

وهذه التحليلات من مؤسس الجماعة الإسلامية في الباكستان تدل على اطلاع واسع على كتب ابن تيمية وسيرته الذاتية ، ثم إن هذه الدراسة من العلامة المودودي ركزت على نقاط ذات أهمية في الدعوة والإصلاح والبناء الفكري ، مما يدل على كبير الإعجاب بها ، وهذا الحب دافع من دوافع التقليد والاحتذاء .

وتلاميذ وأعضاء الجماعة الإسلامية سوف يدفعهم هذا الثناء العاطر من رائدهم وقائدهم إلى أن يقرأوا لمن يصفه زعيمهم بالمجدد للدين ، فهي عملية ليست سهلة لكل أحد .

ويدلنا على هذا محاولات البعض منهم لإيجاد روابط وتشابه بين شيخهم المودودي وشيخ الإسلام ابن تيمية ومن ذلك :

ما يقوله عنه كثير من أتباعه بأنه « يحمل طابع ابن تيمية » [2] .

كما أنهم حاولوا إيجاد تشابه في المنهج العلمي في الحديث حيث وازنوا بين منهجهما في نقد الحديث [3] .

ويقرر أحد الكتاب المعاصرين أن المدرسة المودودية متأثرة بابن تيمية يقول :« وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أو منذ أوائل النصف الثاني من القرن العشرين ، أخذ تأثير ابن تيمية يتجاوب صداه في مختلف الأقطار العربية والإسلامية ، وأبرز من عكس هذا التأثر مدرستان :

مدرسة أبي الأعلى المودودي ومدرسة مالك بن بني . أما عن المدرسة الأولى : فإن أثر ابن تيمية واضح جداً في التفكير السياسي لهذه المدرسة ، وخاصة في تفكير أشهر مفكريها وهما : المودودي وسيد قطب [4] .

---

(١) انظر ما كتبه المودودي عن ابن تيمية في كتابه موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه /٧٧ - ٨٢ .

(٢) أبو الأعلى فكره ودعوته /١٨٤ ، أسعد الجيلاني ، طبعة المنصورة بلاهور عام ١٩٨٣م .

(٣) انظر موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي /٤٦ الشيخ محمد إسماعيل السلفي ، تعريب : صلاح الدين مقبول أحمد ، طبعة السلفية بالكويت .

(٤) الفكر التربوي عند ابن تيمية /١٢ ماجد عرسان الكيلاني .

رابعاً : (جمعية الإخوان المسلمين) وتأثرها بدعوة ابن تيمية :

كان الشيخ حسن البنا على صلة وثيقة بالشيخ رشيد رضا منذ شبابه المبكر، مما أفسح المجال أمام (حسن البنا) أن يستقي من (مدرسة المنار) كثيراً من مبادئها وأفكارها ، ويتأثر بها دينياً وسياسياً .

والحق أن تأثر (جمعية الإخوان المسلمين) بمدرسة المنار أمرٌ مسلَّمٌ به يدل على ذلك تولي الجماعة لتحرير (مجلة المنار) بعد وفاة رشيد رضا – وكان يرأس تحريرها الشيخ (حسن البنا) نفسه الذي أشار في افتتاحية العدد الجديد من مجلة المنار إلى العلاقة بين رشيد رضا وجماعة الإخوان المسلمين ، وذكر أن هذه الجماعة هي التي يتمناها رشيد رضا لتقوم مقام جماعة الدعوة والإرشاد ، في الدعوة إلى الإسلام وجمع كلمة المسلمين ، كما أشار إلى أن رشيد رضا كان يهدي الجماعة كثيراً من مؤلفاته كدليل على الصلة بينهما .

ولم تتأثر (جماعة الإخوان المسلمين) (بمدرسة المنار) من ناحية الدعوة إلى تصحيح عقيدة المسلمين من البدع والخرافات فحسب ، بل تأثرت بنظرة رشيد رضا السياسية خاصة في حياة الشيخ حسن البنا » (١) .

ويصف الشيخ حسن البنا تأثير « المنار » في العالم وذلك في افتتاحية العدد الأول لمجلة (الشهاب) فيقول عن مجلة المنار :« أسست مدرسة فكرية تقوم على قواعد هذا الإصلاح الإسلامي الجليل لازالت آثارها باقية في نفوس النخبة المستنيرة من رجال الإسلام إلى الآن ، ودافعت عن حقائق هذا الدين ومقاصده أقوى دفاع .

وعمر التلمساني يتحدث عن ابن تيمية ويثني عليه ويعده أستاذاً للإخوان المسلمين، وإن كانت هذه الأستاذية لم تكن من كل الجوانب يقول في كتابه :« هكذا علمني الإخوان المسلمون » :

« ولئن كان الإمام المجاهد ابن تيمية وتلامذته قد ادّوا إلى الفقه الإسلامي وتوضيح مناهج السلف ما يعدّ غرة في جبين الفقه الإسلامي ولقد كانوا قد سجنوا ، وعذبوا في سبيل التمسك برأيهم الصحيح . ولئن كانوا قد جاهدوا في سبيل الله بالسيف والمزراق فعلاً ، ولئن كانت مدرستهم التي لا تنكر ، ولئن كنا نحن الإخوان المسلمين نعتبرهم أساتذة لنا . إلا أنني أقرر – وأنا كامل الإيمان والصدق – أن مدرسة الإمام الشهيد

---

(١) رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب /٥٦٣ .

حسن البنا كانت أعمق أثراً ، وأبعد فاعلية في نفوس شباب المسلمين ، وذلك أن مدرسة الإمام ابن تيمية أخرجت فقهاء وعلماء حقاً ولكن مدرسة البنا أخرجت مجاهدين في ميادين القتال ، ومثلاً في مواقف النضال .

كما أن مدرسة ابن تيمية اقتصرت على المحيط الإسلامي في منطقة الشرق الأوسط، وبعض البلاد الإسلامية المتنائية ، بينما بسطت مدرسة البنا تعاليمها على أرض القارات الخمس التي تكون هذه البسيطة ... »[1] .

ثم يستدرك الأستاذ عمر التلمساني لنفسه ليدفع شبهة قد تفهم من كلامه فيقول : « لا أقول هذا انتقاصاً لفضل ابن تيمية ومدرسته على المسلمين فما ينكر ذلك إلا جاحد ، ولا يماري فيه إلا معاند ، وأعوذ بالله من أن يكون مسلم من بين هؤلاء ، ففضل ابن تيمية فوق مستوى شبهات الممترين ، ولكني أقوله تقريراً لحقيقة تكابر فيها القلوب الضالة المركوزة بين حنايا الصدور ... » [2] .

ويعلل انتشار دعوة البنا بوجود وسائل الإعلام ووسائل الانتقال التي لم تكن موجودة في عصر ابن تيمية ، ثم يقول عن ابن تيمية والبنا :« وللرجلين عندنا المكانة العليا » [3] .

وشخص آخر من الإخوان أفرد كتاباً وازن فيه بين ابن تيمية وحسن البنا وأوضح فيه أوجه الشبه بينهما وسمى هذا الكتاب – وهو من سلسلة نحو النور (٦) – « معاً على طريق الدعوة : شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الشهيد حسن البنا » والمؤلف هو : محمد عبدالحليم حامد ، وذكر أنه ركز على بعض الجوانب قال :« لقد ترك الإمامان كنوزاً ثمينة تتعلق بجوانب شتى في العقيدة والأصول ، والأخلاق والدعوة والتاريخ والغزو الفكري ... فأخذت قبضة من كنوز هذه الجوانب فتكلمت عن موقف الإمامين من الموضوعات التالية :

- الحرص على الأخوة والجماعة .
- التصوف.

---

(١) هكذا علمني الإخوان المسلمون /٣ – ٤ للأستاذ عمر التلمساني ، وهو أحد قيادات الإخوان البارزين ، صار مرشداً عاماً للإخوان المسلمين .

(٢) هكذا علمني الإخوان المسلمون / ٤ .

(٣) هكذا علمني الإخوان المسلمون / ٤ .

- الخلاف في الفروع الفقهية .

- حكم التقليد .

- العقيدة .

- وختمت البحث بأقوال ومواقف للإمامين تهم الدعاة خاصة وكل مسلم عامة .

ومن الجدير بالذكر أن أبين أنني قد ركزت على جانب العقيدة لأهميته فذكرت حقائق هامة جداً لا ينبغي أن تغيب عن ذهن دارسي العقيدة ، وحاملي الدعوة وباستحضارها والتزامها تحل كثير من المشكلات بفضل الله تعالى » (١) ، ووقفت للملحدين والإباحيين والجامدين بالمرصاد ، مما جعل لها أجمل الأثر في خدمة الإسلام » (٢) .

وقد تأثر بالعلامة السلفي الشيخ « محب الدين الخطيب » حيث يلتقي العلماء والمفكرين وكان يتردد على المكتبة السلفية وكذلك كان يتردد على مجالس الشيخ « رشيد رضا » كما أشرنا إلى ذلك (٣) .

---

(١) كتاب « معاً على طريق الدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، والإمام الشهيد حسن البنا » محمد عبدالحليم حامد/٤ - ٥ ، ط الأولى عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة .
ومن الملاحظ والملفت للنظر أن عموم الإخوان المسلمين أو أكثرهم لا يعرف عنهم كبير عناية واهتمام بتوحيد الألوهية ، ولعل الزمن الذي نبتت فيه الجماعة أثر على اتجاههم في الأبحاث والمؤلفات والخطب حيث كان الاستعمار ، والشيوعية الملحدة ، وتفرق الأمة ، وهم عموماً يشكرون على حسناتهم وهي كثيرة ، وينصحون عن سيئاتهم ولايقرون عليها ، وكل يؤخذ منه ويرد سوى المعصوم صلى الله عليه وسلم .

(٢) افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب المصرية /٩ ، محرم ١٣٦٧هـ .

(٣) كتاب « معاً على الطريق الدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الشهيد حسن البنا /١١ .

الخاتمة

الخاتمـة :

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات ، وأشكره على أن وفقني على إتمام هذا الجهد العلمي المبارك إن شاء الله ، والذي أتاح لي أن أعيش في سويداء المكتبة التيمية لمدة خمس سنوات ، وقد تمكنت من قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية بعضها قراءة دقيقة ، وبعضها قراءة استطلاع ونظر .

وكنت حريصاً على تدوين كل ما أجده يخدم الدعوة في أي جانب من جوانبها حتى ولو لم يكن داخلاً في موضوع الرسالة ، فتكّون لدي والحمد لله ثروة نصية من مؤلفات ابن تيمية في عدد من المواضيع سوف أعمل جهدي على أن تكون بين يدي القارئ إن شاء الله تعالى .

وكان من أعظم ثمرات هذا الوقت في المكتبة التيميـة أنني خرجت بتصور كبير ينشرح له الصدر عن منهج السلف في الدعوة إلى الله تعالى وما يلزم للداعية في الجوانب العلمية والعملية .

وهذه الرسالة التي بين يديك تكشف لك هذا المنهج بجوانبه النظرية والعملية .

وأرى من المناسب أن أضع بين يديك بعض ثمرات هذه الرسالة :

أولا: الباب الأول :

فيه كثير من جوانب المنهج النظري العلمي للدعوة إلى الله تعالى عند ابن تيمية ومما جاء فيه :

١ - التأكيد على اللغة العربية وأنها مهمة بين المسلمين لفهم الكتاب والسنة ، وتبين لنا أن من أبرز أسباب الاختلاف بين علماء المسلمين وطوائفهم غير المشبوهة هو عدم فهم لغة القرآن ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم ولغة الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد رسم منهجاً للاستدلال وفهم الأدلة .

٢ - الاستدلال يكون بالأدلة النقلية والعقلية والدليل العقلي هو دليل شرعي والذي يقابل الدليل الشرعي هو الدليل البدعي .

٣ - فهم الأدلة يكون وفق لغة من صدر منه الدليل . ونستطيع تحديد لغته بالرجوع إلى اللفظ في كل موطن ذكره وننظر لأي شيء كان يستعمله ، ونحدد دلالته في لغة المتكلم به ، فإذا ورد هذا اللفظ من قوله علمنا مراده به .

٤ - ويكون فهم لفظ المتكلم في عصره الذي عاش فيه لأن الألفاظ والمصطلحات

قد أضيف إليها معاني لم تكن عند السلف ، أو تبدلت معانيها عما كان عليه السلف ، فلما جاء الخلف لتقرير الحقائق العقدية وغيرها فهموا المصطلحات على ضوء ما عندهم من المعاني ، ظانين أن السلف كانوا يستعملون المصطلح لهذا المعنى ، وهذا سبب أن كل من ضل عن منهج السلف كان يظن أنه على منهجهم لأنهم استعملوا نفس مصطلحاتهم .

٥ - ونتج لنا أهمية العناية بالمصطلحات والألفاظ وتحديد معانيها ، لأنه استطاع أقوام أن يدلسوا على المسلمين باستعمال ألفاظ إسلامية لمعاني فلسفية ، وكثيراً ما كانوا يستعملون الألفاظ والمصطلحات الإسلامية ذات المعاني المشتركة والدلالة المجملة .

فإذا كانوا عند من لا يدرك المعاني الإسلامية ويمكن أن يقبل منهم أظهروا له ما يريدون من المعاني المخالفة لما تدل عليه هذه المصطلحات عند المسلمين .

٦ - وتقرر أنه لا يحل نزاع الأمة إلا كتاب منزل يحتكم الجميع إليه لأنه هو المهيمن ، والعقول لا يمكن أن تفصل النزاع لأنَّ لكلٍّ عقلاً ، وليس هناك عقل معصوم من عقول سائر الناس يمكن اللجوء إليه لِفَضّ الخلاف . فلا بد للدعاة إذا أرادوا أن ينهوا نزاع الأمة ونزاع جماعتها أن يكون ميزانهم الكتاب والسنة .

٧ - ومن المميزات البارزة في هذه الدعوة : الشمول لأنواع العلوم والمعارف ، ولجوانب الفكر كلها ، وكذلك الشمول لأنواع المدعوين من المسلمين وغير المسلمين ، حاكمين ، ومحكومين ، فجاءت دعوته تجربة رائدة ذات خبرات ميدانية واسعة ، مما جعلها عظيمة النفع للدعوات الإصلاحية .

وهذا الشمول جعلنا نجد له نظريات وآراء في أغلب ميادين الحياة . فصار ليس غريباً أن تجد كل حركة إصلاحية ما تبغيه من ابن تيمية فتقبس منه قبسة أو قبسات تسترشد بها في مسيرتها .

٨ - التميز وحسم القضايا والوضوح في الأهداف والمقاصد . و إعلان موقفه من كل المخالفات التي في المجتمع الإسلامي ، أو في الدولة سواء في مصر ، أو الشام . ومعالجة تلك الأدواء بعد أن تتبع أسباب حدوثها ، كل هذا وغيره جعل دعوته تسلم من الغموض والتذبذب ، ومن ثم صارت أمام الناس في عصره وبعده إلى يومنا هذا واضحة المعالم مضيئة الأركان ، والجوانب ، من كان له قلب سليم قبِلها ، ومن له قلب مشرب بالبدع والأهواء أو النفاق خاصمها ونابذها العداء .

٩ - المرأة جزء من هذا المجتمع الذي يلزم دعوته والعناية به ، بل إصلاحها له أهمية

قصوى في إصلاح المجتمع ، فتحصّل في هذه الرسالة قواعد منهجية ، ونظريات واقعية، ودراسات نفسية للمرأة ، ينتظم من خلالها إرساء خطة عملية قويمة لإصلاح المرأة ، وأعظم بداية لهذا الإصلاح أن يكون منذ الصغر في فترة القوة التقليدية غير المستبصرة .

وأكّد على أن إصلاح المرأة لا يتم بمعزل عن إصلاح الرجل ، بل إن عمليتي الإصلاح تسيران معاً نظراً لوجود الارتباط العاطفي والقلبي ، والاجتماعي بين هاتين الفئتين المكملتين لبعض .

١٠ - قدم دراسة عظيمة القدر عن الأسباب والمسببات ، مما يعطي أهمية كبيرة لمعرفة الداعية للمؤثرات وما ينتج عنها ، فيكون لديه البصيرة في وقاية الأمة ومجتمعاتها من الأدواء والفتن ، ويجنبها مخاطر الانزلاقات المفسدة ، والمهلكة .

١١ - مما أبرز دعوة ابن تيمية وجعلها قوية التأثير تلك النظرة الواقعية للإنسان والمجتمع والحياة كلها ، يضاف إلى هذا سعة الأفق في التعامل مع النصوص الشرعية وربطها بالواقع ، والحرص على جلب المصالح ودرء المفاسد ، ووضع منهجاً يتم به التعامل مع هذا الإنسان لإصلاحه فجاء هذا المنهج مؤسساً على وعي ، ومعرفة واسعة بطبيعة النفس البشرية وما يكتنفها ويؤثر في تصرفاتها من داخلها وخارجها .

١٢ - ابن تيمية من العلماء القلائل الذين اهتموا بمسألة الفروق الفردية بين الناس ، فكان رحمه الله مدركاً لها ، وقد أسس تعامله مع الناس على ضوء اعتبار هذه الفروق الفردية وهذا منهج من مناهج السلف رحمهم الله تولاه ابن تيمية بالدراسة ، والإيضاح ، وأبرزه إلى واقع الدعوة بسلوك عملي .

١٣ - نظراً لمعرفة ابن تيمية بالطبيعة البشرية ، وإدراكه للفروق الفردية ، وتوزع القدرات بين الناس ، فإنه خرج بنظرية دعا إليها الدعاة والعلماء وعموم الأمة وهي : تقسيط الدعوة بين أفراد الأمة . فكل فرد أو جماعة من الأمة يحمل من واجب الدعوة حملاً على حسب قدراته ، وإمكاناته ، وما أودعه الله فيه من مواهب ، ويصبح ما التزمه مما يحسنه في جانب الدعوة في حقه ألزم وأوجب ، ولابد أن يكون كل من حمل واجباً من الواجبات مقدراً أن هذا ليس هو كل الواجب فيشعر بحاجته إلى إخوانه الآخرين ، وبهذا تتكامل الأمة ، ومن مجموع هذه الواجبات المقسّطة بين هؤلاء يتكون مجموع متكامل للدعوة .

١٤ - قرر الاهتمام بالبدائل لأن النفوس إذا منعت من شيء لا تبقى فارغة لأنها

خلقت لتعمل لا لتترك ، فإذا لم يُقدم لها البديل النافع فإنها قد تشتغل بضده ، وقد تعمل بأسوأ مما منعت منه .

١٥ – قدم نظرية للدعاة عندما يريدون مخاطبة المدعوين ، فعليهم أن يراعوا أصول الحسنات وأصول السيئات ، فعند الأمر بفعل الحسنات يأمر بالأصول التي فعل واحد منها يترتب عليه فعل كثير من الفروع ، وأثناء ذلك يقدمونها بالتدريج فلا يهجموا على قلبه بالتكاليف ، والأوامر، والمطالب .

١٦ – المدعو يعيش في ظرف مكاني ، وظرف زماني ، وهذان الظرفان يختلفان بما يحيطهما ويوجد فيهما . والداعية لابد أن يكون على علم بالمكان الذي يدعو فيه ، ويقدر الزمان الذي يعيش فيه ، فلكل زمان دولة ورجال ، ولكل مكان إمكاناته وأحواله .

وبناءً على هذا فإن ما يصلح في مكان ، قد لا يصلح في آخر ، وما يناسب في زمان قد لا يناسب زماناً آخر . وهذا يحتم النظرة الواقعية التي يتم بها مراعاة ظروف الزمان والمكان ، حتى تسير الدعوة سيراً سليماً يتم به تحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها .

ثانياً : الباب الثاني :

أوضحت الرسالة منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة والعبادة ، وأنه ركز في دعوته على الأصول ومن أبرزها العقيدة ، والعبادة ، والأخلاق . وكان هناك العديد من المبررات لقوة توجه ابن تيمية في دعوته إلى هذه الأصول ، حيث تأثيرها في تفكير الإنسان ، وتصرفاته ، ورفضه ، وقبوله ، وسلوكياته مع الآخرين ، فالمحافظة عليها في نسق علمي وعملي سليم يؤدي إلى انضباط متكامل في حياة الفرد والجماعة .

كما أن هذه الأصول بينها ترابط في التأثر والتأثير في بعضها البعض ، فإصلاح أحدها يشكل إصلاحاً كلياً أو جزئياً للآخر .

واستطاع ابن تيمية أن يبرز قواعد منهجية منبثقة من نصوص الكتاب والسنة في شبكة العلاقات بين الدعاة المصلحين وبين فئات الأمة المسلمة وبين أهل الذمة المقيمين في كنف الدولة الإسلامية ، وقدم في ذلك منهجاً نظرياً ، وتطبيقاً عملياً لهذا المنهج من خلال مسيرته الدعوية .

وهذا كله مبثوث ومفرق في العديد من كتبه ، وقد عملت هذه الرسالة على تجميع

هذا الشتات وتقديمه بطريقة تخدم القارئ وتختصر المسافات الزمنية التي يحتاجها للجولة على تلك الكتب .

ومما تناولته هذه الرسالة في مجال منهج التعامل الأخلاقي :

أ - مع العلماء والشيوخ .

ب - مع العامة .

ج - مع ولاة أمور المسلمين .

د - مع أصحاب البدع والمنكرات .

هـ - مع غير المسلمين .

وقد سبق ذلك مقدمة هي عبارة عن قواعد ونظريات منهجية ،الأخذ بها يكلل الجهود بالنجاح في أقل فترة زمنية ، إضافة إلى أنها تكشف للمصلح عن معان دقيقة في تركيبة النفوس البشرية ، وتلقي الأضواء عليها لتكشف عن أبوابها ونوافذها للدخول إليها منها .

ومن القضايا المنهجية التي أبرزتها هذه الرسالة قواعد ونظريات التعامل مع علماء الأمة الذين هم أصحاب القدرة العلمية وهم من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم وهم من ولاة أمر المسلمين ، وهم المكونون لاتجاه الأمة العقدي ، والفكري ، والمؤثرون عليه . فمنزلتهم ومكانتهم في الأمة ومصيرها ذات شأن كبير ، فلابد أن يكون للدعوة منهج للتعامل معهم بما يليق بهذه المكانة ، ويحقق المنافع للمسلمين ، ويبعد المضار . وجاء هذا المنهج الذي حدده ابن تيمية معتمداً على معرفته بالمسارب النفسية مع اعتبار عدد من المؤثرات الداخلية في كل منهم ، والخارجية في المجتمع ، وحساب دقيق لكل هذه المؤثرات ، يضاف إلى هذا رصيد التجربة الميدانية التى عمقت لديه بعض النظريات كما كشفت له حقائق لم تكن مسلمة لديه من ذى قبل .

وكل هذه الجوانب جعلت منهج ابن تيمية في التعامل مع العلماء فريداً يتسم بالإيجابية ، والمرونة ، والصراحة ، والوضوح ، ويكلل ذلك العدل ، والإنصاف، وإعطاء كل ذي حق حقه .

وتناول الحكام أو الولاة بشكل عام بالدراسة فقدم نظريات نادرة تستند على علم بطبائعهم ، وأحوالهم النفسية ، والدوافع وبواعثها . كما أنه ذكر المواقف التي تصدر منهم وضدهم وقدم آراء فيها ، واضعاً تحت المجهر بدايات هذه الأمور وما تؤول إليه .

وبعد ذلك قدم منهجاً للتعامل مع هذه الفئات من أجل تحقيق الخير لهم وللمسلمين ، ومن أجل تحقيق المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها .

وقدم آراءه في الموقف الأسلم فيما يصدر من هذه الفئات من المخالفات والتجاوزات على أحكام الشريعة ، وأبدى تجارب الدعاة السابقين من أهل الغيرة على الدين من الذين أدت بهم غيرتهم إلى الصدام مع السلطة ، وأنها لم تحقق النتائج التي أرادوها ، فزاد الظلم وقتل كثير من الأخيار .

وكان ابن تيمية يركز على الطلاب النابهين الذين يرى عليهم مخايل النبوغ والجد والعزيمة والإرادة ، فكان يحرص على هؤلاء ويلازمهم ملازمة يتأكد بها أنه أعطاهم ما يعصمهم من الانفلات عن منهج السلف ، ونظراً لمعرفته التامة بأن الفروق الفردية أمر واقع بين الناس ، وأنه يلزم مراعاته في منهج الدعوة أثناء التنظير والتنفيذ ، فإنه قسم تلاميذه إلى قسمين :

الأول : تلاميذ عامون : وهؤلاء الذين يحضرون دروسه العامة .

الثاني : تلاميذ خاصون : وهؤلاء يحضرون الدروس العامة وكان يخصهم بدروس خاصة في منزله يقول فيها مالا يقوله عند من لا يثق بقدرتهم على الفهم من عموم التلاميذ . ويطالب هؤلاء مالا يطالب به الصنف الأول . والتلاميذ الخاصون هم الذين حملوا أفكاره وآراءه العلمية والعملية ونشروها في تلاميذهم وفي العديد من البلدان التي عاشوا فيها .

وعامة المسلمين لا يستجيبون إلا لمن أثر فيهم بسلوكه وأقواله في فعله ، وفعله في قوله ، وإذا كان فيهم فهو أب شفيق ، وأخ رفيق ، وصديق حميم ، إذا جاءت الضراء فإذا هو في مقدمتهم يكافح وينافح ، وإذا جاءت السراء فإذا هو آخرهم يؤثرهم بها ، ويترفع عنها . دوماً معهم صاحب يد عليا تعطي ولا تأخذ .

وإذا أراد نقلهم من سلوكهم المألوف وطبعهم المعروف ، تحيّن الوقت المناسب وقدم لهم ما يحبون من أجل أن يصل إلى مالا يحبون ، ومزج لهم مع المرة الحلوة حتى تذهب مرارتها ، يراعي فيهم ما كوّنهم الله عليه من الفروق الفردية ، والقدرات العقلية والبدنية فيعطي كلاً ما يناسبه . ويراعي عدم إعطائهم مالا تقدر عليه عقولهم من الحق حتى لا يكون لهم فتنة فيكذبوا الله ورسوله .

وأصحاب البدع والمنكرات في نظره مرضى مستحقون للعلاج ، ويلزم السير معهم في مسالك متعددة لإشعارهم أنهم مرضى ، وأنهم محتاجون للعلاج ، وهو

يختلف من شخص إلى شخص ، فما يصلح لهذا قد لا يصلح لذاك ، ويجب النظر في المصالح والمفاسد ومراعاة الظروف والواقع الذي يكتنف الداعية والمدعو ، فإذا كان الهجر للمبتدع وصاحب المنكر من أنواع العلاج الشرعي فإن فعله لابد فيه من النظر إلى قدرة الداعية على تحقيقه من دون أضرار تزيد على المصالح ، وكذلك النظر إلى المهجور ومدى انتفاعه بهذا العلاج ، فإن كان شره يزيد بالهجر فما أصبح علاجاً فيلزم تركه .

وغير المسلمين من أهل الذمة في داخل الدولة الإسلامية ، أو الذين لا ذمة لهم ، هؤلاء من أمة الدعوة الذين يلزم إيصالها إليهم بطريق يزيل مالديهم من شبهات ، كمناظرتهم ، ومجادلتهم حتى يتبين لهم أن الإسلام هو الحق .

وقد وضع ابن تيمية لدعوة غير المسلمين منهجين :

الأول : منهج يُدعى به من كان من أهل الكتاب .

الثاني : منهج يُدعى به من ليس لهم كتاب من المشركين وسائر الكافرين .

وإذا كان هؤلاء الكفار لهم وجود ودول ، فإن الداعية يكون له احتكاك بهؤلاء ، فما هو الشيء الذي يلزم أن يفعله ، والمنهج الذي يسير عليه في التعامل معهم ؟ هذا ما كشفته هذه الرسالة وجمعت شتاته لتضعه بين يدي القاريء .

ثالثاً : الباب الثالث : الأساليب والوسائل :

استعمل ابن تيمية أساليب كثيرة ليوصل دعوته من خلالها إلى المدعوين ، واتخاذ هذه أمر لازم ، فإن أي أمر من الأمور هو عبارة عن فكر أو منهج يحتاج في تنفيذه إلى وسيلة أو عدد من الوسائل والأساليب ، واتخاذ الوسائل في الدعوة هو من الأسباب التي أمر الشرع بالأخذ بها ، وتعطيل الأسباب أن تكون أسباباً قدح في العقل ، والاعتماد عليها قدح في الشرع .

والوسائل والأساليب التي اتخذها ابن تيمية في دعوته كثيرة وقد تناولت الرسالة بعضها :

أ - الأساليب :

١ - القدوة :

أبرزت آراء ابن تيمية في أهمية هذا الأسلوب ، وأهمية ما ركب عليه ابن آدم من التأثر في المجتمع الذي يعيش فيه ويخالطه ، واعتمد في ذلك على أدلة نقلية وعقلية وحسية .

والصورة المشاهدة تؤثر في الإنسان أكثر من تأثير الكلمة ، وهذا ما جعل الإسلام يؤكد في حصر القدوة في النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم حصرها في اثنين من أمته وهما : أبو بكر ، وعمر رضي الله عنهما .

ونظراً لهذه الاستجابة السريعة في التأثر فإن ابن تيمية يؤكد على ضرورة إبعاد المدعوين عن الاختلاط بغير المسلمين ، أو أصحاب البدع والمنكرات .

٢ - الجدل والحوار والمناظرة :

والحديث في هذا الأسلوب تناولته الرسالة ببيان : المنهج العلمي ، وهو عبارة عن عدد من المسائل في قواعد وآداب الجدل والمناظرة ، والمنهج العلمي التطبيقي الذي سار عليه ابن تيمية في جدله مع الخصوم وغيرهم ، وكان ابن تيمية في هذا كما كان في الذي قبله قدوة باهرة ، وآية من الله ظاهرة ، وحجة على الخصوم قاهرة ، كشف الله به أسرارهم ، وهتك به أستارهم ، وأبان به ما كانوا يبيتون .

والجدل في المنظور التيمي لا يدعى به ، إنما هو مما يدفع به صيال من يصول على الدعوة والدعاة بالأهواء والشبهات .

٣ - الفتاوى :

تشكل جزءاً كبيراً من مجال الإصلاح سواء منها المشافهة أو المكتوبة ، والمكتوب منها انتشر في الجهات انتشار الضوء في الظلام ، فأقضّت مضاجع أصحاب البدع والأهواء . خصوصاً أنه استطاع أن يجذب الناس إليه بحسن خلقه معهم وغزارة علمه حتى جعلوه صاحب معضلاتهم ورجل حاجاتهم . وأدت هذه الفتاوى دوراً في الإصلاح ، والقضاء على البدع .

وهذا يؤكد على الدعوات الإصلاحية إعداد مفتين مؤهلين .

ب -الوسائل :

١ - الاتصال الشخصي :

أوضحت الرسالة الجهود التيمية في الاتصال بشتى فئات المجتمع ومستوياته من أجل أغراض الدعوة والإصلاح ، ومن أجل مصالح المسلمين العديدة .

وقد اتصل بغير المسلمين من أهل الذمة وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام ويرد على أسئلتهم ويفنّد حججهم .

٢ - الرسائل الشخصية والمؤلفات :

وهي سجل لأفكار الدعوة تنتقل إلى أماكن عديدة ، فتنقل الدعوة معها عبر قرون متطاولة لتخلد آثار الدعوة في أجيال كثيرين .

وهذا التراث التيمي من الكتب والرسائل قام بدور فعال في تعديل مسار الأمة خصوصًا العلماء ، وآتى ثمرات عظيمة أقضّت مضاجع الخصوم حتى استعدوا السلطة عليه بأنه يشكل خطراً على عقائد الناس وآرائهم .

٣ - الخطابة :

من الوسائل التى أوصل بها ابن تيمية صوت الدعوة إلى كل من خاطبهم من علماء وحكام وطلبة علم وعامة .

وكانت خطب ابن تيمية تتميز بصدق اللهجة والعاطفة التفاعلية مع الأُحداث ، وعمق الاستدلال . وهي من وسائل الاتصال المباشر بالمدعوين .

٤ - الرحلات :

لم يغفل ابن تيمية وهو في دمشق ـ عن مصر قلعة الإسلام ، خصوصاً وهي تعاني من انتشار بدع الجهمية والصوفية وليس لها من يعارضها ويبين لها ما فيها من باطل.

وإقامة الداعية في أى مكان تخضع لعاملين :

الأول : قدرته على إظهار شعائر دينه ، وأمانه على الضرورات الخمس .

الثاني : انتفاع الناس به ، وحاجتهم إليه ، فإذا كان في مكان أهله محتاجون مع تقبلهم منه فإنه لا يتركهم بحثاً عن غيرهم .

وإذا وجد الداعية نفسه غير مفيد في مكان فإنه ينتقل إلى مكان يفيد منه . وابن تيمية رأى حاجة مصر إلى ما عنده من العلم والهدى أكثر من حاجة الشام فآثر مصر بنفسه على الشام رغم خطورة هذه الرحلة .

وقد حقق رحمه الله في رحلاته هذه كثيراً مما كان يتمناه .

٥ - الجهاد :

قام ابن تيمية بأنواع الجهاد كله العلمي والعملي . وكان من أهداف دعوته تهيئة الأمة للجهاد وإيصالها إلى مستوى الثقة بالله ونصره للمؤمنين ، وقد تحقق له ذلك ،

فكان النصر المبين على التتار في موقعة « شقحب » التي يعد بحق ابن تيمية قلبها النابض وشريانها المتدفق .

ومن ثمرات جهاده القضاء على أهل الجرد وكسروان وتخليص المسلمين من شرهم وغدرهم .

وقد وجد الناس - من الحاكم إلى أقل واحد منهم - في ابن تيمية حقيقة المؤمن الذي يقول ويفعل ، حينما حول النظريات الجهادية إلى واقع وكان هو في مقدمته .

ولم تقم قائمة التتار بعد ابن تيمية ، فأمنت مصر والشام من الداخل حينما قضى على أصحاب البدع المغلظة من الروافض وغيرهم ، وأمنت من الخارج باندحار القوة التترية .

٦ - الاتصال الجماهيري الواسع :

لتعريفهم بالداعي والدعوة وإقناعهم بالتزام مضامينها وهو من الركائز العلمية المنهجية التي اختص بها شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد مارس هذا من خلال العديد من الوسائل ذات الأهمية منها :

- المساجد :

فقد كان يلقي فيها الخطب والدروس وكان يناظر بعض المبتدعة فيها منكراً عليهم ما يفعلونه من بدع يضللون بها الناس .

- المدارس :

فقد تولى التدريس في بعض المدارس في دمشق ومصر ، وإذا لم يتولاه بنفسه فإنه كان حريصاً على أن يولي من يثق بكفاءته وسلامة فكره .

- السجون :

وخصوصاً في مصر حيث حوّل السجون التي دخلها في مصر إلى قلاع للدعوة، فلما دخل سجون مصر وجد السجناء في ضياع وقت ولعب ولهو، فجدّ معهم حتى حوّلهم إلى تلاميذ له ، وكثير منهم يرفض الخروج من السجن ويرغب البقاء فيه مع ابن تيمية لما وجد من العلم والعمل والخير الواسع . بل إن بعضهم كان يخرج ثم يعود إلى السجن يطلب أن يبقى فيه لأنه فقد الفوائد التى لم يجدها إلا عنده .

- المجامع العامة :

في وقت اجتماع الناس في شأن من الشئون ، يهتم معهم بشأنهم ، بل يجعل

شأنـهم شأناً لـه إذا كان فيه نـفع للأمة ، كـما حدث في لـقاءاته مع الجـيوش الشامـية ، والمصرية ، ومع قادتها .

وبعد : فإن هذا [1] من القضايا البارزة التي تضمنتها الرسالة ، ومن العسير جداً أن نختصر هذا الحجم الكبير من صفحات الرسالة بهذه الورقات القليلة في الخاتمة ، وكلي أمل أن يكون هـذا الجهد العلمي مؤدياً لحقيقة ما كان عليه ابن تيمية ، وأن يكـون نافعاً لجميع الأمة الإسلامية المباركة في الحاضر والمستقبل . رجاء أن ينفعني الله به في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ويشرفني أن أتقدم ببعض المقترحات والتوصيات أرى أهميتها ونفعها .

المقترحات والتوصيات :

١ - منهج السلف الصالح في الدعوة في جانبي الفكر والعمل يحتاج منا إلى تحديد أطره وإبرازه من أجل تقديمه للأمة بصورة ميسرة يستطيع الإفادة منه الدعاة بشتى ألوان تخصصاتهم العلمية .

ومن خلال هذه الرسالة تحققت أن أموراً مهمة في منـهج السلف في الـدعوة في جانبيه تخفى على كثير من الدعاة إما على وجه التفصيل وإما على وجه الإجمال .

وبما أنه قـد صدر من جامـعاتنا فـي المملكـة بعض الرسـائل العلـمية ، وأيضـاً بعض علمائنا له اهتمام في الكتابة في النواحي المنهجية في الدعوة فإنني أتقدم بالإقتراح الآتي:

تكون لجـنة علمـية يتم اختـيارها ممن سبق الإشارة إلى إنجـازهم العلـمي وتهيـأ لهم الظروف من أجل الاجتمـاع لإعداد مؤلف بمسمى « منهج السلـف الصالح في الدعوة إلى الله تعالى » .

٢ - لقـد عثرت أثناء مسيرتي البحثية في التـراث التيـمي علـى كنوز ثـمينـة من النظريات والآراء والـدراسات التي تدخل في اختـصاص كثير من كليـات جامعة الإمام وأمثالـها من الجامـعات ، فياحـبذا أن تولي هـذه الكليات الـعناية بـالفكر الـتيمي فـتوجه الرسائل والبحوث الطلابـية إلى تراث ابن تيمية لتستخرج كل فئة منه ما يخصها ، ولو كان هذا لسعدت المكتبة الإسلامية بثروة علمية تسهم في الإصلاح .

٣ - في كلـية الدعوة والإعـلام يكلف الـطلاب في كل فـصل دراسي بأنـواع من

---

(١) الإشارة إلى ما تقدم في الخاتمة .

البحوث في جوانب كثيرة ، وهذه البحوث لها منزلة في مقررات الكلية المنهجية ولها اهتمام لدى الطلاب .

ولذا أقترح أن يربط كثير من هذه البحوث بتراث السلف الصالح ليخرجوا لنا آراءهم ونظرياتهم ، وتشخيصاتهم وعلاجاتهم في كل قضايا الأمة وشئونها وخصوصاً ما يتعلق بالنواحي المنهجية الدعوية .

٤ – إلى علماء المسلمين الذين ينضوون تحت جماعات إسلامية أو يعملون بشكل فردي أتوجه إليهم بالتوصية الآتية :

أن يكرسوا جهودهم ويضعوا في خططهم التربوية ربط المسلمين بتراث السلف الصالح خصوصاً : العقيدة ، والعبادة ، ومنهج الدعوة ، وهو تراث أصيل يعتمد على الكتاب والسنة وفق فهم الصحابة الأجلاء ، وهو أيضاً واسع الأرجاء ، غني بالمضامين الحيوية اللصيقة بحياة الأمة العلمية والعملية ، وهو تراث يجمع الشمول ، والعمق ، والمرونة .

وإنني لأجزم أن هذا العمل من أكبر ما ترشّد به الصحوة الإسلامية المباركة في عالمنا الإسلامي الواسع .

ولعلي وسائر الذين قدموا في الجوانب العلمية والعملية جهداً من تراث سلفنا الصالح ، سهلنا تلك المهمة على علمائنا الفضلاء وقيادات الدعوة والإصلاح في كل مجتمع مسلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس المصادر والمراجع

١ - **القرآن الكريم** .

- أ -

٢ - **الإبانة عن أصول الديانة** : لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق وتخريج : عبد القادر الأرناؤط، دار البيان ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ .

٣ - **ابن تيمية : عبد العزيز المراغي** ، من سلسلة أعلام الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ملتزمو الطبع والنشر أصحاب دار إحياء الكتب العربية : عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٤ - **ابن تيمية والتصوف** للدكتور : مصطفى حلمي ،دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية .

٥ - **ابن تيمية وجهوده في التفسير** تأليف : إبراهيم خليل بركه ،المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

٦ - **ابن تيمية حياته وعصره ، آراؤه وفكره** : للإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي .

٧ - **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر** للدكتور : محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

٨ - **أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب لجنوب الجزيرة العربية** ، للدكتور : عبدالله بن أبو داهش ، دار الحكمة ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٩هـ .

٩ - **إحياء علوم الدين : الإمام الغزالي** ،خرج أحاديثه : العراقي ، دار العاصمة ، الرياض ١٩٨٧م .

١٠ - **آداب البحث والمناظرة** للشيخ : محمد الأمين الشنقيطي ، طبع بمطابع شركة المدينة للطباعة والنشر ، جده ، المملكة العربية السعودية .

١١ – **آداب الحوار والمناظرة للمستشار** :علي جريشه ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ش.م.م .

١٢ – **الاستقامة** :لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

١٣ – **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ، المعروف بالموضوعات الكبرى**: ملا علي القاري نور الدين علي سلطان بن محمد طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٤ – **اشارات لطيفة : لابن تيمية** ،جمعها وقدم لها : محمد العبدة ، دار الثقافة للجميع ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

١٥ – **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر ، تحقيق : الدكتور طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية ، طبعة عام ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م وهو بذيل كتاب الإصابة في تمييز الصحابة .

١٦– **الإصابة في تمييز الصحابة** ، لابن حجر العسقلاني مكتبة الكليات الأزهرية – حسين محمد امبابي ، ميدان الأزهر طبعة عام ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م .

١٧ – **أصول علم المواريث** : أحمد عبد الجواد ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ .

١٨ – **أصول الفقه وابن تيمية** للدكتور : صالح بن عبد العزيز آل منصور ، دار النصر للطباعة الإسلامية ، مصر ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

١٩ – **الأعلام** : لخير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة التاسعة ١٩٩٠م .

٢٠ – **الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية : لأبي حفص عمر بن** علي البزار، تحقيق : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٤٠٠هـ .

٢١– **الأعلام في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية** ، وبذيله أسماء أصحاب الشيخ وأعوانه ومحبيه وأعدائه والمعترضين له ... : لأبي حفص بن علي البزار ، تحقيق :

صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ .

٢٢- **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام** :لعمر رضا كحاله، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، طبعة عام ١٩٥٩م .

٢٣ - **أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته** :لأسعد الجيلاني ، طبعة المنصورة ، بلاهور عام ١٩٨٣م .

٢٤- **اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم** : لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق : محمد حامد الفقي، مطابع السنة المحمدية، الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ.

٢٥ - **الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل** تأليف : محمد السّيد الجليند :

أ- منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .

ب - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٢٦ - **الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل الأصولي الفقهي** : لأبي محمد يوسف بن عبدالرحمن بن الجوزي الحنبلي ، تحقيق وتعليق الدكتور : فهد بن محمد السدحان ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

٢٧ - **الإيمان** :لشيخ الإسلام ابن تيمية ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٢٨ - **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام** : للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، دار النهضة العربية - بيروت .

- ب -

٢٩ - **باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي** تأليف : محمد خليل هراس، مكتبة الصحابة ، طنطا ، الطبعة الثامنة ١٤٠٥هـ .

٣٠ - **بدائع الزهور في وقائع الدهور** : ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي، طبعة مطابع الشعب ، عام ١٩٦٠م .

٣١ - **البداية والنهاية في التاريخ** للإمام: أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر ابن كثير ، مطبعة المتوسط ، بيروت ، لبنان .

٣٢ - **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد والقائلين بالحلول والاتحاد** : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور : موسى ابن سليمان الدويش ، مكتبة دار العلوم ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٣٣ - **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** : لجلال الدين السيوطي عبد الرحمن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

- ت -

٣٤ - **تاج العروس** : لمرتضى الزبيدي أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني ، دار البيان للنشر والتوزيع ، بنغازي ، ليبيا .

٣٥ - **تاريخ الإسلام في الهند** للدكتور : عبد المنعم النمر ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ

٣٦ - **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** : للحافظ أحمد بن علي بن ثابت ، الشهير بالخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

٣٧ - **تاريخ مختصر الدول** : لابن العبري ، طبعة بيروت عام ١٩٥٨م .

٣٨ - **التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين** : لشهفور ابن طاهر بن محمد الإسفرائيني ، تخريج وتعليق : محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مطبعة الأنوار ، الطبعة الأولى عام ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م .

٣٩ - **تبيين كذب المفتري فيما ينسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري** : ابن عساكر ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، طبعة عام ١٣٩٩هـ .

٤٠ - **تتمة المختصر في أخبار البشر** : عمر بن مظفر ، المعروف بابن الوردي ، طبع في القاهرة عام ١٣٨٥هـ .

٤١ – **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف** : للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي ، مع النكت الظراف على الأطراف : لابن حجر العسقلاني ، تحقيق : عبد الصمد شرف الدين . إشراف : زهير الشاويش :

أ – المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

ب – الدار القيمية .

ج – بهيوندى ، بمباي ، الهند .

٤٢ – **التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية** ، تحقيق : محمد بن عودة السعوي، طباعة شركة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

٤٣ – **تذكرة الحفاظ** للذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد ، دار إحياء التراث العربي .

٤٤ – **التعريفات** : للجرجاني ، تحقيق وتعليق الدكتور : عبد الرحمن عميرة ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧هـ .

٤٥ – **تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث** كلاهما من وضع : أحمد مكي ،جمعية النشر والتأليف الأزهرية ، مصر، الطبعة الأولى عام ١٣٥٣هـ – ١٩٣٥م .

٤٦ – **تفسير التحرير والتنوير** للإمام الشيخ : محمد الطاهر ابن عاشور :

أ – الدار التونسية للنشر .

ب – والدار الجماهيرية – ليبيا – للنشر والتوزيع .

٤٧ – **تفسير غريب القرآن** : لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه، طبعة عام ١٣٧٨هـ – ١٩٥٨م .

٤٨ – **تفسير القرآن العظيم** للإمام: أبي الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر ابن كثير ، تحقيق : عبد العزيز غنيم ، محمد عاشور ، محمد البنا ، القاهرة ، دار الشعب .

٤٩ – **التفسير الكبير** : للإمام ابن تيمية ، تحيق وتعليق : عبد الرحمن عميرة، دار

الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٥٠ - **تفسير المنار** : السيد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية .

٥١ - **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع** : لأبي الحسين محمد أحمد بن عبد الرحمن الملطي ، تقديم وتعليق الشيخ : محمد زاهد بن الحسن الكوثري :

أ - مكتبة المثنى ، بغداد .

ب - ومكتبة المعارف ، بيروت ، طبع عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

٥٢ - **تهافت الفلاسفة** لحجة الإسلام : أبي حامد الغزالي ، تحقيق وتقديم : سليمان دنيا ، دار المعارف ، الطبعة السادسة .

٥٣ - **تهذيب التهذيب** لابن حجر العسقلاني ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة المحققة والمصححة .

- ج -

٥٤ - **الجامع لأحكام القرآن** للإمام : أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، مصورة عن طبعة دار الكتب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر عام ١٣٨٧هـ .

٥٥ - **الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية** مؤلفه : أبو سعيد حامد غنيم، مكتبة الشباب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م .

٥٦ - **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين** للسيد : نعمان خير الدين الشهير بابن الآلوسي البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٥٧ - **جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق : ما أخبر به الرحمن من أن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن** : تقي الدين أحمد بن تيمية ، تحقيق ودراسة لنيل درجة الماجستير ، إعداد : سليمان عبد الله الغصن . العام الجامعي ١٤٠٧هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية أصول الدين ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة .

٥٨ - **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** لشيخ الإسلام : ابن تيمية ، مطابع المجد التجارية .

- ح -

٥٩ - **حاضر العالم الإسلامي** تأليف : لوتروب ستودارد الامريكي ، نقله إلى العربية الاستاذ: عجاج نويهض . وفيه فصول وتعليقات وهوامش : لأمير البيان شكيب أرسلان دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ .

٦٠ - **حسن المحاضرة** :للسيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٨هـ .

٦١ - **حضارة العرب** :لغوستاف لوبون ، نقله إلى العربية : عادل زعتر ، دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٥م .

٦٢ - **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** : لأبي نعيم الأصبهاني : أحمد بن عبد الله، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان ، الطبعة الثانية عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

- خ -

٦٣ - **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة** تأليف: علي مبارك، دار الكتب المصرية القاهرة .

٦٤ - **خطط الشام** :للمقريزي ، المطبعة الحديثة ، دمشق عام ١٣٤٣هـ .

٦٥ - **الخطط المقريزية** . وهي المسماة « بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » للشيخ : تقي الدين أحمد بن علي المشهور بالمقريزي ، مطبعة النيل ، الطبعة الأولى عام ١٣٢٦هـ .

- د -

٦٦ - **الدارس في تاريخ المدارس** تأليف : عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي ،

تحقيق : جعفر الحسني ، مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٨م .

٦٧ - **درء تعارض العقل والنقل** لشيخ الإسلام : ابن تيمية ، تحقيق الدكتور : محمد رشاد سالم ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الرسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ . وقد رمزت له في الحاشية بـ (الدرء) .

٨٧ - **دراسات في فكر ابن تيمية** للدكتور : عبد اللطيف محمد العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٦٩ - **درة الحجال في أسماء الرّجال « ذيل وفيات الأعيان »** : لأحمد ابن محمد المكناسي ، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور ، المكتبة العتيقة ، دار التراث الطبعة الأولى عام ١٣٨٤هـ .

٧٠ - **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** : لابن حجر العسقلاني :

أ - مطبعة المدني ، القاهرة سنة ١٣٧٨هـ .

ب - طبعة دار الجبل ، بيروت .

٧١ - **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين** تأليف الشيخ : محمد الغزالي ، دار القلم ، الكويت ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٣م .

٧٢ - **دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تاريخها مبادئها أثرها** : محمد عبد الله السلمان ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ .

٧٣ - **دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية**، تحقيق الدكتور : محمد السيد الجليند ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ .

٧٤ - **ديوان معروف الرصافي** :لمعروف الرصافي ، دار العودة، بيروت لبنان ، طبعة عام ١٩٧٢م .

- ذ -

٧٥ - **الذيل على طبقات الحنابلة** : لابن رجب الحنبلي :

أ - مطبعة السنة المحمدية طبعة عام ١٣٧٢هـ .

ب- وطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

- ر -

٧٦ - **رحلة ابن بطوطة** :ابن بطوطة شرف الدين محمد بن عبد الله ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة .

٧٧ - **الرد على المنطقيين** لشيخ الإسلام ابن تيمية ، إدارة ترجمان السنة ، ٧ أيبك رود ، لاهور ، باكستان ، طبعة عام ١٣٩٦هـ .

٧٨ - **الرد الوافر** : لابن ناصر الدمشقي ، تحقيق : زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٣٩٣هـ .

٧٩ - **رسالة في الرد على الرافضة** : لأبي حامد المقدسي ، تحقيق : عبد الوهاب خليل الرحمن، الدار السلفية ، الهند ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

٨٠ - **الرسالة الرشيدية** للشيخ عبد الرشيد الجونغوري الهندي على الرسالة الشريفية في آداب البحث والمناظرة : للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق وشرح : على مصطفى الغزالي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، ميدان الأزهر .

٨١ - **الرسالة القبرصية** ، خطاب من شيخ الإسلام إلى سرجواس ملك قبرص ، تعليق : علاء الدين دمج ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٨٢ - **الرسالة المدنية** لشيخ الإسلام : ابن تيمية ، تحقيق : الوليد بن عبد الرحمن الفريان ، مطابع دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٨٣ - **رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب** تأليف : محمد عبد الله السلمان ، مكتبة العلا ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .

- ز -

٨٤ - **زعماء الإصلاح في العصر الحديث** :لأحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية

سنة ١٩٦٥م .

- س -

٨٥ - **السلوك** : للمقريزي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، طبع عام ١٣٥٥هـ .

٨٦ - **سنن أبي داود**: للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني . ومعه كتاب معالم السنن : للخطابي . وهو شرح عليه ، إعداد وتعليق : عزت عبيد الدّعاس ، وعادل السّيد ، دار الحديث ، حمص ، سورية ، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٨٧ - **سنن الترمزي** : للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمزي ، أشرف على طباعته وراجع أصوله وصححه : عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر ، الطبعة الثالثة عام ١٣٩٨ هـ .

٨٨ - **سنن ابن ماجه** : للحافظ أبي عبد الله بن يزيد القزويني ، تحقيق وترقيم وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

٨٩ - **سنن النسائي** : بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ، وحاشية الإمام السندي، صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقرئت في المرة الأخيرة على الشيخ الكبير : حسن محمد المسعودي ، المدرس بالقسم العالي بالأزهر .

٩٠ - **سير أعلام النبلاء** : لشمس الدين أحمد محمد الذهبي ،تحقيق وتخريج : مجموعة من العلماء ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ .

٩١ - **السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية** للدكتور : عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي ، إدارة البحوث العلمية بالجامعة السلفية ، بنارس ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

٩٢ - **السيف الثقيل في الرد على ابن زفيل** : لمحمد زاهد بن الحسن الكوثري، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ .

- ش -

٩٣ - **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** تأليف : محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ .

٩٤ - **شرح المقاصد في علم الكلام** :لسعد الدين مسعود التفتازاني ، دار المعارف النعمانية ، لاهور ، باكستان ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ .

٩٥ - **كتاب « الشفاء »** ابن سينا ، مراجعة وتقديم الدكتور : إبراهيم مدكور . تحقيق وتقديم الدكتور : أحمد فؤاد الأهواني ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، طبعة عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

٩٦ - **الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية** تأليف : مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي تحقيق وتعليق : نجم عبد الرحمن خلف ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٥هـ .

٩٧ - **شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين ، نصوص مخطوطة ومطبوعة**،جمعها وقدم لها الدكتور : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٦م .

٩٨ - **الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية** للشيخ : أحمد آل بوطامي ، قدم له وصححه الشيخ : عبد العزيز بن باز ، مطبعة الحكومة ، مكة المكرمة ١٣٩٥هـ .

- ص -

٩٩ - **الصارم المسلول على شاتم الرسول**لشيخ الإسلام : ابن تيمية ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ١٩٧٥م .

١٠٠ - **الصارم المنكي في الرد على السبكي** للإمام : أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن عبد الهادي ، قابله وصححه وعلق عليه الشيخ : إسماعيل محمد

الأنصاري ، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض المملكة العربية السعودية .

١٠١ - **الصحاح** : للجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ .

١٠٢ - **صحيح مسلم** للإمام : أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تصحيح وترقيم وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١٠٣ - **الصفديه** : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور : محمد رشاد سالم، مطابع حنيفة ، الرياض ، طبعة عام ١٣٩٦هـ .

١٠٤- **صفعات البرهان** :لمحمد زاهد الحسن الكوثري ، مطبعة الترقي ، دمشق سنة ١٣٤٨هـ .

١٠٥ - كتاب « **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** » تأليف العلامة : أبو عبد الله ، تحقيق وتعليق الدكتور : علي بن محمد الدخيل الله ، دار العاصمة ، الرياض ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٨هـ .

١٠٦ - **صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام** : لجلال الدين السيوطي ، ويليه مختصر السيوطي لكتاب : نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان : لابن تيمية ، نشر وتعليق : علي سامي النشار ، مكتبة الخانجي ، مصر ، الطبعة الأولى .

- ض -

١٠٧- **ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)** : السيوطي جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

١٠٨ - **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة** ، تأليف : عبد الرحمن حسن

حبنكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، طبعة ثانيه منقحة ومزيدة .

- ط -

١٠٩ - **طبقات الحنابلة** :لابن رجب ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

١١٠ - **طبقات الشافعية الكبري** :لتاج الدين السبكي ، المطبعة الحسينية ، القاهرة، الطبعة الأولى .

١١١ - **الطبقات الكبرى** :لابن سعد ، دار صادر ، بيروت .

١١٢ - **طبقات المعتزلة** : لابن المرتضي ، تحقيق وتعليق الدكتور : علي سامي النشار، دار المطبوعات الجامعية عام ١٩٧٢م .

- ع -

١١٣ - **العباب الزاخر واللباب الفاخر** :للحسن بن محمد الصغاني ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد ، بغداد ، طبعة عام ١٩٧٧ - ١٩٨١ م .

١١٤ - **العبر في خبر من غبر** ، للإمام : الذهبي شمس الدين أبو عبد الله بن محمد أحمد ، تحقيق الدكتور : صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت عام ١٣٨٦هـ .

١١٥ - **العصر المماليكي**للدكتور : سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٦م .

١١٦ - **العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية** : لأبي عبد الله ابن أحمد بن عبد الهادي ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

١١٧ - **العقود** :لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، دار السنة المحمدية للطباعة ، مصر الجديدة .

١١٨ - **عقيدة ابن تيمية الحنبلي** : للأستاذ محمد أحمد الهبراوي ، تحقيق العقيدة السلفية ودراسة للمنهج السلفي والتيمي بقلم : محمد فريجة . منشورات دار الحكمة ، دمشق ، بيروت .

- ف -

١١٩ - **الفائق في غريب الحديث** : لجار الله محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثانية .

١٢٠ - **فتح الباري بشرح صحيح الإمام : أبي عبد الله محمد إبن إسماعيل البخاري** للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تصحيح وإشراف ومقابلة الشيخ : عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، ترقيم : محمد فؤاد عبدالباقي ، قام بإخراجه والإشراف على طباعته محب الدين الخطيب :

أ - المطبعة السلفية ومكتبتها ٢١ شارع الفتح الروضة .

ب - دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

١٢١ - **الفتوى الحموية الكبرى** : لشيخ الإسلام ابن تيمية:

أ - تصحيح : محمد عبد الرزاق حمزة ، المطبعة السلفية ، مكة المكرمة ١٣٥١هـ.

ب - طبعة بيروت بتحقيق : ريتشارد مكارثي .

١٢٢ - **الفخري في الآداب السلطانية** : ابن الطقطقي فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٦هـ .

١٢٣ - **الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم** تأليف : عبد القاهر بن طاهر البغدادي :

أ - منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ، طبعة الثالثة ١٩٧٨م .

ب - طبعة صبيح بتحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .

١٢٤ - **الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة** : لعلي المغربي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧هـ .

١٢٥ - **الفصل في الملل والأهواء والنحل** : لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري :

أ - المطبعة الأدبية ، القاهرة سنة ١٣٥٣هـ .

ب - شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م بتحقيق الدكتور : محمد إبراهيم نصر ، والدكتور : عبد الرحمن عميره .

١٢٦ - **فضائح الباطنية** : للإمام الغزالي ، تحقيق وتقديم : عبدالرحمن بدوي:

أ - الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، طبعة عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .

ب - مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت .

١٢٧ - **الفكر التربوي عند ابن تيمية** للدكتور : ماجد عرسان الكيلاني مكتبة الكتاب الحديث ، عمان ، الأردن ، عام ١٤٠٥هـ .

١٢٨ - **فوات الوفيات والذيل عليها** تأليف : محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور : إحسان عباس ، دار صادر بيروت - لبنان .

- ق -

١٢٩ - **القاموس المحيط** :للفيروز آبادي ، دار الجيل - بيروت .

١٣٠ - **قواعد المنهج السلفي : بحوث في العقيدة الإسلامية** للدكتور : مصطفى حلمي ،دار الدعوة - للطبع والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

١٣١ - **القواعد النورانية الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية** ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ، طعبة عام ١٣٩٩هـ .

١٣٢ - **ابن قيم الجوزية حياته وآثاره** للشيخ : بكر بن عبدالله أبو زيد :

أ - المكتب الإسلامي ، بيروت .

ب – مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٣هـ .

١٣٣ – **ابن قيم الجوزية : عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف** للدكتور: عبدالعظيم عبد السلام شرف الدين ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م دار القلم ، الكويت .

– ك –

١٣٤ – **الكافية في الجدل** : للإمام الجويني إمام الحرمين ، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتورة : فوقية حسين محمود ، طبع بمطابع عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .

١٣٥ – **كتاب الكليات** :لأبي البقاء العكبري ، طبعة بولاق بالقاهرة عام ١٣٨١هـ .

١٣٦ – **الكامل في التاريخ** : لعز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري الشهير بابن الأثير :

أ – طبع في مصر عام ١٣٠٣هـ .

ب – دار صادر بيروت ، دار بيروت ، طبعة عام ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م .

١٣٧ – **الكامل في ضعفاء الرجال** : أبو أحمد عبدالله بن عدي بن عبدالله ، تحقيق لجنة من المختصين ، دار الفكر ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٥هـ .

١٣٨ – **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** : لعلي المتقي بن حسام الدين الهنديّ، منشورات مكتبة التراث الإسلامية ، حلب ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م – ١٣٩٤هـ .

– ل –

١٣٩ – **لسان العرب** ،لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور ، طبعة دار صادر ، بيروت .

١٤٠ – **لسان الميزان** لابن حجر العسقلاني ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

١٤١ – لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ، عمر عودة الخطيب ، مطبعة دار القلم ، دمشق ، طبعة عام ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

– م –

١٤٢ – **مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب** ، تصنيف وإعداد الشيخ : عبدالعزيز بن زيد الرومي ، والدكتور : محمد بلتاجي ، والدكتور : سيد حجاب ، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

١٤٣ – **المجددون في الإسلام من القرن الأول الهجري إلى الرابع عشر** ، عبدالمتعال الصعيدي ، نشر مكتبة الآداب ومطبعتها بمصر ، دار الحمامي للطباعة ، طبعة عام ١٩٦٢م .

١٤٤ – **مجمع الزوائد** : نور الدين أبو الحسن بن أبي بكر ، وابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي ، والعراقي أبو الفضل عبدالرحيم بن حسين ، تصوير دار الكتاب العربي ، بيروت .

١٤٥ – **مجمع الرسائل والمسائل** ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

١٤٦ – **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** للحافظ نور الدين الهيثمي ، مؤسسة المعارف ، بيروت لبنان ، طبعة عام ١٤٠٦هـ .

١٤٧ – **مجموعة المسائل والرسائل النجدية** :حسين بن غنام ، مطبعة المنار بمصر، الطبعة الأولى عام ١٣٤٩هـ .

١٤٨ – **مجموعة الفتاوى** ، وهو خمسة وثلاثون مجلداً ، المجلدان (٣٦ ، ٣٧) فهارس، لشيخ الإسلام : ابن تيمية ، جمعه ورتبه الشيخ : عبدالرحمن بن محمد ابن قاسم العاصمي ، وساعده ابنه : محمد ، طبع بأمر صاحب السمو الملكي فهد ابن عبدالعزيز آل سعود ، تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

١٤٩ - **مختار الصحاح** :للرازي ، طبعة دار الفكر.

١٥٠ - **المدخل إلى علم الدعوة** :تأليف محمد أبو الفتح البيانوني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

١٥١ - **مذاهب الإسلاميين** : للدكتور عبدالرحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م .

١٥٢ - **المرأة المسلمة المعاصرة** : للدكتور أحمد بن محمد أبابطين ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ .

١٥٣ - **المدرسة السلفية وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام** للدكتور : محمد عبد الستار أحمد نصار، دار الأنصار ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .

١٥٤ - **مشارق الأنوار على صحاح الآثار** . للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، طبعة المطبعة المولوية بفاس العليا المحمية ، سنة ١٣٢٨هـ .

١٥٥ - **معجم الشيوخ للذهبي** ،تحقيق الدكتور : محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق ، الطائف ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٥٦ - **معاً على طريق الدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، والإمام الشهيد : حسن البنا** : لمحمد عبدالحليم محمود ، دار التوزيع الإسلامية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .

١٥٧ - **معجم البلدان** : ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله، دار صادر بيروت ، طبع عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

١٥٨ - **المعجم الفلسفي**، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م عالم الكتب ، بيروت .

١٥٩ - **المعجم الوسيط** تأليف : مجموعة من الأساتذة ، دار إحياء التراث ، الطبعة الثانية .

١٦٠ - **المعول في التاريخ** : لفؤاد عبدالمعطي الصيّاد، دار النهضة العربية ، بيروت ، طبع عام ١٩٨٠م .

١٦١ - **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين** : لأبي الحسن علي بن إسماعيل

الأشعري ، تحقيق : محيي الدين عبدالحميد ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، الطبعة الثانية عام ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

١٦٢ - **مقدمة ابن خلدون** ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .

١٦٣ - **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد** لابن مفلح برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ، تحقيق : عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ .

١٦٤ - **مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية** : لشيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية ، تقديم وتعليق : عبدالرحمن دمشقية ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

١٦٥ - **مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي** تأليف : الدكتور علي سامي النشار ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ - ١٩٦٧م .

١٦٦ - **مناهج الجدل في القرآن الكريم** للدكتور : زاهر عواض الألمعي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ، مطابع الفرزدق التجارية .

١٦٧ - **مناهج الدعوة وأساليبها** المستشار الدكتور : علي جريشة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ش . م . م المنصورة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

١٦٨ - **مناهل العرفان في علوم القرآن** تأليف : محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة دار الفكر .

١٦٩ - **منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري** ، للدكتور : محمد حسني الزين، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .

١٧٠ - **منهاج السنة النبوية** ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور: محمد رشاد سالم، دار الكتاب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ .

١٧١ - **منهاج السنة النبوية** ، نسخة غير محققة في أربعة أجزاء وثلاثة مجلدات وبهامشها كتاب موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لشيخ الإسلام : ابن

تيمية،مكتبة الرياض الحديثة بالرياض المملكة العربية السعودية ، مكتبة الجمهورية ، القاهرة الأزهر .

۱۷۲ - **منهج الدعوة إلى الله:** للأمين أحسن إصلاحي ، تعريب : سعيد الأعظمي الندوي ، أنور عالم الندوي .

۱۷۳ - **منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين** ، تأليف الدكتور : مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ، الإسكندرية.

١٧٤ - **المهذب في اختصار السنن « السنن الكبرى »** : لأبي بكر أحمد ابن الحسين بن علي البيهقي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٤هـ ، وتصوير دار المعرفة ، بيروت .

١٧٥ - **موارد الظمآن** : لأبي حاتم محمد بن حبان ، تحقيق ونشر : محمد عبدالرزاق حمزة:

أ - دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ب - المطبعة السلفية .

١٧٦ - **موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول** .لشيخ الإسلام ابن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

۱۷۷ - **موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه** ،للشيخ أبي الأعلى المودودي، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

۱۷۸ - **موقف ابن تيمية من الأشاعرة** ، الدكتور : عبدالرحمن بن صالح المحمود، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية أصول الدين - قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، عام ١٤٠٨هـ .

۱۷۹ - **موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي** ، للشيخ محمد إسماعيل السلفي، تعريب : صلاح الدين مقبول أحمد ، الطبعة السلفية بالكويت .

۱۸۰ - **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** ، للإمام شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م .

- ن -

١٨١ - **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** : لأبي المحاسن ابن تغري بردي :
أ- الناشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة .
ب - وأيضاً طبعة مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الأول عام ١٣٥١هـ .

١٨٢ - **نصب الراية لأحاديث الهداية** ، للإمام جمال الدين أبي محمد عبدالله ابن يوسف الحنفي الزيلعي ، المجلس العلمي ، الطبعة الثانية .

١٨٣ - **نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع** ،المستشرق : هنري لاووست ، ترجمة : محمد عبدالعظيم علي ، تقديم وتعليق الدكتور : مصطفى حلمي ، دار الأنصار ، عابدين ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ .

١٨٤ - **نقض المنطق** لشيخ : الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الشيخ : محمد بن عبدالعرزاق حمزة ، والشيخ : سليمان بن عبدالرحمن الصنيع ، تصحيح : محمد حامد ، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة .

١٨٥ - **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد الجزري ابن الأثير ، تحقيق : طاهر أحمد الزواي ، ومحمود محمد الطناحي المكتبة العلمية ، بيروت .

١٨٦ - **نونية ابن القيم** :شرح ابن عيسى، المكتب الإسلامي ، دمشق ، عام ١٣٨٢هـ .

- هـ -

١٨٧ - **الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية** ، للشيخ سليمان بن سحمان ، تعليق : السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤هـ.

١٨٨ - **هكذا علمني الإخوان المسلمين** ، للأستاذ : عمر التلمساني .

- و -

١٨٩ - **الوفيات** ، لأبي المعالي محمد بن رافع السلامي ، تحقيق : صالح عباس ،

وبشار معروف ، مؤسسة الرسالة ، طبعة عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

١٩٠ - **وفيات الأعيان** : لابن خلكان ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد :

أ- مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ .

ب - دار صادر، بيروت ، بتحقيق : إحسان عباس .

١٩١ - **الوهابيون والحجاز** :للسيد رشيد رضا ، مطبعة المنار ، القاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٤هـ .

الدوريات

١٩٢ - جريدة الشهاب ، تصدر في مصر.

١٩٣ - مجلة المنار، تصدر في مصر يحررها السيد رشيد رضا .

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني
أصول منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع
آثار منهج ابن تيمية

الموضوع **الصفحة**

** صـدر عـن **

مركـز الدراسـات والإعـلام

دار إشبيليا

١ ـ الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي البناء

تحقيق د . عبد الرحمن بن صالح الأطرم (مجلدان) .

٢ ـ الوساطة التجارية في المعاملات المالية

تأليف د . عبد الرحمن بن صالح الأطرم (مجلد واحد) .

٣ ـ أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة

تأليف د . حمد بن ناصر العمار (مجلد واحد) .

٤ ـ مجالس شهر رمضان ،لفضيلة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين .

٥ ـ الدروس المهمة لعامة الأمة لسماحة الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

٦ ـ مجموعة مناهج دورات العلوم الشرعية في : **العقيدة ـ التفسير ـ الحديث ـ الفقه ـ السيرة ـ الدعوة ـ اللغة العربية.**

٧ ـ النظرية السياسية عند ابن تيمية

تأليف د . حسن كونكاتا (مجلد واحد) .

** تحت الطبع **

١ ـ ركائز الإيمان

تأليف أ. محمد قطب (مجلد واحد) .

٢ ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة

تأليف د . أكرم ضياء العمري .

٣ ـ موقف الاستشراق من السيرة والسنة النبوية

تأليف د . أكرم ضياء العمري .

٤ ـ الثقافة الإسلامية والقراءة المبرمجة

تأليف د . أكرم ضياء العمري .

٥ ـ منهج النقد عند المحدثين مقارنا بالمنهج الغربي

تأليف د . أكرم ضياء العمري .

٦ ـ التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام

تأليف د . أكرم ضياء العمري .

٧ ـ تهذيب كتاب معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله . اختصار سعد القحطاني .

ردمك ٥ ـ ٧ ـ ٩١٠٠ ـ ٩٩٦٠